رجال الفكر والدعوة في الإسلام

تأليف

أبو الحسن علي الحسني الندوي

الجزء الأول

عمر بن عبد العزيز | الحسن البصري وخلفاؤه

الإمام أحمد بن حنبل | حجة الإسلام الغزالي

الإمام عبد القادر الجيلاني

تحقيق

مصطفى أبو سليمان الندوي

الناشر

مكتبة نزار مصطفى الباز

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

مكتبة

نزار مصطفى الباز
المملكة العربية السعودية
مكة المكرمة: الشامية - المكتبة ت ٥٧٤٩٠٢٢ / ٥٧٤٥٠٤٤
المستودع: ٥٣٧٢٣٧٤ ص.ب: ٣٠١٩
الرياض: شارع السويدي العام المتقاطع مع شارع
كعب بن زهير - خلف أسواق الراجحي ص.ب: ٦٦٩٣٠
المكتبة: ٤٢٤٠٣٥٣ المستودع: ٤٢١٩١١ الرمز البريدي: ١١٥٨٦

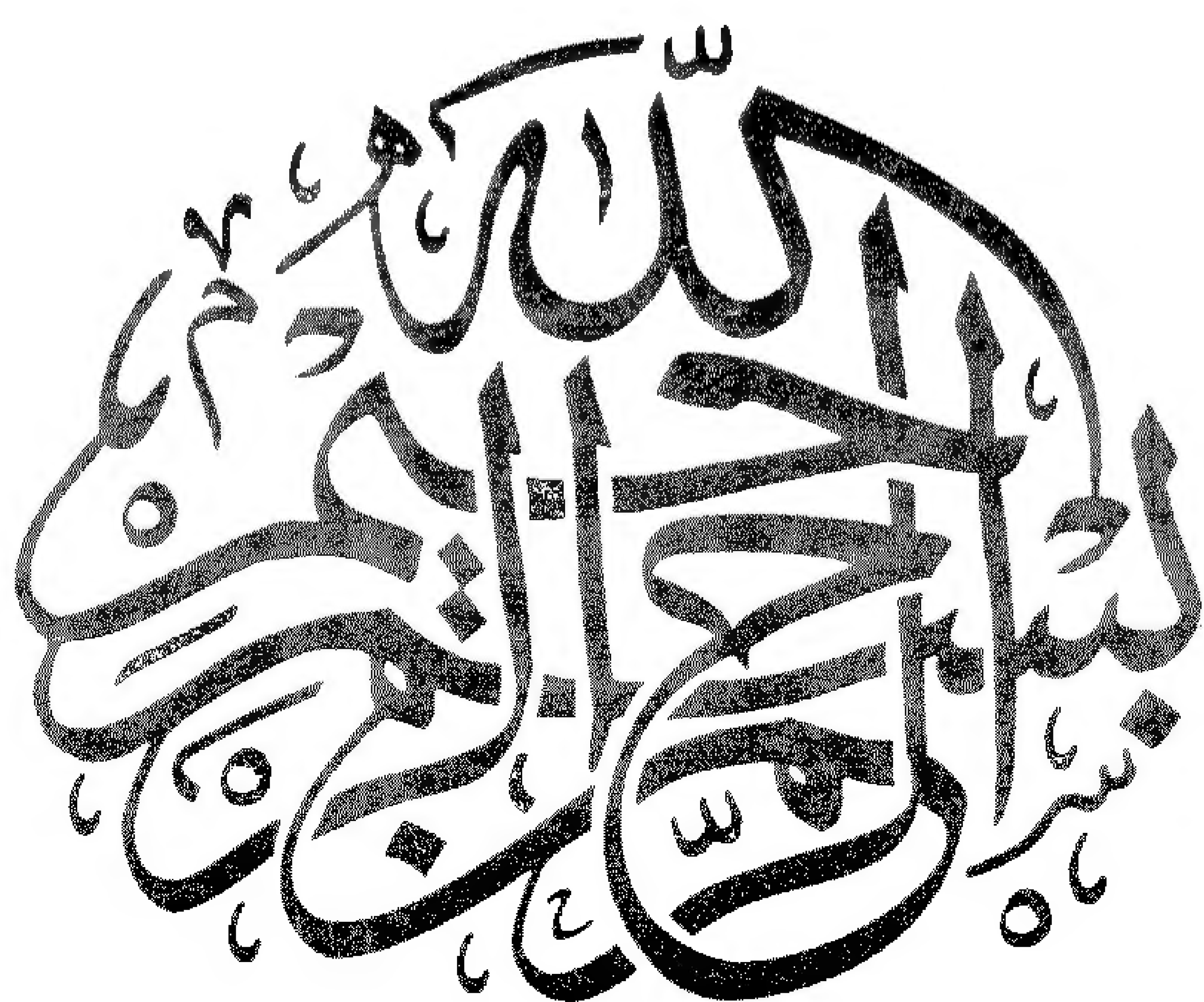
كلمة الناشر

«رجاء»

غفر الإله ذنوب هذا الناشر
وذنوب والديه معاً في الناظر

غفر الله ذنوبه وستر عيوبه ووالديه والمسلمين
أجمعين ومن دعا له بخير

راجي عفو ربه
نزار مصطفى الباز


بسم الله الرحمن الرحيم

كليمة كتقدمة

بقلم ا . د : مصطفي أبو سليمان الندوي

تلميذ المؤلف

الحمد لله والصلاة والسلام على رسـول الله وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه . . . وبعد فالحق أننى ترددت كثيرا فى كتابة هذه الكليمة كـمقدمة لهذا الكتاب القيم لكننى سرعان ما أفقت منتبـها إلى ارشاد بعض أساتذتى الكرام من أنه إذا كان المؤلف يحتـاج إلى من يعرفه ويعرف كتابه للناس فإن المؤلف أحيانا وكتـابه يكونان سببا للتعريف بمقدم الكتاب ، ومكانة المؤلف المرمـوقـة عند أهل العلم والدعـوة والاصلاح فى زمـاننا تشـرف وتنفع فى الدنيـا والآخرة كل من يذكره مخبرا عن مؤلفاته وجهوده.

فالمؤلف حفظه الله تعالى بفضل الله وتوفيـقه هو من هو ولا يحتاج إلى أو عشرات من أمثالى لبيان من هو ، وإنما نحن وأمثالنا نعـرف به ، ولهذا دائما نشرف بالانتساب اليه بعد انتسابنا إلى ديننا وإسلامنا .

وقد كنت أجد فى نفـسى أملاً يشغلنى كثـيرا ألا وهو كيفيـة نشر كتب سماحـة شيخى وأستاذى العـلامة الندوى حفظه الله وبارك فى عـمره للاسلام والمسلمين خصـوصاً بعد أن سمح لى سمـاحته بنشرها فى بلادنا بلاد مصـر خاصة والعرب عامـة، وبلاد العرب يقينا أحوج مـا تكون خـصوصـاً فى هذه المرحلة التاريخـية الحـرجة للغـاية من مراحـل الأمة الاسلامية علـى وجه العموم والعربية على وجـه الخصوص ، فإن مؤلفات سمـاحة الشيخ الندوى فيها العلاج الناجح والدواء النافع لجميع أمراض الأمة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.

وأن الدعوة الاسـلاميـة كانت وما زالت فى حـاجة إلى المجـددين والمصلحين المتنورين الذين يعيدون لهذه الأمة الثقة الكاملة الصحيحة بصلاحية الاسلام فى ولكل زمان ومكان ، لأن الطبقة المثـقفة من المسلمين قد فقدت بفـعل وتأثير عوامل كثيرة الثـقة فى صلاح الدين لاصلاح شـئونهـا ، ولم يعد عند هذه الطبـقة المثقـفة التى تتـولى زمام الأمـور فى البلاد الاسلامية ثقة فى الاسلام ، وهى لهذا أبعدته عن جميع شئون حياتها .

ومؤلفات سمـاحة الشيخ الندوى فيها النضج العلمى الشرعـى والعمل والفكر الصحيح المتمثل فى حسن الاستنباط من الكتاب والسنة والسيرة الصحيحة والتاريخ والواقع ، والحل العلمى الحقيقى لكى تخرج الأمة من أزمتها وتفيق من ثباتها وتظهر فى المرآة حسناء الرداء، وفى الحقيقة أمام العالم أجمع بصورة الاسلام وجوهره وأصول الدين ومظهره .

وهذا الكتاب الثـانى الذى نقدمه فى سـلسلة المكتبة الندوية العـالمية هو صورة واضـحة

لأفكار سماحة أستاذنا الكبير وميوله الاصلاحيه ولفهمه العميق للتاريخ الاسلامى ولروح الاسلام الصافية المشرقة وما علق بها - في العصور الأخيرة - من غبار وما أصابها من انحراف ، وبذلك يسد هذا الكتاب ثغرة فى دراسة التاريخ الاسلامى كنا وما نزال نشعر بالحاجة اليها ، إذ يتحدث عن تاريخ الاصلاح فى حياة المسلمين السياسية والدينية والاجتماعية فى فترات من تاريخ الاسلام فى الماضى كما يعرض لنا صوراً واضحة لأبرز زعماء الاصلاح الاسلامى منذ العصر الأموى .

ومن توفيق الله تعالى أن يسر لنا الاتفاق مع السيد / نزار الباز المكى ليتولى طباعة هذا الكتاب والمؤلف فى أربعة أجزاء كبيرة تعتبر موسوعة فى الدعوة والفكر الاسلامى والاصلاح الدينى ، نبدأ بالجزء الأول ثم تتوالى الأجزاء تباعا إن شاء الله ، وبما أن مكة المكرمة هى أم القرى ومركز الكرة الأرضية ووسط الدنيا فأن من هذه المكتبة المكية يخرج شعاع مؤلفات وأعمال سماحة الشيخ الندوى إلى جميع الدنيا بمدنها وقراها ، وحضارتها ومدنيتها ، وعلمائها وعوامها ، وكبارها وصغارها .

وان السيد / نزار المكى الناشر قد أخذ على عاتقه الاهتمام بانفاذ هذا العمل على أكمل وجه إن شاء الله ، ونحن بدورنا أخذنا على عاتقنا الاهتمام بالمراجعة والتحقيق للكتاب ومصادره ، والله العظيم نسأل أن ييسر لنا وللناشر إتمام هذه السلسلة المباركة طباعة ونشرا وأن يثلج صدر سماحة الشيخ بانتشار جهده التأليفى والدعوى فى جميع البلاد الاسلامية والعربية .

ولقد حوى هذا الكتاب ثروة عظيمة من التحليلات العلمية لحياة عدد من الشخصيات التى كان لها عظيم الأثر فى اثراء الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية فى القرون الثمانية الأولى ، وأبرز الجهود الاصلاحية فى كل حقبة تاريخية وابتدأ هذه السلسلة بعد مقدمة رائعة فى تصوير دقيق لحاجة الأمة إلى الاصلاح والتجديد، بعمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد الخامس باعتباره على رأس المائة الأولى وأوضح جهود الاصلاح والتجديد فى القرن الأول مع دراسة لحياة عمر بن عبد العزيز قبل وبعد الخلافة وبيان مدى عنايته بنشر الاسلام والدعوة اليه وأثر ذلك فى الاصلاح الاجتماعى والسياسى والدينى فى المجتمع وثنى بالحسن البصرى مركز أعلى الجهود الاصلاحية فى القرن الثانى الهجرى وشمل تحقيقه هذا القرن بتعميم الجهود العلمية والدعوية فى الاصلاح وذلك لاقامة الحكم الصالح وتغيير الأوضاع فى المجتمع ككل . ثم أعقب ذلك بدراسة وافية لحياة الامام أحمد بن حنبل وجهوده فى حفظ السنة النبوية المشرقة ومحنته من أجل الحفاظ على العقيدة الاسلامية نقية طاهرة من كل الشوائب والرد على كل المبتدعة والمتكلمة وأثر ذلك فى حفظ المجتمع المسلم والعقيدة والعبادة والسلوك ، ثم استكمل الطريق بشخصية فذة عبقرية هى شخصية أبى

الحسن الأشعرى وناقش بجدارة وثقة القضايا التى كانت معروضة فى ذلك الوقت وبين مدى ضرورة وجود شخصية عظيمة فى كل قرن لتحفظ على الأمة دينها وعقيدتها . ، ثم عرج على القرن الخامس الهجرى ودرس حياة الامام الغزالى وجهوده الاصلاحية ومؤلفاته وفضله فى تغيير الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية وكذا جهوده التربوية والتعليمية ونصائحه للأمراء والملوك وأثر ذلك فى الاصلاح والتغيير . ، ثم مضى أستاذنا إلى القرن السادس فاختار شخصية عبد القادر الجيلانى وفصل جهوده الدعوية والاصلاحية ولم يفت سماحته أن يذكر ما تعرضت له الأمة الاسلامية فى هذا القرن من فتن عظيمة كادت أن تضيع الأمة وتستأصل شأفتها وذكر جهود الدعاة والمصلحين فى كيفية ايقاظ همم المسلمين وردهم إلى الاسلام ردا جميلا بل فى اظهار معجزة الاسلام فى اسلام التتار وقبولهم للدين الذى حاربوا أهله ردحاً من الزمن ، ومضى قدمًا بفيض روحى ربانى فدبج ببراعة ترجمة عظيمة لحياة الشيخ جلال الدين الرومى وجهوده التربوية الفائقة فى الاصلاح والتجديد وعلاج أمراض القلوب وتحرير النفس البشرية من الوثنية والتفريق بين الرهبنة والجهاد ، ودعوة الشيخ الرومى إلى الحب وبيان كرامة الانسان وقدره وشرفه بين جميع المخلوقات . وهكذا ختم سماحة الشيخ الجزء الأول ، ثم خصص الجزء الثانى كاملاً للتشريح الدقيق والتفهم العميق والتحقيق الرشيق والتوثيق الرقيق لحياة شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية رحمه الله ، فجاء هذا البحث متميزًا عن جميع المؤلفات التى سطرت حياة ابن تيمية خصوصًا فى بيان الجونب الروحية والمناقشات المتعمقة للقضايا التى تنازع فيها الأقوام بخصوص ابن تيمية وتلامذته .

كل هذا وأكثر منه قد أفاض فيه قلم سماحة أستاذنا مستمداً كل ذلك من القرآن والسنة والسيرة المشرفة والتاريخ الاسلامى العظيم الذى سيظل علامة مجد وفخار على عظمة هذه الأمة وحضارتها النابعة من عظمة الاسلام فى كل زمان ومكان .

وأننى أهيب بكل المثقفين والمفكرين خصوصاً وعامة المسلمين أن يتصفحوا هذا الجهد المبارك حتى يستعيدوا الثقة بدينهم ويطمئنوا إلى أن هذا الدين فيه كل الفلاح والنجاح فى الدنيا والآخرة ، ولله الحمد والمنة وصلى الله على خير خلقه سيدنا ومولانا محمد .

وكتبه

مصطفى أبو سليمان الندوى

المنصورة فى ١٢ من جمادى الأولى ١٤١٦هـ

١٨ من أكتوبر ١٩٩٥ م

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

أما بعد ! فقد ظهرت الطبعة الثانية لكتاب « رجال الفكر والدعوة » فى سنة ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) وجدت للمؤلف دراسات وتأملات ، ألحقها بالطبعة الأردية، وحالت الشواغل ، ومؤلفات اشتغل بها المؤلف فى هذه الفترة عن العناية بهذا الكتاب ، وتجهيزه للطبعة الجديدة ، رغم الحاح بعض دور النشر على ذلك ، وشعور المؤلف بفراغ واقع فى المكتبة الاسلامية الحديثة ، بنفاذ الطبعة الثانية من زمان ، وحاجة الشباب الاسلامى إلى مثل هذه الكتب ، فى إيجاد الثقة بتاريخ الاصلاح والتجديد ، وبصلاحية الاسلام وتعاليمه فى انشاء المصلحين والدعاة وأصحاب الرسالة والابداع فى التفكير والانتاج ، وما يعتقده المؤلف - وكثير من رجال التربية والتعليم - أن خير وسيلة لاشعال المواهب ، واثارة الروح، وتقويم الاخلاق ، والعزم على مكافحة البيئة الموبؤة ، والمجتمع الفاسد ، والتسامى لمعالى الأمور ، هى سير عظماء الرجال ، وزعماء الاصلاح والتجديد والربانيين والصديقين ، فحمله كل ذلك على اعادة النظر فى هذا الكتاب ، وتناوله بالزيادة والتنقيح وتقديمه للطبع والنشر فى أول فرصة .

وليست الزيادات كثيرة العدد ، ولكنها كبيرة القيمة ، وأهمها ما جاء تحت عنوان « غارة التتر على العالم الاسلامى وظهور معجزة الاسلام » وقد بحث فيه المؤلف لأول مرة فى أسباب هذه الكارثة الجذرية فى ضوء القرآن وقانون المجازاة الالهى ، وتجارب الأمم ، واستعرض واقع العالم الاسلامى فى فجر القرن السابع الهجرى ، وفى هذا الفصل درس للأجيال الاسلامية فى جميع العصور وخاصة فى العصر الذى وقعت فيه كارثة العالم العربى والاسلامى « كارثة ٥ حزيران ١٩٦٧ » ويليها فى الأهمية معلومات جديدة عن محاولات الاصلاح فى تاريخ الديانة الهندوكية والمسيحية ومصيرها فى مقدمة الكتاب ، وما عدا ذلك فزيادات مبعثرة فى ثنايا الكتاب ، وتصويبات لأخطاء مطبعية أكثرها فى السنين والتواريخ .

وأسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب ، ويحقق به آمال المؤلف ، ويسد به عوزا فى المكتبة الاسلامية وفى مناهج التربية والتعليم ، وأن يحمل هذا الكتاب الشباب على تقليد هؤلاء العظماء واقتفاء آثارهم وحبهم وتقديرهم ، وعلى الله قصد السبيل .

١٨ / ٥ / ١٣٨٩ هـ
٣ / ٨ / ١٩٦٩ م

أبو الحسن على الحسنى الندوى
ندوة العلماء - لكهنؤ

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ، فقد طلبت منى كلية الشريعة فى الجامعة السورية القاء محاضرات على طلابها فى موضوع دينى وعلمى وأجبت إلى رغبتها حرصا منى على التعاون مع أساتذتها فى خدمة هذه المؤسسة العلمية العظيمة الناشئة التى يرجى أن تقوم بدور مهم فى نشر العلوم الدينية وتكوين جيل علمى جديد فى هذا البلد ، واخترت موضوع الاصلاح والتجديد والتعريف بكبار رجال الدعوة والعزيمة والجهاد فى تاريخ الاسلام وقدمت إلى دمشق فى آخر شعبان سنة ١٣٧٥ هـ واستمررت فى القاء المحاضرات إلى ١٩ شوال ١٣٧٥ هـ الموافق ٣٠ آيار سنة ١٩٥٦ م وكانت فى كل يوم أربعاء محاضرة فى مدرج الجامعة الكبير ، وكانت ثمانى محاضرات وهى فى الأصل عشر محاضرات أدمجت بعضها فى بعض حرصا على توفير الوقت ، وأعدتها إلى أصلها - عشر محاضرات - عند نشرها ، ثم أضفت اليها خمس محاضرات عن الامام عبد القادر الجيلانى ومولانا جلال الدين الرومى .

لقد كان فى النية أن أختم السلسلة الأولى من هذه المحاضرات بمولانا جلال الدين الرومى وأبدأ الثانية بشيخ الاسلام ابن تيمية وأختمها برجال الاصلاح فى القرن الثالث عشر الهجرى ولكن وصولى بتأخير وضيق الوقت قد حالا دون ذلك فختمتها بحجة الاسلام الغزالى (١) .

وانى فى هذه المحاضرات لا أدعى علما غزيرا ولا اكتشافا جديدا ، كل ما حرصت عليه هو دراسة هذه الشخصيات من جميع نواحيها وابرازها والقول المتزن وأن لا أقول شيئا الا عن اعتقاد واقتناع مستندا إلى حقائق التاريخ وشهاداته غير مجازف فى القول ولا معتمدا على القياس والنزعة الفردية . ولم يكن شأنى فى ذلك شأن من يحدد غاية ثم يخضع التاريخ لها وما أهون ذلك على مؤلف قدير وكاتب لبق .

وفى الأخير أرى من واجبى أن أشكر الجامعة السورية وكلية الشريعة بصفة خاصة على أن اقتراحها للتحدث فى هذا الموضوع أثار فى نفسى رغبة دراسة هذا الموضوع فى نطاق

---

(١) استدرك المؤلف أثناء الطبع ، فأنهى السلسلة بمولانا جلال الدين الرومى كما كان نوى سابقا.

واسع واستعراض التــاريخ الاسلامى من هذه الناحية من جديد انتفعت بها شــخصيا وعلى أنها أتاحت لى فرصة التحدث إلى مجموعة طيبة من المثقفين .

وأوجه كلمة شكر وتحية بصفة أخص إلى صديقى الجليل الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى السباعى عميد كلية الشريعة على أن الحاحه لم يدع لى عذرا ، إو كان سببا فى تكوين هذه المحاضرات ، وأشكر زملاءه الفضلاء على عنايتهم بتنظيم هذه الحفلات الاسبوعية والدعوة اليها وبذل الوسع فى انجاحها .

وأشكر أخيـرا لا آخرا اساتذة الجـامعة وطلبـتها وعلمـاء دمشق والشبـاب المثقف على حرصهم على حضور هذه المحاضرات والتفرغ لـها وحسن استماعهم ، وقد كان لكل ذلك أطيب الأثر فى نفسى وكان مـشجعا كبـيرا على الاستمرار فى دراســة هذا الموضوع الخطير والبحث فيه ؛ وشهادة للذوق العلمى والروح العـلمية فى هذه البلد الاسلامى العربى أدعو الله أن ينفعنى والمســتمعين الكرام بكل مــا جاء فى هذه المحاضــرات من معان سامــية وأن يحرك فى النفوس رغبة الاصلاح والتجـديد على الاساس الاسلامى الصحيح وتلك رسالة هذه الشخصيات التى تحدثت عنها وذلك مــا يطلبه منا العصر الجديد ، والله الموفق للسداد والهادى إلى سبيل الرشاد .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

دمشق ٢٣ من ذى القعدة الحرام سنة ١٣٧٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

الحاجة إلي الاصلاح والتجديد والبعث الجديد

واتصالهما في تاريخ الاسلام

الحياة متحركة ومتطورة :

سادتي واخـواني : من الحقائق الأولية أن الحـياة متحـركة ومتطورة ، دائمة الشـباب، مستمرة النمو تنتقل من طور إلى طور ، ومن لون إلى لون ، لا تعرف الوقوف ولا الركود ولا تصاب بـالهرم والتـعطل ، فلا يسـايرها فى رحلتهـا الطويلة المتواصلة الا ديـن حافل بالحركة والنشاط ، لا يتخلف عن ركب الحياة ولا يعـجز عن مسايرته وزمالته ، ولا تقصر عنه خطواته ، ولا تنفذ حيويته ونشاطه .

وذلك شأن الاسلام ، فإنه - وإن كان مؤسسا على عـقائد ثابتة وحقائق خالدة - زاخر بالحيـاة . حافل بالنشاط ، له من الحيـوية معين لا ينضب ، ومادة لا تنفـذ ، صالح لكل زمان ومكان ، وعنده لكل طور جـديد من أطوار الحياة ولكل جديد من أجيـال البشرية ، ولكل عهد مستأنف من عهود التاريخ ولكل مجتـمع عصرى من مجتمعات البشرية مدد لا يقصر عن الحاجة ولا يتأخر عن الأوان .

أن الاسلام بخلاف مـا يعتقده كـثير من المسلمين وبعكس مـا يصوره أكثر المسـتشرقين والمؤرخين الغربيين - ليس حضارة عهد خاص ، ولا فن فترة من فترات التاريخ ، يمثله آثار ذلك العهـد ومبانيه ويعـيش فى الاحجار والرسوم والصـور لا فى واقع الحياة ، وقد فـقد صلاحيـته للحياة وأدى رسـالته ، كالذى نتحـدث عن الحضارة اليونانية والـرومية أو الفن التركى والمغولى .

أنه دين حى ورسالة خالدة ، إنه حى كالحـياة نفسها ، وخالد كخلود الحقـائق الطبيعية ونواميس الحـياة ، إنه تقدير الـعزيز العليم وصنع الله الذى أتقن كل شئ . وقـد ظهر فى شكله النهـائى وطوره الكامل وأعلن يوم عرفـة « اليوم أكمـلت لكم دينكم وأتممت عليكم

نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » فهو يجمع بين الكمال الذى لا انتظار بعده لدين آخر ولا حاجة معه إلى رسالة جديدة ، وبين الحيوية التى لا نفاذ لها والنشاط الذى لا آخر له ، ولذلك استطاع أن يساير الحياة ويراقبها فى وقت واحد ويتابعها فى صلاحها واستقامتها ، وينكر عليها فى انحرافها وزيغها ، فلا هو مساير مائع ككثير من الأديان المحرفة ، ولا هو مراقب جامد ككثير من الفلسفات النظرية ، وذلك مثل الدين الكامل ، ومثل الدين الحى للانسان الحى الذى يشعر بشعوره ، ويعترف بحاجاته ويرشده فى مشاكله ، ويعارضه فى اتجاهاته الفاسدة .

عهدُ الأمة الاسلامية أكثر العهود تقلبات ومشاكل :

ولما كان الدين الاسلامى هو الدين الأخير والدين العالمى ،ولما كانت الأمة الاسلامية هى الأمة الأخيرة التى اختيرت لتبليغ الرسالة السماوية إلى أهل الأرض « أنه لا نبى بعدى ولا أمة بعدكم » وكتب لها الخلود والانتشار فى الآفاق ، كان من الطبيعى أن تمر فى رحلتها الطويلة الواسعة بمراحل عصيبة ومواقف دقيقة لا عهد للتاريخ بها ، وتبتلى بعصور وأجيال لم تعرفها أمة قبلها . وأن تواجه صراعا فى ميدان العقول ، والعلم ، والحضارة والاجتمع والتشريع . لم تواجهها أمة فى التاريخ ، ولذلك نرى أن الفترة التى منحت هذه الأمة لتوجيه الأمم والوصاية على العالم هى أكثر الفترات التاريخية تقلبات وتطورات وأكثرها تنوعا واختلافا ، ينشأ فيها من المشاكل والمسائل الدقيقة ما لم يخطر من أمة على بال ولم يحلم به جيل من الأجيال ، ويمتحن الذكاء وقوة التشريع والثبات على المبدأ والمحافظة على الروح ، والصلاحية للحياة ، فالأمة التى تتغلب على هذه المشاكل كلها ، وتخرج من هذه المعارك ظافرة منتصرة . هى أمة جديرة بالحياة ، صالحة للقيادة ، ولا يمكن لقوة سياسية أو غارة خارجية أن تقضى على كيانها ، وتمحوها من الوجود .

كيف استطاعت الأمة أن تقاوم تغيرات الزمان والمكان :

ولكم أن تتساءلوا كيف استطاعت الأمة أن تقاوم المؤثرات الخارجية العنيفة والتقلبات التى لا تكاد تنتهى ، واختلاف الزمان والمكان ، وقد كان بعضه يكفى للقضاء على ديانة قوية قديمة أو تحريفها على الأقل كما وقع مرارا فى تاريخ الأديان؟

والجواب ، إنها استطاعت ذلك بقوتين : القوة الأولى ، هى الحيوية الكامنة فى وضع الاسلام نفسه وصلاحيته للحياة والارشاد فى كل بيئة وفى كل محيط وفى كل عهد من عهود التاريخ ، فقد خص الله محمدا ﷺ برسالة وتعاليم كاملة للانسان صالحة لكل زمان

ومكان ، تستطيع أن تواجه ما يتجدد من الشؤون وأطوار الحياة ، وتحل كل ما يعترى من المشكلات والمعضلات ، والدراسة العميقة الشاملة للقرآن الكريم والحديث النبوى الصحيح ومصادر الاسلام ، كافلة بالاقتناع بما أقول ، ولكنه موضوع الفقه الاسلامى والنظم الاسلامية . والقوة الثانية ، هو أن الله قد تكفل بأن يمنح هذه الأمة التى قضى ببقائها وخلودها رجالا أحياء أقوياء فى كل عصر ، ينقلون هذه التعاليم الاسلامية إلى الحياة ، ويعيدون إلى هذه الأمة الشباب والنشاط ، إن هذا الدين نفسه هو من أقوى العوامل فى وجود هؤلاء الأشخاص فى كل عصر ومصر ، لأنه يثير فى اتباعه ودارسيه كوامن القوة ، ويبعث فيهم الثورة والتمرد على الأوضاع الفاسدة ، والمجتمع الزائغ والأخلاق المنحلة والسياسة المستبدة ، والحكم الجائر ، والترف المسرف ، ويفرض عليهم إنكار المنكر وكلمة حق عند سلطان جائر، ويحرم عليهم الاستنامة إلى الأوضاع الفاسدة ، والرضا بالحياة الدنيا ، وبيع الضمائر ، ويهبهم كذلك الأصول والنصوص المتينة الحكيمة التى يحلون فى ضوئها المشاكل الطريفة والمسائل المعقدة لذلك نرى أن هذه الأمة لم تعدم فى عصر من عصورها مجددين فى الدين ، وأئمة فى العلم ، وعماليق فى الفكر و وأبطالا فى الجهاد ، وأعلاما فى الاصلاح . لا يوجد نظيرهم - لا فى الكمية ولا فى الكيفية- فى أمة من الأمم . ولم يكن ذلك من المصادفات والاتفاقات - وأنا لا أؤمن بالمصادفات فى صنع الله وسير الكون - إنما هو طبيعة هذا الدين وقدرته العجيبة على الانتاج والتوليد - وطبيعة هذه الأمة وصلاحيتها للبعث الجديد ، وإنما هو لطف الله بهذه الأمة بل بالانسانية ، إذ لو ضاعت هذه الأمة لضاعت أمانة السماء ولضاعت أمانة الانسانية - وإنما هى حراسته الكريمة وخفارته القوية لهذا الدين الذى فرض عليه أن يرافق الحياة إلى آخر مرحلة من مراحلها ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ .

هجمات على الاسلام :

وقد كان الاسلام من أول عهده هدفا لهجمات عنيفة وقاسية لا تحتملها ديانة من الديانات ، هجمات على قلبه وأعصابه لا تعرف الهوادة ولا الرفق ، ولا ترضى الا بالفناء، ان الديانات التى فتحت فى عصرها الدنيا وأخضعت الأمم والحضارات قد ذابت وتحللت أمام هجمات أضعف منها بكثير ، وفقدت شخصيتها وكيانها ، ولكن الاسلام بالعكس من ذلك رد هذه الهجمات كلها على أعقابها وكسرها ، وظل محافظا على قوته وشخصيته وعلى مزاياه وروحه .

قد كانت الباطنية بفروعها ومذاهبها المتنوعة خطرا على روح الاسلام النقية وعقائده

الصافية الواضحة تتهدد وضع الاسلام الحقيقى ، وكذلك كانت الغارة الصليبية ، ثم هجوم التتار - ذلك الجراد المنتشر - صاعقة نزلت على الاسلام والأمة الاسلامية وكانت جديرة بأن تقضى على الاسلام وتقصيه من ميدان الحياة ومصاف الأمم الحية ، فلو كان غير الاسلام من الديانات للفظ نفسه الاخير وأصبح أسطورة من الأساطير .

ولكن الاسلام تحمل كل هذه الصدمات وكل هذه الصواعق واستطاع أن يعيش رغم كل ذلك ، ولم يكن أنه عاش وبقى يلعب دوره ، بل أنه شق طريقه إلى الامام وفتح فتوحا جديدة فى ميدان العلم والعقل والسياسة .

وقد منى الاسلام فى سيره الطويل بمؤمرات وثورات ومقاومات داخلية وخارجية، فقد كان مرارا عرضة لتحريف الغالين وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين ، ودخلت فيه البدع والأفكار العجمية وتسرب اليه الشرك والجاهلية عن طريق الأمم التى كانت تسلم ، وعن طريق التقليد والجهل ، وفشت فيه الاعمال والتقاليد الجاهلية ، ثم امتحن - منذ العهد الأموى - بمادية جارفة ، وترف فاحش وعبادة البطون والشهوات . ثم ابتلى - من العهد العباسى - بالالحاد والزندقة ، والفلسفات العجمية إلى غير ذلك مما يحويه تاريخ الاسلام الدينى والعقلى ، وقد كانت هذه الهجمات شديدة ودقيقة حتى أصبح كثير من الناس يشكون فى قدرة الاسلام على مقاومة هذه الهجمات ، وأصبح بعضهم يتوقع نهاية الاسلام بصفته ديناً من الأديان ، ونهاية الامة الاسلامية بصفتها أمة ذات عقيدة ورسالة .

ولكن الاسلام أبى أن يستسلم لهذه الهجمات وأن يخضع ويستكين لأعدائه ، وأبت روح الاسلام أن تنهزم ، وأبى ضمير الأمة المسلمة أن يصالح هذه الفتن وأن يتفاهم مع اعداء الاسلام والمتأمرين ضده وأن يتنازل عن بعض ثروته ، وقام فى كل عهد وفى كل ناحية من نواحى العالم الاسلامى رجال فضحوا المحرفين والمتآمرين ، ورفعوا اللثام عن وجه الاسلام ونفضوا عنه غبار الجهل والضلالات وأنكروا على البدع والخرافات والأفكار العجمية ، ودافعوا عن السنة دفاعا قويا ، وردوا على العقائد الباطلة ، وشنوا الحرب على الجاهلية وأعمالها وتقاليدها ، وحاربوا المادية والترف بكل قوة ، ونعوا على المترفين فى عصرهم ، وجهروا بالحق فى وجوه السلاطين الجائرين والملوك المستبدين ، وحدوا من سلطان العقل الذى قد طغى وتخطى الحدود ، ونفخوا فى الاسلام روحا جديدة ، وخلقوا فى المسلمين ايمانا جديدا وثقة جديدة ، وقد كان هؤلاء الأفراد نوابغ عصورهم ، عقلية وعلما وخلقا، وكانوا أصحاب شخصية جذابة ، وكفاية فائقة ، وكانت عندهم لكل فتنة وظلمة « يد بيضاء » تبدد الظلمات وتنير السبيل .

وقد وضح من وجود هؤلاء المصلحين المجددين للدين الاسلامى باستمرار لا يحمل على مجرد المصادفات ، أن هذا هو الدين الذى اختاره الله لتوجيه العالم وارشاد الانسانية وقضى بخلوده وبقائه ، وان مهمة الهداية والارشاد الجليلة التى كان الأنبياء يبعثون لها فى العصور الماضية قد ألقيت على عاتق هذه الأمة التى تخلف خاتم النبيين ﷺ فى هذه المهمة وأنه لا يخلو زمان من الازمان من خلفائه ودعاته .

ندرة شخصيات التجديد فى الديانات الأخرى :

بالعكس من ذلك يندر فى الديانات الأخرى شخصيات عظيمة تعيد اليها الحياة والشباب، وتوجد فى اتباعها وأصحابها الحركة والنشاط ، وتوجد فيهم الثقة بأديانهم وعقائدهم ، وتنفض عنهم غبار القرون الماضية وركام عصور الانحطاط . اننا إذا استعرضنا تاريخ هذه الديانات رأينا فترات طويلة قد تمتد على مئات وآلاف من السنين لم يظهر فيها من رجال الدين والاصلاح من يجدد هذا الدين ويذيله من أعدائه ضد روحه ونظامه وينقيه من شوائب البدع وألوان التحريف ، ويعرضه فى صورته الصادقة ، ويدعو إلى أصل الدين وحقيقته دعوة قوية سافرة ، ويجرده من التقاليد والبدع التى لصقت به وهو منها براء ، ويحارب المادية والترف الذى ابتلى به أتباع هذا الدين ، ويوجد بايمانه القوى وبروحانيته الصادقة وبجهاده المتواصل روحا جديدة فى هذه الأمة وثقة جديدة بدينهم .

ونضرب لذلك مثلا بالمسيحية ، فقد امتحنت فى عهدها الباكر يعنى فى منتصف القرن الأول المسيحى بتحريف لا يوجد له نظير فى تاريخ الديانات فى عهدها الأول، فقد انتقلت من ديانة بسيطة توحيدية إلى ديانة وثنية تتركب من الافكار اليونانية والبوذية وذلك على يد داعيها الكبير وبطلها العظيم بولس Paul (١٠ - ٦٥ م) وكان هذا الانتقال أشبه بقفزة من روح إلى روح ومن وضع إلى وضع ومن نظام إلى نظام ، لا يشارك الثانى الأول الا فى الاسم وبعض الطقوس ، ويتحدث عنه عالم مسيحى Ernest de bunsen فيقول :

« إن العقيدة والنظام الدينى الذى جاء فى الانجيل ليس الذى دعا اليه السيد المسيح بقوله وعمله ، ان مرد النزاع القائم بين المسيحيين اليوم وبين اليهود والمسلمين ليس إلى المسيح بل إلى دهاء بولس ذلك المارق اليهودى والمسيحى ، وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم والتمثيل Essenie ، وملئه هذه الصحف بالنبوئات والامثلة ، ان بولس فى تقليده لاسطفانوس Stephen داعى المذهب الايسانى قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية ، انه واضع ذلك المزيج من الاحاديث والقصص المتعارضة التى يحتوى عليها الانجيل اليوم والتى تعرض المسيح فى صورة لا تتفق مع التاريخ أصلا ، ليس المسيح ، بل بولس ، والذين جاءوا بعده

من الاحبار والرهبان ، هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الدينى الذى تلقاه العالم المسيحى كأساس للعقيدة المسيحية الارثوذكسية خلال ثمانية عشرقرنا » (١) .

وبقيت المسيحية قرونا طوالا - ولا تزال - تحمل روح بولس وتحافظ على تراثه ، ولم يظهر فى العالم المسيحى فى هذه المدة الطويلة من يثور على هذا الوضع الطارئ الدخيل على المسيحية ويحاول نقلها إلى وضعها الأول الذى ترك عليه سيدنا المسيح خلفاءه والمخلصين من اتباعه ، وانسلخت قرون ومضت أجيال اثر أجيال ولم يظهر الرجل المنتظر لتجديد المسيحية وتجريدها من الأجزاء الأجنبية ، حتى كان القرن الخامس عشر المسيحى ، فظهر « مارتن لوثر » Martin Luther فى ألمانيا وقام باصلاح محدود قاصر ينحصر فى مسائل جزئية ، وعارض بضع عقائد ألحت عليها الكنيسة النصرانية ، ولم يكن اصلاحا جوهريا شاملا ولا ثورة ضد اتجاه المسيحية المنحرف الطويل ، ثم لم يخلفه رجل فى العالم المسيحى يرفع صوته ضد انحرافات المنيسة واعتداءاتها ويقوم بمثل الدور الذى قام به لوثر على ضعفه .

يقول الكاتب الفاضل (J . Bass Mullinger) فى سقالة فى دائرة معارف بريطانيا :

« إذا بحثنا عن الاسباب التى جعلت جهود الاصلاح الدينى قبل القرن السادس عشر لم تنجح أى نجاح نستطيع أن نقول بلا تلعثم : أن السبب الوحيد فى ذلك هو خضوع عقلية القرون المتوسطة للمثل القديمة » .

ويقول فى محل آخر :

ان اخفاق الجهود المتابعة لاتخاذ قرار جامع حول اصلاح الكنيسة من حقائق التاريخ الاوربى الثابتة .

ويقول :

وجدت جهود كثيرة ذات أهمية بالغة لاصلاح المذاهب قبل القرن السادس عشر . ولكنها وقعت فريسة ضغط الكنيسة وأخفقت » .

وظلت المسيحية تمشى على الدرب الذى اختارته أو بالاصح فرض عليها ، وضعف تأثير الكنيسة وانحل سلطانها فى العهد الأخير وقامت دولة المادية فى أوربا وأصبحت الديانة الحقيقية التى خلفت المسيحية وخافت كل ديانة فى العالم الغربى ، فلم يظهر فى الأوساط

---

(١) Islam or True Christianity p . 128 .

المسيحية من يحارب هذه المادية ويعيد المسيحية إلى مراكزها فى الحياة أو يوجد الثقة فى المسيحين بديانتها وينشئ فيهم القوة الروحية والخلقية التى يقاومون بها اغراءات المادية القاهرة ويتظاهرون بحياة فاضلة تقوم على العلم والاخلاق والعقائد المسيحية ويواجهون معضلات العصر وأزماته ويحاولون حلها فى ضوء الدين ، بالعكس من ذلك نرى أن المفكرين والمؤلفين المسيحيين فى أوربا يائسون من مستقبل المسيحية ومصابون بمركب النقص أمام المادية اللادينية .

وهكذا الديانات الشرقية الاخرى ، فالبرهمية قد انحرفت انحرافا شديدا عن جادتها الأولى وفقدت بساطتها والاتصال الروحى المباشر بفاطر الكون ، وفقدت قوتها الخلقية وتعقدت تعقدا أصبحت به فلسفة دقيقة غير عملية وفقدت - على مر الأيام التوحيد الخالص فى العقيدة ، والعدل فى الاجتماع وهما الدعامتان اللتان يقوم عليهما بناء ديانة فى الباطن وفى واقع الحياة ، وقد بدأ ذلك من القرن الثامن قبل الميلاد وحاول مؤلفو أبنشد -شروح الكتب المقدسة عند البراهمة - أن يتداركوا هذا الفساد فرفضوا التقاليد والطقوس التى استحوذت على الديانة البرهمية والمجتمع الهندى وقدموا نظاما فلسفيا تصوريا يقوم على وجود الوحدة فى الكثرة ، ونال هذا العرض الجديد للديانة البرهمية رضى الأوساط العلمية لنزعتها الدائمة إلى « وحدة الوجود » ولكنه لم يرض الشعب القاصر فى الفكر ، المفتقر إلى النظم العملية والتعاليم الواقعية ، وبقيت الديانة البرهمية تفقد قوتها ونفوذها ، وبقى التذمر منها وعدم الثقة بها يزداد ويقوى على الايام ، وتجسم هذا التذمر وهذا القلق المتفشى فى المجتمع الهندى والتماس العوض عن الديانة الهرمة فى شخص بوذة Buddha ولم يكن ذلك الا فى القرن السادس قبل الميلاد .

ظهر بوذه بفكرة جديدة أو ديانة جديدة - إذا كان لابد من هذه الكلمة - تقوم على تجريد النفس وتهذيبها وقمع الشهوات والعطف والمواساة واللهج بالعمل وعلى رفض التقاليد والطقوس والتفاوت الطبقى الذى أصيب به المجتمع الهندى فى العهد الاخير ، وانتشرت هذه الفكرة أو الديانة [١] بسرعة وشملت الجزء الجنوبى والشرقى من آسيا الواقعين بين بحر الهند والبحر الكاهل .

---

(١) أتردد فى اطلاق كلمة الديانة على البوذية لأنها لاتحمل فكرة أو عقيدة عن وجود خالق الكون وعن المبدأ والمعاد كما يرجح أكثر المؤلفين والمؤرخين (راجع دائرة المعارف البريطانية كلمة «بوذه »- Buddha) .

ولكن ما لبثت هذه الحركة الدينية العظيمة ان انحرفت وتحرفت وهجمت عليها الأوثان والتماثيل والطقوس التى حاربتها البوذية وثارت عليها حتى أصبحت فى الزمن القصير ديانة وثنية لا تمتاز عن الديانة البرهمية الا بأسماء الاوثان والتماثيل وعددها ، وأصيبت بانحطاط فى الاخلاق والتعقد فى الافكار والكثرة فى المذاهب والفرق ، يقول أستاذ تاريخ الحضارة الهندية فى أحدى جامعات الهند « لقد قامت فى ظل البوذية دولة تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل ، وتغير محيط الرابطات الاخوية البوذية وظهرت فيها البدع »[(١)]. وتقول مؤلفة أوربية Mrs. Rhys Davids كما ينقل عنها رئيس الجمهورية الهندية Sir Radha Krishnan « لقد أظلت الأفكار العليلة تعليم بوذا الخلقى حتى توارى وراء هذه التخيلات السقيمة ، لقد نشأ مذهب جديد فى الديانة وازدهر وملك على الناس القلوب ثم اضمحل وخلفه مذهب آخر ، وهلم جرا ، حتى تراكمت هذه الاوهام الخلابة وحجبت الجو وساد الظلام ، وقد اضمحلت دروس مؤسس الديانة الغالية البسيطة بسبب التدقيقات الكلامية والتنطعات » .

ولم يظهر فى العالم البوذى الواسع وفى المدة الطويلة التى حكمت فيها البوذية وسادت، مصلح كبير ينتصر للبوذية الاصيلة ويحارب البوذية الدخيلة بكل قوته ومقدرته ، ويجدد لهذه الديانة العظيمة شبابها الاول وبساطتها الضائعة ونقاءها المفقود .

وهكذا بقيت الديانة البرهمية منكسرة أمام البوذية التى تغلبت عليها وعلى رقعتها حتى جاء شنكر اجاريهShankiracharia [(٢)] فى القرن الثامن المسيحى .وقام بنشاط عظيم فى محاربة البوذية ونشر البرهمية حتى تمكن من اجلاء الديانة البوذية من الهند وتضييق دائرتها واضعاف سلطانها حتى ضعفت جدا وبقيت ديانة من الديانات الهندية القديمة الدارسة ، استطاع شنكر أجاريه بنشاطه وحماسته وذكائه أن يقصى البوذية من الحياة ولكنه لم يستطع - ولعل الاصح أنه لم يرد - أن يعيد البرهمية إلى وضعها الاول ، ويعيد عقيدة التوحيد والاتصال المباشر بفاطر الكون ورفض الوسائط بين العبد وربه والعدالة الاجتماعية والمساواة بين الطبقات .

ويقول كاتب مقال موسوعة الديانات والاخلاق C.V.H. Chatc الذى كان أستاذ

---

(١) الحضارة الهندية لمؤلفه ايشورا توبا .

(٢) ولد فى ملابار جنوبى الهند ، وجال فى الهند من اقصاها إلى اقصاها ومات فى الثانية والثلاثين من عمره .

السنسكريتية بكلية الفستن فى بمباي، ويمتاز باطلاع واسع على الديانات القديمة وفلسفاتها ، وهو يتحدث عن « شنكر اشاريه » :

« ان الغاية الاولى التى استهدفها « شنكر اشاريه » فى حياته ، هى احياء ذلك النظام الدينى والفلسفة الدينية التى تحث عليهما « اوبنشد » (شروح الكتب المقدسة عند البراهمة) أنه نشر العقيدة المطلقة لوحدة الوجود ، وكانت غايته الرئيسية أن يقوم بتعليم الناس أن «ابنشد» و « بهكوث كيتا » لا يتعرضان للقانون ، وإنما جل ما فيهما هو تعليم وحدة الوجود فى أكمل صورها . ان شنكر اشاريه لم يستنكر الوثنية ولا هاجمها . ان الاصنام عنده مظهر للاله ورمز له . انه ذم الغلو فى الطقوس والتقاليد وفلسفة الاعمال ، ولكنه دافع عن عبادة الآلهة التى حظيت بالقبول ، يقول : « ان الوثنية حاجة طبيعية لنا فى مرحلة خاصة لنشأتها ، وعندما تبلغ الروح الدينية النضج والاكتمال تستغنى عن الوثنية . فكلما تبلغ الروح الدينية مرحلة النضج يجب الاعراض عن المظاهر والرموز » وقد سمح شنكر اشاريه بعبادة الاصنام كرمز للأله . ولكن لمن لم يبلغ مبلغ البراهمة الذين تحرروا عن الصفات ، وأصبحوا من النضج بمكان لا يقبلون أى تغيير وتبديل »[١] .

ولا تزال هاتان الديانتان الهنديتان - البرهمية والبوذية محتفظتين بوضعهما المحدث ، محتفظتين بتراث عصور الانحطاط محتفظتين بالطقوس والتقاليد والاصنام والتماثيل ، وأخفقت جميع المحاولات والجهود التى تبتدئ من شنكر أشارية وتنتهى إلى ديانند سرسوتى[٢] إلى غاندى الزعيم ، أن يعيد هذه الديانة القديمة إلى وضعها الاول وإلى الوضع الصحيح الذى يتفق عليه مع رسالات الانبياء والفطرة السليمة والعصر المتجدد ، وقد ألقت أوزارها أخيرا للمادية واللا دينية واعتزلت الحياة وانحصرت فى المعابد وفى بعض المظاهر والتقاليد ولا يعرف فى الهند دعوة قوية ذات بال شعارها وهتافها « إلى الدين من جديد » بينما نعرف دعوات قوية نشيطة شعارها وهتافها « إلى الحضارة القديمة من جديد » وإلى لغة الهند القديمة الدارسة « السنسكريتية » من جديد .

---

(١)مقتطف من مقالة شنكر اشاريه باختصار وتلخيص ، اقرأ كتاب

Encyclopaedia of Religion and Echics (fourth edition 1958) volume XI . Article Shankar Acharya .

(٢) واضع الديانة الآرية الثائرة على الوثنية وهى أشد الفرق حماسة وعداءا للمسلمين وتقول بقدم العالم.

حاجة الاديان إلى الرجال الاحياء :

والسر فى ذلك أن الاديان لا تعيش ولا تزدهر ولا تعود إلى نشاطها وشبابها بعد اضمحلالها وضعفها ، ولا تنسجم مع المجتمع المعاصر ولا تتلاءم مع روح العصر الا عن طريق الرجال النوابغ الذين يظهرون فيها حينا بعد حين ، يملكون الايمان القوى الجديد وسموا روحيا لا يشاركهم فيه عامة الناس ، ونزاهة ممتازة عن الاغراض وعزوفا عن الشهوات وتفانيا فى المبادئ والعقائد وفى سبيل الدعوة ؛ ومستوى عقليا وعلميا أرقى من الكثير ، ينفخون فى أمتهم روحا جديدة ، ويلهبون نفوسهم بحماسة دينية جديدة .

وذلك لأن مطالب الحياة وتكاليفها متجددة ، واغراءات المادية قوية جديدة دائما، وشجرة المادية لا تذوى ولا يعروها الذبول وهى خضراء لا تنقطع أثمارها ، وللمادية - مع أنها غنية بسحرها على النفوس واغرائها للطبائع عن الدعاية والترغيب - فى كل عصر دعاة متحمسون ورجال مخلصون ، فاذا أصاب الدعوة الدينية الوهن ، وإذا أصيب أهل دين بضعف فى العقيدة أو ضعف فى الخلق أو ضعف فى الدعوة ، لم يستطيعوا أن يقاوموا المادية الفتية والدعوات المعارضة القوية . ان الأصنام - باختلاف أنواعها - لا تزال محتلة للحياة ، وان اللات ومناة - وهما رمزان للوثنية والهوى - لا تزالان فى شبابهما وجدتهما كما يقول اقبال . فلا يظن الداعى أنه قد انتهت مهمته ، ولا تمكن مقاومة المادية الفتاة ، ولا يمكن سحب اللات ومناة عن الحياة الا بالدين القوى والايمان الجديد والدعوة المتحمسة والعلم الراسخ والعقل الواسع .

تاريخ الاصلاح والتجديد متصل فى الاسلام :

من الحقائق التاريخية أن تاريخ الاصلاح والتجديد متصل فى الاسلام ، والمتقصى لهذا التاريخ لا يرى ثغرة ولا ثلمة فى جهود الاصلاح والتجديد ، ولا فترة لم يظهر فيها من يعارض التيار المنحرف ويكافح الفساد الشامل ويرفع صوت الحق ، ويتحدى القوى الظالمة أو عناصر الفساد ويفتح نوافذ جديدة فى التفكير والدارس لهذا التاريخ والمتتبع لحوادثه وشخصياته لا يعرف عهدا قصيرا ساد الظلام فيه على العالم الاسلامى ، وخبت مصابيح الاصلاح وخفتت أصوات الحق ، ومات الضمير الاسلامى ، وتبلد الشعور ، وأضرب الفكر الاسلامى عن العمل . إن هذه الثغرات التى قد نشعر بها فى دراستنا العابرة للتاريخ الاسلامى وفى نظرتنا العجلى فى كتبه، ان مردها إلى منهاج التأليف الذى اتخذه المؤرخون للاسلام قديما وحديثا ودرجت عليه الاجيال ، ان النقص- ومعذرتى إلى المؤلفين الذين أدين لهم فى معلوماتى ومحاضراتى ويدين لهم كل مؤلف ودارس - فى التأليف وليس فى

التـاريخ ، أو بكلمـة أخـرى أن المسـؤوليـة على المؤرخـين والمؤلفين ، لا على المجـددين والمصلحين الذين ظهروا حـينا بعد حين ، وحفظوا على الاسـلام جدته وشبابه ، وقـضوا على كثـير من الفتن والبـدع والمؤامرات والتحـريفات ، حتى أصـبحت مطمـورة فى ركام الماضي، لا يهتـدى اليها أحـد فى هذا العصر الا بعـد بحث وعناء ، وكثيـر من أفراد هذا الجيل لم يسمـعوا بأسمائها ولا يعرفون حـقيقتها الا بشق الانفس واجـهاد العقل والعين ، وقد كـان بعض هذه المذاهب وبعض الحركـات تتمتع بحـماية البلاط ، وتسـتند إلى الملك والسلطان والمال والجاه ، وقـد كانت فى عصرهـا صاحبة حـول وطول ، ولكنها طويت - بفضل جهود هؤلاء المصلحين المخلصين - فى صحائف الماضى ، وأصبحت موضوع علماء الآثار لا محل لها الا فى المتاحف والصحائف .

التجنى على صلاحية الاسلام :

إن هذا النقص فى التـأليف الذى صـرحت به مع الاعتـذار ، جعل كـثيـرا من الناس يعتقدون أن تاريخ الاصلاح والكفاح فى الاسلام متقطع يحتوى على ثغرات واسعة وفترات طويلة ، لا ترى فيـها الا المندفـعين مع التيار ، المسـتسلمين للفـساد ، وأقزامـا فى العقل والتفكير والعلم والانتاج ، لقد كان يظهر « عملاق » أو نابغة أو عبقرى بعد عصر طويل ، وقدتخلو قرون ومـئات سنين عن عظيم يستحق أن يسمـى عملاقا أوعبقـريا أو مجددا فى العلم والدين .

ان هذه العقيدة الخاطئة التى لم تقم الا على الدراسة القاصرة المستعجلة للتاريخ، وعلى منهاج التأليف الذى اتخذه مع الأسف أكثر المؤرخين ، وهو تأليف التاريخ الذى يدور حول الملوك وحاشيـتهم ، وحول الحوادث التى لها اتصـال بالسياسة والحكم ، قـد تنتهى ببعض الشباب المتـحمسين وببعض رجال الدعـوة إلى سوء الظن بالاسلام وضعف انتـاجه ، إنها نتيجة خطرة تضعف الثقة بالاسـلام ، وتضعف العاطفة والارادة للكفاح فى هذا العصر ، فإن القـوة الباطنة التى تدفع إلى الكفاح والـعمل لدعوة ، لا تنبع الا من الثـقة بالماضى ، وبأن هنالك رصيدا من الجهاد والاخلاص وسندا من الكفاح والنجاح .

مصادر التاريخ المهجورة :

والذنب ليس على المـؤرخين فقط ، ان الذنـب على من يقـتصـر على كـتب التـاريخ «الرسمى» والمصطلح ، ولا يتـعدى هذه الكتب إلى الكتب التى لا تحـمل اسم التاريخ ولا توجد فى ركن التـاريخ فى مكتبة ، ولكنهـا مادة واسعة للتـاريخ ومصدر قيم من مـصادر

التاريخ ، هى كتب الادب وكـتب الدين والكتب التى دون فيها بعض العظماء اعـترافاتهم وسجلوا حـوادث حياتهم وتجاربهم ، والكتـب التى حفظ فيهـا بعض التلاميذ وأصـحاب الشيـوخ كلمات شيـوخهم أو مواعظهم ، أو مـا دار فى مجلسهم من حـديث أو حوار ، ومجاميع الرسائل والخطب التـى تدل على روح أصحابها وفكرتهم ، أو الكتب التى ألفت فى الحسبة وفى انتقاد المجتـمع وانكار البدع والمنكرات ، فلو اتسعت الدراسة وشملت هذه المصادر المهجـورة وتخصص لهذا الموضوع باحث واسع الفكر صبـور على المطالعة ، دقيق فى الملاحظة استطاع أن ينتج تاريخا متصلا شامـلا للاصلاح والتجديد والتفكير الجديد فى الاسلام ، يدل على أن الاصلاح والكفاح مترافقان لهذه الأمة لا يتخلفان عنها .

كيف يؤلف تاريخ الاصلاح ؟

ويجب على هذا الدارس أن لا يقـتصـر على بعض النقـول وأن لا يقتـضب العبـارات المنقولة عن كـتب هذه الشخصـيات العظيمـة ولا يضن بالالفاظ والكلمـات وأن لا يمر بها وبمؤلفاتهـا ومنتجـاتها مرا سـريعا فى دراستـه التاريخـية ، بل يجـب أن يعيـش فى كتبـها ومؤلفاتها وأفكارها مدة ويتذوق أدبها وفكرتها ويتنسم طيبها ويحاول أن ينتقل من جوه إلى جو هؤلاء الرجال ، ومن عصره إلى عصرهم ، حتى يعرفهم على حقيقتهم ويصورهم فى حقيقتهم ، ويشـعر القارئ أنه انتقل إلى عصرهم وعرفهم معرفة شخـصية ، وعاش معهم مدة من الزمان .

لذلك تسمحون لى بأن أعرض لكل واحد ممن أذكرهم فى محاضراتى أمثلة من كتاباتهم وخطبهم ورسـائلهم ، قد تكون متنوعـة ، وقد تكون مسـهبة ، لأنى أعتـقد أن الرجل لا يعرف الا فى كـتاباته المتنوعـة الطويلة ، ولا يجوز الحكم عليـه الا بعد مشـاهدة طويلة ، ومجالس وألوان من الحياة عـديدة ، ولا سبيل لنا إلى هذه المشاهدة وإلى هذه المجالس الا عن طريق هذه الكتابات والمؤلفات .

تطبيق مقاييس العصر على الشخصيات القديمة :

ثم الخطيئة الثانية التى يركبهـا بعض المتحمسين والمؤلفين فى هذا العصر ، أنهم يكونون فى ذهنهم صورة خاصة للمجدد أو المصلح ثم يلتمسونها فى تاريخ الاسلام ومجموع صور الاعـلام ، فإذا لم يجـدوا هذه الصورة الحـبيبـة فى التاريخ الاسـلامى أو فى عصـر من العصـور، تذمروا وأنكروا ، وكثيـر منهم عندهم مقاييس خـاصة ، وهى مقاييس عـصرية يقيـسون بها « العظيم » أو « الداعى » أو « المصلح » أو « المـفكر » فى كل زمان وفى كل

بيئة ، فإذا لم تنطبق هذه المقاييس - التى هى مقاييس العصر - على رجل مهما كان عظيما، ومهما كان قديما ، ومهما كانت خدمته للاسلام عظيمة ، ومهما كان مخلصا ومهما نجح فى مهمته التى تكفلها أو أسندت اليه ، أسقطوه أو بخسوه حقه ولم يعدوه من المصلحين ، وبعضهم يلتزم مقياسا واحدا كمقياس الابداع فى الافكار مثلا ، أو فتح باب الاجتهاد مثلا ، أو الكفاح لاقامة الحكم الاسلامى ، أو معارضة الدولة القائمة فى عصره مثلا ، فإذا لم يحقق هذه الشريطة ، لم يكن رجل عصره ولم يستحق أن يدخل فى صف المصلحين .

إن هذه المقاييس والمعايير لها قيمة عظيمة ، وأنا لا أنكر أهميتها ومكانتها فى الاصلاح، ولكن الذى أريد أن أقول لكم ان الزمان والبيئة عاملان هامان فى حياة الرجال فلكل عصر مشاكل ومسائل ، وملابسات وعوائق قد تحدد نطاق العمل ، وقد تفرض منهجا دون منهج، وأسلوبا دون أسلوب ، والغاية واحدة . فلا يجوز لنا أن ننقل رجلا من عصره ، وننتقل به إلى عصرنا ، ونطبق عليه مقاييس هذا العصر ، ثم نحكم عليه بالفشل والاخفاق، أو الضعف والعجز ونسلبه محاسن نفسه ، ونحرمه من كل مأثرة وكل عظمة ، لأنه لم يحقق شرطا من شروطنا ، ولم يكن « المثل الكامل » فى الاصلاح المنشود والتجديد المطلوب .

التراث الاسلامى مجموعة تدين لكل مصلح وعامل :

ان هذا التراث الذى وصل إلى أيدينا اليوم - ولست أسميه التراث بالمعنى الذى يريده الغربيون من كلمة Legacy - لأن الاسلام دين حى خالد ، ولكن أسميه بمعنى الثروة التى انتقلت الينا من أسلافنا : تراث العلم الواسع ، والعقيدة المحفوظة، والايمان القوى ، والسنة الخالصة ، والاخلاق المستقيمة ، وثروة الفقه والتشريع الزاخرة والادب الاسلامى الرائع ، مجموعة فيها نصيب لكل من ساهم فيها بأقامة حكم على منهاج الخلافة الراشدة، ومحاربة الجاهلية والمادية، وبالدعوة إلى الله وإلى دار السلام ، واحياء ما درس من الخصائص الاسلامية وبث الروح الايمانية فى هذه الأمة ، ولكل من أوجد الثقة بالدين ومصادره وتعبيراته ، ورد هجمات الفلسفة الأجنبية ، ولكل من دافع عن الفكرة الاصيلة وعصم هذه الأمة من فتنة هددت الاسلام ، ولكل من حفظ على هذه الأمة دينها ومصادره، وقام بتدوين جديد للحديث والفقه ، أو فتح باب الاجتهاد ومنح هذه الأمة ثروة واسعة من التشريع ، وقانونا منظما للحياة والمجتمع ، ولكل من حاسب المجتمع فى عصره ، وأنكر انحرافه عن مثل الاسلام ونظمه ودعاه إلى الاسلام الصحيح ، ولمن سلك

سبيل الاقناع العلمى فى العصر الذى كثرت فيه الشكوك واضطربت العقائد ، ووضع لعصره كلاما جديدا ، ولكل من خلف الانبياء فى الدعوة والتذكير ، والانذار والتبشير ، وحرك الايمان فى النفوس ، وقام فى وجه المادية الجارفة فى عصره ، فحد من تأثيرها وأنقذ خلقا كثيرا من الاندفاع والغرق فيه ، ولكل من حفظ هذه الأمة وقوتها السياسية من الانهيار ، ومن أن تكون فريسة للغارات الأجنبية ، ولمن أخضع بدعوته الحكيمة الرقيقة عدوا لم تعمل فيه السيوف ، ولم تقاومه الجنود ، وحطم العالم الاسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، فسخره أصحاب الدعوة بقوتهم الروحية وإيمانهم القوى للاسلام ، وجعلوه من اتباع محمد عليه السلام ، ولمن أخضع بأدبه القوى وشعره البليغ عقولا لم تخضعها المباحث العلمية والفلسفات الدينية إلى غير ذلك ، ولكل فضل ، وما التاريخ الا تأدية الامانات إلى أهلها، والحكم بالعدل والاعتراف بالفضل ، وقد قام كل واحد منهم بدوره وساهم بقسطه، القسط المطلوب منه ،وكل كان مرابطا على ثغر من ثغور الاسلام ، وكل كان سهما مصيبا فى كنانة الاسلام ولولا هذه الجهود المخلصة ، ولولا هذا الاقساط التى قد لا ترى الا بمكبرة التاريخ ، لما وصلت الينا هذه المجموعة التى نعتز بها ونستند اليها ، ونقتبس منها النور سليمة موفورة نتباهى بها على الامم والديانات .

وعلى هذا المنهاج الذى أعتقد أنه المنهاج العادل الواسع ، سأتحدث عن هذه الشخصيات الاصلاحية ، وعن عصورها والظروف والملابسات التى تكتنفها ، ومقدار نجاحها وانتاجها فى حقل الدعوة والاصلاح والتجديد ، وبيد الله التوفيق .

جهود الإصلاح والتجديد فى القرن الأول

سَيدنا عُمرِ بن عَبد العَزيز

النزعات الجاهلية فى العهد الأموى :

كانت نهاية الخلافة الراشدة واستحكام الدولة الاموية - التى كانت بالاختصار دولة عربية أكثر منها اسلامية - انتقالا جديدا فى تاريخ الاسلام ، وفرصة انتهزتها الجاهلية التى كانت لا تزال بالمرصاد ، فعاشت النزعات والتى قضى عليها الاسلام و وعادت العصبيات القبلية والنخوة الجاهلية التى نعاها النبى ﷺ فى خطبته بقوله : «ان الله قد أذهب عنكم النخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء كلكم من آدم وآدم من تراب ، لا فخر لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى الا بالتقوى » والتى نفاها الإسلام من مراكزه وحواضره ، فلجأت إلى بادية العرب ، عادت هذه العصبيات إلى نشاطها ونفوذها ، وأصبحت هذه العصبيات الذميمة والنخوة الاثيمة، والاثرة القبلية والطائفية والنسبية التى هى أشد خطرا على المصلحة الاجتماعية ، وأشد معارضة للروح الاسلامية من الأثرة الفردية ، فضيلة فى هذه الحياة ومفخرة من مفاخر الانسان ، بعدما كانت رذيلة من رذائل الجاهلية وسبة على الرجل المؤمن وحدث انقلاب خطير فى دوافع العمل - التى هى من أقوى العوامل فى الحياة الفردية والجماعية - فأصبح الرجل فى هذا العهد مدفوعا إلى العمل ، مدفوعا إلى المكرمات والبطولات وإلى الجود والمواساة بدافع من السمعة والرياء ، والظهور فى القبائل والمجامع ، والتفوق على الاقران ، بعد ما كان مدفوعا إلى ذلك بدافع من الاجر وثواب الآخرة ورضا من الله ، وقصة يرويها أبو الفرج الاصبهانى فى الاغانى تمثل هذا التطور الخطير وهذه الروح الجاهلية التى كانت تخامر رؤساء القبائل وأشراف العرب فى ذلك العهد خير تمثيل ، قال :

« حدث ابن عياش قال : كان حوشب بن يزيد بن الحارث بن رؤيم الشيبانى وعكرمة بن ربعى يتنازعان الشرف ، ويتباريان فى اطعام الطعام ونحر الجزر فى عسكر مصعب ، وكان حوشب يغلب عكرمة لسعة يده ، وقال : وقدم عبد العزيز بن يسار مولى بحتر الفقيه بسفائن دقيق ، فأتاه عكرمة فقال له : الله الله فى ، قد كاد حوشب أن يستعلينى ويغلبنى ، فبعنى هذا الدقيق بتأخير ، ولك فيه مثل ثمنه ربحا ، فقال : خذه ، وأعطاه اياه ، فدفعه إلى قومه وفرقه بينهم وأمرهم بعجنه كله ، فعجنوه كله ثم جاء بالعجين كله،

فجمعه بهوة عظيمة وأمر به فغطى بالحشيش ، وجاء برمكة [1] فقربوها إلى فرس حوشب ، حتى طلبها وأفلت ثم ركضوها بين يديه وهو يتبعـها ، حتى القوها فى ذلك العجين وتبعها الفرس حتى تورطا فى العجين وبقيا فيه جمـيعا ، وخرج قوم عكرمة يصيحون فى المعسكر يا معشر المسلمين أدركوا فـرس حوشب فقد غرق فى خمير عكرمة ، فـخرج الناس تعجبا من ذلك أن تكون خميـرة يغرق فيها فرس ، فلم يبـق فى المعسكر أحد الا ركب ينظـر ، وجاءوا إلى الـفرس وهو غريـق فى العجين مـا يبين منه الا رأسه وعنقـه، فمـا أخرج الا بالعمد والحبال وغلب عليه عكرمة وافتضح حوشب[2] .

وهذه وإن كانت قـصة فـردية ، ولم يكن كل رئيس للقبـيلة وكل شريف فى المجـتمع الاموى ، يحمل روح عكرمة ويضع هذه التمثيلية الغـريبة لاشتهار جوده وتفوقه فى اطعام الناس ، وكان فى هذا المجتمع أجواد مخلصون ، يحـرصون على اخفاء مكرماتهم ولكنها لا شك تصور الغاية التى وصل اليها تأثير الجاهليـة ونفوذها، والتفكير الجاهلى فى المجتمع الاموى الاسلامى ، والذى يقارن بين هذه القصة الطريفـة وبين ضيافة أبى طلحة الانصارى - رضى الله عنه - واطفائه للمصباح حتى لا يفطن الضيوف بقلة الطعام ، وامتناع المضيف عن الاكل[3] يستطيع أن يقـيس المسافة النفـسية والهوة الواسـعة التى وقعت بين العـهدين ويعرف التطور الذى حدث فى المشاعر والتفكير .

وقـد أصبح بيت المـال الذى كان ملكا للأمـة ، ملكا لفـرد واحـد خاضـعـا لشهـواته وتصرفـاته، وكان المبدأ الاسلامى المسـيطر على هذه الاموال هو ما ذكـره الرسول ﷺ فى كلمته الجامعة « تؤخذ من اغنيائهم وترد على فقرائهم » [4]. فأصبح المبدأ المسيطر فى هذا العهد « تؤخذ من فقرائهم وترد على اغنيائهم وامرائهم وشعرائهم » وأحاطت بالخليفة هالة من الشعراء المحـترفين والندماء المتزلفين المتـملقين، تنفق عليهم أموال الصدقـات بسخاء ، وبينما كان على - الخليفة الراشد - يعاتب أحد عماله على أنه حضر دعوة لقوم « عائلهم مجفو وغنيهم مدعو » [5]، أصبحت دعوة الاغنياء واكرامـهم وطرد الفقراء واهانتهم عادة

---

(١) البرمكة : الفرس تتخذ للنسل .

(٢) الاغانى .

(٣) والقصة بطولهـا فى كتب الحديث والسيرة ، راجع تفسـير قوله تعالى ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ فى تفسير ابن جرير الطبرى وابن كثير .

(٤) حديث شريف ورد فى كتب السنة المعتمدة .

(٥) نهج البلاغة .

فاشية وسنة متبعة ، وبينما كان الفاسق يقصى ويجفى ، أصبح يكرم ويدنى لشعره أو غنائه فى السياسة أو مصالح الدولة فقد حدث المؤرخون ، أن الاخطل كان يدخل على عبد الملك بغير اذن ، وعليه جبة خز ، وفى عنقه صليب ذهب ، ولحيته تنفض خمر[١] ومنزلة الحجاج بن يوسف - على سفكه الدماء وجرأته على الله - عند الامويين معلومة ، وقد شاع الغناء فى العهد الاموى شيوعا عظيما وعظم الشغف به فى حواضر الدولة الاسلامية حتى يزور مغن مثل « حنين » المدينة ويجتمع الناس فى منزل من منازل البلد ، ويزدحمون على السطح ويكثرون ليسمعوه فيسقط الرواق على من تحته ويموت المغنى تحت الهدم[٢] إلى غير ذلك من الظواهر التى تدل على تطور المجتمع الاسلامى ونزعاته الجديدة ، وقد أثرت سياسة الدولة وحياة رجال الحكم المترفة، تأثيرها الطبعى فى ميول الناس ومقاييسهم للسعادة والشرف ، ونشأت فى المسلمين طبقة مترفة تشبه المترفين فى الأمم القديمة فى أخلاقها وسلوكها ورغباتها ، ولا تمتاز عنهم الا ببعض العقائد والعبادات وبالبقية الباقية من الاسلام، وهى بقية لها قيمة لا تنكر، وقد دل كل شئ فى هذا المجتمع على أنه تدلى تدليا عظيما ، وعلى أن الجاهلية - الثائرة الموتورة - قد نهضت تنتصف من منافسها - الاسلام - وهى حريصة كل الحرص على أن لا تفوتها الفرصة ، وتريد أن تستوفى أربعين سنة -مضت فى ازدهار الاسلام روحيا وخلقيا- فى بضع سنين .

اعلام الدين وشخصياته البارزة وتأثيرها :

ولكن يجب أن لا ننسى أن الدين كان لا يزال له السلطان الروحى والمكانة الاولى فى قلوب الناس حتى فى هذا العصر ، وكان الجمهور من الناس لا يقرون هذه المنكرات وهذا الاسفاف ، وكانوا لا يزالون ينظرون إلى الخلفاء والامراء وحاشيتهم ومن سار سيرتهم ، بنظرة فيها الانتقاد وفيها الازدراء وفيها السخط ، وكان الشعب لم يسغ بعد هذا التطور، وكان لا يزال - باستثناء المتصلين بالخلفاء اتصالا وثيقا باستثناء من تغيرت نفسيته - ينظر باجلال إلى العلماء ، وإلى أصحاب الدين والاستقامة والخلق ، ومن آنس فيهم الزهد فى حطام الدنيا والابتعاد عن أصحاب الحكم والسلطان ، وعفافا وقناعة وترفعا عن المطامع والمناصب ، واشتغالا بالدعوة إلى الله ونشر العلم والنصح لله ولرسوله ولعامة المسلمين ، وكانوا أعز وأكرم عنده من كثير من أصحاب الجاه والنفوذ والثروة ، وحتى من الخلفاء

(١) الاغانى ، ص ١٧٨ ج ٧ .
(٢) أنظر الاغانى ، ج ٢ ص ١٧ .

والامراء فى بعض الاحيان ، ويمكن أن يقال : أن نفوذ الخلفاء والامراء كان محصورا فى دائرة خاصة ، هى الدائرة السياسية ودائرة الطبقة التى تسمى فى هذا العصر « الطبقة الارستقراطية » أما خارج هذه الدائرة وفى ما عدا هذا الوسط ، فكان يسود فيه أهل الصلاح والعلم وأهل الزهد والتقوى ، والصالحون والعلماء من أبناء الصحابة ، والسادة من أهل البيت النبوى ، فإذا اجتمع من يمثل هذه الطبقة الصالحة من سادات التابعين وأهل العلم والدين ، ومن يمثل الحكومة والامارة والجاه والسلطان ، غلب سلطان الدين والسلطان الروحى على سلطان السياسة والحكم .

يمثل ذلك أجمل تمثيل ما وقع لهشام بن عبد الملك يوم كان ولى العهد ، مع سيدنا على بن الحسين المعروف بزين العابدين ، فقد روى المؤرخون « ان هشام بن عبد الملك حج فى أيام أبيه وطاف وجهد أن يصل إلى الحجر ليستلمه ، فلم يقدر عليه لكثرة الزحام ، فنصب له منبر وجلس عليه ينظر إلى الناس ، ومعه جماعة من أعيان أهل الشام ، فبينما هو كذلك إذا أقبل زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وكان من أحسن الناس وجها ، وأطيبهم أرجا ، فطاف بالبيت فلما انتهى إلى الحجر تنحى له الناس حتى استلم ، فقال رجل من أهل الشام ، من هذا الذى قد هابه الناس هذه الهيبة؟ فقال هشام : لا أعرفه ، مخافة أن يرغب فيه أهل الشام فيملكوه ، وكان الفرزدق حاضرا فقال : أنا أعرفه ، فقال الشامى : من هو يا أبا فراس ؟ فقال قصيدته السائرة التى مطلعها [١] :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

وهذه القصة وإن كانت بسيطة فى الظاهر ، تدل على ما كان يتمتع به أهل الفضل والدين ورجال السيرة النبوية وسادات التابعين ، من النفوذ والاجلال ، وقد كان لسيدنا حسن المثنى بن حسن بن على بن أبى طالب وابنه عبد الله المحض ، وسالم بن عبد الله بن عمر وقاسم بن محمد بن أبى بكر رضى الله عنه وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ، مكانة مرموقة ومنزلة عالية فى قلوب الناس ، وتأثير كبير لما يقولونه [٢] وكان لهذه المكانة ولهذا النفوذ الروحى ولهذا الاجلال والحب العميق الذى يدين به الشعب لهم سلطان يحفظ على الشعب جلال الدين ومهابته ، ويمنعه من الاندفاع المتهور إلى الترف الفاحش

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان الجزء الخامس ص١٤٥ ، طبع مكتبة النهضة المصرية .

(٢) انظر تراجمهم فى وفيات الاعيان وصفة الصفوة .

والحياة الجاهلية السافرة ، والجهر بـالمعاصى والمنكرات ، ويمنع من إن يكون الخليفة المستهتر أو الامير السكيـر أو الغنى المعربد أو الشاعر الماجن « المثل الكامل » للمجـتمع ، ويحدث وجود هؤلاء الاعلام صراعا نفسيا على الاقـل ، ويحدث - إذا فرطت من أحد معصية أو زل زلة أو اتصل بالخلفاء والامراء - تأنيبا داخليا ووخزا للضمير وتألما نفسيا ، وهذا الصراع وهذا التأنيب لهمـا قيمة لا يستهـان بها ، ولهما تأثير لا يقلل من أهميـته ويمكن أن يعرف غناؤهما فى مجتمع لا يملك الا طرازا واحـدا من البشر ، وهو الطراز الرسمى أو المادى ، وفقد العنصر الذى يختلف عنه كل الاختلاف ، واكتسحت موجة المادية هذا المجتمع - كما نرى فى أوروبا - فلا صـراع ولا تأنيب ولا جزيرة فى هذا البـحر المادى المائج ، ولا منار للنور فى هذه الظلمات ، ولا أسوة يأتسى بها الانسان ، وللأسـوة والمثال العملى ، سحر فى النفوس لا يجهله علماء النفس والاخلاق .

الحاجة إلى تغيير الحكومة ، والصعوبات فى سبيله :

وظلت الحكومـة - الاموية - تؤثر فى الميول والـنزعات وفى مقـاييس الحيـاة ، وتفعل فعلها الطبيعى فى المجتمع والحضارة ، والاخـلاق والاجتماع ، وظلت الشخصيات الدينية تفقد نفوذها على مر الايام وينتقص عددها ، وتضيق دائرة نفوذها ، فلا مطمع اذا فى ثورة دينية وخلقية وتحسن كبيـر فى أحوال المسلمين وأوضاعهم ، الا بحدوث انقلاب صالح فى الحكومة ، ولكن كيف السـبيل إلى ذلك؟ وقد قامت الحكومـة الاموية على أسس عسكرية متينة لا تتزعزع ولا تضطرب، وكانت جديدة فتية لا تزال بعيدة عن الضعف والهرم ، ولـم تكن فى داخل المملكة وخارجـها قوة حربية تهـزمها فى الميدان ، وقد أخـفقت المحاولات والجهود التى قـام بها المخلصون والاكفاء ، مـثل الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما وعـبد الله بن الزبير رضى الله عنه ، لقلبها والتـخلص منها واقامة حكومة اسـلامية راشـدة من جـديد ، وقد قـطع نظام الوراثة الذى سـار عليـه الامويـون ومبـدأ الحكومـة الشخصية التى كانت الحكومة تدين به ، كل أمل فى الاصلاح والتغيير ، وأصبح الجالسون على عرش الحكومة والمتملكون لزمـامها ، سلسلة من حلقات متشابهة أخـذ بعضها برقاب بعض ، فكان كل شئ يدل على أن الحكومة سـتستمر على هـذه الحال ، وان المسلمين قد كتب لهم أن يعيشوا فى مثل هذه الأوضاع ، وكان الاسلام فى عودته إلى مركزه فى الحياة يحتاج إلى « معجزة » فقد عجزت الامور العادية والحوادث العادية عن اعادته إلى مكانه ، وعن اصلاح الاوضـاع الفاسدة ، وعن قلب التيـار القوى الجارف ، وإنما كان يحـتاج إلى حادثة خـارقة للعادة تقع خلف القـياس ، وتقع على غفلة من الناس ، وعلى غـير ترقب

منهم ، فتغير مجرى الامور ، وتبهر العقول والعيون .

استخلاف عمر بن عبد العزيز :

كان عمر بن عبد العزيز هذه « المعجزة » الباهرة ، وكان كل شئ فى حياته يدل على أنه معجزة من المعجزات التى خبأها الله لنصرة الاسلام ، يولد فى البيت الحاكم ، وينشأ نشأة الامراء المترفين ، ويشتهر بالظرف والترف والاناقة فى اللباس والمظهر ، ويكون شامة بين الناس ، وفتى بنى أمية الذى يحرص على تقليده الظرفاء والمتنعمون ، يتحدث عنه الليث بن سعد فيقول : « كان عمر بن عبد العزيز أعظم أموى ترفها وتملكا » غذى بالملك ونشأ فيه ، لا يعرف الا وهو تعصف ريحه فتوجد رائحته فى المكان الذى يمر فيه ، ويمشى مشية تسمى العمرية ، فكان الجوارى يتعلمنها من حسنها وتبختره فيها ، وكان يسبل ازاره حتى ربما دخلت نعله فيها فيتحامل عليه فيشقه ولا يخلعها ويسقط أحد شقى ردائه عن منكبه فلا يرفعه ، وتنقطع نعله فلا يعرج عليها وربما لحقه بها المملوك فيعتقه ،ويضع بخاتمه فتتسخ الطينة من العنبر [1] وكان أمير المدينة فى عهد ابن عمه وليد ، وكان أثيرا فى عهد ابن عمه سليمان ، وكان لا يمتاز على بنى أعمامه واخوته واترابه الا بسلامة الفطرة والاعتراف بالحق والتواضع والعفاف « فلم يغمص فى ولايته على ترفهه - فى بطن ولا فرج ولا حكم » وكان لا يمتاز عنهم الا بدم زكى فيه نصيب للفاروق العادل ، جاءه عن طريق أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب وجدته - لأمه - صاحبة القصة المعروفة فى اللبن [2] ولم تكن سيرته ومواهبه مع ذلك تدل على أنه سيقوم فى تاريخ الاسلام بهذه المأثرة العظمى التى عز نظيرها فى تاريخ الحكم والاصلاح ، وأنه سيكون ذلك العصامى الذى كان يرتقبه الاسلام ويحتاج اليه المسلمون فى هذه الساعة الدقيقة وأنه سيعيد الخلافة الراشدة من جديد ويرد التاريخ على أعقابه .

وكان استخلافه لا يقل عن معجزة [3] ، فلو جرت الامور مجراها الطبيعى لم يكن له نصيب فى غير الامارة وولاية بعض الاقطاع ، ومن أين تقفز اليه الخلافة وتتخطى أولاد سليمان وهو صاحب الامر ، ولكن لله فى خلقه شؤونا ، فقد كان لسليمان بن عبد الملك ابن يقال له أيوب بن سليمان ، عقدت له خلافة ولاية العهد من بعده، وتوفى أيوب قبل

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لعبد الله بن الحكم ص ٢١ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لعبد الله بن الحكم ص٢٠ .

(٣) اقرأ القصة فى ص ١٧ و١٨ من سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم .

سليمـان ، ولم يبق لسليمـان الا ولد صغيـر ، فلما حضـرته الوفاة أراد أن يسـتخلف ، فحضره عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة ، فقال لرجاء : اعرض على ولدى فى القميص والاردية ، فـعرضـهم عليه فـإذا هم صغـار لا يحتـملون ما لبـسوا من القـمص والاردية يسحبونها سحبا ، ثم قال يا رجاء : اعرض على بنى فى السيوف ، فقلدوهم السيوف ، ثم عرضهم عليه فاذا هم صغار لا يحملونها يجرونها جرا . فلما لم ير فى ولده ما يريد حدث نفسه بولاية عـمر بن عبد العزيز لما كان يعـرف من حاله ، فشاور رجاءا فيـمن يعقد له ، فأشار اليه رجـاء بعمر وسدد له رأيه ، فوافق ذلك سليمان وقال : لأعـقدن عقدا لا يكون للشيطان فيه نصيب[1] وهكذا جاءت الخلافة إلى عمر بن عـبد العزيز وهو غافل عنها زاهد فيها ، وكـان لرجاء مأثرة لا ينساها الاسلام ، ولا أعرف رجـلا من ندماء الملوك ورجالهم انتفع بقربه ومنزلته عند الملوك مثل انتفاعه ، وانتـهز الفرصة مثل انتهازه ، وأسدى للاسلام خدمة مثله .

حياته بعد الخلافة :

كان من أول ما بدأ به عمر فى خلافته هو عزله لبعض الولاة الجائرين ، ورفضه لمظاهر الابهة والفخفخـة التى جرى عليها الخلفاء الامويون عند استـخلافهم ، ورد كل ما عرض عليه فى ذلك الوقت من مراكب وسرادقات جـديدة إلى بيت المال وتغيرت سيرته فى تلك السعـة ، فكأنه لا يتصل بآبائه بصلة ، ولا يعـرف غيـر عمر اسـوة له . رد الجوارى إلى أهلهن وبلادهن ، ورد المظالم ، ورد المجالس التى أشبهت مجالس الاباطرة وتمسكت بسنن كسـرى وقيصـر إلى بساطتـها الاولى ووضعـها الاسـلامى ، فنهى عن القيـام له ، وابتدأ بالسلام ، وأباح دخول المسلمين عليه بغيـر اذن ، وخرج من ماله وعقاره ، ورده إلى مال المسلمين ، ووضـع حلى زوجتـه فى بيت المـال ، وبلغ من الزهد والشظـف فى الحيـاة والتقشف فى المعيشة مبلغا يعجز عنه الزهاد فضلا عن الملوك والامراء ، فقد كان يتأخر فى بعض الاحيان عن الخروج لصلاة الجمعـة انتظارا لقميصه أن يجف ، وقد يكون طعام بناته عدسا وبصلا فيبكى ويقـول : يا بناتى ما ينفعكن أن تعشين الألوان ويمر بأبيكن إلى النار ؟ ويشتـهى الحج فيقـول لمولاه : انى قد اشتـهيت الحج فهل عندك شئ ؟ قـال بضعة عـشر دينارا! قال : وما تقع منى ؟ ويمكث قليـلا فيقول له مولاه : يا أمير المؤمنين : تجـهز فقد جاءنا مـال سبعة عـشر ألف دينار من بعض مال بنى مـروان ، فيقول : اجـعلها فى بيت

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم : ص ٢٩ - ٣٠ .

المال ، فان تكن حلالا فقد أخذنا منها ما يكفينا ؛ وإن تكن حراما فكفان ما أصبنا منها . وكانت نفقته اليومية لا تزيد على درهمين ، حين كان يفرض للعمال ثلاث مائة دينار لكل واحد ليغنيهم عن الخيانة وكان يتورع عن تسخين الماء على مطبخ العامة ، ويتورع عن شم مسك الفئ ، وكان يطفئ الشمعة التى زيتها من بيت المال إذا شغله أحد بالسؤال عن شخصه ، كراهة لانفاق المسلمين فى غير حاجاتهم .

ولم يكن تورعه وضنه على مال المسلمين نزعة غريبة فى الزهد ، نقرأ أمثلتها فى كتب التاريخ والتراجم ، فى مثل حلية الاولياء لأبى نعيم ، ولم يكن فيه شئ من الغلو والاسراف أو الزهد الاعجمى ، فقد كان بعيدا عن كل ذلك ، إنما هى الطبيعة الدينية ونتيجة الايمان القوى ، والشعور بالمسؤولية ، ومعرفة قيمة الحياة واستحضار الآخرة ، ونتيجة « الحب » الذى إذا ملك القلب واستولى على الشعور ذابت الرغبات وتغيرت القيم والاقدار ولولا هذه المؤاخذة الشديدة للنفس ، ولولا هذا الحذر الشديد من ملاذ الحياة والتمتع بالمباحات ، لما استطاع مثل عمر بن عبد العزيز- وهو أكبر ملوك الأرض فى عصره - وهو فى دمشق - عاصمة العالم المتمدن يومئذ - أن يحفظ نفسه من الاندفاع إلى الترف ، ويضرب مثلا عاليا لامرائه وعمال مملكته فى الورع والزهادة والتحرز من الشبهات ، وما استطاع أن يخفف غلواء المدينة المترفة ويحد من شدتها وشرتها .

ولم يكن تورعه مقتصرا على ذاته - كما يفعله كثير من الزهاد - بل كانت سياسة عامة كان يريد أن يطبقها تطبيقا دقيقا على الدولة ورجالها - فكان يطلب منهم ويعزم عليهم أن يكونوا متورعين فى أموال المسلمين ، لا ينفقون منها الا القدر اللازم وأن يكونوا أشحة على أنفسهم أسخياء على المسلمين - بخلاف ما تجرى عليه الحكومات هذا اليوم - وكان حريصا على أن يوفر على المسلمين أموالهم ، ويعتقد أن الدرهم دم فلا يجوز أن يجرى فى غير عروقهم ، ولا يرى أن يضيع فى « الكماليات » و « الشكليات » ، كتب إلى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، - وكان والى المدينة « أما بعد ، فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر فيه انه كان يقطع لمن كان قبلك من أمراء المدينة من الشمع كذا وكذا يستضيئون به فى مخرجهم ، فابتليت بجوابك فيه ، ولعمرى لقد عاهدتك يا ابن حزم وأنت تخرج من بيتك فى الليلة الشاتية المظلمة من غير مصباح ، ولعمرى أنت يومئذ خير منك اليوم ، ولقد كان فى فتائل أهلك ما يغنيك والسلام » [1] . وكتب اليه أيضا وقد طلب

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز : ٦٣ - ٦٤ .

من الخليفة قراطيس يكتب عليها فى مصالح ولايته « أما بعد فقد قرأت كتابك إلى «سليمان تذكر أنه قد كان يجرى على من كـان قبلك من امراء المدينة من القراطيس لحوائج المسلمين كذا وكذا ، فابتليت بجوابك فيه . فـاذا جاءك كتابى هذا فارق القلم واجمع الخط واجمع الحوائج الكثـيرة فى الصحيـفة الواحدة فانه لا حـاجة للمسلمين فى فضل قـول اضر بيت مالهم والسلام عليك »[1] .

وهذا شأن من يعتبر المسلمين طفلا عزيزا فى حضانته ، ويعتبر مالهم أمانة عنده لا ينفق منه الا عن ثقة ويقين ، وهذا مثل الحكم العاقل العامل الدقيق ، الذى سماه التاريخ وسماه المسلمون بحق « بالخلافة الراشدة » .

اصلاحاته الواسعة فى نظام الحكم :

ان عظمة عمر بن عبد العزيز وعبقريته ليست محصورة فى ورعه وزهادته - وهو عظيم فى ذلك حقـا ، ويستـحق أن يسمى عبـقريا إذا عـرفناما كان يحـف الملوك من الاغراءات وفرص المتـعة ، وما كان يملكه من الحـرية المطلقة - وليست عظمـته محصورة فـى ما كان يؤاخذ به عماله وأمرائه من التـورع . ان أعظم ما يمتاز به هو انه نظر إلى الحكومة نظرة لم ينظرها الا الرسول وخلفاؤه الراشدون، فـقد كانت الحكومة فى عهده مقـصورة على جباية الاموال وانفاقها فى مصالح الدولة ، لا صلة لها بأخلاق الجمهور وعقائده وأخلاق الناس، ولا شأن لها بالضلالة والهداية وكان الذين يخلفـون الرسول الذى أرسل للناس كافة بشيرا ونذيرا وهاديا بأذنه وسـراجا منيرا ، كـان الذين يخلفون هذا الرسـول ، عصابة من جـباة الاموال يقيسون كل قضية فى هذه الدولة - التى كـانوا يسمونها الخلافة - بالمقياس المالى ، ولا ينظرون إلى شئ الا بالناحية المالية .

ظهر عمـر بن عبد العزيز فى هذه الاسـرة الحاكمة ، فـثار على هذه النظرة وعلى هذه النفسـية ، وقـال عن الحكومة كلمتـه المأثورة التى سجلهـا التاريخ ، ولا أعـرف كلمة فى التاريخ تبين روح الخلافة الراشدة وما تمـتازبه عن الحكومات الزمنية أبلغ من هذه الكلمة ، لقد شكا اليه بعض العمال أن أهل الذمة بدأوا يقبلون على الاسـلام فى عدد كبير وقد فشا فيـهم الاسلام ، وأصـبحت هذه قضـية تشـغل عقول « الاداريين » ذلك لأن الجـزية التى يفرضها الاسلام على أهـل الذمة - ولو كان بمقدار فيف ، يتضاءل بجانب مـا يتمتعون به من حقوق ، وما يعفون عـنه من خدمات - من أعظم موارد بيت المال ، فاذا أسلم هؤلاء

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز : ٦٤ .

سقت عنهم الجزية وخسرت مالية الدولة الاسلامية خسارة باهظة ، بلغت هذه الشكوى عاهل الدولة الاسلامية ، فأجاب عنها فى هدوء وثقة وكتب اليه « ان الله جل ثناؤه بعث محمدا ﷺ داعيا إلى الاسلام ولم يبعثه جابيا »[١] .

وعلى هذا الاساس وعلى هذه النظرة ، قامت دولته ، وهو أساس « الهدايه » التى بعث لها النبى ﷺ ، وبهذه النظرة كان ينظر إلى قضايا الحكومة ومصالحها وهى نظرة «المرشد» ونظرة « الداعى » ونظرة خليفة رسول الرسول الهادى ، وذلك مفتاح شخصية عمر بن عبد العزيز الذى نستطيع أن ندخل به إلى رحاب هذه الشخصية الفذة فى الاسلام، الفذة فى الأمم .

وقد طبق هذا المبدأ على حكومته الواسعة تطبيقا دقيقا ، فاذا تعارضت المصلحة المالية مع مصلحة من مصالح الشريعة ، رجح المصلحة الشرعية والحكم الشرعى على المصلحة المالية ولم يتردد ، يدل دلالة واضحة على ذلك ، وعلى ايمانه بهذا المبدأ ، كتابه الذى كتبه إلى عامله على اليمن عروة بن محمد يقول فيه: « أما بعد فانك كتبت إلى تذكر أنك قدمت اليمن ، فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ، ثابتة فى أعناقهم كالجزية، يؤدونها على كل حال ، ان اخصبوا أو أجدبوا ، وحيوا أو ماتوا ، فسبحان الله رب العالمين، ثم سبحان الله رب العالمين ثم سبحان الله رب العالمين ، إذا أتاك كتابى هذا ، فدع ما تنكر من الباطل إلى ما تعرفه من الحق ، ثم ائتنف الحق فاعمل به بالغا بى وبك ، وأن أحاط بمهج أنفسنا وان لم ترفع إلى من جميع اليمن الا حفنة من كتم ، فقد علم الله انى بها مسرور اذا كانت موافقة للحق والسلام »[٢] .

وكذلك رفع المكس - وهو مورد عظيم من موارد الحكومة - قال رحمه الله « وأما المكس فانه البخس الذى نهى الله عنه فقال ﴿ **ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين** ﴾ غير انهم كنوه بأسم آخر »[٣] .

وحط العشور والضرائب التى فرضتها الحكومة ، وقال : « فأما المسلمون فإنما عليهم صدقات أموالهم ، إذا أدوها فى بيت المال كتبت لهم بها البراءة ، فليس عليهم فى عامهم

---

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٧٥ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٢٦ .
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٩ .

ذلك فى أموالهم تباعه »[1] .

وفتح طريق البر والبحر للتجارة الحـرة ، ومنع الضرائب والمكوس « أما البحر فإنا نرى سبيله سبيل البر قال : ﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ﴾ فأذن فيه أن يتجر فيه من شاء ، وأرى أن لا نحول بين أحد من الناس وبينه ، فإن البر والبحر لله جميعا سخرهما لعباده ، يبتغون فيها من فضله ، فكيف نحول بين عباد الله وبين معائشهم »[2] .

وقد أحدث فى مملكته الواسعة اصلاحات واسعة الاثر ، فأمر بأن يكون تمام مكيال الأرض وميزانها واحدا فى جميع الأرض كلها[3] وحرم على العمال وموظفى الدولة أن يتجروا ، فكتب « ونرى أن لا يتجر امام ، ولا يحل لعامل تجارة في سلطانه الذى هو عليه، فان الامير متى يتجر ليستأثر ويصيب أمورا فيها عنت وان حرص على الا يفعل »[4] وبعد ثمانية قرون جاء ابن خلدون وكتب فى مقدمته العظيمة بعد تجارب طويلة ودراسة واسعة ، ما يصدق فراسة عمر بن عبد العزيز الصادقة ، وحكمته البالغة ، قال : « ان التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية »[5] والبلاد التى يحكمها الاوربيون -وهم تجار قبل كل شئ- شاهدة بصدق هذه النظرة .

وحرم السخرة بأنواعها - وهى التى درجت عليها الحكومات . وكان من آثارها الاهرام فى مصر ومبانى رومة العظيمة - فقال « ونرى أن توضع السخر عن أهل الأرض ، فان غايتها أمور يدخل فيها الظلم »[6] .

وكان الامراء ورجال الأسرة الحاكمة قد استحوذوا على قطع واسعة من الارض واتخذوها حمى ، وحرم منها الشعب ، فقال : « ونرى أن الحمى يباح للمسلمين عامة. . . وإنما الامام فيها كرجل من المسلمين ، إنما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء »[7] .

---

(١) أيضا ص ٩٨ .

(٢) ص ٩٩ .

(٣) ص ٩٩ .

(٤) ص ٩٩ .

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ١٩٧ .

(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٠٠ .

(٧) ص ٩٧ .

وفطن لأمور دقيقة لا تسترعى اهتمام الخليفة ، وعرف منافذ السوء والخيانة فسدها ، منها الهدايا التى كانت تهدى إلى العمال ، وكانوا يقبلونها لأن قبول الهدايا سنة ، وقد عرف عمر بن عبد العزيز تغير الأوضاع وتغير البيئات ، فحرمها وقال فى هدية أهديت اليه، وقال القائل قد كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية « هو لرسول الله ﷺ هدية وهو لنا رشوة ولا حاجة لى به » (١) .

وقد أصبح الخليفة محجوبا عن الناس لا سبيل لهم اليه ولا سبيل له إلى معرفة أحوالهم وما يجرى فى مملكته ، وقد بنى الحاشية حوله سياجا من حديد لا ينفذ منه اليه الا ما يشتهون وما تسمح به مصالحهم ، أما عمر بن عبد العزيز ، فقد أعلن بالجوائز والمكافأة المالية لمن يخبره بحقيقة الحال ، أو يشير عليه بشئ فيه مصلحة للمسلمين ومصلحة لدولتهم، وكتب إلى أهل المو سم :

« أما بعد ، فأيما رجل قدم الينا فى رد مظلمة أو أمر يصلح الله به خاصا أو عاما من أمر الدين ، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار ، بقدر ما يرى الحسبة وبعد سفر ، لعل الله يحيي به حقا أو يميت باطلا أو يفتح به من ورائه خيرا » (٢) .

عنايته بأخلاق الجمهور وأعماله :

لقد كان الخليفة إلى عهد عمر بن عبد العزيز كما قدمنا رأس دولة ، هى منظمة لجباية الأموال وحراسة النفوس والأرواح لا غير ، لا شأن له بما يعمله الناس فى بيوتهم وما يتخلقون به من أخلاق - ما دامت هذه الاعمال والاخلاق لا تتدخل فى شؤون الدولة - ولا شأن له بنزعاتهم وأفكارهم وعقائدهم وبسعادتهم الاخروية وبرقيهم الروحى والخلقى ، ولكن عمر بن عبد العزيز أول من عنى بهذه الناحية ، التى هى من مقاصد البعثة ، وواجبات الخلافة - بعد الفترة الطويلة التى جاءت بعد الخلافة الراشدة - وقد انقسمت الواجبات من مدة طويلة بين طائفتين ، فاستقلت الخلافة بالاعمال الادارية والمالية ، وانفرد العلماء بالحسبة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة والارشاد ، مع أن الخلافة بطبيعتها تجمع بين الناحيتين ، ولذلك سميت « الخلافة الراشدة » .

جاء عمر بن عبد العزيز فحارب هذه « الثنوية » وهذا الانقسام ، وجمع بين الادارة والارشاد ، والسياسة والدعوة ، وأثبت أنه خليفة حقا ، فلم يتقلد الخلافة حتى وجه

---

(١) ص ٦٣ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٤١ .

إلى عمال حكومته وأمراء الاجناد رسائل طويلة تتجلى فيها روح الدعوة والارشاد ، وهى تمثل نفسية الداعى والمرشد والعالم ، أكثر مما تمثل نفسية الحاكم والامير ، وقد كتبت فى اسلوب الدعوة إلى الله والتحذير على سخطه وعقابه وفى أسلوب الترغيب والترهيب .

ومن هذه الرسائل رسالة يصف فيها ما كان المسلمون عليه وما صاروا اليه ، ويبين سياسته لهم ، وفيها وصف مسهب وتصوير صادق للجاهلية ، وذكر للبعثة المحمدية ، وحث على قدر هذه النعمة العظمى والقيام بشكرها ، والتمسك بالدين الذى جاء[1]، ورسائل إلى أمراء الأجناد يعزم عليهم فيها بالمحافظة على الصلوات فى وقتها والعناية بالمدارسة ونشر العلم [2] ورسالةإلى عماله يحثهم فيها على اتباع ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه [3]، ورسالة يحثهم فيها على دعوة أهل الذمة إلى الاسلام وأنه غاية بعثة الرسل وبعثة محمد ﷺ [4]،ورسالة يشدد فيها على العمال بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويذكر ما يحدث الاخلال بهذه الفريضة من نتائج وخيمة وعقوبات من السماء ، ويقول فيها « أنه قد بلغنى أنه كثر الفجور فيكم ، وأمن الفساق فى مدائنكم ، وجاهروا من المحارم بأمر لا يحب الله من فعله ، ولا يرضى المداهنة عليه ، كان لا يظهر مثله فى علانيته قوم يرجون لله وقارا ويخافون منه غيرا ، وهم الأعزون الأكثرون من أهل الفجور، وليس بذلك مضى أمر سلفكم ، ولا بذلك تمت نعمة الله عليهم الخ » [5] .

ومنها رسالة يوصى فيها عماله بالاحتياط فى تنفيذ العقوبات ، ويشرح نظام التعزير الاسلامى [6] .

وفى رسالة ينهى عن النياحة واتباع النساء والتقاليد الجاهلية التى فشت فى عهده ، ويأمر بالحجاب ويقول « وتقدم إلى صاحب شرطكم فلا يقرن نوحا فى دار ولا طريق ، فان الله قد أمر المؤمنين عند مصائبهم بخير الامرين فى الدنيا والآخرة فقال : ﴿ **الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم رحمة ،**

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٧٨ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٧٩ .
(٣) ص ٩٤ .
(٤) ص ٩٣ .
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٦٨ .
(٦) ص ٨٠ .

وأولئك هم المهتدون ﴾ [1] وقد توسع الناس فى أمر النبيذ وتوصلوا منه إلى المسكرات ، ونشأت من ذلك شرور وآفات لم تزل تابعة للخمر ، وقد كتب فى ذلك رسالة خاصة يقول فيها « ولعمرى ان ما قرب للخمر فى مطعم أو مشرب أو غير ذلك يتقى » ويشرح نكتة تدل على بعد نظره واطلاعه الواسع ، يقول : « وما يشرب أولئك شرابهم الا من تحت أيدى النصارى الذين يهون عليهم زيغ المسلمين فى دينهم ودخولهم فى ما لا يحل لهم ، مع الذى يجمع نفاق سلعهم ، ويسارة المؤونة عليهم » ثم يقول فى أسلوب المربى الحكيم : « ان الله قد جعل عن الخمور والمسكرات غنى فى المشروبات الجائزة السائغة ، فما يحمل المسلمين على هذا الاثم ؟ وما لاحد من المسلمين عذر ان يشرب ما أشبه ما لا خير من الشراب ؟ فان الله جعل عنه غنى وسعة ، من الماء الفرات ، ومن الاشربة التى ليس فى الانفس منها حاجة من العسل واللبن والسويق والنبيذ من الزبيب والتمر » [2] .

وفى هذه الرسائل يتجلى عمر الخليفة الراشد بايمانه وحماسته وحكمته ، وكأننا -ونحن نقرأ هذه الرسائل - نقرأ رسائل عمر بن الخطاب إلى عماله ، ونسمع الداعى الحكيم ، والادارى المربى ، والوالد العطوف ، ينصح أولاده فى رفق وقوة ، وفى صرامة وحكمة ، ويجمع بين الادارة والتذكير ، وبين الانذار والتبشير ، وذلك شأن الحكم الاسلامى الصحيح وتفسير قوله تعالى : ﴿ **الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ .

عنايته بالدعوة إلى الاسلام :

ولم يقتصر عمر بن عبد العزيز على اصلاح المسلمين وتطبيق الشريعة الاسلامية على المملكة الاسلامية ، بل عنى بالدعوة إلى الاسلام فى غير المسلمين ، وكان لها تأثير كبير لاخلاصه وصدقه وحسن تمثيله للاسلام بحياته وأخلاقه .

قال البلاذرى فى فتوح البلدان : « وكتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الاسلام والطاعة على أن يملكهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه ، فأسلموا وتسموا بأسماء العرب » بلغتهم سيرته ومذهبه ، فأسلموا وتسموا بأسماء العرب » [3] .

---

(١) ص ١٠٨ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٠٢ .

(٣) فتوح البلدان .

ولما ولى اسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر مولى بنى مخزوم ، بلاد المغرب ، سار أحسن سيرة ودعا البربر إلى الاسلام ، وكتب اليهم عمر بن عبد العزيز كتابا يدعوهم إلى الاسلام ، فقرأه اسماعيل عليهم فى النوادى فغلب الاسلام على المغرب .

ولما استخلف كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الاسلام فأسلم بعضهم ورفع الخراج عمن أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم وابتنى خانات [1].

تدوين العلوم الاسلامية واحياء السنن النبوية :

ولم يقتصر تجديد عمر بن عبد العزيز على اصلاح نظام الحكم ، وتحويل السياسة المدنية إلى الخلافة النبوية ، بل تعداه إلى نواح كان لها أبعد الاثر وأعمقه فى حياة المسلمين ، ولا يزال المسلمون فى أنحاء العالم مدينين لها فى حياتهم الدينية ، فقد أقبل إلى تدوين العلوم الاسلامية التى هى من منابع الحياة فى المسلمين ، وقد تعرضت للضياع ، لانصراف الناس إلى السياسة والادارة والحروب ، وأول ما عنى به عمر بعد ما تقلد الخلافة ، هو علم الحديث ، وقد أراد الله أن يكون له فضيلة السبق فى هذا الميدان ، كما كان لجده العظيم -عمر بن الخطاب- فضيلة السبق لجمع القرآن ، فإنه هو الذى أشار على خليفة الرسول أبى بكر الصديق بجمعه .

وقد كتب إلى أحد كبار علماء الحديث وأوعية العلم فى عصره ، أبى بكر بن محمد بن حزم « أنظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه ، فانى خفت دروس العلم وذهاب العلماء » ، وأشار عليه بالعناية الخاصة بمجاميع عمرة ابنة عبد الرحمن الأنصارية ، وقاسم بن محمد بن أبى بكر ، لأهميتهما ، ولم يكتف - رحمه الله - بأبى بكر بن حزم ، بل كتب إلى عماله بالاقاليم « أنظروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه » [2] .

ولم يكتف بالحث على ذلك ، بل سعى فى تيسير هذه المهمة فأجرى الرزق على العلماء ورتب لهم رواتب ليتوفروا على نشر العلم ويكفوا مؤونة الاكتساب ، قال محمد بن الحكم : « وبعث عمر بن عبد العزيز يزيد بن أبى مالك الحارث بن محمد إلى البادية أن يعلما الناس السنة ، وأجرى عليهم الرزق ، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث ، وقال : « ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجرا ، فذكر لذلك لعمر بن عبد العزيز فقال : ما نعلم

---

(١) الاسلام والحضارة العربية لكرد على ج ٢ ص ١٨٩ .

(٢) تاريخ أصبهان لأبى نعيم .

بما صنع يزيد بأسا وأكثر الله فينا مثل الحارث »[1] .

وكان عمر من العلماء الراسخين الربانيين ، ولولا الخلافة وتكاليفها لكان من العلماء المعدودين ، ومن الفقهاء المشهورين .

قال الذهبي فى تذكرة الحفاظ : « كان يقرن بالزهرى فى علمه »[2] ، وقال مجاهد : «أتيناه لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه »[3] ، وقد حدث عنه الزهرى وأبو بكر بن حزم وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وله مسند مطبوع ، وكان حريصا على نشر العلم الصحيح والسنن النبوية ، الا أن الخلافة وأعباءها لم تمهله ، وقد كتب فى أوائل خلافته إلى عدى بن عدى : « ان للايمان فرائض وشرائع وحدودا وسننا ، فمن استكملها استكمل الايمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان ، فان أعش فسأبينها لكم حتى تعلموا بها ، وان أمت فما أنا على صحبتكم بحريص »[4] .

نماذج من رسائله تدل على فكرته ونفسيته :

ولا أدل على فكرته الاسلاميةالاصيلة وروحه الايمانية القوية من رسائله وكتبه التى وجهها إلى عماله وأمراء أجناده ، وهى رسائل لا يجد فيها المدقق مأخذا جاهليا وظلا من ظلال البيئة التى نشأ فيها ، يشعر فيها القارئ كأنه خلق فى الخلافة خلقا جديدا ، وكأن الروح الاسلامية تتكلم على لسانه وتفيض من قلمه .

منها رسالته التى كتبها إلى عامله الضحاك بن عبد الرحمن ، وقد بلغه أن بعض أهل البادية وممن تقلدوا الامارة حديثا يتحاربون إلى بعض القبائل العربية - شأنهم فى الجاهلية- ويزعمون أنهم ولاية على من سواهم ، ولما كان فى ذلك أحياء للنعرة الجاهلية والحمية الجاهلية ، وخروج على الوحدة الدينية والاخوة الاسلامية التى أبدلها الله بها العرب . شق ذلك على عمر بن عبد العزيز وأهمه ، ولو كان من سبقه من الخلفاء من أسرته تشاغل عنه أو استغله لمصالح دولته ، ولكن عمر لم يسعه السكوت عليه ، وكتب هذه الرسالة البليغة:

« أما بعد فان الله جعل الاسلام الذى رضى به لنفسه ومن كرم عليه من خلقه ، لا

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٦٧ .

(٢) تذكرة الحفاظ : ص ١٠٦ .

(٣) أيضا : ص ١٠٦ .

(٤) الجامع الصحيح للبخارى : كتاب الايمان ، باب قول النبى ﷺ : بنى الاسلام على خمس .

يقبل الله دينا غيره كرمه بما أنزل من كتابه الذى فرق بين الاسلام وبين ما سواه ، فقال: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام يخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ ، وقال : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا ﴾ . فبعث الله محمدا ﷺ حين بعثه ، وأنزل عليه الكتاب حين أنزله ، وأنتم معشر العرب فيما قد علمتم من الضلالة والجهالة والجهد وضنك العيش وتفرق الدار ، والفتن بينكم عامة ، والناس لكم حاقدون مستأثرون عليكم بالدين ، وليس من ضلالتهم من شئ الا وأنتم على مثله ؛ من عاش منكم عاش فيما ذكرت من الجهل والضلالة ، ومن مات منكم إلى النار ، حتى أخذ الله بنواصيكم عما كنتم فيه من عبادة الاوثان والتقاطع والتدابر وسوء ذات البين ، فأنكر منكركم ، وكذب مكذبكم ، ونبى الله عليه السلام يدعو إلى كتاب الله وإلى الاسلام ، ثم أسلم معه قليل مستضعفون فى الأرض ، يخافون أن يتخطفهم الناس فآواهم وأيدهم بنصره ، ورزقهم الله من أذن له بالاسلام والدنيا مقبوضة عنه ، والله منجز لرسوله موعوده الذى ليس له خلف ، فيراه من يراه بعيدا الا قليلا من المؤمنين فقال : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[1] . وقال فى بعض ما يعده المسلمين ان قال : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾ [2] . فأنجز الله نبيه عليه السلام وأهل الاسلام موعودهم الذى وعدهم ، فلم يعطكم يا أهل الاسلام ما أعطاكم من ذلك الا بهذا الذى تفنجون[3] به على خصمكم ، وبه تقومون شهداء يوم القيامة ، ليس لكم نجاة غيره، ولا حجة ولا حرز ولا منعة فى الدنيا والآخرة ، فإذا أعطاكم الله منه أحسن يوم وعدتموه فارجوا ثواب الله فيما بعد الموت فان الله قال : ﴿ تلك الدار الآخرة ، نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ [4] . وانى أحذركم هذا القرآن وتباعته ، فان تباعته وشروطه قد أصابكم منها أيتها الامة وقائع من هراقة دماء ، وخراب ديار وتفرق جماعات ، فانظروا ما زجركم الله عنه فى كتابه فازدجروا عنه ، فان أحق ما

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٤ والصف الآية ٩ .

(٢) سورة النور الآية ٥٥ .

(٣) فى مخطوطة ب « تفلحون » ولعل ما هنا اصوب .

(٤) سورة القصص الآية ٨٣ .

خيف وعيد الله بقول أو بعمل أو غير ذلك ، فان كان بقول فى أمر الله فنعما له ، وان كان بقول فى غير ذلك فإنما يفضى إلى سبيل هلكة ، ثم ان ما هاجنى على كتابى هذا أمر ذكر لى عن رجال من أهل البادية ، ورجال أمروا حديثا ظاهر جفاؤهم ، قليل عملهم بأمر الله ، اغتروا فيه بالله غرة عظيمة ونسوا فيه بلاءه نسيانا عظيما ، وغيروا فيه نعمه تغييرا لم يكن يصلح لهم أن يبلغوه ، وذكر لى أن رجالا من أولئك يتحاربون إلى مضر وإلى اليمن، يزعمون أنهم ولاية على سواهم وسبحان الله وبحمده ما أبعدهم من شكر نعمة الله ، وأقربهم من كل مهلكة ومذلة وصغر ، قاتلهم الله اية منزلة نزلوا ، ومن أى أمان خرجوا، أو بأى أمر لصقوا ، ولكن قد عرفت أن الشقى بنيته يشقى ، وان النار لم تخلق باطلا ، أو لم يسمعوا قول الله فى كتابه : ﴿ **إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون** ﴾ [(١)]. وقوله ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** ﴾ [(٢)]. وقد ذكر لى مع ذلك أن رجالا يتداعون إلى الحلف وقال : « لا حلف فى الاسلام قال - وما كان من حلف فى الجاهلية فلم يزده الاسلام الا شدة ، فكان يرجو أحد من الفريقين حفظ حلفه الفاجر الاثم الذى فيه معصية الله ،ومعصية رسوله ، وقد ترك الاسلام حين انخلع منه ، وأنا أحذر كل من سمع كتابى هذا ومن بلغه أن يتخذ غير الاسلام حصنا ، أو دون الله ودون رسوله ودون المؤمنين وليجة ، تحذيرا بعد تحذير ، وأذكرهم تذكيرا بعد تذكير ، وأشهد عليهم الذى هو آخذ بناصية كل دابة والذى هو أقرب إلى كل عبد من حبل الوريد وانى لم آلكم بالذى كتبت به اليكم نصحا ، مع انى لو أعلم أحدا من الناس يحرك شيئا ليؤخذ له به أو ليدفع عنه أحرص - والله المستعان - على مذلته من كان ، : رجلا أو عشيرة ، أو قبيلة ، أو أكثر من ذلك ، فادع إلى نصيحتى وما تقدمت اليكم به فانه هو الرشد ليس له خفاء ، ثم ليكون أهل البر وأهل الايمان عونا بالسنتهم ، وان كثيرا من الناس لا يعلمون . نسأل الله أن يخلف فيما بيننا بخير خلافة فى ديننا وألفتنا وذات بيننا والسلام » [(٣)].

وكذلك رسالته التى وجهها إلى منصور بن غالب حين بعثه على قتال أهل الحرب ، وفيها يتجلى ايمانه القوى بأن النصر من عند الله ، وأن فضل هذه الأمة على من سواها وميزتها ، فى صلتها الصادقة بالله ، والاحتراس من المعاصى والتفوق فى الطاعة ، وهذا

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٠ .

(٢) سورة المائدة الآية ٤ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٠٣ وما بعدها .

هو الفهم الاسلامى الذى كان طابع الصحابة وشعارهم ، ويظهر فى هذه الرسالة رفقه بالمسلمين وحنوه عليهم حنو الامهات والآباء ، وكذلك اهتمامه بأهل الصلح وأهل الذمة والحرص على مصالحهم ، وهذا مثل الخليفة الراشد ، يقول رحمه الله :

« هذا ما عهد به عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى منصور بن غالب حين بعثه على قتال أهل الحرب ، وجربه من استعرض من أهل الصلح ، آمره فى ذلك بتقوى الله على كل حال نزل به من أمر الله ، فان تقوى الله من أفضل العدة ، وأبلغ المكيدة وأقوى القوة ، وآمره ان لا يكون من شئ من عدوه أشد احتراما منه لنفسه ومن معه من معاصى الله ، فان الذنوب أخوف عندى على الناس من مكيدة عدوهم ، وإنما نعادى عدونا وننصر عليهم بمعصيتهم ، ولولا ذلك لم يكن لنا قوة بهم ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم فلو استوينا نحن وهم فى المعصية كانوا أفضل منا ، فى القوة والعدد ، فان لا ننصر عليهم بحقنا لا نغلبهم بقوتنا ، ولا تكونوا لعداوة أحد من الناس أحذر منكم لذنوبكم ، ولا تكونوا بالقدرة لكم أشد تعاهدا منكم لذنوبكم ، واعلموا أن معكم من الله حفظة عليكم ، يعلمون ما تفعلون فى مسيركم ومنزلكم فاستحيوا منهم وأحسنوا صحابتهم ولا تؤذوهم بمعاصى الله وأنتم زعمتم فى سبيل الله ، ولا تقولوا ان عدونا شر منا فلن يسلطوا علينا وان أذنبنا ، رب قوم قد سلط عليهم شر منهم بذنوبهم فاسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم . أسأل الله ذلك لنا ولكم .

وآمره أن يرفق بمن معه فى سفرهم ، ولا يجشمهم مسيرا يتعبهم فيه ولا يقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يلقوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم ، فإنما يسيرون إلى عدو مقيم جام الاهبة والكراع فان لا يرفقوا بأنفسهم وكراعهم فى مسيرهم يكن لعدوهم فضل فى القوة عليهم باقامتهم فى جمام الانفس والكراع والله المستعان .

وآمره أن يقيم ومن معه فى كل جمعة يوما وليلة يكون لهم راحة يجمعون فيها أنفسهم وكراعهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم .

وآمره أن ينحى منزله عن قرى الصلح ، فلا يدخلها أحد من أصحابه لسوقهم وجماعتهم الا من يثق بدينه وأمانته على نفسه ، ولا يصيبوا منها ظلما . ولا يتزودوا منها اثما ولا يؤذوا أحدا من أهلها بشئ الا لحق ؛ فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم ففوا لهم ولا تستنصروا على أهل أرض الحرب بظلم أهل (أرض) الصلح ، فلعمرى لقد أعطيتم مما يحل منهم ما يغنيكم عنهم فلم أترك لكم خللا فى العدة ، ولا رقة فى القوة فتظاهرت واكتفت لكم العدد ، وانتخب لكم الجند

وأغنيتك بأرض الشرك عن أرض الصلح . وبسطت لك أفضل ما بسطت لغاز ، فلم أجعل لك علة فى التقوية ؟ وبالله الثقة ولا حول ولا قوة الا بالله .

وآمره أن تكون عيـونه من العرب وممن يطمئن إلى نصيحتـه وصدقه من أهل الارض ، فان الكذوب لا ينفع خبره وإن صدق فى بعضه ، وان الغاش عين عليك وليس بعين لك ، والسلام عليك »[١] !

تأثير اصلاحاته فى الدولة والمجتمع :

إن هذه الاصلاحـات التى قام بها عمـر بن عبد العزيز فى عـهده ، وإن هذه الخطوات الجريئـة التى خطاها فى سبـيل اصلاح نظام الحكم وتطبيق الـشريعة على الحكومـة ، كان يخشى أن تسبب الأزمات المالية والخسائر الـفادحة وان تقع الدولة فى مشاكل جديدة لا تجد لها حلا ، وهذه حجة الثائرين على الدين والمعارضين لتطبيق الاحكام الاسلامية على النظم والحكومات ، والدعـاة إلى فصل الدين عن السيـاسة فى كل زمان ، وكـان عمر بن عـبد العزيز مسـتعدا ليواجه هذه الازمـات فى شجاعة ، وقد كتـب إلى عامله الذى تخوف من سوء عاقبة فشو الاسـلام فى أهل الذمة أنه يسره أن يحرث الارض ويأكل من عمل يده إذا أسلم أهل الملة كلهم فتنقطع الجزية وتعجز مالية الدولة من كفالته[٢] .

ولكن هذه الأزمـات لم تقع . وفجـأ الناس أن الرفـاهية قـد عمت ومـالية الدولة قـد قويت، واطمـأن الناس فى كل رقعة من رقع هذه المملكة الـواسعة ، حتى عـز وجود من يستـحق الزكاة ويقبلهـا ، وأصبحت هذه مشكلة لـلأغنياء وأصحاب الأمـوال تطلب حلا سريعـا ، قال يحـيى بن سعـيد : « بعـثنى عمر بن عـبد العـزيز على صدقـات افريقـية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا ولم نجد من يأخذها منى ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين »[٣] .

وقال رجل من ولد زيد بن الخطاب : « إنما ولى عـمر بن عبد العزيز سـنتين ونصفا ، فذلك ثلاثون شهرا ، فما مات حـتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيهم فما يجده فيرجع

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص : ٨٤ وما بعدها .
(٢) مناقب عمر بن عبد العزيز ، طبع أوربا : ص ٦٣ .
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز : ص ٦٩ .

بماله ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس [(١)].

ولا تزال خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية على من لا يزال يردد ترديد البغاء للكلمات والاصوات - ان الدولة التى تقوم على الاحكام الاسلامية والشريعة عرضة للمشاكل والازمات وعرضة للانهيار فى كل ساعة ، وأنها ليست الا حلما من الاحلام - ولا يزال هذا التاريخ يتحدى هؤلاء . . . ويقول لهم ﴿ **هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾.

إن هذه الفوائد المادية والرفاهية العامة من بركات الحكومة الاسلامية الصحيحة ومن نتائجها الطبيعية وهى فائدة لا يستهان قيمتها ، ولكن الفائدة الكبرى التى جرت على يد عمر بن عبد العزيز والتى أحرزته منصب التجديد . هى الاتجاه الجديد الذى اتجهته الأمة والمجتمع الاسلامى والتطور الذى وقع فى الاذواق والاخلاق والميول والرغبات فى هذه المدة القصيرة . فقد حدث الطبرى فى تاريخه عن على قال : « كان الوليد صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع وكان الناس يلقون فى زمانه فإنما يسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع ، فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام ، فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج والجوارى ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل ما وراءك الليلة وكم تحفظ من القرآن ومتى تختم ومتى ختمت وما تصوم من الشهر » [(٢)].

النقطة المركزية والاساسية فى حياة عمر بن عبد العزيز :

ان ميزة عمر بن عبد العزيز ليست فى الزهادة والتقشف ، فقد يشاركه فى ذلك بعض المتطوعين ورجال الحركات والثورات السياسية - وان كنت أشك أن أحدا بلغ مبلغه من العزوف عن الشهوات والزهد فى الحياة - ولكن ميزته الكبرى والسمة التى يتسم بها هو ان الدافع إلى كل ذلك هو ايمانه القوى بالآخرة ، وخشية الله والشوق إلى الجنة ، فلم يعش هذه الحياة الزاهدة الا خوفا لله وشوقا إلى الجنة ، وايثارا للآخرة على الدنيا ، وايمانا بقوله تعالى ﴿ **وما عند الله خير وأبقى** ﴾ وايمانا بقوله : ﴿ **وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون** ﴾ وتسليما لقول رسول الله : « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة » وهذا مفترق الطرق الذى ينفصل منه زهاد الاسلام عن السياسة ، وتلاميذ الرسول عن تلاميذ المدرسة السياسية والاقتصادية ، وليس لغير هذا الايمان القوى الذى امتاز به عمر بن عبد العزيز -ان يحفظ انسانا- فى مثل شباب عمر بن عبد العزيز وقوته وحريته وسلطانه - من اغراءات

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز : ص ١٢٨ .

(٢) تاريخ الامم والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى : ج ٣ ، ص ٩٨ (حوادث سنة ٩٦) .

المادية القاهرة ومن تسويلات الشيطان والنفس المغرية ، وتفرض عليه المحاسبة الدقيقة للنفس ، والاستقامة على طريق الحق ، فقد رأينا فى قادة الحركات السياسية الشعبية ، وفى رؤساء الدول التى تقوم على مبدأ الديموقراطية والاشتراكية والشيوعية ، كيف يتسللون إلى أنواع الترف والبذخ ، وكيف يعيشون فى القصور عيش الملوك ، وكيف يبيحون لأنفسهم التمتع بالملذات والامتيازات . أما عمر بن عبد العزيز فاذا نصح فى ذلك ، وأشير عليه بالتوسع فى المطعم والملبس والتمتع ببعض « حقوق » الخلفاء قرأ قول الله تعالى : ﴿ **إنى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم** ﴾ .

ولم يكن ذلك الا لعلو استعداده ومداركه ، ونتيجة الطموح الصادق الذى تتصف به النفس الكبيرة المؤمنة ، فانه لم يزل يتدرج فى المعالى حتى بلغ من ذلك الغاية التى ليست وراءها غاية فى هذه الحياة ؛ فطمحت نفسه إلى غاية فوقها ، وتاقت إلى نعيم لا يحول ، وملك لا يزول ، وقرة عين لا تنقطع . وكان شأنه فى ذلك شأن يوسف الصديق إذ قال : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليي فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾ . يتجلى هذا فى كلمته التى قالها لمزاحم مولاه : « إن لى نفسا تواقة ، لم تتق إلى منزلة الا تاقت إلى ما هى أرفع منها ، حتى بلغت اليوم المنزلة التى ليس بعدها منزلة ، وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة »(١) .

وكان شديد الخوف لله ، سريع الدمعة ، غزيرها ، دخل عليه رجل وبين يديه كانون فيه نار ، فقال عظنى ! قال يا أمير المؤمنين ! ما ينفعك من دخل الجنة إذا دخلت أنت النار؟ قال : فبكى عمر حتى أطفأ الكانون الذى بين يديه(٢) ، وقال يزيد بن حوشب : ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز ؛ كأن النار لم تخلق الا لهما »(٣) .

وفاة عمر بن عبد العزيز :

ولكن هذه المدة التى كانت أشبه بفصل الربيع فى عالم الدين والاخلاق ، وفى تاريخ الانسانية ، وكانت فلتة من فلتات الدهر لم تطل ؛ فقد توفى عمر بن عبد العزيز عام ١٠١ للهجرة بدير سمعان ، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر(٤) . ويدل بعض القرائن على أنه

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز : ص ٦١ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ب ١٠٨ - ١٠٩ .
(٣) صفة الصفوة لابن الجوزى : ج ٣ ص ١٥٦ .
(٤) ابن سعد ، ابن الاثير ، ابن الجوزى .

سم ؛ لأنه بمقدار ما سعدت الأمة وسعد به المجتمع الاسلامى ، شقى بنو أمية ، أسرته التى كانت تنظر إلى الخلافة كطعمة أو ملك شخصى ، ووقف عمر بن عبد العزيز حاجزا بينهم وبين شهواتهم وتصرفاتهم ، فكان ربح الاسلام فيه على حساب الاسرة الحاكمة ؛ فلا غرابة إذا تخلصوا منه ، وحرموا الاسلام من هذه الثروة الغالية .

إن كل ما تحدثنا عنه من مآثر جليلة ، وأعماله خالدة ، واصلاحات واسعة تتجمل بها حياة طويلة ، وعمر عريض قد تم فى سنتين وخمسة أشهر ؛ فكان عمر بن عبد العزيز معجزة من معجزات الاسلام ، وآية من آيات الله العظام فى جلالة عمله ، وضخامة انتاجه، وبعد أثره ، وكان معجزة ؛ لأن كل ذلك قد تم فى مدة قصيرة لم تعرف عن مصلح وعبقرى وادارى ، سنتان وبضعة أشهر يحقق فيها ما لا تحققه الحكومات والمنظمات فى عقود من السنين ، وبغير اتجاه أمة ومجتمع بأسره . إن هاتين السنتين لترجحان على الأعمار الطويلة ، وهذه الصفحات المعدودة المشرقة لترجيح على مكتبة حافلة فى تاريخ الاصلاح والادارة والسياسة .

يسعدنى - وأنا واقف فى دمشق - أن أحيى هذه الروح الطاهرة والشخصية الفريدة فى بلده وأعلن أن هذا العصر ليس بأحوج إلى شئ منه إلى رجل من طراز عمر بن عبد العزيز، وقد خلت القرون والأجيال ولم يظهر مثله ولا يزال التاريخ منشدا:

حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك - يا زمان فكفر

الجهود الاصلاحية فى القرن الثانى
الحسن البصرى وخلفاؤه

الانحطاط الخلقى والايمانى فى الأمة :

عادت الخلافة - عقب وفاة عمر بن عبد العزيز - سيرتها الاولى ، وأنشبت الجاهلية أظفارها فى المجتمع الاسلامى ، وكان الخليفة بعده كان حريصا على أن يملأ هذا الفراغ الذى أحدثه عمر فى اتجاه الخلافة المستمر ، وكذلك من جاء بعده من الخلفاء .

لقد نشأ الترف فى المجتمع الاسلامى - كما قدمنا - لعوامل سياسية واجتماعية واقتصادية، ونشأت طبقة المترفين بأخلاقهم ونفسيتهم ، وكثرت الأموال وأدوات الترف ، واشتدت الاغراءات المادية وفعلت فعلها فى المجتمع حتى أشرف الايمان والعمل الصالح - وبهما تمتاز هذه الأمة عن غيرها من الامم ، وفيها سر قوتها وانتصارها ، وهما تراث النبوة- على الضياع والتلف ، وأصبحت هذه الامة تتقدم إلى انهيار فى الاخلاق والروح ، وخمود فى العاطفة والشعور الايمانى ، وضعف فى صلتها بالله بخطى واسعة ، وكان ذلك نذيرا لكارثة كبرى ، كارثة أصيبت بها الامم من قبل ، وهى الافلاس فى الايمان والروح والاخلاق ، وهى خسارة لا تعوضها الدولة والحكومات والفتوح المادية والسياسية ، ولا بقاء لأمة - ذات رسالة وعقيدة - بعد ذلك :

بدت طلائع هذه الفاجعة فى الافق ، والخلافة مشغولة عن ذلك ؛ بل هى السبب فى حلولها ودنوها ، ولو أرادت أن تمنع وقوعها لما استطاعت ؛ لأن القائمين على رأسها لا يملكون تلك المؤهلات لا يستطيعون بها أن يواجهوا هذه الفاجعة ، وهى الايمان القوى والحياة النزيهة ، والاخلاق الاسلامية ، والدعوة التى تملك عليهم قلوبهم ومشاعرهم ؛ إنما هى طبقة من المترفين المتنعمين يحتاجون بأنفسهم إلى الدعوة والتربية .

لقد كان هذا التطور خطرا كبيرا على هذه الامة ، وكان أبعث على القلق من انتقاص أطراف مملكة الاسلام الواسعة ، وقلة مواردها ، إلى غير ذلك من الحوادث السياسية والتطورات الاقتصادية ؛ وذلك لأن الايمان ليس خلقه فى أمة أمرا يسيرا ، وليس لكل أحد أن يبعث هذا الايمان ، واذا زال لا يعود فى الغالب ، وتاريخ الامم والديانات شاهد على ذلك . تفلس أمة فى الايمان وتملك كل شئ ، وتنقطع صلتها بربها وتتصل بكل شئ ؛ فلا تعود سيرتها الاولى ، ولا تسترد ذلك الايمان وتلك الصلة القوية بالله ، وتذهب جهود

المصلحين والدعاة هباء منثورا . وهذه الأمم الأوربية والأمة الهندوكية العظيمة تصدق هذه الحقيقة . ان هذا الايمان بالله ، وان هذه الصلة الحية القوية التى عرفت بها هذه الامة ، وسحقت بها الامم ، وأخضعت بها العالم ، وان هذه المظاهر الايمانية التى تقرأ أمثلتها الرائعة فى تاريخ العهد النبوى والخلافة الراشدة : من انابة صادقة إلى الله ، وثقة به ، وتفان فى سبيله ، وعزوف عن الشهوات ، واستهانة بزخارف الحياة ، وشوق إلى الشهادة، وحنين إلى الجنة ، وخشوع فى الصلاة ، ولذة فى الدعاء ، وعطف ومواساة ، وزهد وايثار ، إلى غير ذلك ، مما هو نتيجة الايمان القوى العميق ، إنما كان منحة النبوة وتأثير الشخصية النبوية الفذة التى سعد بها العالم مرة فى التاريخ ، فاذا تجردت الأمة من هذه الثروات الايمانية التى منحتها النبوة الأخيرة وشخصية الرسول المعجزة ، فقد تجردت من رأس مالها ، وأفلست افلاسا تاما ، ولا مطمع فى ايجاد هذا الايمان ، واعادة هذه الثروة بعد ما انقطعت النبوة . أما تجديد هذا الايمان وتقويته قبل أن يزول ، والمحافظة على هذه الثروة والزيادة قبل أن تضيع ، فممكنة وميسورة ، إذا قام لذلك رجال أكفاء ، وجاهدوا فى سبيله حق الجهاد .

لقد واجهت الأمة فى سيرها نقطة تحول ، قد فطن لها من فتح الله بصيرته ، وألهمه الحكمة والدعوة ، عرفوا أن الأمة مهددة بخطر هو أعظم من الخطر الخارجى ومن الأخطار السياسية . هو خطر المادية الجارفة ، والانحطاط الخلقى والروحى ، ما أصيبت به أمة الا كانت فريسة للأدواء الخلقية والاجتماعية ، وخواء الروح ، وافلاس الباطن ، وعبادة الشهوات ، والتنافس فى الحياة وما أصيبت بذلك أمة الا ضاعت وطويت مع الأمم الغابرة، وقد أنبأ بهذا الخطر لسان النبوة قبل حدوثه ، فقد روى عن النبى ﷺ أنه خطب قبل وفاته خطبة أنذر فيها المسلمين بهذا الخطر وقال : « ما الفقر أخشى عليكم ؛ ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم ، فتتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم »(١).

لقد حل هذا الخطر ، وتحقق الذى تخوفه النبى ﷺ على هذه الأمة ، وقد بلغ ذلك أوجه فى عهد بنى أمية ؛ ولكن الله لطف بهذه الأمة ؛ إذا قيض لمواجهته ، والوقوف فى وجهه رجالا مخلصين ، ودعاه مؤمنين ، عارضوا هذا التيار بكل ما عندهم من قوى ومواهب ، ومنعوا عددا كبيرا من المسلمين أن تجرفهم المادية وتستعبدهم الشهوات . أنهم

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الزهد .

لم يستطيعوا أن يحولول التيار أو يوقفوا سيره ؛ ولكنهم استطاعوا أن يبطئوا سيره وينقذوا من لجته من استمع إليهم أو جالسهم وتأثر بدعوتهم . ان لهم فضلا لا ينساه الاسلام ، ولا يغمطه التاريخ ؛ لأنهم كانوا سببا وعاملا قويا فى استمرار الاسلام الروحى والخلقى الذى هو أهم من استمرار هذه الأمة النسلى والسياسى ؛ فإذا كان الفضل فى بقاء هذه الأمة ذات عدد كبير ومكانة سياسية يرجع إلى المجاهدين وملوك الاسلام ، فالفضل فى بقائها أمة ذات عقيدة ودين وأخلاق خاصة ، وطابع خاص تمتاز به بين الأمم ، يرجع إلى هؤلاء الدعاة المخلصين والمصلحين المجاهدين الذين بذلوا جهدهم فى المحافظة على خصائص هذه الأمة الباطنية والنفسية ، واتصال حياتها الروحية والخلقية ، ولا شك أن فضلهم أكثر ، ومنتهم أعظم ؛ فلا خير فى بقاء هذه الأمة من غير هذه الخصائص ، ولا لذلك بعث رسول الله ﷺ ودعا دعوته ، وجاهد الصحابة والتابعون لهم باحسان ، ولا لذلك كانت بدر وأحد ، واليرموك والقادسية ، ولا لذلك استحق المسلمون النصر والتأييد من الله ، إنما كان كل ذلك للعقيدة التى يعتقدونها ، والاخلاق التى يتصفون بها ، والدعوة التى يحملونها ، والسمة التى يتسمون بها ؛ فمن ساهم فى ذلك فهو من محسنى هذه الأمة وخلفاء الرسول بالحق ، والأمة مدينة له بالفضل إلى أن تقوم القيامة .

لقد كان هؤلاء الدعاة والمصلحون منبثين فى الحواضر الاسلامية ، مرابطين على الثغور، قائمين بلدعوة ، وليس كل أحد منهم ذكره التاريخ ، وليس كل أحد سجلت مواقفه ونتائج دعوته وجهاده ؛ ولكن اشتهرت منهم جماعة من فضلاء التابعين كان أشهرهم سعيد بن جبير ، ومحمد بن سيرين ، والشعبى ؛ ولكن الذى حمل هذه الراية ، وتفرد من بينهم بالامامة ، هو الحسن البصرى .

الحسن البصرى ، شخصيته ومؤهلاته :

ولد الحسن البصرى سنة ٢١ للهجرة ، وأبوه يسار ، مولى زيد بن ثابت ، صاحب رسول الله ﷺ ، وكاتب الوحى ، وأمه خيرة ، مولاة أم سلمة ، زوج النبى ﷺ ، نشأ فى بيتها ، ولقى جماعة كثيرة من الصحابة وسمع منهم .

وقد جمع الله فيه من الفضائل والمواهب ما استطاع به ان يؤثر فى قلوب الناس ، ويرفع به قيمة الدين وأهل الدين فى المجتمع ، فقد كان واسع العلم غزير المادة فى التفسير والحديث ، ولم يكن لأحد فى ذلك العصر أن ينشر دعوته ويقوم بالاصلاح ، الا إذا كان متوفرا على هذين العلمين ، وقد أدرك عصر الصحابة وعاصر كثيرا منهم ، ويظهر من حياته ومواعظه أنه درس هذا العصر دراسة عميقة ، وأدرك روحه ، وعرف كيف تطور

المجتمع الاسلامى ، ومن أين انحرف . وكان واسع الاطلاع ، دقيق الملاحظة للحياة ومختلف الطبقات وعوائدها وأخلاقها وعللها وأدوائها ، كطبيب مارس العلاج مدة .

وكان مع ذلك غاية في الفصاحة وحلاوة المنطق والتأثير فى مستمعيه ، يقول أبو عمرو ابن العلاء : « ما رأيت أفصح من الحسن البصرى ،والحجاج بن يوسف ! والحسن أفصح منه » . وكان آية فى اتساع المعلومات ووفور العلم ، قال الربيع بن أنس : اختلفت إلى الحسن عشر سنين ، وما من يوم الا أسمع منه ما لم أسمع قبله . وقال محمد بن سعد : كان الحسن جامعا عالما ورفيعا فقيها ، ثقة مأمونا ، عابدا ناسكا ، كثير العلم ، فصيحا ، جميلا وسيما ، وقدم مكة فأجلس على سرير ، واجتمع الناس اليه ، وقالوا : لم نر مثل هذا قط ! وقد وصفه ثابت بن قرة - كما نقل عنه أبو حيان التوحيدى - فقال :

« كان من درارى النجوم علما وتقوى ، وزهدا وورعا ، وعفة ورقة ، وفقها ومعرفة ، يجمع مجلسه ضروبا من الناس ، هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقف منه التأويل ، وهذا يسمع منه الحلال والحرام ، وهذا يحكى له الفتيا ، ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الوعظ ، وهو فى جميع ذلك كالبحر اللجاج تدفقا ، وكالسراج الوهاج تألقا، ولا تنس مواقفه ومشاهده بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، عند الامراء وأشباه الأمراء ، بالكلام الفصل واللفظ الجزل .

وكن فوق ذلك كله ، وهو سر تأثيره فى القلوب ، وسحره فى النفوس ، وخضوع الناس له - وقد قسوا على كثير من الوعاظ والعلماء - أنه كان صاحب عاطفة قوية ، وروح ملتهبة ، وكان من كبار المخلصين ، وكان يجمع بين بلاغة اللسان ، وقوة الايمان ، وكان يؤمن بما يقوله ويعمل بما يعتقده ، وكان الذى يقول يخرج من القلب فيدخل فى القلب ، وكان إذا ذكر الصحابة ، أو وصف الآخرة ، ادمع العيون وحرك القلوب ؛ لأنه يتذوق الايمان ، ويتكلم عن عاطفة ووجدان ؛ لذلك كانت حلقته فى البصرة أوسع الحلقات ، وانجذب الناس اليه انجذاب الحديد إلى المغناطيس - وذلك شأن أهل القلوب والاخلاص فى كل زمان - وكان من أعظم ما امتاز به هو أن كلامه كان من أشبه ما سمع الناس بكلام النبوة ، قال الغزإلى فى احياء العلوم : « ولقد كان الحسن البصرى رحمه الله أشبه الناس كلاما بكلام الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأقربهم هديا من الصحابة رضى الله عنهم ، اتفقت الكلمة فى حقه على ذلك » (١) .

---

(١) احياء العلوم : ج ١ ص ٦٨ .

كان نتيجة المواهب العظيمة والفضائل الكثيرة ، أنه كان صاحب شخصية قوية جذابة حبيبة إلى النفوس ، وكان الناس مأخوذين بسحرها ، خاضعين لعظمتها ، حتى قال ثابت بن قرة الحكيم الحرانى : « ان الحسن من أفراد الأمة المحمدية التى تتباهى بها على الأمم الأخرى » .

مواعظ الحسن البصرى :

ومواعظ الحسن البصرى تجمع بين القوة والسهولة التى عرف بها كلام عهد الصحابة ، وهى تدور غالبا حول قصر الحياة وغدر الدنيا ، وخلود الآخرة ، والحث على الايمان والعمل الصالح والتقوى والخشية والتحذير من غرور النفس وطول الآمال . ولا شك أن المجتمع الذى افترسته المادية ، واستحوذت عليه الشهوات ، وأصيب بالاغراق فى الترف، والامعان فى الامانى ، كان فى حاجة ملحة إلى مثل هذه المواعظ التى تكشف الغطاء عن العيون ، وتمس القلوب ، وكان يصور فى أكثر مواعظه عصر الصحابة ، وما اتسم به من أخلاق وصفات ، ويقارن بين عصرهم وعصره ، ويصف التدهور الذى أصيب به المجتمع الاسلامى فى الايمان والاخلاق . كان إذا وصل إلى هذه النقطة أثار الاحزان ، وهاج الوجدان . ومواعظه مثال جميل للنثر البليغ ، والادب الرفيع ، وموضوع دراسة الاديب والناقد ، وأقدم هنا مثالين من هذه المواعظ ، فمنها موعظته يذكر فيها عهد الصحابة ، ويصف المؤمن :

« هيهات هيهات ! أهلك الناس الامانى : قول بلا عمل ، ومعرفة بغير صبر ، وايمان بلا يقين ، مالى أرى رجالا ولا أرى عقولا ! وأسمع حسيسا ولا أرى أنيسا ! دخل القوم والله ثم خرجوا ، وعرفوا ثم أنكروا ، وحرموا ثم استحلوا ، إنما دين أحدكم لعقة على لسانه ، إذا سئل أمؤمن أنت بيوم الحساب ؟ قال : نعم ! كذب ومالك يوم الدين ؛ إن من أخلاق المؤمن قوة فى دين ، وايمانا فى يقين ، وعلما فى حلم ، وحلما بعلم ، وكيسا فى رفق ، وتحملا فى فاقة ، وقصدا فى غنى ، وشفقة فى نفقة ، ورحمة لمجهود ، وعطاء فى الحقوق ، وانصافا فى الاستقامة ، لا يخيف على من يبغض ، ولا يأثم فى مساعدة من يحب ، لا يهمز ولا يغمز ولا يلمز ، ولا يلغو ، ولا يلهو ولا يلعب ، ولا يمشى بالنميمة ، ولا يتبع ما ليس له ، ولا يجحد الحق الذى عليه ، ولا يتجاوز فى العذر ، ولا يشمت بالفجيعة إن حلت بغيره ، ولا يسر بالمعصية إذا نزلت بسواه .

المؤمن فى الصلاة خاشع ، وإلى الركوع مسارع ، قوله شفاء ، وصبره تقى ، وسكوته فكرة ، ونظره عبرة ، يخالط العلماء ليعلم ، ويسكت بينهم ليسلم ، ويتكلم ليغنم ، ان

احسن استبشر ، وان اساء استغفر ، وان عتب استعتب ، ان سفه عليه حلم ، وان ظلم صبر ، وان جير عليه عدل ، ولا يتعوذ بغير الله ، ولا يستعين الا بالله ، وقور فى الملأ ، شكور فى الخلاء ، قانع بالرزق ، حامد على الرخاء ، صابرا على البلاء ، ان جلس مع الغافلين كتب من الذاكرين ، وان جلس مع الذاكرين كتب من المستغفرين .

هكذا كان أصحاب النبى ﷺ ، الاول فالاول ، حتى لحقوا بالله عز وجل وهكذا كان المسلمون من سلفكم الصالح ، وإنما غير بكم لما غيرتم ، ثم تلا ﴿ **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه وال** ﴾[1] .

وموعظة أخرى يفسر فيها آيات من سورة الفرقان ، ويصف المؤمنين الأولين :

« ان المؤمنين لما جاءتهم هذه الدعوة من الله صدقوا بها ، وأفضى يقينها إلى قلوبهم ، خشعت لله قلوبهم وأبدانهم وأبصارهم ، كنت والله إذا رأيتهم رأيت قوما كأنهم رأى عين ، والله ما كانوا بأهل جدل ولا باطل ، ولكنهم جاءهم أمر من عند الله فصدقوا به ، فنعتهم الله فى القرآن أحسن نعت ، فقال : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا** ﴾ والهون فى كلام العرب : اللين والسكينة والوقار ﴿ **اذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ حلماء لا يجهلون ، وإن جهل عليهم حلموا ، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون . ثم ذكر ليلهم خير ليل فقال : ﴿ **والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما** ﴾ ينتصبون على أقدامهم ، ويفترشون وجوههم سجدا لربهم ، تجرى دموعهم على خدودهم فرقا من ربهم، لأمر ما سهروا ليلهم ، ولأمر ما خشعوا نهارهم ، قال : ﴿ **والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما** ﴾ وكل شئ يصيب ابن آدم ثم يزول عنه فليس بغرام ، إنما الغرام اللازم له ما دامت السموات والأرض ، صدق القوم والله الذى لا اله الا هو ، فعملوا وأنتم تتمنون ، فإياكم وهذه الامانى رحمكم الله ! فان الله لم يعط عبدا بأمنيته خيرا فى الدنيا والآخرة »[2].

صدعه بالحق وشجاعته أمام رجال الحكم :

وكان الحسن البصرى صادعا بالحق ، شجاعا لا يخشى فى صدعه بالحق غائلة ، وهذه الشجاعة لها قيمتها ومكانتها فى الحكومات الشخصية التى لم تزل حرة فى تصرفاتها

---

(١) الحسن البصرى لابن الجوزى : ص ٦٩ ، ٦٠ .
(٢) قيام الليل : ص ١٢ .

وأهوائها ، عنيفة قاسية فى حكمها ، سريعة متهورة فى تنفيذ ارادتها وانفعالاتها ، وقد روى التاريخ من أخبار شجاعة الحسن الدينية ما يرفع مكانته فى علماء عصره ، ودعاة الاصلاح ، منها ما رواه ابن خلكان ، قال « لما ولى عمر بن هبيرة الفزارى العراق ، وأضيفت إلى خراسان ، وذلك فى أيام يزيد بن عبد الملك ، استدعى الحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين ، والشعبى ، وذلك فى سنة ثلاث ومائة فقال لهم : ان يزيد خليفة الله استخلفه على عباده ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولانى ما ترون ، فيكتب إلى بالامر من أمره فأقلده ما تقلده من ذلك الأمر فما ترون؟ قال ابن سيرين والشعبى قولا فيه تقية ، قال ابن هبيرة : ما تقول يا حسن ؟ فقال : يا ابن هبيرة ! خف الله فى يزيد ، ولا تخف يزيد فى الله ، ان الله يمنعك من يزيد ، وان يزيد لا يمنعك من الله ، وأوشك أن يبعث اليك ملكا فيزيلك عن سريرك ، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك الا عملك . يا ابن هبيرة ! إن تعص الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصرا لدين الله وعباده ، فلا تركبن دين الله وعباده لسلطان الله ؛ فانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » فأجازهم ابن هبيرة ، وأضعف جائزة الحسن ، فقال الشعبى لابن سيرين : سفسفنا له فسفسف لنا .

وروى ابن سعد فى طبقاته ، باسناده عن مسلم بن أبى الذيال ، قال : « سأل رجل الحسن وهو يسمع وأناس من أهل الشام فقال : لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ، فقال رجل من أهل الشام : ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد ؟ فغضب ، ثم قال بيده فخطر بها، ثم قال ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد ، نعم ! ولا مع أمير المؤمنين » (١) .

النفاق والمنافقون فى الدولة الاسلامية :

لقد نشأت فى المملكة الاسلامية بحكم نفوذ الاسلام السياسى والمادى ، طبقة تدين بالاسلام ، وتتسمى بالمسلمين ؛ ولكنها لم تسغ الاسلام اساغة يطلبها الاسلام ، ولم تمثله فى أخلاقها وسلوكها وميولها أنها لم تتحقق بحقيقة الايمان ، ولم تدخل فى السلم كافة كما يأمر به القرآن ، وقد وجد فى الجيل الاسلامى الجديد الذى لم تتم تربيته على أساس الاسلام ، رجال لم تنق رؤوسهم ولا نفوسهم من النزعات الجاهلية ، ولم تكن صلتهم بالاسلام صلة عميقة متغلغلة فى الاحشاء ، مسيطرة على الحياة والتفكير ، وقد وجد فى المجتمع ، وبصفة خاصة فى دوائر الحكومة ، وفى أوساط الأمراء والأغنياء ، أفراد – ليس

---

(١) طبقات ابن سعد : ج ٧ ، ص ١٩ .

عددهم قليلا - يمثلون بأخلاقهم وأساليب حياتهم ومناهج تفكيرهم المنافقين القدماء ، وهؤلاء هم الذين كانت لهم السيطرة على الحياة والنفوذ فى المجتمع ، يشغلون فى الحكومة مناصب خطيرة ، ويحتلون فى الجيش مراكز كبيرة ، وكانت عاداتهم وأخلاقهم وأزياؤهم هى التى يقلدها المتطرفون والمتأنقون من الشباب والأغنياء .

اعتقد بعض العلماء ، ان النفاق قد انقرض ، وأنه كان مرضا محليا ومؤقتا اقتضته الظروف الخاصة فى العصر الاسلامى الاول ، فلما غلب الاسلام وزالت شوكة الكفر وانتهى الصراع بين فكرتين متنافستين وبين قوتين متحاربتين ، وبقى الاسلام لا يصارعه الكفر ، فقدت الطبقة التى كانت تعالج صراعا نفسيا ، وتتأرجح بين الاسلام والكفر ، فلا تخلص لأحد منهما ؛ وتتمتع بمنافعهما فى وقت واحد ، أما وقد بقى اسلام ولا كفر - كما هو الشأن فى الدولة الاسلامية - أو كفر ولا اسلام - كما هو الشأن فى دار الحرب - فلا حاجة إلى هذا الاسلوب من التفكير وهذا الطراز من النفسية ، ولا محل للنفاق فى دار الاسلام التى يحكم فيها الاسلام ، ويسود فيها الدين ؛ وقد راجت هذه الفكرة فى الاوساط العلمية فى الزمن المتقدم ، وترى لها ظلالا فى كتب التفسير والتاريخ .

ولكن يجب أن يلاحظ ، أن النفاق علة قديمة من علل الفطرة البشرية ، يصاب بها ضعاف النفوس فى كل عصر من العصور . ولا يتولد هذا المرض فى مجتمع يتصارع فيه الاسلام والكفر ويتكافآن فحسب ؛ بل يتولد كذلك حيث يسيطر الاسلام ويحكم . فتوجد طبقة لا تسيغ الاسلام بسبب من الاسباب ؛ ولكنها لا تملك الشجاعة التى تحملها على إنكار الاسلام والاعلان بعقيدته وموقفه أو لا تسمح مصالحه وأغراضه وملابساته بأن تتنازل عن الفوائد والمناصب التى تتمتع بها بفضل الانتساب إلى الاسلام . وعن المركز الذى تحتله فى الأمة لأجل ثقتها بها واعتمادها عليها . فهى تستغل الاسلام لمصالحها وتظهر فى مظهر لتحافظ على شخصيتها وتؤمن مستقبلها ؛ ولكنها لا تخضع للاسلام خضوعا حقيقيا ولا تسيغ فكرته وعقيدته ونظامه . فتظل طول حياتها مذبذبة بين الاسلام والكفر . مضطربة اضطرابا عقليا ونفسيا وعمليا . تحكى المنافقين السابقين فى فساد الأخلاق ، وعبادة الشهوات والتهالك على اللذات ، وانتهاز الفرص ، وترجيح المصلحة الشخصية على المصلحة الاجتماعية ، والجرأة والاستئساد على الضعفاء ، والجبن والخور أمام الأقوياء .

وقد وجد فى العلماء والمحققين من أثبت أن النفاق ظاهرة اجتماعية وعلة نفسية لا ينحصر فى زمان خاص ومكان خاص . يعجبنى فى ذلك كلمة المفكر الاسلامى الكبير شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى ، المعروف بالشيخ ولى الله ، فقد قال فى

كتابه البديع « الفوز الكبير فى أصول التفسير » بعد ما ذكر أن النفاق قسمان : النفاق فى العقيدة ، والنفاق فى العمل والأخلاق : أما النفاق فى العقيدة فإن كان ممكنا وواقعا بعد عصر الرسالة ، ولكنه لا يمكن الجزم به لإنقطاع الوحى . أما نفاق العمل والأخلاق ، فكثير وشائع فى كل عصر من العصور . يقول : « ان النفاق شائع ومشاهد فى هذا العصر، وان أحببت أن ترى أنموذجا للمنافقين فعليك بمجالس الأغنياء وندمائهم ، كيف آثروا هوى سادتهم على حكم الشارع ، إن الحق يجب أن يقال : أنه لا فرق بين من سمع كلام النبى ﷺ من غير واسطة ، واختار النفاق ، وبين من ولد فى هذا العصر ، وعرف بطريق اليقين حكم الشارع ثم آثر ضده عليه ورجح كلام غيره ، وكذلك جماعة من علماء الفلسفة والعلوم العقلية اليونانية - فى الاسلام - يحملون شبهات عظيمة ، وشكوكا كثيرة فى قلوبهم ، ونسوا المعاد حتى لا يخطر منهم على بال ، هم نموذج المنافقين فى عصرنا ».

دلالة الحسن البصرى على النفاق والمنافقين ونفوذه فى المجتمع :

لقد كان من ذكاء الحسن البصرى وفطنته الدينية ؛ أنه اهتدى إلى أن النفاق لا يزال يعيش فى المجتمع الاسلامى ، وأن المنافقين لهم صولة وجولة فى الدولة الاسلامية ، وسيطرة على الحياة والسياسة ، وأن المدن الكبيرة والعواصم الاسلامية مدينة لهؤلاء فى الزهو واللهو . قال له رجل يا أبا سعيد ! أليوم نفاق ؟ قال : لو أخرجوا من أزقة البصرة لاستوحشتم فيها [1]، وقال فى مناسبة أخرى « يا سبحان الله ! ما لقيت هذه الأمة من منافق قهرها واستأثر عليها » [2] يشير إلى الحكام والأمراء . وقال مرة : لو خرجوا لما انتصفتم من عدوكم » يشير إلى الجيش الاسلامى وقواده . وهكذا تناول الطبقات الممتازة فى الأمة، وبين أن فيها النفاق والمنافقين ، أن لهم السيادة والغلبة .

وكان من أعظم أسباب تأثير الحسن البصرى فى المجتمع ، ونفوذه فى القلوب والعقول، أنه ضرب على الوتر الحساس ، ونزل فى أعماق المجتمع ، ووصف أمراضه ، وانتقده انتقاد الحكيم الرفيق ، والناصح الشفيق ، لقد كان عصره يغص بالدعاة والوعاظ ، ولكن المجتمع لم يخضع لأحد خضوعه للحسن ، لأنه كان يمس قلبه وينزل فى صميم الحياة ، ويعارض التيار . أنه كان ينعى على الاخلاد إلى الحياة والانهماك فى الشهوات . وقد انتشر هذا المرض فى الحياة . أنه كان يذكر بالموت ، ويستحضر الآخرة . والمترفون يتناسون

---

(١) صفة النفاق وذم المنافقين للمحدث أبى بكر : ص ٦٨ .

(٢) أيضا : ص ٥٧ .

ذلك ويعللون نفوسهم بالامانى الكاذبة والأحلام اللذيذة ، ويتضايقون بذكر ما يكدر عليهم الحياة ويعكر صفو عيشهم ، فكان دائما فى صراع مع الجاهلية . والجاهلية لا تخضع الا لمن صارعها . ولا تعترف الا بوجود الرجل الذى يحاربها . وكان الحسن البصرى هو ذلك الرجل . فعظم تأثيره وكثر التائبون والمقلعون عن المعاصى والحياة الجاهلية التى كانوا يعيشونها وانطلقت موجة الاصلاح قوية مؤثرة ؛ لأن الحسن لم يقتصر على مواعظ وخطب كان يلقيها ؛ بل كان يعنى بتربية من يتصل به ويجالسه . فكان جامعا بين الدعوة والارشاد، وبين التربية العملية والتزكية الخلقية والروحية . فاهتدى به خلائق لا يحصيهم الا الله ، وذاقوا حلاوة الايمان وتحلوا بحقيقة الاسلام . وقد صدق عوام بن حوشب إذ قال: « ما أشبه الحسن الا بنبى أقام فى قومه ستين سنة يدعوهم إلى الله »[(١)] .

وفاة الحسن البصرى :

وكان من أثر هذا الاخلاص ، والتفانى فى الدعوة ، والتأثير فى القلوب ، أنه أجمعت القلوب على حبه والاعتراف بفضله وشغلت به البصرة . وكانت المدينة التى تلى دمشق فى العظمة والأهمية فى ذلك العصر . حتى إذا مات فى سنة ١١٠ هـ - وكان دفنه بعد صلاة الجمعة - تبع الناس كلهم جنازته ، واشتغلوا به ، فلم تقم صلاة العصر بالجامع ؛ لأنه لم يبق بالمسجد من يصلى العصر . وقال بعضهم ممن شهد جنازته « لا أعلم أن صلاة العصر تركت فى الاسلام (يعنى فى جامع البصرة) الا يومئذ »[(٢)] .

وجرى خلفاء الحسن - ممن توارثوا علمه وروحه - على الدعوة إلى الله والتذكير بالآخرة ، والدعوة إلى حقيقة الايمان وسيرة الاسلام ؛ وهكذا اتصل تاريخ الاصلاح والتجديد والدعوة إلى الاسلام الحقيقى من جديد لاتتخلله فترة ، وانتقلت العاصمة الاسلامية بعد اثنتين وعشرين سنة من وفاة الحسن البصرى من دمشق إلى بغداد ، وأصبح العراق مركز الحضارة والسياسة فى عالم الاسلام .

الخلافة العباسية وأثرها :

قامت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية ،وخلفتها فى أساس الحكم ومناهجه، والروح السارية فى الجهاز الادارى ، ونظرتها إلى بيت المال وإلى المسلمين ، والاثرة

---

(١) دائرة المعارف للبستانى ، ج ٧ ص ٤٤ .

(٢) ابن خلكان : ترجمة الحسن البصرى .

والترف ، وامتازت عنها في شئ واحد ، وهو أن الدولة الأموية كانت عليها مسحة العروبة، وكانت محافظة على الروح العربية والتقاليد العربية ، وكانت عيوبها والأخلاق التي يمثلها رجال الحكم هي عيوب العرب ورؤساء القبائل إذا ضعفت صلتهم بالدين ، أو طغت عليهم النزعة القبلية أو جرفتهم المادية .

أما الدولة العباسية ، فقد سرت فيها الروح العجمية ، وأصيبت بعلل الحضارة العجمية وعيوبها ، واتسعت الدولة اتساعا عظيما ، وامتدت على مساحة واسعة من آسيا وافريقيا ؛ حتى روى أن هارون الرشيد مرت به قطعة من سحاب فخاطبها وقال : « أمطرى حيث شئت ، فسيأتيني خراجك » .

وقد روى ابن خلدون أن دخل المملكة في عهد الرشيد كان في كل سنة ٧٠١٥ قنطارا ، والقنطار في حسابه عشرة آلاف دينار ؛ فيكون مجموع ذلك سبعين مليونا ومائة وخمسين ألف دينار [١] . وإذا لحظنا رخص الأسعار وكثرة الانتاج ، وجدنا أن الميزانية ضخمة ، وقد زادت هذه الميزانية زيادة عظيمة في عهد المأمون ، وقد كانت بغداد - بحكم أنها عاصمة الامبراطورية الاسلامية - مصب أموال المملكة الواسعة الغنية ، وسوق الطرائف والخيرات والمنتجات ، ومنتجع أصحاب الحرف والصناعات ، كما كانت منتجع أصحاب المجون والمغنين الكبار والشعراء ونوابغ كل فن جديد وهزل وحق وباطل ؛ فأمعنت بغداد في الحضارة ، وتفننت في الترف والسرف ، وبلغت المدنية شأوا بعيدا لا تبلغه الدول الا بعد قرون . وقد وصلت اليه الدولة العباسية في قرن واحد ، وقد أثرت هذه الحضارة المنحرفة،والأموال المغدقة ، والاختلاط بالعجم ، وازدحام الجوارى والرقيق من كل جنس ومن كل بلد ، في الأخلاق والميول والعادات ، وأغرق الناس في هذه المدنية التي هي مزيج من مدنيات مختلفة ، وأقبلوا على اللهو والبذخ اقبالا يصوره كتاب « الحيوان » للجاحظ : وكتاب « الاغاني » لأبى الفرج الاصبهاني [٢] .

ويستطيع الرجل أن يأخذ فكرة عن هذه المدنية المترفة ، وعن الحياة الباذخة ، وإلى ما وصل إليه الخلفاء ، ومن كان يتصل بهم ومن كان على آثارهم إذا قرأ قصة عرس المأمون الخليفة العباسي .يقول ابن خلكان - وقد جمع روايات مختلفة - :

« تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل ، واحتفل أبوها بأمرها ، وعمل من الولائم

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ١٥١ .

(٢) راجع كتاب الحيوان للجاحظ : ج ٢ ، ص ٩١ و ج ٥ ص ١١٥ ومجلدات الاغاني .

والأفراح ما لم يعهد مثله فى عصر من الاعصار ، وكان ذلك بفم الصلح ، وانتهى أمره إلى ان نثر على الهاشميين ، والقواد ، والكتاب ، والوجوه ، بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع ، وأسماء جوار ، وصفات دواب ، وغير ذلك ، فكانت البندقية إذا وقعت فى يد الرجل فتحها ، فيقرأ ما فى الرقعة ، فإذا علم ما فيها ، مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها اليه ، ويتسلم ما فيها ، سواء كان ضيعة أو ملكا آخر ، أو فرسا ، أو جارية ، أو مملوكا ، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ، ونوافج المسك وبيض العنبر ، وأنفق المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه- وكانوا خلقا لا يحصى - حتى على الحمالين ، والمكارية ، والملاحين ، وكل من ضمه عسكره ؛ فلم يكن فى العسكر من يشترى شيئا لنفسه ولا لدوابه » (١) .

وذكر الطبرى فى تاريخه « ان المأمون أقام عند الحسن تسعة عشر يوما ، يعد له فى كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج اليه ، وكان مبلغ النفقة عليهم بخمسين ألف ألف درهم ، وأمر له المأمون عند منصرفه بعشرة آلاف ألف درهم ، وأقطعه فم الصلح ، فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه .

وقال غيره : « وفرش للمأمون حصير منسوج بالذهب ، فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلئ كثيرة . . . وأطلق المأمون خراج فارس وكور الاهواز مدة سنة » .

وقال الطبرى أيضا : « دخل المأمون على بوران الليلة الثالثة من وصوله إلى فم الصلح، فلما جلس معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت فى صينية ذهب ، فأمر المأمون أن تجمع، وسألها عن عدد الدر كم هو ؟ فقالت : ألف حبة ، فوضعها فى حجرها . . .

أوقدوا فى تلك الليلة شمعة عنبر وزنها أربعون منا فى تور من ذهب ؛ فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال : هذا سرف » (٢).

وأنا لا أريد أن أسائل هل يبيح الاسلام هذا السرف المتناهى ؟ فالجواب واضح ، ولا أريد أن أقارن بين زواج فتى بنى هاشم « على بن أبى طالب » مع سيدة نساء أهل الجنة ، وبضعة الرسول « فاطمة بنت محمد رسول الله » ﷺ ، فالقصة غنية عن المقارنة ، ولا يوجد لها نظير فى التاريخ بسهولة كما لاحظ ابن خلكان ، ولا أريد أن أسائل من أى مال أنفق هذه النفقات الملوكية ؟ وهل سمحت الأمة بها ؟ اننى لا أريد أن أثير هذه الاسئلة ؛

---

(١) وفيات الأعيان ، ترجمة بوران بنت الحسن ، الجزء الأول ، ص - ٢٦٠ طبع مكتبة النهضة.

(٢) وفيات الأعيان ، ترجمة بوران بنت الحسن ، الجزء الأول ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

ولكنى أريد أن أصور لكم - بعض التصوير - المدنية المترفة التى كانت تسود فى العصر العباسى الأول ، وإلى أى حد بلغ العبث بالأموال ، وكيف تطور ، بل تطرف الذوق العربى الاسلامى ؛ حتى وصل فى مدة قليلة إلى هذا الحد من التأنق والتبذير فى الولائم والأعراس .

واليكم حكاية ثانية تدل على ما وصلت اليه المدنية فى العصر العباسى من التأنق والاسراف فى الولائم والمآدب ، وذلك فى عصر الرشيد الذى يتقدم عصر المأمون الذى حكيت عنه !

روى المسعودى فى كتابه مروج الذهب قال :

« حدث ابراهيم بن المهدى قال : استزرت الرشيد بالرقة ؛ فزارنى ، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد ؛ فلما وضعت البوارد ، رأى فيما قرب اليه منها جام قريض سمك ، فاستصغر القطع ، وقال : لم صغر طباخك تقطيع السمك ؟ فقلت يا أمير المؤمنين ! هذه ألسنة السمك ، قال : فيشبه أن يكون فى هذا الجام مائة لسان ، فقال مراقب خادمه : يا أمير المؤمنين ! فيها أكثر من مائة وخمسين ، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك ، فأخبره بأنه قام بأكثر من ألف درهم ، فرفع الرشيد يده ، وحلف أن لا يطعم شيئا دون أن يحضره «مراقب» ألف درهم ، فلما حضر المال أمر أن يتصدق به ، وقال : أرجو أن يكون كفارة لسرفك فى انفاقك على جام سمك ألف درهم ، ثم ناول الجام بعض خدمه ، وقال: أول سائل تراه فادفعه اليه ! » .

الدعاة إلى الله فى العصر العباسى :

ولكن بجوار هذه المدنية المائجة والحياة الباذخة ، وبجانب هذا السرف والترف ، والزهو واللهو ، نرى رجالا قد انقطعوا إلى الدعوة إلى الله ، وتزكية النفوس ، ونشر العلوم الدينية ، والعكوف على التعلم والتعليم ، وقد ثاروا على هذه الحياة واغراءاتها ، وانحسرت عنهم موجات الغنى والترف ، وارتدت عنهم خائبة حسيرة ، وكأنها لم تجد إلى قلوبهم سبيلا ، وقد شغلوا - كالحسن البصرى من قبل - بالمحافظة على روح هذه الأمة وصلتها بالله ، وبالمحافظة على منافع الحياة الاسلامية « القرآن والحديث » وأخفقت الحكومات فى أن تشترى ضمائرهم ، أو تشغلهم عن عملهم ، وكانوا جزرا بشرية فى بحر المادية المائج ، يأوى اليها الغرقى ومن انكسرت سفينته ، وقد أقاموا بجنب الحياة المترفة فى بغداد ، حياة زاهدة تقوم على الايمان وتقدير القيم الروحية والخلقية ، تفوق - فى سلطانها

على القلوب ، وفى سعتها أحيانا - الحياة المادية ، فان كان الخلفاء وأمراؤهم يحكمون الاجسام فقد كان هؤلاء يحكمون القلوب والعقول ، فإذا وقع صراع بين هؤلاء وأولئك كان الانتصار فى كثير من الاحيان للآخرين ، ويخضع سلطان السياسة لسلطان الروح والعقيدة ، ويتضاءل الخليفة والأمير أمام عالم كبير أو محدث جليل . وقد حكى ابن خلكان قصة تدل على سلطان رجال العلم والدين فى هذا العصر . قال : « قدم هارون الرشيد الرقة ، فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك ، وتقطعت النعال ، وارتفعت الغبرة فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من برج الخشب ، فلما رأت الناس قالت : ما هذا ؟ قالوا : عالم أهل خراسان قدم الرقة يقال له عبد الله بن المبارك ، فقالت : هذا والله الملك ، لا ملك هارون الذى لا يجمع الناس الا بشرط وأعوان ! »(1).

وقد ظهرت هذه الحياة الدينية التى يسود فيها الايمان والتقوى والانقطاع إلى العلم والزهد بوضوح فى بغداد ؛ فكانت بغداد منتجعا لرواد العلم والدين ، ولأصحاب الايمان واليقين ، وللدعاة إلى الله ؛ فقد قصدوها من كل جانب ، وألقوا فيها عصا التسيار ، واتخذوها مركز نشاطهم ودعوتهم ؛ لأنها مركز الأعصاب فى جسم العالم الاسلامى وقلبه النابض ؛ فإذا تأثرت بالدعوة فقد تأثر العالم الاسلامى ، وإذا صلح القلب صلح الجسد كله ! لذلك نرى فيها أئمة الفنون وكبار الدعاة وأعلام الزهاد ، حتى أن الذى يطالع كتب الطبقات والتراجم يتخيل أن بغداد هى مدرسة للحديث ، أو مسجد للوعظ والتذكير ، أو مركز للتزكية والتربية ، لا يسمع فيها الا درسا يقرأ ، وقرآنا يتلى ، وحديثا يروى ، وقلبا عليلا يداوى فيشفى ، ويرى فيها دولة للعلم والدين لا تقل فى سلطانها وسعتها عن خلافة العباسيين .

وقد كان للعلماء الاعلام وبعض الزهاد المحدثين مواقف مجيدة أمام الخلفاء أدوا فيها حق النصيحة ، وحذروهم من سطوة الله ، وتبرأوا من هذا الجور الفاشى ، والظلم القاسى ، كالذى كان من الاوزاعي(2) وسفيان الثورى (3)عند المنصور ، وصالح بن عبد الجليل(4) بين يدى المهدى ، وابن السماك عند الرشيد ، واليكم بعض الأمثلة لهذه الشجاعة وقوة الايمان والصراحة فى قول الحق ! :

---

(1) وفيات الأعيان : ج ٢ ص ٢٣٨ ، ترجمة عبد الله بن المبارك .

(2) أنظر العقد الفريد لابن عبد ربه : ج ٣ ، ص ١٦ .

(3) أيضا : ص ٦٥ .

(4) أيضا : ص ١٥٨ .

« عن الفضل بن الربيع قال : حج أمير المؤمنين الرشيد ، فأتانى ، فخرجت مسرعا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! لو أرسلت إلى آتيتك ؛ فقال : ويحك قدحك فى نفسى شئ ، فانظر لى رجلا أسأله ، فقلت هنا سفيان بن عيينة ، فقال ، امض بنا اليه : فآتيناه ، فقرعت الباب ، فقال : من ذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين ! فخرج مسرعا ،فقال : يا أمير المؤمنين ! لو أرسلت إلى آتيتك؛ فقال له : خذ لما جئناك له رحمك الله ! فحدثه ساعة ثم قال له : عليك دين ؟ قال : نعم ! فقال : أبا عباس ، اقض دينه ! فلما خرجنا قال : ما أغنى عنى صاحبك شيئا ، أنظر لى رجلا أسأله ؛ فقلت له : ههنا عبد الرازق بن همام ، قال : امض بنا اليه ! فأتيناه فقرعت الباب ، فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين ً فخرج مسرعا ، فقال : يا أمير المؤمنين ً لو أرسلت إلى أتيتك ؛ قال : خذ لما جئناك له ! فحادثه ساعة ثم قال له : عليك دين ! قال نعم ! قال : أبا عباس اقض دينه! فلما خرجنا قال : ما أغنى صاحبك شيئا ، انظر لى رجلا أسأله ؛ قلت ههنا الفضيل بن عياض ، قال : امض بنا اليه ! فأتيناه فإذا هو قائم يصلى يتلو آية من القرآن يرددها فقال : اقرع الباب ً فقرعت الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت أجب أمير المؤمنين ! فقال : ما لى ولأمير المؤمنين ؟! فقلت سبحان الله أما عليك طاعة ؟ أليس قد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « ليس للمؤمن أن يذل نفسه » فنزل ، ففتح الباب ، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ المصباح ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت ، فدخلنا ، فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقت كف هارون قبلى اليه ، فقال : يالها من كف ما ألينها إن نجت غدا من عذاب الله عز وجل ! فقلت فى نفسى : ليكلمنه اليوم بكلام نقى من قلب تقى ، فقال له: خذ لما جئناك له رحمك الله ! فقال : إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة ، دعا سالم بن عبد الله ، ومحمد بن كعب القرظى ، ورجاء بن حيوة ، فقال لهم : انى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا على ، فعد الخلافة بلاء ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة ، فقال له سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة غدا من عذاب الله فصم الدنيا ! وليكن افطارك من الموت ! وقال له محمد بن كعب القرظى : إن أردت النجاة من عذاب الله ، فليكن كبير المسلمين عندك أبا ، وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم عندك ولدا ، فوقر أباك ، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك ! وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة غدا من عذاب الله عز وجل فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت إذا شئت ! وانى أقول لك : إنى أخاف عليك أشد الخوف يوم تزل فيه الاقدام ؛ فهل معك – رحمك الله – من يشير عليك بمثل هذا ؟ فبكى هارون بكاء شديدا حتى غشى عليه ،

فقلت له : أرفق بأمير المؤمنين ! فقـال : يا ابن أم الربيع ! تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا !؟ ثم أفاق فقال له : زدنى رحمك الله ! فقال يا أمـير المؤمنين ! بلغنى أن عاملا لعمر بن عبد العزيز شكى اليه ؛ فكتب اليـه عمر : يا أخى أذكرك طول سهر أهل النار فى النار مع خلود الأبد ، واياك أن ينصـرف بك من عند الله ؛ فيكون آخـر العهد وانقـطاع الرجاء قال : فلمـا قرأ الكتاب ، طوى البلاد حـتى قدم على عمر بن عـبد العزيز فقـال له : ما أقدمك ؟ قال : خلعت قلبى بكتـابك ، لا أعود إلى ولاية أبدا حتى ألقى الله عز وجل ، قـال : فبكى « هارون » بكاء شـديدا ثم قـال له : زدنى رحـمك الله ! فقـال : يا أميـر المؤمنين! ان العباس عم المصطفى ﷺ - جاء إلى النبـى ﷺ فقال : يا رسول الله ! أمرنى على إمارة ، فقال له الـنبى ﷺ : إن الامارة حسرة وندامة يوم القيامـة ، فان استطعت أن لا تكون أميرا فافعل ! فبكى « هارون » بكاء شديدا وقال له : زدنى رحمك الله ! فقال : يا حسن الوجه ! أنت الذى يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة ؛ فان استطعت أن تقى هذا الوجـه من النار فـافـعل واياك أن تصبـح وتمـسى وفى قلبك غش لأحـد من رعيتـك؛ فإن النبى ﷺ قال : « من أصبح لهم غـاشا لم يرح[1] رائحة الجنة » ، فبكى هارون وقال له : عليك دين ؟ قال نعم ! دين لربى يحاسبنى عليه ؛ فالويل لى أن سألني! والويل لى أن ناقشنى ! والويل لى أن ألهم حـجتى ! قال : إنما أعنى دين العـباد ، قال : إن ربى لم يأمرنى بهذا ، أمر ربى أن أوحده وأطيع أمره ، فقال عز وجل : ﴿ **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القـوة المتين** ﴾ فقال لـه : هذه ألف دينار ، خذها فأنفقـها على عيالك وتقـو بها على عبـادتك ! فقـال : سبـحان الله ! أنا أدلك علـى طريق النجاة وأنت تكافـئنى بمثل هذا ؟ سلمك الله ووفقك ؟ ثم صـمت فلم يكلمنا ؛ فخرجنا من عنده ، فلما صـرنا على الباب قال هارون : أبا عباس ! إذا دللتنى على رجل فدلنى على مثل هذا ! هذا سيد المسلمين ؛ فدخلت عليه امرأة من نسائه فقالت : يـا هذا ! قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال ، فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به ؛ فقال لها : مثلى ومثلكم كمـثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه ؛ فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه ، فلما سمع هارون هذا الكلام ، قال : تدخل فعسى أن يقـبل المال ، فلما علم الفـضيل خـرج فجـلس فى السطح على باب الغرفـة ، فجـاء «هارون» فجلس إلى جنبه ، فـجعل يكلمه فلا يجـيبه ، فبينمـا نحن كذلك ، إذ خرجت

---

(١) أراح الشئ لم يجد له ريحة .

جارية سوداء فقالت : يا هذا ! قد آذيت الشيخ منذ الليلة ، فانصرف رحمك الله ! فانصرفنا » (١).

وقد كان من بعض هؤلاء استعراض لنظام الحكم ، ووصف دقيق للجهاز الادارى ومفاسده ، يدل على فهم عميق واطلاع واسع على شؤون الدولة ، ومواضع الضعف والفساد فى الادارة ، ومن أمثلته البليغة الرائعة ما نقل ابن عبد ربه فى كتابه ، من كلام رجل من العباد عند المنصور وقد جاء فيه :

« ان الله استرعاك أمر عباده وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر ، وابوابا من الحديد ، وحراسا معهم السلاح ، ثم سجنت نفسك عنهم فيها ، وبعثت عمالك فى جبايات الأموال وجمعها ، وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع ، وأمرت أن لا يدخل عليك أحد من الرجال الا فلان وفلان - نفرا أسميتهم - ولم تأمر بايصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العارى ، ولا الضعيف الفقير اليك ، ولا أحد الا وله فى هذا المال حق ؛ فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرت أن لا يحجبوا دونك ، تجبى الأموال وتجمعها ، قالوا : هذا قد خان الله ؛ فما لنا لا نخونه ! فائتمروا أن لا يصل اليك من علم أخبار الناس شئ الا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم الا خونوه عنك ونفوه ، حتى تسقط منزلته ؛ فلما انتشر ذلك عنك وعنهم ، أعظمهم الناس وهابوهم وصانعوهم ؛ فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ، ليقووا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك ، لينالوا ظلم من دونهم ، فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلما وبغيا وفسادا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل؛ فان جاء متظلم حيل بينك وبينه ؛ فان أراد رفع قصته اليك عند ظهورك ، وجدك قد نهيت عن ذلك ، ووقفت للناس رجلا ينظر فى مظالمهم ؛ فان جاء ذلك المتظلم فبلغ بطانتك خبره ، سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته اليك ، فان المتظلم منه له بهم حرمة ، فأجابهم خوفا منهم ؛ فلا يزال المظلوم يختلف اليه ويلوذ به ، ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ؛ فاذا أجهد وأخرج ثم ظهرت ، صرخ بين يديك ؛ فيضرب ضربا مبرحا يكون نكالا لغيره ، وأنت تنظر فما تنكر ، فما بقاء الاسلام على هذا ؟! » .

وقد كان لسيرة هؤلاء الاعلام ، وحياتهم النزيهة ، وزهدهم فى حطام الدنيا ،

---

(١) صفة الصفوة : ج ٢ ، ذكر فضيل بن عياض التميمى ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ .

وابتعادهم عن مناصب الدولة ، وتفلتهم من شرك كان ينصب لهم حينا بعد حين ، وتمردهم على الشهوات ، ومواجهتهم لكبار الملوك والخلفاء بالحق ، وارشادهم للخلق باخلاص ونزاهة ؛ ولايمانهم القوى ، تأثير كبير فى نفوس الناس ؛ حتى فى أهل الذمة ؛ فكان يسلم منهم كثير ، وكانوا خاضعين لهؤلاء ، يعترفون لهم بالفضل ، ويدينون لهم بالحب [1].

جهود لاقامة الحكم الصالح وتغيير الأوضاع :

ولم تكن جهود المصلحين مقتصرة على الدعوة والاصلاح الفردى ، والوعظ والارشاد؛ بل رافقت هذه الجهود التى لم تنقطع محاولات كانت تظهر - على فترات قصيرة - لقلب الحكم ، واعادة الخلافة إلى نصابها ، والقضاء على هذا الاحتكار الأموى أو العباسى للخلافة والحكم .

وقد قامت الخلافة - مع الأسف - على نظام الوراثة والسلالات ، ودان العرب - مع الأسف - لمبدأ الشرف فى الخلافة ؛ فلم يكن لأحد أن يقوم فى وجه الخليفة الأموى والعباسى ، ويطمع فى النجاح الا إذا كان حائزا على شرف النسب وعلو البيت ، متمتعا بعصبية قوية واسعة ، حتى يقرع الحديد بالحديد ، ويقابل الريح بالاعصار ؛ لذلك كان كل من خرج على الدولة الأموية والعباسية ، ورفع راية الجهاد ، من أهل بيت الرسول ومن العلويين ؛ لأن امكانات نجاحهم كانت ألمع وأظهر ، والمسلمون اليهم أميل ، وأيدهم أهل الصلاح ومحبو الاصلاح فى عصرهم ، والذين كانوا يتألمون بمشاهدة فساد الأوضاع ، وضياع الخلافة ، وضياع أموال المسلمين فى الشهوات والنزعات الجامعة العاتية إلى الترف والعادات الجاهلية .

وقد قام بعد الحسين بن على - رضى الله عنه وعن آبائه - حفيده زيد بن على بن الحسين ، خرج على هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى ، وقتل وصلب سنة ١٢٢ هـ ، وقد أرسل اليه الامام أبو حنيفة بعشرة آلاف درهم ، واعتذر عن عدم حضوره [2].

ثم قام من بنى الحسن ، محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ذو النفس الزكية ، فى المدينة ، وأخوه ابراهيم فى الكوفة باتفاق منهما ، وكان أبو حنيفة ومالك من أنصار ذى النفس الزكية ، وقد انتصر له أبو حنيفة علانية ، وأرسل اليه ببعض المال ،

---

(١) انظر تاريخ بغداد للخطيب ، وحلية الأولياء لأبى نعيم ، وتاريخ ابن خلكان .

(٢) مناقب أبى حنيفة للبزارى : ج ١ ص ٥٥ .

ونهى قائد المنصور ، الحسن بن قحطبة ، من محاربته فاعتذر من المنصور ، وكان هذا هو السبب الحقيقى لما وقع من المنصور مع أبى حنيفة ، انتهى بحياته .

وقد جاء فى تاريخ الكامل لابن الاثير ، أن أهل المدينة قد استفتوا « مالك بن أنس » فى الخروج مع محمد ، وقالوا : إن فى أعناقنا بيعة لأبى جعفر ، فقال : « إنما بايعتم مكروهين ، وليس على مكره يمين ؛ فأسرع الناس إلى محمد ، ولزم مالك بيته »[1] وقد قتل محمد ، سنة ١٤٥ هـ فى المدينة فى شهر رمضان ، وقتل أخوه ابراهيم فى ذى القعدة من ذلك العام .

إن هذه المحاولات قد أخفقت ولم تأت بالنتيجة المطلوبة ؛ لأن الحكومة قد كانت قوية ومنظمة ، وكانت تملك الوسائل والذخائر . وقد رأينا فى التاريخ الماضى والحاضر ، محاولات كثيرة تقوم على الاخلاص والايمان والبطولة والشجاعة ، ولا يقصر قادتها وأتباعها فى التضحية بالأموال والأنفس ، ثم كثيرا ما تخفق ، أمام الحكومات المنظمة ، وجيوشها العظيمة ، وقواها الهائلة ، وليس هذا ببدع فى التاريخ ، ولا بمستغرب فى سير هذا الكون ؛ ولكنها - على إخفاقها فى ميدان السياسة والنتائج المادية - قد خدمت الاسلام خدمة عظيمة ؛ لأنها حفظت على تاريخ الاسلام شرفه وكرامته ؛ فلولا هذه الجهود وهذه المحاولات حينا بعد حين ، لكان التاريخ الاسلامى قصة متصلة للأنانية والنفعية ، قصة الملوك الذين يتسلطون ، وقصة أصحاب الأغراض والأطماع الذين يخضعون ؛ ولكن هؤلاء الأبطال المجاهدين ؛ ولكن هؤلاء المؤمنين المغامرين قد نصبوا للأجيال القادمة منارات للنور تضئ لهم فى غياهب التاريخ من بعيد ، وتنير لهم السبيل ، وتلهم بالفروسية الاسلامية الصادقة ، والثورة على الأوضاع الفاسدة ، والغضب لنظام الاسلام المظلوم ، ولكرامته المهدرة .

أنه تراث مجيد يعتز به الاسلام ، وثروة غالية تتجمل بها الاجيال وسلسلة متصلة من المجاهدين تبعث على الثقة والإيمان واليقين . ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا** ﴾ .

---

(١) الكامل ج ٥ ص ٢٥١ .

حركة التدوين فى الاسلام
وتنظيم الحياة على الأسُس الدينية

الأمة على مفترق الطرق :

لقد اتصل تاريخ الاصلاح والدعوة ، كما قدمنا فى المحاضرتين السابقتين ؛ ولكن بقيت ناحية من نواحى الحياة الأولى ، تطلب العناية السريعة ، وتسترعى اهتمام المهتمين بشؤون هذه الأمة ، ولا تسمح بالتأخير أو الارجاء يوما واحدا ، وذلك ما سيكون موضوع محاضرتنا الرابعة ، إن شاء الله .

لقد خرجت هذه الأمة - بفضل الدعوة الاسلامية التى عمت الآفاق وتخطت الحدود ، وبفضل الجهاد الذى أخضع نصف المعمورة للاسلام - من طور البداوة والبساطة والانحصار فى دائرة ضيقة جغرافية ، ومجتمع صغير ، إلى طور الامبراطورية العظيمة .

وقد كانت قارة افريقية تحت وصاية الاسلام وادارته ، وتدخل فى هذه الامبراطورية الاسلامية أقطار وبلاد من أرقى البلاد فى العالم وأعرقها فى المدنية والعلوم ، وكانت هذه الحكومة العظيمة تواجه بطبيعة الحال تطورات كثيرة سريعة بحكم الاختلاط بالعناصر المختلفة ، والمدنيات الكثيرة ،وتواجه شؤونا جديدة ومشاكل عديدة فى التجارة والزراعة والجزية والخراج ، وتواجه من مسائل البلدان والأقطار التى يفتحها الاسلام ويحكمها المسلمون ، الشئ الكثير ، وتجد من عادات أهلها وتقاليدهم واجتماعهم ما يتنافى مع الاسلام كثيرا ، ويتفق معه قليلا ، وكان الحكم فى كل ذلك مما لا يمكن تأخيره أو الاعراض عنه ، وكانت هذه النواحى كلها تتطلب الحل الحاسم السريع ، وتمتحن كفاية هذه الأمة الفكرية ، وصلاحية التشريع الاسلامى لمسايرة العصر والمدنية وشؤون المجتمع البشرى، وكانت الحكومة فى حاجة ملحة إلى دستور شامل كامل ، وكان الجهاز الادارى لا يمكن ايقافه عن اليسر ، أو تعطيله عن الحركة فى انتظار التشريع .

فاذا تكامل العلماء فى الاجتهاد والاستنباط ، وآثروا الراحة على العمل والكدح ، أو ضعف انتاجهم وجمدت قريحتهم ، التجأت الحكومة - تحت وطأة حاجات الحياة العملية ومطالبها - إلى أن تقتبس النظم الرومية والفارسية ، وتطبق القانون الرومانى والايرانى على

المملكة الإسلامية ؛ فكان ذلك يجر عنى هذه الأمة شقاء طويلا ، لأنها تحرم سعادة القانون الإسلامى ، وبركات المجتمع الإسلامى ، ويكتب عليها أن تعيش مسلمة متدينة فى مساجدها ، جاهلية أو لا دينية فى بيوتها وأسواقها ومحاكمها . كما هو الواقع فى البلاد والدول التى ديانتها الرسمية النصرانية وليس عندها تشريع مسيحى كما هو واقع - مع الأسف والخجل - فى البلاد والدول التى تدين بالاسلام فى العقيدة والعبادة ، ولا تدين به فى التشريع والقانون وإذا ساغ فى النصرانية التى لا تملك الثروة الدستورية ، ولا تلح على تطبيق الدين على الحياة ، فإنه لا يسوغ فى الاسلام الذى هو دين ودولة ، وعقيدة وسياسة، وعبادة واجتماع ، فكانت الأمة تجتاز مرحلة خطيرة دقيقة فى حياتها ، وقد وقفت على مفترق الطرق . وكانت الغلطة الواحدة ، أو العثرة الخفيفة ، كافية لقطع صلتها عن الحياة الاسلامية والاجتماع والنظم الاسلامية ، وتفرض على الأجيال القادمة أن تعيش حياة ليس فيها الا نصيب ضئيل .

الحاجة إلى تدوين الحديث :

وكانت الأمة لا تستطيع أن تتفادى هذا المصير المؤلم المظلم الا إذا كانت مصادر التشريع، ومنابع الفقه الاسلامى ، محفوظة من الضياع ، ميسورة للانتفاع ، وأهم هذه المصادر - بعد القرآن الذى لا يخاف عليه من الضياع والتحريف - هو « الحديث » الذى هو مصدر منظم ، وثروة زاخرة لاستنباط الأحكام ، ولا يعرف التاريخ سيرة نبوية أوثق من هذه السيرة ، وأحراها بالاعتماد والتعويل ، ويصح أن يسمى سجل الوقائع اليومية ، وشبه « مذكرات » إذا صح هذا التعبير - لمدة ثلاث وعشرين سنة قضاها النبى ﷺ بعد ما أكرمه الله بالنبوة على ظهر الأرض ، ترينا كيف كان الرسول ﷺ يعيش فى هذه الحياة ، وكيف يقضى نهاره وليله .

وهى مجموعة خص الله بها هذه الأمة ؛ فلا نعرف أمة من أمم الرسل سعدت بمثل هذه المجموعة الناطقة ، وبهذا السجل الخالد لنبيها ؛ بل بالعكس من ذلك ، نرى الأمم كلها فقيرة لا تملك مصدرا من مصادر العلم عن الأنبياء والرسل ، وهى - من عمى وظلام تاريخى - قد انقطعت الصلة بينها وبين أنبيائها علميا وتاريخيا ، وفقدت الحلقة التاريخية التى تصلها بعصر هؤلاء الرسل - سلام الله عليهم - وتوقفها على شؤون حياتهم ، وما يكتنفها من ظروف وملابسات ؛ فهذه الأمة المسيحية - التى هى من أغنى الأمم بالتأليف

والثروة العلمية - لا تعرف عن سيدنا المسيح الا أخبار ثلاث سنوات حواها الأناجيل الأربعة ، وهى أخبار مبعثرة متقطعة ملفقة لا يستطيع الانسان أن يؤلف منها تاريخا متصلا[1].

وأما شأن الرسل قبله ، وشأن موسسى الديانات فى الهند وغيرها فأمرها أعجب ، وفقر الأمم أبين من ذلك وأوضح ؛ حتى صار كثير من المستشرقين والمؤرخين يشكون فى وجودهم ، ويميلون إلى أنها شخصيات خرافية ليس لها وجود تاريخى ، ونحن - على معارضتنا لهذا التطرف - نوافق على أنها شخصيات مطمورة فى ركام الماضى ، وعلى أن هنالك حلقات مفقودة لا يمكن البحث عنها والاهتداء اليها [2].

أما الرسول الأعظم ﷺ فهو الشخصية الفريدة - من بين الرسل والعظماء - التى نعرف عنها كل دقيق وجليل ، ونعرف عنها من دقائق الأخلاق والعادات والميول والرغبات والقول والعمل ، ما لا نعرفه عن كثير من الشخصيات التى مضت قريبا ؛ بل عن الشخصيات المعاصرة أحيانا ، وذلك كله بفضل « الحديث » الذى سجل لنا هذه الحياة المباركة العظيمة.

لقد اعتادت الأمم القديمة والديانات أن تصور أنبياءها ، وأن تنحت لها تماثيل وأصناما تمثلهم للأجيال القديمة : وتجدد ذكراهم ، ونشأت من ذلك الوثنية وعبادة التماثيل التى يعرفها الجميع ، ونشأت من ذلك آفات لا تزال الأمم والديانات تعانيها ، وقد لطف الله بهذه الأمة وبالانسانية ؛ إذا حرم عليها تصوير الأنبياء والعظماء ، ونحت تماثيلهم ، وأبدلها بهذ الحديث النبوى الذى هو مجموع صور ناطقة يتعرف بها الانسان بنبيه ويسعد بصحبته ، وكأنه حضر مجلسه ، واستمع لحديثه و وقضى معه مدة من الزمان ؛ ليسمع كلامه ويشاهد فعله ويدرس سيرته ؛ فكان ضياع هذه الثروة - لا سمح الله بذلك - كارثة لا تقدر ، وخسارة لا تعوض .

ثم أن الحديث ميزان عادل يستطيع المصلحون فى كل عصر أن يزنوا فيه أعمال هذه الأمة واتجاهاتها ، ويعرفوا الانحراف الواقع فى سير هذه الأمة ، ولا يتأتى الاعتدال الكامل فى

---

(١) هذا كان يقال فى القديم ، وقد انتهى تحقيق الباحثين وأصحاب الاختصاص فى الموضوع فى الزمن الأخير إلى أنها لا تتجاوز أخبار خمسين يوما من حياته (راجع مقال الدكتور شارلس اندرسن اسكات فى دائة المعارف البريطانية ج ١٣ ص ١٧١٠) .

(٢) اقرأ فى ذلك المحاضرة الثانية من محاضرات « الرسالة المحمدية » للاستاذ الكبير السيد سليمان الندوى رحمه الله .

الاخلاق والأعمال الا بالجمع بين القرآن وبين الحديث ، الذى هو يملأ هذا الفراغ الذى وقع بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى . وهذه الفجوة لا بد منها فى السنن الالهية ، **﴿وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ ﴿انك ميت وانهم ميتون﴾** فلولا الحديث الذى يمثل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتزنة ، ولولا التوجيهات النبوية الحكيمة ، ولولا هذه الاحكام التى أخذ بها الرسول المجتمع الاسلامى لوقعت هذه الأمة فى افراط وتفريط واختل الاتزان ، وفقد المثال العملى الذى حث الله على الاقتداء به ، بقوله : **﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة﴾** وبقوله : **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾** والذى يطلبه الانسان ويستمد منه الثقة والقوة ف الحياة ، ويقتنع بأن تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسور وواقع .

ثم أن الحديث زاخر بالحياة والقوة والتأثير الذى لم يزل يبعث على الانتاج والزهد والتقوى ، ولم يزل باعثا على محاربة الفساد والبدع ، وحسبه المجتمع ، ولم يزل يظهر بتأثيره فى كل عصر وبلد ، من رفع راية الاصلاح والتجديد ، وحارب البدع والخرافات والعادات الجاهلية ، ودعا إلى الدين الخالص والاسلام الصحيح ؛ لذلك كله كان الحديث من حاجات هذه الأمة السياسية ، وكان لا بد من تقييده وتسجيله وحفظه ونشره .

حركة الجمع والتدوين فى القرن الأول والثانى :

وقد يسر الله ذلك ؛ إذ بعث نبيه ﷺ فى أمة عرفت بقوة الذاكرة والصدق والأمانة فى والرواية ،وفاقت فى ذلك الأمم ، وقد وعى الصحابة - رضى الله عنهم - لحكمة أرادها الله - كل ما سمعوا وشاهدوا ، وحرصوا على حفظه ونشره وتبليغه حرصا لم يعرف عن أمة نبى وأصحاب ديانة . وقد بدأوا يكتبون الحديث فى عهد النبى ﷺ ، ومنهم من كانت له مجموعة خاصة اشتهرت به ؛ فقد كان لعبد الله بن عمرو بن العاص مجموعة تسمى «الصادقة» وأثر عنه أنه كان يقول : ما يرغبنى فى الحياة الا خصلتان « الصادقة » و«الوهط»؛ فأما الصادقة فصحيفة كتبتها عن رسول الله ﷺ [١] ، وكان لعلى بن أبى طالب صحيفة [٢]، وكان لأنس صحيفة كان يبرزها إذا اجتمع الناس [٣]، ونقل الجمع

---

(١) جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله ، لابن عبد البر ج ١ ص ٧٢ .

(٢) الجامع الصحيح للبخارى ، وكتاب العلم ، باب كتابة العلم .

(٣) تقييد العلم ص ٥ .

والكتابة عن عبد الله بن عباس [(١)] ، وعبد الله بن مسعود [(٢)] ، وعن جابر بن عبد الله [(٣)]، وتدل صحيفة [(٤)] همام بن منبه (م ١٠٣ هـ) صاحب أبى هريرة رضى الله عنه التى يرجع تأليفها إلى أواسط القرن الأول (لأن أبا هريرة توفى نحو سنة ٥٨ للهجرة وهى من املائه) على تقدم هذه الحركة .

وإذا جمعت هذه الصحف والمجاميع وما احتوت عليه من الأحاديث ، كونت العدد الأكبر من الأحاديث التى جمعت فى الجوامع والمسانيد والسنن فى القرن الثالث ، وهكذا يتحقق أن المجموع الكبير الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه وتسجيله - من غير نظام وترتيب - فى عصر الرسول ﷺ وفى عصر الصحابة رضى الله عنهم ، وقد شاع فى الناس - حتى المثقفين والمؤلفين - إن الحديث لم يكتب ولم يسجل الا فى القرن الثالث الهجرى، وأحسنهم حالا من يرى أنه قد كتب ودون فى القرن الثانى ، وما نشأ ذلك الغلط الا عن طريقين : الأولى أن عامة المؤرخين يقتصرون على ذكر مدونى الحديث فى القرن الثانى ، ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التى كتبت فى القرن الأول ، لأن عامتها فقدت وضاعت ، مع أنها اندمجت وذابت فى المؤلفات المتأخرة . الثانية : أن المحدثين يذكرون عدد الأحاديث الضخم الهائل الذى لا يتصور أن يكون قد جاء فى هذه المجاميع الصغيرة التى كتبت فى القرن الأول ، مع أن عدد الأحاديث الصحاح غير المتكررة المتجردة من المتابعات والشواهد لا يزال قليلا ، وقد نبه على ذلك العلامة ، مناظر أحسن الكيلانى رئيس القسم الدينى سابقا فى الجامعة العثمانية بحيدر آباد فى كتابه العظيم «تدوين الحديث» يقول رحمه الله :

« قد يتعجب الانسان من ضخامة عدد الأحاديث المروية فيقال : أن أحمد بن حنبل كان يحفظ أكثر من سبع مائة ألف حديث ، وكذلك يقال عن أبى زرعة ، ويروى عن الامام البخارى أنه كان يحفظ مائتى ألف من الأحاديث الضعيفة ، ومائة ألف من الأحاديث الصحيحة ، ويروى عن مسلم أنه قال : جمعت كتابى من ثلاثمائة ألف حديث .

---

(١) الترمذى كتاب العلل .

(٢) جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغى فى روايته حمله لابن عبد البر ج ١ ص ٧٢ .

(٣) صحيح مسلم .

(٤) طبعت هذه الصحيفة تباعا فى مجلة المجمع العلمى بدمشق وطبعت مع المقدمات والتعليقات فى حيدر آباد الهند عام ١٣٧٤ هـ بعناية الفاضل الأستاذ الدكتور حميد الله الذى حصل على نسخة لها من برلين .

ولا يعرف كثير من المتعلمين - فضلا عن العامة - أن الذى يكون هذا العدد الضخم هو كثرة المتابعات والشواهد التى عنى بها المحدثون ؛ فحديث « إنما الأعمال بالنيات » مثلا يروى من سبع مائة طريق ، فلو جردنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات والشواهد ، لبقى عدد قليل من الأحاديث ؛ فالجامع الصحيح للبخارى لا يزيد الأحاديث التى رويت بالسند الصحيح فيه على ألفين وستمائة وحديثين ، وأحاديث مسلم يبلغ عددها إلى أربعة آلاف حديث ، وهكذا لا يبلغ عدد الأحاديث المروية فى الصحاح الستة ، ومسند أحمد ، وكتب أخرى ، خمسين ألف حديث ، منها الصحيح ومنها السقيم ، ومنها المتفق عليه ومنها المتكلم فيه ، وقد صرح الحاكم أبو عبد الله - الذى يعد من المتسامحين المتوسعين - أن الأحاديث التى فى الدرجة الأولى لا تبلغ عشرة آلاف .

ومعظم هذه الثروة الحديثة قد كتب ودون بأقلام رواة فى العصر الأول ، وقد يزيد ما حفظ فى الكتب والدفاتر كتابة وتحريرا فى العصر النبوى وفى عصر الصحابة رضى الله عنهم على عشرة آلاف حديث ، إذا جمعت صحف ومجاميع أبى هريرة ، وعبد الله بن عمرو بن العاص . وأنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وعلى ، وابن عباس رضى الله عنهم ، فيمكن أن يقال : أن ما ثبت من الأحاديث الصحاح ، واحتوت عليه مجاميعها ومسانيدها قد كتب ودون فى عصر النبوة ، وفى عصر الصحابة ، قبل أن يدون الموطأ والصحاح بكثير [١] . »

ولم ينتصف القرن الثانى حتى كانت حركة الجمع والتدوين أنشط وأقوى ، وكان ممن سبق اليها من رجال هذا القرن ابن شهاب الزهرى (م عام ١٢٤ هـ) وابن جريج المكى (م١٥٠هـ) وابن اسحاق (م ١٥١ هـ) ومعمر اليمنى (م ١٥٣ هـ) وسعيد بن أبى عروبة المدنى (م ١٥٦ هـ) وربيع بن صبيح (م ١٦٠ هـ) وسفيان الثورى (م ١٦١ هـ) ومالك بن أنس (م ١٧٩ هـ) والليث بن سعد (م ١٧٥ هـ) وابن المبارك (م ١٨١ هـ) ثم تتابع الناس [٢] .

المحدثون وعلو همتهم :

ثم قيض الله لهذا العمل الجليل فوجا من طلبة العلم يعدون بالآلاف ، ويمتازون بعلو

---

(١) « تدوين الحديث »للعلامة مناظر أحسن الكيلانى (فى لغة اردو) طبع المجلس العلمى بباكستان .

(٢) يحسن الرجوع فى هذا البحث إلى مقالات المرحوم الاستاذ الكبير الدكتور مصطفى السباعى فى (المسلمون) وإلى كتابه القيم « السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى » .

همتهم وشدة نشاطهم وقوة احتمالهم وصبرهم وقوة ذاكرتهم وحفظهم ، وقد تدفق سيلهم من بلاد العجم ، وقد ملكت قلوبهم وعقولهم الرغبة الشديدة فى جمع الحديث ، وشغفوا به شغفا حال بينهم وبين الشهوات ، فطاروا فى الآفاق ، ونقبوا فى البلاد فى البحث عن الروايات المختلفة ، والأسانيد الصحيحة وكان لهم فى ذلك هيام وغرام لم يعرفا عن أمة من الأمم للعلم فى التاريخ ، يدل على ذلك بعض الدلالة ما يروى عن المحدثين فى التجول فى البلاد والسفر فى العالم الاسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، فقد روى أن البخارى صاحب الصحيح ، قد بدأ رحلته العلمية وهو لا يزال فى الرابعة عشرة من سنه ، وقد زار البلدان الاسلامية ما بين بخارى ومصر ، وشيوخها [1]، روى عن أبى حاتم الرازى م٢٧٧هـ قال : « أول ما رحلت أقمت سبع سنين ، ومشيت على قدمى زيادة على ألف فرسخ، ثم تركت العدد ، وخرجت من البحرين إلى مصر ثم إلى الرملة ماشيا ، ثم إلى طرطوس ولى عشرون سنة » [2]. وقد سمع محدث الاندلس ابن حيون (م ٣٠٥ هـ) الحديث فى الاندلس ، والعراق ، والحجاز ، واليمن [3]. وهكذا قطع قارة افريقية من طنجة إلى مصر ، وعبر البحر الأحمر ، ومن المحدثين من سافر فى قارة آسيا وأفريقيا واوربا فى طلب الحديث ، وهكذا انتظمت رحلته العلمية ثلاث قارات كبرى ؛ وكان كثير من المحدثين يخرج من الاندلس ، أقصى الغرب فى العالم المتمدن المعروف يومئذ ، ويبلغ إلى أقصاه فى الشرق إلى خراسان أو بالعكس ، والمطالع فى تذكره الحفاظ للذهبى يدهش لطموح هؤلاء ، واحتمالهم للمشاق فى طلب العلم .

فن أسماء الرجال :

ولم يقتصر هؤلاء المخلصون على جمع الحديث وتدوينه ؛ بل تعدت عنايته إلى الوسائط التى قد وقعت فى رواية الحديث ، وهم الرواة الذين رووا هذه الأحاديث ، فعنوا بمعرفتهم ومعرفة أسمائهم وأسماء آبائهم ، وحوادث حياتهم وأخلاقهم ومكانتهم فى الأمانة والصدق والحفظ ، وهكذا أصبح الذين اتصلوا بالشخصية الكريمة التى وعدها الله بالخلود وبقاء الذكر وانتشار الاسم ﴿ **ورفعنا لك ذكرك** ﴾ أصبح الذين اتصلوا بها موضوع الدارسين والباحثين ، وخرجوا من زوايا الخمول ، واستحقوا الحياة والاشتهار ، وأصابهم فيض

---

(١) تذكرة الحفاظ ، ج ٣ ، ص ١٣٤ .
(٢) أيضا ، ج ٢ ص ١٤٦ .
(٣) أيضا ٣ ص ٤ .

من حياة هذه الشخصية الخالدة ، فحيوا وظهروا واحتفظ التاريخ بأسمائهم وأحوالهم ، ورآه حقا على نفسه .

وهكذا ظهر علم أسماء الرجال إلى عالم الوجود ، وكان من مفاخر هذه الأمة التى لا يشاركها فيها أمة من الأمم ، قال الدكتور « اسبرنجر » Sprenger فى مقدمته الانجليزية على كتاب الاصابة فى أحوال الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلانى ما ترجمته :

« لم تعرف أمة فى التاريخ ، ولا توجد الآن على ظهر الأرض ، وفقت لاختراع فن مثل فن أسماء الرجال الذى نستطيع بفضله أن نقف على ترجمة خمسمائة ألف (نصف مليون) من الرجال »[1] . ولم يعن المحدثون بتعريف رجال الحديث فحسب ، بل التزموا الصدق والصراحة فى تعريفهم ، وجمعوا كل ما يتصل بأخلاقهم وعاداتهم ، وما يدل على قوتهم وضعفهم واحتياطهم وتساهلهم وتقواهم وعلمهم وذاكرتهم . وجمعوا كل ما قاله معاصروهم فيهم ولم يداروا ولم يجاملوا فى ذلك . ولم يهابوا أحدا ولو كان بعضهم أميرا مهابا أو شيخا وقورا . وقد روى التاريخ فى ذلك طرائف تدل على شدة هؤلاء الناقدين وعلمهم بقوله تعالى : ﴿ كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ . وتدقيقهم . قال أبو داود : كان أبو وكيع على بيت المال ؛ فكان وكيع (م ١٩٧ هـ) إذا روى عنه قرنه بآخر[2] . وقد ترك معاذ بن معاذ العنبرى (م١٩٦هـ) رواية المسعودى ؛ لأنه رآه يطالع الكتاب ، يعنى تغير حفظه[3] . وقد قدم اليه رجل عشرة آلاف دينار ، وطلب منه أن يسكت عن فلان لا يتكلم فيه بجرح ولا تعديل ، فأبى ورفض هذا المال العظيم ، وقال : « لا أكتم الحق »[4] .

وهذا قليل من كثير يدل على أمانة علماء الحديث والرجال ، وتدقيقهم فى موضوعهم ، وتحريهم الحق والعدل فى شهاداتهم ، فهل يوجد فى تاريخ العلم نظير لهذه الأمانة والتدقيق ؟

قوة الذاكرة واستحضار العلم :

وقد كان هؤلاء المشتغلون بحديث رسول الله ﷺ صفوة البلاد التى فتحها الاسلام .

---

(١) طبع كلكته ١٨٥٣ ، ١٨٦٤ م .

(٢) تهذيب التهذيب ج ١١ ص ١٣٠ .

(٣) تهذيب التهذيب ج ٦ ص ١١ .

(٤) الرسالة المحمدية للعلامة السيد سليمان الندوى نقلا من تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر .

كانوا أقوياء ، وكانوا على جانب عظيم من الصبر والجلد واحتمال المشاق وقوة الذاكرة ، وكانت عندهم نهامة للعلم ، وحرص زائد على اقتباسه والتقاطه من مواضعه ، وقد قويت ذاكرتهم لاعتمادهم عليها ، وعنايتهم بها ، شأن الأعضاء التى يعتنى بها ويعتمد عليها ؛ حتى صدرت منهم خوارق فى ذلك قد يتبادر الشك فيها واستغرابها إلى من لم يجر بها ولم يشاهد أهلها . ولم يعرف كيف تنشأ الملكات فى الرجال بكثرة الاشتغال ، وكيف تقوى ، وكيف تأتى بالعجائب . وقد استفاض لك عن كثير من الأدباء والشعراء والموهوبين ، ورويت عنهم أخبار فى قوة الذاكرة يستغربها الانسان فى هذا العصر الذى انصرفت فيه النفوس عن التحفظ والاستحضار ، واعتمد فيه على الكتب والاسفار . وإذا عكف الانسان على شئ ، وانصرف اليه بكل همته ، وملك عليه هذا الموضوع فكره ومشاعره ، تفتحت قريحته فى ذلك ، حتى يخيل إلى الانسان أنه يلهم الهاما .

ومن أعجب ما روى فى ذلك ، هو ما يرويه أبو أحمد بن عدى الحافظ ، عن الامام محمد بن اسماعيل البخارى ، صاحب الجامع الصحيح ، قال « سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون : أن محمد بن اسماعيل البخارى قدم بغداد ، فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه ، فعمدوا إلى مائة حديث ، فقلبوا متونها وأحاديثها ، وجعلوا متن هذا الاسناد لاسناد آخر ، واسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوها إلى عشرة أنفس ، لكل رجل عشرة أحاديث ، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخارى ، وأخذوا عليه الموعد للمجلس ، فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين ، فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث . فقال : « لا أعرفه » .فلم يزل يلقى عليه واحدا واحدا حتى فرغ والبخارى يقول : « لا أعرفه » وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى البعض ويقولون : « فهم الرجل » . ومن كان لم يدر القصة ، يقضى على البخارى بالعجز والتقصير وقلة الحفظ . ثم انتدب رجل من العشرة أيضا فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال : « لا أعرفه » . فسأله عن آخر ، فقال : « لا أعرفه » . فلم يزل يلقى عليه واحدا واحدا حتى فرغ من عشرته . والبخارى يقول : « لا أعرفه » ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة ، حتى فرغوا كلهم من القاء تلك الأحاديث المقلوبة. والبخارى لا يزيدهم على أن يقول : « لا أعرفه » فلما علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول فقال : أما حديثك الأول فقلت كذا . وصوابه كذا وحديثك الثانى كذا وصوابه كذا. والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة . فرد كل متن إلى اسناده وكل

اسناد إلى متنه . وفعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقر الناس له بالحفظ . وأذعنوا له بالفضل» .

قال الحافظ بن حجر بعد ما حكى هذه القصة « قلت : هنا يخضع للبخارى ! فما العجب من رده الخطأ إلى الصواب ؛ فإنه كان حافظا ؛ بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة » (1).

احشاد الناس فى مجالس الحديث :

وقد وجد فى الناس - خاصتهم وعامتهم - اقبال غريب على مجالس الحديث ، وتهافت على سماعه وحضور دروسه ، فكان الناس إذا قدم محدث جليل يتقاطرون على أخذ الحديث منه ، ويحضرون حلقته فى عدد يقضى منه العجب ، وأغرب من هذا العدد هو الوقار والسكينة والهدوء الذى كان يسود فى هذه المجالس ، فكان الناس منصتين هادئين كأن على رؤوسهم الطير ، ويدل ما يحكيه الذهبى فى تذكرة الحفاظ على الاندفاع القوى ، والاتجاه العام الذى وجد فى الجمهور إلى حديث نبيهم ﷺ وشغفهم به ، وتأثير المحدثين فى عقول الناس ونفوسهم . قال يحيى بن أبى طالب : سمعت من يزيد ببغداد ، وكان يقال فى مجلسه سبعون ألفا (2). قال أبو حاتم حضرت مجلس سليمان بن حرب (م٢٢٤هـ) فحزر بأربعين ألفا . بنى له شبه منبر بجنب قصر المأمون فصعده ، وحضر المأمون والأمراء ، فأرسل المأمون سير سأف وبقى يكتب ما يملى (3). قال أبو الحسين بن المبارك عن عاصم بن على المحدث الشهير (م ٢٢١ هـ) كان مجلسه يحزر بأكثر من مائة ألف انسان ، قال عمر بن حفص السدوسى : وجه المعتصم من يحزر مجلس شيخنا عاصم (م ٢٢١ هـ) . فى رحبة النخل ، وكان يجلس على سطح سمعته يوما يقول : «حدثنا الليث بن سعد» وهم يستعيدونه . فأعاد أربع عشرة مرة والناس يسمعون . وكان هارون يركب نخلة معوجة يستملى . فحزر المجلس بعشرين ومائة ألف (4). وقال أحمد بن جعفر الختلى : « لما قدم أبو مسلم الكجى (م ٢٩٢ هـ) بغداد . أملى فى رحبة غسان، فكان فى مجلسه سبعة مستملين . يبلغ كل واحد منهم الآخر . ويكتب الناس عنه

---

(١) مقدمة فتح البارى ص ٤٨٧ .

(٢) تذكرة الحفاظ ، ج ١ ص ٢٩٢ .

(٣) أيضا ج ١ ص ٣٦٠ .

(٤) أيضا ص ٣٦٤ .

قياما ، ثم مسحت الرحبة ، وحسب من حضر بمحبرة ، فبلغ ذلك نيفا وأربعين ألف محبرة سوى النظارة ، قال الذهبى : هذه حكاية ثابتة رواها الخطيب فى تاريخه (١). ويقول أبو حفص الزيات : لما ورد الفريابى إلى بغداد استقبل بالطيارات والربارب ، ثم أوعد له الناس إلى شارع المنار ليسمعوا منه ، فحزر من حضر مجلسه لسماع الحديث . فقيل : كانوا نحو ثلاثين ألفا ، وكانوا المستملون ثلاثمائة وستة عشر . قال أبو الفضل الزهرى : لما سمعت من الفريابى ، كان فى مجلسه من أصحاب المحابر من يكتب نحو عشرة آلاف انسان ما بقى منهم غيرى ، هذا سوى من لا يكتب . قال ابن عدى (م٣٦٥هـ) : كنا نشهد مجلس الفريابى وفيه عشرة آلاف (٢). وذكر الفربرى : أنه سمع الجامع الصحيح من البخارى تسعون ألفا (٣).

وبهذه الأخبار التى التقطناها من مجموعة كبيرة يمكننا أن نعرف كيف شغف الناس فى هذا العصر الذى نؤرخه بالحديث النبوى ، وكيف تهافتوا عليه تهافت الفراش على النور .

الصحاح الستة :

وهكذا أصبح الحديث موضوع عناية هذه الأمة بعد القرآن . وانصرفت إلى جمعه وتدوينه ضبطه وتنقيحه همم المخلصين المجاهدين ، وما زالوا يعنون به ، ويتفانون فى سبيله ، حتى خرجت من هذه المجموعة الكبيرة التى كانت منبثة فى الآفاق مجاميع صحيحة منقحة للحديث النبوى ، كان فى مقدمتها هذه الكتب الستة التى تواضع علماء هذا الشأن وأصحاب الصناعة ، والمشتغلون بالعلوم الدينية ، والناقدون لها ، على صحتها وتقديمها على غيرها ، وهى الجامع الصحيح للبخارى ، والجامع الصحيح لمسلم ، والجامع للترمذى ، والسنن لأبى داود السجستانى ، والسنن للنسائى ، والسنن لأبن ماجة ، واصطلح العلماء على تسميتها بالصحاح الستة (٤).

ثم يمتاز بينها ويتفوق فى فى الصحة والقبول والاستفاضة كتابان : أولهما « الجامع الصحيح » لمحمد بن اسماعيل بن ابراهيم الجعفى البخارى م ٢٥٦ هـ . والثانى « الجامع

---

(١) تذكرة الحفاظ ، ج ٣ ص ١٩٦ .

(٢) أيضا ص ٢٦٢ .

(٣) مقدمة فتح البارى ص ٤٩٢ ، وقد جمع هذه المعلومات والأخبار السرى الفاضل والمؤلف المجيد مولانا حبيب الرحمن الشروانى فى كتابه البديع « العلماء السلف » .

(٤) يضاف إلى هذه الكتب الستة الموطأ للامام مالك بن أنس .

الصحيح » لمسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى م ٢٦١ هـ . واصطلح الناس على تسميتها « بالصحيحين » وكل ما يرويانه من حديث ب « متفق عليهما » وقد قال امام الحديث فى العصور المتأخرة ، شيخ الاسلام ، ولى الله ابن عبد الرحيم الدهلوى ١١٧٦هـ[1] ـ فى كتابه « حجة الله البالغة » :

« أما الصحيحان فقد اتفق المحدثون على أن جميع ما فيهما من المتصل المرفوع صحيح بالقطع ، وأنهما متواتران إلى مصنفيهما ، وإن كل من يهون أمرهما فهو مبتدع تبع غير سبيل المؤمنين » [2] .

وقد ظلت هذه الكتب الستة – ولا تزال – مصدرا من مصادر الاصلاح والتجديد والتفكير الاسلامى الصحيح فى الأمة الاسلامية . تلقى منه المصلحون فى عصورهم العلم الدينى الصحيح ، والفكر الاسلامى النقى ، واحتجوا بأحاديثه ، واستندوا اليها فى دعوتهم إلى الدين والاصلاح ، وفى محاربتهم للبدع والفتن والفساد ، ولا يستغنى عن هذا المصدر كل من يريد ارجاع المسلمين فى عصره إلى الدين الخالص والاسلام الكامل ، ويريد أن يوجد صلة بينهم وبين الحياة النبوية والأسوة الكاملة ، وكل من تلجئه الحاجة وتطورات العصر إلى استنباط الاحكام الجديدة .

تدوين الفقه :

كذلك كانت الأمة فى حاجة ملحة إلى حركة تدوين الفقه . وقد اضطرت التطورات التى طرأت على المجتمع الاسلامى ، واتساع رقعة المملكة الاسلامية ، وتعقد المدنية وطرافة المسائل والحوادث ، وانشعاب الحياة ، إلى استنباط المسائل واستخراج النتائج ، وترتيب الجزئيات والفتاوى .

وقد خرج الاسلام من الجزيرة العربية – حيث الحياة بسيطة والمدنية محدودة – إلى بلاد مخصبة واسعة ذات المدنيات القديمة . والآفاق الواسعة ، كالشام والعراق ، ومصر ، وايران ، وقد توسعت الحياة الاجتماعية ، وتعقدت نظم التجارة والادارة ، وقد كانت مهمة تطبيق أصول الاسلام على هذه المسائل والحوادث ، واخضاع الحياة المدنية لروح الاسلام وأسسه يطلب ذكاء فائقا وفهما دقيقا ، واطلاعا واسعا على المجتمع العصرى الذى كان المسلمون يعيشون فيه ، والماما كافيا بعلم النفس ، والطبيعة البشرية ، وخبرة واسعة

---

(١) هو أحمد بن عبد الرحيم .

(٢) حجة الله البالغة ج ١ ، ص ١٠٦ .

بطبقات الأمة ونواحى الحياة العامة ، يضاف إلى ذلك ، الاطلاع الواسع على تاريخ الاسلام ، والوقوف على مصادره وأصول التشريع الاسلامى ، مع الرسوخ والتضلع فى اللغة العربية التى نزل بها القرآن ونطق بها الرسول .

الأئمة الأربعة وخصائصهم :

لقد كان من لطف الله بهذه الأمة ، وكان من التيسير ، أن قيض لهذه المهمة الجليلة رجالا يعدون من الأفذاذ والنوابغ الذين أنجبتهم الانسانية فقها وأمانة ، واخلاصا وكفاية . كان منهم هؤلاء الأربعة (أبو حنيفة م ١٥٠ هـ . ومالك م ١٧٩ هـ . والشافعى م٢٠٤هـ وأحمد بن حنبل م ٢٤١ هـ) الذى قدر لفقههم أن يعيش إلى هذا اليوم ويخضع له العالم الاسلامى . وقد فاق هؤلاء فى فهمهم الدقيق الواسع ، ووقفوا حياتهم واستعملوا مواهبهم بسخاء فى تكوين هذه الثروة الفقهية والقانونية التى لا تعادلها ذخيرة فقهية فى العالم ، والتى لا تزال مرجعا ومادة واسعة للتشريع لهذا العصر . وقد توفر هؤلاء على هذه الخدمة التى لا تزال مرجعا ومادة واسعة للتشريع لهذا العصر وقد توفر هؤلاء على هذه الخدمة التى تدين لها الأمة ، ويدين لها العالم ، وآثروها على كل راحة ولذة وجاه ومنصب فى الحياة ، وقد خاب ملوك عصرهم وأمراؤه ، وخابت الأطماع والاغراءات أن تشغل قلوبهم . أو تتوزع عقولهم وأوقاتهم ، وقد عرض على أبى حنيفة منصب القضاء الذى كان منصبا كبيرا وشرفا عظيما مرتين فرفض وامتنع ومات فى السجن وقد ضرب مالك مائتى سوط لأجل مسألة جهر بها وخلعت كتفاه . وهى أن طلاق المكره ليس بشئ . وقد قضى الشافعى معظم حياته فى عسر وضنك ، وبذل صحته وقوته فى استنباط الأحكام وتدوين الفقه ، وعارض أحمد بن حنبل اتجاه حكومة هى كبرى الحكومات وأقواها على ظهر الأرض فى عصره ، ودافع عن السنة والفكر الاسلامى الصحيح حتى عوقب وعذب وضرب وسجن .

وقد أنتج كل واحد منهم ثروة علمية ، وخلف تراثا فقهيا ينوء بالمجامع العلمية والمؤسسات الكبيرة فى هذا العصر ؛ فقد روى أن أبا حنيفة قال ستين ألف مسألة . وقال بعضهم ثلاثة وثمانين ألفا : ثمانية وثلاثين ألفا فى العبادات ، وخمسة وأربعين ألفا فى المعاملات [1].

وقد ذكر شمس الأئمة الكردرى : أن عدد المسائل التى دونها يبلغ إلى ست مائة

---

(١) ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٨٨ نقلا عن مناقب أبى حنيفة للمكى ص ٩٦ .

ألف[1]. ومهما كان العــدد مبالغا فيه فلا شك أنه أنتج ثروة فقهيــة ضخمه هى أساس هذا الفقه الحنفى الذى استطاع أن يحكم المســاحة الكبرى فى المملكة الاسلامـية أيام ازدهارها، ويكون دستور مملكة هى أرقى المملكات فى عصرها ، وهى الدولة العباسية .

وكذلك شأن مـالك فى الفقه ، فكتابه « المدونة » الذى هو مجـموعته الفقـهية ، تبلغ نحو ستــة وثلاثين ألف مسألة [2] . وكتاب الأم الذى هو من افـادات الشافعى مجـموعة فقهية ضــخمة تقع فى سبعة أجزاء وقد جمع أبـو بكر الخلال (م ٣١١ هـ) مسائل الامام أحمد فى أربعين مجلدا أسماه الجامع لعلوم الامام أحمد [3].

تلاميذ الأئمة الأربعة وخلفاؤهم :

وقد رزق الله هؤلاء الأئمة الفقهاء تلاميــذ نجباء قاموا بعلمهم وزادوا فى ثروته ، وظلوا يشتغلون بتنقيــحه وتهذيبه ، وقد رزق الامام أبو حنيفة تلامـيذ : مثل القاضى أبى يوسف (م١٨٢ هـ) الذى استطاع بذكـائه النادر ، ومقدرته الفقــهية أن يكون قاضى الامــبراطورية العباسية العظيمة ، والمشرف الدينى عليها ، وقد ألف كتاب الخراج الذى يشهد بسعة علمه ودقة فهمه ، ومحمــد بن الحسن (م ١٨٩ هـ) الذى هذب الفقه الحنفى وألف مؤلفات لا تزال مصدر الفــقه الحنفى . وزفر بن هذيل (م ١٥٨ هـ) الذى عرف بحدة القــياس وقوة الحجة .

ورزق الامام مالك تلاميذ عرفوا بحسن الوفــاء لشيخهم ، والحرص على نشر مذهبه ، مثل عــبد الله بن وهب (م ١٩٧ هـ) وعــبد الرحــمن بن القاسم العــتقى (م ١٩١ هـ) وأشهب بن عبد العزيز (م ٢٠٤ هـ) وعــبد الله بن عبد الحكم (م ٢١٤ هـ) ويحيى بن يحيى الليثى (م ٢٣٤ هـ) الذين دانت بفضلهم مصر وشمال افريقيا بالفقه المالكى .

ورزق الامــام الشــافــعــى مــثل البــويطى (م ٢٣١ هـ) والمــزنى (م ٢٦٤ هـ) وربيع (م٢٧٠هـ) الذين دونوا الفقه الشافعى وهذبوه . وكذلك كــان من اتباع الامام أحمد مؤلف ومحقق ، مثل ابن قــدامة ، الذى صنف « المغنى » الذى يعد من مفاخر المكتبــة الاسلامية الفقهية .

---

(١) سيرة النعمان للعلامة شبلى النعمانى ، نقلا عن قلائد عقود العقيان .

(٢) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢١٥ .

(٣) أنظر ترجمة أبى بكر الخلال فى شذرات الذهب ج ٢ ص ٢٦١ .

ماذا أفاد تدوين الفقه ؟

لقد كـان وجود هؤلاء الفقـهاء المجتـهدين والمشرعين فى قـرون الاسلام الأولى برهانا ساطعا على صلاحية هذه الأمة للبقاء والانتشـار . وقد أوجدت بفضل مساعيهم ونبوغهم وحدة الأمة العملية ، فى اجتماعها ومعامـلاتها وسياستها المالية ، وهذه الوحدة عامل مهم من عوامل الوحدة الدينية والفكرية ، وبذلك أمنت هذه الأمة من تلك الفوضى الاجتماعية والتشـريعية التى أصيـبت بها الأمم والديانات فى عهـدها الأول . والتى تدرجت بها إلى حياة لا دينيـة تسير فيهـا على النظم اللا دينية أو تقتبس التشـريع الأجنبى الثائر على روح دينها ومـبادئه ، وألجأتهـا إلى التمسك بمبـدأ فصل الدين عن السيـاسة ، الذى هو الخطوة الأولى الحاسمة إلى الالحاد والارتداد .

نشأة الاعتزال والمعتزلة :

يحلو لى أن أفـتتح هذه المحـاضرة بكلمـة سبـقت لى فى كتـابى « ماذا خـسر العـالم بانحطاط المسلمين » . قد كـان الأنبياء عليـهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصـفاته وأفعاله ، وعن بداية هذا العالم ومصيره ، وما يهجم عليه الانسان بعد موته ، وأتاهم علم ذلك كله بواسطتهـم عفوا بدون تعب . وكفـوهم مؤونة البحث والـفحص فى علوم ليس عندهم مباديها ولا مقـدماتها التى يبنون عليها بحثهم ؛ ليـتوصلوا إلى مجهول ، لأن هذه العلوم وراء الحس والطبيـعة ، لا تعمل فـيها حـواسهم ، ولا يؤدى اليهـا نظرهم وليست عندهم معلوماتها الأولية .

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمـة وأعادوا الأمر جذعا . وبدأوا الـبحث أنفا . وبدأوا رحلتهم فى مناطق مهولة لا يجـدون فيها مرشدا ولا خريتا . وكـانوا فى ذلك أكثر ضلالا وأشد تـعبا وأعظـم اشتغـالا بالفضـول من رائد لم يقـتنع بما أدى اليه العلم الانسـانى فى الجغرافية ، وما حدد وضبط من الخـرائط على تعاقب الأجيال وأراد أن يقيس ارتفاع الجبال وعمق البحـار من جديد ، ويختبـر الصحارى والمسافات والحـدود بنفسه على قصـر عمره وضعف قوته وفقدان آلته فلم يلبث أن انقطعت به مطيته ، وخانته عزيمته ، فرجع بمذكرات واشارات مختلفة ، وكذلك الذين خاضوا فى الالهـيات من غير بصيرة وعلى غير هدى ، جـاءوا فى هذا العلم بآراء فـجة ، ومـعلومـات ناقصـة ، وخواطـر سانحـة ، ونظريات مستعجلة ، فضلوا وأضلوا .

وكذلك منحتهم الأنبياء عليهم السلام مبادئ ثابتة وحكمات ، هى أساس المدنية الفاضلة والحياة السعيدة فى كل زمان ومكان ، فحرموها على تعاقب الاعصار ، فبنوا مدنيتهم على شفا جرف هار ، وأساس منهار ، وعلى قياس واختبار ، فزاغ أساس المدنية وتداعى بناؤها وخر عليهم السقف من فوقهم .

وكان الصحابة رضى الله عنهم سعداء موفقين جدا ؛ إذ عولوا فى ذلك كله على رسول الله ﷺ ، فكفوا المئونـة ، وسعدوا بالثمرة ، ووفـروا ذكاءهم وقوتهم وجهـادهم فى غير جهاد ، ووفروا عليهم أوقاتهم فصرفـوها فيما يعنيهم من الدين والدنيا ، وتمسكوا بالعروة الوثقى ، وأخذوا فى الدين بلب اللباب .

هذا هو تصوير الواقع فى آخر القرن الثانى ، وإن لم أقصد تصويره ؛ وإنما قصدت تصوير العصور الجاهلية وعصور الفترة ؛ ولكن الطبيعة البشرية جامحة لا تقف على الحدود، نهمة بالمتاعب والجهاد فى غير جهاد ، فلم ينقص القرن الأول ، ولم ينقرض الجيل الاسلامى الأول - الذى تلقى الدين من النبى ﷺ ، وكان كما وصف عبد الله بن مسعود « أبر الناس قلوبا ، وأعمقهم علما ، وأقلهم تكلفا » - حتى أولع الناس بالخوض فى مسائل الذات والصفات ، وآثاروا مسائل ليست عندهم وسائل الوصول اليها ، ومؤهلات الحكم عليها ، وكان ذلك بتأثير الفلسفة اليونانية التى لم تكن الا مجموع خواطر لا تقوم على أساس علمى ، وطلسما من كلمات ومصطلحات يروع الانسان . فاذا افتقده لم يجده شيئا . وقد كان المسلمون فى غنى عن ذلك بما جاء به الرسول من علم محكم ، وبينة واضحة كما قدمنا ، وقد انصرفت هممهم إلى الجهاد والفتح الاسلامى ، ونشر الدعوة والمسائل الجدية ، وتدوين العلوم المفيدة ، ملك عليهم ذلك عقولهم وأفكارهم ، واستنزف جهودهم وأوقاتهم ، فلما انتقلت العلوم اليونانية والسريانية إلى العربية ، وانصرف الناس عن ميدان القتال ، وتنفسوا عن الجهاد ، أثيرت هذه المباحث ، وأقبل الناس عليها ،وكان أسرع الناس اليها هى الطبقة التى كانت أشد انفعالا وتأثرا ، وأسرع قضاء وتحكما ، وكانت ذات فطنة وذكاء حاد ؛ ولكنه ذكاء ليس فيه عمق ونبوغ ، وكان ذكاء طافيا لم يعرف الرسوب والنزول إلى الأعماق والاستقرار فى القعر .

كان يتقدم هذه الطبقة طائفة تعرف فى تاريخ الإسلام « بالمعتزلة » الذين كانوا مع ثقافتهم الواسعة وذكائهم النادر لم يتعمقوا فى العلم ولم يدققوا ، وكانت ثقافتهم أوسع مما هى أعمق ، وقد أخطأ كثير منهم فهم حقيقة الدين وأسرفوا فى تقدير سلطان العقل وحدود العلم الانسانى ؛ فجاءت نظرياتهم فى الدين ومباحثهم فى ما وراء الطبيعة نظريات فجة لم تنضج بعد ، ومباحث مستعجلة قد فاتها الأحكام والتدقيق ، شأن كل شعب وكل طائفة فى بداية الدور العقلى ، وفى الطفولة العقلية ، ولو قدر لهم أن يعيشوا أو يتقدموا فى العلم لنقصوا كثيرا مما أبرموا ، وأبرموا أكثر ما نقضوا .

وقد لاحظ الدكتور أحمد أمين - الذى انتصر للمعتزلة فى كتبه ، وكان شديد الاعجاب بهم عظيم الاعتراف بانتاجهم وخدمتهم للدين - ان نقطة الضعف فيهم أنهم أسرفوا فى تمجيد العقل والايمان بقوته واقتداره . يقول - وهو يذكر الخلاف بين المحدثين والمعتزلة - : « فجوهر الخلاف اذن بين هؤلاء والمعتزلة هو سلطة العقل ومداها وحدودها ، رأى المعتزلة أن العقل البشرى قد منح من السلطة والسعة ما يمكنه من اقامة البرهان حتى على ما يتعلق

بالله ، فلا حدود للعقل الا براهينه ، ولا زلل ولا خطأ متى صح البرهان ، فاستعملوا البراهين فى أدق الأمور وأصعبها وأعقدها ، ففى استطاعة العقل الوصول إلى الحق فيها ، وهكذا كانت نزعة المعتزلة هذه متجلية فى كل أبحاثهم ، يسيرون وراء البرهان إلى نهايته ، ويثيرون أصعب المشاكل وأعقدها ، ويتعرضون لحلها ، فإذا تم لهم حلها أو - على الأقل- اعتقدوا بحلها ، تأولوا آيات القرآن على مقتضاها ، وعلى العكس من ذلك الآخرون ، رأوا أن العقل أضعف من ذلك ، وأن استطاعته محدودة بادراك ما يتعلق بشأنه هو ، أو أقل من ذلك ، وأنه منح القدوة على أن يدرك البرهان على وجود الله ، والنبوة العامة ، ونبوة محمد خاصة ولم يمنح القدرة على كنه الله وصفاته ، فلنؤمن بما جاء به أنبياؤه ، ولنقف عند ما قالوه ، ولا نثر مشاكل لم يأت بها الأنبياء ، ولنسد الطريق على من يتيرونها ، فان جادلناهم فى شئ ففى بيان خطئهم وفساد طريقتهم »[(١)].

ويقول فى موضع آخر ، منتقدا نزعة المعتزلة إلى قياس الغائب على الشاهد ، وهو أساس منطقهم الذى جروا عليه فى فلسفتهم الدينية :

ولعل نقطة الضعف فيهم أنهم أفرطوا فى قياس الغائب على الشاهد ، أعنى فى قياس الله على الانسان ، واخضاع الله تعالى لقوانين هذا العالم ، فقد ألزموا الله - مثلا - بالعدل كما يتصوره الانسان ، وكما هو نظام دنيوى ، وفاتهم أن معنى العدل - حتى فى الدنيا - معنى نسبى يتغير تصوره بتغير الزمان ، وأن ما كان عدلا فى القرون الوسطى يعد ظلما الآن ، فكيف إذا انتقلنا من عالم الدنيا إلى عالم الله ؟! وكذلك الشأن فى قولهم فى الحسن والقبح ، والصلاح والأصلح ، إنا نرى أن الانسان إذا ضاق نظره حكم على الأشياء حكما ، فإذا اتسع نظره تغير حكمه ، فمن نظر فقط إلى أسرته كانت بعض أحكامه خطأ بالنسبة لمن اتسعت نظرته إلى أمة أو إلى الانسانية عامة .

ونحن فى أعمالنا ننظر إلى عالمنا والله تعالى رب العالمين قد ينظر فى أعماله إلى جميع العوالم ، ما نعلم منها وما لا نعلم ، فكيف نخضع الله تعالى لتصور العدل الذى نتصوره نحن فى عالمنا هذا ؟! وكذلك قولهم فى أن صفات الله هى عين الله أو غير الله ، كل براهينهم مبنيةعلى قياس الغائب على الشاهد ، ولكن الشبه معدوم ، وقد فرضوا أن العينية والغيرية والزمانية والمكانية والسببية ونحوها قوانين لازمة لكل موجود ، وهذا - فى نظرى - خطأ محض ، فهى قوانين انسانية ، وأن تسامحنا قليلا قلنا أنها قوانين عالمنا هذا،

---

(١) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٣٩ .

ولسنا نستطيع القول بأنها تنطبق على غير عالمنا أو لا تنطبق ، فاصدار حكمنا على الله - على اعتقاد أنها قوانين شاملة للانسان والله - جرأة لا يرتضيها العقل الذى يعرف قدره ، ولا يعدو طوره ، وليس هذا عيب المعتزلة وحدهم ، بل هو عيب من أتى بعد من علماء الكلام كذلك » .

لقد كان هذا الاتجاه العقلى الذى تزعمه المعتزلة ، والذى كان يقوم على تمجيد العقل وتأليهه ، وإخضاع النظام الدينى بما فيه من عقائد وحقائق - بل اخضاع الذات والصفات والأفعال الالهية له ، وعلى قياس الغائب على الشاهد اتجاها خطرا على الاسلام ، وفتح باب فساد عظيم فى المجتمع الاسلامى . لقد كان هذا تحويلا للدين البسيط العملى الذى جاء به الرسول ﷺ ، يستسيغه العقل البشرى بكل سهولة إلى فلسفة نظرية دقيقة يعجز عن فهمها واساغتها كثير من العقلاء والأذكياء . ولقد كان هذا تنمية للعقل على حساب العاطفة والوجدان ، واضعافا للايمان ، واثارة للشكوك والشبهات ، وعدم الثقة بما يقوله النبى . ويعجز العقل عن تعليله واقامة الدليل على وجوده ، وما أكثر فى العالم ما يعجز العقل عن تعليله واقامة الدليل عليه .

واسمحوا لى أن أنقل كلمة أخرى للدكتور أحمد أمين فى انتقاده على المعتزلة فى هذه الناحية :

« ربما أخذ عليهم أنهم فى - سيرهم هذا وراء السلطان العقلى - قد نقلوا الدين إلى مجموعة من القضايا العقلية ، والبراهين المنطقية ، وهذا النهج ، إذا صح أن تقتصر عليه فى الفلسفة ، فلا يصح أن يقتصر عليه فى الدين ، لأن الدين يتطلب شعورا حيا أكثر مما يتطلب قواعد منطقية ، فالدين ليس كالمسائل الرياضية ، ولا كالنظريات الهندسية تتطلب من العقل حلها ، وفى ذلك كل الغناء ، بل الدين أكثر من ذلك ، يتطلب شعورا يدعو إلى العمل ، وحرارة إيمان تبعث على التقوى . ونظام المعتزلة - وهو الذى جرى عليه المتكلمون بدورهم - نظام جيد التفكير ضعيف الروح ، غالى فى تقدير العقل ، وقصر فى قيمة العاطفة ، يتجلى ذلك لك إذا أنت وازنته مثلا بمنهج الصوفية فهو على العكس من المعتزلة : شعور وعاطفة ولا منطق ، والنظام العقلى فى الدين يقف الانسان - فى العادة - موقفا سلبيا أكثر منه ايجابيا » (١).

---

(١) ضحى الاسلام .

المأمون وعقيدة خلق القرآن :

بقى المعتزلة طائفة من طوائف المسلمين ، لا تملك نفوذا سياسيا ، ولا سلطة حتى ولى المأمون بن الرشيد الذى يصفه الدكتور أحمد أمين فيقول : « كان عقله عقلا فلسفيا ، حرا فى تفكيره ، مع التقيد بأصول الدين . . . كان الاعتزال أقرب المذاهب إلى نفسه ، لأنه أكثر حرية ، وأكثر اعتمادا على العقل ، فقرب المعتزلة منه ، وأصبحوا ذوى نفوذ فى القصر ، وكان من أظهرهم ثمامة بن الأشرس ، وأحمد بن أبى داود »[(١)] .

« لم يكن المأمون امعة يوجه فيتوجه ، ولكنه - مع قوة شخصيته - يتأثر برأى من حوله، وكان على استعداد لذلك ، فمن قبل ، أدخل المسائل الدينية فى شئون الدولة ، فاعلن تفضيل على بن أبى طالب على أبى بكر وعمر ، وأغضب بذلك كثيرا من الناس ، ونادى - من قبل - بتحليل المتعة وهو فى طريقه إلى الشام ، لما صح عنده من حديث حل المتعة ، فما زال يحيى بن أكثم يروى له الأحاديث فى حرمتها عن الزهرى وغيره ، ويقيم له البراهين على حرمتها ، حتى اقتنع فأمر بأن ينادى بتحريمها بعد أن كان قد أمر بها »[(٢)] .

وهذا وصف صادق للمأمون ، وتصوير نفسيته وطبيعته ، حدة فى الذكاء ، والتقاط للآراء ، وتهور فى الرأى ، وسرعة فى التنفيذ ، وهى صفة ملك قوى الشخصية ، شديد الانفعال ، لم تمهله أحواله والظروف المحيطة به للدراسة العميقة ، والعلم الراسخ ، وقد أحاط به علماء وأذكياء يحرصون على النفوذ فى عقله ، وتنفيذ مذاهبهم وارائهم فى الشعب ، وقهر أعدائهم عن طريق السلطان .

وهكذا أصبح المعتزلة أصحاب حول وطول فى الدولة العباسية ، وأصبح الاعتزال مذهبا رسميا يتبناه قاضى القضاة ، أحمد بن أبى داود ، ويحميه الخليفة العباسى ، ويدين به أصحاب المناصب والجاه والنفوذ فى المملكة .

ولم يشأ تدين المعتزلة أو طبيعتهم الخاصة أن تعيش فى المملكة فكرتان متنافستان ، وأن ينازع الاعتزال مذهب أهل الظاهر والقشور (يعنى المحدثين) ، لقد صدق الأستاذ أحمد أمين إذ قال : « كان لهم طابع خاص غريب يجمع بين التعصب الحاد وحرية الفكر المفرطة»[(٣)] . وقد رأينا مرارا فى التاريخ ، أن المؤمنين بحرية الفكر المفرطة يطغى عليهم

---

(١) ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٦٣ .

(٢) ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٦٥ .

(٣) ضحى الاسلام ج ٣ .

التعصب الحاد ، وكأنهم يريدون أن يحتكروا حرية الرأى ويمنعوها غيرهم ، وشأنهم فى ذلك شأن المطففين ﴿ **إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** ﴾ وهذا الذى نشاهد فى هذا العصر عند الأحزاب السياسية .

انتهز المعتزلة هذه الفرصة السانحة ، وصمموا على أن يكون الاعتزال هو التعبير الوحيد عن عقيدة الاسلام ، والمذهب السائد فى المملكة لا يزاحمه مذهب آخر ،وكانت « مسألة خلق القرآن » هى المسألة الحاسمة التى يصح أن تصبح مقياسا للخضوع والاعتزال والتدين بمذهبه ، فركز المعتزلة أعلامهم على هذه المسألة وجعلوها فارقا بين الايمان والكفر ، وشعارا للتوحيد ، وشرطا لصحة العقيدة .

وقد ألح المعتزلة على تسمية القرآن بالمخلوق ، لأنهم يرون أن الله هو وحده القديم ، وكل ما عداه فهو محدث ومخلوق . وأنكر المحدثون هذا التعبير المحدث ، وألحوا على أن يسموه القديم ، واستشنعوا أن يسموه المخلوق ، وقالوا : « القرآن كلام الله ، لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق ، واثارة هذه المسألة بدعة ، لم يقلها النبى ﷺ ولا صحابته ، فلا نتابعكم فى السير فيها ،ولا نتابعكم فى الجدال أو الخصومة ، ونقف عند قولنا : القرآن كلام الله ، وهذا فقط هو ما قال الله فى قرآنه الكريم . إنهم كانوا يعتقدون أن الكلام فى هذا لا يصح ، ولا يصح أن يصل إلى العامة ، فإذا قلنا لهم « القرآن مخلوق » لم يبق فى نفوسهم الا شئ واحد ، وهو عدم التقديس والاجلال ، وهذا يدعو إلى ضعف العقيدة ، والاستهانة بالقرآن ، وقد يجلب بعض القائلين إلى أن يعتقدوا - كما ظهر فى بعض الأوساط - أن المعانى من الله ، وإنما عبر الرسول عنها بلفظه وعبارته »[1]. أما المعتزلة فرأوا - بحكم العقلية التى نشأوا عليها - أن المطالبة بهذه العقيدة فرض محتَّم ، لا يصح العدول عنه ، ولا يسع الحكومة التى تدين بالاسلام ، وتحمى عقيدة التوحيد ، أن تداهن أو تتساهل فى تنفيذ هذه العقيدة وأخذ الناس بها ، يمثل هذه الفكرة وهذه النفسية خير تمثيل ما جاء فى كتب المأمون :

« قد عظم هؤلاء الجهلة « القائلون بأن القرآن كلام الله غير مخلوق » بقولهم فى القرآن الثلم فى دينهم ، والجرح فى أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الاسلام . . ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التى هى لله وحده ، وشبهوه به . . . .وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال

---

(١) إذا شئت الاطلاع على مذاهب المعتزلة والمتكلمين وأهل السنة فى هذه المسألة ودلائلهم ، فاقرأ «جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين » للشيخ نعمان الالوسى البغدادي.

بهذه المقالة حظا فى الدين ، ولا نصيبا من الايمان واليقين » .

وهكذا رأى المعتزلة أن الاسلام يتركز فى الاعتقاد بخلق القرآن ، وحملوا على رأس الحكومة الإسلامية - المأمون ين الرشيد العباسى - على حمل المسلمين على هذه العقيدة ، فحمل الناس عليها سنة ٢١٨ هـ ، وبدأ ذلك بارسال كتاب إلى والى بغداد ، اسحاق بن ابراهيم ذكر فيها : أن خليفة المسلمين واجب عليه حفظ الدين واقامته والعمل بالحق فى الرعية ، وذكر أن القائلين بقدم القرآن والمنكرين لخلقه « شر الأمة ورؤوس الضلالة المنقوصون من التوحيد .... وأحق من يتهم فى صدقه ، وتطرح شهادته ، ولا يوثق بقوله ولا عمله ، فإنه لا عمل الا بعد يقين ، ولا يقين الا بعد استكمال حقيقة الاسلام وإخلاص التوحيد ، وأمره بجمع الناس وامتحانهم فى هذه العقيدة ، وعزل كل من لا يوافق عليها ولا يدين بها .

وهكذا بدأت هذه الفتنة التى تسمى فى التاريخ « بالمحنة » وكان ذلك قبل وفاة المأمون بأربعة أشهر .

احتضنت الدولة العباسية الكبرى فى عهد ملك من أقوى ملوكها ، وأعظمهم شأنا وسلطانا ، عقيدة لا يفهمها العامة ، ولا يوافق عليها الشعب ، وفرضتها على الجمهور وجعلتها فارقا بين الكفر والايمان ، والشرك والتوحيد ، وأمرت باقصاء كل من لا يدين بها أو يخالفها ، وامتحانه وتعذيبه ، فكانت محنة عظيمة على الأمة ، وفكرة فلسفية ضاق عنه تفكير العامة ، وضاقت بها نفوسهم ، لأنها تطلب مستوى علميا راقيا ، والماما بالفلسفة وذكاء . والذين يملكون هذه الأدوات لم يزالوا ولا يزالون قلة بين الشعوب ، يعجبنى فى ذلك ما قال الأستاذ أحمد أمين ، وهو يذكر غلطة المعتزلة وبلاهتهم - على ذكائهم - فى هذا الشأن :

« كان عقل المعتزلة عقلا حادا جافا فلسفيا ، وأضعف نقطة فيه أنه يراد أن يفرض على العامة فرضا ، يراد أن تكون الأمة فلاسفة تعرف الجوهر والعرض ، والكمية والكيفية ، والمحدود واللا محدود ، والوحدة والتعدد ، والمكان والجهة ، وإلى الآن لم يخلق الله أمة كلها فلاسفة على هذا النمط ، ولا أدرى إن كان ذلك فى مصلحة الانسانية أو لا »(١) .

ولكن قد كان ذلك ، فقد صدرت من الخليفة كتب وامتحن ناس ، وعزل ناس ، وكانت هذه المسائل الفلسفسة شغل الدولة والخليفة ، وشغل الناس الشاغل ، ووقع الناس

---

(١) ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٢ .

فى بلاء عظم ، وفى حيرة عظيمة ، ولم يدروا كيف فعلون! مسألة لا يفقهونها ولا يسيغونها ولا يوافق عليها من يعتقدون فيه الصلاح والنزاهة والتقوى وفهم الكتاب والسنة، تفرض عليهم فرض الجباية ، ويمتحن فيها علماؤهم ، ويعزل فيها قضاتهم ، ويسقط فيها شهودهم .

لقد كانت السنة بل الأمة بحاجة ملحة إلى الارشاد والتوجيه ، وإن شئتم قلتم إلى الزعامة الدينية ، وكان المسلمون فى حاجة شديدة إلى إمام يثقون بدينه وأمانته وفقهه ، يعارض هذا التيار ويقف فى وجه الحكومة مدافعا عن السنة ، جاهرا بالحق ، محتملا للأذى ، صابرا على البلاء ، ولا بد أن تكون شخصية قوية معروفة تتمتع بالاجلال والتقدير .

لقد ظهرت هذه الشخصية التى يصبح صاحبها « زعيم المعارضة » وحامل لواء السنة ، وهى شخصية أحمد بن حنبل .

أحمد بن حنبل : - هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال ، الامام أبو عبد الله ، الشيبانى الذهلى .

نشأته ودراسته : - ولد فى ربيع الأول سنة ١٦٤ هـ ، جئ به حملا من مرو ، وولد فى بغداد ، وتوفى أبوه محمد شابا ، فوليته أمه (١).

نسبه عربى ، وهو شيبانى فى نسبه لأبيه وأمه ، وقد عرفت هذه القبيلة بالهمة والاباء وشدة الشكيمة والصلابة ، كان منها المثنى بن حارثة ، القائد الاسلامى المعروف ، انتقل جده إلى خراسان ، وكان واليا على سرخس ، فى العهد الأموى ، وناصر الدعوة العباسية عند ظهورها ، وأوذى فى هذا السبيل ، وكان أبوه قائدا كما ذكر الأصمعى .

ترك له أبوه عقارا ببغداد لا يقوم بنفقات الأسرة ، فنشأ على الصبر والقناعة والكفاف .

حفظ أحمد بن حنبل القرآن فى صباه ، وتعلم القراءة والكتابة ، ثم اتجه إلى الديوان يمرن على التحرير، ويقول فى نفسه : « كنت وأنا غليم اختلف إلى الكتاب ، ثم اختلف إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة » وكانت نشأته فيها آثار النبوغ والرشد حتى قال بعض الآباء : « وأنا أنفق على ولدى وأجيئهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا ، فما أراهم يفلحون ،

---

(١) ترجمة الامام أحمد من تارخ الاسلام للحافظ الذهبى ص ١٠ .

وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم ! أنظروا كيف ؟! وجعل يعجب من أدبه وحسن طريقته»[1] .

وكان عمه يرسل إلى بعض الولاة بأحوال بغداد ، ليعلم بها الخليفة ، وقد أرسلها مرة مع ابن أخيه ، أحمد بن حنبل ، فتورع عن ذلك ، ورمى بها الماء تأثما من الوشاية والتسبب لما عسى أن يكون فيه ضرر بالمسلمين ، وقد لفت هذا الورع وهذه النجابة كثيرا من أهل العلم والفراسات ، حتى قال الهيثم بن جميل : « إن عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه » .

اتجه أحمد بن حنبل إلى الحديث ، وروى عنه أنه قال : « أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف » وبقى يتلقى الحديث ببغداد من سنة ١٧٩ هـ إلى سنة ١٨٦ هـ ولزم عالما كبيرا من علماء الحديث والآثار ببغداد أربع سنوات ، وهو هشيم بن بشير بن أبى حازم الواسطى (١٨٣) وسمع عبد الرحمن بن مهدى وأبا بكر بن عياش ، وكان فى طلبه العلم مثال الجد والحرص والنشاط ، فقد ذكر عن نفسه « كنت ربما أردت البكور فى الحديث ، فتأخذ أمي بثيابى ، حتى يؤذن الناس أو حتى يصبحوا » .

رحل أحمد سنة ١٨٦ إلى البصرة ، ثم رحل إلى الحجاز ، ورحل إلى اليمن ، وإلى الكوفة ، وضاقت نفقته عن الرحلة إلى الرى ، قال : « لو كان عندى خمسون درهما لخرجت إلى جرير بن عبد الحميد »[2] .

وفى سنة ١٨٧ التقى فى رحلته إلى الحجاز مع الشافعى ، وأخذ عنه الفقه وأصوله،وعلم الناسخ والمنسوخ ، ولقى الشافعى بعد ذلك ببغداد ، وقد حرر الشافعى فقهه ، ونضج أحمد فى الحديث وعلم الرواية ، حتى كان الشافعى يقول له :« إذا صح عندكم الحديث فأعلمنى به » .

ويدل على علو همته فى طلب العلم ، قصة يرويها ولده صالح ، قال : « عزم أبى على الخروج إلى مكة ، ورافق يحيى بن معين ، فقال أبى : نحج ونمضى إلى صنعاء إلى عبد الرزاق ، قال فمضينا حتى دخلنا مكة ، فإذا عبد الرزاق فى الطواف ، وكان يحيى يعرفه ، فطفنا ثم جئنا إلى عبد الرزاق ، فسلم عليه يحيى ، وقال : هذا أخوك أحمد بن حنبل ، فقال حياه الله ! أنه ليبلغنى عنه كل ما أسر به ، ثبته الله على ذلك ! ثم قام

---

(١) أحمد بن حنبل : محمد أبو زهرة ص ١٨ .

(٢) ترجمة الامام أحمد ص ١٢ .

لينصرف ، فقال يحيى : ألا نأخذ عليه الموعد ؟ فأبى أحمد وقال : لم أغير النية فى رحلتى اليه أو كما قال ، ثم سافر إلى اليمن لأجله ، وسمع عنه الكتب وأكثر عنه » (١).

واستمر على هذا الجد والطلب حتى بلغ مبلغ الامامة فى الحديث ، قال عبد الله بن أحمد ، سمعت أبا زرعة يقول : « كان أبوك يحفظ ألف ألف حديث ، فقيل له ، وما يدريك ؟ قال : ذاكرته ، فأخذت عليه الأبواب » (٢) وقال ابراهيم الحربى : « رأيت أحمد كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين » قال أبو عبيدة : « ما رأيت رجلا أعلم بالسنة من أحمد » وكان مع ذلك معجبا بالشافعى ، كثير الاجلال له ، يقول « ما رأت عيناه مثله » وقد استفاد منه فى الفقه والاستنباط ، واعترف بذكائه الباهر ، وقوة قياسه ، وكان الشافعى معجبا به حتى قال : (خرجت من بغداد وما خلفت بها أفقه وأتقى من ابن حنبل).

وجلس أحمد للتدريس والفتيا ، وقد بلغ الأربعين ، فوافق السنة ، ووافق فى نشر علم النبوءة سن النبوءة ، وكان اقبال الناس على مجالسه عظيما ، فقد ذكر أن عدد من كانوا يستمعون إلى درسه نحو خمسة آلاف ، وأنه كان يكتب فيهم نحو خمسمائة » (٣).

وكانت مجالسه تمتاز بالوقار والسكينة وحسن الانصات واجلال العلم ، وكانت بعيدة عن الدعابة والهزل وكل ما يذهب رواء العلم وروعة الدين ، ، وكان للفقراء تقديم على الأمراء والأغنياء ، نقل الذهبى عن المروذى قال : « لم أر الفقير فى مجلس أعز منه فى مجلسه أبى عبد الله ، كان مائلا اليهم ، مقصرا عن أهل الدنيا ، وكان فيه حلم ، ولم يكن بالعجول ، وكان كثير التواضع ، تعلوه السكينة والوقار ، إذا جلس فى مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلم حتى يسأل ، وإذا خرج إلى مسجده لم يتصدر ، يقعد حيث انتهى به المجلس » (٤).

سيرته وأخلاقه : كانت حياة أحمد بن حنبل رحمه الله حياة زهد وقناعة وتوكل ، وكان على قدم السلف الصالح ، وأصحاب العزيمة من الطراز الأول ، وكان ذلك عن اختيار لا عن اضطرار ، فلم يقبل هدايا الخلفاء والسلاطين وصلاتهم ، وكان يتعافاها « قد خلف له

---

(١) ترجمة الامام أحمد ص ١٢ .
(٢) ترجمة الامام أحمد ص ١٣ .
(٣) ابن حنبل نقلا عن المناقب لابن الجوزى ص ٣١٠ .
(٤) ترجمة الامام أحمد ص ٣٥ .

أبوه طرزا [١] ،وكان يأكل من غلة تلك الطرز ، ، ويتعفف بكرائها على الناس » [٢] وإذا وجد خصاصة حمل حبله على عاتقه ، وذهب فيجمع بقايا الزرع الذى يترك فى الأرض -وهو فى حكم المباح- فالتقطه ، وقد كان فى بعض الأحيان يؤجر نفسه للحمل فى الطريق - وهو امام المسلمين يومئذ - وكان فى بعض الأحيان يكتب بأجرة ، تقول أم ولده: « كان إذا لم يكن عند مولاى (أحمد بن حنبل) شئ فرح يومه ذلك » وقد ابتلى فى أيام المتوكل بالاقبال والصلات والجوائز ، كما ابتلى فى أيام المعتصم بالتعذيب والصرم والقسوة ، وكان فى كليهما صابرا عفيفا نزيها ، وكانت الأخرى أشد عليه من الأولى ، وقد ثبت على عفافه وزهده وعزوفه عن أموال السلطان ، وله فى ذلك أخبار غريبة ، منها ما رواه حنبل قال : « بينما نحن جلوس بباب الدار إذا يعقوب - أحد حجاب المتوكل - قد جاء ، فاستأذن على أبى عبد الله ، فدخل ودخل أبى وأنا ومع بعض غلمانه بدرة على بغل ، ومعه كتاب المتوكل ، فقرأه على أبى عبد الله « أنه صح عند أمير المؤمنين براءة ساحتك وقد وجه اليك بهذا المال تستعين به » .

فأبى أن يقبله ، فقال : مالى اليه حاجة ، فقال : يا أبا عبد الله ! اقبل من أمير المؤمنين ما أمرك به ، فإن هذا خير لك عنده ، فاقبل لا ترده ! فانك إن رددته خفت أن يظن بك سوءا . فحينئذ قبلها ،فلما خرج قال : يا أبا على ! قلت لبيك ! قال : ارفع هذه الانجانة وضعها ! (يعنى البدرة تحتها) فوضعتها وخرجنا . فلما كان من الليل إذا أم ولد أبى عبد الله تدق علينا الحائط . فقلت لها مالك ؟ قالت : مولاى يدعو عمه . فأعلمت أبى . وخرجنا فدخلنا على أبى عبد الله . وذلك فى جوف الليل . فقال يا عم ! ما أخذنى النوم هذه الليلة فقال له أبى : ولم ؟ قال : لهذا المال .وجعل يتوجع لأخذه . وجعل يسكنه ويسهل عليه . فقال : حتى تصبح وترى فيه رأيك . فان هذا ليل . والناس فى منازلهم ، فأمسك وخرجنا فلما كان فى السحر . وجه إلى عبدوس بن مالك . والحسن بن البزاز ، فحضرا وحضر جماعة ، منهم هارون الجمال وأحمد بن منيع ، وابن الدروقى وأنا ، وأبى وصالح ، وعبد الله فجعلنا نكتب من يذكرونه من أهل الستر والصلاح ببغداد والكوفة فوجه منها إلى أبى سعيد الأشج وأبى كريب . وإلى من ذكر من أهل العلم والسنة ممن يعلمن أنه محتاج ، ففرقها كلها ، ما بين الخمسين والمائة والمائتين . فما بقى فى الكيس

---

(١) الطرز جمع طراز ككتاب وكتب ، والطراز الموضح الذى تنسج فيه الثياب .

(٢) المناقب لابن الجوزى .

درهم ، ثم تصدق بالكيس على مسكين .

وقد أقام أحمد بن حنبل فى عسكر المتوكل فى ضيافته . وتعفف عن طعامه وأمواله . قال ابنه صالح نزلنا فى (عسكر المتوكل) فى دار التياح . ولم يعلم أبو عبد الله . فسأل بعد ذلك لمن هذه الدار ؟ قالا : هذه دار التياح . فقال : حولونى ! اكتروا لى دارا ! قالوا: هذه دار أنزلكها أمير المؤمنين . قال : لا أبيت ههنا . قال أبى : فلم نزل حتى اكترينا له دارا . وكانت تأتينا فى كل يوم مائدة فيها ألوان يأمر بها المتوكل . والفاكهة والثلج وغير ذلك . فما نظر اليها أبو عبد الله ولا ذاق منها شيئا . وكانت نفقة المائدة كل يوم مائة وعشرين درهما [1] قال: ومكث خمسة عشر يوما يفطر فى كل ثلاث على ثمن سويق ، ثم جعل بعد ذلك يفطر ليلة على رغيف . وليلة لا يفطر ، وكان إذا جئ بالمائدة توضع بالدهليز لئلا يراها [2].

ولما رجع إلى الدار نزع الثياب . وكانت قد خلعت عليه ثم جعل يبكى فقال : «سلمت من هؤلاء منذ ستين سنة حتى إذا كان فى آخر عمرى بليت بهم . ما أحسبنى سلمت من دخولى على هذا الغلام فكيف بمن يجب على نصحه من وقت تقع عينى عليه إلى أن أخرج من عنده ! يا صالح ! وجه بهذه الثياب إلى بغداد تباع ويتصدق بثمنها . ولا يشتر أحد منكم شيئا » [3].

وقال حنبل : كان فى حياته ربما استعار الشئ من منزلنا ومنزل ولده . فلما صار الينا من مال السلطان ما صار ، امتنع عن ذلك . حتى وصف له فى علته قرعة تشوى ويؤخذ ماؤها فلما جاءوا بالقرعة . قال بعض من حضر : اجعلوها فى تنور يعنى فى دار صالح فإنهم قد خبزوا . فقال بيده : لا !

وكان لا يرى حرمة هذه الأموال . ولكنه يرى أنها أخذت من غير حل وقد تعلقت بها حقوق المسلمين وقلوبهم [4] فكان يتحاشى أخذها ويتأثم من قبولها . وقد قال مرة لأولاده «لم تأخذونه والثغور معطلة غير مشحونة . والفيىء غير مقسوم بين أهله ؟ وقال مرة ماذا ننتظر ؟ إنما هو الموت . فاما إلى جنة واما إلى نار .فطوبى لمن قدم على خير » [5] وقال له

---

(١) ترجمة الامام أحمد ص ٦١ .

(٢) أيضا ، ص ٦٦ .

(٣) ترجمة الامام أحمد ص ٦٦ .

(٤) المناقب ص ٣٨٤ .

(٥) ترجمة الامام أحمد ص ٦٢ .

ولده : أليس قد أمرت ما جاءك من هذا المال من غير مسألة ولا اشراف نفس أن يأخذها ؟ قال قد أخـذت مرة بلا اشراف نفس . فالثانيـة والثالثة ! فما بال نفسـك ألم تشرف؟ قال فقلت : ألم يأخـذ ابن عمر وابن عـباس ؟ قال مـا هذا وذاك ! وقال لو أعلم أن هذا المال يؤخذ من وجهه ولا يكون فيه ظلم ولا حيف لم أبال » (١) .

هنا نقف وقفة قصيرة ونتســاءل ، لم كان هذا التشديد من أحمد ؟ ولماذا هذه المغالاة ؟ وأقول : لولا هذه الصرامة ، ولولا هذا التـدقيق فى الزهد والعزوف عن أموال السلطان ، ولولا هذه المحافظة الشديدة على منهج الحياة الذى التـزمه أحمد بن حنبل ، لما استطاع أن يستعصى على هذه الدولة القوية ، وأن يفـلت من حبالها ، ولما استطاع أن يمثل هذا الدور الرائع فى تاريخ الاصـلاح والتـجـديد والدفـاع عـن الدين ، وأن يؤثر فى عـقـول الناس وقلوبهم هذا التأثيـر العظيم ، وأن يقف طودا شامخـا ، وجبلا راسيا ، فى هـذه التيارات التى تجرف الرجال وتحرك الجبال .

ثم أنه بهذا الزهد والتوكل على الله استفاد قوة روحية ، وصلة عميقة بالله ، انابة اليه، استحق بها النصر وتغلب على نزوات النفس وشهواتها .

وقد رأينا الزهد والتجديد مترافقين فى تاريخ الاسلام ؛ فلا نعرف أحدا ممن قلب التيار، وغير مجرى التاريخ ، ونفخ روحا جديدة فى المجـتمع الاسلامى أو افتتح عهدا جديدا فى تاريخ الاسلام ، وخلف تراثا خالدا فى العلم والفكر والدين ، وظل قرونا يؤثر فى الافكار والآراء ، ويسيطر علـى العلم والأدب الا وله نزعة فى الزهد ، وتغلب على الشـهوات ، وسيطرة على المادة ورجالها ، ولعل السر فى ذلك أن الزهد يكسب الانسان قوة المقاومة ، والاعتداد بالشخصـية والعقيدة ، والاستهانة برجـال المادة ، وبصرعى الشهوات ، وأسرى المعدة ، ولـذلك ترى كثيـرا من العبـقريين والنوابـغ فى الأمم . كانوا زهادا فى الحـياة ، متمـردين على الشهوات ، بعيدين عن الملوك والأمـراء والأغنياء فى زمانهم ، ولأن الزهد يثيـر فى النفس كوامن القـوة ، ويشعل المواهب ، ويلهب الروح . والدعـة والرخاوة تبلد الحس ، وتنيم النفس ، وتميت القلب .

وهناك تعليلات أخـرى يوافق عليها علم النفس وعلم الأخـلاق ، ولا أطيل بذكرها ، واقتصر على هذه الملاحظة التاريخية ، وألح على أن منصب التجديد والبعث الجديد يتطلب لا مـحالة زهدا ترفـعا عـن المطامع وسفـساف الأمـور ، ويأبى الاندفـاع إلى التيـارات ،

---

(١) أيضا ص ٦٢ .

ويتنافى مع الحياة الوادعة الرخية ، والعيشة الباذخة الثرية ، إنما هو خلافة للرسول الأعظم ﷺ وقد قيل له « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا ، لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى » وأمر بأن يقول لأزواجه « إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا » وهذه سنة الله فيمن يختاره لهذا الأمر العظيم ، ومن يرشح نفسه ويمنيها بهذا المنصب الخطير ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وأرجع إلى حديث أحمد بن حنبل فأقول : قد كان - مع هذه الزهادة وخصاصة العيش - جوادا سمح النفس ، يقول : « يؤكل الطعام بثلاث ، مع الاخوان بالسرور ، ومع الفقراء بالايثار ، ومع أبناء الدنيا بالمروءة » ويقول : « لو أن الدنيا تقل حتى تكون فى مقدار لقمة ، ثم أخذها امرؤ مسلم . فوضعها فى فم أخيه المسلم ، ما كان مسرفا » [1] .

وكان كثير العفو عمن يسئ اليه اغلظ له رجل الكلام وتركه مغاضبا ثم عاد اليه نادما ، وقال له معتذرا : يا أبا عبد الله ! ان الذى كان منى على غير تعمد ، فأنا أحب أن تجعلنى فى حل ، فقال أحمد : « ما زالت قدماى من مكانها حتى جعلتك فى حل » [2] وقد عفا عن كل من أساء اليه ، أو تسبب فى عقوبته ومحنته . وجعلهم فى حل ، وقال: ما على رجل الا يعذب الله بسببه أحدا [3] ، وقال حنبل بن اسحاق ، سمعته يقول : كل من ذكرنى فى حل الا مبتدع ، وقد جعلت أبا اسحاق - يعنى المعتصم - فى حل ، ورأيت الله تعالى يقول : ﴿ وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ ﴾ [4] .

وكان مع هذه الفضائل التى أوسعه الله بها متواضعا لله ، متطامنا للناس ، ولا يفتخر فى شئ . قال يحيى بن معين : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل ، صحبته خمسين سنة ما افتخر علينا بشئ مما كان فيه من الفلاح والخير [5] ، وقال عارم أبو النعمان : وضع أحمد عندى نفقته ، فكان يجئ فيأخذ منها حاجته ، فقلت له يوما : يا أبا عبد الله ! بلغنى أنك من العرب ، فقال : يا أبا النعمان ! نحن قوم مساكين ، فلم يزل يدافعنى حتى خرج ولم يقل شيئا [6] .

---

(١) ابن حنبل ص ٨٧ - ٨٨ .
(٢) أيضا ص ٨٥ .
(٣) ترجمة الامام أحمد ص ٥٤ .
(٤) ترجمة الامام أحمد ص ٥٥ .
(٥) حلية الأولياء ج ٩ ص ١٨١ .
(٦) ترجمة الامام أحمد ص ٢٢ .

وقد وضع الله له القبول فى قلوب العباد ، وطار ذكره فى الآفاق ، ودعا له المسلمون ، وتقربوا بحبه إلى الله ، وهو يخاف نفسه من الاستدراج ، قال المروزى : قلت لأبى عبد الله : ما أكثر الداعى لك ! قال : أخاف أن يكون هذا استدراجا ، بأى شئ هذا ؟ وقلت لأبى عبد الله : أن رجلا قدم طرطوس فقال لى : انا كنا فى بلاد الروم فى الغزو ، اذ هدأ الليل ، رفعوا أصواتهم بالدعاء ادعوا لأبى عبد الله ! وكنا نمد المنجنيق ونرمى عنه ، ولقد رمى عنه بحجر والعلج على الحصن متقوس بدرقة ، فذهب برأسه وبالدرقة ، فتغير وجهه وقال : ليته لا يكون استدراجا ! فقلت : كلا [1].

وقد كان كثير من غير المسلمين يجلونه ويخضعون له ، ويعتقدون فيه الصلاح ، ويتبركون بزيارته ، قال المروزى : رأيت بعض النصارى الاطباء قد خرج من عند أبى عبد الله ومعه راهب ، فسمعت الطبيب يقول : أنه سألنى أن يجئ معى حتى ينظر إلى أبى عبد الله . وقال أيضا : أدخلت نصرانيا على أبى عبد الله يعالجه ، فقال : يا أبا عبد الله ! إنى أشتهى أن أراك منذ سنين ، ما بقاؤك صلاح الاسلام وحده ؛ بل للخلق جميعا ، وليس من أصحابنا أحد الا رضى بك ، قال المروزى : فقلت لأبى عبد الله ، انى لأرجو أن يدعى لك فى جميع الأمصار ، فقال يا أبا بكر ! إذا عرف الرجل نفسه فما ينفعه كلام الناس [2] ؟

وكان مع هذا التواضع مهيبا وقورا ، وكان الناس مدفوعين إلى اجلاله وتهيبه شأن من «تواضع لله رفعه الله» يقول أحد معاصريه : دخلت على اسحاق بن ابراهيم (نائب بغداد) وفلان وفلان من السلاطين ، فما رأيت أهيب من أحمد بن حنبل ، صرت اليه أكلمه فى شئ ، فوقعت على الرعدة حين رأيته من هيبته [3].

وفاته :

قال المروزى : مرض أبو عبد الله ليلة الأربعاء لليلتين خلتا من ربيع الأول ، ومرض تسعة أيام ، وكان ربما أذن للناس فيدخلون عليه أفواجا ، يسلمون عليه ويرد عليهم بيده ، وتسامع الناس وكثروا ، وسمع السلطان بكثرة الناس ، فوكل السلطان ببابه وبباب الزقاق الرابطة وأصحاب الأخبار ، ثم أغلق باب الزقاق فكان الناس فى الشوارع والمساجد حتى

---

(١) ابن حنبل ص ٢١ .

(٢) ابن حنبل ص ٩١ .

(٣) ترجمة الامام أحمد ص ٢٢ .

تعطل بعض الباعة ، وحيل بينهم وبين البيع والشراء ، وكان الرجل إذا أراد إن يدخل اليه ربما دخل من بعض الدور وطرز الحاكة ، وربما تسلق ، وجاء أصحاب الأخبار فقعدوا على الأبواب . وجاءه حاجب بن طاهر فقال : إن الأمير يقرئك السلام ، وهو يشتهى أن يراك، فقال : هذا مما أكره ، وأمير المؤمنين أعفانى مما أكره ، وأصحاب الخبر يكتبون بخبره إلى العسكر ، والبرد تختلف كل يوم . وجاء بنو هاشم فدخلوا عليه ، وجعلوا يبكون عليه ، وجاء قوم من القضاة وغيرهم ، فلم يؤذن لهم ، ودخل عليه شيخ فقال : اذكر وقوفك بين يدى الله ، فشهق أبو عبد الله ، وسالت الدموع على خديه ، فلما كان قبل وفاته بيوم أو يومين قال : ادعوا لى الصبيان - بلسان ثقيل - فجعلوا ينضمون اليه ، وجعل يشمهم ويمسح بيده على رؤوسهم وعينه تدمع ، فقال له رجل : لا تغتم لها يا أبا عبد الله ! فأشار بيده ، فظننا أن معناه : انى لم أرد هذا المعنى . وكان يصلى قاعدا ، ويصلى وهو مضطجع ، لا يكاد يفتر ، ويرفع يديه فى (ايماء الركوع) وادخلت الطست تحته ، فرأيت بوله دما عبيطا ليس فيه بول ، فقلت للطبيب ، فقال : هذا رجل قد فتت الحزن والغم جوفه ، واشتدت علته يوم الخميس ، ووضأته فقال خلل الأصابع ، فلما كانت ليلة الجمعة ثقل ، وقبض صدر النهار ، فصاح الناس وعلت الأصوات بالبكاء ، حتى كأن الدنيا قد ارتجت وامتلأت السكك والشوارع [١] .

قال المروزى : أخرجت الجنازة عند منصرف الناس من الجمعة ، قال عبد الوهاب الوثاق : ما بلغنا أن جمعا فى الجاهلية والاسلام مثله ، حتى بلغنا أن الموضع مسح وحزر على الصحيح ، فإذا هو نحو من ألف ألف ، وحزرنا على القبور نحوا من ستين ألف امرأة ، وفتح الناس أبواب المنازل فى الشوارع والدروب ينادون من أراد الوضوء ، وقال ابن اسحاق البغوى : حزر من حضر جنازة أحمد من الرجال ثمان مائة ألف ، ومن النساء ستين ألف امرأة [٢] ، هذا سوى من كان فى السفن فى الماء [٣] .

وبهذا الاحتشاد العظيم فى جنازته تحقق ما أنبأ به بقوله : قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم الجنائز [٤] .

وكانت وفاته سنة ٢٤١ هـ .

---

(١) ترجمة الامام أحمد ص ٧٧ - ٧٨ .

(٢) ترجمة الامام أحمد ص ٨٠ .

(٣) أيضا ص ٨١

(٤) أيضا ص ٨١ .

المحنة :

أصدر المأمون سنة ٢١٨ - كما تقدم رسالة إلى والى بغداد ، اسحق بن ابراهيم أمر فيها بجمع القضاة وامتحانهم فى عقيدة خلق القرآن ، وعزل من لا يقول بذلك منهم واسقاط شهادة من لا يراها من الشهود ، وأرسلت منها صور إلى الأقطار الاسلامية ، ثم كتب اليه أن يرسل اليه سبعة من كبار المحدثين الذين عارضوا هذه العقيدة ، ففعل . وأجاب هؤلاء ، فخلى سبيلهم ، ثم أصدر كتابا ثالثا غلظ فيه القول ، وضيق الأمر ، وأمر بالتوسع فى امتحان الناس ، وامتثل الوالى أمره ، فأحضر مشاهير العلماء ورؤوس الناس وامتحنهم ، وكانت اجابات القوم مختلفة ومضطربة ، وحرر الوالى محضرا بجميع أقوال الممتحنين ، وأرسل إلى المأمون وثار المأمون بقراءته . واشتد غضبه . وعرض بهم واستخف . وأمر بضرب رقبة بشر بن الوليد . وابراهيم بن المهدى إن لم يرجعا عن قولهما . وأمر بالعودة إلى امتحان هؤلاء . فان أصروا فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين . . . فان لم يرجعوا ويتولوا ، حملهم جميعا على السيف إن شاء الله ولا قوة الا بالله . »

وامتثل الوالى أمر الخليفة ، وجمعهم ثانية ، وقرأ عليهم كتاب المأمون ، فأقروا جميعا بأن القرآن مخلوق الا أربعة : أحمد بن حنبل ، وسجادة ، والقواريرى ، ومحمد بن نوح، وأمر بهم فشدوا فى الحديد ، واعترف سجادة بخلق القرآن ، فأطلق سراحه ، وأجاب القواريرى بعد يوم آخر ، فأطلق سراحه ، وانحصر الأمر فى اثنين : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، فشدهما فى الحديد ووجههما إلى المأمون ، ثم أرسل البقية من الممتحنين بأمر المأمون ، وبلغتهم وفاة المأمون وهو بالرقة ، فخلى والى بغداد سبيل أكثرهم، ومات محمد بن نوح وهو عائد إلى بغداد ، وهكذا تركزت رياسة المعارضة -كما يقول الدكتور أحمد أمين - فى أحمد بن حنبل ، فكان زعيمها وعلمها ومتجه الأنظار فيها.

ووصل أحمد بن حنبل إلى بغداد مقيدا ، وحبس فى دار عمارة ببغداد ، ثم حول إلى سجن العامة ، ومكث فى السجن نحوا من ثلاثين شهرا ، قال ابنه حنبل : كنا نأتيه ، وقرأ على كتاب الأرجاء وغيره فى الحبس ، ورأيته يصلى بأهل الحبس وعليه القيد ، فكان يخرج رجله من حلقة القيد وقت الصلاة والنوم .

أحمد بن حنبل يحكى قصته :

ويحكى أحمد بن حنبل قصته وما جرى له أيام المعتصم خليفة المأمون . وهى قصة

البطولة الخالدة والايمان الرائع ، فلنستمع اليه !

« فلما كان فى الليلة الرابعة وجه - يعنى المعتصم - ربيعا الذى كان يقال له الكبير أبو اسحاق ، فأمره بحملى اليه ، فأدخلت على اسحاق ، فقال : يا أحمد ؟ انها والله نفسك، انه لا يقتلك بالسيف ، انه قد آلى ان لم تجبه أن يضربك ضربا بعد ضرب ، وان يقتلك فى موضع لا ترى فيه شمس ولا قمر . . . فلما صرنا إلى الموضع المعروف بباب البستان ، أخرجت ، وجئ بدابة فحملت عليها وعلى الاقياد ، وما معى أحد يمسكنى ، فكدت غير مرة ان أخر على وجهى لثقل القيود ، فجئ بى إلى دار المعتصم ، فادخلت حجرة وادخلت الى بيت ، وأقفل الباب على ، وذلك فى جوف الليل ، وليس فى البيت سراج ، فأردت أن أتمسح للصلاة ، فمددت يدى فاذا أنا باناء فيه ماء وطست موضوع ، فتوضأت وصليت ، فلما كان من الغد أخرجت تكتى من سراويلى شددت بها الأقياد أحملها ، وعطفت سراويلى ، فجاء رسول المعتصم فقال : أجب ! فأخذ بيدى وأدخلنى عليه ، والتكة فى يدى أحمل بها الأقياد ، وإذا هو جالس ، وابن أبى داود حاضر ، وقد جمع خلقا كثيرا من أصحابه فقال لى : - يعنى المعتصم - : ادنه ! فلم يزل يدنينى حتى قربت منه ، ثم قال لى : اجلس ؟ فجلست ، وقد أثقلنى الأقياد ، فمكثت قليلا ، ثم قلت : أتأذن لى بالكلام ؟ فقال : تكلم ؟ فقلت : إلى ما دعا الله ورسوله ؟ فسكت هنيهة ، ثم قال : إلى شهادة أن لا اله الا الله ، فقلت : فأنا أشهد أن لا اله الا الله ، ثم قلت : ان جدك ابن عباس يقول : لما قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ سألوه عن الايمان ، فقال أتدرون ما الايمان ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وأقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وأن تعطوا الخمس من المغنم ، قال أحمد : قال : - يعنى المعتصم - لولا إنى وجدتك فى يد من كان قبلى ما عرضت لك .

ويذكر أحمد بن حنبل ما جرى بينه وبين علماء البلاط من الكلام والمناظرة ثم يقول : وجعل ابن أبى داود يقول : يا أمير المؤمنين ! لئن أجابك لهو أحب الى من مائة ألف دينار ومائة ألف دينار ، فيعد من ذلك ما شاء الله أن يعد ، فقال المعتصم : والله لئن أجابنى لأطلقن عنه بيدى ولأركبن اليه بجندى ، ولأطأن عقبه .

ثم قال : يا أحمد ! والله إنى عليك لشفيق ، وانى لأشفق عليك كشفقتى على هارون ابنى ، ما تقول ؟ فأقول : اعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله .

فلما طال المجلس ضجر وقال : قوموا ! وحبسنى - يعنى عنده - وعبد الرحمن بن اسحاق يكلمنى ، فقال المعتصم : ويحك أجبنى ! فقال : ما أعرفك ، ألم تكن تأتينا ؟

فقال له عبد الرحمن بن اسحــاق : يا أمير المؤمنين ! أعرفه منذ ثلاثين سنة ، يرى طاعتك والجهاد والحج معك ، قال : فيقول : والله انه لعالم ، وانه لفقيه ، وما يسؤونى أن يكون معى يرد عنى أهل الملل . ثم قال لى : ما كنت تعرف صالحا الرشيدى ؟ قلت قد سمعت باسمه ، قال : كان مؤدبى ، وكان فى ذلك الموضع جالسا - وأشار إلى ناحية من الدار - فسألته عن القرآن فخالفنى ، فأمرت به ، فوطئ وسحب !

ثم قال : يا أحمد ! أجبنى إلى شئ لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدى ، قلت : أعطونى شيئا من كـتاب الله أو سنة رسوله ! فطال المجلس وقام ورددت إلى الموضع الذى كنت فيه .

فلمـا كان بعد المـغرب ، وجه إلى رجلـين من أصحاب ابن أبـى داود ، يبيتـان عندى ويناظران ويقيمان معى ، حتى إذا كان وقت الافطار جيء بالطعام ، ويجتهدان بى أن أفطر فلا أفـعل ، ووجه إلى المعـتصم ابن أبى داود فى بـعض الليل ، فقـال : يقول لك أمـير المؤمنين ما تـقول ؟ فأرد عليـه نحوا مما كنت أرد ، فـقال ابن أبى داواد : والله لقـد كتب اسمك فى السبـعة ، يحيى بن معين وغـيره ، فمحوته ، ولقـد ساءنى أخذهم اياك ، ثم يقول : ان أمير المؤمنين قد حلف أن يضربـك ضربا بعد ضرب ، وأن يلقيك فى موضع لا ترى فيه الشمس ، ويقول : ان أجابنى جئت اليه حتى أطلق عنه بيدى ، وانصرف » .

« قال فلمـا كان فى الليلة الثالثـة قلت : خليق أن يحدث غدا من أمـرى شئ ، فقلت لبعض من كــان معى ، الموكل بى : ارتد لى خـيطا ! فجاءنى بخـيط فشددت به الأقـياد ورددت التكة إلى سراويلى مخافة أن يحدث من أمرى شئ فأتعرى ، فلما كان من الغد فى اليوم الثالث وجه الى ، فأدخلت فإذا الدار غاصة ، فجعلت أدخل من موضع إلى موضع، وقوم معهم السيوف ، وقوم معهم السـياط وغير ذلك : ولم يكن فى اليومين الماضيين كبير عدد من هؤلاء ، فلمـا انتهيت اليه ، قال : أقـعد ! ثم قال : ناظروه ! كلمـوه ! فجعلوا يناظروننى ، ويتـكلم هذا فـأرد عليـه ، ويتكلم هذا فـأرد عـليـه ، وجـعل صـوتى يعلو أصواتهم، فجعل بعض من على رأسه قـائم يومئ إلى بيده ، فلما طال المجلس نحانى ثم خلا بهم ، ثم نحانى وردنى إلى عنده ، فقال : ويحك يا أحمد ! أجبنى حتى أطلق عنك بيدى ! فرددت عليه نحوا مما كنت أرد ، فقال لى : عليك ! - وذكر اللعن - وقال خذوه واسحبوه واخلعوه ! قال : فسحبت ثم خلعت .

قال : وقد كان صار الى شعر من شعـر النبى ﷺ فى كم قميصى ، فوجه الى اسحاق بن ابراهيم : ما هـذا المصرور فى كم قمـيصك ؟ قلت : شـعر من شعـر رسول الله ﷺ

وقال: وسعى بعض القوم إلى القميص ليخرقه على فقال لهم - يعنى المعتصم - لا تخرقوه ! فنزع القميص عنى ، قال فظننت أنه إنما دراً عن القميص الخرق بسبب الشعر الذى كان فيه ، قال : وجلس المعتصم على كرسى ، ثم قال : العقابين والسياط ! فجئ بالعقابين ، فمدت يداى ، فقال بعض من حضر خلفى : خذ نأى الخشبتين بيديك ، وشد عليهما ! فلم أفهم ما قال ، فتخلعت يداى .

ولما جئ بالسياط نظر اليها المعتصم وقال : ائتونى بغيرها ! ثم قال للجلادين : تقدموا! فجعل يتقدم إلى الرجل منهم فيضربنى سوطين ، فيقول له : شد ! قطع الله يدك ، فلما ضربت تسعة عشر سوطا قام إلى - يعنى المعتصم - وقال : يا أحمد ! علام تقتل نفسك ؟ إنى والله عليك لشفيق ، قال : فجعل عجيف ينخسنى بقائمة سيفه ، وقال أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم ؟ وجعل بعضهم يقول : ويلك ! الخليفة على رأسك قائم ! وقال بعضهم يا أمير المؤمنين ! دمه فى عنقى ، أقتله ! وجعلوا يقولون يا أمير المؤمنين ! أنت صائم ، وأنت فى الشمس قائم ، فقال لى : ويحك يا أحمد ! ما تقول ؟ فأقول أعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ أقول به ، فرجع وجلس ، وقال للجلاد : تقدم وأرجع ! قطع الله يدك ! ثم قام الثانية فجعل يقول : ويحك يا أحمد ! أجبنى ! فجعلوا يقبلون على ويقولون : يا أحمد ! امامك على رأسك قائم ، وجعل عبد الرحمن يقول : من صنع من أصحابك فى هذا الأمر ما تصنع ؟ وجعل المعتصم يقول : ويحك أجبنى إلى شئ لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدى ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ؟ أعطونى شيئا من كتاب الله ، فيرجع ، وقال للجلادين تقدموا ؟ فجعل الجلاد يتقدم ويضربنى سوطين ويتنحى ، وهو فى خلال ذلك يقول : شد ؟ قطع الله يدك ، قال أبى فذهب عقلى ، فأفقت بعد ذلك فاذا الأقياد قد أطلقت عنى ، فقال لى رجل ممن حضر : انا كببناك على وجهك ، وطرحنا على ظهرك باريه ودسناك ؟ قال أبى : فما شعرت بذلك ، وآتونى بسويق ، فقالوا لى : اشرب وتقيأ ؟ فقلت : لا أفطر ، ثم جئ بى إلى دار اسحاق بن إبراهيم فحضرت صلاة الظهر فتقدم ابن سماعة فصلى فلما انفتل من الصلاة قال لى : صليت والدم يسيل فى ثوبك ؟ فقلت : قد صلى عمر وجرحه يثعب دما (1) .

ويقول ابنه صالح : « ثم خلى عنه فصار إلى منزله ، وكان مكثه فى السجن منذ أخذ وحمل إلى أن ضرب وخلى عنه ثمانية وعشرين شهرا . ولقد أخبرنى أحد الرجلين اللذين

---

(1) ترجمة الامام أحمد ص ٤٨ - ٤٩ .

كانا معه قـال : يا ابن أخى ؟ رحمة الله على أبى عبد الله ؟ والله ما رأيت أحـدا يشبهه ، ولقد جعلت أقول فى وقت ما يوجه الينا بالطعام : يا أبا عبد الله ؟ أنت صائم ، وأنت فى موضع تقية ، ولقد عطش فقال لصـاحب الشراب : ناولنى ؟ فناوله قدحا فيه ماء وثلج ، فأخـذه ونظر اليه هنيـهة ، ثم رده ولم يشـرب ، فجعلت أعـجب من صبـره على الجوع والعطش وهو فيما هو فيه من الهول .

قال صـالح : كنت ألتمس وأحتـال أن أوصل اليه طعـاما أو رغيفـا فى تلك الأيام فلم أقدر . وأخبرنى رجل حضره . أنه تفـقده فى هذه الأيام الثلاثة وهم يناظرونه ، فما لحن فى كلمة ، قال : وما ظننت أن أحدا يكون فى مثل شجاعته وشدة قلبه .

وهكذا تنتهى هذه القصة التى لا تزال حجة بطولة الامام أحمد ، وقوة العقيدة وعجائب صنع الايمان ، وقد كان مـن ثبات ابن حنبل وشجاعتـه واخلاصه أن انطفأت عـقيدة خلق القرآن ، وانطفأت مـعها حركة الاعـتزال حتى بقيت مدفـونة فى كتب الملل والنحل وعلم الكلام ، وانتـصر أحمـد بن حنبل بايمانه وشجـاعته ، وكـان انتصـاره دليلا على انتـصار الاخلاص والعزم على القـوة والدولة والمعارضات الشديدة والعقوبات الموجـعة ، وانهزمت حكومة هى من أقوى الحكومـات وأوسعها فى عصرها ، وانهزم مـعها كل من التف حول رايتها من أهل العلم والجدل والذكاء والمناصب والرياسـات . وكان المعتزلة ولو انتصروا فى المحنة فاستطاعوا - بسـيطرتهم السياسية على البلاط - أن يعاقبوا مـنافسيهم ورئيس الحزب الذى يعـارضهم بمـا شاءوا ، وينفـذوا فـيه ارادتهم ولكـنهم خسـروا دولتـهم ، وفقـدوا سلطانهم، وقطعوا الصلة بينهم وبين الشعب ، فقـد كرههم من ذلك اليوم كراهة شديدة ، وانصرفت الـقلوب عنهم ، ولم يزل نجمـهم فى أفول حتـى غرب من غيـر رجعـة ، قال الدكتور أحمد أمين « ولم يسترد المعتزلة سلطتهم يوما ما بعد المحنة »(١).

وخرج أحمد بن حنبل من هذه المحنة خروج الـسيف من الجلاء ، والبدر من الظلماء ، وكان كما قال بـعض معاصريه « أدخل الكير فخرج ذهبا أحـمر » ولم يزل بعد ذلك اليوم فى صمـود واعتلاء ، حتى تواضـعت القلوب على حبه ، وأصـبح حبه شـعار أهل السنة وأهل الصلاح ، حتى نقل عن أحد معاصريه قتيبة أنه قال : « إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة »(٢) وقال أحمد بن ابراهيم الدورقى « من سمعتموه يذكر

---

(١) ضحى الاسلام ج ٣ ، ص ٢٠١ .

(٢) ترجمة الامام أحمد ص ١٦ .

أحمد بن حنبل بسوء فاتهموه على الاسلام »[1] وقال شاعر[2] :

أضحى ابن حنبل محنة مأمونة وبحب أحمد يعرف المتنسك

وإذا رأيت لأحمد متنقصا فاعلم بأن ستوره سنهتك

وقد اعترف معاصروه بأن غناءه للاسلام ، وفى الدفاع عن القرآن كان عظيما ، وأنه سد ثلمة عظيمة كادت تحدث فى الاسلام ، وشبهوا يوم المحنةبيوم الردة ، وقرنوا ذكر أحمد بن حنبل بذكر أبى بكر الصديق ، وكفى به عظمة ! قال على بن المدينى ، أحد أئمة الحديث فى عصره ، ومن شيوخ البخارى : « ان الله أعز هذا الدين بأبى بكر الصديق يوم الردة ، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة »[3] .

وليس سر عبقرية أحمد بن حنبل فى دفاعه عن عقيدة من عقائد الاسلام ، وانتصاره لها- وفضله فى ذلك لا ينكر - ولكن مأثرته الكبرى التى اكسبته منصب التجديد ، هو أنه وقف سدا منيعا فى اتجاه هذه الأمة إلى التفكير الفلسفى المتهور ، الذى لو سيطر على هذه الأمة لانقطعت صلتها بالتدريج عن منابع الدين الأولى ، وعن النبوءة المحمدية ، وخضعت هذه الأمة للفلسفات ، وأصبحت عرضة للاراء والقياسات ، وانتصرت الحكومة على الشعب ، والسياسة على الدين انتصارا مؤبدا ، وسلبت حرية الرأى والعقيدة ، ولا شك أنها رزيئة جليلة ، وفتنة عظيمة فى الاسلام ، وقد قضى عليها أحمد بن حنبل وهى فى شبابها وأوجها ، وحفظ هذا الدين من أن يعبث به العابثون ، وتتحكم فيه السلطة والأهواء ، وحفظ هذه الأمة من أن تكون فى حضانة الملوك الشباب الثائرين المتهورين وحاشيتهم ، يفرضون عليها العقائد فرض الجبايات ويسوقونها إلى أهوائهم سوق الغنم والبقرات ، ورد إلى العقيدة الاسلامية كرامتها وأصالتها ، وإلى الأمة حريتها وشخصيتها ، فاستحق بذلك تقدير الانسانية وثناء المسلمين ، واعتراف الأجيال القادمة واجلال التاريخ واكباره ، وكان من المجددين الكبار فى الاسلام .

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب ج ٤ ص ٤٣١ .

(٢) ضحى الاسلام ج ٣ ، ١٩٤ .

(٣) ترجمة الامام أحمد ص ١٧ .

أبو الحسن الأشعرى وخلفاؤه

سيطرة المعتزلة العلمية ونتائجها :

لقد ضعف شأن المعتزلة على اثر وفاة المعتصم والواثق - اللذين تبنيا حركة الاعتزال واحتضناها - وجاء المتوكل بعد الواثق وهو ناقم على الاعتزال مناوئ للمعتزلة ، وقد تتبع المعتزلة فأقصاهم من مناصب الحكومة الخطيرة ؛ ولكن رغم ذلك كله ظل المعتزلة يسيطرون على الأوساط العلمية .

ان عقيدة خلق القرآن فقدت سطانها ؛ ولكن كانت للمعتزلة عقائد ونظريات لا تزال جديدة تشغل العقول ، وتسيطر على الأذهان ، وقد عاد اليهم بعض ما فقدوه من النفوذ والتأثير فى القرن الثالث ، ووجدت فيهم شخصيات قوية أعادت إلى المعتزلة بعض الثقة والاجلال ، وخضع لذكائهم وحدة نظرهم كثير من الشباب المثقف الذكى ، وأصبح شبه المقرر عندهم أن المعتزلة يمتازون بدقة النظر ، واتساع الفكر والتحقيق ، وأن آراءهم وما وصلوا اليه من نتائج علمية أقرب إلى العقل ، وقد صار كثير من طلبة العلم الشبان ، وممن يحبون الظهور والتفوق على الأقران ، يظهرون الاعتزال تظرفا .

بالعكس من ذلك ، لم يظهر فى الحنابلة والمحدثين بعد الامام أحمد شخصية قوية جذابة ، وأعرض المحدثون ومن كان على شاكلتهم من العلماء عن العلوم العقلية وأساليب البحث والاستدلال الجديدة التى شاعت بتأثير المعتزلة ، فكان نتيجة ذلك ظهور المعتزلة ومن نحا نحوهم فى مجالس البحث والمناظرة على منافسيهم الحنابلة والمحدثين ، وبدأ الناس يشعرون ويعتقدون أن المدافعين عن السنة وممثليها متخلفون عن ركب العلم السائر ويجهلون مبادئ الفلسفة ، وأصبح الذين لم يتعمقوا فى العلم ، ولم يرسخوا فى الدين ، ولم يعرفوا أن الذكاء الحاد والرأى السانح يؤيدان المعتزلة ؛ ولكن العقل المتعمق والفكر الناضج يرجحان مذهب المحدثين ، ويقبلان محكمات الشريعة ، أصبح هؤلاء مأخوذين ببلاغة المعتزلة ، وحضور بديهتهم ، وتدقيقهم فى المسائل الكلامية وتقعرهم فيها ، وأصبح كثير منهم يستخفون بظاهر الشريعة ، ويعتقدون أن مسلك السلف وما ذهبوا اليه من عقائد، لا يقوم على البحث العلمى والأساس العقلى ؛ وقد أصيب كثير ممن ينتسب إلى الحديث ، وكثير من تلاميذ المحدثين بمركب النقص مأخوذين بسحر المعتزلة وتفلسفهم .

وقد كان هذا الوضع خطرا كبيرا على مركز الدين والسنة فى نفوس المسلمين ، وقد

صار هؤلاء المتفلسفون يعبثون بتفسير القرآن وعقائد الاسلام ، تتحكم فيها أهواؤهم وعقولهم ، ويصرفونها كيف يشاؤون ، ووجد فى الأوساط اتجاه جديد عنيف إلى تقديس العقل وتحكيمه فى المسائل التى لا تقوم الا على تعليمات النبوة والايمان بالغيب ، وانطلقت فى العالم الاسلامى موجة من الفلسفة السطحية والعقلية المتهورة كادت تكتسح الايمان بالغيب ، والاعتماد على تعاليم الأنبياء ، وازدهر التفكير الفلسفى على حساب القلب والعاطفة ، وعلى حساب العمل ، ولا شك أنه تحول عظيم فى العالم الاسلامى ، وخطر على مستقبل الأمة ، وقد عجز عن مقاومة هذا التيار العنيف ورده المحدثون والمتصلبون ، والحنابلة المتحمسون ، وعجز عنه كذلك الزهاد العابدون ، والفقهاء البارعون ؛ إذ لم يكن شئ مما يمتازون به يقوم فى وجه هذا التيار العقلى ، ويرده على أعقابه .

الحاجة إلى شخصية رفيعة :

لقد كان الاسلام يومئذ فى حاجة إلى شخصية قوية تفوق المعتزلة فى مواهبها العقلية وفى مستواها العلمى ، إلى رجل لم يلم بالعلوم العقلية الماما فحسب بل نزل فى احشائها ، ورسب فى أعماقها . كان الاسلام فى حاجة إلى عملاق فى العلم والعقل ، يتضاءل أمامه حملة راية العلم والعقل فى عصره ، كما يتضاءل الأقزام ، وكما يتضاءل التلاميذ الصغار أمام أستاذ نابغة وامام كبير . لقد كان الاسلام فى حاجة ملحة إلى هذه الشخصية الرفيعة القوية ، ووجدت هذه الشخصية المطلوبة فى شخص أبى الحسن الأشعرى .

أبو الحسن الأشعرى :

هو أبو الحسن على بن اسماعيل ، من ذرية أبى موسى الأشعرى صاحب رسول الله ﷺ . ولد بالبصرة عام ٢٧٠ هـ تزوجت أمه - بعد وفاة أبيه اسماعيل - بأبى على الجبائى، شيخ المعتزلة فى عصره ، وحامل راية الاعتزال ، ونشأ أبو الحسن فى حجره ، وتلقى علومه حتى صار نائبه وموضع ثقته ، « وأمين سره » .

وكان أبو على الجبائى صاحب تصنيف وقلم ، إذا صنف يأتى بكل ما أراد مستقصى ، وإذا حضر المجالس وناظر لم يكن بمرض ، وكان إذا دهمه الحضور فى المجالس يبعث الأشعرى ، ويقول له : نب عنى ! ولم يزل على ذلك زمانا [1] حتى تصدر المعتزلة ، وأصبح يشار اليه بالبنان ، وكان كل شئ فى حياته يدل على أنه سيكون خليفة شيخه

---

(١) تبيين كذب المفترى فى ما نسب إلى الامام أبى الحسن الأشعرى لأبى القاسم بن عساكر الدمشقى ص٩١ .

ومربيه – أبى على الجبائى – ويعقد له لواء الامامة والصدارة فى المذهب ؛ ولكن الله أراد غير ذلك .

لم يزل أبو الحسن يتزعم المعتزلة ويدافع عنهم ، وظل على ذلك أربعين سنة ، حتى ثار عقله الكبير ، ونفسه القلقة ، على مذهب الاعتزال الذى كان ينافح عنه . ونشأ فى نفسه رد فعل ضد تأويلات المعتزلة وامعانهم فى القياس وتحكيم العقل ، وصار يشعر بأنهم أخضعوا الدين للمنطق الصناعى وللمقدمات ، والأصول التى ظنوا – وصور لهم ذكاؤهم – أنها قطعية – وتأولوا القرآن على آرائهم ، واقتنع بأن الحق الصريح هو الذى كان عليه الصحابة رضى الله عنهم ، وسلف هذه الأمة وهى الغاية التى ينتهى اليها العقل والتفكير العميق ، بعد رحلة طويلة ، وتجارب قاسية ، وعثرات كثيرة ، فيؤمن بفضلهم واصابتهم فى ما اعتقدوه وتلقوه عن النبى ﷺ ، وعضوا عليه بالنواجذ .

حدث فى أبى الحسن الأشعرى هذا الصراع النفسى ، فاعتكف فى بيته خمسة عشر يوما يفكر ويتأمل ويدرس ويستخير الله حتى اطمأنت نفسه ، واستقر رأيه ، ورأى أنه لا يسعه الا الاعلان بالبراءة عن الاعتزال ، والرجوع ، إلى مذهب السلف ، ورأى أن البقاء فى ما كان عليه من الرأى والمركز الذى يتمتع به جريمة خلقية ونفاق ، فخرج إلى المسجد الجامع بالبصرة ، ورقى كرسيا ، ونادى بأعلى صوته : من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى ، أنا فلان بن فلان ، كنت أقول بخلق القرآن وأن الله لا تراه الأبصار ، وأن أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة ، مخرج لفضائحهم ومعائبهم (١) .

ومن ذلك اليوم انقلب أبو الحسن – لسان المعتزلة من قبل – أكبر المعارضين للاعتزال ، وأعظمهم ردا عليه وعلى أهله ، وانقلبت مواهبه ، ومرانه العقلى وحجاجه القوى ، إلى الدفاع عن السنة ومذهب السلف .

حماسه فى عقيدة السلف وحرصه على تبليغها :

ونهض أبو الحسن الأشعرى ، بعد هذا التحول العظيم ، يدعو إلى عقيدة أهل السنة ، ويدافع عنها فى حماسة وايمان ، ويرد على المعتزلة ، ويتبعهم فى مجالسهم ومراكزهم يحاول اقناعهم بما اقتنع به أخيرا من عقائد أهل السنة ، ومذاهب السلف ، وكان نشاطه

(١) ابن خلكان ص ٤٤٧ ج ٢ .

فى ذلك أعظم من نشاطه فى السابق ، وكان يقصدهم بنفسه يناظرهم ، فكلم فى ذلك ، وقيل له : كيف تخالط أهل البدع وتقصدهم بنفسك وقد أمرت بهجرهم ؟ فقال : هم أولو رياسة ، منهم الوالى والقاضى ، ولرياستهم لا ينزلون إلى ، فاذا كانوا هم لا ينزلون إلى ، ولا أسير أنا اليهم ، فكيف يظهر الحق ، ويعلمون أن لأهل السنة ناصرا بالحجة؟[1].

مواهبه العقلية وعلو مرتبته فى العلم :

وقد اكتسب أبو الحسن ملكة قوية ومرانا على البحث والاستدلال ، بحكم اشتغاله بالبحث فى علم الكلام ، والدفاع عن المعتزلة ، وكان صاحب موهبة وقريحة فى المناظرة والاستدلال شديد العارضة قوى الحجة .

وقد أشعل اخلاصه للدين وانتقاله إلى معسكر أهل السنة هذه المواهب ، وقد كان مستواه العقلى أعلى من مستوى معاصريه وأقرانه ، وكان صاحب نبوغ وابتكار فى العقليات وكان يرد على حجج المعتزلة وعقائدهم فى سهولة ، وينقضها بمقدرة وثقة ، كما يرد الأستاذ الكبير على شبه تلاميذه ، ويحل مشاكلهم ، يصور ذلك قصة يرويها تلميذه أبو عبد الله بن خفيف الشيرازى يقول :

« دخلت البصرة ، وكنت أطلب أبا الحسن الأشعرى رحمه الله ، فأرشدت اليه ، وإذا هو فى بعض مجالس النظر ، فدخلت ، فاذا ثم جماعة من المعتزلة ، فكانوا يتكلمون ، فاذا سكتوا وأنهوا كلامهم ، قال أبو الحسن الأشعرى لواحد واحد ، قلت كذا كذا ، والجواب عنه كذا وكذا ، إلى أن يجيب الكل ، فلما قام خرجت فى أثره ، فجعلت أقلب طرفى فيه ، فقال ايش تنظر ؟ فقلت كم لسانا لك ؟ وكم أذنا لك ؟ وكم عينا لك ؟ فضحك وقال لى : من أين أنت ؟ قلت : من شيراز ، وكنت أصحبه بعد ذلك [2].

وزاد فى رواية ، قال : قلت مثلك فى فضلك وعلو منزلك ، كيف لم تسأل ويسأل غيرك ؟! فقال : انا لا نكلم هؤلاء ابتداء ؛ ولكن اذا خاضوا فى ذكر ما لا يجوز فى دين الله ، رددنا عليهم بحكم ما فرض الله سبحانه وتعالى علينا من الرد على مخالفى الحق»[3].

---

(١) تبيين كذب المفترى ص ١١٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٩٤ - ٩٥ .

(٣)تبيين كذب المفترى ص ٩٦ .

وقد كان أبو الحسن الأشعرى اماما مجتهدا فى علم الكلام ، وأحد مؤسسيه ، وقد خضع كل من جاء بعده من المتكلمين لعبقريته ، وعمق كلامه ، ودقة نظره ، واصابة فكره.

روى عن الامام أبى الحسن الباهلى – وهو امام من أئمة الكلام – أنه قال : كنت أنا فى جنب الشيخ الأشعرى كقطرة فى جنب البحر (١).

وقال الامام أبو بكر الباقلانى – وهو الذى لقب بلسان الأمة – وقد قيل له : كلامك أفضل وأبين من كلام أبى الحسن الأشعرى رحمه الله ، قال : ان أفضل أحوالى أن أفهم كلام أبى الحسن رحمه الله .

مذهبه وخدمته :

ليس سر عظمة الأشعرى فى التاريخ ، وجلالة العمل الذى قام به ، فى أنه دافع عن السنة دفاعا قويا ، ورد على المعتزلة ؛ الذين تولوا ذلك كثيرا ؛ ان سر عظمته وعبقريته فى أنه اتخذ طريقا وسطا بين المعتزلة والمحدثين ؛ فلم يذهب كما ذهب المعتزلة إلى تمجيد العقل ، والايمان بأن له سلطة لا تحد ، وأن له الحكم على ما يتصل بالذات والصفات وما وراء الطبعيات ، وأن له الكلمة الأخيرة النافذة فى كل موضوع ، ولم ير كذلك – كما رأى كثير من أهل عصره – أن الانتصار للدين والدفاع عن العقيدة الاسلامية يستلزمان انكار العقل وقوته – إلى حد ما – وازدراءه ، وأن السكوت عن هذه المباحث التى يثيرها المعتزلة وأضرابهم ، التى نشأت بحكم تطور العصر ، والاحتكاك بالأمم والديانات أولى وأفضل ، بالعكس من ذلك ، هو عنى بهذه المباحث ؛ لأنها كانت تزلزل العقيدة الاسلامية ، وتضعف الثقة بالدين ، وباحث المعتزلة والمتفلسفين ، وناقشهم فى مصطلحاتهم ولغتهم العلمية ، وعمل بالكلمة الحكيمة المأثورة « كلموا الناس على قدر عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ » وكأنه كان يعتقد أن العالم إذا كلم عاميا كلاما فوق مستواه العلمى والعقلى ، كان ذلك باعثا على الانكار وتكذيب الله ورسوله ، كذلك إذا كلم عالما أو ذكيا أو متشككا دون مستواه العلمى والعقلى ، كان مثيرا للشكوك ، وداعيا إلى الجحود والانكار ؛ فكان فهمه لهذه الوصية الحكيمة فهما أوسع ، وتطبيقه لها تطبيقا أشمل ، وبذلك خدم أبو الحسن هذا الدين فى عصره خدمة باهرة ، وأعاد إلى نفوس وعقول كثيرة لا يعلم عددها الا الله ، الثقة بهذا الدين ، والايمان به من جديد .

---

(١) أيضا ص ١٢٥ .

لقد كان أبو الحسن الأشعـرى جريئا وصريحا فى نقده للمعتـزلة ، وقد بين أنهم اتبعوا أهواءهم فى فـهم هذا الدين . وقلدوا رؤساءهم وسلفـهم تقليدا أعـمى ، ولم ينظروا فى الكتاب والسنة مجردا ، ولم يتخذوهما اماما ومصدرا لعقائدهم وآرائهم : بل كلما تعارض القرآن مع ما انتحلوه من آراء وعقائد تأولوا القرآن ، ولم يروا بذلك بأسا . يقول فى كتاب « الابانة عن أصول الديانة » وهو أول ما صنفه بعد الخروج من الاعتزال : « أما بعد ؛ فان من الزائغين عن الحق من المعتزلة ، وأهل القدر ، مالت بهم أهواؤهم إلى تقليد رؤسائهم، ومن مضى من أسـلافهم ؛ فتأولوا القـرآن على آرائهم تأويلا لم ينزل الله به سلطانا ، ولا أوضح به برهانا ، ولا نقلوه عن رسول الله رب العالمين ، ولا عن السلف المتقدمين (١) .

ويشرح عقيدته التى يدين بها فيقول :

« وقولنـا الذى نقول به ، وديانتنا التى ندين بهـا ، التمسـك بكتاب ربنـا عز وجل ، وبسنة نبينا عليـه السلام ، وما روى عن الصحابة والتابـعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبـد الله أحمد بن محمد بن حنبل - نضر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته - قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون ؛ لأنه الامام الفاضل ، والرئيس الكامل الذى أبان الله به الحق ، ورفع به الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين ، وشك الشاكين ؛ فرحمة الله عليه من امام مقدم ، وخليل معظم مفخم (٢) . ولم تقتصر خدمة الأشعـرى على تأييد عقائد أهل السنة والسلف تأييدا اجماليا ، فقد كان الحنابلة والمحدثون قائمين به غير مقصرين فيه .

ان عبقريتـه تتجلى فى أنه أقام البراهين والدلائل العقلية والكلامـية على هذه العقائد ، وناقش المعتزلة والمتفلسفـة عقيدة عقيدة ، وذلك كله فى لغة يفـهمونها ، وأسلوب يألفونه ويجلونه ، وبذلك أثبت أن هذا الـدين وعقـيدته الواضـحة مـؤيدان بالعقل ، وأن العـقل الصحيح يؤيد الدين الصحيح ، ولا صراع بينهما ولا تناقض .

وقد استهدف فى عمله هذا لنقد المعتزلة وسـخطهم ، وكان ذلك طبيعيا ومعقولا ، إذ هو منافسهم الأكـبر ، وزعيم المعارضة ، ولكنه اسـتهدف كذلك لعتـاب الحنابلة المتشددين الذين كانوا يرون الخوض فـى هذه المباحث والمناقشات ، واسـتعمال المصطلحات الفلسـفية والاستدلال بالمقدمات العقلية فى المسائل النقلية ، ضربا من الزيغ والضلال .

---

(١) كتاب الابانة عن أصول الديانة ص ٥ طبع دائرة المعارف حيدر آباد .

(٢) كتاب الابانة عن أصول الديانة ص ٥ طبع دائرة المعارف حيدر آباد .

لقد كان الأشعرى مؤمنا بأن مصدر العقيدة والمسائل التى تتصل بالالهيات وما وراء الطبيعة ، هو الكتاب والسنة ، وما جاء به الأنبياء وليس العقل المجرد والقياس والميتافيزيقا اليونانية ، ولكنه لم يكن يرى السكوت والاعراض عن المباحث التى حدثت بتطورات الزمان ، واختلاط هذه الأمة بالأمم والديانات والفلسفات الأجنبية ، حتى تكونت على أساسها فرق ونحل . وكان يرى أن السكوت عن هذه المباحث يضر بالاسلام ، ويفقد مهابة السنة ، ويحمل ذلك على ضعف السنة العلمى والعقلى ، وعجز علماء الدين وممثليه عن مواجهة هذه التيارات ومقاومة هذه الهجمات ،ويهتبله أهل الفرق الضالة ، فينفذون فى أهل السنة والعقيدة الصحيحة ، فينفثون سمومهم فيهم ، ويزرعون الشكوك ، ويستميلون شبابهم الذكى المثقف إلى أنفسهم .

وكان الأشعرى مؤمنا بأن مصدر العقيدة هو الوحى والنبوة المحمدية ، والطريق إلى معرفته هو الكتاب والسنة وما ثبت عن الصحابة رضى الله عنهم ، وهذا مفترق الطريق بينه وبين المعتزلة ، فانه يتجه فى ذلك اتجاها معارضا لاتجاه المعتزلة ، ولكنه رغم ذلك ، يعتقد مخلصا أن الدفاع عن هذه العقيدة السليمة ، وغرسها فى قلوب الجيل الاسلامى الجديد ، يحتاج إلى الحديث بلغة العصر العلمية السائدة ، واستعمال المصطلحات العلمية ، ومناقشة المعارضين على أسلوبهم العقلى ، ولم يكن يسوغ ذلك ، بل يعده أفضل الجهاد وأعظم القربات فى ذلك العصر ، وهذا مفترق الطرق بينه وبين كثير من الحنابلة والمحدثين الذين كانوا يتأثمون ويتحرجون من النزول إلى هذا المستوى .

وكان يعتقد كذلك ، أن المباحث التى تتصل بالعقليات والحسيات لا صلة لها فى الحقيقة بالعقيدة والديانات ، ولكن المعتزلة والفلاسفة مزجوا البحث فى العقيدة بالبحث فيها ، بل جعلوها بذلاقة لسانهم وذكائهم مقدمات للبحث فى الدين ، بل فارقا بين الحق والباطل ، كان الأشعرى يعتقد أن الفرار من البحث فيها ، بحجة أنها لا تتصل بالدين والعقيدة لا يصح ، بل بالعكس من ذلك ، يجب على من قام لنصرة السنة أن يواجههم فيها ، ويثبت مذهب أهل الحق . وكان يعتقد أن النبى ﷺ وأصحابه لم يسكتوا عن هذه المسائل جهلا ، بل لأن هذه المباحث ما نشأت فى عصرهم ، ولم تمس الحاجة إلى البحث فيها شأن الفقه والجزئيات الكثيرة التى حدثت بعد عصرهم فتأمل فيها الفقهاء والمجتهدون ، وأبدوا رأيهم فيها واستنبطوا وفرغوا وحلوا المشاكل الجديدة ، وبذلك عصموا الأمة والجيل الجديد عن الالحاد والفوضى فى العمل والتعطل ، كذلك يجب على حراس الشريعة ، ومتكلمى أهل السنة ، أن يواجهوا الأسئلة الجديدة التى أثارها المعتزلة والمتفلسفة فى موضوع الالهيات ،

ويجيبوا عن الاعتراضات والمطاعن التى يوجهها إلى أهل السنة أهل الفرق الضالة ، ويقيموا الدليل والبرهان العقلى على صحة عقائد أهل السنة ومطابقتها للعقل والمنطق ، وقد ألف فى هذا الموضوع رسالة أسماها « استحسان الخوض فى الكلام » .

وقد سار الأشعرى فى طريقه مجاهدا ، ومناضلا ، منتجا ، معرضا عن سخط الطائفتين : الحنابلة والمعتزلة ، لا يعبأ بما يقال فيه ، مؤمنا بأنه هو الطريق الذى ينفع الدين فى عصره ، ويرد إلى الشريعة الاسلامية مهابتها وكرامتها ، ويحرس للناشئة دينها وعقيدتها ، حتى استطاع بعمله المتواصل ، وشخصيته القوية وعقله الكبير ، واخلاصه النادر ، أن يرد سيل الاعتزال والتفلسف الجارف الذى كان يتهدد الدين ، ويثبت كثيرا من الذين تزلزلت أقدامهم ، واضطربت عقولهم وعقيدتهم ، وأن يوجد فى أهل السنة ثقة جديدة بعقيدتهم ، ونشاطا جديدا فى دعوتهم ، وزالت سطوة المعتزلة على العقول والأفكار ، واشتغلوا بالدفاع عن الهجوم ، وتعرضت حركة الاعتزال ودعوتها للخطر ، وقد خمدوا وانطفأوا بمعارضة امام كبير ، كأبى الحسن الأشعرى . يقول أبو بكر بن الصيرفى :

« كان المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم ، حتى أظهر الله تعالى الأشعرى ، فحجزهم فى أقماع السمسم (١)، وبموقفه الجليل فى الدفاع عن السنة ونصر الدين استحق أن يعد من المجددين الكبار(٢) .

مؤلفاته :

ولم يقتصر أبو الحسن الأشعرى على المناظرة والمعارضة ، بل خلف مكتبة كبيرة من مؤلفاته فى الدفاع عن السنة ، وشرح العقيدة الحسنة ، وقد ألف تفسيرا للقرآن ، أقل ما قيل فى أجزائه أنه فى ثلاثين مجلدا (٣) . وقد ذكر بعض المؤلفين أن مؤلفاته تبلغ إلى ثلاث مائة مؤلف (٤) . أكثرها فى الرد على المعتزلة ، وبعضها فى الرد على مذاهب وفرق أخرى، منها كتاب الفصول الذى رد فيه على الفلاسفة والطبيعيين ، والدهرية ، والبراهمة، واليهود ، والنصارى ، والمجوس ، وهو كتاب كبير يحتوى على اثنى عشر كتابا . وقد ذكر ابن خلكان من مؤلفاته كتاب « اللمع » و « ايضاح البرهان » و « التبين عن أصول

---

(١) تبيين كذب المفترى ص ٩٤ .

(٢) تبيين كذب امفترى ص ٥٣ .

(٣) الذهبى .

(٤) تبيين كذب المفترى ص ١٣٦ .

الدين » و « الشرح والتفصيل فى الرد على أهل الافك والتضليل » .

وله - عدا العلوم العقلية والكلام - مؤلفات فى علوم الشريعة منها : «كتاب القياس» و« كتاب الجهاد » و« خبر الواحد » وكتاب فى الرد على ابن الراوندى فى انكاره للتواتر.

وقد ذكر فى كتابه « العمد » مؤلفاته التى فرغ منها سنة ٣٢٠ هـ ، يعنى قبل وفاته بأربع سنوات ، وهى ثمان وستون مؤلفا، وكثير منها يقع فى عشرة مجلدات أو أكثر ، وقد ألف فى آخر حياته كتبا كثيرة ، ويدل كتابه « مقالات الاسلاميين » على أنه لم يكن متكلما فحسب ؛ بل كان مؤرخا أمينا لعلم العقائد ، وقد اعترف بدقته ، وأمانته وتحريه للصدق فى النقل المستشرقون (١) . وكتب الفرق والديانات تدل على أمانته ودقته فى النقل.

اجتهاده فى العبادة :

لم يكن أبو الحسن الأشعرى رجل علم وعقل ، وبحث ونظر فحسب ؛ بل كان - مع وصوله إلى درجة الامامة والاجتهاد فى العلم والعقل - مجتهدا فى العبادات ، متحليا بالأخلاق الفاضلة ، وذلك ما يمتاز به العلماء الأقدمون ؛ فان اشتغالهم بالعلم لم يكن مانعا عن الاجتهاد فى العبادات ، والحرص على الطاعات . وكانوا يجمعون بين الدراسة والافادة ، والعبادة والزهادة . قال أحمد بن على الفقيه: « خدمت الامام أبا الحسن بالبصرة سنين وعاشرته ببغداد إلى أن توفى رحمه الله فلم أجد أورع منه ، ولا أغض طرفا، ولم أر شيخا أكثر حياء منه فى أمور الدنيا ، ولا أنشط منه فى أمور الآخرة . »(٢) ويحكى أبو الحسين السروى من عبادته فى الليل واشتغاله ، ما يدل على حرصه وقوته فى العبادة (٣).

قال ابن خلكان : « وكان يأكل من غلة ضيعة وقفها جده ، بلال بن أبى بردة بن أبى موسى على عقبه ، وكانت نفقته فى كل يوم سبعة عشر درهما ، هكذا قال له الخطيب»(٤).

وفاته :

وكانت وفاته سنة ٣٢٤ هـ ، ودفن ببغداد فى مشروع الزوايا (٥) ونودى على جنازته :

---

(١) انظر Muslim Creed لفنسنك Vinsink .

(٢) تبيين كذب المفترى ص١٤١ .

(٣) المصدر السابق ص ١٤١ .

(٤) ، (٥) ابن خلكان ج ١ ص ٤١٢ .

« اليوم مات ناصر السنة » .

الامام أبو منصور الماتريدى :

وقد نهض فى نفس ذلك العصر ، فى طرف آخر من أطراف العالم الاسلامى - فى ما وراء النهر - امام آخر من أئمة الكلام ، والمدافعين عن عقيدة الاسلام ، وهو الامام أبو منصور الماتريدى (م ٣٣٢ هـ) ، وقد أقبل على علم الكلام كما أقبل الامام أبو الحسن الأشعرى فى العراق ، وكان راجح العقل ، متزن الفكر حصيفا ، وقد كان الأشعرى دائما فى معارضة وأخذ ورد على المعتزلة ، فدخل فى بحوثه وأفكاره ما قد لا يخلو من الغلو ، وقد زاد الأشاعرة بعده فى الأمر ، وأضافوا اليه أشياء . وقد جاء أبو منصور الماتريدى ، فحذف هذه الزوائد والالتزامات التى كان من الصعب اثباتها واقامة الدليل عليها ، وكانت تحتاج إلى تكلف وتأويل ، وتناول علم الكلام بالتهذيب والتنقيح ؛ حتى أصبح أكثر توسطا واعتدالا . وقد كان الخلاف بينه وبين الأشعرى جزئيا ومحدودا ، والمسائل التى خالف فيها الماتريدى الأشعرى لا تزيد على أربعين مسألة [1]؛ الخلاف فى معظمها لفظى .

وكان الماتريدى مؤلفا كبيرا ، وله مؤلفات عظيمة فى الرد على الرافضة والقرامطة ، وكتابه (تأويلات القرآن) كتاب عظيم يدل على نبوغه وذكائه الباهر ، ورسوخه فى العلم .

وقد كان للامام أبى الحسن الأشعرى بحكم اقامته فى العراق - مركز العالم الاسلامى السياسى والثقافى - نفوذ أكبر فى الأوساط العلمية ، وشهرة أوسع ، واسم ألمع فى تاريخ علم الكلام من غيره وممن جاؤوا بعده .

العلماء الأشاعرة ونفوذهم فى العالم الاسلامى :

وقد نشأ فى مدرسة أبى الحسن الأشعرى الفكرية علماء فحول ، ومتكلمون كبار خضع لعلمهم ونفوذهم العالم الاسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، وظلوا مسيطرين على الحركة العلمية والفكرية لعدة قرون ، وبفضلهم انتقلت قيادة العالم الاسلامى الفكرية ، وتوجيهه من المعتزلة إلى أهل السنة . وقد نبغ فى القرن الرابع علماء كبار ، طبقت شهرتهم الآفاق، أمثال : القاضى أبى بكر الباقلانى (٤٠٣ هـ) والشيخ أبى اسحاق الاسفرائينى (م٤١٨هـ)، وقد كان فى القرن الخامس للعلامة أبى اسحاق الشيرازى (م ٤٧٦ هـ) وامام

(١) ابن تيمية لمحمد أبى زهرة ، نقلا عن الشيخ محمد عبده ، فى تعليقاته على العقائد العضدية .

الحرمين أبى المعالى عبد الملك الجوينى (م ٤٧٨ هـ) مهابة ومحبة فى نفوس المسلمين ، لم تكن لأحد من الملوك والسلاطين ، يدل على ذلك بعض الدلالة ما يرويه تاج الدين السبكى فى « طبقات الشافعية الكبرى » عن رحلة الأول من بغداد إلى نيسابور .

يقول السبكى : ان الخليفة أمير المؤمنين المقتدى بالله ، تشوش من العميد أبى الفتح بن أبى الليث ، فدعا الشيخ أبا اسحاق ، وشافهه بالشكوى منه ، وأن أهل البلد حصل لهم الأذى به ، وأمره بالخروج إلى العسكر ، وشرح الحال بين يدى السلطان ، وبين يدى الوزير نظام الملك ، فتوجه الشيخ ومعه جمال الدولة عفيف ، وهو خادم من خدام الخليفة».

قال أبو الحسن الهمدانى : « وكان عند وصوله إلى بلاد العجم يخرج أهلها بنسائهم وأولادهم ، فيمسحون أردانه ، ويأخذون تراب نعليه ، ويستشفون به . وكان يخرج من كل بلد أصحاب البضائع بضائعهم وينثرونها ، ما بين حلوى ، وفاكهة ، وثياب ، وفراء وغير ذلك ، وهو ينهاهم حتى انتهوا إلى الأساكفة ، فجعلوا ينثرون المتاعات ، وهى تقع على رؤوس الناس ، والشيخ يتعجب .

ثم أن الشيخ دخل نيسابور ، وتلقاه أهلها على العادة المألوفة ممن وراءهم من بلاد خراسان ، وحمل شيخ البلد امام الحرمين أبو المعالى الجوينى غاشيته ومشى بين يديه كالخديم ، وقال : افتخر بهذا [(١)].

« وقد كان لامام الحرمين فى ولاية الب أرسلان السلجوقى ، وفى وزارة نظام الملك الطوسى ، أعظم مركز دينى « وقد بنيت له المدرسة النظامية بمدينة نيسابور ، وتولى الخطابة بها ، وحضر دروسه الأكابر من الأئمة ، وانتهت اليه رياسة الأصحاب ، وفوض اليه الأوقاف . وبقى على ذلك قريبا من ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع . مسلم له المحراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس التذكير يوم الجمعة [(٢)]، وأغلقت الأسواق يوم موته ، وكسر منبره فى الجامع وقعد الناس لعزائه وأكثروا فيه المراثى .

وكان تلامذته يومئذ قريبا من أربعمائة واحد ، فكسروا محابرهم وأقلامهم على ذلك عاما كاملا [(٣)].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى ج ٣ ص ٩١ - ٩٢ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٦١ .

(٣) أيضا ص ٣٦٢ .

وقد انتشـر المذهب الأشعرى أيام وزارة نظام الملك الذى كـان أشعرى العقـيدة . وكان صاحب الكلمة النافذة فى الامبراطورية السلجوقية العظيمة انتشارا عظيما . وأصبحت شبه عقـيدة رسميـة تتمتع بحـماية البلاط ، وزاد فى انتـشارها وقوتها مـدرسة بغداد النظامـية ومدرسة نيسابور النظامية . وكانت المدرسة النظامية فى بغداد أكبر جامعة اسلامية فى العالم الاسلامى . كان الانتساب اليـها شرفا وفخرا للطالب والمتخرج . وكـانت وظيفة التدريس فيـها مجدا للعـالم وشهادة علميـة ليست فوقـها شهادة . فكان طبـيعيا أن ينتـشر المذهب الأشعرى ويسود فى العالم الاسلامى » .

الانحطاط فى علم الكلام ، إزدهار الفلسفة الباطنية والحاجة إلى متكلم جديد

الانحراف والانحطاط فى علم الكلام :

ان مدرسة الأشعرى الفكرية ، وان كانت لا تزال مهيمنة على العالم الاسلامى ، وعلى مناهج التعليم ، وعلى الحياة الدينية ؛ ولكنها قد فقدت حيويتها ونشاطها الفكرى ، وضعف انتاجها فى الزمن الأخير ضعفا شديدا ، وبدت فيها آثار الهرم والاعياء .

لقد استطاع أبو الحسن الأشعرى ، بشخصيته القوية ، وعقله الكبير وابتكاره ، أن يهزم المعتزلة فى معترك العلم والعقل ، ويغير اتجاه الطبقة المثقفة فى عصره ، والفضل فى ذلك لا يرجع إلى أصوله وقواعده ، ولا إلى نظرياته وعقائده فحسب ، فيمكن أن تناقش فى ضوء العلم ، ويمكن أن لا يقتنع ببعضها باحث ومتأمل ، ولكنه يرجع كذلك إلى مواهبه العظيمة ، ونبوغه ، وعبقريته ، وملكته القوية فى الاستدلال ، وقد كانت هذه المدرسة فى حاجة دائمة إلى شخصيات قوية جديدة ، تحفظ مكانتها ومركزها فى العالم الاسلامي، وتجدد حياتها ونشاطها ، وفى حاجة دائمة إلى انتاج جديد ، وبعث وتجديد ، وابتكار مزيد.

ولكن ذلك لم يكن مع الأسف ؛ فقد طغى التقليد على تلاميذ هذه المدرسة وأصبحوا عيالا على ما أنتجه الامام أبو الحسن الأشعرى وبعض خلفائه ، وقفوا عنده ، وعضوا عليه بالنواجذ ، وأصبح علم الكلام علما متناقلا يتناقله الخلف عن السلف ، والتلاميذ عن الأساتذة ، وقد شعر بعضهم بأن الزمان قد تطور ، والعلم قد تقدم ، فأدخل مصطلحات الفلسفة وأسلوبها فى الاستدلال فى علم الكلام ، ولم يحسن صنعا ؛ لأن هذا الاسلوب الفلسفى لا يورث الاذعان فى القلوب كما يفعل اسلوب القرآن الطبيعى ، وليس له سحر فى النفوس ، ولا اقناع كاقناع القرآن ؛ ولأن هذه المقدمات والدلائل الفلسفية مثار بحث وجدال كبير ، ولا يفيد العلم القطعى ، وكانت معرضة للنقض والرد ، وهكذا لم يحسنوا تمثيل مذهب أهل السنة ، ومسلك السلف ، ولم يحسنوا اليهما ، ولم ينالوا تقدير الأوساط الفلسفية واجلالها كذلك ؛ إذا كانت تعتقد أن هذه المصطلحات والمقدمات استغلت استغلالا ، ولم تهضم هضما صحيحا .

شيوع الفلسفة فى العالم الاسلامى :

وقد انتقلت إلى العربية - بتوجيه المأمون الذى كان من هواة الفلسفة ، وبجهد المترجمين- كتب كثيرة فى المنطق والفلسفة ، من السريانية واليونانية والفارسية ، وكان أكثرها لأرسطو ، وكان فيها كتب المنطق ، وكتب فى الطبيعيات والعنصريات والرياضيات، وهى كتب وعلوم يحسن الانتفاع بها ، ولا يخاف منها على العقيدة الاسلامية ؛ إذ لا صلة لها بالديانات والشرائع ، وفيها كتب فى الالهيات والميتافيزيقا ، والحق أن هذه البحوث فى الالهيات إنما هو علم الأصنام عند اليونان ، وما هى الا وثنيتهم القومية التى ترجموها فى لغتهم الفلسفية ، وأضفوا عليها صبغة من الفن ، وما العقول والأفلاك الا رموزا للوثنية الاغريقية القديمة ، وما أفعالها وحركاتها وتصرفاتها الا عقائد توارثتها الأجيال عندهم ، ووثنية تعارض التوحيد ، وتحل محل عقيدة الصفات الالهية ، وتشتمل هذه الفلسفة التى بهرت المسلمين ، وتسلطت على عقولهم من غير حق ومن غير جدارة ، على ظنون وتخمينات وطلاسم لفظية لا حقيقة لها ولا معنى ، ولا وجود لها فى الخارج . وقد كانت الأمة التى أكرمها الله بالنبوءة المحمدية ، ومنحها العلم الصحيح الذى لا كدر فيه ولا تخمين ، العلم الصحيح بالذات والصفات ، والمبدأ والمعاد .

لقد كانت هذه الأمة فى غنى عن الاشتغال بهذه الفلسفة الخرافية ، والتدقيق فيها ؛ ولكن الذين بهرتهم براعة اليونان فى المنطق والطبيعيات والرياضيات ، أقبلوا على هذه الفلسفة الالهية فى شئ من التمجيد والتقديس ، وتلقوها كصحيفة سماوية ، كأنهم لا عهد لهم بالرسالة والبعثة المحمدية ، وكأنهم ليسوا أصحاب كتاب ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ وكأنهم أمة جاهلية فقيرة فى المعانى الدينية والحقائق الالهية .

الفلسفة اليونانية فى الاسلام :

كان من سعادة الفلسفة اليونانية وحسن حظها ، أن رزقت رجالا أذكياء تطوعوا لنشر الفلسفة وشرحها ، وجندوا فى سبيلها نفوسهم ومواهبهم ، كيعقوب الكندى (م ٢٥٨هـ) وأبى النصر الفارابى (م ٣٣٩ هـ) والشيخ الرئيس أبى على بن سينا (م ٤٢٨ هـ) وكانوا فى حماستهم فى الدفاع عن الفلسفة ونشرها فى الأمة الاسلامية ، وفى إخلاصهم لهذه الفلسفة وتمجيدهم لها ، وتقديسهم لأرسطو ، لا يقلون عن فلاسفة اليونان وتلاميذهم ، وكانوا يجهلون اللغات التى ألفت فيها هذه الكتب ، ودونت فيها هذه الأفكار ، وكانوا غير قادرين على الانتفاع بالمصادر الأصلية مباشرة ؛ فكانوا عيالا على من ينقلها لهم من

السريانية واليونانية ووقعوا فى أخطاء وأوهام فى فهم مقاصد المؤلفين والفلاسفة اليونانيين ، وقد منعهم اجلالهم لأرسطو وتقديسهم له من أن يتناولوا أفكاره ونظرياته بالبحث والنقد فأخذوها على علاتها ، وعكفوا عليها دراسة وشرحا وايضاحا وبيانا ، وحولوا العلوم العقلية نقلية يتناقلونها ويتوارثونها .

الفرق بين المعتزلة والفلاسفة :

وهنا حقيقة يجب أن نقررها : أن المعتزلة وإن أفرطوا فى تمجيد العقل وتحكيم الفلسفة فى الدين ، واتجهوا بالأمة ذات النبوءة والكتاب والتعاليم اتجاها كان يبعدها عن وضعها الصحيح ، وروحها الحقيقية ؛ ولكن مما لا شك فيه ، أن طبيعة المعتزلة كانت طبيعة دينية ، وكانوا يفكرون التفكير الدينى ، كانوا يؤمنون بالنبوءة والوحى ، وكانوا فى حياتهم متقشفين زهادا يحترزون عن المعاصى ، ويلتزمون العبادات والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكان كل ذلك بحكم عقائدهم التى يدينون بها ، ورأيهم الذى يرونه ، فكانوا يرون أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار ، وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة ، وكانوا متحمسين نشيطين فى خدمة الاسلام ونشره ، ومحاربة الملحدين ؛ فلم يكن نتيجة انتشار الاعتزال وسلطة المعتزلة أن انتشر الكفر والالحاد فى المجتمع الاسلامى ، وفشا انكار النبوءات ، وانكار المعاد ، والميل إلى الاباحية والتعطل ؛ بل بقى المعتزلة ، وبقى الشعور الدينى فى المسلمين حيا قويا .

ولكن الفلاسفة يختلفون فى ذلك اختلافا اساسيا ، فالفلسفة تتنافى مع النبوءة وتعارضها فى خط مستقيم ، انها تنحرف عن النبوءة فى النقطة الأولى ثم لا تلتقيان ، فكان طبيعيا أنه كلما ازداد الناس اقبالا على الفلسفة واجلالا لها ، ازدادوا انصرافا عن الدين واستخفافا له ، وكلما ازداد الناس خضوعا للفلاسفة ازدادوا استهانة بالأنبياء صلوات الله عليهم ، وما من ناحية من نواحى الحياة الدينية الا وقد تأثرت بهذا التحول الفكرى ، ووجدت فى المسلمين طبقة تستهزئ بالدين وتزدريه ، وتتمجد بخروجها عن ربقة الدين وتحررها من تكاليفه وعقائده فى غير كتمان وفى غير احتشام ، ومنهم من لا يملك شجاعة أدبية تحمله على هذا الاعلان ؛ فكانوا يظهرون فى المظهر الاسلامى وهم يبطنون الكفر والالحاد .

فتنة الباطنية :

ونشأت مع الفلسفة وازدهارها فتنة جديدة كانت أضر على الاسلام وتعاليم النبوءة من

الفلسفة ، تلك فتنة الباطنية ، وقد كان معظم دعاتها أفرادا وأمما وشعوبا قد فقدت سيادتها وحكمها فى تيار الفتوح الاسلامية ، ولا مطمع فى استردادها بالحروب والمقاومة المادية ، أو رجالا يدينون بالشهوات واللذات ، ويؤمنون بالاباحة وعبادة النفس - والاسلام يحد من شهواتهم ويقيد حرياتهم - أو رجالا يطمحون إلى السلطة المطلقة ، والسيادة الكبيرة ، وقد اجتمع هذه الأضراب من الناس تحت راية الباطنية والتفوا حولها ؛ إذ هى الراية التى تجمعهم وتمنيهم بالوصول إلى غاياتهم ، وقد شعر هؤلاء أن الاسلام - وهو لا يزال قويا - لا يهزم فى ميدان الحرب ، وأن المسلمين - وهم أصحاب عاطفة دينية قوية - لا تصح دعوتهم إلى الالحاد السافر ، والكفر البواح فان هذا يشعل عاطفتهم الدينية ويلهب غيرتهم ويثير فيهم روح المقاومة ؛ فتضيع الفرصة ويقلت الزمام ؛ ولذلك اختاروا للوصول إلى هدفهم اسلوبا لا يزعج المسلمين ولا يثيرهم ، أنهم اتخذوا للوصول إلى غايتهم نفقا .

الفرق بين الظاهر والباطن :

أنهم لاحظوا أن أصول الديانة الاسلامية وعقائدها وأحكامها ومسائلها ، إنما عرضت فى اطر ألفاظ وكلمات تدل عليها وتعبر عنها ، وكان لابد من ذلك عند كل رسالة جديدة، والله تعالى يقول : ﴿ **وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم** ﴾ . وقد تعينت معانى هذه الكلمات ومفاهيمها ؛ وتواتر ذلك عمليا ولفظيا فى الأمة واستفاض ، وعرفته الأمة الاسلامية ودانت به ، فكل من كلمات النبوءة و « الرسالة » و« الملائكة » و«المعاد» و « الجنة » و« النار » و« الشريعة » و« الفرض » و« الواجب » و« الحلال » و«الحرام» و« الصلاة » و« الزكاة » و« الصوم » و« الحج » يؤدى معنى خاصا ؛ وتفهم منها مفاهيم خاصة لا يشك فيها مسلم ، ولا يختلف فيها اثنان ، وكما أن هذه الحقائق الدينية-التى تعبر عنها هذه الكلمات- ظلت محفوظة فى الأمة تتوارثها الأجيال ، وتنتقل مع الزمان ، كذلك هذه الكلمات ثروة محفوظة لم تعبث بها يد التحريف ، وقد أصبح كل منها لازما وملزوما لصاحبه ، فإذا أطلقت كلمة « الصلاة » مثلا انتقل الذهن إلى هيئة عبادة خاصة ، فيها قيام وركوع وسجود وقراءة وتسليم إلى غير ذلك مما يدخل فى أركان الصلاة وأجزائها وأوضاعها ، وكذلك إذا أطلقت كلمة « النبوءة » أو « المعاد » تعين منها ذلك المفهوم الأساسى الذى يفهمه المسلمون ويدينون به .

لقد أدرك « الباطنية » بذكائهم ، أن هذه الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها ، أساس تقوم عليه الحياة الاسلامية ، والهيكل الفكرى والعملى فى حياة المسلمين ، ولهذه الصلة تدين الوحدة الدينية والفكرية التى يمتاز بها المسلمون ، وعن طريق

هذه الصلة يتصل المسلمون بماضيهم وبمنابعهم الصافية ، فاذا انقطعت هذه الصلة - بين الكلمات والمعانى - وأصبحت الكلمات لا تدل على معنى خاص ومفهوم معين ، أو تسرب الشك والاختلاف اليها ، أصبحت هذه الأمة فريسة لكل دعوة وفلسفة ، وساغ لكل أحد أن يقول ما يشاء ، ويروج على كثير من العامة وأشباه العامة ؛ بل الخاصة ، وعمت الفوضى العقلية والدينية ، وذلك ما يريدون ، ومنه يدخلون .

قالوا : « ان لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجرى من الظواهر مجرى اللب من القشر، وأنها بصورتها توهم الجهال صورا جلية ، وهى عند العقلاء رموز واشارات إلى حقائق خفية ؛ وأن من تقاعد عقله عن الغوص على الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار ؛ وقنع بظواهرها ، كان تحت الأغلال التى هى تكليفات الشرع ، ومن ارتقى إلى علم الباطن سقط عنه التكليف ، واستراح من أعبائه ، قالوا : وهم المرادون بقوله تعالى : ﴿ ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم ﴾ [(1)] .

ولما تقرر أن لكل لفظ ومعنى شرعى ظاهرا أو باطنا - والباطن هو اللب - استرسلوا فى تقرير بواطن المصطلحات الشرعية المتواترة المعنى حسب أهوائهم ، وأطلقوا العنان ، وفسروا هذه الكلمات والحقائق بما شاءوا وشاء لهم عبثهم وثقتهم بتقليد المستمعين وبساطتهم ، وهنا أمثلة طريفة لهذا التفسير التقطناها منو كتاب قواعد عقائد آل محمد ، لمحمد بن الحسن الديلمى اليمانى ، من علماء أوائل القرن الثامن الهجرى ، وهو ثقة مأمون فى النقل .

« يقولون للشرائع باطن لا يعرفه الا الامام ، ومن ينوب منابه ، وكذلك كل ما ورد فى الحشر والنشر وغيرها ، فكلها أمثلة ورموز إلى بواطن ، فمعنى الغسل : تجديد العهد عليه، ومعنى الجماع : مكالمة من لا عهد له بالباطن . . . والزنا القاء العلم فى سمع من لم يعاهده . والاحتلام : سبق اللسان لمذهب الباطن . والطهور : التبرؤ من كل مذهب خالف الباطنية . والتيمم : الأخذ للعلم من المأذون . والصلاة : الدعاء إلى الامام . والزكاة : بث العلوم لمن يتزكى لها ويستحقها . والصوم : كتمان العلم عن أهل الظاهر ، وكذلك كتمان المذهب . والحج : طلب العلم الذى تشد رحائل العقل اليه . وقيل الكعبة، النبى ، والباب على . والصفا النبى . والمروة على . والميقات على . والتلبية اجابة الداعى إلى باطنهم . والطواف بالبيت سعيا من الطواف لمحمد إلى تمام الأئمة السبعة.

---

(١) تلبيس ابليس لابن الجوزى ص ١٠٢ .

وصلاة الفجر دليل على السابق . والظهر على التالى . والعصر على الاساس وهو الوصى. والمغرب على الناطق . والعشاء على الامام » [1] .

وفى المعجزات قالوا : الطوفان : هو العلم غرق فيه أهل الشبه والظاهر ، والسفينة : حرزه الذى تحصن به المستجيب . ونار ابراهيم : غضب نمروذ عليه . وذبح اسحاق : أخذ العهد عليه . وعصا موسى : حجته التى غلب بها عند المناظرة ، وليست بخشبة . وانفلاق البحر : هو افتراق علم موسى على أقسام ، والبحر : هو العالم . والغمام الذى أظلهم امام نصبه موسى . والجراد والقمل والضفادع والدم : هى التزامات موسى واحتجاجاته والمن والسلوى : علم نزل من السماء بداع من دعاتهم » [2] .

ولعل بعض القراء الكرام يشكون فى صحة هذه الأقوال ، وكيف تصدر من عاقل ؟! ويتطرق الشك إلى ناقلها لكونه من أهل السنة : فهنا نقول من كتاب « ديانتنا الاسماعيلية ونظامها » للدكتور زاهد على ، ظهر حديثا فى الهند ، مع ذكر مصادرها وهى كتب أئمة الاسماعيلية ودعاتها .

« لا اله الا الله تأويله : لا امام الا امام الزمان [3] . الوضوء : مولانا على ، بحجة أن الحروف فى كلتا الكلمتين ثلاثة [4] . الصلاة : الرسول ﷺ ، بحجة أن الحروف فى كلتا الكلمتين أربعة [5] . لا صلاة الا بوضوء يعنى لا يصح الايمان بالرسول بغير الايمان بوصاية على [6] . ركعات الظهر الأربع : محمد ﷺ [7] . ركعات العصر الأربع : دعوة مولانا على [8] . عيد الفطر : مولانا المهدى ؛ لأنه ظهرت منه دعوة الحق [9] .

انا أنزلناه ؛ مولانا حسن بن على ؛ لأن الله رقاه إلى درجة الامامة ، ثم أهبطه ؛ فقد

---

(١) قواعد عقائد آل محمد ص ١٧ . وقد ذكر مثلها الغزالى فى المستظهرى .

(٢) قواعد عقائد آل محمد ص ١٨ .

(٣) تأويل الشريعة من كلام الامام مولانا المعز ص ٤ .

(٤) تأويل القاضى نعمان .

(٥) المصدر السابق .

(٦) المصدر السابق .

(٧) تأويل مولانا العز .

(٨) المصدر السابق .

(٩) تأويل الدغائم .

قطع من ذريته الامامة [١] . فى ليلة القدر : مولانا حسين ، وحجته ابنه الذى خلفه [٢] .

ولم يقتصر دعاة الباطنية على التمييز بين الظاهر والباطن ، وتفضيل الباطن ؛ بل تدرجوا فى استخفاف بالظاهر حتى جعلوه موضع سخرية واستهزاء ، يتقذره الانسان ويتبرأ منه .

يقول الدكتور زاهد على : « لقد كان الأئمة والدعاة يفهمون تلاميذهم من الطبقة العليا أن الظاهر متناقض ومعوج ، وأنه علم كيف ، وأنه محض . . . لا دليل عليه ، وأنه لا حياة فيه ، وأن أهل الظاهر هم أهل الكفر ؛ بل أهل الشرك » [٣] .

ويقول فى موضع آخر : « ان لب تعليماتنا الاسماعيلية ولبابها ، أن الغاية من الشريعة التأويل الذى هو من الجسد كالروح ، وان التنزيل ليس الا جسما » [٤] .

وتقدموا خطوة أخرى ، فأعلنوا عقيدتهم أن الأئمة الذين هم أهل الأسرار والحقائق يعطلون ظاهر الشريعة وينسخونه ، يقول سيدنا « ادريس » : بعث الله محمد بن اسماعيل (ابن الامام محمد باقر) وهو نبى ناطق ، نسخ شريعة محمد ﷺ » [٥] .

ثورة على النبوءة المحمدية :

لقد كان انكار المفاهيم الدينية التى توارثتها الأمة ، وتفسير الكلمات الشرعية والمصطلحات الدينية حسب الأغراض والأهواء ، والفصل بين الظاهر والباطن ، بابا لم يزل يدخل منه الثائرون على النبوءة المحمدية ، والمؤامرات ضد الاسلام ، لقد نصبوها ألغاما ينسفون بها هذا البناء العظيم الذى أقامه محمد ﷺ وخلفاؤه ، والذى لا يزال يؤوى هذه الأمة العظيمة فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويؤسسون على أنقاضه هيكلا دينيا جديدا. لقد كان ذلك كله محاولة لانشاء دولة مستقلة فى ضمن دولة الشريعة الاسلامية ؛ وانشاء مجتمع مستقل فى وسط المجتمع الاسلامى ، ولا شك أن دولة من الدول لا تسمح بنشوء هذه الدولة واستفحالها فى وسطها . وقد رأينا المنافقين والملحدين الذين ثاروا على هذه النبوءة المحمدية فى زمانهم أسرعوا إلى انكار هذا التواتر المعنوى ، والتوارث اللفظى ،

---

(١) أيضا ذكر ليلة القدر .

(٢) المصدر السابق .

(٣) ديانتنا الاسماعيلية ونظامها ص ت .

(٤) ديانتنا الاسماعيلية ونظامها ص ٢٢ .

(٥) عاصمة نفوس المهتدين وقاصمة ظهور المعتدين لسيدنا .

وحاولوا أن يجعلوا هذه الشريعة ومصطلحاتها ومفاهيمها بحيث يعبث بها العابثون ؛ وبذلك مهدوا لأنفسهم قيام سيادة دينية ونبوءة جديدة يتمتعون فى ظلها بسلطان روحى ، وسيطرة سياسية ، وحرية مادية . ومن أوضح أمثلتها : البهائية فى ايران ، والقاديانية فى الهند [1].

وكلها تلتقى على انكار التوارث المعنوى ، وتأويل الكلمات الشرعية الاسلامية المتواترة تأويلا لا يقوم على اللغة ، والقياس ، والمنطق ، والاتجاه إلى انكار الحقائق الغيبية ، والخرق للسنن الطبيعية ، وتلتقى أولا وآخرا على انكار عقيدة ختم النبوءة .

وقد كانت الباطنية مؤسسة على الفلسفة اللاهوتية اليونانية ، وعلى الطبيعيات ، وقد استخدموا مصطلحات الفلسفة اليونانية وأفكارها وعقائدها فى أدبهم وشرح عقيدتهم بسخاء وحرية وطبقوا الفلسفة ولغتها وتفكيرها على ديانتهم الجديدة ، ونظام عقائدهم وأفكارهم، ولعلهم كانوا يعتقدون أن هذه الفلسفة ، وما جاء فيها من عقائد وأفكار ، حقائق علمية ثابتة ، لا تزعزع ولا تقبل النقاش ، وأنها تظل كذلك ؛ فأرادوا أن يضفوا بذلك على عقائدهم الواهية شيئا كثيرا من قدسية العلم وروعته ، وأن يجذبوا اليها كثيرا من النشء الجديد الذى أعشاه ضوء الفلسفة ، وخلع قلبه مصطلحاتها الفخمة ، وتشقيقاتها الدقيقة ، وقد انتقد ذلك العالم الاسماعيلى الدكتور زاهد على فى كتابه « ديانتنا الاسماعيلية ونظامها » يقول: « لقد اعتقدنا أن جميع النظريات التى جاءت فى علم الهيئة القديم ، وفى علم الطبيعيات ، وعلم الالهيات ، صحيحة لا يتطرق اليها الشك ، فاستعنا بها فى اثبات دعوتنا الاسماعيلية ونظامها وحدودها ، وادعينا أن المسائل التى قدمناها حقائق علمية » [2].

ويقول فى موضع آخر :

« لقد تناولنا معارف المعتزلة بشئ من التغيير ، وأفرغناها فى قالبنا ؛ ولذلك يقال : أن أكثر معلومات الاسماعيلية ملتقطة من المعتزلة والفلاسفة » [3].

ويقول فى موضع آخر :

« لقد وضعنا العقل الأول أو العقل العاشر أو امام الزمان (كما نسميه نحن) بكل ما

---

(١) اقرأ فى هذا الموضوع كتاب المؤلف « القاديانى والقاديانية دراسة وتحليل » .

(٢) ديانتنا الاسماعيلية ونظامها ص ٢٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٥ .

يوصف به المبدأ الأول والذات الالهية ، حتى اننا نعنى القول الأول أو امام الزمان بكل ما جاء فى وصف الله تعالى فى قوله : ﴿ الم . الله لا اله الا هو الحى القيوم ﴾ وقوله : ﴿ هو الله الخالق البارئ المصور ﴾ إلى آخر الآيات [1].

ولا شك أن الباطنية تبنوا الفلسفة ؛ فكان طبيعيا أن يكون أكثر اعتمادهم على المشتغلين بالفلسفة وأنصارها ، وكان طبيعيا أن يتتبعوهم ويلاحقوهم ، يظهر ذلك من نفس كتابات دعاة الاسماعيلية القدماء ورسائلهم ووصاياهم ؛ فقد بعث عبد الله بن الحسن القيروانى ، أحد دعاة الاسماعيلية ، رسالة إلى أبى الحسن بن سعيد الجنابى ، زعيم القرامطة ، يقول فيها : « أدع الناس بأن تقترب اليهم بما يميلون اليه ! وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم ! فمن أنست منهم رشدا فاكشف له الغطاء ! وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به ! فعلى الفلاسفة معولنا » [2]. وقد لاحظ ذلك المستشرق « دوزى » فقال عن مؤسس الدعوة الاسماعيلية ، هو عبد الله بن ميمون القداح :

« ولم يبحث ابن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين الشيعة الخلص ؛ ولكن بين الوثنية والوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية ، ولم يكن يعتمد الا على الطائفة الأخيرة ، واليهم وحدهم استطاع أن يفضى بسره وخفى عقيدته ، وهو : أن الأئمة والاديان والأخلاق ليست الا ضلالا وسخرية ، وأن باقى البشر - أو الحمر كما يسميهم - ليسوا أهلا لفهم هذه المبادئ ؛ غير أنه ، تحقيقا لغايته ، لم يعف عن مؤازرتهم ؛ بل كان يلتمسها ، ويحذر فى نفس الوقت من أن يحشد الأنفس المخلصة الطائعة الا فى المرتبة الأولى لدعوته . » [3]

وقد ساعد الباطنية انتشار الفلسفة ، والاضطراب الفكرى الذى كان يسود المجتمع الاسلامى بصراع الفلسفة ، وعلم الكلام الذى أدى إلى التقعر وتشقيق الشعرة ، وقد ألفته الأذهان ، وأولع به الشبان ، ووجد فى المتعلمين وأنصاف المتعلمين ولع بالعلوم الغامضة ، وبما يشبه العلوم الغامضة والحقائق البعيدة الغور ؛ فنفقت سوق الباطنية وهبت ريحهم ونصت تجارتهم ، واجتمع حولهم اناس بدوافع مختلفة وأغراض شتى ، منهم من دفعه اليهم أخذ الثأر من الذين كانوا سببا فى ذهاب دولتهم وملكهم ، ومنهم من دفعه بغض الدولة العباسية القائمة ، وما يعانونه من ظلم وحيف فى ظلها - الباطنية هم الذين يعملون

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦ .

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(١) اخوان الصفاء . تأليف الأستاذ عمر الدسوقى ص ٢٥ .

ضدها وينتصبون لها - ومنهم من دفعته الرغبة فى الأسرار والغوامض ، ومنهم من دفعه اليهم رد فعل ضد الظاهرية السائدة ، والتمسك بالقشور والالحاح عليها الحاحا زائدا ، وانكار كل ما زاد عليها ، وكثير منهم اندفع وراء اشباع الرغبات والتهام اللذات التى يمكن منها الباطنية ولا يمكن منها غيرهم ، ومنهم من دفعه الغضب لأهل البيت والتشيع لهم ، وكانت الباطنية تنشر دعوتها باسمهم وتدعو اليهم . ومهما اختلفت الدوافع والأغراض فقد كسبت الباطنية شيعا وانصارا ، وأصبحت مؤسسة سرية يرهب جانبها وتخشى غائلتها ، حتى أصبحت فى زمن قريب قوة تحسب لها الحكومات الاسلامية الكبيرة الحساب الكبير ، وظلت منها مدة طويلة فى تعب عظيم وعناء كبير ، وأضحى كثير من رجالاتها ووزراء الحكومات صرعى الارهاب ، واغتيل نفوس كان غناؤها للاسلام عظيما ، كنظام الملك الطوسى ، وفخر الملك ؛ حتى أتى على المسلمين حين من الدهر ، ولا يعرف العالم منهم أو الوزير أو القائد ، إذا نام فى الليل ، هل يصبح سالما أم يكون فريسة أحد الإرهابيين قال ابن الجوزى : واستفحل أمرهم بأصبهان ، وآل الأمر إلى أنهم كانوا يسرقون الانسان ويقتلونه ويلقونه فى البئر ، وكان الانسان إذا دنا وقت العصر ولم يعد إلى منزله ، أيسوا منه [1]. هذا عدا ما دسوا فى العلم والأدب ، وعدا ما تأثرت بهم العقول والنفوس ؛ حتى تجاسر الناس على تأويل النصوص والقطعيات ، وتحريف الأصول والمحكمات ، ووجد فى الناس اقبال غريب على الالحاد والتطرف فى الاعتقاد .

اخوان الصفاء :

وقد قامت فى العراق فى القرن الرابع الهجرى - وهو قرن قد بلغ فيه الاضطراب الفكرى والاضطراب السياسى أوجهما - جماعة سرية كالماسونية ، تجمع مزيجا من الفلسفة اليونانية والعقيدة الباطنية ، تتسمى باخوان الصفاء ، وكان أصحابها متأثرين بالأفلاطونية الحديثة ، والفيثاغورية الحديثة ، وكانوا يريدون أن يضعوا للناس مذهبا جديدا يجمع بين الهيات اليونان ، ونظريات افلاطون وأرسطو وأفلوطين وفيثاغورس وغيرهم ، وبين العبادات الشرعية الاسلامية ، والطهارة والمروءة والأخلاق الثابتة فى كل دين وأمة ، وعقيدة الشيعة الاسماعلية ، ويخرجوا على الناس بخليط فيه حكمة اليونان وتنظيم الأديان .

يصفهم أبو حيان التوحيدى فى كتابه « الامتاع والمؤانسة » فيقول :

---

(١) تلبيس ابليس ص ١١٠ .

« وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ؛ فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله ؛ وذلك أنهم قالوا أن الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ؛ لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية ، فقد حصل الكمال . وصنفوا خمسين [1] رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها ، وأفردوا لها فهرسا وسموها « رسائل اخوان الصفا » ، وكتموا فيها اسماءهم ، وبثوها فى الوراقين، ووهبوها للناس ، وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية ، والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة ، والطرق الموهمة » .

وهذه الرسائل تشتمل على الطبيعيات والرياضيات والالهيات والعقليات ، ويعوزها التعمق والنظام ، ويظهر فيها الاغراق فى الخيال ، والاعتماد على الأفكار اليونانية من غير فحص وانتقاد ، وبحث فى كل علم من غير اشباع واقناع ، وقد لاحظ أبو حيان فقال : «مبثوثة من كل فن بلا اشباع ولا كفاية ، ينكرون فيها البعث بالأجساد [2] ، ويفسرون الآخرة والجنة والنار خلافا لما تواتر عند المسلمين وفهم من النصوص الدينية القطعية [3] ، وينكرون الشياطين على الصورة التى يفهمها معظم المسلمين ، ويقولون :

هى النفوس الشريرة الهائمة فيما دون فلك القمر مع اخوانها من النفوس التى جهلت ذواتها فى الدنيا » [4] . ويفسرون الكفر [5] والعذاب [6] تفسيرا باطنيا فلسفيا ، وتشتمل على كثير من الآراء الخيالية ، بعضها متلقف من اليونان ، وبعضها وليد الأذهان ، وبعضها تراث الكهان، كأسرار الأعداد [7] والتنجيم ، والفال ، والزجر [8] ، والسحر ، والعزائم [9] ،

---

(١) الصحيح انها احدى وخمسون رسالة .
(٢) رسائل اخوان الصفا ج ٤ ص ٦١ - ٦ .
(٣) انظر رسائل اخوان الصفا ج ٣ ص ٧٨ وج ٤ ص ٤٠ .
(٤) رسائل اخوان الصفا ج ٤ ص ٢٦ .
(٥) ج ٣ ص ٧٦ .
(٦) ج ٣ ص ٧٦ .
(٧) ج ١ ص ٢٧ - ٢٨ .
(٨) ج ١ ص ١٠٦ .
(٩) ج ٤ ص ٣٠ .

والايمان بطوالع النجوم وتأثيرها [١] وموسيقى الأفلاك ونغماتها وألحانها، [٢] وتشتمل كذلك على عقيدة الوحى ، [٣] والامام المستور ، [٤] والتقيه [٥] وفيها اعداد النفوس والعقول لدولة جديدة ، تقوم على امامة أهل البيت ، واخطار بانتهاء أمد الدولة العباسية وزوالها وقد جاءفيها ما يلى : « وقد ترون أيها الأخوان - أيدكم الله وايانا بروح منه - أنه قد تناهت قوة أهل الشر ، وكثرت أفعالهم فى العالم فى هذا الزمان ، وليس بعد التناهى فى الزيادة الا الانحطاط والنقصان ، وأعلم أن الملك والدولة ينتقلان فى كل دهر وزمان ، ودور وقران ، من أمة إلى أمة ، ومن أهل إلى أهل بيت ، ومن أهل بلد إلى أهل بلد » [٦].

وبالاختصار ، ان رسائل اخوان الصفاء مجموعة غريبة من الحكمة والديانة والشعوذة والكهانة والسياسة ، تقوم على أساس الفلسفة اليونانية الطبيعية والالهية ، ونظرياتها وأوهامها ، وتنهار بانهيارها ، وليست لها أهمية كبيرة . ولولا الاضطراب الفكرى الذى كان يسود فى القرن الرابع والخامس ، واجلال كل ما يظهر فى الصبغة الفلسفية ، لما نالت هذا الاهتمام ، ولما استحقت أن يتناقلها المعتزلة ومن جرى مجراهم ، يتدارسونها ويحملونها معهم سيرا إلى بلاد الاسلام [٧].

وكانت هذه الرسائل محاولة لوضع نظام جديد : خلقى ، الهى ، علمى ، يحل محل الشريعة الاسلامية التى كان يعتقد « اخوان الصفاء » انها - بشكلها الحاضر - قد أصبحت عتيقة لا تؤدى رسالتها ، وقد أخفقت هذه المحاولة اخفاقا تاما ؛ فلم تنتج نظاما علميا ، ولم تنشئ مجتمعا يقوم على أساسها ، وأصبحت فى مدة قريبة من الآثار التاريخية العتيقة التى لا تأثير لها فى الحياة ، ولا محل لها الا فى المتاحف والمكتبات .

ويبدو لى كلما قرأت تاريخ الباطنية واخوان الصفاء ، وتاريخ البهائية القاديانية ، أن أصحابها قرأوا تاريخ الاسلام ، وتاريخ الرسالة المحمدية والدعوة الاسلامية ؛ فرأوا رجلا

---

(١) ج ١ ص ٩٥ .
(٢) ج ١ ص ١٥ - ١٥٣ .
(٣) ج٤ ص ٤٠٤ .
(٤) ج ٣ ص ٨٦ ج ٤ ص ٥٧ .
(٥) ج ٤ ص ٣٠٨ .
(٦) ج ٤ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .
(٧) تاريخ فلاسفة الاسلام للطفى جمعة ص ٢٥٤ .

يقوم فى جزيرة العرب وحيدا فقيرا أعزل ، ويدعو إلى عقيدة وشريعة ، فلا يلبث أن يكون أمة ، ويكون دولة ، ويكون حضارة ، ويرغم التاريخ على أن ينحو نحوا جديدا ؛ فغرت هؤلاء نفوسهم الطامحة ، وأغرتهم بأن يجربوا هذه التجربة ، وعندهم الذكاء والدهاء وقوة التنظيم والعلوم والأتباع ، عسى أن يكونوا أمة ودولة وحضارة ، ولماذا لا تثمر الجهود ؟ ولماذا لا تتكرر المعجزة ، والفطرة البشرية لا تزال هى الفطرة ، ولا يزال الناس أشباها .

لقد رأى هؤلاء الطامحون هذا الرجل الوحيد الفقير الأعزل ، ولم يروا ما يعتز به من رسالة ونبوءة وشخصية وسيرة ، ولم يروا تلك الارادة الالهية الغلابة التى قضت بانتصاره وظهوره وخلوده : ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ؛ ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون** ﴾ وقد أثمرت جهودهم مؤقتا ، فكان لهم أتباع وأشياع ، وقد استطاع بعضهم – كالباطنية – أن يقيم دولة ، وقد ازدهرت هذه الدولة ، وبقيت – ما بقيت – تنظيماتهم وحيلهم واستدراجاتهم ، وما لبثت أن تبخرت وتلاشت ، وبقيت دياناتهم فى نطاق ضيق لا تقدم ولا تؤخر فى العالم . أما الاسلام الذى جاء به محمد ﷺ ، فلا يزال القوة الروحية الكبرى ، ولا يزال صاحب أمة ودول وحضارة ، وأما شمس النبوءة المحمدية فلا تزال مشرقة لم تنكسف ولم تحتجب يوما واحدا .

الحاجة إلى شخصية قوية جديدة :

وعلى كل فقد كان العالم الاسلامى فى القرن الخامس وقد تواضعت على اضعافه الفلسفة والباطنية ، وأحدثتا تبلبلا فكريا ؛ يجره إلى الالحاد فى العقيدة ، والتدهور فى الأخلاق ، والاضطراب فى السياسة – فى حاجة ملحة إلى شخصية قوية جديدة ترد اليه الايمان بالعقيدة ، والاعتماد على مصادر الدين الاصيلة ، والاستقامة فى الأخلاق ، وينتج الانتاج الجديد الذى تكسد معه سوق الباطنية ، وتركد ريحها ، وتعرض الاسلام عرضا عقليا جميلا تدحض معه حجج الفلاسفة والباطنية ، وكان لا بد لهذه الشخصية أن تكون جامعة بين العلوم العقلية والنقلية ، لها فى كل منهما قدم راسخة وباع طويل ونظر نافذ ، وتكون عقلية كبيرة تناهض فلاسفة اليونان وقادة الفكر فى العالم ، تجرى معهم فى رهان واحد ، وتستطيع أن تدون كثيرا من العلوم تدوينا جديدا ، وتقول فيهما كلمتها ، وتجمع إلى ذلك كله من المواهب العلمية والكفاية العقلية الايمان القوى الراسخ الذى أكتسبه هذا الرجل بدراسته وتأملاته ، واخلاصه وجهاده فى سبيل الوصول إلى المعرفة واليقين ،

ويستطيع بكل ذلك أن ينفخ فى المجتمع الاسلامى روحا جديدة وحياة جديدة .

لقد رزق العالم الاسلامى – وهو فى أشد الحاجة وأدق ساعة · هذه الشخصية الفذة ، فى منتصف القرن الخامس الهجرى : هى شخصية الغزالى التى ستكون موضوع عدة فصول مقبلة .

حجة الاسلام الغزالى
حياته ودراسته

نشأته ودراساته :

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسى ، أبو حامد الغزالى . ولد فى طابران ؛ من ناحية طوس [1] سنة ٤٥٠ هـ ، وكان أبوه فقيرا ، صالحا ، لا يأكل الا من كسب يده فى عمل غزل الصوف ، ويطوف على المتفقهه ويجالسهم ويتوفر على خدمتهم، ويجد فى الاحسان اليهم ، والنفقة بما يمكنه عليهم ، وكان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع، وسأل الله أن يرزقه ابنا ويجعله فقيها . ويحضر مجالس الوعظ ، فاذا طاب وقته بكى ، وسأل الله أن يرزقه ابنا واعظا ؛ فاستجاب الله دعوته [2] .

ولما حضرت أباه الوفاة ، وصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف من أهل الخير، فلما مات أقبل الصوفى على تعليمهما : إلى أن فنى ذلك النزر اليسير الذى كان خلفه لهما أبوهما ، وتعذر على الصوفى القيام بقوتهما ، فقال لهما : اعلما أنى قد أنفقت عليكما ما كان لكما ، وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لى فأواسيكما به ، وأصلح ما أرى لكما أن تلجا إلى مدرسة ؛ فانكما من طلبة العلم ، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما . ففعلا ذلك [3] .

قرأ الغزالى فى صباه طرفا من الفقه ببلده على أحمد بن محمد الرادكانى ، ثم سافر إلى جرجان إلى الامام أبى نصر الاسماعيلى ، وعلق عنه التعليقة ، ثم رجع إلى طوس ، قال : « قطعت علينا الطريق ، وأخذ العيارون جميع ما معى ، ومضوا ، فتبعتهم ، فالتفت إلى مقدمهم وقال : ارجع ! ويحك ! والا هلكت . فقلت له : أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقتى فقط ، فما هى بشئ تنتفعون به ، فقال لى : وما هى تعليقتك ؟ فقلت كتب فى تلك المخلاة ، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك قال : كيف تدعى أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك ؛ فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟! ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلى المخلاة . قال الغزالى : هذا مستنطق

---

(١) مقاطعة فى خراسان شمالى شرقى ايران وتسمى الآن « مشهد » .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٤ ، ص ١٠٢ .

(٣) المصدر السابق ج ٤ ، ص ١٠٢ .

أنطقه الله ليرشد به أمرى ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين ، حتى حفظت جميع ما علقته ، وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمى » [1] .

وقدم الغزالى نيسابور - وهى عاصمة السلجوقيين ، ومدينة العلم بعد بغداد - ولازم امام الحرمين - وهو من عرفنا شخصيته وجلالته فى العلم والتدريس - وجد واجتهد حتى برع فى المذهب والخلاف والجدل والأصول . وكانت العلوم السائدة فى عصره . وأعجب بذكائه وغوصه على المعانى الدقيقة واتساع معلوماته امام الحرمين ؛ فكان يقول : « الغزالى بحر مغدق » [2] وفاق أقرانه وهم أربعمائة ؛ حتى أصبح معيدا لأستاذه ونائبا عنه .

ولما مات امام الحرمين (٤٧٨ هـ) خرج الغزالى إلى المعسكر قاصدا الوزير نظام الملك، وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين من سنه ، وقد ظهر فضله وذاع صيته ، وكان مجلس الوزير مجمع أهل العلم وملاذهم ، وكانت المجالس حتى المآتم لا تخلو من المناظرات الفقهية والمطارحات الكلامية ، فناظر الغزالى الأئمة العلماء فى مجلس نظام الملك ، وقهر الخصوم ، وظهر كلامه عليهم ، واعترفوا بفضله ، وتلقاه الصاحب بالتعظيم والتبجيل ، وولاه تدريس مدرسته (النظامية) ببغداد ، وكان ذلك غاية ما يطمح اليه العلماء فى ذلك العصر ويتنافسون فيه ، فقدم بغداد فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة ولم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره ، وقلما تقلد هذا المنصب الرفيع عالم وهو فى هذه السن .

درس الغزالى بالنظامية ، وأعجب الخلق حسن كلامه ، وكمال فضله ، وفصاحة لسانه ونكته الدقيقة ، واشاراته اللطيفة ، وأحبوه [3] . قال معاصره عبد الغافر الفارسى : وعلت حشمته ودرجته فى بغداد ؛ حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة[4] . وكان يقرأ عليه جم غفير من الطلبة المحصلين . يقول فى « المنقذ من الضلال » فى وصف حاله بالنظامية : « وأنا ممنون بالتدريس والافادة لثلاثمائة نفس من الطلبة ببغداد [5] . وأرسله الخليفة العباسى المقتدى بالله عام (٤٨٥) إلى زوجة ملك شاه السلجوقى « تركان خاتون» التى كانت مالكة لزمام المملكة . وكان الخليفة المستظهر معجبا به ، خاضعا لفضله. وباقتراحه ألف الغزالى كتابه فى الرد على الباطنية وسماه « المستظهرى » .

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٤ ص ١٠٢ .
(٢) ايضا ص ١٠٣ .
(٣) طبقات الشافعية الكبرى ج ٤ ص ١٠٦ .
(٤) أيضا ص ١٠٧ .
(٥) المنقذ من الضلال مطبعة الترقى ص ٨٥ .

اعتزال الغزالى عن التدريس وخروجه فى طلب السعادة واليقين :

لقد بلغت شهرة الغزالى ومكانته العلمية فى العالم الاسلامى أوجها ، وصل الرجل إلى أقصى ما يصل اليه عالم فى ذلك العصر من المجد والسمو والرئاسة ، وأقبل اليه الطلبة من الآفاق: وخضع له العلماء والأمراء الوزراء ، وبقى فى عاصمة العالم الاسلامى يدرس ويفيد ويؤلف ، وكان فى ذلك ما يرضى عالماً يحرص على الافادة ونشر العلم ، وطموحا يريد الرئاسة والمجد ، وكان المنتظر أن يبقى الغزالى - وقد انتهت إليه رئاسة العلم فى العالم الاسلامى - فى مركزه العلمى الذى ليس فوقه مركز ، ويقضى حياته بين حلقات الطلبة التى تحيط به ، وجموع المستمعين والقاصدين التى تحدق به ، وبين اعجاب الناس وثنائهم ، قرير العين ، رخى البال ، مرفوع الرأس ، عظيم الجاه ، كما فعل كثير من أساتذته وأكثر أقرانه وزملائه .

ولكن الغزالى لم يفعل ذلك ، ولم تسمح نفسه القلقة وهمته القعساء بأن يستمر فى ذلك . وفى هذا القلق ، وفى هذا التمرد على ما تهيأ له من جاه ومجد ، سر عبقريته ، وسر خلوده من بين الأقران والأعيان ، ولذلك سمى « حجة الاسلام » وقد استطاع بقوة ارادته ، وصدق طلبه ، وعلو همته ، أن يضحى بأكبر منصب وأعظم جاه يطمح اليه العلماء والأذكياء فى عصره ، ثم لا يناله إلا الواحد بعد الواحد فى مدة طويلة ، وسهل عليه أن يتخلى عنه ويعتزله ، وينفض يده من كل ما يملكه من مال وأثاث ورياش ، وينتقل من دولة العلم التى كان يحكمُ فيها وحده ويسود إلى الصحارى والخلوات التى كان يعيش فيها عيش الفقراء والغرباء . إنه مثال رائع فى تاريخ العلم والعقيدة تندر نظائره فى كل زمان ومكان .

وقد حكى لنا الغزالى نفسه قصة هذا التحول العظيم ، وذكر أسبابه ودوافعه ، والصراع النفسى الذى ظل يعالجه مدة طويلة : حتى تغلبت عليه الارادة الصادقة . وخرج من بغداد فى طلب السعادة واليقين ؛ حتى ظفر بطلبته ، ورجع سعيدا مؤمنا ، يستطيع أن يقنع غيره، ويملأه ايمانا ويقينا ، وكل ذلك فى أسلوب طبيعى جميل أخاذ ، وبيان سهل سلسال، يحله فى المكانة الأولى مما كتب بالعربية من « اعترافات » و « مذكرات » وفى المكانة السامية من الأدب العربى الذى يتدفق بالحياة . وإلى القراء بعض قطعها بالاختصار والاقتضاب .

بحث عن العلم اليقيني :

« قد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي ؛ حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا ؛ إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء الا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم الا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام ، وسمعت الحديث المروى عن رسول الله ﷺ حيث قال : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » فتحرك باطني إلى حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات، فقلت في نفسي أولا ، إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور ؛ فلا بد من طلب حقيقة العلم ، ما هي ؟ فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ؛ بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين مقارنة ، لو تحدى باظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهبا ، والعصا ثعبانا ، لم يورث ذلك شكا وانكارا ؛ فاني إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لي قائل : لا ، بل الثلاثة أكثر ، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانا ، وقلبها وشاهدت ذلك منه ، لم أشك - بسببه - في معرفتي ، ولم يحصل لي منه الا التعجب من كيفية قدرته عليه ؛ فأما الشك فيما علمته ، فلا . !

ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ؛ فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ؛ فليس بعلم يقيني » (1) .

ويذكر الغزالي بعد ذلك ، كيف فتش عن علومه ، فوجد نفسه عاطلة عن علم يقيني موصوف بهذه الصفة الا في الحسيات والضروريات ، ثم تأمل في المحسوسات الضروريات، وشكك نفسه فيها ؛ حتى بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا ، وجعل يشك فيها .

يقول : « فأعضل هذا الداء ، ودام قريبا من شهرين ، أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم المنطق والمقال ؛ حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ؛ ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن

---

(1) المنقذ من الضلال ص ٦٩ - ٧١ .

ويقين ، ولم يكن بنظم دليل وترتيب كلام ؛ بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر » [1].

اختبار لعلم الكلام :

وبعد الشفاء من مرض السفسطة والشك فى المحسوسات والضروريات ، نظر الغزالى فى أصناف الطالبين حوله ، فوجدها تنحصر فى أربع فرق ، هم :

١ - المتكلمون ٢ - الباطنية ٣ - الفلاسفة ٤ - الصوفية . وبدأ يسبر غورها ، وينشد الحق والشفاء من مرضه عندها ، وابتدأ بعلم الكلام فحصله وعقله ، وطالع كتب المحققين منهم ، وأحكم هذا العلم حتى صنف فيه .

قال : « فصادفته علما وافيا بمقصوده ، غير واف بمقصودى ، إنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة على أهل السنة . وحراستها عن تشويش أهل البدعة . واعتماد المتكلمين على مقدمات تسلموها من خصومهم ،وكان أكثر خوضهم فى استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم » يقول : « وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئا أصلا ؛ فلم يكن الكلام فى حقى كافيا ، ولا لدائى الذى كنت أشكوه شافيا » [2].

دراسة الفلسفة ورأى الغزالى فيها :

ثم أقبل على الفلسفةاليونانية التى تزعم أنها الطريق الوحيد الموصل إلى معرفة الحق والسعادة واليقين ، وهى العلم المبنى على العقل والمنطق والاستدلال ، ورأى الغزالى بعلو همته وما فطر عليه من الجد والصرامة ، أنه لا يسوغ له الحكم عليها ، وبت الرأى فيها ، حتى يكتنهها ، ويحيط بمقاصدها وكلياتها حتى يساوى أعلم الناس فى هذا الموضوع ، وأن لا يعتمد فى ذلك على ما قال عنها خصومها والهاجمون عليها بل على ما دونه الثقات منهم والمدافعون عنهم ، فأقبل يدرس الفلسفة فى جد واخلاص ونهم وشغف ؛ حتى وصل إلى أقصى ما يصل اليه عالم يتوفر على دراسة الفلسفة ويتعمق فيها ، وكان أول عالم دينى فعل ذلك فى عصره ، ونسمعه الآن وهو يتحدث عن دراسته للفلسفة :

« ثم انى ابتدأت ، بعد الفراغ من علم الكلام ، بعلم الفلسفة ، وعلمت يقينا ، أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعلمهم

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٢ .

فى أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ؛ فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة ، وإذ ذاك ، يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقا ، ولم أر أحداً من علماء الاسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك » .

« ولم يكن فى كتب « المتكلمين » من كلامهم - حيث اشتغلوا بالرد عليهم - الا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد ، لا يظن الاغترار بها بعقل عامى ، فضلا عمن يدعى دقائق العلوم : فعلمت أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه ، رد فى عماية : فشمرت عن ساق الجد فى تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة باستاذ ، وأقبلت على ذلك فى أوقات فراغى من التصنيف والتدريس فى العلوم الشرعية ، وأنا ممنو بالتدريس والإفادة لثلاثمائة نفس من الطلبة ببغداد ؛ فاطلعنى الله سبحانه وتعالى بمجرد المطالعة فى هذه الأوقات المختلسة على منتهى علومهم فى أقل من سنتين ، ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه ، بعد فهمه ، قريبا من سنة ، أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره » (١) .

وبعد هذه الدراسة الشاملة العميقة التى أخلص فيها كل الاخلاص ، وجد فيها كل الجد، يئس الغزالى من الفلسفة أيضاً ، ولكنه لم يستعجل ولم يسرع فى ابداء رأيه شأن كثير من علماء الدين فى عصره وفى غير عصره ، ولم يظلم الفلسفة ، ولم يشملها باللعن والتكفير ، شأن كثير من الفقهاء ورجال الفتوى ، بل تناولها بالتحليل والتقسيم ، وذكر أصناف الفلاسفة وأقسامهم ، وذكر ما لهم وما عليهم ، وما يمس الدين من آرائهم وبحوثهم ويتصل به ، وما لا يمسه ولا يتصل به ، وما يستحقون به التكفير . وما ليس من الدين فى قليل ولا كثير ، وهو أول عالم دينى يقوم بهذا التحليل العلمى ، ويتثبت هذا التثبت ، ويعرف تاريخ الفلسفة ، ويعرف طبقات رجالها ومدونيها . وأول عالم دينى ينصف علومهم التجريبية النافعة ، ويعترف بصحة بعضها وافادة هذه العلوم .

يقسم علومهم إلى ستة أقسام : (١) رياضية (٢) منطقية (٣) طبيعية (٤) الهية (٥)سياسية (٦) وخلقية ، ويقول عن الرياضية :

« وأما الرياضية ، فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيأة العالم ، وليس يتعلق بشئ منها بالأمور الدينية نفيا واثباتا ؛ بل هى أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها » (٢) .

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٨٤ - ٨٥ .

(٢) المنقذ من الضلال ص ٩٠ .

وهذا رأى متوازن يدل على سلامــة التفكير وسعة الأفق ، ويزيد فى قيــمة كل ما يقول هذا الرجل فى نقــد الفلسفــة : ولكن الغزالى لا يقتــصــر على الاعتــراف بصحــة العلوم الرياضية ؛ بل يذكر مــا تولد منها من الآفات - من غير قصــد - يرى تأثيرها فى المجتمع الاسلامى المعاصر .

يقول - وهو يذكر الآفة الأولى - :

« الأولى من ينظر فيها ويتعجب من دقايقهــا ، ومن ظهور براهينها ، فيحسن - بسبب ذلك - اعتقاده فى الفلاسفة ؛ فيــحسب أن جميع علومهم فى الوضوح وفى وثاقه البرهان كهذا العلم ، ثم يكون قــد سمع كفرهــم وتعطيلهم وتهاونهم بالشــرع ما تداولته الألــسنة ، فيكــفر بالتقلــيد المحض . » ويقول : « لــو كان الدين حقــا ، لما اختــفى على هؤلاء مع تدقيقهم فى هذا العلم ؛ فاذا عرف بالتسامع كفرهــم وجحدهم ؛ فيستدل على أن الحق هو الجحد والانكار للدين » [1].

وكأنه يصور - وهو يذكر تأثير العلوم الرياضية ورد فعلهــا فى كثير من ضعاف العقول والمتكايسين فى عصره - عــقلية النشء الجديد ، وكثير من المتعلمــين فى القرن العشرين ، الذين خضعوا لبــراعة الأوربيين فى العلوم الطبيعية والاختــراعات ، ورأوا ما هم عليه من الالحــاد وزندقة وتفــسخ خلقى ؛ فظــنوا أنه الطريق الأقوم ، وقــلدوهم فيــه . اســمعــوه يقول-وكــأنه فى هذا العصــر ، ويتحــدث عن هذا الطراز - : « وكم رأيت من يضل عن الحق بهذا القدر ولا مستند له ســواه ! وإذا قيل له : الحاذق فى صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقا فى كل صناعة ؛ فلا يلزم أن يكون الحاذق فى الفقه والكلام حاذقا فى الطب، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلا بالنحو ؛ بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق ، وإن كــان الحمق والجهل قد يلزمــهم فى غيرها ؛ فكلام الزوائل فى الرياضــيات برهانى ، وفى الالهيات تخــمينى ، لا يعرف ذلك الا من جربه وخاض فــيه ؛ فهذا - إذا قرر على هذا الذى اتخــذ بالتقليد - لم يقع منه مــوقع القبول ؛ بل تحمله غلبــة الهوى ، وشــهــوة البطــالة ، وحب التكايس ، على أن يــصــر على تحــسين الظن بهــم فى العلوم كلها» [2].

وبعد ما ذكر الرياضيات تكلم عن المنطقيات فيقول :

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٩٠ - ٩١ .

(٢) المنقذ من الضلال ص٩١ .

« لا يتعلق شئ منها بالدين نفيا واثباتا ؛ بل هو النظر فى طرق الأداة والمقاييس ، وشروط مقدمات البرهان ، وكبقية تركيبها ، وشروط الحد الصحيح ، وكيفية ترتيبه ، وأن العلم اما تصور ، وسبيل معرفته الحد ، وأما تصديق ، وسبيل معرفته البرهان ، وليس فى هذا ما ينبغى أن ينكر ؛ بل هو جنس ما ذكره المتكلمون ، وأهل النظر فى الأدلة » وإنما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات ، وبزيادة الاستقصاء فى التعريفات والتشعيبات» [1] .

وهكذا يقول عن علم الطبيعيات ، فبعد ما يشرحه يقول :

« وكما ليس من شرط الدين انكار علم الطب ؛ فليس من شرطه أيضا انكار ذلك العلم الا فى مسائل معينة ذكرناها فى كتاب « تهافت الفلاسفة » [2]. ويقول :

« أما السياسات ، فجميع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية ، والايالة السلطانية ، وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء » [3].

ويقول : « أما الخلقية . فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها وذكر أجناسها وأنواعها ، وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، وإنما أخذوها من كلام الصوفية . . ولقد كان فى عصرهم ؛ بل كان فى كل عصر جماعة من المتألهين » [4].

وبعد ما ذكر هذه العلوم التى لا تتصادم مع الدين الاسلامى الا فى النادر ذكر الغزالى العلم الذى تركز فيه الصراع بين الاسلام والفلسفة ، وهو علم الالهيات . يقول :

« وأما الالهيات ففيها أكثر أغاليطهم ؛ فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه فى المنطق ؛ ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها »[5] .

وبعد ما نظر الغزالى فى جميع هذه العلوم نظرة عميقة واسعة ، ودرسها دراسة متخصص متوسع ، يئس من أن ينال بغيته فى هذه العلوم . يقول :

« ثم انى لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه ، وتزييف ما يزيف منه علمت أن ذلك أيضا غير واف بكمال الغرض . وأن العقل ليس مستقلا بالاحاطة بجميع المطالب ،

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٩٣ - ٩٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٤) المصدر السابق ص ١٠٠ .

(٥) (المنقذ من الضلال) ص ٩٨ .

ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات »[١] .

اختبار للباطنية ويأس الغزالى منها :

وهنا أقبل إلى الباطنية التى عظم شأنها فى عصره واستهووا كثيرا من الشبان ومن طلبة العلم . فأقبل اليهم الغزالى : لأنه ضعفت ثقته بالعقل والدليل . وكان الباطنية يزعمون أنهم يأخذون علمهم من الامام المعصوم القائم بالحق . وهو مصدر العلم الذى يصح الاعتماد عليه والثقة به ؛ فكان طبيعيا أن يلجأ اليهم الغزالى ويجربهم – وقد يئس من الفلسفة – وقد قام بهذه التجربة . ودرس العقائد الباطنية وعلومهم ودراستهم للفلسفة وفروعها . وانتهى إلى نفس النتيجة . ندعه يتحدث عن تجربته الجديدة[٢] :

« وكان قد نبغت نابغة التعليمية وشاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الامام المعصوم القائم بالحق ، عن لى أن أبحث عن مقالاتهم ، لأطلع على ما فى كتبهم ، ثم اتفق أن ورد على أمر جازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم ، فلم يسعنى مدافعته ، وصار ذلك مستحثا من خارج ضميمة للباعث الأصلى من الباطن ، فابتدأت بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم ، وكان قد بلغنى بعض كلماتهم المستحدثة التى ولدتها خواطر أهل العصر ، لا على المنهاج المعهود من سلفهم ، فجمعت تلك الكلمات ، ورتبتها ترتيبا محكما مقارنا للتحقيق ، واستوفيت الجواب عنها »[٣] .
«والمقصود أنى قررت شبهتم إلى أقصى الامكان ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان »[٤] .

وقد اقتنع أخيرا بأنه « لا حاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم ، ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل ، لما انتهت تلك البدعة – مع ضعفها – إلى هذه الدرجة »[٥] .

« ان هؤلاء ليس معهم شئ من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء ، بل مع عجزهم عن اقامة البرهان على تعيين الامام طالما ما جاريناهم ، فصدقناهم فى الحاجة إلى التعليم ؛ وإلى المعلم المعصوم ، وانه الذى عينوه ، ثم سألناهم عن العلم الذى تعلموه من هذا المعصوم ، وعرضنا عليهم اشكالات فم يفهموها فضلا عن القيام بحلها ، فلما عجزوا

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٨ – ١٠٩ .
(٢) المصدر السابق ص ١٠٩ .
(٣) (المنقذ من الضلال) ص ١٠٩ .
(٤) المصدر السابق ص ١١١ .
(٥) المصدر السابق ص ١١١ .

أحالوا على الامام الغائب ، وقالوا : أنه لا بد من السفر اليه ، والعجب أنهم ضيعوا عمرهم فى طلب المعلم وفى التبجح بالظفر به ، ولم يتعلموا منه شيئا أصلا ، كالمتضمخ بالنجاسة يتعب فى طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله ، وبقى متضخما بالخبائث » (١).

« ومنهم من ادعى شيئا من علمهم فكان حاصل ما ذكره شيئا من ركيك فلسفة فيثاغورس ، وهو رجل من قدماء الأوائل ، ومذهبه أرك مذاهب الفلسفة ، وقد رد عليه أرسطاطاليس : بل استرك كلامه واسترذله ، وهو المحكى فى كتاب « اخوان الصفا » وهو- على التحقيق - حشو الفلسفة .

فالعجب ممن يتعب طوال العمر فى طلب العلم ، ثم يقنع بمثل ذلك العلم الركيك المستغث ، ويظن بأنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم ! فهؤلاء أيضا جربناهم وسبرنا ظاهرهم وباطنهم ؛ فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلم ، وجادلتهم فى انكارهم الحاجة إلى التعليم بكلام قوى مفحم ؛ حتى إذا ساعدهم على الحاجة إلى المعلم مساعد . وقال : « هات علمه ! وأفدنا من تعليمه ! . وقف وقال : «الآن إذا سلمت لى هذا فأطلبه ، فإنما غرضى هذا القدر فقط » إذا علم أنه لو زاد على ذلك ، لافتضح ولعجز عن حل أدنى الاشكالات بل عجز عن فهمه ، فضلا عن جوابه».

« فهذه حقيقة حالهم ، فأخبرهم تقلهم فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضا » (٢) .

إلى التصوف :

وهنالك أقبل الغزالى إلى التصوف ، وهو أمله الأخير فى الحصول على السعادة واليقين، ونتركه يكمل الحديث ، ويرسل النفس على سجيتها :

« ثم انى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، وحتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليه بذكر الله » .

وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم « مثل قوت القلوب » لأبى طالب المكى - رحمه الله - وكتب « الحارث المحاسبى » والمتفرقات

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٠ .

(٢) المنقذ من الضلال ص ١٢٠ - ١٢١ .

المأثورة عن « الجنيد » و « الشبلى » و « أبى يزيد البسطامى » - قدس الله أرواحهم - وغير ذلك من كلام مشائخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لى أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات »[1].

وبعد ما يشرح الفرق بين العلم والحال ، ويضرب لذلك الأمثال ، يقول : « فعلمت يقينا أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال ، وإن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق الا ما لا سبيل اليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك »[2] .

وهنالك يشعر الغزالى - بفطرته السليمة ومحاسبته الدقيقة - بنقص فيه ، وبعد عن الحقيقة والحال ، وعن مقام الاخلاص ، ويشعر بالخطر المحدق به لو استمر على هذه الحال، وهذا الشعور هو الذى يمتاز به الغزالى من عالم آخر كبير ،وعن مدرس موفق تهيأت له أسباب النبوغ والمجد ، وخضعت له الأوساط العلمية فى عصره ، وذلك الشعور هو الذى رفعه فوق مستوى عصره ، وخلده فى التاريخ ، يقول فى صراحة وقوة يمثل ما كان يعتوره من صراع نفسى :

« وكان قد ظهر عندى أنه لا مطمع لى فى سعادة الآخرة الا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافى عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق .

« ثم لاحظت أحوالى ، فاذا أنا منغمس فى العلائق ، وقد أحدقت بى من الجوانب ، ولاحظت أعمالى - وأحسنها التدريس والتعليم - فاذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة » .

« ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس ، فاذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت إنى على شفا جرف هار ، وانى قد أشفيت على النار ، إن لم اشتغل بتلافى الأحوال »[3] .

---

(١) المنقذ من الضلال ص١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٦ .

(٣) المنقذ من الضلال ص ١٢٦ - ١٢٨ .

ثم يذكر حالة التردد والاصطراع النفسى التى بقى فيها مدة ، وصور حالته النفسية تصويرا بارعا :

« فلم أزل أتفكر فيه مدة - وأنا بعد على مقام الاختيار - أصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوما ، وأحل العزم يوما ، وأقدم فيه رجلا ، وأؤخر عنه أخرى ، لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة ، الا وتحمل عليها جند الشهوة حملة ، فتفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام . ومنادى الايمان ينادي: الرحيل ! فلم يبق من العمر الا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ، فان لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟ فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار » .

« ثم يعود الشيطان ويقول : « هذه حالة عارضة إياك أن تطاوعها ، فانها سريعة الزوال، فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمن المسلم الصافى عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت اليه نفسك ، ولا يتيسر لك المعاودة » (١) .

الغزالى يغادر بغداد :

ثم يذكر كيف غلب على أمره ، وأفلت الزمام من يده وانتقل من الاختيار إلى الاضطرار ، حتى سهلت عليه مفارقة الأهل والدار ، ونفض اليد من الجاه والاعتبار ، وخرج من بغداد يطلب السعادة الروحية والمعرفة الحقيقية ، حتى أكرمه الله بها ، ولنستمع اليه فهو فى نهاية المطاف :

« فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا من ستة أشهر ، أولها رجب ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا تطيبا لقلوب المختلفة إلى ، فكان لا ينطق لسانى بكلمة واحدة ، ولا أستطيعها البتة ، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لى ثريد ، ولا تنهضم لى لقمة ، وتعدى إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا : « هذا أمر نزل بالقلب

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٧ - ١٢٨ .

ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل اليه بالعلاج الا أن يروح السر عن الهم الملم » .

« ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى « يجيب المضطر إذا دعاه » وسهل على قلبى الاعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب ، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام ، حذرا أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمى فى المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد على عزم ألا أعاودها أبدا ، واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الأعراض عما كنت فيه سببا دينيا ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم » .

« ثم ارتبك الناس فى الاستنباطات ، وظن من بعد عن العراق أن ذلك كان ؛ لاستشعار من جهة الولاة ، واما من قرب الولاة ، وكان يشاهد الحاحهم فى التعلق بى ، والانكباب على ، واعراضى عنهم وعن الالتفات إلى قولهم؛ فيقولون : هذا أمر سماوى، وليس له سبب الا عين أصابت أهل الاسلام وزمرة العلم .

« ففارقت بغداد ، وفرقت ما كان معى من المال ، ولم أدخر الا قدر الكفاف وقوت الأطفال ؛ ترخصا بأن مال العراق مرصد للمصالح ، لكونه وقفا على المسلمين ، فلم أر فى العالم مالا يأخذه العالم لعياله أصلح منه » .

« ثم أدخلت الشام وأقمت به قريبا من سنتين ، لا شغل لى الا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ، اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما حصلته من علم الصوفية ، فكنت أعتكف مدة فى مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طوال النهار ، وأغلق بابها على نفسى » .

« ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسي، ثم تحركت فى داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام . بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه فسرت إلى الحجاز » .

« ثم جذبتنى الهمم ، ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع اليه ، فأثرت العزلة به أيضا ، حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر » .

« وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعاش ، تغير فى وجه المراد، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو لى الحال الا فى أوقات مختلفة ، لكنى مع ذلك لا

أقطع طمعي منها فتدفعني عنها العوائق وأعود اليها »[1].

الاستقرار على طريق الصوفية :

وهنا يذكر الغـزالى الغاية التى وصل اليـها ، والنتيـجة التى اقتنع بـها فى هذه الرحلة الشاقة ، والتأملات العميقة الكثيرة ، والبحث المضنى :

« ودمت على ذلك مـقدار عشـر سنين ، وانكشفت لى فى أثناء هـذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ، والقـدر الذى أذكره ينتفع به . انى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطـريق الله تعالى خاصـة ، وان سيرتهم أحـسن السير ، وطريقـهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ؛ بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلمـاء ؛ ليغيروا شيئا من سيـرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خيـر منه ، لم يجـدوا اليه سبـيلا ؛ فـان جمـيع حركـاتهم وسكناتهم ، فى ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به »[2] .

من الخلوة إلى الجلوة :

وكان ممكنا ، بل كان من المتوقع ،أن يبقى الغزالى فـى خلوته يتمتع بما هو فيه من نعيم ولذة روحية وصـفاء نفس ، ويقتـصر على ما التزمـه من عبادات وأوراد وأشغـال بخاصة النفس ؛ ولكن الغزالـى لم يخلق ليعيش وحـده ، ولم تودع فيه هذه المواهب العظيـمة ، ولم يلهم دراسة هذه العلوم الكثيـرة ، ولم يرزق الاقتدار عليها ؛ ليكون متـعبدا ، منطويا على نفسه ، معتزلا فى بيته . وكـان الاسلام فى حاجة إلى من ينتصر له من الفلسفة التى تجاسـرت عليه ، وتسـلطت على عقـول الناس ، وقد أصـيب المجتـمع الاسلامى بفـساد الأخلاق ، وشلل فـى الفكر ، وجمود فى العـلم ؛ فكان فى حاجة إلى مـن يحارب هذا الفـساد ، ويوقظ الفكر ، ويـبعث العلم ، وكـان الغزالـى أجدر الناس بالاضطلاع بهـذه الخدمة العظيـمة ؛ فقد تهيأ لهـا علميا وفكريا وعمليا ، وقد صـرح بذلك فى غير تواضع وفى غير أنانية فقال :

« رأيت نفسى مطالبة بكشف هذه الشبهة ، حتى كان فضح هؤلاء أيسر عندى من شربة

---

(١) المنقذ من الضلال ص ١٢٨ - ١٣١ .

(٢) المنقذ من الضلال ص ١٣١ - ١٣٢ .

ماء ؛ لكثرة خوضى فى علومهم وطرقهم أعنى طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء »[1].

وهنا اعترضت له حالة التردد مثل الأولى ، هل يبقى فى العزلة أم يخرج إلى الميدان ؟ حتى ساقه سائق التوفيق إلى البروز ، وتهيأت له الأساليب ، يقول :

« انقدح فى نفسى أن ذلك (محاربة الفساد ، والرد على الفلاسفة والباطنية) متعين فى هذا الوقت محتوم ، فماذا تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداء ، ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك ؟ ثم قلت فى نفسى : متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ، ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل ؟ ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق ، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم ، وأنى تقاومهم ؟ فكيف تعايشهم ؟ ولا يتم ذلك الا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر .

« فترخصت بينى وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة ، وتعللا بالعجز عن اظهار الحق بالحجة ، فقدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه لا بتحريك من خارج ، فأمر أمر الزام بالنهوض إلى نيسابور ، لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الالزام حدا كان ينتهى ، لو أصررت على الخلاف إلى حد الوحشة ، فخطر لى أن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغى أن يكون باعثك على ملازمة العزلة والكسل والاستراحة وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ، ولم ترخص نفسك لعسر معافاة الخلق ، والله تعالى يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم ، ﴿ **الم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم** ﴾ [2] الآية ، ويقول عز وجل لرسوله ، وهو أعز خلقه :

﴿ **ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا ، وأوذوا ، حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين** ﴾ [3].

ويقول عز وجل : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **يس والقرآن الحكيم . . . إلى قوله : إنما تنذر من اتبع الذكر** ﴾ فشاورت فى ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات ،

---

(١) المنقذ من الضلال ص ١٥٠ .

(٢) سورة العنكبوت .

(٣) سورة الانعام .

فاتفقـوا على الاشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاويـة ، وانضاف إلى ذلك منامات إلى الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بأن هذه الحركـة مبدأ خير ورشد ، قدرها الله سبحانه على رأس هذه المائة ، وقد وعد الله سبحانه باحياء دينه على رأس كل مائة ، فاستحكم الرجاء، وغلب حسن ظن بسبب هذه الشهادات ، ويسر الله تعالى الحركة إلى نيسابور ، للقيام بهذا المهم فى ذى القعدة ، سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وكان الخروج من بغداد فى ذى القعدة ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وبلغت العزلة إحـدى عشر سنة ، وهذه حركة قدرها الله تعالى ، وهى من عـجائب تقديـراته التى لم يكن لها انقداح فى القـلـب فى هذه العزلة ، كـمـا لم يـكن الخـروج من بغـداد والنـزوع عـن تلك الأحـوال مما خطر امـكانـه أصـلا بالبـال، والله تعـالى مـقلب القلب والأحـوال و « قـلب المـؤمن بين اصـبعين مـن اصـابع الرحمن » [١] .

الفرق بين الحالتين :

لقد خرج الغزالى من عزلتـه ، وبدأ يزاول عمله من تدريس وتأليف ودعوة واصلاح ، ولكن شتـان بين الحالتين ، لقد كـان فى الأولى - قبل أن يخرج من بغـداد - يفعل ذلك عادة ، أو بـحكم الوظيفـة ، أو بدافع من النفس « فأصـبح الآن يقوم به بأمـر من الله ، متجردا من طلب الجاه وحظوظ النفس ، وقد شرح الفرق بين الحالتين ، فقال :

« وأنا أعلم أنى - وان رجعت إلى نشر العلم - ما رجـعت : فان الرجوع عود إلى ما كـان ، وكنت فى ذلك الزمـان أنشـر العلم الذى به يكسـب الجاه ، وأدعـو اليـه بقـولى وعملي، وكـان ذلك قصدى ونيتى ، وأمـا الآن ، فأدعو إلى العلم الذى به يتـرك الجاه ، هذا هو الآن نيـتى وقصـدى وأمنيـتى ، يعلم الله ذلك منى ، وأنا أبغى أن أصلح نفـسى وغيرى ، ولست أدرى أأصل إلى مرادى ، أم أختـرم دون غرضى ؟ ولكن أؤمن ايمان يقين ومشاهدة ، أنه لا حول ولا قـوة الا بالله العلى العظيم ، وانى لم أتحرك : لكنه حركنى ، وانى لم أعمل ؛ لكنه استعملنى ؛ فأسأله أن يصلحنى أولا . ثم يصلح بى ويهدينى ، ثم يهدى بى ،وأن يرينى الحق حقا ويرزقنى اتباعه ،ويرينى الباطل باطلا ويرزقنى اجتنابه»[٢] .

بقية حياته :

تولى الغزالى رئاسـة المدرسة النظامية بنيـسابور ، عام ٤٩٩ هـ ، وكان ذلك فـى عهد

---

(١) المنقذ من الضلال ص ١٥١ - ١٥٣ .

(٢) المنقذ من الضلال ص ١٥٣ - ١٥٤ .

«سنجر السلجوقى » ، ابن ملك شاه ، ووزارة فخر الملك، ابن نظام الملك ، الطوسى ، وقد اغتيل « فخر الملك » بيد باطنى ، سنة ٥٠٠ هـ ، واعتزل الغزالى التدريس على أثر هذه الحادثة ، وأقام ببلده طوس ، وبنى مدرسة وزاوية بجوار بيته ، وعكف على التعليم والتربية .

ولما استوزر السلطان محمد بن ملك شاه أحمد بن نظام الملك ، سنة ٥٠٠ هـ ، طلب الوزير من الغزالى الرجوع إلى بغداد ، وكان محله فى المدرسة النظامية لم يسده من يماثل الغزالى ، وكانت المدرسة مما تتباهى به الخلافة العباسية وتتجمل به بغداد ، فبدت الرغبة من الخلافة فى أن يرجع الغزالى إلى النظامية . وكتب الوزير قوام الدين نظام الملك ، رسالة خاصة إلى الغزالى يذكر فيها مكانة النظامية ومركزها فى العالم الاسلامى ، وحرص الخليفة على رجوع الغزالى ، وكانت عليها توقيعات أركان دار الخلافة ، ولكن الغزالى اعتذر ، وبقى فى طوس يدرس ويفيد ويربى الطالبين .

وقضى الغزالى بقية أيامه فى الاشتغال بالدين والعلم . وكان لا يزال فيه الروح العلمية قوية وفتية ، فلم ينقطع عن التأليف والانتاج ، وقد ألف كتاب « المستصفى » الذى يعد من أركان أصول الفقه الثلاثة [١] فى سنة ٥٠٤ ، يعنى قبل وفاته بعام .

وكان الغزالى لم يتوفى على دراسة الحديث ، فأقبل عليه فى أواخر أيامه ، واستدعى أبا الفتيان ، عمر بن أبى الحسن الرواسى الحافظ الطوسى ، وأكرمه وسمع عليه صحيحى البخارى ومسلم [٢] فقال عبد الغافر الفارسى : وكانت خاتمة أمره اقباله على حديث المصطفى ﷺ ، ومجالسة أهله ، ومطالعة الصحيحين البخارى ومسلم اللذين هما حجة الاسلام [٣] .

وفاته :

وانتقل إلى رحمته تعالى يوم الاثنين ، الرابع عشر من جمادى الآخرة ، سنة خمس وخمسمائة ، ودفن بظاهر قصبة طابران .

وقد حكى ابن الجوزى عن أخيه أحمد قصة وفاته ، قال : « لما كان يوم الاثنين وقت

---

(١) وهى المعتمد (لأبى الحسين البصرى) و « البرهان » لامام الحرمين و « المستصفى » للغزالى .
(٢) طبقات الشافعية الكبرى ص ١١ . ج ٤ .
(٣) تبيين كذب المفترى ص ٣٩٦ وطبقات الشافعية الكبرى ج ٤ ص ١٠٩ .

الصبح ، توضــأ أخى وصلى وقال : على بالكفن ! فـأخذه وقبلـه ووضعه على عـينيه ، وقال: سمعا وطاعة للدخول على الملك ، ثم مـد رجليه ، واستقبل ، وانتقل إلى رضوان الله تعالى »[1] .

لقد رأينا كيف تهـيأ الغزالى - بعد الدراسات المتنوعـة العميقة الواسـعة ، والمجاهدات الشاقـة الطويلة ، وبعد الانتـهاء إلى معـرفة الحق واليقـين ، والوصول إلى مقـام الصدق والاخلاص - لأن يقـوم بدوره فى تاريخ الاصلاح والتجـديد ، وأن يؤدى رسالته كـعالم وناقد ومـصلح ومتكلم وداع ، فلنر مقـدار انتاجه ! ولنر مـدى تأثيره فى الأمة والمجـتمع والعلوم والأفكار ! وموعدنا الفصول التالية ، ان شاء الله .

(١) اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار احيـاء علوم الدين للسيد مرتضى الزبيدى البلكرامى ج ١ ص ١١ نقلا عن كتاب « الثبات عند الممات » ، لابن الجوزى رحمه الله .

حجة الإسلام الغزالى
ناقد للفلسفة ومتكلم

نقسم عمل الغزالى وانتاجه وتجديده فى ناحيتين رئيسيتين :

الأولى : نقده للفلسفة ومناقشته لها ، وتجديده لعلم الكلام الذى فقد جدته وحياته .

والثانية : الحسبة على المجتمع الاسلامى المعاصر ، والدعوة إلى الأخلاق الاسلامية ، والروح ، والتحلى بالحقائق . ونتناول الناحية الأولى بالبحث فى هذه المحاضرة .

يمتاز الغزالى عن كل من سبقه فى محاربة الفلسفة ، أنهم اتخذوا موقف الدفاع عن الاسلام وعقائده ، والاعتذار عن الدين الاسلامى ، فكانت الفلسفة تهاجم الاسلام ، وهؤلاء يدافعون عن الاسلام ، وينفون التهم الموجهة إليه ، ويحاولون أن يبرروا موقفه ، ويلتمسوا العذر لعقائده ونظرياته ، فكأن علم الكلام كان جنة تلتقى هجمات الفلسفة وتحصن العقيدة الاسلامية ، ولم يجترىء أحد من المتكلمين أن يهاجم الفلسفة ويغزوها فى عقر دارها ؛ لعدم تعمقهم فى الفلسفة وتضلعهم من أصولها وفروعها ؛ ولعدم تسلحهم بالأسلحة التى يواجهون بها الفلسفة ويوسعونها جرحاً ونقداً ؛ فكان موقفهم موقف الدفاع عن قضية ، وموقف الدفاع دائماً ضعيف ، غايته أن يسامح المتهم ويعفى عنه .

أما الغزالى ، فقد هاجم الفلسفة وتناولها بالفحص والنقد وهجم عليها هجوماً عنيفا مبنيا على الدراسة والبحث العلمى ، وحجة مثل حجة الفلسفة ، وعقل مثل عقل الفلاسفة الكبار ومدونى الفلسفة إلى أن تقف موقف المتهم ، وألجأ ممثليها إلى أن يقفوا موقف المدافعين ؛ فكان تطوراً عظيماً فى موقف الدين والفلسفة ، وكان انتصاراً عظيماً للعقيدة الاسلامية عادت به الثقة إلى نفوس أتباعها والمؤمنين بها ، زالت عنهم مهابة الفلسفة وسيطرتها العلمية .

خطة الغزالى فى نقد الفلسفة :

ولم يتهور الغزالى فى الهجوم على الفلسفة ، ولم يكن فيه مقلداً لغيره ولا ضيق التفكير ، أنه درس الفلسفة أولا كما حكى هو بنفسه فى المنقذ من الضلال ونقلنا عنه فى المحاضرة الأولى ، وكان يؤمن بأنه « لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعلمهم فى أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ، فجد واجتهد فى دراستها ، ومعرفة حقيقتها وأغوارها ، حتى اطلع على منتهى

علومهم . ثم لم يستعجل كذلك ، ولم يبدأ بالهجوم ، بل رأى أن المباحث الفلسفية لا تزال غامضة معقدة ليست فى متناول الأوساط من الناس ، وإن الكتب الفلسفية قد ألفت فى لغة رمزية وفى أسلوب غير واضح ، وكأن مؤلفيها قد تعمدوا ذلك ، ليقيموا سياجا حول الفلسفة يحوطها من تناول العامة ، أو لم يكونوا يحسنون التأليف ، فرأى أن يؤلف كتاباً يذكر فيه المباحث الفلسفية ، ونظريات الفلسفة ومسائلها فى لغة سهلة واضحة ، وفى أسلوب مشرق وقد رزق الغزالى قدرة عجيبة فى تبسيط المسائل العلمية وايضاحها فكسر ذلك السياج ، ورفع الاحتكار العلمى ، وألف كتاب « مقاصد الفلاسفة » ذكر فيه المصطلحات الفلسفية والمباحث الفلسفية من غير تعليق ونقد ، وعرض الفسلفة كأحسن ما يعرفها رجال الفلسفة .

وبعد أن انتهى من هذا العمل - وكان بعده مقدمة لازمة لما تكفله من تزييف الفلسفة ، واسقاط قيمتها العلميـة - شرع فى عمله الثانى الذى استحق به أن يلقب حجة الاسلام ، وهو نقد الفلسفة والهجوم عليها .

ولم يكن فى هذه المرحلة الثانية أيضاً متهوراً أو جامداً يشمل الفلسفة كلها بفروعها وشعبها بالانكار ، ويطلق القول فى العلوم الرياضية والمنطقية والسياسية والخلقية ، وكل ما جاء عنهم فى العلوم الطبيعية ، فيغلطهم فيها ويكفرهم بها ، كما فعل كثير ممن تقدمه وكثير ممن عاصره ، فأثبتوا بذلك أنهم معاندون مكابرون وكان ضررهم بذلك أكبر من نفعهم ، ولم تكن لأقوالهم وكتابتهم قيمة علمية .

أما الغزالى فقد اعترف بكل صراحة ، أن القسم الكبير من هذه العلوم التى ذكرناها «ليس يتعلق شىء منه بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً ، بل هى أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها » [1] وانتقد أولئك الذين يرون أن انكار هذه العلوم وهذه الحقائق العلمية ، خدمة دينية ونصرة للاسلام ومحاربة للكفر والضلال ، فكان جهادهم فى غير عدو ، وكان جناية على الدين . يقول فى كتابه « المنقذ من الضلال » .

« الآفة الثانية ، نشأت من صديق للاسلام جاهل ، ظن الدين ينبغى أن ينصر بانكار كل علم منسوب ، فأنكر جميع علومهم ، وادعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قولهم فى الكسوف والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشك فى برهانه ، لكن اعتقد أن الاسلام مبنى على

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٩٠ .

الجهل ، وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حباً ، وللاسلام بغضاً . ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بانكاره هذه العلوم وليس فى الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفى والاثبات ، ولا فى هذه العلوم تعرض للأمور الدينية » .

وبعد النظر فى جميع فروع الفلسفة . والاعتراف بصحة بعضها وافادتها ، انتهى إلى أن الالهيات فيها أكثر أغاليطهم ، علله « بأنهم ما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه فى المنطق ؛ ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها » (١).

« الناظر المتأمل يشعر بأن السبب فى اصابتهم وتوفيقهم فى العلوم الرياضية والطبيعية ، وأغاليطهم وتناقضاتهم وتخيلاتهم فى الإلهيات ، هو أن العلوم الرياضية والطبيعية مثلاً لها مبادىء ومقدمات محسوسة عرفها الفلاسفة ، ومعلومات أولية توصلوا بمعرفتها إلى أمور مجهولة . أما الالهيات فبالعكس ، ليس فيها مبادىء ومقدمات ومحسوسات ومعلومات أولية يتوصلون بها إلى أشياء مجهولة ، وليس فيها أساس للقياس ﴿**ليس كمثله شىء وهو السميع البصير**﴾ لذلك كثرت فيها أغاليطهم وتخيلاتهم ، وجاءت فيها مجموع أوهام وقياسات وتخيلات وتخمينات ، وكان بطبيعة الحال مدعاة إلى خطأ تصوراتهم عن الأمور الغيبية التى لا تعرف إلا عن طريق الشرع المعصوم عن الخطأ .

تهافت الفلاسفة :

وفى الرد على هذه الفلسفة ألف الغزالى كتابه العظيم « تهافت الفلاسفة » وقد صدره بمقدمة بليغة واضحة ، ذكر فيها سبب التأليف ، وذكر تأثير الفلسفة فى أذهان الناشئة وكيف تدرج بهم الخضوع لبراعة الفلسفة فى العلوم الرياضية والمنطقية والطبيعية ، والايمان بذكائهم وعبقريتهم ، إلى التحلل من ربقة الاسلام ، لما رأوا أن هؤلاء - مع رزانة عقولهم وغزارة علمهم - منكرون للشرائع والنحل ، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل « فألحدوا وأنكروا الدين تطرفاً وتكايساً ، وعظمت الفتنة ، ومست الحاجة إلى تأليف كتاب يبين تهافت عقيدة فلاسفة اليونان ، وتناقض كلمتهم فى ما يتعلق بالالهيات . ويبين أن هذه المسائل التى يأخذها المقلدون كحقائق علمية ، وقضايا عقلية « هى - على التحقيق - مضاحك العقلاء ، وعبرة عند الأذكياء » وبين أنه لم يذهب إلى انكار الله واليوم الآخر شرذمة قليلة من ذوى العقول المنكوسة ، والآراء المعكوسة . ونحن ننقل هذه المقدمة ؛ إذ

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٩٢ .

فيها تصوير بارع لعقلية الملحدين فى كل زمان ومكان ، وتصوير بصفة خاصة للعصر الذى كان يعيش فيه ، ونعرف عظم الحاجة إلى تأليف هذا الكتاب وغنائه لنصرة الدين ، يقول:

« أما بعد ، فإنى قد رأيت طائفة يعتقدون فى أنفسهم عن الأتراب والنظراء بمزيد الفطنة والذكاء ، وقد رفضوا الاسلام من العبادات ، واستحقروا شعائر الدين من وظائف الصلوات ، والترقى عن المحظورات ، واستهانوا بتعهدات الشرع وحدوده ، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده ، بل خلعوا ربقه الدين بفنون من الظنون ، يتبعون فيها رهطاً يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون ، ولا مستند لكفرهم غير تقليد سماعى كتقليد اليهود والنصارى ، إذا جرى على غير دين الاسلام نشوءهم وأولادهم ، وعليه درج أباؤهم وأجدادهم ، وغير بحث نظرى صادر عن التعثر بأذيال الشبه الصارفة عن صوب الصواب ، والانخداع بالخيالات المزخرفة كلامع السراب ، كما اتفق لطوائف من النظار فى البحث عن العقائد والآراء من أهل البدع والأهواء .

وانما مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة : كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وأمثالهم ، واطناب طوائف من متبعيهم وضلالهم فى وصف عقولهم ، وحسن أصولهم ، ودقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والالهية ، واستبدادهم – لفرط الذكاء والفطنة – باستخراج تلك الأمور الخفية ، وحكايتهم عنهم أنهم – مع رزانة عقولهم ، وغزارة فضلهم- منكرون للشرائع والنحل ، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل ، ومعتقدون أنها نواميس مؤلفة وحيل مزخرفة .

فلما قرع ذلك سمعهم ، ووافق ما حكى من عقائدهم طبعهم ، تجملوا باعتقاد الكفر ؛ تحيزاً إلى غمار الفضلاء بزعمهم ؛ انخراطاً فى سلكهم ؛ وترفعاً عن مسايرة الجماهير والدهماء ؛ استكشافاً من القناعة بأديان الأباء ، ظنا بأن اظهار التكايس فى الورع عن تقليد الحق بالشروع فى تقليد الباطل جمال ، وغفلة منهم عن أن الانتقال إلى تقليد خرق وخبال، فأية رتبة فى عالم الله أخس من رتبة من يتجمل بترك الحق المعتقد تقليداً ، فيسارع إلى قبول الباطل تصديقاً دون أن يقبله خبراً وتحقيقاً وتسارع إلى قبول الباطل تصديقاً دون أن يقبله خبراً وتحقيقاً ، والبلة من العوام بمعزل عن فضيحة هذه المهواة ، فليس فى سجيتهم حب التكايس بالتشبه بذوى الضلالات ، فالبلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء ، والعمى أقرب إلى السلامة من بصيرة حولاء .

فلما رأيت هذا العرق من الحماقة نابضاً على هؤلاء الأغنياء ، انتدبت لتحرير هذا

الكتاب ، رداً على الفلاسفة القدماء ، مبيناً تهافت عقيدتهم ، وتناقض كلمتهم فى ما يتعلق بالالهيات ، وكاشفاً عن غوائل مذهبهم وعوراته التى هى - على التحقيق - مضاحك العقلاء ، وعبرة الأذكياء ، أعنى ما اختصوا به عن الجماهير والدهماء من فنون العقائد والآراء ، هذا مع حكاية مذهبهم على وجهه ؛ ليتبين هؤلاء الملاحدة تقليداً اتفاق كل مرموق من الأوائل والأواخر على الايمان بالله واليوم الآخر . وأن الاختلافات راجعة إلى تفاصيل خارجة عن هذين القطبين اللذين لأجلهما بعث الأنبياء المؤيدون بالمعجزات ، وأنه لم يذهب إلى انكارهم إلا شرذمة يسيرة من ذوى العقول المنكوسة ، والآراء المعكوسة الذين لا يؤبه لهم ، ولا يعبأ بهم فى ما بين النظار ، ولا يعدون إلا فى زمرة الشياطين الأشرار ، وغمار الأغنياء والأغمار ، ليكف عن غلوائه من يظن أن التجمل بالكفر تقليداً يدل على حسن رأيه ، ويشعر بفطنته وذكائه ، إذ يتحقق أن هؤلاء الذين يتشبه بهم من زعماء الفلاسفة ورؤسائهم ، براء مما عرفوا به من جحد الشرائع ، وأنهم يؤمنون بالله ، ومصدقون برسله ، وأنهم قد اختبطوا فى تفاصيل بعد هذه الأصول ، قد زلوا فيها ، فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ، ونحن نكشف عن فنون من خدعوا به من التخييل والأباطيل ، ونبين أن ليس كل تهويل وراءه تحصيل والله تعالى ولى التوفيق ، لإظهار ما قصدناه من التحقيق » (١) .

ويشرع الغزالى ، بعد أربع مقدمات ذكر فيها منهاجه ، فى البحث ، وشرح حال الفلاسفة ، وفرق علومهم التى تصادم الشريعة والتى لا تصادمها ، وناقش الفلاسفة فى شرائعهم ومقدماتهم للبحوث الالهية ، بعد هذا كله يشرع الغزالى فى بيان مسائل الفلاسفة ومناقشاتهم فى ذلك ، فى ضوء البحث العلمى والحجة العقلية ، وهى ست عشرة مسألة فى الالهيات ، وما بعد الطبيعيات ، وأربع فى الطبيعيات ، ويبين فيها ضعف استدلالهم وتناقضهم واختلافهم وتهافت عقيدتهم .

ميزة الكتاب :

ويتسم هذا الكتاب بقوة التعبير ، وسلامة العبارة ، وسهولة الاسلوب ، بخلاف عامة الكتب التى ألفت فى الموضوع ، ويدل على أن مؤلفه ممتلىء بالايمان والثقة بدينه ، والاعتداد بشخصيته وتفكيره ، ينظر إلى الفلاسفة القدماء كأقران وزملاء ورجال من مستواه العقلى والفكرى ، يناقشهم ويباحثهم بحرية واعتماد ، ويقرع الحجة بالحجة ، وكان

(١) تهافت الفلاسفة ص ٣١ - ٣٤ طبعة احياء الكتب العربية .

المسلمون فى حاجة شديدة إلى هذا الطراز من المؤلفين والباحثين الذى يواجه الفلسفة بإيمان، وثقة، وعقل حر، وشجاعة، ويكفر بعصمة الفلاسفة وقدسيتهم وعبقريتهم وكونهم فوق مستوى البشر فى العقل والتفكير، وبهذه الصفة يتجلى الغزالى فى كتابه تهافت الفلاسفة فجاء فى أوانه، وقضى حاجة زمانه.

ولا يقتصر الغزالى على مجابهة الفلسفة ومهاجمة الفلاسفة بالدليل؛ بل قد يبلغ إلى التهكم والنقد اللاذع، ولا شك أن لهما تأثيراً كبيراً فى مجتمع قد يكاد يؤخذ بسحر الفلسفة، وقد أصيب كثير من أفراده بمركب النقص، وخضع للفلسفة خضوعاً كاملاً، فجاء تهكم الغزالى ونقده اللاذع علاجاً لهذه لنفوس المريضة.

ومن أمثلة هذا التهكم والنقد اللاذع، تعليقه على ما قاله الفلاسفة فى الذات الالهية وصفاتها، وعلى ما صنفوه من نسب العقول والأفلاك، وكيف تولد بعضها من بعض. قال بعد ما ذكر هذا الهراء: « قلنا: ما ذكرتموه تحكمات، وهى - على التحقيق - ظلمات فوق ظلمات، لو حكاه الانسان عن منام رآه لاستدل على سوء مزاجه، أو لو أورد جنسه فى الفقهيات التى قصارى المطلب فيها تخمينات، لقيل انها ترهات لا تفيد غلبات الظنون »[1].

وقال فى موضع آخر: « لست أدرى، كيف يقنع المجنون من نفسه بمثل هذه الأوضاع، فضلاً عن العقلاء الذين يشقون الشعر بزعمهم فى المعقولات؟ »[2].

وعلق على بحثهم فى علم واجب الوجود، وأنه يعقل نفسه ولا يعقل غيره، بكلمته اللاذعة القوية، « فقد انتهى بهم التعمق فى الفطنة، إلى أن أبطلوا كل ما يفهم من العظمة، وقربوا حاله تعالى فى حال الميت الذى لا خبر له بما يجرى فى العالم، إلا أنه فارق الميت فى شعوره بنفسه فقط.

وهكذا يفعل الله سبحانه بالزائغين عن سبيله، والناكبين عن طريق الهدى، المنكرين لقوله تعالى ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ ﴿ الظانين بالله ظن السوء ﴾ المعتقدين أن أمور الربوبية، تستولى على كنهها القوى البشرية المغرورين بعقولهم، زاعمين أن فيها مندوحة عن تقليد الرسل - صلوات الله عليهم وسلامه - وأتباعهم - رضوان الله عليهم - فلا جرم اضطروا إلى الاعتراف بأن لباب معقولاتهم رجع

---

(١) تهافت الفلاسفة ص ١١٥.

(٢) تهافت الفلاسفة ص ١٢٤.

إلى ما لو حكى فى منام لتعجب منه » [1] .

وهكذا يستمر الغزالى فى نقد الفلسفة وتشريحها إلى آخر الكتاب ، حتى يأتى على جميع المسائل التى تكفل الرد عليها وهى عشرون مسألة ، أكثرها فى الالهيات ، وكفرهم فى ثلاث مسائل ، احداها : مسألة قدم العالم ، وقولهم أن الجواهر كلها قديمة . والثانية: قولهم ان الله تعالى لا يحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الاشخاص . والثالثة : انكارهم بعث الأجساد وحشرها . قال : « فهذه المسائل الثلاث ، لا تلائم الاسلام بوجه ، معتقدها معتقد كذب الأنبياء – صلوات الله عليهم وسلامه – وأنهم ذكروا ما ذكروه على سبيل المصلحة ؛ تمثيلاً لجماهير الخلق وتفهيماً ، وهذا هو الكفر الصراح الذى لم يعتقده أحد من فرق المسلمين ، [2] وتوقف فى تكفيرهم فى المسائل الآخرى .

تأثير الكتاب :

وليس أهمية الكتاب فى تكفير الفلاسفة ؛ بل أن غاية الكتاب هو اسقاط قيمة الفلسفة العلمية ، والحط من مكانتها ، واثبات أنها مجموع أفكار وتخيلات ، وقياسات وتخمينات. وبذلك خدم الغزالى الدين خدمة باهرة ، وخلف الفلسفة التى كانت تتقدم بخطى سريعة وواسعة ، وتسيطر على عقول الناشئة ، وتحل من نفوسهم محل القدسية والاجلال، خلفها الغزالى بضرباته الموجعة وهجماته العنيفة إلى الوراء ، أو وقفها على الأقل وشغلها بنفسها والدفاع عن نفسها ، ولم تستطع الأوساط الفلسفية أن تقدم كتاباً قوياً جديراً بالذكر يرد على تهافت الفلاسفة حتى جاء ابن رشد (م ٥٩٥) فى آخر القرن ، فألف كتابه « تهافت التهافت » يقول علماء الافرنج : « ان الغزالى طعن الفلسفة فى الشرق العربى طعنة قاضية ، ويكاد نصيبها فى الغرب كذلك ، لو لم تلق فى ابن رشد حامياً لها أحياها قرناً من الزمان » [3] .

رده على الباطنية :

ولم يقتصر الغزالى على الرد على الفلسفة : بل عنى كذلك بالرد على الباطنية التى تدرعت بالفلسفة ، وظهرت فى مظهر دينى وسياسى ؛ فكانت أشد خطراً على الاسلام من الفلسفة ؛ إذ كانت الفلسفة تعيش فى عزلة علمية ، وكانت قليلة الاتصال بالشعب

---

(١) المنقذ من الضلال ص ١١٨ .

(٢) المنقذ من الضلال ص ٣١٣ – ٣١٥ .

(٣) تاريخ فلاسفة الاسلام فى المشرق والمغرب ، تأليف محمد لطفى جمعه ص ٧٢ .

والجمهور ، وكانت ، كما يصف الاستاذ أحمد أمين « كالسفارات الأجنبية » لا شأن لها بالسياسة الداخلية والشؤون الاجتماعية ، ولا شأن لها بالجمهور .

أما الباطنية ، فكانت تتسرب إلى المجتمع وتنفث سمومها فيه ، وكانت لها الاغراءات المادية القوية ، ولم يكن فى العالم الاسلامى فى أخر القرن الخامس أحد اجدر بالرد عليها، والكشف عن أسرارها ، ونقض ما تبني عليه دعوتها من الغزالى لجمعه بين التضلع من الفلسفة والوقوف على لب التصوف وعلم الباطن ، ولاتصافه بالغوص فى حقائق الأشياء ، والتعمق فى العلوم ، وتلك بضاعة الباطنية التى تتجح بها ، وقد سبق أنه ألف - وهو مدرس فى المدرسة النظامية - كتاباً فى الرد على الباطنية ، باقتراح من الخليفة المستظهر بالله أسماه « المستظهرى » وقد ألف ثلاثة كتب فى الرد عليهم - ولعل ذلك بعد الرجوع من رحلته - وهى « حجة الحق » و « مفصل الخلاف » و « قاصم الباطنية » ذكرها فى كتابه « جواهر القرآن » ويوجد فى جريدة مؤلفاته كتاب آخر وهو « مواهم الباطنية»[١] .

علم الكلام :

لم يكن لمثل الغزالى - مع مواهبه العظيمة وعقله المبتكر ، وعلمه الذى لم يزل فى نمو مستمر - أن يكون ناقلاً لكلام المتكلمين المتقدمين ، أو يكون شارحاً له فحسب ، ولا تظهر شخصيته العلمية فى ما يكتب ويؤلف ويفكر .

لقد كان علم الكلام أحوج العلوم والمباحث إلى النمو والتطور ومسايرة العصر ، لأنه يتكفل الاقناع ودفع الشبهات ، والعقل الانسانى متطور ، والشبه والأسئلة تتجدد ، ولكل عصر تفكيره ومشاكله ، ولكنه جمد جمود العلوم النقلية ، وغلب عليه التقليد وأصبح يتناقل كرواية ، وأصبح المتكلمون الاشاعرة لا يطالبون بتسليم عقائدهم فقط ، بل يلحون على تسليم المقدمات والدلائل التى استدل بها الامام أبو الحسن الأشعرى ، والعلامة أبو بكر الباقلانى ، لاثبات هذه العقائد ، ويلحون على الاكتفاء بها ، ويعدون العدول عن مسلك الأشعرى قيد شعرة ؛ حتى العدول عن المقدمات التى أقامها علماء الأشاعرة ، ضرباً من البدع والانحراف عن الصراط المستقيم .

---

(١) لم يطبع من كتبه فى الرد على الباطنية ، إلا فضائل المستظهرية ، وهو المعروف بالمستظهرى . نشر منه (كولد تسيهر) قسما كبيراً . وبحث فيه بحث طويلاً باللغة الألمانية ، طبع فى ليدن ١٩١٦ مع المتن العربى ، أما الكتب الأخيرة فمفقودة . كما يظهر من مقدمات « المنقذ من الضلال للاستاذين جميل صليبا وكامل عياد .

لم يخضع الغزالى لهذا التفكير ولهذا التقليد فى علم الكلام واثبات عقيدة الاسلام ، وتكلم فى مؤلفاته العظيمة عن عقائد الاسلام والمباحث الكلامية كلام مجتهد ، كلام وارع يعرف عقلية أهل عصره ، ويعرف من أين يدخل إلى عقولهم وقلوبهم ، وأقام على هذه الحقائق مقدمات ودلائل جديدة .

وجاء فى كلامه فى صفات الله تعالى ، ومعجزات الأنبياء ، والتكليفات الشرعية ، واثبات العذاب والثواب ، والبرزخ والمعاد ، والجبر والاختيار ، والقضاء والقدر ، بمقدمات وأمثلة ، تورث الأذعان ، وتفتح القلب للإيمان ، ولم يسبق إليها ، وعدل عن تشكيكات المتكلمين ، ومقدماتهم المنطقية إلى اسلوب واضح مشرق يسيغه العامة وأوساط الناس ، ولا يناقشه الخاصة والعلماء ولم يلتزم تقليد الأشعرى وأتباعه فى الكلام التقليد المطبق ؛ بل عدل عنه فى مسائل قليلة ؛ وبذلك قام بدور التجديد فى علم الكلام الذى عجز فى الدور الأخير عن اقناع الأذكياء من الشباب والمتعلمين ، وافحام الأقوياء من الباحثين والمعترضين، واستحق بذلك كله تقدير علماء الكلام ، ورجال المدرسة الأشعرية الفكرية بصفة خاصة ، إذ أعاد إليها الحياة والوقار ، واستحق شكرهم وثناءهم ؛ ولكن بالعكس ، استهدف الغزالى للائمة الأشعرية ، وفقهاء زمانه ، واستهدف لعتابهم وسخطهم ، لأنه خرج عن الطريق المرسوم ، وجاء بشىء طريف لم يجدوه فى كتبهم القديمة ، ولم يسمعوه من أساتذتهم ، وخالف فى بعض المسائل الأشعرى وأتباعه ، ويظهر أن بعض المتحمسين من هؤلاء قد شموا فى بحوثه الطريفة رائحة « الزيغ والضلال » ولما انتشر كتابه العظيم « احياء علوم الدين » فى العالم الاسلامى . وعظم الاقبال عليه والعناية به – وهو مشتمل على جزء كبير من هذه البحوث ، والأمثلة العديدة ، اشتدت لائمتهم ، وصار بعضهم يشك فى صحة عقيدته واستقامته ، وقد كتب إليه بعض تلاميذه ومحبيه بذلك ، وأظهر توجعه «حزنه» لما يرى من العلماء والمعاصرين من التجهم له ، والتشكك فى عقيدته ونسبته إلى الزيغ والانحراف ، وأجاب عن ذلك الغزالى فى كتابه «فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة» يقول فيه :

« أما بعد » فإنى رأيتك – أيها الأخ المشفق ، والصديق المتعصب – موغر الصدر ، مقسم الفكر ، لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة فى أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين ، والمشايخ المتكلمين ، وأن العدول عن مذهب الأشعرى – ولو فى قيد شبر – كفر ، ومباينته – ولو فى شىء نزر – ضلال وخسر . فهون – أيها الأخ المشفق المتعصب – على نفسك ، لا

تضيق به صدرك ؛ وقل من غربك قليلاً ؛ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً؛ واستحقر من لا يحسد ولا يقذف ؛ واستصغر من بالفكر أو الضلال لا يعرف ؛ فأى داع أكمل واعقل من سيد المرسلين ، ﷺ ؟! وقد قالوا : انه مجنون من المجانين ، وأى كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين ؟! وقد قالوا : أنه أساطير الأولين ، وإياك أن تشتغل بخصامهم ، وتطمع فى إفحامهم ، فتطمع فى غير مطمع ، وتصوت فى غير مسمع ، أما سمعت ما قيل :

كل العداوة قد ترجى سلامتها ... إلا عداوة من عاداك عن حسد [1]

وبعد ما ذكر دوافع هذا الانكار والمخالفة ، وأن الحامل على ذلك طلب الجاه والمال ، وأن بضاعة المعترضين فى العلم مسألة النجاسة ، وماء الزعفران وأمثالهما [2] ، وقال مخاطباً تلميذه الذى وجه إليه هذه الرسالة :

« فخاطب نفسك وصاحبك ؛ وطالبه بحد الكفر ؛ فإن زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعرى ، أو مذهب المعتزلى أو مذهب الحنبلى أو غيرهم ، فاعلم أنه غير بليد قد قيده التقليد ؛ فهو أعمى من العميان ؛ فلا تضيع باصلاحه الزمان ؛ وناهيك حجة فى افحامه مقابلة دعواه بدعوى خصومه ، إذ لا يجد بين نفسه وبين سائر المقلدين المخالفين له فرقاً وفصلاً ، ولعل صاحبه يميل من بين سائر المذاهب إلى الأشعرى ، ويزعم أن مخالفته فى كل ورد وصدر كفر من الكفر الجلى ، فاسأله : من أين ثبت له كون الحق وقفاً عليه، حتى قضى بكفر الباقلانى ، إذ خالفه فى صفة البقاء لله تعالى ، وزعم أنه ليس هو وصفاً لله تعالى زائداً على الذات ؟ ولم صار الباقلانى أولى بالكفر لمخالفته الأشعرى من الأشعرى بمخالفته الباقلانى ؟ ولم صار الحق وقفاً على أحدهما دون الثانى ؟ أكان ذلك أجل السبق فى الزمان ؟ فقد سبق الأشعرى غيره من المعتزلة ، فليكن الحق للسابق عليه ؛ أم لأجل التفاوت فى الفضل والعلم ؟ فبأى ميزان ومكيال قدر درجات الفضل ؛ حتى لاح له أن لا أفضل فى الوجود من متبوعه ومقلده ؟ فإن رخص للباقلانى فى مخالفته فلم حجر على غيره ؟ وما الفرق بين الباقلانى والكرابيسى والقلانسى وغيرهم ؛ وما مدرك التخصيص بهذه الرخصة ؟ وإن زعم أن خلاف الباقلانى يرجع إلى لفظ لا تحقيق وراءه ، كما تعسف بتكلفه بعض المتعصبين ، زاعماً أنهما متوافقان على دوام الوجود ، والخلاف

---

(١) فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة ص ٧ - ٨ مطبعة الترقى .

(٢) ص ١٠ .

فى أن ذلك يرجع إلى الذات أو إلى وصف زائد عليه خلاف قريب لا يوجب التشديد ، فما باله يشدد القول على المعتزلى فى نفيه الصفات . . الخ [(١)] .

ناقش الغزالى فى هذه الرسالة خصمه فى هذا التفكير الضيق وذكر أن الفحول من العلماء ، والمستقلين بالتفكير ، لم يزالوا ينظرون فى المسائل نظر المجتهدين ، ويدلون بأرائهم ، وأن العدول عن رأى السابق فى بعض وجهات النظر لا يعتبر مروقا فى الدين قال :

« ولعلك - ان أنصفت - علمت أن من جعل الحق وقفاً على واحد من النظار بعينه ، فهو إلى الكفر والتناقض أقرب ، أما الكفر ، فلأنه نزله منزلة النبى المعصوم من الزلل الذى لا يثبت الايمان إلا بموافقته ، ولا يلزم الكفر إلا بمخالفته ، وأما التناقض : فهو أن كل واحد من النظار يوجب النظر ، وإن لا ترى فى نظرك إلا ما رأيت . وكل ما رأيته حجة . وأى فرق بين من يقول قلدنى فى مجرد مذهبى . وبين من يقول قلدنى فى مذهبى ودليلى جميعاً . وهل هذا إلا التناقض ؟ » [(٢)] .

ومع كون الغزالى من كبار متكلمى الاسلام ومن كبار النظار فهو لا يوافق علم الكلام فى جميع اتجاهاته : بل ينتقده على غلوه واسرافه ، وينتقد المتكلمين على مؤاخذة عوام المسلمين بعلم الكلام ، وتكليفهم بمعرفة الدلائل الكلامية ، والتقسيمات المرتبة وأن من يجهل ذلك ، ولم يعرف الله عن طريق الكلام والأدلة المحررة ، فهو ناقص فى دينه أو شاك فى يقينه . ويبين - فى شجاعة وصراحة - أن الأمر أوسع من ذلك ، وأن الايمان له وسائل وطرق لا تنحصر فى علم الكلام يقول رحمه الله :

« من أشد الناس غلوا واسرافا . طائفة من المتكلمين . كفروا . عوام المسلمين ، وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا ، ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التى حررناها ، فهو كافر . فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولاً . وجعلوا الجنة وقفاً على شرذمة يسيرة من المتكلمين ، ثم جهلوا ما تواتر من السنة ثانيا ؛ إذ ظهر لهم فى عهد رسول الله ﷺ ، وعصر الصحابة رضى الله عنهم ، حكمهم باسلام طوائف من أجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الوثن ، ولم يشتغلوا بعلم الدليل ، ولو اشتغلوا به لم يفهموه ومن ظن أن مدرك الايمان الكلام ، والأدلة المجردة ، والتقسيمات المرتبة ، فقد أبدع جد

---

(١) فيصل التفرقة ص ١١ - ١٦ .

(٢) ص ١٨ .

الابداع ، بل الايمان نور يقذفه الله فى قلوب عبيده ، عطية وهدية من عنده تارة ببينة من الباطن لا يمكنه التعبير عنها ، وتارة بسبب رؤيا المنام ، وتارة بمشاهدة حال رجل متدين ، وسراية نوره إليه عند صحبته ومجالسته ، وتارة بقرينه حال » [1].

ويقول بعد سطور :

« نعم ؛ لست أنكر أنه قد يجوز أن يكون ذكر أدلة المتكلمين أحد أسباب الايمان فى حق بعض الناس ، ولكن ليس بمقصور عليه ، وهو أيضًا نادر ، بل الأنفع الكلام الجارى فى معرض الوعظ كما يشتمل عليه القرآن . فأما الكلام المحرر على رسم المتكلمين ، فإنه يشعر نفوس المستمعين بأن فيه صنعه وجدل ، ليعجز عنه العامى ، لا لكونه حقاً فى نفسه؛ وربما يكون ذلك سبباً لرسوخ العناد فى قلبه ولذلك لا ترى مجلس مناظرة للمتكلمين ولا للفقهاء ينكشف عن واحد انتقل من الاعتزال أو بدعة إلى غيره ، ولا عن مذهب الشافعى إلى مذهب أبى حنيفة ، ولا على العكس . وتجرى هذه الانتقالات بأسباب أخر فى القتال بالسيف ؛ ولذلك لم تجر عادة السلف بالدعوة لهذه المجادلات ؛ بل شددوا القول على من يخوض فى الكلام ، ويشتغل بالبحث والسؤال » [2].

وازداد الغزالى - مع الأيام ، وبعد التجارب العلمية - اقتناعاً بأن اسلوب القرآن فى الاقناع أبلغ وأنفع وأعم واشمل للطبقات والمستويات الفكرية المختلفة ، وبأن علم الكلام علاج مؤقت ومختص بمن نشأ عنده شكوك وشبهات ، ولا حاجة للطبائع السليمة والعقول المستقيمة إليه .

أما القرآن فكالغذاء الصالح ؛ والماء السائغ ، يحتاج إليهما كل إنسان وينتفع ، ولا ضرر فيه ولا خطر . يقول فى كتابه « الجام العوام عن علم الكلام » الذى هو من آخر مؤلفاته .

« فأدلة القرآن مثل الغذاء . ينتفع به كل انسان ، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ، ينتفع به أحاد الناس ، ويستضر به الأكثرون : بل أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبى الرضيع . والرجل القوى ، وسائر الأدلة كالاطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة . ويمرضون بها أخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً »[3] .

---

(١) فيصل التفرقة ص ٦٧ - ٦٨ .

(٢) فيصل التفرقة ص ٦٩ - ٧٠ .

(٣) الجام العوام عن علم الكلام ، المطبعة الميمنة ص ٢٠ .

ويذكر تجربته ومشاهدته كشاهد على ذلك :

« والدليل على تضرر الخلق به ، المشاهدة والعيان والتجربة وما ثار من الشر منذ نبغ المتكلمون وفشت صناعة الكلام مع سلامة العنصر الأول من الصحابة عن مثل ذلك »[1] .

وهكذا تتجلى شخصية الغزالى فى نقد الفلسفة وعلم الكلام ، شخصية فريدة مستقلة التفكير ، قوية التأثير ، تمتاز بسلامة الفكر ، واتزان العقل ، وحصافة الرأى ، وعمق النظر ، والشقة بالنفس ، له منهج خاص فى نقد الفلسفة ، وفى علم الكلام ، واثبات العقيدة الاسلامية ، وهو ممن توفرت عنده أدوات الاجتهاد فى هذا الموضوع ، فكان من أئمة هذا الفن المجتهدين ، ومن كبار المؤلفين المنتجين .

---

(١) الجام العوام عن علم الكلام ، المطبعة الميمنة ص ٢٠ .

حجة الاسلام الغزالى

مصلح اجتماعى

تحدثنا فى الفصل السابق عن أولى الناحيتين الرئيسيتين فى تجديد الغزالى واصلاحه ، وهى ناحية نقد الفلسفة ، وتجديد علم الكلام ، ونتحدث فى هذا الفصل عن الناحية الثانية، وهى الحسبة على المجتمع الاسلامى المعاصر ، والدعوة إلى الأخلاق الاسلامية ، والروح ، والتحلى بالحقائق ، ويمثل هذه الناحية كتابه العظيم « احياء علوم الدين » .

احياء علوم الدين :

ان كتاب « احياء علوم الدين » من كتب الاسلام المعدودة التى أثرت فى حياة المسلمين وتفكيرهم تأثيرا عميقا ، وظلت تسيطر على عقولهم ونفوسهم زمنا طويلا ، ولا يزال له نفوذ فى الأوساط الدينية ليس لغيره ، ولم يزل العلماء وأهل النظر يثنون عليه ، ويعترفون بجلاله مكانته وتأثيره . قال الحافظ الامام زين الدين أبو الفضل ، المعروف بالعراقى ، صاحب الألفية فى مصطلح الحديث (م ٨٠٦) : « أنه من أجل كتب الاسلام »(١) ، وقال الشيخ عبد الغافر الفارسى – وهو معاصر للغزالى ومن تلاميذ امام الحرمين – : « أنه من تصانيفه المشهورة التى لم يسبق اليها »(٢) ، وقال الشيخ أبو محمد الكازرونى : « لو محيت جميع العلوم لاستخرجت من الاحياء »(٣) . وكان الامام « النووى » شديد الاعجاب به عظيم الشغف .

ان لهذه الأقوال ، وكثيرا مما نقله الآخرون ، إن لم تخل من شئ من المبالغة ، فانها تدل على خضوع الناس لتأثير الكتاب ، وظل العلماء عاكفين على مطالعته وشرحه(٤) وتلخيصه .

وكان الامام ابن الجوزى (٥٩٧ هـ) ينتقد على الغزالى فى مواضع كثيرة ، ويرى أن

---

(١) تعريف الأحياء بفضائل الإحياء للشيخ عبد القادر بن شيخ العيدروس ص ١٤ .

(٢) أيضا ص ١٥ .

(٣) تعريف الاحياء بفضل الإحياء ص ١٥ .

(٤) من أجل هذه الكتب كتاب « اتحاف السادة المتقين بشرح احياء علوم الدين » فى عشرين مجلدا للعلامة السيد مرتضى الزبيدى البلكرامى الهندى (م ١٢٠٥) وقد اشتمل على مادة غزيرة فيما يتصل بالعلوم الدينية والأدبية .

كتاب الإحيـاء قد اشتمل على أحاديث كثيـرة لا تصح ولا تثبت على طريق المحدثين [1]، ومع ذلك يعترف بتأثيره ، وقد اختصر الإحياء فى كتاب ، وسماه « منهاج القاصدين » .

وقد صنف الغـزالى هذا الكتاب ، وقـد خرج من بغـداد فى طلب السعـادة واليقين ، واشتـغل بالعبادة والمجـاهدة والانقطاع عن الناس ، ومرت به أدوار من الخـوف والرجاء ، والزهد والتبـتل ، والمعرفـة واليـقين . وصنف هذا الكتـاب بعد مـا تذوق كـلا من هذه الأحوال؛ فجـاء الكتاب صورة لنفسيتـه وانطباعاته وتأملاته ؛ لذلك كان شـديد التأثير فى نفوس قرائه ؛ ولذلك نجده يتدفق حياة وقوة .

لقد رأى الغزالى ، بعدما أكرمه الله بالسعادة الروحية ، والمعرفة الحقيقية ، وانكشفت له حقيـقة العلم ، حقيقة مـا فيه أهل الدنيا ، من العكوف على اللذات وعبـادة الشهوات ، والتكالب على الحياة ، وحقيقة ما فيه أهل العلم ورجال الدين : من طلب الجاه والرياسة، ونيل الحظوة عند أهل الحكم والسياسة ، والجدل الفارغ ، والنقاش الحاد ، والاكتفاء بمسائل الفـروع والأحكام ، والانصراف عن علم الآخـرة ، وتهذيب النـفس ، وحقـيقـة ما فـيه المتدبون للاصـلاح والدعوة من الكلام المزخرف ، والـلفظ المسجع ، والقصص الملهـية ، ورأى عموم الفساد ، وغفلة الناس ، وسكوت العلماء ، وفقدان النذير ، فانبعث فى نفسه داعـية قـوية لتأليف هذا الكـتاب الذى يكشف عن الناس الغـطاء ، ويبين لكل طبقـة من طبقـات الأمة مـا فيه هذه الـطبقة من أوهام وأحـلام ، ويكون دعوة صـارخة سـافرة إلى الاستعداد للموت ، والتأهب للآخرة ، والآخذ بلباب الدين وحقيقته ، والتحلى بالأخلاق الفاضلة ، وقد ذكر ذلك فى مقدمة كتابه ، يقول رحمه :

« فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبيـاء ، وقد شغر منهم الزمان ، ولم يبق الا المترسون ، وقد اسـتحوذ على أكثرهم الشيطان ، واستغـواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد بعاجل حظه مـشغوفا ؛ فـصار يرى المعروف منكرا والمنكر معـروفا ؛ حتى ظل علم الدين مندرسا ، ومنـار الهدى فى منطقة الأرض منطمـسا ، ولقد خـيلوا إلى الخلق أن لا علم الا فتوى حكومة تستعين به القضـاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغام ، أو الجدل يتـذرع به طالب المباهاة إلى الغلبـة والافحـام ، أو سجع مـزخرف يتـوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ، إذا لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام ، وشبكة للحطام .

فأما علم طريق الآخرة ، وما درج عليه السلف الصالح مما سـماه الله سبحانه فى كتابه

---

(١) راجع تلبيس ابليس لابن الجوزى .

فقها وحكمة ، وعلما وضياء ونورا ، وهداية ورشدا ، فقد أصبح من بين الخلق مطويا ، وصار نسيا منسيا ، ولما كان هذا ثلما فى الدين ملما وخطبا مدلهما ، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما لإحياء علوم الدين ، وكشفا عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وايضاحا لمناحى العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين »[1].

نقد المجتمع والحسبة عليه :

وكان لا بد للاصلاح الذى نهض له الغزالى ، وجاشت له نفسه ، وتحركت مواهبه ، أن يعرف المجتمع الاسلامى مواضع الضعف والفساد فى حياته ، ويعرف علله وأدواءه ، وكان لا بد لذلك من أن تعرف طبقاته المختلفة ، كيف لبس عليها ابليس ؟ وما هى الأوهام التى تعيش فيها ؟ وكيف تغيرت المفاهيم الدينية ؟ وكيف تشوهت الحقائق ؟ وكيف تشاغل الناس بالظواهر والأشكال والرسوم ؟ وكيف ابتعدوا عن الحقائق والمقاصد ، حتى أصبح المجتمع كله - الا من عصم الله - فى شغل شاغل عن الآخرة ، وما ينفع لها وما يلزم لها ؟ وأصبح المفكرون فى أمور الآخرة ، والساعون لرضى الله تعالى ، قلة قليلة .

عرف الغزالى هذا قبل أن يؤلف الكتاب ؛ فنظر إلى المجتمع من خلال المقاييس الدينية الصحيحة ؛ فبين بكل صراحة وقوة ، ما وقع فيه من انحراف وابتعاد عن الجادة ، وتناوله طبقا طبقة ، فذكر أمراضها ومغالطتها ، وميز بين المقاصد والغايات ، والوسائل والآلات، وقسم العلوم : بين العلوم الدنية وبين العلوم الدنيوية ، وبين العلوم المحمودة والعلوم المذمومة ، وبين فرض العين وفرض الكفاية ، ونبه على ما هو فرض ومتعين فى زمانه لا يسع العالم تركه ، وما فيه متسع ومندوحة ، وذكر العلل التى تخص الأغنياء وأهل اليسار وذكر أوهامهم وغرورهم ، وانتقد الملوك والأمراء بشجاعة ، وانكر عليهم مظالمهم وأعمالهم المخالفة للشرع ، وقوانينهم المعارضة للدين ، وذكر شيئا كثيرا من أمراض العامة، والمنكرات الفاشية فى مختلف الطبقات ، والعادات المذمومة والعوائد الجاهلية ، والبدع المنتشرة ؛ وبذلك كان هذا الكتاب موسوعة اسلامية اجتماعية ، وأوسع كتاب وأقواه فى نقد المجتمع والدعوة إلى الاصلاح .

العلماء ورجال الدين :

يعتقد الغزالى[1] أن التبعة الكبرى فى هذا الفساد الشامل والضعف فى الدين والانحلال

---

(١) إحياء علوم الدين ص ٣ ج ١ طبع الحلبى .

(١) إحياء علوم الدين ج ١ ص ٥٤ .

فى الأخلاق ، تقع على العلماء ورجال الدين ، وهم السبب الأول فى فساد هذه الأوضاع؛ لأنهم ملح الأمة ، وإذا فسد الملح فما الذى يصلحه ؟ ويتمثل الغزالى ببيت خوطب فيه العلماء :

يا معشر القراء يا ملح البلد ... ما يصلح الملح إذا الملح فسد

ويذكر كيف مرضت قلوب الناس ، واشتدت الغفلة عن المعاد ، ويذكر أسباب ذلك ، فيذكر منها مرض العلماء واعتلالهم وهم أطباء القلوب ، يقول :

« والثالثة : – وهو الداء العضال – فقد الطبيب ؛ فان الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا فى هذه الأعصار مرضا شديدا ، وعجزوا عن علاجه » .

ويقول فى موضع آخر :

« فان الأطباء هم العلماء ، وقد استولى عليهم المرض ، فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه ، فلهذا صار الداء عضالا ، والمرض مزمنا ، واندرس هذا العلم ، وأنكر بالكلية طب القلوب ، وأنكر مرضها ، وأقبل الخلق على حب الدنيا ، وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومراءات » [1].

ويرد الغزالى فساد الملوك والأمراء ، إلى ضعف العلماء واهمالهم واجبهم يقول :

« وبالجملة إنما فسدت الرعية بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ، فلولا القضاة السوء والعلماء السوء ، لقل فساد الملوك ، خوفا من انكارهم » [2].

ويلوم الغزالى العلماء على تقاعدهم عن فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكلمة الحق عند سلطان جائر ، ويعلل ذلك بوقوع العلماء فى شباك الأمراء ، وحبهم للدنيا وطلبهم للجاه . يقول – بعد ما يروى حكايات تدل على شجاعة العلماء السلف ، وانكارهم على الملوك والكبراء – :

« فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين ، لكنهم اتكلوا على فعل الله تعالى أن يحرسهم ، ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة ، فلما أخلصوا لله النية أثر كلامهم فى القلوب القاسية، وأزال قساوتها .

---

(١) إحياء علوم الدين ج ٣ ص ٥٤ .

(٢) احياء علوم الدين ج ٢ ص ١٣٢ .

وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء ، فسكتوا ، وأن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا ، ففساد الرعايا بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأرذال ، فكيف على الملوك والأكابر ؟ والله المستعان على كل حال »[1].

لاحظ الغزالى – وقد قضى مدة طويلة فى التدريس والافتاء ، وعاش بين العلماء وخبر سيرتهم – أنه قد شغل الناس بالجزئيات الفقهية ، والمسائل الخلافية ، ووقع الاكتفاء بعلم الفقه والفتيا ، وانصرف بذلك العلماء وطلبة العلم عن العلوم النافعة ، والاشغال المفيدة الأخرى ، وشغلوا عن العلم الذى يصلحون به نفوسهم وينالون به سعادة الدنيا والآخرة ، وجهلوه ، يقول :

« ولو سئل فقيه عن معنى هذه المعانى ، حتى عن الاخلاص مثلا ، أو عن التوكل ، أو عن وجه الاحتراز عن الربا ، لتوقف فيه ، مع أنه فرض عينه الذى فى اهماله هلاكه فى الآخرة . ولو سألته عن اللعان ، والظهار ، والسبق ، والرمى ، لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التى تنقضى الدهور ولا يحتاج إلى شئ منها وان احتيج لم تخل البلد ممن يقوم بها ، ويكفيه مؤنة التعب فيها ، فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهارا ، وفى حفظه ودرسه ، ويغفل عما هو مهم لنفسه فى الدين ، وإذا روجع فيه ، قال : اشتغلت به لأنه علم الدين ، وفرض الكفاية ، ويلبس على نفسه وعلى غيره فى تعلمه ، والفطن يعلم أنه لو كان غرضه اداء حق الأمر فى فرض الكفاية ، لقدم عليه فرض العين ، بل قدم عليه كثيرا من فروض الكفايات ، فكم من بلدة ليس فيها طبيب الا من أهل الذمة ! ولا يجوز قبول شهاداتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ، ثم لا نرى أحدا يشتغل به ، ويتهافتون على علم الفقه لا سيما الخلافيات والجدليات ؛ والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى ، والجواب عن الوقائع ، فليت شعرى ! فكيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض الكفاية قد قام به جماعة ، واهمال مالا قائم به ؟ هل لهذا سبب الا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولى الأوقاف والوصايا ، وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة ، والتقدم على الأقران ، والتسلط به على الأعداء ؟ »[2].

---

(١) الاحياء ص ١٢ ج ٣ .

(٢) الإحياء ص ١١٩ ج ١ .

ولاحظ كذلك - وقد شاهد بعينه - أنه قد نفقت سوق المناظرات فى الفقه والعقائد وعلم الكلام ، وطغت على كل شئ حتى أصبحت زينة الأعراس والمآتم ، ومجالس الملوك والأمراء ، وأصبحت كسباق الخيل ، ونطاح الأوعال ، وتنافر الديكة ، يتفرج عليه الأغنياء والأمراء .

وقد ذكر أن عظم اقبال العلماء على هذا الفن ، وبراعتهم فيه ، لرغبة الملوك والأمراء فى ذلك ، وتطورت مع تطور رغبة الأمراء واتجاهاتهم ، وإنما الملك سوق يجلب اليها كل بضاعة تروج فيها ، وهو فى ذلك يظهر مؤرخا دقيق النظر ، قوى الملاحظة ، يقول بعد ما ذكر في الدور الأول :

« ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء ، من يسمع مقالات الناس ، فى قواعد العقائد، ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها ، فعلمت رغبته فى المناظرة والمجادلة فى الكلام ؛ فأكب الناس على علم الكلام ، وأكثروا فيه التصانيف ، ورتبوا فيه طرق المجادلات ، واستخرجوا فنون المناقضات فى المقالات ، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله ، والنضال عن السنة ، وقمع المبتدعة ، كما زعم من قبلهم أن غرضهم من الاشتغال بالفتاوى الدين ، وتقلد احكام المسلمين ؛ اشفاقا على خلق الله ، ونصيحة لهم .

ثم ظهر بعد ذلك من الصدور ، من لم يستصوب الخوض فى الكلام ، وفتح باب المناظرة فيه ؛ لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة ، والخصومات الفاشية المفضية إلى اهراق الدماء وتخريب البلاد ، ومالت نفسه إلى المناظرة فى الفقه ، وبيان الأولى من مذهب الشافعى وأبى حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص ؛ فترك الناس الكلام وفنون العلم ، وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة على الخصوص، وتساهلوا فى الخلاف مع مالك ، وسفيان ، وأحمد - رحمهم الله تعالى - وغيرهم ، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع ، وتقرير علل المذهب ، وتمهيد أصول الفتوى . وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ، ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات، وهم مستمرون عليه إلى الآن ، ولسنا ندرى ، ما الذى يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار؟ فهذا هو الباعث على الاكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير ، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع امام آخر من الأئمة ، أو إلى علم آخر من العلوم ، لمالوا أيضا معهم ، ولم يسكتوا عن التعليل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين ، وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين » (١) .

---

(١) الإحياء ص ٣٧ - ٣٨ ج ١ .

وتكلم بعد ذلك الغزالى بتفصيل فى آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق، وقد عرف ذلك عن تجربة واختبار ؛ فقد كان فارس هذا الميدان واماما من أئمة هذا الشأن ، وكلامه كلام خبير مجرب [١].

وقد فطن الغزالى - لذكائه الباهر وتجربته العلمية - أن من أسباب الالتباس وانخداع الناس بالمظاهر ، وبعدهم عن الحقائق ، هو أنه قد فشا فى هذا العصر استعمال كلمات القرآن والحديث فى غير محلها ، وفى غير معناها الأصيل القديم ، وصار يفهم منها ما لم يكن يفهم فى العصر الأول ؛ يعقد فى كتب الإحياء فصلا خاصا فى بيان ما بدل من ألفاظ العلوم ويقول فى مفتتحه :

« أعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الاسامى المحمودة ، وتبديلها ونقلها بالاغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول ، وهى خمسة ألفاظ : الفقه ، والعلم ، والتوحيد ، والتذكير والحكمة ، فهذه أسام محمودة، والمتصفون بها أرباب المناصب فى الدين ؛ ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة ؛ فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع اطلاق هذه الاسامى عليهم »[٢] .

ثم شرح أن اسم الفقه كان يطلق فى العصر الأول على علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدات الأعمال ، وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ، فخصص فى هذا العصر بمعرفة الفروع الغريبة فى الفتاوى ، والوقوف على دقائق عللها ، واستكثار الكلام فيها ، وحفظ المقالات المتعلقة بها . وكان لفظ العلم يطلق على العلم بالله تعالى ، وبآياته وبأفعاله فى عبادة وخلقه ، وتصرف فيه أهل الزمان بالتخصيص ، حتى شهروه فى الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم فى المسائل الفقهية وغيرها .

وكان التوحيد عند الأولين ، هو أن يرى الانسان الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط ؛ فلا يرى الخير والشر كله الا منه جل جلاله ، وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ، ومعرفة طريق المجادلة ، والاحاطة بطرق مناقضات الخصوم ، والقدرة على التشدق فيها ، بتكثير الأسئلة واثارة الشبهات وتأليف الالزامات ، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، وتسمى المتكلمون العلماء

---

(١) راجع الجزء الأول من كتاب الإحياء ص ٤٠ - ٤٣ .

(٢) ص ٢٨ ج ١ .

بالتوحيد، والتذكير هو الذى عناه الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ فنقل ذلك إلى ما ترى أكثر الوعاظ فى هذا الزمان يواظبون عليه ، وهو القصص ، والاشعار ، والشطح ، والطامات . والحكمة هى التى أثنى الله عز وجل عليها فقال تعالى ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ فصار اسم الحكيم يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم ؛ حتى على الذى يدحرج القرعة على أكف السوادية فى شوارع الطرق » (١).

وبعد هذه المقارنة بين معانى هذه الألفاظ القديمة ومحل استعمالها ، وبين معانيها المحدثة ومحل استعمالها ، وبيان التحريف الذى وقع فى اطلاق هذه الكلمات وتفسيرها يقول :

« فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعى الخلق عن العلوم المحمودة إلى المذمومة ، فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبدل الاسامى ، فان اتبعت هؤلاء ؛ اعتمادا على الاسم المشهور من غير التفات إلى ما عرف فى العصر الأول ، كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع من يسمى حكيما ؛ فان اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم فى هذا العصر ، وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ » .

وهكذا يهيب الغزالى بالعلماء . فى قوة وصراحة وشجاعة واخلاص وعمق وتحليل علمى ، ويثير فيهم الغيرة والشعور ، ويستحثهم على الرجوع إلى مركزهم فى الأمة ، وهو خلافة الأنبياء والوصاية الدينية والخلقية على المجتمع الاسلامى ، والحسبة على الحكومة والحكام ، والخواص والعوام ، معتقدا بأنهم حجر الزاوية فى اصلاح المجتمع ، وبصلاحهم صلاح العالم ، وبفسادهم فساد العالم ، ثم يلتفت إلى السلاطين والأمراء ، لأنهم الركن الثانى فى اصلاح النوع الانسانى .

الملوك والأمراء :

لقد كانت الحكومات فى عصر الغزالى حكومات شخصية مستبدة ، وكان نقد السلاطين على سياستهم وأموالهم وتصرفاتهم مجازفة بالحياة ومغامرة قد تؤدى إلى الحبس والاهانة والعقوبات المؤلمة . وكثيرا ما تؤدى إلى القتل و النفى . وكان الذى يرفض وظيفة أو منصبا يقدمه السلطان ، أو يرفض عطية سلطانية ، يعتبر فى أكثر الأحيان خارجا على الحكومة غير وفى لها ؛ ولكن كل ذلك مما كان يعلمه الغزالى – وهو العالم المطلع الواعى – لم يمنعه من ابداء رأيه الصريح فى أموال الملوك والسلاطين فى عصره ، وعن نقد سياستهم

---

(١) انظر الإحياء بيان ما بدل من ألفاظ العلوم ص ٢٨ – ٣٤ الجزء الأول .

المالية . يقول فى الإحياء :

« أن أموال السلاطين فى عصرنا حرام كلها أو أكثرها ، وكيف لا ، والحلال هو الصدقات والفئ ، والغنيمة ؟ ولا وجود لها ! وليس يدخل منها فى يد السلطان ، ولم يبق الا الجزية ، وأنها تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به ، فانهم يجاوزون حدود الشرع فى المأخوذ والمأخوذ منه ، والوفاء له بالشرط ، ثم إذا نسب ذلك إلى ما ينصب اليهم من الخراج المضروب على المسلمين ، ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشيره »(١) .

ويعرف الغزالى – وهو الذى عاش بين العلماء – ان كثيرا من أهل العلم ، والمتصلين بالملوك والأمراء ، يستدلون بقبول كثير من السلف أموال السلاطين وجوائزهم وصلاتهم ، فيبين الفرق بين الأوضاع الأولى وأوضاع العصر ، ويثبت أنه لا يصح القياس على أحوالهم، يقول :

« ان الظلمة فى العصر الأول – لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين – ، كانوا مستشعرين من ظلمهم ، ومستشوقين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين ، وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم ، وكانوا يبعثون اليهم من غير سؤال واذلال ، بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ويفرحون به ، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون ، ولا يطيعون السلاطين فى أغراضهم ، ولا يغشون مجالسهم ، ولا يكثرون جمعهم ، ولا يحبون بقاءهم ؛ بل يدعون عليهم ويطلقون اللسان ، وينكرون المنكرات منهم عليهم ؛ فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم ، ولم يكن بأخذهم بأس .

فأما الآن ، فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية الا لمن طمعوا فى استخدامهم والتكثر بهم، والاستعانة بهم على أغراضهم ، والتجمل بغشيان مجالسهم ، وتكليفهم بالمواظبة على الدعاء والثناء ، والتزكية والاطراء فى حضورهم ومغيبهم فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولا ، وبالتردد فى الخدمة ثانيا ، وبالثناء والدعاء ثالثا ، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعا ، وبتكثير جمعه فى مجلسه وموكبه خامسا ، وباظهار الحب والموالاة والمناصرة له على أعدائه سادسا ، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوئ أعماله سابعا ، لم ينعم عليه بدرهم واحد ولو كان فى فضل الشافعى رحمه الله مثلا ؛ فاذا لا يجوز أن يؤخذ منهم فى هذا الزمان ما يعلم أنه حلال لافضائه إلى هذه المعانى ، فكيف ما

(١) انظر الإحياء ما بدل من ألفاظ العلوم ص ١٢٢ ج ٢ .

يعلم أنه حرام أو يشك فيه ! فمن استجرأ على أموالهم ، وشبه نفسه بالصحابة والتابعين ، فقد قاس الملائكة بالحدادين » [1].

وقيمة هذه الكلمة الجريئة لا تعرف الا فى جو الحكومات الشخصية الرهيب الذى كانت كلمة واحدة تصدر من عالم أو مؤلف فى نقد ملك أو حاكم تطيح بحياته .

ولم يكتف الغزالى بالدعوة إلى الامتناع من قبول العطايا السلطانية ورفضها ، بل دعا إلى الاعتزال عن السلاطين الجائرين ، واعتقاد بغضهم . وكراهة حياتهم ، والابتعاد عن المتصلين بهم يقول فى الإحياء :

« الحالة الثالثة : أن يعتزل عنهم ؛ فلا يراهم ولا يرونه ، وهو الواجب ؛ إذ لا سلامة الا فيه ؛ فعليه أن يعتقد بغضهم على ظلمهم ولا يحب بقاءهم ، ولا يثنى عليهم ، ولا يستخبر عن أحوالهم ، ولا يتقرب إلى المتصلين بهم . » [2].

مصارحته السلاطين والوزراء بالحق وحثهم على الاصلاح :

ولم يقتصر الغزالى على ابداء آرائه فى السلاطين الجائرين فى مؤلفاته ؛ بل أبدى رأيه وجهر بالحق والنصيحة أمام الملوك كلما سنحت له فرصة ، وقد قال للسلطان « سنج بن ملك شاه السلجوقى » الذى كان يحكم خراسان من أقصاها إلى أقصاها :

« أسفا ! ان رقاب المسلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب ، ورقاب خيلك كادت تنقض بالأطواق الذهبية » [3].

وقد كتب إلى أخيه الأكبر محمد بن ملك شاه - وكان أكبر ملوك عصره - رسالة ذكره فيها بمسؤوليته ، وحذره من عقاب الله وغضبه ، ولفت نظره إلى اصلاح المملكة .

وكان الوزير فى الحكومات الشخصية فى الشرق هو الذى يملك زمام المملكة ، وبيده الحل والعقد ؛ فاذا صلح صلحت الدولة ، وإذا فسد فسدت الدولة ، وكان الغزالى يعرف هذا جيدا ، وقد عاصر « نظام الملك » الطوسى وزير المملكة السلجوقية العظيمة ومديرها ، وعاصر ابناءه ؛ فاعتنى بوزراء المملكة أكثر مما اعتنى بالملوك ؛ لأنهم مفتاح المملكة ، وموجهوها ، والمباشرون للأمور ، وكتب إلى وزراء المملكة رسائل مستفيضة ، ولفت

---

(١) إحياء علوم الدين ص ١٢٢ - ١٢٣ ج ٢ .

(٢) أيضا ص ١٢٨ ج ٢ .

(٣) رسائل الامام الغزالى بالفارسية .

نظرهم بكل جرأة وصراحة إلى فساد الاوضاع ، وجور الحكام وابتزازهم للأموال ، وما كان يعانيه الشعب من حيف الأمراء ، وغفلة المسؤولين ، وطمع الموظفين ، وحذرهم عقاب الله وبطشه ، وذكرهم بمصير الوزراء السابقين ، والحكام الظالمين ، وحثهم على اصلاح الجهاز الادارى ، وتنظيم الحكومة والضرب على يد الظلمة . ورسائله الفارسية التى وجهها فى هذا المعنى إلى الوزراء مثال الشجاعة والصدع بالحق ، ومثال لقوة الانشاء وبلاغة التعبير . ومنها رسالة إلى فخر الملك ، يقول فيها :

« اعلم أن هذه المدينة (مدينة طوس) أصبحت خرابا بسبب المجاعات والظلم ، ولما بلغ الناس توجهك من اسفرائن ودامغان خافوا ، وبدأ الفلاحون يبيعون الحبوب ، واعتذر الظالمون إلى المظلومين واستسمحوهم ؛ لما كانوا يتوقعون من انصاف منكَ واستطلاع للأحوال ، ونشاط فى الاصلاح . أما وقد وصلت إلى طوس ، ولم ير الناس شيئا فقد زال الخوف ، وعاد الفلاحون والخبازون إلى ما كانوا عليه من الغلاء الفاحش والاحتكار ، وتشجع الظالمون ، وكل من يخبرك من أخبار هذا البلد بخلاف ذلك ، فأعلم أنه عدو دينك » .

« واعلم أن دعاء أهل طوس بالخير والشر مجرب ، وقد نصحت للعميد كثيرا ؛ ولكنه لم يقبل النصيحة ، وأصبح عبرة للعالمين ونكالا للآخرين . اعلم يا فخر الملك ! أن هذه الكلمات لاذعة مرة قاسية لا يجرؤ عليها الا من قطع أمله عن جميع الملوك والأمراء فأقدرها قدرها ؛ فانك لا تسمعها من غيرى ، وكل من يقول غير ذلك ، فاعلم أن طمعه حجاب بينه وبين كلمة الحق » .

وكتب إلى مجير الدين : « ان اغاثة الخلق واجبة على الجميع ؛ فقد تجاوز الظلم عن الحدود ، ولم استطع أن أشاهد هذا الظلم ، فهاجرت من طوس ولى سنة ؛ حتى لا أشاهد هؤلاء الظلمة الذين لا يحملون رحمة ، ولا يراعون حرمة ، وقد الجأتنى بعض الضرورات إلى زيارة البلد ؛ فوجدت الظلم مستمرا لم ينقطع . [(١)]»

ويقول فى هذا الكتاب : لقد بلغت المدية العظم ، وبلغ السيل الزبى ، وكاد المسلمون يستأصلون ، وان ما قسمه الموظفون من الدنانير على أهل البلد - أمانة من الملك - أخذوا أضعافها من الرعية ، وانتهبها الظالمون والسفلة من الناس ، ولم يصل منها شىء إلى السلطان . »[(٢)] .

---

(١) و (٢) رسائل الامام الغزالى بالفارسية .

ولم يقتصر الغزالى على بذل النصيحة لملوك عصره ووزرائهم وتوجيههم الدينى ، وتحذيرهم من سخط الله ، بل كان يبحث - لعلو همته وحرصه على اقامة الدين واسعاد المسلمين - عن دولة فتية تقوم على أساس دينى متين ، وفكر دينى سليم ، وكأنه كان يائسا من الحكومات الاسلامية المعاصرة فقد سرى فيها الوهن ، واستولى عليها الفساد ، وقد قامت فى عصره دولة نشيطة بريئة من كثير من علل الحكومات الاسلامية القديمة ، وهى دولة الملثمين فى المغرب ، كان على رأسها رجل هو أقوى ملوك المسلمين فى عصره وأنشطهم ، هو يوسف بن تاشفين ، صاحب مراكش ، يحدثنا ابن خلكان ، ان الغزالى قصده لعله يتعاون معه على توجيه الحكومة ، يقول ابن خلكان : وبلغنى أن الامام ، حجة الاسلام ، أبا حامد الغزالى - تغمده الله تعالى برحمته - لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة ، وميله إلى أهل العلم ، عزم على التوجه اليه ؛ فوصل إلى الاسكندرية ، وشرع فى تجهيز ما يحتاج اليه ، فوصله خبر وفاته فرجع عن ذلك العزم[١].

وإذا فات الغزالى أن يجتمع بيوسف بن تاشفين ويوجهه ، فقد ساق اليه - وهو فى بلده - من قدر الله على يده قيام دولة جديدة تقوم على الدعوة والاصلاح ، وعلى الخير والصلاح ، وهو محمد بن عبد الله بن تومرت ، الذى كان على يده زوال دولة الملثمين التى فسدت وجارت بعد مؤسسها يوسف بن تاشفين ، وقيام دولة الموحدين ، وقد قال عنه ابن خلدون :

« ولقى - فيما زعموا - أبا حامد الغزالى ، وفاوضه بذات صدره ، فأراده عليه ، لما كان فى الاسلام يومئذ بأقطار الأرض من اختلال الدولة ، وتقويض أركان السلطة الجامع للأمة ، المقيم للملة ، بعد أن سأله عمن له من العصابة والقبائل التى يكون بها الاعتزاز والمنعة . »

وإذا صحت هذه الرواية ، فان للغزالى فضلا ونصيبا فى توجيه الرجل الذى كان صاحب دعوة وحركة فى المغرب ، انتهت إلى قيام دولة فاضلة تتمسك بالدين وتقيم القسط وتمنع الظلم ، وترفع شعائر الاسلام [٢].

---

(١) وفيات الاعيان ترجمة يوسف بن تاشفين .

(٢) اقرأ أخبار عبد المؤمن بن على ودولة الموحدين فى تاريخ ابن خلدون ، الكتاب الثالث ، أخبار البربر.

طبقات المسلمين الأخرى :

ولم يكن نقد الغزالى مقتصرا على العلماء والسلاطين والأمراء ؛ بل انه استعرض المجتمع الاسلامى المعاصر كله ، فذكر ما انتشر فيه من بدع ومبتكرات وأوهام ومغالطات ، ويدل كتاب الإحياء على أنه - وان كان نشأ نشأة علمية وعاش بين الكتب والتلاميذ - كان متصلا بالمجتمع اتصالا وثيقا ، وقد درسه دراسة عميقة ، وكان واسع الاطلاع على المدنية فى عصره ، وأساليب الحياة ، وأجواء الطبقات ، وأن ما ذكره من أخلاق مختلف الطبقات وعللها ، ليدل دلالة واضحة على قوة ملاحظته ، ودقة نظره . وقد عقد فى كتابه بابا مستقلا فى المنكرات المألوفة فى العادات والتقاليد التى ألفها الناس ؛ فلا يشعر كل واحد بأنها منكرات دخيلة على الحياة الدينية ، وقد دقق فيها واستوعبها استيعابا لا يقدر عليه الا من عاشر الناس معاشرة طويلة ، وخبر الحياة ودرسها دراسة واسعة عميقة ، ذكر فيها منكرات المساجد ومنكرات الأسواق ، ومنكرات الشوارع ومنكرات الحمامات ، ومنكرات الضيافة والمنكرات العامة [1] .

وخصص الغزالى جزء من الكتاب بذم الغرور ، ذكر فيه أصناف المغترين وفرق كل صنف ، ذكر منهم المغترين من أهل العلم وفرقهم ، والمغترين من المتصوفة ، والمغترين من أرباب الأموال وفرقهم ، وقد ذكر منافذ الشيطان ومداخل النفس فى هذه الطبقات وأصنافها ، وذكر من أفكارهم ومزالقهم وعقدهم النفسية ما لا يطلع عليها الا عالم كبير من علماء النفس ، ومصلح اجتماعى ذكى له تجارب طويلة ونظر نافذ .

وقد انتقد العلماء والمشتغلين بالعلم فى غلوهم فى الاكثار من الجزئيات الفقهية ، والخلافيات ، والكلام ، والجدل ، والتعمق فى العلوم الآلية : كالنحو ، واللغة ، والشعر، والغريب . والانهماك به . و انتقد الصوفية بالاكتفاء بحفظ أقوال المشائخ وأخبارهم . ولاحظ أن هذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها . فاما علم الطب والحساب والصناعات وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع . فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث أنها علوم ؛ فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع [2] .

---

(١) إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٩٤ - ٣٠٠ .

(٢) ج ٣ ص ٣٤٣ .

وذكر من التباسات الصوفية ومبالغاتهم شيئا كثيرا يدل على انصافه وتدقيقه [1].

وقد ذكر عن المغترين من أرباب الأموال طرائف وحقائق تدل على النظر العميق ، والفهم الديني الصحيح ، يقول :

« ربما يحرصون على انفاق المال فى الحج ، فيحجون مرة بعد أخرى ، وربما تركوا جيرانهم جياعا ؛ ولذلك قال ابن مسعود : فى آخر الزمان يكثر الحجاج بلا سبب ، يهون السفر عليهم ، ويبسط لهم فى الرزق ، ويرجعون محرومين مسلوبين ، يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار ، وجاره مأسور بجنبه لا يواسيه . »[2].

ويقول :

« وفرقة أخرى من أرباب الأموال اشتغلوا بها ، يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التى لا يحتاج فيها إلى نفقة . كصيام النهار وقيام الليل ، وختم القرآن وهم مغرورون ، لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم ، فهو يحتاج إلى قمعه باخراج المال ، وقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ، ومثاله مثال من دخل فى ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء ، ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى السكنجبين ! ؟ ولذلك قيل لبشر (الحافى) : ان فلانا الغنى كثير الصوم والصلاة ؛ فقال المسكين : ترك حاله ودخل فى حال غيره ؛ وإنما حال هذا اطعام الطعام للجياع ، والانفاق على المساكين ، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ، ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدينار ومنعه للفقراء [3]. !

ويقول عن العامة وطوائف من الأغنياء والفقراء :

« وفرقة أخرى من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر ، واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم ، واتخذوا ذلك عادة ، ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ – دون العمل ودون الاتعاظ – أجرا ، وهم مغرورون ؛ لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا فى الخير ، فان لم يهيج الرغبة ، فلا خير منه ، والرغبة محمودة ؛ لأنها تبعث على العمل ، فان ضعفت عن الحمل على العمل ، فلا خير فيها . وما يراد لغيره فاذا قصر عن الاداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له ، وربما يغتر بما يسمعه من الوعظ من

---

(١) انظر المجلد الثالث ص ٣٤٥ – ٣٥٠ .

(٢) انظر المجلد الثالث ص ٣٥١ .

(٣) ص ٣٥٢ الجزء الثالث .

فضل حضور المجلس ، وفضل البكاء ، وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكى ولا عزم ، وربما يسمع كلاما مخوفا ، فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول : يا سلام سلم ! أو نعوذ بالله ! أو سبحان الله ! ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور ، وإنما مثاله مثال المريض الذى يحضر مجالس الأطباء ، فيسمع ما يجرى ، أو الجائع الذى يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف ، وذلك لا يغنى عنه من مرضه وجوعه شيئا ، فكذلك سماع وصف الطاعات - دون العمل بها - لا يغنى من الله شيئا ؛ فكل وعظ لا يغير منك صفة تغييرا بغير أفعالك ؛ حتى تقبل على الله تعالى اقبالا قويا أو ضعيفا ، وتعرض عن الدنيا ، فذلك الوعظ زيادة حجة عليك ، فاذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا»[1] .

وفى هذه القطع كلها يظهر الغزالى مصورا حاذقا ، يتناول بريشته البارعة مجتمع عصره، فيصور مخايله وقسمات وجهه ، ويجسم دقائقه وتجاعيده ، ويظهر فى ذلك كله ذكاؤه ، وسعة اطلاعه ، ودقة ملاحظته ، وبراعة تصويره ، وسلامة تفكيره .

مكانته بين علماء الأخلاق :

ويدل كتاب الإحياء على مكانته بين علماء الأخلاق ، وقد بحث عن الأخلاق ودوافعها ومنشأها وأصنافها بحثا دقيقا عميقا ، وتكلم فى أمراض القلب وأسبابها وعلاجها كلاما يجمع بين الحكمة والعلم والتجربة والتربية . وأن من يقرأ بحثه المستفيض فى بيان سبب كون الجاه محبوبا بالطبع ، حتى لا يخلو عنه قلب الا بشديد المجاهدة ، ليخضع ويقر بذكائه ودراسته للطبيعة البشرية ، وتحليله العلمى ، وعقله الكبير[2] .

وقد استحق الغزالى ببحوثه العميقة فى الأخلاق ، وبتأليفه العظيم «احياء علوم الدين» أن يوضع فى الصف الأول من علماء الأخلاق ، وأن يكون موضع دراسة وعناية من الباحثين فى علم الأخلاق ، وعلم النفس ، والمؤرخين لهذا الموضوع .

كتاب ترغيب وتهذيب :

ومن أشد أجزاء الكتاب تأثيرا فى النفس ، ما يشتمل على الترغيب والترهيب ، يصور الغزالى غرور الدنيا وخلود الآخرة ، والحاجة إلى الايمان والعمل الصالح وتهذيب النفس ،

---

(١) احياء علوم الدين ص ٣٥٢ ، ج ٢٢ .

(٢) انظر احياء علوم الدين ، المجلد الثالث ، ص ٢٤١ - ٢٤٤ .

ويحذر من أمراض القلب ، ويحاسب النفس ، ويدافع عنها ، ويعتذر كأحر ما يعتذر صديق محب ، ومحام بارع ، ثم يجيب عن ذلك ويقيم عليها الحجة كأحسن ما يفعل ذلك قاض نابغة ومشرع بصير ، ثم يرقق القول ويصف العلاج ، كأحسن ما يفعل طبيب حاذق ومرب عطوف ، ويجئ بالعجب العجاب ، ويسحر الألباب ، ويدمع العيون، ويرقق القلوب ، وقد أثرت هذه المواعظ الحكيمة الرقيقة فى قلوب الألوف ، وأحدثت فى حياتهم انقلابا وتحولا عظيما ، ومن شاء فليقرأ المرابطة السادسة فى توبيخ النفس ومعاتبتها[1] .

وقد أصبح كتاب الاحياء بذلك كله كتاب اصلاح وتربية ، وكأن المصنف حاول أن يكون هذا الكتاب - كمرشد ومرب - ، مغنيا عن غيره ، قائما مقام المكتبة الاسلامية ؛ لذلك جعله يحتوى على العقائد ، والفقه ، وتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، والحصول على مرتبة الاحسان .

تضرر بعض الناس من كتاب الإحياء :

ولكن مما يلاحظ أن كثيرا ممن يقتصر على مطالعة هذا الكتاب ، أو يكثر من قراءته ويشغف به ، ينشأ عنده غلو فى الزهد والتقشف ، ومخالفة النفس فى المباحات ، والكراهة للحياة ، والاكثار من الرياضات والمجاهدات ؛ حتى تتأثر بذلك صحته وعقله ، خصوصا فى هذا العصر الذى ضعفت فيه القوى والأجسام ، لذلك يمنع بعض المربين الحكماء عن مطالعة هذا الكتاب فى بداية الحال ، خصوصا الذين عندهم تأثر قوى ، وانفعال سريع ؛ ولعل السبب فى ذلك أن الغزالى صنفه فى حالة قد غلبت عليه فيها الخوف والهيبة وكان متأثرا شديد التأثر ؛ فجاء كلامه صورة نفسيته وتأثره ، وقد جمع فيه أقوالا كثيرة فى الزهد وقهر النفس وعصيانها ، لا تخلو من المبالغة والاسراف .

والحق ،أن السيرة النبوية - ويدخل فيها الحديث الصحيح - على صاحبها الصلاة والتحية - هى المدرسة الوحيدة التى تربى تلاميذها على الاعتدال الكامل والتوازن الصحيح، و « كل يؤخذ من قوله ويرد الا صاحب هذا القبر » [2] ، ويمثل ذلك بعض التمثيل قدوة دينية تجمع بين العلم الراسخ ، والسيرة المستقيمة ، والقلب الحى الفائض قد تشرب السيرة ، وتذوق السنة ، وذاق حلاوة الايمان ، وحاز اليقين ، ولم يزل ولا يزال

---

(١) انظر احياء العلوم المجلد الرابع ص ٣٥٦ - ٣٥٨ .

(٢) من كلام الامام مالك رضى الله عنه .

الدين يؤخذ من الأحياء ، ويقوم بالاحياء ، ولم يكن الانسان فى دور من الأدوار غنيا عن القدوة والصحبة .

فضل كتاب الإحياء :

وعلى ما تعقب من الغزالى فى الإحياء من ايراد أحاديث ضعيفة ؛ بل موضوعة فى كثير من الأحيان [(١)] ، وأشياء من كلام الصوفية الممعنة فى الغلو ، وهضم النفس وترك المباحات ، وقد لا تتفق مع أصول الدين ، ومع ما ورد فيه من مواد كلام الفلاسفة . . . إلى غير ذلك من مآخذ تعقبها العلامة الحافظ ابن الجوزى [(٢)] ، وشيخ الاسلام ابن تيمية [(٣)] ، مع اعترافهما بفضل الكتاب ؛ فان كتاب الإحياء فى مقدمة الكتب الاسلامية التى انتفع بها خلائق لا تحصى فى كل عصر وجيل ، وأثرت فى النفوس تأثيرا لا يعرف الا عن كتب معدودة ، ولا يزال الكتاب الذى يكثر قراؤه والمعجبون به والمتأثرون به فى أكثر البلاد ولا يزال ثروة زاخرة فى الدين ، ومصدرا قويا من مصادر الاصلاح والتربية .

شخصية الغزالى وفضله :

لا شك أن الغزالى من نوابغ الاسلام وعقوله الكبيرة ، ومن كبار قادة الفكر الاسلامى ورجال الاصلاح والتجديد الذين لهم فضل كبير فى بعث الروح الدينية ، وايقاظ الفكر الاسلامى ، والدعوة إلى حقائق الاسلام وأخلاقه ، وفى مقاومة الغزوات العقلية التى كانت تجتاح المجتمع الاسلامى والفكر الاسلامى . ومهما قيل فيه ، وقيل عنه ، فان اخلاصه أسمى من أن يشك فيه .

وأن علو همته فى جميع العلوم والنبوغ فيها ، ثم علو همته فى طلب الحقيقة واليقين ، ثم علو همته فى طلب الآخرة وتحقيق غاية الوجود ، لا يزال موضع استغراب وتقدير واكبار من الجميع ، وان ما خلفه من آثار وتراث علمى ثروة علمية اسلامية لا يستهان بقيمتها ، ولا ينكر فضلها فى عصر من العصور . سلام الله على هذه الروح الزكية والهمة العالية والعقل الاسلامى الكبير ! وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

---

(١) قام الحافظ الامام زين الدين العراقى صاحب الألفية بتخريج أحاديث الإحياء وتعريف درجتها سماه « المغنى عن حمل الأسفار فى تخريج ما فى الإحياء من الأخبار » طبع مع الإحياء بمطبعة مصطفى البابى الحلبى .

(٢) انظر « المنتظم » لابن الجوزى ج ٩ ص ١٦٩ - ١٧٠ طبع دائرة المعارف حيدر آباد .

(٣) انظر فتاوى ابن تيمية ج ٢ ص ١٩٤ .

الإمام عبد القادر الجيلانى

عَصْرُه ، حَيَاتُه ، صِفَتُه ، تأثيرُه

الحاجة إلى الدعوة الشعبية والاصلاح العام [١] :

لقد قام حجة الاسلام الغزالى ، بشخصيته الفريدة القوية وجهاده العلمى والاصلاحى ، بدور عظيم فى تاريخ الاصلاح والتجديد ، وكان الرجل المطلوب للدفاع عن الاسلام عند هجوم الفلسفة اليونانية ، والحاد الباطنية وانحراف العلماء ؛ ولكن ظل العالم الاسلامى فى حاجة شديدة إلى داع شعبى ، وشخصية روحية رفيعة ، أكثر اتصالاً بالشعب وطبقات الجماهير ، ينفخ فى المجتمع ، بدعوته ومواعظه وبتزكيته للنفوس واصلاحه للأخلاق ، روحاً دينية وحياة إيمانية .

وقد كانت الكثرة من المسلمين فريسة العلل الخلقية والاجتماعية ، وقد انتشر فيها التعطل والغفلة والجهالة والنفاق ، ولم تؤثر المناقشات العلمية والفلسفات الملحدة إلا فى الطبقة المثقفة الراقية ، وخاصة الخاصة .

وقد ظلت الملكية المطلقة والحكومة الشخصية ، تعملان عملهما فى آخلاق الشعب طيلة أربعة قرون ، وقد وجدت بتأثيرهما طبقة كبيرة لا هم لها فى الحياة إلا الحصول على الثروة والترف ، أو نيل الجاه والشرف ، وقد كانت لا تجحد بالله والآخرة كعقيدة ؛ ولكنها قد نسيت الله بتاتاً ، وكانت تعيش فى ذهول عن الآخرة ، وتحيا حياة مترفة لاهية .

وقد أنشبت الحضارة العجمية أظفارها فى المجتمع الاسلامى ، وتغلغلت العادات العجمية والتقاليد الجاهلية فى نظام الحياة ، وارتفع مستوى المعيشة فى الحواضر الاسلامية ارتفاعاً عظيماً ، وتضخمت تكاليف الحياة وضرائب المجتمع - وهو ما يفرضه من لباس ومظاهر وأداب هى أقسى من ضرائب الحكومة - ووجدت أمة من « رجال البلاط » وحاشية الامراء ، وندماء أبناء الملوك وعباد الأغراض ، ومنتهزى الفرص « النفعيين » .

وقد كانت الطبقة الوسطى على أثر الأمراء والأغنياء ، وكان العامة والعملة والفلاحون خاضعين لأخلاق الطبقة الوسطى ، يرون الشرف فى تقليدها والتشبه بها ، وكان الذين

---

(١) زاد المحاضر بعد رجوعه إلى الهند محاضرات جديدة عن الامام عبد القادر الجيلانى ومولانا جلال الدين الرومى ، ضمت إلى الكتاب .

يملكون وسائل الحياة والسعة فى المعيشة يستخدمونها فى التمتع بالحياة وارضاء الشهوات . أما الذين حاموها ،فكانوا يقضون حياتهم فى تحسر وتوجع ، ويعتبرون نفوسهم - مهما أوتوا من العلم والنسب والاخلاق الفاضلة - أذل من الدواب والانعام . وكان أصحاب اليسار والأموال لايعرفون الإيثار والعطف على الضعفاء والبر بالفقراء ، والشكر على ما أكرمهم الله به من سعة ورخاء .

أما البؤساء والكادحون فكانوا لا يعرفون الصبر والرضا ، والألفة والأباء ، وهكذا فقدت الحياة اتزانها وهدوءها ، وأصيبت بنوبة عصبية عنيفة ، لا يرى من سيطر على أموال عظيمة وتسلط على هلكتها واستغلالها للهوى والشباب ، أو الجاه والنفوذ ، وإلا من يحسد هذه الطبقة ويعيش فى هموم وغموم لا أرجاء لها ، ولا تنتهى إلا مع الحياة ، فلا دنيا يلهو بها ويقضى وطره ، ولا دين يلجأ إليه ويعتز به .

كان المجتمع الاسلامى - بكل ما ذكرناه - فى حاجة ملحة إلى دعوة دينية ، تخفف غلواء حب الدنيا ، وتحد من شدته وحدته ، وتوقظ فى النفوس الايمان وتثير عقيدة الآخرة، وتحرك فى القلوب الحب لله والحنين إليه وتحث على الطموح وعلو الهمة وبذل الجهد فى الحصول على علم الله الصحيح وعبادته ، ونيل رضوانه والمسابقة فى سبيله ، وتدعو إلى التوحيد الكامل ، والدين الخالص ، دعوة صريحة مكشوفة ، وتبين ضعف أهل الدنيا وأصحاب الثروة ورجال الحكومة وفقرهم ، فى قوة ووضوح وثقة واعتداد بالنفس ، وأن الاسباب لا قوة لها ولا تأثير : وأنها مسخرة خاضعة لارادة الله تعالى يتصرف فيها ، ويملكها ويصرفها كيف يشاء .

مؤهلات الداعى العلمية :

يتسم القرن الخامس والسادس فى تاريخ الإسلام بسعة فى العلم والتقدم فى الآداب ، وقد نبغ فيهما علماء كبار ومؤلفون بارعون . وقد كان من رجال أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس والسابع العلامة « أبو اسحق الشيرزاى (م ٤٧٦ هـ) و « حجة الاسلام الغزالى » (م ٥٠٥ هـ) وأبو الوفاء « ابن عقيل » (م ٥١٣) و « عبد القادر الجرجانى » (م ٤٧١ هـ) و « أبو زكريا التبريزى » (م ٥٠٢ هـ) « وأبو القاسم الحريرى » (م ٥١٦ هـ) و « جار الله الزمخشرى » (م ٥٣٨ هـ) و « القاضى عياض المالكى » (م ٥٤٤ هـ) الذين ظلوا قروناً مسيطرين على العقول والاتجاهات ، وكانوا مدارس أدبية علمية ، لم يكن لأحد فى هذا العهد الزاخر بالحياة العلمية ونوابغ الفن كالقرن الخامس والسادس . وفى بلد زاخر بالمدارس وحلقات الدروس كبغداد ، أن يؤثر

فى مجتمعه الذى قطع شوطاً واسعاً فى العلم ، وانتشرت الثقافة فى طبقاته انتشاراً كبيراً ، ولم يكن له أن يلفت إليه الأنظار ، وينفذ إلى أعماق النفوس والقلوب ، وتخضع له الطبقات المثقفة وحملة لواء العلم فى عصره ، إلا إذا كان عالى الكعب طويل الباع فى العلوم السائدة ، ومتضلعاً من علوم الدين والدنيا ، قد أقر له معاصروه بالفضل ، وشهد له علماء بلده بغزارة العلم وسعة المعارف .

وكان يجب أن يكون هذا الداعى صاحب بيان ولسان ، يخاطب العلماء والمثقفين فى أسلوبهم والعامة فى أسلوبها ، وكان يجب أن يكون صاحب نفس زكية ، وهمة قوية مؤثرة ، وعلى جانب عظيم من الزهد والقناعة والعزوف عن الشهوات وكبر النفس ، يجد ضعاف الايمان وضعاف النفوس فى مجالسه قوة اليقين وحرارة الايمان ، ويجد أهل الشك والارتياب السكينة والاذعان ، ويجد أصحاب النفوس القلقة والقلوب الجريحة المنكسرة الهدوء والعزاء والسلوان ، ويجد هواة الحقائق والمعارف وأصحاب الدارسات العلوم الدقيقة والنكت اللطيفة ، ويجد أصحاب البطالة والعطلة وأصحاب القلوب الخامدة ما يملؤهم حماسة وايماناً ، وما يحفزهم إلى العمل والجهاد ، ويجد عباد اللذات والشهوات والمترفون فى الحياة ، الذين تجرأوا على المعاصى والمحارم ، ما يبعث فيهم الاقلاع والندامة والتوبة والانابة . وبالجملة ، يجد كل أحد فى مجالسه غناءه ودواءه وغذاءه وشفاءه ويقف كمنارة عالية من الايمان والعلم فى بحر من الظلمات والجاهلية . يأوى إليها الغرقى ويهتدى بها الحائرون ، ويخلف الأنبياء فى دعاء الخلق إلى الله ، ودعوة الناس إلى دار السلام ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ويخلفون الأنبياء فى تهذيب النفوس وتجديد الصلة بالله تعالى ، والتذكير بالآخرة ، وإيثارها على الدنيا ، وتجريد التوحيد واخلاص الدين لله تعالى ، وذلك كله من أهم مقاصد بعثة الأنبياء ومن أعظم أهدافهم ، ولا يمكن أن يبقى الاسلام كدين ونظام خلقى وأسلوب للحياة ودعوة مؤثرة حتى يكون له دعاة مجددون من هذا الطراز .

لقد كانت وطأة الحكومة التى كان على رأسها الملوك المسلمون الذين يتسمون بالخلفاء شديدة على المجتمع الاسلامى ، ولقد كان للمسلمين اندفاع قوى إلى الجاهلية ، ولقد كانت هذه الأوضاع خطراً كبيراً على الاسلام وعلى « المزاج » الاسلامى ؛ فكان المجتمع الاسلامى المحاط بهذه الأخطار فى حاجة شديدة إلى مصلح دينى ومجدد اسلامى من الطبقة الأولى ، يحارب الجاهلية التى تسربت إلى الاسلام ، فى عاصمتها وفى أوجها ، وينفخ روحاً ايمانية جديدة فى هذا العالم المنهار .

لقد وجد هذا المصلح فى شخص الشيخ « عبد القادر الجيلانى » الذى ظهر فى بغداد فى آخر القرن الخامس ، وتسلم الزعامة الدينية وعاش نحو قرن فرداً فريداً فى الدعوة إلى الله ، والتف حوله العالم الاسلامى ، وأثر فيه تأثيراً لم يؤثر مثله عالم أو مصلح من مدة طويلة .

دراسته ونبوغه :

ولد الشيخ عبد القادر سنة ٤٧٠ هـ فى جيلان [١] ، ينتهى نسبه إلى الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما ، دخل بغداد سنة ٤٨٨ هـ ، وله ثمانى عشرة سنة ، وهى السنة التى خرج فيها أبو حامد الغزالى من بغداد تاركاً لتدريس النظامية ، زاهداً فى الدنيا طالباً للمعرفة واليقين [٢] ، وأقبل إلى العلم بهمة عالية وجد وحرص ، ولم يعقه بالعبادة والاشتغال بالله عن الاشتغال بالعلم ، ولم يرض بالقناعة فى العلم والاقتصار على القليل الذى لابد منه .

قرأ العلوم السائدة فى عصره على أساتذتها الكبار والمبرزين فيها وأتقنها ومهر فيها ، وحصلت له فيها اليد الطولى . ومن شيوخه أبو الوفاء ابن عقيل . ومحمد بن الحسن الباقلانى . وأبو زكريا التبريزى . وأخذ الطريقة عن الشيخ أبى الخير حماد بن مسلم الدباس [٣] ، وأكملها عند القاضى أبى سعيد المخرمى [٤] ، وحصلت له الاجازة عنه .

الاصلاح والارشاد :

عنى الشيخ عبد القادر - بعدما أتم دراسته العلمية والروحية - بالاصلاح وارشاد الخلق إلى الحق . وجمع بين الرئاسة الدينية والرئاسة العلمية . وكان أبو سعيد قد بنى مدرسة

---

(١) جيلان أو كيلان ويقال أيضاً بلاد الديلم ، ولاية من القسم الشمالى الغربى من بلاد فارس ، يحدها شمالاً ناحية تانيس الروسية ، وجنوباً بغرب سلسلة جبال البرز الفاصلة بينهما وبين اذربيجان وعراق العجم ، وجنوباً بشرق مازنداران وشمالاً بشرق بحر قزوين ، وهى تعد من أجمل ولايات فارس «دائرة المعارف للبستانى » .

(٢) البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٤٩ .

(٣) قال الشعرانى : انتهت إليه رياسة تربية المريدين ، وانتمى إليه معظم مشايخ بداد وصوفيتهم فى وقته . توفى سنة ٥٢٥ هـ .

(٤) هو المبارك بن على بن الحسين قال عنه ابن كثير : سمع الحديث وتفقه على مذهب أحمد ، وناظر وافتنى ودرس . كان حسن السيرة ، جميل الطريقة ، سديد الأقضية ، توفى سنة ٥١١ هـ .

لطيفة بباب الأزج ، ففوضت إليه ، وتكلم مع الناس بلسان الوعظ ، وظهر له صيت ، فضاقت مدرسته بالناس من ازدحامهم على مجلسه ؛ فجلس للناس عند السور أياماً ، ثم وسعت بما أضيف إليها من المنازل والأكنة التى حولها . وبذل الاغنياء فى عمارتها أموالهم. وعمل الفقراء فيها بأنفسهم ، واكتملت المدرسة فى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، وصارت منسوبة إليه . وتصدر بها للتدريس والفتوى والوعظ ، مع الاجتهاد فى العلم والعمل ، وجمع قلوب عباده على حبه . وألهج ألسنتهم بالثناء عليه . وانتهت إليه رئاسة العلم والتربية والاصلاح والرشاد والدعوة إلى الله بالعراق ، وقصده الناس من الآفاق . ورزقه الله من الوجاهة والقبول ما أزرى بوجاهة الملوك والسلاطين ، وهابه الخلفاء والملوك والوزراء فمن دونهم . قال الشيخ « موفق ابن قدامة » صاحب المغنى : « لم أر أحداً يعظم من أجل الدين أكثر منه » .وكان يحضر مجالسه فى بعض الأحيان الخليفة والملوك والوزراء فيجلسون متأدبين خاشعين . أما العلماء والفقهاء فلا يأتى عليهم حصر ، وقد عد فى بعض مجالسه أربعمائة محبرة [1] .

صفته وأخلاقه :

كان من أخلاقه أن يقف مع جلالة قدره مع الصغير والجارية ويجالس الفقراء ويفلى لهم ثيابهم ؛ وكان لا يقوم قط لأحد من العظماء وأعيان الدولة ، ولم يلم قط بباب وزير ولا سلطان[2] ، وكان إذا جاءه خليفة أو وزير يدخل الدار ثم يخرج حتى لا يقوم له [3] ، وقد اتفقت الألسنة وشهادات المعاصرين على حسن خلقه وعلو همته ، وتواضعه لله تعالى، وسخائه وايثاره لغيره ، قد وصفه أحد رجال عصره « حرادة » وقد عاش طويلاً ، وصحب كثيراً من الشيوخ الكبار ، فقال :

« ما رأت عيناى أحسن خلقاً ، ولا أوسع صدراً ، ولا أكره نفساً ، ولا ألطف قلباً ، ولا أحفظ عهداً وودا من سيدنا الشيخ عبد القادر ، ولقد كان - مع جلالة قدره ، وعلو منزلته ، وسعة علمه - يقف مع الصغير ، ويوقر الكبير ، ويبدأ بالسلام ويجالس الضعفاء، ويتواضع للفقراء ، وما قام لأحد من العظماء ولا الاعيان ، وإلا ألم بباب وزير ولا سلطان » [4].

---

(١) ملخصاً من المنتظم ، والبداية وذيل طبقات الحنابلة ، والطبقات الكبرى .

(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى ص ١٢٧ .

(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى ص ١٢٨ .

(٤) قلائد الجواهر .

وقال الامام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف البرزالى الاشبيلى :

« كان مجاب الدعوة ، سريع الدمعة ، دائم الذكر ، كثير الفكر رقيق القلب ، دائم البشر ، كريم النفس ؛ سخى اليد ، غزير العلم ، شريف الاخلاق طيب الاعراف ، مع قدم راسخ فى العبادة والاجتهاد » [١].

وقال مفتى العراق ، محى الدين أبو عبد الله محمد بن حامد البغدادى : « كان أبعد الناس عن الفحش ، أقرب الناس إلى الحق ، شديد البأس إذا انتهكت محارم الله عز وجل، لا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لغير ربه » .

كان له غرام باطعام الطعام ، والانفاق على ذوى الحاجة والعاهة ؛ قال العلامة «النجار» فى تاريخه : قال الجبائى قال الشيخ عبد القادر « فتشت الاعمال كلها . فما وجدت فيها أفضل من اطعام الطعام ، ولا أشرف من الخلق الحسن . أود لو كانت الدنيا بيدى أطعمتها الجائع » وقال : قال لى « كفى مثقوبة لا تضبط شيئاً ، لو جاءنى الف دينار لم تبت عندى» [٢] وقال صاحب قلائد الجواهر : « كان رضى الله عنه يأمر كل ليلة بعد البساط ، يأكل مع الأضياف ويجالس الضعفاء . ويصبر من غاب من أصحابه ، ويسأل عن شأنهم، ويحفظ ودهم ، ويعفو عن سيئاتهم ويصدق من حلف له ، ويخفى علمه فيه » [٣].

أحياء القلوب الميتة :

اتفق المؤرخون على كثرة كرامات الشيخ عبد القادر ؛ قال الشيخ موفق الدين صاحب المغنى : «لم أسمع عن أحد يحكى عنه من الكرامات أكثر مما يحكى عن الشيخ عبد القادر» وذكر الشيخ عز الدين بن عبد السلام : «أنه لم تتوافر كرامات أحد من المشائخ إلا الشيخ عبد القادر ؛ فإن كراماته نقلت بالتواتر [٤] وكذلك قال شيخ الاسلام ابن تيمية[٥].

ولكن من أجل كراماته احياء موات [٦] ؛ النفوس والقلوب ، وزرع الإيمان وخشية الله

---

(١) قلائد الجواهر ص ٩ .

(٢) قلائد الجواهر ص ١٠ .

(٣) قلائد الجواهر ص ٩ .

(٤) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب .

(٥) جلاء العينين للألوسى .

(٦) الموات : الأرض الخالية من السكان ، أو التى لا ينتفع بها أحد وفى الحديث : من أحيى مواتاً من الأرض فهو له .

وحبه فيها ، واشعال مجامر القلوب التى انطفأت من جديد ؛ فقد أعاد الله به إلى قلوب لا يحصيها إلا الله حياة وايماناً . وهبت بمواعظه وتربيته رياح من الايمان عاشت بها قلوب ميتة ، ونشطت بها نفوس خامدة ، وانطلقت فى العالم الاسلامى موجة من الايمان الجديد، والروحانية القوية ، والأخلاق الفاضلة ، والتقوى . وقد هيأ الله له الزعامة الدينية والروحية فى العالم الاسلامى ؛ فاختار له بغداد - عاصمة المملكة العباسية وقلب العالم الاسلامى - وجاءته بغداد - وهى من أكبر مدن العالم - تسعى ، وازدحم الناس عليه ازدحاماً كبيراً ، قال : « كان يجلس عندى رجلان وثلاثة يسمعون كلامى ، ثم تسامع بى الناس وازدحم على الخلق ؛ فكنت أجلس فى المصلى بباب الحلبة ، ثم ضاق على الناس ، فأخرجوا الكرسى إلى داخل السرر بين التنانير ، وكان الناس يجيئون فى الليل على الشمع والمشاعل ، يأخذون لهم مواضع ، ثم ضاق على الناس الموضع ، فحمل الكرسى إلى خارج البلد ، وجعل فى المصلى ، وكانوا يجيئون على الخيل والبغال والحمير والجمال ، ويقفون ما دار المجلس كالسرر ، وكان يحضر المجلس نحو من سبعين ألفاً»[1] .

وكان لمجالسه تأثير عظيم ونفع كثير ؛ قال الشيخ عمر الكيسانى : « لم تكن مجالس سيدنا الشيخ عبد القادر رضى الله عنه تخلو ممن يسلم من اليهود والنصارى ، ولا ممن يتوب من قطاع الطريق ، وقاتلى النفس ، وغير ذلك من الفساق ولا ممن يرجع عن معتقد سيء »[2] وقد كان يشعر بذلك ويحمد الله عليه ، ويفضله على ما كان يهواه من الخلوة بالله ، والانقطاع عن الخلق والاشتغال بالعبادات ، قال الجبائى : قال لى سيدنا الشيخ : «أتمنى أن أكون فى الصحارى والبرارى كما كنت فى الأول ، لا أرى الخلق ولا يروننى » ثم قال : « أراد الله عز وجل منى منفعة الخلق ؛ فإنه قد أسلم على يدى أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى ، وتاب على يدى من العيارين والمسالحة [3] أكثر من مائة ألف ، وهذا خير كثير »[4] .

وكان الشيخ يعتقد - بحق - أنه مكلف بذلك مأمور به يقول فى المجلس :

---

(١) قلائد الجواهد ص ١٥ - ١٦ .

(٢) قلائد الجواهر ص ٢٢ .

(٣) المسالح : الجماعة ، أو القوم ذوو السلاح .

(٤) قلائد الجواهر ص ٢٢ .

« سبحان من ألقى فى قلبى نصح الخلق ، وجعله أكبر همى ! انى ناصح ولا أريد على ذلك جزاء ؛ أجرتى قد حصلت لى عند ربى عز وجل ؛ ما أنا طالب دينا ، ما أنا عبد الدنيا ولا الآخرة ، ولا ما سوى الحق عز وجل ، ما أعبد إلا الخالق الواحد الأحد القديم، فرحى بفلاحكم ، وغمى لهلاككم »[1] .

اشتغاله بالعلم ونصرته للسنة :

ولم يمنعه اشتغاله بالوعظ والإرشاد وتربية النفوس من الاشتغال بالتدريس ، ونشر العلم ونصر السنة والعقيدة الصحيحة ومحاربة البدع ، وقد كان فى العقيدة والفروع متبعاً للامام أحمد والمحدثين والسلف ، قال ابن رجب : « كان متمسكاً فى مسائل الصفات والقدر ونحوهما بالسنة ، مبالغاً فى الرد على من خالفها »[2].

وقد كان قوى الاشتغال بالتدريس ، عالماً متفنناً . قالوا : كان يتكلم فى ثلاثة عشر علماً ، وكانوا يقرأون عليه فى مدرسته درساً من التفسير ، ودرساً من الحديث والمذهب والخلاف ، وكانوا يقرأون عليه طرفى النهار التفسير وعلوم الحديث ، والمذهب والخلاف ، والأصول ، والنحو . وكان رضى الله عنه يقرأ القرآن بالقراءات بعد الظهر ، وكان يفتى على مذهب الامام الشافعى والامام أحمد بن حنبل رضى الله عنهما ، وكانت فتواه تعرض على العلماء بالعراق ، فتعجبهم أشد الاعجاب[3] ؛ رفع إليه سؤال فى رجل حلف بالطلاق الثلاث أنه لابد أن يعبد الله عز وجل عبادة ينفرد بها دون جميع الناس فى وقت تلبسه بها ، فماذا يفعل من العبادات ؟ فأجاب على الفور : « يأتى مكة ، ويخلى له المطاف ، ويطوف سبعاً وحده ، وينحل يمينه[4] فأعجب علماء العراق ، وكانوا قد عجزوا عن الجواب عنها »[5].

الاستقامة والتحقيق :

وقد اتجه التصوف فى القرن الخامس اتجاهاً فيه الاستقلال الذى قد ينتهى إلى الانفصال

---

(١) الفتح الربانى ، المجلس السادس .

(٢) طبقات الحنابلة .

(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى ص ١٢٦ .

(٤) يعنى سبعة أشراط .

(٥) الطبقات الكبرى ص ١٢٧ .

عن الشريعـة ، وأصبح - أو كاد يصبح - مـؤسسة أو مدرسة قـائمة بنفسهـا ، لا تتصل بالشريعة ألا اتصالاً شكليـاً . وشاعت شطحات الصوفية ، ودعاوى الوصول إلـى الحقيقة والنهاية التى تسقط فيها الفرائض والتكاليف الشرعية ، وشهرت نزعة « وحدة الوجود » ، وبدأت الفوضى فى بعض زوايا الصوفية ؛ فكان الشيخ عـبد القادر من أكبر المعارضين لهذا الاتجاه الثـائر ،ومن أكبر الـدعاة إلى اخضـاع « الطريقة » للشريعـة ، والتمسـك بالكتاب والسنة وتحكيمـهما فى جميع الأحـوال والأقوال والأعمال . وقد اسـتطاع بقوة شخصـيته وبإخلاصه وعلمه القوى ، أن يمنع هذا الاتجاه الخطيـر ، ويرجع بالتصوف إلى ما كان عليه فى العصر الأول . قال الشعرانى : « كانت طريقته التوحيد وصفاً وحكماً وحالاً ، وتحقيقه الشرع ظاهراً وباطناً » وكان رضى الله عنه يقول لأصحابه : « اتبعوا ولا تبتدعوا ، وأطيعوا ولا تخالفوا ! » [1] ومن قوله رحـمه الله : « إن انخرم فيك شىء من الحـدود فاعلم أنك مفتون ، قد لعب بك الشيطان ؛ فارجع إلى حكم الشرع والزمه ، ودع عنك الهوى ؛ لأن كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهى باطلة » [2] ويقول حاثا على التمسك بالكتاب والسنة والتزام اتباع الرسول ﷺ :

« كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهى زندقة ، طر إلى الحق عز وجل بجناحى الكتاب والسنة ؛ أدخل عليه ويدك فى يد الرسول ﷺ ؛ اجعله وزيرك ومعلمك ؛ دع يده تزينك وتمشطك وتعرضك عليه ؛ » [3].

ويقول منـكراً على من يعتـقد أن التكاليف الشـرعية تـسقط عن السالـك فى حال من الأحوال : « ترك العبـادات المفروضات زندقة ، وارتكاب المحظورات معصـية ؛ لا تسقط الفرائض عن أحد فى حال من الأحوال » [4].

وقد كـان جبلاً راسيـاً فى الاستقـامة على الشريعة ، وقـد وصل بكمال اتباعـه وعلمه الراسخ ، وتأييـد الله سـبحانه وتعـالى ، حـيث صـار يميز بين الحق والبـاطل ، والنور والظلمة ، والموارد الالهيـة والطوارق الشيطانية . وقد كان أشد الناس ايماناً - كـما قدمنا - بأن الاحكام الشرعية لا تتبدل ، ولا ناسخ لها بعد الرسول ﷺ . وإن من ادعى نسخها أو

---

(١) الطبعات الكبرى ص ١٢٩ .

(٢) أيضاً ص ١٣١ .

(٣) الفتح الربانى المجلس الرابع والأربعون .

(٤) الفتح الربانى المجلس الحادى عشر .

تعطيلها فقد كفر وكان مطية الشيطان ، وقد عرضت له محن ثبت فيها ؛ لعلمه الراسخ وبصيرته النافذة ، يقول :

تراءى لى نور عظيم ملأ الأفق ، ثم تدلى فيه صورة تنادينى : يا عبد القادر ؛ أنا ربك؛ وقد حللت لك المحرمات ، فقلت : اخسأ يا لعين ؛ فإذا ذلك النور ظلام ، وتلك الصورة دخان ، ثم خاطبنى : يا عبد القادر ؛ نجوت منى بعلمك بأمر ربك وفقهك فى أحوال منازلاتك ، ولقد أضللت بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق ، فقلت لله الفضل ، فقيل له : كيف علمت أنه شيطان ؟ قال : بقوله قد حللت لك المحرمات» [(١)] .

التفويض والتوحيد : كانت قدمه رحمه الله على التفويض والموافقة مع التبرى من الحول والقوة . كان الشيخ عدى بن مسافر [(٢)] يقول : « كان الشيخ عبد القادر رضى الله عنه طريقته الذبول ، تحت مجارى الاقدار بموافقة القلب والروح » .

وقد جاهد فى ذلك نفسه مجاهدة شديدة ، يقول فى مقالة : « جاهدت نفسى فى ترك الاختيار والإرادة ؛ حتى حصل لى ذلك ؛ فصار القدر يقودنى ، والمنة تنصرنى ، والفعل يحركنى والغيرة تعصمنى ، والإرادة تطيعنى ، والسابقة تقدمنى . والله عز وجل يرفعنى»[(٣)] .

وقد تجلى هذا الذوق وهذا الاتجاه فى كلامه واضحاً قوياً ، وقد وصف رجلاً تجرد عن إرادته واختياره ، واستسلم للقضاء ، وإرادة الله سبحانه وتعالى ، – وإنما يعنى نفسه – يقول رحمه الله « إذا ابتلى العبد ببلية تحرك أولاً فى نفسه بنفسه ؛ فإن لم يتخلص منها ، استعان بغيره من الخلق : كالسلاطين ، وأرباب المناصب ، وأبناء الدنيا ، وأصحاب الأموال ، وأهل الطب فى الأمراض والأوجاع ؛ فإن لم يجد فى ذلك خلاصه ، رجع حينئذ إلى ربه بالدعاء والتضرع والثناء ، فما دام يجد عند نفسه نصرة ، استطرح بين يديه مديماً للسؤال والدعاء والتضرع والثناء ، والافتقار مع الخوف منه والرجاء ، ثم يعجزه الخالق عز وجل عن الدعاء ولم يجبه ؛ حتى ينقطع عن جميع الاسباب ، فحينئذ ينفذ فيه القدر ، ويفعل الفعل ، فيفنى العبد عن جميع الاسباب والحركات ؛ فيبقى روحاً فقط ؛ فلا يرى إلا فعل الحق عز وجل ، فيصير موقنا موحداً ضرورة ، ويقطع أن لا فاعل على

---

(١) الطبقات الكبرى ص ١٢٧ .

(٢) الطبقات الكبرى ص ١٢٧ .

(٣) الفتح الربانى المجلس الثالث والأربعون .

الحقيقة إلا الله ، ولا محرك ولا مسكن إلا الله ، ولا خير ولا شر ، ولا ضرر ولا نفع ، ولا عطاء ولا منع ، ولا فتح ولا غلق ، ولا موت ولا حياة ، ولا عز ولا ذل ، ولا غنى ولا فقر إلا بيد الله ؛ فيصير حينئذ كالطفل الرضيع في يد الظئر ، والميت الغسيل في يد الغاسل ، والكرة في صولجان الفارس يقلب ويغير ويبدل ويكون ، ولا حراك به في نفسه ولا في غيره ، هو غائب عن نفسه في فعل مولاه ؛ فلا يرى غير مولاه وفعله ولا يرى سواه ، ولا يسمع ولا يعقل من غيره ؛ إن أبصر فلصنعه أبصر ، وإن سمع وعلم فلكلامه سمع ، ولعلمه علم ، وبنعمته تنعم ، وبقربه سهد ، وبتقربه تزين وتشرف ، وبوعده طاب وسكن ، وبه اطمأن وبحديثه أنس ، وعن غيره استوحش ونفر والى ذكره التجأ وركن ، وبه عز وجل وثق ، وعليه توكل ، وبنور معرفته اهتدى وتقمص ، وتسربل »[1] .

ويقول في مقالة أخرى :

« العبد إذا عرف الله عز وجل سقط الخلق من قلبه ، وتناثروا عنه كما يتناثر الورق اليابس من الشجر ؛ فيبقى بلا خلق في الجملة . يعمى عن رؤيتهم ، ويصم عن سماع كلامهم من حيث قلبه وسره »[2] .

شفقته على الخلق : وقد كان - رحمة الله عليه - عطوفاً ، شفيقاً ، رفيقاً بالأمة المحمدية وعامة الناس ، دائم الدعوة والدعاء لهم ، يرق قلبه ، ويرثى لضعفائهم والمشتغلين بما لا ينفعهم في الآخرة ، ناصحاً لكل طبقة ، محباً للخير لها ، يحرص على اسعادها وأخراجها من الظلمات إلى النور ، يقول مخاطباً لمستمعيه :

« يا خلق الله ؟ ؛ إني أطلب صلاحكم ومنفعتكم في الجملة أتمنى غلق أبواب النار وعدمها بالكلية ، وأن لا يدخلها أحد من خلق الله عز وجل ، وفتح أبواب الجنة ، وأن لا يمنع من دخولها أحد من خلق الله عز وجل ، وانما تمنيت هذه الامنية لاطلاعي على رحمة الله عز وجل وشفقته على خلقه ، فعودى لمصالح قلوبكم بتهذيبها ، لا لتغيير الكلام وتهذيبه ، لا تهربوا من خشونة كلامي ، فما رباني ألا الخشن في دين الله عز وجل ، كلامي خشن ، وطعامي خشن ، فمن هرب مني ومن أمثالي لا يفلح »[3] .

ويقول في مناسبة أخرى ، وهو يصف الدعاة إلى الله ، والعلماء الربانيين ، ورحمتهم

---

(١) فتوح الغيب المقالة الثالثة .

(٢) الفتح الرباني ، المجلس السادس والخمسون .

(٣) الفتح الرباني ، المجلس التاسع والأربعون .

بخلق الله ، وحرصهم على خلاصهم وسعادتهم :

« كيف لا يرحمون العصاة وهم موضع الرحمة ، مقام التوبة والاعتذار ، العارف خلقه من اخلاق الحق عز وجل ، فهو يجتهد فى تخليص العاصى من يد الشيطان والنفس والهوى ، إذا رأى أحدكم ولده أسيراً فى يد كافر ، أليس يجتهد فى تخليصه ، فهكذا العارف ، الخلق جميعهم كالأولاد »[1].

ويحكى - رحمه الله - حال من خصه الله بهذه الشفقة العامة والنصح الدائم ويدخل فى سوق ، وانما يصف نفسه الكريمة :

« منهم من إذا دخل السوق ، امتلأ قلبه بالله لاهله ، فتشغل الرحمة لهم عن النظر إلى ما لهم بين أيديهم ، فهو من حين دخوله إلى حين خروجه فى دعاء واستغفار ، وشفاعة لأهله ، وشفقة ورحمة ، فقلبه محترق عليهم ولهم ، وعينه مغروقة لأجلهم ، ولسانه فى ثناء وحمد لله عز وجل بما أولى الكافة من نعمه وفضله »[2].

دعوته للاسلام : أن وجود الشيخ عبد القادر الجيلانى فى قوة ايمانه ، وقوة عمله ، وقوة دعوته ، وسمو سيرته واخلاقه ، وزهده فى الدنيا فى عصر المادية وعصر الغفلة والانحطاط ، كان دليلاً على خلود الاسلام وصلاحيته للبقاء ، وصلاحيته للانتاج ، وعلى أن شجرته لم تنقطع - ولن تنقطع - عن الاثمار والازدهار ، فإذا كان الاسلام دين عقيدة وايمان ، وعمل وجهاد ،ودعوة واصلاح - وهو كذلك - فلابد أن يظهر فى مختلف أعصاره وأمصاره رجال عبقريون ، أقوياء فى ايمانهم ، أقوياء فى عملهم ، أقوياء فى دعوتهم يمثلون سيرة الانبياء وخلفائهم بالحق فى عصرهم ، وكان وجوده ووجود من تخرج على يديه ، وتنشأ فى تربيته - من أهل الصلاح والتقوى ، والصدق والاخلاص ، والزهد والقناعة ، والاخلاق والفضائل - دعوة إلى الاسلام ، ودليلاً على صدقه وفضله وحياته وتأثيره ، ومقدرته ، على انتاج الربانيين فى كل عصر ، وعلى أن معينه لا ينضب ؛ لذلك كان سبباً لدخول عدد كبير من اليهود والنصارى وغير المسلمين فى الإسلام ،واقبال عدد كبير هائل من المسلمين فى الاسلام ، واصلاح الحال ، والاقلاع عن المعاصى والمحارم، وحياة الغفلة واللهو .

---

(١) أيضاً المجلس الثالث والخمسون .

(٢) فتوح الغيب المقالة الثانية والسبعون .

وفاته :

وظل الشيخ مثابراً على دعوته وجهاده وتربيته للنفوس ، حتى وافاه الأجل المحتوم سنة ٥٦١ هـ ، وقد جاوز التسعين ، وقد وصف ولده ، شرف الدين عيسى ، مرضه الذى مات فيه ، وكيف فارق الدنيا وانتقل إلى رحمة ربه ، .

« لما مرض مرضه الذى مات فيه قال له ابنه عبد الوهاب : أوصنى يا سيدى بما أعمل به بعدك ! فقال :

« عليك بتقوى الله عز وجل ؛ ولا تخف أحداً سوى الله ؛ ولا تُرج أحداً سوى الله ؛ وكل الحوائج إلى الله عز وجل ؛ ولا تعتمد إلا عليه ؛ واطلبها جميعها منه ؛ ولا تثق بأحد غير الله عز وجل ؛ التوحيد التوحيد جماع الكل .

وقال : إذا صح القلب مع الله عز وجل لا يخلو منه شىء ، ولا يخرج منه شىء .

وقال : أنا لب بلا قشور .

وقال لأولاده : ابعدوا من حولى ، فإنى معكم بالظاهر ، ومع غيركم بالباطن .

وقال : قد حضر عندى غيركم فأوسعوا لهم ، وتأدبوا معهم ؛ ههنا رحمة عظيمة ؛ ولا تضيقوا عليهم المكان .

وكان يقول : « وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ؛ غفر الله لى ولكم ؛ وتاب الله على وعليكم ؛ بسم الله ، غير مودعين » قال ذلك يوماً وليلة .

وقال : « ويلكم ؛ أنا لا أبالى بشىء ، ولا بملك الموت ، يا ملك الموت ؛ منح لنا من يتولانا سواك » وصاح صيحة عظيمة ، وذلك فى اليوم الذى مات فى عشيته .

وأخبرنى ولده عبد الرزاق ، وموسى ، أنه كان يرفع يديه ويمدها ويقول : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، توبوا وادخلوا فى الصف ؛ هو إذا أجىء اليكم .

وكان يقول : ارفقوا ؛ ثم أتاه الحق وسكرة الموت .

وقال – رضى الله عنه وأرضاه – : « بينى وبينكم وبين الخلق كلهم بعد ما بين السماء والأرض ، فلا تقيسونى بأحد ، ولا تقيسوا على أحداً » ثم سأله ولده ، عبد العزيز ، عن ألمه وحاله ، فقال : لا يسألنى أحد عن شىء ؛ ها أنا أتقلب فى علم الله عز وجل .

وقد سأله ولده عن مرضه ، فقال له « أن مرضى لا يعلمه أحد ولا يعقله أحد :

انسى، ولا جنى ، ولا ملك وما ينقض علم الله بحكم الله ، الحكم يتغير والعلم لا يتغير، الحكم ينسخ والعلم لا ينسخ ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، ولا يسأل عما يفعله وهم يسألون ، أخبار الصفات تمر كما جاءت » .

وسأله ولده عبد الجبار : ماذا يؤلمك من جسدك ؟ فقال : « جميع أعضائى تؤلمنى إلا قلبى فما به ألم ، وهو صحيح مع الله عز وجل ، ثم أتاه الموت ، فكان يقول :

« استمعت بلا إله إلا الله سبحانه وتعالى ؛ وهو الحى الذى لا يموت ، ولا يخشى الفوت ، سبحان من تعزز بالقدرة وقهر العباد بالموت ؛ لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ثم خرجت روحه الكريمة رضى الله عنه وأرضاه [1].

---

(١) أخر كتاب « فتوح الغيب » .

الإمام عبد القادر الجيلانى

دعوته ، إصلاحه وفضله وفضل خلفائه

فى تجديد الإيمان والدعوة إلى الإسلام

عصره :

قضى الشيخ عبد القادر الجيلانى ثلاثا وسبعين سنة فى بغداد وعاصر خمسة من الخلفاء العباسيين .

دخل بغداد ، والخليفة المستظهر بأمر الله ، أبو العباس (م ٥١٢ هـ) ، وجاء بعده المسترشد ، والراشد ، والمقتفى لأمر الله ، والمستنجد بالله .

وكان هذا العصر الذى عاش فيه الشيخ مليئا بالحوادث الجسام ، وكانت بغداد مركزها ، وكان الصراع قائما بين الخلفاء والسلاطين من آل سلجوق ، الذين كانوا حريصين على بسط نفوذهم وسيطرتهم على الدولة العباسية ونيابة الخليفة ، برضى من الخليفة وموافقة منه مرة، وبإباء وكراهية منه أخرى ، وقد تقع معركة بين جيش الخليفة وجيش السلطان ، ويتقاتل المسلمون .

وقع ذلك مرارا فى عهد المسترشد ، وهو أقوى الخلفاء فى أواخر العصر العباسى وأحسنهم[1] ، وكان هو المنتصر فى أكثر الوقائع ، والتقى جيش الخليفة وجيش السلطان «مسعود» فى عاشر رمضان ٥١٩ هـ ، وانهزم الخليفة فى هذه المرة انهزاما شنيعا .

قال ابن كثير : « وانتصر جيش السلطان ، وأسر الخليفة ، ونهبت أموال البغداديين وحواصلهم ، وطار الخبر فى الأقاليم بذلك ، وحين بلغ الخبر إلى بغداد ، انجزع الناس لذلك ، وزلزلوا زلزالا شديدا ، صورة ومعنى ، وجاءت العامة إلى المنابر فكسروها وامتنعوا عن حضور الجماعات ، وخرج النساء فى البلد حاسرات ينحن على الخليفة ، وما جرى عليه من الأسر ، وتأسى بأهل بغداد فى ذلك كثير من أهل البلاد ، ونمت فتنة كبيرة

---

(١) قال ابن كثير : كان المسترشد شجاعا مقداما بعيد الهمة فصيحا بليغا عذب الكلام ، حسن الايراد ، مليح الخط ، كثير العبادة ، محببا إلى العامة والخاصة ، وهو آخر خليفة رؤى خطيبا ، قتل وعمره خمس وأربعون سنة وثلاثة أشهر ، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وعشرين يوما (البداية والنهاية) ج ١٢ ص ٢٢٠٨ .

وانتشرت فى الأقاليم ، واستمر الحال على ذلك شهر ذى القعدة ، والشناعة فى الأقاليم منتشرة ؛ فكتب ملك سنجر إلى ابن أخيه يحذره - غب ذلك - عاقبة ما وقع فيه من الأمر العظيم ، ويأمره أن يعيد الخليفة إلى مكانه ودار خلافته فامتثل الملك مسعود لذلك ثم أن الخليفة قتله الباطنية فى طريقه إلى بغداد » .

شاهد الشيخ عبد القادر هذه الحوادث الأليمة ، ورأى ما أصيب به المسلمون من تشتت وافتراق وتناحر ، وما استولى عليهم من حب الدنيا ، والتقاتل على الملك والجاه والسلطان، وانصراف الناس إلى المادة والمناصب والولايات ، والتفافهم حول الملوك والأمراء وتقديسهم لهم ، عاش الشيخ متصلا بكل ذلك بشعوره وألمه ، بعيدا عن كل ذلك بقالبه وجسمه ، وانصرف بكل همته وقوته واخلاصه إلى الوعظ والارشاد ، والدعوة ، والتربية واصلاح نفوس المسلمين ، وتزكيتها ، ومحاربة النفاق والشغف بالدنيا ، والتكالب على حطامها ومناصبها ، واثارة الشعور الايمانى ، وتقوية عقيدة الآخرة ، والتجافى عن دار الغرور ، والانابة إلى دار الخلود ، وتهذيب الأخلاق ، والدعوة إلى التوحيد والاخلاص لله تعالى .

وقد كانت مواعظه وخطبه مطابقة لعصره وأهل عصره ، تتناول شؤونهم وما هم فيه من علل وأسقام ، تطب قلوبهم ، وتداوى أمراضهم ، وترد على ضلالاتهم وكانت تضرب دائما على الوتر الحساس ، وتمس قلوبهم ، وتجمع هذه المواعظ بين صولة الملوك ورقة الدعاء ، وبين زجر الآباء ورفق الأطباء .

التوحيد الخالص والاستخفاف بغير الله :

كانت بغداد عاصمة الامبراطورية العباسية ، وقد تعلقت بها قلوب أهل البلاد وقلوب الناس ، الذين يسكنون فى أنحاء المملكة الاسلامية الكبرى ، وأصبح قصر الخليفة وقصور الوزراء مناط الآمال ومحط الرحال ، وتعلق الناس بالأسباب والوسائط - من التدابير والشفاعات والأشخاص - تعلقا شديدا ، يعتقدون فيها النفع والضرر ، وأصبحت الأسباب اربابا من دون الله . وأصبح كثير من الناس يعتقدون أن أمراء الدولة وعمالها يملكون أرزاق الناس وحظوظهم ونفوسهم ؛ يسعدون ويشقون ، ويعطون ويمنعون . وينصبون ويعزلون ، بأيديهم القضاء والقدر ، والنفع والضرر ؛ فانصرفت اليهم همم الناس ، وتسابقوا إلى ارضائهم والتزلف اليهم . وهكذا نشأت « وثنية » فى عاصمة الاسلام ، أصنامها الأمراء والموظفون ، وهياكلها دور الحكومة ، ، واتجه الناس من عبادة الله وحده والتوكل عليه والسؤال منه ، إلى الالتجاء إلى الخلق ، والاعتماد عليهم ، واستعطافهم وتملقهم .

وصدع الشيخ بالتوحيد وتحقير الخلق من الملوك والوزراء والأمراء والأغنياء ، وبيان ضعفهم وعجزهم ، وأنهم لا يملكون لأنفسهم شيئا ، ويصور عجزهم وضعفهم تصويرا بليغا دقيقا ، ويضرب لذلك الأمثال . يقول فى حديث :

« اجعل الخليقة أجمع كرجل كتفه سلطان عظيم ملكه ، شديد أمره ، مهولة صولته وسطوته ، ثم جعل الغل فى رقبته مع رجليه ، ثم صلبه على شجرة الأرز على شاطئ نهر وترك إلى جنبه أحمالا من السهام والرماح والنبال وأنواع السلاح والقسى مما لا يبلغ قدرها غيره ؛ فجعل يرمى إلى المصلوب بما شاء من ذلك السلاح ، فهل يحسن لمن رأى ذلك أن يترك النظر إلى السلطان ، ويترك الخوف منه والرجاء له ، ويخاف من المصلوب ويرجو منه؟ أليس من فعل يسمى فى قضية العقل عديم العقل ومجنونا ، بهيمة غير انسان »(١) .

وإذا كان هذا شأن الخليقة كلها ، وإذا كان هذا عجزها وضعفها وخستها ونذالتها ، فلماذا يستغيث بها انسان ، ويلتجئ اليها فى ملمة أو حاجة ؟

وهنا يحث الشيخ السامعين على الاقبال إلى الله وحده ، والالتجاء اليه ، فى أسلوب خطابى قوى بليغ :

« انظر إلى من ينظر اليك ! وأقبل إلى من أقبل عليك ! وأحبب من يحبك ! واستجب من يدعوك اليه ! وأعط يدك من يثبتك من سقطتك ، ويخرجك من ظلمات جهلك ، وينجيك من هلكتك ، ويغسلك من أنجاسك ، وينظفك من أوساخك ، ويخلصك من جيفتك ونتنك ، ومن هممك الردية ، ونفسك الأمارة بالسوء ؛ واقرانك الضالين المضلين؛ شياطينك وهواك وأخلائك الجهال ، قطاع طريق الحق عز وجل ، الحائلين بينك وبين كل نفيس وثمين وعزيز ! إلى متى العادة ؟ إلى متى الخلق ؟ إلى متى الهوى ؟ إلى متى الرعونة ؟ إلى متى الدنيا ؟ إلى متى الأخرى ؟ إلى متى متى ما سوى المولى ؟ أين أنت من خالق الأشياء ، المكون للأكوان ؟ الأول ؛ والآخر ؛ والظاهر والباطن ؛ المرجع والمصدر اليه ، وله القلوب ، طمأنينة الأرواح ، ومحط الأثقال ، والعطاء بلا امتنان »(٢) .

ويذكر نفاذ القضاء والقدر ، وأن ارادة الله هى الغلابة القاهرة ، المتصرفة فى الخلق ، ويذكر درجات الموحدين ، وطبقاتهم فى التوحيد ، والخضوع للمشيئة الالهية وفعله تعالى:

---

(١) فتوح الغيب ، المقالة السابعة عشرة .

(٢) فتوح الغيب ، المقالة الثانية والستون .

« الخلق عجزة لا يضرونك ولا ينفعونك ، إنما الحق عز وجل يجرى ذلك على أيديهم، فعله يتصرف فيك وفيهم ، جرى القلم فى علم الله عز وجل بما هو لك وعليك . الموحدون الصالحون حجة الله على بقية الخلق . منهم من يتعرى عنها من حيث باطنه فحسب لا يرى الحق عز وجل على بواطنهم منها شيئا ، تلك القلوب الصافية ! من قدر على هذا فقد أعطى الملك من الخلق ، هو الشجاع البطل . الشجاع من طهر قلبه مما سوى الله عز وجل ، ووقف على بابه بسيف التوحيد وصمصامته الشرع لا يخلى شيئا من المخلوقات يدخل اليه ، يجمع قلبه بمقلب القلوب . الشرع يهذب الظاهر ، والتوحيد والمعرفة يهذبان الباطن » (١) .

لم يقتصر الشيخ على أوثان الجاهلية وآلهتها ، وعلى عباد الأصنام ومشركى الملل فى عصره ؛ بل تعدى ذلك إلى الآلهة الجديدة التى حلت فى النفوس محل الآلهة القديمة ، وقامت لها دولة فى قلب بلاد الاسلام ، وهى « المال » و« الثروة » و« القوة » و«السلطان» و« الحيل والحرف » و« الأسباب والوسائل » وحارب هذه الآلهة حربا لا هوادة فيها ولا رفق ، يقول فى مجلس :

« أنت معتمد عليك ، وعلى الخلق ، ودنانيرك ودراهمك ، وعلى بيعك وشرائك ، وعلى سلطان بلدك ، كل من اعتمدت عليه فهو الهك ، وكل من خفته ورجوته فهو الهك، كل من رأيته فى الضر والنفع ، ولم تر أن الحق عز وجل يجرى ذلك على يديه فهو الهك » (٢).

ويقول فى مقالة أخرى :

« يا موتى القلوب ! يا مشركين بالاسباب ! يا عابدين أصنام حولهم وقواهم ، ومعائشهم ورؤوس أموالهم ، وسلاطين بلادهم وجهاتهم التى ينتمون اليها ! أنهم محجوبون عن الله عز وجل . كل من يرى الضرر والنفع من غير الله عز وجل ، فليس بعبد له ، هو عبد من رأى ذلك منه » (٣).

ويقول فى مقالة أخرى :

« يا معرضا عن الحق عز وجل وعن الصديقين من عباده ، مقبلا على الخلق مشركا

(١) الفتح الربانى ، المجلد الثالث عشر .
(٢) الفتح الربانى ، المجلس العشرون .
(٣) الفتح الربانى ، المجلس الثالث والعشرون .

بهم، إلى متى اقبالك عليهم ؟ ايش ينفعونك ؟ ليس بأيديهم ضرر ولا نفع ، ولا عطاء ، ولا منع ، لا فرق بينهم وبين سائر الجماعات فيما يرجع إلى الضر والنفع ، الملك واحد ، الضار واحد ، النافع واحد ، المحرك والمسكن واحد المسلط واحد ، المسخر واحد ، المعطى والمانع واحد ، الخالق والرازق هو الله عز وجل »[1].

العالم الربانى ، وداعية الحق ، طبيب يأتيه المرضى من كل نوع فيداويهم ويحسم فيهم مادة الداء ، ويريهم طريق الشفاء ، ويتوجه بهم إلى الله تعالى .

وكان مما يأتيه ويحضر مجالسه ، رجال تعلقت قلوبهم بغير الله ، ثم حيل بينهم وبينه، فهم فى قلق وحسرة ، ويسليهم الشيخ ويذكر الحكمة فى ذلك ، ويشرح غيرة الله سبحانه وتعالى ، وحرصه على أن يكون عبده خالصا له ، لا ينازع حبه حب ، ولا يزاحم حقه حق .

« ما أكثر ما تقول : كل من أحبه لا تدوم صحبتى له ، فيحال بيننا ، أما بالغيبة ، أو الموت ، أو العداوة وأنواع الأهوال بالتلف ، والفوات من اليد فيقال لك : أما تعلم يا محبوب الحق ، المعنى به ، المنظور اليه ، المغار له وعليه ، ألم تعلم أن الله غيور ، خلقك له وتريد أن تكون لغيره ؟ !

أما سمعت قوله عز وجل : ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾ وقوله : ﴿ **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** ﴾ ؟

أما سمعت قول الرسول ﷺ « إذا أحب الله عبدا ، ابتلاه ، فان صبر ، اقتناه ، قيل يا رسول الله : وما اقتناه ؟ قال لم يذر له مالا ولا ولدا » وذلك : لأنه إذا كان له مال وولد أحبهما ، فتشعبت محبته لربه عز وجل ، فتنتقص وتتجزأ ؛ فتصير مشتركة بين الله وبين غيره ؛ والله تعالى لا يقبل الشريك ، وهو غيور قاهر فوق كل شئ ، غالب لكل شئ ؛ فيهلك شريكه ويعدمه ؛ ليخلص قلب عبده له من غير شريك ، فيتحقق حينئذ قوله تعالى: ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾ ، حتى اذا تنظف القلب من الشركاء والانداد من الأهل والمال والولد ، واللذات والشهوات ، وطلب الولايات والرياسات والكرامات والحالات ، والمنازل والمقامات ، والجنات والدرجات ، والقربات والزلفات ؛ فلا يبقى للقلب ارادة ولا أمنية ، كالاناء المنثلم الذى لا يضبط فيه مائع ؛ فلا يضبط فيه ارادة شئ من الأشياء ؛ لأنه انكسر بفعل الله عز وجل ، كلما نجمت فيه ارادة كسرها فعل الله عز وجل وغيرته ،

---

(١) الفتح الربانى ، المجلس الثالث عشر .

فضربت حوله حينئذ سرادقات العظمة والجبروت والهيبة ، وحفرت من دونه خنادق الكبرياء والسطوة ؛ فلم يخلص إلى القلب ارادة شئ من الأشياء ، فحينئذ لا يضر القلب الاسباب من الولد والأهل والأصحاب والكرامات ، والحكم والعبادات ؛ فان جميع ذلك يكون خارج القلب ؛ فلا يغار الله عز وجل ؛ بل يكون جميع ذلك كرامة من الله لعبده ؛ ولطفا به ونعمة ورزقا ومنفعة للواردين اليه [(١)].

مكانة الدنيا فى نظر الشيخ :

لم يكن الشيخ عبد القادو من دعاة « الرهبانية » أنه لا يرى بأسا بالتمتع المباح بالدنيا وأسبابها ، واستعمال خيراتها وطيباتها ؛ ولكنه يعارض العكوف على لذاتها وشهواتها بنهم وتقديس ، وتعلق القلب والشغف بها ، أنه يؤمن بقول النبى ﷺ : « ان الدنيا خلقت لكم ، وانكم خلقتم الآخرة » فيعاملها الانسان معاملة سيد مطاع ، لا عبد مطيع .

ويقول فى بلاغة وايجاز :

« لا تأكل قسمك من الدنيا وهى قاعدة ، وأنت قائم ؛ بل كلها على باب الملك وأنت قاعد ، وهى قائمة ، والطبق على رأسها ، تخدم من هو واقف على باب الحق عز وجل، وتذل من هو واقف على بابها ، كل منها على قدم الغنى والعز بالحق عز وجل »[(٢)] .

أنه لا يعارض أن يملك أحد الدنيا ؛ إنما يعارض أن تملكه الدنيا وتستحوذ على قلبه ، يقول فى مجلس :

« وفى الناس من تكون الدنيا بيده ولا يحبها ، يملكها ولا تملكه ، تحبه ولا يحبها ، تعدو خلفه ولا يعدو خلفها ، يستخدمها ولا تستخدمه ، يفرقها ولا تفرقه ، قد صلح قلبه لله عز وجل ، ولا تقدر الدنيا أن تفسده ، فيتصرف فيها ، ولا تتصرف فيه : ولهذا قال النبى ﷺ : « نعم المال الصالح للعبد الصالح » [(٣)] .

أنه لا يعارض وجودها فى بيت أو صندوق ، إنما يعارض وجودها فى سويداء القلب وأعماق النفس يقول فى محل آخر : « ويحك ! الدنيا فى اليد يجوز ، فى الجيب يجوز ، ادخارها لسبب وبنية صالحة يجوز . أما فى القلب فلا يجوز ، وقوفها على الباب يجوز ،

---

(١) فتوح الغيب : المقالة الثانية والثلاثون .

(٢) الفتح الربانى : المجلس الواحد والعشرون .

(٣) الفتح الربانى ـ المجلس الرابع والثلاثون .

أما دخولها إلى وراء الباب ، فلا ! ولا كرامة لك »[1] .

إنه يذم حياة العطلة والبطالة ، وأن يعيش الانسان عيالا على غيره ، متوكلا عليهم ، يقول فى مجلس ، حاثا على الاشتغال وكسب الحلال :

« اعبدوا الله عز وجل ، واستعينوا على عبادته بكسب الحلال ! ان الله عز وجل يحب عبدا مؤمنا مطيعا ، آكلا من حلاله يحب من يأكل ويعمل ، ويبغض من يأكل ولا يعمل، يحب من يأكل بكسبه ، ويبغض من يأكل بنفاقه وتوكله على الخلق »[2] .

نقده للخلفاء والأمراء فى عصره :

ولم يكن الشيخ يقتصر على وعظ العامة ودعوتهم ؛ إنما كان صداعا بالحق صريحا قويا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، يتناول الخليفة والملوك والأمراء بالنقد والملامة ، ويذم ظلمهم ؛ ولا يحابى فى ذلك أحدا ، ولا تمنعه منه وجاهة أو سلطان .

قال ابن كثير : « كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للخلفاء والوزراء والسلاطين والقضاة والخاصة والعامة ، يصدعهم بذلك على رؤوس الأشهاد رؤوس المنابر وفى المحافل. وينكر على من يولى الظلمة ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم » .

ويقول صاحب قلائد الجواهر : « ولما ولى المقتضى لأمر الله أمير المؤمنين للقاضى أبى الوفاء ، يحيى بن سعيد بن يحيى بن المظفر ، المشهور بابن المزحم المظالم ، قال على المنبر « وليت على المسلمين أظلم الظالمين ، ما جوابك غدا عند رب العالمين أرحم الراحمين ؟» فارتعد الخليفة وبكى ، وعزل القاضى المذكور لوقته »[3] .

انكاره على علماء السوء :

وكان ينكر على « علماء » البلاط و « العلماء الرسميين » الذين التزموا صحبة الملوك والأمراء ، وأصبحوا ندماءهم ورجال حاشيتهم ، يوافقونهم على كل ما يراه هؤلاء الملوك وينفذونه من أحكام جائرة ، ويخضعون لهم الشريعة ونصوصها ، ويؤولون لهم أحكام الشرع ، وقد تجرأ بهم هؤلاء على المعاصى والأهواء وتنفيذ الأحكام الجائرة ، قد كان الشيخ يشنع عليهم ويغلظ لهم القول يقول فى مجلس مخاطبا لهؤلاء العلماء :

---

(١) أيضا ، المجلس الواحد والخمسون .

(٢) أيضا ، المجلس السادس والأربعون .

(٣) قلائد الجواهر ص ٨ .

« أين أنتم وهم ؟ (يعنى علماء الآخرة) يا خونة فى العلم والعمل ، يا أعداء رسول الله ! يا قاطعى عباد الله عز وجل ! أنتم فى ظلم ظاهر ، ونفاق ظاهر ، هذا النفاق إلى متى ؟ يا علماء ! يا زهاد ! كم تنافقون الملوك والسلاطين حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها ولذاتها ؟ أنتم وأكثر الملوك فى هذا الزمن ظلمة وخونة فى مال الله عز وجل فى عباده ، اللهم اكسر شوكة المنافقين واخذلهم ! أو تب عليهم واقمع الظلمة ، وطهر الأرض منهم أو أصلحهم ، آمين[1] !

ويقول مخاطبا لفرد من أفراد هذه الطبقة :

« اما تستحى ! فقد حملك حرصك على انك تخدم الظلمة وتأكل الحرام ، إلى متى تأكل وتخدم الملوك الذين تخدمهم ؟ يزول ملكهم عن قريب وتتولى خدمة الحق عز وجل الذى لا يزول »[2] .

والظاهر أنه لا يجرؤ على هذا الكلام الصريح القوى الا الصديقون الذين أخلصت قلوبهم لله تعالى ، وزال عنها الطمع والخوف من غير الله ، وأصبح غير الله - من أصحاب الحول والطول - مخلوقا خسيسا لا قيمة له .

وقد قال فى مجلس له :

« انى أقول لكم الحق ، ولا أخاف منكم ولا أرجوكم ، أنتم وأهل الأرض عندى كالبق وكالذر ؛ لأنى أرى الضر والنفع من الله عز وجل - لا منكم - المماليك والملوك عندى سواء»[3] .

ذم المنافقين :

ويشنع فى قوة وشجاعة على المنافقين الذين كثروا فى المجتمع الاسلامى ، الذين عكفوا على شهواتهم ، ونبذوا الدين وتكاليفه وراء ظهورهم ، واستغلوا اسم الاسلام والانتساب اليه للتمتع بالحقوق التى يخولها الاسلام من غير قيام بحقوقه ، ومعرفة لفضله ، وخضوع لشريعته . يقول فى مجلس :

« يا منافقون ! حسبتم أن الدين سمر ، أن الأمر سدى ، لا كرامة لكم ولا

---

(١) الفتح الربانى ، المجلس الواحد والخمسون .

(٢) الفتح الربانى ، المجلس الثانى والخمسون .

(٣) الفتح الربانى ، المجلس الواحد والخمسون .

لشياطينكم، ولا لقرنائكم السوء ، اللهم تب على وعليهم ! وخلصهم من ذل النفاق ، وقيد الشرك» (١) .

التوجع لدين الله :

كان الشيخ فى بغداد ، عاصمة الدولة العباسية ، وقبة الاسلام ، وكان يشاهد ذلك الانحطاط الدينى والخلقى ، الذى ابتلى به المجتمع الاسلامى فى القرن الخامس الهجرى ، وكان بغداد مركزه ، وكان يرى تشاغل الناس بأنفسهم ، واشتغال العلماء لمصالحهم ؛ فكان يحترق قلبه على ذلك بما أوتى من غيرة دينية وحس مرهف ، وحرص على صلاح هذه الأمة ، وشعور بالمسؤولية والأمانة ؛ فكانت تفيض من لسانه وقلبه كلمات مؤثرة ، هى آية فى الإخلاص والصدق والحمية الدينية ، يقول فى مجلس :

« دين محمد ﷺ تتواقع حيطانه ويتناثر أساسه ، هلموا يا أهل الأرض ، نشيد ما انهدم، ونقيم ما وقع ! هذا شئ ما يتم ، يا شمس يا قمر ! ويا نهار ! تعالوا » (٢) .

ويقول : « يا قوم ! الاسلام يبكى ، ويستغيث ، يده فى رأسه من هؤلاء الفجار من هؤلاء الفساق ، من هؤلاء أهل البدع والضلال ، من الظلمة ، من اللابسين ثياب الزور ، من المدعين ما ليس فيهم ، انظر إلى من تقدمك ، وإلى من كان معك آمرا ناهيا ، آكلا شاربا، كأن لم يكونوا ، ما أقسى قلبك ! الكلب ينصح صاحبه فى صيده وزرعه وماشيته وحراسته ، ويبصبص عند رؤيته ، فإنما يطعمه عند عشائه لقمة أو لقمات ، أو يطعمه شيئا يسيرا ، وأنت تأكل نعم الله ، وتشبع بها ، لا تعطيه منها مطلوبه ، ولا توفيه حقه ، ترد أمره ، ولا تحفظ حدوده » (٣) .

البيعة والتربية :

انتفع أهل بغداد ومن أمها من جهات بعيدة بهذه المواعظ الرقيقة المرققة ، وبهذه الخطب المجلجلة المدوية ، وتغيرت حياة ألوف من الناس ؛ ولكن مجالس الدعوة والوعظ حلقات حرة مؤقتة يؤمها الناس ويحضرونها ، ثم يتغيبون عنها ويهجرونها ، ويداوم عليها كثير من الناس ، ثم يظلون على ما هم عليه من تقاليد وعادات ، وأهواء وشهوات .

اتسع العمران فى الحواضر والمدن ، وشغلت الحياة وحاجاتها النفوس ، فقل من يعتكف

---

(١) أيضا ، المجلس السادس والأربعون .

(٢) الفتح الربانى ، ٦٤٨ - ٦٤٩ .

(٣) الفتح الربانى ص ٦٦١ .

فى المدارس وينقطع اليها ليدرس العلوم الدينية ويتوسع فيها ، وهكذا أصبحت هذه المدارس النظامية التى تخضع لقيود وتقاليد كثيـرة ، قاصرة عن اصلاح شعبى وتربية عامة ، وبقيت منحصـرة فى نطاق ضيق ، لا تفيد ولا تسـعف الا العدد القليل الذى يلتحق بهـا وينتسب اليها ؛ فلا صلة لها بالشعب ، ولا صلة للشعب بهـا الا عند الاستفتاء أو ما يشبه ذلك ، وإنما تعيش فى عـزلة عن الحياة ، وكـذلك المؤلفون والمثقفـون الكبار ؛ فالفـجوة الثقافـية والعقليـة بينهم وبين الشعب واسعـة وعميقـة لا يعبرها الا الخاصـة والشواذ ، ثم أن صلة الناس بالمدارس والعلماء والمؤلفين صلة علمية عـقلية لا تخضع لها القلوب والنفوس ، ولا تنصبغ بها الحياة والأخلاق والطبائع الا فى النادر ، ولا يتقيد بها الناس ، ولا يرتبطون بها ارتباطا روحيا الا فى النادر .

كان المسلمون فى حاجة إلى دعاة ، وشخصـيات قوية جامعة ، تجمع بين تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة وتزكـية النفوس [(١)] ، وهكذا تخلف الرسـول ﷺ فى أمتـه بعد انقطاع النبوة ، وتجـدد صلتهـا بالله والرسول ، وتجدد الميـثاق الذى دخلت فيـه هذه الأمة والمسلمون جـميعـا ، وعن طريق الايمان والنطق بالشهـادتين ، وما عاهدت عـليه وبايعت الرسـول ﷺ - مع بعد الزمـان والمكان - من السـمع والطاعة ومـخـالفة النفس والهـوى والشيطان ، والتحاكم إلى الله والرسول ، والكفـر بالطاغوت ، والمجاهدة فى سبيل الله ؛ فقـد تغافل عن ذلك الخلفـاء ، واقتصروا عـلى الجباية والفـتوح وأخذوا البـيعة لأنفـسهم وأولادهم ، وعـجز عن ذلـك العلماء ؛ فـاشـتغلوا بـالفتـوى والوعظ والتـدريس والعلم والتأليف، وإذا أرادوا ذلك لم يخضع لهم العامة ؛ لأنهم لا يرون فيهم - الا النادر القليل- الاخـلاص والزهد وأثر الخلافـة النبـوية . وهكذا ضـعف الشـعور فى العـامـة والسوقـة والفلاحين والعملة ؛ حتى فى كثير من الخاصـة والمتعلمين بأن الاسلام عهد وميثاق ، وبيع وشراء بين العبد وربه ، وأصـبحوا أحرارا فى تصرفاتهم ، جامـحين عاتين فى شهواتهم ، هملا وقطعانا لا يضـبطهم راع ، وضعف فى كثير منهم الرغبـة فى الطاعات وبلوغ درجة الاحسـان ، والحصـول على نور اليقين وبشـاشة الايمان ، وتقاصـرت الهمم ، وخـمدت النفوس ، وأقبل الناس - الا من عصم ربك - على اللذات والشهوات بنهم وشره .

ضيعت الخلافة الاسلامية - كما وصـفنا سالفا - روح الخلافة وأمانة النبوة ، وأصبحت

---

(١) ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسـولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكـيهم ويعلمهم الكتـاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ [سورة الجمعة] .

ملكا وسياسة ، وادارة وجباية ، فقام فى نواحى المملكة الاسلامية الواسعة خلفاء الرسول ﷺ والربانيون ، يجدد الناس بدعوتهم وصحبتهم ميثاق الاسلام ، ويدخلون فى السلم فقها وارادة بعد ما دخلوا فى الاسلام وراثة وعادة ، ويستردون بتعليمهم وتربيتهم حلاوة الاسلام ولذة الايمان ، ويخرجون من سلطان الهوى ورق الشهوات وعبادة الناس ، وينشطون فى العبادات والطاعات ، والدعوة إلى الله والجهاد فى سبيله .

من أشهر هؤلاء الدعاة والمربين : « الحسن البصرى » و« الفضيل بن عياض » و«معروف الكرخى» و« الجنيد البغدادى » رحمهم الله تعالى .

وانتهى الأمر إلى القرن السادس ، وقد تباعد الزمان عن النبوة واثارها وبركاتها ، واتسعت الدنيا ، وكثرت أسباب الغفلة واللهو ، وطال على المسلمين الأمد ، فقست قلوبهم .

هنالك نهض فى بغداد - دار السلام وقلب العالم الاسلامى - رجل قوى الشخصية ، قوى الايمان ، قوى العلم ، قوى الدعوة ، قوى التأثير ؛ فجدد دعوة الايمان والاسلام الحقيقى ، والعبودية الخالصة ، وأخلاق المؤمنين المخلصين ، وحارب النفاق الذى اجتمع فى المجتمع الاسلامى بقوة منقطعة النظير فى تاريخ الاصلاح والتجديد ، وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعية ، يدخل فيه المسلمون ، من كل ناحية من نواحى العالم الاسلامى يجددون العهد والميثاق مع الله ، ويعاهدون على أن لا يشركوا ولا يكفروا ولا يفسقوا ، ولا يبتدعوا ، ولا يظلموا ولا يستحلوا ما حرم الله ، ولا يتركوا ما فرض الله ، ولا يتفانوا فى الدنيا ، ولا يتناسوا الآخرة .

وقد دخل فى هذا الباب - وقد فتحه الله على يد الشيخ عبد القادر - خلق لا يحصيهم الا الله ، وصلحت أحوالهم ، وحسن اسلامهم ، وظل الشيخ يربيهم ويحاسبهم، ويشرف عليهم وعلى تقدمهم ، وأصبح هؤلاء التلاميذ الروحيون يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الايمان على يد عبد مخلص ، وعالم ربانى ، شعورا جديدا ، وظل بينهم وبين الشيخ رباط وثيق عميق ، أقوى من رباط التلاميذ بالاساتذة والشيوخ ، ومن رباط الجند بالقائد ، ومن رباط الرعية بالراعى ، إنما هو رباط روحى دينى ، لا يهن ولا ينحل، وإنما هو ميثاق لا ينقض ولا ينكث ، ثم يجيز الشيخ كثيرا منهم - ممن يرى فيه النبوغ والاستقامة والمقدرة على التربية - فينتشرون فى الآفاق يدعون الخلق إلى الله ، ويربون النفوس ، ويحاربون الشرك والبدع ، والجاهلية والنفاق ، فتنتشر الدعوة الدينية ، وتقوم ثكنات الايمان ومدارس الاحسان ، ومرابط الجهاد ، ومجامع الأخوة ، فى انحاء العالم

الاسلامى . وقد استطاع الشيخ عبد القادر أن يستمر فى دعوته وجهاده أكثر من نصف قرن، فى بيئة اشتد فيها الاستبداد ، وكثرت فيها الوساوس ، وشاعت فيها الوشايات والسعايات ، وأخفقت فيها الدعوات السياسية ، وحورب فيها المعارضون للحكومة بقساوة وشدة ، واحتمل الخلفاء والأمراء نقده الشديد ، وانكاره على تصرفاتهم ومناهج حياتهم ، وما كان ذلك الا لاخلاصه الذى لا يتطرق اليه الشك ، ولا ترتقى اليه شبهة ، وزهده فى كل ما يحرصون عليه ويضنون به ، وبذله النصيحة والشفقة لكل من يدين بالاسلام ؛ بل يتحلى بالانسانية ، وانقطاعه إلى الدعوة إلى الله ، والارشاد إلى معالم الحق .

دعاة الاسلام ومشاعل الايمان :

وقد كان لخلفائه وتلاميذه ، ولمن سار سيرتهم فى الدعوة وتهذيب النفوس من أعلام الدعوة وأئمة التربية فى القرون التى تلته ، فضل كبير فى المحافظة على روح الاسلام ، وشعلة الايمان ، وحماسة الدعوة والجهاد ، وقوة التمرد على الشهوات والسلطات ، ولولاهم لابتلعت المادية التى كانت تسير فى ركاب الحكومات والمدنيات هذه الأمة ، وانطفأت شرارة الحياة والحب فى صدور أفرادها ، وقد كان لهؤلاء فضل كبير لنشر الاسلام فى الأمصار البعيدة التى لم تغزها جيوش المسلمين ، أو لم تستطع اخضاعها للحكم الاسلامى [1] ، وانتشر بهم الاسلام فى افريقيا السوداء ، وفى اندونيسيا وجزر المحيط الهندي، والصين ، وفى الهند .

ولما فتح التتار العالم الاسلامى فى القرن السابع الهجرى : واثخنوه جراحا وقتلا ، ولم يتركوا الا روحا ضعيفة ونفسا خافتا ، وفل سيف الجهاد والمقاومة ؛ فأصبح لا يؤثر ولا يعمل ، وأغمده المسلمون يأسا وقنوطا ، وآمن الناس بأن التتار لا يمكن اخضاعهم ، وأن العالم الاسلامى قد كتب عليه أن يعيش تحت حكم هؤلاء الهمج ، وأن الاسلام لا مستقبل له قام هؤلاءالدعاة المخلصون الذين لا يزال تاريخ الدعوة والاصلاح - على احصائه واستقصائه - يجهل أسماء كثير منهم ، يتسربون فى هؤلاء الغلاظ الشداد . يفتحون قلوبهم للاسلام ؛ حتى تفتحت له وأحبته . وصاروا يدخلون فى دين الله أفواجا ، ولم يمض على زحفهم على العالم الاسلامى واذلالهم له كثير زمان حتى أسلم جلهم أو كلهم، وصاروا من حماة السلام وحملة رايته وكان منهم فقهاء وزهاد ومجاهدون .

---

(١) راجع كتاب : « الدعوة إلى الاسلام » لتوماس أرنولد الانكليزى Preaching Of Islam .

هكذا أخضعوا للاسلام من أخضع العالم الاسلامى بالأمس ، من شرقه إلى غربه ، وأدخلوا أمة قهرت الأمم كلها فى عصرها فى دين لا يحميه سيف ، ولا يدافع عنه جيش، وقد كانت ثلاث ديانات - هى أعظم ديانات العالم - تتنافس فى اكتساب هذه القوة القاهرة للعالم : « البوذية » و« المسيحية » و« الإسلام » وكانت البوذية أقرب إلى فطرتها وبيئتها ، وكانت النصرانية أرفع مكانة وأقرب زلفى فى مجالس سلاطينها ، ولكن الإسلام - بفضل دعاته المخلصين - انتصر على منافستيه - البوذية والنصرانية - وأسلم التتار أمة وجنسا ، وكونوا دولا إسلامية كان لكثير منها مآثر إسلامية يتجمل بها تاريخ الإسلام ، وكان انتصار الإسلام على الديانتين المنافستين - البوذية والنصرانية - حادثة غريبة لا تعلل بمشيئة الله تعالى وتأييده ، وتفوق دعاة الإسلام فى الإخلاص والروحانية على دعاة البوذية والنصرانية وإليك التفصيل فى الصفحات التالية .

غارة التتار على العالم الإسلامى [1]

وظهور معجزة الإسلام

غارة التتار وأسبابها الحقيقية فى ضوء القرآن :

واجه العالم الاسلامى فى القرن السابع الهجرى كارثة يندر نظيرها فى تاريخ العالم ، وكادت تقضى هذه الكارثة على شخصية العالم الإسلامى ، وهو زحف الوحوش التتار الذين تقدموا نحو الشرق كجراد منتشر ، وسيطروا على العالم الاسلامى كله .

والمعروف أن السبب فى هذه الكارثة ، هو خطأ ارتكبه السلطان علاء الدين الخوارزمى ، وذلك أنه أمر بقتل التجار التتار الذين دخلوا بلاده لممارسة التجارة ، ولما أرسل إليه جنكيز خان كثيراً سفيراً يسأله عن سبب قتل التجار ، قتله أيضاً ، فاشتعل جنكيز خان غضباً وقام بحملة هو جاء على مملكة خوارزم شاة ، ثم على عالم الاسلام كله .

ولكن إذا تدبرنا فى ضوء ذلك القانون العام الخالد لنتائج الأعمال والأخلاق ، وازدهار الأمم وانحطاطها الذى أشار إليه القرآن ، ولا سيما ما ذكره فى بدء سورة الاسراء من تدهور بنى إسرائيل وافسادهم فى الأرض ، وعلوهم وتمردهم وما جر ذلك إلى زحف الملوك الظالمين ، وتسلطهم على بنى إسرائيل وخراب المسجد الأقصى ، يبدو لنا أن السبب الحقيقى فى هذه الفتنة الكبرى والمحنة التى أصيب بها العالم الاسلامى ، ليس أن يقترف ملك أو حاكم من خطأ فى التدبير والسياسة ، فيتدفق سيل عرم من المحن والبلاء ، ويفاجىء العالم الإسلامى ، وتصاب الأمة الاسلامية بهذه الفتنة العمياء - التى لم تكن تتوقعها ولا تستحقها - لمجرد أن يخطىء فرد من أفرادها .

إذا حملنا نبراس القرآن فى يدنا ، واستعرضنا أوضاع المسلمين الخلقية والدينية والسياسية فى ذلك العصر تحقق لنا كالشمس فى رابعة النهار ، أن هذه الحادثة المشئومة لم تكن مفاجأة ، وانما هناك أسباب أكثر عمقاً وأصالة مما ظنه الناس وذكروه ، ولكى نبحث عن هذه الأسباب العميقة الأصلية يجب أن نتأخر إلى سنين عديدة من وقوع هذه الكارثة ، وندرس بإجمال أوضاع الدول الإسلامية ومراكز الثقافة والمدنية والمجتمع فى ذلك العصر .

---

(١) فصل كتبه المؤلف فى « أردوا » لكتابه « تاريخ دعوة وعزيمة » ، ونقل أكثره الاستاذ سعيد الاعظمى إلى العربية .

أوضاع العالم العربى ومركز الخلافة فى هذا العصر :

أن المملكة الأيوبية توزعت بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٨٩هـ بين أولاده وأفراد أسرته ، ولكن هؤلاء لم يستخدموا مؤهلاتهم وكفاءاتهم فى أداء هذه الأمانة التى آلت إليهم ، شأن كثير من أولاد الولاة ، وأولى العزم من الحكام ، فقد ظل الصراع قائما بينهم إلى مدة طويلة . ، حتى أن بعضهم لم يتلكأوا فى الاستعانة بالصليبيين بتدبير المؤامرة ضد إخوانهم وأصحابهم ، وقد أنتج هذا الوضع الشاذ اضطرابا سياسيا ، وانحلالا أخلاقيا ، وفوضى فى سائر الولايات التابعة لهذه المملكة ، وكان الناس يعيشون فى جو من القلق والخوف .

هذا وكانت الغارة الصليبية الأفرنجية تتعاقب على تلك الحواضر الإسلامية ، التى كان السلطان صلاح الدين قد استردها بعد تضحيات ضخمة ، وقد فشت أمراض وأوبئة ومجاعات شديدة نتيجة لهذا الإنحطاط الخلقى ، والانحراف الإدارى ، وفى سنة ٥٩٧هـ حدثت مجاعة فى مصر فما فاض فيها النيل ، وتزلزلت أرض مصر بمنازعات الملكين العادل والأفضل ، حتى « اشتد الغلاء بأرض مصر ، فهلك خلق كثير جدا من الفقراء والأغنياء ، ثم أعقبه فناء عظيم حتى حكى الشيخ أبو شامة فى الذيل :

« أن العادل كفن من ماله فى مدة شهر من هذه السنة نحوا من مئتى ألف وعشرين ألف ميت ، وأكلت الكلاب والميتات فيها بمصر ، وأكل من الصغار والأطفال خلق كثير ، يشوى الصغير والداه ويأكلانه ، وكثر هذا فى الناس جدا حتى صار لا ينكر بينهم ، فلما فرغت الأطفال والميتات غلب القوى الضعيف فذبحه وأكله »[(١)] .

واستمرت هذه الحال وفقا لسنة الله فى الأرض ، وظلت الإنذارات السماوية ، والأحداث الجسام تحذر الناس ، وكانت كفيلة بأن تبعث الناس على التوبة والإنابة إلى الله، وإصلاح أحوالهم « وحدثت فى نفس هذه السنة زلزلة عظيمة ابتدأت من بلاد الشام إلى الجزيرة والروم والعراق . . . وأخربت محال كثيرة من طرابلس ونابلس ، ولم يبق بنابلس سوى حارة السامراء ، ومات بها وبقراها ثلاثون ألفا تحت الردم . . . ومات أمم لا يحصون ولا يعدون ، حتى قال صاحب « مرآة الزمان » : أنه مات فى هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من ألف ألف ومائة ألف إنسان قتلا تحتها والله أعلم[(٢)] .

---

(١) البداية والنهاية ج١٣ ص٢٦ .

(٢) أيضا ص٢٧ .

هذا ، وقد تفاقم الشر فى مركز الخلافة (دار السلام ببغداد) ، وسيطرت عليه مظاهر الأبهة الملوكية والسلطان الأعمى ، وتغلغل نفوذ الخدم والحشم فى قصور الخلفاء ، وبلغت الثروة والمدنية ذروتها ، ولا يمكن أن نتصور ما كان يمتلكه الخدم والمماليك الذين كانوا لدى الخلفاء من المال والعقار .

ويكفى أن نذكر على سبيل المثال ، أن علاء الدين الطبرسى الظاهرى ، وهو ممن اشتراهم الخليفة الظاهر ، كان يحصل له من أملاكه التى استجدها نحو ثلاث مئة ألف دينار سنويا ، وكانت له دار لم تكن ببغداد مثلها ، وكذلك مجاهد الدين أيبك الدويدار المستنصرى ، وقد ملك جزيل الأموال من العين ، والرقيق ، والدواب ، والعقار ، والبساتين والضياع ، ويتعذر وصف ما أنفقه من قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، والجواهر التى جهز بها أولاده وبناته فى ليالى الزفاف ، كما أن الفراش الصلاح عبد الغنى بن فاخر المتوفى ٦٤٨هـ ، وكان شيخ الفراشين بدار الخلافة ، كان يعيش مع خلوه من العلم عيشة الملوك ، بينما كان مدرسو المدرسة المستنصرية فى هذا العصر وهم من كبار علماء بغداد بوصفهم يدرسون فى أكبر جامعة إسلامية فيها ، لا يتقاضى الواحد منهم أكثر من ١٢ دينارا شهريا .

وبجانب ذلك نجد أن ٤٠٠٠ دينار ينثرها خادم للشرابى على مجد الدين أيبك المستنصرى ، المعروف بالدويدار الصغير عند زواجه من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وأن ٣٠٠٠ دينار أعطاها الشرابى للأشخاص الثلاثة الذين أتوا بطائر من الموصل.

ولكن ندرك مدى نفوذ هذه المظاهر الكاذبة ، والتظاهر بالفخفخة والأبهة الملكية يجب أن نعرف أن المواكب التى كانت تخرج فى مناسبات الأعياد والتتويج كانت تشغل الناس ، حتى أنهم كانوا يتناسون أنفسهم ، ويتشاغلون عن أداء الصلوات ، ونستطيع أن نقيس ذلك بالموكب الملكى ، الذى خرج يوم عبد الفطر سنة ٦٤٠هـ واستمر إلى الليل ، وصلى الناس صلاة العيد قبل نصف الليل قضاء (١) ، وذكر فى « المسجد المسبوك » أن العساكر فى عاشر ذى الحجة سنة ٦٤٤هـ خرجوا إلى ظاهر البلد ، وصلوا صلاة العيد وقت غروب الشمس، وأما تقبيل الأرض بحضرة الخليفة مرات عديدة ، فمن الأمور المألوفة ، وكذلك تقبيل اليد وعتبة باب النوبى ، وحافر الخيل والأرض والرغام .

« وقد تميز هذا العصر بكثرة المصادرات ، وتفشى الرشوة وعزل كبار الموظفين ، والقاء

---

(١) الحوادث الجامعة أخبار سنة ٦٤٠هـ .

القبض عليهم ، وبيع ممتلكاتهم ، وتفاقم أمر الباطنية والشطار والعيارين ، واشتداد النزاع الطائفى والتفكك الخلقى ، والانصراف إلى الملاهى والقيان والتكاثر فى الأموال »[1] .

وفى نفس هذه الأيام كان التتر يعبثون بكرامة فارس وتركستان ، ويأتون عليهما من كل جانب وكانت أبصارهم شاخصة إلى بغداد ، أكبر مركز إسلامى فى ذلك العهد ، يتحدث المؤرخ الشهير ابن كثير فى استهلال سنة ٦٢٦هـ بما يأتى :

« استهلت هذه السنة وملوك بنى أيوب مفترقون ، مختلفون » ، وظلت بغداد دار الخلافة الإسلامية مركزا للاضطراب والفساد ، ولم يتمكن الناس من السفر للحج ، ولا استطاع الخليفة تغيير كسوة الكعبة الشريفة ، التى جرت عادة خلفاء الإسلام من قديم بتغييرها ، بين ٦٤٠هـ و ٦٤٣هـ ، وبقيت جدران الكعبة عارية عن الكسوة إلى ٢١ يوما ، فتشاءم به الناس .

فى سنة ٥٧٥هـ جلس الخليفة الناصر لدين الله على عرش الخلافة ، وطالت أيام خلافته إلى أكثر من ٤٦ سنة ، وهى مدة طويلة لم تتيسر لأحد من الخلفاء العباسيين ، ولكنها أظلم عهد فى تاريخ الخلافة العباسية ، وقد ذمه المؤرخون وتناولوا أعماله وأخلاقه بالنقد اللاذع ، يتحدث عنه المؤرخ ابن الأثير ، فيقول :

« وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالما ، فخرب فى أيامه العراق وتفرق أهله فى البلاد ، وأخذ أملاكهم وأموالهم ، وكان يفعل الشىء وضده ، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها فى رمضان فبقيت مدة ثم قطع ذلك ، ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها ، وأطلق بعض المكوس التى جددها ببغداد خاصة ، ثم أعادها ، وجعل جل همه فى رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فبطل الفتوة فى البلاد جميعها ، ،إلا من يلبس منه سراويل يدعى إليه ، ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة ، فأجابه الناس بالعراق وغيره إلى ذلك ، فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور ، وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحا من أنه هو الذى أطمع التتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك »[2] .

توفى الخليفة الناصر لدين الله سنة ٦٢٢ هـ ، وخلفه المستنصر بالله ، وكان جميل

---

(١) استفدنا فى هذا الفصل من مقال « عصر الشرابى ببغداد » للأستاذ ناجى معروف المنشور فى مجلة «الأقلام» عدد محرم سنة ٨٦ هـ .

(٢) تاريخ الكامل ج ١٢ ص ١٨١ .

الصورة حسن السريرة جيد السيرة كثير الصدقات والبر والصلات ، محسنا إلى الرعية بكل ما يقدر عليه ، فكان نموذجا للخلفاء الصالحين فى كثير من خصائصه وعاداته ، ولكنه ـ مع الأسف ـ لم يجد فرصة للتنظيم والإصلاح ، وخلفه ولده المستعصم بالله فى سنة ٦٤٠هـ وكان المستعصم صحيح العقيدة متدينا يظهر عليه خشوع وإنابة لم ينقل عنه أنه عصى الله بفمه ، ولا بفرجه ، ولا شرب مسكرا ، ولا أخل بصيام الإثنين والخميس من كل شهر ، وكان يصوم رجب من كل سنة ، وكان يحفظ القرآن مواظبا على الصلوات فى أوقاتها ، إلا أن المستعصم لم يكن بصيرا بتدبير الملك على ما رواه ابن كثير ، وكان فيه لين وعدم تيقظ ، ومحبة للمال وجمعه .

وفى سنة ٦٤٢ هـ استوزر الخليفة المستعصم بالله محمد بن العلقمى ، ولكنه لم يكن وزير صدق ولا مرضى الطريقة ، فاضطرب نظام الحكومة ، ولما وقعت الحرب العظيمة بين أهل السنة والرافضة فى سنة ٦٥٥هـ « نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة ، حتى نهبت دور قرابات الوزير ، فاشتد حنقه على ذلك ، فكان مما أهاجه على أن دبر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر العظيم الذى لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد » (١) .

وبالرغم من أن التتار كانوا يتقدمون نحو بغداد ، وكان الخطر التتارى يقرع الأبواب ، كانت « جيوش بغداد فى غاية القلة ونهاية الذلة لا يبلغون عشرة آلاف فارس ، وهم بقية الجيش كلهم قد صرفوا عن اقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم فى الأسواق وأبواب المساجد ، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله ، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمى الرافضى » (٢) .

كان المستعصم رجلا صالحا حسن السيرة والفكر ، وكان يحرص على إصلاح الأوضاع ورفاهية البلاد ، ولكن فساد الناس واضطرابهم وفساد رجال الحكومة ، بلغ مبلغا لا يؤثر فيه إلا من رزق الإرادة القوية ، والشخصية العبقرية ، ومن يستطيع أن يقف سدا منيعا فى وجه الفساد ، ويتغلب على الأوضاع السيئة ، ولم ينفع فى مثل هذه الحال إلا العظماء الذين افتتحوا عهدا جديدا ، وأسسوا حكومات جديدة فى التاريخ .

ولقد تكرر فى التاريخ أن آخر أفراد أسرة حاكمة ، وآخر حاكم فى مملكة آخذة بالإنحطاط كان يتصف بالصلاح والتقوى ، غير أن تلك الأسرة أو المملكة كانت قد

---

(١) البداية والنهاية ج١٣ ص٢٠١ .

(٢) البداية والنهاية ج١٣ ص٢٠١ .

وصلت إلى آخر نقطة من الإنحلال والتدهور ، وكان الفساد قد تفاقم والكأس قد طفحت، فلم يكن هنالك من يحول بين هذه الحكومة وبين نهايتها الأليمة التى كان يفرضها قانون السماء ، وتقتضيها طبائع الأشياء ، وشاءت الأقدار أن يعتبر ذلك الرجل مسؤولا عن نهاية الحكومة فى أسرته الحاكمة بالرغم من أنه كان أكثر صلاحا وديانة ، وأحرص على إصلاح الفساد من سلفه الماضين .

وقد كان عدد من الصالحين مشتغلين بالعلم والتدريس والعبادة ، كما كان عدد منهم معتزلين فى الزوايا والمساجد ، ولكن الفساد كان قد استحوذ على طبقة الحكام والمترفين ، يقول المؤرخ أبو الحسن الخزرجى يصف أهل العراق يومئذ :

« واهتموا بالاقطاعات والمكاسب ، وأهملوا النظر فى المصالح الكلية ، واشتغلوا بما لا يجوز من الأمور الدينية ، واشتد ظلم العمال ، واشتغلوا بتحصيل الأموال ، والملك قد يدوم مع الكفر ، ولا يدوم مع الظلم »[1] .

القسم الشرقى من المملكة الإسلامية :

وكان ملوك الخوارزم منفردين بالحكم فى الجزء الشرقى للعالم الإسلامى ، قامت دولتهم ذات الشوكة على أنقاض المملكة السلجوقية فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، وكان العالم الإسلامى كله خاضعا للحكم الخوارزمى باستثناء مصر والشام ، والعراق والحجاز ، والمنطقة السلجوقية الصغيرة الواقعة فى الشمال الغربى لآسيا الصغرى ، وكان علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ ـ ٦١٧) أعظم ملوك الأسرة طموحا ﷺ وأعلاهم همة ، وأكثرهم فتحا وانتصارا ، وهو أكبر ملك مسلم وأقواهم فى عهده ، يتحدث عنه المؤرخ «هيرلد ليمب » فى كتابه « جينكيز خان » فيقول :

« كان السلطان محمد خوارزم شاه متربعا على عرش الملك فى قلب الأمة الإسلامية ، وكانت رقعة ملكه تمتد من ثغور الهند إلى بغداد ، ومن بحر الخوارزم (آرال) إلى خليج الفرس ، وكان مسيطرا على الممالك الإسلامية كلها عدا دولة الأتراك السلاجقة الذين انتصروا على الصليبيين ، وأسرة السلاطين من مماليك مصر ، وكان السلطان محمد امبراطورا بالنظر إلى مكانته ، بالرغم من أن الخليفة العباسى الناصر لدين الله سخط عليه، ولكنه كان يعترف بقوته ، أن الخليفة فى بغداد بعد ما تجرد من كل سلطان دنيوى عاد

---

(١) مقال الأستاذ ناجى معروف « عصر الشرابى ببغداد » الأقلام ع محرم ١٣٨٦هـ .

مجرد رمز دينى ، شأن البابوات فى روما »[1] .

أما المؤرخون العرب ، فإنهم لا يشيرون إلى موضع ضعف وعيب شخصى كبير فى سلوك محمد خوارزم شاه وأخلاقه ، بل أنهم يعترفون بتدينه ، وحسن عقيدته وشجاعته وتصلبه بوجه عام ، ولكن الذى لا خلاف فيه ، أنه بذل جميع مواهبه وطاقاته فى القضاء على الحكومات الإسلامية الصغيرة والكبيرة ، حيثما وجدت فى هذا الجزء الشرقى الواسع أنه اضطر السلاجقة إلى التأخر والإنسحاب إلى آخر حدودهم فى جانب ، كما أنه ظل يحارب الغوريين فى الشرق والجنوب فى جانب آخر ، واضطرهم إلى الإنحصار فى جزء محدود ، وأن خيرة عناصر الفروسية والنضال فى إيران وتركستان ، قد أثخنتها الحروب الطاحنة المتواصلة ، التى لم تكد تنتهى ، فكان الجو الحربى يسود على المدن والأقاليم الخصبة الغنية وعلى مشاعر أهلها فى كل حين ، وقد اجتمعت غنائم البلاد المفتوحة ، وحاصلات الأقاليم الخصبة ، وتأنق الصناع فى الصناعات ، وأدوات الزينة ، فبلغت بذلك كله المدنية أوجها ، واجتمعت جميع عوامل الغنى والجدة والرفاهية والإنتصارات وما يتبعها من ترف وبطر .

ومن الصعب العسير أن يوجد حديث عن الأدواء الخلقية ، التى كانت تعانيها الحضارة والمجتمع ، فى كتب التاريخ التى تدور حول البلاط الملكى ، والسرائى ، ورجال الحكومة، وإن مظنة هذا الحديث هى كتب المشائخ الصوفية ، والمصلحين الإجتماعيين ، وكتب المواعظ ، التى اكتسح معظمها السيل التترى ، ولا يسعنا أن نحمل ما صرح به المؤرخ المسيحى « هيرلد ليمب » فى كتابه « جنكيز خان » على مجرد التعصب الدينى والمبالغة، أنه يقول :

« إن العالم الذى كان يعيش فيه المسلمون كان عالم الحرب والجلاد ، وكان لا يخلو من شغف بالغناء والموسيقى ، ومن الطرب والاهتزاز ، لكنه رغم هذا الظاهر كان يعيش فى قلق واضطراب ، فكان المماليك والعبيد يحكمون مكان الملوك والسلاطين ، وقد بالغ الناس فى جمع الأموال والثروات ، وقد انتشرت الأدواء الخلقية والمؤامرات السياسية ، وكان زمام الأمور فى يد أولئك الذين كانوا ينهبون الرعية ، ويترفهون على حسابها ، وكان حراسة الحرم ، والإشراف على السرائى للخصيان »[2] .

---

(١) جنكيز خان ص١٤٧ .

(٢) جنكيز خان ص١٤٣ .

خطأ الملوك الخوارزمية :

وقد صدر عن الملوك الخوارزميين نفس الخطأ الكبير الذى وقع فيه الحكام العرب فى الأندلس ، ولم يعف عنهم قانون المكافأة الإلهى ، وذلك أنهم بذلوا كل قواهم فى توسيع رقعة الملك ودعمه ، وقمع الخصوم ، ولم يبذلوا أى اهتمام بتبليغ رسالة الإسلام إلى ذلك القسم البشرى الذى كان يعيش بجوار حدودهم ، وكان بنفسه عالما مستقلا ، وبصرف النظر عن الدافع الدينى والواجب الإسلامى ، كان مقتضى الحزم السياسى وبعد النظر أن يعنوا بإيجاد الإنسجام العقائدى مع هذه الدنيا الإنسانية الواسعة ، وبذلك يكونون قد أقاموا حولهم سياجا ، يحفظهم عن ذلك الخطر الذى لم يواجههم وحدهم فحسب ، بل اكتسح المسلمون كلهم .

زحف التتار نحو العالم الإسلامى :

فى نفس هذه الأحوال والزمان تقدم التتار بادىء بدء ، كعقاب الهى بقيادة ملكهم «جنكيز خان »[1] نحو الجزء الشرقى للعالم الإسلامى ، إيران وتركستان حتى وصلوا إلى بغداد التى أسلفنا ذكرها ، وأخيرا قامو بتدميرها وإبادة أهلها سنة ٦٥٦هـ ، « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب »[2] .

أن الدافع القريب لهذا الزحف التتارى ، فى عالم الأسباب ، هو أن جنكيز خان بعث إلى خوارزم شاه رسولا يقول له : إنك تحكم رقعة عريضة كما أننى أملك مملكة واسعة ، فإذا قامت بين المملكتين علاقات تجارية ، وسمح للتجار بتبادل التجارات بين البلدين كان ذلك فى صالح البلدين ، فقبل ذلك خوارزم شاه ، وقامت العلاقات التجارية ، وبدأ التجار يتبادلون أموال التجارة بين البلدين ، ولكن ما الذى حدث بعد ذلك حتى شهد العالم الإسلامى ذلك اليوم المشئوم الذى يدعى بغارة التتار ؟ ولنقرأ ما كتبه عن ذلك المؤرخ الغربى « هيرلد ليمب » ويصدقه تماما ما جاء فى التاريخ الإسلامى ، أنه يقول :

« انفصمت العلاقات التجارية التى أقامها جنكيز خان بين البلدين فجأة ، وكان السبب

---

(١) مبدأ مملكة جنكيز خان سنة ٥٩٥هـ ، وأول حملة على حكومة خوارزم شاه كانت فى سنة ٦١٦هـ ، وقد مات جنكيز خان ٦٢٤هـ ، فقام أبناؤه وأحفاده بتحقيق غاياته التى أرادها ، فلما واجهت بغداد الغارة التتارية سنة ٦٥٦ هـ ، كان هولاكو حفيد جنكيز خان قائد القوات التتارية وأميرها .

(٢) سورة الأنفال ٢٥ .

فى ذلك أن قافلة من التجار كانت متوجهة من « قراقورم » إلى الغرب ، فلما وصلت إلى « اترار » تعرض لهـا حاكمها الذى يدعى بايـنل جق وأسر رجالها ، وأخبـر ملكه خوارزم شاه بذلك ، وقال أن هذه القافلة لا تخلو من جواسـيس جنكيز خان ، وكان هذا الخبر مما يؤيده العقل .

وما أن وصل الخبر إلى خوارزم شاه حـتى أمره بقتل التجار كلهم دون أن يفكر فى هذه القضية ، ويتأنى فى إصدار الأمر ، ونفذ أمـره بقتل التجار الذين جاؤا من قراقورم ، ولما علم بذلك جنكيز خـان ، أرسل سفراءه إلى خـوارزم شاه يشكو إليه مـا حدث مع هؤلاء التجـار ، وانتهز خوارزم شـاه الفرصة فقـتل رئيس السفراء ، وأمر بإحـراق لحى الباقين ، الذين رجعوا إلى جنكيز خان وقـصوا عليه القصة ، وفور سماع هذه القـصة صعد جنكيز خان على جـبل فى « صحراء الجـوبى » ليفكر فى القضـية ، لأن قتل رسول المغـول كان جريمة لا تغتـفر ، وكان لا بد من الانتصار لـها حسب ما جرت عـادة المغول فى مثل هذه الأمور .

وأعلن جنكيز خان قـائلا : « إذا كانت السماء لا تحتمل وجـود شمسين ، فإن الأرض كذلك لا تحتمل وجود ملكين »[١] .

الجزء الشرقى للعالم الإسلامى بين النار والدمار :

وقد ابتدأ التـتار ببخارى وأتوا عليهـا من كل جانب ، فدمروها حتى عـادت كومة من تراب ، ثم توجهوا إلى سمرقند وأحرقوها وأبادوا أهلها ، لقيت نفس المصير المدن الشهيرة للعالم الإسلامى كهمدان وزنجان ، وقزوين ، ومرو ، ونيسابور ، وخوارزم ، أما خوارزم شاه الذى كان يعتبر الملك الوحيـد للعالم الإسلامى وأقوى الملوك فى عصره ، فكان يعيش فى خوف وهلـع ، وتنقل وارتحال ، يبحث عـنه التتار ويتـعقـبونه حتى توفـى فى جزيرة مجهولة .

كان خوارزم شاه قد ضم ولايات فارس وتركستان المسلمة ودولهما المستقلة إلى مملكته ، فلما هزمه التتار لم يكن هناك من يقاومـهم فى هذا الجزء الشرقى ، وقد دخل رعب التتار فى قلوب المسلمين ، إلى حد أن أحد التتـار دخل بعض الأحيان فى سكة من سكك مدينة حيث وجـد مئة رجل من المسلمين ، فقـتلهم كلهم وأتى على آخرهم دون أن يتجـرأ أحد منهم على لمقاومته .

---

(١) جنكيز خان ص١٤٧ .

وذات مرة دخلت امرأة تتارية بيتا متزيية بزى الرجال ، وقتلت جميع أفراد الأسرة ، وقد عرف أحد المسجونين الذى كان معها أنها امرأة فقتلها ، وقد حدث بعض الأحيان أن تاتاريا أسر مسلما وقال له ضع رأسك على هذا الحجر حتى آتى بالخنجر فأذبحك ، وخضع له المسلم ولم يسعه أن يبرح مكانه ذاك ، ثم أتى التتارى بالخنجر من المدينة وذبحه به »(١) .

كانت غارة التتار فتنة عظيمة ، ومحنة كبيرة ، هزت العالم الإسلامى هزا عنيفا ، وتركت المسلمين مبهوتين مشدوهين واستولى الرعب والخوف على العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه وغلب على الناس اليأس والتشاؤم ، فكانوا يحتبرون التتار بلاء سماويا ، ومقاومتهم مستحيلة ، وانهزامهم فوق القياس ، حتى ساد المثل : « إذا قيل لك أن التتار انهزموا فلا تصدق » فكل بلاد أو دولة توجهوا إليها عرف أنها أبيدت وخربت ، ولم يبق فيها شىء من مقدسات المسلمين إلا وانتهكت حرمتها ، فكان اتجاه التتار إلى جهة يرادف معنى التدمير والإبادة ، والذلة ، وانتهاك الأعراض ، ولا شك أن العالم الإسلامى كله ولا سيما الجزء الشرقى منه وقع تحت هذه الفتنة العمياء على بكرة أبيها ، إن المؤرخ يشتغل بتسجيل كل لون من ألوان الأحداث والوقائع ، وتمر به مناظر كثيرة لإبادة الأمم والبلدان حتى يتعود احتمال كل ذلك ، فيجرى قلمه بتسجيل هذه الحوادث من غير أن يرق لها قلبه، وتدمع لها عينه ، ولكن المؤرخ الشهير ابن الأثير لم يتمكن من اخفاء شعوره الجريح وتألمه النفسى ، حينما وصل إلى ذكر حادث التتار ، إنه يقول :

« لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم إليه رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ؟ ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيا ليت أمى لم تلدنى ، ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، إلا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا ، فنقول هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها وعمت الخلائق ، وخصت المسلمين ، فلو قال قائل أن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة ، إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج ، وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا

---

(١) من أراد التفصيل فليرجع إلى الكامل لابن الأثير ج ١٢ ، ودائرة المعارف للبستانى ج٦ مادة «تتر».

النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح » (١) .

ويقول مؤلف « مرصاد العباد » : الذى شهد هذه الوقعة بعينه وما دار فى مولده «الرى» وموطنه « همدان » من حوادث فظيعة ومن التخريب والتدمير :

« استولى الجيش التتارى - خذلهم الله ودمرهم - سنة ٦١٨هـ على بلاد الإسلام ، لا يعرف نظير لما قام به هؤلاء الوحوش من الفتنة والإفساد ، والقتل والهدم والإحراق وما ظهر من أُلئك الملاعين من فظائع تقشعر منها الجلود فى أى عصر من عصور التاريخ ، لا فى الإسلام ولا فى الجاهلية ، فقد قتلوا وأسروا فى « رى » وحدها التى هى مولدى أكثر من سبع مئة ألف مسلم ، أن الفتنة التى أثاروها فى العالم الإسلامى ، والمصيبة التى أنزلوها على المسلمين لا تسع الكلمات أن تصورها ، وهذه الحادثة أغنى من أن تشرح للناس .

وعياذا بالله ، إذا لم تتحرك حمية الإسلام وغيرته فى ملوك المسلمين وسلاطينهم ، ولم يذكروا أنهم مسؤلون عن الأمة لقوله ﷺ : « الأمير راع على رعيته وهو مسئول عنها » وإذا لم تنبعث فيهم أريحيتهم ورجولتهم لكى يتحدوا على كلمة واحدة ، وينقادوا لما أمرهم الله به فى قوله : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » وإذا لم يستعدوا لبذل النفس والمال والملك لكى يدفعوا هذه الفتنة ، فإن ذلك كله يدل على أن المسلمين سيفاجئهم الذل والنكسة ، وترتمى معظم بلاد الإسلام فى أحضان الكفر ، وأخشى أن المسلمين الذين كانوا لا يحملون إلا الإسم ، سيفقدون الإسم والرسم كليهما نتيجة لما ندعيه ولا نعمل به » (٢) .

صاعقة نزلت على العالم كله :

ولم يكن العالم الإسلامى وحده مصابا بهذه الفتنة التتارية ، وإنما العالم المتمدن كله متوجلا من هذه الغارة ، وقد تفشى الذعر والخوف فى الأمكنة التى لم يكن يرجى فيها وصول التتار ، يقول « جبن » فى كتابه الشهير « تاريخ انحطاط روما » :

« حينما اطلع سكان السويد على أخبار غارة التتار عن طريق روسيا ، تسلط عليهم من

---

(١) الكامل لابن الأثير ج١٢ ص١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) مرصاد العباد (المخطوط المحفوظ فى مكتبة ندوة العلماء) ص٨ .

الذعر والخوف ما منعهم عن الخروج إلى سواحل انجلترا لصيد الأسماك ، وقد كان ذلك عادة متبعة لديهم » .

وقد تصدى المؤلفون « لتاريخ العهد المتوسط للكيمبردج » بذكر صدام المغول الشديد الذى كان سببه جنكيز خان بما يلى :

« لم يكن فى وسع الإنسان أن يسد سيل المغول ، فقد تغلبوا على جميع أخطار الصحارى والغابات ، ولم يقف فى وجههم أى شيء من الجبال والبحار ، وشدائد الطقوس والفصول ، والقحط والأوبئة ، ولم يكونوا يخافون أى خطر ولا مانع ، ولا كان هناك قلعة ترد هجومهم ولا كانت تؤثر فيهم استغاثة من مظلوم . . نحن نواجه هنا فى مجال التاريخ قوة جديدة ، قامت بتقديم الحل السريع لكثير من القضايا المعقدة السياسية والوطنية ، التى كانت تشغل العقول فى ذلك العصر ، وقضت عليها كما تقضى الصاعقة التى تنزل من السماء على كل ما تصيبه فى الأرض ، وقد كانت هذه القضايا الوطنية والسياسية بالغة فى تعقدها إلى حد لم يكن يرجى منه الخلاص لولا أن وقعت عليها هذه النازلة » .

« إن ظهور هذه القوة الجديدة فى تاريخ العالم ، أعنى قدرة رجل واحد على تغيير حضارة النوع البشرى ، يبتدىء من جنكيز خان ، وينتهى إلى حفيده قوبيلائى خان الذى بدت فى عصره أثار الفرقة والإنشقاق فى مملكة المغول المتحدة المتماسكة ، والحقيقة أن التاريخ لم يشهد إلى الآن قوة تشبه قوة هؤلاء المغول »[(١)] .

تدمير بغداد :

وأخيرا دخل هؤلاء الوحوش بعد ما خضبوا أرض العالم الإسلامى كله بدماء أهله ، وأتوا عليه فى بغداد دار الخلافة الإسلامية ومركز العلم والمدنية الأكبر فى ذلك العصر بقيادة حفيده هولاكو خان ، ودمروها تدميرا ، ولا شك أن تفاصيل قتل المسلمين فى بغداد وتدميرها طويلة ومؤلمة ، ونستطيع أن نقدر مدى هذه الوقعة العظيمة ببيان بعض المؤرخين الذين شهدوا آثارها بأعينهم ، وسمعوا تفاصيلها من مشاهديها ، يقول المؤرخ ابن كثير :

« وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوما ، ولما انقضى الأمر المقدور ، وانقضت الأربعون يوما ، بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد ، إلا الشاذ من الناس ،

---

(١) مأخوذ من « جنكيز خان » ص١٤٧ .

والقتلى فى الطرقات كأنها التلول ، قد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم ، وأنتنت من جيفهم البلد ، وتغير الهواء ، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى فى الهواء إلى بلاد الشام ، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح ، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء »[1] .

ويقول الشيخ تاج الدين السبكى :

« فأنزل (هولاكو) الخليفة (المستعصم) فى خيمة ، ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد فخرجوا من بغداد فضربت أعناقهم ، وصار كذلك يخرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم ، ثم طلب حاشية الخليفة فضرب أعناق الجميع ، ثم طلب أولاده فضرب أعناقهم ، وأما الخليفة فقيل لهولاكو أن هذا إن أريق دمه تظلم الدنيا ويكون سبب خراب ديارك ، فقام نصير الدين الطوسى[2] وقال : يقتل ولا يراق دمه ، فقيل أن

---

(١) البداية والنهاية ج١٣ ص٢٠٣ .

(٢) يصدق ذلك ما قاله الدكتور مرسى رضوى فى كتابه « أخبار وآثار خواجة نصير الدين طوسى ، الذى نشرته جامعة طهران ، فقد اعتبر المؤلف نصير الدين الطوسى مسؤولا عن هذه الوقعة ، أنه يقول :

« إن مكيدة الطوسى السياسية التى نجحت أخيرا هى أنه أثار هولاكو خان على استئصال الخلافة العباسية ، وتدمير القصر الملكى ، وقد كان هولاكو مأمورا من قبل أخيه منكوقا آن ، بالقضاء على الخلافة العباسية بعد استئصال الباطنية .

أن هولاكو بعث إلى الخليفة المستعصم بالله بالأمر بالطاعة ، واستمرت المكاتبة على ذلك ، ولكن دون جدوى ، وأخيرا استشار هولاكو زملاءه ، وكانت المغول يعتقدون بسعد النجوم ونحسها ، فلما أخبره منجم سنى المعروف بحسام الدين الذى كان ملازما لبلاطه بأن هذه ساعة نحس للغارة على بغداد ، وكلما تصدى ملك للإستيلاء على الخلافة فى مثل هذه الساعة أخفق فى إرادته ، وأصيب ببلاء ، فإنك أيها الملك إذا أبيت إلا أن تغير ، ينقطع المطر ، وتعم الزلازل والعواصف ، ويخرب العالم ، وأشد من كل ذك أن الملك (منكوقا آن) يهلك ، فلما سمع بذلك هولاكو تردد هنيهة ، واستطلع رأى الطوسى وقال : « ماذا تقول فى مصيرنا إذا أغرنا الآن على بغداد » فقال له الطوسى: أن الغارة على بغداد لا تؤول إلا أنك ستحتل محل الخليفة ، ثم دعا هولاكو المنجم حسام الدين وطلب منهما المناظرة حول هذا الموضوع ، فقال له الطوسى ، لقد قتل آلاف من الصحابة رضى الله عنهم ولم يظهر فساد ، وإذا كان كل هذا مما يخص العباسيين ، فانظر إلى طاهر الذى قاتل الأمين لما أمره المأمون بذلك وقتله ، وقتل المتوكل على الله أولاده وغلمانه ، وقتل المنتصر والمعتضد الأمراء والغلمان ولكن لم يحدث هناك زلزلة ولا طوفان .

الخليفة غم فى بساط ، وقيل رفسوه حتى مات » .

واستمر القتل ببغداد بضعة وثلاثين يوما ، ولم ينج إلا من اختفى : قيل إن هولاكو أمر بعد ذلك بعد القتلى ، فكانوا ألف ألف وثمان مائة ألف ، ثم طلبت النصارى أن يقع الجهر بشرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، وأن يفعل معهم المسلمون ذلك فى شهر رمضان، وأريقت الخمور فى المساجد والجوامع ،، ومنع المسلمون من الإعلان بالأذان ، . . هذه بغداد لم تكن دار كفر قط ، وجرى عليها هذا الذى لم يقع قط منذ قامت الدنيا مثله »[١] .

وقد ظلت بغداد ، على علاتها ومواضع ضعفها أكبر مدينة للعالم الإسلامى ، ومركز العلوم والفنون ، ومهد العلماء والصالحين ، وكانت موضع فخر المسلمين لكونها دار الخلافة ، فاضطرب لتدميرها المسلمون كلهم وبكوا عليها ، وقد قرض الشيخ مصلح الدين سعدى [٢] رحمه الله ، الذى أقام فى بغداد كطالب ، وشهد بهاءها وجملها قصيدة رثاء تنطق عن قلوب المسلمين الجريحة ، وشعورهم المكلوم فى ذلك الوقت ، ننقل فيما يلى أبيات منها يقول :

« إن للسماء كل الحق أن تمطر دما على الأرض لما أصاب مملكة الخليفة المستعصم من زوال وفناء ، إذا كانت القيامة حقا واقعا يا محمد عليه الصلاة والسلام ، فاحسر عن وجهك الرداء وشاهد القيامة بين الخلق اليوم ، لم يدر بخلد أى إنسان أبدا أن حوادث الدهر تأتى بما أتت به اليوم ، افتح بصرك يا من شهدت عظمة البيت الحرام لتنظر أن الملوك دفنوا تحت التراب ، واحتل محلهم المغول والخاقان ، أهريقت دماء أبناء عم النبى ﷺ على تلك الأرض ، التى كانت الملوك الكبار يخرون عليها ركعا سجدا ، وأصبحت دجلة تزبد بدم أهلها ، وهى تعجن التراب فى نخل بطحاء بالدماء ، إن وجه هذا النهر تغير وامتقع لونه من هذه الواقعة الهائلة وبدت التجاعيد فى هذا الوجه ، إن النياحة لا تجدر على تراب هؤلاء الشهداء ، فإن أقل جزاء يستحقونه هى جنة الفردس ، ولكن الواجب الدينى ، وصلة الحب والعاطفة تجعل قلب المحب يعيش فى لوعة الفراق »[٣] .

التتار فى الشام :

توجه التتار نحو حلب الشهباء بعد بغداد ، وعاملوها معاملة بغداد كما ذكر ابن كثير ،

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج٥ ص١١٤ ـ ١١٥ .

(٢) أحد أئمة الشعر الفارسى ، وصاحب كتابى « كلستان » « وبوستان » الخالدين فى المكتبة العالمية .

(٣) كليات سعدى .

ثم تقدموا إلى دمشق واستولوا عليها فى شهر جمادى الأولى سنة ٦٥٨هـ ، وقد استقبل نصارى البلد التتار الفاتحين خارج البلد ، وقدموا إليهم الهدايا ، وقدموا بأمر من حاكمهم حتى دخلوا البلد فاتحين ، يصور هذه الوقعة ابن كثير الذى كانت دمشق مسقط رأسه ، تصويرا يمكن به تقدير انتكاس المسلمين وضعفهم .

« ودخلوا من باب توما ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس ، وهم ينادون بشعارهم ويقولون ، ظهر الدين الصحيح ، دين المسيح ، ويذمون دين الإسلام وأهله ، ومعهم أوانى فيها خمر لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمرا ، وقماقم ملآنة خمرا يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم ، ويأمرون كل من يجتازون به فى الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم ، فتكاثر عليهم المسلمون فردوهم إلى سوق كنيسة مريم، فوقف خطيبهم فمدح دين النصارى ، وذم دين الإسلام وأهله » .

ثم يقول : وحكى الشيخ قطب الدين فى ذيله « ذيله على المرآة » أنهم دخلوا إلى الجامع بخمر ، وكان فى نيتهم إن طالت مدة التتار أن يخربوا كثيرا من المساجد وغيرها ، ولما وقع هذا فى البلد اجتمع قضاة المسلمين ، والشهود والفقهاء ، فدخلوا القلعة يشكون هذا الحال إلى متسلمها « إيل سيان » فأهينوا وطردوا ، وقدم كلام رؤساء النصارى عليهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون »[(١)] .

وقعة عين جالوت وتراجع التتار عن مصر :

وكان التتار متوجهين نحو مصر بعد الشام بحكم الطبيعة ، وكانت مصر وحدها التى لم تصبها ويلات التتار ، وقد كان ملك مصر الملك المظفر سيف الدين قطز قد تفرس أن التتار يزحفون إلى مصر بعد الشام ، وعند ذلك يصعب التخلص من وطأتهم ، فرأى أن يخرج من مصر بالجنود ويشن عليهم الهجوم فى نفس الشام ، حتى وقعت الحرب بين عساكر مصر الإسلامية ، والتتار فى عين جالوت يوم ٢٥ من رمضان سنة٦٥٨ هـ وانهزم التتار شر هزيمة بخلاف ما سبق لهم من الحروب ، فخرجوا منها هاربين ، وتعاقبهم الجنود المصرية فقتلوهم وأسروا منهم عددا كبيرا ، يقول العلامة السيوطى فى كتابه « تاريخ الخلفاء » :

« فهزم التتار شر هزيمة ، وانتصر المسلمون ولله الحمد ، وقتل من التتار مقتلة عظيمة ، وولوا الأدبار ، وطمع الناس فيهم يتخطفونهم وينهبونهم »[(٢)] .

---

(١) البداية والنهاية ج١٣ ص٢٠٣ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص٤٢٥ .

وهزمهم الملك الظاهر بيبـرس بعد انهزامهم فى عين جالوت مرات عـديدة ، وأخرجهم من أرض الشام وطـردهم منها ، حـتى بطل المثل السائر « إذا قـيل لك أن التتـار انهزمـوا فلا تصدق » .

انتشار الإسلام فى التتار :

وقـبل أن ينجرف العـالم الإسلامـى مع هذا السيل الجـارف العنيـد ، وينطمس معـالمه وملامحه (كـما كان المشاهد الملموس عند ذوى البصيـرة والخبرة من المؤرخين المسلمين فى ذلك الحين) بدأت دعوة الإسلام تنتـشر فجأة فى هذا الشعب ، ويتـحقق على أيدى دعاة الإسلام ما لم يتحقق بالأسنة والرمـاح ، وبطش السلاطين والملوك ، وبدأ الإسلام يتسرب فى نفوس أعدائه ، ويأخذ بمجامع قلوبهم ، إن خضوع هذا الشعب الذى قهر المسلمين أمام الإسلام من أغرب الوقائع والأحداث فى التاريخ ، فـإن هجوم التتر على العالم الإسلامى كالجراد المنتشـر ، وإخضاع العالم الإسلامى كله ، ليس من الغريب المـدهش كما يبدو فى الظاهر ، فإن عالم الإسلام فى القرن السابع كـان بدوره مصابا بتلك الأمراض والأسقام ، التى تلحق الأمم عامـة فى أوج حضارتهـا وشوكتـها ، بالعكس من التتـر ، ذلك الشعب القوى الأبى الذى نشأ على حياة البداوة ، والهمجية والضراوة ، ولكن الغريب المدهش أن هذا الشعب خضع للمـسلمين المفتوحين المقهوريـن ، واعتنق دينهم فى أوج قوته ، وذروة سلطانه ، ذلك الدين الذى فـقد كثـيرا من سلطانه السـياسى والمادى آنذاك ، وكان أتبـاعه موضع سخرية والاحتقار فى نظر التتار .

وقد أبدى « أرنولد » استغرابه فى هذا الصدد فى كتابه المشهور Preaching of Islam « الدعوة إلى الإسلام » حيث قال :

« ولكن لم يكن بد من أن ينهـض الإسلام من تحت أنقـاض عظمتـه الأولى ، وأطلال مجده التالد ، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى نشـاط الدعاة من المسلمين ، الذين كانوا يلاقون من الصـعاب أشدهـا لمناهضة منافسين قويين ، كـانا يحاولان إحـراز قصب السـبق فى ذلك المضمار ، وليس هناك فى تاريخ العالم نظير لذلك المشهـد الغريب ، وتلك المعركة الحامية التى قامت بين البـوذية والمسيحـية والإسلام ، كل ديانة تنافـس الأخرى ، لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة ، الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة

والمبشرين فى جميع الأقطار والأقاليم »[١] .

« ويظهر أنه لم يكن من اليسير أن منافسة الإسلام فى مستهل الحكم المغولى لغيره من الديانات القوية ، كالبوذية والمسيحية كانت عملا بعيد المنال ، إذ أن المسلمين كانوا قد قاسوا أكثر من غيرهم من ذلك الاضطراب الذى صحب غارات المغول ، وأن معظم هذه المدن التى كانت حتى ذلك الحين مجمع السلطة الدينية وكعبة العلم فى الإسلام فى القارة الآسيوية ، قد أصبح معظمها أطلالا دارسة ، حتى أن الفقهاء وأئمة الدين الأتقياء ، كان نصيبهم القتل أو الأسر[٢] ، وكان من بين حكام المغول الذين عرفوا عادة بتسامحهم نحو الأديان كافة من يظهر الكراهية للدين الإسلامى على درجات متفاوتة ، فقد أمر جنكيز خان بقتل كل من يذبح الحيوانات على النحو الذى قرره الإسلام ، ثم سار على نهجه قوبيلائى ، فعين مكافآت لكل من دل على من يذبح بهذه الطريقة ، واضطهد المسلمين اضطهادا عنيفا دام سبع سنين ، حتى إن كثير من المعدمين وجدوا فى سن ذلك القانون فرصة لجمع الثروة ، واتهم الأرقاء مواليهم بهذه التهمة لكى يحصلوا على حريتهم[٣] ، وقد عانى المسلمون أقسى ضروب العسف والشدة فى عهد كيوك (١٢٤٦ ـ ١٢٤٨م) الذى ألقى بزمام أمور الدولة إلى وزيريه المسيحيين ، والذى امتلأ بلاطه بالرهبان من المسيحيين»[٤] .

« وقد اضطهد أرغون (١٢٨٤ ـ ١٢٩١ م) رابع الخانات المغول فى فارس ، المسلمين فى بلاده ، وصرفهم عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها فى القضاء والمالية ، كما حرم عليهم الظهور فى بلاطه ، وعلى الرغم من جميع المصاعب ، أذعن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة[٥] ، آخر الأمر لدين هذه الشعوب التى ساموها الخسف وجعلوها فى مواطىء

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ـ ص٢٥٠ (ترجمة جماعة من الأساتذة المصريين) .

(٢) وقد بلغ من سوء المعاملة الوحشية التى لقيها هؤلاء ، أن رائضى الخيول من أهالى الصين ، كانوا إذا عرضوا أشباحا ، أظهروا البشر والحبور فى صلف وإعجاب بعرض صورة تمثل رجلا مسنا ذا لحية بيضاء يجره حصان قد ربط ذيله برقبة هذا الرجل ، وإنما كان هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف كان يتصرف فرسان المغول فى معاملتهم للمسلمين .

(Howorth vol. i. p. 159) .

(٣) (Howorth vol. i. p. 165) .

(٤) Deguignes, vol. III, p. 265

(٥) وفى القرن الثالث عشر كان ثلاثة أرباع المغول أتراكا

(cahon p. 279)

أقدامهم »[1] .

أن هذا الحدث مثار دهشة وعجب ، ولكن استغرابنا يشتد ، حينما لا نجد تفاصيله وافية فى بطون التاريخ ، أننا لا نكاد نعثر على أسماء هؤلاء الأعلام والأبطال الذين حققوا هذه المآثر ، وأدخلوا هذا الشعب الهمج فى حظيرة الإسلام ، مع أن هذه المأثرة لا تقل أهمية عن أى مأثرة إسلامية فى التاريخ ، ولهم فضل لا ينكر لا على رقاب المسلمين فحسب ، بل على الإنسانية كلها ، إلى أن يأذن الله لها بالفناء ، فإنهم أنقذوا العالم من دمار محتوم ، ووضعوه تحت رعاية شعب يؤمن بالله وحده ، ويدعو إلى دين محمد ﷺ.

إن دولة جنكيز خان توزعت بعد وفاته إلى أربعة فروع ، وبدأ الإسلام ينتشر فى هذه الفروع الأربعة ، وأصبح التتر يعتنقون الإسلام بجهود الخاقان ، حتى دخلوا فى ظرف مئة سنة فى دين الله ، وقد سرد أرنولد عدة أحداث تلقى الضوء على هذا الباب ، إنه يحكى قصة شيوع الإسلام فى فرع جوجى خان الإبن الأكبر لجنكيز خان ، الذى كان يحكم على سيرا داردا ، الجزء الغربى من الدولة . فيقول :

« وكان بركه خان (١٢٥٦ ـ ١٢٦٧م) أول من أسلم من أمراء المغول : وكان رئيسا للقبيلة الذهبية فى روسيا بين سنتى ١٢٥٦ و ١٢٦٧م [2] ، وقد قيل فى سبب إسلامه أنه تلاقى يوما مع عير للتجارة آتية من بخارى ، ولما خلا بتاجرين منهم سألهما عن عقائد الإسلام ، فشرحاها له شرحا مقنعا انتهى به إلى اعتناق هذا الدين والإخلاص له ، وقد كاشف أصغر اخوته أول الأمر عن تغييره لدينه ، واعتناقه الإسلام ، وحبب إليه أن يحذو حذوه ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين »[3] .

« وقد دخل بركة خان فى حلف مع ركن الدين الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) سلطان المماليك فى مصر ، الذى بدأ تلك العلاقات الوثيقة من جانبه ، فقد احتفى بشرذمة من جند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المئتين ، ولما لاحظ هؤلاء الجند العداء المستحكم بين ملكهم وبين هولاكو فاتح بغداد ، وهم الذين كانوا ينضوون تحت لوائه ، فرو إلى سورية ،

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص٢٥٦ ـ ٢٥٧ـ ٢٥٨ .

(٢) ومن الأهمية أن نلاحظ أن نجم الدين مختارا الزاهدى ، وضع لبركة خان فى سنة ١٢٦٠م رسالة تؤيد بالبراهين رسالة النبى الدينية ، وتدحض ما ذكره المنكرون لهذه الرسالة ، وتمدنا بوصف للمناظرات التى قامت بين المسيحيين والمسلمين (Steins Shneider, p. p. 63 - 4.) .

(٣) الدعوة إلى الإسلام ص٢٥٨ ، ١٥٩ (أبو الغازى ج٢ ـ ص١٨١) .

حيث يسمون منها شطر مصر ، وهناك استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم فى بلاط بيبرس ، الذى أقنعهم بصحة الدين الإسلامى واعتناقه [1] ، وكان بيبرس نفسه فى حرب مع هولاكو ، وقد هزمه بيبرس وأخرجه من سورية منذ أمد قريب، وقد أرسل بيبرس اثنين من المغول اللاجئين وغيرهم من الرسل يحملون كتابا إلى بركه خان ، وقد نقل هؤلاء عند عودتهم إلى مصر ، أن لكل أمير وأميرة فى بلاط بركه خان اماما ومؤذنا خاصا ، وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن فى المدارس [2] ، وكان من أثر هذه العلاقات الودية التى قامت بين بيبرس وبركة خان ، أن كثر الوافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الإسلام دينا لهم » [3] .

أنه يحكى قصة انتشار الإسلام فى الايلخانية الفرع الثانى لأسرة جنكيز خان ، ويقول :

« كان الإسلام أقل انتشارا فى بلاد الفرس حيث أسس هولاكو أسرة ايلخانات المغول، ولكى يقوى على صد هجمات بركه خان وسلطان مصر ، تحالف هولاكو مع القوات المسيحية فى الشرق كملك أرمينية والصليبيين ، وكانت زوجته المحببة اليه مسيحية ، فعملت على استمالة زوجها نحو اخوانه فى الدين ، كما تزوج ابنه أباقا خان (ـ ١٢٦٥ - ١٢٨١ م) من ابنة امبراطور القسطنطينية ، ومع أن أباقا نفسه لم يتخذ المسيحية دينا له ، امتلأ بلاطه بالقسيسين من المسيحيين ، وأرسل السفراء إلى بعض أمراء أوربا ، فكان يراسل القديس لويس ملك فرنسا ، وشارل ملك صقلية ، وجيمس ملك أرغونة يطلب اليهم التحالف معه على المسلمين ، كما أرسل لهذا الغرض أيضا بعثا من ستة عشر سفيرا من المغول إلى مجمع ليون سنة ١٢٧٤ م ، حيث دخل رئيس أولئك السفراء فى المسيحية ، وعمد مع بعض رفاقه ، وقد طمع المسيحيون ، فعلقوا الآمال على اعتناق أباقا خان المسيحية ولكن الأيام أظهرت أن تلك الآمال لم تكن الا سرابا خادعا ، وكان أخوه تكودار أحمد [4] ، الذى اعتلى العرش من بعده ، أول ايلخانات المغول الذين اعتقدوا الاسلام فى فارس، وقد شب على المسيحية، لأنه (كما يحدثنا بذلك كاتب مسيحى من معاصريه [5])،

---

(١) المقريزى (م) ج١ ص ١٨٠ - ١٨١ ، ١٨٧ .

(٢) المقريزى (م) : ج١ ص ١٢١٥ .

(٣) الدعوة إلى الإسلام - ص ٢٥٩ - ٢٦٠ - المقريزى (م) ص ٢٢٢.

(٤) أو تيكودار على ما يسميه وصاف الحضرة ، وقد سمى أحمد بعد اعتناقه الاسلام .

(٥) (Hayton . Ramusio , Tom II p . 60 , c .).

« تعمد فى صباه وتمسى باسم نقولا ولكنه دان بالاسلام عندما بلغ سن الرشد عن طريق اتصاله بالمسلمين الذين كان كلفا بهم ، وأصبح مسلما دينا ، ولما ارتد عن المسيحية ، رغب فى أن يسمى محمدا خان ، وبذل قصاراه فى تحويل كافة التتار إلى دين محمد وعقائده ، ولما أظهروا صلابة فى الارتداد عن دينهم، لم يجرؤ على حملهم على اعتناق الاسلام ، وإنما لجأ إلى ذلك عن طريق بذل العطايا والمنح وألقاب الشرف ، حتى أن عددا كبيرا من التتار دخل فى عهده فى عقيدة المسلمين » ، وقد بعث تكودار أحمد بنبأ اسلامه إلى سلطان المماليك فى مصر (قلاوون) فى ذلك الكتاب : « إلى سلطان مصر ، أما بعد ، فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته ، قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة ، إلى القرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، بصدق نبوته وحسن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده وبريته ، (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدرره للاسلام[1]) ، فلم نزل نميل إلى اعلاء كلمة الدين واصلاح أمور المسلمين، إلى أن أفضى إلينا بعد أبينا الجليل وأخينا الكبير نوبة الملك ، فأفضى علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه ، ما حقق به آمالنا فى جزيل آلائه وعوارفه ، وجلى هذه المملكة علينا وأهدى عقيلتها الينا ، فاجتمع عندنا فى قوريليان (Quriltay على الاصح) المبارك ، - هو المجتمع الذى تقدح فيه الآراء - جميع الاخوان والأولاد ، والأمراء الكبراء ، ومقدموا العساكر وزعماء البلاد ، واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير ، فى انفاذ الجم الغفير من عساكرنا التى ضاقت الارض برحبها من كثرتها ، وامتلأت الأرض رعبا من عظيم صولتها وشديد بطشها ، إلى تلك الجهة ، بهمة تخضع لها صم الاطواد ، وعزمة تلين لها الصم الصلاد ، ففكرنا فيما تمخضت زبد عزائمهم عنه ، واجتمعت أهواؤهم عليه ، فوجدناه مخالفا لما كان فى ضميرنا من اقتفاء الخير العام ، الذى هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام ، وأن لا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء ، وتجرى به فى الاقطار ، رخاء نسائم الامن والامان ، ويستريح به المسلمون فى سائر الامصار فى مهاد الشفقة والاحسان ، تعظيما لامر الله وشفقة على خلق الله ، فألهمنا الله تعالى اطفاء تلك الثائرة ، وتسكين الفتن الثائرة ، واعلام من أشار بذلك الرأى بما أرشدنا إليه : من تقديم ما يرجى به من شفاء مزاج العالم من الادواء ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء ، وإننا لا نحب المسارعة

---

(٢) سورة ٦ : آية ١٢٥ .

إلى هز النصال للنضال ، إلا بعد ايضاح المحجة ، ولا نبادر لها إلا بعد تبيين الحق وتركيب الحجة ، وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعى الصلاح ، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح، إذ كان الشيخ قدوة العارفين (كمال الدين عبد الرحمن) ، الذى هو نعم العون لنا فى أمور الدين ، فأرسلناه رحمة من الله لمن (لبى) دعاه ، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه ، وأنفذنا أقضى القضاة قطب (الملة) والدين ، والاتابك بهاء الدين ، اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ليعرفوهم طريقتنا ، ويتحقق عندهم ما ينطوى عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا ، وبينا لهم أنا من الله تعالى على بصيرة ، وأن الإسلام يجب ما قبله، وأنه تعالى ألقى فى قلوبنا أن نتبع الحق وأهله. . . فإن تطلعت نفوس إلى دليل تستحكم بسببه دواعى الاعتماد ، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد ، فلينظروا إلى ما ظهر من أمرنا مما اشتهر خبره ، وعم أثره ، فإنا ابتدأنا بتوفيق الله باعلاء أعلام الدين واظهاره ، فى ايراد كل أمر واصداره ، تقديما لناموس الشرع المحمدى ، على مقتضى قانون العدل الأحمدى ، اجلالا وتعظيما ، وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئة واقترف ، وقابلناه بالصفح، وقلنا : عفا الله عما سلف ، وتقدمنا باصلاح أمور أوقاف المسلمين ، من المساجد والمشاهد والمدارس ، وعمارة بقاع الدين والربط الدوارس ، وايصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى مستحقيها بشروط واقفيها. . . وأمرنا بتعظيم أمر الحجاج ، وتجهيز وفدها ، وتأمين سبلها ، وتيسير قوافلها، وأنا أطلقنا سبيل التجار المترددين على تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم » ، وهو يلتمس محالفة سلطان مصر « بحيث تعمر تلك المماليك وتلك البلاد، وتسكن الفتنة الثائرة ، وتغمد السيوف الباترة ، وتحمل العامة أرض الهوينى ، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون (1) * .

وإن من يدرس تاريخ المغول ليرتاح عندما يتحول فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع وما سفكوه من الدماء ، إلى أسمى عواطف الانسانية وحب الخير ، التى أعلنت عن نفسها

---

(1) وصاف الحضرة ص (٢٣١ - ٢٣٤) .

(*) وقد ورد هذا الكتاب أيضا فى القلقشندى : صبح الاعشى ج١ ص ٦٥ - ٦٨، وهو مؤرخ فى شهر جمادى الأولى سنة ٦٨١ (أغسطس سنة ١٢٨٢ م) ، وقد بعث به مع رسولين هما قطب الدين شيرازى وأتابك بهلوان ، وقد رد قلاوون على ايلخان المغول بكتاب مؤرخ أول رمضان من السنة نفسها (٣ ديسمبر سنة ١٢٨٣ م) . وقد ورد هذا الكتاب فى القلقشندى (ج ٧ ص ٢٣٧- ٢٤٢).

فى تلك الوثيقة التاريخية التى كتبها تكودار أحمد إلى سلطان المماليك فى مصر ، والتى يدهش الانسان لصدورها من مثل ذلك المغولى .

وقد أحفظ تكودار أحمد واضطهاده ، المسيحيين ، المغول الذين كانوا شديدى الاتصال بهم برغم مخالفتهم فى الدين ، وشكوه إلى قوبيلائى خان ، متهمين إياه بأنه خالف بذلك سنن أجداده ، وقد قامت فى وجهه ثورة على رأسها ابن أخيه أرغون الذى دبر قتله ، ثم خلفه على العرش ، وفى اثناء حكم أرغون (١٢٨٤ - ١٢٩١ م) القصير ، استرد المسيحيون مكانتهم من جديد ، على حين لم يكن بد من أن يلقى المسلمون الاضطهاد ، فصرفوا عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها فى القضاء والمالية ، وحرم عليهم الظهور فى بلاطه (١) .

وقد ظل خلفاء تكودار أحمد على وثنيتهم ، حتى دخل غازان (١٢٩٥ - ١٣٠٤ م) سابع الايلخانات وأعظمهم شأنا ، فى الدين الإسلامى فى سنة ١٢٩٥ م ، وجعله دين الدولة الرسمى فى فارس ، وفى عهد ايلخانات المغول الثلاثة الأخيرين الذين سبقوا غازان* ، أمل المسيحيون أمالا كبارا فى تحويل الاسرة الحاكمة فى فارس عن الدين الاسلامى ، تلك الاسرة التى ظهرت نحوهم عطفا شديدا ، وأسندت إليهم كثيرا من مناصب الدولة الهامة ، وكان بيدو خان سلف غازان ، الذى كان رأس الفتنة فى فارس ، والذى جلس على العرش فى سنة ١٢٩٥ م بضعة أشهر فقط ، قد آثر الدين المسيحى ، وجهد فى وضع العقبات فى سبيل انتشار الإسلام بين المغول ، فحرم على كل شخص أن يدعو لذلك الدين ، أو أن ينشر عقائده بينهم (٢) .

وقد شب غازان على البوذية قبل اعتناقه الإسلام ، وشيد عدة معابد للبوذية فى خراسان ، وكان يسر كثيرا بمصاحبة الكهنة الذين ينتمون إلى هذا الدين ، والذين كانوا قد وفدوا إلى فارس فى جماعات كبيرة منذ بسط المغول سلطانهم فى هذه البلاد (٣) ، ويظهر أن غازان كان بطبعه يميل إلى تقليب نظره فى المسائل الدينية . لأنه درس عقائد الاديان

---

(١) De Guignes , vol . III p.p 263 - 5 .

(*) هؤلاء هم أرغون (١٢٨٤ - ١٢٩١ م) ، وجيجاتو (١٢٩١ - ١٢٩٥ م) وبيدو (ابريل - أكتوبر سنة ١٢٩٥ م) .

(٢) .C . D . Ohsson , Tome IV p.p.141 - 2 .

(٣) .I p, 18p . 148 .

المختلفة المتشرة فى زمانه [1] ، وقد ايد رشيد الدين ، وزيره العالم ومؤرخ عصره، بالبرهان صحة اعتقاده الاسلام ، الذى أخذ على عاتقة المحافظة على شعائره فى حماس وغيرة طوال عهده » [2].

ان ابن كثير نفسه ذكر إسلام غازان فى وقائع ٦٩٤ هـ بارتياح بالغ ، ويبدو منه - ويؤيده في ذلك غيره من المؤرخين أن الفضل فى ذلك يرجع إلى الامير التركى الصالح توزون [3] ، فإن ملك التتر أسلم بجهوده ، كتب ابن كثير فى وقائع ٦٩٤ هـ ، يقول :

« وفيها ملك التتار قازان ابن أرغوان بن أبغاين تولى بن جنكيز خان فأسلم ، وأظهر الإسلام على يد الأمير توزون رحمه الله ، ودخلت التتار أو أكثرهم فى الإسلام ، ونثر الذهب والفضة ، واللؤلؤ على رؤوس الناس يوم اسلامه ، وتسمى بمحمود ، وشهد الجمعة والخطبة ، وخرب كنائس كثيرة ، وضرب عليهم الجزية ، ورد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد ، وظهرت السبح والهياكل مع التتار والحمد لله وحده » [4].

يقول ارنولد :

« أن أخاه أولجاتيو Aljaytu الذى خلفه فى سنة ١٣٠٤ م باسم محمد خدابنده* Khudabandah كان على المسيحية دين أمه ، وعمد باسم نيقولا ، على أنه لم يلبث أن

---

(١) C . D . Ohsson , Tome IV p . 365.

(٢) الدعوة إلى الإسلام - ص ٢٦٠ - ٢٦٤ .

(٣) يسميه أرنوند وغيره من المؤرخين « نوروزبيك » .

(٤) البداية والنهاية ج١٣ - ص ٣٤٠ .

(*) ذكر ابن بطوطة ج١ ص (١٤٣) أن اسمه مختلف فيه ، وقد قيل خدا (بضم الخاء) ومعناها بالفارسية اسم الله وبنده ومعناها غلام أو عبد ، وقيل خربنده بفتح الخاء ومعناها بالفارسية الحمار وبنده ، معناها غلام أو عبد ، فيكون عبد الله ، أو غلام الحمار ، وقد قيل أن سبب تسميته بهذا الاسم الأخير ، أن التتار يسمون الطفل باسم أول داخل إلى البيت عند ولادته ، فلما ولد كان أول داخل الزمال (الزمال صاحب الزاملة ، والزاملة ما يحمل عليه من الحيوان ، ولعله يرى هنا الحمار فسمى خربنده ، وذكر بروان أن غازان لما تولى فر أولجايتو وظل مشردا يرعى الحمير فى اقليم كرمان وهرمز ، ولذلك أطلق عليه اسم خربنده أو راعى الحمير ، وقيل أيضا أن أبوى الطفل كانا يطلقان عليه اسما قبيحا حتى لا تؤثر فيه عيون الحساد ، ولذلك سمى خربنده كما يسمى العرب ابناءهم بفهر وكلب وصخر ومعاوية ونحو ذلك تفاؤلا بأن يكون الولد فى كبره صخرا أوكلبا على عدوه . وقال ابن الوردى (تاريخ الوردى ص ٢٦٤) أن خربنده اسمه خدابندة، وأن ملكة شمل بلاد العراق وخراسان والعراق العجمى آذربيجان وديار بكر .

أسلم بعد موت أمه ، وهو لا يزال شابا فى مقتبل العمر ، وذلك بتأثير زوجته [(١)] ، ويذكر ابن بطوطة [(٢)] ، أن سيرة ذلك الامير ، كان لها أثر كبير فى نفوس المغول ، ومن ذلك العهد غدا الاسلام الدين السائد فى دولة ايلخانات فارس [(٣)] .

الفرع الثالث من هذه الاسرة كان يحكم البلاد المتوسطة ، وكان مؤسسها جغطائى بن جنكيز خان .

يقول أرنولد :

« وإن ما لدينا من المعلومات عن تقدم الاسلام وانتشاره فى امبراطورية المغول الوسطى ، التى كانت من نصيب جغطائى لا يزال ضئيلا ، وكان كثير من أعقاب هذه الأسرة يستعينون فى دولتهم بوزير من المسلمين على الرغم من أنه لم يبد أى ميل إلى الإسلام ، وقد ضيق جغطائى على رعاياه من المسلمين بما سنه من القوانين الشديدة الحرج ، التى ضيقت على شعائرهم الدينية ، فيما يتعلق بذبح الحيوانات للطعام وفرائض الوضوء ، ويذكر الجوزجانى أن جغطائى هذا كان ألد أعداء المسلمين من بين خانات المغول كافة ، وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنه لم يكن يرغب فى أن ينطق أحد بكلمة مسلم فى حضرته . . اللهم إلا إذا أريد بها التحقير والحط من شأنها [(٤)] ، وقد ربت أرغنة Orghana زوجة قرا هولاكو Qara-Hulagu حفيد جغطائى وخليفته ، ابنها على الاسلام . وتقدم

(١) Hammer - Purgstall : Geschichte Der Hchanen vol . II p . 182 .

لا يبعد أن تكون سبايا الاسلام قد قمن فى تحويل المغول إلى الإسلام . ويظهر أن المرأة شغلت مراكز من مراكز الشرف والكرامة بين المغول ، ويمكن أن تأتى بأمثلة كثيرة تؤيد أنه كان لها أثر ظاهر فى الشئون السياسية ، وقد تصدينا من قبل لذكر عدة حالات تبين مدى تأثير النساء فى أزواجهن فى المسائل الدينية ، ويحدثنا وليم روبرك أنه شاهد بنفسه تأثير إحدى النساء المسلمات وكيف وقف ذلك التأثير فى سبيل نشر تعاليمه الدينية :

« وفى عيد العنصرة أتى أحد المسلمين عندما أخذنا نشرح تعاليم الدين فى أثناء حديثه معنا ، فلما سمع عن نعم الله على الناس وعن التجسد وبعث الموتى ويوم الحساب ومحو الخطايا عن طريق التعميد رغب فى أن يعمد ولكن ، بينما كنا نعد العدة لتعميده ، امتطى صهوة جواده على حين غفلة ، قائلا : أنه لابد من أن يذهب إلى داره لاستشارة زوجته ، وفى اليوم التالى قال لنا فى أثناء حديثه معنا ، أنه لم يستطع أن يجرؤ على أن يعمد ، لأنه لا يستطيع عندئذ أن يشرب لبن الفرس » (Rubruck p . p . 90 - 1) .

(٢) ابن بطوطه – ص ٥٧ .

(٣) الدعوة إلى الإسلام – ص ٢٦٤ – ٢٦٥ .

(٤) الجوزجانى ص ٣٨١ – ٣٩٧ Raverty , p .p 1110 , 1145 - 6 .

باسم مبارك شاه فى سنة ١٢٦٤ مطالبا بعرش خاقانية جغطائى ، الذى كان مثار النزاع بين أمراء المغول ، ولكن سرعان ما خلعه ابن عمه براق خان Buraq Khan ، ويظهر أنه لم يكن لاسلامه أى أثر بين المغول ، فإننا لو رجعنا فى الواقع إلى أسماء أبنائه ، لا نجد أحدا منهم قد دخل فى دين أبيه [1] ، وقد قيل ان براق خان نفسه « قد أدركته البركة بتلقيه نور العقيدة » قبل موته فى سنة ١٢٧٠ م بأيام قليلة ، وإنه تسمى باسم السلطان غياث الدين [2] ، إلا أنه دفن حسب طقوس المغول القديمة ولم يدفن وفق شعائر الدين الاسلامى ، وأن من أسلموا فى عهده ارتدوا إلى وثنيتهم الأولى ، ولم يتم انتشار الاسلام بين المغول فى مملكة جغطائى إلا فى القرن التالى لاسلام مبارك خان ، ذلك على أثر اسلام طرما شيرين Tarmashirin حول سنة ١٣٢٦ م ، وقد ظل المغول الذين اقتفوا أثر زعيمهم متمسكين فى هذه المرة بدينهم الجديد ، وعلى الرغم من ذلك ، لم يتأصل الميل إلى الإسلام بعد فى نفوس المغول ، فان بوزن Buzan الذى كان خان المغول فى السنين العشر التالية (ولو أن صحة هذا التاريخ غير محققة) ، لم يلبث أن طرد طرما شيرين من العرش واضطهد المسلمين [3] ، على أننا لم نسمع عن ظهور أول ملك مسلم فى كاشغر إلا بعد سنين قليلة ، وكان ضعف أسرة جغطائى قد أتاح لهذه المملكة أن تستقل بحكم هذه البلاد ، ويقول بعض المؤرخين أن اسلام تغلق تيمور خان TuqLuq Timur Khan (١٣٤٧ - ١٣٦٣ م) ملك كاشغر ، كان على يد رجل من أهل الورع والتقوى فى مدينة بخارى ، يقال له الشيخ جمال الدين ، وكان معه جماعة من التجار ، وكانوا قد اعتدوا على الاراضى التى خصصها ذلك الامير للصيد ، فأمر بأن توثق أيديهم وأرجلهم ، وأن يمثلوا بين يديه ، ثم سألهم فى غضب : كيف جرؤوا على دخول هذه الأرض ، فأجاب الشيخ بأنهم غرباء ، ولا يعلمون أنهم يجوسون أرضا محرمة ، ولما علم الامير أنهم من الفرس ، قال : أن الكلب أغلى من أى فارسى ، فأجاب الشيخ : « نعم ! قد كنا أخس من الكلب ، وأبخس ثمنا منه لو أننا لم ندن بالدين الحق » ولما راع الامير ذلك الجواب أمر بأن يقدم إليه ذلك الفارسى الجسور عند عودته من الصيد ، ولما خلا به سأله ماذا يعنى بهذه الكلمات ، وما ذلك الدين ؟ فعرض عليه الشيخ قواعد الإسلام فى غيرة وحماس ، انفطر لهما قلب الأمير حتى كاد يذوب كما يذوب الشمع ، وصور له الكفر بصورة مروعة

(١) رشيد الدين ١٧٣ - ٤ ، ١٨٨ .

(٢) أبو الغازى ج٢ ص ١٥٩ .

(٣) رحلة ابن بطوطة ج٣ - ص ٤٧ .

اقتنع معها بضلال معتقداته وفسادها ، وقال : « ولكنى إذا اعتنقت الاسلام الآن ، فلن يكون من السهل أن أهدى رعاياى إلى الصراط المستقيم فلتمهلنى قليلا ، فإذا ما آلت إلى مملكة أجدادى ، فعد إلى » ، وذلك أن امبراطورية جغطائى انقسمت فى ذلك الوقت إلى امارات صغير، وظلت على ذلك سنين طويلة حتى نجح تغلق تيمور Tuqluq Timur فى توحيد الامبراطورية كلها تحت سلطانه ، وجمع كلمتها كما كانت من قبل ، وفى هذه الاثناء كان الشيخ جمال الدين قد عاد إلى بلده حيث مرض مرضا شديدا ، فلما أشرف على الوفاة قال لابنه رشيد الدين : « سيصبح تغلق تيمور يوما ما ملكا عظيما ، فلا تنس أن تذهب إليه وتقرئه منى السلام ، ولا تخش أن تذكره بوعده الذى قطعه لى » ولم يلبث رشيد الدين إلا سنين قليلة حتى ذهب إلى معسكر الخان ، وكان قد استرد عرش امبراطورية أبائه ، تنفيذا لوصية أبيه ، ولكنه لم يستطع أن يظفر بالمثول بين يدى الخان برغم ما بذله من جهود ، وأخيرا لجأ إلى هذه الحيلة الطريفة ؛ ففى ذات يوم أخذ يؤذن فى الصباح المبكر على مقربة من فسطاط الخان ، فأقلق ذلك الصوت نوم الخان وأثاره غضبه ، فأمر باحضاره ومثوله بين يديه ، وهناك أدى رشيد الدين رسالة أبيه ، ولم ينس تغلق تيمور وعده وقال : « حقا ! ما زلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائى ، ولكن الشخص الذى قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل ، والآن فأنت على الرحب والسعة» ، ثم أقر بالشهادتين ، وأصبح مسلما منذ ذلك الحين ، « وأشرقت شمس الاسلام ومحت بنورها ظلام الكفر . . . ولكى ينشر هذا الدين بين رعاياه اتفق تغلق تيمور ورشيد الدين على أن يستقبل الملك الامراء واحدا بعد واحد ، ويعرض عليهم الاسلام ، فمن قبله جوزى الجزاء الحسن ، ومن أباه ذبح كما يذبح الوثنيون وعباد الاصنام »[(1)] .

أما الفرع الرابع الذى ينتمى إلى اجتائى خان والذى برز فيه من الملوك والفاتحين أمثال منجو خان ، وقوبيلائى خان ، والذى كان يحكم الجزء الشرقى من امبراطورية التتر ، فقد يقول فيه أرنولد :

« ولابد أن يكون هناك كثير من أنصار النبى قد انتشروا فى طول امبراطورية المغول وعرضها ، مجاهدين فى طى الخفاء لجذب الكفار إلى حظيرة الاسلام ، ففى عهد اجتائى (١٢٢٩ - ١٢٤١ م) نقرأ عن اسلام بوذى يدعى Kurgus وكان حاكما على بلاد الفرس

---

(١) الدعوة إلى الاسلام - ص ٢٦٥ - ٢٦٧ .

من قبل المغول [1] ، وفى عهد تيمور خان (١٢٢٣ - ١٢٢٨م) كان آنندا Ananda حفيد قوبيلائى (١٢٥٧ - ١٢٩٤ م) وأكير كانسو مسلما متحمسا ، كما دفع كثيرا من أهل تانجوت Tangut وعددا كبيرا من الجنود الذين كانوا تحت امرته إلى اعتناق هذا الدين، وعلى الرغم من استدعائه إلى بلاط تيمور وبذل الجهد فى ارتداده إلى البوذية ، أبى إلا التمسك بدينه الجديد ، فألقى به فى غياهب السجن ، ولكنه لم يلبث أن أطلق سراحه بعد قليل خشية ثورة أهالى تانجوت الذين كانوا شديدى التعلق به » [2].

وهكذا دخل هذا الشعب (الذى دوخ العالم الاسلامى كله وداس أطرافه بأقدامه ونعال خيوله ، والذى لم تتماسك أمامه أى قوة) فى دين الله الاسلام فى بضع سنين ، وبدت هذه الحقيقة مرة أخرى ، واضحة جلية ، أن الاسلام لا يزال يملك أكبر نفوذ ، ويتمتع بأغرب موهبة فى تسخير الارواح وكسب الانصار والاصدقاء ، ان التتر لم يسلموا رسميا فحسب ، بل برز فيهم عدد كبير من العلماء والفقهاء والمجاهدين ، والدعاة والربانيين ، وأهل الصدق واليقين ، وأدوا دورهم الثمين فى حماية حمى الاسلام فى ظروف دقيقة ولحظات عصيبة من التاريخ .

---

(١) C . D . Ohsson , vol . III 121 .

(٢) الدعوة إلى الإسلام - ص ٢٥٨ ، رشيد الدين ص ٦٠٠ - ٦٠٢ .

مولانا جلال الدين الرومى
عصره ، وترجَمة حياته

ثورة علم الكلام والعقلية . ونتائجها :

خضعت الأوساط العلمية والحركات الفكرية فى القرن السابع للاستدلال والقياس العقلى خضوعاً زائداً ، وأصبح المؤلفون والمتكلمون والباحثون والدعاة مضطرين إلى البراهين العقلية والمقدمات الفلسفية . فى اثبات حقيقة غيبية ، أو تقرير عقيدة دينية ، وجاء العلامة « فخر الدين الرازى » (٦٠٦ م) فجدد دولة علم الكلام ، ووسمها بشخصيته القوية ، ومؤلفاته العظيمة ، وبحوثه الدقيقة .

انتصر الأشاعرة على المعتزلة والفلاسفة فى الحياة والمجتمع وفقد الاعتزال والفلسفة شيئاً كثيراً من سيطرتهما ونفوذهما : ولكن روح الاعتزال والنزعة العقلية تغلغلت فى أحشاء علم الكلام ، وسيطرت على تفكيره ومناهج بحثه ، وقد غلا المتكلمون أنفسهم فى الزمن الأخير فى تقدير العقل ، ووسعوا حدوده ، وسمحوا له أن يبحث فى مسائل الذات والصفات - التى هى وراء طور العقل (١) بحثاً حرا ، وكان اثباتهم للمسائل الدينينة وحقائق الأشياء يعتمد دائماً على الاستدلال الفلسفى والقياس المنطقى ، كما كان يعتمد على ذلك فى أدب المعتزلة وكتب الفلاسفة باختلاف فى التعبير والمصطلحات ، وقد حكموا الظواهر والمحسوسات تحكيماً كبيراً .

كانت نتيجة ذلك أن طغى على العالم الإسلامى « الجفاف الفلسفى » - إن صح التعبير- وإذا كان الغلو فى القياس والاستدلال قد أفاد العقول جدة ونشاطاً ، فقد أفقد القلوب ايماناً وحرارة .

لقد استطاع المتكلمون بقوة استدلالهم وبراعتهم فى المناظرة أن يقطعوا لسان المعترضين ويفحموا المجادلين ؛ ولكنهم لم يستطيعوا أن يبعثوا فى القلوب سكينة وايماناً، وفى أهل الشك يقيناً واذعاناً .

لقد خلقت مناهج بحثهم وأساليب استدلالهم عقداً فى القلوب والعقول ، عجز علم

---

(١) اننا إذا قلنا « وراء طور العقل » فلا نعنى أنه يعارض العقل أو ينافيه والفرق بينهما كبير ، وقد يخلط بينهما من لم يدقق ولم يرسخ فى العلم .

الكلام عن حلها وفكها ، واستخف علم الكلام وأصحابه بالوجدان الذى هو منبع فياض للتلم واليقين ، فنضب معينه .

كانت الفلسفة ، ومن سار سيرتها ، لا تقرر إلا بالحواس الخمس ، وأصبح كل شىء لا يدرك بهذه الحواس الظاهرة ، ويتوقف على الحاسة الباطنة محل الجدال والشك ، ويميل «المثقفون» إلى نفيه وانكاره ؛ وقد ضعفت فى الأمة بتأثير علم الكلام والفلسفة - قوة العمل ولوعة الحب التى كانت مصدراً من مصادرة قوة هذه الأمة كبيراً ، وموهبة من مواهب النبوة العظيمة . وقد حولت المباحث الفلسفية والحروب الكلامية العالم الإسلامى إلى « مدرسة » يكثر فيها القيل والقال ، والنقاش والجدال ؛ ولكنها بعيدة عن الحياة والحب، والايمان الوثيق العميق والعاطفة القوية الرقيقة ، وقد كون أهل القلوب جزراً روحية فى هذا المحيط العقلى المادى ، يسود فيها الحب واليقين ، والسكينة والطمأنينة .

الحاجة إلى متكلم جديد :

كان العالم الإسلامى حينئذ فى حاجة شديدة إلى شخصية قوية عبقرية مجددة ، قد وصلت بدراستها إلى احشاء الفلسفة ثم خرجت منها سالمة ، وقد شاهد بتجاربه الواسعة أن الفلسفة سراب يحسبه الجاهل ماء ، وأن تدقيقاتها وما تزهى به من بحث وتحقيق طلاسم لفظية وطبول فارغة ، يرغب فيها من لم يختبرها ويتعمق فيها .

كان العالم الإسلامى فى حاجة إلى شخصية تستطيع أن تنفسخ بقلبها الولوع وعاطفتها القوية روحاً جديدة فى المجتمع ، الذى طغى عليه العقل - على حساب العاطفة - وساد عليه الخمود ، شخصية تستطيع أن تؤسس كلاماً جديداً لا يصارع العقول ، ولا يكتفى بافحام المجادلين ، بل يحل العقد النفسية والفكرية التى خلفها علم الكلام ويملأ القلوب سكينة وإيماناً .

لقد وجد هذا الرجل المطلوب فى شخصية مولانا « جلال الدين الرومى » . وقد كان ديوان شعره الذى يعرف عادة بـ « المثنوى المعنوى » [1] ثورة على علم الكلام الذى فقد جدته وقوته ، ونقد الفلسفة فى اتجاهها ومنهجها ، وعلى الفلسفة التى تجاوزت حدودها ، وبالغت فى تقدير الحواس وتقديس العقل ، وكان أساساً لكلام جديد كان أكثر اقناعاً للعقول الجامحة الثائرة ، والنفوس المضطربة الحائرة من علم الكلام ، الذى تزعم ذلك

---

(١) ترجم إلى العربية ترجمة دقيقة من قبل أحد أساتذة جامعة بيروت العربية وطبع فى جزأين فاخرين عام ١٩٦٩ .

وتكفل به طوال القرون .

ترجمة حياته :

ولد [1] جـلال الدين محـمد الرومى ، فى سـادس ربيع الأول ، سنة ٦٠٤ هـ فى «بلخ» من أعمال أفغانستان ، وكان والده مـحمد الملقب « بهاء الدين ولد » من كبار علماء بلاده ومشائخ عصره ، وقد لقب بسلطان العلماء ، ينتهى نسبه إلى سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

بدأ جـلال الدين دراسـته عند الشيخ بـرهان الدين المحقق « التـرمذى » الذى كـان من تلاميذه والده ، ونبغ على يده ، وقد كان والده الشيخ « بهـاء الدين » ينتقد علماء العصر لعكوفهم على دراسـة العلوم العقلية وتعليمـها ، وانصرافهم عن القـرآن والحديث ، وكان الشيخ مهاباً جليل القدر يجله العامة والخاصـة ، وتأتيه الفتاوى من أقاصى البلاد ؛ فحسده العلماء وأوغـروا صدر الملك عليه ، وقـد هاله التفاف الناس حـوله وصدورهم عن رأيه ؛ فأوعز إليه بالخروج من البلاد ، وهاجر الشيخ بأهله ، وأقام فى مدن كثيرة كان فيها موضع حفاوة بالغـة واجلال ؛ حتى استـقر فى « قونية » سنة ٦٢٦ هـ بدعـوة من « علاء الدين كيقباد » سلطان الروم ، الذى احتفى به ، وبالغ فى اكرامه ، وبايعه .

مكث الشيخ « بهاء الدين » سنتين فى قونية وتوفى سنة ٦٣٨ هـ ، وخلفه ولده النابغة مولانا « جـلال الدين » وبنى له الأميـر بدر الدين « كهرتاش » أسـتاذ السلطان ، مـدرسة عرفت بمدرسة « خـداوندكار » ووقف لها أوقافاً واسـعة ، ولاه رئاستها . واستـمر جلال الدين فى التدريس والوعظ والإرشاد على نمط والده العظيم ، ولم يمنعه هذا الجاه العريض والمكانة المرموقة من التوسع فى الدراسات ، والتبحر فى العلوم ، وسافر سنة ٦٣٠ هـ إلى بلاد الشام ، ومكث فى المدرسة « الحلاوية » بحلب ، واستفاد من كمال الدين بن العديم، وقـد أقر له علمـاء حلب بالنبوغ والاطـلاع الواسع ، ومن حلب توجه جـلال الدين إلى دمشق ، حيث أقام بالمدرسة « المقدسية » ، وكانت له مجالس لطيفة مع الشيخ محى الدين بن عربى ، والشيخ سـعد الدين الحموى ، والشيخ عثمـان الرومى ، والشيخ أوحد الدين الكرمانى ، والشيخ صدر الدين القونوى ، وقد اجتمعوا فى دمشق فى ذلك العصر .

---

(١) اعتمدنا فـى تلخيص ترجمته وأخبـاره على كتاب « صاحب المثنوى » للاستاذ المحـقق القاضى تلمذ حسين الهندى ، وهو خير مـا كتب فى هذا الموضوع ومن أوثق المصادر ، واستفـدنا قليلاً من كتاب «زندكانى مولانا جلال الدين» استاذ بديع الزمان فروزانفر أحد أساتذة الأدب فى جامعة طهران .

رجع جلال الدين فى سنة ٦٣٤ هـ إلى قونية ، وعكف علـى التدريس والافتاء ، وقد نزح إلى « قونية » كثير من العلماء والأشراف الذين هاجروا من بلادهم فى فتنة التتار ؛ فأصبحت مدينة العلم وملجأ العلماء والفضلاء ، واستقر بها أصحاب الشيخ محى الدين بن عربى بعد وفاته ، منهم الشيخ صدر الدين القونوى .

كان جلال الدين منقطعاً إلى التدريس وتحرير الفتاوى ، وكانت مدرسته مدرسة عامرة يدرس فيها أكثر من أربعمائة طالب .

استمر جلال الدين يدرس ويفيد ويعيش كعالم ومدرس ؛ حتى حدثت له حادثة قلبت حياته واتجاهه ، وفتحت قريحته واشتملت مواهبه ، وكانت سبب شهرته وتأثيره وخلوده .

فى جمادى الآخرة سنة ٦٤٣ هـ وصل إلى « قونية » رجل من الصوفية من « تبريز » فى إيران . اسمه « محمد بن على بن ملك داد » ويعرف بشمس تبريز ، يعرف الناس عن نسبه وأحواله قليلاً ، وخرج جلال الدين يوماً فى موكبه من التلاميذ والعلماء ، والناس حوله يسألونه ويستفيدون منه ، وتقدم شمس الدين إلى الراكب المحتفل به وقال : ما المقصود من الرياضيات والعلوم ؟ قال جلال الدين : الاطلاع على أداب الشرع . قال شمس الدين فى هدوء وثقة : لا ؛ بل الوصول إلى المعلوم ، وأنشد بيت الحكيم «السنائى» الذى يقول فيه : « أن العلم إذا لم يجردك من نفسك فالجهل خير منه » وتحير جلال الدين، وأصاب شمس الدين هدفه ، وأصمى رميته .

ورجع جلال الدين مع أستاذه الجديد ، وبقى معه فى حجرة أربعين يوماً ، وفى رواية أنه اعتكف معه ستة أشهر فى حجرة صلاح الدين زركوب « الدقاق » لا يدخلها إلا صلاح الدين . وامتلأ جلال الدين بروح جديدة ، وانكشف له عالم جديد من الحقائق والأذواق، وإلى ذلك أشار جلال الدين فى بيت له بقوله : « أن الشمس التبريزى هو الذى أرانى طريق الحقيقة ، وهو الذى أدين له فى ايمانى ويقينى ، ويقول « سلطان ولد » ابن جلال الدين : « ان الاستاذ الكبير أصبح تلميذاً صغيراً للشيخ التبريزى يتلقى منه الدروس كل يوم، أنه وإن كان نابغة فى العلوم ، ومقدماً فى الزهادة ؛ ولكنه رأى عنده علماً جديداً لا عهد له به » .

وخضع جلال الدين لشيخه الجديد خضوعاً كاملاً ، وانصرف إليه انصرافاً كلياً ، وتشاغل عن تلاميذه ومريديه ؛ فكبر ذلك عليهم ، وثاروا ، وقالوا : لقد صرفنا أعمارنا فى خدمة الشيخ ، وشاهدنا كراماته ، وبنا طار ذكره فى الأفاق ، وجاء رجل غريب

مجهول وقطعه عنا ، واستولى عليه ؛ فلا سبيل لنا إلى لقائه ورؤيته . ووقفت الدروس والمحاضرات ؛ فلا شك أنه رجل ساحر أو داهية باقعة ، جرف هذا الجبل الراسى من العلم كتبنة حقيرة وورقة خفيفة » .

واشتدت عداوتهم لشمس الدين ، وعزموا على اقصائه من « قونية » ليخلو لهم وجه أستاذهم ، ويكونوا من بعده قوماً صالحين ، وتحمل ذلك شمس الدين فى صبر وحلم ؛ حتى تجاوز الحد ، وخاف شمس الدين الشر والفتنة ؛ فخرج من قونية مستخفياً ، وكان ذلك غرة شوال عام ٦٤٣ هـ بعدما أقام فى « قونية » عاماً وأربعة أشهر .

وحزن جلال الدين لغيبة أستاذه حزناً شديداً ، واعتزل جميع تلاميذه ومريديه ، ولم يتحقق ما ألوه من اقصاء شمس الدين ، وحرم أصحاب الصدق والوفاء من أصحابه الاستفادة من شيخهم الجليل .

وبقى الشيخ منقطعاً عن الناس ، منصرفاً عن اشتغاله ؛ حتى فاجأته رسالة للشيخ شمس الدين من دمشق ، فطابت نفس جلال الدين ، وأقبل إلى مجالس السماع كعادته ، وأقبل على من لم يساهم فى ايذاء شمس الدين واقصائه بعطف ، وكتب إلى شمس الدين رسائل حنين وغرام يقول فى احداها :

أيها النور فى الفؤاد تعال ... غاية الوجد والمراد تعال
أيها السابق الذى سبقت منـ ... ـك مصدوقة الوداد تعال
« جون بيانى ، زهى كشاد ومراد ... جون نيائى ، زهى كساد تعالى » (١)
أنت كالشمس إذ دنت ونأت ... يا قريباً على العباد تعال

وهدأت ثائرة الناس ، وعرف جلال الدين أن الناس أقلعوا عن عداوة شمس الدين وايذائه ؛ فأرسل ولده « سلطان ولد » مع هدايا نفيسة ينثرها على قدميه ، ويطلب منه العفو عمن آذاه ، وأن يصرف عنان عزيمته إلى « قونية » وكتب رسالة رقيقة منظومة .

ورجع شمس الدين إلى « قونية » وابتهج بقدومه جلال الدين ، وسر سروراً عظيماً ، وطابت مجالسه مع شمس الدين ، وصفت له الأوقات .

وازداد جلال الدين اجلالاً لشيخه وحباً له واتحاداً معه ؛ ولكنه لم يمض على هذا النعيم

---

(١) معنى البيت بالعربية :
يا سروراً وسعادة إذا قدمت ، ويا حزناً وكساداً إذا غبت .

زمن طويل ؛ حتى ثارت الفتنة من جديد ، وكان ممن ساهم فى هذه الفتنة ولده الأوسط «شلبى علاء الدين» وغاب شمس الدين ثانية .

وقامت قيامة جلال الدين وجن جنونه ، وأقصى جلال الدين كل من تسبب فى ايذاء شمس الدين ، وطردهم من عنده ؛ ولكنه شغل نفسه فى هذه المرة بمجالس السماع ، وكان ذلك فى سنة ٦٤٥ هـ .

وبحث جلال الدين عن شيخه فى كل مكان ، ولما لم يجد له أثر تغيرت حالته ، وأصبح لا يصبر عن مجالس السماع لحظة ، وكان يدور فى مدرسته كالهائم ، ويئن ويرسل زفراته ، ويقول فى الحنين إلى شيخه الشعر الرقيق ، وينظم القصائد الطوال ، وكان إذا حدث أحد بأنه رأى شيخه أو لقيه فى مكان خلع عليه لباسه شكراً .

وخرج جلال الدين إلى الشام ليبحث عن شمس الدين ، ورافقه أصحابه ، ووصل إلى دمشق وأشعل قلوب أهل دمشق حباً وغراماً ، وتعجب الناس وقالوا : من هذا الرجل الذى هام به نابغة عصره ونادرة زمانه هذا الهيام ؟! .

ولما لم ير للشمس عيناً ولا أثراً سكنت نفسه ، وقال : لا فرق بينى وبين شمس الدين، إن كان هو شمساً فأنا ذرة ، وإن كان هو بحراً فأنا قطرة ، ونور الذرة من الشمس ، وحياة القطرة من البحر ، ورجع إلى « قونية » .

وأقام فى « قونية » بضع سنين ، وثار الحب مرة ثانية ، ورجع إلى دمشق مع جماعة من أصحابه ، ثم رجع إلى « قونية » مقتنعاً بأنه عين « الشمس » ، وقال اننى لم أكن أبحث عن « شمس الدين » انما كنت أبحث عن نفسى ، وأن كل ما فى « شمس الدين » هو نفسى ، وأصبح يشاهد فى نفسه ما كان يشاهده فى « شمس الدين » واتخذ الشيخ « صلاح الدين الدقاق » صاحب سره ، وخليفة له وجليسه الخاص ، وصار لا يسكن إلا إليه ، وعاش صلاح الدين فى هذه الحال عشر سنىن ، وتوفى سنة ٦٥٧ هـ ، واتخذ جلال الدين « شلبى حسام الدين » جليساً له بعد صلاح الدين ، وكان السبب فى تأليف المثنوى ، فقد سالت له قريحته بهذا الشعر الخالد ، ولما توفيت زوجة حسام الدين «الشلبى» وتشاغل حسام الدين ، جمدت قريحته وتوقف تأليف المثنوى .

وكان جلال الدين - كما وصفنا من حاله - لا يسكن ولا يرتاح إلا إلى صاحب موافق تنسجم نفسه مع نفسه ، وكان استاذه السيد « بهاء الدين » أول صاحب له ؛ فلما مات بقى الشيخ خمس سنوات يشعر بفراغ فى نفسه وفى حياته ، وجاء « شمس الدين التبريزى »

فمـلأ هذا الفراغ وزاد ، ولما غاب ، شـعر جلال الدين بفـراغ هائل ، وبقى فى قلق دائم حتى ملأه بصلاح الدين « الدقاق » و « الشلبى حسام الدين » بعده ، وكأنما كانت المواهب المودعة فى ضميره وفطرته فى حاجـة إلى من يثيرها ويحركها ، ولم يكن تأليف المثنوى إلا استجابة روحية لهذا النداء الخفى .

ولم يكن اختيار جلال الدين لأصحابه وجلسائه كصلاح الدين وحسام الدين بفضل علم وزهد أو كشف وكرامة ، وإنما لكان لمجـانسة بين الأرواح والخواطر ، والنفوس والقلوب . وقد ذكر سبب ايثاره لصلاح الدين على غيره واستشـاره به مجانسة بينهما لا غير ، وقال : إن الحب الذى يقوم على المجانسة لا يعقبه ندامة فى الدنيا والآخرة ؛ ولذلك يتمنى من لم يلاحظ هذه المجانسة « يا ليتنى لم أتخـذ فلاناً خليلاً » ؛ أما المحبون المتجـانسون فلا فرقة بينهم ولا عداوة ، ولا ندامة ولا مـلامة « الاخلاء يومئذ بعضهم لبـعض عدو إلا المتقين » ويقول : « إن هذه المجـانسة هى التى خلقت الإيمان فى الصحابة ، وجـذبت النفوس إلى الرسول ، وإليهـا يرجع الفضل فى ايمان كثير من السابقين الأولين ، لا إلـى المعجزات فإن المجانس يجذب صفات المجانس ، وينصبغ بصبغته » .

وفاته :

شهدت « قونية » - بلد جلال الدين - زلزالاً سـتة ٦٧٢ هـــ ، ودامت الرجفة أسبوعاً كاملاً ، وكان جلال الدين مريضاً رهين الفراش ، وزاره الناس وطلبوا منه الدعاء ؛ فقال : « إن الأرض جائعة تطلب لقـمة دسمة ، وستنالهـا عن قريب ، ويرفع عنكم هذا البلاء » وقال أبياتاً وقصائد يحن فيها إلى لقاء الحبيب ، ويستقبل الموت بنفس منشرحة وثغر باسم، وعاده صديقه « صدر الدين » فدعا له بالشفـاء القريب ؛ فاعتذر وقال : هناك الله بالشفاء وما يضرك إذا رفع الحجاب بين الحبيب والحبيب » ؟ وقال وهو فى سياقه الموت: « إن كنت مؤمناً وحلوا طاب الموت ، وكـان الموت مؤمناً ، وإن كنت كافـراً ومراً ، كان موتاً كـافراً ومراً » ولم يزل مشغولاً ببيان الحقائق والمعارف ؛ حتى فاضت روحه عند غروب الشمس ، لخمس خلون من جماد الآخرة ، سنة ٦٧٢ هــ .

ولما خرجت جنازته ، ازدحم عليهـا أهل البلد ازدحاماً كبيراً ، وشيـعها أتباع كل ديانة وهم يبكون . وكان اليهود والنصارى يتلون التوراة والانجيل ، وكان المسلمون ينحرنهم فلا يتنحون ، وبلغ ذلك حـاكم البلد ، فقال لقسـاوستهم ورهبانهم : ما لـكم ولهذا الأمر ؟ وانها لجنازة عالم مـسلم ، فقالوا : « به عرفنا حقيـقة الانبياء السابقين ، وفيـه رأينا سيرة الأولياء الكاملين » وكانت الجنازة قد خرجت فى الصباح الباكر ، ووصلت إلى مقبرة البلد

عند المساء ، ودفنت فى الليل .

أخلاقه وصفته :

كان جلال الدين [1] شديد الرياضة والمجاهدة ، كثير التعبد قال « سبه سالار » وقد صاحبه أعواماً طوالاً « لم أره قط فى لباس النوم ، ولم أر عنده فراشاً ولا وسادة ، فإذا غلبه النوم نام جالساً » ويقول فى بيت : كيف ينام من يتقلب على حسك السعدان ؟!

وكان إذا حانت الصلاة توجه إلى القبلة وتغير لونه ، وكان كثير الاستغراق فى الصلاة يقول « سبه سالار » : رأيته مراراً دخل فى الصلاة وقت العشاء . وقضى الليل كله فى ركعة » وقد وصف جلال الدين صلاته فى شعره وصفاً جميلاً بليغاً يدل على أن صلاته صلاة محب مستغرق هائم ، يغيب عن نفسه ويشتغل بربه ؛ فلا يشعر بمكان وزمان ، وأمام وركوع وسجود ، يسيل دموعاً ويذوب محبة ، ويحترق ، وقد بكى مرة فى الصلاة وابتل الوجه واللحية بالدموع الغزار ، وكان الزمن زمن شتاء ، والبرد فى « قونية » شديد، فجمدت الدموع على الخد واللحية وهو فى صلاته .

وكان زاهداً متقللاً قنوعاً ، يقسم كل ما يأتيه من هدايا الملوك والأمراء والاغنياء ، وقد يكون فى خصاصة ، وكان يفرح إذا كان فى فاقة أو جوع ، ويقول : « الأن أشم رائحة التجرد والافتقار إلى الله » .

وكان عظيم السخاء كثير البذل والايثار ، إذا جاء سائل وليس عنده شىء خلع له قميصه أو عباءته ، لذلك كان يلبس قميصاً ليسهل عليه خلعه وكان عظيم الصبر والاحتمال. مر فى طريقه بكلب نائم فى عرض الطريق ، فوقف ينتظر انتباهه ، وكره ازعاجه ، ومر به رجل يعرفه ، فزجر الكلب وخلى له الطريق وكره ذلك جلال الدين ، وقال : قد أذيته » .

ومر برجلين يتسابان ، وقال أحدهما للآخر : انك إذا أسمعتنى واحدة أسمعتك عشراً، فقال : دونكما نفسى ! فإن أسمعتمانى الفا لم أسمعكما واحدة ، وخر الرجلان على قدميه وتصالحا .

---

(١) أكثر معلومات . هذا الفصل مستفادة من كتاب « سوانح مولانا روم » باللغة الاردية للعلامة المرحوم شلبى النعمانى .

وكان حريصاً على كسب الحلال ، يكره البطالة والرزق الذى يأتيه من غير شغل ، وكانت له جراية خمسة عشر ديناراً من الأوقاف ، فكان يكتب الفتاوى مقابل ذلك ، حتى يستحل ويستحق هذه الجراية وكان قد أوصى تلاميذه أن يخبروه إذا جاء استفتاء ، حتى لا يتأخر عن اجابته ، وكان محتجباً عن الناس ، زاهداً فى لقاء الامراء والسلاطين ، اعتذر إليه أمير عن عدم الزيارة ، فقال : «لا داعى إلى الاعتذار ، فالغيبة أحب إلى من الحضور».

مولانا جلال الدّين الرّومى

مفكّر مبتكر ، ومؤسّس علم كلام جديد

« المثنوى المعنوى » موضوعه وأغراضه :

تدل ترجمة حياة « جلال الدين » على أنه كان قوى العاطفة ، وجدانيا ، ملتهب الروح ولوع القلب ، صاحب استعداد كبير ومواهب عظيمة ، قد عجنت طينته بالحب ، وقد غطى هذه الشرارة الانهماك فى العلوم الظاهرة ، والاشتغال الزائد بالعقليات ، وجاء شمس الدين التبريزى - وهو شعلة حب ووجدان - فألهب هذه الشرارة الكامنة ، وأثار الطبيعة المطمورة فى ركام البيئة والعادة ، والثقافة والتربية ، فإذا بجلال الدين عود ملتهب، ومجمرة مشتعلة ، وعين بصيرة مفتوحة ، ونفس حساسة تواقة ، قد اشتعلت حاسته الباطنة ، وارتفعت عن عينه الحجب ، وانكشف له الحقائق المستورة وراء الألفاظ ، وانهالت عليه المعانى ، وتواردت على قلبه وضميره العلوم الصحيحة ، فأترعت كأسه وفاضت ، وكل من كان هذا شأنه يصعب عليه السكوت والهدوء . ويعن عليه ألا يجد أنيسا أو جليسا يرى فيه صورة نفسه ، ويفضى إليه بذات صدره ، ويشكو إليه آلامه وآماله، ويبث إليه أسراره وأفكاره . وكل من كان هذا شأنه يقبل على السماع يتسلى به ، ويتغذى ويتعالج به ويتداوى ، وأقبل على الشعر - إن كان صاحب قريحة - يعبر به عن علومه الدقيقة ، وخواطره الرقيقة ، ويخفف به عن نفسه وبرحائه ، وغلبه الشعر والتغنى، فما يستطيع له دفعا ، وأنشد معتذرا :

سقونى وقالوا لا تغن ولو سقوا　　جبال سليمى ما سقيت لغنت

واتجه هذا الشعر الفائض المرسل الذى هو فيض الخاطر ورشح القلب إلى الموضوع الذى يشغل الشاعر أو يشغل العصر ، فتناوله واشتغل به واستخدم الشاعر رقة الشعر ولطف التعبير ، وحلاوة الجرس وموسيقى الوزن والقوافى ، وفكاهة الأدب ، لتأدية فلسفلته الدقيقة العميقة ، والمعانى اللطيفة الغامضة ، والمبادىء الرفيعة التى تشغل فكره وتجيش فى خاطره ، فكان كلامه أوقع فى النفوس ، وأحلى فى القلوب ، وأسهل فهما وأيسر تناولا ، وأكثر نفوذا وتغلغلا فى المجتمع والآداب ، وكذلك فعل الحكيم « السنائى »[1] فى

---

(١) هو أبو المجد ابن آدم السنائى الشاعر الصوفى المشهور كان معاصرا لبهرام شاه الغزنوى توفى سنة ٥٢٥ هـ .

«الحديقة» و (فريد الدين العطار) [1] فى « منطق الطير » فكان لهما تأثير لم يكن لكتاب فلسفة جاف ، أو بحث علمى دقيق ، فكان هذان الكتابان السائران المقبولان فى الأدب الفارسى ، بل الأدب الإسلامى ، حافزين لجلال الدين إلى تأليف « المثنوى » وقدوة ومثالا له، كما حكاه صاحبه حسام الدين الشلبى .

ولما كان علم الكلام هو الشغل الشاغل لعصر جلال الدين ، وأصبحت الحقائق من عقائد ومباحث الهية وحقائق غيبية : كالألوهية وصفاتها ، والنبوة وأحكامها ، والغيب والوحى ، والجنة والنار ، إلى غير ذلك أصبحت هذه الحقائق موضوع البحث والجدال ، وحديث النوادى والمجالس ، واتجهت النفوس إلى التشكك فيها أو نفيها ، وظهر فى الأوساط العلمية الإضطراب فى العقيدة ، كان ذلك موضوع « المثنوى » والقطب الذى يدور حوله .

لقد عاش جلال الدين فى وسط الأشاعرة ومدرستهم الفكرية ، وكان قبل أن يقابل شمس الدين أستاذا كبيرا وعالما جدليا ، ولكن بعد ما جذبته الجاذبة الربانية، وانتقل من القيل والقال ، إلى حقيقة الحال ، ومن الخبر إلى النظر ، ومن الألفاظ إلى المعانى ، وبطل عنه سحر المصطلحات والتعريفات التى يتبجح بها المنطق ، ووصل إلى لب اللباب وغاية ما فى الباب انكشفت له مواضع ضعف الفلسفة وعلم الكلام فى فهم هذه الحقائق ، ومواضع غلطهم فى الاستدلال والقياس والاعتماد فى تقريرها أو نفيها على العقل والحواس ، وعرف أن بضاعتهم مزجاة فى هذا الموضوع . ومن هنا تناول علم الكلام والفلسفة بالنقد والتزييف .

نقده للاعتماد على الحواس فى تقرير الحقائق الدينية :

لقد كان أكبر اعتماد الفلسفة والعقليات فى هذا العصر على الحواس الظاهرة ، وقد كانت الحواس الخمس تعتبر الميزان الصحيح لثبوت « الحقائق » ، وكانت تعتبر أوثق مصدر وأقواه لحصول العلم الصحيح واليقين ، وقد كان « المثقفون » ـ كما ذكرنا ـ يميلون إلى نفى كل مالا يدرك بالحواس الخمس ولا يأتى تحت الحس، ويسرعون إلى انكاره ، ويتحاشون تقريره والاعتراف به ، وكانت هذه النزعة السائدة فى المدارس والمجالس ، وقد كان المعتزلة ـ ومن نحا نحوهم ـ أكبر الدعاة إلى هذه الفكرة التى نسميها « الحسية » وقد أضعفت هذه الفكرة الإيمان بالغيب ، وضعفت بتأثيرها الثقة بالحقائق الغيبية التى جاءت بها الشرائع ،

---

(1) ولد سنة ٥١٣ وتوفى ٦٢٧ هـ وكان معاصرا لخوارزم شاه .

وألحت عليها الأديان السماوية ، وقد انتقد جلال الدين هذه النزعة وأنصارها فى « مثنويه » بقوة وصراحة، يقول فى موضع :

أن « الحسية » : (الاعتماد على الحواس فى تقرير الحقائق الدينية) يتزعمها المعتزلة ، وهم عبيد مسخرون لها ، ويزعمون أنهم من أهل السنة ، ولكن أهل السنة لا يتقيدون بهذه الحواس ، ولا يعكفون عليها عبادة وخضوعا »(١) .

أنه يقرر ، أن هنالك حواس باطنية وراء الحواس الظاهرة ، كنسبة التراب والخزف إلى الذهب الخالص والتبر المسبوك . ويقول : « إن الحواس الظاهرة تستمد غذاءها وقوتها من الأبدان والأشباح ، أما الحواس الباطنية ، فإنها تستمد غذاءها وقوتها من النفوس والأرواح، وأن قوت الأولى الظلام الذى فطرت عليه الأجسام، وقوت الآخرة الحواس الباطنة ، النور الذى فطرت عليه الأروح والقلوب »(٢) .

أنه يقرر أنه لا يكفى لنفى شيء أنه لا يرى بالإبصار ، ولا يدرك بالحواس . أن الباطن دائما كامن وراء الظاهر ، ومضمر فيه ، كالفائدة فى الدواء . يقول : « إن المنكر يقول دائما : أنى لا أرى إلا الظاهر ، والظاهر دائما يخبر بالحكم المضمرة ، ألا ترى إلى الأدوية النافعة كيف كمن فيها فائدتها وتأثيرها ؟ »(٣) .

يقول : « إن الذين اعتمدوا على حواسهم الظاهرة واقتصروا عليها ، وأنكروا كل ما عداها ، ضيعوا حواسهم الباطنة ، وفقدوا قواهم ومواهبهم التى منحهم الله إياها ، وأصبحوا محجوبين عميانا ، لا يمشون إلا بعكازة أو بقائد يقودهم ، وأصبح كثير من الحقائق والدقائق مستورة عنهم »(٤) .

وظيفة العقل وحدوده :

أنه لا يقتصر ـ فى نقده ـ على الحواس الظاهرة ، ولا يقرر قصورها وعجزها عن الوصول إلى الحقائق الغيبية فحسب ، بل يشرك معها العقل أيضا ، ويقرر أيضا أنه عاجز عن الوصول إلى حقائق علم الغيب ، وعلوم الأنبياء ، لأنه لا يملك أساسا وقاعدة للقياس فى هذه المعلومات ، ولا عهد له بهذا العالم الفسيح ـ عالم الغيب وعالم ما بعد الطبيعة ـ

---

(١) المثنوى طبع لكهنؤ ص١٠١ .
(٢) المثنوى لكهنؤ ص١٠١ .
(٣) أيضا ، ص٣٦٨ .
(٤) أيضا ، ص٢٣٢ .

فمثله كمثل رجل ولد وعاش فى البحر المالح ، وليست عنده أية فكرة ولا تقدير للماء العذب الفرات ، يقول فى تهكم : « يا من يعيش فى البحر المالح ماذا تعرف عن الشط وجيحون والفرات ؟ »[١] .

إنه يسمى العقل الذى قيد نفسه بالمحسوسات والمقدمات المنطقية بـ « العقل الجزئى المحدود »، وهو عقل ثمرته الأوهام والشكوك ، ووطنه عالم الظلمات ، انه عقل كان عارا للعقل ، وسبة للعاقل ، والجهل أفضل من هذا العقل ، ويفضل أن يتحرر الإنسان من أسره ويحكم عاطفته وقلبه ولو سماه الناس مجنونا »[٢] .

ويقول : « لقد جربت طويلا هذا العقل المحدود الذى لا يبصر إلا المحسوس ولا يعقل إلا الظاهر ، الذى يسميه الناس « العقل الحكيم البعيد النظر » . ومن جرب تجربتى ثار مثلى على هذا العقل ، وفضل الإنطلاق من قيوده والخروج من حدوده»[٣] .

« ولو كان هذا العقل كافيا فى معرفة الحقائق الدينية لكان فخر الدين الرازى ـزعيم المتكلمين ـ أكبر العارفين ، والغواص فى أعماق الدين » ، ولكن الأمر ليس كذلك ، فتفوقه فى معرفة حقيقة الدين كان من تشبع بالإيمان واليقين .

« أولئك أصحاب محمد ﷺ أبر الناس قلوبا، وأعمقهم علما، وأقلهم تكلفا»[٤] ولم يقرأوا كتاب حكمة ، ولم يتلقوا درس فلسفة[٥] .

الاستدلال الفلسفى رجل خشبية :

أنه يعتقد أن العلوم التى اصطنعها الإنسان ، والحكمة التى نسبت إلى اليونان ، لا تزيد الإنسان إلا بعدا عن الحقائق واشتغالا عن الخالق ، ولا تفيد إلا « الجهل المركب » ، وغرورا وصلفا واعجابا بالنفس ، وادلالا بالالفاظ والقشور ، فمن كان حريصا على سعادته فليزهد فى هذه الفلسفة التى سماها الناس ـ عن جهل ـ حكمة، فإن كل فلسفة هى وليدة الخيال ولم تتنور بنور ذى الجلال ، تولد الظن والشك ، وتحجب عن الرب ، أما

---

(١) ص٩٦١ (من المثنوى طبع لكهنؤ) .

(٢) ص١٥٢ (من المثنوى طبع لكهنؤ) .

(٣) ص٤٨٩ (من المثنوى طبع لكهنؤ) .

(٤) جملة مأثورة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه وصف بها الصحابة رضى الله عنهم .

(٥) ص٤٨٩ (من المثنوى) .

الحكمة التى من أوتيها فقد أوتى خيرا كثيرا[1].

ويقرر أن الاستدلال المنطقى والفلسفى ، وترتيب المقدمات والبراهين ، واستخراج النتائج طريقة مصطنعة لا تفى بكل غرض ، ولا تفيد فى كل موضوع ، ولا تساير كل سالك ، انها أسلوب ضيق محدود ، ومن اعتادها وتقيد بها وعاش عليها كان كمن له رجل من خشب لا تمشى بحرية ، ولا تنعطف بسهولة ، وقد ذهب قوله مثلا « أن رجل أصحاب الاستدلال المنطقى من خشب ، وأن الرجل الخشبية صلبية خشبية لا مرونة فيها ولا تمكين »[2] .

ويقول : « إن كلام هؤلاء المقلدين ، الذين يرددون دلائل الفلاسفة ، المنطقيين كالببغاوات ، ويستدلون استدلالهم ، كلام جاف ميت لا روح فيه ولا حياة ، ولا تأثير فيه ولا جمال ، لأنه يصدر عن قلب ميت ، وكيف يؤثر ويثمر كلام ميت يصدر عن ميت؟!»[3] .

العقل الإيمانى :

ويعتقد جلال الدين أن هنالك عقلا إيمانيا ، هو نبراس ودليل لهذا العقل الجسمانى ، وهو مرشد هذا العقل « الجزئى المحدود » وقائده ، يرشده ويبصره الطريق ، كما أن هذا العقل « الجزئى المحدود » ـ مرشد الجسم وقائده ـ ، يقضى حاجاته ويخدمه فى أغراضه المادية ، ويصح أن يسمى هذا العقل الإيمانى « عقل العقل » لأن العقل يمشى بنوره ويبصر بعينه . ولا يرزق هذا العقل الإيمانى إلا المؤمن[4] ، وإذا كان هذا العقل الجسمانى قد سود الأوراق[5] ، فالعقل الإيمانى قد نور الآفاق ، وبزغ نوره على القلوب والأرواح[6] .

« أن العقل الإيمانى هو خفير ركب الحياة ، وكصاحب شرطة البلد ، يحكم بالعدل ويقيم الموازين القسط ، ويردع الظالم وينصر المظلوم ، ويحافظ على النظام ، ويقهر النفس

---

(١) ص١٧١ (من المثنوى طبع لكهنؤ) .

(٢) ص٥٥ (من المثنوى) .

(٣) ص٤٤٩ (من المثنوى طبع لكهنؤ) .

(٤) ص٢٤٦ (من المثنوى) .

(٥) يشير إلى أنه كون مكتبة ضخمة من الفلسفة والعلوم .

(٦) ص٢٤٦ (من المثنوى) .

عن شهواتها الجامحة ، ونزواتها العاتية »[1] .

« أما العقل الجسمانى فإنه يزين الآثام ، ويثبط عن معالى الأمور ، ويعد صاحبه الفقر ، ويهول له الأمر[2] ، وأن العقل الإيمانى يحل عقد العقل الجسمانى ، وينجده فى المشاكل والأزمات ، ويفتح له الأقفال المعقدة ، ويحقق له ما أعياه أمره بكل سهولة وسرعة »[3] .

« أن الفلسفى يتحدث عن « المعقولات » التافهة التى لا قيمة لها ، لا يتجاوزها ولا يعرف غيرها ، لأن عقله لم يخرج من الباب ، ولم يعرف العالم الفسيح وما خلق الله فيه من عجائب وبدائع ، أن عقله طفل رضيع لم يبلغ سن الرشد وإن زهرة فكره مكمومة لم تتفتح »[4] .

جهل النفس وغفلة عن غاية الحياة :

« أن الفلسفى إنما جنى عليه عقله وفكره ، وهو ذلك المسافر الشقى الذى ظهره إلى غايته ، فكلما أمعن فى السفر وجد به السير ازداد بعدا عن المنزل وحرم الوصول »[5] .

« أن الفلسفى قد أحاط بعلم الكائنات ، وجمع ثروة هائلة من المعلومات ، ولكنه لا يزال يجهل نفسه ، أنه يعرف خاصية كل « جوهر » و « عرض » ولكنه فى معرفة نفسه وقيمتها أجهل وأضل من حمار أهله . أنه يعرف قيمة كل شيء ، ولكنه لا يعرف قيمة نفسه ، مع أن روح العلم وجوهر المعرفة ولباب الحكمة أن يعرف الرجل قيمة نفسه وغاية خلقه ، وموقفه من خالقه ومن هذا العالم ومصيره بعد الممات »[6] .

دعوة إلى الحكمة الإيمانية :

وبعد هذا النقد المرير والعتاب الصريح ، يدعو المشتغلين بالفلسفة وعلم الكلام دعوة مخلصة إلى دراسة الحكمة الإيمانية والاستفادة منها ، يقول زاجرا ناصحا : « إلى متى العكوف على الفلسفة اليونانية والحكمة المادية ؟ دونكم الحكمة الإيمانية التى يحويها كلام

---

(١) ص٣٤٧ (من المثنوى ٩ .

(٢) ص٣٤٧ (من المثنوى) .

(٣) ص٢٣ (من المثنوى) .

(٤) ص٨ (من المثنوى) .

(٥) ص٥٤٤ (من المثنوى) .

(٦) ص٤٤٩ (من المثنوى) .

كلام الأنبياء . وتوجد عند خلفائهم والعلماء الربانيين ! فادرسوها وفكروا فيها »[(١)] .

ويقول : أن المعرفة الصحيحة لا تتأتى إلا بتزكية النفس : فإذا تجرد لوح القلب عن نقوش العلوم المرسومة وصفا ، تجلت فيه الحكمة الإيمانية ، ووردت فيه علوم الأنبياء الصحيحة ، وجرت على لسانه ينابيع الحكمة ، يقول :

« جرد نفسك من صفاتك حتى تشاهد نفسك وحقيقتها ، إنك ترى فى قلبك علوم الأنبياء من غير كتاب ومعلم ومعيد[(٢)] ، فإن المرآة كلما صفت تجلت فيها الأنوار ، وإذا تفتحت نافذة نفسك دخل منها النور الإلهى من غير واسطة ومن غير حجاب » .

المباحث الكلامية وأسلوب المثنوى فيها :

ولم يقتصر جلال الدين على النقد الإجمالى للتفكير الفلسفى ومنهج علم الكلام وخضوعه للظاهر ، ولم يقتصر على التنويه بالحواس الباطنة والاهتمام بالوجدان والروح ، بل بحث فى المباحث الكلامية ومعضلاتها بأسلوب طريف بديع ، وعرض مهمات مسائلها عرضا جميلا يقبله القلب ، ويسيغه الذوق السليم ، ويعتقد السامع والقارىء أنها شىء بديهى ، وحقيقة من الحقائق المعلومة لا تعقد فيها ولا غموض، ولا جفاف فيها ولا عبوس، فالمسائل التى تتعب فيها الفلسفة كأنما تصعد فى السماء ، وتقبض على الهواء ، تتراءى فى شعره كالماء الزلال ، وهو لا يحرص ـ كالفلاسفة والمتكلمين ـ على أن يعجز مخاطبه بالدلائل الطويلة العريضة، والمقدمات المرصوفة المنسقة، ويفخمها ، بل يحرص على أن يقبلها قلبه كأنه شىء محقق ، وكأنه يعبر عن خواطره وأفكاره ، لذلك كان « المثنوى » العظيم مصدر إيمان جديد واذعان مزيد فى كل عصر ، تنشرح بقراءته الصدور الحرجة ، وتطمئن بدراسته العقول المضطربة ، ويجد فيه كثير من القراء حلا لمعضلاتهم ، وشفاء لدائهم ، وهو من هذه الناحية مؤسس علم كلام جديد . وإذا كان لابد من مصطلح الفلسفة فهو مؤسس فلسفة جديدة ، وهو فى ذلك امام مجتهد من أئمة الكلام ، لا يقلد ولا يتبع إلا القرآن الحكيم ، ولا يستوحى إلا فطرته السليمة .

وجود الفاطر الحكيم ودلائله :

فهو فى اثبات وجود الله تعالى مثلا لا يتبع الطرق الفلسفية والمناهج الكلامية المعروفة ،

---

(١) ص٨٦ (من المثنوى) .

(٢) ص٨٦ (من المثنوى) .

بل يتبع القرآن الحكيم فى الاستدلال بالمصنوع على الصانع ، والمتحرك على المحرك ، ويضرب لذلك الأمثال الحكيمة ، ويثير فى الإنسان الفطرة السليمة التى تأبى وجود مصنوع من غير صانع ، ومتحرك من غير محرك ، ومتأثر من غير مؤثر ، ويقول فى بساطة وثقة:

« إنك ترى قلما كاتبا ، واليد التى تحركه من ورائه مخفية ، وترى جواد يعدو ، ولا ترى فارسا ، السهم يصيب غرضه، والقوس غائبة عن العيون، النفوس موجودة وبارئها ومصدر وجودها وحياتها مستور، لا يرى بالأبصار[1]، ولكن أليست الحركة دليلا على المحرك؟ إذا سمعت صريرا للهواء وخريرا للماء ألا تستدل بذلك على وجود الهواء والماء؟ إذا رأيت هواء يهب، والأوراق تهف، والأغصان تهتز، فاعلم يقينا أن هنالك من يحرك الهواء، فإن مع كل متحرك محركا[2] . وإذا عجزت أن ترى المؤثر، فإنك لا تعجز أن ترى الآثار، فاستدل بها على وجود المؤثر! وإذا رأيت جسما يتحرك ويعيش، فإنك ـ ولو لم تر الروح فى حياتك ـ تبرهن به على وجود الروح التى هى مصدر الحركة والحياة فى الجسم[3]،وهل لوجود الشمس دليل أكبر وأقوى من نورها الساطع وضيائها الباهر »[4] .

وليس هذا الكون موجودا فحسب ، بل هو فى غاية النظام والانتظام ، كل شىء فيه فى محله اللائق ، وكل شىء خلق بقدر ، ولكل شىء نظام مرسوم لا يتجاوزه ولا يخالفه، فالكواكب لها نظام ، والشمس والقمر لهما نظام ، وليس الهواء والسحاب كالفيل الهائج والناقة العشراء ، لا نظام لهما ولا قيد ، بل كل خاضع لنظام ، خاضع للأحكام ، فلا تمرد ولا عصيان ، ولا فوضى ولا طغيان ، « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون» « والسحاب المسخر بين السماء والأرض » يقول :

« إن فاتك أن ترى الأمر الإلهى والتدبير السماوى بعينيك ، فانظر فى نظام الكون ، فالشمس والقمر نوران مسخران يدوران ولا يتوقفان ، ويطيعان ولا يعصيان ، والكواكب لها دوائر مخصوصة ومجالات مرسومة ، والسحاب له سوط من نار ، ينظم سيره ويأمره وينهاه ، يأمره أن يسقى الوادى الفلانى ، ويترك الوادى الفلانى ، وينبهه إذا غفا »[5] .

---

(١) ص٣٠٥ (من المثنوى) .

(٢) ص٣٠٥ (من المثنوى) .

(٣) ص٣٠٥ (من المثنوى) .

(٤) ص٣٠٥ (من المثنوى) .

(٥) ص ٥١٣ (من المثنوى) .

غاية الخلق :

ثم يقـرر أن الله لم يخلق هذا الكون ، ولم يخلق هذا الخلق لفـائدة تعود عليـه ، إنما خلقه لفائدة الإنسـان نفسه ، وليبلغ كماله المطلوب ، ويـستخدم قواه ويستعـمل مواهبه ، يقول :

« قال الأنـبياء : إن الله يـقول : غايـتى فى الخلق الإحسـان إليهم والمن عليـهم ، إنما خلقتهم لينتفعوا بى وينتفعوا بخـيراتى ونعمتى ، لم أخلقهم لأنتفع بهم وأقضى بهم حاجة لنفسى ، إنما خلقتهم افاضة للوجود ، واظهارا للسخاء والجود »[١] .

النبوة والأنبياء :

أنه يدع الأنبياء ـ عليـهم صلوات الله وسلامه ـ يعرفون نفوسهم بأنـفسهم ، يقول على لسانهم « نحن أطباء الروح ، تلامـيذ الرحمن ، انفلقت لنا البحار ، وتفجـرت لنا العيون من الأحجار ، إن أطباء الجسم يجسون النبض ، ويتعرفون المرض ، ولكننا ننظر بنور الله، ونتكلم بوحى الله ، أولئك أطباء الغذاء والثمار ، يعرفون منافع الأغذية والأدوية ومضارها وتأثيرها فى جسم الإنسان ، أما نحن فأطباء الأقوال والأفعال ، والعقائد والأخلاق ، نخبر الخلق بعواقب الأعـمال والأخلاق وتأثيرها فى الحـياة ونتيجـتها بعد الممـات، ونقول : إذا عملت كـذا سعدت ونجوت، وإذا عـملت كذا شقـيت وهلكت ، وإن الخلق الفلانى دواء نافع ، وإن الخلق الفلانـى سم ناقع ، إن العقيـدة الفلانية مـسعدة منجـية ، وإن العقـيدة الفلانية مهلكة مردية ، إن دليل أطباء الجسم الرائحة واللون والطعم ، ،أما دليلنا فكلام الله وإعلامه وإلهامه»[٢] .

النبى معجزة كاملة وبرهان على نبوته :

ولا يستدل جلال الدين على صدق نبوة الأنبيـاء بالدلائل الخارجية والمعجزات والبراهين الكلامية ، أنه يقول :

« إن كل شىء فى النبى يدل على أنه نبى مرسل من الله ، أنه يكون فى سـيرته وخلقه وشمائله ومخايله معجزة كاملة وبرهانا صادقا على نبوته ، ولذلك لما وقع بصر عبد الله بن سلام ـ عالم اليهود ـ على وجه الرسول هتف قائلا : « والله ليس هذا بوجه كذاب » .

« أن كل من رزق العقل السليم والطبع المستقيم شعر بالإعجاز فى صوت النبى ووجهه،

---

(١) ص١٥٩ (من المثنوى) .

(٢) ص٢٥٠ (من المثنوى) .

ولم يحتج بعد ذلك إلى دليل وبرهان » .

بين النبى وضمير الأمة مناسبة وصلة :

ثم يقرر أن بين النبى وضمير أمته مناسبة خفية وصلة روحية ، فلا يتكلم النبى بشيء إلا وأسرع ضمير المستمعين الأصحاء من أمته إلى تصديقه وإجابته ، ويهتز لسماعه ويطرب، لأنه صوت برىء لا يتطرق إليه الشك ، وصوت غريب لم يطرق الآذان من قبل، وليس بينه وبين أصوات الخلق وما ألفه العالم من أدب وفلسفة وعلم مشابهة ، يقول :

إذا رفع النبى صوته بالآذان ودعا إلى الله سجدت له أرواح أمته وطربت ، لأن هذا النداء لم تسمعه الآذان من قبل ، فلا يعلو هذا الصوت الغريب إلا وأسرع السعداء إلى إجابته قائلين : « ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا »[١] .

ويقول : « إن المؤمن ليس بحاجة إلى دليل خارجى على صدق النبى إذا كان صحيح المزاج مستقيم الطبع ، إن دليله فى نفس المستمع ، وعلى ذلك يقوم نظام الحياة ، فهل إذا دعوت عطشان إلى الماء وقلت له إن فى هذا القدح ماء ، هل يقول لك : أين الدليل ؟ وكيف أؤمن بدعوتك وأصدق كلامك ؟ وهل إذا دعت الأم الحنون طفلها الرضيع ليرتضع من ثديها ، قال الطفل ، هاتى الدليل يا أمى حتى أروى نفسى وأشبعها ؟ إن وجود العطش فى نفس العطشان ووجود الجوع فى الرضيع ، ووجود الإخلاص فى الداعى لكفيل بالتصديق مغن عن كل دليل »[٢] .

ويعتقد مولانا جلال الدين أن المعجزات لا توجب الإيمان ؟ لأنها قهر العدو وإسكات الخصم وإعجاز العنيد ، إن الذى يولد الإيمان فى القلب ويخضع الإنسان للمحبة والطاعة هو المجانسة والمناسبة الروحية ، إن المعجزة تقهر ، والمقهور لا ينشرح صدره ، ولا يتفتح قلبه[٣] .

ويذكر من صفات الأنبياء وخصائصهم الأنفة والإباء والغيرة ، فلابد للإستفادة منهم من الخضوع والأدب والتذلل ، يريدون حسن الإستماع وتمام الإلتفات ، فيهم عزة الملوك واباؤهم وكبرياؤهم ، شأنهم أن يتكلموا ويستمع الجميع ، ويأمروا ويطيع الجميع ، فمن أخل بالأدب معهم حرم الاستفادة منهم وشقى »[٤] .

---

(١) ص١٨٠ (من المثنوى) .

(٢) ص١٨٠ (من المثنوى) .

(٣) ص٥١٩ (من المثنوى) .

(٤) ص٢٧١ (من المثنوى) .

وقال : « كيف تستغرب هذا الخضوع لهم والأدب معهم وقد جاءوا من محل رفيع، وحملوا رسالة من العلى الكبير ؟ »[1] .

الحكمة فى المعاد وحشر الأجساد :

أما المعاد وحشر الأجساد ، فإن جلال الدين ينظر إليه بغير النظر الذى ينظر إليه عامة الناس ، أنه ليس متشائما ينظر إلى الموت بالمنظار الأسود ، أنه لا يعتبره نهاية لحياة سعيدة ثمينة عزيزة ، بل بالعكس من ذلك ، يعتبره مقدمة لحياة خالدة باقية ، وعيشة سعيدة راضية ، ومقدمة لرقى دائم وازدهار مستمر ، أن العمران لا يكون إلا بعد الخراب ، وإن الركاز أو الكنز الثمين لا يعثر عليه ولا يستخرج إلا بعد حفر الأرض وإثارتها ، فإذا رأيت بيتا يهدم ويخرب ، فاعلم أن هناك تصميما جديدا وبناء جديدا ، كذلك الملك يخرب الأجسام ليعمرها ويبنيها بناء جديدا ، إنما يخرب البيت ليستخرج منه الكنز الدفين ، ويعمر عمارة جديدة »[2] .

أن الشجرة لا تعطى الأثمار حتى تتفتح وتسقط الأزهار كذلك الروح لا تقوى ولا تجد ولا تلبس كسوة جديدة قشيبة حتى يتهدم الجسم الفانى ، ويخلع العمر البالى[3] ، إن الله ـ وهو الجواد المطلق ـ لا يسلب نعمة أنعم بها إلا ويعطى نعمة أكبر منها ، فلا يسلب هذه الحياة الضعيفة السقيمة ، التى لا تستحق أن تسمى الحياة الباقية ، إلا ويعطى حياة أوسع منها وأبقى ، وأحمل وأفضل ، فمن رأى هذا الملك الكريم يقتل أحدا من مقربيه فليعلم أنه يخلع عليه خلعا سنية ، ويعطيه مالا رأت عين ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر»[4] .

ويقول فى شرح وتفصيل : « أن كل بناء يسبقه خراب وكل اثبات يسبقه محو : إن الكاتب إذا أراد أن يكتب على لوح محا النقوش السابقة والكتابات الماضية ، وإذا أراد الإنسان أن يستخرج الماء أثار الأرض وحفرها ، إذا أراد الزارع أن يزرع اختار للفلاحة أرضا لا زرع عليها ولا نبات ، وكلما كان الفناء أتم والمحو أقوى ، كان الإثبات أكثر وأبقى » .

---

(١) ص١١٢ (من المثنوى) .

(٢) ص٢٧١ (من المثنوى) .

(٣) ص٤٧ (من المثنوى) .

(٤) ص١٠ (من المثنوى) .

ويقول فى بلاغة وحكمة : « أن الفقر التام أجلب لصفة الجود ، أن الأغنياء والأسخياء، ترق قلوبهم ، ويجيش جودهم على الفقراء الذين لا يملكون شيئا » .

لا داعى إلى الاشفاق من الموت :

ويقول : « لماذا هذا الاشفاق من الموت ؟ ولماذا هذا الفرار من الأجل ؟ إنك لم تزل فى انتقال من مرحلة إلى مرحلة ، ومن عدم إلى وجود ، ثم من وجود إلى عدم ، ولم تزل تخلع لباسا وتلبس لباسا حتى وصلت من العناصر الأربعة إلى القالب الإنسانى ، فإذا تشبثت بحالة وعضضت عليها بالنواجذ ، وأصررت على أن تبقى فيها ، وأبيت الانتقال منها إلى حالة أخرى ، بقيت على بدايتك ، ولم تصل إلى أوج الإنسانية وقمة الكمالات العلمية والروحانية . أنك لم تنل البقاء إلا عن طريق الفناء ، فلماذا تفر يا هذا من الفناء الجديد الذى هو مقدمة للبقاء الجديد المزيد، ولماذا تتشبث بهذه الحياة وتلتصق بها ، مع أنها تخلف حياة لا زوال لها ولا خوف فيها ولا حزن ؟! »(١) .

يقول : « جربت أن الموت فى هذه الحياة ، فإذا فارق الإنسان هذه الحياة نال الحياة الخالدة التى لا موت فيها »(٢) .

ويقول : « أن هنالك فرقا بين موت وموت ، فالعارفون لا يقاس موتهم على موت الجهلاء والعامة ، أن العارفون لا يتوجعون ولا يحزنون لمفارقتهم هذه الدنيا الفانية ، ويستقبلون الموت مسرورين فرحين ، أن الموت فى حقهم نفحة حياة ، ورسالة فوز ونجاة ، لقد كانت الريح التى أرسلها الله على أمة هود لفحة وجحيما على الكافرين ، ونفحة ونعيما على المؤمنين ، كذلك الموت للكفار سموم وبلاء ، وحرمان وشقاء ، وللمؤمنين نسيم عليل ، وهواء بليل ، وكوثر وسلسبيل »(٣) .

﴿ فأما إن كان من المقربين ، فروح وريحان وجنة ونعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين ، فسلام لك من أصحاب اليمين ، وأما إن كان من المكذبين الضالين، فنزل من حميم، وتصلية جحيم ﴾(٤) .

---

(١) ص٤١٠ (من المثنوى) .

(٢) ص٢٧٦ (من المثنوى) .

(٣) ص٢٥ المرجع السابق .

(٤) الواقعة ٩٤ .

الجبر والاختيار :

أن الجبر والاختيار من المسائل المهمة العويصة التى شغلت حيزا كبيرا من كتب علم الكلام ، وذهبت فرقة إلى نفى الاختيار المطلق واثبات الجبر المحض ، وسميت فى تاريخ الملل والنحل بالجبرية ،يرد عليها جلال الدين ردا واضحا معقولا ، يقول:

« لو كان الجبر ، لما توجه الأمر والنهى إلى الإنسان ، وما كلف الإنسان بالشرائع والأحكام ، فهل سمع انسان يأمر حجرا وينهاه » ويقول : « أن القرآن كله أمر ونهى ووعيد ، ولم نسمع عاقلا يأمر الرخام أو ينهى الحديد »[(١)] .

عقيدة الاختيار فى الانسان والحيوان :

يقول أن الانسان مفطور على عقيدة الاختيار ، وهو يمثل هذه العقيدة ويطبقها فى حياته اليومية ، ويقرر بعمله وسلوكه الاختيار ، وينكر الجبر ، فلا يعاقب الجماد ، ولا يغضب على الحجر والخشب والسيل والنار والريح ، مهما لحقه الأذى والعنت من هذه الأشياء ، ويتساءل : إذا سقط عليك جذع من السقف وجرحك جرحا شديدا وأدماك ، فهل يثور غضبك على هذا الجذع ؟ وإذا عاتبته ، وقلت له : لماذا كسرت يدى أو أدميت رأسى ؟ كذلك إذا جاء سيل أو فيضان وفاض بأثاثك ومتاعك ، أو هاجت الريح ، وتصديت لهما بالعتاب أو العقاب ؟

أما إذا تعرض إنسان لاهانتك أو هتك عرضك ، ثرت عليه ، وعاقبته عقابا شديدا ، فدل ذلك على أنك تميز بين المجبور والمختار ، وتعتقد أن الإنسان صاحب اختيار وإرادة فتحاسبه وتعاتبه وتعاقبه وتشكوه ولومه ولا تقبل له عذرا : لأنه مخير ليس بمجبور »[(٢)] .

ولا يقتصر جلال الدين على ذلك : بل يقرر أن الحيوان يعرف ذلك ، ويميز بين المجبور والمختار ، وتهديه إلى ذلك فطرته ، فإذا ضربت كلبا بحجر هجم عليك وأراد أن يعضك، ولم يقبل إلى الحجر وينتقم منه ، كذلك إذا ضرب السائق بعيرا هاج البعير ، ولم يثر على الهراوة التى ضرب بها ، إنما يثور على الجمال المسرف فى ضربه ، فعار عليك أيها الإنسان العاقل أن تنسب الجبر إلى الإنسان ، ويفوقك الحيوان غير العاقل فى فهم هذه الحقيقة وإدراكها »[(٣)] .

---

(١) ص٤٦١ـ٤٧٢ (من المثنوى) .

(٢) ص٤٦٣ (من المثنوى) .

(٣) ص٤٦٣ (من المثنوى) .

ويقول : « أن الإنسان لا يجهل هذه الحقيقة ، لكنه يتعامى عنها لأجل مصلحته وهواه وشهوته ، شأن الصائم الذى يتحقق طلوع الصبح الصادق ، لكنه يصرف وجهه عن النور ويغلق عليه الباب فيستمر فى التسحر والأكل والشرب » (١) .

العلة والمعلول :

وقعت فرق إسلامية فى مسألة الأسباب والعلل فى افراط وتفريط ، فمذهب الحكماء أن العالم خاضع خضوعا تاما لسلسلة العلة والمعلول ، والمعلول لا يتخلف أبدا عن العلة ، والمسبب لا ينفك حينا عن السبب ، ويميل المعتزلة إلى هذا الرأى فإذا قرروا علة لشىء ، أو اعتقدوا خاصية وتأثيرا فى شىء ، رأوا ذلك ضربة لازب لا يقع خلافه إلا فى نادر النادر، ولذلك تراهم يستبعدون وقوع شىء خلاف خاصته ، ووقوع حادثة من غير سبب، ويجتهدون فى تعليل ما ثبت فى القرآن والحديث ، وتواتر نقله من المعجزات والخوارق ، وردها إلى الأسباب العادية والعلل الطبيعية ، فإذا أخفقوا فى ذلك ـ وهو نادر جدا ـ اعترفوا بالمعجزة مضطرين .

والأشاعرة بالعكس من ذلك على طرف آخر ، فيقررون أنه لا شىء علة لشىء آخر ، ولا خاصة فى شىء ولا تأثير ، وقد أضر هذا التطرف أيضا وأحدث فوضى، واستطاع كل أحد أن يقول ما شاء وينكر ما شاء ، وتطرق كثير من الناس من هذا إلى انكار الأسباب ورفضها ، والتعطل والبطالة .

الأسباب حقيقة ولكن خالقها لم يعزل ولم يعطل :

والشيخ جلال الدين مذهبه وسط بين الطرفين ، فهو يقرر أن الأسباب حقيقة ، وأن العلل والمعلولات الأسباب والمسببات مربوطة بعضها ببعض ، ليس من الإنصاف ولا من المعقول إنكارها ، ولا يمكن ذلك ، وسنة الله السائرة أن يخضع المسببات لأسبابها ، ويظهر من الأشياء خواصها ، ولكن خرق العادة ممكن وواقع ، فإن الذى خلق الأسباب وبرأ العلل لم يعزل بعد خلقه الأسباب من قدرته وفعله ، أنه لا يزال رب الأسباب والقادر المطلق . فإذا شاء ترك المسببات مرتبطة بأسبابها ، خاضعة لنواميسها وعللها ، وذلك هو الغالب الأكثر ، وإذا شاء جردها من أسبابها وخلقها من غير سبب أو خلاف سبب ، وهذا هو الخارق للعادة . يقول :

---

(١) ص٤٦٣ (من المثنوى) .

« إن عامة الأحوال والحوادث على السنة الإلهية الجارية ، يخرق هذه العادة ويخالف هذه السنة بقدرته ومشيئته أحيانا لأنبيائه وأوليائه ، فإذا رأينا الأسباب مؤثرة عاملة فى غالب الأحوال ، فلا ينبغى لنا أن نعتقد أن القدرة الإلهية عاجزة مشلولة ، وأن الإرادة الإلهية معطلة معزولة، لا يستطيع عزل المسببات عن أسبابها، وفك المعلولات عن عللها»[١] .

الأسباب الباطنة وسبب الأسباب :

وليست الأسباب مقصورة على ما عرفناه وجربناه وعلى ما نشاهده ونعرفه ، بل هنالك أسباب خفية مستورة عن عيوننا ، وهذه الأسباب الباطنة سبب ومحرك للأسباب الظاهرة ، كما أن هذه الأسباب الظاهرة سبب ومحرك لمسبباتها تحرك هذه الأسباب الظاهرة وتشغلها ، قد توقفها وتعطلها ، ويدرك الإنسان بسهولة الأسباب الظاهرة ، ولكن كثيرا ما يجهل السبب الباطن ، فيلاحظ مثلا أذا قدح الزند بالزند اشتعلت النار ، فيدرك ، أن القدح سبب للشعلة ، ولكن لا يعرف السبب الباطن »[٢] .

وسبب الأسباب الذى تنتهى إليه ، والسبب الحقيقى الأصيل ، هو الأمر الإلهى والإرادة الإلهية التى هى فوق كل سبب ، وأصل كل حادث ، « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

والأنبياء يعرفون الأسباب الباطنة ، ويرونها كما نعرف الأسباب الظاهرة ونراها ، ثم هم يؤمنون بأن السبب الحقيقى الذى تنتهى إليه جميع الأسباب والعلل ، والذى هو مصدر كل حادث وعمل إنما هى الإرادة الإلهية .

إنهم يشاهدون هذه الإرادة الإلهية تتصرف فى الكائنات ، وتتحكم فى هذا العالم ، وتعلو كل إرادة وكل قانون ، وهى التى يخضع لها نظام الكون ، وهى التى تخلق فى الأشياء خاصيتها ، ثم تجردها منها إذا شاءت ، وتغير طبائع الأشياء وفطرها ، فتجعل من النار بردا وسلاما .

ويرون الأسباب الظاهرة ضعيفة حقيرة تافهة أمام الأسباب الباطنة ، ثم يرون الأسباب الباطنة ضعيفة حقيرة تافهة أمام السبب الحقيقى « المشيئة الإلهية » ﴿ وكذلك نرى

---

(١) ص٤٢٧ (من المثنوى) .

(٢) ص٢٥ (من المثنوى) .

إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين ﴾ [1] .

وثنية الأسباب ومحاربة الأنبياء لها :

ويبالغ الناس قصيرو النظر ـ بتأثير الجاهلية والمادية ـ فى تقديس الأسباب ، والإيمان بقوتها وتأثيرها ، والتمسك بها ، والعكوف عليها ، ويتخذون الأسباب أربابا من دون الله ، ويتغافلون عن سبب الأسباب ورب الأرباب ، ويعكفون على عبادة الظواهر والمظاهر ، هنالك يقوم الأنبياء يحاربون هذه الوثنية ـ وثنية الأسباب ـ ويدعون الناس من الأسباب إلى المسبب ، ويجرى الله على أيديهم ـ تنبيها وتعليما ـ حوادث تنتقض بها قدرة الله المطلقة ، وإرادته الحرة ، ومشيئته القاهرة ، وأنه يملك زمام الكون ، وبيده ملكوت كل شىء ، وهو قادر على كل شىء غير مفتقر إلى الأسباب وغير متقيد بها ، فتنفلق لهم البحار ، وتتفجر لهم الأنهار من غير الأسباب العادية ، وتنشأ لهم الزروع والحقول من غير زراعة ، ويتحول الرمل دقيقا ، والصوف حريرا ، وتنتصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، ويملك الفقير الضعيف ، ويهلك الغنى القوى :

﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ، وما كانوا يعرشون ﴾ [2] ﴿ كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴾ [3] .

لا رهبانية ولا بطالة :

ولكنه لا يغلو فى ذلك غلو كثير من المتصوفة ، وغلو الأشاعرة ، فينكر وجود الأسباب ويدعو إلى رفضها والتجرد منها ، والتوكل المفضى إلى البطالة والتعطل والرهبانية ، بل يقول :

« أن السنة الجارية والعادة الغالبة ، هى وجود المسبب من السبب حتى يعرف الطالب أهمية السعى والجهاد ، ويأتى البيوت من أبوابها ، ويطلب الأشياء من

---

(1) الأنعام ٧٥ .

(2) الأعراف ١٣٧ .

(3) الدخان ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

معدنها »[1]

بل هو يحارب البطالة والتعطل والرهبانية والتوكل السلبى الذى لجأ إليه العاجزون فى القرون الأخيرة ، ويدعو دعوة قوية إلى الكدح والجهاد ، والأخذ بأسباب المعاش، ويدعو إلى الحياة الاجتماعية ، يقول :

« لو لم تكن الحياة الاجتماعية مطلوبة ومفضلة فى الإسلام ، لم يكن الأمر بالجمعة والجماعة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر »[2] .

وكان التوكل الإسلامى الممدوح عنده وهو الاستعداد والأخذ بالاحتياط اللازم ، ثم التوكل على الله ، وتفسير قول الرسول ﷺ « اعقلها وتوكل على الله » .

دعوة إلى الكدح والجهاد :

يحث جلال الدين على الكسب والجهد وقد ذكر مناظرة بين الحيوانات فى موضوع التوكل والعمل ، فذكر خير دلائل وجوب العمل والسعى على لسان الأسد ، زعيم العاملين المجاهدين فى الحيوانات ـ ، فقال :

« إن الله وهب الإنسان الأعضاء والجوارح ، ومواهب طاقات ، فدل ذلك على أنه يريد منه السعى والجهد ، كما إذا منح سيد عبده فأسا أو معولا ، فالظاهر أنه يريد أن يحفر الأرض أويشق صخرة ، نطق بذلك أو لم ينطق ، كذلك لما أعطانا الله هذه الأيدى العاملة ، والسواعد القوية ، والأقدام السائرة ، والطاقات الغنية ، فإنه يريد منا ـ بداهة ـ أن نشتغل ونستخدم قوانا ، ونكدح فى الحياة ونجاهد فيها ، ونكسب رزقنا بقوة اليمين ، وعرق الجبين ، فالتوكل الصحيح أن لا نقصر فى جهدنا، ثم نعتمد فى نتيجة السعى على الله تعالى ، فالسعى شكر لنعمة القدرة ، والجبر كفران لهذه النعمة ، والله يقول :

﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم ان عذابى لشديد ﴾ .

فاكسب وصب عرق الجبين ، ثم توكل على الرزاق ذى القوة المتين »[3] .

لقد شاع فى الناس أن التصوف مرادف للبطالة والاستسلام للأوضاع الفاسدة

---

(١) ص٤٢ (من المثنوى) .

(٢) ص٥٠٣ (من المثنوى) .

(٣) ص٢٧ (من المثنوى)

والحكومات الجائرة ، وأن لا شأن له بالجهاد فى سبيل الله والكفاح لاعلاء كلمة الله[1] .

وكان آخر ما يتوقعه المعجبون بشعر الرومى أن يشيد بشأن الجهاد فى الإسلام وأن يتحدث عنه فى إيمان وحماس ، ولكننا نقرأ فى شعره الرنّان وفى حديث الحب والحنان ، أبياتا خلاصتها « أن المصلحة فى دين عيسى المغارة وقلة الجبل ، والمصلحة فى ديننا الحرب (فى سبيل الله) والشوكة لدين الله ، ولما كان الرسول نبياً بعث مع السيف المسلول نهض من أمته الأبطال والفحول » .

ما هى الدنيا المذمومة :

ولا يقتصر جلال الدين على ذلك ، بل يزيد عليه ويقول على لسان الأسد : « أن السعى والكسب سنة الأنبياء والمرسلين ، وأن الدنيا ليست الذهب والفضة والأهل والأولاد ، كما يعتقد بعض غلاة الصوفية ـ أن الدنيا المذمومة الغفلة عن الله ، أما قال الرسول ـ ﷺ ـ « نعم المال الصالح للعبد الصالح » [2] .

أن تعطل الصالحين مهد لسيادة الفساق والظالمين :

بل إنه يقرر ، أن تعطل الصالحين وقعودهم عن الجهاد ، وتوكلهم العجمى الذى لا يتفق وتعاليم الإسلام ، أفضى إلى سيادة الفساق والظالمين وحكومة السفهاء والجاهلين ، الذين سفكوا دماء الأبرياء ، وقتلوا العلماء والصلحاء ، وجاروا فى الحكم ، وخانوا فى أموال الناس[3] ، وتسلط فى عهدهم الحمقى وتوارى الحكماء والعقلاء ، ووسد الأمر إلى غير أهله » [4] .

---

(١) وقد تناول المؤلف موضوع نفى هذه الشائعة فى ضوء التاريخ فى كتابه « ربانية لا رهبانية » .

(٢) ص٣٨ (من المثنوى) .

(٣) ص١٣١ (من المثنوى) .

(٤) ص٣٣٥ (من المثنوى) .

مولانا جلال الدّين الرّومي

داع إلي الحب والعاطفة ، واحترام الإنسان والإنسانية

عصر الرومى :

قد هبت عاصفة عقلية جامحة فى القرن السابع ، بعثها علم الكلام الذى كان الشغل الشاغل للمسلمين فى القرون الأخيرة ، وكانت هذه العاصفة عاتية شديدة ، انطفأت بها كوانين القلوب ومجامرها . وإذا كانت لا تزال بقية من جمرات الحب والعاطفة ، فقد كانت كامنة فى الرماد مغلوبة على أمرها . وقد أصبح المسلمون بعد ما كانوا شعلة من الحياة وجذوة من النار ، ركاما بشريا أو فحما حجريا ، بعد عهده بالنار والحرارة .

فى هذا الجو الهادىء الخامد هتف مولانا جلال الدين الرومى بالحب والعاطفة ، حتى هب العالم الإسلامى من نومه العميق ، ودبت فيه الحياة .

الدعوة إلى الحب :

لقد دعا الشيخ إلى الحب دعوة سافرة ، وذكر عجائبه وتصرفاته فى بسط وتفصيل فيقول :

« أن الحب يحول المر حلوا ، والتراب تبرا ، والكدر صفاء ، والألم شفاء ، والسجن روضة ، والسقم نعمة ، والقهر رحمة ، وهو الذى يلين الحديد ، ويذيب الحجر ، ويبعث الميت وينفخ فيه الحياة ، ويسود العبد » .

« أن هذا الحب هو الجناح الذى يطير به الإنسان المادى الثقيل فى الأجواء ، ويصل من السمك إلى السماك ، ومن الثرى إلى الثريا » .

إذا سرى هذا الحب فى الجبال الراسيات ، ترنحت ورقصت طربا :

« فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا » :

ويذكر أن الحب غنى أبى ، لا يحتفل بالملك والسلطان ، من ذاقه مرة لم يسغ شرابا ، يقول : « أن الحب غنى عن العالمين إن كان الشغف بالمحبوب ونفى ما سواه جنونا فهو سيد المجانين » .

« أنه ملك الملوك تخضع له أسرة الملوك وتيجانهم ، ويخدمه الملوك كالعبيد ، يقول أن

الحب كامن كالنار ، ولكن الحيرة بادية ، متواضع ولكن نموس الملوك الذين يملكون النفوس له خاشعة » .

وإذا ذكر الرومى هذا الفقر الجسور والحب الغيور ، أخذته نشوة ، ونادى بأعلى صوته « بارك الله لعبيد المادة وعباد الجسم فى ملكهم وأموالهم ! لا ننازعهم فى شىء ، أما نحن ، فأسارى دولة الحب التى لا تزول ولا تحول » .

« أن جميع المرضى يتمنون البرء من سقمهم ، إلا أن مرضى الحب يستزيدون المرض ، ويحبون أن يضاعف فى ألمهم وحنينهم لم أر شرابا أحلى من هذا السم ، ولم أر صحة أفضل من هذه العلة » .

« أنها علة ولكنها علة تخلص من كل علة ، فإذا أصيب بها إنسان لم يصب بمرض قط ، أنها صحة الروح ، بل روح الصحة يتمنى أصحاب النعيم أن يشتروها بنعيمهم ورخائهم ، كأنه يعارض الشاعر العربى فى قوله :

ولى كبد محروقة من يبيعنى — بها كبدا ليست بذات قروح
أباها علىّ الناس ، لا يشترونها — ومن يشترى ذا علة بصحيح ؟

فلو عرف هذا الرجل الذى كان ينادى على كبده قيمة هذه الكبد المقروحة ، لما تنزل إلى بيعها والتخلى عنها ، ولو عرف الناس قيمتها لاشتروها بملك الدنيا وعافية الأجسام ، فما قيمة كبد لم تقرح ؟ أنها مضغة لحم وقطعة حجر !

أن هذا الحب البرىء السامى يصل بالإنسان إلى حيث لا توصله الطاعات والمجاهدات ، « لم أر طاعة أفضل من هذا الإثم عند من يسميه إثما أن الأعوام التى تنقضى بغيره لا تساوى ساعة من ساعات الحب » .

أن الدم الذى يسيل فى سبيله لا يشك فى طهارته ، أن شهيد الحب لا يحتاج إلى الغسل « أن دماء الشهداء أفضل من الماء الطهور ، يا لها من خطيئة إن كانت خطيئة » ! يقول : « إن المحبين الذين بذلوا مهجهم وأحرقوا قلوبهم لا تنفذ عليهم القوانين العامة ، ولا يخضعون للنظم السائدة » .

ويضرب الرومى لذلك مثلا بليغا فيقول : « أن القرية التى خربت لا تفرض عليها الجبايات والضرائب » .

ويقارن بين الحب البرىء ، والعقل الشاطر فيقول : « أن الحب تراث أبينا آدم ، أما

الدهاء ، فهو بضاعة الشيطان ، أن الداهية الحكيم يعتمد على نفسه وعقله ، أما الحب فتفويض وتسليم ، أن العقل سباحة قد يصل بها الإنسان إلى الشاطىء وقد يغرق ، وأن الحب سفينة نوح لا خوف على ركابها من الغرق » .

هذا ، وبحر الحياة هائج ليس السباحة فيه بالخطب اليسير ، فخير الإنسان أن يأوى إلى سفينة مأمونة من الغرق ، وهى سفينة الإيمان والحب ، يقول : لقد رأنيا كثيرا ممن يحسنون السباحة قد غرقوا فى هذا البحر اللجى ولكنا ما رأينا سفينة الإيمان والحب تغرق » .

ثم أنه يفضل حيرة المحبين على حكمة الحكماء الباحثين ، ويحث على الحرص عليها والتنافس فيها ، لأن الحكمة ظن وقياس ، والحيرة مشاهدة وعرفان » .

إنه يقول : « ليس لكل أحد أن يكون محبوبا ، فإنه يحتاج إلى صفات وفضائل لا يرزقها كل إنسان ، ولكن لكل أحد أن يأخذ نصيبه فى الحب وينعم به « فإذا فاتك أيها القارىء العزيز أن تكون محبوبا ، فلا يفتك يا عزيزى أن تكون محبا ، إن لم يكن من حظك أن تكون يوسف ، فمن يمنعك من أن تكون يعقوب ؟ وما الذى يحول بينك وبين أن تكون صادق الحب ، دائم الحنين ؟ » .

ويزيد الشيخ على ذلك « أن لذة المحب لا تعدلها صولة المحبوب ، فإذا عرف المحبوبون ما ينعم به العشاق المتيمون ، والمحبون المخلصون ، لتمنوا مكانهم ، وخرجوا من صف المحبوبين السعداء إلى صف المحبين البؤساء » .

إلى من يوجه هذا الحب :

ولكن إلى من يوجه هذا الحب الذى هو نور الحياة وقيمة الإنسان ؟ « أن الحب خالد لا يجدر إلا بالخالد ، أنه لا يجمل بمن كتب له الفناء والأقوال . أنه حق الحى ، الذى لا يموت ، الذى يفيض الحياة على كل موجود » ويستدل الرومى على ذلك بقصة سيدنا إبراهيم ويتمثل بقوله « لا أحب الآفلين » .

« أن هذا الحب يجرى من صاحبه مجرى الدم ، أن وضع فى محله وصادف أهله ، فإنه شمس لا يتتابها الأفول ، وزهرة ناضرة لا يعتريها الذبول . عليك بهذا الحب السرمدى الذى يبقى ، ويفنى كل شى ، الذى يدور عليك بكؤوسه التى تروى ظمأك ! عليك بهذا الحب الذى ساد به الأنبياء وحكموا ! » .

لا داعى إلى اليأس :

ولكن ليس للمحب الطموح أن يشكو قصوره ويحتقر نفسه ، متعللا بسمو المحبوب

وعلو مكانته وغناه عن العالمين ، فما للتراب ورب الأرباب ؟! .

أن المحبوب الحقيقى هو الذى يحب أن يحب ، ويجذب إليه من الجذب « الله يجتبى إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب » يقول مشجعا : « لا تقل لا سبيل إلى ذلك الملك الجليل ، فأنا عبد ذليل ، لأن الملك الكريم ، يدعو عبده ويسهل له السبيل » .

ويعود فيتغنى بهذا الحب ويقرظه فى سرور ونشوة ، ويقول : « أنه فيما يبدو للناظر علة علاجها عسير ، وصاحبها فى تعب وعذاب ، ولكنه إذا احتملها وثابر عليها ، وصل إلى المعرفة الحقيقية الأبدية » .

« أن الحب منشؤه ، انكسار القلب ، وجرح الفؤاد ، أنه علة لا تشبهها علة ، أن علة المحب تختلف عن كل علة . أن الحب اصطرلاب الأسرار الإلهية » .

ثم يذكر أن هذه العلة . وإن كانت فى ذات نفسها علة ، ولكنها شفاء للأسقام النفسانية والأمراض الخلقية . أن الأمراض التى أعيت الأطباء ، وتعذر منها الشفاء ، وقطع منها المصلحون الرجاء ، تبرأ وتزول بلفتة من هذا الحب ، فإذا برىء منه االسقيم الذى يئس من صحته ، هتف فى سرور وطرب « حياك الله أيها الحب المضنى ! يا طبيب علتى وسقمى ! يا دواء نخوتى وكبرى ! يا طبيبى النطاسى ! يا مداوى الآسى ! » .

هذا ، لأن الحب شعلة إذا التهبت أحرقت كل ما سواه ، فلا كبر ولا خيلاء ، ولا جبن ولا خوف ، ولا حزن ولا حسد ولا بخل ، ولا عيب من العيوب النفسية ، إن موجة الحب تجرف الحشيش ، وتسرى فى النفس سريان النار فى الهشيم . « إن الحب شعلة تحرق كل ما سوى المحبوب » أن التوحيد سيف إذا سله صاحبه قطع كل ما عدا الله ، فحياك الله ! وحياك أيها الحب الذى لا يحتمل الشرك ! .

ويمسك مولانا بعد هذا النفس الطويل فى مدح الحب ووصفه ، ويقول : (أن حكاية الحب لا تنتهى ، وتفنى الدنيا ولا تنقضى عجائبه ، لأن الدنيا لها نهاية وغاية ، والحب وصف من لا يفنى ولا يموت) .

عالم القلب :

ولكن لا سبيل إلى هذا الحب إلا بالقلب الحى الفائض بالحياة والحرارة . وقد طغت الناحية العقلية فى عصره كما قدمنا ، وتخطت حدودها ، وتضخمت على حساب القلب والعاطفة ، فمهما استنارت العقول فقد بردت القلوب وفقدت حياتها وحرارتها ، وأصبحت المعدة قطبا تدور حوله رحى الحياة . وقد أثار الرومى حديث القلب وماله من

مكانة وكرامة فى حياة الإنسان ، وما تحويه من عجائب وكنوز ، وذكر أن الإنسان يحمل فى جسمه روضة ، أكلها دائم وربيعها قائم ، وأنه يحمل فى جسمه الصغير عالما أوسع من هذا العالم المادى ، لا يخاف عليه من عدو ، ولا يطرقه لص .

« أن القلب بلد عامر مأمون ، وحصن محكم مصون ، روضة مباركة لا ينفذ نعيمها ، ولا ينضب معينها ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » .

وذكر أن حدائق العالم لا تطول حياتها ، ولا تأمن الآفات والعاهات ، ولكن نخلة القلب دائمة النضارة والثمار ، « أن الحدائق تبطىء فى النماء وتسرع فى الفناء » أما القلب فسريع النمو بطىء الزوال ، « أن روضة الجسم لا تلبث أن تصبح صريعا هشيما ، فينادى صاحبها : واحسرتاه ! أما روضة القلب ، فلا تزال مخضرة مثمرة ، فينادى صاحبها : وافرحتاه ! » .

فالذى يحاول أن يحافظ على صحته وشبابه ، ويبقى شابا قويا ، لا تتحقق أمنيته ، والذى يعتنى بقلبه ويحسن تربيته يبقى شاب الروح ، نشيط الجسم ، قرير العين ، ناعم البال ، جذلان مسرورا . (عليك بالقلب حتى تدوم شابا ، تتجلى فى وجهك الأنوار فيشرق) .

(عليك بالقلب حتى تبقى زاخرة الحيوية والنضارة مثل الصهباء ، متهللا كزهرة ناضرة ووردة باسمة) .

ولكن لا تغرنك كلمة (القلب) فليس هذه القطعة التى تخفق فى صدرك ، وتتجمع فيها الشهوات والمطامع ، ليس القلب هو الذى لم يذق طعم الحب ، ولم يعرف معنى اليقين ، ولا يملك شيئا من الشوق الذى لا تتفتح زهرته ولا يشرق ليله ، فليس هو القلب، إنما هو قطعة من حجر أو خشب .

« أنه ضيق مظلم مثل قلب اليهود ، لا نصيب له من حب الملك الودود ، انه لا يشرق ولا ينير ، ولا ينشرح ولا يتسع » .

أنه ليس بين هذا القلب الميت وبين القلوب الحية إلا الاشتراك فى اللفظ ، والشبه فى الجسم . كما أن الماء الذى يجرى فى العيون الصافية والأنهار الجارية يسمى ماء ، والذى يختلط بالطين والوحل ويرى فى المستنقعات يسم ماء كذلك ، ولكن الأول يروى الظمأ وينقى الشوب ، والثانى تغسل منه اليد . هذا هو الفرق بين القلب والقلب . أن قلوب الأنبياء والأولياء لتعلو على السماء . أما قلوب أشباه بنى آدم ، فهى قلوب أشباه القلوب،

وليست بقلوب ، فإذا قلت (قلبى) فانظر ما تقول ! .

(تقول : قلبى ! قلبى ! فـهل تعرف أن القلب من أمانات السمـاء ؟ أن الحمأ لا شك يحمل ماء ، ولكنك لا ترضى أن تغسل به يدك ، لأنه ، إذا كان مـاء فهو ماء يغلب عليه الطين والوحل ، فـلا تسم مـا يخـفق فى صـدرك (القلب) أن القلـب الذى هو أعلى من السماوات العلى ، هو قلب الأنبياء والأصفياء) .

ولكنه يسلى قارئه ولا يريد أن يكسر قلبه ويثبط همـته ، فيقول : (أن سلعتك التى لا يرغب فيها مشتر قد اشـتراها الكريم تكرما وتفضلا ، أنه لا يرفض قلبا من القلوب ، لأنه لا يقصد به الربح) .

ثم ينصح قـارئه بالإنطلاق من هذا القـفص الذهبى الذى يسـمى «المعدة» والطيـران فى أجواء القلب الفسيحـة ، والاطلاع على عجائب خلق الله ، والتنعم بلذة الروح ، يقول : (أن المعدة وعـبادة المادة هو الحجاب الصـفيق بينك وبين ربك ، فإذا رفعت هذا السـتر لم يكن بينك وبين ربك حـجاب) (تخط حدود المعـدة ، وتقدم إلى قلبك ، تأتك نحـيات الرحمن من غير حجاب) .

كرامة الإنسان وشرفه :

لقد تواضعت الحكومات الشخصية المسـتبدة ، والفلسفات الخاطئة ، والأديان المحرفة ، على الاستهانة بقـيمة الإنسان والحط من قدره وشرفه ، وقد نشـأ ـ بتأثير الحروب الطاحنة التى كانت لا تكاد تنقطع ، وفـساد الأوضاع الإجـتماعيـة والإقتصادية ـ مـقت شديد فى الناس للحيـاة ، وتبرم من امتدادها واسـتمرارها ، وقنوط من المسـتقبل ، وشعور عـميق بالمهانة أو ما يسمى اليوم (بمركب النقص) وأصبح الإنسان حقيرا فى عينه .

وجاء بعض المتصوفين العجم ، فدعوا دعوة متحمسة إلى الفناء الذى تمثله الجملة المأثورة فى الأدب الصوفى « مـوتوا قبل أن تموتوا » وغلوا فى انكار الـذات حتى أصبح الاعـتداد بالنفس وحب الذات الذى يتوقف عليه الكفاح والحركة والنـشاط ، جريمة خلقية ، وحجر عثـرة فى سبيل الكمال الـروحى . وقد أسرف الدعاة والمؤلفـون فى البحث على اكتـساب الصـفات الملكيـة ، والانسلاخ من اللوازم البـشـرية ، حتى أصـبح الإنسان يسـتنكف من إنسانيته ، وأصـبح يعتقد أن رقيه فى الثـورة على الإنسانية ، لا فى الاحتفاظ بـإنسانيته ، وأنه كلما كان أبعد من الإنسانية وأشبه بالملائكة كان أقرب إلى السعادة والكمال .

ونشأ ـ بتـأثير هذه الأفكار والفلسفـات ، وانحلال المجتمع ، وجـور الحكومات ـ أدب

متشائم ، وشعر متشائم ، ينظر إلى العالم وإلى الحياة بالمنظار الأسود ، يدعو إلى الفرار من الحياة والتشاؤم من الناس ، والنقمة على الآباء فى جنايتهم على ذريتهم ، كما فعل (أبو العلاء المعرى) فى عصره ، وكانت نتيجة هذه العوامل القوية الطبيعية أن فقد الناس عامة الثقة بنفوسهم ، والأمل فى مستقبلهم ، والرغبة فى حياتهم ، وأصبح الإنسان فى هذا المجتمع المتبرم الضجر كاسف البال ، منكسر الخاطر ، ضعيف الإرادة ، محطم الأعصاب ، قد يحسد الحيوانات فى حريتها ، والجمادات فى سلامتها وهدوئها ، لا يعرف لنفسه قيمة ، ولا لإنسانيته شرفا ، ولا يعرف ذلك الجو الفسيح الذى هيأه الله لطيرانه وتحليقه ، ولا يعرف تلك الكنوز البديعة ، والقوى الجبارة ، والمواهب العظيمة التى أودعها الله فى باطنه ، ولا يعرف أنه قد خلق ليكون « خليفة رب العالمين فى هذا العالم الفسيح»، و« وصيا عليه » ، وأخضع له هذا الكون ، وما كان سجود الملائكة لأول بشر إلا اشارة لهذا الخضوع ، فإنهم هم الذين يتصرفون فى هذا الكون بأمر الله ، ويبلغون رسالاته ، فإذا خضعوا فقد خضع له الكون بالأولى .

فى هذا المجتمع الثائر على الإنسانية الذى كفر بالإنسان وقيمته ومركزه فى هذا العالم ، قام مولانا « جلال الدين الرومى » يمثل الفكرة الإسلامية الصحيحة فى شعره الرنان ، ويثير كرامة الإنسان المطمورة فى إنقاض الأدب المتشائم ، والشعر المتراجع المنهزم ، وبدأ يتغنى بكرامة الإنسان وفضل الإنسانية فى حماسة وإيمان وبلاغة ، حتى دب فى المجتمع دبيب الحياة ، وأصبح الإنسان يعرف شرفه وكرامته ، وترنح بهذا الرجز والعداء القوى (الأدب الإسلامى) كله ، وردده الشعراء ، وضربوا على وتره ، وانطلقت فى عالم التصوف موجة جديدة تستحق أن تسمى « الاعتزاز بالإنسانية » .

يذكر جلال الدين الرومى قراء شعره وتلاميذه ، أن الله سبحانه وتعالى قد خص الإنسان بأحسن تقويم ، فقد قال : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » وأن هذا اللباس الفضفاض قد فصل على قامة الإنسان ، فلا يطابق كائنا آخر . ويحث قارئه على دراسة سورة (التين) والتدبر فى معانيها ، وأن يحسب لكلمة (أحسن تقويم) حسابا خاصا ، فإنها ميزة للإنسان لا يشاركه فيها غيره .

ثم يزيد على ذلك ، ويرجع إلى سورة (الإسراء) ويذكر بقوله تعالى ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم** ﴾ ويقول للقارىء : (هل وجه هذا الخطاب الكريم وهذا الأسلوب من التكريم إلى السموات والأرض أو إلى الجبال ؟ إنه لم يوجه إلا إلى هذا الإنسان الذى يستهين بقيمته ويجهل مكانته . إن الله قد توجك ـ أيها الغافل ـ بتاج الكرامة ، وخصك بقوله : ﴿ **ولقد**

كرمنا ﴾ وحلى جيدك بالمنحة الخالصة فقال : « أعطيناك » كلمة لم يقلها لأحد .

أنه يقول : أن الإنسان خلاصة هذا الكون ، ومجموع أوصاف العالم (يتمثل فى هذا الجسم الصغير شتَّ فى العالم من خيرات وكنوز ، وبدائع وعجائب ، أنه ذرة حقيرة انعكست فيها الشمس ، فإذا طلعت لم يبد كوكب . أنه قطرة صغيرة انصب فيها بحر العلم ، وثلاثة أذرع من الجسم انطوى فيها العالم « يقول أن الإنسان غاية هذا الخلق ، لأجله خلق العالم ، وهو القطب الذى يدور حوله رحى الكون ، تحسده الكائنات ، وقد فرض الله طاعته على جميع الموجودات : «إن كل ما فى هذا العالم من جمال وكمال إنما خلق لأجلك ويطوف حولك ، أنت الذى يحسده المقربون ، لست فى حاجة إلى جمال مستعار ، فأنت جمال الدنيا ، وواسطة العقد ، وبيت القصيد ، الإنسان جوهر ، والفلك عرض ، كل ما عداك فرع وظل ، أنت الغرض ، إن خدمتك مفروضة على جميع الكائنات ، إن عارا على الجوهر أن يخضع لعرض » .

ولا يقتصر الرد على ذلك ، بل يقول : « إن الإنسان مظهر لصفات الله ، وهو المرآة الصادقة التى تجلت فيها آياته ، يقول « إن الذى يتراءى فى الإنسان (من الكمالات والمحاسن عكس لصفات الله ، كعكس القمر المنير فى الغدير الصافى ، إن الخلق كالماء النمير تتجلى فيه صفات الله ، وينعكس فيه علمه وعدله ولطفه كما ينعكس ضوء الكوكب الدرى فى الماء الجارى » .

ولكنه يشعر بقصوره وعجزه فى وصف الإنسان وضخامة المهمة ودقتها ، ويعلن بصراحة وشجاعة :

« إذا صرحت بقيمة هذا المتنع[1]   لاحترقت واحترق المستمع »

ثم يتساءل : هل يجروء أحد أن يساوم هذا الإنسان الغالى ويمنى نفسه بشرائه ، وهل يجوز لهذا الإنسان أن يبيع نفسه ـ مهما تضخم ثمنها ـ ؟ .

ثم يندفع مخاطبا الإنسان ، ويقول فى تلهف وتوجع ، وفى شىء من العتاب والأنفة : « يا من من عبيده العقل والحكمة والمقدرة ، كيف تبيع نفسك رخيصة ؟ » .

ثم يقول : لا محل للمساومة ، فقد تمت الصفقة ، وتحقق البيع : « إن الله اشترانا وخلصنا من المساومات والمقاولات إلى آخر الأبد ، فالشىء لا يباع مرتين » .

---

(١) يعنى به الإنسان .

ثم يبحث الإنسان على أن يعرف قيمته ، ولا يرضى إلا بأكرم المشترين . ويقول : (ابحث لك ـ إن كنت باحثا ـ عن مشتر يطلبك ويبحث عنك ، والذى منه بدايتك وإليه نهايتك) .

ويلاحظ الشاعر أن من بنى آدم من لا يستحق هذا الوصف « أشباه الرجال ولا رجال » الذين هم فريسة نفوسهم ، وقتلى شهواتهم ، لا يعرفون من الإنسانية إلا ما يفوق فيه الحيوان ، من الشبع والرى والشبق .

ويقول بكل صراحة : (أن هؤلاء ليسوا رجالا ، إنما هم صور الرجال ، هؤلاء الذين يحكم عليهم الخبز ، وقتلت الشهوات فيهم الإنسانية) .

وقد ندر وجود الإنسان الحقيقى فى عصره ، كما ندر فى عصر غيره ، حتى أصبح فى حكم العنقاء المغرب ، والكبريت الأحمر ، وحتى اضطر الباحثون أن يبحثوا عنه بمصباح ديوجانس . وقد حكى الرومى حكاية لطيفة فى هذا الموضوع فى ديوان شعره فقال :

(رأيت البارحة شيخا يدور حول المدينة وقد حمل مشملا ، كأنه يبحث عن شىء ! فقلت: يا سيدى ! تبحث عن ماذا ؟ قال : قد مللت معاشرة السباع والدواب وضقت بها ذرعا ، وخرجت أبحث عن إنسان عملاق وأسد مغوار . لقد ضاق صدرى من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم ، حولى ، فقلت له : إن الذى تبحث عنه ليس يسير المنال، وقد بحثت عنه طويلا فلم أجده ، فقال : إننى مغرم بالبحث عمن لا يوجد بسهولة. ولا يعثر عليه فى الطرقات) .

رجال الفكر والدعوة في الإسلام

تأليف

أبو الحسن علي الحسني الندوي

الجزء الثاني

شيخ الإسلام ابن تيمية

تحقيق

مصطفى أبو سليمان الندوي

الناشر

مكتبة نزار مصطفى الباز

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين ، من أئمة المسلمين ، المجددين ، الذين ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

أما بعد ؛ فيسرُّ المؤلف ويسعده أن يقدم للقراء العرب الجزء الثانى من كتابه « رجال الفكر والدعوة فى الاسلام » ، وهو الجزء الخاص بحياة شيخ الاسلام تقى الدين أحمد بن تيمية الحرانى الدمشقى ، وقد سبق تأليفه باللغة الأردية سنة ١٣٧٦ هـ ١٩٥٦ م ، وهى الحلقة الثانية من سلسلة كتاب االمؤلف « تاريخ الدعوة والعزيمة » ، وقد تولى المؤلف نقل الجزء الأول من هذا الكتاب إلى العربية مع حذف وزيادة ، وتحسين وتعديل ، سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م ، وأفرغه فى قالب محاضرات ألقاها فى المدرج الكبير بجامعة دمشق أمام طلبة كلية الشريعة ، وصفوة من أساتذة الجامعة ، وعلماء البلد وأعيانه وقادة الفكر ورجال التعليم والتربية، فى عاصمة بنى أمية ، وصدرت لهذا الجزء عدة طبعات ، وقدم له فقيد العلم والاسلام الدكتور مصطفى السباعى رحمه الله ، وقد نال هذا الكتاب قبولاً عظيماً فى الأوساط العلمية ، والدينية ، والتربوية ، واعترف كثير من أهل العلم ، ورجال التربية أنه سد عوزاً كبيراً ، وملأ فراغا فى المكتبة الاسلامية العربية المعاصرة ، وجاء فى أوانه.

وقد صدر الجزء الثانى لكتاب « تاريخ الدعوة والعزيمة » فى أردو سنة ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧ م من المجمع الاسلامى الأكبر فى الهند ، المعروف ب « دار المصنفين » فى أعظمكره ، وصدرت له طبعة ثانية من المجمع الاسلامى العلمى فى لكهنئو سنة ١٣٩١هـ- ١٩٧١ م ونقل إلى اللغة الانجليزية سنة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م ، ورحبت بالترجمة الانجليزية الأوساط العلمية ، والمشتغلون بالدراسات الاسلامية ، والبحوث التاريخية ترحيبا كبيرا ، وأبدى عدد من الباحثين والمعنيين بالفكر الاسلامى ، وحركات الاصلاح والتجديد فى الاسلام ، اعجابهم الكبير بهذا الكتاب ، وكان أول كتاب يصدر فى حياة شيخ الاسلام ابن تيمية فى اللغة الانجليزية بهذا التفصيل والتحقيق .

كان كل ذلك كافيا لانتهاز أول فرصة لنقل هذا الجزء إلى اللغـة العربية ويصح أن يقال أن هذا العصر عصر ابن تيـمية ، وقد كانت لشخصيـته ودعوته ودوره الاصلاحى ، عودة فى هذا العصر ، ولكتاباته وأفكاره واتجاهاته ، انتفاضة لم تكن لمصلح إسلامى ، أو مؤلف من المؤلفين القدامى ، لأسـباب يطلع عليها القـارئ فى ثنايا هذا الكتاب ومطاويه ، فكان من المعـقول والمنتظـر أن يبادر المؤلف إلى نقـل هذا الكتاب إلى اللغـة العـربية ، وإتحـاف المعجبين بشيخ الإسلام بهذا السفر .

ولكن المؤلف كان يـزهده فى القيام بهـذا العمل ، ويثنيه عـنه صدور عدة كـتب لكبار علماء هذا العصر ، وفى مقـدمتهم علامة مصرالجليل الشيخ مـحمد أبو زهرة رحمه الله ، وما كـان يعلمه من أن آثار ابن تيـميـة فى اللغة العـربية ، وقـد قيض الله المملكة العـربية السعـودية ، علماء وأمراء ، لاثارة هذه الكنوز ونشـرها ، وكان يخيل للمـؤلف حين كان يحدث نفسه باصدار هذا الجزء بالعربية أنه كناقل الثمر إلى هجر .

ولكن الله شرح صدره لتحقيق هذه الأمنية ، وقبول هذا الاقتراح من اخوانه الذى عرفوا وجود هذا الكتاب باللغة الأردية – وفى مقدمتهم صـديق المؤلف الأستاذ عبد الحليم محمد أحمـد صاحب دار القلم الكويتيـة – واقتنع أخيـرا بأن لكل مؤلف طابعاً ، ولكل كـتاب شخـصية ينفرد بـها كشخـصية الإنسـان ترجع إلى بيئة المؤلف ، وتجاربه الخاصة وفهـمه الخاص، فلا يكون إصدار هذا الكتاب من قبيل تحصيل الحاصل ، ومن قبيل الجهاد فى غير طائل ، والا كان كل من ألف فى موضوع طرق وبحث واسـتوعب من زمان ، من فضول الأعمـال ، وإضاعة الـوقت . هنالك عهد المؤلف بنـقل هذا الكتاب إلى اللغـة العرية إلى زميله العزيز الأستاذ سعيد الأعظمى الندوى أستاذ دار العلوم لندوة العلماء ، ومحرر مجلة « البعث الاسلامى » فقام به خير قيام ، وقرأه المؤلف حرفيا ، وتناوله بالتنقيح والتهذيب ، والحذف والزيادة ، وعلق عليه بعض تعليقات جديدة مفيدة ، فجاء أكمل وأجمل ، وأوفق للذوق العـربى السليم . وها هو هذا الكـتاب بين أيدى القـراء ، والله المسـؤول أن ينفع به الاسلام والمسلمين ، ويرفع همه الباحثين والمؤلفين ، والعاملين فى مجال الإصلاح والتربية وخدمة الدين وهو الموفق والمعين .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

المجمع الإسلامى العلمى – لكنهئو

يوم الخميس ٩/٥/٩٥ هـ – ٢٢/٥/٧٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحاجة إلى ترجمان للشريعة ومصلح شامل

حد من حرية الفلسفة ، وإدالة لتعليم النبوة منها :

تزعم مولانا جلال الدين الرومى تلك الثروة العقلية التى كانت رد فعل ضد الفلسفة اليونانية وعقلية المتكلمين [1]، لقد كان ذلك نموذجا لعقلية أسمى وفكرة أرسخ ، وكان افتتاح عهد جديد لكلام جديد قام أساسه على سمو العقل والقلب وطهارتهما ، وعلى تجربة المتكلم الشخصية .

كان مولانا جلال الدين الرومى عالما متبحرا ومتكلما نابغا فى عصره ، أكرمه الله تعالى بالقلب العارف وطبيعة الحب والحنان ، وكان قد سئمت نفسه من كلام الفلاسفة وتقعير المتكلمين ، وقد بلغ بفضل تربية رجل مؤمن حنون ، ومن أجل المجاهدات والرياضات التى قام بها إلى حيث أدرك فيه أن المعارك الكلامية التى تدور فى زمنه إنما تقوم على أساس الذكاء والخطابة أكثر منها على الحقيقة ، وهنالك شرح الحقائق الدينية بلغته واتخذ لاثباتها طريقا كان أقرب إلى الحقيقة ومبنيا على التجربة والوجدان .

ولكن الظروف كانت تؤكد الحاجة إلى رد فعل آخر ضد طغيان الفلسفة وعدوان علم الكلام لا يقل فى خطورته من رد فعل سبق ذكره ، فقد كان البحث عن ذات الله وصفاته من رؤوس القضايا التى شغلت بحوث الفلسفة وعلم الكلام ، أما الشريعة الاسلامية فلم تترك موضوع العقائد غامضا ملتويا غير واضح للانسان ، بل إنها جعلت هذه الناحية موضع عناية بالغة بالنسبة إلى الأديان السابقة لأنها أساس المجتمع الفاضل والمدنية المثلى ، والفضائل من الأعمال والأخلاق ، إن الشريعة الاسلامية وجهت إلى الانسان توجيهات حاسمة ، سهلة واضحة حول ذات الله وصفاته ، لم تعد بعد ذلك أى حاجة إلى تحقيق وتدقيق أو قياس ، إن مصدر هذا العلم والايمان إنما هى تعاليم الأنبياء عليهم الصلاة

---

(١) كما مر تفصيله وبسط القول فيه فى الفصل الأخير من الجزء الأول لكتاب « رجال الفكر والدعوة فى الاسلام » .

والسلام فان كلامهم أكبر برهان على أنهم هم العارفون بما وراء الكون من اله وبصفاته النادرة الفذة التى لا تقبل القياس والنهاية .

ما كان للفلسفة أن تتحدث عن هذا الموضوع أو تقوم خصما بازائه إذ لم تكن تمسك مبادئ هذا العلم الأساسية ، ولا تلك المعلومات التى تتوصل بترتيبها إلى مجهول ، ولم تكن تصلح لاجراء اختبار أو تحليل ، ولم يكن الفلاسفة أهلا لذلك ، ولكن الفلسفة على الرغم من عجزها العلمى تخطت حدودها ، ولم تكتف بالتدخل فى هذا الموضوع فحسب بل إنها بحثت قضاياه وفروعه بشقة كبيرة وتحكم بالغ ، وبتفصيل زائد وتدقيق شديد ، وقامت بتحليل يختص بالمعامل الكيماوية فقط .

ظهر علم الكلام لمقاومة الفلسفة ونصرة الدين ، وكان ذلك أمرا لازما ، غير أنه تأثر بالفلسفة وتربت اليه روحها حتى تكونت « فلسفة دينية » تنتهج نفس المنهج ، وتبحث نفس الموضوع ، وتتبع نفس الأسلوب للبحث والاستدلال ، وتعيد نفس الخطأ فى اعتبار ذات الله وصفاته وقضايا ما وراء العقل أمورا عقلية يمكن اثباتها عن طريق العقل ، وكذلك تسيطر عليه روح عدم الاقتناع بما جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من شرح وتعبير فى هذا الموضوع واستخدام مصطلحات يونانية تقوم على علم محدود ناقص وتثير شبهات ، الأمر الذى دعا إلى تعقد القضايا وتوسعها بله أن تنحل أو تختصر ، ووجدت « فلسفة إلهية» وكتب ضخمة فى شرح العقائد ، إزاء أسلوب مقنع مؤثر كان جديرا بشحن النفوس بالايمان والإذعان ، واقناع العقول فى كل زمان ، وكان مؤسسا على نصوص الكتاب والسنة .

وكانت هذه الفلسفة الإلهية الجديدة قد تأثرت بالفكر اليونانى رغم أنها ظهرت ضد الفلسفة اليونانية ، فكانت روح الكتاب والسنة تحتج دائما على هذا الموضوع ووجدت طبقة وجيهة للأمة الاسلامية معارضة لهذه التفاصيل الفلسفية والتآويل الكلامية ، غير أن الحاجة إلى عالم كبير نافذ البصيرة ، واسع العلم ، قوى الايمان كانت أكيدة لشرح الكتاب والسنة والتعبير القوى المؤثر عنهما ، ذلك الذى يعتقد أجزم الاعتقاد أن فى نصوص الكتاب والسنة حول ذات الله وصفاته وفى تعبيراتهما عنها غنى وكفاية تامة ، ذلك العالم الذى يتوصل بذكائه ودراسته إلى أعماق الفلسفة ويطلع على خباياها وكوامنها ، ويتمكن من تناول أقوال فلاسفة اليونان ومذاهبهم الفكرية بالنقد العلمى ، بما عنده من علم بمواضع ضعفها الأساسية ، ذلك الذى قد تعمق بتفكيره فوصل إلى أغوار علم الكلام ، واطلع على الخلافات الدقيقة بين الأديان والفرق الاسلامية ، ولا يخفى عليه شئ من تاريخ علم الكلام

ونموه ، ذلك الرجل الذى يكون على جانب عظيم من الثقة والاعتزاز بنصوص الكتاب والسنة ومذهب السلف بفضل دراسته وتجاربه ، يفيض عزما وحماسا بنصرته وشرحه ، ويعيش على حسك السعدان لكى يثبت رجحان مذهب السلف وفضله من الناحية العقلية على غيره من الفلسفات والنظم العقلية ، كما يكون متمتعا بجميع تلك الوسائل والمؤهلات التى يتطلبها هذا العمل العظيم ، ومتميزا فى ذكائه وقوة بيانه واستدلاله وسعة نظره وعمق دراسته عن غيره ، يكون فوق مستوى عصره وكفؤا للقيام بهذه الخدمة بمعنى الكلمة .

فى مواجهة المسيحية ، ونقدها العلمى :

هذا وقد كان الإسلام هدفا للهجمات الداخلية والخارجية بجانب آخر ، وكان المسيحيون قد تحمسوا لاثبات أن المسيحية هى الدين الحق ، وتوجيه الايرادات إلى الاسلام ، إن الهجوم الصليبى المتتابع ووجوه عدد وجيه من مسيحى الغرب فى الشام وقبرص ، شجعهم على مواجهة المسلمين فى المجال العلمى وعلى تأليف كتب تثبت فضل دينهم وأخرى ترفض نبوءة محمد ﷺ .

وللرد على كل ذلك كانت الحاجة ملحة إلى عالم كبير ومتكلم ، له دراسة عميقة فى المسيحية والديانات الأخرى ، وله اطلاع واسع على الصحف السماوية وما واجهته من تغيير وتحريف ، ويستطيع أن يحسن المقارنة بين الديانات ويثبت فضل الإسلام وخلوده فى أسلوب علمى مؤثر قوى ، ويتمكن من دعوة أتباع الديانات الأخرى إلى الاسلام بحكمة وقوة .

فضح المذاهب المنحرفة والحركات الهدامة :

وقد كان أشد وأكثر خطورة من هذه الهجمات حملة شنها فرقة إسلامية دخيلة على الإسلام وهى الفرقة الباطنية التى كانت ديانتها وتعاليمها مجموعة عجيبة للعقائد المجوسية والأفكار الأفلاطونية والأغراض السياسية ، وقد كانت هذه الفرقة وفروعها المختلفة من الإسماعيلية والحشاشية والدروزية والنصيرية تتعاون مع القوى العداونية والمهاجمين الأجانب على الإسلام ، وهى التى مهدت الطريق ودبرت المؤامرات للهجوم على الأقطار الإسلامية وساعدت الصليبيين فى شن هجومهم على الشام ، وذلك مما جعل الصليبيين عند استيلائهم على الشام أن قربوا رجال الفرقة الباطنية وجعلوهم موضع ثقتهم ونجواهم وأحسنوا اليهم ، اعترافا بمساعداتهم المخلصة ، وقد ظل هؤلاء الباطنيون مشتغلين بتبييت المؤامرات وتدبير الثورات فى عهدى صلاح الدين ونور الدين فلما قصد وحوش التتر أرض الشام بهجماتهم

العنيفة ساعدهم الباطنيون علنا وجهاراً ، وأصابوا المسلمين بضرر بالغ ، وذلك عدا ما كانوا يقومون به بصفة دائمة من نشر اضطراب فكرى وتشاؤم بالدين وإلحاد وزيغ وثورة على الدين وكانوا « كالطابور الخامس » فى حصن المسلمين الدينى . كل ذلك كان يحتم على المسلمين أن يقتلعوا جذور هذه الفرقة من الناحيتين العلمية والعملية ، ويكشفوا القناع عن معتقداتها وأغراضها ليطلع المسلمون على نواياها ويعاقبوها معاقبة شديدة على أعمالها العدائية ومحاربتها للإسلام ، ولم يكن يقوم بهذه المهمة إلا من له اطلاع تام على حقيقة هذه الفرقة وأسرارها وتاريخها ، وله معرفة بجميع فروعها ومعتقداتها وأفكارها مع قدرته البالغة على تناولها بالرد والنقد ، مضافاً إلى ذلك حماسه الزائد للإسلام ودافعه القوى للجهاد مع أعداء الإسلام .

محاربة العقائد ، والأعمال الشركية ، والدعوة إلى الدين الخالص :

هذا وكانت الجماهير المسلمة فريسة العقائد الباطلة وأعمال الشرك بضغط عوامل عديدة، منها اختلاطهم بغير المسلمين ، وتأثير العجم ، وتهاون العلماء ، وقد أصبح الدين الخالص والتوحيد النقى وراء حجاب وحجاب ، ونشأ الغلو والإفراط فى الاعتقاد فى الأولياء والصالحين شأن اليهود والنصارى ، حتى بدأت عقيدة التوسط والتقرب بالأولياء ترسخ ، وينطبق عليهم ما حكاه القرآن من قول مشركى العرب الأولين ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ ، وتنتشر هذه الفكرة الجاهلية فى أوساط المسلمين ، وأصبح كثير من العلماء لا يرون بأسا فى الاستغاثة بغير الله والاستعانة به ، واتخذت قبور الأنبياء والصالحين مساجد، وتحقق الخطر الذى كان قد أنذر به النبى ﷺ وشدد النهى عنه ، ولم يكن المسلمون يشعرون بأى غضاضة فى التخلق بأخلاق الذميين والكافرين واتخاذ شعائرهم وخصائصهم والحضور فى أعيادهم الدينية ومهرجاناتهم واصطناع تقاليدهم وعاداتهم .

فكانت الحاجة ماسة إلى عالم مجاهد يتصدى لمحاربة هذه الجاهلية المشتركة والدعوة إى التوحيد الخالص بكل قوة وإيضاح ، ويكون عارفا بالفرق بين التوحيد والشرك معرفة دقيقة، ولا تخفى عليه الجاهلية مهما تقنعت وتنكرت أو ظهرت فى مظاهر ، ويكون قد حصل على حقيقة التوحيد مباشرة من الكتاب والسنة وحياة الصحابة الكرام رضى الله عنهم لا من كتب المتأخرين وتعامل المسلمين الجهلاء ، وتقاليد الزمان وعادات الناس ، ولا يبالى فى الجهر بالعقيدة الصحيحة بمعارضة الحكومات وعداوة الناس ومخالفة العلماء ولا يخاف فى ذلك لومة لائم ، ويكون ذا نظر دقيق وعلم واسع بالكتاب والسنة ومصادر الدين الأولى الموثوق بها ، وبأحوال القرون الأولى ، وذا اطلاع كامل على تاريخ اليهود

والنصارى وقصة انحرافهم ومسخهم وتحريفهم ، وعلى عقلية الأمم الجاهلية ونفسيتهم ، ويعيش فى تألم وقلق لكى يعيد المسلمين إلى تعاليم القرآن وعقيدة الصدر الأول ويراهم منتهجين طريق الصحابة الكرام رضوان الله عليهم واتباعهم .

محاربة الانحرافات والمغالطات فى الطوائف الدينية ، وتنقية الدين من الشوائب :

وقد تسرب إلى متصوفين - لأسباب تاريخية وعلمية عديدة - تأثير الفلسفة الاشراقية التى جاءت من يونان والهند ، وامتزجت بالعقائد الاسلامية وأفكارها امتزاجا لا يتسنى لكل واحد فصلها عنها ، إن إشراقية الأفلاطونية الجديدة أو تنسك الهنود ، وعقيدة الحلول والاتحاد ، ومذهب وحدة الوجود ، وتقسيم الظاهر والباطن ، وفتنة الرموز والأسرار ، والعلم الدفين ، وسقوط التكاليف الشرعية عن « الكاملين » و « الواصلين » واستثناءهم عن الأحكام الشرعية ، كل ذلك كانت معتقدات وأفكاراً نالت إعجاب طبقة كبيرة من المتصوفين ، وبالرغم من إنكار أصحاب التحقيق والرسوخ فى العلم من هذه الطائفة فى كل زمان لهذه المعتقدات الفاسدة كانت طبقة من المتصوفين تلح عليها ، حتى تسفل بعض فروع التصوف وسلاسله إلى حد الشعوذة والتهويل ، ولا سيما بعض فروع السلسلة الرفاعية التى انحرفت فى العهد الأخير عن أصلها وتعاليم مؤسسها الكبير ، وآثر كثير من رجالها الذين لم ترسخ قدمهم فى العلوم الشرعية والعقائد الاسلامية الأعمال البهلوانية ، زاعمين أنها تؤثر فى عقول المغول والتتار وترغبهم فى الاسلام ، وكان لذلك ضرر عظيم على سلامة العقيدة ومكانة الشريعة ، وقد استفحلت هذه الفتنة فى القرنين السابع والثامن، ووقع العامة وكثير من الخاصة فريسة هذه المغالطات .

ولقمع هذا الخطر الناجم أيضا والحفاظ على الشريعة كانت الحاجة شديدة إلى مؤمن قوى ، ومصلح جرئ يتناول هذه الطوائف المنحرفة بالنقد اللازع ويكشف القناع عن وجه أخطائها ومغالطاتها بكل حرية وجراءة ، معرضا عن صولتها وقوتها ، وغير مبال بعدد أتباعها ونفوذهم .

تجديد الفكر الإسلامى :

وكانت الحلقات العلمية والتدريسية مصابة بجمود شديد ، فكل طائفة تعتبر الخروج عن دائرتها الفقهية قيد شعرة جريمة لا تغتفر ، وكان مألوفا لدى كل طائفة أن ترى إلى الكتاب والسنة بمنظار مذهبها الفقهى ، وتحاول تطبيق الكتاب والسنة فى الخلافات الفقهية على

آرائها فى كل حال فضلا عن تحكيمها فيها ، وكان باب الترجيح والاختيارات الفقهية مغلقا عمليا ، وكانت مشكلات حديثة وقضايا جديدة قد حدثت مع تغير الزمان والأحوال ، الأمر الذى كان يحتاج إلى إرشاد المسلمين فيها والبحث عن حلولها إلى رجل يجمع بين سعة النظر فى ذخائر الفقه الاسلامى ، والتعمق فى الكتاب والسنة والاطلاع على تعامل القرون الأولى ، والعلم العميق الدقيق بأصول الفقه ، وقد كان يتضايق مجال العلم والنظر والدراسة على مر الزمان وتضمحل القوى الفكرية ، ولم يكن عالم من علماء الاسلام يتجرأ على استنباط الأحكام الجديدة ، وكان الفقه الاسلامى قد فقد جدارة النمو والتقدم ، ويعتبر من المستحيل أن يزاد إلى ثروة الفقه القديمة أى زيادة .

فكان إصلاح هذا الوضع كذلك يحتاج إلى محدث فقيه وأصولى ضليع يكون قد استعرض ذخائر المكتبة الاسلامية بأسرها ، ويستحضر الكتاب والسنة بحيث يحير الناس ، ويعرف الحديث وأنواعه وطبقاته ومجموعاته معرفة دقيقة تضطر الناس إلى الاعتراف بمكانته فى صناعة الحديث ، حتى يقولوا : «إن الحديث الذى لا يعرفه هذا الرجل ليس حديثا»[(١)] ويكون مستحضرا لخلافات الفقهاء ومراجعهم ودلائلهم فى كل حين ، كما يكون له اطلاع تام على المذاهب الفقهية الأخرى وفروعها أكثر من أصحاب الاختصاص فيها والمنقطعين اليها من أهل المذهب ، ولا يتعدى حدود السلف مع قوة استنباطه وتحقيقه ، عارفاً بمكانة الأئمة المجتهدين وفضلهم وحقهم ، ومتطفلا على موائد علمهم ودينهم ، ويكون ذا قدم راسخة فى علوم اللغة وباع طويل فيها ، حتى تأهل لذلك للنقد والصيرفة فى مجالها ، يجمع إلى ذلك علو الكعب ودقة النظر فى النحو حتى يأخذ على أئمة النحو الكبار أخطاءهم الفنية ، ويجدد بقوة عارضته عهد المحدثين الأولين ، يعتبر ذكاؤه آية من آيات الله وعلمه دليلا على فضل الله ، ويبرهن بشخصيته على خصوبة تربة الأمة الاسلامية وغضارة دوحة الاسلام ، ونضارة العلوم الاسلامية ونموها وازدهارها ، ويكون تصديقا لما جاء فى حديث النبى ﷺ من قولته الخالدة : «مثل أمتى مثل المطر ، لا يدرى أوله خير أم آخره»[(٢)] .

جامع بين العلم والعمل ، والسيف والقلم :

ويكون مع ذلك من فرسان العمل والكفاح ، ويجمع بين القلم والسيف ، جريئا على

---

(١) من الأقوال التى قالها كبار علماء العصر فى شيخ الاسلام ابن تيمية كما سيأتى .

(٢) رواه الترمذى عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

الملوك فى الصدع بالحق ، لا يحجم عن قيادة الجيش الإسلامى أمام أضرى عدو مثل الوحوش التتر ، ويعرفه كل من حلق الدرس ، وزوايا المكتبات ، وخلوات المساجد ، ومجالس المناظرة ، ومعتقلات السجون ، وساحات الحرب كفارس عظيم ورجل ذى شكيمة ، مبجلا فى كل عين ومعترفا بامامته فى كل طبقة .

كان القرن الثامن بحاجة إلى مثل هذا الرجل الكامل الذى يسع نشاطه كل مجال من مجالات الحياة من غير أن تنزوى جهوده وأعماله فى زاوية واحدة أو تتركز على جانب واحد ، كان ذلك الرجل هو شيخ الاسلام الحافظ ابن تيمية الذى ملأ العالم الاسلامى بنشاط وحياة بحركات علمية وعملية لا تزال آثارها خالدة باقية على مر القرون والأجيال .

العصر الذى ولد فيه ابن تيمية :

يتسم عصر ابن تيمية بحوادث خطيرة وقلاقل كثيرة ، وهو عصر ذو أهمية كبيرة من النواحى السياسية والاجتماعية والخلقية والعلمية والدينية ، ولكى نطلع على قيمة الجهود الإصلاحية التى قام بها شيخ الإسلام ابن تيمية ، ونعرف طبيعته العلمية والدعوية ، يجب أن نستعرض ذلك الوسط الذى نشأ فيه ، وتركزت عليه مهمته التجديدية والإصلاحية .

ولد ابن تيمية بعد تدمير بغداد بخمس سنوات ، ودخول التتر فى حلب ودمشق بثلاث سنوات فقط ، فمن البديهى أنه يكون قد رأى منذ تعقله آثار الدمار لهذه المدن الإسلامية ، وسمع قصة مذابح المسلمين وصدى حكايات الفظائع الوحشية التى قام بها التتر فى كل مكان ، وترددت على ألسنة الناس جميعاً ، وعندما كان ابن سبع سنين شن التتر حملة على مسقط رأسه حران التى كانت تقع فى شمالى الأرض المحتلة (العراق) بين دجلة والفرات ، وقد خرجت أسرته شأن الأسر الكثيرة من حران فراراً بين دجلة والفرات ، وقد خرجت أسرته شأن الأسر الكثيرة من حران فراراً من فظائع التتر وظلمهم وتوجهت إلى دمشق ، وكانت هيبة التتر فاشية فى الطرق كلها ، فما عسى أن تمحى ذكرى هذه الفوضى ، والارجاف والذعر من ذاكرته العظيمة ، ولا بد أن يكون قد شاهد آثار هذا الخراب والدمار بأم عينيه ، وسمع تفاصيله المؤلمة عمن رأوا مناظره وشهدوها وشاهدوها ، فمن الطبيعى أن يتأثر قلبه الغيور المرهف بنكبة المسلمين هذه وذلتهم وتمتلئ نفسه غيظا وكراهية لأولئك الوحوش الضوارى .

وكذلك ما حدث فى عين جالوت من انتصار المسلمين الزاهر إنما وقع قبل مولده بثلاث سنوات ، كما أن فتوح الملك الظاهر بيبرس كانت أحاديث صباه وسمير المجالس فى ذلك العهد ، فلا شك أن ذلك يكون قد بعث فى قلبه سروراً وقوة ، وآثار فى نفسه شجاعة وحماسا .

ملوك مصر المماليك :

كان المماليك يحكمون مصر والشام من قبل مولد ابن تيمية بثلاث عشرة سنة ، وقد كان هؤلاء المماليك أتراكا أسكنهم الملك الصالح نجم الدين أيوب (المتوفى ٦٤٧ هـ) آخرملوك أسرة صلاح الدين الأيوبى اعترافا بشجاعتهم ووفائهم فى مصر ، وعرفوا باسم

البحرية [١] ، وكان من بينهم رجل عرف باسم عز الدين أيبك التركماني الذى اغتال توران شاه خليفة الملك الصالح سنة ٦٤٧ هـ واستولى على الحكم ، وتلقب بلقب الملك المعز ، واغتيل هو فى سنة ٦٥٥ هـ فخلفه ابنه نور الدين على ، وفى سنة ٦٥٧ هـ سيطر على عرش الحكم غلام عز الدين أيبك سيف الدين قطز كان رئيس ادارة الحكم ، وذلك هو الذى هزم التتر لأول مرة هزيمة نكراء ، وما ان مضى على تربعه عرش الحكومة سنة واحدة إذ قتله ركن الدين بيبرس مملوك من مماليك الصالح نجم الدين أيوب واستولى على الحكم واتخذ لنفسه لقب الملك الظاهر ، واستمر فى الحكم إلى مدة ثمانية عشر عاما فى غاية من الأبهة وعظمة الشأن ، وانتصر على التتر والصليبيين متتابعا .

ولد ابن تيمية فى أيام الملك الظاهر بيبرس ، الذى كان يحكم آنذاك مصر والشام ، إنه قضى أيام صباه فى حكمه ، فلما توفى بيبرس كان ابن تيمية شاباً بالغاً من العمر ١٥ عاما ، وكان الملك الظاهر بيبرس أول ملك قوى مسلم بعد صلاح الدين اعتنى بأمر الجهاد ، وهزم أعداء الاسلام بالتوالى ، يتحدث عنه ابن كثير فيقول :

« كان رحمه الله متيقظا شهماً شجاعاً لا يفتر عن الأعداء ليلا ولا نهارا ، بل هو مناجز لأعداء الاسلام وأهله ، ولم شعثه واجتماع شمله ، وبالجملة أقامه الله فى هذا الوقت المتأخر عونا ونصرا للاسلام وأهله ، وشجا فى حلوق المارقين من الفرنج والتتار والمشركين ، وأبطل الخمور ونفى الفساق من البلاد ، وكان لا يرى شيئا من الفساد والمفاسد إلا سعى فى إزالته بجهده وطاقته [٢] » .

كانت رقعة حكومته واسعة ، ونظاماً متقنا ، فقد امتد حكمه إلى نهر الفرات فى الشرق وإلى آخر حدود السودان فى الجنوب ، وكانت مصر مركز الحكومة ، والقاهرة مقرها الرئيسى التى تحولت إلى مركز علمى وسياسى وحضارى للعالم الاسلامى فى ذلك الحين بفضل الملك الظاهر واقامة أحد الخلفاء العباسيين فيها [٣] ، وقد أقبل الملك الظاهر على

---

(١) كان مقرهم على ضفة النيل ولذلك اشتهروا بهذا الاسم ، ومن عادة المصريين أنهم يسمون النيل بحرا .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٧٦ .

(٣) بقى المسلمون بعد شهادة الخليفة المستعصم بالله ثلاث سنوات من غير خليفة ، يقول المؤرخون عند استهلال عام جديد « دخلت سنة . . . والمسلمون بلا خليفة » وأخيرا بايع الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـ أحد أفراد بنى العباس اسمه المستنصر بالله أبو القاسم أحمد ابن أمير المؤمنين الظاهر ، وقرر مصر قاعدة الخلافة ، ولكن هذه المبايعة إنما كانت بالاسم والبركة فقط ، إذ كان الملك الظاهر بيبرس هو الحاكم الأصلى فى الحقيقة .

تأسيس المدارس فى عـدد كبيـر ، حتى اجتـمع أهل الفضل والعلم فى القـاهرة من أنحاء بعيدة.

وكان الملك الظاهر بيبرس على كفاءته الشخصية ودوافـعه الاسلامية وحماسه للجهاد ، حاكما مستبدا برأيه ، فلا غـرابة إذا وجدت فيه بعض مواضع الضعف مما يتصف به الملوك المستبدون ، وإن تاريخه حينما يتجمل بمآثره الجـليلة وخدماته الاسلامية ، يتسم بخصائص الملكة الشـخصيـة وأحداث الاستـبداد ، والعناد ، والإصرار أيـضاً ، وما حـدث للامام النووى معه من معاملة مؤسفة ، لدليل على ذلك (١).

ومنذ نهاية حكومة الملك الظاهر التى عاشت ثمـانى عشرة سنة ، تداول عرش الحكومة فى مصر والـشام ملوك كثيـرون ، ويمكن أن نقدر ذلك بأن تسعة ملوك تربعـوا على عرش مصر فى فترة ما بين ٦٧٦ هـ (وهى السنة التى توفى فيها الظاهر) إلى ٧٠٩ هـ فى خلال ٣٣ عاما فقط ، وفى خـلال هذه الفترة تمتعت الدولة الاسلامية فى مصـر والشام والحجاز بملك مجاهد قوى منظم للأمور اسمـه الملك المنصور سيف الدولة قلاؤون الذى شن الغارة على التتر فى سنة ٦٧٨ هـ وهزمهم هزيمة منكرة ، وكـذلك فتح طرابلس الشام التى كانت بيد الصليبـيين منذ ١٨٥ سنة ، إنه حكم بين فترة سنة ٦٧٨ هـ و ٦٨٩ هـ مـدة اثنى عشر عاما بغاية من الحكمـة والدقة ، ولما توفى منصور قلاؤون عاد عرش مـصر لعبة بين ملوك وأشباههم ، وأخيراً فى سنة ٧٠٩ هـ تقلد زمام الحكم ابنه الملك الناصـر محمد بن قلاؤون فى المرة الثالثة ، حتى اسـتقر حكمه إلى ٣٢ سنة ، والحقيقـة أن الملك الناصر هو المعاصر الأصيل للامام ابن تيـمية الذى يتصل به تاريخـه الاصلاحى والتجديدى ، إنه كـان خليفة الملك الظاهر بيبرس إلى حد كـبير ، ومشاركاً له فى عديد من صفـاته وخصائصه ، وكان مثـالا لوالده العظيم منصور قـلاؤون ، وفى عصره نالت الدولة السـلامية وحـدة وقوة ، وانتصـر على التتر انتصـارا باهرا شأن سلفه ، وسبب ازدهار الحكـومة الاسلامية وانـتشار سمعتها الطيبة .

ظلت خراسـان وفارس والعراق تحت حكم التتـر فى هذه الفترة ، ولم تعـد بغداد إلى أيدى المسلمين ما لم يهـتد حكامها التتـر إلى الإسلام ، على أن الخليفة العبـاسى فى مصر غزا بنفسه ، وأراد الملك الظاهر بيبرس غير مرة أن يستردها من أيديهم ولكن دون جدوى ،

---

(١) اقرأ القـصة بطولهـا فى ترجمة الامـام النووى فى « طبقـات الشافعـية الكبرى » للـشيخ تاج الدين لسبكى .

وقد كانت مصر والسودان والشام والحجاز فى حكم المماليك آنذاك .

نظام المملكة :

كان الإسلام دين الدولة الرسمى فى مملكة المماليك ، فقد كان الملك وأعيان المملكة كلهم يحبون الإسلام وتجيش فى قلوبهم حمية الإسلام ، والحكومة كانت تتولى نصب القضاة والأئمة وشيوخ الإسلام ، ورجال المناصب الدينية ، مع وجود قسم الحِسبة واعتبار أحكام القضاة واجبة الامتثال ، وكانت المدارس تقوم بتدريس العلوم الدينية الحرة ، ولكن العامل الأساسى فى جميع شئون المملكة ونظامها كان هو الملك ووزراؤه الموثوق بهم وأعضاء مملكته ، وكان حكمهم وارادتهم قانون المملكة الأصيل ، ولذلك كانت مساحة تنفيذ القوانين الإسلامية محدودة ضيقة فى مملكتهم الواسعة ، وكان نظام الحكومة يشبه النظام العسكرى ، ولم يكن يعتمد على دستور مدون ، ولا نظام معين ولا كان له مجلس استشارى .

ولكن الملك الظاهر وخلفاءه من الملوك كانوا يحاولون أن تنال قوانين مملكتهم وأحكامهم واجراءاتهم تأييد العلماء المعاصرين ، ولا ينفذوا أمرا الا بالاستشارة معهم واسترضائهم ، وقد ألغى بعض الأحيان إقدام أو قانون جديد صدر من الملك إذا خالفه العلماء ، ولما أراد الملك الظاهر بيرس مصادرة الاقطاعات وأراضى الإقطاعيين فى مصر والشام خالفه الامام النووى مخالفة عنيفة ، ولو أن بيبرس أبدى سخطه على ذلك ، واضطر الامام النووى إلى مغادرة دمشق من جرائه ولكنه لم يتشجع على مصادرة الأراضى والاقطاعات كما أرادها ، بل تركها على سابق حالها ولم يدخل فيها أى تغيير أو تعديل .

لقد كان أساس هذا النظام للمملكة قائما على التوارث ، غير أن الواقع كان على عكس ذلك ، إلا أنه لم يكن مبنيا على أساس اسلامى ، ولا لأن روح الإسلام وتقاليده المتبعة تقتضى اختصاص الأمير بكفاءة شخصية وكونه موضع ثقة الأمة ، بل لأن أساس أسرة المماليك يقوم على الكفاح الذاتى ، والشهامة الشخصية والسعى الدائب والعمل المتواصل ، وأصبحت طبيعة هذه المملكة أن يتغلب القوى الشجاع ويتولى الحكم ، والمعلوم أن مماليك الدولة الأيوبية إنما استولوا على مملكة ساداتهم بجهودهم الشخصية وهمتهم العالية ، واستمرت هذه السلسلة إلى آخر زمانهم ، فقد ظل كل ملك منهم يجتهد أن يولى ابنه الخلافة إلا أن الأقوى جرأة وهمة من المماليك كان يتغلب على غيره ويتربع على عرش المملكة ، وإن فرص الحكم هذه وإمكانياته قد فتحت أمام الأقوياء وذوى الطموح منهم باب المنافسة ، وبما يجرى بينهم من مباراة وتنافس فى الحصول على الحكم ، فإذا شن

عليهم هجوم من جهة ، من التتر أو الأفرنج اتحدوا وتعاونوا فيما بينهم أكثر الأحيان .

الوضع الخلقى والاجتماعى للبلاد :

هذه الفئة الحاكمة التركية كانت تعيش فى شعور بالأفضلية ، وتمتاز فى كل شئ عن المجتمع العام فى الدولة ، وتتكلم بلغتها الأم التركية عدا مناسبات العبادة أو الخطاب مع العلماء أو الحديث مع الجماهير (وقلما كانت تحتاج إلى الحديث مع الجماهير مباشرة) ، فانها كانت تستخدم اللغة العربية ، وقد كان البعض من هؤلاء الملوك لا يعرفون من العربية إلا القدر الذى يؤدون به الواجب ، وكانوا مع ذلك يقدرون العلماء ، ويحبون المشائخ والصلحاء ، ويقبلون على بناء المساجد وتأسيس المدارس ، لم يكونوا يتحيزون فى تقسيم المناصب إلى فئة دون فئة أو جنس دون جنس ، إلا من المناصب الإدارية والعسكرية كانت تتحول إلى الرؤساء الأتراك بحكم الطبيعة ، وكان الأتراك والتتر هم أصحاب الحكم والاقطاعات الذين كانوا يستغلون المزارعين والعمال .

وفى ٦٩٧ هـ حينما حاول الملك حسام الدين لاجين فى أيام حكمه توزيع الأراضى بطريق ينفع المزارعين ويصلح حالهم ، وتتقدم به الزراعة والانتاج الزراعى ، لم يرض به الحكام فى مملكته وثاروا عليه .كان التتر عنصرا مهما فى المجتمع ، إنهم كانوا من مخلفات الحروب التى نشبت بين سيف الدين قطز والملك الظاهر وناصر الدين قلاؤون وبين التتر ، فقد أسر فيها عدد كبير من التتر وجئ بهم إلى مصر والشام حيث استوطنوا وسكنوا ، إنهم كثروا فى أيام الملك بيبرس وملأوا مصر والشام وانتشرت عاداتهم وطرائقهم فيهما ، كما تحدث عنهم المقريزى فى « خطط مصر » وانهم على رغم اسلامهم لم يتركوا كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم ، واستمروا على خصائصهم القومية ، وفى الحقيقة يتعذر فى التاريخ نظير المهتدين الجدد إلى الاسلام الذين تحولوا إلى الاسلام كليا وتجردوا عن عقائدهم وأفكارهم السابقة وخصائص حضاراتهم وتأثير عقلياتهم تجردا كاملا ، إنما كان ذلك من خصائص الصحابة الكرام رضى الله عنهم ومعجزة النبى ﷺ إذ أن صراع الجاهلية والاسلام انتهى فى حياتهم تماماً ، كأنهم خلقوا فى الاسلام من جديد .

ففى هذا المجتمع والعصر إذا لم يكن للتعليم والتربية نظام دقيق ، وليس فى المجتمع الاسلامى من قوة إذابة المهتدين الجدد وصوغهم فى قالبه ، لا يصح أن يرجى من التتر والأتراك والعجم أن ينصاغوا فى قالب العقائد والعبادات الإسلامية ويتنازلوا عن قديم عاداتهم وأخلاقهم ويتجردوا عنها مائة فى المائة ، ولذلك فقد كانت حياة هؤلاء التتر المسلمين مزيجا من الاسلام والتأثير الجاهلى ، يتحدث عنهم المؤرخ المصرى الشهير المقريزى

فى « خطط مصر » فيقول :

«وكانوا إنما ربوا بدار الاسلام ولقنوا القرآن ، وعرفوا أحكام الملة المحمدية ، فجمعوا بين الحق والباطل ، وضموا الجيد إلى الردئ ، وفوضوا لقاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، ناطوا به أمر الأوقاف والأيتام ، وجعلوا إليه النظر فى الأقضية الشرعية كتداعى الزوجين وأرباب الديون ونحو ذلك ، واحتاجوا فى ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكيز خان والاقتداء بحكم السياسة ، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوائدهم والأخذ على يد قويهم وانصاف الضعيف منه على مقتضى ما فى الياسة ، وجعلوا إليه مع ذلك النظر فى قضايا الدواوين السطانية عند الاختلاف فى أمور الإقطاعات لينفذوا ما استقرت عليه أوضاع الديون وقواعد الحساب ، وكانت من أجل القواعد وأفضلها حتى تحكم القبط فى الأموال وخراج الأراضى»(١) .

وكان لزاما أن يتأثر المجتمع الاسلامى والعرب القدامى بما حمل اليهم هؤلاء الأتراك العجم والتتر المهتدون ، من عادات وأخلاق وحضارات وتقاليد واجتماع حتى بما اتصفوا به من عقائد وأفكار ، لقد كان الشرق والغرب يختلطان فيما بينهما ويجتمعان بهجوم التتر وفى حالة انتصارهم وانهزامهم ، كما اختلطت آسيا وأوربا فى الحروب الصليبية ، قد بدأ هذا الاختلاط والاجتماع من الاشتباكات فى ساحات القتال ، ولكنه انتهى بالامتزاج الحضارى والفكرى والخلقى ، وتأثر كل واحد من صاحبه وأثر عليه .

إن هذا الاختلاط أحدث مشكلات جديدة وعديدة ، فقد نشأت حضارة جديدة واجتماع جديد ، يصعب الحكم فيها هل هى حضارة إسلامية أو اجتماع عربى ؟ وفى مثل هذا الوضع تتضاعف مسؤولية مصلح ومرب لا يرضى بوجود أى عادة من عادات جاهلية أو تأثير غير إسلامى فى مجتمع المسلمين ، ويريد أن يرى هذا المجتمع تابعا للكتاب والسنة بأكمله ، ومقتفيا آثار الصدر الأول وخير القرون من المسلمين ، ويجب أن يراه تفسيراً عمليا لقول الله تعالى : ﴿ **ادخلوا فى السلم كافة** ﴾ .

الوضع العلمى :

نهض فى أوساط هذا القرن أئمة كبار كالعلامة تقى الدين أبى عمرو بن الصلاح

---

(١) خطط مصر الجزء الثانى ص ٢٢١ .

(٥٧٧- ٦٤٣ هـ) وشيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام (٥٧٨ - ٦٦٠ هـ) الإمام محيى الدين النواوى (٦٣١ - ٦٧٦ هـ) وظهر فى أواخر هذا القرن علماء كبار مثل المحدث الكبير شيخ الاسلام تقى الدين بن دقيق العيد (٦٢٥ - ٧٠٢ هـ) والأصولى المتكلم العلامة علاء الدين الباجى (٦٣١ - ٧١٤ هـ) وقد كان من معاصرى ابن تيمية كبار المحدثين والمؤرخين كالعلامة جمال الدين أبى الحجاج المزى (٦٥٤ - ٧٤٢ هـ) والحافظ علم الدين البرزالى (٦٦٥ - ٧٣٩ هـ) والعلامة شمس الدين الذهبى (٦٧٣-٨٤٧ هـ) الذين كانوا يعدون « الأركان الأربعة » للحديث والرواية فى عصرهم ، والذين يعتمد على كتبهم المتأخرون من العلماء .

كما نبغ فى عصره أساتذة الفن البارعون وعلماء ذوو كفاءات علمية قوية كانوا مرجع الخلق وطار صيتهم العلمى فى الآفاق ، كقاضى القضاة كمال الدين بن الزملكانى (٦٦٧-٧٧هـ) وقاضى القضاة جلال الدين القزوينى (م ٧٣٩ هـ) وقاضى القضاة تقى الدين السبكى (٦٨٣ - ٧٥٦ هـ) والعلامة أبى حيان النحوى (٦٥٤ - ٧٤٥ هـ) .

لقد كان انتشار العلم فى تقدم مطرد ، فقد وجدت فى مصر والشام مدارس كبيرة ودور الحديث ، تلك التى أسسها الأيوبيون والمماليك ، كان يؤمها الطلاب من أنحاء العالم لتلقى العلوم الدينية والعقلية ، وكانت مكتبات كبيرة نابغة لهذه المدارس وأخرى مستقلة بذاتها تحتوى على ذخائر علمية ونوادر من كل علم وفن ، لا يؤصد بابها لأى دارس، ولقد كانت المكتبة التابعة للمدرسة الكاملية التى أسسها الكامل محمد الأيوبى سنة ٦٢١ هـ تحتوى وحدها على مائة ألف كتاب ، وقد ألف فى نفس هذا القرن كتب جليلة تعتبر مرجعا للمتأخرين من العلماء ، كمقدمة العلامة تقى الدين بن الصلاح ، والقواعد الكبرى للشيخ عز الدين بن عبد السلام ، والمجموع (شرح المهذب) وشرح مسلم للامام النووى وكتاب « الامام » ، و« إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام » لابن دقيق العيد و «تهذيب الكمال » لأبى الحجاج المزى ، و« ميزان الاعتدال » و« تاريخ الاسلام » للعلامة الذهبى .

باستثناء عدد من الشخصيات ومآثر علمية كان يتسم العلم والتأليف فى هذا القرن بالسعة وقلة التعمق ، ويغلب طابع النقل والاقتباس على التفكير والدراسة والتعمق فى العلم ، وتكونت للمذاهب الفقهية قوالب من حديد لا تقبل المرونة والتسامح ، وإن كان القول السائد أن الحق دائر بين المذاهب الأربعة ، ولكن أتباع كل مذهب يحصرون الحق فى مذاهبهم فى الواقع ، ولا يزيدون إذا توسعوا كثيراً على أن يقولوا : : « رأى إمامنا صواب

يحتمل الخطأ ، ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب » .

لقد كان أتباع كل مذهب يرجحون مذهبهم الفقهى على سائر المذاهب الفقهية ، ويعتبرونه مقبولا ومؤيدا من الله ، كانوا يبذلون كل ذكائهم وقوة بيانهم وتأليفهم فى ترجيحه وتفضيله على غيره ، أما النظرة التى كان أتباع المذاهب ينظرون بها إلى مذاهبهم والعقلية التى كانت تسود على أهلها فيمكن تقدير ذلك بأن الملك الظاهر بيبرس لما نصب لكل مذهب قاضى القضاة خاصا به ، خلافا للعادة المتبعة في زمنه ، وهى ألا يكون قاضى القضاة إلا شافعياً ، استنكر ذلك فقهاء الشافعية ، إذ كانوا لا يرضون إلا أن يروا مصر خاضعة للقاضى الشافعى . ظنا منهم أن مصر أحق بالمذهب الشافعى لأنها مدفن الامام الشافعى ، ولما انتهى حكم الملك الظاهر وانتقلت المملكة من أسرته ألى غيرها ، رأى ذلك بعض الشافعية نقمة إلهية وعقابا لفعلته التى فعلها .

وقد كان التعصب الكلامى مع التحزب الفقهى بالغا مداه ، كان أتباع المذاهب الأربعة تلاميذ وشيوخا فيما بينهم ومعترفين بعضهم بفضل بعض ، يتبادلون الحب والإكرام والزيارة، غير أن اتحاد الأشاعرة مع الحنابلة كان شبه مستحيل ، فبينما كانت المذاهب تختلف فى الأفضلية والأولوية ، كانت الأشعرية والحنبلية تختلفان فى الكفر والإسلام ، كل طائفة كانت تلح على تكفير الطائفة الأخرى ، وكانت المباحث الاعتقادية وتقعر المتكلمين وتتغلب على جميع المباحث الأخرى ، وكان هذا الذوق فوق كل ذوق ، يسكر به العامة والخاصة جميعاً وتبتلى به الحكومات أيضاً .

هذا ، وكان التصوف فى جانب آخر قد بلغ أوجه ، دخل فيه كثير من الأفكار والعناصر غير الإسلامية ، وانتمى إليه كثير من الجهلاء والمحترفين والمبتدعين المارقين وسببوا ضلال العامة والخاصة ، وازدهار الشرك والبدع فى المجتمع .

كما اشتغلت طائفة من الفلاسفة بنشر تعاليمها جهراً وعلانية حينا ، وسراً وخفية فى بعض الأحيان ، متحررة من قيود الدين وتعاليم الأنبياء ، وطائفة أخرى كانت تعتبر الفلسفة مقياسا أصيلاً وتريد ترقيعها بالأديان ، وتحاول التوفيق بين العقل والنقل ، وكانت الطائفتان كلتاهما من مقلدى أرسطاطاليس وأفلاطون ، مُقدسى أفكارهما وآرائهما ، ومن المعتقدين لصحة علومهما وفضلهما ، وكونها أمراً فوق الطاقة البشرية ، فلم تكونا تعترفان خطئهما فى أى ناحية ،ولا تحيدان فى شئ عن نتاج أفكارهما ودراستهما .

كان ذلك هو الوسط السياسى والاجتماعى والفكرى والعلمى الذى ترعرع فيه ابن تيمية، ورفع فيه لواء الاصلاح والتجديد .

مسقط رأس ابن تيمية :

يتوزع بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات) بين جزأين :

١- الجزء الجنوبى الذى يسمى بالعراق العربى ، وهو يتضمن بغداد والبصرة .

٢- الجزء الشمالى ويسمى فى الأدب العربى القديم بديار بكر وديار مضر ، ويعبر عنه لجغرافيون العرب باسم « الجزيرة » ، ويقع فى شمالها أرمينيا ، وفى جنوبها العراق لعربي، وفى شرقها كردستان ، وفى الغرب آسيا الصغرى وبادية الشام ، وفى هذه المنطقة تقع الموصل والرقة (البيضاء) ونصيبين والرها [١] وفى جنوب الرها على بعد ثمانى ساعات تقع حران ، المدينة التاريخية الشهيرة التى ظلت مركزا دينيا وعلميا للصابئين من لديم كما يقول ابن حوقل ، واشتهرت هذه المدينة وامتازت بصفة خالصة بالفلسفة والعلوم ليونانية القديمة وتلك هى حران التى كانت موطن ابن تيمية القديم حيث كانت أسرته سكن من قرون .

سرة ابن تيمية :

أسرة ابن تيمية [٢] التى عرفت بهذا الاسم من قديم ، كانت أسرة حران المعروفة بالعلم الدين ، وكانت هذه الأسرة - منذ أن عرف تاريخها - حنبلية العقيدة والمذهب ، تتزعم لذهب الحنبلى فى تلك الديار ، واشتغل رجالها العلماء دائما بالتدريس والافتاء والتأليف .

كان جد ابن تيمية أبو البركات مجد الدين من أئمة المذهب الحنبلى وكبار علمائه ، وقد ماه بعض أهل العلم بالمجتهد المطلق [٣] ، يقول الحافظ الذهبى إمام فن الرجال فى كتاب نبلاء :

« ولد مجد الدين بن تيمية حوالى سنة ٥٩٠ هـ ، وأخذ العلم أولا عن عمه الخطيب

---

١) ويعرف اليوم باسم « أورفا » وهى ضمن دولة تركيا اليوم .

٢) كانت بداية هذه النسبة منذ جده الأكبر محمد بن الخضر ، واختلف المؤرخون فى سبب هذه التسمية، وقيل أن اسم أم محمد بن الخضر التى كانت واعظة كان تيمية ، ومن هنا انتمت هذه الأسرة إليها .

٣) راجع ترجمة صاحب منتقى الأخبار بقلم العلامة محمد بن على الشوكانى صاحب « نيل الأوطار» .

والواعظ الشهير فخر الدين بن تيميــة ، ثم تلقى العلم عن محدثى وعلماء حران وبغداد ، وتخرج عليهم ، وبرع فى الفقه ، وانتهت إليه الإمامة فى الفقه .

ولما وصل إلى بغداد فى سنة ٦٥١ هـ فى رحلته فى الحج قضى علماء بغداد العجب مم رأوه من ذكائه وبراعته فى العلم ، يقول الإمام الذهبى :« حكى لى شيخ الإسلام ابن تيمية بنفسه أن الشـيخ ابن مالك كان يقول : لقد ألان الله الفـقه لمجد الدين بن تيميـة كما ألان الحديد لداود عليه السلام ، وكان يقول أيضاً : « أن جدنا (مجد الدين) كان فيه شئ من السورة والغـضب وقد سأله أحد العلمـاء مرة عن مسـألة علمية ، فقـال له إن جواب هذه المسألة على ستين طريقا ، ثم عدد عليه كل جواب واحداً بعد الآخر وقال له : حسبك أن تعيدها ، إنه دهش بهذا الذكاء النادر وبهت ، ويقول ابن تيـمية أيضاً : أنه كان فريد دهره فى نقل المتون وحـفظ المذاهب ، لم يكن يفتقر فى ذلك إلى تكلـف أو اهتمام [1]، توفى سنة ٦٥٢ هـ ، ومن أشهر تصـانيفه وتذكاره العلمى كـتاب « منتقى الأخبار » اسـتفاد منه العلماء واعتنوا به فى كل عصر ، وقـد اهتم المؤلف فى هذا الكتاب بجمع الأحاديث حول الأبواب الفقهية ، التى تعتبر دليلا لأهل المذاهب ومرجعهم ، وقد تصدى فى الأخير عالم اليمن المجتهد ومـحدثها النابغة العلامة محمد بن علـى الشوكانى المتوفى ١٢٥٥ هـ لشرح هذا الكتاب فشرحه فى ثمانية مجلدات باسم « نيل الأوطار » الذى يحتل مكانة مرموقة فى الأوساط العلمية والتدريسية لما يحتـوى عليه من حسن التلخيص وجودة الترتيب والبحوث المقنعة ، وسعة نظر المؤلف ، ورحابة قلبه .

أما والد ابن تيمـية الشيخ شهـاب الدين عبد الحليم بن تيمـية فقد كان عـالماً محدثاً ، وفقيـها حنبلياً ، وصاحب تدريس وافـتاء ، ولما انتقل من حران إلى دمـشق قام بالتدريس صورة منظمة فى الجامـع الأموى الذى كان يعتبر مركـزا لكبار العلماء والمدرسين ولم يكن يسع كل عالم أو مدرس أن يدرس فيه ، وقد كانت تمتاز دروسه بالارتجال والتكلم عن ظهر القلب، من غير أن يستعين فى أثناء التدريس بكتاب ، إنما كان يعتمد على ذاكرته وحفظه، وولى مع ذلك شياخة دار الحديث السكرية بالقصاعين وبها كان سكنه ، توفى سنة ٦٨٢ هـ ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله [2].

---

(١) وقد انتقلت هذه الخصائص كلها إلى حفيده العظيم .

(٢) راجع البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٠٣ .

مولده وانتقاله من حران إلى دمشق :

ولد تقى الدين بن تيمية يوم الاثنين ١٠ من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ فى هذه الأسرة العلمية والدينية الشهيرة ، وسماه والده بأحمد تقى الدين ، واكتنى بأبى العباس يافعاً ، ولكنه اشتهر بابن تيمية ، وغلب لقبه النسبى على اسمه ، وبذلك عرف بين الناس.

وقد ذكرنا أن عصر ابن تيمية كان مليئا بالقلاقل وفظائع التتر ، فقد كان العالم الاسلامى كله يرتجف خوفا من التتر الوحوش ، غير أن أرض العراق والجزيرة كانت مجالهم صفة خاصة ، وما كاد ابن تيمية يبلغ سبع سنين من عمره حتى أغار التتر على حران ، فالتجأت أسرته إلى الفرار منها بجميع ما كان لديها من تراث العلم والفضيلة ، وما كانت تملكه من الفضل والكرامة والشرف والطهارة شأن مثات من أسر العلماء والأشراف ، وبما أن العراق كان مركز غارة التتر ونهبهم لم تفكر هذه الأسرة فى الهجرة إليه ، وكانت الشام أقرب بلد لم يصل اليه لهيب هذا الفساد والدمار حيث كانت تحكم ملوك مصر الأقوياء ، فاتجهت إليها أسرة ابن تيمية وقصدت دمشق فراراً من فتنة التتر وغارتهم .

ولم تنس هذه الأسرة العظيمة فى مثل هذه الحالة القلقة والوضع القاسى أن تنقل معها مكتبتها الثمينة التى كانت تراثها العلمى التليد الوحيد ، ولم ترض بمفارقتها على رغم ما ستقاسيه من جرائها من متاعب ومشاق شديدة ، وحملت الكتب أغلى متاعها على مركبه وخرجت ليلاً من غير أن يفارقها خوف التتر ، فقدكان الخوف يشمل كل مكان ومعها النساء والولدان ، وقد تزايدت الصعوبة والمشقة فى جر المركبة بالأيدى لعدم توفر الدواب ، وكان هذا الركب سايرٌ على قدم وساق ، إذ كاد العدو (التتر) يلحقهم لتوقف المركبة عن السير ، وهنالك تضرع أعضاء الأسرة إلى الله واستعانوا به ، حتى نصرهم الله وأنجاهم من المهلكة

فى دمشق :

وما كادت هذه الأسرة العلمية تصل إلى دمشق حتى شاع خبرها فى أوساط الناس ، وقد كان أصحاب العلم عارفين باسم أبى البركات مجد الدين بن تيمية وأعماله ، كما كان عبد الحليم بن تيمية معروفاً بينهم بعلمه وفضله ، وما هى إلا بضعة أيام إذ بدأ عبد الحليم يدرس فى الجامع الأموى ، وفى دار الحديث السكرية ، وصار مرجع الطلبة وعلماء المذهب

الحنبلى ، وهكذا لم تشعر هذه الأسرة فى هذا البلد الجديد بأى غربة أو وحشة .

وانتهى ابن تيمية الصغير من حفظ القرآن الكريم فى وقت مبكر واشتغل بدراسة الفقه والحديث وعلوم العربية ، وكان يحضر خلال ذلك رغم صغر سنه مجالس التدريس والوعظ عند والده ، وعند العلماء فى حلقهم ، ويشاركهم فى المذاكرات العلمية التى كانت سبباً لتوسع عقله الأخاذ وتفتح ذهنه الفحاص .

ذاكرة عبقرية :

عرفت أسرة ابن تيمية بقوة الذاكرة وكثرة الحفظ وسرعته ، فقد كان أبوه وجده قويي الذاكرة ، ولكن تقى الدين بن تيمية سبق أسرته كلها فى هذه النعمة ، فقد أدهش العلماء وأساتذته بذاكرته القوية النادرة وسرعة حفظه واشتهر بذلك فى دمشق ، يتحدث عن ذلك صاحب « العقود الدرية » فيقول :

« اتفق أن بعض المشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق ، وقال سمعت فى البلاد بصبى يقال له أحمد بن تيمية ، وأنه سريع الحفظ ، وقد جئت قاصداً لعلى أراه ، فقال له خياط : هذه طريق كتابه ، وهو إلى الآن ما جاء ، فاقعد عندنا الساعة يجئ . فجلس الشيخ الجليل قليلاً فمر صبيان ، فقال الخياط للشيخ الحلبى : هذا الصبى الذى معه اللوح الكبير هو أحمد بن تيمية ، فناداه الشيخ فجاء إليه ، فتناول الشيخ اللوح ، فنظر فيه ثم قال : يا ولد أمسح هذا حتى أملى عليك شيئا تكتبه ، ففعل ، فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر وثلاثة عشر حديثاً فقال : اقرأ هذا فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته إياه ، ثم رفعه إليه ، وقال : اسمعه ، فقرأ عليه عرضا كأحسن ما أنت سامع ، فقال : يا ولدى امسح هذا ، ففعل ، فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها ، ثم قال اقرأ هذا فنظر فيه كما فعل أول مرة فقام الشيخ وهو يقول : إن عاش هذا الصبى ليكونن له شأن عظيم ، فان هذا لم ير مثله »(١) .

وبالنسبة إلى حكايات سرعة الحفظ وقوة الذاكرة التى تتضمنها كتب التاريخ الموثوق بها ، وما نشاهده ونجربه فى رواة وأئمة الأدب من أمثلة عديمة النظير للذاكرة النادرة ، ليست قصة ذاكرة ابن تيمية هذه مستحيلة ولا غريبة ، وإنما يصدق ما ظهر منه نفسه فى حياته الآتية من وقائع الحفظ والنقل أنه رزق ذاكرة عبقرية يتعذر نظيرها .

---

(١) ابن تيمية لمحمد أبى زهرة ص ٢١ .

الدراسة والتخرج :

بدأ ابن تيمية دراسة العلوم باهتمام وعناية بالغين ، يتحدث عنه معاصروه ومؤرخوه أنه رغم صغر سنه لم يكن يتجه إلى الملاعب والملاهى كما يفعل الأطفال ، فلم يكن يضيع فيها وقته ولكن كان على ذلك مطلعاً على أمور الحياة والمجتمع فى ذلك الوقت وخبيراً بأحوال المدينة وعادات الناس وأخلاقهم ، ويبدو من تأليفاته أنه كان واسع النظر عميق الدراسة للحياة والمجتمع ، ولم يكن يعيش فى عزلة عن الجماهير قابعاً فى ركن علمى فحسب .

درس ابن تيمية العلوم المعروفة فى عصره ، وعنى بالعربية عناية كبيرة وبرع فى اللغة والنحو براعة تامة ، وقد اعتنى بدراسة « الكتاب » لسيبويه بنظر ناقد ، وعقل فاحص ، وهو كتاب له أهمية كبرى فى النحو ، (حتى إذا قيل « الكتاب » مطلقا يعنى به كتاب سيبويه) فخالف فيه بعض مسائل وانتقد مواضع ضعفه ، وأخذ على المؤلف أخطاءه ، وكانت له ملكة قوية فى العربية واللغة والنحو استخدمها فى حياته العلمية ، واعتمد عليها فى أبحاثه وتأليفاته ، وقد حفظ على ذلك جزءاً كبيراً من منثور كلام العرب ومنظومه ، ودرس أحوال الجاهلية والعرب الأولين ، وتوسع فى دراسة تاريخ العهد الإسلامى والدول الإسلامية ، واستفادد من كل هذه الدراسات المتنوعة الواسعة فى مناحى حياته العلمية المختلفة فيما بعد ، ولم يوجد ممن عاصروه وناظروه من العلماء أحد يساويه فى سعة المعلومات وعمق النظر ، وكان ذلك سببا كبيراً لتفوقه العلمى وكعبه العالى فى العلم والتحقيق .

وعنى مع دراسته للعلوم بالخط والحساب والعلوم الرياضية ، وتلقاها من أساتذتها كما أنه اعتنى بالغ الاعتناء بالعلوم الدينية من الفقه والأصول والفرائض والحديث والتفسير ، أما الفقه الحنبلى فقد ورثه من آبائه وكان أبوه أستاذه العطوف ومربيه المخلص فى هذه الناحية ، وكان سماع الحديث وحفظه وكتابته من عادات عصره المتبعة وأول كتاب حفظه فى الحديث « الجمع بين الصحيحين » للحميدى ، ثم استفاد من شيوخ عصره وعلماء الشام وأخذ عنهم الحديث ورواه ، يقول ابن عبد الهادى : « ان شيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتى شيخ ، ومن خواص شيوخه ابن عبد الدائم المقدسى ورجال طبقته ، وسمع مسند الامام أحمد مرات ، وكذلك سمع الصحاح الستة مرات عديدة »[1] .

---

(١) راجع « الكواكب الدرية » .

أما التفسير فكان أحب موضوع لدى ابن تيمية ، وكان له شغف زائد بهذا الفن ، يتحدث بنفسه أنه درس أكثر من مائة كتاب فى تفسير القرآن ، وكانت له مناسبة طبعية بهذا الفن ، وقد أفاض الله عليه علوم القرآن بوجه خاص لكثرة تلاوته القرآن والتدبر فى معانيه ودراسته بتأمل وبصيرة ، وكان لا يكتفى بدراسة القرآن فحسب بل ينيب إلى ربه ويسأله نعمة فهم القرآن وشرح الصدر ، إنه يتحدث عن طلبه لعلم القرآن وتدبره فيه ، يقول :

« ربما طالعت على الآية الواحدة مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم وأقول يا معلم آدم وإبراهيم علمنى ، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهى فى التراب وأسأل الله وأقول : يا معلم إبراهيم فهمنى »[(١)] .

وكانت لعلم الكلام الذى حمل لواءه الأشاعره كلمة نافذة فى هذا العصر ، ولا سيما فى مصر والشام ، فقد كان السلطان صلاح الدين نفسه أشعرياً ، حافظا لمتن قطب الدين أبى المعالى الأشعرى (الذى كان قد ألفه فى العقائد) منذ صغره ، وكان يشرف على تحفيظه لأولاد أسرته الصغار ، وكان هو وخلفاؤه بنو أيوب قد جعلوا الناس ملتزمين للعقيدة الأشعرية ، فكانت « الأشعرية » تتمتع بحماية الحكومة إلى عصره وعصر خلفائه مماليك مصر[(٢)] . وكانت الحنابلة يعتبرون خصماً معارضاً للأشاعرة ، تحدث بينهم بعض المناوشات الكلامية ويشتغل كلا الفريقين بالجدل والكلام ، فقد كان كلام الأشاعرة وطريق اثباتهم مبنياً على الاستدلال العقلى والبرهان المنطقى ، أما الحنابلة فكانوا يبحثون عن المعانى الظاهرة للنصوص والآيات والأحاديث ، وكان يبدو بعض الأحيان أن كفتهم تطيش فى الجدال العلمى لعدم تعمقهم فى علم الكلام وانقطاعهم عن ممارسة العلوم العقلية ، فكان يغلب على الظن ويخيل إلى الناس أن خبرتهم بالعلوم العقلية قليلة أو عديمة وأنهم ليسوا متعمقين فى العلم ولعل ذلك ما حفز ابن تيمية ، ذلك الشاب الغيور والعالم الذكى على التوسع والتعمق فى علم الكلام والاطلاع على العلوم العقلية مباشرة ، فعكف على الدراسة العميقة لهذه العلوم وتبحر فيها حتى أدرك مواضع الضعف فيها وأخطاء مؤلفيها وأئمتها من حكماء اليونان ، وتصدى للرد على هذه العلوم وانتقادها وألف كتباً عجزت الأوساط الفلسفية كلها عن الرد عليه .

والحاصل أن ابن تيمية شمر عن ساق الجد لشرح الكتاب والسنة فى عصره واثبات تفوق

---

(١) العقود الدرية ص ٦ .

(٢) راجع خطط مصر للمقريزى .

الدين وصحته ، وازالة معالم الضلالات العلمية والعملية ، وتسلح له بأسلحة علمية ، كان يتطلبها ذلك العصر فى خضم علومه وفترة الفوضى العلمية والفكرية ، إنه تعلم المحاربة بالأسلحة التى كان معارضوه من أعداء الاسلام من اليهود والنصارى والفلاسفة والباطنية قد تسلحوا بها ، إنه تبحر فى العلوم بما أدهش معاصريه ، يعترف بفضله ونبوغه العلمى معاصره الشهير العلامة كمال الدين الزملكانى ، ويقول :

« قد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد ، كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائى والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله ، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا فى مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك ، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع منه ، ولا تكلم فى علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين اليه ، وكانت له اليد الطولى فى حسن التصنيف » (١) .

درس ابن تيمية الأول :

وما كاد ابن تيمية يبلغ من عمره ٢٢ سنة أن توفى والده العظيم عبد الحليم بن تيمية فى سنة ٦٨٢ هـ ، وحدث فراغ كبير فى مشيخة التدريس بدار الحديث السكرية ، ولكن لم يطل على فراغه زمن طويل ، وخلفه فى التدريس ابنه النابغة فى الثانى من محرم ٦٨٣ هـ وسد ذلك الفراغ ، وألقى درسه الأول ، وكان فى ذلك الحين ابن ٢٢سنة ، وقد حضر درسه هذا الأول كبار علماء دمشق وفضلاؤها ، فالشيخ قاضى القضاة بهاء الدين بن الزكى الشافعى كان حاضراً بنفسه علاوة على الشيخ تاج الدين الفزارى شيخ الشافعية والشيخ زين الدين النجا الحنبلى من علماء الحنفية وغيرهم من سراة العلماء وكبارهم حضروا درسه الأول الذى ترك فى نفوسهم تأثيرا عميقاً وجعلهم يعترفون بالتبحر العلمى وسرعة بديهة العالم الشاب وفصاحته وجراءته ، يتحدث الحافظ ابن كثير تلميذ ابن تيمية ضمن أحداث سنة ٦٨٣ هـ عن درسه هذا ، ويصفه بما يأتى :

« وكان درساً هائلا ، وقد كتبه الشيخ تاج الدين الفزارى بخطه لكثرة فوائده ، وكثرة ما استحسنه الحاضرون ، وقد أطنب الحاضرون فى شكره على حداثة سنه وصغره ، فانه كان عمره إذ ذاك عشرين سنة وسنتين » (٢) .

---

(١) الكواكب الدرية ص ٥ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٠٣ .

« ثم جلس الشيخ تقى الدين المذكور أيضاً يوم الجمعة عاشر صفر بالجامع الأموى بعد صلاة الجمعة على منبر قد هيئ له لتفسير القرآن العزيز فابتدأ من أوله فى تفسيره ، وكان يجتمع عنده الخلق الكثير والجم الغفير من كثرة ما كان يورد من العلوم المتنوعة المحررة مع الديانة والزهادة والعبادة مما سارت بذكره الركبان فى سائر الأقاليم والبلدان ، واستمر على ذلك مدة سنين متطاولة »(١).

رحلته إلى الحج :

« فى سنة ٦٩٢ هـ حج الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمه الله مع الركب الشامى » وكان أميرهم الباسطى ، ونالهم فى « معان » ريح شديدة جدا مات بسببها جماعة ، وحملت الرياح جمالا عن أماكنها ، وطارت العمائم عن الرؤوس واشتغل كل أحد بنفسه »(٢).

عقوبة شاتم الرسول :

« فى سنة ٦٩٣ هـ حدث ما ظهرت به حميته الدينية وعاطفته الإيمانية بشكل علمى ، فقد كان فى دمشق رجل اسمه عساف النصرانى شهد عليه جماعة أنه سب النبى ﷺ وقد استجار عساف هذا بابن أحمد بن حجى أمير آل على ، فاجتمع الشيخ تقى الدين بن تيمية والشيخ زين الدين الفارقى شيخ دار الحديث ، فدخلا على الأمير عز الدين أيبك الحموى نائب السلطنة ، فكلماه فى أمره فأجابهما إلى ذلك ، وأرسل ليحضره فخرجا من عنده ومعهما خلق كثير من الناس ، فرأى الناس عسافا حين قدم ومعه رجل من العرب فسبوه وشتموه ، فقال ذلك الرجل البدوى : إنه خير منكم - يعنى النصرانى - فرجمهما الناس بالحجارة ، وأصابت عسافاً ، ووقعت خبطة قوية ، فأرسل النائب فطلب الشيخين ابن تيمية والفارقى فضربهما بين يديه ، ورسم عليهما فى العذراوية ، وقدم النصرانى فأسلم وعقد مجلس بسببه ، وأثبت بينه وبين الشهود عداوة ، فحقن دمه ، ثم استدعى بالشيخين فأرضاهما وأطلقهما . . وصنف الشيخ تقى الدين بن تيمية فى هذه الواقعة كتابه الشهير «الصارم المسلول على شاتم الرسول »(٣).

« وفى الرابع من شهر شعبان سنة ٦٩٥ هـ توفى شيخ الحنابلة العلامة زين الدين

---

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٠٣ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر ج١٣ ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

ابن المنجا فخلفه ابن تيمية وشغل شياخة للتدريس فى المدرسة الحنبلية »[1].

المعارضة الأولى :

وبينما كان ابن تيمـية مشغولا بالدرس والتدريس وكان اقبال الـناس من الخاصة والعامة كبيراً عليه إذ قـامت عليه الضـجة لأول مرة فى سنة ٦٩٨ هـ ، واسـتهدفت شـخصيـته ومعتقداته بصفة خاصة .

ومما يحكى عن تفـاصيل هذه القـصة أن بعض أهل « حـماه » من الشـام وجهـوا اليه استفتـاء فى سنة ٦٩٨ هـ يسألونه فيه عن تحقيق العلماء فى الصـفات التى وصف الله بهما نفسه فى هذه الآيات ﴿ **الرحمن على الـعرش استـوى** ﴾ ﴿ **ثم استوى إلى السـماء** ﴾ وما أشبـههمـا وعن تحقيـقهم فى هذه الأحـاديث « إن قلوب بنى آدم بين اصبـعين من أصابع الرحمن » و « يضع الجبار قدمه فى النار » وما شاكلهما وسألوه عما يذهب إليه أهل السنة من العلماء فى باب صفات الله تعالى .

فأجابهم شيخ الاسـلام عن هذه الأسئلة بتفصيل كبـير وإيضاح كاف[2] ، وتحدث عن مذهب الصحابة والتابعين والأئمة المجتـهدين والمتكلمين المتقدمين من العلماء (كالامام أبى الحسن الأشعـرى ، والقاضى أبى بكر البـاقـلانى ، وامام الحـرمين) مسـتدلا بأقـوالهم وتأليفاتهم ، وأثبت من مقتطفات كتبهم أن كل هؤلاء العلماء إنما كانوا يرون الإيمان بصفات الله تعالى من واجـبات الدين ، وإنهم يعترفـون بحقيقـتها التى تتفق مع جـلال الله تبارك وتعالى وتجدر بذاته العلية ﴿ **ليس كمثله شئ** ﴾ ومع التنزه الكامل من كل تشبيه أو تجسيم ومن كل نفى و تعطيل ، يعنى أن هذه الصفات لا يقيسونها على صفات الخلق ، ولا أنهم ينكرون وينفونها من شدة المغالاة والافراط فى التنزيه والتقديس ، ولا أنهم يؤولونها تأويلا يبعدها عن الحقيقة ويتركها مـجرد كناية ومجاز ، بل أنهم كما يؤمنون بذاته وصفاته السبع (من الحياة والعلم والـقدرة والسمع والبصر ، والكلام والارادة) يؤمنـون كذلك بحقيقـتها التى تتفق وعظمة الألوهية ، كما أنهم يؤمنون بالألفاظ المنصوصة من الوجه واليد والغضب والرضاء ، فى السمـاء على العرش ، وفوق ، حقيـقة من غير تأويل أو مجاز ، ويثـبتون حقيقتها بما يليق ذاته المنزهة المقدسة التى ليس كمثلها شئ والتى لا تحد ولا تقاس .

---

(١) راجع نفس المصدر ص ٣٤٤ .

(٢) عرف هذا الجواب باسـم « العقيدة الحمـوية الكبرى » رسالة تقع فى ٥٠ صفـحة ضمن « مجـموعة الرسائل الكبرى » طبع فى مصر سنة ١٣٢٣ هـ .

إن مذهب هؤلاء الرجال من علماء أهل السنة ونظرتهم لا يختلفان فى هذين النوعين من الصفات ، وكما أن الإيمان بالحياة ، والعلم ، والقدرة ، وما إلى ذلك لا يستلزم أن المراد بذلك حياة المخلوقات والمحدثات الضعيفة وعلمها المستعار المحدود وقدرتها الناقصة ، ولا أن الجماعة المؤمنة بحقيقة هذه الصفات تسمى « المجسمة » وكذلك الاعتقاد بما جاء فى القرآن من ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ و ﴿ يبقى وجه ربك ﴾ و ﴿ الرحمن على العرش استوى﴾ ﴿ أأمنتم من فى السماء ﴾ من غير تأويل أو توجيه لا يعنى أن المراد باليد والوجه كوجه المخلوق ويد الحادث ، وأن القصد من الفوقية والمكانية كفوقية ومكانية المحدود بازاء المحدود ، والجسم مقابل الجسم ، كما لا يصح الطعن « بالتشبيه والتجسيم » لمن يؤمن بحقيقة هذه الصفات .

يؤيد هذا المذهب ما استدل به ابن تيمية من أقوال السلف الأولين والمتكلمين المتقدمين وعباراتهم ، أنه يقول : « ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ﷺ ولا عن أحد من سلف الأمة ، ولا من الصحابة والتابعين ، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف حرف واحد يخالف ذلك ، لا نصا ولا ظاهرا ، ولم يقل أحد منهم : ان الله ليس فى السماء ولا أنه ليس على العرش ، ولا أنه فى كل مكان ، ولا أن جميع الأمكنة بالنسبة اليه سواء ، ولا أنه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصل ولا منفصل ، ولا أنه لا تجوز الاشارة الحسية إليه بالأصابع ونحوها . . . فلئن كان الحق ما يقوله هؤلاء السالبون النافون من هذه العبارات ونحوها دون ما يفهم من الكتاب والسنة إما نصا وإما ظاهراً كيف يجوز على الله ثم على رسوله ثم على خير الأمة أنهم يتكلمون دائما بما هو نص أو ظاهر فى خلاف الحق ، ثم الحق الذى يجب اعتقاده لا يبوحون به قط ولا يدلون عليه نصاً ولا ظاهراً حتى أنباط الفرس والروم وفروخ اليهود والفلاسفة يبينون للأمة العقيدة الصحيحة التى يجب على كل مكلف أو كل فاضل أن يعتقدها »[1] .

ثم أنه أثبت بالدلائل أن المتكلمين المتأخرين اندفعوا بتأثير الفلسفة اليونانية وشئ من المغالاة فى التنزيه إلى تأويل هذه الصفات تأويلاً بعيدا عن حقيقة اللغة وفهم الصحابة ونصوص الحديث بعداً شائناً مس حدود النفى والتعطيل ، إنهم ابتعدوا فى ذلك عن مذهب السلف من العلماء وأئمة السنة والمتكلمين المتقدمين أنفسهم ، حتى جعلوا يتكلمون عن السلف ما يزرى بعلمهم ، أما من يأخذ بالحيطة البالغة منهم فيقول : إن طريقة السلف

---

(١) العقيدة الحموية الكبرى ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

أسلم وطريقة الخلف أعلم .

ولا شك أن هذا الكلام مبنى على الجهل بمكانة السلف وحقيقتهم ودليل على قلة علمهم ، فإن السلف إنما كانوا على علم جم بالشريعة ، وأين فروخ الفلاسفة اليونان ، والمتقطون من فتات مائدة الهنود والفرس من ورثة الأنبياء المتقدمين وخلفاء الرسل وحملة الكتاب والسنة فى المعرفة الإلهية وتفهم الأسماء والصفات ، إن أقوال الفلاسفة والمتكلمين عند رحيلهم من الدنيا تشهد على أنهم كانوا نادمين على تقعيراتهم ، هائمين على وجوههم ، وباكين على خيبتهم ، حتى قال بعضهم : أننى لم أدخر طوال حياتى سوى القيل والقال ، وقال آخر : لقد ضيعت الحياة فى خوض بحر لا ساحل له ، نقبت فى الصحارى معرضاً عن علوم الإسلام ، ولا أدرى ماذا سيكون مصيرى إذا لم يأخذ الله بيدى ، أشهد أننى أموت على عقيدة أمى .

هذه الفتوى رسالة علمية مستقلة تتجلى فيها خصائص شيخ الاسلام العلمية التأليفية بوضوح ، فان السهولة وقوة الاستدلال ، والخطابة ، وحسن الاستشهاد بالكتاب والسنة ، وجدة الأسلوب ، والخطاب إلى العقل ، والارتجال ، وعدم التكلف ، والمعلومات التاريخية ، والنقد اللازع ، للمتكلمين والفلاسفة ، كل ذلك خصائص تتميز بها هذه الرسالة ، بينما خلت منها عامة الكتب التى ألفت فى ذلك العهد ولا سيما كتب الفتاوى التى كانت تؤلف باللغة الفقهية ومصطلحاتها .

لأول مرة ظهر شيخ الإسلام ابن تيمية فى هذه الفتوى كمدافع قوى عن العقيدة التى كانت عقيدة السلف واعتقاد أهل السنة فى نظره ، وعقيدة « التجسيم » والحنبلية المشوهة عند معارضيه ، ان الاسلوب التى احتوت عليه هذه الفتوى والتحدى السافر الذى ضمنته ، ثم الاستقبال الرائع الذى لقيته من الأوساط الحنبلية ، كان من النتائج الطبيعية لكل ذلك أن يعم بذلك سخط واستنكار عام فى وسط الأشاعرة والمتكلمين الذى كان يتمتع بتأييد الحكومة والجماهير ، والذى كان رجاله متبوئين مناصب القضاء والافتاء الرسمية ومسيطرين على مراكز التدريس والتأليف يتحدث عن ذلك ابن كثير ضمن الأحداث التى وقعت فى سنة ٦٩٨ هـ يقول :

« قام عليه جماعة من الفقهاء وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضى جلال الدين الحنفى فلم يحضر ، فنودى فى البلد فى العقيدة التى كان قد سأله عنها أهل حماه المسماة بالحموية فانتصر له الآمير سيف الدين جاغان وأرسل يطلب الذين قاموا عنده فاختفى كثير منهم ، وضرب جماعة ممن نادى على العقيدة فسكت الباقون ، فلما كان يوم الجمعة عمل الشيخ

تقى الدين الميعاد الجامع على عادته ، وفسر فى قوله تعالى ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ ثم اجتمع بالقاضى امام الدين يوم السبت واجتمع عنده جماعة من الفضلاء وبحثوا فى الحموية وناقشوه فى أماكن فيها ، فأجاب عنها بما أسكتهم بعد كلام كثير ، ثم ذهب الشيخ تقى الدين وقد تعهدت الأمور ، وسكنت الأحوال » [(1)] .

وكان من المتوقع جداً أن تكون هذه القصة قد امتدت وثارت هناك ضجة أخرى ، ولكن حدث فى الوقت نفسه من الأحوال ما لم يسمح بالخوض فى الخلافات والمناقشات العقائدية، أعنى بذلك غارة التتر ، برز فيها ابن تيمية كمجاهد عظيم ، وقائد عام .

توجه التتر إلى دمشق :

وما ان استهلت سنة ٦٩٩ هـ إذ تتابعت الأخبار بأن قازان حاكم التتر فى العراق وفارس ينوى الغارة على الشام وأن عساكره متوجهة إلى دمشق ، لقد أثار هذا النبأ دهشة فى بلاد الشام كلها نظراً إلى ما جربته الأقطار الإسلامية من شدائد غاراتهم وما خلفته هذه الغارات من حكايات النهب والقتل الشنيعة ، وهنالك جعل الناس يخرجون من حلب وحماه متوجهين إلى العاصمة حتى غلت الأسعار والأجور وارتفعت أجرة السفر من حماه إلى دمشق إلى مائتى درهم بالفرس ، ولكن سرعان ما اطمأن الناس أن سلطان مصر (الناصر محمد بن قلاؤون) قادم مع العساكر الملوكية إلى الشام لحمايتها من غارة التتر ومقاومتهم.

فى ٨ ربيع الأول سنة ٦٩٩ هـ دخلت الجيوش المصرية فى دمشق فاستقبل الناس السلطان وجيوشه استقبالا رائعاً رغم شدة المطر وكثرة الوحل فى الطرق وزينت المدينة واهتم الناس بالدعاء لانتصار السلطان والمسلمين على التتر ، وخرج السلطان بعساكره لمبارزة التتر فى ١٧ ربيع الأول ، وخرج معه قاضى القضاة الحنفى وأعيان البلد وعلماؤه وساند الجيش جماعة من المجاهدين وعدد من المحاربين وعنى الناس بالدعاء والقنوت فى المساجد عناية خاصة .

انهزام السلطان ، والوضع فى دمشق :

فى ٢٧ ربيع الأول قامت المبارزة بين قازان والسلطان ، فحارب المسلمون بشجاعة نادرة ، ولكنهم هزموا ، فتوجهت عساكر السلطان إلى مصر راجعة ، والتجأ أهل دمشق إلى دمشق وقد عم الخوف فى البلد من انسحاب الجيوش المصرية وخطر اقتحام التتر فى

---

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٤ .

دمشق منتصرين غالبين ، فكان كبار العلماء وأعيان الناس يغادرون دمشق إلى مصر ، كالقاضي الشافعي والقاضي المالكي وبعض العلماء المشهورين ، ووالى البلد والمحتسب وغيرهم من التجار والعامة كانوا قد غادروا البلد ، كما أن الحكام كانوا قد خرجوا من دمشق ، سوى نائب القلعة فقد كان لا يزال مقيماً ، أما سائر الحكام المسئولين عن الادارة والنظام فلم يستطيعوا البقاء فى المدينة ، وكانت الأسعار قد غلت إلى حد مخيف ، وأغلقت الحدود ، والذى زاد الطين بلة أن المسجونين فى سجن المدينة هدموه وخرجوا ينهبون المتاجر والبضائع ، واستغل الوضع أوباش الناس وعاثوا فى ظاهر البلد وكسروا أبواب البساتين (وعليها معظم الاعتماد فى معاش أهل دمشق) وقلعوا من الأبواب والشبابيك شيئا كثيراً وباعوها بأرخص الأثمان ، وبينما كانت دمشق تعيش فى هذا الوضع المرعب إذ طار الخبر فى الناس بقصد قازان إلى دمشق ، فزادوا فزعا على فزع ، وعم الخوف والإرجاف فى طول المدينة وعرضها .

لقاء ابن تيمية مع قازان :

اجتمع ابن تيمية بأعيان البلد للتفكير فى الوضع الحاضر واتفقوا على المسير إلى قازان لتلقيه فى وفد من العلماء وأصحابهم ، وذلك لآخذ الأمان منه لأهل دمشق . ففى يوم الاثنين ٣ ربيع الآخر سنة ٦٩٩هـ اجتمع ممثل أهل دمشق وسفير الإسلام ابن تيمية بقازان طاغية التتر فى بلدة « النبك »[1]، ولنترك الشيخ كمال الدين بن الأنجا الذى رافق ابن تيمية، وحضر معه إلى قازان يتحدث عن هذا اللقاء :

« كنت حاضراً مع الشيخ فجعل يحدث السلطان بقول الله ورسوله فى العدل وغيره ويرفع صوته على السلطان ويقرب منه فى أثناء حديثه ، حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان ، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكلية مصغ لما يقول ، شاخص اليه لا يعرض عنه ، وأن السلطان من شدة ما أوقع الله له فى قلبه من المحبة والهيبة ، سأل من هذا الشيخ ؟ فانى لم أر مثله ، ولا أثبت قلباً منه ، ولا أوقع من حديثه فى قلبى ، ولا رأيتنى أعظم انقياداً لأحد منه ، فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل ، فقال الشيخ للترجمان ، قل للقازان : « أنت تزعم أنك مسلم ، ومعك قاض وامام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا فغزوتنا ، وأبوك وجدك كانا كافرين ، وما عملا الذى عملت ، عاهدا فوفيا، وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت وجرت » .

---

(١) يقع هذا البلد بين دمشق وحمص ، معروف بمائه بصفة خاصة ، وهو منتزه فى الوقت الحاضر .

ثم خرج من بين يديه مكرماً معززاً بحسن نيته الصالحة من بذل نفسه فى طلب حقن دماء المسلمين ، وبلغه الله تعالى ما أراده ، وكان أيضاً سبباً لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم ، وردهم على أهلهم وحفظ حريمهم ، وهذا من أعظم الشجاعة والثبات ، وقوة التجاسر .

وكان يقول: « لن يخاف الرجل غير الله الا لمرض فى قلبه ، فإن رجلا شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال لو صححت لم تخف أحداً ، أى خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك .

وأخبر قاضى القضاة أبو العباس : أنهم لما حضروا مجلس غازان ، قدم لهم طعام فأكلوا منه ، إلا ابن تيمية ، فقيل لم لا تأكل ، فقال كيف آكل من طعامك ، وكله مما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ، ثم أن غازان طلب منه الدعاء ، فقال فى دعائه : اللهم إن كنت تعلم أنه إنما قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، وجاهد فى سبيلك ، فان تؤيده وتنصره ، وإن كان للملك والدنيا ، والتكاثر فان تفعل به، وتصنع ، فكان يدعو عليه ، وغازان يؤمن على دعائه ، ونحن نجمع ثيابنا خوفاً أن يقتل فيطرطس بدمه ، ثم لما خرجنا قلت له : كدت تهلكنا معك ، ونحن ما نصحبك من هنا، فقال : وأنا لا أصحبكم ، فانطلقنا عصبة ، وتأخر فتسامعت به الخوانين والأمراء ، فأتوه من كل فج عميق ، وصاروا يتلاحقون به ليتبركوا برؤيته ، فما وصل إلا فى نحو ثلاث مائة فارس فى ركابه ، وأما نحن فخرج علينا جماعة فشلحونا [1].

وحشية التتر فى دمشق :

وإن كان أهل دمشق قد حصلوا على وثيقة الأمن من سلطان التتر وأعلن ذلك فى دمشق غير أن التتر كانوا مستمرين فى السلب والنهب ونقض القانون والوحشية فى نواحى دمشق وضواحيها ، وكان الوضع شبه ثورة خارج سور البلد ، وغلت الأسعار غلاء فاحشاً أزعج الناس ، ومما زاد فى هلع الناس أن التتر طالبوا أهل دمشق بتسليم جميع ما عند الناس من الخيول والسلاح والأموال المخبأة من جهة الدولة السابقة إلى التتر ، وقد عين التتر سيف الدين قبجق حاكم الشام من قبلهم فبدأ يشدد على سكانها ، وكانت سيطرة التتر قد تمت على البلد ، الا القلعة فان نائب القلعة ارجواش امتنع عن تسليمها اليهم أشد الامتناع ، وكان ذلك باشارة من الشيخ ابن تيمية كما يقول ابن كثير : « فان الشيخ تقى الدين بن

---

(١) الكواكب الدرية ص ٢٥ - ٢٦ .

تيمية أرسل إلى نائب القلعة يقول له ذلك : لو لم يبق فيها الا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك ان استطعت ، وكان فى ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام ، فان الله حفظ لهم هذا الحصن والعقل الذى جعله الله حرزاً لأهل الشام التى لا تزال دار إيمان وسنة »[1] .

عاث التتر فساداً فى البلد ، وما تركوا شيئاً الا غيروه بالنهب والسلب ، وسجنوا عدداً كبيراً من المسلمين رجالاً ونساء ، واسترقوهم ، ففى محلة الصالحية وحدها قتل نحو أربع مائة وأسر نحو من أربعة آلاف أسير ، وسبوا كثيراً من الفتيان والفتيات من أسر شريفة وبيوتات فضل وعلم ، واستباحوا حرمات المسلمين بوجه عام ، ونهبت كتب كثيرة من المكتبات الكبرى ومن الوقف وباعوها بأبخس ثمن .

رأى ابن تيمية هذه الأحوال من النهب والقتل والأسر فلم يصبر عليها وخرج فى جماعة من أصحابه يوم ٢٥ ربيع الآخر للاجتماع بملك التتر (قازان) مرة أخرى ، وانتظره يومين ولكن لم يتح له اللقاء وحجبه عنه وزيره ، واشتهر فى البلد أن التتر يريدون دخول دمشق، فانزعج الناس بهذا الخبر وخافوا خوفا شديداً ، وأرادوا الخروج منه والهرب على وجوههم ولكن أين المفر ، ولات حين مناص ، وبدأ التتر بعمل مجانيق بالجامع ليرموا بها القلعة من صحنه ، ويحفرون الخنادق ، وقعد الناس فى بيوتهم خوفاً من أن يؤخذوا السخرة ، يقول ابن كثير : « وكانت الطرقات لا يرى بها أحد الا القليل ، والجامع لا يصلى فيه أحد الا اليسير ، ويوم الجمعة لا يتكامل فيه الصف الأول وما بعده الا بجهد جهيد ، ومن خرج من منزله فى ضرورة يخرج بثياب زيهم ثم يعود سريعاً ، ويظن أنه لا يعود إلى أهله»[2] .

فى ١٩ جمادى الأولى توجه « قازان » إلى بلاد العراق وترك نوابه بالشام فى ستين ألف مقاتل ، وأعلن عند رحيله من الشام « إنا قد تركنا نوابنا بالشام فى ستين ألف مقاتل ، وفى عزمنا العود اليها فى زمن الخريف والدخول إلى الديار المصرية وفتحها » ، وبالرغم من أن قازان كان قد ارتحل من الشام ولكن أميراً آخر من التتر اسمه « أمير بولائى » ظل مستمرا فى النهب والسلب فى نواحى دمشق ، وقد خرب قرى كثيرة ، وسبى عدداً كبيراً من أطفال المسلمين ، وجبى من دمشق نفسها أموالاً طائلة ، وفى ثامن رجب خرج الشيخ ابن تيمية إلى مخيم بولائى فاجتمع به فى فكاك من كان معه من أسارى المسلمين فاستنقذ

---

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٧ - ٨ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٩ .

كثيراً منهم من أيديهم، وكان من بين هؤلاء الناجين مسلمون وغيرهم من الذميين الشاميين.

وفى ٣ رجب نودى فى البلد من جهة نائب القلعة بأن العساكر المصرية قادمة إلى الشام وفى عشية اليوم التالى رحل بولائى وأصحابه من التتر وانشمروا عن دمشق ، وقد خلت دمشق ونواحيها من التتر ، وظلت كذلك حتى السابع من رجب ، وأزاح الله عز وجل شرهم عن العباد والبلاد .

وفى تاسع رجب وصل الخبر بخروج الجيوش المصرية والسلطان محمد بن قلاوون إلى الشام لإنقاذها من أيدى التتر ، ولم يكن بالبلد أحد فى ذلك الوقت من الحكام والمسئولين وكانت أسوار البلد متهدمة من غارة التتر ، فنادى أرجواش نائب القلعة : احفظوا الأسوار والأبواب ، لا يبيتن أحد إلا أن يحرس السور مسلحاً ، فاجتمع الناس على الأسوار لحفظ البلاد ، وكان الشيخ ابن تيمية يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط [١].

أعماله الاصلاحية :

ولما سمع المسلمون بقدوم الجيش المصرى وسلطان مصر ، وأن التتر قد تراجعوا فرحوا بذلك كثيراً وارتفعت هممهم ، وصمموا على إزالة آثار الفساد الذى كان قد انتشر فى ظل هذه الأمة الجاهلية وحكامها المفسدين ، وكان ابن تيمية قد تولى قيادة المحاربة لهذا الفساد، وكان نائب الشام سيف الدين قبجق هو الذى انتشرت الحانات فى أيام حكمه القصير وشاع شرب الخمر فى الناس ، وكانت هذه الحانات مورداً كبيراً من موارده المالية ، ولم يعد الآن أى مبرر لبقائها ، ولم يكن فى دمشق أى حاكم ولا مسئول من الحكام ، فتولى ابن تيمية قطع دابر هذا الفساد وتجول فى طول البلد مع تلاميذه وأنصاره ، وحيثما رأوا حانة أو خمارة كسروا أوانى الخمور فيها وشققوا الظروف وأراقوا الخمور وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش ففرح الناس ذلك .

إصلاح عقائد السكان فى الجبال :

وفى عام ٦٩٩ هـ عندما كان قد دخل الجيش التتارى فى دمشق وعاثوا فيها فساداً وقتلا، كانت هناك جماعة ساكنة فى الجبال من المسيحيين والباطنيين والاسماعيليين ، قد لاذت بالتتر وآذت المسلمين معهم ، ولما كان جيش المسلمين يرجع منهزماً ومر بمنطقتهم

---

(١) أيضا ص ١١ .

حالت هذه الجماعة دون طريقتهم ووثبت عليهم ، وسلبت ما كان معهم من الأسلحة والخيول وقتلت كثيراً من المسلمين ، ولم تكن هذه الجماعة قبل ذلك داخلة فى طاعة الجند ولا ملتزمة أحكام الملة ولا متدينة بدين الحق ولا محرمة ما حرم الله ورسوله .

ولما استقرت الأحوال فى دمشق ، وأقشع السحاب المكفهر فكر ابن تيمية فى تأديب هؤلاء المفسدين واصلاح أحوالهم ، ومن حسن الصدفة خرج نائب السلطنة جمال الدين آقوش الأقرم فى جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان وانتهز هذه الفرصة الشيخ ابن تيمية وخرج معه فى خلق كثير من المتطوعة والحوارنة إلى أهل تلك الناحية ، فلما وصلوا إلى بلادهم جاء رؤساءهم إلى الشيخ تقى الدين بن تيمية ، فاستتابهم ، وبين للكثير منهم الصواب ، وحصل بذلك خير كثير وانتصار كبير على أولئك المفسدين ، والتزموا برد ما كانوا أخذوه من أموال الجيش ، وقرر عليهم أموالاً كثيرة يحملونها إلى بيت المال ، . . وعاد نائب السلطنة مع ابن تيمية ، وكللت مساعيهم بالنجاح [1].

عودة التتر إلى بلاد الشام واعلان ابن تيمية بالجهاد :

وفى مستهل عام ٧٠٠ هـ وردت الأخبار إلى دمشق بقصد التتر بلاد الشام فمادت الأرض بالناس ، وطاشت عقولهم وألبابهم ، وبدأوا يتهربون إلى مصر والبلدان الأخرى والحصون المنيعة مما كان بنجوة عن معرة التتر وغائلتهم ، وبيعت الأمتعة والثياب والمغلات بأرخص الأثمان ، فارتفعت أجرة الحمارة والنقل إلى آخر نقطة ، وأسعار الجمل والحمار من خمسمائة إلى ألف ، واستعد الشيخ ابن تيمية لالقاء المواعظ والدروس فى الجامع بنشاط بالغ ، وحرض الناس على القتال ، ونهاهم عن الاسراع فى الفرار ، وذم هذه الخصلة ورغبهم فى إنفاق الأموال فى الذب عن المسلمين وبلادهم وأموالهم ، وأن ما ينفق فى أجرة الهرب إذا أنفق فى سبيل الله كان خيراً ، وأوجب جهاد التتر حتما فى هذه الكرة، وسكنت الأحوال بمجالسه المتتابعة فى ذلك ، ونودى فى البلاد : لا يسافر أحد الا بمرسوم وورقة ، فتوقف الناس عن السير والفرار وسكن جأشهم ، وتحدث الناس بخروج السلطان من القاهرة بالعساكر ، ودقت البشائر لخروجه .

الرحلة إلى مصر :

وفى ربيع الآخر قوى الارجاف بأمر التتر وجاء الخبر بأنهم قد وصلوا إلى البيرة ،

---

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٢ .

ونودى فى البلد بالجهاد العام ، وكانت الأنباء تتوالى بتقدم التتر إلى الشام ، ونودى فى اللد بتطييب قلوب الناس واقبالهم على معايشتهم وأن السلطان والعساكر واصلة ، ثم فوجئ الناس بأن سلطان مصر رجع عائداً إلى مصر بعد أن خرج منها قاصداً إلى الشام فكثر الخوف واشتد الحال ، وخرج كثير من الناس خفافاً وثقالاً يتحملون بأهليهم وأولادهم، وجعلوا يحملون الصغار على الدواب والرقاب .

وخرج الشيخ ابن تيمية إلى نائب الشام فى المرج ، وكان مرابطاً خارج دمشق لمقاومة التتر وسد سيولهم فثبته وقوى جأشه وطيب قلبه ، ووعده بالنصر والظفر على الأعداء وتلا قوله تعالى : ﴿ **ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور** ﴾[1] .

وسأله النائب والأمراء أن يركب على البريد إلى مصر ويستحث السلطان على المجئ ، فساق وراء السلطان ، وكان قد وصل إلى الساحل فلم يدركه إلا وقد دخل القاهرة ، وتفارط الحال فاستثار غيرته ، وقال له فيما قال : « لو قدر انكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر ، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنهم ، وقال أيضاً : « ان كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله فى زمن الأمن » وقوى الشيخ ابن تيمية جأش السلطان وأكد له أن النصر حليفه فى هذه الكرة ، وظل الشيخ مقيماً فى حصن مصر إلى ثمانية أيام يحرض الناس على الجهاد ومقاومة التتر .

واستعد السلطان للخروج إلى الشام مرة أخرى نتيجة لجهود ابن تيمية المخلصة التى بذلها فى هذا السبيل ، وتوجهت العساكر إلى الشام لجهاد التتر ، ولما سمع الناس بذلك فرحوا أشد الفرح بعد أن كانوا قد يئسوا من أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، ثم قويت الأراجيف بوصول التتر وتحقق عود السلطان إلى مصر ، ونادى ابن النحاس متولى البلد فى الناس : من قدر على السفر فلا يقعد بدمشق ، وهنالك ارتفعت الأصوات ، وتصايح النساء والولدان ورهق الناس ذلة عظيمة وخمدة ، وزلزلوا زلزالا شديداً ، وغلقت الأسواق، وتيقنوا أن لا ناصر لهم إلا الله عز وجل ، ويقولون ما بقى أهل دمشق إلا طعمة للعدو ، ودخل كثير من الناس إلى البرارى والقفار والمغر بأهاليهم من الكبار والصغار ، ولم يبق بدمشق من أكابرها إلا القليل ، ونودى بالناس : من كانت نيته الجهاد

---

(١) سورة الحج .

فليلحق بالجيش فقد اقترب وصول التتر وخرج العلماء ، ومن بينهم شرف الدين ابن تيمية أخو ابن تيمية إلى نائب السلطنة الآفرم وقووا عزمه على لقاء العدو ، واجتمعوا ب « مهنا» أمير العرب فحرضوه على قتال العدو فأجابهم بالسمع والطاعة .

ورجع ابن تيمية من مصر وبشر الناس باستعداد سلطان مصر وأعيان الدولة لجهاد العدو، ثم جاءت الأخبار بأن ملك التتر قد خاض الفرات راجعاً عامة ذلك ، فطابت النفوس لذلك وسكنت ، وعادوا إلى منازلهم منشرحين آمنين[1] » و ﴿ كفى الله المؤمنين القتال ﴾ .

الحرب الحاسمة مع التتر ، وصنيعة ابن تيمية :

وفى رجب سنة ٧٠٢ هـ قويت الأخبار بعزم التتار على دخول بلاد الشام ، فانزعج الناس لذلك واشتد خوفهم جداً ، وقنت الخطيب فى الصلوات ، وقرئ صحيح البخارى ، وشرع الناس فى الجفل إلى الديار المصرية والكرك والحصون المنيعة ، وتأخر مجئ العساكر المصرية عن ابانها فاشتد لذلك الخوف ، وفى ثامن عشر من رجب قدمت طائفة كبيرة من جيش المصريين بقيادة الأمراء الأتراك المشهورين ، وتلتها طائفة أخرى فقويت القلوب واطمأن كثير من الناس ولكن الناس فى جفل عظيم من بلاد حلب وحماة وحمص وتلك النواحى ، وتحدث الناس بالأراجيف فاجتمع الأمراء بالميدان وتحالفوا على لقاء العدو وشجعوا أنفسهم ، نودى بالبلد أن لا يرحل أحد منه ، وتوجه ابن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم فى القطيعة فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو فأجابوه إلى ذلك وحلفوا معهم ، وكان الشيخ يحلف للأمراء والناس : إنكم فى هذه الكرة منصورون ، فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله - فيقول : إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً ، ويقول : نحن مظلومون ، والمظلوم منصور ﴿ من بغى عليه لينصرنه الله ﴾ ، ولذلك فإن النصر مؤكد ، والفتح قريب ، وإن وعد الله كان مفعولاً »[2] .

وقد تكلم الناس فى حكم قتال هؤلاء التتر من أى قبيل هو ، فإنهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام فانهم لم يكونوا فى طاعته فى وقت ثم خالفوه فكيف يجوز القتال ضدهم وقد ارتبك العلماء فى ذلك ، فقال ابن تيمية : هؤلاء من جنس الخوارج الذى خرجوا على سيدنا على ومعاوية - رضى الله عنهما - ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما ،

---

(١) البداية والنهاية ج ١١٤ ص ١٦ .

(٢) أيضاً ج ١٤ ص٢٣ .

وهؤلاء يزعمون أنهم أحق باقامة الحق من المسلمين ، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصى والظلم وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة ، فتفطن العلماء والناس لذلك ، وكان يقول للناس إذا رأيتمونى فى صف التتر موالياً لهم وعلى رأسى مصحف فاقتلونى ، فتشجع الناس فى قتال التتر وقويت قلوبهم ونياتهم .

كانت دمشق كلها تعيش فى قلق وانزعاج شديدين ، لم يصل أى خبر بقدوم السلطان ولم يكن الناس متأكدين أن العساكر المصرية والشامية ستحارب التتر ، وقد وصلت التتر إلى قارة ، وقيل إنهم وصلوا إلى القطيعة ، فانزعج الناس لذلك انزعاجاً شديداً ولم يبق حول القرى والحواضر أحد ، وامتلأت القلعة والبلد ، وازدحمت المنازل والطرقات واضطرب الناس ، وخرج ابن تيمية من باب النصر بمشقة كبيرة ، وصحبته جماعة ليشهد القتال بنفسه ومن معه ، فظنوا أنه إنما خرج هارباً فحصل اللوم من بعض الناس ، وقالوا أنت منعتنا من الجفل وها أنت هارب من البلد فلم يرد عليهم ، وبقى البلد ليس فيه حاكم، وجاس اللصوص والحرافيش فيه يخربون وينتهبون ما قدروا عليه .

ولم يعد للناس شغل غير الصعود إلى المآذن ينظرون يميناً وشمالاً فتارة يقولون: رأينا غبرة فيخافون أن تكون من التتر ، ويتعجبون من الجيش مع كثرتهم وجودة عدتهم وعددهم أين ذهبوا ؟ فلا يدرون ما فعل الله بهم ، وكل شخص كان ينتظر حكم القضاء فيه ، ويفكر فيما إذا وقعت الحرب أم لا ؟ وإذا وقعت فمن ينتصر ، وإذا انهزم الجيش - لا قدر الله - فماذا سيكون مصيرهم ؟ ومن يحمى أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، وكان كما صور القرآن الكريم ﴿ **وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً** ﴾ (١) .

ووصل ابن تيمية إلى العسكر الشامى فطلب منه أمراء الجيش أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق ، فسار اليه فحثه على المجئ إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر ، فجاء هو واياه جميعاً فسأله السلطان أن يقف معه فى معركة القتال ، فقال له الشيخ : السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه ، ونحن مع جيش الشام لا نقف الا معهم، وحرض السلطان على القتال وبشره بالنصر ، وجعل يحلف بالله الذى لا اله إلا هو انكم منصورون عليهم فى هذه المرة . فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله ، فيقول إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً .

(١) سورة الأحزاب ١٠ - ١١ .

وفى ليلة الجمعة التاسع والعشرين من شعبان ثبتت رؤية هلال رمضان فبدأ الناس يستعدون لصلاة التراويح وقد استبشروا بشهر رمضان وبركته ، وأصبحوا يوم الجمعة فى هم شديد وخوف أكيد ، ورأوا يوم السبت المآذن سواداً وغبرة من ناحية العسكر والعدو ، فغلب على الظنون أن الوقعة اليوم فابتهلوا إلى الله عز وجل بالدعاء فى المساجد والبلد ، وطلع النساء والصغار على الأسطحة ، وكشفوا رءوسهم ، وضج البلد ضجة عظيمة ، فلما كان بعد الظهر قرئت بطاقة بالجامع تتضمن أن فى الساعة الثانية من نهار السبت هذا اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية مع السلطان ، وفيها طلب الدعاء من الناس والأمر بحفظ القلعة .

وفى ثانى رمضان اصطف الجيشان فى ساحة شقحب ، وأفتى ابن تيمية بالفطر مدة قتالهم ، وأفطر هو أيضاً ، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شئ معه فى يده ليعلمهم أن أفطارهم ليتقووا على القتال أفضل ، وكان يقرأ لهم حديث الرسول ﷺ «إنكم ملاقو العدو غداً ، والفطر أقوى لكم»

ولما ابتدأت الحرب والتحم الفريقان ثبت السلطان ثباتاً عظيماً ، وكان الخليفة العباس ابو ربيع سليمان فى صحبته ، وآمر السلطان بجواده فقيد حتى لا يهرب ، وبايع الله تعالى فى ذلك الموقف ، وجرت خطوب عظيمة وقتل جماعة من سادات الأمراء يومئذ ، ولكن نزل النصر على المسلمين واستظهروا على التتر ، فلما جاء الليل لجأ التتر إلى اقتحام التلول والجبال والآكام ، فأحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الحرب ، ويرمونهم عن قوس واحدة إلى وقت الفجر فقتل منهم ما لا يعلم عدده إلا الله ، وجعلوا يجيئون بهم فى الحبال فتضرب أعناقهم ، ثم كانوا يتساقطون فى الأودية والمهالك ، وغرق منهم جماعة فى الفرات بسبب الظلام .

وفى يوم الاثنين رابع رمضان دخل ابن تيمية فى دمشق ففرح به الناس ودعوا له وهنئوه بما يسَّر الله على يديه من الخير ، ودخل السلطان إلى دمشق يوم الثلاثاء خامس رمضان ومعه الخليفة والعساكر منتصرين فرحين ، واستقرت الخواطر ، وذهب اليأس وطابت قلوب الناس .

إنكار البدع وتغيير المنكرات :

وما أن فرغ ابن تيمية من قضية التتر إلا وقد عكف على إلقاء دروسه ومواعظه ونشر السنة ورد البدع كسابق عهده ذلك ، واشتغل بجهاد الشرك والجاهلية ،وكان أحب عمل

لديه وأسمى غاية فى حياته بكل نشاط وهمة ، وكـان قد دخل فى ذلك العهد إلى مجتمع المسلمين كثير من أعمال كـانت بقية عهـد الجاهلية ، وشعـار المشركين والوثنيين ، بحكم اختلاطهم باليهود والنصارى ، وتعـاليم الزعماء الجاهلين وفـاسدى العقائد ، كـانت بنهر قلوط في ضواحي دمشق صـخرة تزار ويندر لها النذور قد اشتهـرت عنها قصص وروايات عديدة ، فعادت فتنة كبيرة لضعـاف العقيدة من المسلمين ، إذ كانوا يزورونها ويقدمون لها النذور ، فذهب إليها ابن تيمية مع جماعة من الحجارين فى رجب عام ٧٠٤ هـ وقطعها ، وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها ، وأزاح عنهم شبهة كان شرها عظيماً [(١)].

لم يكن ابن تيمية يصبر على أمور تخالف الشريعة والسنة فإذا رأها قام بتغييرها بيده من غير تأخير ، إذ كان ذلك هو الدرجة العليا للايمان والحاجة الأولى للحمية الدينية « من رأى منكم منكراً فليـغيره بـيده ، فمن لم يسـتطع فبلسـانه ، فمن لم يسـتطع فبقـلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

أما الحكام فكـانوا فى شغل شاغل عن أمـور الدين ، وكان العلمـاء لا يعيـرون الأمور المخالفة للشرع أهمية فى بعض الأحيان ، كما كانوا يخافون من المعارضة والإنكار فى حين آخر ، ولذلك فكان ابن تيمـية يتولى هذه المسئولية بنـفسه فى أكثر الأحيان ، وكـانت معه جماعة من تلاميذه ومحبيـه يؤازرونه فى هذه الأمور ويساعدونه ، ولذلك فإنه كان قد أقام حسبة شرعـية وخلقيـة ابتغـاء وجه الله فإن كـان المنكر يفلت من عتـاب الحكام الذين كان أكثـرهم من أهل البدع ومعـارضين لابن تيميـة ومن غضب العلماء ، لـم يكن ليفلت من رقابة « البوليس الشرعى » الذين كان على رأسهم ابن تيمية .

وفى رجب هذا العام أحـضر إلى ابن تيمية شـيخ كان يلبس دلقاً كبـيراً متسـعاً جداً ، يسمى المجاهد الكبير إبراهيم القطان ، وكان ذا شـعر طويل وأظفار طوال وشارب مسبل ، يكثر من كلام الفحش وأكل ما يغير العقل من الحشـيشة وما لا يجوز من المحرمات ، فأمر ابن تيمـية بتقطيع ذلك الدلق ، فـتناهبه الناس من كل جانب وقطـعوه حتى لم يدعوا فـيه شيـئاً، وأمر بحلق رأسـه وشاربه وتقليم أظفاره ، واسـتتابه من كلام الـفحش وإستعـمال الحرام[(٢)].

وكذلك كان شخص اسمه محمـد الخباز البلاسى ، يكثر من أكل المحرمات ، ويجالس

---

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣٤ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣٤ .

اليهود والنصارى ، ويتكلم فى تأويل الرؤى ، ويتدخل فى العلوم والمسائل التى لم يكن له بها علم ، فاستحضره ابن تيمية واستتابه عن أكل المحرمات ، يقول ابن كثير : « وبهذا أمثاله حسدوه وأبرزوا له العداوة » .

الجهاد مع الملحدين والمفسدين :

وعلى ما قام به ابن تيمية من الإصلاح فى الداخل لم يكن فى شغل عن أولئك المفسدين الذين لم يألوا جهداً فى الإضرار بالمسلمين والمؤامرة مع أعداء الإسلام ، كلما حزبهم أمر أو أحاطت بهم مصيبة ، ولو أنه كان قد قام باصلاح القبائل الساكنة فى جبال الجرد وكسروان ومعه نائب السلطة الأفرم فى عام ٦٩٨ هـ ، وقد تاب منهم كثير ووعدوا باتباع أحكام الاسلام واحترام نظام السلطنة ، ولكن التجارب أثبتت أنهم لم يمتنعوا عن تخابثهم ، وأنهم لا يزالون بحاجة ماسة إلى مزيد من الإصلاح والتنبيه ، ولا يزال الخطر موجوداً من قبلهم كلما سنحت لهم بذلك فرصة ، وفى مستهل ذى الحجة ركب ابن تيمية ومعه جماعة من أصحابه إلى جبال الجرد وكسروان ومعه نقيب الأشراف زين الدين بن عدنان ، فقام فيهم بالتبليغ واستتاب خلقاً منهم ، وألزمهم بشرائع الإسلام .

ان قبائل الروافض فى جبال الجرد (من الباطنية والإسماعيلية والحاكمية والنصيرية) أصابوا المسلمين بأضرار ، وجاهروا فى ايذائهم ومعارضتهم ، وهم الذين دعوا الصليبيين والتتر للعدوان على البلاد الإسلامية ، ووفروا كل نوع من التسهيلات ، واستباحوا كل فرصة لاستغلال ضعف المسلمين وقلة وسائلهم ، ونالوا من أعراضهم وأموالهم ، وأذلوهم حتى باعوهم بيد الأعداء كالغنم .

لقد شاهد كل ذلك ابن تيمية ، فكان يعيش فى تألم شديد وقلق عظيم جداً ، وكان قلبه الغيور يشعر بشدة هذا التألم ، انه لم يكن ليعفو عن هولاء الخساس والأشرار ، ولم يكن ليرضى بالتغاضى عن هؤلاء المنافقين ، الذين أصابوا المسلمين بالذلة والتضييق فى ساعة حرجة جداً ، وساعدوا أعداءهم ونصروهم ، وقد أراد ابن تيمية الاّ يترك المجرمين إلا ويذيقهم عقاب أعمالهم ، وإن يسد فى وجوههم كل طريق يتسللون منه إلى المسلمين بايلام أو ايذاء عند أى حرب أو ساعة حرجة ، إنه استلفت نظر السلطان الناصر (سلطان مصر والشام) إلى هذه المهمة ، وأخبره بخطرهم ونواياهم الفاسدة ، وقد قال فى رسالة وجهها إلى السلطان :

« ولما قدم التتار إلى البلاد وفعلوا بمعسكر المسلمين ما لا يحصى من الفساد ، وأرسلوا

إلى أهل قبرص فملكوا بعض الساحل ، وحملوا راية الصليب ، وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يحصى عدده إلا الله ، وأقام سوقهم بالساحل عشرين يوماً يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص (أى الصليبيين المحاربين للمسلمين) وفرحوا بمجئ التتار . . . ولما خرجت العساكر الإسلامية من الديار المصرية ظهر فيهم من الخزى والنكال ما عرفه الناس منهم ، ولما نصر الله الإسلام النصرة العظمى عند قدوم السلطان كان بينهم شبيه بالعزاء . . . كل هذا وأعظم منه عند هذه الطائفة . كان من أسباب خروج جنكسخان إلى بلاد الإسلام ، وفى استيلاء هولاكو على بغداد وفى قدومه إلى حلب وفى نهب الصالحية ، وغير ذلك من أنواع العداوة للإسلام وأهله .

ويقول فيه أيضاً : ولقد كان جيرانهم من أهل البقاع وغيرها منهم فى أمر لا يضبط شره، كل ليلة تنزل منهم طائفة ويفعلون من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد ، كانوا فى قطع الطرقات واخافة سكان البيوتات على أقبح سيرة عرفت من أهل الجنايات ، يرد إليهم النصارى من أهل قبرص فيضيفونهم ويعطونهم سلاح المسلمين ويقعون الرجل الصالح من المسلمين ، فأما أن يقتلوه ، وأما أن يسلبوه ، وقليل منهم من يفلت بالحيلة [(١)] .

وفى ثانى محرم عام ٧٠٥ هـ توجه ابن تيمية فى طائفة من الجيش لغزو أولئك المفسدين الملحدين ، وسار إلى بلاد الجرد والرفض والتيامنة فخرج نائب السلطنة الأفرم بنفسه بعد خروج الشيخ لغزوهم ، فنصرهم الله عليهم وأبادوا خلقاً كثيرا منهم ومن فرقتهم الضالة ووطئوا أراضى كثيرة من صنع بلادهم ، وقد أفتى ابن تيمية أنه يجوز قطع أشجارهم ونخيلهم كبنى النضير ، لأنهم يتخذونها كمينا يتسترون فيه ، ويجعلونها قواعد للحرب والمؤامرة على المسلمين ، وقد حصل بسبب شهود الشيخ ، هذه الغزوة خير كثير ، وأبان الشيخ علماً وشجاعة فيها ، وقد امتلأت قلوب أعدائه حسداً له وغماً [(٢)] .

مناظرته مع الأحمدية :

وفى يوم السبت تاسع جمادى الأولى عام ٧٠٥ هـ حضر جماعة كثيرة من الفقراء الأحمدية[(٣)] إلى نائب السلطنة بالقصر الأباق وحضر الشيخ تقى الدين بن تيمية فسألوا من

---

(١) ابن تيمية للشيخ محمد أبو زهرة ص ٤٥ .

(٢) البداية والنهاية ج١٤ ص ٣٥ .

(٣) تدرج كثير من المتتمين إلى الطريقة الرفاعية ، التى قد تسمى الأحمدية ، عزواً إلى مؤسسها السيد أحمد الرفاعى الكبير رحمه الله ،إلى أعمال ومظاهرات ، تبدو أنها كرامات وخوارق، ويقولون:==

ئب السلطنة حضرة الأمراء أن يكلف الشيخ تقى الدين امارته عنهم ، وأن يسلم لهم سالهم ، فقال لهم الشيخ : هذا ما يمكن ، ولا بد لكل أحد أن يدخل تحت الكتاب السنة، قولاً وفعلاً ، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه ، قال ابن كثير : « فأرادوا أن نعلوا شيئاً من أحوالهم الشيطانية التى يتعاطونها فى سماعاتهم ، فقال الشيخ : تلك حوال شيطانية باطلة ، وأكثر أحوالهم من باب الحيل والبهتان ، ومن أراد منهم أن يدخل نار فليدخل أولاً إلى الحمام وليغسل جسده غسلاً جيداً ويدلكه بالخل والأشنان ثم يدخل بد ذلك إلى النار إن كان صادقاً ، ولو فرض أن أحداً من أهل البدع دخل النار بعد أن نتسل فان ذلك لا يدل على صلاحه ولا على كرامته ، بل حاله من أحوال الدجاجلة خالفة للشريعة إذا كان صاحبها على السنة ، فما الظن بخلاف ذلك ، فابتدر شيخ المنيبع شيخ صالح وقال : نحن أحوالنا إنما تنفق عند التتر ليست تنفق عند الشرع فضبط لحاضرون عليه تلك الكلمة ، وكثر الإنكار عليهم من كل أحد ، ثم اتفق للحال على أنهم خلعون الأطواق الحديدية من رقابهم وأن من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه ، صنف الشيخ جزءاً فى طريقة الأحمدية ، وبين فيه أحوالهم ومسالكهم وتخيلاتهم ، وما ى طريقتهم من مقبول ومردود بالكتاب وأظهر الله السنة على يديه وأخمد بدعتهم [1]» .

وافقة العلماء على العقيدة الواسطية :

وفى ثامن رجب فى مجلس من العلماء كان قد انعقد عند نائب السلطنة قرئت رسالة ن تيمية « العقيدة الواسطية » وتباحث معه العلماء ووجهوا اليه الأسئلة ، وقرروا أخيراً بها مقبولة ومتفقة مع عقيدة أهل السنة ، وعاد الشيخ إلى منزله بغاية من الحفاوة والإكرام قد حمل له العامة شموعاً طول طريقه ، على جارى عادتهم لابداء الحب والإعجاب فى لك الزمان .

= نقيم بها برهاناً على فضل الإسلام ، ونستدرج بها الجهال من حكام التتر والمغول إلى الإسلام ، وتورط كثير منهم مع الزمان وتأثير الجهل وافتتان الناس بالعجائب والشعوذة ، فى ما لا يصح من الإعتقاد ولا يجوز من العمل ، والإسلام عنه برئ ، وقد أنكر عليهم كثير من علمائهم ومن رسخت قدمه فى علوم الشريعة وفهم الدين والتمسك بتعاليم إمامهم الشيخ أحمد الرفاعى وسيرته فى التزام الأحكام الدينية والتأدب آداب الشرع . (المؤلف) .

١) البداية والنهاية ج١٤ ص ٣٦ .

ابن تيمية يواجه المعارضة ويطلب إلى مصر :

كان ابن تيمية يتمتع بنوع من السيادة الدينية فى دمشق ، فكلما رأى أن الحكومة تتساهل فى منع بدعة أو تغيير منكر ، وأن العلماء صامتون لا يعارضون الوضع رأى نفسه مسئولاً عن ذلك فلم ينتظر إصدار حكم من الحكومة ، ونفذ الأحكام الشرعية بنفسه ، وقد كانت معه جماعة كبيرة من تلاميذه المحبين له ، والجماهير المتمسكة بالعقيدة الدينية الصحيحة ، ولم يزل نطاق عمله يتوسع ، حتى كرهت طبقة من أهل العلم سمو مكانته الدينية وتأثيره الشخصى ، ورأت فى ذلك تفرده واحتكاره لأمر الدين ، ونشأت من هنا جماعة من حساده كانت تتمنى زوال نعمته ، وتحاول النيل من شخصيته ، يقول ابن كثير :

« وكان للشيخ تقى الدين من الفقهاء جماعة يحسدونه لتقدمه عند الدولة وانفراده بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وطاعة الناس له ، ومحبتهم له ، وكثرة أتباعه وقيامه فى الحق، وعلمه وعمله »[1] .

رده على عقيدة وحدة الوجود :

وقد أثارت بعض الأحداث النقاش حول العقائد ، وانعقدت له مجالس عديدة ، وكان من أعظم ما فعله ابن تيمية أنه كان يرد مذهب الشيخ محيى الدين بن عربى فى وحدة الوجود بكل صراحة واعلان ، وقد كان له جماعة كبيرة من الأتباع والأنصار فى مصر والشام ، كما كانت طائفة كبيرة من العلماءوالمشايخ كانوا يعتبرونه عارفاً كبيراً ومحققاً جليلاً ، وامام مشرب « التوحيد » والشيخ الأكبر الذى لا يدانيه أحد فى ذلك العصر ، وكان يرى ابن تيمية أن تحقيقاته وإلهاماته تعارض تماماً تعاليم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتخالف تعليم التوحيد الذى جاء ه كل نبى فى عصره ، وقام بتفسيره الأخير واكماله نبينا محمد ﷺ ، والذى يستفاد بكل إيضاح من الكتاب والسنة وبلغنا بالتواتر اللفظى والمعنوى.

وكان الشيخ محيى الدين بن عربى قد توفى عام ٦٣٨ هـ (قبل ولادة ابن تيمية بثلاث وعشرين سنة) وكانت مؤلفاته متداولة بين الناس ، بخاصة « الفتوحات المكية » و «فصوص الحكم» اللذين نالا اعجاب الأوساط العلمية ، أما ابن تيمية فكان قد درس الفلسفة والتصوف والاشراق بتأمل ودقة ، ومن بين ما قرأ من الكتب كان هذان الكتابان أيضاً ، أنه يقتطف فى مؤلفاته عبارات من هذين الكتابين ويرد عليهما ، الأمر الذى يدل

---

(١) أيضاً ص ٣٧ .

على أن دراسته لمثل هذه الكتب كانت مباشرة وعميقة ، وكان قد توصل بها إلى نتيجة أن التوفيق بين ما جاء فى هذه الكتب من أفكار وآراء وبين تعاليم النبوة مستحيل ، أنه يقول وهو يتحدث عن مذهب الشيخ ابن عربى (١) :

« يقولون (ابن عربى وأتباعه) : أن الوجود واحد ، ويقولون : إن وجود المخلوق هو وجود الخالق ، لا يثبتون موجودين خلق أحدهما الآخر ، بل يقولون : الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق . . فأما الوجود فلا يتصور أن يكون فيه رب وعبد ، وخالق ومخلوق وداع ومجيب ، وإنما الوجود لما فاض على الأعيان فظهر فيها حصل التفرق من جهة الأعيان كتفرق النور فى الزجاج لاختلاف ألوانه ، ويقولون : إن عباد العجل ما عبدوا الا الله ، وأن موسى أنكر على هارون لكون هارون أنكر عليهم عبادة العجل ، وإن موسى كان بزعمهم من العارفين الذين يرون الحق فى كل شئ ، بل يرونه عين كل شئ وأن فرعون كان صادقاً فى قوله : ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ بل هو عين الحق (٢) .

وهم يعظمون فرعون ويقولون ما قاله صاحب الفصوص (ابن عربى) قال : ولما كان فرعون فى منصب التحكم صاحب الوقت وإن جاز فى العرف الناموسى ، لذلك قال : ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾ أى وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما فأنا الأعلى منهم بما أعطيته فى الظاهر من الحكم فيكم ، قال : ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه وأقروا له

---

(١) هو محمد بن على بن محمد الشيخ محيى الدين أبو بكر الحلقى الطائى الأندلسى المشهور بابن عربى ولد سنة ٥٦٠ هـ بمرسية بالأندلس وتوفى سنة ٦٣٨ هـ بدمشق ، اقرأ ترجمته فى «وفيات الأعيان» للذهبى وفى كتب التراجم والتاريخ .

ولا تزال شخصيته وآراؤه الشاذة موضع نزاع وخلاف من العهد القديم ، وحارت الأذهان فى تأويلها ، ويرجح بعض أهل العلم أن كثيراً من ذلك مدسوس عليه ، ومما لا شك فيه أنها موحشة وفتن بها كثير من الناس وتضرروا بها وشغل قسطاً من ذكائهم ووقتهم ، لو صرف فى محله لعاد على الإسلام والمسلمين بخير كثير ، ويعجبنى ما قاله العلامة شمس الدين الذهبى وهو يترجمه فى كتابه المشهور «ميزان الاعتدال » قال : فوالله لأن يعيش المسلم جاهلاً خلف البقر لا يعرف من العلم شيئاً سوى سورة من القرآن يصلى بها فى الصلوات ويؤمن بالله واليوم الآخر ، خير له بكثير من هذا العرفان وهذه الحقائق، ولو قرأ مائة كتاب وعمل مائة خلوة » (ج ٢ ، ص ٤٢٤) .

وقد حمل لواء المعارضة له وتصدى لنقده اثنان من أعلام هذه الأمة أحدهما شيخ الاسلام ابن تيمية من رجال القرن الثامن ، والثانى الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندى من رجال القرن الحادى عشر . كل بأسلوبه الخاص وفى ضوء تجاربه الشخصية ، ولهما موافقات والتقاءات لا تدل إلا على أن الحق واحد وعلى رسوخ قدمهما وعلو كعبهما فى العلوم الصحيحة والأذواق الصادقة . (المؤلف).

(٢) لرد الأقوم على ما فى كتاب فصوص الحكم ص ١١ .

بذلك وقالوا له : ﴿ اقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ قال : فصح قول فرعون ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ وان كان فرعون عين الحق .

ولهذا عاب ابن عربى نوحاً . . . وعظم قومه الكفار الذين عبدوا الأصنام ، وأنهم ما عبدوا الا الله وأن خطاياهم خطت بهم فغرقوا فى بحار العلم بالله [(١)].

يبدو أن الناس غالوا كثيراً فى الاعتقاد بوحدة الوجود فى عصر ابن تيمية ، حتى تخطوا حدود الشرع والعقل والأخلاق فى هذه العقيدة ، وحدثت « أزمة اعتقادية » فى هذا الموضوع ، أنه يقول :

« وقد ضل فى هذا جماعة ولهم معرفة بالكلام والفلسفة والتصوف المناسب لذلك كابن سبعين والصدر القونوى تلميذ ابن عربى والبليانى والتلمسانى وهو من حذاقهم علماً ومعرفة وكان يظهر المذهب بالفعل فيشرب الخمر ويأتى المحرمات .

وحدثنى الثقة أنه قرأ عليه فصوص الحكم لابن عربى وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين فلما قرأه رآه يخالف القرآن قال فقلت له هذا الكلام يخالف القرآن ، فقال القرآن كله شرك وإنما التوحيد فى كلامنا ، وكان يقول : ثبت عندنا فى الكشف ما يخالف صريح المعقول ، وحدثنى من كان معه ومع آخر نظير له فمرا على كلب أجرب ميت بالطريق عند دار الطعم فقال له رفيقه هذا أيضاً هو ذات الله ، فقال وهل ثم شئ خارج عنها نعم الجميع فى ذاته [(٢)]، وقيل لبعضهم « إذا كان الوجود واحداً فلم كانت الزوجة حلالاً والأم حراماً؟ فقال : الكل عندنا واحد ، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا : حرام ، فقلنا حرام عليكم [(٣)].

ولقد كتب شيخ الاسلام ابن تيمية رسالة مفصلة فى سنة ٧٠٤ هـ إلى الشيخ أبى الفتح المنبجى وذكر له فيها :

« لولا أنى أرى دفع ضرر هؤلاء عن أهل طريق الله تعالى السالكين إليه من أعظم الواجبات وهو شبيه بدفع التتار عن المؤمنين لم يكن للمؤمنين بالله تعالى ورسوله حاجة إلى أن يكشف أسرار الطريق ويهتك أستارها ، ولكن الشيخ أحسن الله تعالى اليه يعلم أن مقصوده الدعوة النبوية بل المقصود بخلق الخلق وانزال الكتب وإرسال الرسل أن يكون

---

(١) الفرقان بين الحق والباطل ص ١٤٧ - ١٤٩ .

(٢)الفرقان بين الحق والباطل ص ١٤٥ .

(٣) الرد الأقوم على فصوص الحكم ص ٤٢ .

الدين كله لله هو دعوة الخلائق إلى خالقهم ، وهؤلاء موهوا على السالكين التوحيد الذى أنزل الله تعالى به الكتب وبعث الرسل بالاتحاد الذى سموه توحيداً وحقيقته تعطيل الصانع وجحود الخالق ، وإنما كنت قديماً ممن يحسن الظن بابن عربى وتعظيمه لما رأيت فى كتبه من الفوائد مثل كلامه فى كثير من « الفتوحات » و « كنه الحكم المربوط » و « الدرة الفاخرة » و« مطالع النجوم » ونحو ذلك ، ولم نكن بعدُ قد اطلعنا على حقيقة مقصودة ، ولم نطالع الفصوص ونحوه ، وكنا نجتمع مع إخواننا فى الله نطلب الحق ونتبعه ونكشف حقيقة الطريق ، فلما تبين الأمر عرفنا نحن ما يجب علينا ، فلما قدم من المشرق مشايخ معتبرون وسألوا عن حقيقة الطريقة الاسلامية والدين الإسلامى وحقيقة حال هؤلاء ، فوجب البيان، وكذلك كتب الينا من أطراف الشام رجال سالكون أهل صدق وطلب أن أذكر النكت الجامعة لحقيقة مقصودهم والشيخ أيده الله تعالى بنور قلبه وذكاء نفسه وحق قصده من نصحه للإسلام وأهله ولإخوانه السالكين يفعل فى ذلك ما يرجو به رضوان الله سبحانه ومغفرته فى الدنيا والآخرة » .

وهو بعد ذلك يستعرض بشرح وتفصيل تلك العقائد والنظريات والمذاهب التى كانت شائعة حول الاتحاد والحلول بين الفرق المسيحية كاليعقوبية والنسطورية والملكانية وبين بعض الفرق التى كانت تنتسب إلى المسلمين كالروافض والجهمية ،كما أنه يشرح بتفصيل « الاتحاد المعين » و « الاتحاد المطلق » و « الحلول المعين » و « الحلول المطلق » ويذكر القائلين بذلك، مما يدل على سعة نظره واطلاعه على المذاهب السابقة ، ثم أنه يقوم بشرح مذهب ابن عربى بغاية من التحقيق والدقة والحيطة مما يدل على أنه كان قد درس كتبه « كالفتوحات » و « فصوص الحكم » بتأمل بالغ ، وكان قد أدرك مفتاح كلامه الذى سهل عليه فتح مغاليق علومه وحقائقه ، ومن ثم يتضح الفرق بينه وبين دعاة وحدة الوجود الآخرين ، وتنكشف حقيقة قول ابن عربى ، وهو عندما يتكلم عن جميع هذا يتصدى لشرح نتائجه والتزاماته الفاسدة ، ويمنحه حق الشك والاحتمال بغاية من الاخلاص والانشراح ، ويفرق بينه وبين الاتحاديين الآخرين ، يقول فى الرسالة نفسها :

« لكن ابن عربى أقربهم إلى الإسلام وأحسن كلاماً فى مواضع كثيرة ، فانه يفرق بين الظاهر والظاهر فيقر الأمر والنهى والشرائع على ما هى عليه ، ويأمر بالسلوك بكثير مما أمر به المشائخ من الأخلاق والعبادات ولهذا كثير من العباد يأخذون من كلامه سلوكهم فينتفعون بذلك وإن كانوا لا يفقهون حقائقه ، ومن فهمه منهم وفقه فقد تبين قوله »[1].

---

(١) جلاء العينين ص ٥٨ .

ويقول فى موضع آخر : « وهذه المعانى كلها هى قول صاحب الفصوص والله تعالى أعلم بما مات الرجل عليه ، والله يغفر لجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات ﴿ رَبنا أغفرْ لنَا ولإخْوانَنا الَّذِينَ سبَقُونَا بِالإيمَان وَلا تَجعَلُ فى قُلوبِنَا غَلا للِذينَ آمَنُوا رَبنَا إنَّكَ رَؤُوف رَحيمْ ﴾ [1].

ثم أنه يتحدث عن مذهب صدر الدين القونوى فيقول : هو أبعد عن الشريعة والإسلام. ويرد بعد ذلك على التلمسانى وابن سبعين رداً قوياً ، ولكنه يبغض التلمسانى بغضاً شديداً ، فلا يلبث أن تبعثه الحمية الدينية على أن يقول :

« وأما الفاجر[2] التلمسانى فهو أخبث القوم وأعمقهم فى الكفر فانه لا يفرق بين الوجود والثبوت كما يفرق ابن عربى ولا يفرق بين المطلق والمعين كما يفرق الرومى ولكن عنده ما ثم غيره ولا سوى بوجه من الوجوه وأن العبد إنما يشهد السوى ما دام محجوباً فاذا انكشف حجابه رأى أنه ما ثم غير يبين له الأمر ولهذا كان يستحل جميع الحرمات [3] » .

وفى الأخير يشير إلى نكتة مهمة ويقول : « متكلمة الجهمية لا يعبدون شيئاً ، ومتعبدة الجهمية يعبدون كل شئ ، وذلك لأن متكلمهم ليس فى قلبه تأله ولا تعبد ، فهو يصف ربه بصفات العدم والموات .

وأما المتعبد ففى قلبه تأله وتعبد ، والقلب لا يقصد الا موجوداً لا معدوماً فيحتاج أن يعبد المخلوقات ، أما الوجود المطلق وأما بعض المظاهر : كالشمس والقمر ، والبشر والأوثان ، وغير ذلك ، فان قول الاتحادية يجمع كل شرك فى العالم ، وهم لا يوحدون الله - سبحانه وتعالى - وإنما يوحدون القدر المشترك بينه وبين المخلوقات ، فهم بربهم يعدلون ، ولهذا حدثنى الثقة أن ابن سبعين كان يريد الذهاب إلى الهند ، وقال : ان أرض الإسلام لا تسعه ، لأن الهند مشركون[4] يعبدون كل شئ حتى النبات والحيوان [5].

وهذا حقيقة قول الاتحادية فاذا أخذوا يصفون الرب سبحانه بالكلام قالوا : ليس بكذا ليس بكذا ، ووصفوا بأنه ليس هو رب المخلوقات كما يقوله المسلمون لكن يجحدون

---

(١) سورة الحشر المصدر نفسه .

(٢) يعرف التلمسانى لدى أتباعه بالعفيف التلمسانى .

(٣) جلاء العينين ص ٥٨ .

(٤) سكان الهند الأصليون .

(٥) الإمام نفسه صرح بذلك فيمواضع كثيرة من مؤلفاته .

صفات الخالق التى جاءت بها الرسل عليهم السلام .

وإذا صار لأحدهم ذوق ووجد ، تأله وسلك طريق الاتحادية ، وقال : انه هو الموجودات كلها ، فاذا قيل له أين ذلك النفى من هذا الاثبات ؟ قال : ذلك وجدى وهذا ذوقى ، فيقال لهذا الضال : كل ذوق ووجد لا يطابق الاعتقاد فأحدهما أو كلاهما باطل ، وإنما الأذواق والمواجيد نتائج المعارف والاعتقادات فان علم القلب وحاله متلازمان ، فعلى قدر العلم والمعرفة يكون الوجد والمحبة والحال .

ولو سلك هؤلاء طريق الأنبياء عليهم السلام - الذين أمروا بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ووصفوه بما وصف به نفسه وبما وصفته به رسله ، واتبعوا طريق السابقين الأولين : لسلكوا طريق الهدى ووجدوا برد اليقين وقرة العين ، فان الأمر كما قال بعض الناس[1] ثم أن الرسل جاءوا باثبات مفصل ونفى مجمل ، والصابئة المعطلة جاءوا بنفى مفصل واثبات مجمل ، فالقرآن مملوء ، من قوله تعالى فى الاثبات ﴿ **ان الله بكل شئ عليم**﴾ ﴿ **وعلى كل شئ قدير** ﴾ ﴿ **وإنه سميع بصير** ﴾ ﴿ **وسع كل شئ رحمة وعلماً** ﴾ وفى النفى : ﴿ **ليس كمثله شئ** ﴾ ﴿ **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ ﴿ **هل تعلم له سمياً** ﴾ ﴿**سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين** ﴾ [2].

ويتحدث عن الفوضى الخلقية التى نشرتها هذه العقيدة واتخذها الفساق وأهل الهوس حجاباً لشهواتهم ، فيقول :

« ان دعاة هذه العقيدة يجمعون بين شهوات النفس والهوس وفساد الاعتقاد مما انتج فى بعض البلدان أن بعض الناس يصابون بهوى المردان ، ويقولون أنهم مظهر الله تعالى ومظهر جماله وبعضهم يقبلون المحبوب ويقولون له : أنت الله ، وبعضهم يعتدى على أولاده ويدعى الألوهية وما إلى ذلك .

ذلك هو الزمن الذى كان فيه الملك الناصر محمد بن قلاؤون ملكاً رمزاً ليس له من الأمر شئ ، كان الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكيرهو الذى يأمر وينهى ويتصرف فى المملكة تصرفاً مطلقاً ، وكان جاشكنير هذا من المعجبين بالشيخ نصر المنبجى الذى كان ممن يحب الشيخ ابن عربى حباً شديداً ، ولقد كان الشيخ نصر المنبجى لا يزال يطلع فى مصر على آراء الشيخ ابن تيمية فى ابن عربى التى كان يبديها حيناً لآخر كتابة وكلاماً ، ويكفى

---

(١) الامام نفسه صرح ذلك فى مواضع كثيرة من مؤلفاته .

(٢) الرد الأقوم على فصوص الحكم ص ٥٣ .

ذلك لاثارة سخطه على الشيخ ابن تيمية ، وكان جاشنكير ضعيف الثقافة شأن الأمراء الأتراك متمتعاً بتدبير الأمور العسكرية والادارية ولكنه كان متأثراً برأى شيخه ويرى ابن تيمية كما يراه شيخه .

أما الشام فكانت ولاية للمملكة المصرية ، وتابعة لها بالكلية ، فكان سلطانها يتمتع بامتيازات واسعة وله الحق أن يطلب أى شخص إلى البلاط يخشى منه أن يسبب ضرراً بالأمن العام أو يثير فتنة وخصاماً ، وكانت أهواء رجال البلاط أو الاتجاهات الشخصية تعمل فى مثل هذه المواقف بوجه عام ، وكان الوضع إذ ذاك أن الشيخ نصر المنبجى الذى كان يعظمه نائب السلطنة ويقتدى به كان يبغض ابن تيمية ، ويريد أن يحط من شأنه ويحبط مساعيه .

وعلى كل فقد وصل كتاب السلطان إلى ابن تيمية فى خامس رمضان عام ٧٠٥ هـ يطلبه إلى مصر ، وقد أقلق ذلك أصحابه وتلاميذه ، وأشار عليه نائب السلطنة – وكان من المعجبين به – بترك الذهاب إلى مصر ، وقال له : أنا أكاتب السلطان فى ذلك وأزيل الوحشة وألم الشعث ، ولكن الشيخ ابن تيمية امتنع عن ذلك وقال له : إن فى توجهه إلى مصر مصالح كثيرة فازدحم الناس لوداعه ورؤيته وشيعوه إلى بعض الطريق ، وهم فيما بين باك وحزين .

ودخل الشيخ غزة فى طريقه إلى مصر فعمل فى جامعها مجلساً عظيماً وألقى فيه درساً، ووصل إلى مصر فى ٢٢ من رمضان ، وعقد له مجلس بالقلعة يوم الجمعة بعد الصلاة حضره القضاة وأكابر الدولة ، وأراد أن يتكلم على عادته فلم يتمكن من البحث والكلام ، وانتدب له الشمس بن عدنان خصماً وأورد عليه بعض الحاضرين فى عقائده ومسائله(١) فسأله القاضى عن الجواب عليه ، فأخذ الشيخ فى حمد الله والثناء عليه فقيل له: أجب ، ما جئنا بك لتخطب فقال : ومن الحاكم فى ؟ فقيل له القاضى ابن مخلوف المالكى(٢) ، فقال له الشيخ : كيف تحكم فى وأنت خصمى ؟ فغضب غضباً شديداً وانزعج

---

(١) هذه العقائد والمسائل هى تلك البحوث الكلامية القديمة التى نوقشت فى دمشق مراراً وكان ابن تيمية قد ألف فى موضوعها رسائل وكتباً مستقلة ، مثلاً حقيقة « الاستواء على العرش » وحقيقة كلام الله، وبحث الحرف والصوت .

(٢) كان خصماً لابن تيمية ومن معارضيه فى مصر .

وأصدر حكمه عليه [1] وحبس فى برج أياماً ، ثم نقل منه ليلة العيد إلى الحبس المعروف بالجب . هو وأخوه شرف الدين عبد الله وزين الدين عبد الرحمن [2].

وفى ليلة عيد الفطر عام ٧٠٦ هـ أحضر الأمير سيف الدين سلار نائب مصر ، القضاة والفقهاء الذين تكلموا فى إخراج الشيخ ابن تيمية من الحبس فاشترط بعض الحاضرين عليه شروطاً بذلك ، منها أنه يلتزم الرجوع عن بعض العقيدة ، وأرسلوا اليه ليحضر ليتكلموا معه فى ذلك ، فامتنع من الحضور وصمم ، وتكررت الرسل اليه ست مرات فصمم على عدم الحضور ولم يلتفت إليهم ولم يعدهم شيئاً ، وكان جوابه دائماً ، « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى اليه »[3] .

ابن تيمية يتحدث عن سبب الخلاف ويوضح مذهبه :

ومن حسن الحظ أن رسالة مستقلة لابن تيمية صدرت جديداً حكى فيها عن مجلس النقاش الذى أقيم فى مصر للنظر فى قضيته ، وسرد بنفسه قصة الحبس والأسر ، ثم كلام الناس للإفراج عنه وإنكاره وايضاحه لمذهبه ، وهذه الرسالة تضئ كثيراً من الجوانب المهمة والأحوال الجديدة ، وهنا أقدم نتفاً من مقتطفاتها [4].

فجاء الفتاح (ذات يوم) فقال : يسلم عليك النائب ، وقال : إلى متى يكون المقام فى الحبس أما تخرج ؟ هل أنت مقيم على تلك الكلمة أم لا ؟

وعلمت أن الفتاح ليس فى استقلاله بالرسالة مصلحة ، لأمور لا تخفى ، فقلت له : سلم على النائب وقل له : أنا لا أدرى ما هذه الكلمة ؟ وإلى الساعة لم أدر على أى شئ حبست ؟ ولا علمت ذنبى ؟ وإن جواب هذه الرسالة لا يكون مع خدمتك ، بل يرسل من ثقاته الذين يفهمون ويصدقون أربعة أمراء ليكون الكلام معهم مضبوطاً عن الزيادة والنقصان، فأنا قد علمت ما وقع فى هذه القضية من الأكاذيب .

---

(١) وقد حدث الشيخ عن ما جرى له فى هذا المجلس فى رسالة له ، صدرت باسم « المحنة » حديثاً .

(٢) ابن كثير ج ١٤ ص ٣٨ .

(٣) ايضاً ص ٤٢ .

(٤) وجدت نسخة من هذه الرسالة فى المكتبة الظاهرية بدمشق بخط شقيقه ورفيقه فى السجن الشيخ شرف الدين بن تيمية ، وقد صدرت باسم « مجموعة علمية » تحتوى على بعض رسائل الشيخ ابن تيمية الأخرى كذلك ، اهتم بطبعها وإخراجها فضيلة الشيخ عبد الرازق حمزة امام الحرم المكى سابقاً. وفضيلة الشيخ محمد نصيف (رحمه الله) .

فجاء بعد ذلك الفتاح ، ومعه شخص ما عرفته ، لكن ذكر لى أنه يقال علاء الدين الطيبرسى ورأيت الذين عرفوه أثنوا عليه بعد ذلك خيراً ، وذكروه بالحسنى ، لكنه لم يقل ابتداء من الكلام ما يحتمل الجواب بالحسنى ، فلم يقل : الكلمة التى أنكرت ! كيت وكيت ولا أستفهم ! هل أنت مجيب إلى كيت وكيت ؟ ولو قال ما قال من الكذب علىَّ والكفر والمجادلة على الوجه الذى يقتضى الجواب بالحسنى لفعلت ذلك ، فان الناس يعلمون أنى من أطول الناس روحاً وصبراً على مر الكلام وأعظم الناس عدلا فى المخاطبة لأقل الناس ، دع ولاة الأمور ، لكنه جاء مجئ المكره على أن أوافق إلى ما دعاه اليه ، أخرج درجاً فيه من الكذب والظلم ، والدعاء إلى معصية الله والنهى عن طاعته ما الله به عليم ، وجعلت كما أردت أن أجيبه وأحمله رسائل يبلغها : لا يريد أن يسمع شيئا من ذلك ويبلغه ، بل لا يريد إلا مضمونه الاقرار بما ذكر ، والتزام عدم العودة اليه ، والله تعالى يقول : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾ فمتى ظلم المخاطب لم نكن مأمورين أن نجيبه بالتى هى أحسن .

فقلت له فى ضمن الكلام : الحق فى هذه القضية ليس لى ، لكن لله ورسوله ولسائر المسلمين من شرق الأرض إلى غربها ، وأنا لا (استطيع) تبديل الدين وتغييره ، وليس لأجلك أو أجل غيرك ارتد عن دين الاسلام ، وأقر بالكفر والكذب والبهتان ، راجعاً عنه أو موافقاً عليه .

لما رأيته يلح فى الأمر بذلك ، أغلظت عليه فى الكلام وقلت ، دع هذا الفشار ، وقم رح فى شغلك ، فأنا ما طلبت منكم أن تخرجونى ، وكانوا قد أغلقوا الباب القائم الذى يدخل منه إلى الباب المطبق ، فقلت أنا : افتحوا لى الباب حتى أنزل ، يعنى فرغ الكلام .

وقلت له : أنا لم يصدر منى قط إلا جواب مسائل ، افتاء مستفت ، ما كاتبت أحداً ابتداء ، ولا خاطبته فى شئ من هذا ، بل يجئ الرجل المسترشد المستفتى عما أنزل الله على رسوله ، فيسألنى مرة بعد مرة ، وهو متحرق على طلب الهدى ، أفيسعنى فى دينى أن أكتمه العلم ؟ وقد قال النبى ﷺ : « من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » وقد قال الله تعالى : ﴿ ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ أفعلى أمرك أستنع من جواب المسترشد لأكون كذلك وهل يأمرنى بهذا السلطان أو غيره من المسلمين ، ولكن أنتم ما كان قصودكم إلا دفع أمر الملك لما بلغتكم من الأكاذيب .

فقال يا مولانا دع أمر الملك : أحد ما يتكلم فى الملك ؟ فقلت : ايه ، الساعة ما بقى

أحد يتكلم فى الملك ، وهل قامت هذه الفتنة إلا لأجل ذلك ؟ نحن سمعنا بهذا ونحن بالشام : إن المثير لها تهمة الملك ، لكن ما اعتقدنا أن أحداً يصدق هذا .

وذكرت له أن هذه القضية ليس ضررها على ، فانى أنا من أى شئ أخاف ؟ ان قتلت كنت من أفضل الشهداء وكان ذلك سعادة فى حقى يترضى بها على إلى يوم القيامة ويلعن الساعى فى ذلك إلى يوم القيامة فان جميع أمة محمد يعلمون أنى أقتل على الحق الذى بعث الله به رسوله ، وان حبست : فوالله ان حبسى لمن أعظم نعم الله علىّ ، وليس لى ما اخاف الناس عليه ، ولا مدرسة ولا اقطاع ، ولا مال ، ولا رئاسة ، ولا شئ من الأشياء ، ولكن هذه القضية ضررها يعود عليكم ، فان الذين سعوا فيها من الشام ، أنا أعلم أن قصدهم فيها كيدكم وفساد ملتكم ودولتكم وقد ذهب بعضهم إلى بلاد التتر وبعضهم مقيم هناك فهم الذى قصدوا إفساد دينكم ودنياكم وجعلونى أنا ما نستر لعلمكم بأنى أواليكم وأنصح لكم وأريد لكم خير الدنيا والآخرة والقضية لها أسرار كلما جاءت تنكشف وإلا فأنا لم يكن بينى وبين أحد بمصر عداوة ولا بغضاء وما زلت محبا لها ، موالياً لهم ، أمراءهم ومشايخهم وقضاتهم .

فقال لى : فما الذى أقوله لنائب السلطان .

فقلت : سلم عليه ، وبلغه كل ما سمعت .

فقال : هذا كثير .

فقلت : ملخصه أن الذى فى هذا الدرج أكثره كذب ، وأما هذه الكلمة «استوى حقيقة» (يعنى قلتها حقاً) .

فهذه قد ذكر واحد من علماء الطوائف المالكية وغير المالكية : أنه أجمع عليها أهل السُّنَّة والجماعة وما أنكر ذلك أحد من سلف الأمة ولا أئمتها بل ما علمت عالماً أنكر ذلك، فكيف أترك ما أجمع عليه أهل السُّنَّة ولم ينكره أحد من العلماء .

قال أبو عمر بن عبد البر : أهل السُّنَّة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها فى القرآن والسنة ، والايمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز إلا أنهم لا يكيفون شيئا من ذلك ولا يجدون فيه صفة محصورة وأما أهل البدع الجهمية والمعتزلة كلها ، والخوارج فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة ويزعمون أن من أقربها مشبه وهم عند من أقر بها نافون للمعبود ، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله ، وهم أئمة الجماعة .

وقال الشيخ العارف أبو محمد عبد القادر بن صالح الكيلانى فى كتاب « الغنية » وهو بجهة العلو ، مستو على العرش محتو على الملك ، محيط عليه بالأشياء .

قال : ولا يجوز وصفه بأنه فى كل مكان ، بل يقال : أنه فى السماء على العرش كما قال ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ذكر الآيات والأحاديث ، إلى أن قال : وينبغى إطلاق صفة الإستواء ، من غير تأويل ، وأنه استواء الذات على العرش [1]، فلو كان الذى حكم به ابن مخلوف وهو مذهب مالك أو الأشعرى : لم يكن له أن يلزم جميع الناس به ويعاب من لم يوافقه عليه باتفاق الأمة ، فكيف والقول الذى يقوله ويلزم به هو خلاف نص مالك وأئمة أصحابه ، وخلاف نص الأشعرى وأئمة أصحابه كالقاضى أبو بكر ، وأبى الحسن الطبرى ، وأبو بكر بن فورك ، وأبى القاسم القشيرى ، وأبى بكر البيهقى وغير هؤلاء ، وكلهم مصرحون بمثل ما قلناه وبنقيض ما قاله ! ولهذا اصطلحت الحنبلية والأشعرية واتفق الناس كلهم ، لما رأى الحنابلة كلام أبى الحسن الأشعرى قالوا : هذا خير من كلام الشيخ الموفق ، وزال ما كان فى القلوب من الأضغان ، وصار الفقهاء من الشافعية وغيرهم يقولون : الحمد لله على اتفاق كلمة المسلمين .

فقال لى : نعم هو مستو على العرش حقيقة بذاته بلا تكييف ولا تشبيه ؟ قلت : نعم، وهكذا هو العقيدة ، فقال : فاكتب هذه الساعة وقال : التزمه أو نحو هذا .

فقلت : هذا هو مكتوب بهذا اللفظ فى العقيدة التى عندكم التى بحثت بدمشق واتفق عليها المسلمون فأى شئ هو الذى أزيده ؟قلت له : أنا أحضرت أكثر من خمسين كتابا من كتب أهل الحديث والتصوف والمتكلمين والفقهاء الأربعة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، يوافق ما قلته .

قلت : أنا أمهل من خالفنى ثلاث سنين أن يجئ بحرف واحد عن أئمة الإسلام يخالف ما قلته ، فما الذى أصنعه ؟ فلما خرج الطيبرسى والفتاح عاد الفتاح بعد ساعة ، فقال : يسلم عليك نائب السلطان وقال فاكتب لنا الآن عقيدة بخطك .

فقلت : سلم على نائب السلطان ، وقل له : لو كتبت الساعة شيئا لقال القائل :

قد زاد ونقص أو غير الاعتقاد ، وهكذا بدمشق لما طلبوا الاعتقاد لم آتهم الا بشئ قد كتب متقدماً .

---

(١) لقد تصدى الشيخ فى هذه المناسبة بذكر كثير من آراء أكابر العلماء للمذاهب الأربعة نكتفى هنا بذكر هذين الرأيين فقط .

قلت وهذا الاعتقاد هو الذى قرئ بالشام فى المجالس الثلاثة ، قد أرسله إليكم نائبكم مع البريد والجميع عندكم ، ثم أرسل اليكم مع العمرى ثانياً لما جاء الكتاب الثانى ما قاله القضاة والعلماء والمحضر وكتاب البخارى الذى قرأه المزى ، والاعتقاد ليس هو شيئاً ابتدعه من عندى ، حتى يكون كل يوم لى اعتقاد ، وذلك الاعتقاد بعينه ، والنسخة بعينها ، فانظروا فيها .

فراح ، ثم عاد وطلب أن أكتب بخطى أى شئ كان .

فقلت : فما الذى أكتبه ؟ قال : مثل العفو ، وألا تتعرض لأحد .

فقلت : نعم هذا أنا مجيب إليه ، ليس غرضى فى ايذاء أحد ، ولا الانتقام منه لا مؤاخذته وأنا عاف عمن ظلمنى وأردت أن أكتب هذا ، ثم قلت : مثل هذا ما جرت العادة بكتابته فان عفو الإنسان عن حقه لا يحتاج إلى هذا .

فينبغى أن يعرف الشيخ نصر بحقيقة الأمر وباطن القضية ليطبها بتدبيره ، فأنا ليس مرادى إلا فى طاعة الله ورسوله وما يخافه على جميع المصريين إلا من بعضهم فى بعض كما جرت به العادة ، قد سمعتم ما جرى بدمشق مع أن أولئك أقرب إلى الاتفاق من تجديد القاضى المذكور إسلامه عند القاضى الآخر ، وأنا لما كنت هناك كان هذا الأذرعى الحنفى قد ذهب إلى القاضى تقى الدين الحنبلى وجدد إسلامه وحكم بحقن دمه لما قام عليه بعض أصحابهم فى أشياء ، وكان من مدة لما كان القاضى حسام الدين الحنفى مباشراً لقضاء الشام أراد أن يحلق لحية هذا الأذرعى أحضر الموسى والحمار ليركبه ويطوف به فجاء أخوه عرّفنى ذلك فقمت إليه لم أزل به حتى كف عن ذلك ، وجرت أمور لم أزل له فيها محسناً إليهم ، وهذه أمور ليست من فعلى ولا فعل أمثالى نحن إنما ندخل فيما يحبه الله ورسوله والمؤمنون ، ليس لنا غرض من أحد بل نجزى بالسيئة الحسنة ونعفو ونغفر .

وهذه القضية قد انتشرت وظهر ما فعل فيها وعلمه الخاص والعام فلو تغيرت الأحوال حتى جاء أمير أو وزير له فى نقل ملك قد أثبته أو حكم به لكان هذا عند المصريين من أسهل ما يكون فيثبتون ردته والمرتد أحكامه مردودة باتفاق العلماء ويعود ضرره على الذين أعانوه ونصروه بالباطل من أهل الدولة وغيرهم ، وهذا أمر كبير لا ينبغى إهماله فالشيخ خبير يعرف عواقب الأمور .

وأنا والله من أعظم الناس معاونة على اطفاء كل شر فيها وفى غيرها ، واقامة لكل خير.

وابن مخلوف ولو عمل مهما عمل والله مـا أقدر على خير إلا وأعمله معه ، ولا أعين عليه عدوه قط ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هذه نيتى وعزمى مع علمى بجميع الأمور فانى أعلم أن الشـيطان ينزع بين المؤمنين ولن أكون عـوناً للشيطان على إخـوانى المسلمين ، ولو كنت خـارجاً لكنت أعلم بماذا أعـاونه ، لكن هذه قد جـعلوها مـسألة دور ، والله يخـير للمسلمين جميعهم ما فيه الخيرة فى دينهم ودنياهم .

ولن ينقطع الدور وتزول الحيرة إلا بالانابة إلى الله والاستغفار والتوبة وصدق الالتجاء ، فانه سبحانه لا ملجأ منه إلا إليه ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أما ما يتعلق بالاسـتغاثة بالنبى ﷺ فان المسلمين متفقـون على ما علموه بالاضطرار من دين الإسلام أن العـبد لا يجوز له أن يعبـد ، ولا يدعو ، ولا يستغـيث ، ولا يتوكل إلا على الله ، وأن من عبـد ملكا مقرباً ، أو نبـياً مرسلا ، أو دعـاه ، أو استغاث به : فـهو مشرك فلا يجوز عند أحد من المسلمين أن يقـول القائل : يا جبرائيل ، أو يا ميكائيل ، أو يا ابراهيم ، ءو يا مـوسى ، أو يا رسـول الله ، اغفـر لى ، أو ارحـمنى أو ارزقنى ، أو انصرنى ، أو أغثنى ، أو أجـرنى من عدوى ، أو نحو ذلك ، بل هذا كله من خـصائص الألوهية ، وهذه مسائل شريفة معروفة قد بينها العلماء .

وأنت لما ذكـرت لى ذلك اليوم هذا ، قلت لك : هذا من أصـول الإسلام ، فـاذا كان القاضى لا يفـرق بين دين الإسلام ودين النصـارى الذين يدعون المسيح وأمـه فكيف أصنع أنا؟ ولكن من يتخذ نفيسة [1] ربا ، ويقول أنها تجيـر الخائف ، وتغيث الملهوف ، وأنه فى حسـبهـا ، ويسجـد لها ، ويتضـرع فى دعائهـا ، مثل مـا يتضـرع فى دعاء رب الأرض والسماوات ، ويتوكل على من قد مات ، ولا يتوكل على الحى الذى لا يموت ، فلا ريب أن إشراكه بمن هو أفضل منهـا يكون أقوى قال تعالى : ﴿ قل من بيـده ملكوت كل شئ ، وهو يجير ولا يجـار عليـه إن كنتم تعلمون ؟ ، سـيقولون لله قل فـأنى تسحـرون ؟ ﴾ ، وحديث معاذ لما رجع من الشام فسجد للنبى ﷺ فقال : « ما هذا يا معاذ : فقال : رأيتهم فى الشام يسجدون لأساقفهم ، ويذكـرون ذلك عن أنبيائهم ، فقال : يا معاذ ، أرأيت لو مررت بقبـرى أكنت ساجداً له قال : لا ، قـال : فلا تسجد لى ، فلو كـنت آمر أحداً أن يسجد لأحـد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجـها » فمن لا ينهى الضالين من مـثل هذا الشرك المحرم بإجماع المسلمين كيف ينهى عما هو أقل منه ؟ ومن دعا رجلاً أو امرأة من دون الله ،

---

(١) السيدة نفيسة من أهل بيت الرسول ﷺ وقبرها معروف بالقاهرة يعظمه العامة .

نهر مضاه لمن اتخذ المسيح وأمه إلهين من دون الله ، وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله . بل من سوغ أن يدعى المخلوق ومنع دعاء الخالق الذى فيه تحقيق صمديته، وإلهيته، فقد ناقض الإسلام فى النفى والإثبات وهو شهادة أن لا إله إلا الله » .

وأما حقوق رسول الله ﷺ - بأبى هو وأمى - مثل تقديم محبته على النفس والأهل والمال ، وتعزيزه وتوقيره ، وإجلاله وطاعته ، واتباع سنته ، وغير ذلك فعظيمة جداً ، وكذلك ما يشرع التوسل به فى الدعاء كما فى الحديث الذى رواه الترمذى وصححه : أن النبي ﷺ علم شخصاً أن يقول : « اللهم إنى أسألك وأتوسل اليك بنبيك محمد نبى الرحمة ، يا محمد يا رسول الله إنى أتوسل بك إلى ربى فى حاجة لتقضيها اللهم فشفعه فى » فهذا التوسل به حسن ، وأما دعاؤه والاستغاثة به حرام .

وأنا قد صنفت كتاباً كبيراً سميته « الصارم المسلول على شاتم الرسول » وذكرت فيه فى هذه المسألة ما لم أعرف أحداً سبق إليه ، وكذلك هذه القواعد الإيمانية ، قد كتبت فيها فصولا هى من أنفع الأشياء فى أمر الدين .

ومما ينبغى أن يعرف به الشيخ أنى أخاف أن القضية تخرج عن أمره بالكلية ويكون فيها ما فيه ضرر عليه ، وعلى ابن مخلوف ونحوهما ، فانه قد طلب منه ما يجعل سبباً لذلك، ولم أجب إليه ، فإنى إنما أنا لون واحد والله ما غششتهما قط ، ولو غششتهما كتمت ذلك وأنا ساعد لهما على كل بر وتقوى . وتعرفه ، أن الأصل الذى تصلح عليه الأمور : «رجوع كل شخص إلى الله ، وتوبته إليه فى هذا العشر المبارك ، فاذا حسنت السرائر أصلح الله الظواهر ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »[1] .

قيامه بالاصلاح والتعليم فى السجن وتأثير ذلك :

يتحدث الشيخ مرعى بن يوسف الكرمى صاحب « الكواكب الدرية » عن معاصر الشيخ ابن تيمية وزميله فى الدراسة الشيخ علم الدين البرزالى ، يقول :

« ولما دخل الحبس وجد المحابيس مشغولين بأنواع من اللعب يلتهون بها عما هم فيه كالشطرنج والنرد مع تضييع للصلوات ، فأنكر الشيخ ذلك عليهم وأمرهم بملازمة الصلاة والتوجه إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة والتسبيح والاستغفار والدعاء ، وعلمهم من السنّة

---

(١) مجموعة علمية ص ٦٥ .

ما يحتاجون إليه ، ورغبهم فى أعمال الخير وحضهم على ذلك ، حتى صار الحبس بالاشتغال بالعلم والدين خيراً من كثير من الزوايا والربط والخوانق والمدارس ، وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الإقامة عنده »[1] .

وفى ١٤ / صفر سنة ٧٠٧ هـ بعد أربعة أشهر استؤنفت جهود للافراج عنه ، ولقيه قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة نفسه وتكلم معه فى الموضوع طويلاً ولكنه لم يرض بالخروج من السجن ، وأخيراً فى ٢٣/ ربيع الأول ذهب إليه الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى ملك العرب[2] فى السجن وناشده الله وجاء به إلى منزل نائب السلطنة ، وكان الأمير حسام الدين يريد أن يذهب به إلى دمشق ولكن النائب أشار عليه بالاقامة فى مصر لمدة حتى يعرف الناس بمكانته العلمية والدينية ، ويتمكنوا من الاستفادة منه .

سمو أخلاق ابن تيمية :

وتجلى سمو أخلاق ابن تيمية فى هذه الفترة أكثر مما كان عليه ، فانه لم يطأطئ رأسه أمام أى قوة ، ولا راودته رغبة دنيوية أو منفعة مالية ، إنه رفض بصراحة أن يقبل أى خلعة سلطانية أو عطايا ملوكية .

وكانت مأثرته الأخرى أنه عفا عن جميع من حاولوا ايذاءه أو عارضوه فور خروجه من السجن من غير استثناء وتلكؤ ، وأعلن مدوياً أنه لا مؤاخذة ولا عتاب على أحد ، يقول فى رسالته التى وجهها إلى الشام بعد الإفراج عنه :

« تعلمون رضى الله عنكم أنى لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين فضلاً عن أصحابنا بشئ أصلاً لا ظاهرا أو باطنا ، ولا عندى عتب على أحد منهم ولا لوم أصلاً بل لهم عندى من الكرامة والإجلال والمحبة أضعاف ما كان ، كل بحسبه ، ولا يخلو الرجل اما أن يكون مجتهداً أو مخطئاً أو مذنباً فالأول مأجور مشكور والثانى مع أجره على الاجتهاد معفو عنه والثالث فالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين ، لا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه علىّ أو ظلمه وعدوانه ، فإنى قد أحللت كل مسلم وأنا أحب الخير لكل

---

(١) الكواكب الدرية ص ١٨١ .

(٢) كان الأمير حسام الدين أحد أفراد أسرة الأمراء العرب ، ومن سراة الشام ورؤسائها الأقوياء وكان أكثر اطلاعاً على مآثر ابن تيمية وجهوده الاصلاحية بالنسبة إلى المصريين ، وقد بذل اهتمامه بصفة خاصة فى الإفراج عنه وتأثر ابن تيمية باخلاصه ، وعلو نسبه وحبه للحرية فقبل اقتراحه ورضى بالخروج من السجن .

المسلمين وأريد لكل مؤمن من الخير مـا أريده لنفسى والذين كذبوا وظلموا هم فى حل من جهتى »[(١)] .

التدريس والإفادة :

اشتغل ابن تيمية بعد خروجـه من السجن بالتدريس والإفادة ، ولم يكن الجو فى مصر ملائماً له بعد ، وكان العلماء والقضاة قد أذاعوا عنه فى الناس أنواعاً عديدة من سوء الظن فقد كـانت جماعـة الصوفية - التى كـانت تتسم بالتوحيـد الوجودى - مسيـئة الظن به ، ومتـألمة منه ، ولم تكن هناك شـخصيـة قوية تمثل المذهب الحنبلى وحـده من بين المذاهب الأربعة ، كمـا تمثل عقيدة السلف من بـين العقائد[(٢)]، بينما وجد كبـار العلماء والقضاة للمذاهب الأخرى هناك ، وعلى ذلك فـقد عزم ابن تيمية على الإقامـة فى مصر لمدة يقوم فيها بالقاء الدروس والافادة العامة ، وابتدأت دروسـه ومجالسه منظمة وغير منظمة ، وقد ألقى عـدة دروس عن القضـايا العلميـة والكلاميـة الخالصـة فى مدارس القـاهرة الشهـيرة وبخاصة فى الصالحية ، استفاد منها الخاصة واطلعوا على أفكار وعقائد الأصيلة .

استمرت هذه الدروس والمجالس إلى ستة أشهر اسـتفاد منها العامة والخاصة كلهم فوائد علميـة ودينية ، وشـغف الناس بوجه عـام باخلاصه وذكـائه النادر وعقله الكبـير ونبـوغه العلمى.

رسالة ابن تيمية إلى أمه :

لقد كان قدوم ابن تيمية إلى مـصر على غفلة منه ، وما كان يعرف أنه يمكث هناك هذه المدة الطويلة وكانت أمه وأسرته كلها فى الشام تنتظر عودته بسلامة ، ولما أراد ابن تيمية أن يقضى بعض المدة فى مصـر أخبر أمه بهذه النـية ، واستأذنها فى ذلك برسـالة تحتوى على عواطف لطيفـة ، وحب برئ ، وبر مع الأم ، وطموح ورجولة وعزم ، كـما أن أسلوبها سهل مطبوع ، وهى جديرة بأن أنقل جميعها إلى القراء الكرام :

« من أحمد ابن تيمية إلى الوالدة السعيدة أقر الله عينيها بنعمة وأسبغ عليها جزيل كرمه وجعلها من إمائه وخدمه .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

---

(١) ابن تيمية (محمد أبو زهرة) ص ١٦٢ .

(٢) كان القاضى الحنبلى آنذاك قليل العلم ومحدود الذكاء ، فكان الحنابلة ضعيفى الجانب لذلك .

انا نحمد اليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل ، وهو على كل شئ قدير ، ونسأله أن يصلى على خاتم النبيين وإمام المتقين محمد عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وسلم تسليماً .

كتابى اليكم عن نعم من الله عظيمة ، ومنن كريمة وآلاء جسيمة نشكر الله عليها ، ونسأله المزيد من فضله ، ونعم الله كلما جاءت فى نمو وازدياد ، وأياديه جلت عن التعداد، وتعلمون أن مقامنا الساعة فى هذه البلاد إنما هو لأمور ضرورية متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا ولسنا والله مختارين للبعد عنكم ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم ، ولكن الغائب عذره معه وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور فانكم - ولله الحمد ٩ ما تختارون الساعة إلا ذلك ، ولم نعزم على المقام والاستيطان شهراً واحداً بل كل يوم نستخير الله ولكم ، وادعوا لنا بالخيرة فنسأل الله العظيم أن يخير لنا وللمسلمين ما فيه الخيرة فى خير وعافية .

وقد فتح الله من أبواب الخير ، والرحمة والهداية والبركة ما لم يكن يخطر بالبال ولا يدور فى الخيال ، ونحن فى كل وقت مهمومون بالسفر مستخيرين الله سبحانه وتعالى فلا يظن الظان أنَّا نؤثر على قربكم شيئاً من أمور الدنيا قط ، بل لا نؤثر من أمور الدين ما يكون قربكم أرجح منه ولكن ثم أمور كبار نخاف ضرر الخاص والعام من إهمالها ، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، والمطلوب كثرة الدعاء بالخيرة فان الله يعلم ولا نعلم ، ويقدر ولا نقدر وهو علاَّم الغيوب ، وقال النبى ﷺ من سعادة ابن آدم استخارته الله ورضاه بما يقسم الله له ، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته الله وسخطه بما يقسم الله له ، والتاجر يكون مسافراً ويخاف ضياع ماله فيحتاج أن يقيم حتى يستوفيه وما نحن فيه أمر يجل عن الوصف ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته كثيراً كثيراً ، وعلى سائر من فى البيت من الكبار والصغار والأهل والأصحاب واحداً واحداً ، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

اعتقال ابن تيمية مرة أخرى :

لقد كانت مصر مركزاً مستقلا لعقيدة وحدة الوجود ونظرتها ، ويبدو أن الشاعر المتصوف الشهير ابن الفارض الذى توفى عام ٦٣٢ هـ كان من أصحاب هذا « المشرب » وفى شعره اشارات يستدل منها على هذا الاتجاه ، وكان ابن تيمية يرد على هذه العقيدة جهاراً ، ويعترض على هذه الأقوال والأعمال فى دروسه ومجالسه ، التى كان يعتبرها فيما يرى ضد الكتاب والسنة ومن زيادات المتأخرين من الصوفية ، إنه يذكر فى مواضع كثيرة

من كتبه ومؤلفاته المحققين من الصوفية والراسخين منهم أمثال الإمام عبد القادر الجيلانى والشيخ عدى ابن مسافر الأموى فى غاية من الاحترام والتأدب ، ولكنه لا يتلكأ فى انتقاد معاصريه من المتصوفين والمشايخ ، الذين كانوا معجبين فيما يعتقد بفلسفة اليونان وفلسفة الإشراق لمصر والهند .

وكان من الطبيعى أن تثير انتقاداته هذه استنكاراً فى أوساط التصوف ، ونهض شيخ الطريقة فى مصر المعروف بابن عطاء الله الاسكندرى (صاحب الحكم) واشتكى إلى الحكام ضد ابن تيمية نيابة عن جماعة الصوفية ، كما ذهبت طائفة من الصوفية إلى القلعة تشكو ابن تيمية ، فلما سمع السلطان بهذه الشكاوى أمر بعقد المجلس فى دار العدل ، وتحقيق هذا الأمر ، وحضر ابن تيمية فى المجلس وتولى قضيته بنفسه ، وأسكت الناس بدلائله وقوة كلامه ، وأمسك السلطان عن إصدار أى مرسوم ضده .

غير أن الثورة التى قامت عليه لم تنته ، وكان من بين ما اتهم به أنه يعلن جهاراً أنه لا يستغاث إلا بالله ، وحتى لا تصح الاستغاثة بالنبى ﷺ ، ولما عرضت هذه الشكاة قال بعض العلماء : ليس عليه فى هذا شئ ، ورأى قاضى القضاة أن هذا فيه قلة أدب ، أما أن يؤدى هذا إلى الكفر ، فلم يقل به أحد ، ولذلك لم يعد للشكوى أى أثر .

ولكن الحكومة تضجرت من هذه الاثارات والشكاوى التى استمرت فى غير انقطاع فخيرت ابن تيمية بين ثلاثة أمور ، إما أن يسير إلى دمشق ، أو يقيم فى الاسكندرية بشروط[1] يستوفيها أو يختار الحبس ، فاختار الحبس فألح عليه جماعة من تلاميذه وانصاره أن يسافر إلى دمشق فأجابهم جبراً لخواطرهم وتوجه إليها ليلة ١٨ من شوال سنة ٧٠٧ هـ ، ولكنه رد فى نفس اليوم إلى مصر وقيل له أن الدولة ما ترضى إلا بالحبس غير أن القضاة والعلماء كانوا مرتبكين فى حبسه إذ لم يثبت عليه شئ ، وقد صاح القاضى المالكى شمس الدين التونسى وقال : لم يثبت عليه شئ يبرر حبسه ، وكان نور الدين المالكى متردداً فى هذا الأمر فسكت ، ولما رأى الشيخ ابن تيمية صراع العلماء والقضاة الفكرى حكم لنفسه بالحبس ، فقال نور الدين الزواوى : يكون فى موضع يصلح لمثله ، فقيل له : الدولة ما ترضى إلا مسعى الحبس ، فأرسل إلى حبس القضاة ، وأذن له أن يكون عنده من يخدمه .

واستمر الشيخ ابن تيمية فى الحبس يستفتى ، ويقصده الناس ويزورونه وتأتيه الفتاوى

---

(١) ولعل من أهم الشروط : ألا يدعو الناس إلى اعتناق معتقداته بوجه عام .

المشكلة التى لا يستطيعها الفقهاء من الأمراء وأعيان الناس فيكتب عليها بما يحير العقول من الكتاب والسنة .

وبعد مدة عقد مجلس للشيخ فى الصالحية ، وأفرج عنه نزولاً على رغبة الفقهاء والقضاة ، فاستقبله الناس بحماس وحرارة ، وأكبوا على الاجتماع به ليلاً ونهاراً (١) .

التطورات السياسية ، وابن تيمية يواجه الشدائد :

فوجئت مصر بتطورات وتغييرات سياسية أحدثت لابن تيمية مشكلات جديدة ، وانتهز المعارضون هذه الفرصة للتآمر عليه ، بحرية تامة ، وكان ناصر بن قلاؤون لا يزال سلطان مصر والشام ، وهو الذى كان معجباً بعلمه واخلاصه يعطف عليه ، فان ابن تيمية هو الذى كان قد حمله على مقاومة التتر ، فكان قد شاهد بنفسه شجاعته ، وقوة إيمانه واستقامته ، وفى سنه ٧٠٨ هـ اعتزل السلطان السلطنة لأسباب كثيرة بعثت فيها التشاؤم ، واقتنع بالاقامة فى كرك ورقعة مملكته المحدودة فيها .

تخلى عن عرش مصر لركن الدين بيبرس الجاشنكير ، فأعلن بسلطته المستقلة ، ومن ثم أصبح ركن الدين الحاكم المستقل لمصر والشام وصار الشيخ نصر المنبجى المربى الروحى لهذه المملكة الكبيرة ومستشارها الخاص ، أما ابن تيمية فكان يعتبر من أنصار السلطان ناصر بن قلاؤون عدا ما اشتهر به من عقائد وتحقيقات دينية تضاد اتجاهات الشيخ نصر المنبجى تماماً، ولذلك فقد اجتمعت العوامل الدينية والسياسية لتنفيذ الأحكام ضده .

وفور هذا التغيير الذى حدث فى سياسة الدولة صدر مرسوم ملكى لنفى ابن تيمية إلى الإسكندرية وحبسه هناك ، فقد أرسل إلى الاسكندرية فى اليوم الأخير من صفر سنة ٧٠٩هـ ويقال : إن الغرض من توجيهه إلى هذه المدينة الجديدة التى كانت تعتبر مركز التصوف والصوفية القديم ، أن يتصدى له بعض من يغتاله ، وتنجو الدولة من هذا الصداع المتكرر من غير اتهام أو سوء سمعة .

ولكن سرعان ما اجتمع لديه حلقة من تلاميذه والمعجبين به ، وتزايد إقبال العامة عليه، فلم يؤثر الصمت والتعطيل ، على الكلام والعمل ، وشغله نشر تعاليم الكتاب والسنة ، والرد على البدع والمنكرات عن كل شئ ، وبدأ الناس يحبونه ويكرمونه حتى أحرز قبولاً عاماً بينهم ، يقول شقيقه شرف الدين بن تيمية الذى كان رفيقه ومشاركه فى الحبس فى

---

(١) اقرأ التفاصيل فى البداية والنهاية ج ١٤ ص ٤٦ .

رسالة بعث بها إلى أهل دمشق :

وانقلب أهل الثغر أجمعون إلى الأخ مقبلين عليه مكرمين له ، وفى كل وقت ينشر من كتاب الله وسُنَّة رسوله ما تقر به عين المؤمنين ، وذلك شجى فى حلوق الأعداء . . . واستقر عند عامة المؤمنين وخواصهم من أمير وقاض وفقيه ومفت وشيخ وجماعة المجتهدين إلا من شذ من الأغمار الجهال مع الذلة والصغار ، محبة الشيخ وتعظيمه وقبول كلامه والرجوع إلى أمره ونهيه [(١)].

ووجد بالاسكندرية فى ذلك الحين غلبة لأفكار فرق السبعينية ووحدة الوجود ، وكان هناك بعض دعاتها المتحمسين ، حتى نالت هذه الأفكار قبولا فى أوساط العامة أيضاً ، فكان لها تأثير سئ فى أخلاقهم وأعمالهم ، وأنتجت فيهم انطلاقاً فى أمور الشريعة وحرية فيها ، فقاوم ابن تيمية هذا الاتجاه بشدة وحماس ورد أفكار هؤلاء الدعاة ومزق كلمتهم ، فشتت جمعهم ، وفرق شملهم ، وذلك فى فترة إقامته فيها التى لا تجاوز ثمانية أشهر ، وأعرض عنهم العامة والخاصة واستتاب جماعة كثيرة منهم وتاب رئيس من رؤسائهم كبير .

وكان مقر ابن تيمية فى الاسكندرية متسعاً نظيفاً مليحاً ، له شباكان أحدهما إلى جهة البحر والآخر إلى جهة المدينة ، وكان يدخل عليه من شاء ويتردد إليه الأكابر والأعيان والفقهاء ، يقرأون عليه ويستفيدون منه [(٢)].

انقراض أمر ركن الدين الجاشنكير :

كان الشيخ ابن تيمية يتنبأ أحياناً عن نهاية أيام الجاشنكير وشيخه نصر المنبجى ويقول : « زالت أيامه ، وانتهت رئاسته ، وقرب انقضاء أجله ، وما كان قد مر على حكمه عام واحد إذ قرر السلطان ناصر بن قلاؤون العودة إلى الحكم ،فتوجه إلى دمشق فى ١٣ / من شعبان سنة ٧٠٩ هـ واستقبله أهل دمشق الذين كانوا يحبونه بحماس بالغ ، ودخل فى دمشق فى ١٧ / من شعبان فى أبهة عظيمة ، وتوجه من دمشق إلى مصر حيث أعد أهلها إعدادات كبيرة لاستقباله ، ولما رأى ركن الدين الجاشنكير أن الأحوال تنقلب ، استقال عن الحكم ، ودخل ركب السلطان فى مصر ، وفى ٧ / من ذى القعدة قبض عليه الأمير سيف الدين نائب الشام وقتل فى مصر .

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٥٠ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٥٠ .

والمؤرخون متفقون على أن الجاشنكير كان مقبولاً لدى الناس أيام نيابته كما كان راجح الجانب ، ذا هيبة ووقار ، وقد بدأت سلطنته المستقلة وخذلانه في وقت واحد ، فقد انتهت هيبته ، وزال نجمه الطالع منذ اعلانه بالسلطنة ، وابتدأ زوال دولته ، وظل يتفاقم أمره فساداً وحكمه اضطراباً ، تحدث عنه مؤرخ مصر الكبير المقريزى فقال :

« وكان رحمه الله خيراً عفيفاً كثير الحياء وافر الرحمة ، جليل القدر مهاب السطوة ، فى أيام إمارته فلما تلقب بالسلطنة ورسم باسم الملك اتضح قدره واستضعف جانبه وطمع فيه وتغلب عليه الأمراء والمماليك ، ولم تنجح مقاصده ولا سعد فى شئ من تدبيره إلى أن انقضت أيامه وأناخ به حمامه »(١).

ولا عجب أن يكون انقراض دولة الجاشنكير من غير أسباب مسبقة نتيجة ايذائه لرجل مخلص كير ومعارضته له ، وتفسيراً لما قاله الشاعر الفارسى ، ومعناه :

« كم جربنا فى عالم المكافأة أن من حارب عبداً مخلصاً لله تعالى تفانى فى دعوته وهجر فيها راحته ولذته انطمس وقضى عليه بالزوال » .

الافراج عن ابن تيمية ، والحفاوة الملكية :

يقول الشيخ علم الدين البرزالى معاصر الشيخ ابن تيمية : ان السلطان لما دخل إلى مصر يوم العيد لم يكن له هم إلا أن يفرج عن ابن تيمية ، ويؤتى به مصر معززاً مكرماً مبجلا ، فوجه إليه فى الثانى من شوال ٧٠٩ هـ يطلبه إلى مصر، فى ٨ / من شوال ، وودعه خلق كثير فى اجلال كبير واحتفاء بالغ .

ولما وصل ابن تيمية إلى البلاط الملكى مشى إليه السلطان خطوات واستقبله فى مجلس حافل فيه كبار علماء مصر والشام وقضاتها ، يتحدث عن هذا القدوم واستقبال السلطان اياه القاضى جمال الدين بن القلانسى قاضى الجيش الذى كان حاضراً فى المجلس يوم ذاك، وشاهد الأمور نفسه ، يقول :

« ان السلطان لما قدم عليه الشيخ تقى الدين بن تيمية نهض قائماً للشيخ أول ما رآه ومشى له إلى طرف الايوان واعتنقا هناك هنيهة ، ثم أخذ معه ساعة إلى طبقة فيها شباك إلى بستان فجلسا ساعة يتحدثان ، ثم جاء ويد الشيخ فى يد السلطان ، فجلس السلطان وعن يمينه ابن جماعة قاضى مصر ، وعن يساره ابن الخليلى الوزير ، وتحته ابن صصرى ،

---

(١) خطط مصر ج ٢ ص ٤١٨ .

ثم صدر الديـن على الحنفى ، وجلس الشيخ تقى الدين بن تيـمـيـة بين يدى السلطان على طرف طراحته ، وتكلم الوزير فى اعادة أهل الذمة إلـى لبس العمائم البيض بالعلائم [١]، وأنهم قد التزموا الديوان بسبعمائة ألف فى كل سنة زيادة على الحالية ، فسكت الناس وكان فيهم قضاة مصر والشام وكبار العلماء من أهل مصر والشام من جملتهم ابن الزملكانى قال ابن القـلانسى : وأنا فى مجلس السـلطان إلى جنب ابن الزملكانى ، فلم يتكلم أحـد من العلماء ولا من القضاة ، فقال لهم السلطان :

ما تقولون ؟ يسـتفتيهم فى ذلك ، فلم يجب أحـد فجثا الشيخ تقى الدين على ركبـتيه وتكلم مع السلطان فى ذلك بكلام غليظ ورد على الوزير ما قـاله رداً عنيفاً ، وجعل يرفع صوته والسلطان يتلافـاه ويسكته برفق وتؤدة وتوقير ، وبالغ الشـيخ فى الكلام وقال ما لا يستطيع أحد أن يقول بمثله ، ولا بقريب منه ، وبالغ فى التشنيع على من يوافق فى ذلك ، وقال للسلطان : حاشـاك أن يكون أول مجلس جلسته فى أبهة الملك تنصـر فيه أهل الذمة لأجل حطام الدنيـا الفانيـة ، فاذكـر نعمـة الله عليك إذ رد ملكك إليك ، وكبـت عدوك ونصرك على أعدائك فذكر أن الجاشنكيـر هو الذى جدد عليهم ذلك ، فقال : والذى فعله الجاشنكير كان من مـراسيمك لأنه إنما كان نائباً لك ، فأعجب الـسلطان ذلك واستمر بهم على ذلك [٢].

اتباع سنة يوسف عليه السلام فى مصر :

يقول ابن القلانسى : ان ابن تيمية حدثه قال : ان السلطان استفتاه فى قتل بعض القضاة سبب ما كانوا تكلموا فيه ، وأخرج فتاوى بعضهم بعزله من الملك ومبايعة الجاشنكير وأنهم قاموا عليك وآذوك أنت أيضاً ، وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه فى قتل بعضهم ، ففهمت

---

(١) توصل علماء الإسلام فى ضوء بعض التجارب الماضية إلى أنه لابد من وجود علائم فى لباس الرعية غير المسلمة فى المملكة الإسـلامية ، فقد بقى فى مصر والشام بعد الحـروب الصليبية عدد لا بأس به من المسيحيين الذين كانوا قد قدموا من الخارج ، ويعـملون كجواسيس للأجانب تطوعاً ، كما أنهم كانوا ينـتـشرون عدوى تقالـيدهم فى المجتمع المسلـم ، وكتب ابن كثيـر فى أحداث ٧٢١ . « وقع حريق عظيـم فى ٦ جمادى الأولى فى القـاهرة فى الدور الحسنة والأمـاكن المحلية المرتفـقة وبعض المساجد وحصل للناس مشقة عظيمة من ذلك ، وقـنتوا فى الصلوات ثم كشفوا عن القضية فاذا هو من قبل النصارى . . . فقتل السلطان بعضهم وألزم النصارى أن يلبسوا الزرقاء على رؤوسهم وثيابهم كلها » ، ولما عاد السلطان ناصر حاول النصارى أن ينسخ هذا القانون .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٥٤ .

قصده بذلك فأخذت فى تعظيم أولئك العلماء والقضاة ، وأنكر أن ينال أحداً منهم بسوء ، وقال له : إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم ، فقال : إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً، فقلت له : من آذانى فهو فى حل ، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه ، وأنا لا أنتصر لنفسى وما زلت به حتى حل عنهم السلطان وصفح .

ويقول ابن كثير : « كان قاضى المالكية ابن مخلوف يقول : ما رأينا مثل ابن تيمية ، حرضنا عليه فلم نقدر عليه وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا »(١) .

ثم أن الشيخ بعد اجتماعه بالسلطان نزل إلى القاهرة وعاد إلى بث العلم ونشره وأقبلت الخلق عليه ورحلوا اليه يشتغلون عليه ويستفتونه ويجيبهم بالكتابة والقول ، وجاء الفقهاء يعتذرون مما وقع منهم فى حقه ، فقال : قد جعلت الكل فى حل . ولما اطمأن الشيخ واستقرت به الحال بعث كتاباً إلى أهله يذكر فيه ما هو فيه من نعم الله ويطلب منهم جملة من كتب العلم .

ولما رأى خصوم ابن تيمية أن مكانته ارتفعت وصفت حياته أكثر من ذى قبل وعجزوا عن تحريض الناس عليه فى مسألة علمية اتجهوا إلى العامة يحرضونهم ، ولقد كان تحريضهم عليه فى مصر حيث لم يكن الناس عارفين بمكانته أسهل شئ ، فحدث فى الرابع من رجب سنة ٧١١ هـ أنه انفرد به جماعة بتحريض خصومه ، فامتدت أيديهم الأثيمة اليه بالضرب ، ولكن سكان الحسينية (حيث رأس سيدنا الحسين مدفون كما هو المشهور لدى العامة) تجمعوا ليثأروا للشيخ فردهم ولم يأذن لهم بذلك وقال لهم :

« إما أن يكون الحق لى أو لكم أو لله ، فان كان الحق لى فهم فى حل منه ، وان كان لكم فان لم تسمعوا منى ولم تستفتونى فافعلوا ما شئتم ، وان كان الحق لله فالله يأخذ حقه إن شاء الله » .

وفى أثناء هذه المناقشة حضر وقت العصر فذهب ليصلى فى الجامع ، فنهوه عن ذلك حتى لا يؤذى ثانية ، فلم يلتفت إلى قولهم ، ومضى إلى المسجد ، وتبعته جماعة كبيرة من الغاضبين له .

وحدث له بعد ذلك أن أساء إليه بعض الفقهاء بالقول ، ثم اعتذر اليه ، ولعله اعتذر خوفاً من بطش السلطان أو الناس ، ولكن الشيخ على أى حال عفا وقال لا أنتصر

---

(١) أيضاً .

لنفسى [1] .

ولم يكتف الشيخ ابن تيمية خلال اقامته فى مصر بالبحث والتدريس ونشر الكتاب والسنة بل انتهز فرصة اتصاله بالسلطان ، فأشار عليه فى بعض الأمور وأصدر منه بعض الأوامر مما كان له تأثير حسن وفائدة كبيرة ، يقول ابن كثير :

« وفيها (سنة ٧١٢ هـ) قدم كتاب من السلطان إلى دمشق أن لا يولى أحد بمال ولا برشوة فان ذلك يفضى إلى ولاية من لا يستحق الولاية وإلى ولاية غير الأهل ، وكان سبب ذلك الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمه الله ، وكذلك جاء كتاب السلطان أن من قتل لا يجنى أحد عليه بل يتبع القاتل حتى يقتص منه بحكم الشرع الشريف وكان سببه ابن تيمية أيضاً .

العودة إلى دمشق :

وفى شوال سنة ٧١٢ هـ كانت الأخبار تتوارد عن عزم التتر على الهجوم ، وأخيراً قضى السلطان بخروجه عن مصر ومقاومتهم بنفسه ، وفى ثامن شوال توجه إلى دمشق ودخل فيها فى ٢٣ من شوال ، وكان ابن تيمية يصحب السلطان فى هذه الرحلة وكان يعود فيها إلى وطنه الحبيب بعد سبع سنين كوامل ، فاستقبله الناس بحماس زائد وابدوا سرورهم بقدومه ، وقد خرج عدد كثير من النساء - فضلاً عن - الرجال لرؤيته ، وكانت رحلته هذه بنية الجهاد ، ولكنه علم بعد مقدمه إلى دمشق أن التتر عادوا راجعين ، فنوى الشيخ زيارة بيت المقدس من دمشق ، وبعد ما مكث هناك مدة من الزمان عاد إلى دمشق زائراً بعض البلدان الأخرى ، وانهمك فى عمله وعكف عليه كامل العكوف .

شغف شيخ الإسلام بالأحكام الفقهية :

ولو أن الشيخ ابن تيمية بعد رجوعه إلى دمشق فى هذه المرة كان قد عاد إلى وظيفته القديمة من الأشغال العلمية والدينية والتربوية ، وبدأ بالتدريس والافتاء والتأليف كما هى عادته ، غير أنه أنصرف فى هذه المرة إلى دراسة الأحكام الفقهية وفروعها بوجه خاص بينما كانت العقائد والأصول والمسائل الكلامية مجاله الأول ، تلك التى كانت موضع خلاف بين الأشاعرة والحنابلة .

ويبدو أن الشيخ أدرك أن الموضوع الأول قد أشبعه وفرة معلومات ودلائل ، وأن الحق

---

(١) ابن تيمية محمد أبو زهرة ص ٧٤ .

اتضح كالشمس فى رابعة النهار بمواعظه ودروسه وتأليفاته ، فلا بد من الالتفات إلى جانب مهم آخر ، حيث يمكن استخدام خصائصه العلمية رمواهبه الطبيعية ، وهو الفقه الإسلامى من غير شك .

لقد كانت أسرة ابن تيمية متمسكة بالمذهب الحنبلى ، ولذلك فان معظم فتاويه تبتنى على المذهب الحنبلى [١]، إلا أنه لم يتقيد بالمذهب الحنبلى مائة فى المائة ، إذ كان من الصعب جداً أن يفعل ذلك بعد ما أوسعه الله اطلاعاً على ذخائر الكتاب والسنة ، واستحضاراً بالمذاهب الفقهية وأصولها ودلائلها ، فكان يرجح بعض الأحيان المذهب الذى يراه أقوى دليلاً من الكتاب والسنة ،أقرب إليهما بالنسبة إلى المذاهب الأخرى ، ويجد أنه ينال تأييد الجمع الكبير من الصحابة والتابعين .

إن شيخ الإسلام كان شديد الاعتراف بعلو مكانة الأئمة الأربعة ، وحسن اجتهادهم ودينهم وورعهم وتفوقهم العلمى ، على تبحره فى العلم وقوة استنباطه واستقلال فكره ، كان يعتبرهم طلاب الحق ، ومتبعى السنة وراسخى العلم ، الذين كان مصدر اجتهادهم الكتاب والسنة ونصوصهما والاجماع والقياس الشرعى ، وقد كانوا فى ذلك متبعين لا مبتدعين ، ولذلك فقد كان ابن تيمية يكره الذى يتناول هؤلاء الأئمة الأعلام بالنقد والطعن، وقد ركز عنايته بالاشادة بذكرهم والانتصار لهم ، والحد من السنة المعترضين المتقدين فألف رسالته الشهيرة « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » التى تعتبر من أحسن ما ألف فى هذا الموضوع ، إنه يقول فى فاتحة الرسالة :

« يجب على المسلمين بعد موالاة الله ورسوله ، موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن وخصوصاً العلماء الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم فى ظلمات البر والبحر ، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم إذ كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ علماؤها شرارها الا المسلمين فان علماءهم خيارهم فانهم خلفاء الرسول فى أمته والمحيون لما مات من سنته ،بهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا.

وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً يعتمد مخالفة رسول الله ﷺ فى شئ من سنة دقيق ولا جليل ، فانهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول ﷺ وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك الا رسول الله ﷺ ، وإذا وجد

(١) انظر فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ١-٢-٣-٤-٥ .

لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح خلافه فلا بد له من عذر فى تركه ، وجميع الأعذار ثلاثة أصناف (أحدها) عدم اعتقاده أن النبى ﷺ قاله (والثانى) عدم اعتقاده ارادة تلك المسألة بذلك القول (الثالث) اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ .

مسألة الطلقات الثلاث :

وعلى ذلك كله ، فانه كما رجح المذاهب الأخرى على المذهب الحنبلى وخرج عن نطاقه بعض الحين خالف الأئمة الأربعة كذلك فى بعض المسائل أحياناً ، وأفتى مخالفاً لهم واتبع فيها نصوص الكتاب والسنة ودلائلهما ، ولكن هذه المسائل التى خالف الأئمة الأربعة فيها لا تعدو عدة مسائل ولكن أشهرها مسألة الطلقات الثلاث فى مجلس واحد .

مسألة : إذا طلق أحد زوجته ثلاث طلقات فى مجلس واحد (سواء بلفظ واحد أو بألفاظ متعددة) فمهما ارتكب المطلق بدعة باتفاق الأئمة وجمهور الأمة وخالف الشرع وأثم ، ولكن ما حكم هذه الطلقات ؟ هل وقعت وبانت المرأة واستحالت الرجعة بحكم الشريعة ما لم تتزوج رجلاً آخر يتمتع بها ويطلقها ؟أو أن هذه الطلقات الثلاث تعتبر واحدة وتمكن الرجعة ، فمذهب الأئمة الأربعة ومذهب الفقه والحديث (الأوزاعى والنخعى والثورى واسحاق بن راهوية وأبى ثور والبخارى) وجمهور الصحابة والتابعين أن هذه الطلقات تقع من غير أن المطلق ارتكب بفعله هذا بدعة ومعصية ، يقول الامام النووى فى شرح مسلم :

« وقد اختلف العلماء فيمن قال لامرأته ، أنت طالق ثلاثاً ، فقال الشافعى ومالك وأبو حنيفة وأحمد وجماهير العلماء من السلف والخلف يقع الثلاث » .

ويقول العلامة ابن رشد فى « بداية المجتهد » : « جمهور فقهاء الأمصار على أن الطلاق بلفظ الثلاث حكمه حكم الطلقة الثالثة » ، كما يقول العلامة ابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية فى كتابه « زاد المعاد » : « وهذا قول الأئمة الأربعة وجمهور التابعين وكثير من الصحابة » .

إن أقوال هؤلاء الأعلام تستند إلى عدة أحاديث مرفوعة تثبت أن النبى ﷺ اعتبر هذه الطلقات الثلاث ، أو أكثر ، ثلاث طلقات وأفتى ببينونة المرأة [1].

---

(١) تكلم الفريق الثانى فى اسناد ومتون هذه الأحاديث ، ولكن الفريق الأول رد على ذلك فى أسلوب المحدثين .

أما مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية وبعض أصحابه وتلاميذه فهو أن هذه الطلقات الثلاث إنما تعتبر واحدة ، ويمكن معها الرجعة مثلما يمكن الرجل أن يرجع إلى زوجته التى طلقها واحدة ، انه يقول : « وهذا القول منقول عن طائفة من السلف من أصحاب رسول الله ﷺ مثل الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ، ويروى عن على وعن ابن مسعود وابن عباس ، وهو قول داؤد وأكثر أصحابه ، ويروى عن أبى جعفر محمد الباقر بن على ابن حسين وابنه جعفر الصادق ، ولهذا ذهب إلى ذلك من ذهب من الشيعة (١) .

ويستدل شيخ الإسلام لتأييد مذهبه واثباته بالقرآن والسنة والقياس (٢) .

وفى الحقيقة أن شيخ الإسلام كان السبب فى ظهور هذه المسألة واشتهارها واليه يرجع الفضل فى ذلك ، سواء تفرد هو بذلك أم كان من السلف من يرى فيها هذا الرأى ، انه هو الذى حمل رايتها ، ولما أبدى رأيه وتحقيقه فيها آثار ذلك استغراباً واضطراباً فى الأوساط الفقهية .

مسألة الحلف بالطلاق واعتقاله :

وعلى كل فان مسألة الطلقات الثلاث إنما كانت مسألة فقهية خالصة تختص بحياة الرجل المنزلية ، وكانت تؤثر على حياة أسرة واحدة ، ولكن المسألة الثانية التى خالف فيها المذاهب الأربعة والمذهب المشهور ، والتى كان يتعدى تأثيرها إلى المعاملات والساسة ، وعلاقات الدولة والرعية كانت مسألة الحلف بالطلاق .

وقد كان الحلف بالطلاق عاماً بين الناس فى ذلك الحين ، إذ كانوا يستندون إلى الحلف بالطلاق للتأكيد على كلام أو ابداء عزم أو صدق من غير تردد ولا تكلف ، فمثلاً كانوا يقولون « علىّ الطلاق لأفعلن كذا » « علىّ الطلاق لأمتنعن عن كذا » « علىّ الطلاق لتفعلن كذا » « علىّ الطلاق اشتريتها بكذا » كان ابن تيمية يرى أن هذا الأسلوب من القسم أو التأكيد ولكن الناس إنما يطلقون كلمة الطلاق لزيادة التأكيد واليقين ، من غير أن يريدوا بها الطلاق فى أى حال ، ولذلك فان هذا نوع من القسم ، ولكنه ينفذ عليه أحكام الطلاق من أجل اعتبارهم ذلك الطلاق بالتعليق ، وذلك ما يسبب خراب مئات من الأسر والبيوتات ، واضطراب الحل فى الحياة المنزلية .

---

(١) فتاوى ابن تيمية ج ٣ ص ٦٢ .

(٢) وللاطلاع على البحث والاستدلال بتفصيل راجع « زاد المعاد » للحافظ ابن قيم مبحث (من طلق ثلاثاً بكلمة واحدة) ج ٤ ، و« اغاثة اللهفان » .

وقد أدخلت فى صيغة البيعة كلمة الطلاق لتثبيت البيعة وتأكيدها منذ عهد الحجاج بن يوسف حتى أن هذه الكلمات صارت كجزء للبيعة وذلك كأن يقول : « لو أننى خرجت عن بيعة فلان فزوجتى طالق » .

تأمل ابن تيمية فى هذه المسألة وبدأ يفتى بأن هذا نوع من الحلف ، وأن القائل يحنث إذا خالف قوله وعمل خلافه ، وتلزم عليه كفارة اليمين من غير أن يقع الطلاق .

ولو أن ابن تيمية قدم أقوال بعض من الأئمة الأربعة وأصحابهم لتأييد فتواه [١] ، ولكن الحقيقة أن هذه الفتوى إنما كانت تعارض القول المشهور والمفتى به لهذه المذاهب ، وكان يبدو ذلك تحقيقاً جديداً واجتهاداً صريحاً ، ولذلك فانها أثارت اضطراباً عاماً ، ورأى العلماء والقضاة أن يمنعوه عن هذه الفتوى لكيلا يشتد الاضطراب ، يقول ابن كثير ضمن أحداث عام ٧١٨ هـ .

« وفى يوم الخميس منتصف ربيع الأول اجتمع قاضى القضاة شمس الدين بن مسلم بالشيخ الامام العلامة تقى الدين بن تيمية ، وأشار عليه فى ترك الافتاء فى مسألة الحلف بالطلاق ، فقبل الشيخ نصيحته ، وأجاب إلى ما أشار به رعاية لخاطره وخواطر الجماعة المفتين ، ثم ورد البريد فى مستهل جمادى الأولى بكتاب من السلطان فيه منع الشيخ تقى الدين من الافتاء فى مسألة الحلف بالطلاق ، وانعقد ذلك مجلس ، وانفصل الحال على ما رسم به السلطان ، ونودى به فى البلد ، وكان قبل قدوم المرسوم قد اجتمع بالقاضى ابن مسلم الحنبلى جماعة من المفتين الكبار وقالوا له أن ينصح الشيخ فى ترك الإفتاء فى مسألة الطلاق فعلم الشيخ نصيحته وأنه إنما قصد بذلك ترك ثوران فتنة وشر » [٢] .

ويبدو أنه بعد صدور المرسوم ازداد ثقة وطمأنينة فى هذه المسألة وبدأ يفتى فيها حسب ما تحقق له من غير أن يبالى بأى منع من قبل الحكومة ظناً منه أن الحكومة ليس لها حق التدخل فى هذه المسألة ، ولا يجوز لأى عالم أن يخفى عقيدته وعلمه خوفاً من الحكومة ، يتحدث ابن كثير فى أحداث عام ٧٢٠ هـ فيقول :

« وفى يوم الخميس ثانى عشرين رجب عقد مجلس بدار السعاة للشيخ تقى الدين بن تيمية بحضرة نائب السلطنة ، وحضر فيه القضاة والمفتون من المذاهب ، وحضر الشيخ وعاتبوه على العودة إلى الافتاء بمسألة الطلاق، ثم حبس فى القلعة »[٣] . ولكن مدة الحبس

---

(١) راجع كتاب ابن تيمية للشيخ محمد أبى زهرة ، مبحث الحلف بالطلاق ص٤٣٦-٤٣٧ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٨٧ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٨٧ .

هذه لم تطل كثيراً ، وورد مرسوم من السلطان من مصر باخراجه يوم الاثنين يوم عاشوراء من عام ٧٢١ هـ بعد ما مكث فيه خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً .

اعتقاله الأخير :

اشتغل ابن تيمية من عام ٧٢١ هـ إلى ٧٢٦ هـ خمس سنين بالتدريس والافتاء والتأليف والوعظ بكل حرية وانهماك بالغ ، فكثيراً ما كان يدرس خلال هذه المدة فى المدرسة الحنبلية أو مدرسته الخاصة به الواقعة فى القصاصين كما أنه أعاد النظر خلال ذلك فى مؤلفاته ورسائله القديمة ، وقام بتأليفات جديدة .

ولعله كان يتمكن من انجاز أعمال مفيدة جداً فى هذه المدة ، واخراج مؤلفات كبيرة القيمة فى موضوعات مهمة ، غير أن تفوقه العلمى وتفرده فى بعض المسائل سبب له ولمعاصريه امتحانا يدفع ثمنه وغرامته بين فينة وأخرى ، وعلى ذلك ما كان يتيسر له الهدوء إلى مدة طويلة فما كاد يمضى إلا مدة قليلة إذا عرضت مسألة أخرى كانت موضع بحث وجدال بين الخاصة والعامة على السواء ، وهى لم تكن مسألة فقهية خالصة كمسألة الطلاق، بل كانت تحتوى على العنصر العاطفى وتكفى لاثارة الاضطراب فى النفوس ، وهى مسألة زيارة قبر النبى ﷺ .

وقد كان ابن تيمية أفتى قبل سبعة عشر عاماً بأنه لا يجوز شد الرحال لزيارة القبور بما فيها قبر النبى ﷺ ، وذلك لأنه جاء فى الحديث الشريف : « لا تشد الرحال الا إلى ثلاث مساجد ، المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » ، ثم أنه يفيض حسب عادته فى بيان الحكم الشرعية فى ذلك وما فى خلاف ذلك من المضار والمفاسد ، إن كلامه يتلخص فى أن الاهتمام الشديد بالسفر لزيارة القبور يفتح الأبواب والأعمال التى قد تفضى إلى الشرك ويعتقد كثير من الناس أن مثل هذه الزيارة عبادة وذريعة إلى التقرب إلى الله ، وعندما يفعلون ذلك يتعدون حدود الشريعة ، وينفلت منهم حبل التوحيد .

وقد كان النبى ﷺ شديد الاهتمام بحفظ قبره من العادات والتقاليد الجاهلية ، التى كانت شائعة منتشرة ين اليهود والنصارى حتى قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[١] ، وابتهل إلى الله تعالى فقال : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[٢] وقال أيضاً : « لا تتخذوا قبرى

---

(١) البخارى ومسلم .

(٢) عن مالك مرسلاً (مسند الامام أحمد) .

عيداً ، وصلوا عليّ فان صلاتكم حيثما كنتم تبلغني»[1] ولذلك لم يحب النبي ﷺ أن يدفن في الصحراء وإنما دفن في حجرة عائشة - رضى الله عنها - التى هى مكان حريز وذلك لكى يصان قبره من جميع هذه الأخطار ، ولا يسمح للناس بالرحيل إليه وزيارته أفواجاً الا الذى يأتى إلى المسجد النبوى للصلاة فيه يزور القبر الشريف بالطريق المسنون ، ويصلى ويسلم على النبى ﷺ كما كان الصحابة والتابعون رضى الله عنهم يفعلون[2].

لقد أخرجت هذه الفتوى بعد سبعة عشر عاماً بحكم عوامل عديدة وشهرت واتخذت ذريعة لإثارة عواطف المسلمين لما للنبى ﷺ من مكان قدسى فى القلوب ، انهم رأوافيها إساءة أدب إلى مكانة النبى ﷺ ، كما أن العلماء رأوها يتجلى فيها الاعتماد الزائد على الرأى الشخصى ومعارضة لجمهور الأمة ، ولعل ذلك كان هو العامل الأقوى لمعارضتهم اياه .

وعلى كل حال فان هذا الخلاف قد نال من الأهمية والشهرةما جعل الحكومة (سواء على طلب من العلماء أو نزولاً على مصالح النظام) تتدخل فيه ، وصدر المرسوم فى السابع من شعبان ٧٢٦ هـ بحبسه ، فرحب به الشيخ ترحيباً بالغاً وأبدى سروره على ذلك، وقال فور ما علم بحبسه «أنا كنت منتظراً ذلك ، وهذا فيه خير كثير ومصلحة كبيرة»، ونقل الشيخ إلى قلعة دمشق حيث أخليت له قاعة ، وأجرى اليها الماء ، وأقام معه أخوه زين الدين بن تيمية يخدمه باذن السلطان وأجرى عليه ما يقوم بكفايته .

« وما أن اعتقل الشيخ حتى تكشف القلوب عن خبيثاتها ، وتوجه الأذى إلى تلاميذه وأوليائه ، فأمر قاضى القضاة بحبس جماعة من أصحابه ، وعزر جماعة منهم باركابهم على الدواب والمناداة عليهم ، وبعد ذلك أطلقوا من محابسهم ، ما عدا صفية وحامل اللواء من بعده شمس الدين محمد بن قيم الجوزية فانه حبس بالقلعة »[3]، وظل معه فى

---

(١) سنن أبى داود .

(٢) ان قضية صيانة عقيدة التوحيد ، وسد ذرائع الشك والغلو فى التعظيم ، والتشبه بالأمم التى اتخذت قبور أنبيائها مساجد ، قضية مسلمة لا تقبل نقاشاً ، ويؤيدها كل من فهم روح الدين ، وتذوق الكتاب والسنة ، ولكن المنع عن زيارة القبر النبوى الشريف بتاتاً والتشديد فى ذلك لا يخلو من شئ من المغالاة والتطرف ، وإنما كان ذلك نتيجة ذكاء ابن تيمية المتوقد ، وحسه المرهف ، الذى يمثل لصاحبه أبعد الإمكانات وأقبح الاحتمالات ، وذلك لا يغطى فضائله الكثيرة ومواقفه العظيمة فى خدمة الإسلام والمسلمين وبلوغه درجة الامامة فى علوم الدين ، ولم يكن يستحق بذلك ما لقيه من نكران وجفاء ، وبقاء فى الحبس إلى أن يفارق الدنيا . (المؤلف) .

(٣) ابن تيمية محمد أبو زهرة ص ٨٤ .

الحبس وما أفرج عنه الا بعد وفاته .

تأسف أهل العلم والدين واحتجاجهم :

إذا كان اعتقال شيخ الإسلام ابن تيمية موضع سرور عند شرذمة قليلة من الحساد والمناوئين فلقد كان مبعث ألم عميق عند جماعة كبيرة من أهل العلم والمسلمين والمخلصين الذين اعتبروه انتصاراً للبدعة على السنة ، وذلة للحق وأهله ، ولقد بعث أهل العلم والدين من أنحاء المملكة المختلفة إلى السلطان الناصر بمصر كتاباً يصورون فيه النازلة التى نزلت بالإسلام والمسلمين ، ويحسن بى أن أنقل إلى القارئ الكريم كتاباً بعثه علماء بغداد إلى السلطان ، وحسبنا أن نقدر بذلك أن دعوة الشيخ وشهرته كانت قد انتشرت فى جميع الأقطار الإسلامية ، وأن أهل الحق جميعاً إنما كانوا يحبونه ويعجبون به ، يقول علماء بغداد :

« لما قرأ أهل البلاد المشرقية والنواحى العراقية التضييق على شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية سلمه الله ، عظم ذلك على المسلمين وشق على ذوى الدين وارتفعت رؤوس الملحدين وطابت نفوس أهل الأهواء والمبتدعين ، لما رأى علماء أهل هذه الناحية عظم هذه النازلة من شماتة أهل البدع وأهل الأهواء بأكابر الفضلاء وأئمة العلماء أنهوا حال هذا الأمر الفظيع والأمر الشنيع إلى الحضرة الشريفة السلطانية زادها الله شرفاً وكتبوا أجوبتهم فى تصويب ما أجاب به الشيخ سلمه الله فى فتاواه وذكروا من علمه وفضائله بعض ما هو فيه وحملوا ذلك بين يدى مولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره غيرة منهم على هذا الدين ونصيحة للإسلام وأمراء المؤمنين »(١) .

وهذا الكتاب يدل على أمرين : (أحدهما) وهو العمدة أن ذلك العالم الجليل قد عمت دعوته إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة البقاع الإسلامية ، ولم تعد آراؤه ومناهجه مقصورة على أهل الشام ، بل تجاوزتها إلى البقاع الإسلامية كلها وفوق ذلك لم تعد مقصورة على الحنابلة ، بل تحمس لها المالكية والحنفية والشافعية مما يثبت أنه لم يعد نصيراً لمذهب معين من مذاهب الإسلام بل نصيراً للإسلام فى لبه وصميمه .

(الأمر الثانى) أن أهل الأهواء قد أظهروا الشماتة والعداوة وأبدوا صفحتهم بعد أن كانوا قد أخفوها ، وكانوا مستورين غير مكشوفين ،إذا كان أول متهم بجريمة هو المنتفع

---

(١) العقود الدرية ص ٣٥٠ - والكواكب الدرية ص ١٩٨ .

منها فلا بد أن أولئك الذين والوا دسهم على الشيخ ، وكانوا يتظاهرون بالمذاهب السنية ليخدعوا الأمراء والقضاة ولما تمت الخديعة ظهرت شماتتهم للعيان وبدت ظاهرة غير مستورة .

أشغال الشيخ فى القلعة :

تمتع الشيخ بنعمة الهدوء والخلوة فى القلعة بعد مدة طويلة ولعله كان قد أشار إلى ذلك بقوله : (فيه خير كثير ، ومصلحة كبيرة) أنه قدر فرصة الخلوة والانقطاع هذه حق قدرها وأقبل على العبادة والتلاوة بكل رغبة وانهماك ، فاذا توفر له بعض الوقت من هذه الأعمال شغله بالمطالعة والتأليف ، وتنقيح كتبه ، الأمر الذى كان يُعد عبادة من العبادات وطاعة من الطاعات التى يتقرب بها إلى الله ، غير أنه كان لتلاوة القرآن قسط أكبر ونصيب أوفر من أوقاته وأشغاله ، إذ أنه ختم القرآن مع أخيه الشيخ زين الدين بن تيمية خلال الفترة التى قضاها فى هذا المحبس (وهى سنتان) ثمانين ختمة .

وجل ما ألفه فى ذلك المحبس كان يتصل بالتفسير ، ولعل اكثاره من تلاوة القرآن والتدبر فيه كان السبب فى ذلك ، كما أنه ألف الرسائل ورد على بعض المسائل ، وكان يجيب على كل ما يرد اليه من الخارج من الأسئلة العلمية والاستفتاءات الفقهية ، وهكذا قد كان مستمراً فى جميع أعماله وأشغاله سوى المواعظ والدروس العامة ،أضف إلى ذلك كثرة التلاوة والعبادة .

القيود الجديدة وحرمانه أدوات الكتابة والدراسة :

كان الناس يتلقفون كل ما كان يكتبه الشيخ فى المحبس ويصل من أقصى البلاد إلى أقصاها ، ومن بين ما كتبه الشيخ من الرسائل والمسائل فى حبسه رسالة فى موضوع مسألة الزيارة رداً على أحد قضاة المذهب المالكى فى مصر القاضى عبد الله بن الأخنائى [1]، أثبت فيها أن القاضى المذكور رجل قليل البضاعة فى العلم فاشتكى القاضى من ذلك إلى السلطان وأبدى سخطه واستنكاره فأصدر السلطان مرسوماً يصرح بمصادرة جميع ما عند الشيخ من أدوات الكتابة والكتب ، حتى لا يبقى عنده ما يستعين به فى التأليف والكتابة .

وفى ٩ جمادى الآخرة سنة ٧٢٨ هـ نفذ المرسوم وصودرت جميع أدوات الكتابة والدراسة من الشيخ باسم الحكومة ، وفى غرة رجب أرسلت جميع مسوداته وأوراقه من

---

(١) اقرأ « الرسالة الاخنائية » طبع مصر .

المحبس إلى المكتبة « العادية » [1] الكبرى وكان ذلك نحو ستين مجلداً من الكتب وأربع عشرة ربطة كراريس التى كان يشتغل بها دراسة وتأليفا .

الكتابة والتأليف بالفحم :

ولكن الشيخ لم يفزعه كل ذلك ، ومـا أبدى شكاة منه للحكومة ، ولما منع من الكتابة وأخذ منه القلم والدواة بدأ يكتب بالفحم على أوراق مبعثرة هنا وهناك ، ووجدت له عدة رسائل وكتابات مكتوبة بالفحم ، وظلت محفوظة فى هذه الحالة ، أنه فى مثل هذا الاضطرار والعجز يبدو شاكراً وراضياً بقدر الله ، أنه يشعر بأنه سيحرز بهذه الأحوال فضيلة الجهاد وكأن الوضع لم يتغير مما كان عليه ، ويقول فى رسالة له :

« نحن ولله الحمد فى عظيم الجهاد فى سبيله ، بل جهادنا فى هذا مثل جهادنا يوم قازان والجبلية ، والجهمية والاتحادية ، وأمثال ذلك ، وذلك من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

الخضوع أمام قدر الله وعاطفة الحمد والشكر :

ويتجلى فى رسالة أخرى الخضوع أمام قدر الله وعاطفة الرضا والشكر ، يقول :

(كل ما يقضيه الله تعالى فيه الخير والرحمة والحكمة ، ان ربى لطيف لما يشاء أنه هو القوى العزيز العليم الحكيم ، ولا يدخل على أحد ضرر الا من ذنوبه ، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، فالعبد عليه أن يشكر الله ويحمده دائماً على كل حال ، ويستغفر من ذنوبه ، فالشكر يوجب المزيد من النعم ، والاستغفار يدفع النقم ، ولا يقضى الله للمرء من قضاء الا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

انه فى هذه الحال أيضاً متأكد من صحة مذهبه وبراءته ، ويعتقد أنه ليس عليه ذنب سوى أنه لم يخضع أمام السلطان فى مسألة شرعية ، وظل قائماً على ما كان يراه حقاً ، ولكنه يعترف بجريمته ، ويعتبر ذلك مقتضى الإيمان والتوحيد ، يقول :

« غاية ما عندهم أنه خولف مرسوم بعض المخلوقين ، والمخلوق كائناً من كان إذا خالف أمر الله تعالى ورسوله لم يجب بل لا تجوز طاعته فى مخالفة أمر الله ورسوله باتفاق المسلمين » .

---

(١) ابن تيمية ، محمد أبو زهرة .

أيامه الأخيرة ووفاته :

يقول الشيخ زين الدين عبد الرحمن شقيق شيخ الإسلام :

أنه لما بدأ يقرأ القرآن بعدما أكمل ثمانين ختمة ووصل إلى قوله تعالى من سورة القمر : ﴿ **إن المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر** ﴾ تركنى وأخذ فى مدارسة القرآن مع الشيخ عبد الله بن محب وعبد الله الزرعى ، وكانا فى غاية من الصلاح والتقى، وأخوين شقيقين ، وذلك لأن الشيخ إنما كان معجباً بقراءتهما القرآن ، وما كادت تنتهى هذه المدارسة حتى انتهت أيام حياته .

ولما بلغ نائب دمشق نبأ مرضه الأخير استأذن فى الدخول عليه ليعوده فأذن له ، فلما جلس أخذ يعتذر ويلتمس منه أن يعفو عنه إذا كان قد وقع منه تقصير أو أذى فى حقه ، فأجابه الشيخ :

« انى قد أحللتك وجميع من عادانى وهو لا يعلم أنى على الحق ، وأحللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه اياى ، لكونه فعل ذلك مقلداً معذوراً ولم يفعله لحظ نفسه، وقد أحللت كل أحد مما بينى وبينه الا من كان عدواً لله ورسوله ﷺ .

دامت العلة مدة تقارب ثلاثة أسابيع ، واستمر به الحال حتى وافاه الأجل فى ليلة ٢٢ من شهر ذى القعدة سنة ٧٢٨ هـ وارتحل من هذه الدنيا وقد بلغ من العمر ٦٧ سنة ﴿ **كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ .

ونعى الشيخ مؤذن القلعة على المنارة وتكلم بها الحراس على الأبرجة ، فما أصبح الناس الا وقد تسامعوا بهذاالخطب العظيم والأمر الجسيم وبادروا على الفور إلى القلعة من كل مكان أمكنهم المجئ منه ، وفتح باب القلعة واجتمع حشد عظيم من الخاصة والعامةيدخلون إليه أفواجاً ويزورونه ، ومنهم من كان يقبل رأسه وناصيته التى كانت تنصب على الأرض ساعات طوالاً أمام ربه .

وبدأ الناس يختمون القرآن قبل غسله ، وأذن للنساء بعد الرجال فزرنه ولم يبق عند الغسل الا من كان عليه أن يغسله .

وصف الجنازة والتدفين :

وصلى عليه أولاً بالقلعة ، وتقدم فى الصلاة عليه أولاً الشيخ محمد بن تمام وأخرجت الجنازة بعد الصلاة وغصت الطرق كلها ما بين القلعة والمسجد بالناس حتى حضرت الجنازة فى الساعة الرابعة من النهار أو نحو ذلك ووضعت فى الجامع ، والجند قد احتاطوا بها

يحفظونها من الناس من شدة الزحام ، وتزايد الزحام إلى حد لا يبلغ الاحصاء والتقدير ، وقد صاح بين هذا الزحام صائح يقول : « هكذا تكون جنائز أئمة السنة » الجملة التى هاجت الناس وأثارت أحزانهم وحماسهم فارتفعت الأصوات وعلا النشيج .

وصلى عليه عقيب صلاة الظهر فى الجامع الأموى وقد تضاعف اجتماع الناس إلى أن ضاقت الرحاب والأزقة والأسواق أهلها ومن فيها ، وأغلقت الأسواق والمتاجر والمطاعم ، وقد نوى كثير من الناس الصيام إذ كانوا فى شغل شاغل عن الطعام والشراب .

ثم حمل بعد أن صلى عليه على الرؤوس والأصابع ، واشتد الزحام وعلت الأصوات بالبكاء والنحيب والترحم عليه والثناء والدعاء له ، وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم وثيابهم ، وفارقت النعال والقباقيب الأرجل والأقدام وسقطت المناديل والعمائم على الرؤوس والناس لا يلتفتون اليها لشغلهم بالنظر إلى الجنازة وصار النعش على الرؤوس تارة يتقدم وتارة يتأخر وتارة يقف حتى تمر الناس ... وعظم الأمر بسوق الخيل وتضاعف الخلق وكثر الناس ، ووضعت الجنازة هناك وتقدم للصلاة عليه هناك أخوه زين الدين عبد الرحمن ، وحمل إلى مقبرة الصوفية [1] حيث دفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله رحمهما الله .

وكان دفنه قبل العصر بيسير ،وذلك من كثير من يأتى ويصلى عليه ، ولم يتخلف عن الحضور إلا من هو عاجز عن الحضور ، ويحزر الرجال الذين حضروا الجنازة ما بين ستين ألفاً إلى مائة ألف ، عدا النساء ، يقدر عدد الحاضرات منهن خمسة عشر ألف امرأة ، عدا من كن على الأسطحة والغرف ولم يعهد مثل هذا الزحام فى تاريخ دمشق ، ويمكن أن

---

(١) هى المقبرة الشهيرة التى هى مدفن كبار أهل العلم والصلاح كابن عساكر ، وابن الصلاح وابن الاثير ، وأبى الحجاج المزى ، والحافظ عماد الدين بن كثير وغيرهم ، وقد زالت آثارها وتقوم عليها الآن عمارات شامخة ، الا أن قبر ابن تيمية لا يزال باقياً أمام قاعة الجامعة السورية وعمارة مستشفى الولادة ، وقد اتيحت لى زيارته فى ١٠ شوال عام١٣٧٠هـ (٢٨يوليو سنة١٩٥١م) بصحبة علامة الشام الشيخ بهجة البيطار ، وقد حدثنى الشيخ بأن هذه المقبرة درست من القبور فى إحدى الليالى بمناسبة تأسيس عمارة فى الجامعة السورية ، ولما انتشر الخبر فى الصباح أرسل الرئيس شكرى القوتلى إلى مدير الجامعة النصرانى ، وقال له : لو أن قبر ابن تيمية اندرس ماذا عسى أن يكون جوابى لصديقى الملك عبد العزيز بن سعود إذا سألنى عن هذا الحدث فانه من محبى ابن تيميةوأنصاره ، وهنالك أبقى قبر الشيخ ابن تيمية الذى لا يزال موجوداً حتى الآن . (المؤلف).

يكون ذلك فى زمن بنى أمية حين كان الناس كثيرين وكانت دمشق دار الخلافة [1].

صلاة الغائب على ابن تيمية :

وصلى عليه صلاة الغائب فى معظم الأقطار الإسلامية حتى فى أقصى الجنوب والشرق يقول ابن رجب فى ذيل « طبقات الحنابلة » :

« وصلى عليه صلاة الغائب فى غالب بلاد الإسلام القريبة والبعيدة حتى فى اليمن الصين ، وأخبر المسافرون أنه نودى بأقصى الصين للصلاة عليه يوم جمعة وأعلن « الصلاة على ترجمان القرآن » .

كل هذه التفاصيل مما كتبه ابن كثير برواية الشيخ علم الدين البرزالى الذى كان من معاصرى الامام ابن تيمية وزميل دراسته ، انظر البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٣٦-٩ ١٤ .

ذاكرته الموهوبة وذكاؤه النادر :

ان المكانة الاجتهادية فى العلوم الإسلامية التى أحرزها شيخ الإسلام ابن تيمية فى عصره وأن التأثير العميق الذى خلفه على أهل زمانه لامامته فى التفسير والحديث معاً ، وتبحره ونبوغه فى العلوم إنما كان الفضل الأكبر فى ذلك يرجع إلى ذاكرته النادرة وذكائه المفرط ، وكل ذلك نعمة أكرمه الله بها وموهبة اختصه بها ، وكانت العلوم الإسلامية قد توسعت فى عصره وتجمعت ذخيرة واسعة للعلوم النقلية بحيث لم يكن بامكان أحد أن يحيط بها علماً ولا أن يتجرأ على الكلام فى المسائل المختلفة فيها أمام معاصريه الكبار ولا كان يملك حق الاختلاف مع عالم متقدم فى أى مسألة ما لم يكن يتمتع بذاكرة نادرة وذكاء مفرط ، ولكن الذاكرة القوية وقوة الاستحضار التى كان قد أكرم الله بها ابن تيمية مكنته من الاحاطة بالذخائر الموجودة آنذاك من التفسير والحديث والفقه ، وعلم الخلاف والكلام والتاريخ والسير والآثار وعلم الرجال واللغة والنحو ، فقد درس ما تيسر له من الكتب والمواد العلمية وعتها ذاكرته القوية الأمينة ، واستعان بها فى حياته العلمية والتأليفية كما يستعين الجندى المحنك ذخائر كنانته .

كان معترفاً بذاكرته النادرة القوية وذكائه البارز . لدى معاصريه من العلماء وقد اتفق المعاصرون والمتأخرون كلهم على قوة حفظه وسرعة فهمه وشدةذكائه ، يقول زميله فى الدراسة العلامة علم الدين البرزالى « قل ان سمع شيئاً الا حفظه ، وكان ذكياً كثير المحفوظ [(١)] » ويقول الحافظ الذهبى الذى يعتبر من أئمة علم الرجال ومؤرخ الاسلام « ما رأيت أشد استحضار للمتون وعزوها منه ، وكانت السنة بين عينيه وعلى طرف لسانه»[(٢)].

ومن أكبر الشهادات على حفظه للمتون وقوة ذاكرته هو قول معاصريه فيه: « كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث » ولا يخفى أن حفظ ذخائر الحديث الواسعة إنما كان من الصعوبة بمكان ، ولكن الاعتماد على علمه وذاكرته وحدهما فى موضوع الحديث والحكم على أساس قوله لا يمكن ما لم يعترف بأنه أكبر حافظ للحديث فى عصره ، وأن قوة حفظه لا تخذله فى أى حال ولا مجال ، يقول الحافظ الذهبى : « يصدق عليه أن

(١) الرد الوافر ص ٦٦ .

(٢) القول الجلى ص ١٠١ .

يقال : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث » [(١)] .

وحتى قال بعض معاصريه « لم يولد مثله منذ قرون » وهذا معاصره العلامة كمال الدين الزملكانى الذى كان خصمه فى مجلس المناظرة وكان بينه وبين ابن تيمية خلاف كبير فى كثير المسائل يشهد بصفته الموهوبه هذه فيقول :

« لم ير من خمسمائة سنة أو أربعمائة سنة - والشك من الناقل - أحفظ منه [(٢)] .

ويتحدث عن ذكائه المفرط الحافظ الذهبى فيقول : « كان يتوقد ذكاء » ، ويقول فى مكان آخر : « كان آية على الذكاء وسرعة الإدراك » [(٣)] .

التبحر العلمى والجامعية :

لقد تبحر ابن تيمية فى العلوم الإسلامية والموضوعات السائدة فى زمانه وتمتع بصفة الجامعية فى هذه العلوم والفنون بفضل ذاكرته الموهوبة وذكائه النادر وذوقه العلمى الذى ورثه من آبائه ، ثم بجهوده البالغة والمشاق التى احتملها فى سبيل دراسته ، وبفضل التوفيق الالهى قبل كل شئ بحيث أن معاصريه الكبار الذى كانوا يكبرونه فى السن وكانوا أساتذة الفن والذين انتهت اليهم رئاسة التدريس والافتاء وسلمت امامتهم فى العلوم الإسلامية قد قضوا من هذه الصفات عجباً ، وشهدوا أنه بحر العلوم ومكتبة الإسلام الناطقة ، وله فى كل فن براعة تدل على أنه صاحب اختصاص فى هذا الفن ، ولما سافر ابن تيمية إلى مصر فى عام ٧٠٠ هـ ولقى هناك العلامة ابن دقيق العيد أعجب به على ما كان يحتله من المكانة العالية فى علم الحديث ويعتبر أستاذ العلماء وكبيرهم ، وقد عبر العلامة عن اعجابه بابن تيمية فقال : « لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلا العلوم كلها بين عينيه يأخذ منها ما يريد ويدع ما يريد » [(٤)] .

ويبدى عجبه من ابن تيمية زميله العلامة كمال الدين الزملكانى الذى كان عالماً متبحراً بنفسه فى كثير من الفنون فيقول : « كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائى والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن وحكم أن أحداً لا يعرف مثله »[(٥)] .

---

(١) الكواكب الدرية ص ١٤٥ .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٤٥ .

(٣) الرد الوافر ص ٢٩ .

(٤) الرد الوافر ص ٣١ .

(٥) أيضاً ص ٣٠ .

أما العلامة تقى الدين السبكى الذى هو خصمه الشهير ، وألف فى الرد عليهم حول مسألة شد الرحال وفى بعض المسائل الفقهية كتباً مستقلة بذاتها ، وأبدى رأيه عنه فى النظام أيضاً ، فانه بالرغم من ذلك كتب فى رسالة له موجهة إلى الحافظ الذهبى :

« المملوك يتحقق كبير قدره وزخارة بحره وتوسعه فى العلوم الشرعية والعقلية وفرط ذكائه واجتهاده وبلوغه فى كل ذلك المبلغ الذى الذى لا يتجاوزه الوصف ، والمملوك يقول ذلك دائماً (١) ».

ان التاريخ لم يكن من اختصاص ابن تيمية ولم يتوفر على دراسته كتوفره على دراسة العلوم الدينية ولكن الذهبى الذى كان من مؤرخى الإسلام المتصرين فى التاريخ والناقدين له يتحدث عن معرفته بالتاريخ فيقول : « ومعرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب » .

وقد نقل تلميذه النابغة ابن قيم الجوزية حادثاً مدهشاً عن علمه التاريخ وسعة نظره وحضور ذهنه فى كتابه « زاد المعاد » أنه يقول :

« ولما كان فى بعض الدول التى خفيت فيها السنة وأعلامها أظهر طائفة منهم كتاباً قد عتقوه وزوروه ، وفيه أن النبى ﷺ أسقط عن يهود خيبر الجزية ، وفيه شهادة على بن أبى طالب وسعد بن معاذ وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم ، فراج ذلك على من جهل سنة رسول الله ﷺ ومغازيه وسيره وتوهموا بل ظنوا صحته ، فأجيزوا على حكم هذا الكتاب المزور حتى ألقى إلى شيخ الإسلام ابن تيمية (قدس الله روحه) وطلب منه أن يعين على تنفيذه والعمل عليه ، فبصق عليه واستدل على كذبه بعشرة أوجه :

منها أن فيه شهادة سعد بن معاذ وسعد توفى قبل خيبر .

ومنها أن فى الكتب أنه أسقط عنهم الجزية ، والجزية لم تكن نزلت بعد ، ولا يعرفها الصحابة حينئذ فان نزولها كان عام تبوك بعد خيبر بثلاثة أعوام .

ومنها أنه أسقط عنهم الكلف والسخرية ، وهذا محال فلم يكن فى زمانه كلف ولا سخر توجد منهم ولا من غيرهم ، وقد أعاذه الله وأعاذ أصحابه من أخذ الكلف والسخر ، وإنما هى من وضع الملوك الظلمة ، واستمر الأمر عليها .

ومنها أن هذا الكتاب لم يذكره أحد من أهل العلم على اختلاف أصنافهم فلم يذكره أحد من أهل المغازى والسير ، ولا أحد من أهل الحديث والسنة ، ولا أحد من أهل الفقه

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى (ترجمة العلامة تقى الدين السبكى) .

والافتاء ، ولا أحد من أهل التفسير ، ولا أظهروه فى زمان السلف لعلمهم أنهم ان زوروا مثل ذلك عرفوا كذبه وبطلانه [1].

ويمكن تقدير ذكائه وتبحره العلمى بما حدثه أحد معاصريه الشيخ صالح تاج الدين ، أنه يقول :

« حضرت مجلس الشيخ رضى الله عنه وقد سأله يهودى عن مسألة فى القدر وقد نظمها شعراً فى ثمانية ، فلما وقف عليها فكر لحظة يسيرة ونشأ يكتب جوابها ، وجعل يكتب ونحن نظن أنه يكتب نثراً ، فلما فرغ تأمله من حضر من أصحابه فاذا هو منظم من بحر أبيات السؤال وقافيتها ، تقرب من مائة وأربعة وثمانين بيتاً ، وقد أبدى فيها من العلوم ما لو شرح لبلغ مجلدين كبيرين » [2] .

ولما رأى المعاصرون من العلماء والمتأخرون منهم تبحره فى العلوم وجمعه للصفات العالية والمميزات البارزة لم يلبثوا أن وصفوه بأسمى الصفات ، فاعتبروه نادرة الزمان ، امام المحققين ، آخر المجتهدين ، وآية من آيات الله ، حتى يقول ابن سيد الناس (المتوفى عام ٧٣٤ هـ) « لم تر عين من رآه مثله ولا رأت عينه مثل نفسه [3] » ولم يملك الحافظ شمس الدين الذهبى ذلك المؤرخ الكبير الناقد البصير إلا أن يصفه بقوله :

« لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أنى ما رأيت بعينى مثله ، ولا والله رأى هو مثل نفسه فى العلم » .

الشجاعة والاستقلال الفكرى :

لقد كانت شجاعة ابن تيمية وبسالته وصموده ، أمام الموت موضع دهشة عند جميع معاصريه حتى ضباط الجيش وقواد الأتراك ، فان الشجاعة والجرأة التى أبداها ازاء المغول وثبات الجأش الذى ظهر به أمامهم أثار استغراب الجميع ولم يترك « قبجق » نفسه الذى يعتبر من كبار الضباط العسكريين الأتراك وأشهرهم فى عصره إلا وجعله يندهش من شجاعته الفذة التى لا يعرف لها نظير فى حملة العلم ، يصفه الحافظ سراج الدين بالكلام الآتى :

« وكان إذا ركب الخيل يجول فى العدو كأعظم الشجعان ويقوم كأثبت الفرسان وينكى

---

(١) زاد المعاد ج ١١ ص ٣٣٦ فصل فى هدى النبى ﷺ فى عقد الذمة وأخذ الجزية .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٥٤ .

(٣) الكواكب الدرية ص ١٥٤ .

العدو من كثرة الفتك بهم ويخوض هم خوض رجل لا يخاف الموت » (١).

ولكنى لا أريد أن أتحدث هنا عن شجاعته التى أبداها فى ساحة القتال وبلاط الملوك إعلاء لكلمة الحق ، فقد مر بعض التفاصيل عنها فى الصفحات الماضية ، إننى أتحدث هنا عن شجاعته التى ظهرت منه فى مجال العلم والتحقيق والمعارك الكلامية والصدع بالحق .

يعرف أهل العلم من القراء ان ابن تيمية ليس متفرداً فى أكثر المسائل ، فقد نوقشت هذه المسائل من قبل وألفت فى موضوعها رسائل ، وقد وجد فى عصره من كان يوافقه فى آرائه من معاصريه غير أن الجرأة والصراحة اللتين اتسم بهما فى ابداء آرائه وتحقيقاته ، وأعلنهما فى كتاباته وخطبه كان المجلى فيهما ، ولا أدل على صفته هذه مما قام به من شرح التوحيد الخالص ، ورد الاستغاثة والاستعانة بغير الله ، ومعارضة البدع المنكرات السائدة فى عصره ، والكفاح بالقلم واللسان مقال وحدة الوجود ونظرية الحلول والاتحاد ، وهتك الأستار عن تلبيسات المتصوفين الدخلاء والمبدعين المفترين .

ان الجرأة البالغة التى مثلها فى احقاق المسائل والتحقيقات التى كان يراها حقاً سواء كان لها علاقة بالمباحث الكلامية أو المذاهب الفقهية ، وان الاسلوب القوى الذى اتخذه لاثبات عقائده ونظرياته ، وان الأذى الذى احتمله فى هذا السبيل ، كل ذلك ليس حجة على شجاعته واستقامته فحسب بل يدل على عظمته وامامته فى الدين أيضاً ، يتحدث الحافظ الذهبى عن شجاعته واستقامته العلمية والدينية فيعبر عنهما بما يلى :

« اطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون ، وهابوا وجسر هو عليها حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه ، وبدعوه وناظروه وكاتبوه وهو ثابت لا يداهن ولا يحابى بل يقول الحق المر الذى أداه اليه اجتهاده وحدة ذهنه وسعة دائرته فى السنن والأقوال مع ما اشتهر عنه من الورع وكمال الفكر وسعة الإدراك والخوف من الله العظيم ، والتعظيم لحرمات الله ، فيجرى بينه وبينهم حملات حربية ووقعات شامية ومصرية وكم من نوبة رموه عن قوس واحد فينجيه الله » (٢) .

ولا شك أن ابن تيمية إنما كان يمتاز فى تبحره العلمى عن معاصريه ، كما اعترف بذلك معاصروه بكلمات قوية ، غير أن ميزته الأصيلة التى جعلته فذاً بين أقرانه المعاصرين خلدته فى التاريخ لم تكن مجرد تبحره فى العلم ، بل إنما هو استقلاله الفكرى ، وذوقه للبحث

---

١) الكواكب الدرية ص ١٦١ .

٢) الرد الوافر ص ٧١ .

والتحقيق وأسلوبه الاجتهادى ، إنه لم يدرس من العلوم والفنون إلا ما كان قد درسه أكثر معاصريه ، ولكنه شق فيها طريقه الذى سار عليه ، وسرعان ما أحرز مكانته الخاصة ، لقد كان كل العلماء فى زمنه قد تعلموا النحو واعتقدوا فى سيبويه إماماً للنحو واجب الاتباع واعتبروا قوله هو الحجة الأخيرة فى النحو ، ولكن ابن تيمية كان قد درس « الكتاب » لسيبويه دراسة نقد وتحليل ، فلما ذكر أبو حيان النحوى بعض مسائل النحو برواية سيبويه أجابه الشيخ ابن تيمية ، أنه لم يكن نبياً نزل عليه النحو ، بل أنه أخطأ فى ٨٠ موضعاً من « الكتاب » .

وقد أخذ أكثر علماء عصره بالحيطة فى دراسة المنطق والفلسفة اليونانية ، أما الذين كانوا درسوهما ، فقد تأثروا بهما فى قليل أو كثير ، حتى أن حجة الاسلام الغزالى الذى يعتبر أكبر منقذ للفلسفة اليونانية ومطلع على مواضع ضعفها فى جماعة المسلمين لم يتمكن من صون مؤلفاته وحتى كتابه « إحياء علوم الدين » من تأثير العلوم الالهية اليونانية وفلسفة أخلاقها كلياً ، ويتجلى ذلك لكثير من مؤرخى الفلسفة فى كثير من مؤلفاته [1]» .

أما ابن تيمية فانه رفع لواء الثورة على المنطق والفلسفة اليونانية ، ولم يتفاهم معهما فى أى حال ، أنه ناقش مسائل ومقدمات المنطق والفلسفة المعترف بها كناقد بصير وصوفى خبير فى كتابه « الرد على المنطقيين » وتناولها بعملية جراحية ، وزعزع أساسها بالكلية ولم يترك موضعاً إلا وثقبه بسهامه الحادة .

منذ مدة كان البحث والدراسة فى مجال الفقه والحديث قد انحصر فى نطاق محدود ولم يكن يتجرأ أحد أن يخرج عنه ، ولا كانت ذخائرها العلمية تتسع وتنمو منذ مدة طويلة ، وجاء ابن تيمية فاستأنف النظر فى كثير من المسائل الفقهية التى كانت تعتبر مقررة لا تحتاج إلى تفكير أو دراسة من جديد ، وقدم نتائج بحثه ودراساته إلى أوساط العلماء والفقهاء بكل شجاعة وصرامة علمية ، لقد أثار ذلك سواكن العقول وحرك الأوساط العلمية وفتح باب التفكير والدراسة من جديد ، وفى الأخير بدأ يفتى على أساس الكتاب والسنة وآثار الصحابة ، يقول الحافظ الذهبى وابن تيمية لا يزال بقيد الحياة :

« وله الآن عدة سنين لا يفتى بمذهب معين بل بما قام الدليل عليه ، ولقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها » [2].

---

(١) راجع للتفصيل « فلسفة الأخلاق فى الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية » و« تاريخ الأخلاق » للدكتور محمد يوسف موسى .

(٢) الرد الوافر ص ١٧ .

وهو يتقرر فى هذه الاجتهادات أحياناً ، ولا يبعد أن يخطئ كما هو الشأن فى جميع البشر ، ولا يتحتم أن تكون دلائله فى كل مسألة قوية واجبة التسليم ، ولكن الذى لا شك فيه أنه إنما كان جد مخلص فى مقاصده ، وأنه لم يكن يترك مذهب امام من الأئمة أو قول الجمهور ولا كان يستنبط مسألة اتباعاً للهوى أو النفس أو لأجل مصلحة أو حاجة فى نفسه؛ بل أنه كان طالباً للحق ، خاضعاً للدليل ، متبعاً للكتاب والسنة ، وللحافظ بن حجر العسقلانى الشافعى صاحب « فتح البارى » قول فصل فى هذا الموضوع أنه يقول :

« أنه شيخ الإسلام فى عصره بلا ريب ، والمسائل التى أنكرت عليه ما كان يقولها بالتشهى ولا يصر على القول بها إلا بعد قيام الدليل عليه غالباً ، فالذى أصاب فيه وهو الأكثر سيستفاد منه ويترحم عليه بسببه ، والذى أخطأ فيه لا يقلد فيه بل هو معذور لأن أئمة عصره شهدوا له بأن أدوات الاجتهاد فيه ، حتى كان أشد المتعصبين عليه والعاملين فى إيصال الشر إليه وهو الشيخ جمال الدين الزملكانى شهد له ذلك »[(١)] .

إخلاصه وانهماكه :

وميزته البارزة الثانية أنه وقف بنفسه لخدمة علوم الدين أنه لم يسمح لنفسه بأية علاقة بأمر آخر طول حياته ، بينما ظل أكثر معاصريه وزملائه وأترابه - الذين وجد من بينهم كبار المخلصين والفضلاء - يشغلون مناصب الحكومة المختلفة ، أو أنهم كانوا يحملون المسئولية عن منصب دينى أو إدارى ، أو حفظوا بمنحة ملك أو خلعة سلطان أو جائزة ملكية ، أو كانوا يقبلون رواتب الحكومة ، ولكن ابن تيمية ظل فى غنى عن جميع هذه الملابسات ، وكان فى شغل عن كل شئ سوى الاشتغال بالعلم والدين من الافتاء والتدريس والوعظ والارشاد والتأليف والتحقيق ، يشهد بانهماكه الدينى وانصرافه إلى العلم مع الانقطاع عن الدنيا أحد معاصريه بالكلام الآتى :

« وما خالط الناس فى بيع ولا شراء ولا معاملة ولا تجارة ولا مشاركة ولا مزارعة ولا عمارة ولا كان ناظراً أو مباشراً لمال وقف ، ولم يقبل جراية ولا صلة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر ولا كان مدخراً ديناراً ولا درهماً ولا متاعاً ولا طعاماً وإنما كانت بضاعته مدة حياته وميراثه بعد وفاته رضى الله عنه العلم ، اقتدى بسيد المرسلين فانه قال إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورثوا العلم فمن أخذه أخذ

---

(١) الرد الوافر ص ٨٧ .

بحظ وافر »[1] .

ويقول صاحب « الكواكب الدرية » رواية عن الثقات : « إنه كان قد قطع جل وقته وزمانه فى العبادة حتى إذا لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله ومما يزاوله ، لا من أهل ولا من مال »[2] .

لم تمهله أشغاله وأفكاره ، وانهماكه فى العلم والدين وحياته المشغولة (وقد قضى جزءاً وجيهاً منها فى الحبس والاعتقال) أن يتزوج ، فقد عاش طوال حياته عزباً ، اشتغالاً بطلب العلم والمجاهدة ، يتحدث مؤلف « الكواكب الدرية » عن برامجه اليومية واعماله الرتيبة فيقول :

« ولا يزال تارة فى افتاء الناس ، وتارة فى قضاء حوائجهم حتى يصلى الظهر مع الجماعة ثم كذلك بقية يومه ، ثم يصلى المغرب ويقرأ عليه الدرس ، ثم يصلى العشاء ، ثم يقبل على العلوم إلى أن يذهب طويل من الليل ، وهو فى خلال ذلك كله يقضى الليل والنهار يذكر الله تعالى ويوحده ويستغفره »[3] .

إذا كان العلم شغلاً مؤقتاً وخدمة طارئة لأى مدرس أو مفت فانه كان غذاءه ولباسه ، وامتزج بطبيعته ، يقول الشيخ سراج الدين أبو حفص البزار : « وكان العلم قد اختلط بلحمه ودمه وسائره فانه لم يكن مستعاراً بل كان له شعاراً ودثاراً »[4] .

ولا أدل على إخلاصه وورعه من أنه عفا عن أعدائه ومعارضيه فى كل مناسبة ، وأعلن بصراحة ، « أحللت كل مسلم عن إيذائه لى » وإننا نستطيع أن نقدر مدى ورعه وسماحة نفسه وإخلاصه بقصة عفوه عن أكبر معارضيه القاضى ابن مخلوف بعد عودة السلطان الناصر ، ورغم إلحاحه على عدم الصفح عنه ، وبما أثنى على القاضى وجميع شركاء المملكة وعلمائها للسلطان الناصر ، وشفاعته لهم إليه ، وقد ثبت بذلك أن كل خلافاته إنما كانت على الأساس العلمى والدينى لا تشوبها شائبة من النفسانية والعداوة ، إنه خلف ذخيرة من الآثار العلمية والمؤلفات القيمة التى تعتبر مفخرة لجماعة من أهل العلم فى حياته البالغة ٦٧ سنة الحافلة بالحوادث والوقائع الشاذة نتيجة إخلاصه وانهماكه ، وخلف نتيجة لذلك أيضاً تأثيراً عميقاً فى عصره يؤهله بكل جدارة أن يسمى رائد عهد جديد وذا شخصية قوية تغير مجرى التاريخ .

---

(١) الكواكب الدرية ص ١٥٦ و ١٥٧ .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٥٦ .

(٣) و(٤) الكواكب الدرية ص ١٥٦ .

خصائصه التأليفية

إن مؤلفات ابـن تيمية تتفـرد بخصائص بارزة تميزها مـن بين مؤلفات عصره علـيها من قرون عديدة وحـدثت فى خلالها ثورات فى دنيا العـلم والتفكير ، وقد أنتج علـيها قرون عـديدة وحدثت فى خـلالها ثورات فـى دنيا العلم والتـفكيـر ، وقد أنتج ذلك أنهـا تنال الاعجـاب والقبـول من جديد فى هذا العـصر الولوع بالـتجديد والعـقلية ، وهنـاك أربعة جوانب ذات أهمية فى هذه الخصائص :

١- كل دارس لمؤلفات ابن تيمية يرجع بانطباع أن مؤلفها عارف بمقاصد الشريعة ومطلع على روح الدين ، وأنه آخذ بأطراف الدين وأصوله ولذلك فانه يركـز بحثه فى كل أمر من أموره علـى الأصول بحيث يشـفى العليل ويروى الغليل ، ويبـعث الطمأنينة واليـقين فى النفس، إنه يضغط على الأصول دون الفروع ، ويبدأ كل بحث بأسلوب يشعر القارئ بأنه هو طبيعـة الدين وروحه ، ومقتـضى الشريعة المحمدية بالبـداهة والاضطرار ، إن السر فى تفوقـه بازاء معـاصريه والمؤلفين الآخرين هـو اطلاعه على مقـاصد الشـريعة وروح الدين وشرحه الناجح لهما ، وذلك ما يتجلى فى كل ما ألفه من صغير وكبير ، ولا سيما عندما يبحث فى العقائد والمسائل الكلامية والفقهية المهمة .

٢- الميزة الثانيـة البارزة أن كتبه تفـيض حيوية ويبدو أنها لم تـؤلف فى ركن من المكتبة منزو أو جزيرة منقطعة عن الناس ، بل أنها ألفت فى معترك الحياة وأوساط العامة ، إن من يدرسها يستطيع أن يعين ويقدر العصر الذى ألفت فيـه بسهولة عقلية المجتمع وأخلاقه الذى كان يتصل به مؤلفها [(١)].

كما أن مؤلفـاته تشير إلى عواطفه وحماسـه ، وحبه وكراهيته ، ويبدو أن مـؤلفها كان صاحب عقل واع ، وقلـب حساس ومشاعـر حية قوية ، ولم يكن مجـرد آلة للكتابة ولا محض عقل .

وكذلك أسلوب تفسيره يتسم بارتباطه مع الحياة ، أنه يطبق الآيات القرآنية على ما حوله من الحياة والانسـان ويستعرض الحياة من وجـهة نظرها ، ويتناول معاصريه وطبـقات الأمة المختلفة بالاحـتساب ، أنه يضع الأصبع فى مواطن الإنحـراف عن هذه الآيات والحقائق ،

---

(١) وكنموذج اقرأ كتابه « اقتضاء الصراط المستقيم » ، « مخالفة أصحاب الجحيم » .

ويخبر بنتائج ذلك [1] ، أن ميزة الحيوية هذه منحت مؤلفاته حياة طويلة وتأثيراً عميقاً وروعة عجيبة قد تندر فى مؤلفات غيره ، وقد تكون مفقودة فيها .

٣- أنه يجمع معلومات ومواد فى كل موضــوع يطرقه ، فى عشرات من الكتب ومئات من الصفحات إن أسلوب تـأليفه هذا - الذى يمكن أن يسمى أسلوباً موسوعـياً - أبرز ميزة لجميع مؤلفاتهه سواء كانت فى المباحث النقلية أو العقلية ، وهكذا فان كتبه تجمع معلومات كثـيرة وفيرة تغـنـى أكثر الأحيـان عن مكتبة بل تقـوم مقامـها ، ويستـغنى بها الطالب عن مراجعة المصادر والمباحث .

وطالما يفلت منه طرف البـحث فى تأييـد كلامـه بالمواد والمعلومات ، حـتى أن الدارس يضل فى خضم الأقوال والشواهد ، ويتعسر عليه التغلب على البحث ، ولكن على الرغم من ذلك لا يستـهان بجانب الإفادة فى كـتبه وهو أنهـا مخزن أقوال المعـاصرين وآرائهم ، وموسوعة صـغيرة فى مواضيعهـا ، أنه حفظ كثيراً من المواد والمعلومات القـديمة وكثيراً من الآراء والأفكار فى كـتبه ، وصـانها من الضـياع وهى منة علمـية كبـرى لا تنسى من ابن تيمية .

٤- تمتـاز كتـبه بين كـتب الفقـه والكلام العامـة بخلوها من الجفـاف ، والتـعقـيد ، والاختصار الأمر الذى يعتبر سمة الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع ، ولكن بالعكس من ذلك إن مؤلفـات ابن تيميـة تتسم بالســلامة والقوة والعـربية ، وأحيـاناً بصفة البـلاغة والأدب والخطابة من غير قصد ، تلك التى تجعل كتبه (وأكثرها دفاتر ضخمة) ذات روعة وحيوية وقوة ، سـيما عندمـا يبحث هو فى ترجـيح مذهب السلف وفى تفوقـهم العلمى والدينى وفضلهم العملى والفكرى يـستمد قلمه قوة ويسـتوحى بحثه صفة من الرجـز ، لقد تحدث معاصـروه والمؤلفون عن حياته وبـلاغته وخطابته صـفة خاصة ضمن الحـديث عن أحواله وفضائله ، يقول الحافظ أبو حفص :

« يجرى كما يجرى التيار ، ويفيض كـما يفيض الحر ، ويصير منذ يتكلم إلى أن يفرغ كالغائب عن الحاضرين ، مغمضـاً عينيه ، ويقع عليه إذ ذاك من المهابة ما يرعد القلوب ، ويحير الأبصار والعقول » [2] .

يبدو من دراســة مؤلفاته أن سلاسـة الألفاظ وفيضـان العلم ، لا يختصان بمجـالسه بل

---

(١) اقرأ تفسير سورة النور وسورة الإخلاص وما إلى ذلك ، لابن تيمية .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٥٥ .

يشارك قلمه لسانه ، هكذا أبدى الأقشهرى انطباعه عنه فى رحلته ، إذ أنه يقول « وقلمه ولسانه متقاربان » .

وعلى هذا الاعتراف بمحاسنه لا بد من الإشارة إلى بعض جوانب الضعف . لكل مؤرخ ناقد ، وهى أن فى كتبه ومباحثه اضطراباً ، وانتقالاً من معان إلى أخرى ، وبدء بحث جديد بأدنى مناسبة ، كما أنها تتسم بالاطناب والتطويل ، ولا شك أن ذلك مما يسبب حيرة شديدة للقارئ لا سيما إذا كان يجهل أسلوبه وطراز تأليفه ، إن السبب الكبير لذلك إنما هو حدة ذهنه وفرط ذكائه ووفرة علمه وحماس طبيعته ، ويبدو أن ذهنه وقلمه لا يكادان يستقران فى مجال البحث على نقطة واحدة وترد إليه الخواطر وينتقل ذهنه بسرعة بالغة ، لا تضع عليهما حداً ، وذلك ما كان يتصف به دروسه ، يقول تلميذه أبو حفص البزار :

« كان ابن تيمية إذا شرع فى الدرس يفتح الله عليه أسرار العلوم وغوامض ولطائف ودقائق فنون ونقول ، واستدلالات بآيات وأحاديث ، واستشهاداً بأشعار العرب ، وهو مع ذلك يجرى كما يجرى التيار ، ويفيض كما يفيض البحر »[1] .

وهذه الخصيصة من وفرة المعلومات وكثرة البراهين والدلائل وتموج ذهنه هى التى كانت تسد الطريق على مناظريه فى مجلس المناظرة ، أنه كان يدخل فى ثنايا بحثه ومناظراته علوماً ومسائل تعسر على خصمه أن يرتكز على بحث واحد وينضبط فى مسألة واحدة ، وذلك ما جعل العلماء والفقهاء فى مصر والشام يتجنبون مناظرته فى المجالس العامة ، ويعتذرون إليه ، وقد عبر عن هذه الصعوبة أحد معاصريه ومناظريه الفضلاء الشيخ صفى الدين الهندى بكلامه الآتى :

« ما أراك يا ابن تيمية الا كالعصفور حيث أردت أن أقبضه من مكان فر إلى مكان آخر»[2] .

ان هذه الطبيعة العلمية (التى ليست نتيجة نقص أو عيب بل أنها دليل على كثرة معلوماته ووفرة فضله وذكائه وعلمه) توجد فى مؤلفاته ، فاذا تجلد الطالب الصادق ودأب على الغوص فى بحره فلا شك أنه يرجع منها بدرر ثمينة ولآلى فاخرة .

---

(١) الكواكب الدرية ص ١٥٥ .

(٢) نزهة الخواطر ج ٢ ص ١١٤٠ ، ترجمة محمد بن عبد الرحيم الارموى (الشيخ صفى الدين الهندي) .

أسباب معارضة ابن تيمية

بين نقاده والمدافعين عنه

ينشأ هنا سؤال فى نفس كل انسان سليم الطبع ، وهو أن ابن تيمية على رغم تبوئه هذا المنصب العالى للعلم والدين وتحليه بالفضائل الفكرية والتدين والإخلاص إلى حد الإبداع والتفرد ، لماذا خولف وعورض هذه المعارضة الشديدة [1] ؟ من قبل معاصريه وبعض المتأخرين من العلماء ، ولماذا ظلت شخصيته موضع بحث وانتقاد منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا ؟ ، ولماذا لم يتفق الناس على عظمة هذا الانسان الجامع للفضائل والكمال .

ان هذا السؤال حق ، ويجدر أن نرد عليه فى وضوح وصراحة فى ضوء سيرته وتاريخه المعاصر .

١- إن وجود فريقين منافسين فى شخصية وصراعهما فى تحديد مكانتها لدليل على عظمتها قبل كل شئ ، فان الشخصيات التى لمعت فى التاريخ وتميزت بفضائل خارقة للعادة لما واجهت هذا الوضع دائماً ونالت تأييد فريق وإعجابه ، ومبالغة فى مدحها والثناء عليها وإنتقاد فريق آخر ومعارضته ، ومغالاته فى الحط من شأنه ونقص منزلته ، إنها تجربة مستمرة للتأريخ ، فيما يتصل بالشخصيات العظيمة ذات العبقريات حتى أن بعض فلاسفة التاريخ وعلم النفس ، وأصحاب البصيرة للعظمة والعبقرية اعتبروا ذلك من مبادئ العظمة وشروط العبقرية .

٢- كان ابن تيمية أعلى من المستوى الفكرى والعلمى للجيل الذى نشأ فيه ، وكان ذلك بلاء عظيماً لمعاصريه إذ أن السمو على المستوى السائد نعمة موهوبة ومنحة من الله يغتبط عليها ، الا أن صاحب هذه النعمة يضطر إلى دفع ثمن باهظ لها ، أنه يعيش فى بلاء مستمر ومحنة دائمة من قبل معاصريه ، كما أن أولئك المعاصرين يعانون من شقاء ومصيبة طول حياتهم من أجله ، وذلك لأنهم لا يسايرون طراوة فكره ، وعلو نظره ، وقوة اجتهاده ، ولا يستطيعون أن يتوصلوا إلى آفاق علمه وفكره العالية .

هذا وهو لا يقدر على أن يبقى مقيداً محدوداً فى مصطلحاتهم المحدودة المرسومة

---

١) لا يغيبن عن البال أن هناك فرقاً بين المخالفة والإختلاف ، إذ أن الإختلاف حق لأهل العلم والتحقيق دائماً ، لا يمكن سلبه من العلماء فى أى زمان ، ولذلك فاننا لا نعنى هنا الاختلاف مطلقاً بل نبحث فى المخالفة وأساس تضليله وتكفيره .

وحدودهم المدرسية ، بل أن يطير بحرية فى أجواء العالم والفكر الواسعة ويسبح فى بحار الكتاب والسنة الزاخرة ، إن مبلغ علمهم لا يعدو فهم كتب المتقدمين وأهل التديس ، أما هو فانه يكون مجتهداً ومجدداً فى علوم كثيرة وقد يكون مرسياً لقواعد بعض الفنون ، مبتكراً لها .

وبالجملة فان تفاوت المدارك والكفاءات يحدث صراعاً عجيباً - لا يكاد ينتهى - بينه وين معاصريه المخلصين فلا يستطيع أن يقنعهم فى حال ما ، ان أصحاب الفضل ومجتهدى الفن من العلماء واجهوا هذه المشكلة فى كل زمان ، أنهم وجدوا أن تحقيقاتهم وعلومهم تعدت المستوى العلمى والدراسى السائد فى عصرهم ، فلم يتمكن من فهمها والتغلب عليها أولئك العلماء الذين لم ينطلق فكرهم من نطاق الكتب المتداولة ، وذلك هو العامل الكبير لمعارضة كثير من أهل العلم (١) .

٣- إن طائفة من المعارضين إنما كانت تعارض هؤلاء العباقرة على أساس أنهم إنما كانوا يسيطرون على رجال الحكومة وينالون إعجاب الجميع من العامة والخاصة بفضل ذكائهم وعلمهم ، وعلو مكانتهم وجمال شخصيتهم ، لا يقوم أحد أمام علمهم وبيانهم ، إنهم يستولون على الجميع حيثما كانوا ، فان درسوا أوحشت مجالس دروس الآخرين ، وإن خطبوا تتدفق منهم بحار العلم ولقد أشار الحافظ الذهبى فى الفقرة التالية ذات المغزى الدقيق إلى كوامن النفوس هذه ، يقول : « غير أنه يغترف من بحر ، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقى » (٢) .

ولا شك أن العلماء فى كل عصر إنما كانوا بشراً يتمتعون بأفكار ومشاعر البشر فلا غرابة إذا كان سبب معارضتهم لدى كثير منهم ما يسمى فى عصرنا بمركب النقص ، وضعف الطبيعة البشرية ، ذلك الذى يتعسر التحرز منه ، إن المؤرخين حينما يتحدثون عن أسباب العداوة والمعارضة مع الإمام أبى حنيفة ينشدون البيت الذى يصدق فى كل عصر .

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه   فالناس أعداء له وخصوم

---

(١) لقد أشار إلى هذه النقطة أفضل المتأخرين شيخ الإسلام ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى فى مؤلفاته، يقول فى موضع من كتابه « ازالة الخفاء » « بما أنك لم تقرأ هذه المقدمة فى كتب علم الكلام بمثل هذه الروعة يحتمل أن تتطرق إلى قلبك وحشة » ، ويقول فى مكان آخر « ان فهم هذا المعنى فى غاية من الدقة ، فان الجماعة التى لا يتجاوز علمها شرح الوقاية والهداية كيف تستطيع أن تدرك هذا السر الدقيق » ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٤٥ .

٤- إن السبب الطبيعي لمعارضته لدى كثير من المعاصرين خصيصة كانت فى نفس شيخ الإسلام تلك التى توجد عند كثير من أهل الفضل الذين يتميزون بذكاء غير عادى وسعة النظر وكثرة المعلومات وأعنى بها حدة الطبيعة ، التى تبعثهم فى بعض الأحيان على تناول مض معاصريهم بالنقد اللاذع وإظهار جهلهم وغبائهم وقلة علمهم ، وتخرج من أفواههم من شدة التأثر كلمات تجرح شعور أهل العلم من معاصريهم والمعجبين بهم تثبط همة تلاميذهم ، الأمر الذى يبذر فى قلوبهم بذور النفور والعداوة الدائمة ، وذلك ما ينتج صدار فتاوى الكفر والضلال عليهم ، والمعارضة المستمرة والتربص لهم بالدوائر .

لم يصرف معاصرو شيخ الإسلام ومترجمو حياته نظرهم عن تلك الخصيصة الطبيعية لتى كانت نتيجة أحواله وفضائله العلمية والفكرية إلى حد كبير كلما تحدثوا عن فضائله مناقبه وأحواله ، يقول الحافظ الذهبى الذى كان معجباً بفضائله العلمية والدينية :

« تعتريه حدة فى البحث وغضب وصدمة للخصوم ، تزرع له عداوة فى النفوس ولولا لك لكان كلمة إجماع ، فان كبارهم خاضعون لعلومه ، معترفون بأنه بحر لا ساحل له ، كنز ليس له نظير » .

ونجد فى حياته عدداً من أحداث تؤكد أنه لم يتمكن من تحمل قلة فهم أو قصر نظر دراسة لمعاصره فى أى مسألة دينية وعلمية ، فلم يلبث أن جهر بذلك حتى أن معاصره باد منافساً ومعانداً له بصورة دائمة ، ففى مسألة الزيارة حينما رد عليه تقى بن الاخنائى لمالكى وقرأ رسالة رده تصدى للرد عليها ، وقال فيها أنه قليل العلم والمعلومات ، لا صلح للكتابة فى هذه المسألة ولكن نقدم هذا سبب محنته وإيذائه ، فقد يرى بعض مترجمى حياته ومؤلفى سيرته أن ذلك هو السبب فى اعتقاله الأخير وطول أسارته ومصادرة دوات كتابته [1] .

وهكذا حضر أبو حيان المفسر الذى كان يعتبر امام عصره فى النحو ابن تيمية معجباً به معترفاً بفضله وكان قد قرض قصيدة فى مدحه كان مطلعها :

لما أتانا تقى الدين لاح لنا ... داع إلى الله فرد ماله وزر

ومن جملتها قوله :

يا من يحدث عن علم الكتاب أصغ ... هذا الامام الذى قد كان ينتظر

---

١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٣٤ .

وفى ثنايا الكلام دار الحديث حول مسألة نحوية ، فأورد ابو حيان مذهب سيبويه مؤيداً جانبه ، وكان يتوقع أن يسكت ابن تيمية ويعترف بفضل سيبويه ، ولكنه رد عليه قائلاً : «ان سيبويه ليس نبياً للنحو معصوماً عن الأخطاء بل أنه أخطأ فى « الكتاب » فى ثمانين موضعاً ، لا تستطيع أن تتفطن لها » ، وما أن صادف أبو حيان هذا الكلام الشاذ من ابن تيمية إذ تنغص خاطره ، حتى أخرج قصيدة ابن تيمية من ديوانه ، ولم يعد معجباً بابن تيمية بل أصبح من معارضيه ونقاده .

٥- وسبب آخر لمعارضته هو بعض تحقيقاته وترجيحاته التى يتفرد بها ، وينشق فيها عن جماعة الأئمة الأربعة والمذاهب المشهورة فى بعض الأحيان ، إن هذه التفردات لا تبعث وحشة واستنكاراً فى نفوس من لهم اطلاع واسع على تاريخ الفقه والخلافيات وأقوال الأئمة والمجتهدين ومسائلهم إنهم يعرفون جيداً أن تفردات الأئمة المشهورين والأولياء المقبولين ومسائلهم الغريبة إذا جمعت ، تتضاءل أمامها هذه التفردات وتبدو لهم كل شئ ، ويتضعضع اعتقادهم بالتفرد الذى يعتبرونه مضاداً للقبول ومنافياً للحق ، ويشترطون لعظمته وولايته أن لا يكون له رأى أو تحقيق يعارضان الآراء والتحقيقات المشهورة .

أما الذين يملكون نظرة واسعة حول الخلافيات أو أنهم يسمحون بالتفرد والشذوذ للمتقدمين لكنهم لا يرون فى ذلك مندوحة للمعاصرين مهما بلغوا من التفوق والكمال شأواً بعيداً ، فقد أصبح لهم هذا التفرد أيضاً مبعثاً للمخالفة وفساد العقيدة والضلال ودليلاً على خرق الاجماع وما أعدل وأجمل كلام الحافظ بن حجر العسقلانى (وقد تقدم فيما مضى) وأبعد من الافراط والتفريط فى هذا الموضوع ، أنه يقول :

« فالذى أصاب فيه وهو الأكثر يستفاد منه ويترحم عليه بسببه ، والذى أخطأ فيه لا يقلد فيه بل هو معذور » .

٦- وهناك سبب آخر قوى لمعارضته ، وهو أنه خالف ذلك الأسلوب فى تأويل الصفات والمتشابهات الذى كان يعرف باسم « العقيدة الأشعرية » بل باسم عقيدة أهل السنة، وكان الناس يرون العدول عنه نوعاً من الجهل أو معارضة أهل السنة ، وقد أسلفنا التفصيل أن الامام ابن تيمية خالف ذلك بكل جرأة وقوة ، وشرح مذاهب الصحابة والتابعين رضى الله عنهم والأئمة المجتهدين والمتكلمين ، والمتقدمين والامام أبى الحسن الأشعرى ، والقاضى أى بكر الباقلانى وامام الحرمين بأقوالهم ومؤلفاتهم ، وأثبت من مقتطفات كتبهم أن هؤلاء الأئمة كلهم إنما يوجبون الإيمان بالصفات ، إنهم يعترفون بحقيقتها التى تتفق وعظمة الله سبحانه وتعالى أو تنطبق على قوله ﴿ ليس كمثله شئ ﴾

وتتنزه من النفى والتعطيل والتشبيه والتجسيم ، إنهم يدعون أنه لم يثبت خلاف ذلك لفظ واحد لا نصاً ولا ظاهراً من الصحابة والتابعين والسلف رضى الله عنهم .

لقد كان العالم الإسلامى آنذاك تحت تأثير العلماء والمتكلمين الأشعريين ، ولذلك فان اختلاف ابن تيمية الذى كان مؤسساً على أسس علمية خالصة ، اعتبره الناس نوعاً من البدعة ، ومرادفاً لقوله تعالى ﴿ يتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ واتهموه بالتجسيم .

وبما أن العلماء فى ذلك العصر كانوا يرون أنه لا مناص منه قد أطبقوا على « التأويل » ركز ابن تيمية كل قوته على رد التأويل ، وقد شك الناس بجهره برد التأويل فى اعتقاده ورموه بالتجسيم ، وغالوا فى ذلك إلى حد أنهم نسبوا اليه روايات تؤكد أنه من الفرقة المجسمة ، مثلاً أنه كان يخطب فى الجامع الأموى بدمشق ونزل من درجة المنبر إلى أدناها وقال : ان الله تعالى ينزل كنزولى هذا [1].

ان الامام ابن تيمية وتلاميذه كلهم نفوا هذه التهمة وأبدوا وعادوا براءتهم عن التجسيم ولكن كتاباته القوية فى معارضة التأويل التى كانت عن ضرورة قدمها معارضوه كدليل على عقيدة تجسيمه ، وقد كان ذلك أقوى سبب من الأسباب التى دعت كثيراً من العلماء وأتباعهم إلى معارضته ، والواقع أن الطريق بين التأويل والتجسيم شائك حرج بحيث لا يتسنى لكل انسان أن يفهم الفرق بينهما ، وقد لوحظ أن عدداً من الحنابلة ومنكرى التأويل تسربوا إلى ثغر التجسيم ، فلا غرابة فيما إذا رمى ابن تيمية بالتجسيم فى مثل هذه الأوضاع ، على أن الحقيقة تؤكد أنه كان بريئاً من هذه التهمة كل البراءة .

٧- وسبب آخر لمعارضته هو مخالفته للشيخ محيي الدين بن عربى ، فان ذلك ذنب لا يغتفر لدى كثير من الناس ولا سيما الذين يغالون فى المذهب الصوفى ويتجهون إلى أنهم يرون أن نفيه لمذهب وحدة الوجود ورده على آراء الشيخ محيى الدين وتحقيقاته المشهورة يكفيان للقضاء على جميع فضائله ومحاسنه التى كان يتحلى بها .

وليس شيخ الإسلام ابن تيمية هو الفريد فى نقده لآراء الشيخ محيى الدين بن عربى

---

(١) سجل ابن بطوطة هذه القصة فى رحلته كحادث رآه بعينه ، وقد سألت علامة الشام الشيخ بهجة البيطار عن هذه القصة فقال إنها لا تستند إلى أصل تاريخى ، فان ابن بطوطة يتحدث عن وصوله إلى دمشق فى رمضان ٧٢٦هـ والمعلوم أن شيخ الإسلام ابن تيمية كان قد اعتقل فى ٧٢٦هـ ثم أنه لم يكن خطيباً فى الجامع الأموى فى أى زمان ، وكان الشيخ جلال الدين القزوينى هو خطيب الجامع الأموى فى عهده ، وهذا يؤكد أن ابن بطوطة التبس عليه الأمر أو أنه زور الكلام .

ومذهبه ، بل يوافقه في هذا الاتجاه بعض كبار الصوفية وأئمة الطرق المحققين ، قد حمل لواء الرد على الشيخ محيى الدين ، ومخالفة مذهبه في وحدة الوجود الامام أحمد بن عبد الأحد السرهندى ، امام الطريقة المجددية النقشبندية ، فى رسائله الخالدة ، وانتهت إليه رئاسة معارضة الشيخ والدفاع عن العقيدة السنية ، ورسائله مملوءة بهذه التصريحات ، ونكتفى هنا بنقل واحد ، يقول رحمه الله فى رسالة وجهها إلى أحد أصحابه :

« إن أكثر معارفه التى تتعلق بالكشوف وتعارض علوم أهل السنة بعيدة عن الصواب ولا يتبعه فيها إلا من هو مريض القلب أو أنه مقلد بحت » [1] .

وقد ذكر العلامة نعمان الآلوسى صاحب جلاء العينين قائمة لأولئك العلماء الذين كانوا يؤيدون ابن تيمية فى هذه المسألة ، وقد ألف عدد منهم رسائل مستقلة فى هذا الموضوع نجد من بينهم العلامة السخاوى ، والعلامة سعد الدين التفتازانى ، والعلامة نور الدين على بن سلطان محمد الهروى المعروف بملا على القارى ، والحافظ بن حجر العسقلانى ، وأبا حيان المفسر وشيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، والحافظ أبا زرعة وشيخ الإسلام سراج الدين البلقينى ، شخصيات لامعة من الأئمة الأعلام وعلماء الإسلام [2] .

ثم أن مخالفة شيخ الإسلام ابن تيمية مع الشيخ الأكبر لا تقوم على أساس الشخصية أو العاطفة ، إنما هى مخالفة باعثها الحمية الدينية والغيرة الشرعية ، يزخر بأمثلتها تاريخ السلف والخلف ، فان أهل الحمية الدينية والمحافظين على الشريعة كلما رأوا كلاماً لأحد يعارض السنة ونصوص الشريعة ويتنافى مع عقائدها القطعية المتواترة تصدوا للرد عليه ، ولم تحل دون ذلك عظمة صاحب ذلك الكلام وشهرته ولا آثار ولايته وقبوله العام ، وذلك لأن حرمة الشريعة وعظمة مكانه النبوة فوق كل حرمة وعظمة ، وان الشيخ السرهندى نفسه لم يستطع أن يضع حداً على حماسه العمرى وسورة حميته الدينية وتصدى للرد على مثل هذه الأقوال بكل قوة ، أخبره أحد العلماء المعاصرين مرة أن الشيخ عبد الكبير اليمنى لا يؤمن بعلم الغيب لله تعالى فرد عليه قائلاً :

« يا سيدى ، ان هذا الفقير لا يحتمل أن يسمع مثل هذه الترهات ، فان العرق العمرى الذى ورثته عن آبائى ينبض ويثور ويفور فى ، ولا يتركنى أن أؤول مثل هذا اللغو من الأقوال وإن كان الذى يقوله الشيخ عبد الكبير اليمنى أو الشيخ الأكبر الشامى ، ان الحجة

(١) مجموع رسائل رقم ٢٦٦ .

(٢) جلاء العينين للعلامة خير الدين نعمان ابن العلامة محمود الآلوسى ص ٤٣-٤٤ .

فى كلام سيدنا محمد العربى (عليه وعلى آله الصلاة والسلام) ، لا فى كلام محيى الدين بن عربى وصدر الدين القونوى ، وعبد الرازق الكاشى ، إنما يعنينا النص[1] لا الفص[2] ، وقد أغنتنا الفتوحات المدنية [3] عن الفتوحات المكية » [4].

هذه الحمية والغيرة ، وهذا الاختلاف والانكار ، ذلك الذى لا ينبعث الا من الحمية الدينية والانتصار للكتاب والسنة وايثار جانب الله والرسول ﷺ على كل شئ سواهما ، وهذا الحب الخالص لمن يستحق الحب والاحترام ، ليس كل ذلك ما يعد من المعائب ، إنما يجدر أن يعتبر ذلك من أفضل المناقب وأعلى الفضائل ، إذ أنه مصداق كامل لما صح من حديث :

« ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن أحب عبداً لا يحبه الا الله ،ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » [5].

٨- وأصيبت طائفة بسوء ظن كير به ومغالطات كثيرة فى بابه ، فقد نسب إليه بعض المؤلفين الحاقدين عليه أقوالاً توجب الكفر ، وفقاً لمذهب الجمهور ومعتقدات أهل السنة العامة ، كما نسبت إليه أقوال أخرى تحط من شأن صاحب النبوة العظمى وتسئ إليه (أعاذنا الله وجميع المسلمين منه) ولم يكن ابن تيمية وحده هدفاً لهذه المعاملة الشنيعة بل تناول المعاندون رجال الأمة الآخرين أيضاً بهذه المؤامرة الدنيئة ، إنهم لم يكتفوا نسبة تلك الأقوال والعقائد التى كانوا أبرياء منها بل زادوا فى مؤلفاتهم من المواد التى تستوجب الكفر والضلال ، وتقدموا خطوة زائدة فألفوا كتباً بذاتها - مشتملة على مواد الكفر - ونسبوها إليهم ، جاهدين فى نشرها على أوسع نطاق ، هكذا عومل حجة الإسلام الامام الغزالى من قبل معارضيه ، إذ أن جماعة كبيرة من العلماء تعتقد أن الكتب التالية :

« المضنون به على غير أهله » و« المضنون به على أهله » و« معارج القدس » و« مشكاة الأنوار » ضحولة إليه ، فعل ذلك أعداؤه وحساده ، ويقال أن بعض مؤلفات الشيخ محيى

---

(١) يريد به نصوص الكتاب والسنة .

(٢) يشير إلى كتاب الشيخ محيى الدين ابن عربى المعروف ب« فصوص الحكم » .

(٣) يريد بها تعاليم الكتاب والسنة .

(٤) كتاب الشيخ محيى الدين ابن عربى المعروف ب « الفتوحات المكية » .

(٥) متفق عليه .

الدين بن عربى دس الناس فيها مواد وآراء تخالف مبادئ الإسلام وما ثبت بالضرورة فى الإسلام ، كما يقول الامام الشعرانى ، وقد جرب هو نفسه فى كتبه أيضاً قصة تثير الاستغراب والدهشة ، يقول فى « الأجوبة المرضية » :

« لقد ألحق بعض الحساد إلى كتابى « البحر المورود فى المواثيق والعهود » زيادات كانت تعارض الشريعة ، وتولوا اشاعتها فى الجامع الأزهر وغيره ، حتى نجمت بذلك فتنة ، وهنالك اضطررت إلى أن أقدم النسخة الصحيحة الأصلية من كتابى إلى العلماء فكتب عليه كبار العلماء ومشايخ الإسلام تزكية وتصديقاً ، ومن ثم اطلعوا على حقيقة تلك الزيادات التى كان قد ألحقها الحساد إلى كتابى ، وماتت الفتنة » .

ولا شك أن المعاملة القاسية التى لقيها ابن تيمية من بعض المعاصرين والمتعصبين تؤكد أن كثيراً من أقوال الكفر والعبارات التى يستدل بها على الاساءة إلى مقام الرسالة العظمى وقلة الأدب معه (أعاذ الله شيخ الإسلام وجميع المسلمين منها) ، مما حمل كثيراً من المخلصين والعلماء ذوى حمية دينية على معارضته بل على تكفيره وضلالته ، وقد غالت طائفة من معارضيه وأعدائه فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع إلى حد أنها أصدرت فتوى بأن من يسمى ابن تيمية شيخ الإسلام فهو كافر[1] فألف حافظ الشام شمس الدين الشهير ب« ابن ناصر الدين » الشافعى (م ٨٤٢ هـ) رداً على هذه الفتوى واثباتاً لفضل شيخ الإسلام ابن تيمية وعظمته وامامته ، وبراءته من هذه الأقاويل كتابه الشهير «الرد الوافر على من زعم أن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام فهو كافر» [2]، جمع فيه

---

(١) يتقدم هذه الطائفة الصغيرة الشيخ محمد بن محمد البخارى المشهور بعلاء البخارى ، ولد سنة ٩٧٧هـ وتوفى ٨٤١ هـ، وكان فقيهاً حنفياً ولد بايران ونشأ ببخارى ورحل إلى الهند ثم إلى مكة ومصر وأقام بهما طويلاً ثم انتقل إلى دمشق ومات فيها ، وكان شديد الانكار على ابن تيمية وعلى الشيخ محيى الدين ابن عربى فى وقت واحد ، وألف فى الأخير كتاباً أسماه « فاضحة الملحدين وناصحة الموحدين » .

(٢) صدر هذا الكتاب فى مجموعة ألفها ورتبها فرج الله زكى الكردى ، واهتم بطبعها الشيخ عبد القادر التلمسانى فى مطبعة كردستان العلمية فى مصر عام ١٣٢٩ هـ ، وقد أصدر المكتب الإسلامى فى بيروت طبعة جميلة منقحة بتحقيق صديقنا الفاضل الأستاذ زهير الشاويش مع حواش مفيدة وفهارس عديدة سنة ١٣٩٤ هـ ، فكان عملاً مشكوراً ، والكتاب أثمن ذخيرة تحتوى على حياة الشيخ وسيرته (المؤلف) .

شهادات من ٨٧ عالماً واماماً وآرائهم وانطباعاتهم واعترافاتهم بعظمته وامامته ، وقدم لهذا الكتاب الحافظ بن حجر العسقلانى والعلامة العينى وافاضا فى الثناء على ابن تيمية وتأييده، وأبديا أنه كان صحيح العقيدة وسنى المذهب وشيخ الإسلام لا نزاع ، حتى أن العلامة بدر الدين العينى قال فيما كتب « من نسبه إلى الزندقة فهو زنديق ، وقد سارت تصانيفه إلى الآفاق وليس فيها شئ مما يدل على الزيغ والشقاق » .

بيد أن هذه المؤامرة على ابن تيمية ظلت مستمرة ، ولم تزل طائفة من الناس تنسب إليه أقوالاً لم تكن تمت إليه بصلة ، وتناقلها الناس مما آثار العواطف خلافه ، وجعل الناس يخالفون بكتاباتهم ، وكان فى مقدمتهم عالم القرن العاشر ومؤلفه الشهير العلامة ابن حجر الهيثمى المكى [1]، الذى أصدر فتاوى قاسية على ابن تيمية ، تضمنت كلمات نابية مثلاً «عبد خذله الله تعالى وأضله أعماه وأصمه وأذله » .

ولكن عبارة الفتوى نفسها تدل على أن العلامة ابن حجر نفسه لم يطلع على كتب ابن تيمية وأن معلوماته لم تكن مباشرة وشخصية ، إنما كان جل اعتماده فى ذلك على تلك النقول والاشاعات التى تولى اشاعتها وترويجها ين الناس معارضوه ، ودسوها فى كتبهم ومؤلفاتهم ، وتحدثوا عنها فى مجالسهم فى ذلك العصر ، أنه يقول فى نفس الفتوى بعد ما ينقل تفردات ابن تيمية الفقهية والكلامية « وقال بعضهم ومن نظر إلى كتبه لم ينسب إليه أكثر هذه المسائل ، ويبدى شكه فى آخر الفتوى بقوله : « فان صح عنه مكفر أو مبدع يعامله الله تعالى بعدله وإلا يغفر الله لنا وله » .

قد قام بالرد على هذه الفتوى والمحاكمة بين ابن حجر وابن تيمية العلامة خير الدين نعمان الآلوسى ابن العلامة محمود الآلوسى صاحب « روح المعانى » فى كتابه القيم «جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين » ورد العلامة ابن حجر بتفصيل وأثبت أن جزءاً من هذه المنقولات زور وافتراء محض لا أساس له فان كتب شيخ الإسلام ابن تيمية تتضمن بياناً وتصريحات تعاكس هذه المنقولات وتضادها تماماً ، ولكن جزءاً خفيفاً جداً من هذه المنقولات يحتاج إلى تفصيل إذ أنه لا يتحدث عن الحقيقة التى بينوها ، أو أن ابن تيمية لا

---

(١) ولد عام ٩٠٩ هـ فى مصر وتوفى سنة ٩٧٣ هـ بمكة المكرمة ، وأشهر كتبه « تحفة المحتاج » أربعة أجزاء والزواجر عن اقتراف الكبائر « الصواعق المحرقة » و « الفتاوى الفقهية والحديثية » ، وابن حجر المكى هذا غير العلامة ابن حجر العسقلانى صاحب « فتح البارى » ومتأخر عنه ، ان ابن حجر العسقلانى إمام شهير فى الحديث ومحقق بالغ النظر ، يتعذر نظيره فى المتاخرين ، ولا يدانيه ابن حجر المكى فى العلم وسعة النظر ورحابة الصدر والتحقيق .

يتفرد فيه وحده ، كما أنه جمع فى هذا الكتاب ذخيرة قيمة من سيرته وأحواله [1].

ولقد ظل العلماء المحققون والمؤلفون من العلماء المنصفين وواسعى النظر يعارضون ابن حجر المكى فى هذا الموضوع ويبرئون ابن تيمية ويعترفون بنبوغه وعلو مكانته فى رسائلهم ومؤلفاتهم ، حتى أن تلميذ ابن حجر المكى العلامة نور الدين على ابن سلطان محمد الهروى المشهور الملا على القارى [2] يعارض آراءه فى ابن تيمية ، فانه يثنى عليه فى مؤلفاته ثناء بالغاً ، يقول فى شمائل الترمذى والمرقاة فى شرح المشكاة :

« ومن طالع شرح منازل السائرين تبين له أنهما كانا من أكابر أهل السنة والجماعة ومن أولياء هذه الأمة » .

وقد تصدى فى آخر الزمان امام المتأخرين شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المشهور بولى الله الدهلوى بالدفاع عن ابن تيمية بكل قوة ، وصرح بأنه لم يكن عالماً سنى العقيدة وسلفى المذهب فحسب بل كان شارحاً كبيراً ومناضلاً قوياً عن الشريعة الإسلامية وخادماً مخلصاً للكتاب السنة ، وعالماً جليلاً اتحف الله به الأمة المحمدية ، كان من نوادر الزمان ممن لا يجود به الدهر الا بعد قرون والذين عارضوه وتعقبوا عليه لم يبلغوا معشار ما آتاه الله من العلم العميق والنظر الدقيق،يقول عنه الشيخ الدهلوى تعديلاً لعلماء الإسلام وحملة الكتاب والسنة ومستشهداً بالحديث الشهير «يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له»:

وعلى هذا الأصل اعتقدنا فى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، فانا قد تحققنا من حاله أنه عالم بكتاب الله ومعانيه اللغوية والشرعية وحافظ لسنة رسول الله ﷺ وآثار السلف ، عارف لمعانيها اللغوية والشرعية ، أستاذ فى النحو واللغة ، محرر لمذهب الحنابلة فروعه وأصوله ، فائق فى الذكاء ، ذو لسان وبلاغة فى الذب عن عقيدة أهل السنة ، لم يؤثر عنه فسق ولا بدعة اللهم الا هذه الأمورالتى ضيق عليه لأجلها وليس شئ منها إلا

---

(١) طبع هذا الكتاب فى مطبعة بولاق بمصر عام ١٢٩٨ هـ ، بالحروف الحديدية الدقيقة ويقع فى ٣٦٢ صفحة .

(٢) كان من أهل هرات (أفغانستان) ويعتبر من أكابر العلماء الحنفية فى عصره ، سافر إلى مكة المكرمة حيث توطن ، وكان من علماء المناسك والفقه والحديث البارزين ، اشتهر من بين مؤلفاته ، « المرقاة شرح المشكاة » و« شرح الفقه الأكبر » و« شرح الشفاء » و« شرح شمائل الترمذى » و«شرح النخبة» و« شرح الشاطبية » و« شرح الجوزية » و« خلاصة القاموس » وما إلى ذلك ، كانت له قدم فى التصوف أيضاً،توفى عام ١٠١٤هـ،وصلت عليه جماعة كيرة صلاة الغائب فى الجامع الأزهر بمصر .

ومعه دليله من الكتاب والسنة وآثار السلف ، فمثل هذا الشيخ عـزيز الوجود فى العلم ، ومن يطيق أن يلحق شأوه فى تحريره وحديثه ، والذين ضيقـوا عليه ما بلغوا معشار ما أتاه الله تعالى ، وان كان تضييقه ذلك ناشئاً من اجتهاد ومشاجرة العلماء فى مثل ذلك وما هى الا كمشاجـرة الصحابة رضى الله تعالى عنهم فيـما ينهم ، والواجب فى ذلك كف اللسان الا بخير » (١).

وبعد هذه التـزكية والشهـادة من شيخ الإسلام ولى الله بن عـد الرحيم الدهلوى وثنائه البالغ على ابن تيمية لا يقام أى وزن لنقد أو جرح يصدران من عالم أو مؤلف لا يبلغ إلى آفاق ابن تيمية العلمية والفكرية ، وإن كلام الشيخ الدهلوى الذى كان قد أكرمه الله بالتبحر العلمى وتنوع الفضائل والفكر المجتهد ، وملكة الاعتدال والاتزان وميزة المعرفة لمكانة علماء الإسلام وقيمتهم لهو القول الفصل فى هذا الموضوع ، ولا أحد يجيد الدفاع والقول أحسن من هذا .

---

(١) هذه العبارة جزء من رسالة وجـهها الشيخ الدهلوى إلى أحد معاصريه المخـدوم معين الدين تهتهوى (تهتـهة مـدينة بولاية السند) رداً على رسالة له ، وقـد كان صـاحب هذه الرسالة وجه إلـى الشيخ الدهلوى بعض الأسئلة حـول تفردات ابن تيميـة ، مشيراً إلى خـلافات معارضـيه ، وطلب منه أن يبدى رأيه فى ابـن تيميـة ، وقد تولى الشيخ الـدهلوى ومستـرشده الشهـير الخـواجة محـمد أمين الكشميرى تدوين مجموعة لرسائله ، طبعت فى المطبعة الأحمدية باسم « مناقب أبى عبد الله محمد بن اسمـاعيل البخـارى وفضيلـة ابن تيميـة » وتوجد فى نفس هذه العبـارة المذكورة لرسـالة الشيخ الدهلوى فى « جلاء العينين » أيضاً .

اكتشاف جديد فى شخصية ابن تيمية :

عرف شيخ الإسلام ابن تيمية - بوجه عام - كعالم متكلم ، وفقيه جدلى ، ومحدث كبير ، ولا يتخيله الدارسون لكتاباته العلمية ومؤلفاته الجدلية ، أكثر من أنه كان عالماً ذكياً، واسع العلم ، قوى الحجة ، غزير المادة ، والذين عرفوه عن طريق التراجم التى كتبها عامة المؤرخين ، أو قاسوه على تلاميذه المتأخرين والمنتسين إليه [(١)]، لا يرون فيه شيئاً أكثر من محدث جاف ، وعالم متبحر فى العلوم الظاهرة ، أما ما ذكره الحافظ بن قيم الجوزية فى «مدارج السالكين» من أحواله وأقواله بمناسبات شتى ، وكذلك ما ذكره العلامة الذهبى وأمثاله فى ترجمته من أخلاقه وأذواقه ، وعاداته وشمائله ، وأشغاله وأعماله ، فيدل دلالة واضحة على أن شيخ الإسلام ابن تيمية يستحق كل الاستحقاق أن يعد من العارفين ورجال الله فى هذه الأمة ، وهنالك ينشرح كل صدر للاعتراف ، بأنه كان يتبوأ تلك المكانة ، ويتمتع بجميع تلك الغايات التى لا تتيسر - بوجه عام - الا برياضات شاقة ، ومجاهدات طويلة ، وتربية أئمة الفن ، ودوام الذكر والمراقبة ، وذلك ما يعبر عنه الصوفية المتأخرون النسبة مع الله [(٢)]، ﴿ **وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء** ﴾ .

تنوع الوسائل ، ووحدة الغاية :

ولا يخفى على أصحاب البصيرة ، ان الذوق والمعرفة ، والإيمان الحقيقى واليقين والإخلاص ، والاستقامة ، وتزكية الباطن وتهذيب الأخلاق ، والاتباع الكامل للسنة ، والتفانى فى الشريعة غايات حقيقية مقصودة ، تتخذ لأجلها وسائل مختلفة ، وطرق متعددة ، ولا يقصر المحققون اكتسابها على طريقة واحدة ، وقد كان الطريق القوى المؤثر للحصول على هذه الغايات فى فجر تاريخ الدعوة الإسلامية ، صحبة النبى ﷺ ، التى لا يجهل تأثيرها وقوتها أحد .

---

(١) عدا تلميذه النجيب الحافظ ابن قيم الجوزية الذى بحث عن حياة أستاذه الروحية الباطنة ، فى كتابه «مدارج السالكين» شرح « منازل السائرين » لشيخ الإسلام الهروى ، وأثبت فيه ، ان شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم كانا يحتلان مكانا عاليـاً فى المعرفة والروحانية ، والذوق الباطنى .

(٢) يعنى الصلة الروحية بالتدين .

ولما حرمت أمة الإسلام هذه النعمة ، قام خلفاء النبوة ، وأطباء هذه الأمة في عصورهم بطريقة تنوب عنها ، وأخيراً ركزوا جل عنايتهم لأسباب مختلفة على الصحبة وكثرة الذكر. ولها طريقة مدونة منقحة تعرف بنظام التصوف والسلوك ، غير أنه لا مساغ لانكار أن الحصول على هذه الغايات والمقاصد لا يتوقف على هذه الوسائل ،فان الإيمان والاحتساب، ومحاسبة النفس ، وتتبع السنة ، والاشتغال بكتب السنة والشمائل ، درساً وتدريساً ، وخدمة ونشراً مع الحب والإجلال وكثرة الصلاة على النبي ﷺ ، وخدمة الخلق والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والدعوة والتبليغ بصدق النية والاحتساب ، كل ذلك - عدا الاجتباء والموهبة التي يخص بها بعض الأفراد - سبب التقرب إلى الله وحصول النسبة معه ، إذا صدر عن إيمان واحتساب ، وحضور واهتمام ، ولا مانع عن أن تكون الوسائل مختلفة والطرق متعددة ، فان الغاية واحدة ، ولا شك أن جملة أحوال شيخ الإسلام تدل بوضوح على أنه كان يتمتع بهذه الغاية ، وذلك ما أريد ايضاحه في السطور التالية :

ميزان كمال الانسان ، وآية بلوغه درجة الولاية والتحقيق :

ونستطيع أن نشهد لرجل أنه كان من العارفين والمحققين الكاملين ، وممن وضع الله لهم القبول نظراً إلى الأحوال والأذواق ، والعادات العامة التي عاش فيها ، ولا يكون له مقياس ظاهر أو دليل منطقي ، وقد يخطئ من رزق سلامة الفطرة وصفاء الذوق ، لكثرة ما يدرسه من أحوال العارفين ورجال الله ، ويلزم صحبتهم بملكة ووجدان ، يتمكن بهما من الحكم في ذلك ، ولكن هناك علامات وأحوالاً يدرك بها ، أن مستوى هذا الرجل الديني أرفع من مستوى عامة الناس ، وهو يتمتع بأخلاق رجال الله ، وأذواقهم ، وفهم الدين الصحيح مثلاً ذوق خاص للعبودية والانابة إلى الله ، وتذوق العبادة والانهماك فيها ، ولذة الدعاء والابتهال والزهد ، والانقطاع عن الدنيا وازدرائها ، وسجيّة السخاء والايثار ، والتواضع وهضم النفس ، والسكينة والسرور ، والكمال في اتباع السنة ، والقبول في الصالحين ، وشهادة العلماء له ، وتصلب أتباعه ومحبيه في الدين ، وحسن سيرتهم ، وما إلى ذلك ، وبهذه المناسبة ننقل للقراء شهادات معاصري شيخ الإسلام ، وما سجله المؤرخون في كتبهم عن هذه القسمات التي سبق ذكرها .

ذوقه في العبودية والانابة إلى الله :

ان الذوق الحقيقي الصحيح للعبودية والانابة إلى الله شهادة جلية على أن قلب صاحبه عامر باليقين ، ومغمور بجلال الله وكبريائه ، ومنوَّر بمشاهدة قدرة الله سبحانه وتعالى

وجلاله ، وبشعور العجز والضعف أمامه ، وحينما يرسخ هذا اليقين والمشاهدة فى الباطن، يتجلى ذلك فى الأعمال والألفاظ ، والفرق بين الحقيقة والصناعة فى ذلك كالفرق بين الأصل والنقل ، وهو لا يخفى على صاحب البصيرة والوجدان ، وقد قال الشاعر العربى :

« ليس التكحل فى العينين كالكحل »

والأحوال التى عاش فيها شيخ الإسلام ابن تيمية تشهد أنه كان متحلياً باليقين والمشاهدة، التي بعثت فيه صفة من الافتقار والاضطرار ، والعبودية والانابة ، وقد روى أنه إذا أشكلت عليه مسألة أو صعب فهم آية التجأ إلى مسجد مهجور ، ووضع جبهته على التراب وردد قوله : « يا معلم ابراهيم فهمنى »[(١)] .

يقول العلامة الذهبى :

« لم أر مثله فى ابتهاله واستغاثته وكثرة توجهه » ويقول : « أنه ليقف خاطرى فى المسألة أو الشئ أو الحالة التى تشكل عليّ فاستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل ، حتى ينشرح الصدر وينجلى أشكال ما أشكل » .

ولا يحول دون هذه الحالة نوع من الجلوة ، والمجالس وصخب الأسواق ، يقول :

« وأكون إذ ذاك فى السوق أو المسجد أو الدروب أو المدرسة ، لا يمنعنى ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبى[(٢)] » .

وعندما ينشأ هذا اليقين ، وذوق العبودية فى النفس ويتمكن فى الباطن ، يشعر الانسان بعجزه وافتقاره ، وضعفه وقلة بضاعته ، ويتمثل كأنه واقف على الباب الملكى بكشكوله[(٣)] الفارغ ويستجدى من الله رحمته وفضله .

وحياة ابن تيمية وما ذكر له من أحوال وأقوال ، ومواقف تشهد بأنه كان ينعم بنعمة الفقر وعزة التذلل ، يقول ابن القيم : « اننى لم أشاهد هذه الحالة عند أى شخص بمثل ما شاهدته فى شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقد كان يقول : « مالى شئ ، ولا منى شئ ، ولا فى شئ » ، وطالما كان ينشد البيت التالى :

أنا المكدى وابن المكدى   وهكذا كان أبى وجدى[(٤)]

---

(١) العقود الدرية ص ٦ .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٤٥ .

(٣) وعاء المتسول الذى يجمع فيه رزقه .

(٤) مدارج السالكين ج ١ ص ٢٩٦ ، طبعة « المنار » .

تذوق العبادة ، والانهماك فيها :

لا يستطيع أى انسان أن يتذوق العبادة وينهمك فيها ما لم يشعر بلذتها ويذق طعمها[1] وما لم تحتل العبادة محل الدواء والنزاع والقوة ، ويصل إلى درجة تصبح الصلاة فيها لعينه قرة ولروحه مسرة ، أما الشيخ ابن تيمية فيشهد معاصروه والمطلعون على أحواله بأنه كان له القدح المعلى فى هذه الشروة الغالية ، وكان له ذوق خاص في العبادة ، والمناجاة والخلوة وكان شديد الشغف بهذه الناحية ، عظيم الانهماك فيها ، جاء فى « الكواكب الدرية » :

« وكان فى ليلة منفرداً عن الناس كلهم ، خالياً بربه عز وجل ، ضارعاً اليه ، مواظباً على تلاوة القرآن العظيم ، مكرراً لأنواع التعبدات الليلية والنهارية ، وكان إذا دخل فى الصلاة ترتعد فرائصه وأعضاؤه حتى يميل يمنة ويسرة »[2].

ولا شك فى أن قوة أصحاب الذوق ،وأهل القلوب ونشاطهم ، إنما يقوم على الذكر والعبادة ، فاذا اختل ذلك ، انهارت قواهم ، ويشعرون كأنهم أصيبوا بفاقة ، يقول ابن القيم :

« وكان إذا صلى الفجر يجلس فى مكانه ، حتى يتعالى النهار جداً ، يقول هذه غدوتى لو لم أتغد هذه الغدوة سقطت قواى »[3].

ويرزق الله سبحانه وتعالى ، الاستقامة بعد هذا الذوق والاهتمام ، فيصبح الذكر والعبادة ، والمواظبة عليهما طبيعة الانسان ، يقول العلامة الذهبى : « وله أوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية »[4].

الزهد في الدنيا وازدراؤها :

لا ينبعث الدافع الصحيح الخالص للزهد في الدنيا وازدرائها ما لم تنكشف حقيقة الدنيا بوضوح ، وما لم يطرأ على المرء حال : « ان الدار الآخرة لهى الحيوان » ، « وما عند الله خير وأبقى » ، وذلك لا يتحقق بدون اليقين والمعرفة الصحيحة والاتصال بالله ، وقد ذكر معاصروه أحوال زهد شيخ الإسلام وتجرده من الدنيا وافتقاره إلى الله ، يقول زميله فى

---

(١) وقد ورد فى الحديث : « جعلت قرة عينى فى الصلاة » (رواه النسائى) ،كان النبى ﷺ يقول : «يا بلال أقم الصلاة ارحنا بها » (رواه أبو داؤد) .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٥٦ .

(٣) الرد الوافر ص ٣٦ .

(٤) الرد الوافر ص ١٨ .

الدراسة ومعاصره الشيخ علم الدين البرزالى المتوفى سنة ٧٣٨ هـ : « وجرى على طريقة واحدة من اختيار الفقر والتقلل من الدنيا ورد ما يفتح به عليه » (١) .

ومن انصبغ بهذه الصبغة ، ورزقه الله نعمة غنى القلب الخالدة ، تلاشت فى عينه مملكة كسرى وقيصر ، ورأى النظر إليها كفراناً بنعمة الله تعالى ، وجحوداً لمنته ، وهو ينشد فى نشوة الحب والمعرفة ما معناه :

« أننى لا أرضى باعطاء مسوحى عوضاً عن حالة الملوك ، ولا أرضى بيع فقرى بملك سليمان ، ان الثروة التى نلتها فى آلام الفقر لن أرضى استبدالها بتنعم الملوك » .

ومن جهل حاله يسئ به الظن ، ويتهمه بالطمع فى الملك والحكم ، ولكنه يتأسف على جهله وفساد ذوقه ، ويقول : « كيف يمكن النظر إلى هذا الملك الفانى بعد هذه الثروة الغالية ، والنعمة الخالدة ؟ » وقد كانت هذه قصة الشيخ ابن تيمية ، فقد قال له الملك الناصر ذات مرة : سمعت بأن الناس أطاعوك ، وأنت تفكر فى الحصول على الملك ، فرد عليه الشيخ قائلاً بصوت عال سمعه الناس الحاضرون كلهم :

« أنا أفعل ذلك ؟ ، والله إن ملكك وملك المغول لا يساوى عندى فلساً » (٢) .

السخاء والايثار :

ومما يتصف به رجال الله ، والعاملون بالسنة النبوية بصفة خاصة ، هو السخاء والايثار ، وقد بسط الحافظ بن قيم الكلام فى أسباب شرح الصدر فى كتابه : « زاد المعاد » وذكر ما للاحسان إلى الخلق ، ونفسهم بالمال والجاه ، والبدن من التأثير العميق فى انشراح الصدر ، وطيب النفس ، ونعيم القلب » (٣) .

وقد اعترف معاصروه ، وأحبته بسخائه ، وأثنوا على جوده وانفاقه ، وقد جاء فى «الكواكب الدرية » : « وهو أحد الأجواد الأسخياء الذين يضرب بهم المثل » (٤) .

ويتحدث الحافظ بن فضل الله العمرى ، أحد معاصرى الشيخ عن جوده وسخائه ، فيقول : « كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة والأنعام والحرث ، فيهب ذلك بأجمعه ، ويضعه عند أهل الحاجة فى موضعه ، لا يأخذ منه شيئاً

---

(١) الرد الوافر ص ٦٥ .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٦٦ .

(٣) راجع زاد المعاد ج ٢ ص ١٥٤ – طبع المطبعة المصرية .

(٤) الكواكب الدرية ص ١٤٦ .

إلا ليهبه ، ولا يحفظه إلا ليذهبه »[(١)].

وقد بلغ من السخاء والايثار ان كان يخلع ما كان عليه من ثياب ، ويقدمها إلى السائل إذا لم يجد شيئاً آخر » يقول الحافظ بن فضل الله : « كان يتصدق ، حتى إذا لم يجد شيئاً نزع بعض ثيابه فيصل به الفقراء »[(٢)].

ويقول أحد الرواة : « وكان يتفضل من قوته الرغيف والرغيفين ، فيؤثر بذلك على نفسه »[(٣)].

ومن مواقف الايثار المحرجة أن يعامل المرء أعداءه ومعارضيه ، برحابة الصدر ، بل بالعفو عنهم ، والاحسان إليهم ، وفوق ذلك بالدعاء والنصح ، وهذا منصب خطير لا يناله الا من تجاوز حدود الكبر والانانية ، ونسى نفسه ، وأنعم الله عليه نعمائه ورزقه من السكينة والسرور ما يذوب أمامه كل عداء ومعارضة ، فيجد قلبه عامراً بدافع النصح والرثاء لأعدائه ، وقد سبق أنه عندما أطلق سراحه فى سنة ٧٠٩ هـ مرة أخرى خلا به السلطان واستفتاه فى قتل أولئك القضاة الذين قاموا بحماية « جاشنكير » وأفتوا بعزل السلطان ، وزاد له السلطان قائلاً : أنهم أثاروا عليك الضجة والأقاويل ، وآذوك ، فما وسع ابن تيمية الا أن مدحهم وأثنى عليهم أمام السلطان ، وشفع لهم بالعفو والصفح عنهم ومنعه عن قتلهم ، وقد مدحه القاضى ابن مخلوف المالكى الذى كان من أشد معارضى شيخ الإسلام ومنافسيه ، بقوله : « ما رأيت كريماً واسع الصدر مثل ابن تيمية فقد أثرنا الدولة ضده ، ولكنه عفا عنا بعد المقدرة ،حتى دافع عن أنفسنا وقام بحمايتنا ».

يقول تلميذه النجيب ورفيقه فى كل آن : « كان يدعو لأعدائه ، ما رأيته يدعو على واحد منهم ، وقد نعيت إليه يوماً أحد معارضيه الذى كان يفوق الناس فى ايذائه وعداءه ، فزجرنى ، وأعرض عنى ، وقرأ : ﴿ **انا لله وانا إليه راجعون** ﴾ ، وذهب لساعته إلى منزله، فعزى أهله ، وقال : « اعتبرونى خليفة له ، ونائباً عنه ، وأساعدكم فى كل ما تحتاجون إليه » وتحدث معهم بلطف واكرام بعث فيهم السرور ، فبالغ فى الدعاء لهم حتى تعجبوا منه » .

ان مكانة العفو والاحسان ، والشفقة والرحمة مع الأعداء ، أرفع وأسمى من مكانة

---

(١) الكواكب الدرية ص ١٥٨ .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٥٧ .

(٣) الكوكب الدرية .

الايثار المالى والمادى بكثير ، إنها مكانة لا يسعد بها الا الأولياء والصديقون ، وقد كان لابن تيميـة قدم راسخة فى هذه المكانة ، وكأنه كـان ينشد بلسان حاله ما أنشـده الشاعر الربانى الذى سعد بهذه المكانة بالفارسية وهذا معناه :

« ان من ضاق صدره عن مـودتى ، وقصرت يده عن معونـتى كان الله فى عونه وتولى جـميع شـؤونه ، وان كل من عادانى وبـالغ فى ايذائى لا كدّر الله صـفو أوقـاته ولا أراه مكروهاً فى حياته ، وان كل من فرش الأشـواك فى طريقى ، وضيق عليّ السبل ، ذلل له كل طريق ، وحالفه النجاح والتوفيق » .

التواضع وهضم النفس :

ان التواضع وهضم النفس من خـصائص رجال الله الخـاصة ، وهو المنصب الأعلى فى الدين ، أفضل من ألف فضيلة وألف كـرامة ، ولا يبلغ الانسان هذه المنزلة ، الا أن تموت الانانية ، ويتزكى قلبه من جميع الشوائب والعلائق ، وقـد كان شيخ الإسلام متحلياً بهذه الفضيلة الكبرى على فضائله العلمية ، وسموه الدينى والعلمى وأقواله تشهد بما كان يتصف به من التواضع والربانية وهضم النفس ، يقول الحافظ بن قيم : أن كثيراً ما كان يقول :«ما لى شئ ، ولا منى شئ ، ولا فى شئ » ، وان مدحه أحد فى وجهه ، قال : « والله انى إلى الآن أجدد إسلامى فى كل وقت ، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً » [1].

وقد يقول لمن مدحه : « أنا رجل ملة ، لا رجل دولة » [2].

وإذا بلغ الانسان إلى هذه المنزلة من العبودية وهضم النفس لا يرى له حقاً على أحد ولا يطلبـه شئ ، ولا يعاتب أحـداً ولا ينتقـم لنفسـه فى أى حال ، وقـد بلغ به الله إلى هذه الدرجة ، يقول ابن قيم :

« سمعت شيخ الإسلام ابن تيمـية قدسس الله روحه يقول : « العارف لا يرى له على أحد حقاً ، ولا يشهد على غيره فضلاً ، ولذلك لا يعاتب ولا يطلب ولا يضارب » [3].

ويعلم المطلعون على أحواله جيداً أنه فى ذلك إنما يتحدث عن نفسه ويحكى حاله .

---

(١) مدارج السالكين ج ١ ، ص ٦٩٦ .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٦٤ .

(٣) مدارج السالكين ج ١ ، ص ٤٩٦ .

السكينة والسرور :

وبعد هذا الإيمان واليقين ، وهذا الاتصال الصحيح بالله تعالى والتحرر من الخلق ، وانطلاق القلب من القيود المادية ، يحصل للعارف السكينة والسرور يذوق بهما لذة النعيم والجنة فى الدنيا ، ويقول ابن القيم ، ان شيخ الإسلام قال مرة :

« ان فى الدنيا جنة ، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة » (١).

ولا يخفى على أهل البصيرة أن عباد الله تعالى المخلصين ينطق عليهم وصف الله تعالى لعباده المكرمين :

﴿ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ويذوقون هذه اللذة ويرون نموذجها فى الدنيا ، ولا شك أن شيخ الإسلام ظفر بهذه النعمة ، كما ذكر أصحابه ، وقد قال مرة فى حماس :

« ما يصنع أعدائى بى ؟ إن جنتى وبستانى فى صدرى ، ان رحت فهى معى لا تفارقنى» (٢).

وظلت نسبة السكينة والرضا هذه ، لا تفارقه فى حياته ، وبعد مماته ، يقول ابن القيم :

«زرته ذات ليلة فى الرؤيا ، وذكرت له بعض الأعمال القلبية ، فقال : « أما أنا فطريقى الفرح والسرور به » (٣).

ويقول ابن القيم فى « مدارج السالكين » : « هكذا كانت حاله فى الحياة ، يبدو ذلك على ظاهره ، وينادى به عليه حاله » (٤).

الكمال فى اتباع السنة :

وتبتدئ هذه المكانة (مكانة القبول والولاية) باتباع السنة ، وتنتهى بكمال اتباع السنة ، وقد اعترف الناس جميعاً حتى الأعداء بشغف شيخ الاسلام بالسنة وانهماكه فى الحديث ، ولم يكن هذا الشغف والانهماك علمياً أو نظرياً فقط ، وإنما كان يتصل بالسنة عملياً وفى الظاهر ، وقد شهد معاصروه أنهم لم يروا جلال مكانة الرسول ﷺ والاهتمام باتباع سنته

---

(١) الرد الوافر ص ٦٣ .

(٢) الوابل الصيب ص ٦٦ .

(٣) اغاثة اللهفان .

(٤)مدارج السالكين .

عند أحد من العلماء ، مثل ما رأوا ذلك عند شيخ الإسلام ابن تيمية ، يقول الحافظ سراج الدين البزاز ، وهو يقسم بالله :

« لا والله ما رأيت أحداً أشد تعظيماً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا أحرص على اتباعه ، ونصر ما جاء به منه » (١).

وقد كانت هذه الناحية تستحوذ عليه ، وتسيطر على قلبه ، فكل من رآه شهد قلبه بكمال اتباعه للسنة ، وحبه العميق للرسول ﷺ ، يقول للعلامة عماد الدين الواسطى :

« ما رأينا فى عصرنا هذا من تستجلى النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله ، إلا أن هذا الرجل ، يشهد القلب الصحيح ، إن هذا هو الاتباع حقيقة » (٢).

وهنالك مقتطفات من كلام شيخ الإسلام الملتقطة من موسوعة معارفه المسماة بـ« فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية » ، تدل على اقراره بحقيقة السلوك وضرورته ، وعمق نظره ، ورسوخ علمه فيه ، يقول رحمه الله :

« فإن السلوك هو الطريق التى أمر الله بها ورسوله من الاعتقادات والعبادات والأخلاق، وهذا كله مبين فى الكتاب والسنة ، فإن هذه منزلة الغذاء الذى لا بد للمؤمن منه » (٣).

ويقول : « وفى السلوك مسائل تنازع فيها الشيوخ ، لكن يوجد فى الكتاب والسنة من النصوص الدالة على الصواب فى ذلك ما يفهمه غالب السالكين ، فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد كلها منصوصة فى الكتاب والسنة » (٤).

ومن إفاداته : « وكذلك من بنى الإدارة والعبادة والعمل والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية والأعمال البدنية على الإيمان والسنة والهدى الذى كان عليه محمد ﷺ وأصحابه ، فقد أصاب طريق النبوة وهذه طريق أئمة الهدى » (٥).

ومن معارفه : « أعمال القلوب التى تسمى « المقامات والأحوال » مثل محبة الله ورسوله، والتوكل عليه وإخلاص الدين له والشكر والصبر على حكمه والخوف والرجاء له،

---

(١) الكواكب الدرية ص ١٤٩ .

(٢) جلاء العينين ص ٨ .

(٣) ج ١٩ ، ص ١٧٣ .

(٤) ج ١٩ ، ص ٢٧٤ .

(٥) ج ١٠ ، ص ٣٦٣ .

له، وما يتبع ذلك واجبة على جميع الخلق : خاصتهم وعامتهم ، للخاصة خاصتها وللعامة عامتها ، تفاوت أحوال القلوب وصفاتها »[1].

قبوله فى الصالحين ، وشهادة علماء عصره له :

ان ثناء حشد من الناس لا يعتبر دليلا على قبوله عند الله ، واستقامته وعلو منزلته ، أما إذا شهد له رجال العلم والبصيرة وأصحاب الصلاح والتقوى فى عصره ، فلا شك أنه يعتبر دليلاً على قبوله وعلو منزلته ، ولا بد من أن يتصف أتباعه ومحبوه ، وجلساؤه بالصلاح والسداد ، وحسن الاعتقاد والتقوى والاهتمام بالآخرة ، ويمتازوا من أبناء عصرهم فى تدينهم ، وحسن سيرتهم ، وهذا كان شأن شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقد شهد بفضله، وصحة اعتقاده ، وسلامة عقيدته ، ومكانته العالية ، كبار رجال العلم والبصيرة ، وأصحاب الصلاح والرشد فى عصره ، واعترفوا بعلو منزلته فى ذلك ، فمدحوه وأثنوا عليه ، أما معارضوه فقد كان معظمهم ممن يتزلفون إلى الدولة ، ويطلبون الدنيا ويطمعون فى الجاه والمنصب دائماً[2]، يقول مؤلف « الكواكب الدرية » :

قالوا ومن أمعن النظر ببصيرته ، لم ير عالماً من أهل أى بلد شاء موافقاً له إلا ورآه من أتبع علماء بلده للكتاب والسنة ، وأشغلهم بطلب الآخرة والرغبة فيها ، وأبلغهم فى الإعراض عن الدنيا ، والاهمال لها ، ولا يرى عالماً مخالفاً له ، منحرفاً عنه ، إلا وهو من أكبرهم تهمة فى جميع الدنيا ، وأكثرهم رياء وسمعة ، والله أعلم »[3].

ويقول العلامة الذهبى : « وأخيف فى نصر السنة المحفوظة حتى أعلى الله تعالى مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له »[4].

الفراسة والكرامة :

وبالرغم أن الكشوف والكرامات ، لا تعد جزءاً من الولاية والقبول ، ولا دليلهما وقد أوضح المحققون ، فقالوا : « الاستقامة فوق الكرامة » ، وهى قضية لا تقبل الجدل ، ولكن الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى ينعم على كثير من عباده المخلصين بهذه النعمة ،

---

(١) ج ١٠ ، ص ٢١ .

(٢) ويستثنى من هذه الكلية من عارضه لسوء تفاهم ، أو اختلفوا معه فى أصول بعض المسائل العملية فحسب ، وما من عام الا وقد خص منه البعض .

(٣) الكواكب الدرية ص ١٦١ .

(٤) جلاء العينين ص ٦ .

فتظهر من أيديهم أو ألسنتهم وقائع تؤيد قبولهم ووجاهتهم عند الله والناس ، وقد اتفق أهل السنة على أن « كرامات الأولياء حق » . وتؤيد ذلك بعض الوقائع والشواهد فى الكتاب والسنة أيضاً ، وقدجاء فى مؤلفات شيخ الإسلام اثبات هذه الحقيقة ، وتقرير هذه المسألة .

وقد شهد معاصروه ، وتلاميذه ومحبوه ، بتلك الوقائع التى حدثت كخرق للعادة والكرامة ، واعترف بها المتأخرون ، وقالوا لا يمكن انكارها لكثرة ما عرفت ونقلت، يقول العلامة بدر الدين العينى ، صاحب « عمدة القارئ ، شرح صحيح البخارى » فى « تقريظ الرد الوافر » :

« وهذا الامام مع جلالة قدره فى العلوم نقلت عنه على لسان جم غفير من الناس كرامات ظهرت منه بلا التباس » [1] .

والفراسة الصادقة من هذه الكرامات التى يكرم الله بها عباده المتقين وكبار المؤمنين ، وتحكى لهذه الفراسة حكايات عجيبة ، ذكر الحافظ بن القيم[2] ، طائفة منها فى كتابه «مدارج السالكين» وغيره من مؤلفاته الأخرى ، يقول فى « مدارج السالكين » :

« ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام أموراً عجيبة ، وما لم نشاهده منها أعظم وأعظم ، ووقائع فراسته تستدعى سفراً ضخماً » .

ونظراً إلى كل ذلك قال العلامة على بن سلطان محمد القارى الهروى المتوفى بمكة المكرمة سنة ١٠١٤ هـ :« ومن طالع شرح منازل السائرين تبين له أنهما [3] كانا من أكابر أهل السنة والجماعة ، ومن أولياء هذه الأمة » [4] .

وقال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى المعروف بولى الله المحدث (م ١١٧٦ هـ) ، فى كلام طويل :

« مثل هذا الشيخ عزيز الوجود فى العالم ، ومن يطيق أن يلحق شأوه فى تحريره وتقريره ، والذين ضيقوا عليه ما بلغوا معشار ما أعطاه الله تعالى » [5] .

---

(١) الرد الوافر ص ٨٩ .

(٢) مدارج السالكين ج ٢ ، ص ٢٥٠ .

(٣) يعنى شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية

(٤) المرقاة شرح المشكاة - المجلد الرابع - الصفحة ٤٢٧ .

(٥) التفهيمات الإلهية لشيخ الإسلام ولى الله الدهلوى .

أركان الاصلاح والتجديد الأربعة في حياة ابن تيمية :

الدور الذى مثله شيخ الإسلام ابن تيمية فى تاريخ الإسلام الدعوى الفكرى وان كان ذا جوانب علمية وعملية كثيرة يمكن توزيعه فى أربعة أجزاء ، تلك التى لها أهمية خاصة فى تاريخ الاصلاح والتجديد ، وهى كما يلى :

١- تجديد عقيدة التوحيد وابطال العقائد والتقاليد المشركة .

٢- نقد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، وترجيح منهج الكتاب والسنة وأسلوبهما على كل منهج وأسلوب .

٣- الرد على الفرق والملل غير الإسلامية ، ومقاومة عقائدها وتقاليدها وتأثيرها .

٤- تجديد العلوم الشرعية .

العقائد والتقاليد المشركة فى عهد ابن تيمية :

كانت العقائد والتقاليد المشركة نالت رواجاً بين عامة المسلمين باختلاطهم مع غير المسلمين والعجم ونفوذ الحكومة الباطنية والاسماعيلية وتأثيرها ، وانتشار تعليمات الجهلة والضالة من الصوفية وأعمالهم ، فقد وجد عدد وجيه من المسلمين فى ذلك الحين يعتقدون فى أئمة دينهم ومشايخهم والأولياء والصالحين منهم من الاعتقادات الفاسدة ويحملون من الأفكار المشركة ما كان يعتقده اليهود والنصارى فى عزير والمسيح عليهما السلام وأحبارهم ورهبانهم ، وكل ما كان يدور حول قبور الأولياء والمشايخ إنما كان تقليداً ناجحاً للأعمال والتقاليد التى كانت تنجز فى معابد غير المسلمين وقبور المقدسين عندهم ، فالاستغاثة منهم والاستعانة بهم ، ومديد الطلب والضراعة إليهم كل ذلك كان عاماً شائعاً بينهم كما عمت عادة بناء المساجد الفخمة على قبورهم وجعلها مسجداً ، وعقد المهرجانات عليها عاماً عاماً وقطع المسافات الطويلة للوصول إليها .

وقد تفاقمت هذه العقائد السيئة وانتشرت هذه البدع والمنكرات فى أواخر القرن السابع بشكل فظيع ، ولكى نقدر مدى هذا الفساد نقدم مقتطفات من مؤلفات شيخ الإسلام وكتاباته نفسه ، فقد تناول فيها ذكر بعض الضلالات الشائعة فى عصره ضمن بحث أو رد

على سؤال وهى تشير بعض الشئ إلى الانحطاط الدينى ، والهجمات التى شنتها الجاهلية على قلب الإسلام فى ذلك العصر ، يقول :

« وآخرون قد جعلوا الميت بمنزلة الإله والشيخ الحى المتعلق به كالنبى ، فمن الميت يطلب قضاء الحاجات وكشف الكربات ، وأما الحى فالحلال ما حلله ، والحرام ما حرمه ، وكانوا فى أنفسهم قد عزلوا الله عن أن يتخذوه إلهاً وعزلوا محمداً ﷺ عن أن يتخذوه رسولاً ، وقد يجئ الحديث العهد بالاسلام أو التابع لهم لحسن الظن بهم أو غيره يطلب من الشيخ الميت اما دفع ظلم ملك يريد أن يظلمه أو غير ذلك ، فيدخل ذلك السادن فيقول قد قلت للشيخ ، والشيخ يقول للنبى ، والنبى يقول لله ، والله قد بعث رسولاً إلى السلطان فلان ، فهل هذا الا محض دين المشركين والنصارى ، وفيه من الكذب والجهل ما لا يستجيزه كل مشرك ونصرانى ، ولا يروج عليه ، ويأكلون من النذور ما يؤتى به إلى قبورهم ما يدخلون به فى معنى قوله تعالى ﴿ **إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله** ﴾ [(١)] .

عبادة القبور السافرة :

« فطائفة من هؤلاء يصلون إلى الميت ، ويدعو أحدهم الميت ، فيقول : اغفر لى وارحمنى ، ونحو ذلك ، ويسجد لقبره ، ومنهم من يستقبل القر ويصلى إليه مستدبراً الكعبة ويقول : القبر قبلة خاصة ، والكعبة قبلة عامة ، وهذا يقول من هو أكثر الناس عبادة وزهداً وهو شيخ متبوع ، ولعله أمثل اتباع شيخه ، يقول فى شيخه ، وآخر من أعيان الشيوخ المتبوعين أصحاب الصدق والاجتهاد فى العبادة والزهد ، يأمر المريد أول ما يتوب أن يذهب إلى قبر الشيخ فيعكف عليه عكوف أهل التماثيل ، وجمهور هؤلاء المشركين بالقبور يجدون عند عبادة القبور من الرقة والخشوع والدعاء وحضور القلب ما لا يجد أحدهم فى مساجد الله تعالى التى أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه » [(٢)] .

يخشون القبور وأصحابها ولا يخشون الله :

« حتى أن طائفة من أصحاب الكبائر الذين لا يتحاشون فيما يفعلونه من القبائح كان إذا رأى قبة الميت أو الهلال الذى على رأس القبة خشى من فعل الفواحش ، ويقول أحدهم لصاحبه : ويحك هذا هلال القبة ، فيخشون المدفون تحت الهلال ولا يخشون الذى خلق

---

(١) الرد على البكرى ص ٢٩٨ .

(٢) أيضاً ص ٢٩٥ .

السماوات والأرض ، وجعل أهلة السماء مواقيت للناس والحج ، وهؤلاء إذا نوظروا خوفو مناظرهم كما صنع المشركون بابراهيم عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربي شيئاً ، وسع ربي كل شئ علماً أفلا تتذكرون ، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون إنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا يمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[1] .

استخفاف شعائر الله والاستهزاء بالله :

« وهؤلاء الذين اتخذوا القبور أوثاناً تجدهم يستهزئون بما هو من توحيد الله تعالى وعبادته ويعظمون ما اتخذوه من دون الله شفعاء حتى أن طوائف منهم يستخفون حج اليت بمن يحج البيت ، ويرون أن زيارة أئمتهم وشيوخهم أفضل من حج البيت ، وهذا موجود ى الشيعة وفى المنتسين إلى السنة ، وآخرون يستخفون بالمساجد وبالصلوات الخمس فيها ، يرون أن دعاء شيخهم أفضل من هذا ، وهذا موجود فى الشيعة المنتسبين إلى يونس لقيسى حتى ينشدون :

تعالوا نخرب الجامع ونجعل فيه خماره
ونكسر المنبر ونجعل منه طنباره
ونخرق المصحف ونجعل منه زماره
وننتف لحية القاضى ونجعل منه أوتاره[2]

قاحة المشركين وجرأتهم :

« ويحلف أحدهم اليمين الغموس كاذباً ولا يجترئ أن يحلف بشيخه اليمين الغموس اذباً ، ومنهم من يقول كل رزق لا يرزقه اياه شيخه لا يريده ، ومنهم من يذبح الشاة يقول باسم سيدى ، ومنهم من يقول : أن شيخه أفضل من الأنبياء والمرسلين ، ومنهم ن يعتقد فيه الالهية كما يعتقده النصارى فى المسيح ، فاذا ذكروا شيخهم عظموه وادعوا ه الالهية وأنشدوا على لسانه :

موسى على الطور لما خر لى ناجى وصاحب الترب أنا جئته حتى جاء

---

[1]) سورة الأنعام ص ٨١ - ٨٣ .

[2]) رد على البكرى ص ٢٥١ .

ولهم أيضاً :

وأنا صرخت في العرش حتى ضج وأنا حملت على على حتى هج

وأن البحار السبعة من هيبتي ترتج

العقيدة بألوهية المشايخ :

« وهؤلاء يجعلون الرسل والمشايخ يدبرون العالم بالخلق والرزق وقضاء الحاجات وكشف الكربات وهذا ليس من دين المسلمين بل النصارى تقول هذا فى المسيح وحده لشبهة الاتحاد والحلول ، ولهذا لم يقولوا ذلك فى ابراهيم وموسى وغيرهما من الرسل مع أنهم فى غاية الجهل فى ذلك »[(١)] .

« ومن هؤلاء من يظن أن القبر إذا كان فى مدينة أو قرية فانهم ببركته يرزقون وينصرون، وأنه يندفع عنهم الأعداء والبلاء بسببه ، ويقولون عمن يعظمونه : أنه خفير البلد الفلانى ، كما يقولون : السيدة نفيسة خفيرة مصر القاهرة ، وفلان وفلان خفراء دمشق أو غيرها ، وفلان خفير حران أو غيرها ، وفلان وفلان خفراء بغداد أو غيرها ، ويظنون أن البلاء يندفع عن هذه المدائن والقرى بمن عندهم من قبور الصالحين أو الأنبياء»[(٢)] .

« حتى أن العدو الخارج عن شريعة الإسلام لما قدم من دمشق خرجوا يستغيثون ، بالموتى عند القبور التى يرجون عندها كشف ضرهم ، وقال بعض الشعراء :

يا خائفين من التتر لوذوا بقبر أبى عمر

أو قال :

عوذوا بقبر أبى عمر ينجيكم من الضرر

فتنة المشاهد :

وكانت النتيجة الحتمية لهذا الاجلال والتعظيم أن تتزايد أهمية المشاهد بازاء المساجد، وتتحول المشاهد مزارات الجهلة ومراكز قضاء الحاجات والاستغاثة بها لدى هذه الطبقة ، فقد انتشرت هذه المشاهد والمزارات فى كل ركن من أركان العالم الإسلامى ، ووجدت آلاف مؤلفة من القبور المزورة ، وتصدى الأمراء والسلاطين لوقف الممتلكات

---

(١) الرد على البكرى ص ٣٢٨ .

(٢) الرد على الأخنائى ص ٨٢ - ٨٣ .

الأراضى الواسعة عليها وأقيمت عمارات ضخمة وقباب فخمة فى أمكنة هذه القبور
مشاهد المشايخ ، كما وجدت أمة بأسرها من العاكفين والكناسين والخدم لهذه القبور ،
نالت الرحلة اليها كل اعجاب واهتمام حتى بدأت تصل قوافل الحجاج إليها من مسافات
يدة تضارع قوافل الحجيج إلى بيت الله بل تفوقها بعض الأحيان فى الشوكة والزينة ،
تحول اقبال عامة المسلمين من المساجد إلى هذه المشاهد .

وفى القرنين السابع والثامن دخلت هذه المشاهد والضرائح فى حياة المسلمين الدينية
الت عندهم من القبول والمركزية ما جعلها تنافس بيت الله وتتحداه ، ونستطيع أن نقدر
ى خطورة فتنة المشاهد هذه ، وتغلغل جذورها فى أحشاء المجتمع ، وكم كان للجهلة
المسلمين والانتهازيين من علاقة عميقة بها عن طريق كتابات ابن تيمية ومؤلفاته ، ومن
سباب التى أدت دوراً هاماً عن طريق كتابات ابن تيمية ومؤلفاته ، ومن الأسباب التى
ت دوراً هاماً فى توسع هذه الفتنة وتأصلها أن الدولة الباطنية [1] حكمت قروناً طويلة فى
نة تمتد من المغرب الأقصى إلى مصر والشام ، وما يعرفه الجميع أن أهل الرفض والتشيع
وا يتصلون بالمشاهد أكثر منهم بالمساجد وبالنجف والكربلاء والمشهد أكثر منهم بالحرمين
ريفين .

ولو أن دولة مصر الفاطمية كانت قد انتهت قبل ولادة ابن تيمية الا أن تأثيرها الفكرى
ضارى لم ينته بعد ، وبخاصة فى الشام فقد وجد فيها عدد كبير من الشيعة
سماعيلية ممن لم تكن صحبتهم تخلو من تأثير سيئ على العامة والجهلة من المسلمين ،
أن التصوف الدخيل الذى ابتعد عن تعاليم الإسلام فى العصر الأخير الذى تحتل فيه
اهد والضرائح محلاً خاصاً من الأهمية والتقديس ، وتعقد عليها اجتماعات سنوية ،
ازدهارها ، حتى غدت وسيلة كبرى من وسائل الشرك والبدع ، يقول الامام ابن تيمية
يتحدث عن هذه المشاهد والقبور :

ج إلى المشاهد والقبور :

وآخرون يحجون إلى القبور ، وطائفة صنفوا كتباً وسموها مناسك حج المشاهد ، كما
ـ أبو عبد الله محمد بن النعمان الملقب بالمفيد أحد شيوخ الامامية كتاباً فى ذلك ،
فيه من الحكايات المكذوبة على أهل البيت ما لا يخفى كذبه على من له معرفة بالنقل
رون يسافرون إلى قبور المشايخ ، وان لم يسموا ذلك منسكاً وحجاً ، فالمعنى واحد ،

تعرف بوجه عام باسم الدولة الفاطمية ، والحقيقة أنها دولة العبديين .

ومن هؤلاء من يقول : « وحق النبى الذى تحج إليه المطايا ، فيجعل الحج إلى النبى لا إلى بيت الله عز وجل » [١].

الترجيح على الحج إلى الكعبة :

« ومن هؤلاء من يرجح الحج إلى المقابر على الحج إلى البيت ، لكن قد يقول أحدهم إنك إذا زرت قبر الشيخ مرتين أو ثلاثاً كان كحجة ، ومن الناس من يجعل مقبرة الشيخ بمنزلة عرفات ، يسافرون اليها وقت الموسم ، يعرفون بها كما يعرف المسلمون بعرفات كما يفعل هذا فى المغرب والمشرق ، ومنهم من يجعل السفر إلى المشهد والقبر الذى يعظمه أفضل من الحج ويقول أحد المريدين للآخرين وقد حج سبع حجج إلى بيت الله العتيق ، أتبيعنى زيارة قبر الشيخ بالحجج السبع ؟ فشاور الشيخ فقال : لو بعت لكنت مغلوباً ،ومنهم من يقول : من طاف قبر الشيخ سَبعاً كان كحجة » [٢].

الاعراض عن المساجد والاهتمام بالمشاهد :

« وكثير من هؤلاء يخربون المساجد ويعمرون المشاهد ، فتجد المسجد الذى بنى للصلوات الخمس معطلاً مخرباً ليس له كسرة الا من الناس وكأنه خال من الخانات ، والمشهد الذى بنى على الميت عليه الستور وزينة الذهب والفضة والرخام ، والنذور تغدو وتروح اليه ، فهل هذا إلا من استخفافهم الله تعالى وآياته ورسوله وتعظيمهم للشرك ، فانهم اعتقدوا أن دعاء الميت الذى بنى له المشهد والاستغاثة به أنفع لهم من دعاء الله تعالى والاستغاثة به فى البيت الذى بنى لله عز وجل ففضلوا البيت الذى بنى لدعاء المخلوق على البيت الذى بنى لدعاء الخالق ، وإذا كان لهذا وقف ولهذا وقف كان وقف الشرك أعظم عندهم ، مضاهاة لمشركى العرب الذين ذكر الله تعالى حالهم فى قوله تعالى :

﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾ [٣].

وبهذه المقتطفات التى أوردناها يستطيع أن يقدر القارئ الكريم مدى الضلالات العقائدية والعملية التى كان الجهلة والعامة من المسلمين قد أصيبوا بها فى القرنين السابع والثامن الهجرى على رغم وجود حكومات إسلامية قوية ، ووجود كبار أئمة الفن من المحدثين

---

(١) الرد على البكرى ص ٢٩٥ .

(٢) أيضاً ص ٢٩٦ .

(٣) الرد على البكرى ص ٢٥٠ .

والفقهاء والمدارس الدينية والمراكز العلمية ، وكيف كانت العقائد والأعمال المشركة قد تسربت إلى نفوس العامة منهم ، وبصرف النظر عن هؤلاء العامة والجهلة من الناس فان كثيراً من العلماء والفقهاء وجدت الشبهات سبيلاً إلى نفوسهم حول هذه العقائد والأعمال فان كتاباتهم وفتاواهم تشير إلى أن أفكارهم لم تكن نقية فى موضوع الشرك والتوحيد كما ينبغى أن تكون لرجل استفاد عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة مباشرة ، واطلع على سيرة السلف الصالح وعقيدتهم وسلوكهم ، وتقدر وجهة نظر هذه الطبقة التى تأثرت بتقاليد عصرها الرائجة ، وعاداته القديمة من كتابات معاصر ابن تيمية الشيخ على بن يعقوب البكرى والاخنائى التى تصدى شيخ الإسلام ابن تيمية للرد عليها فألف كتابين مبسوطين(١) اقتطفنا منهما ما مر آنفاً .

مهمته الاصلاحية ومعارضته للعقائد المشركة :

رفع ابن تيمية لواء الجهاد والتجديد محارباً لهذه الأعمال والأفكار والتقاليد المشركة الرائجة ، مستغنياً فى ذلك عن سخط العامة ، وغضب الخاصة وعتابهم ، وضرب على جذور تلك العقائد والآراء التى كانت أساس هذه الأعمال المشركة .

والذى دفع العامة من الناس إلى زيارة هذه القبور وممارستهم لهذه الأعمال والتقاليد المشركةهو أنهم إنما كانوا يدعون أصحابها لتحقيق أغراضهم ومآربهم ، فكانوا يستغيثون ويستعيذون بهم ، وقد صرح ابن تيمية فى مؤلفاته أن دعاء غير الله لا يجوز البتة ، وهو شرك جلى دخل فيهم بجهالتهم واختلاطهم بغير المسلمين ، أنه يقول فى كتابه « الرد على البكرى » :

المنع عن الدعاء والاستغاثة بغير الله :

« فانا بعد معرفة ما جاء به الرسول نعلم بالضرورة أنه لم يشرع لأمته أن تدعو أحداً من الأموات لا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم ، لا بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها ولا بلفظ الاستعاذة ولا بغيرها ، كما أنه لم يشرع لأمته السجود لميت ولا لغير ميت ونحو ذلك ، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور وإن ذلك من الشرك الذى حرمه الله تعالى ورسوله، لكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة فى كثير من المتأخرين لم يكن تفكيرهم بذلك

---

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة المعروف الرد على البكرى ، المطبعة السلفية مصر عام ١٣٤٦ هـ ، وكتاب الرد على الاخنائى واستحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية ، المطبعة السلفية عام ١٣٤٦ هـ . ولكتاب المذكور آخراً على هامش المذكور أولاً .

حتى يتبين لهم ما جاء به الرسول ﷺ مما يخالفه »[1] .

ويقول فى مناسبة أخرى :

« (أبعدها » عن الشرع أن يسأل الميت حاجة أو يستغيث به كما يفعله كثير من الناس بكثير من الأموات وهو من جنس عبادة الأصنام ، ولهذا تتمثل لهم الشياطين على صورة الميت أو الغائب كما كانت تتمثل لعبادة الأصنام بل أصل عبادة الأصنام إنما كانت من القبور كما قال ابن عباس وغيره »[2] .

ويقول فى موضع آخر :

« سؤال الميت والغائب نبياً كان أو غيره من المحرمات المنكرة باتفاق أئمة المسلمين لم يأمر الله به ولا رسوله ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين لهم باحسان ، ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين المسلمين أن أحداً منهم ما كان يقول إذا نزلت به ترة أو عرضت له حاجة لميت : يا سيدى فلان أنا فى حسبك ، أو أقض حاجتى ، كما يقول بعض هؤلاء المشركين لمن يدعونهم من الموتى والغائبين ، ولا أحد من الصحابة رضى الله عنهم استغاث بالنبى ﷺ بعد موته ولا بغيره من الأنبياء لا عند قبورهم ولا إذا بعدوا عنها ، وقد كانوا يقفون تلك المواقف العظام فى مقابلة المشركين فى القتال ويشتد البأس بهم ويظنون الظنون ومع هذا لم يستغث أحد منهم بنبى ولا غيره من المخلوقين ، ولا أقسموا بمخلوق على الله أصلاً ولا كانوا يقصدون الدعاء عند قبور الأنبياء ولا قبور غير الأنبياء ولا الصلاة عندها ، وقد كره العلماء كمالك وغيره أن يقوم الرجل عند قبر النبى ﷺ يدعو لنفسه وذكروا أن هذا من البدع التى لم يفعلها السلف »[3] .

ويقول فى رسالته المعروفة باسم التوسل والوسيلة :

« فان دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم وفى مغيبتهم وسؤالهم والاستغاثة بهم والاستشفاع بهم فى هذه الحال ونصب تماثيلهم بمعنى طلب الشفاعة منهم هو من الدين الذى لم يشرعه الله ولا ابتعث به رسولاً ولا أنزل به كتاباً »[4] .

---

(١) الرد على البكرى ص ٣٧٧ .

(٢) أيضاً ص ٥٦ .

(٣) الرد على البكرى ص ٢٣٢ .

(٤) قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ص ١٥ .

الحكمة فى تحريم دعاء غير الله :

ويتحدث فى هذا الكتاب عن الحكمة فى تحريم دعاء غير الله فيقول :« نهى سبحانه عن دعاء الملائكة والأنبياء ، مع اخباره لنا أن الملائكة يدعون لنا ويستغفرون ، ومع هذا فليس لنا أن نطلب ذلك منهم ، وكذلك الأنبياء والصالحون ، وإن كانوا أحياء فى قبورهم، وإن قدر أنهم يدعون للأحياء وأن وردت به الآثار فليس لأحد أن يطلب منهم ذلك ، ولم يفعل ذلك أحد من السلف ، لأن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم وعبادتهم من دون الله تعالى ، بخلاف الطلب من أحدهم فى حياته ، فانه لا يفضى إلى الشرك ، ولأن ما تفعله الملائكة ويفعله الأنبياء والصالحون بعد الموت هو بالأمر الكونى ، فلا يؤثر فيه سؤال السائلين ، بخلاف سؤال أحدهم فى حياته فانه يشرع اجابة السائل ، وبعد الموت انقطع التكليف عنهم» (1) .

أشكال وأنواع متعددة للداعين :

وفى موضع آخر لشرح ألوان وأحوال الداعين والسائلين على القبور ، ويذكر أحكام كل منهم ، يقول :

وأما من يأتى إلى قبر نبى أو صالح أو من يعتقد فيه أنه قبر نبى أو رجل صالح وليس كذلك ويسأله ويستنجده فهذا على ثلاث درجات : أحدها أن يسأله حاجته مثل أن يسأله أن يزيل مرضه أو مرض دوابه أو يقضى دينه أو ينتقم له من عدوه أو يعافى نفسه وأهله ودوابه ونحو ذلك مما لا يقدر عليه الا الله فهذا شرك صريح يجب أن يستتاب صاحبه فان تاب والا قتل .

وإن قال : أنا أسأله لكونه أقرب إلى الله مني ليشفع لى فى هذه الأمور لأني أتوسل إلى الله به كما يتوسل إلى السلطان بخواصه وأعوانه فهذا من أفعال المشركين والنصارى فانهم يزعمون أنهم يتخذون أحبارهم ورهبانهم شفعاء يستشفعون بهم فى مطالبهم ، وكذلك أخبر الله عن المشركين أنهم قالوا ﴿ **ما نعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ ، وقال سبحانه وتعالى :

﴿ **أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون** ﴾(2) .

---

(1) قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ص ١٣٢ .

(2) لزمر : ٤٣ ، ٤٤ .

وقال تعالى : ﴿ ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه ﴾[2] .

فهذا هو القسم الثانى وهو أن لا تطلب منه الفعل ولا تدعوه ولكن تطلب أن يدعو لك كما تقول للحى : ادع لى ، وكما كان الصحابة رضوان الله عليهم يطلبون من النبى ﷺ الدعاء فهذا مشروع فى الحى كما تقدم ، وأما الميت من الأنبياء والصالحين وغيرهم فلم يشرع لنا أن نقول ادع لنا ولا أسأل لنا ربك ، ولم يفعل هذا أحد من الصحابة والتابعين ولا أمر به أحد من الأئمة ، ولا ورد فيه حديث ، بل الذى ثبت فى الصحيح أنهم لما أجدبوا زمن عمر رضى الله عنه استسقى بالعباس وقال : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون ، ولم يجيئوا إلى قبر النى ﷺ قائلين : يا رسول الله ادع لنا واستسق لنا ونحن نشتكى اليك مما أصابنا ونحو ذلك ، لم يفعل ذلك أحد من الصحابة قط بل هو بدعة ما أنزل الله بها من سلطان .

وأما القسم الثالث وهو أن يقول اللهم بجاه فلان عندك أو ببركة فلان أو بحرمة فلان عندك افعل بى كذا وكذا فهذا يفعله كثير من الناس لكن لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين وسلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء ، ولم يبلغنى عن أحد من العلماء فى ذلك ما أحكيه الا ما رأيت فى فتاوى الفقيه أبى محمد بن عبد السلام فانه أفتى أنه لا يجوز لأحد أن يفعل ذلك الا للنبى ﷺ ان صح الحديث . . . وقالت طائفة ليس فى هذا جواز التوسل به فى مماته وبعد مغيبه بل إنما فيه التوسل فى حياته بحضوره[3] .

لا يجوز للمرء أن يطلب من أى كائن حى ما وراء الأسباب الدنيوية :

ولا يكتفى ابن تيمية باعتبار حرمة مد يد السؤال إلى شيخ ميت أو نبى أو صاحب قبر ، بل أنه يعتبر طلب كل شئ يكون وراء الاسباب الدنيوية ويتصل بالقدرة الالهية أو بالارادة المطلقة التى عبّر عنها بقوله ﴿ كن فيكون ﴾ واختصه الله بنفسه وان كان ذلك انساناً حياً ، يقول فى رسالته « زيارة القبور » :

« ان مطلوب العبد ان كان من الأمور التى لا يقدر عليها الا الله تعالى مثل أن يطلب شفاء مرضه من الآدميين والبهائم أو وفاء دينه من غير جهة معينة أو عافية أهله وما به

---

(١) السجدة : ٤ .

(٢) البقرة : ٢٥٥ .

(٣) ملخصاً عن رسالة زيارة القبور ص ١٠٦ ، ١١٢ .

من بلاء الدنيا والآخرة وانتصاره على عدوه وهداية قلبه وغفران ذنبه أو دخوله الجنة أو نجاته من النار أو أن يتعلم العلم والقرآن أو أن يصلح قلبه ويحسن خلقه ويزكى نفسه وأمثال ذلك ، فهذه الزمور كلها لا يجوز أن تطلب الامن الله تعالى ، ولا يجوز أن يقول لملك ولا نبى ، ولا شيخ سواء كان حياً أو ميتاً اغفر ذنبى ولا انصرنى على عدوى ، ولا أشف مريضى ولا عافنى ، أو عاف أهلى أو دابتى وما أشبه ذلك ، ومن سأل ذلك مخلوقاً كائناً من كان فهو مشرك بربه من جنس المشركين الذين يعبدون الملائكة والأنبياء والتماثيل التى يصورونها على صورهم ، ومن جنس دعاء النصارى للمسيح وأمه » (١).

حقيقة الواسطة :

ويحتوى هذا الموضوع على بحث آخر يسمى بالواسطة أو التوسط ، ويقال لمن يخالفون أن يدعى الرسل أو الشيخ أو الولى أنهم ينكرون الواسطة ، على أن من المعلوم أن النبى هو الواسطة بين الخلق والخالق ، ويستحيل الوصول إلى الله بدونه ، وقد تصدى ابن تيمية للرد على الاعتراض بطريق واضح ، وين أن هناك مفهومين للواسطة ، مفهوماً حقاً متفقاً عليه وعليه أساس الدين كله ، ومفهوماً باطلاً لا أساس له اخترعه الناس ، وقد وضح فى هذا الموضوع رسالة مستقلة باسم « الواسطة ين الخلق والحق » يقول فيها :

« ان أراد ذلك أنه لابد من واسطة تبلغنا أمر الله فهذا حق ، فان الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه وما أمر به وما نهى عنه وما أعده لأوليائه من كرامته وما وعد به أعداءه من عذابه ، ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنى وصفاته العليا التى تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك الا بالرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده . . . وهذا مما أجمع عليه جميع أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى فانهم يثبتون الوسائط بين الله وبين عباده ، وهم الرسل الذين بلغوا عن الله أمره وخبره قال تعالى :

﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ [الحج - ٧٥] ومن أنكر هذه الوسائط فهو كافر بإجماع أهل الملل » (٢).

« وإن أراد بالواسطة أنه لابد من واسطة فى جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يكون واسطة فى رزق العباد ونصرهم وهداهم يسألونه ذلك ويرجون اليه فيه فهذا من أعظم الشرك الذى كفر الله به المشركين حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم

---

(١) رسالة زيارة القبور ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٢) الواسطة بين الخلق والحق ص ٤٥ ، ٤٦ .

المنافع ويجتنبون المضار »[(١)].

وقد غالى العامة والجهلة وكثير من الخواص أيضاً إلى حد أن اتخذوا الأولياء والصلحاء واسطة ينهم وبين الله تعالى فضلاً عن الأنبياء والرسول ﷺ فكانوا يرجعون اليهم فى كل شئ من الدعاء والاستعانة والتوكل والرجاء ، يتحدث ابن تيمية عن الفرق بين هؤلاء وأولئك فيقول :

« ومن سوى الأنبياء من مشايخ العلم والدين ، فمن أثبتهم وسائط بين الرسول وأمته يبلغونهم ويعلمونهم ويؤدبونهم ويقتدون بهم فقد أصاب فى ذلك ، وهؤلاء إذا أجمعوا فاجماعهم حجة قاطعة لا يجتمعون على ضلالة وان تنازعوا فى شئ ردوه إلى الله والرسول ، إذا الواحد منهم ليس بمعصوم على الاطلاق بل كل أحد من الناس يؤخذ من كلامه ويترك الا رسول الله ﷺ ، وان أثبتم وسائط بين الله وبين خلقه كالحجاب الذى بين الملك ورعيته بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه ، فالله إنما يهدى عباده ويرزقهم بتوسطهم ، فالخلق يسألونهم وهم يسألون وهم يسألون الله كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس لقربهم منهم والناس يسألونهم أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملوك لكونهم أقرب إلى الملك من الطلب للحوائج ، فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك يجب أن يستتاب فان تاب والا قتل ، وهؤلاء مشبهون لله شبهوا المخلوق بالخالق وجعلوا لله أندادا»[(٢)] .

المشاهد بدعة قبيحة :

يعارض ابن تيمية بعنف وصراحة هذه المشاهد و« المزارات » التى كانت قد تحولت فى العالم الإسلامى كله إلى مرتع للشرك والبدع والفسق والفجور وألوان من المنكرات ، وظهرت فيه كفتنة عظيمة ، ويعتبرها ابن تيمية معارضة مكشوفة للشريعة وبدعة قبيحة فى الزمن المتأخر يقول فى « الرد على البكرى » :

« وكذلك المساجد المبنية على القبور التى تسمى المشاهد محدثة فى الاسلام والسفر اليها محدث فى الإسلام لم يكن شئ من ذلك فى القرون الثلاثة المفضلة ، بل ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد،

---

(١) الواسطة ين الخلق والحق ص ٤٦ .

(٢) أيضاً ص ٤٧- ٤٨ .

يحذر ما فعلوا ، قالت عائشة رضى الله عنها : ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجداً ، وثبت فى الصحيح عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس : ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فانى أنهاكم عن ذلك » (١) .

ويتقدم فيقول : « وأيضاً فلما فتح المسلمون تستر وجدوا فيها قبر دانيال عليه السلام وكان أهل البلد يستسقون به ، فكتب فى ذلك أبو مرسى إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه : أن أحفر بالنهار ثلاثة عشر قبراً وادفنه فى الليل فى واحد منها لئلا يفتتن به الناس فيستسقون به ، فهذه كانت سنة الصحابة رضوان الله عليهم ولهذا لم يكن فى زمن الصحابة والتابعين لهم باحسان على وجه الأرض فى ديار الإسلام مسجد مبنى على قبر ولا مشهد يزار ، لا الحجاز ولا باليمن ولا الشام ولا مصر ولا العراق ولا خراسان »(٢) .

ويقول فى كتاب آخر :

« وأما الحجاج إلى القبور والمتخذون لها أوثاناً ومساجد وأعياداً فهؤلاء لم يكن على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم منهم طائفة تعرف ، ولا كان فى الإسلام قبر ولا مشهد يحج إليه ، بل هذا إنما ظهر بعد القرون الثلاثة ، والبدعة كما كانت أظهر مخالفة للرسول يتأخر ظهورها ، وإنما يحدث أولا ما كان أخفى مخالفة للكتاب والسنة » (٣) .

المشاهد « منحة » الروافض والباطنية :

أنه يعتقد أن الروافض والباطنية هم الذين أحدثوا بدعة المشاهد ، ووضعوا أحاديث تؤيد مذهبهم فيها ، وذلك لأنهم معجبون فى الحقيقة بقبور أئمتهم ومشاهدهم ، يقول :

« وأول من وضع هذه الأحاديث فى السفر لزيارة المشاهد التى على القبورأهل البدع من الروافض ونحوهم الذين يعطلون المساجد ويعظمون المشاهد التى يشرك فيها ويكذب فيها ويبتدع فيها دين لم ينزل الله به سلطاناً فان الكتاب والسنة إنما فيهما ذكر المساجد دون المشاهده كما قال تعالى : ﴿ **قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه خلصين له الدين** ﴾ وقال : ﴿ **وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً** ﴾ وقال : ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾ وقال : ﴿ **ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد**﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه** ﴾ ،

---

(١) الرد على البكرى ص ٣٣٣ .

(٢) أيضاً ص ٢٨٣ .

(٣) الرد على الاخنائى ص ١٠٢ .

وقد ثبت عنه ﷺ أنه كان يقول : « ان من كانوا قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فانى أنهاكم عن ذلك »[١] .

معظم هذه المشاهد والقبور مزورة :

وقد حقق ابن تيمية أن معظم هذه المشاهد والقبور مزورة مفترضة ، وما أحسن ما يقول فى تأييد هذا المعنى :

« وكثير من المشاهد كذب وكثير منها مشكوك فيه ، وسبب ذلك أن معرفة المشاهد ليست من الدين الذى تكفل الله بحفظه وللأمة لعدم حاجتهم إلى معرفة ذلك »[٢] ، ولذلك فقد وقع فيها التزوير بصفة عامة ، وكثير منها تزوير بحت لا يستند إلى أى أصل ولكن ينخدع به خلق كثير .

قصص يزورونها لانجاز أغراضهم من المشاهد :

ومن الفتن التى شاعت وانتشرت فى الناس هى أن هذه المشاهد والقبور توفر الشفاء للمرضى المزمنين ، ويستجاب عندها الدعاء وكان الناس يتحدثون فى ذلك عن تجاربهم ومشاهداتهم الشخصية ، ولكن ابن تيمية لم يكن ليتأثر بمثل هذه الاشاعات والدعاوى الكاذبة لما كان يتمتع به من الرسوخ فى الدين وقوة الإيمان واليقين ولم يكن ليترك قطعيات الدين ومنصوصات الكتاب والسنة لمجرد اشاعات وروايات يتناقلها الناس ، أنه ظل قائماً على فراسته الإيمانية وفهمه النير للدين وأثبت أن هذه الاشاعات والدعاوى كلها وهم على وهم لا يمت إلى الحق والصدق بصلة ما ، وكثيراً ما كان الناس يروون عن شفاء الحيوانات والبهائم على هذه المشاهد والقبور ، ولكن ما ذكره ابن تيمية لهذه الأحاديث من تأويل عجيب إنما يستلفت الأنظار وينور الأبصار ، أنه يقول :

« وكان بالبلد جماعة كثيرون يظنون فى العبيديين أنهم أولياء الله تعالى صالحون فلما ذكرت لهم أن هؤلاء كانوا منافقين زنادقة وخيار من فيهم الرافضة ، جعلوا يتعجبون ويقولون : نحن نذهب بالفرس التى بها مغل إلى قبورهم ، فقلت لهم : هذا من أعظم الأدلة على كفرهم وطلبت طائفة من سياس الخيل فقلت : أنتم بالشام ومصر إذا أصاب الخيل المغل أين تذهبون بهم ؟فقالوا : فى الشام نذهب بها إلى القبور التى ببلاد الاسماعيلية كالعليقة والمنقية ونحوهما ، وأما فى مصر فيذهب بها إلى دير هناك للنصارى

---

(١) أيضاً ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) الرد على البكرى ص ٣١٢ .

ونذهب بها إلى قبور هؤلاء الأشراف ، وهم يظنون أن العبيديين شرفاء لما أظهروا أنهم من أهل البيت ، فقلت : هل تذهبون بها إلى قبور صالحى المسلمين مثل قبر الليث بن سعد والشافعى وابن القاسم وغير هؤلاء ؟ فقالوا : لا ، فقلت لأولئك : اسمعوا إنما يذهبون بها إلى قبور الكفار والمنافقين وبينت لهم سب ذلك ، قلت : لأن هؤلاء يعذبون فى قبورهم والبهائم تسمع أصواتهم كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح فاذا سمعت ذلك فزعت ، فبسبب الرعب الذى يحصل لها تنحل بطونها فتروث ، فان الفزع يقتضى الاسهال ، فيعجبون من ذلك ، وهذا المعنى كثيراً ما كنت أذكره للناس ولم أعلم أحداً قاله، ثم وجدته قد ذكره بعض العلماء »(١) .

تمثيل الشياطين للمشركين :

ويتحدث ابن تيمية عن علة ما يحدث على قبور الأولياء والصالحين من استجابة الدعاء وانقضاء الحاجة ، ومن كلام صاحب القبر وزيارته ، فيقول :

« وكثير من هؤلاء اذا استغاث بالشيخ رأى صورته وربما قضى بعض حاجته فيظن أنه الشيخ نفسه أو أنه ملك تصور على صورته وان هذا من كراماته فيزداد به شركاً وفيه مغالاة، ولا يعلم أن هذا من جنس ما تفعله الشياطين بعباد الأوثان ، حيث تتراءى أحياناً لمن تعبدها وتخاطبهم ببعض الأمور الغائبة وتقضى لهم بعض الطلبات ، ولكن هذه الأمور كلها بدع محدثة فى الإسلام بعد القرون الثلاثة المفضلة »(٢) .

ويقول فى مكان آخر :

« ان هذه الشياطين تتصور على صورة المستغاث به ، وحكى لى غير واحد من أصحاب الشيوخ أنه جرى لمن استغاث بهم مثل ذلك ، وحكى خلق كثير أنهم استغاثوا بأحياء وأموات فرأوا مثل ذلك واستفاض هذا حتى عرف أن هذه من الشياطين تغرى الانسان بحس الامكان فان كان ممن لا يعرف دين الإسلام أوقعته فى الشرك الظاهر والكفر المحض فأمرته ألاَّ يذكر وأن يسجد للشيطان ويذبح له وأمرته بأكل الميتة والدم وفعل الفواحش وهذا يجرى كثيراً فى بلاد الكفر المحض وبلاد فيها كفر وإسلام ضعيف ويجرى فى بعض مدائن الإسلام فى المواضع التى يضعف إيمان أصحابها ، حتى قد جرى ذلك فى مصر والشام على أنواع يطول وصفها وهو فى أرض الشرق قبل ظهور الإسلام فى التتار كثير جداً وكلما

---

(١) أيضاً ص ٣١٠ ، ٣١١ .

(٢) الرد على البكرى ص٢٣٣ .

ظهر فيهم الإسلام وعرفوا حقيقته قلت آثار الشياطين فيهم »[1].

يقول ابن تيمية أن ذلك لا يحدث مع الصالحين فقط ، بل يحدث ذلك لعباد الكواكب أيضاً ، ويحصل لهم مثل هذه الانتصارات والأحاسيس :

« والذين يدعون الكواكب تنزل عليهم أشخاص يسمونها روحانية الكواكب وهو شيطان نزل عليه لما أشرك ليغويه كما تدخل الشياطين فى الأصنام وتكلم أحياناً لبعض الناس وتتراءى للسدنة أحياناً ولغيرهم أيضاً »[2].

دور ابن تيمية فى اصلاح العقيدة وتأثيره :

ان القرنين السابع والثامن (وقد مضى الحديث عن خصوبتهما وانتاجاتهما فى أول الكتاب) وان كانا حافلين بكبار العلماء والشيوخ ، وكان العمل فى كل مجال من مجالات التأليف والوعظ والارشاد والدعوة والتبليغ مستمراً بكل قوة لا يترك مجالاً للشك فى أن العلماء الراسخين وحملة الكتاب والسنة لا بد أنهم قد استنكروا هذا الشرك الجلى والجاهلية الوثنية كل الاستنكار ، وعارضوها بالقلم واللسان ، ولكن ابن تيمية يمتاز بأنه كان فى طليعة العلماء الذين رفعوا راية الجهاد لمحاربة هذا الوضع ، وتصدوا لمقاومة هذه الفتنة الكبرى رغم اشتغالهم وبحثهم فى العلم ، وخاطبوا عقول الجماهير وتبنوا مهمة الرد على الشرك الصريح ، غاية حياتهم وكانوا يتمتعون بمكانة عالية فى العلم والدين وخلفوا ذخيرة علمية ذات قيمة كبيرة فى هذا الموضوع تخلّد شخصيتهم وتجدد مهمتهم الاصلاحية حيناً لآخر .

والحقيقة أن مقاومة هذه الفتنة العامة وشرح عقيدة التوحيد ، وبعث الفكر الإسلامى الصحيح ، واستعراض هذه التقاليد والعقائد المشركة التى كانت تغطى المجتمع وتسيطر عليه، والرد عليها رداً قوياً حاسماً ، كل ذلك كان يحتاج إلى شخصية ابن تيمية القوية ، وطبيعة التوحيد تأبى أن تلوذ بالتأويل والمداهنة أو المحاباة أنها تتطلب خطاب الأنبياء الواضح الحاسم وأسلوب دعوتهم الصريح الذى يتسم بميزة « الفرقان » ولا شك أن ابن تيمية إنما قام بمسؤلية النيابة عن الأنبياء فى عصره ، وعمل بمصداق ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** ﴾ حتى أن هذه العقائد والتقاليد الباطلة التى كانت قد عمت فى المجتمع الإسلامى باختلاط غير المسلمين وصحبتهم وتأثير الفرق الضالة والمغرضين قد

---

(١) تفسير سورة الإخلاص ص ١١٨ .

(٢) كتاب النبوات ص ٢٧٤ .

بهزمت وذهبت ريحها وتمثلت عقيدة التوحيد التى ترتكز عليها دعوة الأنبياء وتعتبر غايتهم كبرى بملامح أوضح وأجمل من جديد ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيى عن بنة﴾ .

ان هذا العمل الذى قام به ابن تيمية كفاه دليلاً على ما خصه الله به من مكانة عالية فى مجال الاصلاح والتربية والدعوة والتجديد ، وقد وجد بتأثير كتاباته ومؤلفاته رجال من مل الدعوة والتربية بين حين وآخر ممن رفعوا راية الجهاد ضد هذه التقاليد و « الوثنية لجاهلية » بكل صدع واعلان وارتفع صوت القرآن مدوياً عالياً ﴿ الا لله الدين الخالص ﴾ رتج له العالم الإسلامى وتجاوبه السهل والجبل .

نقد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام
وترجيح أسلوب الكتاب والسنة

مهمة الاصلاح والتجديد الثانية :

أما مهمة الاصلاح والتجديد الثانية التى قام بها شيخ الإسلام ابن تيمية فهى أنه تناول الفلسفة والمنطق وعلم الكلام بنقد مفصل ، وأثبت فضل أسلوب الكتاب والسنة ازاء هذه العلوم مؤيداً بالدلائل والبراهين ، ولكى نقدر مدى عظمة هذه المهمة يجب أن نعرف ما كان يتمتع به المنطق والفلسفة من مكانة عالية فى العالم الإسلامى وما كان لهما من سيطرة على الأفكار والآراء وفى مثل أى ظرف وبيئة قام شيخ الإسلام بمهمته هذه ؟

تأثير فلسفة اليونان وسيطرتها على العالم الإسلامى :

لا يخفى أن مهمة ترجمة كتب الفلسفة والمنطق اليونانى كانت قد بدأت منذ عهد الخليفة المنصور عام ١٣٦ هـ ، وكان المعتزلة قد درسوا هذه الكتب واستفادوا منها ، ومنذ ذلك العهد دخلت فى كتبهم مصطلحات الفلسفة اليونانية ، إلا أن علوم اليونان ازدهرت فى الحقيقة من عصر المأمون ، ذلك الذى أشرف على حركة الترجمة إشرافاً ملكياً واحتضن هذه الحركة ، فقد كان من أحرص الناس على هذه العلوم ، وأكثرهم تقديراً لها ، فقد ذكر صاعد الأندلسى فى كتابه « طبقات الأمم » أنه طلب من ملوك الروم كتب حكماء اليونان فأرسلوا اليه مؤلفات أفلاطون وأرسطو وبقراط وجالينوس وأقليدس وطليموس كهدية ، وأمر المأمون بترجمتها فى غاية من الاهتمام ، وحث الناس على دراستها وفى عهده نالت هذه المؤلفات رواجاً عاماً ونالت الفلسفة ازدهاراً كبيراً وأقبل الشباب هم الآخرون على اتقان هذه المواد وجاء به كل كهدية غالية إلى بلاط المأمون السخى وأكرموا بالجوائز والصلات والمناصب العالية ، وهكذا فان الدولة العباسية أصبحت منافسة للدولة الرومية فى هذه لعلوم(١) .

وظل عمل الترجمة هذا مستمراً إلى ما بعد المأمون ، وفى التاريخ ما يدل على أن ذخائر ،جيهة من علوم اليونان كانت قد انتقلت إلى العربية حتى القرن الرابع الهجرى (٢) .

---

١) طبقات الأمم ص ٤٧ .

٢) وللاطلاع على التفاصيل ، راجع فهرس ابن نديم ، وطبقات الأطباء لأبن أبى أصيبعة ، وأخبار الحكماء للقفطى ، وما إلى ذلك .

وعلى أن هذه الذخيرة العلمية إنما كانت تحتوى على مؤلفات وتحقيقات أفلاطون وغيره من حكماء اليونان ، الا أن كتب ارسطو نالت القبول والاعجاب فى أوساط العالم الإسلامى العلمية والمدرسية أكثر من غيره ، ولعل ذلك جاء من قبل المترجمين الذين كانوا فى الغالب من النصارى النسطوريين واليعقوبيين ، ومن فلاسفة جند يسابور وحران ، إما لاتجاهاتهم الشخصية ، أو لأن عصر أرسطو أقرب بالنسبة إلى غيره وأن كتبه تحتوى على مباحث الفلاسفة المتقدمين بشكل أكثر تدويناً وترتيباً ، حتى أصبحت هى الأخرى ممثلة فلسفة اليونان ، والحامية لها ، ورمز الفلسفة وآيتها فى العالم الإسلامى ، ومن سوء حظ العالم الإسلامى أنه لم يحظ من فلاسفة اليونان إلا بمن كان أبعد وأجهل من الجميع فى تفهم روح الأديان السماوية ،مفاهيمها وحقائقها وكان أكبر داعية للفكرة المادية ومن كبار أنصارها ومؤيديها (وستأتى تفاصيل البعض منهم فى كتابات الامام ابن تيمية وانتقاداته) .

عهد تقليد الفلسفة :

فى أول الأمر رفض علماء الفلسفة فى العالم الإسلامى قبول فلسفة أرسطو ومنطقه على علاتها ، وما رأوه فوق النقد والتحقيق ، بل تصدى كثير منهم وألفوا كتباً فى الرد عليها ، وتناولوا بحوثه الفلسفية والمنطقية بالنقد الحر ، وتجاهروا بكل ما ظهر عليهم ضعفه وركاكته، وكان المعتزلة أول من حملوا لواء ذلك ويجدر بالذكر منهم النظام وأبو على الجبائى ورجاء حسن بن موسى النوبختى فى القرن الثالث فألف «كتاب الآراء والديانات»، ورد على بعض المسائل المنطقية لأرسطو ، كما ألف الامام أبو بكر الباقلانى كتاباً باسم «الدقائق» فى القرن الرابع ، فنّد فيه الفلسفة ، وأثبت فضل منطق العرب على منطق اليونان ، أما فى القرن الخامس فنهض العلامة عبد الكريم الشهرستانى صاحب كتاب «الملل والنحل» وألف كتاباً فى الرد على برقلس وأرسطو ، ونقض فيه دلائلهما وفق قواعد المنطق، وفى أواخر هذا القرن نفسه تصدى الإمام الغزالى كمنافس للفلسفة وألف كتابه المعروف باسم « تهافت الفلاسفة » ذلك الذى أحدث ضجة فى إيوان الفلسفة بقيت إلى قرن كامل[1] ، وقام أبو البركات البغدادى فى القرن السادس فواصل هذا العمل وتقدم به إلى الأمام ، وألف كتاباً باسم « المعتبر » أصبح موضع البحث والنقد فيما بعد ، أبطل فيه أفكار أرسطو فى معظم المسائل ، وفى هذا القرن برز الإمام فخر الدين الرازى (٦٠٣ هـ) « كمحام » لمتكلمى الإسلام والأشاعرة ، واستهدف الفلسفة لإيراداته .

---

(١) اقرأ التفاصيل فى المجلد الأول من هذا الكتاب .

أما الأوساط العلميـة فى العالم الإسلامى التى كانت تعتبر حاملة لواء الفلسـفة اليونانية فى الواقع وترجمانها ، ظلت مسحرة بشخصية أرسطو وعظمته ، وكانت تراه [illegible] كل نقد وتحقيق ، وكان هذا الهـيام والإعجاب بشخصية أرسـطو يتزايد مع مرور الأيام لدى علماء الفلسفـة ، ويكاد يحتل فى أوساط الفلسـفة محل القـدسية والعظمـة ، فكل خلف يفوق سلفه فى تقديسـه وتعظيمه ، يقـول أبو نصر الفـارابى المتوفى (٣٣٩ هـ - ٩٥٠ م) عن أفلاطون وأرسطو :

« وكان هذان الحكيمـان هما المبدعان للفلسفـة والمنشئان لأوائلها وأصولها ، والمتـممان لأواخرها وفروعها ، وعليهما المعول فى قليلها وكثيرها »[١].

وهذا « أبو على سـينا » (م ٤٢٨ هـ) أكـثـر اعـتـرافاً بعـظمة أرسـطو وسلطانه من الفارابى، إنه يقول فى كتابه « الشفاء » ما معناه : « إن أرسطو مضى عليه أمد طويل إلا أن القضايا والتحقيقات التى أدلى بها لم تحتج إلى زيارة »[٢].

ولم تنجب أوساط الفلسفة بعد أبى على سينا أى عالم و « محام » للفلسفة أكبر من ابن رشد (م ٥٩٥ هـ) إنه يتقدم خطوة فى تقـديس وتعظيم أرسطو من أبى على سينا أيضاً ، واسمحـوا لى بهذه المناسبة أن أعـبر عن ذلك لما اعتاده المتـصوفون من كلمة « التـفانى فى الشيخ » يتحدث أحد مترجميه عن خصيصته هذه فيقول :

« أما تمجيد ابن رشد لأرسطو فلا حد له فيكاد يؤلهه ، وقد وضع له أوصافاً تجعله فوق درجات الكمال الانسانى عقلاً وفضلاً ، ولو كان ابن رشد يقول بتعدد الالهة لجعل أرسطو رب الأرباب »[٣].

وفى القـرن السابع تـبرز شـخصـيـة نصيـر الدين الطوسى (م ٦٧٢ هـ) فى أوسـاط الفلسـفة، ذلك الذى عـرفته حلقـات المدارس الفلسـفية بالمحـقق الطوسى ، وكان الـعالم الإسلامى قد أصابتـه دهشة الفتح ، وأصيب بالذهول فى هذا الزمن بهجوم التـتر وسقوط بغداد ، وأظل العالم الإسلامى كله انحطاط علمى عام ، وقد كان نصير الدين الطوسى ، هو حامل لواء العلم والفلسـفة اليونانية وهو من مقـربى هلاكوخان ومسـتشاريه ، وتولى

---

١) الجمع ين رأيي الحكيمين .

٢) مأخوذ من مقال العلامة شبلى النعمانى « بين الإسلام وفلسفة اليونان » المنشور فى مجلة « الندوة » ج ١ ، رواية عن كتاب « الشفاء » .

٣) تاريخ فلاسفة الإسلام فى الشرق والغرب ، لطفى جمعة ص ١٥٥ .

تلاميذه أمور التدريس والتأليف (وأخص بالذكـر منهم قطب الدين الشيرازى وسميه قط الدين الرازى) وعلى يدهم وجد ذلك المنهج الخاص للتعليم السائد فى إيران ، الذى يحـ فيه المنطق والفلسفـة محلاً رئيسياً وقد كان نصيـر الدين الطوسى يتصل بالمدرسة التى كان تعتبر أرسطو العقل الكل ، وترى فى نظراته وتحقيقاته المرجع الأخير ، وقد دافع عن فلسـ أرسطو مخالفاً للإمام الرازى ، وكان قد نفخ فى فلسفة أرسطو روحاً جديدة .

المحاسبة العلمية للفلسفة والمنطق ومأثرة ابن تيمية فى هذا المجال :

ولد شيخ الإسلام ابن تيمية قبل وفاة نصـير الدين الطوسى بعشر سنين ، وكان للفلسـ والمنطق اليونانيين غلبـة وازدهار عظيم ، بتأثير نصـير الدين الطوسى وتلاميـذه البارعين وكان يعتبـر منتهى الذكاء ومقياس الفـضل آنذاك أن يفهم المرء مسائلهما وبـحوثهما ، و يكن لأحد أن يتجرأ على القول بازائهما أو ضـدهما ، ولم يكن المحدثون والفقهاء فرسـ هذا الميدان ، وجل ما كان يسـعهم هو أن يفتوا بحرمتهـا ، إلا أن هذا السيل ما كان يقـ بهذا ومثله من الأعمال ، فقد كان العـالم الإسلامى كله يعيش تحت ضغطهما ، ولقد كـ للتشكك والارتياب جـولة فى بعض الأوساط التى كانت تتصل بالـفلسفة اليونانية مـباشـ ويوجد فيها اتجـاه نحو انكار حقائق الأشياء ، أما الطبقة التى ابتـعدت عنها ولم تتصل بـ مباشرة فقد وقعت فريسة مركب النقص والشعور بالعجز .

ولمحاربة هذا الوضع كانت الحاجة ماسة إلى نقد صـريح واستعراض علمى حر للفلسـ والمنطق ، وإلى ازاحة السـتار عن مواضع ضعـفها العلميـة ، وقد أنجز حاجة الـساعة هـ شيخ الإسلام ابن تـيمية ، وقام بنقـد الفلسفة اليونانيـة ومحاسبـتها العلمية مـؤيداً بحو بالدلائل والبـراهين ، وناظر أرسطو مناظرة علميـة وجهـاً لوجه ، ذلك الذى كـان علمـ الفلسفة يعتبرونه شخصية فوق مستوى البشر ، وغنية عن النقد والرد .

ولكن لندرك مكانة عمله هذا وطيـعته ، ونعلم معيـار نقده ومحاسبتـه ، ووجهة نظـ وأساس خلافه معه نرجع إلى كتبه ونقتطف فـيما يلى ملخصات من كتاباته بعناوين مختلـ ومقتطفات من كتب تبين وجهة نظره وأسلوب تفكيره .

الاعتراف بالطبعيات والرياضيات :

إن رأيه فى تلك الذخيرة العلمية التى تنتمى إلى أرسطو وفلاسفة اليونان متزن معتدل إنه يفرق بين الطبعـيات والرياضيات والالهيات ، ويعـترف بصحة معظم مسائـل الطبعيا والرياضيات وبذكاء علماء اليونان فى هذا الموضوع ، كما فعل ذلك الامام الغزالى يقول فـ

إحدى المناسبات :

« نعم لهم فى الطبعيات كلام غالبه جيد ، وهو كلام كثير واسع ، ولهم عقول عرفوا بها ذلك ، وهم يقصدون الحق لا يظهر عليهم العناد » (١).

كما يعترف فى محل بوضوح بالغ أن الطبعيات والرياضيات وما إلى ذلك موضوع خاص بفلاسفة اليونان ومجال تفكيرهم ودراستهم ، يقول :

« لكن لهم معرفة جيدة بالأمور الطبعية وهذا بحر علمهم وله تفرغوا وفيه ضيعوا زمانهم » (٢).

إنه يبدى رأيه فى العلم الرياضى لليونان ، يقول فى كتابه الشهير «الرد على المنطقين»:

« فهذه الأمور وأمثالها مما يتكلم فيه الحساب أمر معقول مما يشترك فيه ذوو العقول ، وما من أحد من الناس إلا يعرف منه شيئاً فانه ضرورى فى العلم ، ضرورى فى العمل ، ولهذا يمثلون به فى قولهم : الواحد نصف الاثنين ، ولا ريب أن قضاياه كلية واجبة القبول، لا تنتقض البتة »(٣).

فلسفة الالهيات ، المجال الرئيسى للخلاف :

إن الجانب المهم الذى يعارضه ابن تيمية فى فلسفة اليونان هو جانب « الالهيات » إنه يؤكد عجز فلسفة اليونان عن إدراك سر الإلهيات وفقرها وقلة بضاعتها فى ذلك ، ويثبت مرة لأخرى إخفاق فلاسفة اليونان وخيبتهم وجهلهم بذلك ، إنه يعتقد أن هذا الجانب المهم لم يكن مجالاً لفلسفة اليونان ولا مضماراً لتفكير فلاسفتها وموضع بحث لدراستهم ، إنهم بخوضهم فى هذا الموضوع إنما تعدوا حدودهم ، ومهدوا الطريق لتحقير شأنهم والضحك عليهم يقول :

« للمتفلسفة فى الطبعيات خوض وتفصيل تميزوا به بخلاف الإلهيات ، فانهم أجهل الناس بها وأبعدهم عن معرفة الحق فيها ، وكلام أرسطو معلمهم فيها قليل كثير الخطأ»(٤).

فى موضع آخر حيث يعترف باطلاعهم على الطبعيات ويذكر إفلاسهم فى الإلهيات يقول:

---

(١) الرد على البكرى ص ١٤٣ .

(٢) تفسير سورة الإخلاص ص ٥٧ .

(٣) الرد على المنطقيين ص ١٣٤ .

(٤) معارج الوصول ص ١٨٦ .

« وأما معـرفة الله تعالى فحظهم منهـا مبخوس جـداً ، وأما ملائكة وكتـبه ورسله فلا يعرفون ذلك البتة ، ولم يتكلموا فـيه لا بنفى ولا باثبات ، وإنما تكلم فى ذلك متأخروهـ الداخلون فى الملل » [(١)].

يقول ابن تيمية أن أساطين فلسفة اليـونان وأركانها يعترفون هم أنفسهم بأنهم لا يملكون وسائل ومـبادئ اكتـساب هذا العلم ، وصرحـوا بأن التوصل إلى اليـقين فى هذا الموضوع يصعب عليهم أيما صعوبة ، يقول :

« بل قد صرح أساطين الفلسفة ، أن العلوم الإلهية لا سبيل فيها إلى اليقين ، إنما يتكلم فيها بالأحرى والأخلق ، فليس لهم فيها الا الظن وأن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » [(٢)].

المقارنة بين الإلهيات اليونانية وعلوم الأنبياء وتعاليمهم :

إنه يتعجب حينما يـتناول مباحث العلوم الإلهية لفلسفة اليونان وأقـوال فلاسفتهم الذين يقرنونها بالعلوم والحقائق التى يأتى بها الأنبيـاء عليهم السلام ، يقول فى حماس زائد وقوة بالغة :

« إذا نظر فى كلام معلمهم الأول - أرسطو - وتدبـره الفاضل العاقل لم يفده إلا العلم بأنهم كانوا من أجهل الخلق برب العالمين ، وصار يتعـجب تعجباً لا ينقضى ممن يقرن علم هؤلاء بالإلهيات بما جاءت به الأنبياء ، ويرى أن هذا من جنس من يقرن الحدادين بالملائكة بل من يقرن دهاقين القـرى بملوك العالم ، فـهو أقرب إلى العلم والعـدل ممن يقرن هؤلاء بالأنبياء ، فان دهقان القرية متول عليها كتولى الملك على مملكته ، فله جزء من الملك » .

« وأما ما جاءت به الأنبياء فلا يعرفه هؤلاء البـتة ، وليسوا قريبين منه ، بل كفار اليهود والنصارى أعلـم منهم بالأمور الإلهيـة ، ولست أعنى ذلك ما اخـتص الأنبياء بـعلمه من الوحى الذى لا ينال غيرهم ، فإن هذا ليس من عـلمهم ولا من علم غيرهم ، وإنما أعنى العلوم العقليـة التى بينها الرسل للناس بالبـراهين العقلية فى أمـر معرفة الرب وتوحـيده ومعرفـة أسمائه وصفاته ، وفى النبـوات والمعاد ، وما جاءوا به من مصـالح الأعمال التى تورث السعادة فى الآخرة ، فان كثيراً من ذلك لم يشموا رائحتها ، ولا فى علومهم ما يدل عليها ، وأما ما اختصت الرسل بمعرفته وأخبرت به من الغيب فذلك أمر أعظم من أن يذكر فى ترجيحه على الفلسفة ، وإنما المقصـود الكلام فى العلوم العقلية دع ما جاءت به الأنبياء

---

(١) تفسير سورة الإخلاص ص ٥٧ .

(٢) نقض المنطق ص ١٨٧ .

به الأنبياء فانه مرتبة عالية » [1].

جهل فلاسفة اليونان وانكارهم :

ويشرح ابن تيمية الأسباب التى دعت فلاسفة اليونان إلى الجهل بالعلوم الإلهية وقصر باعهم فيها وفى كثير من الحقائق الغيبية ، وإنكار الموجودات ، يقول :

« أما الغيب الذى تخبر به الأنبياء والكليات العقلية التى تعم الموجودات كلها ، وتقسم الموجودات قسمة صحيحة فلا يعرفونها ألبتة ، فان هذا لا يكون ممن أحاط بأنواع الموجودات وهم لا يعرفون إلا الحساب وبعض لوازمها ، وهذا معرفة بقليل الموجودات جداً فان ما لا يشهده الآدميون من الموجودات أعظم قدراً وصفة مما يشهدونه بكثير ، ولهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ما عرفته الفلاسفة إذا سمعوا إخبار الأنبياء بالملائكة والعرش والكرسى والجنة والنار ، وهم يظنون أن لا موجود إلا ما علموه ، وهم والفلاسفة يصيرون حائرين متأولين لكلام الأنبياء على ما عرفوه ، وإن كان هذا لا دليل عليه وليس لهم بهذا النفى علم ، فان عدم العلم ليس علماً بالعدم لكن نفيهم هذا كنفى الطبيب للجن لأنه ليس فى صناعة الطب ما يدل على ثبوت الجن ، وهكذا تجد من عرف نوعاً من العلم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه فيبقى بجهله نافياً لما لا يعلمه وبنو آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما أثبتوه وصدقوا به ، قال تعالى : ﴿ **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله** ﴾ [يونس - ٣٩] » [2].

اليونان عباد الكواكب والأوثان :

يتبين من تاريخ يونان القديم أن يونان التى منحت العالم تراثاً واسعاً من علوم الطبيعية والرياضية ، وتولت قيادة الدنيا العقلية والفكرية لآلاف من السنين ظلت تعبد الكواكب والأصنام فى معظم أجزاء تاريخها ، وكانت فريسة الأوهام والخرافات الكثيرة ، إن التاريخ الجديد قد أزاح الستار عن وجه علم الأصنام فى اليونان ووثنيتها القومية ، فلم يعد الآن من شك أن يونان القديمة كانت ترزح تحت نير الآلهة والإلهات ومعابد الكواكب وهياكلها، إن فلسفة اليونان التى وصلت إلى العالم الإسلامى عن طريق الترجمة ثم انتقلت إلى أوربا إنما هى مصطبغة بصبغة الوثنية وعبادة الكواكب هذه . لقد نقل فلاسفة اليونان عقائدهم الدينية وأفكارهم المشركة إلى مصطلحات الفلسفة الهائلة ،وتلقاها علماء الفلسفة المسلمون

---

(١) الرد على المنطقين ص ٣٩٥ - ٣٩٤ .

(٢) تفسير سورة الإخلاص ص ٦٠ - ٣٥٩ .

- الذين لم يكونوا مطلعين على تاريخ اليونان الدينى - كحقائق علمية ، وجعلوها موضع دراستهم وتفكيرهم ، وبذلوا جهودهم لإثباتهـا ، ومما يدل على ذكاء ابن تيمية وألمعيته أنه كشف الستار عن هذه النقطة قبل قرون ، يقول :

« أما قدماء اليـونان فكانوا مشركين من أعظم الناس شركاً وسحـراً ، يعبدون الكواكب والأصنام ، ولهذا عظمت عنايتهم بعلم الهيئـة والكواكب لأجل عبادتها ، وكانوا يبنون لها الهياكل » (١).

ويقول فى موضع آخر :

« ولهذا كان رؤوسهم المتقدمون والمتـأخرون يأمرون الشرك ، فالأولون يسمون الكواكب الآلهة الصغرى ويعـبدونها بأصناف العبادات ، كذلك كـانوا فى ملة الإسلام لا ينهون عن الشرك ويوجبون التوحيد بل يسوغون الشرك ويأمرون به أو لا يوجبون التوحيد » (٢).

الفرق بين المتقدمين والمتأخرين من فلاسفة اليونان :

ومما يوكد دقة الفهم وحـسن التوصل إلى الحقيقة لدى ابن تيميـة ، أنه قام بالتفريق بين المتقـدمين والمتأخرين من فلاسـفة اليونان ، إنه يعـتقد أن المتقـدمين على « أرسطو » كانوا أقرب إلى فـهم الحقائق الغـيبية ومـعرفة المفـاهيم الدينية وأفكارها إذ لا يتجلى فـيهم ذلك الاتجاه نحو رفض الحقائق الغيبية وانكارها الذى يتجلى فى أرسطو بكل وضوح ، إنه يقول فى موضع :

« هؤلاء المتفلسـفة أتباع أرسطو لم يسلكوا مسلك الفـلاسفة الأساطين المتـقدمين ، فان أولئك كانوا يقولون بحـدوث هذا العالم ، وكانوا يقولون : ان فوق هذا العـالم عالماً آخر يصفونه ببعض مـا وصف النبى ﷺ الجنة ، وكانوا يثبتون معـاد الأبدان كما يوجد هذا فى كلام سقراط وتاليس وغيرهما من أساطين الفلاسفة » (٣).

أرسطو أبعد عن الحقائق الدينية :

وسبب هذا الفرق الذى يراه ابن تيمية بين المتـقدمين منهم والمتأخرين ، هو أن المتقدمين من هؤلاء الفلاسفة اتفقت لهم السياحة فى البـلدان التى بعث فيها الأنبياء عليهم السلام ،

---

(١) أيضاً .

(٢) نقض المنطق ص ١٧٧ .

(٣) تفسير سورة الإخلاص ص ٦٧ .

فتسنى لهم الاطلاع على الحقائق الدينيـة ، أما أرسطو فلم يتفق له ذلك ، إنه يتحدث عن ذلك رواية عن بعض المؤرخين :

« وسبب ذلك مـا ذكره طائفـة مما جمع أخبـارهم أن أساطين الأوائل - كـفيثـاغورس وسقراط وأفلاطون - كانوا يهاجرون إلى أرض الأنبياء بالشام ، ويتلقون عن لقمان الحكيم ومن بعده من أصحاب داود وسليمـان وأن أرسطو لم يسافر إلى أرض الأنبياء ، ولم يكن عنده من العلم بآثار الأنبياء ما عند سلفه ، وكان عنده قدر يسـير من الصابئية الصحيحة ، فابتدع لهم هذه التعاليم القياسية وصارت قانوناً مشى عليه أتباعه » (١).

ومن سوء الحظ أن فلسفة أرسطو هى التى نـالت رواجاً فى العالم الإسلامى وهى التى اشتهرت فى العهد الأخير بفلسفة اليونان ، يقول ابن تيمية :

« ولكن هذه الفلسفـة التى يسلكها الفارابى وابن سـينا وابن رشد والسهروردى المقـتول ونحوه فلسفة المشائين ، وهى المنقولة عن أرسطو الذى يسمونه المعلم الأول » (٢).

مكانة الإله فى الفسفة اليونانية :

وفى فلسفة أرسطو هذه لم تعد فكرة الإله وذاته إلا وجوداً ذهنياً فقط ، يقول :

« فاذا تصور العـاقل أقوالهم حق التصور تبين له إن هذا الواحد الذى أثبـتوه لا يتصور وجوده إلا فى الأذهان لا فى الأعيان » (٣).

إن أسلوب المبالغـة الذى اتخذه الفـلاسفة فى بيـان النفى لأفعال الإله وصـفاته ، وفى تجريده عن جميع صـفات الكمال وعن المحاسن والامتيازات التـى يتمتع بها أدنى الخلق ، يعتقد ابن تيمية على أساس هذه الاعـتقادات الفاسدة أنه لا يمكن إهانة الله أكثر من هذا ، إنه يتحدث عن هذه الحقيقة ضمن ما ينقل الأقوال :

« لقد أحسن بعض الفـضلاء إذ قال : الصفع أحـسن من توحيد الفلاسفـة ، بل قصر فيما قال » (٤).

---

(١) نقض المنطق ص ١١٣ .

(٢) الرد على البكرى ص ٢٠٦ .

(٣) تفسير سورة الإخلاص ص ٣٧ .

(٤) الرد على المنطقين ص ٢٢١ .

فلاسفة الإسلام مقلدون بحت لليونان :

إنه يرى أن المتأخـرين من الفلاسـفة الذين نشأوا فى العـهد الإسلامـى إنما هم مقلدون عمـيان لأرسطو وفلسفتـه ، وبتقيدهم بالتـقليد تقع منهم أخطاء فاحـشة كبيـرة ويجد فى كلامـهم تناقض شديد ، يشكو ابن تيمـية تألمه الشديد ويبـدى عتابه على هؤلاء الفلاسـفة المسلمين الذين جـحدوا تلك النعمـة التى وصلت إليهم عـن طريق رسول الله ﷺ ، ولم يستفـيدوا من نور الهداية الذى كان بمتناول أيديهم ، بل إنهم أرادوا أن يحـجبوا ذلك النور ويحولوا دون ضيائه ، يقول :

« إن هؤلاء المتـفلسفـة المتأخريـن فى الإسلام من أجـهل الخلق عند أهل العلم والإيمان وفيهم من الضلال والتناقض ما لا يخفى على الأذكياء الصبيان لأنهم لما التزموا ألاَّ يسلكوا إلا سبيل سلفـهم الضالين وألاَّ يقروا إلا بما يبنونه على تلك القـوانين وقد جاءهم من النور والهـدى والبيـان ما مـلأ القلوب والألسنة والآذان ، صاروا بمـنزلة من يريد أن يطفئ نور الشمس بالنفخ فى الهباء أو يغطى ضوءها بالعباء »[(١)] .

ابن سينا جاهل بحقيقة النبوة ومنصبها :

إن الفلاسـفة الذين حـاولوا شرح الحـقائق الغـيبـية والعقـائد الدينية تقـليداً للفلسـفة واتباعاًلأرسطو ، وأرادوا تفهم هذه الحقائق والعقائد وإفهـامها فى ضوء الفلسفة ومعتمدين عليها ، يتناولهم ابن تيـمية بنقـد لاذع ، ولا يترك فى ذلك حـتى أولئك الفلاسـفة الذين يسمون بحكماء الإسلام ، إذ أن هذه الحقائق والعلوم الغيبية لا تدرك بمساعدة فلسفة اليونان ومجرد أصولها ومبادئها ، إنه ينتقد قـبل كل شئ ابن سينا الذى يعتبر خليفة أرسطو الكبير فى الشرق الإسلامى وشارح فلسفته العظيم ، يقول :

« بيّن ابن سينا أمر النبوة أنها من قوى الـنفس ، وقوى النفس متفاوتة ، وكل هذا كلام من لا يعرف النبوة بـل هو أجنبى عنها ، وهو أنقص ممن أراد أن يقرر أن فى الدنيا فـقهاء وأطباء وهو لم يعرف غير الشعراء ، فاستدل بوجود الشعراء على وجود الفقهاء والأطباء ، بل هذا المثال أقـرب ، فإن بعد النبوة عن غـير الأنبياء أعـظم من بعد الفقيـه والطبيب عن الشاعر . ولكن هؤلاء من أجهل الناس بالنبوة ، ورأوا ذكر الأنبـياء قد شاع فأرادوا تخريج ذلك على أصول قوم لم يعرفوا الأنبياء »[(٢)] .

---

(١) الرد على البكرى ص ١٦٨ .

(٢) النبوات ص ٢٢ .

ويقول فى موضع آخر :

« وأبعد هؤلاء عن النبوة المتفلسفة والباطنية والملاحدة ، فان هؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بنى آدم وهو المنام ، وليس فى كلام أرسطو وأتباعه كلام فى النبوة ، والفارابى جعلها من جنس المنامات فقط ، ولهذا يفضل هو وأمثاله الفيلسوف على النبي، وابن سينا عظمها أكثر من ذلك فجعل للنبى ثلاث خصائص : إحداها أن ينال العلم لا تعلم ، ويسميها القوة القدسية وهى القوة الحدسية عنده ، والثانى أن يتخيل فى نفسه ما يعلمه فيرى فى نفسه صوراً نورانية ويسمع فى نفسه أصواتاً كما يرى النائم فى نومه صوراً تكلمه ويسمع كلامهم ، وذلك موجود فى نفسه لا فى الخارج ، فهكذا عند هؤلاء جميع ما يختص به النبى مما يراه ويسمعه دون الحاضرين ، إنما يراه فى نفسه ويسمعه فى نفسه ، وكذلك المرور عندهم ، والثالث أن يكون له قوة يتصرف بها فى هيولى العالم بإحداث أمور غريبة ، وهى عندهم آيات الأنبياء وعندهم ليس فى العالم حادث إلا عن قوة نفسانية أو ملكية أو طبعية . . . . وهؤلاء عندهم جميع ما يحصل فى نفوس الأنبياء إنما هو من فيض العقل الفعال .

ثم إنهم لما سمعوا كلام الأنبياء أرادوا الجمع بينه وبين أقوالهم فصاروا يأخذون ألفاظ الأنبياء فيضعونها على معانيهم ويسمون تلك المعانى بتلك الألفاظ المنقولة عن الأنبياء ثم يتكلمون ويصفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبياء فيظن من لم يعرف مراد الأنبياء ومرادهم أنهم عنوا بها ما عنته الأنبياء وضل بذلك طوائف وهذا موجود فى كلام ابن سينا ومن أخذ عنه »(١) .

نقص علم الكلام وتردد المتكلمين :

لا يكتفى شيخ الإسلام ابن تيمية بتوجيه انتقاده إلى فلاسفة اليونان ومقلديهم من متفلسفى الإسلام فحسب ، بل يتعداهم إلى أولئك المتكلمين الذين وإن حاولوا الدفاع عن الإسلام الا أنهم اتخذوا أساليب الفلسفة ومقدماتها ومصطلحاتها الناقصة المحدودة لاحقاق الحقائق الغيبية الدينية التى كانت تختص بمفاهيمها الخاصة ، وكانت ترتبط بها تقاليد وانطباعات خاصة ، إنه يقول فى « كتاب النبوات » :

« كلامهم فى الخلق والبعث والمبدأ والمعاد وفى اثبات الصانع ليس فيه تحقيق العلم لا

---

(١) أيضا ص ١٦٨ .

عقلاً ولا نقلاً ، ، وهم معترفون بذلك كما قال الرازى : لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلاً ولا تروى غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ فى النفى ﴿ ليس كمثله شئ ، ولا يحيطون به علماً ﴾ واقرأ فى الإثبات ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ ﴿ أأمنتم من فى السماء ﴾ ثم قال : ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى ، وكذلك الغزالى وابن عقيل وغيرهما يقولون ما يشبه هذا وهو كما قالوا » (١).

ويقول فى موضع آخر :

« وسبب ذلك إعراضهم عن الفطرة العقلية والشرعة النبوية بما ابتدعه المبتدعون مما أفسدوا به الفطرة والشرعة فصاروا يسفسطون فى العقليات ويقرمطون فى السمعيات »(٢).

ويتحدث عن مواضع الضعف فى المتكلمين فيذكر أسئلتهم وشبهاتهم فى غاية من القوة غالباً ، وأجوبتها ضعيفة بالنسبة إليها فى بعض الأحيان ، إنه يرى أن ذلك أحياناً يصيب أولئك الذين يعتقدونهم مدافعين عن الإسلام وممثليه بأضرار بالغة ، والذين لا يدورون فى دراستهم إلا فى فلكهم ، إنه يقول :

« لما تكلموا فى إثبات النبوة صاروا يوردون عليها أسئلة فى غاية القوة والظهور ولا يجيبون عنها إلا بأجوبة ضعيفة كما ذكرنا كلامهم ، فصار طالب العلوم والإيمان والهدى من عندهم لا سيما إذا اعتقد أنهم أنصار الله ونظاره والقائمون براهينه وأدلته إذا عرف حقيقة ما عندهم لم يجد ما ذكروه يدل على ثبوت نبوة الأنبياء بل وجده يقدح فى الأنبياء، ويورث الشك فيها أو الطعن ، وأنها حجة لمكذب الأنبياء أعظم مما هى حجة لمصدق الأنبياء فانسد طريق الإيمان والعلم ، وانفتح طريق النفاق والجهل ، لا سيما على من لم يعرف إلا ما قالوه » (٣).

الخطأ المشاع بين المتكلمين والفلاسفة ومواضع ضعفهم :

يعتقد ابن تيمية أن المتكلمين والفلاسفة كلهم إنما ارتكبوا نوعاً واحداً من الخطأ ، وأن خطة عملهم واحدة بالرغم من جميع الخلافات التى توجد بينهم ، إن خطأ كل من هؤلاء وضعفهم أنهم حاولوا أن يعتمدوا على الحدس فى الحصول على الشئ الذى لا يحصل

---

(١) النبوات ص ١٤٨ .

(٢) النبوات ص ١٤٨ .

(٣) النبوات ص ٢٤٠ .

بالحدس والتخمين ، وصارعوا الفطرة والنبوة كلتيهما ، ولذلك فان تحقيقاتهم إثمها أكبر من نفعها .

التكلف والتطويل :

إنه يرى أن دلائل المتكلمين والفلاسفة وأسلوب استدلالهم يتضمن تطويلاً وتكلفاً لا طائل تحتهما ، فان الحقائق والمقاصد التى تناولها المتكلمون وحاولوا إثباتها بدلائل ومقدمات طويلة مطولة إنما يمكن إثباتها بغاية من الاختصار وأسلوب يتفق مع الفطرة ، لقد سلك المتكلمون والفلاسفة لإثبات مقاصدهم طريقاً طويلاً وعراً ، إنه يضرب لذلك مثلاً بقول بعض السلف : سئل رجل ، أين أذنك ، فتكلف فى الجوانب بحيث طاف بيمينه رأسه ، وأوصلها إلى أذنه اليسرى ومسكها بها فى غاية العسر ، على أنه كان يستطيع بكل سهولة أن يشير بيده اليمنى أو اليسرى ، وتمثل بالمناسبة ببيت الشاعر :

أقام يعمل أياماً رويته وشبه الماء بعد الجهد بالماء

لا اعتماد على دلائل المتكلمين :

إنه يعارض المتكلمين فيما يزعمون من أن تحقيق هذه المقاصد إنما يحتاج إلى نفس الاستدلالات والمقدمات التى اصطنعها هؤلاء المتكلمون بدون أن يكون هناك طريق آخر إلى ذلك ، وهو يعتقد فى هذا الخصوص أن هذه المقدمات وطريق الاستدلال وإن كانت صحيحة ولكن من الخطأ أن يزعم أنه ليس هناك أى طريق آخر للاستدلال ولا مقدمات غيرها ، وذلك لأن الدراسة والتجارب تؤكدان « أن المطلوب كلما كان الناس إلى معرفته أحوج يسر الله على عقول الناس معرفة أدلته ، فأدلة إثبات الصانع وتوحيده ، وأعلامه وأدلته كثيرة جداً ، وطرق الناس فى معرفتها كثيرة ، وكثير من الطرق لا يحتاج إليه أكثر الناس ، وإنما يحتاج إليه من لم يعرف غيره ، أو من أعرض عن غيره » [(١)] .

لا ينتفع بهذا الأسلوب إلا طبقة من الناس :

وبالرغم من ذلك فانه يعترف أن بعض الناس ينتفعون بهذا الأسلوب من الاستدلال المقدمات الكلامية والمنطقية ، وذلك بحكم عقليتهم وعادتهم الخاصة التى يتميزون بها عن غيرهم وهم لا يقتنعون بغيره من الأسلوب ، ولكن ذلك لا يعنى أن العلم واليقين يتوقفان على هذه الطرق ، بل إنها حالة عقلية تحدث بتأثير بيئة وتربية خاصة وظروف نفسية

---

(١) الرد على المنطقيين ص ٢٥٥ .

خاصة، إنه يقول :

« وبعض الناس يكون الطريق كلما كان أدق وأخفى وأكثر مقدمات وأطول كان أنفع له، لأن نفسه اعتادت النظر الطويل فى الأمور الدقيقة ، فاذا كان الدليل قليل المقدمات أو كانت جلية لم تفرح نفسه به ، ومثل هذا قد يستعمل معه الطريق الكلامية المنطقية وغيرها لمناسبتها لعادته ، لا لكون العلم بالمطلوب متوقفاً عليها مطلقاً ، فان من الناس من إذا عرف ما يعرفه جمهور الناس وعمومهم ، أو ما يمكن غير الأذكياء معرفته لم يكن عند نفسه قد امتاز عنهم بعلم ، فيجب معرفة الأمور الخفية الدقيقة الكثيرة المقدمات ، وهذا يسلك معه هذا السبيل » (١).

استدلال القرآن أبلغ وأكثر تأثيراً فى النفس :

إنه يثبت فى كتاباته بكل تأكيد أن أسلوب القرآن ومنهجه فى الاستدلال لإثبات الحقائق الغيبية ، وابداء مقاصد الشريعة ، وتحقيق الحقائق الدينية أبلغ من كل أسلوب وأشد تأثيراً فى النفس من أى استدلال آخر ، يقول :

« وبين أن ما عند أئمة النظار - أهل الكلام والفسفة - من الدلائل العقلية على المطالب الإلهية فقد جاء القرآن بما فيها من الحق وما هو أبلغ وأكمل منها على أحسن وجه ، مع تنزهه عن الأغاليط الكبيرة الموجودة عند هؤلاء » (٢).

ويقول فى موضع آخر :

« ولهذا كانت الأقيسة العقلية البرهانية المذكورة فى القرآن من هذا الباب كما يذكره فى دلائل ربوبيته وإلهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته ، وإمكان المعاد ، وغير ذلك من المطالب العالية السنية ، والمعالم الإلهية التى هى أشرف العلوم ، وأعظم ما تكمل به النفوس من المعارف » (٣).

الفرق الأساسى بين القرآن والفلسفة فى ذات الله تعالى وصفاته :

وقد أشار إلى نقطة علمية مهمة وهو يتحدث عن الفرق المبدئى بين القرآن والفلسفة فى ذات الله تعالى وصفاته ، يقول :

---

(١) الرد على المنطقيين ص ٢٥٥ .

(٢) أيضاً ص ٣٢١ .

(٣) أيضاً ص ١٥٠ .

« والقرآن أثبت الصفات على وجه التفصيل ونفى عنها التمثيل ، وهى طريقة الرسل جاءوا باثبات مفصل ونفى مجمل ، وأعداؤهم جاءوا بنفى منفصل واثبات مجمل »[1]

نفى الصفات ، وتأثيره على الحياة كلها :

إن مكتبة الفسفة اليونانية بأسرها تصدق النقطة التى توصل اليها ابن تيمية ، فان المبالغة والاهتمام اللذين بذلهما فلاسفة اليونان فى نفى الصفات إنما جعل ذلك وجود الإله فكرة ذهنية ، وشخصية عقيمة مجهولة عاجزة ، أما عن كيفية الإله وحقيقته ، فلا يعدو مفهوم ذلك عندهم عدداً من الكلمات ومصطلحات فلسفية ، مما أدى إلى أن الأوساط الخاضعة لفلسفة اليونان سواء فى داخل يونان أو خارجها ظلت محرومة من أى صلة حية وعلاقة عملية بالله تعالى ، وذلك لأن هذه العلاقة الحقيقية والعملية ، التى تنبع من القلب والعاطفة إنما تحتاج إلى أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله ، بينما الفلسفة ملحة على نفيها .

إن تاريخ العالم العقلى كله شاهد على أن الإنسان لم يتصل عاطفياً ولا قلبياً أية شخصية مجهولة لا يعرف شيئاً عن صفاتها وأفعالها ، وما لا يخفى أن الحب والخوف ، والأمل والرجاء ، والطلب والسؤال ، كل ذلك يحتاج إلى الصفات ، تلك التى تتجرد عنها فلسفة اليونان ، ومن ثم اتفق مؤرخو الأخلاق والأديان على أن صلة اليونان ليست سطحية ضعيفة بالله تعالى فحسب بل هى صلة ضعيفة بالدين أيضاً من غير أن تتسم بروح أو عمق .

وقد صدق الإمام ابن تيمية إذ قال : « إن مئات الآلاف من النفى لا يقوم مقام اثبات واحد » والحقيقة أن النفى المجرد لا يقوم عليه بناء دين وحياة ، ولعل فلسفة اليونان فى الغرب والديانة البوذية فى الشرق أخفقتا فى بناء مجتمع انسانى يقوم على أساس فكرة الإله من أجل ذلك ، وقد أنتج هذا أن الوثنية إذا تسربت فى أوساط احدى هاتين الفلسفتين عم الإلحاد فى أوساط الأخرى ، وذلك لأن الجماهير - الذين هم مفطورون على العبادة والإيمان بالله- لا يرضون بفلسفة تضغط كل الضغط على الرياضة العقلية والأفكار الفلسفية من غير أن تهيئ للقلب والعقل غذاء من الحب والمعرفة .

ميزة الصحابة رضى الله عنهم :

أنه يرى أن ما حصل للصحابة الكرام رضى الله عنهم الذين درجوا فى ظل النبوة من

---

(١) النبوات ص ١٥٣ .

معرفة وعلوم متكاملة عميقة بدون أن تشوبهم شائبة من التكلف ، كل ذلك نتيجة التربية الصحيحة التى نالوها فى رعاية النبى ﷺ ، أنه يوازن بين الصحابة رضى الله عنهم وبين المتأخرين من العلماء الذين تأثروا بالفلسفة وعلم الكلام ، ويقول :

« وأصحاب محمد ﷺ كانوا مع أنهم أكبر الناس علماً نافعاً وعملاً صالحاً أقل الناس تكلفاً ، يصدر عن أحدهم الكلمة والكلمتان من الحكمة أو من المعارف ما يهدى الله به الأمة ، وهذا من منن الله تعالى على هذه الأمة ، وتجد غيرهم يحشون الأوراق من التكلفات والشطحات ما هو من أعظم الفضول المبتدعة والآراء المخترعة »[(١)].

سحر المنطق اليونانى ، وهيبته فى العالم الإسلامى :

تناول الإمام ابن تيمية علم المنطق الذى كانت تفتخر به اليونان بالنقد اللاذع بعد ما انتقد الفلسفة اليونانية بتفصيل وإجمال ، ورد كثيراً من بحوثها وقضاياها بأسلوب عقلى واستدلالى بحت ، وأثبت أنها لا تقوم إلا على أساس متضعضع ضعيف ، ولقدكان علماء الإسلام مأخوذين بسحر المنطق أكثر بالنسبة إلى الفلسفة ، ومتفقين بوجه عام على كونه معقولاً مدللاً ، ومحكماً مبرهناً ، وكانت كتب المنطق نالت رواجاً عاماً فى القرن الثالث كما ذكره ساعد القرطبى ، ولما جاء الإمام الغزالى فى القرن الخامس اهتم بالمنطق واعتبره مقدمة للعلوم كلها ، إنه يقول فى مقدمة كتابه الكبير « المستصفى » : « هى مقدمة العلوم كلها ، ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه أصلاً »[(٢)]، ويقول فى كتابه الآخر « مقاصد الفلسفة » :

« أما المنطقيات فأكثرها على منهج الصواب ، والخطأ نادر فيها بالاصطلاحات والايرادات دون المعانى والمقاصد ، إذ غرضها تهذيب طرق الاستدلالات ، وذلك مما يشترك فيه النظار »[(٣)] .

وفى القرن السابع ظهر الفيلسوف والحكيم الشهير ابن رشد فكان مغالياً فى المنطق واثقاً به إلى حد أنه كان يعتبره منبع السعادة البشرية ومقياسها الأصيل ، وكان يرى من المستحيل أن يتوصل الناس إلى الحقيقة دونه يتحدث عنه أحد مترجمى حياته :

« كان متهوساً بمنطق أرسطو ، وقال عنه : إن مصدر السعادة للناس ، وإن سعادة

---

(١) نقض المنطق ص ١١٤ .

(٢) المستصفى ص ١٠ ج ١ .

(٣) مقاصد الفلسفة ص ٣ .

الإنسان تقـاس بعمله بالمنطق ، والمنطق أداة تسهل الطريق الشـاقة فى الوصول إلى الحقـيقة التى لا يصل إليها العامة ، بل بعض الخاصة بفضل المنطق » [1] .

لقد تناول علماء الإسلام سجل هذا المنطق اليونانى بيد من الإجلال والاحترام ، وكانوا متهيبين لدعـاويه ومقدماته وأصوله وكلياته ، أما الفلسفة فـقد أخذت النقد والايرادات بعد فترات طويلة إلى حد مـا ، ولكن المنطق لم يتناوله أحد - فيما نعلم - بالمحاسـبة العلمية والتشريح ، ، وليس هناك كتاب كبير يتحدث عن هذا الموضوع فى تفصيل وتحقيق .

المنطق ليس ميزاناً للعلوم العقلية :

ولكن الامام ابن تيمـية هو أول من ركز اهتمامه عـلى المنطق وجعله موضوعاً مسـتقلاً بذاته ، وأخذه بالنقد والحث بكل حرية واجتهاد ، فله كتاب مجمل ومختصر باسم « نقض المنطق » وآخر مفـصل باسم « الرد على المنطقيين » [2] فى هذا الموضوع ، إنـه يبحث فى الكتاب الثانى عن قضايا المنطق ودعاويه ، وحـدوده وكلياته وجزئياته بتفصيل ، وأثبت أن الأهمية التى حصلت للمنطق من قبل علماء الإسلام واعـتبارهم إياه علماً ثابتاً ومحكماً لا يسـتند إلى صحـة ، إنه يرفض أن يكون المنـطق ميـزاناً للعلوم العـقليـة ، ويتوقف عليـه الاستدلال والاستنتاج والتـوصل إلى علم اليقين ، يقول : « وهؤلاء يقولون : « إن المنطق ميزان العلوم العـقلية ، ومراعاته « تعصم الذهن عن أن يغلط فى فكر » كـما أن العروض ميزان الشعر ، والنحـو والتصريف ميزان الألفاظ العربية المركـبة والمفردة ، وآلات المواقيت موازين لها ، ولكن ليس الأمر كذلك ، فـإن العلوم العقلية تعلم بما فطر الله عليه بنى آدم من أسباب الإدراك ، لا تقف على مـيزان وضعى لشخص معين ، ولا يـقلد فى العقليات أحد بـخلاف العربـية ، فإنهـا عادة لقـوم لا تعرف إلا بالـسماع وقـوانينها لا تـعرف إلا بالاستقراء بخلاف ما يعرف مـقادير المكيلات والموزونات ، والمزروعات والمعدودات ، فانها تفتقر إلى ذلك غالباً ، لكن تعيين ما به يكال ويوزن بقدر مخصوص أمر عادى .

وقد كانت الأمم قـبلهم تعرف حقائق الأشياء بدون هذا الوضع ، وعـامة الأمم بعدهم تعرف حقائق الأشياء بدون وضعهم ، ، وجماهيـر العقلاء من جميع الأمم يعرفون الحقائق

---

(١) تاريخ فلاسفة الإسلام محمد لطفى جمعة ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) صدر هذا الكتاب أخيـراً عن المطبعة القيمة فى بومـباى (الهندى) ، ويتحلى بمقدمة قيـمة للعلامة السـيد سليـمان لندوى ، والكتـاب يقع فى ٥٤٥ صفـحة ينبـغى ألا تفوت أهل الفن مطالعـة هذا الكتاب .

من غير تعلم منهم وضع أرسطو ، وهم إذا تدبروا أنفسهم وجدوا أنفسهم تعلم حقائق بدون هذه الصناعة الوضعية » (١).

معظم الحدود المنطقية ضعيفة لا ثبات لها :

إنه لا يعترف بأن الحدود والتعاريف المنطقية كلها كاملة شاملة لا تحتمل أيما اعتراض أو نقض ، يقول :

« وصاروا يعظمون أمر الحدود ويدعون أنهم هم المحققون لذلك ، وأن ما يذكره غيرهم من الحدود إنما هى لفظية لا تفيد تعريف الماهية والحقيقة خلاف حدودهم ، ويسلكون الطرق الصعبة الطويلة والعارات المتكلفة الهائلة ، وليس لذلك فائدة إلا تضييع الزمان ، وإتعاب الأذهان ، وكثرة الهذيان ، ودعوى التحقيق بالكذب والبهتان ، وشغل النفوس ما لا ينفعها بل قد يضلها عما لا بد لها منه ، وإثبات الجهل الذى هو أصل النفاق فى القلوب، وإن ادعوا أنه أصل المعرفة والتحقيق » (٢).

لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى :

إنه يثبت فى مكان أن المنطق فى الواقع عمل يصدق عليه مثل « لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى » فان البحث والاجتهاد كثيران لا نهاية لهما ولكن محصولهما قليل لا عبرة به ، يقول فى كتابه « نقض المنطق » :

« ومن المعلوم أن القول بوجوبه قول غلاته وجهال أصحابه ، ونفس الحذاق منهم لا يلتزمون قوانينه فى كل علومهم بل يعرضون عنها ، إما لطولها وإما لعدم فائدتها ، وإما لفسادها ، وإما لعدمتميزها ، وما فيها من الاجمال والاشتباه ، فان فيه مواضع كثيرة هى لحم جمل غث على رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى » (٣).

تأثير المنطق على العقل وقوة البيان :

ويرى أن المنطق طالما جنى على المرء فأفقده نشاط الطبيعة وسلاسة اللسان والأفكار ، ولا شك فان الذين يحافظون على القواعد المنطقية والأسلوب المنطقى يصابون بعجز اللسان وتعقيد البيان وتطويل الكلام وزيغ فى التفكير ، وأوضح مثال لذلك متون المتأخرين وكتب

---

(١) الرد على المنطقيين ص ٢٧ - ٢٨ .

(٢) أيضاً ص ٣١ .

(٣) نقض المنطق ص ١٥٥ .

المناهج الدراسية المتقدمة ، يقول الامام ابن تيمية :

« وما زال نظار المسلمين يعيبون طرق أهل المنطق ويبينون ما فيها من العى واللكنة وقصور العقل وعجز المنطق ويبينون أنها إلى إفساد المنطق العقلى واللسانى أقرب منها إلى تقويم ذلك » [1].

ويقول فى موضع آخر : « إذا اتسعت العقول وتصوراتها اتسعت عباراتها ، وإذا ضاقت العقول والتصورات بقى صاحبها كأنه محبوس العقل واللسان كما يصيب أهل المنطق اليوناني، تجده من أضيق الناس علماً وبياناً وأعجزهم تصوراً وتعبيراً ، ولهذا من كان منهم ذكياً إذا تصرف فى العلوم وسلك مسلك أهل المنطق طول وضيق ، وتكلف وتعسف ، ، وغايته بيان البين وإيضاح الواضح من العى ، وقد يوقعه ذلك فى أنواع من السفسطة التى عافى الله منها من لم يسلك طريقهم »[2] .

بعض المستثنيات :

لا يطبق الإمام ابن تيمية عينيه عن بعض أولئك الرجال الذين بلغوا فى العلوم اليونانية إلى درجة الإمامة ورغماً من انهماكهم الشديد وشغفهم الزائد بهذه العلوم لم ينقصهم رواء القلم وطلاوة الكتابة وذوق الأدب الرفيع ، مثلاً ابن سينا الذى تعتبر قصيدته فى الروح[3] نموذجاً عالياً للروح العربية وتتسم كتاباته بالحلاوة والبلاغة خلافاً لأهل الحكمة ، يرى ابن تيمية أن ذلك فضل الاشتغال بالأدب الإسلامى العربى ، وفيض للعلوم الإسلامية ولا شك فان حياة ابن سينا تصدق ذلك ، يقول :

« ومن وجد فى بعض كلامه فصاحة وبلاغة كما يوجد فى بعض كلام ابن سينا وغيره، فلما استفاد من المسلمين من عقولهم وألسنتهم ، والا فلو مشى على طريقة سلفه وأعرض عما تعلمه من المسلمين لكان عقله ولسانه يشبه عقولهم وألسنتهم » [4].

رأى إجمالى عن المنطق :

وبعد هذه الانتقادات نطلّع على رأيه الإجمالى عن المنطق بلسانه ، يقول :

---

(١) الرد على المنطقيين ص ١٩٤ .

(٢) الرد على المنطقيين ص١٦٧ .

(٣) التى مطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تورد وتمنّع

(٤) أيضاً ص ١٩٩ .

« فحقه النافع الفطرى لا يحتاج إليه ، وما يحتاج إليه ليس فيه منفعة ، الا معرفة اصطلاحهم وطريقهم أو خطئهم » [1].

ويقول فى محل آخر :

« إنى كنت دائماً أعلم أن المنطق اليونانى لا يحتاج إليه الذكى ولا ينتفع به البليد » [2].

مكانة المنطق الصحيحة وفائدته :

ومهما لمس القارئ نوعاً من التطرف فى آراء ابن تيمية وأفكاره عن المنطق اليونانى ولوناً من المغالاة إلا أن قدسية المنطق وعظمته التى كانت تسيطر على عقل العالم الإسلامى من بعد القرن الخامس أصيبت بصدمة ، وكان لا بد من ذلك ، فان أوساطنا الدراسية والعلمية قد أولعت بالمنطق وأعجبت به إلى حد المغالاة والمبالغة ، ويمكن أن يقدر هذا الاعجاب بالمنطق من لم يكن له معرفة بالمنطق ، فانه يعتبر أجهل شخص وأحمق رجل لدى أهلها بالرغم من جميع ما يحمله من علم وفضل وذكاء ، وقد ظل المنطق والفلسفة يعرفان فى الهند إلى مدة طويلة اسم « العقلانية » كما أن كتبهما كانت تعرف باسم « كتب العقل » وكان من الطبيعى أن يوجد هناك رد فعل عنيف ضد هذا الغلو والولوع ، فقد يكون سبباً للفكر المتزن فى هذا الموضوع ، وينال هذا العلم مكانته الصحيحة من أجله .

إن المنطق نوع من الرياضة العقلية والفكرية ، ونستطيع أن نستخدمه كأداة لتشحيذ الذهن، فان لم يتجاوز حده هذا لا يعترض عليه أحد ، وإن الإمام ابن تيمية نفسه يعترف بذلك ويقول فى كتابه « الرد على المنطقيين » :

« وأيضاً فإن النظر فى العلوم الدقيقة يفتق الذهن ويدره ويقويه على العلم فيصير مثل كثرة الرمى بالنشاب وركوب الخيل تعين على قوة الرمى والركوب وإن لم يكن ذلك وقت قتال ، وهذا مقصد حسن » [3].

ولكن كل منصف بالغ النظر يخالف ما قد جعله الناس غاية عوضاً عن الوسيلة وأصل العلم بدلاً من المقدمة .

---

(١) الرد على المنطقيين ص ٢٠١ .

(٢) أيضاً ص ٣ .

(٣) أيضاً ص ٢ .

عجز المنطق عن مواجهة الحقائق الدينية والإلهية :

من قديم وجدت مغالطة فيما يتصل بالمنطق والفلسفة وهى أن أصولهما وقواعدهما كما تعتبر عقلاً حاكماً حاسماً فى العلوم العقلية كذلك يستعان بها فى اثبات الحقائق الدينية والإلهية من غير أى تكلف ، ويعترف بحكمها فى هذه الحقائق ، ولكن ابن تيمية يؤكد أن المنطق إذا نزل منزلة ميزان فلا بد من أن يدور عمله فى نطاق محدود ، أما وزن الحقائق الدينية على هذا الميزان فيماثل وزن الذهب والفضة والجواهر فى ميزان الحطب والحديد والرصاص والحجارة ، يقول فى « نقض المنطق » : « ومن المعلوم أن موازين الأموال لا يقصد أن يوزن بها الحطب والرصاص دون الذهب والفضة ، وأمر النبوات وما جاءت به الرسل أعظم فى العلوم من الذهب فى الأموال ، فاذا لم يكن فى منطقكم ميزان جاهل ظالم ، إذ هو إما أن يرد الحق ويدفعه فيكون ظالماً ، أو لا يزنه ولايبين أمره فيكون جاهلاً، أو يجتمع فيه الأمران فيرد الحق ويدفعه ، وهو الحق الذى ليس للنفوس عنه عوض ولا لها عنه مندوحة ، وليست سعادتها إلا فيه » (١) .

وبالمناسبة يحسن بى أن أقتطف كلاماً لابن خلدون الذى يعتبر من كبار علماء النقد والتاريخ ، وهو يشير إلى نفس المفهوم الذى يدل على أن عديداً من رجال العالم المتصفين بسلامة الطبع إنما تعينهم سلامة طبيعتهم على التوصل إلى الحقيقة ، وتتماثل أفكارهم وآراؤهم فى موضوع واحد ، إنه يتحدث عن محدودية العقل ، وقصر باعه عن إحاطة الحقائق الغيبية والدينية ، فيقول :

« بل العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية لا كذب فيه ، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة ،وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية ، وكل ما وراء طوره ، فان ذلك طمع فى محال ، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذى يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدرك ، على أن الميزان فى أحكامه غير صادق ، لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره ، حتى يكون له أن يحيط بالله وصفاته فانه ذرة من ذرات الوجود » (٢) .

نقد المنطق الفنى بتفصيل واجتهادات ابن تيمية وزياداته :

لم يكتف ابن تيمية بتوجيه النقد الاجمالى والإيرادات الأساسية إلى فن المنطق بل إنه

---

(١) نقض المنطق ص ١٦٣ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨٥ .

تناول الفن بأسره بالنقد والاجتهاد والاحتساب العلمى ، ورفض كثيراً من أصوله ومسلماته، وانتقدها من الناحية العقلية والفنية الخالصة ، وأثبتت ضعف كثير من حدوده ونقصها ، وأورد له حدوداً أحسن منها ، وخالف عديداً من قضاياه وترتيبها ، وأثبت ترجيح الاستقراء بازاء القياس الذى هو أساس منطق أرسطو ، وادعى أن الاستقراء طريق طبعى أضمن وأسهل إلى طلب العلم واليقين ، كما أنه قدم عدة نظرات جديدة فى المنطق والفلسفة وزاد إلى هذا الفن ، يقول المغفورله العلامة السيد سليمان الندوى فى مقدمته على كتاب « الرد على المنطقيين » معترفاً بخدمته وعظمته فى هذا المجال ، يقول :

« ما قال المصنف فى حقيقة الحد والجنس والفصل واللزوم ، وحقيقة العلة والقياس والاستقراء ، والاستدلال بالمشهورات ، والاكتفاء بمقدمة واحدة فى القياس ، وغيره من المباحث العويصة التى حل المصنف مشكلها ببيان واضح ودليل راهن ، وما قال فى العلة واللزوم هو عين ما قال هيوم (HUME) الفلسفى فى كتبه ، ومسألة اللزوم والعلية من المسائل العويصة التى ضلت فى واديها الأفهام وتبعت من عيونها ضلالات الطباعيين من أهل الإلحاد ، وكم لهذا النابغة فى هذا الكتاب من نوادر لم يسبقه إليها أحد » [1] .

لا يصح التقليد فى العلوم العقلية :

ويخشى ابن تيمية أن يقول الناس بعد ما يطلعون على ايراداته وخلافاته هذه التى يوجهها إلى العلوم اليونانية : إن العلوم اليونانية ذخيرة علمية قديمة أسهمت فى ترقيتها وتهذيبها عقول نخبة من عدة أجيال ، وهى التى تولت ابلاغها إلى أوج الكمال والتقدم ، ولذلك فانها بنجوة من أى احتمال للخطأ ، فان تصدى أحد من المتقدمين للانتقاد والاعتراض عليها فإنما يرادف ذلك وقاحة ، واضاعة للوقت ، ولكن ابن تيمية لا يعترف بهذه القضية ويقول : ان هذه العلوم ما دامت عقلية مجردة ، وهى لا تقوم الا على أساس الفكرة والدراسة فأى مبرر للتقليد البحت فيها حتى أن ناقليها لا يعتبرونها مبنية على أى وحى أو إلهام إنما يبنونها على العقل ، ولذلك فأهل العقل فى كل عصر يحق لهم أن يتناولوها النقد والوزن فى ميزان العقل ويرفض كل ما يعارض العقل ، إنه ينقل قول بعض شيخ المنطق فى كتابه « الرد على المنطقيين » « هذه علوم قد صقلتها الأذهان أكثر من ألف سنة وقبلها الفضلاء » ثم يرد عليه ويقول :

مجرد العقل ، فلا يجوز أن تصحح بالنقل ، بل ولا يتكلم فيها الا بالمعقول المجرد ، فاذا

(١) مقدمة الرد على المنطقيين ص ق .

دل المعقول الصريح على بطلان الباطل منها لم يجز رده ، فإن أهلها لم يدعوا أنها مأخوذة عـمن يجب تصديقـه ل عن عقل مـحض ، فـيجب التـحاكم فـيهـا إلى مرجب العـقل الصريح»[1] .

انحطاط العلوم العقلية وجمودها فى العصر المتأخر فى العالم الإسلامى ، وأهمية عمل ابن تيمية :

والواقع أن « المعـقـول » لا بد أن يكون مـعـقـولاً على الـدوام ، ولا يتـحـول إلى « منقول » ، ولكن لما أظل الانحطاط العلمى والفكرى العالم الإسلامى ، ورفضت العقول والقوى الفكرية أن تقوم بواجبـها فى جو من الحرية عاد علماء الحكمة والفلسـفة أتباعاً لمن سبقهم مقتفين آثارهم ، واقتنعوا بالنقل والشَرح لتحقيقاتهم ومؤلفاتهم ، ولم يعد أى فرق بين المنقـول والمعقول ، وكـان أسمى مكانة فى العلم أن يـتصدى المتـأخرون لشـرح كلام المتقدمين ، ويعبروا عن مفاهيمهم بكلمات قليلة .

ذلك هو عصر الانحطاط فى الشرق يوم انغلق باب الاجتـهاد والتجديد والزيادة والعمل المنتج فى العلم والحكمة ، أمـا أوربا - التى كانت قد اكتسبت المـنطق والفلسفة عن طريق المسلمين ، وتعلمت أفكار حكماء اليونان وفلسفتهم بواسطة ابن سينا وابن رشد - فانها لم تقتـنع بهذا التراث الـعلمى الا مدة يسـيرة فقط ثم نهـضت تعيـد النظر والتفكيـر فى هذه العلوم، وقامت بالتـحقيق والتجـربة بكل حرية ، الأمر الذى طوى بساط المنطق والفـلسفة اليونانيين ، واحـتل الاستقـراء محل القيـاس فى المنطق ، ونالت العلوم الطبيـعية اهتـمام الناس، بعد ما فقدت العلوم الإلهية وعلوم ما بعد الطبـيعة قيمتها ، تلك التى لم يكن لها أى دور فى الحياة العلمية والعملية .

إن هذه الثورة الفكرية لم تخلف تأثيـرها فى أوربا فحسب بل تعدتهـا إلى العالم كله ، بالعكس من ذلك فـقد تمسكت أوساطنا العلمـية والمدرسيـة بالعلوم اليونانيـة وعضت على كتب علمـاء الشرق وشروحهم وتعليـقاتهم فى هذا الفن النواجذ كأنهـا هى العروة الوثقى وسدرة المنتهى للفكر والنظر، ولا شك فان العمل الاجتـهادى الذى قام به الامام ابن تيمية من انتقاد الفلسفة والمنطق ومـحاسبتها العلمية فى صحراء التـقليد والجمود العقلى، كمنارة ضوء على السـاحل، ومعالم واضحة فى الطريـق، وهو يفتح باب الاجتهاد والتـفكير من جديد .

---

(١) الرد على المنطقيين ص ٢٠٨ .

الرد على الفرق والملل
ومقاومة عقائدها وتقاليدها وتأثيرها

نقد الديانات والنحل :

لا يخفى أن الإمام ابن تيمية قام بدور ممتاز فى مجال انتقاد بعض الديانات والفرق وقضى معظم حياته فى هذا الجهاد العلمى ، وقد لا يخلو مؤلف من مؤلفاته من البحوث والمناظرة الكلامية ، إلا أننا نختار من بين هذه الديانات والفرق التى ناقشها ابن تيمية ديانة « المسيحية » ونحلة « الشيعية » وذلك لأنه اختصهما بالنقد والتحقيق وأفرد لكل واحدة منها كتابين مستقلين لهما قيمتهما وأهميتهما ، وهما « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» و « منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية » كما أن بين هذه الديانة وتلك الفرقة مناسبة لطيفة يشير إليها الحديث النبوى الذى خوطب فيه أمير المؤمنين على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو قوله ﷺ : « فيك مثل من عيسى أبغضته اليهود حتى بهتوا أمة وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزلة التى ليس به » (١) ولسبب آخر، وهو أن المسيحية والشيعية بمختلف فروعها وأنواعها هما اللتان كانتا الفرق والديانات الحية النشيطة فى العصر الذى عاش فيه ابن تيمية ولعل ذلك ما بعث ابن تيمية على تركيز اهتمامه عليهما ووضع كتب مستقلة تتفرد بهما .

الرد على المسيحية

حركة المسيحية الجديدة فى العالم الاسلامى :

انتبهت المذاهب والديانات الأخرى فى الدول الإسلامية مع انحطاط المسلمين السياسى وجددت نشاطها ، وكانت المسيحية هى أنشط الديانات من بين هذه الديانات والمذاهب كلها فى ابداء الجرأة والتغلب على غيرها ، فقد وجد لأتباعها عدد وجيه آنذاك فى العالم الاسلامى ، سيما فى مصر وسوريا ، وبالأخص كانت سلسة من الدول المسيحية تتصل بأرض الشام وتمسها ثغور المملكة المسيحية الكبرى (مملكة قسطنطنية) المملكة البازنطينية .

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ج ١ ص ١٦٠ وفى رواية : ثم قال : (على) يهلك فيّ رجلان محب مفرط يقرضنى بما ليس فيّ ، ومبغض يحمله شنآنى أن يبهتنى .

ومعلوم أن أوربا بدأت هجمـات متتابعة على الشام وفلسطين فى أواخـر القرن الخامس الهجرى ، وهى التى تعرف بالحروب الصليبية فى التاريخ ، وفى خلال ذلك حرم المسلمون جزءاً كبيراً من الشام ، وظلت القـدس تحت سيطرة المسيحين وولايتهم طوال تسعين سنة ، وبالرغم من أن السلطان صلاح الدين الأيوبى كان قد هزم المسيحيين فى ساحة حطين هزيمة منكرة واسترد القدس من أيديهم الا أن دولة مسيـحية لم تزل موجودة على ساحل الشام ، وكانت همة المبشرين والمسيحيين وعلمائهم ارتفعت بالفتح الصليبى حتى أنهم كانوا يحلمون بالاستيـلاء على الشام واقامة دولة مسـيحية تحت ظلال الصليبـية فيها ، إن هجمـات التتر المتتـالية كانت قد أضـعفت المسلمين وبعثت قوة وهمـة فى المسيحين وقد تحـدثنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب أن التـتر عندما دخلـوا الشام منتصـرين فى عام ٦٥٨هـ استـقبلهم المسيحـيون خارج المدينة ، وقدمـوا لهم الهدايا ، وقد كانوا رافعين صلـباناً على رؤوسهم ويقولون : قد غلب الدين الحق ، دين يسوع المسيح [(١)] .

تأليف « الجواب الصحيح » :

كانت المناظرة بين علماء المسيحية والقـسيسين وبين المسلمين تدور حينا لآخر ويرد علماء المسلمين على ايراداتهم ويفـضحـون مواضع الضـعف فى الديانة المسـيحيـة ، ولكن الذى استرعى انتباه ابن تيمية إلى هذا الموضوع وجعله موضع اهتمامه الخاص هو أن مؤلفاً جديداً للمسيحيين فى المناظرة وصل من قبرص إلى الشام حاول فـيه مؤلفه اثبات المسيحية واثبات عقائدها من طريـق العقل والنقل ، كما أنه بذل قصـارى جهده فى اثبات أن بعـثة الرسول ﷺ لم تكن عامـة وإنما كانت تخص العرب وحدهـم ، ولذلك فإن المسيحـيين لم يكلفوا الايمان به ، يبدو أن هذا الكتاب نال أهمية كبرى فى أوساط الشام العلمية والدينية .

إن أصلح رجل للرد على هذا الكتـاب هو الذى يتمـتع بنظر عمـيق واسع فى الفلسـفة وعلم الكلام والعقائد والفرق فى جانب ، وفى جانب آخر يكون مطلعاً على صحف العهد القديم والعهـد الجديد (بائيبل) وعلى تاريخ المسـيحية اطلاعـاً كاملاً ، فبالنسـبة إلى هذه الناحية لم يكن هناك أى عالم أصلح من ابن تيمية لهـذا العمل فى ذلك العصر ، فتصدى للكتابة فى هذا الموضوع وألف كتاباً بـاسم « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » [(٢)] فى

---

(١) وللاطلاع على التفصيل راجع الجزء الاول من هذا الكتاب .

(٢) هذا الكتاب يقع فى ١٣٩٥ صفـحة ، طبع فى مصر فى عام ١٣٢٢هـ (١٩٠٥ م) باهتـمام الشيخ فرج الله زكى الكردى والشيخ مصطفى قبانى الدمشقى .

أربعة مجلدات ، لا يتميز فى هذا الموضوع فحسب بل أنه يحتل مكانة ممتازة بين سائر مؤلفات ابن تيمية ، يدل هذا الكتاب على سعة نظره وتنوع دراسته واطلاعه الواسع العميق على تاريخ الديانات والصحف السابقة ، إنه لم يكتف فيه بأسلوب الدفاع والتزكية ، بل إنه هاجم أسس المسيحية ، ولم يعتمد فى إثبات النبوة المحمدية على الدلائل القديمة المصطلحة التى تتسم بها كتب علم الكلام ومناظرة الفرق ، بل إنه جاء ببراهين جديدة تؤثر فى النفس وتبعث الايمان فى القلوب وتضطر كل رجل منصف عاقل إلى الاعتراف بالحقيقة ، كما أنه شحن هذا الكتاب بمواد غزيرة لتاريخ المسيحية وعلم الكلام المسيحى ، وإيرادات علماء المسيحية وتعبيراتهم وتأويلاتهم ، وبذخيرة كبرى من بشارات البعثة المحمدية ودلائل نبوءة النبى ﷺ ونبوءاته لا توجد مجتمعة فى أى كتاب آخر ، بل يحتاج المرء للاطلاع على مثلها إلى عملية تنقيب واسعة فى مكتبة كبيرة ، ولقد صدق الشيخ محمد أبو زهرة عالم مصر الكبير عندما قال عن هذا الكتاب :

« وإن هذا الكتاب أهدأ ما كتبه ابن تيمية فى الجدال ، وهو وحده جدير بأن يكتب ابن تيمية فى سجل العلماء العاملين والأئمة المجاهدين والمفكرين الخالدين »(1) .

وفى الصفحات التالية نقوم باستعراض إجمالى لهذا الكتاب لكى نقدم ملخصاً منه تتضح به وجهة نظره وتتجلى فيه روح الكتاب .

المسيحية مزيج من تعاليم سيدنا المسيح والوثنية الرومانية :

إن معظم العلماء المسلمين والمؤلفين الذين تصدوا للرد على المسيحية ونقضها وحاولوا الكتابة حولها كانوا قليلى المعرفة بتاريخ المسيحية ، إنهم زعموها مجموعة لأقوال وأحوال سيدنا المسيح وبحثوا فيها كدين سماوى ، فأكرموها بما لم تكن جديرة به ، أما ابن تيمية فله اطلاع واسع على تاريخ المسيحية ونموها التدريجى وتغييراتها ولا يجهل حقيقة أن المسيحية الموجودة فى عصره أن هى الا مجموعة لتعاليم سيدنا المسيح وعقائد الروم واليونان المشركة وتقاليدهم ، وعلم الأصنام ولذلك فإنه لا يقع فريسة الخطأ التاريخى الذى يقع فيه العامة من النقاد ، ويتناول المسيحية الحاضرة بالنقد والرد عليها بكل جرأة وشجاعة ، إنه يقول :

«وكان الروم اليونان وغيرهم مشركين يعبدون الهياكل العلوية والأصنام الأرضية فبعث

---

(1) ابن تيمية لمحمد أبى زهرة ص ٥١٩ .

المسيح عليه السلام رسله يدعونهم إلى دين الله تعالى فذهب بعضهم فى حياته فى الأرض وبعضهم بعد رفعه إلى السماء فدعوهم إلى دين الله تعالى فدخل من دخل فى دين الله وقاموا على ذلك مدة ثم زين الشيطان لمن زين له أن يغير دين المسيح فابتدعوا ديناً مركباً من دين الله ورسله ودين المسيح عليه السلام ومن دين المشركين » (١) .

ويقول فى مكان آخر :

« ولكن النصارى ركبوا ديناً من دينين من دين الأنبياء الموحدين ودين المشركين فصار فى دينهم قسط مما جاءت به الأنبياء وقسط مما ابتدعوا من دين المشركين فى أقوالهم وأفعالهم ، كما أحدثوا ألفاظ الأقانيم وهى ألفاظ لا توجد فى شئ من كلام الأنبياء ، وكما أحدثوا الأصنام المرقومة بدل الأصنام المجسدة والصلاة إلى الشمس والقمر والكواكب بدل الصلاة إليها والصيام فى وقت الربيع ليجمعوا بين الدين الشرعى والأمر الطبيعى » (٢) .

المسيحية الحاضرة من وضع عبد قسطنطين :

ويتقدم خطوة ويوضح أن المسيحية أصيبت بتحريف وتغيير أكبر فى عهد الملك قسطنطين، الذى كان ملك الروم الشهير فى القرن الرابع الميلادى ، والذى هو مؤسس المملكة المسيحية الأولى ، وذلك عدا ذلك التحريف الذى دخل المسيحية فى بدء عهدها أيام البولس يقول :

« النصارى تضع لهم عقائدهم وشرائعهم وأكابرهم بعد المسيح ، كما وضع لهم الثلثمائة والثمانية عشر الذين كانوا فى زمن قسطنطين الملك الأمانة التى اتفقوا عليها ولعنوا من خالفها من الأريوسية وغيرهم ، وفيها أمور لم ينزل الله بها كتاباً بل تخالف ما أنزله الله من الكتب مع مخالفتها للعقل الصريح » (٣) .

وفى موضع آخر :

« لم يقولوا ما قاله المسيح والأنبياء بل ابتدعوا اعتقاداً لا يوجد فى كلام الانبياء فليس فى كلام الانبياء لا المسيح ولا غيره ذكر أقانيم لله لا ثلاثة ولا أكثر ولا اثبات ثلاث صفات ولا تسمية شئ من صفات الله ابناً لله ولا رباً ولا تسمية حياته روحاً ، ولا أن لله ابناً إله

---

(١) الجواب الصحيح الجزء الاول ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٢) أيضاً ص ١٩٩ .

(٣) الجواب الصحيح الجزء الاول ص ١١٨ .

حق من إله حق من جوهر أبيه وأنه خالق كما أن الله خالق إلى غير ذلك من الأقوال المتضمنة لأنواع من الكفر لم تنقل عن نبى من الانبياء » [(١)].

المكانة الصحيحة للأناجيل :

أخطأ بعض علماء الاسلام فوضعوا الأنجيل فى بحوثهم بازاء القرآن والصحف السماوية الآخرى ، واعترفوا بأنه كتاب سماوى كسائر الكتب السماوية بتأثير من دعاوى العلماء والمبشرين المسيحيين ، ولقد كان ذلك خطأ أساسياً ناتجاً عن مجرد الجهل بتاريخ العهد الجديد ، وأما الامام ابن تيمية فإنه يحل الانجيل محله الذى يستحقه ، إن قيمة الصحف الأربع للانجيل عنده لا تغدو قيمة كتب السيرة والحديث العامة فى أى حال ، يقول :

« إن هذه المقالات الأربعة التى يسمونها الإنجيل وقد يسمون كل واحد إنجيلاً إنما كتبها هؤلاء بعد أن رفع المسيح فلم يذكروا فيها أنها كلام الله ولا أن المسيح بلغها عن الله بل نقلوا فيها أشياء من كلام المسيح وأشياء من أفعاله ومعجزاته وذكروا أنهم لم ينقلوا كل ما سمعوه منه ورأوه فكانت من جنس ما يرويه أهل الحديث والسير والمغازى عن النبى ﷺ من أقواله وأفعاله التى ليست قرآناً ، فالأناجيل التى بأيديهم شبه كتاب السيرة وكتب الحديث» [(٢)].

ويقول فى موضع آخر :

« وأما الأنجيل الذى بأيديهم فأنهم معترفون بأنه لم يكتبه المسيح عليه السلام ولا أملاه على من كتبه وإنما أملوه بعد رفع المسيح متى ويوحنا وكان قد صحب المسيح ولم يحفظه الخلق كثير يبلغون عدد التواتر ، ومرقس ولوقا وهما لم يريا المسيح عليه السلام ، وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح وبعض أخباره وأنهم لم يستوعبوا ذكر أقواله وأفعاله، ونقل اثنين وثلاثة وأربعة يجوز عليهم الغلط لاسيما وقد غلطوا فى المسيح نفسه حتى اشتبه عليهم بالمصلوب » [(٣)].

وهو لا يتحدث عن الأنجيل وحده بل يقول عن التوراة أيضاً :

« أما التوارة فإن نقلها انقطع لما خربت بيت المقدس أولاً وأجلى منه ينو اسرائيل ثم ذكروا أن الذى أملاها عليهم بعد ذلك شخص واحد يقول له عازر وزعموا أنه نبى ومن

---

(١) أيضاً ص ١٣٤ - الجزء الثالث .

(٢) أيضا ص الجزء الثانى ص ١٠ .

(٣) أيضاً الجزء الاول ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

الناس من يقول أنه لم يكن نبياً وأنها قوبلت بنسخة وجدوها عتيقة ، وقيل أنه أحضرت نسخة كانت فى المغرب وهذا كله لا يوجب تواتر جميع ألفاظها ولا يمنع وقوع الغلط فى بعضها كما يجرى مثل ذلك فى الكتب التى يلى نسخها ومقابلتها وحفظها القليل الاثنان والثلاثة »[١].

ويستنتج فى الأخير من بقوله :

« وليس من النصارى نقل متواتر عن المسيح بألفاظ هذه الاناجيل ولا نقل متواتر ولا آحاد بأكثر ما هم عليه من الشرائع ولا عندهم لا عند اليهود نقل متواتر بألفاظ التوراة ونبوات الأنبياء كما عند المسلمين نقل متواتر بالقرآن وبالشرائع الظاهرة للعامة والخاصة»[٢].

ويتحدث عن الفرق بين القرآن والتوراة والأنجيل فيقول : « أن المسلمين تواتر عنهم عن نبيهم ألفاظ القرآن ومعانيه المجمع عليها والسنة المتواترة ، وعندهم عن نبيهم أخبار كثيرة معلومة الصدق بطرق متنوعة كتصديق الأمة المعصومة ودلالة العادات وغير ذلك ، وهم يحفظون القرآن فى صدورهم لا يحتاجون فى حفظه إلى كتاب مسطور ، فلو عدمت المصاحف من الأرض لم يقدح ذلك فيما حفظوه ، بخلاف أهل الكتاب فإنه لو عدمت نسخ الكتب لم يكن عندهم به نقل متواتر بألفاظها إذ لا يحفظها الا قليل لا يوثق بحفظهم، فلهذا كان أهل الكتاب بعد انقطاع النبوة عنهم يقع فيه مِن تبديل الكتب إما تبديل بعض أحكامها ومعانيها وإما تبديل بعض ألفاظها . ما لم يقوموا بتقويمه ولهذا لا يوجد فيهم الاسناد الذى للمسلمين ولا لهم كلام فى نقلة العلم وتعديلهم وجرحهم ومعرفة أحوال نقلة العلم ما للمسلمين »[٣].

التحريف فى الأناجيل :

اشتهر عن ابن تيمية بوجه عام أنه لا يقول بالتحريف اللفظى فى التوراة والأنجيل الا أن دراسة هذا الكتاب تنفى هذا الظن ، أما حقيقة ما يقوله ابن تيمية فهى أنه يؤكد مراراً وتكراراً أن الناس كلهم متفقون على وقوع التحريف المعنوى ، وبما أن علماء اليهود والنصارى يقولون بالتحريف المعنوى ، فإنه يعتمد على ذلك فى استدلالاته ، ويقدمها بازاء علماء اليهود والنصارى ، انه يقول فى أحدى المناسبات :

---

(١) الجواب الصحيح الجزء الاول ص ٣٦٨ .

(٢) أيضاً ص ٣٧٢ .

(٣) أيضاً الجزء الثانى ص ١٢ ، ١٣ .

« وإذا عرف أن جميع الطوائف من المسلمين والنصارى يشهدون أنه قد وقع فى هذه الكتب تحريف ، وتبديل فى معانيها وتفاسيرها وشرائعها ، فهذا القدر كاف »[1] .

ويقول فى مناسبة أخرى :

« ولكن علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب متفقون على وقوع التحريف فى المعانى والتفسير »[2] .

ولكن هل وقع التحريف فى ألفاظ التوراة والأنجيل ؟ فإنه لا يوافق على أن هذه الكتب محرفة من أولها إلى آخرها ، وليست فيها ألفاظها الأصلية ، يقول :

« ثم زعموا أن المسلمين يدعون أن ألفاظ هذه الكتب حرفت كلها بجميع لغتها بعد مبعث محمد ﷺ ،وهذا القول لم يقله أحدمن المسلمين فيما أعلم »[3] .

ولكنه يقول بالتحريف الجزئى فى هذه الكتب ، بحيث إن ألفاظها قد بدلت فى مواضع عديدة ، وذلك هو مذهب الجمهور كما يقول :

« فجمهور المسلمين يمنعون هذا ويقولون إن بعض ألفاظهما بدل كما قد بدل كثير من معانيها »[4] .

ويقول فى محل آخر :

« والصواب الذى عليه الجمهور أنه بدل بعض ألفاظها »[5] .

إن النصارى لم يفهموا ألفاظ الأنبياء :

إنه يعتقد أن السبب الكبير فى ضلال النصارى ومنع الفساد الذى تسرب إليهم من التثليث والعقائد المشركة إنما يرجع إلى أنهم لم يفهموا كثيراً من ألفاظ الأنبياء عليهم السلام ولا أدركوا مفاهيمها ، كما قد حرفوا مفاهيم ألفاظ كثيرة ، إنه يقول : « وان القوم عندهم من ألفاظ الأنبياء ما لم يفهموا كثيراً منه وما حرفوا كثيراً منه ، وعندهم من المعقول فى ذلك ما يفضلهم اليهود فيه ، لكن اليهود وإن كانوا أعظم منهم فهما أعظم عناداً وكبراً

---

(١) أيضاً الجزء الاول ص ٣٧٦ .

(٢) أيضاً ص ٣٨٠ .

(٣) الجواب الصحيح ج ٢١ ص ٧٣٤ .

(٤) أيضا ص ٣٧٣ .

(٥) أيضاً ج ٢ ص .

وجحداً للحق »[1] .

إنه يضغط على أن فهم هذه الكتب السماوية والاستفادة منها بطريق صحيح يتطلب فهم لغات الأنبياء ومصطلحاتهم ، يقول :

« إن معرفة اللغة التى خاطبنا بها الأنبياء وحمل كلامهم عليها أمر واجب متعين ، ومن سلك غير هذا المسلك فقد حرف كلامهم عن مواضعه وكذب عليهم وافترى »[2] .

ونتيجة لذلك وقع خطأ عظيم فى فهم معانى « ابن » و « روح القدس ، وظهرت عقيدة التثليث .

المفهوم الصحيح للألفاظ :

إنه يقول : « فأهل الكتاب نقلوا عن الأنبياء أنهم تكلموا بلفظ الأب والابن ، ومرادهم عندهم بالأب والرب ، وبالابن المصطفى المختار المحبوب ، ولم ينقل أحد منهم عن الأنبياء أنهم سموا شيئاً من صفات الله ابناً ، ولا قالوا عن شئ من صفاته أنه تولد عنه ولا أنه مولود له ، فإذا وجد فى كلام المسيح عليه السلام أنه قال : عمدوا الناس بأسم الأب وروح القدس ثم فسروا الابن بصفة الله القديمة الأزلية ، كان هذا كذباً بينا على المسيح حيث لم يكن فى لغته أن لفظ الابن يراد به صفة الله القديمة الأزلية ، كذلك إذا لم يكن فى لغته أن لفظ الابن يراد به صفة الله القديمة الأزلية ، كذلك إذا لم يكن فى كلام الأنبياء أن حياة الله تسمى روح القدس وإنما يريدون بروح القدس ما ينزله الله تبارك وتعالى على الأنبياء والصالحين ويؤيدهم »[3] .

ويقول فى موضع آخر حيث يخاطب النصارى :

« إنكم ضللتم بعدو لكم عن صريح كلام الأنبياء وظاهره إلى ما تأولتموه عليه من التأويلات التى لا يدل عليها لفظه ، لا نصاً ولا ظاهراً ، فعدلتم عن المحكم واتبعتم المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، فلو تمسكتم بظاهر هذا الكلام لم تضلوا ، فإن الابن ظاهره فى كلام الأنبياء لا يراد به شئ من صفات الله بل يراد به وليه وحبيبه ونحو ذلك ، وروح القدس لا يراد به صفته بل يراد به وحيه وملكه ونحو ذلك ، فعدلتم عن ظاهر

---

(١) أيضاً ج ٢ ص ١٠٩ .

(٢) أيضاً ج ١ ص ١٨١ .

(٣) الجواب الصحيح ج ٣ ص ١٨١ ، ١٨٢ .

اللفظ ومفهومه إلى معنى لا يدل عليه اللفظ البتة »[1] .

كلمتا « الابن » و « روح القدس » مشتركتان عامتان :

ثم إنه يثبت من عبارات التوراة والأنجيل والنصوص أن كلمتى « الابن » « وروح القدس» لا يختصان بسيدنا المسيح بل طالما استعملتا فى حق غيره يقول :

« لفظ الابن وروح القدس قد جاء فى حق غير المسيح عندكم حتى الحواريين عنكم يقولون أن المسيح قال لهم إن الله أبى وأبوكم وإلهى وإلهكم ، ويقولون أن روح القدس تحل فيهم ، وفيما عندكم من التوراة أن الرب قال لموسى اذهب إلى فرعون فقل له يقول لك الرب ابنى بكرى أرسله يعبدنى فإن أبيت أن ترسل ابنى بكرى قتلت ابنك بكرك ، فلما لم يرسل فرعون بنى إسرائيل كما قال الله قتل الله أبكار فرعون وقومه من بكر فرعون الجالس على السرير إلى الأول من أولاد الآدميين إلى ولد الحيوان إليهم فهذه التوراة تسمى بنى اسرائيل كلهم أبناء الله وأبكاره وتسمى أبناء أهل مصر أبناء فرعون وتتوسع فتسمى سخال الحيوان أولاد المالك للحيوان ، وفى مزامير داؤود يقول أنت ابنى سلنى أعطك ، وفى الانجيل يقول عن المسيح أنا ذاهب إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم وقال إذا صليتم فقولوا يا أبانا الذى فى السماء قدوس اسمك افعل بنا كذا وكذا ، ويقولون عن القديسين أن روح القدس يحل فيهم »[2] .

وهكذا وهكذا فإنه أثبت بالدلائل أن الألفاظ التى يستدل بها النصارى على ابنية سيدنا المسيح ، وعلى الحلول والاتحاد والألوهية إنما جاءت فى التوراة والانجيل مراراً وتكراراً لغير سيدنا المسيح ، وأن كل هذه الكلمات كنايات ومجازات وتعبيرات ، وفى الأخير يستنتج بقوله :

« وجماع هذا أن النبوات المتقدمة والكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل والزبور وسائر نبوات الأنبياء لم تخص المسيح بشئ يقتضى اختصاصه باتحاد اللاهوت به وحلوله فيه كما يقوله النصارى ، بل لم تخصه إلا بما خصه به محمد ﷺ فى قوله : « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » « فكتب الأنبياء المتقدمة وسائر النبوات موافقة لما أخبر به محمد ﷺ يصدق بعضهم بعضاً ، وسائر ما تستدل به النصارى على إلهيته من كلام الأنبياء قد يوجد مثل تلك الكلمات فى حق غير المسيح فتخصيص المسيح

---

(١) أيضاً ص ١٥٥ .

(٢) أيضاً ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

بالإلهية دون غيره باطل ، وذلك مثل اسم الابن والمسيح ومثل حلول روح القدس فيه ومثل تسميته إلهاً ومثل ظهور الرب أو حلوله فيه أو سكونه فيه أو فى مكانه فهذه الكلمات ومااشبهها موجودة فى حق غير المسيح عندهم ولم يكونوا بذلك آلهة »[1].

وقد يعرض المسيحى عن هذه المنقولات ويبحث فى الأقانيم والحلول والاتحاد عن طريق العقل ، بحيث يحوله إلى بحث فلسفى أو صوفى ، ولكن ابن تيمية تناول هذا الموضوع وأشبعه بحثاً من وجهة النظر الفلسفية ، وبما أن هذا الموضوع مما يخصه وقد بحثه غير مرة بصدد الكلام حول العقائد ووحدة الوجود وعلم الكلام ينصرف إلى البحث فيه بكامل الانشراح والاهتمام ، ويثبت أنه ليس كلاماً معقولاً ، بل إنه فلسفة مزعومة ، لا تمت إلى الحقائق والمعلومات بصلة ما »[2].

أمور تنافى العقل :

وعندما يورد على المسيحيين من الناحية العقلية حول عقيدة التشليث ويثبت أن هذه العقيدة ليست مما يقبله العقل بل أنها تعارض العقل الإنسانى العام سرعان ما يلتجئون إلى المنقولات ، ويقولون : هكذا تتحدث لنا الكتب السماوية ، وإن هذه الأمور والعقائد حقائق هى وراء طور العقل والقياس ، فلا مناص من تصديقها والإيمان بها ، من غير أن نحاول الأعتماد على العقل فيها ، أما الإمام ابن تيمية فإنه يرفض قبل كل شئ أن هذه العقائد والتعاليم توجد فى الكتب السماوية ، بل حق أن الكتب السماوية تحتوى على عكس هذه التعاليم والعقائد ، ثم أنه يقول إن هناك شيئين مختلفين ، الأول ما هو باطل ومستحيل عقلياً ، والكل يعلم أن ذلك محال ، والثانى ما يتقاصر عنه العقل ولا يستطيع أن يتوصل إلى حقيقته ، ولا أن يحكم فيه بنفى أو إيجاب ، إنه يعتقد أن تعاليم الأنبياء إنما هو من النوع الثانى ، ومعنى ذلك أن كلامهم ليس فيه من يعارض العقل ، بل فيما كما وراء العقل ، والفرق بين ما يعارض العقل وبين ما هو وراء العقل كبير ، إنه يقول :

« لا يميزون بين ما يحمله العقل ويبطله ويعلم أنه ممتنع ، وبين ما يعجز عنه العقل فلا يعرفه ولا يعلم فيه بنفى ولا إثبات ،وأن الرسل أخبرت بالنوع الثانى ، ولا يجوز أن تخبر بالنوع الأول ، فلم يفرقوا بين محالات العقل ومحارات العقول ، وقد ضاهوا فى ذلك من قبلهم من المشركين الذين جعلوا لله ولداً وشريكاً »[3].

---

(١) الجواب الصحيح ج ٢ ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٢) ومن أراد التفصيل فليرجع إلى « الجواب الصحيح » ج ٣ ص ١١٩ ، ٩٠ - ١٩١ ، ٢١٥ .

(٣) أيضاً ج ٢ ص ٨٩ .

إنه يثبت بكل قوة وتأكيد ، وكتبه كلها مليئة ببيان أن الدين الصحيح لا يضاد العقل الصريح ، يقول :

« وهذا الموضوع غلط فيه طائفتان من الناس ، غالية غلت فى المعقولات حتى جعلت ما ليس معقولاً من المعقول ، وقدمته على الحس ونصوص الرسول ، وطائفة جفت عنه فردت المعقولات الصريحة ، وقدمت عليها ما ظنته من السمعيات والحسيات ، وهكذا الناس فى السمعيات نوعان ، كذلك هم فى الحسيات الباطنة والظاهرة نوعان ، فيجب أن يعلم أن الحق لا ينقض بعضه بعضاً ، بل يصدق بعضه بعضاً ، بخلاف الباطل فإنه مختلف متناقض كما قال الله تعالى فى المخالفين للرسل : ﴿ **والسماء ذات الحبك ، إنكم لفى قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك** ﴾ (١) ، وإن ما علم بمعقول صريح لا يخالفه قط ، لا خبر صريح ولا حس صحيح ، وكذلك ما علم بالسمع الصحيح لا يعارضه عقل ولا حس ، وكذلك ما علم بالحس الصحيح لا يناقضه خبر ولا معقول » (٢) .

وذلك هو الفرق بين المسيحية والإسلام ، ففى الإسلام اتحاد تام بين العقل والنقل اللهم الا الحقائق الغيبية التى هى وراء العقل ، ولكنها لا تعارض العقل ، خلافاً للمسيحية التى تحتوى على كثير من المسائل والعقائد المخالفة للعقل ، ويعتبرها كثير من علمائها معارضاً ، الا أنهم يقولون أن هذه الأمور إنما هى وراء مرتبة العقل ، ولا مناص من اعتقادها والإيمان بها .

علماء النصارى القائلون بالتوحيد وعبدية المسيح عليه السلام :

وقد أحسن ابن تيمية فى كتابه « الجواب الصحيح » وأوسعه علماً مفيداً ، وهو أنه نقل فيها آراء علماء المسيحية وأئمتها وأقوالهم الذين كانوا يعتقدون بعبدية المسيح عليه السلام ويقولون بالتوحيد ، إلا أنهم لم ينالوا أى قبول فى العالم المسيحى لأسباب عدة ، وقد تناول بالمناسبة فرق النصارى والمذهب الغالب عندهم بنوع من التفصيل والشرح ، الأمر الذى يدل على اطلاعه العميق ومعلوماته الواسعة ، ودقة النظر ؛ كما نقل بصدد الموضوع رسالة طويلة لعالم حديث العهد بالإسلام اسمه حسن بن أيوب ، بسط فيها الأسباب التى دفعته إلى قبول الإسلام والدلائل التى رجح بها الإسلام على الديانات الأخرى ، وهذه

---

(١) الذاريات ص ٧ ، ٨ ، ٩ .

(٢) الجواب الصحيح ج ٣ ص ١٢٦ .

الرسالة تحتوى على معلومات قيمة »[1].

بشائر عن النبى ﷺ

فى التوراة والصحف السماوية :

وبعد انتهائه من ذلك نقل ابن تيمية تلك البشائر والنبوات التى تخبر بنبوة النبى ﷺ وبعثته ، وقد سار فى ذكر هذه البشارات والنبوئات منهج الاستقصاء والاستيعاب ، ولم يأل جهداً فى نقل كلام وعبارة أشعياء النبى ، حبقوق ، دانيال ، وسيدنا المسيح عليه السلام ، مما يتعلق بالنبى ﷺ ، وقد اجتمع فى هذا الموضوع من المعلومات فى هذا الكتاب ما يتعذر وجوده فى أى كتاب آخر ، إنه تناول هذه النبوءات بالشرح وأثبت أنها لا تنطبق إلا على النبى ﷺ[2].

ومن بين هذه النبوءات نبوءة من إنجيل يوحنا بأن سيدنا المسيح عليه السلام قال : « إن أركون العالم سيأتى وليس لى شئ » ومعنى أركون فى العبرانية جليل القدر والشأن ، ويقال للعظماء والكبار أراكنة ، يقول ابن تيمية وهو يثبت أن مصداق هذه النبوة إنما هو النبى ﷺ.

« فمعلوم باتفاق أهل الأرض والاضطرار أنه لم يأت بعد المسيح من ساد العالم باطناً وظاهراً وانقادت له القلوب والأجساد وأطيع فى السر والعلانية فى محياه وبعد مماته فى جميع الأعصار وأفضل الأقاليم شرقاً وغرباً أحد غير محمد ، فإن الملوك يطاعون ظاهراً لا باطناً ولا يطاعون بعد موتهم ولا يطيعهم أهل الدين طاعة يرجون بها ثواب الله فى الدار الآخرة ويخافون عقاب الله فى الدار الاخرة بخلاف الأنبياء ، ومحمد أظهر دين الرسل مثل موسى والمسيح وغيرهما أمم عظيمة لولا محمد لم يؤمنوا بهم ، ومن كان يعرف هؤلاء من أهل الكتاب كانوا مختلفين فيه كاختلاف أهل الكتاب فى المسيح وكانوا يقولون فى داؤود وسليمان وغيرهما بما هو معروف عندهم ، وأيضاً فإنه ذكر لهم من الرسل ما لم يكونوا يعرفونه مثل هود وصالح وشعيب وغيرهم[3].

المعجزات ودلائل النبوءة :

وبعد الانتهاء من هذا الموضوع انتقل ابن تيمية إلى بيان معجزات النبى ﷺ ويرى أنها

---

(١) راجع الجواب الصحيح ج ٢ ص ٣١٢ ، وج ٣ ص ٣ .

(٢) راجع الجواب الصحيح ج ٢ ص ٣١٢ ، و ج ٣ ص ٣ .

(٣) أيضاً ج ٤ ص ١٦ .

إذا سميت بهـا آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ، وقد جمع من ذخائر المعلومات شأنه فى هذا الصدد مـا لا يوجد مجتمعاً فى كتـاب واحد [(١)] ، وقد احتوى هذا البحث على تعريف المعجزات وطرق اثباتها ، وعلى كثير من البحوث الكلامية والموضوعية والنكت اللطيفة .

ولم يكتف ابن تيمية فى هذا البحث ببيان تلك المعجزات الشهيرة التى تتحدث عنها كتب السيرة والكلام ، بل أنه وسع نطاق الأيات ودلائل النبوة إلى أن تضمن جميع السيرة وشمائلة التى هى أكبر حجة على النبوءة وأسطع برهان على النبوة المحمدية لدى المنصفين وأصحاب النظر والبصيرة ، كأنه يرتقى مع الشيخ الرومى على هذه النقطة ، الذى يقول ما معناه :

« كل قلب يتمتع بلذة العلم ويتحلى بالبصيرة يدرك مـا فى وجه النبى ﷺ وصوته معجزة » .

وقد عرض فى هذه المناسبة عصارة جيدة لسيرته ﷺ وشمائله ، إنه يوسع هذا النطاق ويقول :

« وسيرة الرسول ﷺ من آياته ، وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته ، وأمته من آياته ، وعلم أمته ودينهم من آياته ، وكرامات صالح أمته من آياته » [(٢)] .

ثورة الاسلام والأمة المحمدية معجزة بذاتها :

وبعد بيان عصارة السيرة الطيبة التى تبعث قرائتها إيماناً بأنه ﷺ نبى صادق مؤيد من الله ورسوله حق ، يقول :

« حتى ظهرت الدعوة فى جميع أرض العرب التى كانت مملؤة من عبادة الأوثان ومن أخبار الكهان وطاعة المخلوق فى الكفر بالخالق وسفك الدماء المحرمة وقطيعة الأرحام لا يعرفون آخرة ولا معاداً فصاروا أعلم أهل الأرض وأدينهم وأعدلهم وأفضلهم حتى أن النصارى لما رأوهم حين قدموا الشام قالوا ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء وهذه أثار علمهم وعملهم فى الأرض وأثار غيرهم يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين وهو ﷺ مع ظهور أمره وطاعة الخلق له وتقديمهم له على الأنفس والأموال ، مات ﷺ ولم

---

(١) الجواب الصحيح ج ٤ ص ٦٦ - ٢٢٤ .
(٢) أيضاً ج ٤ ص ٧٨ .

يخلف درهماً ولا ديناراً ولا شاه ولا بعيراً الا بغلته وسلاحه ودرعه مرهونه عند يهودى على ثلاثين وسقاً من شعير ابتاعها لأهله ، وكان بيده عقار ينفق منه على أهله والباقى يصرفه فى مصالح المسلمين فحكم بأنه لا يورث ولا يوخذ ورثته شيئاً من ذلك ، وهو فى كل وقت يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرمات ما يطول وصفه ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويشرع الشريعة شيئاً بعد شئ حتى أكمل الله دينه الذى بعث به »[1] .

« وأمته أكمل الأمم فى كل فضيلة ، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم ، وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ظهر أنهم أدين من غيرهم وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم فى سبيل الله وصبرهم على المكاره فى ذات الله ظهر أنهم أعظم جهاداً وأشجع قلوباً ، وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة أنفسهم بغيرهم يتبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم ، وهذه الفضائل به نالوها ومنه تعلموها وهو الذى أمرهم بها لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكميله كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة فكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم بعضها من التوراة وبعضها من الزبور وبعضها من النبوات وبعضها من المسيح وبعضها ممن بعده كالحواريين ومن بعد الحواريين وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى ادخلوا لما غيروا دين المسيح فى دين المسيح أموراً من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح .

وأما أمة محمد ﷺ فلم يكونوا يقرأون قبله كتاباً بل عامتهم آمنوا بموسى وعيسى وداوود والتوراة والانجيل والزبور إلا من جهته فهو الذى أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويقروا بجميع الكتب المنزلة من عند الله ونهاهم أن يفرقوا أحد من الرسل[2] .

إعجاز الشريعة المحمدية :

ويتحدث عن كمال الشريعة المحمدية فيقول :

« وجاءت شريعة أكمل شريعة لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف الا أمر به ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه لم يأمر بشئ فقيل ليته لم يأمر به ، ولا نهى عن شئ فقيل ليته لم ينه عنه ، وأحل الطيبات لم يحرم شيئاً منها كما حرم فى شرع غيره وحرم الخبائث لم يحل منها شيئاً كما استحله غيره ، وجمع محاسن ما عليه الأمم فلا

---

(١) أيضاً ج ٤ ص ٨١ .

(٢) أيضاً ج ٤ ص ٨٢ .

يذكر فى التوراة والأنجيل والزبور ونوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به على أكمل وجه ، وأخبر بأشياء ليست فى هذه الكتب فليس فى تلك إيجاب لعدل وقضاء بفصل وندب إلى الفضائل وترغيب فى الحسنات إلا وقد جاء به ، وبما هو أحسن منه وإذا نظر اللبيب فى العبادات التى شرعها وعبادات غيره من الأمم ظهر فضلها ورجحانها وكذلك فى الحدود والأحكام وسائر الشرائع »[1].

وبعد ما ذكر بصدد الموضوع غاية العبادات وتحدث عن مختلف المذاهب ووجهات النظر عنها تناول العبادات الاسلامية وبحث عن مقاصدها وأسرارها وفوائدها فى غاية من الحكمة، كما أثبت أن النبى ﷺ كان نموذجاً كاملاً للصدق والعدل ، وقد تجلى هذا الصدق والعدل فى خلفائه الراشدين وأصحابه الكرام فى حياتهم وحكومتهم وخلافتهم ومعاملتهم وسياستهم ، وعاشوا حياة كلها ورع وزهادة لا يوجد لها نظير فى تاريخ العالم[2].

الاعتقاد بالنبوة المحمدية واجب على كل مقر بالنبوة :

ويثبت الامام ابن تيمية بكلام واضح مؤيد بالدلائل أن كل عارف بمفهوم النبوة وقائل بها ومؤمن بأى نبى من الأنبياء لا يسعه إنكار النبوة المحمدية ، فإن الدلائل التى يعلم بها نبوة الأنبياء الآخرين يعلم بها نبوة محمد ﷺ بطريق الأولى ، فإن قال قائل أن نبوة الأنبياء تثبت بالمعجزات فإن معجزات النبى ﷺ أعظم وتواترها أبلغ ، والكتاب الذى جاء به أكمل، وأمته أفضل ، وشرائع دينه أحسن ، فيبطل بتكذيب نبوته جميع ما مع الناس من النبوات[3].

ويرى أن الإصرار على إثبات نبوات الأنبياء الآخرين وإنكار نبوة محمد ﷺ مثله كمثل الذى يقر بعظمة علماء الفن وإمامتهم وينكر زعيم ذلك الفن وأستاذه الأول ، إنه يضرب لذلك أمثلة عديدة طريفة ، يقول :

« وصار هذا كما لو قال قائل أن زفر وابن القاسم والمزنى والأثرم كانوا فقهاء وأبا حنيفة ومالكاً والشافعى وأحمد لم يكونوا فقهاء ، أو قال إن الأخفش وابن الأنبارى والمبرد كانوا نحاة والخليل وسيبويه والفراء لم يكونوا نحاة،أو قال إن صاحب الملكى والمسيحى ونحوهما

---

(١) الجواب الصحيح ج٤ ص ٨١ .

(٢) أيضاً ص ١٠٤ - ١١٩ .

(٣) أيضاً ص ١٨٠ .

ونحوهما من كتب الطب كانوا أطباء ، وبقراط وجالينوس ونحوهما لم يكونوا أطباء ، أو قال أن كوشيار والخرقى ونحوهما كانوا يعرفون علم الهيئة وبطليموس ونحوه لم يكن له علم بالهيئة ، ومن قال أن داود وسليمان ومليخا وعاموص ودنيال كانوا أنبياء ومحمد بن عبد الله لم يكن نبياً ، فتناقضه أظهر وفساد قوله أبين من هذا جميعه ، بل وكذلك من قال إن موسى وعيسى رسولان والتوراة والإنجيل كتابان منزلان من عند الله ومحمد ليس برسول والقرآن لم ينزل من الله ، فبطلان قوله فى غاية الظهور والبيان لمن تدبر ما جاء به محمد ﷺ ، وما جاء به من قبله وتدبر كتابه والكتب التى قبله وآيات نبوته وآيات نبوة هؤلاء وشرائع دينه وشرائع دين هؤلاء »(١) .

البعثة العامة لرسول الله ﷺ :

ومن الأفضل أن أختم هذا البحث بذكر دعوى النصارى التى ذكرها ابن تيمية فى أول كتابه ، وهى أن النبى ﷺ إنما كان قد بعث خصيصاً إلى العرب الجاهلين وهم الذين كانوا مطالبين بالإيمان به ، وإن النصارى غير مضطرين إلى الإيمان به ، فإن لم يؤمنوا به لا يؤاخذون على ذلك ، وهذه العقيدة شائعة بين النصارى العرب وعلمائهم اليوم أيضاً ، كما أن فى بلادنا الهند وجدت فى بعض الأوساط فكرة أن الاتباع الكامل للأديان السابقة يتكفل النجاة من النار ، ولا حاجة لمسيحى أو يهودى صادق أو رجل من غير المسلمين أن يؤمن بالنبوة المحمدية ، وبما أن هذا الاعتقاد الفاسد يقضى على جذور الدعوة الإسلامية وبعثة الرسول العامة ، وينسد به باب الدعوة والتبليغ للاسلام وتذهب الجهود التى بذلت فى نشر الاسلام سدى ، تصدى الامام ابن تيمية لرد هذا الاعتقاد الفاسد ، وركز كتابته فى دحض هذا الباطل وتحدث فى هذا الموضوع فى كتابه « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » فى الجزء الأول من الصفحة ٢٨ إلى صفحة ٢٣٠ ، وتناوله من الناحيتين العلمية والاستدلالية بأكمل وجه وأوسع طريق ، وهو مما يدل على قوة عارضته وتعمق علمه ، وقد جمع فى هذا البحث جميع نصوص الكتاب والسنة التى تقتضى على كل شبهة تتطرق إلى بعثة النبى ﷺ بأنها كانت تختص العرب وحدهم ، أو أن النجاة مأمولة من غير الإيمان بنبوته ، يقول فى موضع :

وقال ﷺ كان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة وقال تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السماوات والأرض ﴾ وقال تعالى :

---

(١) الجواب الصحيح ج ٤ ص ١٨٠ - ١٨١ .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ ، وفى القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن دعوة المشركين وعباد الأوثان وجميع الإنس والجن ما لا يحصى إلا بكلفة ، وهذا كله معلوم بالاضطرار من دين الاسلام فكيف يقال أنه لم يذكر أنه بعث إلا إلى العرب خاصة ، وهذه دعوته ورسله وجهاده لليهود والنصارى والمجوس بعد المشركين وهذه سيرته ﷺ فيهم ، وأيضاً فالكتاب المتواتر عنه وهو القرآن يذكر فيه دعاءه لأهل الكتاب إلى الإيمان به » (١) .

ويقول فى مكان آخر :

« فهذه الدلائل وأضعافها مما تبين أنه نفسه ﷺ أخبر أنه رسول الله إلى النصارى وغيرهم من أهل الكتاب وأنه دعاهم وجاهدهم وأمر بدعوتهم وجهادهم ، وليس هذا مما فعلته أمته بعده بدعة ابتدعوها كما فعلت النصارى بعد المسيح عليه السلام فإن المسلمين لا يجوزون لأحد بعد محمد ﷺ أن يغير شيئاً من شريعته فلا يحلل ما حرم ولا يحرم ما حلل ولا يوجب ما أسقط ولا يسقط ما أوجب ، بل الحلال عندهم ما حلله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله » (٢) .

نقد الشيعية وآرائها

كتاب مناهج السنة :

لقد قام الإمام ابن تيمية بالرد على الشيعية فى غير موضع من مؤلفاته وأدى حق الدفاع القوى عن السنة وعقائد أهل السنة وعن الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام رضى الله عنهم، وإلا أنه أفرد فى موضوع الرد على الشيعية كتاباً مستقلاً سماه «منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية » .

أما الباعث على هذا التأليف فهو أن العالم الشيعى المعاصر الكبير ابن المطهر الحلى ألف كتاباً ضخماً لولى نعمته ومخدومه الملك التاتارى « أوليجا خدا بنده خان » الذى كان قد تشيع بفضل جهوده التى بذلها فى دعوته إلى الشيعية ، وقد سمى هذا الكتاب باسم «مناهج الكرامة فى معرفة الإمامة » ، لاثبات الشيعية والإمامة والرد على السنية ، والخلافة.

---

(١) الجواب الصحيح ج ٤ ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) أيضاً ص ١١٧ - ١١٨ .

وقد وصل هذا الكتاب إلى الشام حيث اطلع عليه شيخ الإسلام ، وكان الشيعة يعتزون بهذا الكتاب ويظنون أن الرد عليه مستحيل ، ومعظم ما كان يحتوى عليه هذا الكتاب هو إثبات الإمامة لسيدنا على كرم الله وجهه وعصمة أهل البيت رضى الله عنهم ، كما بذلت فيه محاولة لتفضيل سيدنا على رضى الله عنه على غيره من الخلفاء وذكر فضائل الأئمة الاثنى عشر وامامتهم وعصمتهم ، مؤيداً كل ذلك بنصوص الكتاب والسنة ، مع توجيه المطاعن إلى الخلفاء الثلاثة والصحابة رضى الله عنهم مبرهناً عليها بالآيات والأحاديث والتاريخ والسير ، وقد تجلى فى كل ذلك ذكاء المؤلف وقوة استدلاله وتبحره العلمى بغاية من الوضوح والقوة ، واقتنع بأنه أقام بذلك الحجة على أهل السنة .

وبما أن المؤلف معتزلى العقيدة فى الأصول والعقائد كعامة المتأخرين من الشيعة تصدى للبحث فى الذات والصفات وفى عقائد أهل السنة وأصولهم بحثاً كلامياً فلسفياً ، وقد ألح أهل السنة على ابن تيمية بأن يؤلف رداً على هذا الكتاب ، ومعلوم أن هذا الكتاب يشمل أبحاثاً كثيرة لعلم الكلام والعقائد والفلسفة والتفسير والحديث والتاريخ والآثار ، فكان من المناسب جداً أن يقوم للرد عليه رجل يجمع بين النظرة العميقة الواسعة فى جميع هذه العلوم والمواضيع ، وبين النقد والمعرفة لها ، ومما لا يخفى أن للمؤلفين من الشيعة جرأة ومهارة فى وضع الأحاديث واختراع الرواية ، وكان علم الحديث قد توسع آنذاك ووضعت له مجموعات ودواوين كثيرة كان من الصعب أن يميز الموضوع فيها من الصحيح ، وأن تنقد الروايات فى ضوء مبادئ الجرح والتعديل وتوزن فى ميزان فن الرجال بغاية من الدقة والاتقان ، لذلك فكانت الحاجة ماسة إلى رجل نابغة فى علم الحديث ، متبحر فى أسماء الرجال ، مطلع على جميع ذخائر الحديث ، عارف بأحوال الروايات والرواة بحيث لا يمكن لبسها عليه ، كما يكون ذا اطلاع واسع على التاريخ الاسلامى حتى يستطيع أن يضع أصبعه على موطن كل خطأ تاريخى ولا يفوته أى افتراض أو اختلاف فى الرواية ، ومن المسلم المعلوم أن توجيه الاعتراض والنقد إلى شخصية تاريخية عمل سهل جداً من بين ذخائر التاريخ الواسعة ، أما تزكيتها والدفاع عنها فأمر صعب ، وكان من المواضع المعجب بها لدى الشيعة هو الطعن فى الصحابة رضى الله عنهم الذى كانوا يتخذونه مجالاً واسعاً لصب غيظهم وحقدهم الدفين ضد أصحاب الرسول ﷺ .

ومن حسن حظ المسلمين أن الله تعالى قيض فى نفس ذلك الزمن الذى ألف فيه هذا الكتاب عالماً من علماء أهل السنة كان يعتبر أمير المؤمنين فى الحديث فى عصره ، وقد عنى بالرد عليه وكانت مكتبة الحديث والرجال ككتاب مفتوح أمام عينيه ، ذلك الرجل الذى قيل

عنه فى معرفته بالحديث ، أن الحديث الذى لا يعرفه هو ليس بحديث ، والحقيقة أنه (ابن تيمية) أدى فرض الكفاية عن الأمة فى الرد على مطاعن الصحابة ، وقام بعمل تعذر على غيره من العلماء بعده ، ولا شك أن علماء الإسلام بعده إنما يستفيدون منه فى هذا الموضوع.

إن كتابه « منهاج السنة » [١] الذى ألفه رداً على الكتاب « منهاج الكرامة » لابن المطهر الحلى ، إنما يمتاز عن سائر مؤلفاته بميزة خاصة ، فمن أراد أن يطلع على تبحره العلمى وسعة نظره وحضور بديهته ، وقوة حفظ واستحضاره للمسائل ، ونضجه واتقانه وذكائه وألمعيته ، فليقرأ هذا الكتاب : ﴿ **يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون** ﴾ [٢].

العامل فى هذا الكتاب والباعث عليه

إن العامل الرئيسى فى تأليف هذا الكتاب عند ابن تيمية والباعث عليه فى الحقيقة هو أن صاحب « منهاج الكرامة » أطلق لسان الطعن بأسلوب شائن فى الخلفاء الراشدين والسابقين الأولين الذين يعتقدهم الإمام ابن تيمية - كسائر أهل السنة - أفضل الخلق بعد الأنبياء ، وأصلح أفراد النوع البشرى ، ولكن صاحب المنهاج أثبتهم شرار الخلق وأرذل الكائنات ، الأمر الذى أرجع ابن تيمية وجعله يعلن بصراحة أن مثل هذا الاعتقاد يرادف تقويض أركان الإسلام ويفتح باب الطعن والاعتراض على النبوة المحمدية ويؤدى إلى الالحاد والزندقة ، يقول فى موضع ما معناه :

« لولا أن هذا الرجل الجائر المتعدى حدود الأخلاق والحشمة لم يتناول الصحابة الكرام رضى الله عنهم بالنقد اللاذع ، أولئك الذين هم الرعيل الأول لأولياء الله وأئمة أهل الأرض وأفضل الخلق بعد الأنبياء ، ولولا أن انتقاده سببالفتنة فى الدين ، ووفر الحجة للكفار والمنافقين ، وأحدث الشكوك فى قلوب كثير من المؤمنين لم نر حاجة إلى كشف القناع عن نقد هذا الرجل أنصف الله من هذا الرجل وأتباعه فى العقيدة » .

---

(١) يحتوى هذا الكتاب على أربعة مجلدات بالقطع الكبير ، ويقع فى ١٢١٤ صفحة، طبع فى المطبعة الاميرية فى مصر باهتمام الشيخ مصطفى البابى الحلبي، وقد لخصه العلامة الذهبى باسم « المنتقي » الذى صدر حديثاً من مصر بعناية الشيخ محمد نصيف واهتمام الاستاذ محب الدين الخطيب .

(٢) النمل ١٨ .

الشيعة يرون اليهود والنصارى أفضل من خير الأمم :

وفى مناسبة أخرى يتحدث عن مطاعن الشيعة ونيلهم من مكانة الصحابة الكرام رضى الله عنهم فيقول : « وهذه الأمة خير الأمم وخيرها القرن الأول ، كان القرن الأول أكمل الناس فى العلم النافع والعمل الصالح ، وهؤلاء المفترون وصفوهم بنقيض ذلك بأنهم لم يكونوا يعلمون الحق ويتبعونه ، بل كان أكثرهم عندهم يعلمون الحق ويخالفونه كما يزعمونه فى الخلفاء الثلاثة وجمهور الصحابة والأمة ، وكثير منهم عندهم لا يعلم الحق بل اتبع الظالمين تقليداً لعدم نظرهم للمفضى إلى العلم ، والذى لم ينظره قد يكون لقصوره ونقص إدراكه ، وأدى أن منهم من طلب الأمر لنفسه بحق يعنى علياً ، وهذا مما علمنا بالاضطرار أنه لم يكن فلزم من ذلك على قول هؤلاء أن تكون الأمة كلها كانت ضالة بعد نبيها ليس فيها مهتد ، فتكون اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل خيراً منهم ، لأنهم كانوا كما قال الله تعالى : « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » وقد أخبر النبى ﷺ أن اليهود والنصارى افترقت على أكثر من سبعين فرقة فيها واحدة ناجية ، وهذه الأمة على موجب ما ذكروا لم يكن فيهم بعد موت النبى ﷺ أمة تقوم بالحق ولا تعدل به ، وإذا لم يكن ذلك فى خيار قرونهم ففيما بعد ذلك أولى ، فيلزم من ذلك أن يكون اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل خيراً من خير أمة أخرجت للناس »(١) .

خيار الامة شرارها عند الشيعة :

ويقول فى موضع آخر :

« فإنهم عمدوا إلى خيار أهل الأرض من الأولين والآخرين بعد النبين والمرسلين ، وإلى خيار أمة أخرجت للناس فجعلوهم شرار الناس ، وافتروا عليهم العظائم وجعلوا حسناتهم سيئاتهم ، وجاءوا إلى شر من انتسب إلى الإسلام من أهل الأهواء وهم الرافضة بأصنافها غاليها وإماميها وزيديها ، والله يعلم ، وكفى بالله عليماً ، ليس فى جميع الطوائف المنتسبة إلى الإسلام مع بدعة وضلالة شر منهم لا أجهل ولا أكذب ولا ظلم ولا أقرب إلى الكفر والفسوق والعصيان وأبعد عن حقائق الإيمان منهم ، فزعموا أن هؤلاء هم صفوة الله من عباده فإن ما سوى أمة محمد كفار ، وهؤلاء كفروا الأمة كلها أو ضللوها سوى طائفتهم التى يزعمون أنها الطائفة المحقة وأنها لا تجتمع على ضلالة فجعلوهم صفوة بنى آدم فكان مثلهم كمن جاء إلى غنم كثيرة فقيل له أعطنا خير هذه الغنم لنضحى بها فعمد

---

(١) منهاج السنة ج ١ ص ١٥٢ .

إلى شر تلك الغنم إلى شاة عوراء عجفاء عرجاء مهزولة لا نقى لها ، فقال : هذه خيار هذه الغنم لا تجوز الأضحية إلا بها ، وسائر هذه الغنم ليست غنماً وإنما هى خنازير يجب قتلها ولا تجوز الأضحية بها »[1] .

الامام الشعبى يقول :

يروى عن الشعبى أن اليهود والنصارى أعرف بمنزلة الأنبياء بالنسبة إلى الرافضة « سئلت اليهود من خير أهل ملتكم قالوا : أصحاب موسى ، وسئلت النصارى من خير أهل ملتكم قالوا : حوارى عيسى ، وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم قالوا : أصحاب محمد ، أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم »[2] .

المعاداة للسابقين الأولين والموالاة للكفار :

« وهذا دأب الشيعة دائماً يتجاوزون عن جماعة المسلمين إلى اليهود والنصارى والمشركين فى الاقوال والموالاة والمعاونة والقتال وغير ذلك ، ومن أضل من قوم يعادون السابقين ا‎الأولين من المهاجرين والأنصار ويوالون المنافقين والكفار »[3] .

ثم يقول بعد ما ذكره مناصرة الشيعة للكفار ومساعدتهم إياهم :

« وكثير منهم يواد الكفار من وسط قلبه أكثر من موادته للمسلمين ، ولهذا لما أخرج الترك الكفار من جهة الشرق وقتلوا المسلمين وسفكوا دماءهم ببلاد خراسان والعراق والشام والجزيرة وغيرها كانت الرافضة معاونة لهم على المسلمين ، وكذلك الذين كانوا بالشام وحلب وغيرهما من الرافضة كانوا من أشد الناس معاونة لهم على قتال المسلمين ، وكذلك النصارى الذين قاتلوا المسلمين بالشام كانت الرافضة من أعظم المعاونين لهم ، وكذلك إذا صار لليهود دولة بالعراق وغيره تكون الرافضة من أعظم أعوانهم فهم دائماً يوالون الكفار من المشركين واليهود والنصارى ويعاونونهم على قتال المسلمين ومعاداتهم »[4] .

العصبية والانحراف :

يذكر ابن المطهر الحلى فى إحدى المناسبات فى كتابه خواجه نصير الدين الطوسى فيبالغ

---

(١) منهاج السنة ج ٣ ص ٤٠ .
(٢) أيضاً ج ١ ص ٦ .
(٣) أيضاً ج ٢ ص ٨٢ .
(٤) أيضاً ص ٨٤ .

فى تقديسه وتعظيمه ، ويضفى عليه الألقاب العظيمة فيقول : « شيخنا الإمام الأعظم خواجه نصير الملة والحق والدين محمد بن الحسن الطوسى قدس الله روحه » وهنالك جاشت فى ابن تيمية حميته الدينية فلن يلبث أن تناول خواجه نصير الدين الطوسى وفضائحه ومؤامراته على قتل الخليفة العباسى وصنيعته فى مجزرة بغداد ، وأفكاره وعقائده الملحدة ، ويقول فى غاية من الاستغراب :

« ومن العجب أن هذا المصنف الرافضى الكذاب المفترى يذكر أبا بكر وعمر وعثمان وسائر السابقين والتابعين وسائر أئمة المسلمين من أهل العلم والدين بالعظائم التى يفتريها عليهم هو وإخوانه ويجئ إلى من قد اشتهر عند المسلمين محاربته لله ورسوله ، يقول عنه : « قال شيخنا الأعظم » ويقول « قدس الله روحه » مع شهادته عليه بالكفر وعلى أمثاله ومع لعنه وطائفة خيار المؤمنين من الأولين والاخرين ، وهؤلاء داخلون فى معنى قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً** ﴾ [(1)] .

تناقضات الشيعة :

يقول الإمام ابن تيمية : « ثم من جهل الرافضة أنهم يعظمون أنساب الأنبياء ، آباءهم وأبناءهم ويقدحون فى أزواجهم ، كل ذلك عصبية واتباع للهوى ، حتى يعظمون فاطمة والحسن والحسين ويقدحون فى عائشة أم المؤمنين » [(2)] .

ومن تناقض الشيعة أنهم يبالغون فى تعظيم محمد بن أبى بكر (رضى الله عنه) ويقدحون فى شأن والده أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، يقول ابن تيمية :

« والرافضة تغلو فى تعظيمه على عادتهم الفاسدة فى أنهم يمدحون رجال الفتنة الذين قاموا على عثمان ويبالغون فى مدح من قاتل مع على حتى يفضلون محمد بن أبى بكر فيلعنون أفضل الأمة بعد نبيها ، ويمدحون ابنه الذى ليس له صحبة ولا سابقة ولا فضيلة ، ويتناقضون فى ذلك فى تعظيم الأنساب »[(3)] .

---

(١) أيضاً ص ١٠٠ .

(٢) أيضاً ص ١٩٣ .

(٣) أيضاً ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

البغض للصحابة الكرام دليل على ما فى القلب من غل وخبث :

إنه يقول ما معناه : « أكبر خبث للقلوب ومرضها أن تنطوى على بغض أولئك الرجال العظام الذين كانوا خيار المؤمنين ورعيل أولياء الله الأول وتاج مفرقهم ، ولذلك فإن فى الفيئ سهماً لأولئك الذين ليس فى قلوبهم غل للمهاجرين والانصار والسابقين الأولين بل يدعون ويستغفرون لهم ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [1] .

الطاعن فى الشيخين لا يخلو من الحالين :

لا يجترئ على الطعن على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما إلا نوعان من الرجال ، أما منافق زنديق ، عدو للأسلام الذى يتخذ الطعن عليهما ذريعة للطعن على شخصية رسول الله ﷺ وعلى الاسلام ، وفى هذه الحال عاش المعلم الأول للرافضة وتلك هى معاملة أئمة الباطنية ، وأما جاهل غالٍ فى اتباع هواه وجهله ، وهذه هى حال العامة من الشيعة ، إذا كانوا مسلمين فى باطنهم يقول فى « منهاج السنة » :

« قد عرف بالتواتر الذى لا يخفى على العامة والخاصة أن أبا بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم كان لهم بالنبى ﷺ اختصاص عظيم وكانوا من أعظم الناس اختصاصاً به وصحبة له وقرباً اليه واتصالاً به ، وقد صاهرهم كلهم وما عرف عنه أنه كان يذمهم ولا يلعنهم بل المعروف عنه أنه كان يحبهم ويثنى عليهم ، وحينئذ فإما أن يكونوا على الاستقامة ظاهراً وباطناً فى حياته وبعد موته ، وإما أن يكونوا بخلاف ذلك فى حياته أو بعد موته ، فإن كانوا على غير الاستقامة مع هذا التقرب فأحد الأمرين إما عدم علمه بأحوالهم أو مداهنته لهم ، وأيهما كان فهو من أعظم القدح فى الرسول ﷺ كما قيل :

فإن كنت لا تدرى فتلك مصيبة   وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم

وإن كانوا انحرفوا بعد الاستقامة فهذا خذلان من الله للرسول فى خواص أمته وأكابر أصحابه ومن قد أخبر بما سيكون بعد ذلك أين كان عن علم ذلك وأين الاحتياط للأمة حتى لا يولى مثل هذا أمرها ومن وعد أن يظهر دينه على الدين كله فكيف يكون أكابر خواصه مرتدين ، فهذا ونحوه من أعظم ما يقدح به الرافضة فى الرسول كما قال مالك وغيره ، إنما أراد هؤلاء الرافضة الطعن فى الرسول ليقول القائل رجل سوء كان له أصحاب

---

(١) الحشر ص ١٠ .

سوء ، ولو كان رجلاً صالحاً لكان أصحابه صالحين ، ولهذا قال أهل العلم أن الرافضة دسيسة الزندقة [(١)] .

فضائل الصحابة ومناقبهم متواترة قطعية :

يعتقد الإمام ابن تيمية أن عدالة الصحابة الكرام أساس مهم للاسلام ، إنه يؤمن بصدقهم وثقتهم ، ويراهم أصدق مثال وأروع نموذج لتعاليم الاسلام وتربية الرسول ﷺ ، وأطيب ثمرة لصحبته ﷺ ، وإن فضل الصحابة لثابت عنده بالقطعية والتواتر وبنصوص الكتاب وآياته وصحيح الأحاديث والروايات بحيث لا يتطرق إليه شك بأى رواية تاريخية أو حديث غريب شاذ ، إنه يقول :

« وإذا كان كذلك ما علم بالكتاب والسنة والنقل المتواتر من محاسن الصحابة وفضائلهم لا يجوز أن يدفع بنقول بعضها متقطع وبعضها بحرف وبعضها لا يقدح فيما علم فإن اليقين لا يزول بالشك ، ونحن قد تيقنا ما دل عليه الكتاب والسنة واجماع السلف قبلنا وما يصدق ذلك من المنقولات المتواترة عن أدلة العقل من أن الصحابة رضى الله عنهم أفضل الخلق بعد الأنبياء فلا يقدح فى هذا أمور مشكوك فيها ، فكيف إذا علم بطلانها » [(٢)] .

الصحابة الكرام ليسوا معصومين عن الخطأ :

إنه يعتقد أن الصحابة الكرام لم يكونوا معصومين من الخطأ كالرسول ﷺ ، كأن يستحيل صدور الذنوب منهم ، ولكنه يعتقد أنهم كانوا أعدل الأمة وأتقاها ، وأصدق الناس وأشدهم أمانة ، فإن صدرت منهم أخطاء أو ذنوب فقد تبعها حسنات وأعمال ترضى الله ورسوله كفرت عنهم سيئاتهم ، وعلى كل فإن كفة حسناتهم وأعمالهم الصالحة راجحة على تقصيراتهم وأخطائهم ، يقول :

« وقد قدمنا أنّا لا ندعى عصمة فى أحد بعد رسول الله ﷺ من الذنب فضلاً عن الخطأ فى الاجتهاد ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ **والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ، لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ، ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملواونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا**

---

(١) منهاج السنة ج ٤ ص ١٢٣ .

(٢) أيضاً ج ٣ ص ٢٠٩ .

يوعدون﴾[1] .

لا نظير لهم فى التاريخ :

إنه يصرح بأنه ليس هناك جيل فى التاريخ البشرى من حيث المجموع أجمل سيرة وأروع سلوكاً من الصحابة الكرام رضى الله عنهم عدا الأنبياء عليهم السلام على رغم جميع الزلات والتقصيرات التى هى من خواص البشر فإن وجد فى حياتهم آثار من الأخطاء والزلات فمثلها كمثل الثوب الأبيض يخالطه شئ من السواد فى بعض أجزائه ، والذنب فى الحقيقة يرجع إلى أولئك المنتقدين الذين يدركون النقط السوداء فى الثوب الأبيض ولا يدركون بياضه ، أما حياة الطوائف الأخرى فكلها سوداء ويخالطها نقط بيضاء فى بعض جوانبها ، أنه يقول :

« وخيار هذه الأمة هم الصحابة فلم يكن فى الأمة أعظم اجتماعاً على الهدى ودين الحق ولا أبعد عن التفرق والاختلاف منهم ، وكل ما يذكر عنهم مما فيه نقص فهذا إذا قيس إلى ما يوجد فى غيرهم من الأمة كان قليلاً من كثير ، وإذا قيس ما يوجد فى الأمة إلى ما يوجد فى سائر الأمم كان قليلاً من كثير ، وإنما يغلط من يغلط أنه ينظر إلى السواد القليل فى الثوب الأبيض ولا ينظر إلى الثوب الأسود الذى فيه بياض ، وهذا من الجهل والظلم بل يوزن هؤلاء بنظرائهم فيظهر الفضل والرجحان ، وأما ما يقترحه كل أحد فى نفسه مما لم يخلق فهذا لا اعتبار به فهذا يقترح معصوماً من الأئمة وهذا يقترح ما هو كالمعصوم وإن لم يسمه معصوماً فيقترح فى العالم والشيخ والأمير والملك ونحو ذلك مع كثرة علمه ودينه ومحاسنه وكثرة ما فعل الله على يديه من الخير يقترح مع ذلك ألاّ يكون قد خفى عليه شئ ولا يخطئ فى مسألة وأن يخرج عن حد البشرية فلا يغضب بل كثير من هؤلاء يقترح فيهم ما لا يقترح فى الأولياء »[2] .

ويضغط ابن تيمية على نقطة مهمة وهى أن من يكون مطلعاً على التاريخ وتكون قد مرت عليه أحوال أمم وشعوب وملل مختلفة ، وتجارب جماعات بشرية متعددة يتيقن أنه لا جماعة أكثر اتحاداً واتباعاً للحق وأبعد عن الفرقة والفتن وأشد نفوراً من النفسانية وحب الدنيا من جماعة الصحابة الكرام رضى الله عنهم ، يقول :

« فمن استقرأ أخبار العالم فى جميع الفرق تبين له أنه لم يكن قط طائفة أعظم اتفاقاً

---

(١) منهاج السنة ج ٣ ص ٢٤٢ .

(٢) أيضاً ص ٢٤٢ .

على الهدى والرشد وأبعد عن الفتنة والتفرق والاختلاف من أصحاب الرسول ﷺ الذين هم خير الخلق بشهادة الله لهم بذلك إذ يقول تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾[1] .

كل خير يوجد لدى المسلمين إنما هو بفضل الصحابة الكرام :

وقد أصاب الامام ابن تيمية حينما قال : كل خير فيه المسلمون إلى يوم القيامة من الإسلام والايمان والقرآن والعلم والمعرفة ، والعبادات وعوامل الخير والتوفيق إنما هو ببركة ما قام به الصحابة رضوان الله عليهم من الجهاد والعمل والاخلاص وعلو الهمة ، ونتيجة لتضحياتهم وايثارهم وقدسيتهم ، يقول فى غاية من الحماس : « وأما الخلفاء والصحابة فكل خير فيه المسلمون إلى يوم القيامة من الإيمان والإسلام والقرآن والعلم والمعارف والعبادات ودخول الجنة والنجاة من النار وانتصارهم على الكفار وعلو كلمة الله فإنما هو ببركة ما فعله الصحابة الذين بلغوا الدين وجاهدوا فى سبيل الله ، وكل مؤمن آمن بالله فللصحابة رضى الله عنهم عليه فضل إلى يوم القيامة ، وكل خير فيه الشيعة وغيرهم فهو ببركة الصحابة ، وخير الصحابة تبع لخير الخلفاء الراشدين فهم كانوا أقوم بكل خير فى الدين والدنيا من سائر الصحابة »[2] .

خلافة سيدنا أبى بكر الصديق دليل على النبوة والصدق :

وقد صدق الامام ابن تيمية عندما قال أن خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه دليل على كمال النبوة وشهادة على صدق النبوة أيضاً ، فقد كانت طبيعته ﷺ طبيعة النبوة لا طبيعة السياسة ولا شبه بينه وبين ملوك العالم وسلاطينه الذين يختارون أولادهم أو أفراد أسرهم خلفاءهم وأولياء عهدهم ، فلو كانت عنده شائبة من الملوكية أو ايثار لقرابة لوجد هناك أفراد كثيرون من بنى هاشم - عدا على بن أبى طالب وعباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما - يستخلفهم رسول الله ﷺ وأسس ملوكية خاصة بأسرته ، وحصر تلك الغلبة والعزة التى أكرمه الله بها فى قبيلته وأسرته ، إنه يقول :

« ثم خلافة أبى بكر وعمر هى من كمال نبوة محمد ﷺ ورسالته ومما يظهر أنه رسول حق ليس ملكاً من الملوك فإن عادة الملوك ايثار أقاربهم والموالاة بالولايات أكثر من غيرهم ، وكان ذلك مما يقيمون به ملكهم ، وكذلك ملوك الطوائف كبنى بوية وبنى سلجق وسائر

---

(١) أيضاً ص ٢٤١ .

(٢) أيضاً ص ٢٤٥ .

الملوك بالشرق والغرب والشام واليمن وغير ذلك ، وهكذا ملوك الكفار من أهل الكتاب والمشركين كما يوجد فى ملوك الفرنج وغيرهم وكما يوجد فى آل جنكسخان بأن الملوك تبقى فى أقارب الملك ويقولون هذا من العظم وهذا ليس من العظم أى من أقارب الملك .

وإذا كان كذلك فتولية أبى بكر وعمر بعد النبى ﷺ دون عمه العباس وبنى عمه على وعقيل وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وأبى سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب وغيرهم ودون سائر بنى عبد مناف كعثمان بن عفان وخالد بن سعيد بن العاص وابان بن سعيد بن العاص وغيرهم من بنى عبد مناف الذين كانوا أجل قريش قدراً وأقرب نسباً إلى النبى ﷺ، من أعظم الأدلة على أن محمداً عبد الله ورسوله وأنه ليس ملكاً حيث لم يقدم فى خلافته أحداً لا بقرب نسب منه ولا بشرف بيته بل إنما قدم بالايمان والتقوى ، ودل ذلك على أن محمداً ﷺ وأمته من بعده إنما يعبدون الله ويطيعون أمره ، لا يريدون ما يريده غيرهم من العلو فى الأرض ، ولا يريدون أيضاً ما أبيح لبعض الأنبياء من الملك ، فإن الله خير محمداً بين أن يكون عبداً رسولاً وبين أن يكون نبياً فاختار أن يكون عبداً رسولاً ، وتولية أبى بكر وعمر بعده من تمام ذلك فإنه لو أقام أحداً من أهل بيته لكانت شبهة لمن يظن أنه جمع المال لورثته » (١) .

عصبية النسب الجاهلية :

الواقع أن الفرق التى تدعى وصاية على بن أبى طالب رضى الله عنه ، والتى لا تستسيغ أن ينال الخلافة أحد آخر بالرغم من وجود ابن عمه الحقيقى وصهره إنما يتغلب عليها لون الجاهلية بأوسع معناه ، وهى تعيش فى عصبية جاهلية للنسب والقرابة وتتقاصر عن ادراك أن المناصب والمنازل لا تعطى على أساس النسب والقرابة بل على أساس الكفاءة والفضائل والجدارة التى توجد فى الانسان ، وكانت الأمم كلها سواء فى الهند أو العرب أو الفرس تصطبغ بهذه الصبغة الخاصة ، ولذلك فإن الذين حكموا بقطعية أن الخليفة لابد هو على بن أبى طالب رضى الله عنه إنما فعلوا ذلك بحكم عادتهم القومية وطبائعهم الجاهلية ، من غير أن يدركوا مكانة الأنبياء عليهم السلام وطبيعتهم وسماحتهم وهمتهم العالية التى يعيشون فيها ، يقول الامام ابن تيمية :

« كلام الرافضة من جنس كلام المشركين الجاهلية يتعصبون للنسب والآباء لا للدين ، ويعيبون الانسان بما لا ينقص إيمانه وتقواه وكل هذا من فعل الجاهلية » (٢) .

---

(١) منهاج السنة ج ٤ ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٢) أيضاً ص ٢٨٧ .

انتساب الرافضة إلى ولد الحسين ومدحهم لهم مصيبة عليهم :

يرى ابن تيمية أن الرافضة أصدقاء حمقى لأهل البيت ، فإن مبالغتهم فى أمر أهل البيت وغلوهم ، ونسبة الأحداث والروايات المزورة اليهم تنال من سمعتهم ، وتحط من شأنهم ، يقول :

« من المصائب التى ابتلى بها ولد الحسين انتساب الرافضة اليهم وتعظيمهم ومدحهم لهم، فأنهم يمدحونهم بما ليس بمدح ويدعون لهم دعاوى لا حجة لها ، ويذكرون من الكلام ما لو لم يعرف فضلهم من كلام غير الرافضة لكان ما تذكره الرافضة بالقدح أشبه منه بالمدح» (١) .

ويقول فى موضع آخر :

« ولكن القوم جهال بحقيقة المناقب والمثالب والطرق التى يعلم بها ذلك » (٢) .

نتائج العصبية :

استطاع مؤلف « منهاج الكرامة » أن يجمع قدراً كبيراً من الآيات والأحاديث والروايات كدليل على امامة سيدنا على رضى الله عنه وفى مناقب أئمة أهل البيت رضى الله عنهم ، إن نظرة عابرة فى هذه الآيات والأحاديث والروايات تبين مدى أضرار العصبية التى تنحرف بالمرء من الجادة الصحيحة إلى ضلال وجهل ، إن معظم هذه الروايات إما لا علاقة لها بأهل البيت بتاتاً ، أو إنها تتناقض مع المعانى التى يريد أن يثبتها منها ، كما أن أكثرها ضعيفة وموضوعة وقد وصفها ابن تيمية بأنها « الروايات المسّيبة التى لا زمام لها ولا خطام» وقد بلغ مؤلف « منهاج الكرامة » فى ذلك من الوقاحة والجرأة مبلغاً لا يتصوره العقل ، نسب كثيراً من هذه الروايات إلى الصحيحين ، وكثيراً منها إلى مسند أحمد بن حنبل ، وجاء ابن تيمية فكشف عنها القناع وأثبت أنها لا توجد لا فى الصحيحين ولا فى المسند ، وأثبت أن بعضاً منها موضوعة لا توجد فى أية مجموعة من الأحاديث ولا فى دواوين السنة ، وبما أن هذه الفرقة أجهل الناس بالكتاب والسنة فإنها لا تستطيع أن تفهم مصطلحات عادية فلا تتردد شيئاً فى الكذب والتزوير بعض الأحيان .

أما بخصوص الآيات فقد جاء المؤلف فى تفسيرها بما لا يقل عن الملح الخرافية ، وما أن يقرأ أحد تفسيره للآيات الا ويتذكر الملحة المعروفة التى تدور حول : ساغب سئل عن اثنين

---

(١) منهاج السنة ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) أيضاً ص ١٢٦ .

كم يكون بعد الضرب فى اثنين فقال أربعة أرغفة ، وقد أدرج المؤلف فى كتابه أربعين آية ويعتقد أنها نزلت فى سيدنا على رضى الله عنه ، نذكر منها البعض :

الآية ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً** ﴾ يذكر المؤلف فى تفسيره هذه الآية حديثاً لأبى نعيم يفيد أنها نزلت بعد خطبة غديرخم وقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر على إكمال الدين واتمام النعمة ورضا الرب برسالتى وبالولاية لعلى من بعدى » .

يثبت ابن تيمية على طريقة المحدثين أن هذا الحديث موضوع باجماع أهل الفن ، ولا يوجد فى أى كتاب من كتب الحديث الموثوق بها ، ثم يثبت عن طريق التاريخ والتفسير ويقول : « إن كتب الصحاح والمسانيد والتفسير تؤكد أن هذه الآية إنما نزلت فى عرفة وهو واقف بها ، وقال رجل من اليهود لعمر بن الخطاب رضى الله عنه يا أمير المؤمنين آية فى كتابكم تقرأونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك عيداً ، فقال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه أية آية هى ؟ قال قوله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** ﴾ فقال عمر : إنى لأعلم أى يوم نزلت وفى أى مكان ، نزلت يوم عرفة بعرفة ورسول الله ﷺ واقف بعرفة ، يقول ابن تيمية : « وهذا مستفيض من وجوه أخرى وهو منقول فى كتب المسلمين الصحاح والمسانيد والجوامع والسير والتفسير وغير ذلك ، وهذا اليوم كان قبل يوم غديرخم بتسعة أيام ، فإنه كان يوم الجمعة تاسع ذى الحجة ، فكيف يقال : أنها نزلت يوم الغدير » .

وأما ما جاء فى هذه الرواية من هذا اللفظ وهو قوله : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله ، كذب باتفاق أهل المعرفة بالحديث » ويقول : إن دعاء النبى ﷺ مجاب ، وهذا الدعاء ليس بمجاب فعلم أنه ليس من دعاء النبى ﷺ .
وقال مؤلف « منهاج الكرامة » أن قوله تعالى ﴿ **مرج البحرين يلتقيان بينهم برزخ لا يبغيان** ﴾ على وفاطمة بينهما برزخ لا يبغيان النبى ﷺ ، وأول « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » الحسن والحسين .

يقول ابن تيمية رداً على هذا الكلام :

« إن هذا وأمثاله يقول من لا يعقل ما يقول ، وهذا بالهذيان أشبه منه بتفسير القرآن وهو من جنس تفسير الملاحدة والقرامطة الباطنية للقرآن بل هو شر من كثير منه » وقد ذكر بعد ذلك ستة وجوه تكذب هذا الرأى :

أحدها : إن هذا فى سورة الرحمن وهى مكية باجماع المسلمين ، والحسن والحسين إنما ولدا فى المدينة ، والثانى : الله ذكر أنه مرج البحرين هذا فى آية أخرى فقال فى الفرقان : ﴿ **وهو الذى مرج البحرين هذا عذاب فرات ، وهذا ملح أجاج** ﴾ فلو أراد بذلك علياً وفاطمة لكان ذلك ذماً لأحدهما باجماع أهل السنة والشيعة ، والثالث : أنه لو أريد على وفاطمة لكان البرزخ هو النبى ﷺ بزعمهم أو غيره هو المانع لأحدهما أن ينبغى على الآخر وهذا بالذم أشبه منه بالمدح »[1] .

وهكذا فإن هذا الجزء من كتاب « منهاج الكرامة » ملئ بالغرائب والعجائب ، وقد تصدى ابن تيمية للرد عليه فى ضوء الحديث والفقه والتاريخ والنقد بما يتبين به مدى ذكائه ووفرة علمه وغزارة مادته وقوة مناظرته ، أنه يقول وهو ينتقد دلائل المؤلف « فضل على وولايته لله وعلو منزلته عند الله معلوم عند الناس - ولله الحمد - من طرق ثابتة أفادتنا العلم اليقينى لا يحتاج معها إلى كذب ولا إلى ما لا يعلم صدقة »[2] .

والجزء المهم الآخر من كتاب ابن تيمية هو ما يبحث فيه عن « منهاج الكرامة » ويرد على المطاعن التى يتناول بها الصحابة الكرام رضى الله عنهم بوجه عام ويطعن بها فى الشيخين بوجه خاص ، وفى أبى بكر الصديق رضى الله عنه بوجه أخص ، وهذه المطاعن والايرادات على شخصية الصحابة والشيخين مأخوذة من القرآن أيضاً كما يزعم المؤلف الشيعى ، ومن الأحاديث وكتب السير والتاريخ أيضاً ، وهى دليل على أن العداوة لا تترك أى إنسان مهما كان عاقلاً ومتعلماً إلا وتعميه ونورد فيما يلى نموذجين لهذه المطاعن :

إن الآية الشهيرة فى القرآن التى تعتبر أكبر دليل على فضل أبى بكر الصديق رضى الله عنه ومنزلته السامية التى يتفرد بها لا يعادله فيها أى فرد من أفراد الأمة وهى قوله تعالى: ﴿**إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الدين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا** ﴾ .

يقول صاحب « منهاج الكرامة » أنه لا فضل له فى الغار لجواز أن يستصحبه حذراً منه لئلا يفشى سره ، وأيضاً فإن الآية تدل على نقيضه لقوله « لا تحزن » فإنه يدل على خوفه وقلة صبره،وعدم يقينه بالله تعالى وعدم رضاه بمساواته النبى ﷺ وبقضاء الله وقدره ، وأيضاً فإن القرآن حيث ذكر إنزال السكينة على رسول الله ﷺ أشرك معه المؤمنين إلا فى

---

(١) منهاج السنة ج ٤ ص ٦٧ - ٦٨ .

(٢) منهاج السنة ج ٤ ص ١٧٦ .

هذا الموضع ولا نقيض أعظم منه »[1] .

وقد أجاب عنه ابن تيمية أولاً باثبات المناقب والفضائل الكثيرة التى جمعها الله تعالى فى هذه الآية لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وبأن هذه المعية التى أكرم الله بها أبا بكر الصديق رضى الله عنه إنما كنت خاصة به ، وأما قول ابن المطهر الحلى : « الجواز أن يستصحبه حذراً منه لئلا يظهر أمره » يدل على أن النبى ﷺ لم يكن يثق به ولا كان مطمئناً من قبله « فمعلوم أن أضعف الناس عقلاً لا يخفى عليه حال من يصحبه فى مثل هذا السفر الذى يعاديه فيه الملأ الذين هو بين أظهرهم ويطلبون قتله ، وأولياؤه هناك ، لا يستطيعون نصره فكيف يصحب واحداً ممن يظهر له موالاته دون غيره وقد أظهر له هذا حزنه وهو مع ذلك عدو له فى الباطن والمصحوب يعتقد أنه وليه وهذا لا يفعله إلا أحمق الناس وأجهلهم ، فقبح الله من نسب رسوله الذى هو أكمل الخلق عقلاً وعلماً وخبرة إلى مثل هذه الجهالة والغباوة »[2] .

ويقول ابن تيمية :

« ولقد بلغنى عن مالك المغول خربنداه الذى صنف له هذا الرافضى كتابه هذا فى الإمامة أن الرافضة لما صارت تقول له مثل هذا الكلام أن أبا بكر كان يبغض النبى ﷺ وكان عدوه ، ويقولون مع هذا أنه صحبه فى سفر الهجرة الذى هو أعظم الأسفار خوفاً قال كلمة تلزم عن قولهم الخبيث وقد برأ الله ورسوله منها ، وكان قليل العقل ولا ريب أن من فعل ما قالته الرافضة فهو قليل العقل وقد برأ الله ورسوله وصديقه من كذبهم »[3] .

ثم تناول ابن تيمية صاحب كتاب « منهاج الكرامة » جزءاً جزءاً ، رد عليه بتفصيل ، وذكر المواضع التى جاء فيها ذكر الحزن والخوف فى القرآن الكريم ، وأن الحزن والخوف إنما ثبتا لأولى العزم من الرسل والأنبياء وكبار الأولياء والصلحاء وأفراد أهل البيت ، وأما قول الحلى أن القرآن حيث ذكر إنزال السكينة على رسول الله ﷺ أشرك معه المؤمنين يوهم أنه ذكر ذلك فى مواضع متعددة وليس كذلك بل لم يذكر ذلك إلا فى قصة حنين كما قال تعالى : ﴿ ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم

---

(١) أيضاً ص ٢٣٩ .

(٢) أيضاً ج ٤ ص ٢٥٥ .

(٣) منهاج السنة ج ٤ ص ٢٥٦ .

تروها ﴾ فذكر إنزال السكينة على الرسول والمؤمنين بعد أن ذكر توليتهم مدبرين »[1] .

وقد ذكر إنزال السكينة على المؤمنين وحدهم فى مواضع عديدة من القرآن ، وتناول ذلك بالبحث والتفصيل .

والنموذج الثانى لهذا التعصب والجهل الأعمى لما جاء فى كتب السير أن النبى ﷺ عندما كان فى العريش يوم بدر كان أبو بكر رضى الله عنه أنيسه ، يقول الحلىّ :

« وأما كونه أنيسه فى العريش يوم بدر فلا فضل فيه لأن النبى ﷺ كان أنسه بالله مغنياً له عن كل أنيس ، لكن لما عرف النبى ﷺ أن أمره لأبى بكر بالقتال يؤدى إلى فساد الحال حيث هرب عدة مرار فى غزواته »[2] .

وقد حرّكت ابن تيمية هذه التهمة فثارت فيه حماسة الإيمان والصدق ورد عليه بقوله « الجواب أن يقال لهذا المفترى الكذاب ما ذكرته من أظهر الباطل بوجوه : أحدها : أنه يقول « هرب عدة مرار فى غزواته » يقال له هذا الكلام يدل على أن قائله من أجهل الناس بمغازى رسول الله ﷺ وأحواله ، والجهل بذلك غير منكر من الرافضة فإنهم من أجهل الناس بأحوال الرسول وأعظمهم تصديقاً بالكذب فيها وتكذيباً بالصدق منها ، وذلك أن غزوة بدر هى أول مغازى القتال لم يكن قبلها لرسول الله ﷺ ولا لأبى بكر غزاة مع الكفار أصلاً ، وغزوات القتال التى قاتل فيها النبى ﷺ تسع غزوات ...... وأما الغزوات التى لم يقاتل فهى نحو بضع عشرة ، وأما السرايا فمنها ما كان فيه قتال ومنها ما لم يكن فيه قتال ، وبكل حال فبدر أول مغازى القتال باتفاق الناس .... وليس قبلها غزوة ولا سرية كان فيها قتال إلا قصة بنى الحضرمى ولم يكن فيها أبو بكر ، فكيف يقال أنه هرب قبل ذلك عدة مرات فى مغازيه .

الثانى : أن أبا بكر رضى الله عنه لم يهرب قط حتى يوم أحد لم ينهزم لا هو ولا عمر .... فمن أثبت ذلك عليهما هو المدعى لذلك فلابد من إثبات ذلك بنقل يصدق .

الثالث : أنه لو كان فى الجبن بهذه الحالة لم يخصه النبى ﷺ دون أصحابه بأن يكون معه فى العريش ، بل لا يجوز استصحاب مثل هذا فى الغزو ، فإنه لا ينبغى للامام أن يقدمه على سائر أصحابه ويجعله معه فى عريشه »[3] .

---

(١) أيضاً ص ٢٧٢ .

(٢) أيضاً ص ٢٨٤ .

(٣) منهاج السنة ج ٤ ص ٨٤ - ٢٨٥ .

التناقض فى سيدنا على رضى الله عنه :

يتحدث ابن تيمية عن سيدنا على رضى الله عنه ويشبه الرافضة بالنصارى : فكما أن النصارى اتخذوا أربابهم ورهبانهم أرباباً من دون الله واتخذوا المسيح ابن الله ثم صوروا حادث صلبه بحيث إنه إنما يبدو إنساناً عاجزاً لا يملك من أمره شيئاً ، ويستهدف لكل إهانة وذل واستهزاء وسخرية ، كذلك الرافضة الذين خلعوا على سيدنا على رضى الله عنه صفات تثبت أن مكانته أرفع من مكانة النبى ﷺ ولولاه لم يزدهر الإسلام ولم ينتشر فى الآفاق ولم ينهزم الكفر ، ثم أثبتوا عجزه وضعفه بازاء الخلفاء الثلاثة إلى أنه لم يستطع أن يستنكر ما قد كان يراه خلافاً لضميره وعقيدته ، ويحتمل كل إهانة وذلة لنفسه ولأهل البيت من غير أن يحارب ذلك أو يدافع عنه ، فهذا تناقض صريح ، يعرفه كل ذى عقل ، يقول ابن تيمية :

« هؤلاء الرافضة يجمعون بين النقضين لفرط جهلهم وظلمهم يجعلون علياً أكمل الناس قدرة وشجاعة حتى يجعلوه هو الذى أقام دين الرسول وأن الرسول كان محتاجاً إليه ، ويقولون مثل هذا الكفر إذ يجعلونه شريكاً لله فى اقامة دين محمد ، ثم يصفونه بغاية العجز والضعف والجزع والتقية بعد ظهور الإسلام وقوته ودخول الناس فيه ، ومن المعلوم قطعاً أن الناس بعد دخولهم فى دين الاسلام أتبع للحق منهم قبل دخولهم فيه ، فمن كان مشاركاً لله فى اقامة دين محمد حتى قهر الكفار وأسلم الناس ، كيف لا يفعل هذا فى قهر طائفة بغوا عليه هم أقل من الكفار الموجودين عند بعثة الرسول ، وأقل منهم شوكة وأقرب إلى الحق منهم» [(١)] .

مبحث الامامة :

تناول ابن تيمية مبحث الامامة بغاية من التفصيل ، وأنكر بقوة ما يقوله الإمامية فى تعريف معنى الامامة ، واعتبارها ركناً من أركان الدين ، وود على جميع الدلائل التى يستدلون بها على اثبات الإمامة عقلاً ونقلاً ، ولا سيما عقيدة الامام الغائب فقد استهزأ بها وأثبت أن هذه العقيدة لا تثمر سوى الفساد والخلاف والبطالة والتعطل» [(٢)] .

الشيعة لا تعتنى بالكتاب والسنة :

يقول ابن تيمية « والرافضة لا تعتنى بحفظ القرآن ومعرفة معانيه وتفسيره وطلب الأدلة

---

(١) أيضاً ص ٥٦ .

(٢) أيضاً ج ٣ ص ٥٠ - ٢٤٩ .

الدالة على معانية ، ولا تعتنى بآثار الصحابة والتابعين حق تعرف مآخذهم ومسالكهم بل عمدتها آثار تنقل عن بعض أهل البيت ، فيها صدق وكذب »[١] .

تعطيل الشيعة المساجد ورفضهم الجمعة والجماعة :

ويقول : « وكذلك الرافضة غلوا فى الرسل بل فى الأئمة حتى اتخذوهم أرباباً من دون الله فتركوا عباده الله وحده لا شريك له التى أمرهم بها الرسل ، فتجدهم يعطلون المساجد التى أمر الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، فلا يصلون فيها جمعة ولا جماعة ، وليس لها عندهم كبير حرمة ، وإن صلوا فيها صلوا فيها وحداناً ، ويعظمون المشاهد المبنية على القبور فيعكفون عليها مشابهة للمشركين ، ويحجون إليها كما يحج إلى البيت العتيق»[٢] .

متأخرو الشيعة أتباع للمعتزلة :

ويقول شيخ الاسلام : « وهم فى دينهم لهم عقليات وشرعيات ، فالعقليات متأخروهم فيها أتباع المعتزلة إلا من تفلسف منهم فيكون إما فيلسوفاً وإما ممتزجاً من فلسفة واعتزال ويضم إلى ذلك الرفض مثل مصنف هذا الكتاب »[٣] .

فإن مؤلف كتاب « منهاج الكرامة » قد أثار فى هذا الموضوع بحوثاً للعقائد والكلام يتجلى فيها لون الاعتزال والفلسفة بوضوح ، وقد رد عليها جميعاً ابن تيمية بغاية من التفصيل ويتضمن كلامه هذا بحوثاً فلسفية ، وكلامية عميقة ، وبما أن شيخ الاسلام غواص فى بحور المعقول والمنقول كليهما تناول الموضوع كعادته بشرح واف وإيضاح كاف[٤]، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وتوصل إلى نتيجة أن اطلاع هذه الفرقة على العلوم العقلية عابر سطحى ، حتى أن علماءهم لا يعدون تلاميذ الابتدائية فى هذا العلم .

التاريخ الماضى :

لقد أشار ابن تيمية فى مواضع متعددة من مؤلفاته إلى أن الشيعة فى كل دور من أدوار التاريخ«يوالون أعداء الدين الذين يعرف كل أحد معاداتهم من اليهود والنصارى والمشركين،

---

(١) أيضاً ص ٤٠ .
(٢) منهاج السنة ج ١ ص ١٣١ .
(٣) أيضاً ج ٣ ص ٤٠ .
(٤) أيضاً ص ٣٠ - ١٢٩ .

وليس لهم سعى إلا فى هدم للاسلام ونقض عراه وإفساد قواعده » ، حتى اضطر أخيراً إلى أن يصرح فيقول : « فأيامهم فى الإسلام كلها سود »[1] .

أهل السنة على طريق عادل :

يعتقد ابن تيمية أن أهل السنة هم وحدهم الذين يأخذون بالقصد والعدل فى طريقهم من بين جميع فرق المسلمين ، وهم الذين يعتبرون بمعزل عن كل افراط وتفريط ، لا تعارض عندهم بين حب أهل البيت وتعظيم الصحابة الكرام رضى الله عنهم ، انهم يجمعون بين هاتين النعمتين وكلتا الحسنيين ، وذلك هو الاسلام الصحيح ، أنه يقول :

« وأما أهل السنة فيتولون جميع المؤمنين ويتكلمون بعلم وعدل ليسوا من أهل الجهل ولا من أهل الأهواء ، ويتبرءون من طريقة الروافض والنواصب جميعاً ويتولون السابقين الأولين كلهم ، ويعرفون قدر الصحابة وفضلهم ومناقبهم ويرعون حقوق أهل البيت التى شرعها الله لهم »[2] .

---

(١) أيضاً ج ٤ ص ١١١ .

(٢) أيضاً ج ١ ص ١٦٥ .

تجديدُ علومِ الشريعَةِ
وتنشيط الفِكر الإسْلامى

العصر الذى عاش فيه ابن تيمية :

كانت العلوم الشرعية والدينية قد توسع نطاقها فى العصر الذى ولد فيه ابن تيمية سيما علوم التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه ، فقد تكونت لها مكتبة واسعة إذا اطلع أحد على علم من هذه العلوم ، وعثر على الذخائر العلمية الموجودة آنذاك - ولو باجمال - كان يعتبر ذلك مأثرة علمية كبرى لرجل متوسط ، أما عصر ابن تيمية فقد امتاز بوجود عدد وجيه من علماء ومدرسين كان مطلعاً على هذه المكتبة الواسعة ، كما وجد من بينهم عدد أتقن جزءاً كبيراً من هذه المكتبة وحفظها فى الصدور ، نظراً إلى ما كان يتمتع به من قوة الذاكرة والاشتغال بالعلم وكثرة المطالعة والدراسة والتدريس ، وكان يتمكن من إعادة ما كان يحفظه من العلم والاستفادة منه بدون تكلف كلما ألجأتهم الضرورة إلى المناظرة والتدريس ، فمثلاً العلامة كمال الدين بن الزملكانى ، تقى الدين بن السبكى ، شمس الدين الذهبى ، أبو الحجاج المزى كلهم نموذج لذلك ، إن دراسة كتاب « طبقات الشافعية الكبرى » تفيد تقدير المدى الذى بلغ إليه هؤلاء العلماء من استحضار العلم والتبحر فيه ، وكثرة المحفوظات والتفنن فى العلم ، وقد كان عديد من رجال العلم فى ذلك العصر ممن استحقوا أن يسموا دائرة معارف العلوم الشرعية بكل جدارة .

إن هؤلاء الرجال وإن كانوا متوسعين فى العلم والمعلومات إلا أن كان النقل فيها غالباً على العقل والتفكير ، فكانت الحاجة ماسة إلى رجال لهم نظرة ناقدة وخبرة تامة بهذه الذخائر العلمية كلها ، يحملون قوة الموازنة بين آراء المتقدمين وأفكارهم ، كما يتفردون بآرائهم ونظرياتهم الخاصة فى المسائل والمشكلات ، لقد كان المتأخرون من العلماء فى ذلك العصر يكتفون بالتبحر فى التراث العلمى الذى كان قد خلفه المتقدمون ، والاشتغال بشرحه وتوضيحه واختصاره وتلخيصه ، فكان العمل العلمى راكداً ينال من زيادة قيمة ، ولا كانت تتوسع آفاقه ، وكانت المكتبة العلمية تشكو فقدان الكتب التى تتسم بالأصالة والاجتهاد ، أما الكتب التى كانت تعتبر منعدمة النظير فى ذلك العصر فلم تكن لها ميزة سوى أن مؤلفيها كانوا قد جمعوا فيها المواد المبعثرة ورتبوا المعلومات المتفرقة السابقة بتنسيق جيد ، أو أنها كانت شرحاً جيداً لمتن فقهى سابق .

خصائص ابن تيمية العلمية والتأليفية :

تبحر ابن تيمية - بفضل ذكائه وقوة ذاكرته الموهوبة - فى هذه الذخائر العلمية بأكملها، واستساغها فكرياً ، واستفاد منها فى مؤلفاته استفادة كاملة ، إلا أن نفسه الطموح المضطربة ، وعقله النادر الكبير ، وقلمه السيال البليغ ، لم يكن كل ذلك يقنعه بأن يكتفى بالنقل والرواية والشرح والتلخيص أو الاختبار ، فما كاد يفارقه علمه العميق بكتاب الله تعالى ، واطلاعه الواسع الصحيح على مقاصد الشريعة وملكته الراسخة فى أصول الفقه وأصول التشريع فى أى مرحلة تأليفه ، وكل موضوع يريد أن يؤلف فيه ينفخ فيه روحاً جديدة بعلمه الناضج الطرئ ، ولذلك لا نجد أى كتاب من كتبه يخلو من حقائق علمية جديدة وبحوث ناقدة ، ومباحث أصولية جديدة ، بل إن مؤلفاته تشق طريقاً جديداً لفهم الكتاب ، وتفتح باباً جديداً إلى إدراك مقاصد الشريعة .

وقد سبق أن تناولنا كتابين ضخمين من كتبه بالنقد والتلخيص فى تفصيل ، وهما «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» و « منهاج السنة » وله عدا هذين الكتابين عدة مؤلفات تشهد بأفكاره وآرائه الاجتهادية وذكائه الخارق وقوة نقده ، وتهيئ للعقول فى كل عصر غذاء دسماً صالحاً من العلم والفكر ، ويجد فيها أهل العلم فى كل زمان بغيتهم من المعلومات الجديدة ، والدلائل الطريفة ، والتحقيقات الحديثة ، فمثلاً « كتاب النبوءات » و « الرد على المنطقيين » و « اقتضاء الصراط المستقيم » [1]، ليست من المؤلفات العلمية القيمة ذات المستوى العالى والمتفردة فى مواضيعها فحسب ، بل إنها كتب تفتح آفاق الفكر وتعد العقول للتفكير ، وتعرض عليها مجالات جديدة ، للمسائل العلمية والقضايا الفكرية .

التفسير :

خص ابن تيمية التفسير بتأليفه وتفكيره ، كموضوع مفصل ، وقد غلب عليه ذوق التفسير إلى حد لا يخلو أى كتاب من كتبه عن مواد التفسير ، والاستدلال بالآيات ، وشرحها وتفسيرها إنه لا يمر بآية إلا ويتناولها بالشرح والتفسير ، ولذلك فإن الذخائر

---

(١) إن هذا الكتاب وإن كان يدور حول عدم التمسك بتقاليد غير المسلمين وشعائرهم والامتناع عن الاشتراك فى مناسباتهم وأعيادهم الدينية ، إلا أن الكتاب يحتوى - كما هو المألوف من المؤلف-على مباحث وعلوم نفسية ، ويصلح أن يحتل محلاً عالياً بين مؤلفات شيخ الإسلام ، أصدرت إحدى طبعاتها جمعية أنصار السنة فى القاهرة .

التفسيرية التى تركها تربو على ثلاثين مجلداً ، كما يقول تلاميذه ، ولا شك فإنها إذا جمعت لتكونت ذخيرة تفسيرية لها قيمتها واعتبارها ، ولكان تفسير ابن تيمية من أجود التفاسير وأجمعها لما قد رزقه الله تعالى من نعمته التعمق فى الفكر والنظر ، وسلامة الذوق، والتبحر الكامل فى الروايات والاستشهاد بها ، وتطبيق الآيات على الحياة ، والاطلاع على المجتمع الذى عاش فيه ، وروح الدعوة ودوافع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وحمية الدين .

ولو أن تفسيره الكامل المتصل مفقود ، ولكن تفسيره لسور عديدة مطبوع موجود ، وهو يكفى لتقدير خصائصه التفسيرية ، وقد صدر تفسير سورة الأخلاص ، وتفسير المعوذتين ، وتفسير سورة النور منذ زمن طويل فى مصر كما صدرت مجموعة من التفسير مأخوذة من كتبه المختلفة ، منذ زمن قريب [١] ، لقد عرفت صلته بالتفسير واشتغاله به فى حياته أيضاً، وكانت تعتبر ميزته العلمية ، ولما نودى للصلاة عليه بعد وفاته سمى بهذا الأسم «الصلاة على ترجمان القرآن» ، وله رسالة وجيزة فى أصول التفسير وهى رسالته الأولى الخاصة بأصول التفسير فيما نعلم .

الحديث :

وإن لم يكن له كتاب مستقل فى فن الحديث وشرحه ، وكان هذا الفن قد بلغ ذروة الاتساع والكمال فى القرنين السابع والثامن حيث لم تعد هناك حاجة إلى تأليف أو شرح للحديث ، إلا أن مؤلفاته تحوى مواد غزيرة لأصول الحديث وأسماء الرجال والجرح والتعديل ونقد الحديث وفقه الحديث ، حتى إذا جمعت فى كتاب مستقل تكونت ذخيرة قيمة ، وكانت تأليفاً ضخماً ، وبالأخص فان آرائه فيما يتصل بالأحاديث الموضوعية تبلغ من الصراحة والتحقيق إلى حد يصعب العثور عليه فى مكان آخر ، والمواد التى نطلع عليها حول هذا الموضوع فى كتابه « منهاج السنة » وما بحثه هو عن عشرات من الأحاديث لمشهورة المتداولة كل ذلك ذخيرة نادرة قيمة .

أصول الفقه :

كان هذا الموضوع مما يرغب فيه ويتذوقه ، وقد حصلت له فيه ملكة راسخة ومكانة جتهادية ، ولذلك نرى أن مؤلفاته كلها تحتوى على هذه المباحث الأصولية ، ولا سيما كتابه « اقتضاء الصراط المستقيم » ومجموع فتاواه ينطويان على أكبر مقدار من المباحث

---

١) صدر هذا التفسير بأسم « تفسير ابن تيمية » من المطبعة القيمة فى بمبائى .

الأصولية ، كمـا أن له رسائل مستقلة فى هذا الموضوع ، كـ « رسـالة القياس » و« منهاج الوصول إلى علم الأصول » رما إلى ذلك .

علم الكلام :

لو ذهبنا نحلل مؤلفات ابن تيـمية لوجدنا علم الكلام والعقائد يشـغل نصف كتاباته أو ثلثين منها ، ورسـائله التى ألفها فى هذا الموضـوع وعزاها [1] إلى مدن و أمكنة مـختلفة كشرح الاصبهانية والرسالة الحمـوية ، والتدمرية ، والواسطية ، والكيلانية ، والبغدادية ، والأزهرية ، وما إلى ذلك ، خـير دليل على مـعرفة أفكاره الأصـلية ، وقوة اسـتدلاله ، وحميته الدينية ، ومرآته لعلمه وذكائه .

الفقه :

أما فقه كل مذهب فكان قد تناوله المدونون فى عصره بما لا يترك أى مجال للزيادة فيه، إلا أن ابن تيـميـة درس كثـيراً من المسـائل والأحكام فى ضوء الكتـاب والسنة والإجـماع والقياس وأصول الفقه ، وقام بالاستنباط والاجتهاد فيها ، وحاول التوفيق بين الفقه والسنة وجعل الفروع والآراء الفقـهية تابعة للأحاديث الصحـيحة ، واجتهد فى المسـائل المستحدثة والأحوال والمقـتضـيات الجديدة ، واسـتنبط أحكامهـا من الكتاب والسنة ، شـأن الفقـهاء والقضـاة فى كل عصر ، الذين يجـتهدون فى المشكلات والمسـائل المعاصرة ، وقـد كانت شروط الاجتهاد تتوفر فيه كما يقول بعض أهل البصيرة من العلماء ، وخلف ذخيرة واسعة من فتاواه واختياراته وهذه الفتاوى تحفظها أربـعة مجلدات كبار، وهى ليست مجموعة من المسائل والأحكام الفـقهيـة فحسب بـل إنها ذخيـرة قيمة مـن المباحث الأصوليـة والمسائل العلمية[2] .

تأثير ابن تيمية فى القرون المتأخرة :

قام ابن تيـمية بتجديـد علوم الشريعة بجنب ما أنجـز من جلائل الأعمال العلمـية التى

---

(١) سمى رسائله باسم المدينة التى ورد منها استفتاء ، بوجه عام .

(٢) صدرت مجـموعة فتـاوى شيخ الإسلام فى أربعة مجـلدات عام ١٣٢٦ هـ فى مصر واهتم بطبـعها الشيخ فرج الله الـكردى ، وهى تقع فى ١٥٨٦ صفحة ، وفى آخـر المجلد الرابع منها ملحق باسم «الاختيارات العلـمية» وهو يحتوى على اختيـاراته وترجيحاته ، والجزء الخامس من الفـتاوى يتعلق بمسائل علم الكلام والعقـائد ورسائلهما ، أما مجـموعة فتاوى شيخ الإسـلام التى أصدرتها المملكة السعودية والتى تحتوى على ٣٠ مجلداً فهى بمثابة مكتبة بأسرها ودائرة معارف مستقلة .

كانت تتسم بالسعة والعمق ، وبالامتزاج بين العقل والنقل ، إنه قضى على ذلك الجمود والاضمحلال اللذين كانا قد تسربا إلى الفكر الإسلامى ،وفتح أبواباً جديدة للفكر ، وخلف وراءه ذخائر من العلوم والمؤلفات التى توسع آفاق الذهن ، وتنشط العقل وتحرك القلب ، والتى مثلت دوراً رائعاً فى ايجاد طبقة عالية من المؤلفين والمفكرين والدعاة والمصلحين فى كل دور من أدوار التاريخ ، ففى الحركة الفكرية والاصلاحية التى نشطت منذ القرن الثامن الهجرى يرجع الفضل الأكبر إلى شيخ الإسلام ابن تيمية وله الحظ الأوفر فيها ، إنه يستحق بكل جدارة أن يعتبر فى أعلام المجددين للعلوم والأفكار الإسلامية ، وبالأخص فإن مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية عامل قوى من بين العوامل الأخرى للحركات الإصلاحية العلمية والفكرية التى نشأت فى أرجاء العالم الإسلامى المختلفة منذ القرن الثانى عشر الهجرى .

مصدر العقائد والحقائق الدينية الصحيح :

ومن مآثر ابن تيمية التجديدية المستقلة أنه قام ببعث الفكر الاسلامى - ولعل هذه المأثرة من أجل أعماله الفكرية التى تميز بها فى حياته - ومما لا يخفى أن الإسلام يمتاز بالنسبة إلى النظم الفكرية الأخرى بأنه يقوم على أساس الوحى ، والنبوة المحمدية ، وأن عقائده وحقائقه لا تبتنى على القياس والتجارب والظن والتخمين ، والذكاء الإنسانى والبحث والجدال ، بل تبتنى على تعليم الله تعالى وتبليغ رسوله ﷺ ، والذى قاله ﷺ وشرحه حول ذات الله وصفاته ، وأفعاله ، وعن بدء العالم ومنتهاه ومبدئه ومصيره وعن المعاد والآخرة ، وخواص الأعمال ونتائجها ، وعن الأمور مما وراء الطبيعة التى لها علاقة بالدين، وإنما هى العقائد والحقائق ولا سبيل إلى معرفتها والإيمان بها فى الحقيقة سوى الوحى والنبوة وذلك لأن الطريق إلى التوصل إلى المعلومات والحقائق كلها هى المبادئ الأولية ، وهذه المبادئ الأولية لهذه الحقائق الدينية والغيبية لا يطلع عليها أحد ، إن الوسيلة الوحيدة للاطلاع على أمر جديد هى أن ترتب المعلومات بحيث يتيسر الوصول إلى المجهول، إلا أننا لسنا مطلعين على المبادئ الأولية لهذه الحقائق الغيبية والدينية كما أننا نحن مطلعون على المعلومات الأولية عن الطبيعيات والماديات ، إن ذات الله تعالى وصفاته وراء الحواس والعقل الإنسانى يعجز الإنسان عن أية تجربة أو مشاهدة عنها ، ولا أساس هناك للقياس فيها « ليس كمثله شئ » ولذلك فلا مناص فى ذلك من الاعتماد على تلك الطائفة من البشر التى أكرمها الله تعالى بعلم ذاته وصفاته ونور قلوبها بنور الهداية والإيمان ، كما لا يسعنا الإنكار والبحث بازائها فى أى شئ منها ، وتلك هى الحقيقة التى تحدث عنها القرآن بلسان أحد الرسل ، فقال « قال أتحاجونى فى الله وقد هدان » .

عجز الفلسفة واندحارها :

عبثاً حاولت الفلسفة البحث فى ذات الله تعالى وصفاته ورغم وجود هذه الحقيقة الواضحة ولكنه حادث غريب فى تاريخ العلم الإنسانى ، فقد واصلت الفلسفة جهودها فى هذا المضمار إلى عدة آلاف من السنين ، وركزت طاقتها وذكاءها على موضوع لم تكن تعرف مبادئه ومقدماته ، ولم تكن عندها ذريعة للايمان به وأخذ فكرة حتمية عنه ، ولكنها

رغماً من ذلك قامت بالتحقيق والتدقيق فى هذا الموضوع ، من غير تلكؤ ولا تردد كم يفعل علماء اللغة والاشتقاق حول كلمة يبحثون عنها ، وعلماء النحو والتصريف في الاعراب والتصريف ، بل كما يفعل علماء الكيمياء فى الأدوية والعقاقير ، وجمعت ركام من المباحث والتفاصيل والتحقيق والتقعير حتى ظن القارئ أن البحث كله يدور حول شخصية عادية هى فى تصرف الإنسان ومتناول يده .

تفلسف المتكلمين :

وأغرب من هذا كله أن متكلمى الاسلام الذين كانوا يهدفون رد الفلسفة والدفاع عن الاسلام أخذوا مصطلحات الفلسفة وافتراضاتها ذاتها ، وبدأوا يبحثون عن ذات الله تعالى وصفاته فى اعتماد وتفصيل كأنهم يتحدثون عن شخصية مشاهدة ملموسة ، وعن مسائل طبعية ، ولقد كان هؤلاء المتكلمون تصدوا للرد على الفلسفة ونفى نظراتها وآرائها ولكنهم تاهوا فى غابة الفلسفة وافتراضاتها ومصطلحاتها الخاطئة ، وإنهم نسوا فى سورة الجدال والنقاش أن يلوموا الفلسفة على أخطائها الأساسية ، وأن يحولوا دون بحثها حول مسائل ليست من شأنها ، ولا تجدر بأن تكون مركز نظرها وبحثها فى حال ما ، إنهم نسوا أن يوصوا الفلسفة بتحديد مضمارها فى الجدال والنقاش حول الرياضيات والطبعيات ، وأما التدخل فى موضوع الإلهيات فخروج عن مركزها ، وتعد عن حدها ، و « تدخل غير معقول » وأن يخاطبوا الفلاسفة بخطاب القرآن البليغ الحكيم ﴿ **ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾[1] .

انحطاط الفكر الاسلامى فى القرون المتأخرة :

بلغ انحطاط الفكر الاسلامى فى القرون المتأخرة إلى حد اعتبروا فيه نفس الدلائل وترتيب المقدمات التى كان المتكلمون قد رتبوها ، والتى قامت على أساس الفلسفة أصلا لاثبات ذات الله ، وحدوث العالم ، والتوحيد ، والمعاد ، وجميع العقائد الأساسية ، فقد كان المتكلمون والنظار كلهم يعتبرون العقل مقياساً أصيلاً سوى طائفة قليلة من المحدثين والفقهاء ويجعلون كتب المتكلمين مصدراً للعقائد والأحكام عوضاً عن الكتاب والسنة . وكانوا يؤولون الآيات والأحاديث تفادياً من ايرادات الفلسفة أو ابقاء على بعض أصول الفلسفة الثابتة ومطبقين الفلسفة على الدين ، وقد بلغ إعجابهم بالفلسفة مبلغاً كانوا يتناولون فيه الآيات والأحاديث بالتأويل والتوجيه بدلاً من إنكار الفلسفة والتغيير فى علم

---

(١) آل عمران - ٦٦ .

الكلام ، يتحدث الإمام ابن تيمية مشيراً إلى هذه العقلية :

« ومثل هذا القانون الذى وضعه هؤلاء يضع كل فريق لأنفسهم قانوناً فيما جاءت به الأنبياء عن الله فيجعلون الأصل الذى يعتقدونه ويعتمدونه هو ما ظنوا أن عقولهم عرفته ويجعلون ما جاءت به الأنبياء تبعاً ، فما وافق قانونهم قبلوه وما خالفه لم يتبعوه »[١] .

وبعد اعتبار هذه العقائد والمباحث الكلامية مقياساً وأصلاً ، والاعتقاد بأن هذه المباحث تحمل فى جنبها علوماً عالية جمة وحكماً ومعارف عميقة كان يحدث هناك صراع ، وهو أن هذه العلوم والمعارف إذا كانت أصيلة لا ينبغى أن يخلو عنها كلام النبى ﷺ وأصحابه الكرام رضى الله عنهم بل ويجب أن يحتوى عليها وعلى جميع هذه التحقيقات والتدقيقات، والذين كانوا معجبين بالفلسفة وعلم الكلام ، وكانت عقولهم مسحورة بهم يقولون بصراحة حيناً ، وبكناية حيناً آخر ؛ إن ذلك العصر كان عصراً بدائياً ، وكان الناس فى ذلك العصر بسطاء لم يكن لديهم اطلاع على هذه الحقائق والعلوم العميقة والدقيقة ، أما المعترفون بقيمة الفلسفة وعظمة الصحابة رضى الله عنهم فكانوا يعيشون فى اضطراب وحيرة من غير أن يقطعوا فى ذلك رأياً ، يشير ابن تيمية إلى الحالة النفسية لهذه الطوائف ويقول :

« من اعتقد أن ذلك من أصول الدين وأنه يشتمل على العلوم الكلية والمعارف الإلهية والحكمة الحقيقية أو الفلسفة الأولية صار كثير منهم يقول أن الرسول لم يكن يعرف أصول الدين أو لم يبين أصول الدين ومنهم من هاب النبى ، ولكن يقول : الصحابة والتابعون لم يكونوا يعرفون ذلك ، ومن عظم الصحابة والتابعين مع تعظيم أقوال هؤلاء يبقى حائراً كيف لم يتكلم أولئك الأفاضل فى هذه الأمور التى هى أفضل العلوم ، ومن هو مؤمن بالرسول معظم له يستشكل كيف لم يبين أصول الدين مع أن الناس إليها أحوج منهم إلى غيرها »[٢] .

ويتقدم فيقول عنهم : « وهو أنهم جعلوا قول الله ورسوله من المجمل الذى لا يستفاد منه علم ولا هدى فجعلوا المتشابه من كلامهم هو المحكم ، والمحكم من كلام الله ورسوله هو المتشابه »[٣] .

---

(١) صريح المعقول ج ١ ص ٣ .
(٢) صريح المعقول ج ١ ص ١٢ .
(٣) أيضاً ص ١٦٤ .

الغلو فى تعظيم العقل وتقديسه :

لقد قام الفلاسفة والمتكلمون كلهم بتقديس العقل ورفع قيمته ، واعتباره ميزاناً وحكماً فى مسائل الذات والصفات حتى كان يبدو أن العقل له الخبرة الكاملة للحكم فى هذه المسائل شأن الحواس الخمس فى حكمها فى المحسوسات ، وشأن التجربة والاستقراء فى الأمور العلمية ، وقد أنتج هذا الوضع أن العقل صار أساساً لاثبات الشريعة سواء فى الامور الشرعية أو الفقهية ، ولكن لم يقم هناك خلال القرون الستة الإسلامية أى عالم أو مفكر يحارب هذا الوضع ، ويرفع لواء الثورة على هذا العقل صاحب الحكم والنفوذ اللا محدود .

تصدى حجة الإسلام الإمام الغزالى - رحمه الله - للجهاد ضد تدخل الفلسفة فى الالهيات وجعلها هدفاً بكتاباته التى نالت من شأن الفلسفة استهانتها ، إلا أنه لم يرفع صوتاً عالياً ضد العقل وحكومته المطلقة ، وضد تدخله فى أمور ليست من شأنه ، إن الإمام ابن تيمية هو أول رجل - فيما نعلم - ثار على هذا الوضع الشائن ، واحتج عليه فى غاية من الاستنكار وحاربه بكل جرأة وشجاعة ، وأثبت أن مصدر العقائد والحقائق إنما هو الوحى والنبوة والكتاب والسنة أما العقل فليس الا مؤيداً لها وليس أساساً فى أى حال، يقول فى بعض كتاباته :

« إن العقل ليس أصلاً لثبوت الشرع فى نفسه ولا معطياً له صفته لم تكن له ولا مفيداً له صفة كمال »[(1)] .

منصب العقل ومكانته :

إنه يعتقد أن « العقل متول ولى الرسول ، ثم عزل نفسه لأن العقل دل على أن الرسول ﷺ يجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر والعقل يدل على صدق الرسول دلالة عامة مطلقة ، وهذا كما أن العامى إذا علم عين المفتى ودل غيره عليه وبين له أنه عالم مفت ثم اختلف العامى الدال والمفتى وجب على المستفتى أن يقدم قول المفتى فإذا قال له العامى أنا الأصل فى علمك بأنه مفت فإذا قدمت قوله على قولى عند التعارض قدحت فى الأصل الذى به علمت أنه مفت قال له المستفتى أنت لما شهدت أنه مفت ودللت على ذلك شهدت بوجوب تقليدك »[(2)] . أنه يعتقد أيضاً أن العقل لا يسعه إلا الاعتماد على الرسول ﷺ

---

(1) أيضاً ص ٤٦ .

(2) صريح المعقول ج ١ ص ٧٧ .

وطاعته بعد مـا اعترف بالرسالة ، كما أنه يجب تقليد صـاحب الصناعة فى كل صناعة ، وقبول كلامه من غير تردد ، مع الاعتـقاد بأن ما يقوله هو القول الفصل فى ذلك ، كذلك الرسول هو سند فى الأمور الغيبية والأحكام والشرائع وفيـما بعد الطبعيات ، وكلامه فصل فى كل ذلك ، يقول :

« فإذا علم الرجل بالعـقل أن هذا رسول الله وعلم أنه أخبـر بشيئ ووجد فى عـقله ما ينازعه فى خبـره كان عقله يوجب عليه أن يـسلم موارد النزاع إلى من هو أعلم به منه وألا يقدم رأيه على قـوله ويعلم أن عقله قـاصر بالنسبـة إليه ، وأنه أعلم بالله تعالى وأسـمائه وصفـاته واليوم الآخر منه ، وأن التفـاوت الذى بينهما فى العلم بذلك أعظم من التـفاوت الذى بينهما فى العلم بذلك أعظم من التفـاوت الذى بين العامة وأهل العلم بالطب ، فإذا كان عقله يوجب أن ينقاد لطبـيب يهودى فيما أخبره به من مـقدرات من الأغذية والأشربة والأضمدة والمسهـلات واستعمالها على وجه مخـصوص مع ما فى ذلك من الكلفة والألم لظنه أن هذا أعلم بهـذا منى وأنى إذا صدقتـه كان ذلك أقرب إلـى حصول الشـفاء لى مع علمه بأن الطبيب يخطئ كـثيراً ، وأن كثيراً من الناس لا يشفى بما يصـفه الطبيب بل يكون استعـماله لما يصفه سـبباً فى هلاكه ، ومع هذا يقـبل قوله ويقلده وإن كان ظنه واجـتهاده يخالف وصـفه فكيف حال الخلق مع الرسل عليـهم الصلاة والتسليم ، والرسل صـادقون مصـدقون لا يجوز أن يكون خـبرهم على خلاف مـا أخبروا به قط وأن الذين يعـارضون أقوالهم بعقولهم عندهم من الجهل والضلال »[(١)] .

الإيمان بالرسول واجب من غير شرط :

إن المعجبين بالفلسفة والعقلانية تكونت لهم عقلية خاصة فى قبول أمور الشريعة ورفضها فالأمور الشرعية التى كانت توافق عقولهم وفلسفتهم قبلوها وترددوا فى قبول ما كان يصادم عقولهم ومسلمات الفلسفة ، ورأوا فيه تعـقدات كثيرة ، والذين كانوا متجرئين ولا يبالون بالحيطة يرفضون كل ما لا تستسيغـه عقليتهم الخاصة ، ويقولون أنه لابد من الانسجام بين العقل والشريعة ، وبما أن هذا الأمر يضاد العـقل لا يجدر بالقبول ، أما من كانوا يأخذون بشئ من الحيطة فى ذلك فيلجأون إلى التأويل والتوجيه مهما كان ذلك مستحيلاً وبعيداً عن القياس .

لقد أثبت ابن تيمية فى مواضع كثيرة أن الإيمان بالرسول واجب لا محالة من غير شرط

---

(١) أيضاً ص ٧٩ .

ولا قيد ، وأن مكانة الرسـول الصحيحة ومنـصبه الذى يتبوؤه ليـوجبان ذلك ، وذلك هو الإيمان فى الحقـيقـة أما الاشتـراط فى تصديق الرسـول والإيمان به ، فليس من الإيمان فى شئ، ويقول :

« ففى الجملة لا يكون الرجل مؤمناً حتى يؤمن بالرسول إيماناً جازماً ليس مشروطاً بعدم معارض ، فمتى قال أو من يخبـره إلا أن يظهر له معارض يدفع خبره لم يكن مؤمنا به ، فهذا أصل عظيم تجب معرفته »[1] .

ويقول فى مكان آخر :

كان من المعلوم بالاضطرار من دين الاسـلام أنه يجب على الخلق الإيمان بالرسول إيمانا مطلقاً جازمـا عاماً بتصديقه فى كـل ما أخبر به وطاعته فى كل أمـر ، وأن كل ما عارض ذلك فهو باطل ، إن من قال يجب تصديق ما أدركـته بعقلى ورد ما جاء به الرسول لرأيي وعقلى وتقديم عقلى على ما أخبر به الرسول مع تصديقى بأن الرسول صادق فيما أخبر به فهو متناقض فاسد العقل ملحد فى الشرع ، وأما من قال لا أصدق ما أخبر به حتى أعلمه بعقلى فكفره ظاهر »[2] .

أوهام العقل :

ثم يستعرض ابن تيمية دعـوى هؤلاء « العقلاء » التى تقول بالتعارض بين العقل والنقل فى أكثـر الأحيان ، وأن الأمـور التى جاء بهـا الأنبياء والرسل كـعقائد وحـقائق دينيـة قد تتعـارض مع العقل الصريح والهـداية وتتصادم مـع تلك الحقائق والمسلمـات التى أنتجتـها الفلسفة بعد دراسات طـويلة الأمد ، والتى تعتبر أساس الفلسفة ، ويثـبت الإمام ابن تيمية أن هذه العـقليات التى تتـعارض مع أخـبار الرسل ونصـوص الكتاب والسنة لا تـعدو إلا أوهاماً وأباطيل اخترعهـا العقل بحيث إنها إذا تولت بالنقد العلمى والمحاسبـة الدقيقة ظهر أنها ليـست إلا مجـموعة مـن الألفاظ والتوهمـات التى لا تستند إلى أسـاس من العلم ، يقول :

« إن ما يدعونه من العقليات المخالفة للنصوص لا حقـيقة لها عند الاعتبار الصحيح إنما هى من باب القعـقعة بالشنان لمن يفزعـه ذلك من الصبيان وإذا أعطى النظر فـى المعقولات حقه من التمام وجدها براهين ناطقة يصـدق ما أخبر به الرسول وأن لوازم ما أخبر به لازم

---

(١) أيضاً ص ١٠١ .

(٢) صريح المعقول ج ١ ص ١٠٨ .

صحيح وأن من نفاه نفاه لجهله بحقيقة الأمر وفزعاً باطناً وظاهراً كالذى يفزع من الآلهة المعبودة دون الله أن تضره ويفزع من عدو الإسلام لما عنده من ضعف الإيمان »[١] .

وفى موضع آخر : « هؤلاء فى رعبهم من الألفاظ الهائلة التى لم يعلموا حقيقتها أشبه بمن رأى لباسهم رعب منهم قبل تحقق حالهم فى غاية الضعف والعجز ، ولكن قال تعالى: ﴿ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾[٢] .

جهل العقلاء :

إذا نظر المنصف فى هذه الأقوال والتدقيقات التى يفتخر بها الفلاسفة ويسمونها «الإلهيات » والتى يقدمها أتباعهم بازاء كلام الأنبياء وأقوالهم ، سوف لا يجد فرقاً بينها وبين كلام المجانين ، يقول « ليتأمل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدعون من الحذق والتحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرسل كيف يتكلمون فى غاية حكمتهم ونهاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين ويجعلون الحق المعلوم بالضرورة مردود ، والباطل الذى العلماء يعلم بطلانه بالضرورة مقبولاً بكلام فيه تلبيس وتدليس »[٣] .

لا تعارض بين صريح العقل وصحيح النقل :

ولكنه يلاحظ حرمة العقل وقيمته فإن القرآن قد أشار فى آيات كثيرة إلى استخدام العقل والتفكير به ، إنه لا يرى أى تعارض فى أى حال بين صريح العقل وصحيح النقل ، لأنه لم يعثر على أى تعارض بين العقل والنقل خلال دراسته الطويلة الواسعة ، بشرط أن يكون العقل سليماً والنقل صحيحاً ومحفوظاً ، فقد ألف فى هذا الموضوع كتاباً ضخماً باسم «بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول »[٤] ، أثبت فيه بالدلائل وبكل تفصيل ألا تعارض بين المعقول والمنقول ، فإن الأمور التى ثبتت صحتها بالكتاب والسنة والوحى والنبوة يصدقها العقل الكامل الصحيح ، وظل العقل يؤيد النصوص والمنقولات على الدوام، وكلما يستخدم العقل بالدقة والامعان يوجد أنه يصدق هذه المنقولات ويؤيدها ، يقول :

« إن الأدلة العقلية الصحيحة البينة التى لا ريب فيها بل العلوم الفطرية الضرورية توافق

---

(١) أيضاً ج ٤ ص ١٥٣ .
(٢) أيضاً ص ١٥٤ .
(٣) أيضاً ج ٣ ص ٢٧٢ .
(٤) ظهر هذا الكتاب على هامش « منهاج السنة » فى أربعة مجلدات .

ما أخبرت به الرسل لا تخالفه ، وإن الأدلة العقلية الصحيحة جميعها موافقة للسمع لا تخالف شيئاً من السمع ، وهذا ولله الحمد قد اعتبرته فيما ذكرته عامة الطوائف »[1] .

ويقول فى مناسبة أخرى :

« المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط ، وقد تأملت ذلك فى عامة ما تنازع الناس فيه فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع وهذا تأملته فى مسائل الأصول الكبار كمسائل التوحيد والصفات ومسائل القدر والنبوءات والمعاد وغير ذلك ، ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه السمع قط بل السمع الذى يقال إنه يخالفه إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح فكيف إذا خالفه صريح المعقول ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول بل بمحارات العقول فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاء بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته »[2] .

إنه يدعى (ولما يدعيه أهمية ووزن كبير) إنه لا يوجد حديث واحد أو نقل واحد معارضاً للعقل ، فإن كان هناك حديث يعارض العقل السليم فهو موضوع أو ضعيف لدى أصحاب الفن .

القرآن يحتوى على دلائل عقلية جيدة :

إنه يرفض دعوى هؤلاء المتكلمين والفلاسفة أن القرآن الكريم صحيفة تقوم على أساس النقليات والسمعيات فقد أثبت فى مواضع كثيرة أن القران يحتوى على دلائل عقلية جيدة، تبلغ من الأحكام والقوة والوضوح مبلغاً لا تستقر أمامه دلائل المتكلمين والفلاسفة التى لا تعدو بيت العنكبوت بعد البحث والنقد ؛ إنه يقول :

« إن الله سبحانه وتعالى بين الأدلة العقلية التى يحتاج إليها فى العلم بذلك ما لا يقدر أحد من هؤلاء قدره ونهاية ما يذكرونه جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه»[3] .

وفى موضع آخر :

« إن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الموافق لصريح المعقول وأن ما بينه من الآيات

---

(١) صريح المعقول ج ١ ص ٨٣ .

(٢) أيضاً .

(٣) أيضاً ص ١٤ .

والدلائل والبراهين العقلية فى اثبات الصانع سبحانه ومعرفة صفاته وأفعاله هو فرق نهاية العقول وأن خيار ما عند حذاق الأولين والآخرين من الفلاسفة والمتكلمين هو بعض ما فيه لكنهم يلبسون الحق بالباطل فلا يأتون به على وجهه»[1] .

لا لبس فى تعاليم الرسول ﷺ :

إن كثيراً من الفلاسفة والمتكلمين وأنصارهم كانوا يعتقدون أن الرسول ﷺ لم يتناول ذات الله تعالى وصفاته بالشرح والتفصيل بل إنه أجمل هذا الموضوع مما ترك فيه إبهاماً وغموضاً ، كما أن جزءاً كبيراً من القرآن يحتاج إلى شرح ، وقد وفق الله المتكلمين فيما تقدم من الزمان أن يشرحوه ويفصلوه ، ويعرضوا العقائد والحقائق الدينية أمام الأمة بتفصيل مؤيد بالدلائل ، يقول ابن تيمية : إن الرسول كان مأموراً بالبلاغ المبين ، فقام بتفصيل وشرح كل شئ كان الدين بحاجة إليه ، فهل كان من الممكن أن يترك العقائد وأصول الدين وأساسه ، وذات الله تعالى وصفاته التى يتوقف على علمها معرفة الدين وسعادة الإنسان ونجاته ، وكيف يترك كل ذلك مجملاً من غير شرح وتفصيل ، وكذلك هل كان ممكناً أن يترك الكتاب الذى دعا الناس إلى تفهمه والتدبر فيه مبهماً مجملاً؟ يقول :

« إن الرسول بلغ البلاغ المبين بين مراده وأن كل ما فى القرآن والحديث من لفظ يقال فيه أنه يحتاج إلى التأويل الإصطلاحى الخاص الذى هو صرف اللفظ عن ظاهره فلابد أن يكون الرسول قد بين مراده بذلك اللفظ بخطاب آخر لا يجوز عليه أن يتكلم بالكلام الذى مفهومه ومدلوله باطل ويسكت عن بيان المراد الحق ولا يجوز أن يريد من الخلق أن يفهموا من كلامه تعالى ما لم يبينه لهم ويدلهم عليه لا مكان معرفة ذلك بعقولهم وأن هذا قدح الرسول الذى بلغ البلاغ المبين »[2] .

ويقول فى موضع آخر :

« إن الله تعالى أمر الرسول بالبلاغ المبين وهو أطوع الناس لربه فلابد أن يكون قد بلغ البلاغ المبين ، مع أن البلاغ المبين لا يكون بيانه ملتبساً مدلساً والآيات التى ذكر الله فيها أنها متشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله إنما نفى عن غيره علم تأويلها لا علم تفسيرها ومعناها»[3] .

---

(١) صريح المعقول ج ٣ ص ٦٨ .
(٢) أيضاً ج ١ ص ١٠ .
(٣) أيضاً ص ١٦٧ .

دعوة ابن تيمية ومأثرته :

ركز ابن تيمية كل جهوده على إثبات أن مصدر العقائد إنما هو[1] الكتاب والسنة والوحى والنبوة وأن نصوص الكتاب والسنة هو المقياس الأصيل فى هذا الموضوع ، إنه دعا إلى الإيمان بهذه الفكرة طول عمره ، وقد لا يخلو أى كتاب من مؤلفاته من هذه الدعوة ، وهكذا استطاع ابن تيمية أن ينشط الفكر الإسلامى ويبعثه من جديد ، الذى كان قد جرح واضمحل بتأثير الفلسفة وعلم الكلام والروح العجمية فى ذلك الحين .

مصدر الفقه الكتاب والسنة

قبل عهد التقليد :

يؤكد لنا التاريخ أن تقليد إمام من أئمة الفقه أو اتباع مذهب من المذاهب الفقهية لم يعرف قبل القرن الرابع الهجرى ، فكان الناس يعملون فى قضايا الحياة من غير تقليد والتزام ، واثقين بأن عملهم هذا لا يعدو روح الشريعة ، بل إنهم يتبعون سنة الرسول ﷺ مباشرة ، وكلما اعترتهم حاجة إلى السؤال عن مسألة فقهية راجعوا من شاءوا من العلماء وعملوا بها ، وفى القرن الرابع أيضاً لم يعم التقليد الخالص لمذهب ولا جرت العادة بدراسة الفقه والافتاء وفق مذهب خاص ، يقول شيخ الإسلام ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى فى كتابه « حجة الله البالغة » :

« إن أهل المائة الرابعة لم يكونوا مجتمعين على التقليد الخالص على مذهب واحد والتفقه له والحكاية لقوله كما يظهر من التتبع بل كان فيهم العلماء والعامة ، وكان من خبر العامة أنهم كانوا فى المسائل الإجماعية التى لا اختلاف فيها بين المسلمين أو جمهور المجتهدين ، لا يقلدون إلا صاحب الشرع وكانوا يتعلمون صفة الوضوء والغسل والصلاة والزكاة ونحو ذلك من آبائهم أو معلمى بلدانهم فيمشون حسب ذلك ، وإذا وقعت لهم واقعة استفتوا فيها أى مفت وجدوا من غير تعيين مذهب وكان من خبر الخاصة أنه كان أهل الحديث منهم يشتغلون بالحديث يخلص إليهم من أحاديث النبى ﷺ وآثار الصحابة ما لا يحتاجون معه إلى شئ آخر فالمسألة من حديث مستفيض أو صحيح قد عمل به بعض

---

(١) لقد أثبت ابن تيمية فى مؤلفاته المختلفة بغاية من التفصيل أن التأويل له ثلاثة معان ، المصطلح القرآنى الذى يراد به الحقيقة والمآل ، ثانياً مصطلح المتقدمين الذى يعنى التفسير ، وثالثاً مصطلح المتأخرين والمتكلمين الذى يراد به مدلول اللفظ الخفى ولا يراد به مدلوله الظاهر لسبب خاص .

الفقهـاء ولا عذر لتارك العمل به وأقوال مـتظاهرة لجمهور الصحـابة والتابعين مما لا يحسن مخالفتها فإن لم يجد فى المسألة مـا يطمئن به قلبه لتعارض النقل وعدم وضوح الترجيح ، ونحو ذلك رجع إلى كلام بعض من مضى من الفقهاء فإن وجد قولين اختار أوثقهما سواء كان من أهل المدينة أو من أهل الكوفة ، وكان أهل التخريج منهم يخرجون فيما لا يجدونه مصـرحاً ويجتهـدون فى المذهب وكان هؤلاء ينسـبون إلى مذهب أصحـابهم فيقـال فلان شافعى وفلان حنفى وكان صاحب الحديث أيضاً قـد ينسب إلى أحد المذاهب لكثرة موافقته له كالنسائى والبيهقى ينسبان إلى الشافـعى فكان لا يتولى القضاء ولا الافتاء إلا مجتهد ولا يسمى الفقيه إلا مجتهداً » (١) .

بدء التقليد وأسبابه :

وظهرت حاجـة التقليد بعد القـرن الرابع لأسباب عدة ترجع إلى خـلافات بين العلماء وفشو الجدال والمناظرة ، وانخفاض مـستواهم الدينى والخلقى ، والانحطاط العلمى وقصر الهمة وقلة الاجتهـاد ، فمراعاة للمصالح الدينية رأى الناس تقليـد الأئمة المجتهدين الذين سبقوا ، واتباع المذاهب الفقهية المدونة ، والعمل بفتاوى المتقدمين بدلاً من المعاصرين ، إلا أن هذا التقليد لم يكن يتقيد إلى مدة طويلة بالالتـزام والتعيين والتقليد الشخصى الذى شاع فى القرون المتأخـرة ولكن الناس تعودوا هذا النوع من التقليـد تدريجياً ، وكان شيـئاً يقوم على رعاية المصلحة وتوخى السهولة والتفادى من الفوضى والتقاط الرخص واتباع الهوى ، لا إنه كان شيـئاً تشريعيـاً لا يجوز العدول عنه ، وكـان ذلك طبيعيـاً وأمراً وفق الأحداث تماماً، ولا سيـما ما أصاب العـالم الإسلامى ، من انحطاط فكرى وتسفل علمى عـام بعد هجوم التتر ، وما واجه العالم الإسلامى من فقدان الشخصيات الكبيرة فى ذلك الحين التى تتمتع بكفـاءة الاجتهاد وما شـاهده العالم الإسلامى فى تلك الفترة من كـثرة الفرق وتطلع الفتن ، رأى الناس العافـية فى أن يعملـوا بالمذاهب الفقهـية التى ثبتت صـحتهـا بالكتاب والسنة، والتى مرت بمراحـل البحث والنقد وتم تدوينهـا ، وتلك ميزة اسـتوفتـها المذاهب الفقهية الأربعة ، فكان إقبال الناس عليه بوجه عام .

مكانة التقليد ووضعيتها :

لم تكن وضيعة هذا التقليد إلا أن المرء عندمـا كان يقلد مذهباً من هذه المذاهب كان يرتاح إلى أنه يعمل بالكتـاب والسنة ، ويتبع سنة صاحب الشريعـة ﷺ ، أما إمام ذلك المذهب

---

(١) حجة الله البالغة ج ١ ص ١٢٢ .

الذى يقلده فليس إلا واسطة بينه وبين الرسول ﷺ ومكانته فى ذلك كمكانة شيخ معاصر، فهو ليس إلا ترجماناً وشارحاً لا مطاعاً وشارعاً ، يقول شيخ الإسلام ولى الله الدهلوى :

« ولا يدين إلا بقوله النبى ﷺ ولا يعتقد حلالاً إلا ما أحله الله ورسوله ، ولا حراماً إلا ما حرمه الله ورسوله ، ولكن لما لم يكن له علم بما قاله النبى ﷺ ولا بطريق الجمع بين المختلفات من كلامه اتبع عالماً راشداً على أنه مصيب فيما يقول ويفتى ظاهراً متبع سنة رسول الله ﷺ فإن خالف ما يظنه أقلع من ساعته من غير جدال ولا إصرار »[1] .

وقد وجد هذا النوع من التقليد ، وعادة الرجوع إلى فقيه معين أو غير معين والاستفتاء منه فى المسائل الفقهية فى كل زمان ، وسواء كان هذا الرجوع فى فترات مختلفة أو بصفة دائمة لا يسوغ الاعتراض عليه ، يقول شيخ الإسلام الدهلوى :

« إن الاستفتاء والإفتاء لم يزل بين المسلمين من عهد النبى ﷺ ولا فرق بين أن يستفتنى هذا دائماً أو يستفتى هذا حيناً ، وذلك بعد أن يكون مجمعاً على ما ذكرناه ، كيف لا ولم نؤمن بفقيه أياً كان أنه أوحى الله إليه الفقه وفرض علينا طاعته وأنه معصوم ، فإن اقتدينا بواحد منهم فذلك لعلمنا بأنه عالم بكتاب الله وسنة رسوله فلا يخلو قوله إما أن يكون من صريح الكتاب والسنة أو مستنبطاً عنهما بنحو من الاستنباط ، أو عرف بالقرائن أن الحكم فى صورة ما منوطة بعلة كذا ، واطمأن قلبه بتلك المعرفة فقاس غير المنصوص على النصوص فكأنه يقول ظننت أن رسول الله ﷺ قال كلما وجدت هذه العلة فالحكم ثمة هكذا والمقيس مندرج فى هذا العموم فهذا أيضاً معزو إلى النبى ﷺ ، ولكن فى طريقة ظنون ، ولولا ذلك لما قلد مؤمن بمجتهد فإن بلغنا حديث من الرسول المعصوم الذى فرض الله علينا طاعته بسند صالح يدل على خلاف مذهبه وتركنا حديثه واتبعنا ذلك التخمين فمن أظلم منا وما عذرنا يوم يقوم الناس لرب العالمين »[2] .

انحراف القرون المتأخرة وغلوها :

وظل الجهل يؤثر فى الجماهير من الناس ، حتى أحلو هؤلاء الأئمة فى بعض المناطق ، محل المقصود وجعلوهم كالشارع والمطاع عوضاً عن الوسائط والوسائل ، وقد تعصب الناس لهذه المذاهب ونالت منهم إعجاباً لم يسمح لهم بالتنازل عن أى جزء منها فى أى حال ، ولكن الذنب فى هذا لا يرجع إلى العامة كثيراً لأنهم قلدوا هذه المذاهب اتباعاً

---

(١) حجة الله البالغة ج ١ ص ١٢٤ .

(٢) حجة الله البالغة ج ١ ص ١٢٥ .

للسنة ، ولم يكن لهم من السهل الميسور أن يتتبعوا أسباب الترجيح فيتركوا التقليد أو ينتقلوا من مذهب إلى آخر بل قد كان هناك عدد كبير من العلماء ممن إذا ثبت لديهم فى مسألة فقهية أن مذهب إمامهم لا يوافق فيها الكتاب والسنة ، وعلموا بالقطعية أن ذلك المذهب مرجوح فى تلك المسألة ومذهب غيره راجح يتفق الكتاب والسنة وبالرغم من توافر الأحاديث الصريحة الصحيحة خلاف تلك المسألة لا يجدون فى نفوسهم مندوحة لترك تلك المسألة والعمل بالأحاديث الصحيحة الواردة خلافها ، ولعل شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام العالم الشافعى الشهير فى القرن السابع يتحدث عن أمثال هؤلاء فيقول :

« ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً وهو مع ذلك يقلده فيه ويترك من شهد الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبهم جموداً على تقليد إمامه بل يتحيل لدفع ظاهر الكتاب والسنة ، ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالاً عن مقلدة » (١) .

كما كانت هناك جماعة من العامة تظن فى إمامها العصمة ، وقد رسخ فى نفسها أنه لن يجوز ترك التقليد لإمامه فى أى حال ، يتحدث شيخ الإسلام ولى الله الدهلوى عن مثل هؤلاء العامة فيقول :

« وفى من يكون عامياً ويقلد رجلاً من الفقهاء بعينه يرى أنه يمتنع من مثله الخطأ ، وأن ما قاله هو الصواب ألبتة وأضمر فى قلبه ألاّ يترك تقليده وأن ظهر الدليل على خلافه ، وذلك ما رواه الترمذى عن عدى بن حاتم أنه قال سمعته (يعنى رسول الله ﷺ) يقرأ : «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » قال إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه» (٢) .

التقليد والاجتهاد كما يراهما ابن تيمية :

لقد أنكر المحققون من العلماء الراسخين فى كل عصر مثل هذا التقليد المطلق الذى يتوازى اتباع الرسول ﷺ وطاعته ، إنهم لا يحرمون التقليد كابن حزم وغيره من غلاة العلماء ولا يجيزون التقليد المطلق الذى لا يفرق بين الرسول رالإمام فى الاتباع والطاعة ، فمن العلماء الذين يحملون رأياً متزناً جداً فى هذا الموضوع ، شيخ الإسلام ابن تيمية فى المتقدمين وشيخ الاسلام ولى الله الدهلوى فى المتأخرين ،ويعترف ابن تيمية بواقع أن العامة

---

(١) أيضاً ص ١٢٤ .

(٢) حجة الله البالغة ج ١ ص ١٢٤ .

وغير المجتهدين من العلماء لابد لهم من الرجوع إلى الفقهاء والمجتهدين وتقليدهم ، وأن الأئمة كالوسائل والوسائط ، وأن تقليد المذاهب حاجة عملية وأمر طبيعى ، يقول فى موضع :

« فطاعة الله ورسوله وتحليل ما أحله الله ورسوله وتحريم ما حرمه الله ورسوله وإيجاب ما أوجبه الله ورسوله واجب على جميع الثقلين الانس والجن ، واجب على كل أحد فى كل حال سراً وعلانية ، لكن لما كان من الأحكام ما لا يعرفه كثير من الناس رجح الناس فى ذلك إلى من يعلمهم ذلك لأنه أعلم بما قاله الرسول وأعلم بمراده فأئمة المسلمين الذين اتبعوهم وسائل وطرق وأدلة بين الناس وبين الرسول يبلغونهم ما قاله ويفهمونهم مراده بحسب اجتهادهم واستطاعتهم ، وقد خص الله هذا العالم من العلم والفهم ما ليس عند الاخر - وقد يكون عند ذلك فى مسألة أخرى من العلم ما ليس عند هذا ، وقد قال تعالى: ﴿ **وداؤد وسليمان إذا يحكمان فى الحرث إذا نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً** ﴾ فهذان نبيان كريمان حكما فى قضية واحدة فخص الله أحدهما بالفهم وأثنى على كل منهما ، والعلماء ورثة الأنبياء واجتهاد العلماء فى الأحكام كاجتهاد المستدلين على جهة الكعبة - فإذا كان أربع أنفس يصلى كل واحد بطائفة أربع جهات لاعتقادهم أن الكعبة هناك فإن صلاة الأربعة صحيحة ، والذى صلى إلى جهة الكعبة واحد وهو المصيب الذى له أجران كما فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر » [(1)] .

ويتقدم فيعترف ابن تيمية بأن نشأة المرء على مذهب فقهى خاص وقيامه بأداء العبادات والأحكام وفق مذهب خاص أمر طبيعى ، تعوده الناس من قديم ولكن شأن المؤمن أن يعتقد نفسه متبعاً لله والرسول فى الحقيقة ويتهيأ دائماً لاتباع ما يثبت من الكتاب والسنة من غير تلكؤ ولا تردد يقول :

« إن الإنسان ينشأ على دين أبيه أو سيده أو أهل بلده كما يتبع الطفل فى الدين أبويه وسادته وأهل بلده ثم إذا بلغ الرجل فعليه أن يلتزم طاعة الله ورسوله حيث كانت لا يكون ممن إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، فكل من عدل عن اتباع الكتاب والسنة وطاعة الله ورسوله إلى عادته وعادة أبيه وقومه فهو من أهل الجاهلية المستحقين للوعيد . وكذلك من تبين له فى مسألة الحق الذى بعث الله به رسوله ثم عدل

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام ج ٢ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

عنه إلى عادته فهو من أهل الذم والعقاب »[(1)] .

والعالم الذى يصلح للتحقيق والاستدلال ويستطيع أن يتبين أسباب الترجيح فى المسائل فيتحدث عنه ويقول :

« أما القادر على الاستدلال فقيل يحرم عليه التقليد مطلقاً وقيل يجوز مطلقاً ، وقيل يجوز عند الحاجة ، كما إذا ضاق الوقت عن الاستدلال ، وهذا القول أعدل »[(2)] .

وأما من يقدر على الجتهاد قدرة تامة فيحكم فيه أنه إذا اطلع على النصوص فى جانب ولم يجد فى جانب آخر ما يقاوم به النصوص ويدفعها يلزمه أتباع تلك النصوص ، يقول: « أما إذا قدر على الاجتهاد التام الذى يعتقد معه أن القول الآخر ليس معه ما يدفع به النص فهذا يجب عليه اتباع النصوص ، وإن لم يفعل كان متبعاً للظن وما تهوى الأنفس ، وكان أكبر العصاة لله ولرسوله »[(3)] .

عمل ابن تيمية ومكانته الفقهية :

أما تعامله فى المسائل الفقهية فإنه أفتى فى معظم المسائل على مذهب الإمام أحمد بن حنبل وأصوله ، وإن فتاواه وآراءه الفقهية فى أكثر المسائل تتفق مع فتاوى ومذاهب الأئمة الأربعة أو مذهب إمام من أئمة المسلمين واجتهاده ، كما قام بالاجتهاد فى بعض المسائل وأفتى فيها فى ضوء الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وبالنظر إلى جميع هذه الوجوه والموازنة بينها يصح أن يقال إنه كان مجتهداً منتسباً[(4)] للمذهب الحنبلى »[(5)] .

دعوة ابن تيمية وتأثيرها :

ومن مآثر ابن تيمية التجديدية أنه عندما دعا الناس بقوة إلى اعتبار الكتاب والسنة مصدراً للعقائد ، وعمل به نفسه فى غاية من الاهتمام دعاهم كذلك بقوة بالغة إلى اتخاذ الكتاب والسنة مصدراً للفقهيات والأحكام ، ومقياساً للحق ، وقدم نموذجاً عالياً للعمل

---

(1) فتاوى شيخ الإسلام ج ٢ ص ٢٠٢ .

(2) أيضاً ص ٣٨٤ .

(3) أيضاً ص ٣٨٥ .

(4) المجتهد المنتسب هو الذى يكون مجتهداً فى الفروع والأصول ، ولكنه يتفق مع أى إمام فى طريق استدلاله واستنباطه ولا يتجاوز نطاقه بوجه عام .

(5) وللاطلاع على فقه ابن تيمية ومكانته ، والتفاصيل عن مكانته الاجتهادية راجع كتاب « ابن تيمية » للشيخ أبو زهرة ص ٣٥٠ - ٤٥٢ .

بهذه الدعوة بقوله تعالى : ﴿ فإن تنازعتم فى شئ فردوه رلى الله والرسول ﴾ [1] .

إن دعوة ابـن تيمـية هذه أثارت روحـاً ونشاطاً من جـديد فى أوساط الأمـة الفقـهيـة والعلميـةالتى كانت قد توقفت منذ مـدة بعيدة عن دراسة الأحكام والمسـائل والتفكير فـيها ومقـابلتها مع الكتاب والـسنة ، وكان باب الاجتهـاد والاستنباط مـغلقاً من زمن طويل ، وهكذا فإنه قـام ببعث الفكر الإسلامى الصـحيح الذى وجد فى القـرون الأولى ، وقامت عليه حياة المسلمين ، وهو على أساس هذه المآثر العلمية والعملية كلها يعتبر من شخصيات التاريخ الأسلامى المصطفاه التى اختارها الله لتجديد هذا الدين وبعثه من جديد .

﴿ ذلك فـضل الله يؤتيـه من يشاء والله ذو الـفضل العظيم ﴾

---

(٣) النساء - ٥٩ .

تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية النجباء
الحافظ ابن قيم الجوزية
تلميذه وخليفته

عرف شيخ الإسلام ابن تيمية بكثرة تلاميذه والمستفدين منه ، وكان من الطبيعى أن يكون له نفوذ قوى فى عصره الذى عاش فيه بما قد رزقه الله من حياة مشغولة بالعمل الإسلامى العظيم ومن شخصية عملاقة جبارة ، ولا غرو أن يتجمع حوله حشد كبير من تلاميذه والمعجبين به ، وقد تميز من بين هؤلاء التلاميذ تلميذه النجيب الحافظ ابن قيم الجوزية الذى يعتبر خليفته الراشد ومدون علومه من بعده ، إنه تفرد بخصائص ومزايا لم تتوفر فى غيره من تلاميذه فقد ظل يشارك أستاذه فى أحواله وأعماله طول حياته ، ولم يفارقه حتى آخر لمحة فى حياته ، وثبت على جادته بعد وفاته من غير أن يفتر حبه له واعجابه به إن خدماته العلمية وجلالة قدره وفضائله لجديرة بتأليف كتاب مستقل عنه ، يبحث عن مؤلفاته ودراساته العلمية بغاية من التفصيل ، ومما يبعث على الدهشة والاستغراب أن التاريخ لا يتحدث عن سيرته إلا بايجاز ، والمعتمد فى ذلك هو ما ذكره تلميذه النابغة الشهير الحافظ ابن رجب الحنبلى عن سيرته فى « طبقات الحنابلة » والحقيقة أنه أذاب شخصية فى حياة شيخه وأستاذه بحيث لم يعد له وجود مستقل ولا شخصية بوحدها ، وإلى القارئ نبذة من سيرته التى اطلعنا عليها وظفرنا بها .

اسمه ونسبه :

هو محمد الملقب بشمس الدين ويكنى أبا عبد الله ، وهى فى النسبة زرعى ، واسم والده أبو بكر بن أيوب ، ولد فى دمشق حيث قضى حياته ، توفى هناك ودفن فيها ، وكان والده قيم المدرسة الجوزية فقيل له ابن قيم الجوزية نسبة إلى منصب والده ، ويؤثر بعض الناس الإيجاز فيقولون ابن القيم .

ولد ابن القيم عام ٦٩١ هـ على ما قال ابن رجب الحنبلى ، سمع الحديث عن الشهاب النابلسى العامر ، والقاضى تقى الدين سليمان وفاطمة بنت جوهر ، وعيسى بن مطعم ، وأبو بكر بن عبد الدائم وغيرهم من شيوخ عصره ، وبرع فى الفقه على المذهب الحنبلى وأفتى ، ولازم ابن تيمية حتى اخر لحظة من حياته ، يقول العلامة ابن كثير : « لازمه إلى أن مات الشيخ ، فأخذ عنه علماً جماً » (١) .

---

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٣٤ .

مكانته العلمية :

شارك فى جميع العلوم الإسلامية ولكنه تفرد بالتفسير ، كما يقول الحافظ ابن رجب ونبغ فى أصول الدين وبلغ فيها إلى القمة ، لم يوجد له نظير فى الحديث وفقه الحديث ، ودقائق الاستنباط كما برع فى الفقه وأصول الفقه والعربية وعلم الكلام ، وحصل له اطلاع واسع على إشارات أهل القلوب ودقائق أصحاب المعرفة والتصوف ، يقول ابن رجب « لم أجد عالماً أكبر منه فى معانى الكتاب والسنة ، والحقائق الإيمانية ، إنه لم يكن معصوماً عن الخطأ إلا أننى لم أر أحداً يحمل هذه الصفات كمثله » ويقول العلامة الذهبي: « كانت له عناية فائقة بمتون الحديث ورجاله ، إنه كان يشتغل بدراسة الفقه ، ويكتب مسائله فى غاية من التفصيل ، كما كانت له براعة فى تدريس النحو وأصول الفقه وأصول الحديث » .

زهده وعبادته :

كان كثير العبادة ، كثير إحياء الليالى يطيل الصلاة ويخشع فيها ، يداوم على ذكر الله ويغلب عليه ويأخذ بمجامع قلبه حب الله وحالة خاصة من الانابة اليه ، يعلو وجهه نور من التواضع والافتقار إلى الله ، حج مرات عديدة وأقام بمكة المكرمة مدة طويلة ، يحكى أهل مكة حكايات من كثرة عبادته وطوافه مما يبعث على الاستغراب والدهشة .

تحدث عنه العلامة ابن كثير فى تاريخه فقال : « كان كثير التودد لا يحسد أحداً ولا يؤذيه ولا يستعيبه ، ولا يحقد على أحد ، وكنت من أصحب الناس له وأحب الناس إليه، ولا أعرف فى هذا العالم فى زماننا أكثر عبادة منه وكانت له طريقة فى الصلاة يطيلها جداً ويمد ركوعها وسجودها ، ويلومه كثير من أصحابه فى بعض الأحيان فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك - رحمه الله - . . . . وبالجملة كان قليل النظير فى أموره وأحواله »(١) .

محنته :

مر بمراحل المحنة والمجاهدات الشاقة كأستاذه وشيخه ، عندما حبس شيخه ابن تيمية فى القلعة فى المرة الأخيرة حبس هو معه أيضاً ، ولكن فرق بينهما فى السجن ، وأفرج عنه بعد وفاة شيخه ، وقد ظل طوال هذه المدة مشغولاً بتلاوة القرآن ودراسة معانيه والتدبر فيها، يقول عنه ابن رجب :

« ففتح عليه من ذلك خير كثير ، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد

---

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٧٣٥ .

الصحيحة وتسلط بسبب ذلك على الكلام فى علوم أهل المعارف والدخول فى غوامضهم . وتصانيفه ممتلئة بذلك .

تلاميذه ومعاصروه يعترفون بفضله :

تلقى منه العلم جماعة كبيرة من العلماء فى حياة شيخه ابن تيمية وبعد وفاته ، واستفادوا من مناهل علمه ، وكان علماؤه المعاصرون يبجلونه كثيراً ويرون التلمذة عليه شرفاً كبيراً ، فمن تلاميذه ابن عبد الهادى وابن رجب ، ولقد قال عنه القاضى برهان الدين الزرعى « لا يوجد الان رجل أوسع علماً منه تحت هذه السماء » .

التدريس والتأليف :

قام ابن القيم بتدريس العلوم الشرعية فى المدرسة الصدرية ، وتولى إمامة المدرسة الجوزية إلى مدة طويلة ، وقد ألف بقلمه كتباً كثيرة ، يشهد ابن رجب بشغفه الزائد بالكتابة والمطالعة والتأليف ، واقتناء الكتب ، ونتيجة لهذا الشوق تألفت لديه مكتبة واسعة، كانت تحتوى على كثير من الكتب الخطية التى انتسخها بيده .

بماذا تمتاز مؤلفاته ؟

تمتاز مؤلفاته بحسن الترتيب وجودة التأليف وهى تفوق فى هذا المجال مؤلفات شيخه ابن تيمية أيضاً ، وهى بجانب ذلك تتميز برقة الأسلوب وسلاسة العبارة وتأثيرها ، ولعل ذلك جاء من قبل نفسه التى تحلت بالجمال أكثر منها بالجلال .

أهم مؤلفاته :

لمؤلفاته قائمة طويلة ، ندرج فيما يلى ما له أهمية كبيرة :

١ - تهذيب سنن أبى داؤد . ٢ - مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد واياك نستعين ، هذا الكتاب شرح لكتاب « منازل السائرين » لشيخ الاسلام عبد الله الأنصارى الهروى ، ويعتبر من أجود كتب التصوف والمعرفة ، . ٣ - زاد المعاد فى هدى خير العباد ، . ٤-جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام ، . ٥ - أعلام المؤقعين عن رب العالمين ، وهذا الكتاب مرجع كبير للمشتغلين بالفتاوى والحديث ، ومن أجود تصانيفه ، . ٦ - الكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناحية ، . ٧ - الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، . ٨ - حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح ، فى وصف الجنة وأحوالها ، وهذا الكتاب على هامش « أعلام الموقعين » . ٩ - كتاب الداء والدواء . ١٠ - مفتاح دار السعادة، . ١١ - اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو المعطلة والجهمية ، . ١٢ - عدة

الصابرين وذخيرة الشاكرين » . ١٣- بدائع الفوائد » . ١٤- الكلم الطيب والعمل الصالح » . ١٥ - تحفة الودود بأحكام المولود » . ١٦ - كتاب الروح » . ١٧ - شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل » . ١٨ - نفحة الأرواح وتحفة الأفراح. » ١٩ - الفوائد » . ٢٠ - الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية » . ٢١-الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى » . ٢٢ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين» . ٢٣ - إغاثة اللهفان فى مكايد الشيطان » . ٢٤ - طريق الهجرتين وباب السعادتين .

أما كتابه « زاد المعاد فى هدى خير العباد » فإنه أكثر جمعاً لخصائص مؤلفاته ويحتوى فى نفس الوقت على مواضيع مختلفة من السيرة والسنة والفقه وعلم الكلام والتزكية والاحسان ، وأعتقد أنه ليس هناك كتاب جامع ألف للعمل والاصلاح بعد كتاب « إحياء العلوم » للامام الغزالى ، بل وقد يفوقه من ناحية التحقيق والاستناد والتطبيق بين الكتاب والسنة ، ويبدو أنه أراد أن يؤلف كتاباً ينوب عن المكتبة الدينية إلى حد كبير ، ويقوم مقام مرب ومرشد ، وفقيه ومحدث ، ولقد شغف بهذا الكتاب وأولع به من كانوا يتذوقون الحديث ويحرصون على اتباع السنة والآداب النبوية ، وكانوا يهتمون بها [(١)] ، وقد تحلى هذا الكتاب بالطبع لأول مرة فى الهند سنة ١٢٩٨ هـ ، وفى مصر ١٣٢٤ هـ ، وتقع الطبعة الهندية فى ٩٣٧ صفحة بالقطع الكبير ، ولكن الطبعة المصرية بالحروف الحديدية تقع فى ٩٢٦ صفحة ، وقد تحدث المؤلف عن الكتاب فى أوله فقال :

« وهذه كلمات يسيرة لا يستغنى عن معرفتها من له أدنى همة إلى معرفة نبيه ﷺ ، وسيرته وهديه ، اقتضاها الخاطر المكدود على عجره وبجره ، مع البضاعة المزجاة ، . . . . مع تعليقها فى حال السفر لا الاقامة ، والقلب بكل واد منه شعبة والهمة قد تفرقت شذر مذر والكتاب مفقود ومن يفتح باب العلم مذاكراته معدوم غير موجود » [(٢)] .

إذا كان بيان المؤلف هذا يتعلق بأول الكتاب وببعض الفصول والأبواب فلا يبعث على الاستغراب الكثير ، ولكنه إذا كان عن الكتاب كله فلا شك أنه مبعث دهشة وغرابة ،

---

(١) وقد جاء فى ترجمة العالم المتورع ، الزاهد الإمام عبد الله الغزنوى ، أنه كان شديد الشغف بهذا الكتاب ، ويدعو الله تعالى ويقول : « يا أرحم الراحمين يسر لى وجود هذا الكتاب واجعله خير زاد لمعادى ، وكان عزيز الوجود فى زمانه وبلاده (افغانستان) ، اقرأ ترجمته الحافلة فى كتاب «نزهة الخواطر » ج ٨ .

(٢) زاد المعاد ١٥ / ١ .

وذلك لأن البحوث المفصلة الدقيقة لمتون السنة والأسانيد والرجال والدقائق من السيرة والتاريخ والأحكام التى يشتمل عليها هذا الكتاب يؤكد للقارئ أن هذا الكتاب لم يؤلف إلا فى مكتبة واسعة كبيرة ، فإن صح أن هذا الكتاب كله إنما ألف فى حال السفر فلابد من الاعتراف بأن مؤلفه كان متبحراً فى العلوم الإسلامية كلها وخاصة فى الفقه والسنة ، وأن مكتبة العلوم الدينية كانت تموج فى صدره ، وكان خير خلف لخير سلف من المتحدثين المتقدمين فى قوة الذاكرة واستحضار العلوم وخليفة صدق لأستاذه العظيم .

لقد شرح الحافظ ابن القيم فى أول هذا الكتاب موضوع البعثة المحمدية ومراتب الوحى، إنه استوعب فى بيان مراتب الوحى وأنواع الوحى ما لا يوجد له نظير فى كتب السيرة العامة (١) ، ثم ذكر تلك المدارج التى مرت بها الدعوة الإسلامية ، كما يتناول الأسماء المباركة ومعانيها ودقائقها ببحث لطيف ، ولم يترك فى هذا البحث مسائل ونكتاً من النحو والفقه وما يتعلق بالذوق والوجدان إلا وقد ذكرها كلها كعادته وكعادة شيخه فى ذلك ، وبهذه المناسبة جمع كل ما يتصل بالسيرة وشخصية النبى ﷺ من التفاصيل ، حتى تكونت ذخيرة قيمة للأخلاق والشمائل والعادات النبوية (٢) .

ثم إنه تناول عبادات النبى ﷺ وهيئة صلواته وسننها وعاداته بتفصيل دقيق يعتبر عصارة دراسته للحديث والعلوم الدينية ،هو يتجلى فى ذلك بلون المحدث وأسلوب المحقق ، وقد تضمن هذا البحث كلاماً دقيقاً لأصول الحديث والفقه (٣) ، ومعلومات مهمة لفن الرجال(٤)، إن أبواب الكتاب التى تشمل بيان العبادات والأركان الأربعة ليست مجرد كتاب للأحكام والخلافيات الفقهية بل إنها تضمن نكتاً علمية لطيفة ومعانى غزيرة للذوق والوجدان تبعث الإيمان من جديد ، وقد ذكر فى بيان الزكاة والصدقة « كان ﷺ أشرح الخلق صدراً وأطيبهم نفساً وأنعمهم قلباً فإن للصدقة وفعل المعروف تأثيراً عجيباً فى شرح الصدور وانصاف ذلك إلى ما خصه الله به من شرح صدره للنبوة والرسالة وخصائصها وتوابعها وشرح صدره حساً وإخراج حظ الشيطان منه » (٥).

واهتم المؤلف ببيان حكمة العبادات والأركان والأحكام وأسرارها وفوائدها قبل أن

---

(١) اقرأ ص ١٨ / ١ للمطبعة النظامية .
(٢) أيضاً ص ٢٥ - ٤٩ / ١ .
(٣) زاد المعاد ٦٩ / ١ - ١٠٥ / ١ .
(٤) أيضاً ٧٣ / - ٩٩ / ١ .
(٥) أيضاً ١٥٨ / ١ .

يتحدث عنها ، وقد تصدى بعرض تاريخى للتشريع وحكمته فى هذه العبادات والأركان وفوائدها ، بأسلوب شيق جذاب .

أما الجزء المهم لهذا الكتاب الذى يشهد على علو كعب المؤلف وسعة اطلاعه واستحضاره للعلم هو باب الحج ، فاننى لم أطلع فى أى كتاب على مثل هذه الذخيرة العلمية والتحقيق الجامع والبحث الدقيق عن الحج ومناسكه ، وحجة النبى ﷺ وأحكامها، ويمتد هذا البحث فى الطبعة المصرية من ص ١٨٠ إلى ص ٣٤٩ ، يعنى فى ١٦٩ صفحة، تناول المؤلف بيان حجة النبى ﷺ بغاية من التفصيل من خروجه من المدينة إلى عودته إليها، وهوملخص لذخائر مختلفة للحديث ومجموعة للروايات الصحيحة والجزئيات الكثيرة [1] ، إنه فى ضمن هذا البحث يلقى ضوءاً على كثير من مباحث الحج الخلافية والمسائل المختلف فيها ، ذكر حكمها فى ضوء الحديث باجتهاده ، وبرأيه ، ويبدو أنه لا يتقيد فى ذلك بمذهب معين ، فرغم أنه حنبلى يثبت بالدلائل أن النبى ﷺ لم يكن مفرداً بل قارناً ، ثم إنه يضع الأصبع فى مواضع الخطأ والخلافات التى ترجع إلى المتقدمين والمتأخرين فى بيان كيفية حج القران للنبى ﷺ ، ويشير إلى مصدرها وعذرهم فيها [2] ، كما أوضح الأوهام التى عرضت لكبار العلماء والمحققين فى حجة النبى ﷺ قديماً وجديداً، وذكر القول الفصل فى ذلك ، فمن التابعين طاؤس ، ومن المتقدمين الطبرى ، ومن المتأخرين القاضى عياض والعلامة ابن حزم وأمثالهم من أساطين العلم والرجال وقعوا فى بعض الأخطاء والأوهام فى تفاصيل حجة النبى ﷺ ، التى [3] صححها المؤلف ، وبذلك نستطيع أن نقدر مدى رسوخه وتبحره فى العلم ، والحقيقة أن مجرد باب الحج فى هذا الكتاب يكفى لمعرفة قيمة الكتاب وامامة مؤلفه وجلالة قدره ، وقد جاء المؤلف فى ثنايا الكتاب بمباحث كلامية وعقائدية تشهد بعلو مكانته وسعة نظره وتحقيقه ، وحاول التعبير الصحيح عن روح الشريعة ، متبعاً فى ذلك ذوقه وذوق شيخه ، ومما يجدر بالدراسة والاستفادة فى هذا الموضوع هو ما بحث فيه عن حقيقة التوكل والتوسل بالأسباب فى تحقيق دقيق [4] .

وقبل أن يبدأ الكلام عن الغزوات بحث عن حقيقة الجهاد ومراتبه فى غاية من التحقيق

---

(١) وللاطلاع على التفاصيل والجزئيات راجع كتب الفقه .

(٢) زاد المعاد الطبعة النظامية ص ١٨٥ / ١ - ١٩٠ / ١ .

(٣) أنظر « فصل فى الأوهام » ٢٤٩ / ١ - ٢٥١ / ١ .

(٤) زاد المعاد ٢٦٤ / ١ - ٢٦٦ / ١ .

والمعرفة كعادته ، وذكر بدء دعوة الاسلام وأحوال مكة آنذاك والهجرة إلى المدينة ، وفرضية الجهاد والغنيمة ، والصلح والأمان ، والجزية والمعاملة مع أهل الكتاب وأحكام المنافقين بتفصيل كبير ، وهو بمناسبة ذكر فرضية الجهاد ومشروعيته تحدث عن قيمة النفس وضآلتها بازاء حقيقة الجنة ونعيمها بحماس وقوة وأسلوب يستهوى القلوب ، وهو نموذج رائع لقوة كتابته وإيمانه .

ثم تعرض بذكر مغازى النبى ﷺ وبعوثه ومهماته بترتيب ، وبما أن له اطلاعاً واسعاً على الحديث والسيرة معاً وهو نقاد ومحدث أكثر من مؤرخ ، يتميز هذا الجزء من كتابه أيضاً بالنسبة إلى كتب السيرة الأخرى ، وأن قوله فصل الأمور الخلافية ، وهو عندما يتحدث عن الوقائع والأحداث يأتى بتفسير الآيات ولطائفها وأسرارها فى أسلوبه الخاص به ، ومن دأبه فى بيان الغزوات أنه يتناول كل ما يتعلق بها من الأحكام الفقهية أو ما يستنبط بها من المسائل والأحكام ، فمثلاً بعد ذكر غزوة خيبر عقد فصلاً مستقلاً « فيما كان فى غزوة خيبر من الأحكام الفقهية » (١) وبعد غزوة الفتح « فصل فى إشارة إلى ما فى هذه الغزوة من الفقه واللطائف » (٢) وكذلك بعد غزوة حنين وأوطاس « فصل إلى إشارة ما تضمنت هذه الغزوة من المسائل الفقهية والنكت الحكيمة » (٣) ، وما إلى ذلك مما يشحنه بمواد قيمة ومعلومات مهمة .

وهو فى هذه الغزوات والوقائع ليس مقلداً أو ناقلاً للمتقدمين من أهل السير والمغازى فإنه عارضهم فى بعض المناسبات فى أمور اشتهرت بين الناس ، وقدم فيها تحقيقاً خاصاً بدراسة الشخصية ، وفهمه العميق ، فمثلاً يعرف بوجه عام وتذكر كتب السير والتاريخ أن نسوة الأنصار وبناتهم أنشدن هذه الأبيات :

طلع البدر علينا　　من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا　　ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا　　جئت بالأمر المطاع

عندما كان النبى ﷺ يدخل المدينة مهاجراً من مكة ، ولكنه معارض هذا الرأى ، ويرى

---

(١) أيضاً ٣٩١ / ١ .
(٢) ٤٠٠ / ١ .
(٣) ٤٣٩ / ١ .

أن هذه الأبيات إنما أنشدت لدى عودته ﷺ من غزوة تبوك التى هى فى جهة الشام كما يقول :

« وبعض الرواة يهم فى هذا ويقول : إنما كان ذلك عند مقدمة المدينة من مكة ، وهو وهم ظاهر ، فإن ثنيات الوداع إنما هى من ناحية الشام لا يراها القادم من مكة إلى المدينة ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام » (١) .

وبعد ذكر غزوة تبوك أيضاً تصدى لذكر أحكامها (٢) ، وفوائدها بتفصيل يتضمن فوائد مهمة ومعلومات فقهية واستنباطات لطيفة وأحكام اجتماعية ومدنية ، ولما فرغ من بيان الغزوات والبعوث بدأ بذكر قدوم وفود العرب فى تفصيل (٣) ، وذكر وفود النبى ﷺ ومكاتيبه التى وجهها إلى ملوك العالم وأمراء القبائل (٤) .

أما الجزء الثانى من الكتاب فمعظمه يختص بالطب النبوى ، ذكر فيه أسرار الطب النبوى وحكمه وتوجيهاته الطبية ، واجتمع فى هذا الحديث الأحكام الطبية مع الأحكام الفقهية والمباحث الحديثية (٥) ، وقد بذل جهداً فى جمع تلك الأدوية والأغذية والمفردات فى مكان واحد بترتيب حروف الهجاء ، التى يتصل بها حديث صحيح أو ضعيف أو موضوع ، وأخذ عليها من الناحية الطبية وبين خواصّها (٦) ، ويمكن تقدير مدى دراسته الواسعة للحياة وأمراض القلب واطلاعه الواسع على نفسية الإنسان ، بما قد ذكره فى باب الأمراض والمعالجات من مرض العشق والحب وعلاجه وحقيقة المحبة وأسبابها الطبيعية ، وأقسامها ودرجاتها ، ثم علاجها والتدبير لها (٧) .

ولا شك أن الحقيقة ما ذكر شيخ الإسلام ولى الله الدهلوى فى كتابه «حجة الله البالغة» عن هذا الطب النبوى من أن مكانة هذا الطب ليست تبليغية ولا تشريعية ، إنما يبتنى على تجاربه ﷺ وعاداته وتجارب العرب وعاداتهم (٨) ، وعلى كل فإن لمعظمى أقوال

---

(٤) ٤٦٦ / ١ .

(٢) اقرأ « فصل الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من الفقه والفوائد » ٤٦٠ / - ٤٨٢ / ١ .

(٣) أيضاً ٤٨٣ / ١ - ٥١٨ / ١ .

(٤) ٥١٨ / ١ - ١٤١ / ٢ .

(٥) ١٤١ / ٢ .

(٦) ٩٨ / ٢ .

(٧) ٩٢ - ٩٧ / ٢ .

(٨) حجة الله البالغة باب « بيان أقسام علوم النبى ﷺ » ص ١٠٢ / ١ طبعة مصرية .

النبى ﷺ والمعجبين بتوجيهاته فى كل فن عن إيمان ويقين ، معلومات قيمة فى هذا الجزء من الكتاب .

ولما فرغ من بيان ذلك التفت إلى أحكام النبى ﷺ فى القضايا ، واستطاع أن يجمع ذخيرة غالية واسعة لأبواب الفقه المختلفة ، وكأنه ألف كتاباً للفقه يبنى على الأحاديث والأحكام والأقضية [1] ، وإن هذا الكتاب يتضمن عدا هذه الفصول والأبواب تحقيقات ولطائف تفسيرية ونحوية وتاريخية وكلامية قيمة تتفرق فى ثنايا ألف صفحة من الكتاب .

ومما ينتقد فى هذا الكتاب هو أنه خليط للعلوم الاسلامية كلها من السيرة والحديث والفقه ، والتاريخ والكلام والنحو والصرف ، ولعل نفسية أستاذه وشيخه كانت تعمل فيهلدى تأليف هذا الكتاب ، فإنه لا يلبث إلا وينتهز أضعف مناسبة للتعرض فى مسألة كلامية أو نحوية ثم تتفرغ للكلام عنها بغاية من الشرح والتفصيل ، فإن أفرز من هذا الكتاب كل موضوع على حدة تسنت الاستفادة منه ، ولكنه رغماً من ذلك كله يعتبر من أهم كتب الإسلام الذى يقوم مقام مكتبة بأسرها ، وأن وجوده كوجود عالم كثير الفنون ، متبحر ومحقق فى العلوم ، نال به آلاف مؤلفة من طلاب الحق ومتبعى السنة هداية دينية ، وغذاء روحياً وحلاوة إيمانية .

وفاته :

توفى فى عام ٢٣ رجب ٧٥١ هـ يوم الأربعاء ليلاً وصلى عليه فى اليوم التالى بعد صلاة الظهر فى المسجد الجامع ، ودفن فى مقبرة الباب الصغير ، رحمه الله ورفع درجاته.

---

(١) ١٤٢ / ٢ إلى آخر الكتاب .

ابن عبد الهادى

ومن تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية الذين حصل لهم تبحر فى علم الحديث والسنة وقضوا جل حياتهم فى خدمة السنة ونشرها وفى الإصلاح والدعوة . والذين حازوا قصب السبق والميزة والشهرة عدا الحافظ ابن القيم هم ابن عبد الهادى وابن كثير وابن رجب بوجه خاص .

عاش ابن عبد الهادى أقل من أربعين سنة ، ويقدر مؤلفو السير والتاريخ أنه لو امتدت به الحياة لكان من كبار علماء عصره وفاق كثيراً من العظماء ، وقد شهد بذلك الصفدى بقوله « لو عاش لكان آية » ، وذكره العلامة الذهبى فى معجمه فقال :

« هو الفقيه المقرئ المجود المحدث الحافظ النحوى الحاذق ، ذو الفنون كتب عنى ، واستفدت منه » (١) .

يقول عنه العلامة أبو الحجاج المزى اعترافاً بفضله : « ما التقيت به إلا واستفدت منه »(٢) .

ونفس هذا الاعتراف مروى عن العلامة الذهبى أيضاً (٣) ، يقول الصفدى :

« كنت إذا لقيته سألته عن مسائل أدبية وفوائد عربية فينحدر كالسيل » (٤) .

ويتحدث عنه الحافظ ابن كثير (صاحب التاريخ والتفسير) فيقول :

« حصل من العلوم ما لا يبلغه الشيوخ الكبار ، وتفنن فى الحديث والنحو والتصريف والفقه والتفسير ، والأصليين والتاريخ والقراءات وله مجاميع وتآليف مفيدة كثيرة ، وكان حافظاً جيداً لأسماء الرجال وطرق الحديث ، وعارفاً بالجرح والتعديل ، بصيراً بعلل الحديث ، حسن الفهم له ، جيد المذاكرة ، صحيح الذهن ، مستقيماً على طريقة السلف واتباع الكتاب والسنة مثابراً على فعل الخيرات » (٥) .

---

(١) الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣ ص ٣٢٢ .

(٢) أيضاً ج ٣ ص ٣٣٢ .

(٣) أيضاً .

(٤) أيضاً .

(٥) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢١٠ .

حياته بإيجاز :

هو شمس الدين محمد الملقب بالعماد ، يكنى أبا عبد الله وأبا العباس ، عرف برجه عام بابن عبد الهادى ونسبه هكذا :

محمد بن أحمد عبد الهادى بن عبد الحميد بن عبد الهادى بن يوسف بن محمد ابن قدامة والموطن الأصيل لأسرته هو بيت المقدس ، ولكنها انتقلت إلى دمشق وسكنت فى الصالحية بدمشق حيث ولد ابن عبد الهادى عام ٧٠٤ هـ [١] قرأ القرآن بقراءات مختلفة ، وقرأ الحديث ومعظم كتب الدرس على القاضى أبى الفضل ، سليمان بن حمزة ، أبى بكر بن عبد الدائم ، عيسى بن مطعم الحجار ، وزينب بنت الكمال وغيرهم من الشيوخ الكبار وأساتذة الفن ، واشتغل بالحديث وفنونه ، وبرع فى الرجال وعلل الحديث بصفة خاصة ، وتفقه فى المذاهب ، كما كانت له براعة كاملة فى الأصلين وعلوم العربية ، يقول ابن رجب :

« ولازم الشيخ تقى الدين بن تيمية مدة وقرأ عليه قطعة من الأربعين فى أصول الدين للرازى » .

أما شيخه فى الفقه فهو الشيخ نجم الدين الحرانى ، لازم المحدث الشهير والعالم الكبير الحافظ أبا الحجاج المزى عشر سنين ، وتلقى العلم من العلامة الذهبى أيضاً ، وقد اعترف الذهبى بتفوقه فى الرجال والعلل والعلوم الأخرى ، وتولى رئاسة التدريس فى المدرسة الصدرية والضيائية لمدة طويلة ، كما ذكره الحسينى ، تحدث ابن كثير عن وفاته فذكر أنه بقى مصاباً بجرح وحمى السل نحو ثلاثة أشهر ، ثم اشتد هذا المرض ، وكثير الإسهال حتى توفى يوم الأربعاء العاشر من جمادى الأولى ٧٤٤ هـ ، قبل أذان العصر ، وقال ابن كثير : أخبرنى والده بالكلمات الأخيرة التى انطلق بها لسانه فكانت « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، اللهم اجعلنى من التوابيين واجعلنى من المتطهرين » وصلى عليه اليوم التالى فى الجامع المظفرى حضر صلاته جميع أعيان البلد من القضاة والعلماء والحكام والتجار والعامة من الناس ، يقول ابن كثير :

« وكانت جنازته حافلة مليحة عليها ضوء ونور ، ودفن فى الروضة بجوار السيف بن المجد » [٢] .

---

(١) ابن رجب ، ولكن عند ابن كثيرة ٧٠٥ هـ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢١٠ .

مـؤلـفـاتـه :

خلف ابن الهادى عدداً وجيهاً من مؤلفاته بالرغم من قصر عمره ، وهى تحتل أهمية كبرى لغزارة موادها وجودة تأليفها وعدد صفحاتها [1] ، ويحتوى عدد منها على عدة مجلدات ونذكر أهم مؤلفاته من بين ما ذكره الحافظ ابن رجب فى ذيل « طبقات الحنبلة »: ١ - الأحكام الكبرى (٧ مجلدات) ٢ - المحرر فى الأحكام (مجلد واحد) ٣ - كتاب العمدة فى الحفاظ (مجلدان) ٤ - تعليقة للثقات (مجلدان) ٥ - أحاديث الصلاة على النبى ﷺ (مجلد واحد) ٦ - الإعلام فى ذكر مشايخ الأئمة الأعلام ، أصحاب الكتب الستة (أجزاء متعددة) ٧ - كتاب ضخم فى مولد النبى ﷺ ٨ - تعليقه على سنن البيهقى (مجلدان) ٩ - ترجمة الشيخ تقى الدين ابن تيمية (مجلد واحد) ١٠ - منتقى من تهذيب الكمال للمزى (٥ - مجلدات) ١١ - منتخب من مسند الإمام أحمد ، (مجلدان) ١٢ - منتخب من البيهقى ، ١٣ - منتخب من سنن أبى داؤد ، ١٤ - شرح الألفية لابن مالك ، (مجلد واحد) ١٥ - نقده لمؤلفات الذهبى والتعقب عليه (فى أجزاء متعددة) ١٦ - الرد على أبى حيان النحوى ، عدا ماله من رسائل مستقلة تطول قائمتها .

ولما ألف العلامة تقى الدين بن السبكى فى الرد على مسألة الزيارة لشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب « شفاء السقام فى زيارة خير الأنام » تناوله العلامة ابن عبد الهادى بالنقد والتحقيق فى ضوء الحديث وألف كتاباً باسم « الصارم المنكى فى الرد على السبكى » وهو خير دليل على براعته العلمية وسعة اطلاعه على السنة ورجال الحديث [2] .

---

(١) ويشبه فى ذلك بعالم الهند الكبير الشيخ العلامة عبد الحى عبد الحليم الأنصارى اللكهنوى ١٣٠٤ هـ الذى عاش ٣٩ سنة فقط ، ولكن خلف ذخيرة كبيرة ومفيدة جداً من مؤلفاته .

(٢) طبع هذا الكتاب لأول مرة فى عام ١٣١٩ هـ فى المطبعة الخيرية بمصر .

ابــن كثيــر

هو عمـاد الدين إسماعـيل بن عمر يكنى أبا الفـداء، ويعرف بابن كثـير ، كان قـيسى الأصل ، ولد فى عـام ٧٠١ هـ بقرية « مـجدل » فى نواحى بصـرى الشام ، حـيث كان والده خطيباً ، وانتقل إلى دمشق فى عام ٧٠٦ هـ مع والده ، وقرأ الفقه على الشيخ برهان الدين الفزارى وغيـره من الفقهاء ، وسمع الحـديث ، ورواه عن ابن السويدى والقاسم بن عساكـر وغيرهما من شـيوخ الحديث ، وهو من أخص تلامـيذ العلامة المزى وكـان صهره أيضاً ، وأكثر رواية عنه ، اشـتغل بالفتاوى والتدريس والمناظرة ، وبرع فى الفقه والتـفسير والنحو ، توسع فى فن الرجال وعلل الحديث واشتهر فيها بدقة نظره وسعة اطلاعه ، درس فى مدرسة « أم الصالح » كما درس فى المدرسـة التنكزية بعد وفاة العلامة الذهبى ، وكان الذهبى يعترف بفضله وعلمه ، يقول :

« هو فقيه متقن ، ومحدث محقق ، ومفسر نقاد ، وله تصانيف مفيدة » .

أما الحافظ ابن حجر العسقلانى فكان معجباً به يقول :

« كان كثـير الاستحـضار ، وسارت تصانيفـه فى البلاد فى حياته وانتـفع به الناس بعد وفاته » .

وبالرغم من أنه شافعى المذهب كان شديد الاعجاب بشيخ الإسلام ابن تيمية ، ومعترفاً بامامته وعظمته ، وقد تلمذ عليه ، يقول عنه ابن حجر :

« أخذ عن ابن تيـمية ففتن بحـبه وامتـحن بسببه » ، وقـد اهتم بذكر سيـرته بغاية من التفصيل والشغف ، ودافع عنه دفاعاً كامـلاً فى كتابه « البداية والنهاية » الذى استفدنا منه فى أكثر المواضع من كتابنا هذا الذى يحتوى على حياة شيخ الإسلام ابن تيمية .

ومن مؤلفات ابن كـثير « التكميل فى معرفـة الثقات والضعفاء والمجاهـيل » فى خمسة مجلدات ، و « الهـدى والسنن فى أحاديث المسانـيد والسنن » و « تخريج أدلة التنبـيه » و «مسند الشيـخين » و « علوم الحديث » و « طبقات الشافـعية » وكان قد بدأ بتـأليف كتاب مبسـوط مفصل فى الأحكام ولكنه ما تم ، وقـد دون مسند الإمام أحمـد بترتيب الحروف وضمنه زوائد الطبرانى وابن أبى يعلى .

إلا أن مآثرته التأليفية تتلخص فى كتابين اثنين نالا حظوة وقبولاً ، ولا تزال الأوساط العلمية تستفيد منهما إلى الآن ، فله كتاب فى تفسير القرآن أسسه على المنقولات والروايات يعتبر أكثر قبولا وثقة بالنسبة إلى مؤلفاته الأخرى ، يقول عنه العلامة السيوطي: « له التفسير الذى لم يؤلف مثله » إذ أن الكتب التى ألفها الناس فى التفسير قبل ذلك كانت تنقصها الأمانة العلمية والاختيار الصحيح للأحاديث ، وكانت تزخر بالأحاديث الضعيفة والاسرائيليات ولكن الحافظ ابن كثير كان محدثاً ناضجاً فألف تفسيره على طريق المحدثين، وإن لم يستطع أن يراعى فيه المستوى الرفيع فى إدراج الروايات كما كان يرجى منه ، وتوسع فى ذلك بعض الشئ ، وأورد فيه جزءاً من الإسرائيليات ، ولكن الحق يقال إن تفسيره هذا - على رغم كل ذلك - أكثر التفاسير ثقة وافادة من وجهة نظر التحديث ، وقد أصدر منذ مدة أحد علماء مصر الأفاضل المعاصرين الأستاذ أحمد محمد شاكر ملخصاً لتفسير ابن كثير باسم « عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير » الذى حذف فيه الأحاديث الضعيفة والإسرائيليات غير الموثوق بها ، والأقوال المتكررة والأسانيد والمباحث الكلامية الطويلة والفروع الفقهية والمناقشات اللغوية واللفظية وكل ذلك مع الابقاء على محاسن الكتاب ومواضع الجمال فيه .

وثانى كتبه المهمة الذى نال قبولاً واعجاباً لدى الأوساط العلمية كلها « البداية والنهاية » الذى صدر من مصر عام ١٣٥١ هـ فى أربعة عشر مجلداً وهو يحتوى - على عادة المؤرخين العرب - على التاريخ ، من أحداث بدء الخليقة إلى أحداث عام ٧٦٧ هـ ، والمعلوم أن تاريخ العلامة ابن أثير المعروف « بالكامل » ينتهى بأحداث عام ٦٢٨ هـ فكان كتاب « البداية والنهاية » زيادة عليه بأحداث وتاريخ قرن واحد وتسع وثلاثين سنة ، وإن هذا العصر ذو أهمية بالغة من ناحية الأحداث التاريخية من جراء الهجوم التتارى وخطورة القرن الثامن الهجرى ، فكان هذا الكتاب لأجل ذلك ولثقته وتفاصيله التاريخية مرجع أكثر المؤرخين .

توفى الحافظ ابن كثير فى شعبان عام ٧٧٤ هـ ودفن بمقبرة الصوفية بدمشق [1] .

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ للحافظ شمس الدين أبى المحاسن الحسينى وذيل طبقات الحفاظ للسيوطى .

الحافظ ابن رجب[1]
وترجمته باختصار

هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب ونسبه هكذا : عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن عبد الرحمن بن الحسن بن محمد أبى البركات مسعود ، وكان موطنه الأصيل فى بغداد حيث ولد فى ربيع الأول سنة ٧٣٦ هـ وفى عام ٧٤٤ هـ سافر إلى دمشق مع والده وهو صغير وسمع الحديث عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الخباز عن إبراهيم بن العطار وغيرهما من شيوخ الحديث وروى الحديث فى مصر عام أبى الفتح الميدومى وأبى الحرم القلانسى وغيرهما يقول الحافظ ابن حجر العسقلانى أنه اشتغل بالحديث وأكثر روايته ، حتى برع فى فن الحديث وقد تحدث عنه الحافظ أبو الفضل تقى الدين بن فهد المكى المتوفى سنة ٨٧١ هـ وقال فى « لحظ الألحاظ » هامش « تذكرة الحفاظ » : « الإمام الحافظ الحجة والفقيه العمدة أحد العلماء الزهاد والأئمة العباد مفيد المحدثين ، واعظ المسلمين »[2] ، وهو يشيد به عندما يذكر ترجمته ، ويقول : « كان إماماً ورعاً زاهداً ، وضع الله حبه فى القلوب ، أجمع الناس كلهم على صلاحه وفضله ، مجالس وعظه عامة وذات فائدة وتأثير كبيرين»[3] ، ويقول الشهاب بن الحجى عن فضله العلمى : كان محققاً ذا بصيرة فائقة فى فن الحديث ، وكان أكثر معاصريه إطلاعاً على علل الحديث وطرقه وأن أكثر العلماء الحنابلة فى عصرنا من تلاميذه .

توفى فى رجب سنة ٧٩٥ هـ ودفن فى الباب الصغير بدمشق[4] ، ويقال أنه جاء إلى حفار فقال له أحفر لى هنا لحداً وأشار إلى بقعة ، قال الحفار : فحفرت له فنزل فيه فأعجبه واضطجع وقال هذا جيد فمات بعد أيام فدفن فيه »[5] .

---

(١) على أن الحافظ ابن رجب ليس تلميذ شيخ الإسلام عن طريق مباشر وقد ولد بعد وفاته بثمانى سنوات ، ولكنه تلميذ تلميذه النابغة الحافظ ابن القيم ومعجب بهما جميعاً ، وهو يعتبر من رجال شيخ الإسلام ومقلداً له فى كل شئ سوى عدة مسائل .

(٢) لحظ الألحاظ ص ١٨٠ .

(٣) أيضاً ص ١٨١ .

(٤) أيضاً ص ١٨١ .

(٥) الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٢٢ .

مؤلفاته :

ومن مؤلفاته شرح لجامع الترمذى وجزء من صحيح البخارى وكان قد سمى شرحه للبخارى « فتح البارى » ولكنه لم يكتمل ، وذيل على « طبقات الحنابلة » لأبن أبى يعلى[1] ، وكتاب بأسم « اللطائف فى وظائف الأيام » بأسلوب الوعظ ويشتمل على الفوائد والقواعد الفقهية وشرح « الأربعين » للأمام النووى وكان يضم ٤٢ حديثاً فزاد إليها ثمانية أحاديث ، وقد صدر هذا الشرح بأسم « جامع العلوم والحكم شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم » فى عام ١٣٤٦ هـ من مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ، وشرح مستقل آخر لحديث « ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم الخ » ورسالة » فضل علم السلف على الخلف » وقد طبعت هذه الكتب الثلاثة الأخيرة ونالت رواجاً ، وتتجلى فى مؤلفاته روح الحافظ ابن القيم الاصلاحية والدعوية وحلاوة أسلوبه وطلاوته .

وهناك عدد وجيه من العلماء فى القرن الثامن والتاسع عدا تلاميذ شيخ الاسلام ابن تيمية وتلاميذ تلاميذه المذكورين ممن لا يصرح التاريخ بأنهم تلاميذ مدرسة شيخ الاسلام الا أن مؤلفاتهم تنطق بأفكار شيخ الاسلام وروحه وعلمه ، ودعوته ، وسواء استفاد هؤلاء العلماء من تلاميذ شيخ الاسلام ومؤلفاته أم لم يستفيدوا ولكنهم لاتحاد ذوقهم وفكرهم جديرون بالاعتبار فى وصف تلاميذه والمتخرجين من مدرسته .

وأخص بالذكر من بين هذه الشخصيات مؤلف كتاب « الموافقات » البارع العلامة أبا اسحاق الشاطبى (المتوفى ٧٩٠ هـ) الذى يبدو كتابه « الاعتصام » حلقه من هذه السلسلة الاصلاحية التى كان قد بدأها شيخ الاسلام فى عصره ، وهو كتاب جيد فى موضوع السنة والبدعة ويمتاز بمواده الغزيرة وبحوثه الأصولية .

---

(١) توجد نسخة مخطوطة لهذا الكتاب فى مكتبة ندوة العلماء بالهند ، وقد صدر مطبوعاً من دمشق منذ سنوات .

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى الكتاب

الحمد لله رب اعالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد واله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

وبعد فإن الحكاية يرجع تاريخها إلى عام ١٣٥٤ ـ ١٣٥٥ هـ (٣٥ أو ١٩٣٦ م) حيث أوصانى أخى ومربىّ الدكتور السيد عبد العلى الحسنى رحمه الله أمين ندوة العلماء ـ سابقًا ـ بقراءة « رسائل الامام الربانى مجدد الألف الثانى الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندى » وقد كنت ـ إذ ذاك ـ فى الثانية والعشرين ، أو الثالثة والعشرين من عمرى وكنت انخرطت ـ حديثًا ـ فى سلك المدرسين بدار العلوم ندوة العلماء ، ولم يكن لى آنذاك اتجاه كبير إلى الأبحاث العميقة فى الحقائق الدينية ، حقيقة الإحسان ، كما لم أكن على اطلاع على مصطلحات القوم وتعبيراتهم ، بل كان يغلب علىَّ الذوق الأدبى ، وغرام بالكتابات الأدبية العربية ، والدراسات التاريخية ، وكنت ولوعاً بالكتب التى كانت تصدر من دور النشر والمطابع الرئيسية فى القاهرة وبيروت بطباعة أنيقة ، وفى مظهر جميل جذاب، وقد كان أخى الأكبر ـ الذى كنت ترتبيت فى معرفة جيدة ، ولكن لعله بإشارته علىَّ بقراءة تلك المجموعة عن الرسائل للإمام الرهندى كان يريد أن يذكّرنى بما امتازت به أسرتى ، التى أنتمى رليها ، من أصالة فى الفكر ، وعمق فى البحث ، وتقدير للقيم الروحية ، والمثل الخلقية .

وكانت أسرتى منذ ثلاثة قرون ـ على أقل تقدير ـ ذات اتصال وثيق فكريًا وروحيًا ـ مع أسرتَىَّ الإمام السرهندى ، والإمام أحمد بن عبد الرحيم المشهور بولى الله الدهلوى .

وكانت عندنا فى مكتبة والدى نسخه عتيقة من مجموعة « رسائل الإمام السرهندى » صدرت من إحدى الطابع الهندية ، وكانت هذه النسخة تشتمل على ثلاثة مجلدات ، فبدأت بمطالعتها نزولا على رغبة أخى الأكبر ، وبدافع الطاعة له ، إلاَّ أننى لم أستطع المُضىَّ فى الطريق ، ولم أصبر معها طويلاً، حتى تركت الكتاب ، وقد كانت معاناتى ، من الرسائل التى كتبها الإمام إلى شيخه ، ومربّيه الروحى الشيخ الكبير الشيخ عبد الباقى البدخشى الدهلوى النقشبندى ، والتى شرح فيها تجاربه وخواطره الشخصية فى مجال التربية والسلوك إلى الله ، ولكن إلحاح أخى الأكبر وتوجيهه ـ باستمرار ـ إلى قراءة هذه

الرسائل ، وقراءة « ازالة الخفاء » للإمام ولى الله الدهلوى ، و« الصراط المستقيم » للسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، و« منصب الإمامة » للعلامة محمد إسماعيل الشهيد ، دفعنى إلى اجتياز هذه العقبة ، مهمـا كلف ذلك من مشقة وعنت ، وهاجت الغيرة فى نفسى وتحمّست وقلت لا يتسنّى لى إهمال وصية أخى الأكبر ، وهو من هو فى عطفه وحنانه ، ثم يسبب هذا الإهمال الحرمان من قراءة كتاب مبارك ، عرف كبار العلماء المشايخ الأجلاء بإجلاله وتقديره والعناية به .

وحالفنى التوفيق فمضيت ، كلما ازددت قراءة لهذه الرسائل ازددت رغبة فيها وتذوّقًا لها ، وبدأت أسيغ الموضع فى حدود علمى وقدرتى على الفهم، حتى أخذ الكتاب بمجامع قلبى وأصبحت له أسيرًا ، أشعر فيه بلذة غريبة ، وطعم لذيذ ، لا أكاد أجده فى الكتب الأدبية الممتعة ، وكانت هذه الفترة الزمنية من أدق فترات حياتى ، فقد كان الزمن زمن المراهقة الفكرية وشرخ الشباب ، والصراع النفسى والعقلى ، لأسباب يطول ذكرها ، اعتورتنى فيها بعض الإبتلاءات القاسية ، فكان الكتاب فى كل ذلك خير مرشد وموجّه ، لعلها كانت جديدة علىَّ تمامًا ، لم يسبق لها فى حياتى مثيل، وقد انتهى ذا السير الذى كنت أسير فى الكتاب لمجرد طاعة أخى الأكبر ، والذى كان يغلب عليه دافع الغبرة واتباع الأمر، إلى سرور ونشوة، ومتعة روحية .

ثم بعد مدة يسيرة من الزمن بدأت بقراءة هذا الكتاب مرة ثانية ، أقصد فيها جمع ما تكرر وانتشر فى مواضع مختلفة من الكتاب فى موضع واحد، وفى مقصد من المقاصد التى يتناولها الإمام ، ووضع العناوين لها ، كانت الخطوة الأولى لهذا العمل إعداد فهرس جامع لموادّ الكتاب ومحتوياته ، كالتوحيد الخالص ، وإبطال الشرك ، وغير ذلك ، فتتبعت ما جاء فى كل موضوع من هذه المواضيع ، وأشرت إليه بذكر الأرقام المتسلسلة للرسائل وأرقام الصفحات فبحثت ـ مثلا ـ عن الحديث عن السنة والبدعة ، وأين تعرض لإبطال البدعة الحسنة ، وأنها ليس لها وجود ، وفى أى الرسائل تناول البحث فى « وحدة الوجود» وحدة الشهود » ، وفى أيها وردت الأبحاث العميقة فى موضوع « العقل المجرد » و « الكشف المجرد » ، وبالجملة ، فبعد أن اشتغلت بالفحص والتتبع عدة أسابيع تهيَّأ لدىَّ كشف جامع لجميع المواضيع التى تعرض لها الإمام ، ووضعت هذا الكشف فى داخل هذه النسخة من الكتاب على عزم ترتيب هذه المواد ، ووضعت هذا الكشف فى داخل هذه النسخة من الكتاب على عزم ترتيب هذه المواد المنثورة فى الكتاب تحت عناوين مختلفة ، ثم حدث أن هذا الكتاب استعير من المكتبة ولم يعد إليها كما يقع كثيرًا ، وكان أسفى على

ذهاب الفهرس الذى أجهدت فى وضعه نفسى و أكثر بكثير - بطبيعة الحال - من ذهاب تلك النسخة من الكتاب التى تستبدل بها غيرها ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

ثم خطرت فكرة فى بالى ، وذلك حوالى ٦٤ - ١٣٦٥ هـ (٤٥ - ١٩٤٦ م) وهى أن أرتب هذه الرسائل ترتيبا جديدا مراعيًا فيه المواضيع والأبحاث المختلفة ، وأقدمها بشرح وتعريف يتلاءم مع العقلية الجديدة للنشء الجديد ، بحيث تكون أنفع وأشوق للقارئ الجديد ، وتلقى فيه الأضواء على المآثر التجديدية للإمام السرهندى ، وما كان يتبوأه فى تاريخ الإسلام من مكانة الإمامة والاجتهاد ، فشرعت فى هذا العمل ، وأحببت أن أقدم لكل فصل بكلمة تمهيدية تلخص الفكرة الأساسية ، ولباب التحقيقات العلمية ، والأبحاث الدقيقة المبثوثة فى مختلف رسائله ، فى موضع واحد ، ثم أقدم مقتبسات الرسائل فى تنسيق علمى ، وترتيب موضوعى مفيد ، فأكتب على جانب من الصفحة متن الرسائل بالفارسية وعلى الجانب الآخر ترجمتها الأردية وأذكر فى الحاشية شرح الألفاظ الغريبة ، والمصطلحات العلمية ، وأخرج الأحاديث ، ثم أسوق بعض ما كتب المتقدمون من كبار العلماء المحققين ، مما يؤيد ما ذهب إليه الإمام السرهندى ، كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه ، وأئمة الإسلام ، عبر القرون والأقطار .

وقد كان هذا العمل واسع النطاق يتطلب مراعاة دقيقة للجوانب الكثيرة وتوافراً كاملاً على دراسة العلوم المتنوعة ، ولم يكن إنجاز هذه المهمة الضخمة بميسور على شاب مثلى فى مقتبل العمر ، تتنازع فيه الأعمال التدريسية مع الأشغال التأليفية ، مع الدعوة الشعبية ، والجولات المتصلة .

ولأجل ذلك لم أستطع أن أنجز من هذا العمل إلاّ أبواب التوحيد والنبوة والرسالة ، ثم شغلتنى الشواغل ، وصرفتنى عن هذا العمل الصوارف ، إلاّ أن ما رُفِّقت إليه من العمل فى هذه المدة كان ذا قيمة كبيرة وفوائد كثيرة ونشره الصديق الفاضل الشيخ محمد منظور النعمانى فى مجلته الإسلامية الشهيرة « الفرقان » فى أربع حلقات ما بين ٦٦ - ١٣٦٧ هـ .

وبعد أن انقطعت عن هذا العمل بأعوام ، ثم حين بدأت بتأليف سلسلة س رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » شعرت بضرورة لكتابة فى ترجمة حياة الإمام السرهندى بصورة مستقلة ، بدل أن أقوم بترتيب جديد لرسائله ، وعمل مرهق فى تنسيق محتوياتها ، وموضوعاتها ، ثم لما نشر المجلد الثانى من رجال الفكر والدعوة » وكان يتضمن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحتم علىّ أن أبدأ بترجمة حياة الإمام السرهندى ، وأصبح لزاما أن

يحلىَّ بهذه الترجمة العظيمة المجلد الثالث من « رجال الفكر والدعوة » ، إذ أن هذا العصر المضطرب بالفتن والثورات ، أحوج إلى ذلك بالنظر إلى بعض الجوانب الخاصة وأن تنوير الإمام السرهندى وحكمته العملية لأبناء هذا العصر وقادة الحركات ، والتنظيمات الإسلامية، الذين يسرعون فى تحدّى الحكومات والقوى السياسية ، ويعلنون الحرب عليها من غير هوادة ومن غير استعداد وتريث ، ويجرّونها إلى جبهة معارضة فى بداية المرحلة وأول الطريق ، وتحدُث فى طريق الدعوة ، والعمل البنّاء ، عقبات من دون ضرورة شديدة ومبرّر قوى ، إن عصرنا هذا يحتاج إلى هذه التجربة وإلى هذا المثالث العملى أكثر من كل عصر مضى ، فكيف كان - يا ترى - ذلك المنهج الذى استطاع به إنسان أعزل لا يملك حولاً ولا طولاً ، وهو فى زاوية من زواياه ، أن يغير مجرى التاريخ ويحوّل وجهه الامبراطورية المغولية ؟ .

لقد استرعى انتباهى - أول مرة - إلى هذه الحقيقة العظيمة أحاديث أخى الأكبر ومجالسه العلمية ، ثم عندما قرأت ذلك المقال العلمى اذى دبّجه يراع العلامة السيد مناظر أحسن الكيلانى فى مجلة « الفرقان » الشهرية الغراء ، العد الخاص بالإمام المجدد السرهندى ، قوى إيمانى بهذه الحقيقة وأنا بنفسى فى كثير من مقالاتى ، وخطبى ومحاضراتى [1] ، أوضحت هذه الحقيقة ، وأشرت إلى هذه الناحية التجديدية ، ولا يزال هذا المنهج الربانى المؤثر هو المنهج الميسرّ الذى حقق من النجاح والتوفيق مالم يحققه غيره، وازددت ثقة به ، واعتماداً عليه ، على مرّ الأيام وطول الدراسة ، والعناء والبحث .

ولكنى كلما فكرت فى إفراد كتاب لترجمة هذه الإمام اعترضتنى عقبتان:

أولاهما أن أى كتاب يتناول سيرة الإمام السرهندى لا يمكن أن يخلو من إثارة قضية «وحدة الوجود » و « وحدة الشهود » وشرحهما وإفهامهما للنشء الجديد ، والمقارنة بينهما، وترجيح نظرية « وحدة الشهود » مع الأدلة العلمية ، والمناقشة الناقدة الدقيقة ، فحين كانت تتمثل لى هذه المهمة الضخمة تكلّ عنها قواى ، وينصرف عنها قلمى لأمور ،

---

(١) كالمحاضرة التى ألقاها المؤلف فى حفلة تكريم وترحيب ، عقدتها جمعية شبان المسلمين فى ٤ من جمادى الأخرة سنة ١٣٧٠ هـ بالقاهرة حضرها عدد وجيه من علماء مصر ، وأساتذة الأزهر وأعضاء هيئة كبار العلماء وقادة الجماعات ، بعنوان « الدعوة الإسلامية فى الهند وتطوراتها »، أو كالمحاضرة التى ألقاها فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة « منهج أفضل فى الاصلاح للدعاة والعلماء » فى شعبان سنة ١٣٨٩ هـ .

منها : أن هذا الموضوع قد تكونت فيه مكتبة واسعة لا يتيسر الاختيار منها ، وتلخيصها واختصارها ، ثم أن هذه القضية تحتاج إلى المباحث الفلسفية الدقيقة ، وتفسير المصطلحات الفنية التى كثر فيها النزاع ، وثار حولها الجدال ، ولا يمكن بدون ذلك الخوض فى الموضوع، أضف إلى ذلك أن هذه القضية عملية ذوقية تجريبية . ، أكثر منها نظرية وعلمية، تعتمد على أحاسيس ومشاعر خاصة ، وتجارب شخصية وليس المؤلف منها فى عير ولا نفير ، كما أن كثيرا من قارئى هذا الكتاب لا يجهلون هذه العلوم فحسب ، بل ينفرون منها ، ويستوحشون من ذكرها ، فما كنت أعرف تجاه هذه المشاكل طريق التغلب عليها ، ومن لى بالظفر فى هذه المفازة الطويلة ؟ ، وإذا تجرد الكتاب عن هذه الفصول المهمة ـ التى يعتبرها بعض العلماء مجالا حقيقيًا لتجديده ، ويتركز عندهم فيها سرُّ عظمته ومأثرته التجديدية ـ فكيف يعتبر الكتاب ترجمة جامعة لحياته وتعريفًا كاملا بأعماله ؟ .

كان يعترضنى ، ويمسك بعنان قلمى عن الجريان ، فى هذا المجال وجود مكتبة ضخمة فى هذا الموضوع ، وصدور كتب وبحوث حدثت بين آونة وأخرى ، لا يتيسر للمؤلف زيادة ذات قيمة فيها ، وقد غلب على ظنه أن كتابه لا يملأ فراغًا واقعاً فى المكتبة الإسلامية .

وبعد طول تفكير وتردد ونظر ، انحلت المشكلة الأولى ، فقلت : ينبغى أن آخذ بمبدأ « ما لا يدرك كله لا يترك كله » وأقدم على جل هذه المصطلحات وشرحها مستعينًا فى ذلك بما جاء فى كتب الشراح المحققين من علماء المدرسة الفكرية للشيخ محيى الدين بن عربى ، وما جاء فى هذه الرسائل نفسها من إشارات وتفسيرات ، حتى يتيسر للقارىء الوقوف على هذا العلم ـ بصورة إجمالية ـ ومن أحب أن يستزيد وساعده التوفيق يرجع إلى المصادر الأساسية ، أو يراجع العلماء المتخصصين فى هذا الفن ، والغواصين فى هذا البحر الزاخر ممن رسخوا فى هذا العلم ، وتذوقوه وفقهوه ، و« قليل ما هم » .

أما العقبة الثانية ، فهو النظر إلى المكتبة العظيمة الواسعة اتى تكونت فى سيرة الإمام السرهندى ، والتعريف برسائله العظيمة ، ومآثره الخالدة ومناقبه ، الجمة ، وقد كنت أقف حائراً متهيبًا أمامها ،أستصغر نفسى واستبعد الزيادة فيها أو الإضافة إليها بشىء جديد ، وقد هدانى لتذليل هذه العقبة المثل العربى العلمى « كم ترك الأول للآخر » لقد تناول تجديد الإمام السرهندى وأعماله العظيمة ، الكثير من الكتاب والمؤلفين ، وكتبوا فى هذا الموضوع الشىء الكثير ، ولكن لا يزال هناك جوانب بحث وتحقيق تحتاج إلى رفع اللثام ، ومسك الختام ، ومغامرة جديدة واقتحام .

ثم إن تغيرُ الأساليب ، وطرائق البيـان ، وتغير الأوضاع والظروف ، والمثل والقيم ، والمناهج فى الإفهـام ،والتعبيـر ، يجعل الكتب التى ألفت قـبل مدة من الزمن ـ فى بعض الأحيان ـ فى حاجة إلى نقـل وتعبير جديد ، كأنها كانت مكتوبـة بلغة أخرى ، كما أن كل مؤلف له طـريقته ومنهـجه فى الاسـتنتاج من الوقـائع والاستنبـاط من الأحداث ، وربط النتائج العلمية بالأسباب المؤثرة .

ورأى المؤلف أنه إذا تم هذا العمل بإخلاص وصفاء نية وجهود موفقة ، فإنه لا يكون عملاً نافعًا مـستمرًا فحسب ، بل سيكون ـ إذا قدر الله تعالى ـ هدية قيـمة ، ورسالة حية للقرن الخامس عشر الهجرى ، ووثيقة تاريخية لمنجزات عبد صالح من عباد الله المخلصين ، قام بهـا فى دأب وصمت ، وتواضع وخشوع ، ولم يقـتصر تأثيرها على قـرن واحد ، بل امتد حتى شمل الألف الثانى كله ، وهى تحمل لهذا القرن الذى نفتتحه ، والذى تغيرت فه الأوضاع تغيرًا كبيرًا ، درسًا للعظة ، والعبرة ، والستفادة .

وإنه يلهج قلب المؤلف وقلمـه بشكر الله تعالى وبحمـده ، والثناء عليه إذ وفقه بعد فترة طويلةة دامت ربع قرن[1] ، لا ستئناف سلسة « رجال الفكر والدعوة » ، وتأليف الجزء الثالث منها ، وقد طالت هذه الفترة حتى خاف المؤلف أن ينتهى الأجل دون استكمال هذه السلسة الطيبة التى باركـها الله تعالى ، ونفع بها خلقًا كثيـرًا ، وكان هذا الجزء الثالث يبحث عن الشخـصية الفريدة التى حازت من القـبول والعظمة والصيت البعيـد فى جهوده الموفقـة لتجديد الدين ، مـا لم يحظ به أى مصلح وداع فى تاريخ الإصلاح والتـجديد فى القرون الأخـيرة ، حتى إن اشـتهاره بـ « مـجدد الألف الثانى » طغى على اسـمه ، وحل محله ، ولا يعرفه كـثير من المثقفين إلاَّ بهذا اللقب، هذا فـى جانب ، وفى الجانب الآخر كتب لجهـوده التجديدية العظيمة من النجـاح والتوفيق ، ومن النتائج الباهرة المستـمرة ، ما يندر نظيره فى تاريخ الدعوة والإصلاح والتجديد فى الإسلام ، كان ذلك يحثنى على وضع هذا الكتاب ، كمـا أن إلحاح القراء لسلسة « رجال الفكر والدعوة » والمقـدرين لفضلها لغ من الجد والصرامة حتى دفعنى إلى التفكير فى إكمال هذا الجزء بأسرع وقت ممكن ، بل إن كثيرًا من أصـدقاء المؤلف المخلصين ممن يمتازون بدراسة هذا الموضوع والتعـمق فيه ، كانوا

---

(١) كان صدور المجلد الثانى من « رجال الفكر والدعوة » وهو خاص بسـيرة شيخ الإسلام ابن تيمية ، ودوره فى الاصلاح والتجديد ، سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) وقد تأخر صـدور ترجمته بالعربية الى سنة ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) فكان بين تأليف الجزء الثانى والجزء الثالث فترة ثلاث وعشرين سنة.

يشيرون عليّ بأن أتفرغ لهذا الموضوع تفرغًا كاملاً وأقدّمه عى سائر الأعمال التأليفية الأخرى.

ولكن معالجة هذا الموضوع لم تكن بالأمر الميسور كما كان يبدو لكثير من الناس ، فما كان يغنى ـ نظرًا إلى مقتضيات الحاضر ، والمقاييس الجديدة للبحث والدارسة والتحقيق ـ أن يقتصر على عرض وتلخيص واختيار ، مما جاء فى كتب التاريخ والتراجم القديمة ، بل كان الموضوع يحتاج إلى دراسة العصر الذى عاش فيه الإمام السرهندى وخلفياته ، والبيئة التى تربى فيها ، والأجواء التى قام فيها بدوره التجديدى ، علميًا وتاريخيًا ، وسياسيًا وخلقيًا، واجتماعيًا وعقائديًا ، دراسة ناقدة دقيقة ، فما هى الحركات التى كانت تعمل آنذاك؛ وكيف كان الاضطراب الفكرى ، والقلق الدينى سائدًا فى الهند ، وما يجاورها من البلدان ، وكيف بدت طلائع الثورة على الشريعة والسنة فى الأوساط العلمية والعقلية ، وما هى تلك المؤامرات والدسائس التى كانت تحاك حول الإسلام ، وما هى تلك الأمانى اللذيذة ، والأحلام المعسولة التى راودت كثيرًا من المغامرين الطموحين ، لقرب انتهاء الألف الأول من التقويم الإسلامى وغرست شكًا وارتيابًا فى القلوب المريضة، والنفوس القلقة ، فكانت فتنة الفلسفة والعلوم العقلية فى جانب ، وفتنة الإشراق والباطنية التى حاولت النيل من عظمة النبوة والرسالة المحمدية، وادعت أن العقل والفلسلفة ، والرياضيات الشاقة ، والمجاهدات الرهبانية ، وقمع الشهوات النفسانية ، كفيل بمعرفة الله معرفة صحيحة،والوصول إليه ، ونيل الحظوة عنده ، والنجاة من عذابه ، وما جرته عقيدة « وحدة الوجود » المتطرفة من حرية مطلقة ، وإلحاد وزندقة .

زد إلى ذلك أنه لم تعد فى هذا العصر للسنة النبوية ، والشريعة الإلهية أهمية ومكانة إلا عند القليل من العلماء الراسخين ، والمشتغلين بعلوم السنة والحديث ، وسيطرت البدع بصورة علنية ـ تارة ، ومستترة بستار « البدعة الحسنة » أخرى على المجتمع المسلم ـ وسرت أدواؤها فى حياة المسلمين العملية ، ولم يكن هناك من يتشجع على مقاومة فكرة « البدعة الحسنة » .

وأدهى من كل ذلك وأمرّ أن الامبراطورية المغولية العظيمة ـ التى كانت تلى الامبراطورية العثمانية فى السعة والقوة (١) والمجتمع المسلم الكبير الذى كان يعيش تحت ظل

(١) كانت الامبراطورية المغولية تلى الامبراطورية العثمانية فى الرقعة ، والقوة العسكرية ، والوسائل والذخيرة ، وكانت حدودها تمتد من بنغال الشرقية الى حدود أفغانيستان الغربية .

هذه الامبراطورية ـ بدأت وجهتهما تتحول ـ بتأثير بعض الأغراض الشخصية ، والميول والاتجاهات الفردية ، والتأثيرات الخارجية والمصالح السياسية المزعومة ، من الارتباط بالدين الإسلامى ، والتمسك بأهداب النبوة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ وتمثيل الحضارة الإسلامية ، إلى الفلسفة البرهمية ، والحضارة الهندية ، ونظرية « وحدة الديانات»[1] ، وكان فى مقدمة المخططين لهذه السياسة والمدبرين لهذه المؤامرة ، من يعتبر من نوابغ هذا العصر ذكاءً وعلمًا ، وعبقرية أدبية وعقلية ، فكانوا يهتفون بأعلى صوتهم «قد أظل العالم الإنسانى ـ بما فيه العالم الإسلام ـ بدخول الألف الثانى ، عصر جديد ، يحتاج إلى دستور جديد للحياة ، وقيادة جديدة فتية للمجتمع البشرى والإسلامى » .

فكيف تغلّب الإمام على هذا الوضع الشاذ ، وكيف غير هذا التيار الجارف ؟ وكيف كانت عملية « صناعة الرجال » وصنع العبقريات ، فى زاوية بعيدة عن صخب الحياة ، وما هى تلك التربية الخلقية ، والتزكية الربانية التى تخرج فى مدرستها رجال يتجمل بهم التاريخ ، والذين ألقوا رحالهم فى مختلف أقطار الهند ، واتخذوها مركزاً وقاعدة ، لنشاطهم الدَّعَوى وعملهم التربوى ، وانتشر كثير منهم فى أفغانستان وتركستان ، وامتدوا إلى العراق لإعلاء كلمة الله ، وإحياء السنن المماتة ، والذب عن الشريعة الغراء ، ومقاومة البدع والمنكرات ، وإزالة الآثار التى خلفها دعاة «وحدة الوجود » المتطرفون والصوفية المتحررون المنحرفون .

وخلاصة جهودهم أنهم نفخوا روحًا جديدة فى المجتمع المسلم لعبادة الله وحده ، وابتغاء مرضاته ، وتعظيم شريعته ، وحرماته ، ولم يزالوا على هذا الدرب ثلاثة قرون متوالية ، مواصلين جهادهم وجهودهم بقوة إرادة ، وعلوهمة ، وانصراف تام ، حتى شمل تأثيرهم العالم الإسلامى كله ، فلا نجد بقعة من بقاع العالم الإسلامى إلاَّ وتشهد فيها آثارهم وثرات جهودهم وحُقَّ لهم أن تنسب هذه القرون الثلاثة إلى إمامتهم وقيادتهم وتربيتهم ، عدما يشهد المؤرخ المنصف هذا التأثير العالمى العظيم ، يمتلىء قلبه إعجابًا بهذه الشخصية الفريدة ، التى غيرت مجرى التاريخ .

---

(١) يعنى ان الأديان كلها سواء ، كلها طرق موصلة الى الله ، تتحد فى الغاية والصحة ، وتختلف فى بعض المظاهر والشعارات ، وتسمى الله باسماء مختلفة تتفق فى الحقيقة الجوهر ، ولا تزال لها دعوة قائمة يدين بها ، ويدعو اليها بعض كبار المفكرين والزعماء السياسيين القوميين فى الهند ولعل الزعيم غاندى كان من أصحاب هذه الفكرة .

وقد كـان مما ينبغي مـلاحظته بهـذا الصدد والعناية به لمؤرخ حـاذق ، أمران آخران ، أولهما : أنه لا ينبغي الاقتصار فى إلقاء الضوء عى عصر الإمام السرهندى ، وتصوير الفترة التى تربع فيهـا الملك جلال الدين أكبر التيـمورى عرش المملكة الهندية العظيمـة على كتاب «منتخب التـواريخ » للعلامـة عبد القـادر البدايونى [1] وعى تلك المراجع التـاريخيـة التى وصفت فى الأيام الأخيـرة بأنها ألفت تحت ضغط عواطف دينية حـادة ، أو من وجهة نظر خاصة وتواضعت على تصوير عهد الملك أكبر تصويراً قاتماً مظلماً ، بل ينبغى الاستفادة من كـتب أولئك المؤرخين المحايـدين أو من تقريرات أولئك المحـررين وأصـحاب الأقـلام فى البلاط الملكى ، الذين لم يكونوا ممن يخالفون الملك أكبر فحسب ، بل كانوا يدافعون عنه، ويدعون إلى أفكاره وأهدافه ، وكـانوا معجبين بدستور الدولة ، الذى وضـعه ، كما أنهم يتغنون بفضله وعبـقريته ، ومواهبه الفذة ، وينبغـى أن ندرس تلك التطورات والتغيرات ، التى بدأت من عهد الملك جـهانكير ، وتكاملت فى عهد السـلطان أو رنك زيب عالمكير ، دراسة تاريخية نـاقدة ، ويستفاد فى ذلك من كتب مـؤرخى الهند المحايدين ، ونبرهن على هذه الدعـوى فى ضـوء كـتاباتهـم ، لا فى ضوء كـتـابات المؤلفين عن الأسـرة المجـددية والمؤرخين المتحمسين لهذه القضية ، حتى تكون الدارسة محايدة منصفة للفريقين .

وكان من اللازم أيضًا أن تسـتعرض تلك الكتب والمقالات التى ظهرت فى الخـمسينات الأخيرة من هذا القـرن عن الإمام السرهندى باللغتين الأردية والإنجليـزية فى الهند وخارج الهند ، وفى بعض هذه الكتـابات تحدَّى المؤلفـون كثيـراً من الحقـائق المعروفة والمـسلمة ،

---

(١) كان العـلامة عبـد القادر بن ملوك شاه البـدايونى (م ١٠٠٤ هـ) مؤرخًا أمـينًا ، دقيق الملاحظة والنظر ، مولفًا شجاعا ، لا يحابى أحداً . ، (اقرأ ترجمته فى الجزء الخامس من « نزهة الخواطر » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى رح) وقد انتقد الامبراطور « أكبر » انتقاداً لاذعًا ، وصوره تصويراً لا يرضى متملقيه ومطريه ، من أنصار التسـامح الدينى المزعوم الذى اشتهر به « والدعوة الى الدين الإلهى (وبالأصح الأكبرى) التى قادها ، وتزعمـها ، من المؤرخين « العلمانيين » الأحرار فى هذا العصر ، وقد قاموا بحملة هوجاء ضد البدايـونى وكتاباته ، وقللوا من قيمة الكتب التى تعتمد على شهاداته ومعلوماته .

وقد رأى المؤلف من المـصلحة أن لا يعتـمد هذا الكتاب الجديد عـلى ما جاء فى كتـاب « منتخب التواريخ » للبـدايونى فحسب ، لئـلا يتخذ ذلك المغرضـون وسيلة للحط من قيـمة كتابه العلمية والتاريخية ، فاسـتشهد فى وصف « أكبر » وعرض عقائده واتجاهاتـه وتقنياته على بيان أصدقائه ، ورجال بلاطه الأوفياء المتشيعين له.

وأثاروا أسئلة جديدة ، وعرضوا صورة ـ لاستنتاجهم من الوقائع والأحداث على منهجهم الخاص ـ تختلف كل الاختلاف عن تلك الصورة الوضاءة النيرة التى دأب أكثر المؤرخين على إبرازها وعرضها ، ولا يستلزم ذلك أن يسمى كل واحد من هؤلاء المؤلفين والكتاب ، ويرد على دعاويهم واحداً واحداً ، بل إن هذه السيرة المعروضة للإمام السرهندى عرضًا جديدًا ، وهذه الدراسة لأعماله التجديدية ، وعصره وبيئته ، سوف تكون ردًا حاسمًا على شبهاتهم وتفنيداً لدعاويهم .

وإننى ـ مع زحمة الأشغال ، وكثرة الأسفار داخل البلاد وخارجها ، وقلة المساعدين فى هذا العمل ـ حاولت جهدى أن يظهر هذا الجزء من سلسلة « رجال الفكر والدعوة » الذى يشتمل على حياة الإمام السرهندى ومنجزاته وأعماله ، يحمل مواد جديدة ، لم تعرض بعد ، ونتائج جديدة ، تدعوا إلى التفكير والتأمل ، وتبعث على الأمل والتفاؤل ، لعلنا بذلك نقوم ببعض واجبنا نحو هذا العصر ، ونحقق بعض متطلباته ، ونستقبل به القرن الخامس عشر الهجرى .

وإلى القراء هذا الكتاب ـ الذى ألّف فى لغة أردو ـ منقولاً إلى اللغة العربية ، وقد قام بعملية الترجمة والتعريب ـ العسيرة الدقيقة لاختلاف نفسيتى اللغتين ومحيطهما ، ودقة الموضوع ـ العزيز السيد سلمان الحسنى الندوى ـ بارك الله فى حياته ونفعه ونفع به ـ خير قيام ، وقد انجز العمل وأتمه فى مدة قريبة ، فله دعاء المؤلف وشكر القراء ، والأجر من الله الكريم .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

٢٦ / جمادى الأولى ١٤٠٠ هـ

١٣ / إبريل ١٩٨٠ م٥٢١

أبو الحسن على الحسنى الندوى

الباب الأول

العالم الإسلامى فى القرن العاشر
أهمية الدراسة التاريخية للقرن العاشر الهجرى

ولد الإمام السرهندى فى شوال عام ٩٧١ هـ ، وتوفى فى صفر عام ١٠٣٤ هـ ، وهكذا يحتوى عصره على التسع والعشرين سنة الأخيرة من القرن العاشر ، وما يقارب الثلاثة والثلاثين سنة الأولى من القرن الحادى عشر ، فالذى يؤرخ عصره وحياته ، ينبغى أن يعنى بهذه الثلاث والستين سنة إذ هى مدة حياته ، وهى التى تمتد من الثلث الأخير للقرن العاشر إلى الثلث الأول من القرن الحادى عشر .

لكن ليست ولادة إنسان ـ مهما امتاز به من قوة الشخصية ، وتأثير فى عهده وبيئته ـ بداية حتمية لعهد جديد ، يبرز من كتم العدم إلى حيز الوجود كما أنه ليس من المعقول أن لا تؤثر فيه تلك الوقائع والأحداث ، والعوامل التاريخية ، والخلفيات العلمية والعقلية ، والقوى المسيطرة ، والحكمات الموجودة التى كانت تعمل عملها قبل أن يولد ، وكانت تترك على البيئة والمجتمع اثاراً كبيرة ، لذلك فإنه يتحتم علينا عند الحديث عن حياة الإمام السرهندى ، ودراسة أعماله الإصلاحية والتجديدية ، وإدراك طبيعة عصره ، وتقييم ما كان يواجهه فى عمله التجديدى من صعوبات وتسهيلات، والمقارنة بينه وبين غيره ، أن ندرس العالم الرسلامى ـ كما كان فى عصره ـ سياسيًا ودينيًا ، وعلميًا وخلقيًا ، ذلك العالم الرسلامى الذى واجهه الإمام منذ عقل وبدأ يعى ويشعر ، والذى كان عليه أن يقوم فيه بدوره التجديدى الإصلاحى الذى حول تيار الحوادث ، وأرغم التاريخ على أن ينحو نحواً جديداً واستحق به ـ عن جدارة كاملة ـ أن يلقّب بمجدد الألف الثانى .

وينبغى ـ ونحن فى هذه الدراسة ـ أن لا نغفل حقيقة ذات شأن وهى أن العصر الذى يولد فيه الإنسان ، والعالم الذى يعاصره ، والمجتمع الإنسانى الذى يعيش فيه ، هو كالنهر الجارى ، تتصل كل موجة فيه بالموجة الأخرى، وتتّسق معها ، فلا يمكن ـ لأجل ذلك ـ أن يبقى بلد ـ مهما كان بعيداً نائيًا، يعيش فى عزلة عن سائر العالم ـ غير متأثر بالأحداث الخطيرة والثورات العظيمة ، والقوى المتحاربة ، والحركات المؤثرة القوية التى تجرى فى الميدان العالم الأخرى ، لا سيما إذا كان مركز هذه الأحداث والوقائع ، والثورات

والتطورات ، بلداً يشاركه فى العقيدة والمذهب ، والمشرب ويجاوره فى المكان ، ولذلك فلا يجوز للمؤرخ البصير فى هذه الدراسة التاريخية أن يقتصر على الهند فحسب ، بل يلزمه أن يلقى نظرة عامة على العالم الإسلامى كله فى القرن العاشر ، لا سيما البلدان المسلمة المجاورة ، التى كانت بينها وبين الهند أو اصر علمية ، ودينية وحضارية ، وكانت تصل إليها لفحاتها الشديدة اللاذعة ، ونفحاتها الرخية الناعمة ، على بعد الدار وطول المسافة .

الوضع السياسى :

لقد نال الشرق الأوسط ـ وهو المنطقة المركزية للعالم الإسلامى ـ فى أوائل القرن العاشر ـ بعد زمن طويل ـ (ولعله بعد السلطان صلاح الدين الأيوبى المتوفى ٥٨٩ هـ) استقراره السياسى ، واجتمعت البلدان العربية الواقعة فى آسيا الغربية تحت الراية التى كان رافعوها يعتزون بلقب « حامى الإسلام ، وخادم الحرمين الشريفين ، وحارس المسلمين » وكانوا قد نفخوا فى الخلافة الرسلامية ـ التى عادت فى مصر كالبابوية النصرانية بعد استشهاد اخر الخلفاء العباسيين « المستعصم بالله » عام ٦٥٦ هـ ـ حياة جديدة ، ولو كان ذلك تحت مصالحهم السياسية ، فقد فتح ياور السلطان سليم الأول مؤسس الخلافة العثمانية ـ ٩١٨ ـ ٩٢٦ هـ بلاد الشام عام ٩٢٢ هـ ، ومصر عام ٩٢٣ هـ ، التى كانت تحت حكم المماليك منذ قرنين ونصف قرن من الزمان ، وكان حاكم مصر ـ حين زحف إليها السلطان سليم ـ قانصوه الغورى ، وأعلن السلطان سليم فى نفس سنة ٩٢٣ هـ إعادة الخلافة ، وأنه خادم الحرمين الشريفين ، ووصّى أمينًا عليهما من قبل المسلمين ، ودخلت بعد ذلك جزيرة العرب ، ثم البلدان العربية الإسلامية ، الواقعة فى أفريقيا الشمالية ـ عدا المغرب ـ تدريجيًا تحت حكم السلطان سليم ، ثم تحت حكم خليفته السلطان سليمان القانونى (٩٢٦ ـ ٩٧٤ هـ) الذى يذكره المؤرخون الغربيون باسم Sulaiman) The Magnificent) يعنى سليمان الكبير العظيم .

وقد كان عهد سليمان ـ الذى ولد الإمام السرهندى قبل وفاته بثلاث سنوات ـ عهد ازدهار الامبراطورية العثمانية ورقيها ، إذ كانت ترفرف رايتها عل النمسا والمجر فى أوربا ، وتزحف جيوشها المنتصرة ـ فى جانب آخر ـ إلى إيران ، وكانت العراق كذلك ، مثل الشام ومصر ، انضمت إلى مملكه الواسعة ، فكانت حاكمًا لأكبر إمبراطورية على الأرض فى عصره ، أما فى عهد السلطان مراد الثالث ٩٨٢ ـ ١٠٠٤ هـ فقد اشتملت مملكته على

جزيرة قبرص وتونس ، وعدد من ولايات إيران ذات الخصب والريع الكثير ، واليمن ، وتم فى عصره عام ٩٨٤ هـ بناء الحرم المكى الشريف ، وكان الإمام السرهندى ـ إذ ذاك ـ قد بلغ سن الشعور ، وليس ببعيد أن يكون على علم بهذه الأحداث ، وطبيعي أن يكون المسلمون فى ذلك العصر ـ ولو كانوا مسلمى الهند ـ يشعرون بفرح واعتزاز إزاء فتوح الدولة العثمانية ، واتساع رقعتها رُقد كان الأتراك العثمانيون معروفين بصلابتهم فى العقيدة السنية ، وتمسكهم بالمذهب الحنفى ، الذى كانت تدين به أكثرية مسلمى الهند .

وظهرت فى بداية هذا القرن عام ٩٠٥ هـ الأسرة الصفوية فى إيران وكان مؤسس الدولة الصفوية الشاه إسماعيل الصفوى ٩٠٥ ـ ٩٣٠ هـ ، وقد أحكمت هذه الأسرة ـ تدريجيًا ـ استيلاءها على هذه المنطقة كلها ، واستقلت استقلالاً تامًا ، وكانت حكومة قوية إزاء الدولة العثمانية ، وقررت المذهب الإمامى الجعفرى ـ خلافًا للدولة العثمانية ـ مذهب الدولة الرسمى ، واستخدم إسماعيل الصفوى كل الوسائل ، واستغلّ السلطة لنشر هذا المذهب ، والدعوة إليه . وحاز فى سبيل ذلك نجاحًا عظيمًا منقطع النظير فى تاريخ الحكومات التى تعنى بتحويل الاتجاه الدينى للمصالح السياسية فأصبحت هذه الحكومة ـ بعد أن أقامت على حدودها سورًا بشريًا يقوم على الخلاف المذهبى ـ بمعزل عن أن تذوب فى دولة العثمانيين التى انتشر فيها من شاركهم فى المذهب السنى الحنفى ، من القسطنطينية إلى لاهور ودلهى ، وكانت الأسرة الصفوية تحكم من بغداد إلى هرات .

وكان شاه عباس ٩٩٥ ـ ١٠٣٧ هـ الذى هو أعظم سلاطين هذه الأسرة ويعرف فى التاريخ بشاه عباس الكبير ، والذى يستحق لأعماله البنائية أن يدعى شاهجهان [1] أسرته ، معاصرًا للإمام السرهندى ، وقد بلغت الدولة الصفوية فى عصره أوجها ، وذروة مجدها ، فحارب الأتراك ، واحتل نجف وكربلا ، وكان هو معاصرًا للملك جلال الدين أكبر ، والملك نور الدين جهانكير ، وأصيبت هذه الأسرة بعد شاه عباس بالضعف والزوال .

وكانت البقعة الثانية من بقاع العالم الرسلامى الهامة بلاد تركستان التى دامت لقرون طويلة مركزًا للحضارة الإسلامية ، والثقافية العربية الدينية ، وتعرف فى الكتب القديمة بـ «ما وراء النهر » وكانت لها مساهمة كبيرة ـ بعد العراق ـ فى تدوين الفقه الحنفى ، وخلفت

---

(١) هو الامبراطور شهاب الدين شاهجان بن جهانكير التيمورى (م ١٠٧٥ هـ) بانى التاج محل فى أكره والمسجد الجامع الكبير فى دلهى .

عددًا من الكتب القيِّمة الخالدة (١) ، التى لا تزال مقررة فى مناهج الجماعات الإسلامية فى الهند ، ونشأت فيها الطريقة النقشبندية - التى ينتسب إليها الإمام السرهندى وشيوخه - ونمت وترعرعت ، وانتشرت منها فى أجزاء العالم الإسلامى ، لقد دخلت هذه البلاد ، المخصبة الغنية بالثروات والعبقريات ، فى حكم الأسرة الشيبانية فرع الأزبكية فى بداية القرن العاشر عام ٩٠٥ هـ ، وبقيتَ تحت سلطانهم من تلك السنة إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى - إلى ثورة روسيا البلشفية - إلا فترة قصيرة حمل فيها الملك ظهير الدين بابر التيمورى بمساعدة الصفويين ، على ما وراء النهر ، وسيطر على سمرقند عاصمتها - انذاك - ثم أصبحت « بخارى » فى القرن العاشر عاصمة الدولة الشيبانية فى عهد الملك عبيد الله بن محمد ٩١٨ - ٩٤٦ هـ ، والملك عبيد الله بن اسكندر ٩٦٤ - ١٠٠٦ هـ ، وعادات بسببها بخارى مرة ثانية ، مركزًا للحياة السياسية والفكرية .

وأقرب البلدان المجاورة للهند الذى يقع غربيهًا هو أفغانستان ، تداول الحكم عليها فى بداية القن العاشر أزابكة تركستان ، وصفويو إيران وغيرهما من الغزاة الطامحين المحليين ، فى فترات متخللة بين حكم الأسرتين المتقدم ذكرهما ، وكان يحكم « كابل » و « قندهار » المغول تارة والايرانيون أخرى ، أما هرات فلوقوعها على حدود إيران كانت أكثر الأحيان تحت سلطة الأسرة الصفوية ، وفى عام ٩٢٨ هـ فتح الملك بابر « قندهار » ، ثم لما أسس الدولة التيمورية فى الهند ، جعل مقره كذلك فى الهند ، وكا يحكم فى هناك ولايات «كابر » و « بدخشان » و « قندهار»، وافتتحت أفغانستان - فى ذلك الوقت تحت تأثير دولتين عظيمتين قائمتين فى الهند ، وإيران - عهدًا جديدًا ، أقرب إلى الأمن والتنظيم ، وكانت أن انقسمت بين هاتين الدولتين ، فدخلت ولا يتا هرات وسيستان فى إيران ، وإن كان الأزابكة يحملون عليهما حينًا لآخر وأصبح « كابل » جزءًا من الدولة المغولية ، كان قندهار يتداول السلطة عليه المغول والإيرانيون ، وأنشأ الحاكم سليمان مرزا ابن أخى الملك بابر - الذى ولاه بابر ولاية يدخشان - فى شمال كوهستان حكومة شبه مستقلة ، أما ما عدا هذه الولايات من سائر المناطق ، فكانت تحت حكم الشيبانيين ، وفى عام ٩٦٥ هـ احتل طهما صب ملك إيران ، ولاية « قندهار » واستمرت تحت إحتلال الإيرانيين إلى عام ١١٠٣هـ ، ثم سلمها ولى العهد مظفر حسين عام ١٠٠٣ هـ إلى الملك أكبر ، ومن ثم

---

(١) كهداية الفقة للمرغينانى ، وشرح الوقاية وغيرهما لصدر الشريعة ، وظلا مقررين فى المنهج الدارسى طوال قرون .

كانت أفغانستان ولاية من ولايات الدولة المغولية فى الهند ، ودام الحال على ذلك إلى القرن الثانى عشر حتى زالت دولة آل بابر التى استمرت مائتين وأربعين ٢٤٠ عامًا على أيدى نادر شاه افشار عام ١١٥١ هـ .

ولما بدأ القرن العاشر كانت الأسرة اللودهية تحكم الهند ، وقد قتل آخر ملوكها إبراهيم اللودهى عام ٩٣٢ ، على يد مؤسس الدولة المغولية الملك ظهير الدين محمد بابر الكوركانى (٨٨٨ ـ ٩٣٩ هـ) ، وتأسست على أنقاض الدولة اللودهية ، المملكة المغولية، التى كانت من أكثر دول الهند استحكامًا وتنظيمًا ، وأوسعها رقعة ، وأطولها عمرًا، كانت الأسرة اللودهية ـ لتمسكها بالتقاليد الأفغانية ، والنسب الأفغانى ـ متمسكة بالإسلام ، متقيدة بالمذهب السنّى الحنفى ، لم تعرف التجدد و« العلمانية » والسياسة اللادينية ، وكان من أكثر هذه الأسرة تدينًا ، وتقديرًا للعلماء ، وتشجيعًا للعلوم الإسلامية الملك سكندر اللودهى (م ٩٢٣ هـ) وسعدت الهند خمس سنوات من هذا القرن بحكم الملك شيرشاه السورى (٩٤٦ ـ ٩٥٢ هـ) ، الذى لم ينهض فى تاريخ الهند الإسلامى ملك متدين عالم ، أحسن منه تنظيمًا وتقنينًا ، وأكثر منه توفيقًا للأعمال الخيرية ، وتحقيق المشاريع الهائلة فى المصلحة العامة ، ولم يحصل للهند بعد وفاة الملك شيرشاه السورى ، إلى تولى الملك أكبر للدولة ، الاستقرار السياسى ، والتنظيم السليم ، ولم يقر للحكومة قرار ، ولم يذق سكان البلاد طعم الأمن والرخاء والراحة ، فقد كان الملك سليم شاه خليفة أبيه العبقرى السلطان شيرشاه السورى لا يمت إلى أبيه فى تنظيمه ، وتدبير مملكته بسبب ، ولم يستطع كذلك الملك نصير الدين هما يون خليفة الملك بابر (٩٣٧ ـ ٩٦٣هـ) أن يحكم الهند فى أمن واستقرار ، فقد شردته حملات الملك شيرشاه السورى الظافرة ، وخذلان إخوته كل مشرد ، وكان شأنه هذا ، حتى اتصل بطهما سب الصفوى ملك إيران، وطلب منه المساعدة ، فتهيأ له الاستقرار واعتلى الملك أكبر عام ٩٦٣ هـ عرش الدولة المغولية ، ودام فى الحكم نصف قرن ، بأبهته وعظمته غير منازع .

وتولى نور الدين جهانكير الملك فى عصر الإمام السرهندى نفسه ، حينما كان ابن ثلاث وأربعين سنة ، وتوفى الإمام السرهندى فى عهده ، كانت هناك ـ عدا هذه الدولة المركزية التى عاصمتها دلهى ـ حكومات إقليمية فى ولاية كجرات ، وبيجافور ، وكولكنده، وأحمد نكر ، كانت تحكم هذه المناطق بصورة مستقلة ، وكانت الحكومات الثلاث المؤخرة الذكر من الحكومات التى كانت تعتنق المذهب الشيعى .

الوضع الديني والروحي :

لقد كان التدين سمة سائدة ـ إذ ذاك ـ على العالم الإسلامي كله ، فكان عامة الناس ـ رغم انحطاطهم الخلقي والعلمي ـ راسخي الإيمان ، محبين للإسلام موالين له ، وكانوا يمتازون بالحمية الدينية ، والحماسة الإسلامية ، على تصورهم الخاص ، وبالرغم من أنهم كانوا يقترفون كثيرًا من البدع ، ويرتكبون ما يخالف الإسلام ـ أحيانًا ـ ولكن كانوا شديدى الكراهية للكفر والإلحاد ، يشمئزون منهما ويتبرأون .

ولأجل هذا الذوق الديني العام ، والطبيعة الإيمانية السائدة ، كان الملوك المسلمون ـ الذين لا يعبأون بأى قوة مناوئة كبيرة ، وكانت أوروبا ترتعد من قوتهم العسكرية ـ مضطرين لاحترام شعائر الإسلام ، وإعلان صيانة الدين، وحماية بيضة الإسلام والمسلمين ، ولم تكن قلوب العامة من الناس ، تستشعر عظمتهم . وتحبهم ، حتى يتظاهروا بهذه الناحية الدينية ، لذلك لم تتوطد حكومة السلطان سليم الأول ، ولم تثبت جذورها ، حتى لقب نفسه بخليفة المسلمين ، وخادم الحرمين الشريفين ، وأبدى أثناء إقامته بدمشق الحب والتقديس للديار المقدسة ، والإجلال لها ، وأنفذ فى شهر ذى الحجة عام ٩٢٣ هـ قافلة للحجاج من دمشق ، وبعث معهم ـ لأول مرة فى الدولة العثمانية ـ بهدية كسوة الكعبة ، ومن ذلك اليوم تسمى السلاطين الأتراك بـ « خادمى الحرمين الشريفين » ، مُهِّد لهم طريق المجد ، وعظمت أقدارهم فى أعين الناس ، ونجد أمثلة عديدة فى حياة السلطان سليمان الكبير للتواضع ، والعواطف الدينية العميقة ، فقد انتسخ بيده ثمانية مصاحف للقرآن الكريم ، لا تزال محفوظة فى المكتبة السليمانية ، ويظهر من ديوان شعره أنه مسلم راسخ العقيدة فى الاسلام ، وأنه جدد عمارة الكعبة المشرفة بعد أن أخذ فتوى العلامة أبى السعود (م ٩٥٢ هـ) صاحب « تفسير أبى السعود » ، وبنى جداول مخصصة مجصصة فى مكة المكرمة ، وأكمل السلطان مراد (م ٩٨٤ هـ) بناء الكعبة المشرفة ـ وهو البناء الذى لا يزال إلى الان ـ هذه بعض مآثر السلاطين العثمانيين فى القرن العاشر الهجرى .

وكان الناس فى الدولة الشيعية بإيران كذلك متدينين ، عقليتهم عقلية دينية ، ويغلب عليهم الطابع الدينى ، وكان السلاطين الصفويون يغذون هذه الناحية الدينية ، وينمون هذه العواطف ويتظاهرون بحب آل البيت وإجلالهم ويستغلون ذلك لقوتهم السياسية وإحكام الدولة ، ووقوعهم موضع القبول فى الناس ، فقد تجشّم شاه عباس الأول ـ أعظم سلطان فى الدولة الصفوية ـ مشقة السفر من أصفهان إلى « المشهد » (مدفن على الرضا) حوالى

ثمانمئة ميل . مشيًا على الأقدام ، وحضر النجف ، وقام بخدمة الكناسة لضريح سيدنا علي ـ كرمّ الله وجهه .

وبلغ حب الناس لشاه عباس واعتقادهم فيه ، وغلوهم فى إجلاله ، إلى حد الخرافات والسخف العقلى ، وشاعت فى الناس عنه قصص غريبة ، وروايات طريفة .

أما سكان تركستان وأفغانستان ، فإن رسوخهم فى العقيدة وصلابتهم فى التدين ، وتمسكهم بالسنية والمذهب الحنفى ، شىء يضرب به المثل ، فكان الحكام والأمراء والوزراء ، وأصحاب البلاط ـ كل حسب مستواه فى المعيشة وحال من الترف ـ يتفقون معهم ويسايرونهم فى كل ذلك .

وكان تأسيس الدولة الإسلامية فى الهند على أيدى الحكام من الأسر الأفغانية أو التركية ، فكان ـ لأجل ذلك ـ تأثير الدين عميقًا فى قلوب أهل هذه البلاد ، وإن كان هذا التأثير ساذجًا بسيطًا ، شأن العقلية الأفغانية والتركية ، وذوقها الخاص ، وما زال الناس متمسكين بالسنية والمذهب الحنفى ـ باستثناء بعض المدن الساحلية ، ومنطقة مابار فى جنوب الهند ـ وكان المذهب الحنفى هو الذى يطبق فى الدولة ، ويتحكم فى المحاكم ، وألفت هنا بعض الكتب المهمة فى الفقه الحنفى كـ «الفتاوى التتارخانية » و « فتاوى قاضى خان[1] » .

ويمتاز عدد من السلاطين فى تاريخ الهند الإسلامى بحمايتهم الشريعة الإسلامية ، والسنة المطهرة ، وكراهة الكفر والإلحاد ، ومحاربة البدع والمنكرات ، والحمية الدينية والغيرة الإسلامية ، ويكفينا أن نذكر « محمد تغلق » و « فيروز تغلق » فى القرن الثامن ، والسلطان سكندر اللودهى فى القرن العاشر ، فقد كان التدين ـ حسب ما يروى لنا مؤلفو «طبقات أكبرى » و « تاريخ فرشته » و « تاريخ داؤدى » ـ سائدًا فى عهد السلطان سكندر ، وكان يبدو من تمسك الناس بالدين ، وشدة أخذهم به أنه نفخت فى الحياة روح جديدة ، وكان الدين أعز وأحب إلى السلطان من نفسه ، وكان السلطان من أول حياته ـ كما يصفه هؤلاء المؤلفون ـ متحمسًا للدين ، يحب المذاكرة العلمية ، وبدأ الهنادك فى عهده بدراسة اللغة الفارسية ، وقبلت طائفة « كائسته » الهندكية توجيه السلطان إلى دراسة اللغة الفارسية لغة الديوان ، فدرسوها وتولوا وظائف الكتابة والديوان فى المملكة ، ونهى السلطان عن

---

(١) وهذا قبل تدوين « الفتاوى العالمكيرية » بزمن طويل ، وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة فى العالم الاسلامى ويعرف بـ « الفتاوى الهندية » فى مصر والشام والعراق .

بدعة حمل الأعلام باسم السيد سالار مسعود غازى [١] ، التى كانت تحمل وفاءًا بالنذر ، واعتقادًا فى البركة والنصر ، وكانت عادة سنوية مقدسة ، كما أصدر أوامر مشددة فى منع النساء من زيارة الضرائح والمشاهد ويقول بعض المؤرخين أنه نهى حمل « الضرائح » المصنوعة من القرطاس والقصب المنسوبة إلى سيدنا الحسين بن على الشهيد وعبادة « سيتلا » ـ الهة الجدرى ـ نهيًا قاطعًا [٢] ، ويقول مشتاقى : « إنه هدم كثيرًا من المشاهد المزورة ، وسوّاها بالأرض ، وأجرى مكانها الأنهار [٣] » .

وكان السلطان سليم شاه السورى يؤم الناس فى الصلوات فى المسجد ، وكان يجتنب المسكرات أشد الاجتناب .

لقد كان هذا العصر عصر رقى التصوف ، وازدهار السلاسل والطرق ، حتى لم تبق بقعة من بقاع العالم الإسلامى خالية من طريقة من طرق الصوفية ، وكانت الطرق حديث المجالس والنادى ، وكانت فى بخارى » و «سمرقند » ـ المركزان العلميان ، والروحيان ، والمدينتان المعروفتان ـ فى تركستان ، و« بدخشان » وهرات فى أفغانستان ، و « طنطا » و«الإسكندرية » فى مصر و« تعز وصنعاء » فى اليمن و« شحر » و« تريم » و« سيون » فى حضر موت ، مراكز كبيرة للعلماء والصوفية ، ومشايخ الطرق ، وكانت أسرة باعلوى العيد روسية فى حضر موت ذات شهرة وقبول فى الناس ومعروفة بالفضل والعلم ، وفى هذا العصر كان الشيخ أبو بكر بن عبد الله بن أبى بكر شيخًا ذا مكانة يعرف بقطب العالم ، وكانت مدينة « تريم » مركز أشراف آل باعلوى ، ومن مشاهير أولياء هذا العصر الشيخ سعد بن على السوينى بامدحج السعيد ، الذى ذكره الشيخ محيى الدين عبد القادر العيد روسى (٩٧٨ ـ ١٠٣٧ هـ) فى كتابه الشهير « النور السافر فى رجال القرن العاشر » ، وختم بترجمته ـ التى تمتد من صفحة ٤٦٦ إلى ٤٨٠ ـ الكتاب [٤] .

---

(١) هو السيد سالار مسعود الغازى دفين مدينة بهرائج فى الولاية الشمالية الغربية ، وهو من أشهر الأعلام فى الهند ، مات شهيدًا سنة ٥٨٨ هـ ، بنى على قبره ملوك الهند عمارة سامقة البناء ، والناس يفدون اليه من بلاد شاسعة ويزعمون أنه كان عزبًا شابًا لم يتزوج ، فيحتفلون لعرسه ، ينذرون له أعلامًا ينصبونها على قبره .

(٢) تاريخ هندوستان لذكاء الله الدهلوى ج ٢ ص ٣٧٤ .

(٣) اظر « واقعات مبشتاقى » .

(٤) ألف هذا الكتاب فى أحمد اباد عام ١٠١٢ هـ .

وقد كان للطريقة القادرية ، وللطريقة الجشتية ـ بفرعيها النظامية والصابرية ـ رواج وانتشار ، نبغ فيها شخصيات عديدة معروفة بالعلم والفضل والصلاح والزهادة .لكن من الحق أن يقال أن هذا القرن قرن الطريقة الشطارية العشقية ، التى تسلمت زمام القيادة الروحية لهذه البلاد من الطريقة الجشتية ، وسخرت الهند كلها .

أسس الطريقة الشطارية الشيخ عبد الله شطار الخراسانى الذى نزل الهند فى أوائل القرن التاسع بالتقريب ، واستوطن « ماندو » عاصمة الولاية الخليجية فى الهند الوسطى ، وتوفى سنة ٨٣٢ هـ ، ودفن داخل القلعة فى ماندو ، كانت حياته حياة الأمراء ، يمتاز بالجذب والتأثير ، وإنتفع به خلق كثير ، وانتشرت طريقته فى الهند بسرعة فائقة ، ولهذه الطريقة فرعان ، ينتمى فرع منهما إلى الشيخ محمد غوث الكواليارى ، وبينه وبين الشيخ الشطارى ثلاث وسائط ، وينتمى الفرع الثانى إلى الشيخ على بن قوام الجونبورى ، ـ المعروف بشيخ على عاشقان السرائى ميرى [١] ـ بينه وبين الشيخ عبد الله الشطارى واسطتان ، وقد مزجت هذه الطريقة ، لأول مرة ، تعاليم « يوكا [٢] » بالتعاليم الصوفية ، واختارت من الأولى بعض الرياضات والأوراد ، وحبس النفس ، ولفتت هذه التعاليم المريدين والسالكين ، كما ضمت إلى الطريقة « علم السيمياء » ، وقد جاءت تفاصيل هذه الأوراد ، وشروح الرياضات الخاصة فى الرسالة الشطارية التى ألفها الشيخ بهاء الدين بن إبراهيم الأنصارى القادرى [٣] ، وتوجد قصيدة للشيخ محمد الشطارى فى كتابه « كليد مخازن » ـ مفتاح الخزائن ـ تفيد عقيدة وحدة الوجود ، وعدم التفريق بين المسجد والبيعة ، والمسلم والبرهمى ، وعقيدة ظهور الإله وتجلّيه فى هذه المخلوقات كلها ، لأن كل ذلك ناشىء من هذه الوحدة ، وهى ألوانها ومظاهرها المتنوعة ، وجاء فى آداب هذه الطريقة

---

(١) اقرأ ترجمته الحافلة فى « نزهة الخواطر » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى الجزء الرابع .

(٢) نظام الرياضيات الروحية والبدنية فى الهند القديمة .

(٣) وكان فى هذا القرن من الطرق المنتشرة فى الهند المدارية ، التى أسسها الشيخ بديع الدين المكن بورى (م ٨٤٤ هـ) وكان أساس هذه الطريقة على فكرة وحدة الوجود » والكشف عن معانيها ومحتوياتها ، والتجريد الظاهرى ـ حتى يقتصر على ستر العورة الغليظة ـ والتوكيل الصرف ، وكلما تطاول الزمن مالت هذه الطريقة الى التحلل والانحطاط ، حتى أطلق لفظ « مدارى » على التكسب بالألعاب البهلوانية ، وقد فقدت هذه الطريقة فى القرن العاشر تأثيرها وقبولها فى الخاصة، ولم نعثر بعد البحث والتنقيب فى « نزهة الخاطر » ـ الجزء الرابع ـ الذى أحصى فيه مشائخ كل طريقة احصاءً كاملاً تقريبًا ، إلا على رجلين كانا منخرطين فى سلك الطريقة المدارية .

وشعرها ما قد يقلل من قيمة العلم الذى هو « الحجاب الأكبر » ، ومن قيمة العبادات ، ومن أهمية الإيمان وضرورته ، ويرفع شأن الحب الإلهى ، والسكر والتفانى فيه ، والتجرد عن كل ما يتصل بالمادة والجسم ، والحياة الدنيا .

وكان أشهر رجال هذه الطريقة الشطارية ، وأكثرها تأثيرًا ، الشيخ محمد غوث الكواليارى (م ٩٧٠ هـ) الذى حصل له القبول العام ، وأصبح المرجع للناس ، وكانت تضاهى أبهته وفخفخته أبهة الملوك والأمراء وفخفختهم ، وتوازى دولته الروحية دولة البلاط ، وكان دخل عقاراته تسعمائة ألف عملة فضية (١) ، وكان له أربعون فيلاً ، وجنود مجندة من الحاشية والخدم ، وكان عندما يخرج فى سوق مدينة « آكره » تحتشد الحشود، ويقف جموع الناس فكان يسلم على كل واحد منهم بانحناء ، حتى إنه لا يستقر جلوسه على السرج ، ولا تعود فقاره ظهره إلى مكانها ، وكان قد إستمال الملك أكبر كما جاء فى تصريح العلامة عبد القادر البدايونى ـ وأدخله فى حلقة مريديه ، ولكن الملك لم يلبث أن خلع من رقبته طوق إرادته وبيعته ، وكان لزهده ـ رغم هذه الأبهة الملوكية والثروة الأميرية ـ صيت ذائع ، يتناقل الناس أخباره ، ويتحدثون به ، وكان عند تسليمه على الناس ينحنى كانحناءة الركوع ، ولو كان من يسلم عليه مسلمًا أو كافرًا ، وكان العلماء ينتقدون ذلك ، ويعترضون عليه ، ومن مؤلفاته «جواهر خمسة » و « معراجية (٢) » و « كنز الوحدة » و «بحر الحياة »(٣) وكان له تأثير كبير على الهند ، وراجت الطريقة الشطارية (٤) وانتشرت ، وكانت ولادة الإمام السرهندى بعد وفاته بعام .

وكان من كبار أصحاب هذه الطريقة ومشايخها الأجلة الشيخ على بن قوام الجونبورى المعروف بعلى عاشقان السرائى ميرى (م ٩٥٥ هـ) ، والشيخ لشكر محمد البرهانبورى (م ٩٩٣ هـ) ، والشيخ الله بخش الكده مكتيسرى (م ١٠٠٢ هـ) كانوا مرجع خلق كثير

---

(١) وفى بعض لروايات عشرة ملايين .

(٣) كان ادعى لنفسه ان عرج به الى السماء مثل معراج الرسول ﷺ ـ وأحدث ذلك فوضى وشغبًا فى علماء كجرات .

(٣) راجع للتفصيل فى تاريخ المشايخ الشطارية ، « نزهة الخواطر » ج ٤ .

(٤) هذا الكتاب ترجمة لكتاب « امرت كند » ، يقول الأستاذ محمد اكرام عنه فى كتابه « رود كوثر »: « نقل فيه تفاصيل العادات ، والأعمال والأوراد التى يشتغل بها العباد والهنادكة وأصحاب اليوك إلى اللغة الفارسية وكان تعرض لهذه الأعمال فى كتابه الذى ألفه من قبل « جواهر خمسة » تعرضا قليلا ، وتدل هذه المعلومات على علاقة الطريقة الشطارية بـ « اليوك الهندكى » (ص ٣٤ ـ ٣٦).

من عباد الله ، وقد ذكر بعض المؤرخين عن الشيخ على عاشقان السراىء ميرى أنه لم تظهر الكرامات العجيبة على يد أحد بعد الشيخ عبد القادر الجيلانى ، مثل ما ظهرت على يديه[1] وكان خليفة اشيخ محمد غوث الكواليارى ، الشيخ ضياء الله الأكبر آبادى (م ١٠٠٥)هـ تلميذ العلامـة الشيخ وجيه الدين ، سكن فى « أكبر آباد » ـ وكانت عاصـمة الملك أكبر ـ ٣٥ عامًا ، وحـصل له القبول فى الناس ، ودُعى إلى بلاط الملك أكبر عـدة مرات ، يقول العلامة عبد القادر البدايونى : « سلمت عليه مرة فثقل عليه وساءه ، وشعر بأنى أهنته » ، وأستهزأ بهذا الشعار الإسلامى والسنة الطيبـة ، وقد صوره البدايونى تصويرًا سيئًا ، وذكر أخباراً وروايات تدل على استخفافه بالشريعة الإسلامية [2] .

عـدا هولاء المشائخ المـذكورين ـ أعـلاه ـ كـان الشيخ عـبـد الله السنديلوى (٩٢٤ ـ ١٠١٠ هـ) والشيخ عيسى بن قاسم السندى خليفـة الشيخ لشكر محمد عارف بالله ـ وكن معـاصرًا للإمـام السرهندى ، ويقـاربه فى السن ـ من مشـاهير مـشايخ الطريقـة الشطارية العشقية [3] .

وكان هناك مشائخ كبار ـ غير هؤلاء المشائخ المشهورين من السلسلة الشطارية العشقية ـ ينتمون إلى سلاسل وطرق أخرى ، كان منهم الشيخ جائين لده السهنوى [4] (م ٩٩٨ هـ) كان يدرس كتاب « الفصوص » و « نقد النصوص » ، وكـان الملك أكبر يعتقد فيه ويجله ، وشاهده يومًـا يصلى « الصلاة المعكوسة » فـإنصرف عنه ، وشيخ اخـر يسمى الشيخ عـبد الرزاق الجهنجـهانوى (٨٨٦ ـ ٩٤٩ هـ) كـان من أصحـاب الطريقة القادرية الجـشتـية، وكان- رغم كونه عالمًا كبيراً يزاول التدريس والتصنيف - يدعوا إلى وحدة الوجود ويتحمس لمذهب الشيخ محيى الدين بن عربى وقـد ألف فى هذا الموضوع عدة رسائل ، وكان الشيخ عبد الـعزيز شكر بار (٨٥٨ ـ ٩٧٥ هـ) كذلك يقول « بوحـدة الوجود » ، وكان صوفـيًا يمتاز بالأحوال والمقامات ، وكان يلقـى دروسًا فى « فصوص الحكم » وشروحه ، وهو من أجداد الإمام ولى الله الدهلوى لأمه .

ونبغ فى هذا القرن الشيخ عبد القدوس الكنكوهى (م ٩٤٤هـ) وعلا صيته ، وطنّت

---

(١) راجع للتفصيل « العاشقية » تأليف عارف على ؛ و « نزهة الخواطر » ج ٥ .

(٢) راجع للتفصيل « منتخب التواريخ » للعلامة عبد القادر ، و « نزهة الخواطر » ج ٥ .

(٣) انظر « نزهة الخواطر » ج ٥ .

(٤) سهنة قرية فى مديرية كركانوه ، فى بنجاب الشرقية ، يوجد فيها عين حارة مشهورة .

حصاته ، ونالت الطريقة الجشتية الصابرية منه حياة جديدة ، وعادت غضة طرية ، مؤثرة قوية ، كان يبوح بأسرار « وحدة الوجود » على ملأ من الناس ، يدعو إليها وينادى بها ، وكان الشيخ قطب الدين بينادل (٧٧٦ ـ ٩٢٥ هـ) مرشد الطريقة القلندرية ، والشيخ كمال الدين (م ٩٧١ هـ) فى قرية كيتهل بمديرية إنباله ـ من رؤساء الطريقة القادرية ، ومرشديها الكبار ، قد استعادت بهما هاتان الطريقتان رونقهما ورواءهما ، وذكر الإمام السرهندى عن الشيخ كمال المذكور ـ أعلاه ـ نقلاً عن والده الشيخ عبد الأحد ، أنه قال : « عندما ينظر بنظر « الكشف » ، يتبين لنا أنه لم يوجد فى السلسلة القادرية العالية بعد شيخ المشائخ الشيخ عبد القادر الجيلاتى أفضل ولا أكمل حالاً من الشيخ كمال [1] » .

كان الشيخ نظام الدين الأميتهوى (٩٠٠ ـ ٩٧٩ هـ) فى ولاية «اوده» من كبار رجال السلسة الجشتية مع الدفاع عن الشريعة الإسلامية والإتباع للسنة النبوية ، وصلاح السيرة ، وكان يعتمد على « إحياء العلوم » و «العوارف » و « الرسالة المكية » وقع بصره على كتاب « الفصوص » فى يد بعض الناس ، فنزعه من يده ، وأعطاه كتابًا آخر للمطالعة والقراءة ، وكان «السماع [2] » عادة متبعة فى طريقته ، إلا أنه كان يجتنب ذلك ، ويتحاشاه[3] .

هذه هى الأوضاع الروحية والدينية السائدة فى العالم الإسلامى ـ آنذاك ـ وهؤلاء هم مشايخ الطرق وأصحاب السلاسل فى الهند على اختلاف مسالكهم ومشاربهم ، وتفاوت مراتبهم ودرجاتهم ، الذين كانوا أسسوا فى القرن العاشر الهجرى ـ فى الأماكن المختللفة مراكز تربوية روحية وكان أصحاب العاطفة الدينية العميقة من الطالبين للسلوك والمحبين للزهاد والصالحين من عامة الناس وخاصتهم يتصلون بهم وينتمون إليهم ، ويتمسكون بطريقتهم ، وقد شرحت هذه الأوضاع ، وتناولت هذا التاريخ بشىء من الإفاضة وإطالة النفس ، ليتيسرّ لقارىء تقدير الجوّ الذى تنفس فيه الإمام السرهندى ، والعهد الذى عاصره، وذوقه وميوله ،ما كانت من الإمكانيات والصعوبات للعمل الإصلاحى التجديدى العظيم الذى قام به الإمام خير قيام .

الوضع العلمى :

لم يكن القرن العاشر الهجرى قرن الابتكار والاختراع فى العلوم والفنون والأصالة

---

(١) انظر « زبدة المقامات » ، ص ١٠٨ .

(٢) الغناء تارة بالمزامير ، وتارة بغيرها .

(٣) راجع للتفصيل « نزهة الخواطر » ج ٤ .

العلمية ، والنظر الدقيق الذى يتسم « بالاجتهاد » والتدوين الجديد للعلوم ، والزيادات ذات القيمة العلمية الكبيرة ، فإن هذه الميزات إنما تتجلى بوضوح إلى منتصف القرن الثامن الهجرى ، حيث ظهر نوابغ الرجال والعبقريون فى فنون كثيرة كشيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الحرانى الدمشقى (م ٧٢٨ هـ) ، وشيخ الإسلام تقى الدين بن دقيق العيد (م ٧٠٢ هـ) ، والعلامة علاء الدين الباجى (م ٧١٤ هـ) ، والعلامة الحافظ جمال الدين أبو الحجاج المزّى (م ٧٤٢) ، والعلامة الحافظ شمس الذهبى (م ٧٤٨ هـ) ، والعلامة أبو حيان النحوى (م ٧٤٥ هـ) الذين خلفوا لنا فى علوم الحديث ، والأصول ، والكلام، وأسماء الرجال والعربية آثاراً عظيمة ، مؤلفات ضخمة ثمينة ، وكان عصر الحافظ ابن حجر العسقلانى (م ٨٥٢ هـ) إمام العصر فى الحديث وصاحب « فتح البارى» الذى وصفه بعض الناس بقولهم « لا هجرة بعد الفتح » كذلك ولىّ من غير رجعة .

فكان القرن العاشر الهجرى قرن الجمع والترتيب ، والتسهيل والتلخيص لكتب المتقدمين ، وإن كان يتجمل رأس هذا القرن بوجود أمثال العلامة شمس الدين السخاوى (م ٩٠٢ هـ) ، والعلامة الحافظ جلال الدين السيوطى (م ٩١١ هـ) من بحور العلم الزاخرة ، وكبار المؤلفين فى تاريخ الإسلام ، يقول بعض العلماء عن الحافظ السخاوى : إنه لم ينجب التارخ مثله فى علم الحديث وفن الرجال والتاريخ بعد الإمام الحافظ الذهبى، وآذن علم الحديث بعده بالانحطاط والتدهور ، وبعد كتابه « فتح المغيث بشرح ألفية الحديث » فى أصول الحديث ومصطلحه ، و« الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » فى التاريخ والرجال ، من الكتب التى لا يوجد لها نظير ، والعلامة السيوطى غنى عن التعريف ، فإنه من نبغاء الرجال المؤلفين ، مشاهيرهم فى تاريخ الإسلام ، وتقوم بعض مؤلفاته مقام الموسوعات العلمية فى مواضيعها ، ولا يزال اسمه حيًا خالدًا فى الأوساط العلمية بتأليفه النصف الأول من تفسير الجلالين ، وبقى مقرراً - إلى يومنا هذا - فى المناهج الدارسية فى شبه القارة الهندية وبعض البلاد الإسلامية .

يمتاز هذا القرن بازدهار علوم الحديث والرجال فى مصر الشام والعراق، وبإزدهار العلوم العقلية - المنطق والفلسفة - فى إيران ، وازدهار الفقه الحنفى فى الهند ، وتركستان، وكانت هذه العلوم المختلفة فى البلدان المشار إليها - آنفًا - مقياس الفضل والنبوغ والكمال، فكانت مصر تزدان بالعلامة أحمد بن محمد القسطلانى مؤلف « إرشاد السارى » شرح صحيح البخارى (م ٩٢٣ هـ) ، وشيخ الإسلام زكريا الأنصارى (م ٩٢٥ هـ) وكان زينة تركيا العلامة أبو السعود صاحب التفسير (م ٩٥٢ هـ) ، وكان فى الحجاز العلامة

ابن حجر المكى الهيثمى (م ٩٧٤ هـ) مؤلف « الصواعق المحرقة » وكتب أخرى كثيرة ، والعلامة علاء الدين على المتقى البرهانفورى المكى مؤلف « كنز العمال » (م ٩٧٥ هـ) ، وكان رواد العلم يردون مناهل علمهم فيروونهم ، وطبقت علومهم الآفاق وعمت إفادتهم الخلائق ، وكان العلامة نور الدين على بن سلطان محمد الهروى المعروف بملا على القارى - العالم الحنفى المحقق الذى اتسمت كتبه بالانصاف العلمى - رغم أنه ولد فى « هرات » من أفغانستان إلاَّ أنه بتدبّره بمكة المكرمة نشر علمه فى منتجعى العلم والمعرفة من أطراف العالم الإسلامى ، وهو - وإن كانت وفاته فى أوائل القرن الحادى عشر عام ١٠١٤ هـ - إلاّ أن عهد خدماته العلمية التأليفية هو القرن العاشر ، وتوفى فى أواخر هذا القرن العلامة الأديب والمؤرخ الكبير الشيخ قطب الدين النهر والى [١] ، صاحب « الإعلام فى أخبار بيت الله الحرام » سنة ٩٩٠ هـ ، الذى يرجع فى أصله إلى أرض الهند ، وخضع لعلمه وفضله سلاطين تركيا ، وأمراء الحجاز ، وأكرموه وبجّلوه .

وكانت إيران تزهو وتفتخر بالعلامة جلال الدين الدوّانى (م ٩١٨ هـ) والعلامة عماد بن محمود الطارمى (م ٩٤١ هـ) والعلامة غياث الدين منصور (م ٩٤٨ هـ) الذين أفاضوا العلوم ، وكانت تتفجر منهم ينابيع العلوم الحكمية وقد وصلت أمواج علومهم الزاخرة إلى الهند ، وأوغلت فيها ، وكان من بين كبار علماء هذا العصر الشيخ محمد بن الشيخ أبى الحسن الصديقى الشافعى الأشعرى المصرى ، الذى يذكر فى كتب الرجال «بالأستاذ الأعظم » و « قطب العارفين » كان فريد عصره فى بيان دقائق المعانى ، ولطائف الأسرار ونسيج وحده فى بيان نظم القرآن والتفسير ، والحديث والفقه ، كان يدرس فى الجامع الأزهر ، ويتهافت عليه طلاب العلم تهافت الفراش على النور ، وكان يجمع إلى هذا العلم الغزير صلاح الباطن، وتقوى السر ، وشياخة الطريق ، وذوق الشعر والأدب»[٢] ، توفى عام ٩٩٣ هـ ، وكذلك المحدث المحدث الهندى الشهير الشيخ رحمه الله بن عبد الله السندى الحنفى ، وأثبت براعته فى فن الحديث وعبقريته فيه ، وكان ملك العلماء العلامة وجيه الدين بن نصر الله الكجراتى - الذى استمر يدرس طوال نصف قرن من الزمن فى العلوم النقلية والعقلية وبقى تلامذته يملأون الدنيا علمًا وبحثًا ، ويدرسون

---

(١) « نهر واله » فى الأصل معرب « انهلواره » وهو اسم مدينة فى ولاية كجرات قديمًا ، فتحها السلطان محمود الغزنوى عام ٤١٦ هـ ، وتسمى الآن بـ « بتن » واليها ينسب العلامة محمد طاهر الفتنى مؤلف « مجمع بحار الأنوار فى غرائب التنزيل ولطائف الأخبار » (م ٩٨٦ هـ) .

(٢) راجع للتفصيل « النور السافر » ص ٤١٤ - ٤٣٩ .

ويدرسون ويفيدون أكثر من قرن بركة النصف الأخير من هذا القرن ، وتوفى فى أواخر هذا القرن عام ٩٩٨ هـ ، وكانت بلاد اليمن الميمونة ـ إذ ذاك ـ مركزًا لرواية الحديث ، والاعتناء بالأسانيد ، وكان محدث اليمن الشيخ طاه بن حسين ابن عبد الرحمن الأهدل يزين كرسى التدريس لحديث ، وتوفى هو أيضًا فى العام نفسه ٩٩٨ هـ (١) .

بدأت فى هذا العصر رحلات العلماء الأفاضل الذين تتلمذوا على العلامة جلال الدين الدوانى ، والعلامة عماد الدين محمود الطارمى والشيخ مير غياث الدين منصور من إيران إلى الهند ، وجاء فى عهد الملك همايون بن بابر التيمورى ، الشيخ زين الدين محمود كمان كربهدائى ـ تلميذ مولانا عبد الرحمن الجامى ، ومولانا عبد الغفور اللارى ـ إلى الهند ، واستقبله الملك بحفاوة بالغة ، وأكرم مثواه وعظمه ، وتوجه فى عهد الملك أكبر الحكيم أبو الفتح الكيلانى ، والطبيب همايون (المعروف بحكيم همام) ونور الدين قرارى، الأخوة الثلاثة إلى الهند ، وحازوا ثقة الملك والحظوة لدية ، ثم جاء بعد فترة العلامة محمد اليزدى من إيران ، ونزل الأمير فتح الله الشيرازى ـ وقد مر فى طريقه ببيجابور ، ومكث فيها مدة يسيرة ـ ببلاط الملك أكبر ، وكان تلميذ الشيخ غياث الدين منصور ، وتولى منصب الرئاسة لعلماء سنة ٩٩٣ هـ ، وهو الذى جلب مؤلفات علماء إيران ، وترك آثارًا بعيدة المدى على المناهج الدراسية ، وأسلوب التدريس فى الهند، حتى كانت نتيجة هذا التأثير أخيرًا المنهج الدارسى النظامى (٢) ، الذى لا يزال هو المنهج المقرر ، والسائد على الأوساط العلمية والتدريسية، ويسيطر عليها (٣) .

ونقف فى هذا العصر على أسماء لعدد وجيه من العلماء والأدباء المنسوبين إلى «نيسابور » و « استرآباد » و « جرجانى » « مازندران » و «كيلان » كانوا فى الهند ، ولا سيما فى جنوب الهند ، وكان لهم تأثير على الأمراء ، ومكانة محترمة فى البلاط (٤) .

---

(١) راجع للوقوف على فضائله وسجاياه الطيبة « البذر الطالع » للعلامة محمد بن على الشوكانى .

(٢) هذا هو المنهج المقبول المقرر للدراسة ، والمقياس للتحصيل الكمال فى شبه القارة الهندية ، وأفغانستان وتركستان اخيرًا ، وينسب الى العلامة نظام الدين بن قطب الدين اللكنوى (م ١١٦١ هـ) الذي تناوله بالتهذيب والاكمال ، ولا يزال مطبقا تطبيقًا حرفيًا فى مدارس الهند القديمة على غرار الأزهر القديم .

(٣) راجع للتفصيل « الشقافة الاسلامية فى الهند » (طبع المجمع العلمى بدمشق) للعلامة عبد الحى الحسنى ، ومقالاً له بعنوان « المنهج الدارسى فى الهند » .

(٤) راجع للتفصيل « نزهة الخواطر » ج ٤ .

ولم تكن أفغانستان رغم روح الجندية والعسكرية ، وحمل السيف والسنان ، أقل شأنًا في العلم ، والتدريس ، والتقعير في المسائل العلمية، فكان القاضي محمد أسلم الهروى ، (الذى توفى فى الهند سنة ١٠٦١ هـ) ود فى هرات ، وأخذ العلم عن الشيخ محمد فاضل البدخشانى فى أفغانستان وكان الشيخ محمد صادق الحلوائى كذلك من جلّة علماء عصره ،وكانت «هرات » لو قوعها على تخوم إيران مركزًا للعلوم العقلية ، وقد اشتهر من أبنائها القاضي محمد أسلم الهروى ، ونجله النابغة المعروف بالشيخ محمد زاهد ـ الذى يعرف فى أوساط المدارس الدينية فى الهند بـ «ميرزاهد » ـ فى العلوم العقلية ، وطبقّ صيتهما الآفاق ، وكان لشروح الشيخ محمد زاهد ، التى تعرف بالزواهد الثلاثة صولة وقبول عند العلماء وأساتذة الفن ، ويعتنون بها اعتناء كبيرًا ، ويقيسون بمعرفتها العلم والنبوغ .

ولم يقتصر تتلمذ أبناء الهند ، واستفادتهم العلمية على علماء إيران وأفغانستان ، وأساتذتها البارعين ، بل استفادوا من علماء مصر والحجاز ، واليمن ، ومحدثيها النابغين ، فكان الشيخ راجح بن داؤد الكجراتى (م ٩٠٤ هـ) من تلامذة العلامة السخاوى ، أخذ عنه الحديث ، وأرشده العلامة السخاوى إلى علماء الهند ومشايخها ، ويعلمهم بذلك ، حتى يصححوا موقفهم منه ، ويزول اعتقادهم فيه [1] ، وقد ذكر العلامة السخاوى ترجمة تلميذه الهندى فى كتابه « الضوء اللامع » واعترف بفضله ونبوغه العلمى ، وكان الشيخ على بن حسام الدين المتقى ـ إمام فن الحديث فى عصره ـ ومؤلف « كنز العمال » ـ الذى قيل عنه : « إن للسيوطى منة على الدنيا ، وإن لعلى المتقى منة على السيوطى » ـ كان من التلامذة النجباء لأبى الحسن الشافعى البكرى ، مدارس الحرم المكى،والعلامة شهاب الدين أحمد بن حجر المكى ، مفتى مكة المكرمة ، ومحدثها فى عصره .

ظهر لنا مما تقدم أن الهند ـ رغم إحاطة البحر والجبال الشاهقة بها حيث لم تبق طريق للعلاقة بينها وين العالم الخارجى ، إلا ممرّ بولان فى بلوجستان وممرّ خيبر فى الحدود الغربية الشمالية ـ لم تكن بمعزل فى الحياة العلمية والثقافية عن البلاد الأخرى ، بل كانت تأخذ وتعطى ، وتستفيد وتفيد وإن كانت استفادتها أكثر من إفادتها ، ودائرة استيرادها أوسع من دائرة تصديرها ، وكان ذلك أمرًا طبيعًا ، لأن الدين والعلم لا يصلا إلى الهند إلا عن طريق إيران وتركستان.

---

(١) راجع « نزهة الخواطر » ج ٤ .

الاضطراب فى الأفكار ، والفوضى فى العقائد :

إن الدراسة العلمية والدينية ، والسياسية للقرن العاشر تبقى ير مستكملة إذا لم نتعرض ذلك الاضطراب الفكرى ، والفوضى فى العقائد ، التى نلمس آثرها فى الهند ، وفى ما جاورها من البلدان فى العصر الذى نؤرخه حتى تتضح ملامح هذا القرن ، والأوضاع السائدة فيه ، وحتى لا يقع القارىء فى الخطأ ، ويظن أن بحر الحياة الزاخر ـ الذى كان تد ويفيض على الآف الأميال ـ كان فى هدوء تام ، وكان من السهل تجديف سفينة التعليم التربية، والتزكية ، والاصلاح والتجديد فيه وأنه لم يكن هناك داع للإشفاق من طغيان ذا البحر ، أو تورط السفينة فى لجته ، إذا كان هذا التصور صحيحا لكان هذا العصر أحق أن يختار له عنوان « التعليم والتربية » و «النشر والتوزيع » بدل من أن يكون له عنوان الإصلاح والتجديد » ولقد تضافرت عوامل كثيرة من أهمها بُعد الهند عن مركز بلاد لحجاز ومصر والشام والعراق ووصول الإسلام إلى الهند بعد تعريجه على تركستان وإيران وقلة شيوع اللغة العربية فيها ، وعدم الاعتناء بنشر علم الحديث - الذى لا يزال يبث روح الدين الصحيح ويميز السنة عن البدعة ، ويقوى الشعور بضرورة الأمر بالمعروف النهى عن المنكر ، ويوجد ملكة الاحتساب الدينى الصحيح ـ ومنها صعوبة السفر للحج ، الرحلة فى طلب العلم إلى البلدان الأخرى، وبقاء أقلية المسلمين مغمورة فى أكثرية غير لسلمين ، وغارقين فى الخرافات والأوهام ، وتضافرت هذه العوامل كلها على تحويل لسلمين مرتعًا خصبا ، للدعوات المضطربة ، والفرق الضالة ، والمحترفين بالدين الذين ترجوا يمثلون دورهم ويجربون حظهم فى إضلال المسلمين .

وكان فى مقدمة هذه الدعوات الهدامة ذلك التشيّع المتطرف المهاجم الذى نشأ وترعرع تأثير الإيرانيين فى بعض مناطق الهند الجنوبية ، وفى كشمير ، فقد اعتنق برهان نظام شاه أمير ولاية أحمد نكر ـ فى أواسط القرن العاشر ، المذهب الشيعى بتأثير الشيخ طاهر بن ضى الاسماعيلى القزوينى ـ الذى فرّ من إيران خوفًا من الشاه اساعيل الصفوّى إلى أحمد كر ، وسكن هنا ـ وغلا برهان نظام شاه فى مذهبه الجديد ، وتطرف ، حتى أمر لناس سبَ الخلفاء الراشدين الثلاثة ـ علنا وجهراً ـ فى المساجد والرباطات ، وعلى الشوارع ، فى الأسواق ، وعين رواتب ضخمة مغرية لمن يقومون بهذه « الخدمة » ، وقتل كثيراً من هل السنة والجماعة ، وأسر كثيراً منهم(١) وانتشر المذهب الشيعى فى كشمير بجهود

١) راجع للتفصيل « تاريخ فرشته » تأليف محمد قاسم البيجابورى (وكان محمد قاسم هذا من = =

ميرشمس الدين العراقى، الذى بذل مساعى كبيرة فى نشر هذا المذهب ، وتحمس للدعوة إليه ، ويقال إنه أدخل ٣٤ ألفًا من الهنادك فى المذهب الشيعى كما يذكر أيضًا أنه اخترع دينًا جديدًا سماه « نور بخشى » ، وألف كتابًا فى الفقه ، يخالف فقه أهل السنة وفقه الإمامية كذلك ، ويقولون إن فرقة جديدة نشأت فى كشمير كانت تعتقد أن السيد محمد نور بخش « مهدى موعود » (١) .

ولما توجه الملك همايون عام ٩٥٠ هـ إلى إيران لطلب المساعدة العسكرية ، وكسب تأييد المملكة الإيرانية ، كان شاه طهما سب يتولى الحكم فيها فعرض على الملك همايون مذهب الشيعة ، وراوده إلى أن يعتنق هذا المذهب فقال همايون : أرى أن تكتبوا لى جميع عقائد الشيعة ، فلما كتبوا له ، قرأها همايون بنية الإسماع (٢) ، ولا توجد لدينا وثيقة صحيحة تثبت اعتناق همايون للتشيع ، ولكن لا يستبعد بعد إقامته فى إيران ، وضيافة شاه إيران له بسخاء وأريحية ، وإكرام وفادته ، وإيواء هذا الغريب،والمساعدة العسكرية السخية، وما أنتج كل ذلك من عواطف تقدير وشكر - أن يكون قلبه قد مال إلى المذهب الإمامى ، الذى لم يكن مذهب سلفه التيموريين ، وكانوا متمسكين بالعقيدة السنية والمذهب الحنفى ، وكان بعضهم له ارتباط وثيق بالمشايخ النقشبندية ، فما كان لأفراد أسرته ورجال بلاده ، أن يقبلوه ، أو يفسحوا له صدورهم ، وصحب الملك همايون إلى الهند ، أمراء قزلباش لمساعدته ، وكان الملك همايون فى نفسه طيب القلب ، سليم الصدر ، متخلقًا بأخلاق كريمة، وثقافة واسعة ، يحافظ على الوضوء ، وكان لا يسمى الرسول - ، - إلاّ على طهارة تأدبا معه ، وتعظيمًا لحرمته ، وكان نازلاً من درج مكتبته يومًا من الأيام إذ سمع الأذان، فجلس تأدُّبا ، فزلّت قدمه وسقط ، ثم توفى فى ١٥ ربيع الأول عام ٩٦٣ هـ .

وكان من خاصة أصحابه وأمراء البلاط ، وأركان دولته بيرم خانخانان الذى كان متفننًا فى الفضائل العلمية والعملية ، وكان من خيار العسكريين والأمراء النابغين ، يمتاز برقة القلب ، والمحافظة على الجمعة والجماعة ، يكرم العلماء والمشايخ ويحترمهم ، ولكنه يعتقد تفضيل على - رضى الله عنه - على غيره من الخلفاء الراشدين - رضى الله عنهم - وله بيت معروف ، يقول فيه :

= الفرقة الإمامية » .

(١) راجع « تاريخه فرشته » لمحمد قاسم البيجابورى .

(٢) انظر « منتخب التواريخ » ج ٤٤٥ .

« إن الملك الكبير الذى يبلغ علمه عنان السماء ، إذا لم يكن من خدم علىّ فقد تربت يمينه ، ورغم أنفه » .

وكان لمير شريف الآملى اليد الطولى فى العلوم العقلية ، نزل الهند فى عهد الملك الأكبر ، فاستقبله أكبر بحفاوة بالغة ، وعظم شأنه ، وولاه رئاسة كابل عام ٩٩٣ هـ ، ثم رئاسة بنكاله عام ٩٩٩ هـ وأقطعه الأراضى فى أجمير » و « موهان » ، يقول خافى مؤلف « مآثر الأمراء » :

« إنه كان ملحدًا زنديقًا ، خلط التصوف بالفلسفة ، وكان يقول بـ « العينية » » .

وكانت ـ إذ ذاك ـ فى الهند حركتان هدامتان تشكّلان الخطر على الإسلام ، وتثيران الفوضى والاضطراب فى العقائد والأفكار ، إحداهما حركة ذكرى » التى كانت مؤسسة على عقيدة انتهاء نبوة محمد ﷺ عند انتهاء الألف الأول من الهجرة ، وبداية نبوة جديدة ، ودعوة جديدة لبداية الألف الثانى ، نشأت هذه الحركة فى بلوجستان ونمت وقويت وقد ظهر ملا محمد الذى تزعم هذه الفرقة فى قرية « اتك » عام ٩ ٧٧ هـ ، يقول مؤلف كتاب « من هم ذكرى » ؟ ، الذى هو الكتاب المعتمد عند هذه الفرقة والحركة ـ عن مؤسسها ملاّ محمد :

« ظهر (ملا محمد) ليلة الاثنين عند السحر ، نازلاً من بلد « قطب » إلى الأرض بالصورة الإنسانية ، وفى كسوة أهل الفقر والزهد ، فى منطقة اتكا الجبلية ، بوضع قدمه المباركين على جبل عال عام ٩٧٧ هـ (١) .

ويعتبر اتباع حركة ذكرى » أن مؤسسها ملا محمد ، أفضل الرسل ، وخاتم النبيين ، نور الأولين والآخرين ، جاء فى « موسى نامه » النسخة الخطية :

« قال الله تعالى : يا موسى لم أخلق نبيًا بعد المهدى ، وهذا هو نور الأولين والآخرين ، الذى سأخلقه بعد (٢) » .

وقد وردت فى كتب هذه الفرقة مثل « معراج نامه » و « ثناء مهدى » و« سفرنانه » «مهدى » و « ذكر إلهى » وغيرها من الكتب عبارات صريحة تدل على العقائد المتطرفة ، فى تنزيه ملا محمد مؤسس هذه الفرقة وتقديسه ، وترجيحه على جميع الأنبياء والمرسلين،

---

(١) انظر كتاب « من هم ذكرى لله » ص ١٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٨ .

وتفضيله على خاتم النبيين محمد ﷺ ، وتتجلى فيها نماذج غريبة لكذب والافتراء والتدجيل الباطل والجرأة الوقحة عى الله ورسوله ، وكانوا ابتدعوا كلمة جديدة إزاء كلمة التوحيد ، وهى « لا إله إلا الله نور باك محمد مهدى رسول الله » ، وكانوا يضحكون على المصلين ، ويستهزئون بهم ويكفرونهم (١) ، ويكفرون القائمين بالصوم والزكاة والحج من المسلمين ، ويرون حج جبل « مراد » واجبًا بدل حج بيت الله (٢) ، يقول مؤلف « تاريخ خوانين بلوج » أن هذه الديانة « الذكرية » المعارضة للإسلام كانت سائدة فى بعض مناطق بلوجستان ، وكان أتباع هذه الديانة يرون قتل المسلين بجناية إقامتهم للصلوات المكتوبة ومحافظتهم عليها ، فقام الأمير مير نصير خان حاكم بلوجستان بتنفيذ الشريعة الإسلامية وقتال « الذكريين » ومكافحة بدعهم وشركهم وعداوتهم للإسلام ، حتى وقعت معارك دامية حاسمة استؤصلت على أثرها شوكة هؤاء المارقين وقضى على بدعهم وخرافاتهم»(٣).

والفرقة الثانية المشبوهة فى الهند كانت « الفرقة الرؤشنائية » ، وأن ما قامت به هذه الفرقة من مساندة قوة العنصر الأفغانى السياسى والعسكرى الذى آل إلى الانقراض ، ومقاومة السيطرة المغولية التى كانت تمتد شرقًا وغربًا ، وما قامت به فى هذا الصدد من دور كبير (٤) ، يجعل كتابات المؤلفين فى هذا العصر وتصريحاتهم ، فى حاجة إلى التأمل الكثير ، والتحقيق الدقيق ، ليعلم إلى أى حد عملت فيه المصالح السياسية ، وما هى حقيقتها التاريخية الصحيحة ؟، فإنه يوجد هناك تعرض واسع مدى فى تصريحات أتباع هذه

---

(١) انظر « اعتقاد نامه » النسخة الخطية) .

(٢) راجع مولفات أصحاب الفرقة الذكرية « ذكر توحيد » (مطبوع » و « وانا ذكرى » و « تفسير ذكر الله (مطبوع) ، الكتب المذكورة أعلاه ، وراجع (Bajuchistan District Gazettier) التى جاءت فيه تصريحات أن عقائد الفرقة الذكرية تختلف عن عقائد أهل السنة اختلافًا جذريًا (ص ١١٦ من المطبوعة).

(٣) انظر « تاريخ بلوج » ، استفدت فى موضوع الفرقة الذكرية من مقال نشر فى مجلة « الحق » الصادرة من « أكوره ختك » مجلد ١٩٧٩ م ، كتبه الشيخ عبد الحق رئيس المعلمين بدار العلوم تربت بلوجستان ، وراجع أيضًا مقالاً بعنوان « دراسة تفصيلية للديانة الذكرية » « مجلة الحق » عدد شهر يناير ١٩٨٠ .

(٤) من الممكن ـ بالنظر إلى ما كان للتصوف من تأثير وقبول عام ى ذلك العصر ـ ان يكون بعض الطامحين البعيدى النظر يريدون من وراء هذه الحركة جمع شمل الافغان ، وتوحيد كلمتهم تحت راية حركة دينية ، لمحاربة الدولة المغولية الفتية ، واستعادة سلطة الأفغان الذاهبة ، واقامة دولتهم من جديد .

الفرقة وحماتها ، تصريحات مخالفيها وأعدائها . فيسمى أتباعها مؤسس الفرقة بـ «بيرروشن» (أى الشيخ المنور) ، ويسميه المعارضون بـ « بيرتاريك » (أى الشيخ المظلم)، وكان مؤسس هذه الفرقة « بايزيد الأنصارى » ، وكان يقال له « بيز روشان » (اوروشن) .

ولد بايزيد بن عبد الله عام ٩٣١ هـ فى « جالندهر » قبل تول الملك بابر بسنة واحدة ، ولقد قضى طفولته ويفاعته فى صراع قائم فى أسرته ، وفى عدم اهتمام بشأنه وقلة مبالاة به ، فشبّ ولم يكمل دراستة واتفق أنه فى بعض أسفاره التقى - كما تقول بعض الروايات - بسليمان الاسماعليى ، ويذكر أيضًا أنه صحب « اليوكيين » [(١)] ، ويقول المترجمون له : إنه بدأ من ذلك الحين يرى رؤى ، ويسع أصواتًا تناديه من وراء الغيب ، فاشتغل بالذكر الخفى ، ثم استغرق فى ورد « الاسم الأعظم » ، فلما بلغ الحادية والأربعين من عمره ، هتف به هاتف من السماء أنه لم يعد فى حاجة إلى الطهارة الشرعية، وينبغى له أن يصلى صلاة الأنبياء [(٢)] ، بدل صلاة المسلمين ، ثم جعل يعتقد أن الناس كلهم منافقون ومشركون ، وانصرف إلى « الرياضة الأربعينية » ، ثم أمر بأن يصدع بدعوته ، ويبلغ دينه ، واهتم بدعوى المهدية ، والالهامات الربانية [(٣)] وظل مريدوه يزدادون كل يوم ، وعين بعضًا منهم خلفاء ليقوموا بالدعوة والتبليغ ، ويوسعوا نطاق حركته .

ولكن تعاليمه التى وردت فى كتابه « صراط التوحيد » يظهر عليها أثر التعاليم الصوفية الغالية ، والاعتداد بالنفس المتطرف الذى ينشأ عند أصحاب الرياضات والمجاهدات الذين لا يرجعون فيها إلى مرشد روحى خبير ، ولا يحملون العلم الصحيح من كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - ﷺ - كما ذكر فيها شيئًا من عقائده وأصوله ، ولعلها عنده أصول الحرب وقواعدها حسب مستوى تلك الفترة التى كان يحارب فيها المغول ، والقبائل الأفغانية المعارضة .

---

(١) أصحاب الرياضات من البراهمة ، والنساك منهم .

(٢) وقد صرح الشيخ بايزيد نفسه فى كتابه « مقصود المؤمنين » : « ان الشريعة مثل لحاء الشجرة وانه لا حياة للشجرة بدون لحاء » (ص ٤٤٤) النسخة الخطبة ، مكتبة جامعة بنجاب .

(٣) وقد رد اشيخ بايزيد نفسه عى هذا الاتهام بأنه « مهدى » كما جا فى المناقشة التى جرت بينه وبين قاضى خان الكابلى (انظر النسخة الخطية بجامعة بنجاب) .

وبايعته عدة قبائل أفغانية بمنطقة بشاور ، ودخلت فى دائرة مريديه وأتباعه ، وبدأت قبيلة « مهندزئى » بنشر هذه الدعوة ، وتأثر بذلك السنديون والبلوجيون ، وكتب له النجاح الكبير رغم معارضة العلماء ومشايخ الطرق ، وبعث الشيخ بايزيد دعاته إلى حكام البلدان المجاورة ، وأمرائها وعلمائها فجاء حاكم من هؤلاء الحكام إلى بلاط الملك أكبر ، وقضى عامين وشطر عام من أيام حياته الأخيرة فى حرب مع المغول ، وأدركه الأجل عام ٩٨٠ هـ بمنطقة « كالا بانى » ، ودفن فى « هشت نكر » ، وبقيت من مولفاته ثلاثة كتب ، وهى « خير البيان » و « مقصود المؤمنين » و « صراط التوحيد » ، التى تناول فيها أصل فرقته وعقائدها بالإيضاح والتفصيل ، ويعتبر « خير البيان » و « مقصود المؤمنين » كتابين شبه مقدسين عند أتباع هذه الفرقة ، وكان معارضيه أخوند درويزه ، الذى كان مريدًا للسيد على الترمذى المعروف بـ « بير بابا » (م ٩٩١ هـ) ، وألف فى الرد عليه كتاب « مخزن الإسلام » ، وألف الشيخ بايزيد ترجمة حياته باسم « حال نامه بير دستكير » (بالفارسية) ورتبه على محمد مخلص مع زيادات وإضافات ترتيبًا جديدًا .

وتفرق أتباع هذه الفرقة بسبب الحروب الداخلية والخارجية الطاحنة ومعارضة العلماء الشديدة فى مختلف أنحاء الهند ، وما زال ينقرض عدد المعتنقين لها حتى انقرضوا ، وانقرضت هذه الفرقة (١) .

يتحدث مرزا نصر الله خام فدائى مؤلف « داستان تركتازان هند » (قصة غزاة الهند) عن هذه الفرقة ، فيقول .

« إن الفرقة الروشنائية هى تلك الفرقة التى أسسها « بايزيد » أحد أبناء الهند ، أنه دخل فى الأفغان وادعى النبوة ، وتسمى بـ « النبى الروشنائى » وكسب أتباعًا وأنصارًا ، فرفضوا الصحف السماوية ونبذوا عبادة الله ، وتفيد أقواله أنه كان يقول بوحدة الوجود (٢) ، ويعتقد أن ليس هناك إلاّ «واجب الوجود » وكان يمجد الرسول العربى ـ ﷺ ـ وكان يبشر الناس بقرب اليوم الذى تخضع فيه الدنيا كلها لحكمه ، يتصرف فيها كما يشاء » .

« ويستفاد من كتاب بايزيد فى ترجمة حياته أنه كان مخاطبًا بالإلهامات ، وأن جبريل

---

(١) استفدت هذه المعلومات من مقال للمرحوم البروفيسور محمد شفيع تضمنته دائرة المعارف الاسلامية (باللغة الأردية) ج ٤ .

(٢) لم يكن ذلك بدعا فى ذلك العصر ، فقد كان أكثر الصوفية والمشايخ (لا سيما فى الهند) يبالغون فى هذه العقيدة (المؤلف) .

كان ينزل عليه . وأن الله شرفه بالنبوة ، وكان هو نفسه يعتقد فيه النبوة ، وكان يصلى إلا أنه لم يكن يرى للتوجه إلى القبلة لزومًا، وكان يستدل على مسلكه هذا بقوله ـ تعالى ـ فأينما تولوا فثم وجه الله » ، لم يكن يرى الغسل بالماء واجبًا ، وكان يعتقد جواز قتل معارضيه [1] » .

وذكر مرازا نصر الله شيئًا من أقواله التى يغلب عليها طابع التصوف ، والمعانى الروحية . إلاَّ أنه يتجاوز إلى آراء غير إسلامية ، وأفكار غير سليمة، يقول :

« كان أهم ما يعتنى به ويبحث عليه ، معرفة الله ومعرفة الذات ، فإذا وجد هندوكيًا ، يعرف نفسه ، يرجحه على المسلم الذى لا يعرف نفسه ، ويأخذ الجزية من المسلمين ، وكان يضع الخمس فى بيت المال عنده ، ويوزع منه على الفقراء والمساكين ، وكان يضع الخمس فى بيت المال عنده ، ويوزع منه على الفقراء والمساكين ، وكان جميع أبنائه يجتنبون الفسق والفجور ، والظلم والعدوان ، له مؤلفات عديدة فى العربية والفارسية ، والهندية والبشتوية ، وله كتاب « خير البيان » ، الذى ألفه فى أربع لغات ، وهو ـ كما يعتقدون ـ كلام الله المباشر إليه ، والصحيفة السماوية ، المنزلة عليه» [2] .

وتدل كتب التاريخ التى ألفت فى عصره ، أن الشيخ بايزيد كان قد جمع حوله عددًا كبيرًا من الأفغان ، وكون منهم قوة مهابة ، واستولى على ممر خيبر بعد أن جعل مقرّه فى « كوه سليمان » وكان يقوم بالغارات على القرى المجاورة ، فأنفذ الملك أكبر جيشًا لمقاومته، وكسر شوكته ، ولكن لم يستطع هذا الجيش التغلب عليه واستئصال شأفة هذه الحركة ، واستمر أبناء بايزيد وخلفاؤه بعد وفاته ، على معارضة الحكومة المغولية ، وخطرًا دائمًا لهذه الدولة ، ولم يستطع كبار قواد الدولة المغولية ، كراجه مان سنكه ، وبيريل ، وزين خان أن ينتصروا عليهم ، بل إن « بيريل » لقى حتفه فى معركة من المعارك معهم ، وباء مان سنكه كذلك بالفشل والخذلان عام ٩٩٥ هـ ، فى كرة على الروشنائيين ولم يُقض على هذه الفتنة إلاَّ فى عهد الملك شاه جهان عام ١٠٥٨ هـ [3] .

---

(١) انظر « داستان تركتازان هند » ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .

(٢) نقلاً عن « حال نامه بايزيد » المندرج فى « ديستان مذاهب » للملاحسن خانى ، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٩.

(٣) ملخص من كتاب « داستان تركتازان هند » .

المهدوية :

وكان من أنشط الحركات المتطرفة وأقواها فى ذلك العصر ، حركة المهدوية ، التى هزت المجتمع الإسلامى فى شبه القارة الهندية ،، وما جاورها من البلاد هزًّا لم يعرفه تاريخ الحركات والدعوات منذ زمن بعيد ، منشئها السيد محمد بن يوسف الجونبورى الذى ولد عام ٨٧٤ هـ ، وتوفى فى أوائل القرن العاشر عام ٩١٠ هـ ، إلا أن حركته القوية خلفت آثارًا تمتد إلى أواخر القرن العاشر ، ونستنتج مما كتبه المؤرخون المعاصرون لهذه الحركة من معارضين وموافقين ما يلى :

١ ــ كان السيد محمد الجونورى من نوابغ الرجال خلقًا ودينًا ، وتأثيرًا روحيًا قويًا ، لا تنجب أمثالهم الدنيا ، إلا بعد قرون وعهود طويلة ، كان شجاعًا جريئًا منذ ريعان شبابه قلقًا على أوضاع عصره ، وظروفه ، صادعًا بالحق ، جاهرًا بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، زاجرًا عن المناهى ، مشددًا فى الإنكار ، ولقب لأجل هذه الخصال فى عصره بأسد العلماء ، أخذ علم السلوك والإحسان من الشيخ دانيال ، والتزم المجاهدات الشاقة ، والرياضات الشديدة ، قضى أعوامًا فى الأودية والجبال ، معتزلا عن الناس، وذلك ما يؤدى فى الغالب ـ لا سيما إذ لم تتن هذه التدريبات الروحية تحت إشراف مرشد خبير ، وإرشاداته وتعاليمه ـ إلى وقوع الإرشادات الغيبية ، والواردات القلبية التى يخاف منها زلة الأقدام ، والخطأ فى الفهم والتفسير ، ويحمل مثل هذا الإنسان ـ الذى لم ترسخ قدمه فى العلم ، ولم يبلغ درجة البحث والتحقيق ـ الكلمات على غير محاملها ، ويفهم الإشارات الغيبية فى غير معانيها ، فكان منه أن ادعى فى رحلة من رحلاته أنه « المهدى » وأعن بعد ذلك عدة مرات فى أمكنة مختلفة أنه المهدى الموعود ، ودعا الناس إلى الإيمان به .

٢ ــ وكان ـ لكثرة مجاهداته ورياضاته ، وقوته الروحية ، واهتمامه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ يملك تأثيرًا قويًا ، فكان يسحر الناس بشخصيته ومعاشرته ، ويأخذ بألباب الناس بحديثه وخطابه ، حتى كان من يحضره من العامة والملوك والأمراء ويجلسون عنده ، كأن على رؤوسهم الطير ويستمعون إليه فى دهشة وتأثير وانبهار ، ويهون عليهم رفض المناصب الكبيرة ، والإعراض عن الجاه والسلطان ، والزهد فى الدنيا وهجر الأوطان، ومرافقته فى السفر والحضر ، والتسليم له والانقياد لأمره ، حدث ذلك مع السلطان غياث الدين شاه الخلجى ، فى عاصمة حكومته « ماندو » و كان ذلك شأن السلطان محمود شاه الكجراتى فى جانبانير بكجرات ، وشوهد له هذا التأثير السحرى العجيب فى « أحمد نكر » و « أحمد آباد » و « بيدر » و « كلبركه » حيث تهافت عليه

الناس ، وبايعه خلق كثير ، وانضم إلى ركبه الاف من الناس ، وشهدت منطقة السند اجتماعاً حاشداً ، وجموعًا متدفقة كالسيل ، وكان لخطابه فى « قندهار » دوى عظيم حرك ساكن البلد وهز الأرض ، ومال إليه حاكم قندهار مرزا شاه بيك وأكبره .

٣ ــ وكانت حياته حياة زهد وتجرد ، واستغناء ، وانقطاع كامل إلى الله ـ تعالى ـ وكان الناس يشاهدون منه ـ سفرًا كان أو حضراً مظاهر الزهد والإيثار والذكر والعبادة ، يوزع الطعام على الناس بالسوية من غير تمييز بين غنى وفقير ، أصله وأفراد أسرته لا يمتازون عن الناس فى شىء ، فكان هذا الجو الإيمانى يؤثر على جميع الوافدين ، فلا يرجعون من عنده إلاّ معجبين به، مأخوذين بتأثيره .

٤ ــ انجبت هذه الحركة رجالاً أقوياء مخلصين يستميتون فى الدعوة ، ويجاهدون فى سبيلها ، ولا يخافون سلطة وسطوة ، ويقومون بواجب «كلمة حق عند سلطان جائر » بشجاعة نادرة وجرأة خارقة ، يتحملون مشاق التعذيب والإيذاء الشديد فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد وهبوا نفسوهم ومهجهم فى هذا الطريق راضين مسرورين ، لا يقف انسان على هذه البطولات والمواقف الجريئة إلا بإعجاب وإكبار وانفعال ، ويضطر إلى أن يعترف بتأثير تربية السيد محمد الجونبورى وصحبته .

واقرأ ـ عى سبيل المثال ترجمة الشيخ علاء بن حسن البيانوى (الشيخ العلائى ـ م ٩٥٧ هـ) الذى قام بمسئولية الدعوة ، والوعظ والتذكير فى بلاط السلطان سليم بن شيرشاه السورى ، اقتصر على تحية الاسلام عند السلطان ، ولم يفعل كما كان يفعله أصحاب البلاط ، والوافدون على السطان من التزام الكلمات المعينة والانحناء والخضوع ، وسضرب بالسياط ـ ذات مرة ـ فى حال إصابته بمرض الطاعون ، وإعيائه بعد السفر ، فلم يتحمل هذا الضرب ومات ، وربط جسمه برجل الفيل وطيف به فى العسكر [١] .

٥ ــ كانت دعوته مؤسسة على خمسة أصول :

(١) الانصراف عن الدنيا.

(٢) العزلة عن الخلق .

(٣) الهجرة عن الوطن .

---

(١) راجع للتفصيل ترجمة الشيخ علاء بن حسن البيانوى ، « نزهة الخاطر » ج ٤٥، و« منتخب التواريخ » للعلامة عبد القادر البدايونى .

(٤) مصاحبة الصدِّيقين .

(٥) دوام الذكر (على طريقة حفظ الأنفاس) ، وكان يرى مشاهدة الرب عز وجل - سواء كانت بالعين أو بالقلب ، فى اليقظة أو فى المنام - شرطًا لازمًا لتحقق الإيمان .

٦ - وقد صدرت عنه فى حال السكر ، أو بسبب خطأه فى فهم المعنى والمراد كلمات وأقوال صريحة ودعاوى واضحة - مرات عديدة - ادعى فيها لنفسه مالا نجد له تأويلا أو محملاً سائغًا إلاَّ بتكلف شديد ، والتى أدت بأتباعه - مهما كانت نيتهم فى بداية الأمر ، ومهما كانت عواطفهم الدينية الطيبة - إلى استحالتهم فرقة جديدة ، تخالف ما عليه الجمهور وتعرض أهل السنة والجماعة ، تستند إلى هذه الأقوال الشاذة ، وتؤسس عليها عقائدها وأصول ديانتها ، ثم أضاف فيها الغلاة من أتباعهم - كما هو المعروف فى تاريخ الفرق - وبالغوا فى تعظيمه وتقديسه ، حتى ساووه بالأنبياء والمرسلين ، بل فضلوه عليهم أحيانًا ، وبلغ به بعض المتطرفين الغلاة إلى مرتبة النبى الاتم - ﷺ - ومتقيداً بالشريعة المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - بلغ ببعضهم الغلو المفرط ، والتطرف الجانح إلى أن الكتاب والسنة إذا خالفا قولاً من أقواله ، أو فعلاً من أفعاله ، فكتاب الله وسنة رسوله تبع لأقواله وأفعاله ، وغلوا غُلوًا عجيبًا فى عقيدة مشاهدة الله - تعالى - فمن لم يشاهد «الأنوار الإلهية » بعين الرأس أو عن طريق القلب أو فى حال اليقظة أو المنام ، فليس بمؤمن ، وبدأ الخليج بين عامة المسلمين وبين هذه الفرقة - بعد ظهور هذه العقائد - يتسع ويعمق على مر الزمان حتى شذت هذه الفرقة المدعوة بـ « المهدوية » عن أهل السنة والجماعة ، وانقطعت صلتها بهم بصورة كاملة ، وضاعت تلك الأهداف التى أنشئت لها هذه الحركة ، وكان يستهدفها مؤسسها ويرمى إليها .

واستمرت آثار هذه الحركة على أفغانستان والهند إلى أواسط القرن العاشر ، وقامت لحماتها وأنصارها عدة دول فى ولاية دكن ، ويقدر عدد أتباع هذه الفرقة وقوتها السياسية التى ظهرت فى أواخر القرن العاشر بأن جمال خان المهدوى - الذى كان من كبار أصحاب المناصب فى البلاط - لما تولى زمام الشئون الملكية بولاية « أحمد نكر » ، فى عهد السلطان اسماعيل نظام شاه بن برهان نظام شاه الثانى (٩٩٦ - ٩٩٨ هـ) استمال السلطان اسماعيل نظام شاه - وكان صغير السن إذ ذاك - إلى نحلته ، ثم لم يمض على ذلك كثير زمن حتى اجتمعت لديه طوائف من المهدوية من مختلف أنحاء البلاد ، والتفّ حول جمال خان من المهدويين حوالى عشرة آلاف شخص وخضعت له ولاية أحمد نكر ، واستولى عليها استيلاء كاملا ثم عاد برهان شاه - وكان قد خرج فى رحلة من الرحلات - إلى أحمد نكر ،

٩٩٨ هـ ، قضى على النحلة المهدوية التى كانت انتشرت انتشاراً واسعًا ، ونشر المذهب الإمامى الذى كان عليه من قبله ، وأحياه من جديد (١) .

وظهر فى أواخر القرن العاشر إعياء وضعف شديد فى الحركة المهدوية وقد كانت هذه الدعوة ، وادعاءات السيد محمد الجونبورى ، وتشدد أتباعه الغلاه المتطرفين تحدث رجة فى معتقدات المجتمع المسلم ، واضطراباً فى الأفكار ، وقلقًا فى الأوضاع ، وهال ذلك ، وأفزع العلماء الراسخين ـ فى ذلك العصر ـ الذين كانوا على بصيرة من الكتاب والسنة ، ومعرفة تامة بالعلوم الدينية ، وكانوا يتوجسون خيفة من هذه الفتنة العمياء ويرونها تمهيدًا لضلال مستطير ، وانحراف كبير ، فنهض العلامة محمد طاهر الفتنى مؤلف « مجمع بحار الأنوار » (٩١٣ ـ ٩٨٦ هـ) ، وهو أكبر عالم ومحدث فى عصره ، بتنفيذ هذه الدعاوى والرد عليها ، وسدّ هذه الثلمة فى الدين ، وعاهد الله تعالى على محاربة هذه البدعة ـ التى سادت فى ولاية كجرات وقام لها دعاة وأنصار – والقضاء عليها وأنه لا يلوث العمامة حتى يزهق هذا الباطل وينتصر للحق ، ثم لما فتح الملك أكبر ولاية كجرات عام ٩٨٠ هـ ، وقابله العلامة محمد طاهر الفلتى لاث العمامةعلى رأسه بنفسه وقال : إن ما عاهدت الله عليه من نصر الدين وحمايته ، واستئصال هذه الفرقة الناشئة ، علىّ تنجيزه والقيام به » ، وولى بعد ذلك مرزا عزيز الدين أخاه من الرضاعة حاكم « كجرات » الذى شدّ أزر العلامة الفتنى، وساعدة فى عمله، حتى كسر شوكتهم ، ولكن لما أقيل مرزا عزيز الدين من هذه الولاية، وولى مكانه عبد الرحيم خانخانان ، قامت قائمة المهدويين من جديد ، وعادوا إلى نشاطهم ودعوتهم ، وبارزوا فى الميدان فحسر العلامة الفتنى رأسه من العمامة ، وقصد العاصمة ، وتبعته طائفة من المهدويين ، لم يصل مدينة أجّين حتى قتلوه غيلة (٢) .

أسباب القلق والفوضى فى الأفكار :

إن دراسة التاريخ والتعمق فى فلسفته يدل على أن الأسباب الأصلية والدوافع القوية لمثل هذا القلق والاضطراب ، والحركات الهدامة الناشئة من ردود الفعل ، والفوضى فى المعتقدات والأفكار تتحدد ـ بصفة عامة ـ فيما يأتى :

---

(١) ملخص من تاريخ هندوستان ج ٤ ، تاليف الأستاذ : ذكاء الله الدهلوى .

(٢) راجع « نزهة الخواطر » ج٤ .

١ ــ تعارض القول والفعل والعقيدة والحياة ، والتناقض الموجود فى المجتمع ، كان يحمل القلوب الحساسة ، والمشاعر المرهفة على القلق والتوجع ، وهذا القلق ـ عندما يبلغ مرحلة خاصة من مراحل تطوره ـ يجد متنفسًا فى الدعوات الثورية ، والحركات الهدامة ، وأصحاب النفوس المضطربة القلقة إذا لم يساعدهم الحظ فى إنشاء حركة أو دعوة إيجابية بناءة، فانهم يصابون دائمًا بالشك والارتياب ، وتزعزع العقائد والأفكار ، وتتحول مثل هذه الحركات ـ بصفة عامة ـ إلى دعوات سلبية متطرفة ، ومعتقدات شاذة وتصبح أكثر فسادًا وأعمق ضلالاً ، وأوسع خطرًا واضطرابًا للبلاد ، وإثارة للفتن من ذلك المجتمع الفاسد الذى تقوم هذه الدعوات لإصلاحه ومعالجة فساده

ويخيل إلينا أن الترف وكثرة الأموال ، والطمع فى المناصب والوظائف والتنافس فى الحصول عليها ، جرّ الناس إلى هذا التناقض والنفاق العملي ، وجدت طبقة كبيرة من عبّاد المادة وأبناء الدنيا ، الذى تخطّوا حدود التعاليم الدينية والخلقية ، وتهافتوا على نيل الجاه والمنصب ، وتساقطوا على المتع واللذائذ فى حل وغير حل ، غير مبالين بالقيم والآداب والحدود الإسلامية، وتنشأ مثل هذه الطبقة ـ دائمًا ـ فى ظل حكومات واسعة قوية ، في عهود الأمن والاستقرار ، والرخاء ويبدو أن المجتمع الهندى فى آخر عهد حكومة الأسرة السورية ، وبعد قيام الدولة المغولية أصيب بهذا الداء العضال، واتجه هذا الاتجاه المتهور ، ونفذت قوانين معارضة للإسلام وطبقت عادات وأعمال تناوىء الدين ولا تمتّ إليه بأى صلة [١] ، وقد منيت الدولة الأموية ، والدولة العباسية أيضًا ، بظهور هذه الطبقة المترفة ، وهى الطبقة التى يسميهم سيدنا الحسن البصرى ـ رضى الله عنه ـ (م ١١٠ هـ) بـ «المنافقين » .

٢ ــ استبداد الحكام والسلاطين ، وسلطتهم المطلقة ، وظلمهم وعدوانهم وإعراضهم عن أحكام الشريعة الإسلامية ، وعبادتهم للنفس والأهواء ما يحمل الرجال الأقوياء الطامحين على ثورات قوية تهزّ الدولة ، وتلحق الأضرار بالمسلمين .

٣ ــ غلبة الطقوس والتقاليد ،والاهتمام البالغ بالمظاهر الجوفاء ، وانحطاط المجتمع

---

(١) يستفاد من كتب التاريخ انه فى عهد السلطان سليم شاه (أو أسلام شاه) كان يجتمع فى عاصمة كل ولاية كبار اصحاب المناصب من الأمراء والوزراء يوم الجمعة ، ويوضع حذاء السلطان سليم شاه على كرسى فى خيمة كبيرة ، فيحنون ه رؤوسهم ، ويقرأ عليهم مجموعة القوانين الملكية (انظر تاريخ الهند للسيد هاشمى الفريد زبادى ، ج٣ ، ص ٤٠ .

الخلقى والعقلى ، وجمود الأوساط العلمية ، وسيطرة التقليد الأعمى عليها [١] ، وفقدان المناهج التعليمية المليئة بالحيوية والنشاط وبعدها عن الواقعية ، وفقرها فى إقناع العقول المتطلعة ، والأذهان المتشككة ، كل ذلك يدفع الناس إلى اعتناق دعوات وحركات تروى ظمأهم ويجدون فيها سلواهم ، وتنهج لهم مسالك جديدة ـ خاطئة أو صحيحة ـ وتخرج بهم عن الدائرة الضيقة المحدودة ، كما أن من البواعث الأساسية ، والدوافع القوية ، لهذا الاضطراب الفكرى ، غفلة المجتمع عن تعاليم الكتاب والسنة ، وقلة العلم بالحديث الذى يساعد على تكوين تصور سليم وفهم صحيح للدين ، ويعرف من خلال دراسته مدى بعد المسلمين وانحرافهم عن الإدراك الصحيح لأصول الدين ، والعمل المستقيم وأسوة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومنهاج الصحابة والتابعين ـ رضى الله عنهم أجمعين .

٤ ـ عدم وجود شخصية دينية قوية تسمو على المستوى العام فى مقدرته العقلية ، والروحية ، تملك التأثير القوى ، وتجذب النفوس ، وتأخذ بمجامع القلوب ، وتزيل الريب والشكوك ، وتعالج الروح القلقة ، والنفس المضطربة ، وتنفخ فى جسم المجتمع الخامد روحًا جديدًا ، وتعيد الثقة والاعتماد على خلود الإسلام ، وصدق الرسالة المحمدية ، والشريعة الإسلامية ، وأن أسباب الرقى والكمال موصولة بها ، راجعة إليها .

وتدلنا دارسة تاريخ القرن العاشر ـ فى ضوء كتب السير والتراجم ، وسجلات الوقائع والحوادث ـ على أن هذه الدوافع والأسباب الطبيعية لفوضى والاضطراب تضاعفت فى الهند ـ على أقل تقدير ـ بالنسبة للقرون الماضية ، وكان من نتيجة ذلك ، ظهور هذا القلق الفكرى ، والحركات الثورية الهدامة ، على هذا النطاق الواسع فى القرن العاشر .

---

(١) يصور البروفيسور خليق أحمد نظامى رئيس قسم التاريخ فى جامعة عليكره الاسلامية ، هذا العهد ويشخص هذا الداء تشخيصًا صحيحًا ، فيقول :

« كانت أوضاع المسلمين الاجتماعية الخلقية تسير ـ بسرعة ـ نحو التدلى والانحطاط ، وان ما جاء من القصص والروايات الغربية فى « افسانه شاهان » و « تاريخ داؤدى » تنم عن التسفل الخلقى المشين والاضطراب العقائدى العظيم ، ان حياة « الدراوشة » المترفة الناعمة ، وانحراف طلبة العلم ، والعقائد الخرافية ، فى التمائم والحجب وأساطير السعالى والجن ، وروايات « مصباح سليمان » ليست علائم على مجتمع سليم ، ونظام خلقى قويم ، وقد كانت الحركة المهدوية ـ فى حقيقة الأمر ـ محاولة للقضاء على هذا الانحطاط العقلى ، والتزمت الفكرى ، والجمود المذهبى (انظر «سلاطين دهلى كى مذهبى رجحانات ـ الميول الدينية لدى سلاطين دهلى ـ ص ٤٥١ » .

فتنة القرن العاشر الكبرى
الاعتقاد ببداية نظام جديد للعالم على بداية
الألف الثانى من الهجرة

مغالطة فى قضية الألف الثانى :

تحمل أواخر القرن العاشر الهجرى أهميـة كبيرة ، من حيث إن التقويم الإسلامى كاد يطوى فيها مـرحلة من مراحل عمره ـ وهى مدة ألف سنة ـ ويستـأنف مرحلة ثانية ، وهو الألف الثانى اذى يبتدىء من ١٠٠١ هجريا ، وليس هذا التحـول ـ فى الأوضاع العادية ـ أمرًا خطيرًا ، أو شيئًا يسترعى الأنتباه ، فالدنيا ـ فى عمرها الطويل ـ والحياة الإنسانية ـ فى تقويمها المديد ـ تقلـب ورقة من عمرها عند إيذان كل قرن بالرحـيل ، وولادة قرن جديد ، كـذلك كان القـرن العـاشر على انصـرام وارتحـال ، والقرن الحـادى عـشر على وصـول واستـهلال ، لا أقل ولا أكـثر ، ولم يكن ذلك بدعًـا من الأمر ، ولا حادثًا لم يـسبق له نظير.

ولكن لا يعزب عن البـال أن الزمن كان زمن اضطراب شديد فى الأذهان والعـقول ، وتزلزل فى العـقائد والأصول ، وغـفلة عن التعالـيم الصحيـحة للكتاب والـسنة ، وجهل مطبق، وتفوز من علوم الدين ، واستـنكاف عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ـ واعـتبار علوم اليونان غاية مدارك العقول الإنسانية تسمى بـ « الحكمة » و « مقياس النبوغ والذكاء » والأفق البعيد فى آفاق العلوم الإنسانية ، والمدارك البـشرية الواسعة ، وكان شق الشعرة ، وصنع القبـة من الحبة ، فى البحـوث المنطقية والفلسفـية والكلامية ، هى الـسدرة المنتهى والغاية الكبرى من المناهج الدارسية ، وفى الأوساط العلمية، وعمـت فيها الاستهانة بقيمة العلوم النبوية ، والوحى والتنزيل ، والنصـوص القرآنية التى لا يأتيهـا الباطل من بين يديه ولا من خلفـه ، ويعتبـر الإيمان بها والأذعـان لها جهـلاً وتقليداً أعـمى ، ومعاداة لـلعقل والتفكير ، هذا ، وكانت الثورة ضد حكومات ذلك العصر ، ونظمه السياسة . التى كانت تستند ـ مخلصة و غير مخلصة ـ إلى الدين ، وتعتمد للحفاظ على سلطتها عليه ، «موضة» العصر وشعار الأحرار .

كل ذلك سبّب وجود بعض المغـامرين الطامحين الأذكياء المتـسلحين بعلوم عصرهم ،

فأصبحوا يحملون بالسلطة ، ونيل الجاه س ، والريادة والقيادة للعصر الجديد ، وتدغدغ[1] قلوبهم الأمانى المعسولة باستغلال تقلب الليل والنهار ، وأن يستمتعوا بخلاقهم كما استمتع الذين من قبلهم بخلاقهم ، ويستفيدوا من تداول الأيام بين الناس ، كما استفاد مؤسسو الديانات - فى زعمهم - فى العصور التى كانوا فيها ، وأن يبدأ بدعوتهم وحركتهم تقويم جديد فى تاريخ الشعوب والبلاد ، كما بدأ التقويم الإسلامى الهجرى بدعوة نبينا محمد - ﷺ - ، وظهوره فى جزيرة العرب والذى كان بداية عهد جديد، وتاريخ جديد احتضن العالم كله ، واعتبروا انتهاء الألف الأول فى تقويم العالم وتاريخ هذ الدين ، واستئناف الألف الثانى حدثًا كبيرًا ، وفرصة ذهبية سانحة لا تأتى بسهولة ، وفى فترات قريبة ، فلو أضاعوا هذه الفرصة الذهبية ، كان لابد من انتظار ألف آخر ، ولا سبيل إليه، فليس من الفطنة والكياسة - كما ظنوا تفويت هذه الفرصة ، وإلا فسوف يندمون ولات ساعة مندم .

إننا لنشهد ظلال هذه الفكرة ، واثار هذه الأمانى الحالمة فى مختلف مناطق العالم الإسلامى فى النصف الأخير من القرن العاشر ، لا سيما فى منطقة إيران - وهى جديرة بأن تسمى فى ذلك العهد بيونان الشرق - التى كانت أكثر مناطق العالم الإسلامى قلقًا واضطرابًا ، وذكاءًا ، وشدة حاسية، توغلاً فى العلوم العقلية اليونانية ، وافتتانًا بها ، وكان الألف الأول من التقويم الهجرى على وشك الانتهاء وكان ذلك للمرة الأولى بعد ظهور الإسلام وكان الألف الثانى يستعد ليبدأ دوره فى التاريخ ، وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة ظهور مجدد على رأس كل مائة سنة [2] ، ويشهد عليه التاريخ ، فكان بعض الأذكياء يحكمون - عند بدية الألف الثانى - بنهوض مؤسس للدين الجديد ، مكان مجدد للدين القديم ، لما بين مائة سنة وألف سنة من الفرق الواسع ، والتفاوت العظيم ، وبدأ كثير من هؤلاء المغامرين الحالمين يحاولون أن يرشحوا نفوسهم لهذا المنصب الجليل ، ولم يكتب - مع الأسف - تاريخ مرتب يُعنى عقلية هذا العصر ، واستعراضه فكريًا ونفسيًا ، وتتجلى فيه ظلال العواطف الخواطر المعتلجة فى القلوب ، والأحلام والأمانى السارية فى النفوس ، والتصورات والأخيلة المتحركة فى الأذهان ، فإن كتب التاريخ القديمة والحديثة ، تدور كلها حول البلاط والملوك ، وتروى لنا قصص تداول الحكومات وانقلاب الدول ،

---

(١) الدغدنة تجميش فى مواضع من البدن كأخمص القدم والابط يهيج له الضحك .

(١) مما رواه أصحاب السنن : «ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها» .

والفتوح والهزائم ،وعطايا الملوك، وعزل الأمراء والولاة ونصبهم ، وأحوال الترف والبذخ وروايات الحرب والضرب ، فلو كان بين أيدينا تاريخ مدون لعقلية العالم الإسلامى وفكره فى القرن العاشر لرأينا بوضوح أنه عند قرب طلوع الألف الثانى راود الأمل كثيرًا من النفوس ، وداعبت الأمانى والأحلام كثيرًا من القلوب ، وأنهم بدأوا يجمعون العدة والعتاد للتربع على عرش القيادة ، ويمدون أطناب سيادة جديدة لعصر جديد .

لقد طوى بساط دعاء الخلق إلى الله وتزكية النفوس (التى سميت فى العهد الأخير بالتصوف) بعد قيام الدولة الصفوية التى جعلت المذهب الشيعى مذهبًا سائدًا فى إيران ، وبالرغم من أن الجَدَّ الأول لمؤسسى هذه الدولة الشيخ صفى الدين كان صوفى المشرب والمسلك ، ولكن لما أن التشيع يعادى التصوف ، عادت إيران ـ فى عهد هذه الدولة الصفوية ـ التى أنجبت أمثال الامام الغزالى الطوسى ، والشيخ فريد الدين العطار النيسابورى ، مولانا جلال الدين الرومى [1] ومولانا عبد الرحمن الجامى من العارفين المحققين ، والتى اتحفت بغداد ، و « دهلى » و « أجمير : بسيدنا عبد القادر الجيلاتى ، وشيخ الشيوخ شهاب الدين السهروردى ، والشيخ معين الدين الجشتى ، والشيخ قطب الدين بختيار الكعكى الأوشى ـ لا تعرف إلا العلوم العقلية اليونانية ، أو « الحرفية » المذهبية اطائفية ، وعاد علم الحديث ـ الذى كانت إيران مركزًا كبيرًا من مراكزه والتى أسعدت التاريخ الإسلامى بأمثال الإمام مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ، وأبى عيسى الترمذى ، وأبى داؤد السجستانى ، وابن ماجة القزوينى ، وأبى عبد الرحمن النسائى من أئمة الحديث وأصحاب الكتب الخمسة ، لا يعرف له أنيسًا ولا جليسًا ، واختفت معالم الكتاب والسنة ، واحتلت العلوم اليونانية من المنطق والفلسفة مكان الصدارة ، وأصبحت مقياس الفضل والكمال ، وأن هذه الثورة على العلوم الإسلامية الأصيلة التى كانت قطعت صلة هذه البلاد الخصبة ، الغنية بالعبقريات ، على صحابة الرسول ـ ﷺ ـ وسنته وأحاديثه ، أضعفت صلة الطبقة المثقفة الذكية ـ فى البلاد ـ بالنبوة المحمدية، وعقيدة ختم الرسالة وخلود الإسلام ، وصلوحه للبقاء ، وإن لم تقطعها بصورة كاملة ، وأنه لو لم يكن الانتماء إلى أهل بيت النبى ـ ﷺ ـ على أساس التشيع ـ والاعتقاد فيهم ، لكان يحلق على هذه البلاد خطر العودة إلى المجوسية ، وحضارة ما قبل الإسلام، وعهد رستم ، واسفنديار أبطال « الشاهنامة » (الملحمة الإيرانية للفردوسى) وتحولها

---

(١) كان من سكان بلخ الواقع فى خراسان ـ أصلا وهو يقع الآن فى أفغانستان .

جاهلية بعدما دخلت فى الإسلام .

ولا يستبعد ـ فى مثل هذه الأوضاع المتردية بإيران ـ نشوء حركات هدامة ومؤامرات عقلية وفكرية للقضاء على الإسلام وهدم كيانه وقد بلغت هذه الفكرة أوجها فى « الحركة النقطوية » التى ظهرت فى أواخر القرن التاسع ، وأوائل القرن العاشر ، والتى تدل على الروح القلقة فى إيران التى ظهرت فى صورة « مزدك » تارة ، وفى مسلاخ « مانى » تارة، وفى لباس حسن بن الصباح أخرى ، وكانت حركة إلحاد وزندقة ، يقول سكندر منشى :

« تعتقد هذه الفرقة بقدم العالم كاعتقاد الفلاسفة ، ولا تؤمن ببعث الأجسام الإنسانية، وبالحشر إطلاقا ، وتعتبر الراحة والذلة فى الدنيا مكان الجنة والنار عقابًا أو ثوابًا على الأعمال الحسنة أو السيئة (١) » .

ويقول شاه نوازخان عنهم :

« علم « نقطة » عبارة عن الإلحاد والزندقة والإباحية ، واستحلال كل شىء ، إنهم يعتقدون كالفلاسفة المتقدمين بقدم العالم ، وينكرون الحشر والنشور ، ويرون ضيق الدنيا ورخاءها ثوابًا أو عقابًا على حسن الأعمال أو قبحها بدل الجنة والنار (٢) » .

إنهم يقولون بنظرية النشوء والارتقاء ويزعمون أن النباتات والجمادات تطورت إلى أن أصبحت إنسانًا (٣) ، وليس لقدرة الله ـ تعالى ـ أى دخل فى زعمهم فى الإنبات ، بل هو نتيجة تأثير العناصر والكوكب (٤) . ويعتقدون أن القرآن الحكيم من تأليف محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ وأن الأحكام الشرعية هى آراء الرجال ، ويستهزئون بالصلاة ، والحج ، والأضحية (٥) ويسمون شهر رمضان « بشهر الجوع والظمأ » ويسخرون من أحكام الطهارة والغسل (٦) ، ولا يؤمنون بحرمة النساء المحرمات ، وينكرون الأمور المأثورة ويدعون إلى

---

(١) انظر « تاريخ عالم ارائى عباس » ج ٢ ص ٣٢٥ .

(٢) مآثر الأمراء ج ٢ ، ص ٦١٩ .

(٣) دبستان مذاهب ص آ ٣٠٠ .

(٤) انظر « مبلغ الرجال » ورقة ٢٥ ـ النسخة الخطية الموجودة فى جناح مولانا آزاد ، بمكتبة جامعة عليكره الإسلامية .

(٥) المصدر السابق .

(٦) المصدر السابق .

الأمور العقلية [١] .

ويقال إن مؤسس هذه الفرقة رجل يدعى « محمود بسيخوانى [٢] » ، وقد أثرت هذه الفرقة ـ فى القرن العاشر الهجرى ـ على آلاف من أبنا الهند وإيران وبلغ عدد أتباعها فى إيران وحدها إلى الألوف المؤلفة ، وكان النقطويون يعتقدون أن المدة بين النشأة الأولى على الأرض إلى عهد محمد سيخوانى تبلغ ثمانية آلاف سنة ، وكان هذا العهد الطويل عهد ازدهار العرب وسيادتهم إذ أن الأنبياء والمرسلين على مدى هذه الأزمان المتطولة كانوا يبعثون فى العرب فحسب ، وأن ظهور محمود بسيخوانى قضى على السيادة العربية [٣] ، فلا يبعث نبى أو رسول إلى ثمانية الاف سنة أخرى ، إلاَّ فى الشعوب العجمية [٤] .

إن للعقيدة الأساسية التى نادى بها محمود بسيخوانى ، وهى « أن الدين الإسلامى أصبح منسوخًا ، فلا مناص من قبول الدين الجديد الذى جاء به محمود » [٥] و « إن الإسلام قد استنفد دوره ، وقضى عمره فمست الحاجة إلى دين جديد ، صلة خاصة بالعمل التجديدى الذى قام به الإمام السرهندى ، ويدل إعلان هذا الدين الجديد وظهوره فى القرن العاشر على وجود هذه «العقيدة الألفية» لديهم، وأنهم ـ منذ طلوع الألف الثانى

---

(١) المصدر السابق ، استفدت فى هذا الموضوع من كتاب « الدين الإلهى ، وخليفته» للبروفيسور محمد أسلم ، وكتاب « الدراسات التاريخية والأدبية » للدكتور نذير احمد جامعة عليكراه الاسلامية ، (وكلاهما فى آردو) ، وراجع أيضًا أن شئت التفصيل والمعلومات الصحيحة ، النقطويون أو البيساخانيون » للدكتور صادق كيا، (بالفارسية) .

(٢) أعلن محمد البسيخوانى أو البيسخانى الكيلانى ظهور هذه الديانة الجديدة عام ٨٠٠ هـ فى استر اباد، وتوفى عام ٨٣٢ هـ ، وتأسست هذه الفرقة فى إيران فى أول القرن التاسع ، وظلت تنمو وتقوى حتى كان اتباعه فى القرن العاشر والحادى عشر ، بلغو الآلاف المؤلفة فى الهند وإيران ، ويذكر المؤرخون الايرانيون، والمؤلفون المسلمون هذه الفرقة باسم « الملاحدة التناسخية » وأهل الزندقة الالحاد ،ولما ان محمود بسخانى بعتقد خلق كل شىء من الطين ، ويسمى الطين « لفظة » أو استعان فى بيان مفاهيم القرآن ـ فى زعمه ـ بعدد الحروف والنقط ـ سميت هذه الفرقة بـ «النقطوية أو أهل النقطة » . من مقال « نظرة عابرة على الفرقة النقطوية » المذكور فى « الدراسات التاريخية الأدبية للدكتور نذير احمد باختصار وتلخيص .

(٣) ولمحمود أو لبعض مريديه بيت يقول فيه : « لقد جاءت نوبة أتباع محمود ، وذهب ما كان يتعاظم به العرب على العجم » .

(٤) « ديستان مذاهب » ، ص ٣٠١ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٠٠ .

يبدأون بحركتهم ودعوتهم بجد واجتهاد .

عامل شاه عباس الصفوى فى إيران أتباع هذه الديانة النقطوية ، معاملة شديدة ، فقتل الألوف منهم ، وكان شاه عباس أشد من سابقيه فى عقاب هؤلاء المارقين ، ولم تكن هناك فرقة ـ فى نظر الشاه ـ أعظم خطراً ، وأكبر ضرراً من هذه الفرقة ، فقام سنة ١٠٠٢ هـ بعملية واسعة للتنكيل والتقتيل والتشريد ، ففرّ كثير منهم بسبب هذا التنكيل والتشريد إلى الهند ، وكان منهم الشيخ حياتى الكاشى ، الذى بقى فى السجن عامين ، ثم أفرج عنه ، فقصد شيراز ، ثم مكث فى وطنه أيامًا عام ٩٨٦ هـ ، توجه على إثرها إلى الهند ، وكان هو فى أحمد نكر عام ٩٩٣ هـ وكان شريف الآملى ـ الذى يعد من العلماء النابغين ـ ذا صلة وثيقة بكبار أصحاب هذه الفرقة ، سافر إلى الهند بعد ما ضاقت عليه أرض إيران ، وضاق ذرعًا بأهلها ، وكان الملك أكبر يعامله معاملة المريد لشيخه ، ويرى بعض المحققين أن شريف الآملى كان يستدل بكتابات محمود بسيخوانى على ظهور الدين الجديد ويرغب الملك فيه ، ويستميله إليه ، وأخبره بنبوءة محمود أنه سوف يظهر فى عام ٩٩٠ هـ رجل يمحو الباطل ويقيم الدين حق .

ويجمع البدايونى وخواجه كلان (١) ، على أن شريف الآملى فرّ من إيران إلى بلخ ، والتجأ إلى زواية الشيخ محمد زاهد بن الشيخ حسين الخوارزمى وظل يعيش هناك فى مظهر المتصوفة ، ولما لم تكن طبيعته تساير التنسك وتنسجم معه ، اتخذ شعاره الدعاوى الفارغة ، والشطحات الجوفاء، والكذب والافتراء ، ولما اطلع الشيخ زاهد على عقائده ، طرده من زوايته ، ففرّ إلى دكن (جنوبى الهند) .

وكانت بلاد الدكن آنذاك ـ يسيطر التشيع ، ويصول فيها ويجول فلما وصل إليها شريف الاملى استقبله أهلها كعالم شيعى كبير ، وبالغوا فى الحفاوة به ، ثم لما عرف الناس ما فى عقائده من زيغ وضلال ، قصدوا لايذائه وتعذيبه .

وكما يقول البدايونى : « أراد حكام الدكن أن يقتلوه » ثم قرروا بعد أن يركبوه الحمار، ويطوفوا به ويشهروه (٢) » .

وأسند إليه الملك أكبر قيادة الجيش المكون من ألف جندى، وجعله من المقربين لديه(٣)

---

(١) هو الشيخ خواجه عبيد الله (بن الشيخ الكبير عبد الباقى النقشبندى) مؤلف « مبلغ الرجال » .
(٢) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .
(٣) انظر « مبلغ الرجال ورق » ٣٢ .

ونصبه داعيًا فى بنكاله » إلى الدين الإلهى » ، وكان من أخص أصحاب الملك أكبر وأصدقائه الأربعة ،وكان ينوب عن الملك فى مخاطبة أتباع الدين الإلهى ومريديه ، والمعتقدين فيه (١) .

وجاء فى « مآثر الأمراء » : « اشتغل بالتصوف وبيان الحقائق ، وخلطه بالزندقة والإلحاد ، ادعى نظرية « الوحدة » ، وقال عن كل شىء إنه الله(٢)» ، وتفيد بعض كتب التاريخ المعاصرة أن أبا الفضل العلامى (٣) كان متأثرًا بالحركة النقطوية ، ولما قتل شاه عباس الصفوى أكبر دعاة الحركة النقطوية وأعظم المسئولين عنها الشيخ ميرسيد أحمد الكاشى ، ووقف على وثائقه ، والأوراق التى تركها ، فكانت فيها من بين مجموعة الرسائل رسالة لأبى الفضل العلاّمى وجهها إليه ، يقول معاصره المؤرخ سكندر منشى فى كتابه «تاريخ عالم آرائى عباس » :

« أخبرنا بعض الوافدين من الهند أن أبا الفضل بن الشيخ مبارك الذى هو من علماء الهند ، وله مكانة وحظوة عند السلطان ، يعتنق هذه الديانة وأثر على الملك أكبر ، ودعاه إلى التحرر من القيود وانحرف به عن جادة الشريعة ، وأن رسالته التى كتبها إلى مير أحمد الكاشى ، والتى عثر عليها فى وثائقة ، تدل على أن أبا الفضل كان من أتباع الحركة النقطوية (٤).

ويقول خواجة كلان فى كتابه « مبلغ الرجال » عند ذكره لمحمود بسيخوانى :

« نشر الشيخ أبو الفضل الناكورى بساط ذلك القانون الخاسر الكاسد فى بلاد الهند(٥)» .

ويمكن أن يقدر من خلال هذه الشواهد التاريخية ما قام به دعاة الحركة النقطوية ، وأنصارها فى الهند ، من بسط النفوذ وتجهيز عرش الدولة لدين جديد وعهد جديد على طلوع الألف الثانى ، وقانون جديد ، وكانوا فى حاجة بعد هذه الخطوة التمهيدية إلى شخصية قوية تملك السلطة وتتولى زمام البلاد ، ولم يكن هناك شخص أجدر وأحق بهذه المسئولية ـ فى نظرهم ـ من الملك أكبر .

---

(١) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٨ .

(٢) مائر الأمراء ، ج ٣ ص ٢٨٥ .

(٣) هو من أخص أصحاب السلطان جلال الدين أكبر ، والعقل المفكر الموجه فى دينه الجديد وسياسته العلمانية الهندكية ، يشغل الحديث عنه حيزًا كبيرًا فى هذا الكتاب .

(٤) مستفاد من مقال « نظرة عابرة على الفرقة النقطسوية » المنشورة فى كتاب « الدراسات التاريخية والأدبية ، للدكتر نذير أحمد ، ص ٢٦١ .

(٥) « مبلغ الرجال » ورق ٢١ ، وانظر ورقة ٣٢ ـ ٣٣ أيضًا .

الباب الثانى

عهد الملك أكبر ، والفترتان المتعارضتان فى حياته

حياة الملك أكبر الدينية ، وتدينه :

يجمع المؤرخون للهند ولعهد الملك أكبر ـ بصفة خاصة ـ على أن «أكبر» بدأ حكمه ومباشرته للإدارة ، ملمًا راسخ العقيدة ، متنسكًا مع التفشف فى الحياة والمغالاة فى العقائد ، ونقتطف للدلالة على ذلك من الكتاب الشهير « منتخب التواريخ » للعلامة عبد القادر البدايونى (م ١٠٠٤ هـ) ـ الذى يعد من مشاهير العلماء وكبار مؤلفى البلاد فى العهد الأكبرى ، ومؤرخى عهده ـ وقائع متناثرة من تلك الفترة الأولى لعهد الملك أكبر ، ونبذة من أحواله وسيرته ، حين كان مسلمًا ساذجًا على طريقة سلفه الملوك من آل تيمور ، وكان ـ لعدم تلقىّ الدراسة ، وتأثير البيئة المحيطة ، وتقاليد عصره ـ الذى عمّت فيه البدع والمغالاة فى تعظيم المشايخ ، واعتقاد مكانهم من الله ، وشفاعتهم للناس ، وزيارة الضرائح والمشاهد ـ يشد الرحال لزيارة قبور الصالحين من المشايخ المعروفين ، وكان يعاقب الناس على مخالفة عقائد الجمهور ، وقلة التدين ، وضعف الاعتقاد ، وكان يقدم النذور إلى ضرائح الأولياء والصالحين ، ويشتغل بالأذكار والأوراد فى شغف واستغراق ؛ ويصاحب العلماء والصالحين ، ويحضر مجالس « السماع » .

ولا بأس بنقل تصريحات العلامة عبد القادر البدايونى عن تدين الملك أكبر ، ومغالاته فى العقيدة والدين ، إذ أن ذلك مما اتفق عليه المؤرخون ، وهو جانب مشرق من حياة « أكبر » فلا يتهم الشيخ عبد القادر بالنيل منه ، والحط من شأنه ، وأنه كتب ذلك تحت ضغط عاطفة الكره والمعاداة ، أو التعنت والعناد .

أما الفترة الثانية من حياة املك أكبر ـ وهى الفترة التى قام فيها بنشر نظرية « الدين الإلهى » والدعوة إلى عقيدة وحدة الأديان ، والنفور من الإسلام والتسامح البالغ مع غيره من الديانات ، والموقف المعادى المعاند من الدين الإسلامى ـ فإنا نأخذ بالحيطة فى ذكر تفاصيلها والاقتباس مكان تصريحات الشيخ عبد القادر التى أثار بعض الأوساط ـ أخيراً ـ الغبار حول صحتها وثبوتها وحيادها التاريخى .

فقد ظهرت حركة تأليفية منظمة ـ تشبه خطة مدبرة ـ فى الهند فى الستّينات يقودها

بعض الأساتذة فى الجامعات ، والمؤلفون العلمانيون لتنفيذ كتابات العلامة عبد القادر البدايونى وتصريحاته فى ما يتصل بالفترة الثانية من عهد الملك أكبر ، فيحملونها على التعصب الدينى ، والمعارضة الشخصية والتعنت ضد الملك أكبر ، ويثيرون الشكوك والشبهات حول كتابه « منتخب التواريخ » ويقللون من قيمته العلمية والتاريخية وذلك يقوم على أساس إيجابى علمى وشواهد تاريخية أمينة ، أن أساس هذه التهمة ينبنى على العاطفية ، واعتقاد عظمة الملك أكبر ، والنزوع إلى براءة ساحته من كل تهمة لأنه هو وحده ـ من بين ملوك المسلمين ـ يتفق مع الاتجاه العلمانى الحديث ، والتحرر من ربقة الدين ويجدر لأن يتخذ زعيمًا ، أو مثلاً كاملا للسياسة اللادينية ، أو القومية الهندية ، المجردة من كل دين أو عقيدة ، وذلك نتيجة الأغراض السياسية ، بعيدة النظر والمرامى ، أو الأهداف الشخصية ، من نيل الجاه والشهرة والزلفى .

وكل من يراجع كتاب « منتخب التواريخ » بحياد وإنصاف ، لا بد أن يعترف بصدق المؤلف وإخلاصه ، وتوجعه للأوضاع ، وجراءته ، وصراحته بكلمة الحق ، وإن من له إلمام واسع بكتب التاريخ ، ودراسة طويلة لها تنشأ فيه ملكة التمييز بين الروايات التاريخية والأساطير الخرافية ، ويقدر على تقييم المؤلف ، وتحديد مكانته ومنزلة كتابه ، وينقد الزيف والصحيح كالصير فى الماهر ، يقول المؤرخ الانجليزى الشهر « ELLiot » معلقًا على كتاب « منتخب التواريخ » : « ليس هناك إلاّ القليل من المؤرخين الذين يريدون أن يبدوا عواطفهم كما يريد البديوانى ، لا سيما ما تكون ثقيلة على مسامع الملوك ، أو الذين يصرحون بأخطائهم وزلاتهم من غير مبالاة وفى غاية الوضوح (١) » .

وأما عند إبراز الجانب المعادى للإسلام فى حياة أكبر فلا نقتصر على شهادات الشيخ عبد القادر ، بل قد نسوقها أحيانًا تأييدًا لتصريحات بطانة الملك أكبر ، وأركان دولته المخلصين الأوفياء ، وبيانات المؤرخين المحايدين لعصره وبلاطه .

واقرأ ـ فيما ـ يلى ـ التصريحات التى جاءت فى « منتخب التواريخ » عن حياة الملك أكبر الدينية فى الفترة الأولى :

« وتجشم الملك عناء السفر مشيًا على الإقدام إلى « أجمير (٢) » شكرًا لِلّه تعالى على

---

(١) انظر ج ٥ ، ص ٤٨٠ .

(٢) مدينة مشهورة فى الهند ، فيها ضريح الشيخ الكبير معين الدين الجشتى (م ٦٢٠ هـ) الذى كان له فضل كبير فى انتشار الاسلام فى شبه القارة الهندية ومن أكبر شيوخ الطريقة والأولياء شهرة فى الهند .

ولادة ابنه سليم ، وعرّج على دهلى فى الرجوع منه ، وزار قبور الأولياء والصالحين[1]» .

توجه إلى « أجودهن » وزار شيخ المشايخ فريد ادين كنج شكر ، وعاقب مرزا مقيم الأصفهانى مع مير يعقوب الكشميرى على تهمة الرفض و « التشيع [2] » .

« سافر إلى « أجمير » فى أوائل شعبان ، ومشى سبعة فراسخ على الزقدام ، حتى زار الضريح ، ونذر الطبول ، وقضى وقتًا طيبًا فى مصاحبة العلماء والصالحين ، وحضور مجالس الغناء [3] » .

« وكان يشتغل - باستغراق - فى ذكر « ياهو » و « ياهادى » فى مصلاه ، (وجاء فى حوادث عام ٩٨٠ هـ حديث ضافت لبناء ثلاث عمارات خاصة بعبادته [4] » .

« كان يطلب - كل ليلة الجمعة - فى مصلاه الأشراف والمشايخ والعلماء ويحضر الملك حلقة من العلماء ، ويباحثهم فى المسائل والأحكام ، وصدر الأمر فى هذه الفترة إلى القاضى جلال وغيره من العلماء بتفسير القرآن الكريم [5] » .

ويذكر فى وقائع عام ٩٨٦ هـ مصاحبة العلماء والمشايخ ، ومجالستهم ، وإحياء ليلة الجمعة ، فى مصلاه بـ « فتح بور سيكرى » .

ولما خرج خان زمان على الملك أكبر ، وأعلن الثورة ، قام الملك إلى قبور الأولياء والصالحين لدعاء عندها قبل أن يتوجه لمقاومة خان زمان ومحاربته [6] .

« وأطلق رجل كان يدعى فولاذا سهمًا على الملك بإشارة شرف الدين حسين عند مروره بمدرسة « خير المنازل » التى أسسها وعمّرها « ما هم آنكه» وأصيب الملك بجرح خفيف ، برىء منه - بعد معالجته لأيام قليلة - فكان يعدّ النجاة من هذه الحملة الباغتة - كما يقول البدايونى - كرامة أولياء دهلى ، وتنبيهًا غيبيًا له [7] » .

---

(١) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ١٢٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٤ .

(٣) ايضا ص ١٨٥ .

(٤) أيضًا ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٥) المصدر السابق ج ٢ ، ص ٢١١ .

(٦) أيضا ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

(٧) أيضًا ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

وحضر ـ مرة ـ فى طريقه إلى أجمير ، فى خدمة الشيخ نظام النارنولى، الذى كان من المشايخ الصالحين المعروفين ، وذاع صيت زهده وورعه فى الآفاق (١) .

« وزار سنة ٩٨٠ هـ ضريح السيد حسين خنك سوار فى أجمير ، ثم زار ـ بعد سنوات ـ قبر الشيخ قطب جمال فى إعتقاد وحب وإكبار ، وقرأ الفاتحة (٢) » .

« وكان يعظم الشيخ سليم الجشتى ويعتقد فيه ، وبنى على قبره قبة فخمة باهتمام بالغ، ولأجل هذا الإجلال التعظيم للشيخ سليم الجشتى سمى ولى عهده (جهانكير) الذى ولد ـ كما يقال ـ بدعائه ، « سليم » ، وكان الملك بعث بعقيلته الملكة « جودها بائى» إلى بيت الشيخ قبل الولادة، حتى تكون موضع عناية الشيخ واهتمامه ، وتسعد بدعائه(٣)» .

وولد ابنه مراد كذلك في بيت الشيخ سليم (٤) ، ولما أصبح ولى عهده، سليم (جهانكير) فى سن يبدأ فيها القراءة وأول ما يقرأ الطفل يكون «بسم الله الرحمن الرحيم » وهى عادة تسمى « باحتفال التسمية » فى الهند ـ طلب من المحدث الشهير الشيخ ميركلان الهروى أن يشرف بهذه المناسبة فحضر وأقرأ « سليم » « التسمية » بحضور الملك مع جمع من أعضاء الدولة وأركان المملكة (٥) » .

وحينما بدأ ولى العهد فى القراءة والكتابة ، أمره أن يذهب إلى بيت الشيخ عبد النبى، يدرس عليه الحديث ، فقرأ عليه الأربعين حديثًا من جمع الشيخ مولانا جامى (٦)، وكان الملك أكبر يبالغ في تغظيم الشيخ عبد النبى ـ حفيد الشيخ عبد القدوس الكنكوهى والمتبوأ على منصب « صدر جهان » فى عهد الملك أكبر ـ حتى كان يقصد بيته ، ويحضر درسه ، وقام ـ مرتين ـ بوضع نعليه عند احتذاء الشيخ لهما (٧) » .

«وأقطع الشيخ محمد غوث الكواليارى ـ الذى كان شيخ الطريقة الشطارية المعروف ـ أرضًا كان دخلها السنوى عشرة ملايين « دام » لينفقه على نفسه ، وكان يتلقى ابنه الشيخ

---

(١) أيضًا ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

(٢) أيضًا ج ٢ ، ص ٢٣٢ .

(٣) أيضًا ج ٢ ، ص ١٠٨ .

(٤) أيضًا ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٥) أيضًا ج ٢ ، ص ١٧٠ .

(٦، ٧) أيضًا ٢ ص ٢٠٤ .

ضياء - بعد وفاة والده - بالإكرام والإجلال (١) » .

وقد كان الملك أكبر ورث هذا الإجلال للمشايخ والحفاوة بهم من ابائه وأجداده ، فكان سلفه التيموريون يعتقدون فى الشيخ ناصر الدين عبيد الله أحرار ، ويعظمونه ، ووكان جد الملك بابر ، السلطان أبو سعيد ، يذهب إليه ماشيًا لا يركب تأدبًا معه واحترامًا، ولم يكن يقدم على عمل أو ينجز قرارًا إلاَّ بعد أخذ رأيه ، وكان والد الملك بابر عمر شيخ مرانا كذلك يجل الشيخ عبيد الله ويحترمه ، ويذكره الملك بابر نفسه فى كتابه «تزك بابر » بتقدير وإعظام ، ولما قدم الشيخ يحيى - وهو من أعقاب الشيخ عبيد الله أحرار - إلى الهند ، استقبله الملك أكبر بحفاوة بالغة ورفع قدره ، ووهبه أرضًا لنفقته ، وبعثه أميرًا على قافلة الحجاج إلى مكة المكرمة ، ولما عاد من سفر الحج ، جهز له الإقامة الدائمة فى مدنية « آكره» (٢) .

وكان الملك أكبر عيّن سبعة أئمة للزيام السبعة من الأسبوع يتناوبون الإمامة فى الأيام المعينة لهم ، وكانت الإمامة - يوم الأربعاء - موكولة إلى الشيخ عبد القادر البدايونى (٣) .

كان يبعث - كل عام - عددًا كبيرًا من الحجاج إلى الحرمين الشريفين على نفقة الدولة، ويبعث مع أمير الحجاج الهدايا والتحف إلى والى مكة المكرمة ويبعث النقود والغلاف لأهل الحرمين الشريفين (٤) ، وكان يشيع الحجاج عند توديع قوافلهم محرمًا كإحرام الحج ، مقصرًا للشعر ملبيًا ، حاسر الرأس ، حافى القدمين ، وكان هذا المشهد المؤثر يحدث هزة فى النفوس ، تلين القلوب ، وتدمع العيون (٥) .

لما قدم شاه أبو تراب إلى الهند بحجر عليه أثر قدم الرسول ﷺ ، كما يقولون - ووصل قرب مدينة « أكره » خرج الملك مع حشد عظيم من العلماء والمشائخ ، والأمراء والوزراء ، ومشى معهم أربعة فراسخ على الأقدام لاستقبال الشيخ أبو تراب ، وإجلال مقام الرسول - ﷺ - .

ونختم الشواهد على تدينه وتعبده بهذا التصريح ، الذى جاء فى «مآثر العلماء » لمؤرخ

---

(١) أيضًا ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

(٢) أيضًا ج ٣ ص ١٠٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥١ .

(٤) أيضًا ، ج ٢ ، ص ٢٥١ .

(٥) أيضًا ج ٢ ص ٢٣٩ .

لدولة المغولية الشهير مير عبد الرزاق خافى خان المعروف بصمصام الدولة شاه نازخان (١١١ ـ ١١٧١ هـ) ، يقول فيه :

« كان الملك أكبر يبذل جهوداً كبيرة فى تنفيذ الأحكام الشرعية ، والتأكيد على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كان يؤذّن بنفسه ، ويؤم الناس فى الصلاة ، حتى إنه كان يكنس المسجد احتسابًا وطلبًا لمرضاه الله[1].

تحول فى نفسية الملك أكبر وطبيعته والفترة الثانية من عهده [2] :

يستطيع القارىء ـ فى ضوء ما سبق من التصريحات والشواهد على تدين الملك أكبر وتنسكه ـ أن يقدر أن هذا التدين الساذج العامى الخرافى لم يكن مؤسسًا على الفهم والعلم الصحيح للكتاب والسنة و والدراسة المباشرة لهما ، بل كان أساسه ـ بدلاً من أن يكون مدينًا لتعليم العلماء الراسخين ومجالستهم والتربية الدينية الصحيحة على ذوق عصره، وطبيعته العسكرية ، والتقليد الأعمى للحكام والأمراء الجهلة بالدين ، الذين حكموا فى أواسط آسيا ، ومحاكاتهم ، شدة الإيمان بالمظاهر ، سرعة الاعتقاد فى الظواهر ، فكان الركن الأساسى فى هذين التدين زيارة القبور والضرائح ، وتجشم مشاق السفر إليها من مسافات بعيدة مشيًا عى الأقدام ، وإبداء عواطف الحب والإجلال للمتربعين على دست المشيخة ـ الذين كانوا من الجهلة العاطلين عن صفات آبائهم ومشائخهم ، والفاقدين للربانية الصحيحة، والروح الإسلامية ـ والشعور بالسعادة فى خدمة الكناسة للتكايا والزوايا ، وحضور مجالس الذكر والغناء ، وتبجيل علماء البلاط ومشايخه وتوقيرهم .

ويستفاد من دراسة حياة « أكبر » أنه كان أميًا خالصًا [4] ، وتمتاز الأسرة التيمورية فى

---

(١) أيضًا ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

(٢) مآثر العلماء ، ج ٢ ، ص ٥٦١ .

(٣) يقال إن ما سجله جهانكير فى « توزك » الصغير من أحوال الملك أكبر عند وفاته ، يدل على أنه كان شعر عند دنو الأجل بأنه على خطأ وضلال ، فجدد إيمانه بتلفظه بكلمة التوحيد ، وأسلم روحه لبارئها فى هالة من القراء الذين كانوا يقرأون سورة يس ، ويدعون له ، وليس لنا أن نحكم على ما كان بينه وبين الله وهل أدركه اللطيف الآلهى أم لا ؟ ، وإنه على أى حال ودع هذه الدنيا، إنما نحن بصدد إجراءاته وأعماله التى اتخذها لتنفيذ القانون الجديد والدين الجديد ، والنتائج والاثار التى ترتبت من ذلك على الإسلام والمسلمين .

(٤) لما بلغ « أكبر » أربعة أعوام وأربعة شهور ، وأربعة أيام من عمره ، احتفل ـ حسب العادة = =

طبيعتها وعقليتها بالغلو والتطرف ، والمبالغة فى الاعتقاد، ويذكر عن « همايون » فى كتب التاريخ أنه كان إذا صمم على تحمل شدائد الحروب ومقاومة الأوضاع القاسية ، والظروف القاهرة ، فإذا به يتحول إنسانًا ليس من لحم ودم ، بل من حديد صلب ، وكأنه ليس من الأنس ، بل من الجن الشداد ، وإذا استنام إلى الدعة والراحة ، نسى كل شىء وظن به أنه لم يكن فى يوم من الأيام فارس الميدان وجنديًا مستميتًا فى ساحة القتال ، ويشاهد هذا التعارض ، وقلة الاتزان فى حياة جهانكير .

ثم لا ينبغى أن ننسى ما قاساه أكبر من المحن والأوضاع القاسية غير العادية فى طفولته ، وريعان شبابه ، وما شاهده فى أعمامه من تنكُّر وخذلان ، وقلة وفاء ، وما تجرَّع من المرارة والغصص أيام هزيمة والده ، ورحلته إلى إيران وما لاقى مع بيرم خان من العناء والمشاق ، كل ذلك أنتج فى نفسيته سوء الظن بالفطرة الإنسانية ، وأثار فى نفسه الريب والشكوك ، فى وفاء الناس ، وإخلاصهم وتجردهم ، فنشأت من جراء ذلك طبيعة متقلبة تتلون ، ولا تستقر على حال .

المقارنة بين الديانات والبحث فيها ومجالس المناظرة وتأثيرها :

كان أنسب طريق للملك أكبر لعلاج هذا الوضع الشاذ ، وإصلاح الحال، والتغلب على مواطن الضعف فى نفسه ، وتأكيد الصلة بالإسلام ، والارتباط بالدين ، وصرف الهمة إلى حماية الإسلام والذب عنه والقيام بنصرته ككثير من السلاطين المسلمين ـ وقد كان عدد منهم أبناء هذه الأسرة التيمورية ـ أن يركز الملك كل عنايته ـ مع الاعتراف بأميته وجهله بالدين ـ على مهام الدولة ، وتوسيع المملكة ، وكان اللائق به أن لا يتدخل فى القضايا الدينية ، بل يكلها ـ كمسلم مخلص ساذج وجندى وفيّ ـ إلى علماء الدين وأعضاء الدولة الباحثين كما فعل الملك بابرو همايون ، رغم ثقافتهما الواسعة ، والذوق الأدبى والعلمى والرفيع ـ وأن لا يتقدم إلى البحث والتحقيق فى المسائل الكلامية الدقيقة ،

= الجارية ـ بمناسبة إدخاله الكتاب ، وعين ملا زاده عصام الدين مؤدبًا، ولكن شعر ملازاده بأن أكبر لا يرغب فى التعليم ، فحمل هذا على اهمال ملا زاده واخفاقه فى التعليم ، وعين مكانه الشيخ بايزيد ، ولكن بدون جدوى ، وأخيراً اختار الملك لتعليمه الشيخ عبد القادر البدايونى الأوضاع السياسية ، والانتقال من مكان الى مكان ، وعدم الاستقرار ، فشب أكبر أميًا لم يتعلم شيئًا .
(ملخص من كتبُ التاريخ المعاصرة لعهد الملك أكبر) .

لقضايا العقيدية العلمية ، والحقائق الغيبية ، وعلم ما وراء الطبيعة ، والمقارنة بين الديانات والفرق ، وهـو المجال الذى تؤدى فيـه زلة بسيطة ، أو إهمـال طفيف إلى تخـطى حدود الإيمان ، والدخول فى حظيرة الكفـر والإلحاد ، وضياع نعمة الدين وكـان لا يعرف مبادئ هذه العلوم ومقدماتهـا ، ثم إن الخوض فى هذه القضايا لا يفيد فى الأغراض السـياسية ، ولم يكن فى مصلحة السلطان ، الذى تسلم زمـام البلاد من الحكومات المسلمة التى دامت فى السلطة أربعة قرون ، أن يفقد ثقة شعبه المـسلم المتحمس للإسلام ، ويثير حوله مشاكل كان فى غنى عنها ، إن خطأ التدخل فى هذه المباحث الكلاميـة الدقيقة ، واستخدام النفوذ والسلطان ، لغـرض عقيـدة أو وجهة نظر أو مـهم خاص أساء من قـبل إلى مثل الخليـفة العبـاسى مأمون الرشـيد (١٧٠ ٢١٨ هـ) فى علمـه وذكائه ، ولم يستـفد منه غيـر سوء الأحدوثة (١) .

ولكن الملك أكبر رزق الطبيعة القلقة والعقلية الباحثة ، وأوحت إليه فتوحه وانتصاراته المستمرة ، وسـعادة جده وحسن طالعه فى الدولة ، بخداع النـفس والإعجاب بها ، وبدأ بنفسه أنـه يقدر ـ وهو الفارس المقدام الذى يفض مـشاكل الدولة ، ويحل عقد السـياسة ـ على الحملات الظافرة فى أودية الدين ، والعقيدة الشائكة .

زد إلى ذلك أن بعض أركان الدولة ، ،ورجال البلاط والأذكياء الحاذقين أقاموا لابراز تفوقـهم العقلى ، والترويح عـن السلطان ، وتزيين مجلسه ، مـعارك كلامـية حامـية بين العلماء من مختلف الفرق والديانات ، بدلا مما جرت به العادة فى مجالس الملوك المترفين ، من تربية الديكة والحمام ، ليتفرج السلطان على تهارشها ، ومن إقامة مصارعات بين الفيلة والسوائب من البقر ـ وكان ذلك نزهة السلاطين والأمراء الشـرقيين ومتعتهم ـ ومن الحقائق البديهية ، الـتى جربها الناس فى تاريخ العقائد والديانات مئـات المرات ـ إن من يشهد هذه المباحثات والمناظرات بين العلماء ، والأخـذ والرد بين المحامين عن مختلف الفرق والديانات ممن لم تتسع ثقـافته ، ويرسخ علمه ، ويدقّ فـهمه ، وتتنور بصيرته ، ولـم يساعده الحظ ويأخـذ بيده توفـيق الله ـ تعـالى ـ فإنه مـحـالة يقع فى الريبـة والشك ، ويتيـه فى أودية السوفسطائية واللا أدرية ، ويهوى فى هوة سحيقة من الإلحاد والزندقة .

يقول جهانكير ـ وليست شهادةً على أكبر أقوى من شهادته ـ فى كتابه «توزك » :

---

(١) راجع للتفصيل «رجال الفكر والدعوة » للمؤلف ج١ ، ص ٩٤ ـ ١٠١ مبحث «فتنة خلق القرآن».

سيما فضلاء الهند وعلماء الديانة الهندكية ، ولم يكن يشعر جلساؤه ـ رغم أميته ـ بأنه لم يقرأ ولم يكتب ، لكثرة مجالسة العلماء ومصاحبة الفضلاء والمباحثة معهم ، وكان يفهم دقائق الشعر والنثر ولطائفهما ، بما لا مزيد عليه » (١) .

ولم يقتصر فى هذه المناظرات على علماء الإسلام والهندكية ، وديانات الهند الأخرى ، وفرقها المختلفة ، وممثليها ، بل أشرك فيها علماء الإنكليز ، وينص أبو الفضل على بذل الاهتمام البالغ بترجمة التوراة والإنجيل ، والزبور ، وشرحها وتفسيرها للملك ، وعين لهذه الخدمة السيد مظفر ، أحد أعيان البلاط وفضلائه ، وكتب إلى بعض المسيحيين :

« إننا نجتمع ـ فى فراغ من الوقت ـ بعلماء جميع الديانات ، ونستفيد من أفكارهم السامية وكلماتهم الطيبة ، وتقف أجنبية اللغة عائقًا فى الطريق ، فنود أن تدخلوا علينا السرور بإيفاد رجل فاضل يوضح لنا هذه لمعانى بعبارة جيدة حسنة ، وقد بلغ مسامع السلطان أن الكتب السماوية من التوراة والإنجيل والزبور ، ترجمت إلى العربية والفارسية ، فلو كانت هذه الكتب المترجمة فى بلادنا ، لوزعناها للنفع العام ، وقد بعثنا إليكم ـ تجديدًا لمعانى الحب والود ، وترسيخًا لأساس الوحدة والاتفاق ـ بمعالى السيد مظفر ـ الذى أسعدناه برعايتنا واهتمامنا ـ للحصول على عدة نسخ من هذه الكتب المترجمة وسيتحدث إليكم شفاها فثقوا به ، وواصلوا المراسلة» (٢) .

وكان ذلك فعلاً ، يقول البدايونى .

« كان فى البلاط جماعة من فضلاء الإفرنج من زهادهم ونسّاكهم ، ويقال لهؤلاء « القُسُسُ والأساقفة » ويسمى مجتهدهم الأكبر بالبابا ، إنهم قدموا نسخة من الإنجيل ، وأظفروا دلائلهم وبراهينهم على التثليث ، وأثبتوا أن النصرانية دين حق » (٣) .

وبلغ شغف أكبر بهذه المجالس للمناظرة أن كتب رسالة إلى رئيس مجلس الأساقفة فى ولاية « كوا » (GOA) وهى تشتمل على ما يأتى :

« أرجو أنكم فور وصول رسالتى إلى سعادتكم سوف تبعثون إلى البلاط ـ فى طمأنينة بال وجمعية خاطر ـ بعض الأساقفة ، حتى يناظروا علماءنا ، فأقدّر من خلال المناظرة

---

(١) « تزك جهانكيرى » ، ص ١٥ .

(٢) « انشائى أبو الفضل » ص ٣٩ .

(٣) منخب التواريخ ، ح ٢ ، ص ٢٦٠ .

مبلغ علمهم وخلقهم ، وأرى تبريزهم وتفوقهم على علمائنا الذين ندعوهم بالقضاة » فيعلموهم الحق بهذا الطريق ويفيدوهم » (١)

ومن التجارب القديمة فى مجالس المناظرة ، أن قوة البراهين ، والإقناع الجدلى ، لا يكفى لإثبات صدق ديانة من الديانات ، ولا يكون حاسمًا فى تفضيل واحدة منها على أخرى ، فإن أكبر الاعتماد فى ذلك يكون على ذلاقة اللسان وقوة البيان ، وطلاقة العبارة، مما يتظاهر به ممثلو هذه الديانات والمحامون عنها ، فقد يكون ممثلو دين هزيل ضعيف ووكلاؤه أقدر على الحجة ، وصناعة الكلام ، وأجود بيانًا ، وأعرف بالنفسية الإنسانية ، والطبيعة البشرية ، وأكثر تحينًا للفرص ، فيؤثرون فى السامعين ، ويسحرون الألباب ويستميلون الناس ، ويكون ممثلو دين قويم غير متحلين ـ لسبب من الأسباب ـ بهذه الخصائص والصفات ومجردين من هذه الأسلحة الكلامية ، فيخسرون الرهان ، ويسقطون فى الميادين ،ومما يشك فيه أن العلماء ـ الذين كانوا يمثلون الإسلام ويشرحونه فى بلاط الملك أكبر ، ويناظرون علماء الإفرنج وفضلائهم ـ كانوا على إلمام واسع بالتوراة أكفاء عرض الإسلام ، ـ علميًا وعقليًا ـ حتى يقارعوا فضلاء المسيحيين ويمثلوا الإسلام تمثيلاً صادقًا صحيحًا .

وقد كانت الديانة المسيحية جديدة للهد ، وكان أتباعها قلة قليلة ، ومعظمهم كانوا من لأجانب ، فلم يهتم بهم العلماء المسلمون ، ولم يبالوا بالديانة المسيحية أى مبالاة على حين أن البرتغاليين فتحوا مدرسة تبشيرية مسيحية (Jesuit Mission) فى ولاية «كوا» حتى يقوموا بنشر هذه الديانة فى الهند ، وترسيخ جذورها (٢) ، ولا يستبعد فى مثل هذا لوضع أن يكون العلماء المسيحيون الأجانب كسبوا المعركة ، وأثبتوا تفوقهم وامتيازهم ـ علميًا وعقليًا ـ على المسلمين الذين لم يكونوا ـ إذ ذاك ـ فرسان هذا الميدان فخسروا لصفقة وسقطوا فى عينه ، فكان من الطبيعى أن تظهر النتائج التالية ، يقول الشيخ عبد لقادر :

« ظهر أهل البدع والأهواء بآرائهم الخاطئة ، وشبهاتهم الباطلة من مكامنهم ، وبدأوا

---

١) انظر « THE MUGHAL EMPIRE » ـ الدولة المغولية ـ للدكتور أشيورى برشاد , Dr ISHWARI PARSHAD ، طبعة المآباد ١٩٧٤ م .

١) انظر « أكبر نامه » ج ٣ ، ص ١٠٢٧ ، Monigolicea Legationos Commentqr us By Fater A Muoserrate . ج / ١ ، ص ٣٤ .

يعـرضـــون البـاطل فى صـورة الحـق ، والخطأ فى شكل الصـــواب وأورثوا الشك والارتياب فى نفس السلطان الذى كـان يملك الذكاء والفطنة ، ويبتـغى الحق ، إلا أنه كان أميًا محضًا ، يأنس إلى الكفار ، وزادوا فى حـيرته واضطرابه ، وضاع المقصد الصحيح ، وانحل رباط الشريعة ، ولم يبـق بعد خمسة أعوام عين ولا أثر لـلإسلام ، وانقلبت الدنيا رأسًا على عقب » (١) .

ويقول فى موضع آخر :

« بدأوا يثيرون الشكول والشـبهات ، ويضحكون ويستهزئون بكـل فريضة من فرائض الإسلام وكل عقـيدة من عقائد الدين ، سواء كـانت تتعلق بالأصول أو الفروع ، كعـقيدة النبوة والرسالة ، ومسألة كلام الله ورؤيتـه ، وتكليف الإنسان ، وتكوين العالم ، والحشر والنشر ، وغير ذلك من المسائل العقيدية (٢) » .

وكان ضغثًا على إبالة ، أنهم بدأوا يقرأون كتب التفسير والتاريخ ـ وهى المواد العلمية غـير المنقـحـة والمحررة ، التى يقـدر أنصـاف العلماء ، ممـن لا يخشـون الله ، على إثارة الاضطراب ، والفوضى الفكرية عن طريقهـا ـ فى بـلاط الملك الأمّى الجاهل وفى جو من الانطلاق والتحرر ، وقلة الحشمة .

يقول الشيخ عبد القادر البدايونى :

« وفى تلك الأيام صدر الأمـر إلى القاضى جلال وغيـره من العلماء أن يقرأوا تفـسير القـرآن ، وكان هـناك صراع بين العـلماء فى الموضـوع ، وكـان الماجن « ديب جندارجـه منجهولة » يقول :

« لو لم تكن البقرة مقدسة عند الله ـ تعالى ـ لما جاء ذكرها فى أول سورة من القرآن ، وسمـيت بها هذه السـورة ، ولما بدأوا قراءة التـاريخ ، بدأ الناس يزدادون ـ كلو يوم ـ فى إساءة الظن بالـصحابة ـ رضى الله عنهم ـ وتـعدى الأمر إلى أن جـعلوا يسمـون الصلاة ، والصوم ، وجميع التعاليم النبوية بالأمور التقليدية ، أى أنها غير معقولة ، وجعلوا يقولون إن أسـاس الدين على العقـل ، وليس على النقل ، وبدأت وفـود الانكليز تغـدو وتروح ، حتى قبل الملك بعض معتقداتهم كذلك » .

---

(١) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .

(٢) أيضًا ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ .

مسئولية علماء البلاط وأعضاء الدولة
فى تحول طبيعة « أكبر » وانحرافه :

لقد كان علماء البلاط وأعضاء الدولة يستطيعون أن يقوموا بدور أساسى فعال فى ملازمة الملك أكبر طريق الإسلام المستقيم ، وصيانته من الزيغ والانحراف ، وحمايته من التطرف وفقدان الاتزان ، ولكن هذا الدور الإيجابى كان فى حاجة إلى علماء يمتازون بالتفقه والبصيرة فى الدين ، ويتحلَّون بالحكمة والفهم الصحيح ، نظرهم فى كليات الدين أعمق من نظرهم فى جزئياته ويؤكدون على أهمية الغايات والمقاصد ، أكثر من الذرائع والوسائل ، ويرون ضرورة « الوصل » والتوفيق أكثر من ضرورة « الفصل » والتفريق ، متصفين بسمو الأخلاق ، وموسومين بالإخلاص والإيثار ، بعيدين عن حب الجاه ، والطمع فى الدنيا قدر المستطاع ، تلقوا التربية الصحيحة ، واشتغلوا بتزكية النفس ، يعرفون أهمية هذه الدولة الإسلامية الناهضة ودقة موقفها - التى تحيط بها الأكثرية غير المسلمة - التى كانت تشعر بحرمانها من القوة والسلطة ، ولا تقوم دولة إلا بتأييدها ومساعدتها - معرفة حقيقية ، وأن هذه المملكة التيمورية التى واتاهم الحظ لخدمتها ، ونالوا الفرصة التاريخية الذهبية لقيادتها وإرشادها كانت أكبر دولة إسلامية فى ذلك العصر فى سعة الرقعة ، وكثرة الذخائر والوسائل ، والقوى البشرية وقوة العاطفة الدينية ، وتغلغلها فى الشعب وفى جميع النواحى ، بعد الدولة العثمانية ، فى تركيا ، فكان - لأجل ذلك - الحفاظ على هذه الدولة ، وربطها بالإسلام ، وأن يجمع عاهلها - فى هذه الظروف الحرجة الدقيقة - بين الزجاج والحديد ، والقطن والنار ، أكبر عبادة فى ذلك العصر ، وأعظم خدمة للدين والبلاد .

وكانت الحاجة ماسة - فى الجانب الآخر - إلى وجود خبراء مستشارين وأعضاء للدولة يحملون عقيدة راسخة محكمة فى ذلك الدين - الذى أسس عليه بابر مملكته القوية - بعد توبته النصوح من المنكرات فى ساحة القتال عند مواجهة « رانا سانكا » عام ٩٣٣ هـ ، وأخذ العهد والميثاق على نفسه بالعبودية الكاملة لله عز وجل ، ويُحَبِّبُونَهَا للملك أيضًا ، ويكونون فى مأمن عن كل نوع من الاضطراب الفكرى ، وفى معزل عن الحركات الإلحادية الهدامة التى نشأت فى إيران والهند فى القرن العاشر ، وكانت تثير الفوضى الخلقية والعقائدية وتضعف العلاقة بين الدولة والمجتمع ، وأن يجمعوا بين تنظيم الدولة ، وإدارة البلاد وقدرة التقنين ، وبين سمو الأخلاق ، والأستقامة الدينية والتقيد بالشريعة .

فلئن كان الملك أكبر رزق هذين العنصرين ، وحظيت دولته بهاتين الميزتين ، لم يكن

هناك مجال للشك فى أن تكون هذه الدولة تؤدى نفس الدور فى خدمة الدين وحماية الإسلام والمسلمين فى ناحية الشرق ، والذى قامت به دولة آل عثمان فى الغرب .

ولكن كان من سوء الطالع أن رزق الملك أكبر - رغم سعادة جده وصلاحيته - ذلك العنصر من هذين الفريقين الذى لم يكن على المستوى اللائق فحسب ، بل من المؤسف المحزن أنهم خانوا الدولة بدل أن يخدموها، ونفروا « أكبر » من الدين بدل أن يشرحوا صدره له ويحبّبوه إليه ، وساقوه إلى اعتناق الدعوات والحركات المعارضة للإسلام وقيادتها، وأن يظل « أكبر » رمزها وعلامتها ، بدل أن ينفّروه عنها ويحرضوه على استئصالها ، والقضاء عليها .

علماء البلاط :

ونتناول - هنا - النصر الأول ، وهم علماء البلاط الذين اعتقد فيهم الملك أكبر الخير ، وأحسن الظن بهم ، وخدمهم ، ووضع ثقته فيهم ، وقربهم لديه ، وأدناهم إليه ، وأنهم - كما يقول الإمام عبد الله بن المبارك - رضى الله عنه - عنصر من العناصر الثلاثة للشر والفساد :

« وهل أفسد الدين إلاّ الملوك . . . وأحبار سوء ورهبانها » ؟

ونقتطف - فى هذه المناسبة أيضًا - من تصريحات العلامة عبد القادر البدايونى الذى كان من أركان البلاط ، ولا يبدو فيما صرح به عن أصدقائه وزملائه ، وطبقته ، من مصلحة شخصية له أو تعنت ومكابرة ، فقد صور علماء البلاط بريشته البارعة هذا التصوير المثير :

« كان يدعو العلماء والمشايخ ، والأشراف والأمراء كل ليلة جمعة إلى مصلاه فكان العلماء والمشايخ يتسابقون إلى المقاعد ، ويتنافسون فى الحصول على مكان أقرب إلى السلطان ، فعالج السلطان هذه المشكلة ، فأمر الأمراء بالجلوس فى الجانب الشرقى ، والأشراف فى الجانب الغربى ، والعلماء فى الجانب الجنوبى ، والمشايخ فى الجانب الشمالى ، وكان السلطان يخرج عليهم فى حلقة من خاصته ، فيبحث معهم المسائل ويحقق فيها » (١) .

ويقول البدايونى : « إن العلماء - ذات ليلة - بدأوا يرفعون أصواتهم فى الجدال

---

(١) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

خاطر الملك ، واعتبر منهم ذلك سوء أدب ، وتنافسًا فى الدنيا » (١) .

ويقول :

« كادو يتقاتلون بأسنّة اللسان ، وبلغ التفرق والاختلاف بينهم حتى جعل بعضهم يكفر بعضًا ، ويضلل بعضهم بعضًا ، وانتفخت أوداجهم وارتفعت أصواتهم ، وكدر ذلك صفو خاطر السلطان » .

وخاطب الملك العلامة عبد القادر فى غضب وتألم وتكدر بال ، وقال : « أى عالم يخالف آداب المجلس ، أخرجوه من هناك » .

وكان الشيخ عبد الله السلطانفورى (٢) يحتل مكانه كبيرة فى كبار أصحاب المناصب الدينية وكان لقبه ومنصبه « مخدوم الملك » فأصدر فتوى عدم فرضية الحج على مسلمى الهند لحيلولة البحر ، وعدم تحقق شرط مَنِ استطاع إليه سبيلاً » حتى لا يتجشم هو مشاق السفر فى الحج ، وكان يستخدم الحيل « الشرعية » (٣) ، وفى إسقاط فريضة الزكاة ، ويتخلص من أدائها كل عام ، وقد اقتنى فى عهد الملك أكبر وفى أوج وجاهته وشهرته أموالاً طائلة ، حتى عثر على عد من الصناديق المملوءة ذهبًا فى المقبرة الخاصة بآبائه ، وكان قد دفنها بحيلتهِ وشطارته مع دفن الموتى (٤) .

وكان يلى مخدوم الملك فى المنزلة والوجاهة عند السلطان ، ونفوذ الكلمة فى البلاد «صدر الصدور » الشيخ عبد النبى ، الذى كان يعد أكبر عالم فى الهند ، ومن أهل الاختصاص فى فن الحديث ولكن تفيد بعض التصريحات الواردة فى « منتخب التواريخ » أنه لم يكن عالى الكعب ، راسخ القدم فى العلم ، وكان يجهل بعض الألفاظ العربية ولا

---

(١) أيضًا ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٢) راجع ترجمته المفصلة « نزهة الخواطر » ج ٥ .

(٣) وهى أنه كان يعطى المال الذى يفرض فيه الزكاة زوجته أو بعض أقربائه قبل حولان الحول عليه، ثم يسترده فيما بعد ، ويتخلص بذلك من فريضة الزكاة وهكذا يعيد كل عام الحيلة إذ أن حولان الحول على المال شرط لوجوب الزكاة .

(٤) ويذكر أنه اكتشف فى هذه القبور لبنات من ذهب كانت قيمتها ثلاثين مليون روبية .

كان الشيخ عبد النبى بن الشيخ أحمد الكنكوهى ، وحفيد الشيخ الكبير عبد القدوس الكنكوهى من كبار مشايخ الطريقة الجشتية الصابرية ، ولكنه ـ لأخذه علم الحديث عن علماء الحجاز وتتلمذه عليهم ـ خالف مذهب سلفه وأسرته فى وحدة الوجود ، وسماع الغناء ، وقد أسخط ذلك والده فتوترت العلاقة بينهما .

يعرف صحتها من خطئها ، ولم يقف على التحقيق فيها [1] ، سلم إليه الملك أكبر منصب «صدر الصدور» ونال من الإجلال والاحترام ، وعظمة المكان والجاه والسلطان ، بحيث لم يكن لأى ركن من أركانه الدولة أن يتقدم عليه ، ويتفوه لديه ، وقد قدم إليه الملك نعليه أدبا وتواضعًا عدة مرات ، وكان كبار العلماء والأعيان ينتظرون ساعات طويلة على بابه ليوذن لهم بالدخول عليه ، وكان بيده إجراء رواتب العلماء والمشايخ وشيوخ الطرق ، وإعطائهم الأملاك ، وإقطاعهم الأراضى ، وضرب فى ذلك أمثلة رائعة للأريحية والسخاء، والعطاء الكثير ، مما لا يوجد له فى الحكومات السابقة نظير :

ولكن العلامة عبد القادر ـ الذى كان صديقه ومعاصره وزميله فى علماء البلاط ـ يصرح بأنه كان عاطلاً عن الأخلاق الرفيعة ، تقاليد أسرته وخصائصها الطيبة ، بل عن الثقافة العامة ، وتقدير الظروف والمناسبات ، ويمكن أن يكون هذا التغير فى سجاياه نتيجة هذا المنصب السامى ، فكان تأثير هذه الأخلاق المتجلية فيه على الملك وأركان البلاط تأثيراً سيئًا ، ويتهمه العلامة عبد القادر باستغلال سلطته ونفوذه ، واستخدام منصبه فى الأغراض الشخصية ، يقول :

« إنه اضطر الإقطاعيين الدينيين فى طول الهند وعرضها أن يترددوا إليه، وينتظروا فتح الباب لهم حتى لم يجد الوافدون عليه من هؤلاء الإقطاعيين بدًا من أن يعطوا الرشوة لنواب الشيخ ، وكناسيه وحجابه ، وسوّاق أفياله ومنظفى حماماته ، فما كانت تنجز الأعمال إلاّ عن طريق هذه الرشوة » [2] .

كان لا يراعى الحال ولا يأخذ بالحكمة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والحسبة الدينية ، حتى كان يواجه الملك أحيانًا ـ بما لا يليق بشأنه ويعتبر من الخرق وإساءة الأدب ، كما جاء فى « مآثر الأمراء » :

« إن العلماء والمشايخ والأمراء كانوا يهنئون الملك بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده ، وكان الملك لابسًا ـ آنذاك ـ لباسًا معصفرًا مصبوغًا بلون الزعفران فاعترض عليه الشيخ ، وأكد

(١) يستبعد من الشيخ عبد النبى ـ بعد أن تلقى العلم على علماء الحجاز ، « راجع للتفصيل « نزهة الخواطر » ج ٥ ، لا سيما أمثال العلامة شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمى الكمير من أساتذة الفن ، وألف وصنف ـ أن يخطىء فى بعض الألفاظ البسيطة ، فكان يقرأ « حجراً » بتقديم الحاء بدل جحر بتقديم الجيم ، والله أعلم » .

(٢) منتخب التواريخ ، ج٢ ، ص ٢٠٥

ل يه بتغيير هذا اللباس ، وشدّد فى ذلك وتحمس حتى ارتفعت عصاه ، ووقع طرفها على وب الملك ، وتحمل الملك منه ذلك ، ولكنه شعر بإهانته ، ودخل قصره ، وشكى إلى الدته ما لقى من الشيخ ، وكانت والدته سليلة أسرة طيبة معروفة بالفضل والصلاح ، أهدأت ثائرة الملك وقالت أن احتماله هذه الشدة من الشيخ سوف يكتب فى سجل مناقبه ى التاريخ ، ويروى أن عالمًا من العلماء من رعية السلطان صربه بالعصا ، فصبر على ذلك تحمله إجلالاً للشريعة وتعظيمًا لها » (١) .

وكانت رزيئة أخرى - علاوة على ما تقدم - أن « مخدوم الملك » والشيخ عبد النبى ، صبحا عدوين متنازعين ، فكان « مخدوم الملك » ويرميه بالجهل ، فينقسم نتيجة ذلك باعهما وحلفاؤهما فى معسكرين متحاربين متنابذين ، ويقفون وجهًا لوجه .

وبالجملة فإنا نرى نقلاً فى ضوء ما نقل إلينا من سيرة « مخدوم الملك » والشيخ عبد بى - إذا كان نقلاً صحيحًا فى التاريخ - أنهما لم يكونا جديرين بتمثيل الدين الإسلامى يلاً صحيحًا ، وخلافة الأنبياء ، وأداء رسالتهم فى ذلك العصر الدقيق الحرج - عهد الملك بر - وفى تلك البيئة المعقدة الخطيرة - بلاط الملك أكبر - لا فى العلم والثقافة ، ولا فى هم الصحيح للدين ، ولا فى غروب النفس وسمو الأخلاق ، وأنه إن لم يتيسر لهذا لاط أمثال رجاء بن حيوة (٢) مستشار الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك ووزيره مين، والإمام أبو يوسف (٣) ، قاضى القضاة فى الدولة العباسية والمستشار الدينى خليفة العباسى هارون الرشيد فى علمهما وورعهما ، وذكائهما وتدبيرهما ، فلا أقل من يتوفر له أمثال عبد العزيز آصف خان ، والقاضى شيخ الإسلام (٤) ، من المستشارين ولة النوابغ الأذكياء والزهاد الأتقياء وكان لابد لمواجهة العلماء الأفذاذ المبرزين فى لوم العقلية ، والنابغين فى الفنون الأدبية ، الذين تجمعوا فى بلاط الملك أكبر من أبناء ان والهند - كما سيأتى ذكرهم قريبًا من وجود ممثلين للدين والشريعة الإسلامية ستشارين دينيين للدولة ، ومحافظين على السلطة ، أدق منهما علمًا ، وأعمق إدراكًا ، لى كفاءة واستعدادًا ، وأكثر تفطنًا لحاجات العصر وضرورات الحياة .

مآثر العلماء ، ج ٢ ، ص ٥٦١ .

هو الذى أشار على سليمان باستخلاف عمر بن عبد العزيز .

وهو الذى نظم القضاء فى الدولة العباسية الكبيرة وصنف « كتاب الخراج » .

راجع لتراجمهما « نزهة الخواطر » ج ٤ ، لوالدنا العلامة مؤرخ الهند عبد الحى الحسنى رحمة الله عليه .

ولما اطلع أكبر ـ الذى كان يعتقد (كما يقول المؤرخ عبد القادر) رجحان هولاء العلماء على الإمام الغزالى والمفسر الرازى وتفوقهم عليهما ـ على هذه التصرفات الساقطة السخيفة، جعل يقيس العلماء السالفين عليهم ، وأساء الظن بهم جميعًا .

أركان الدولة ومستشارو البلاط :

ولم يكن شقاء الملك أكبر فى أركان الدولة أقل من شقائه فى علماء البلاط إذ كان يسحر عقله ، ويسل لبه ـ لجهله وسذاجته ـ كل ذكى ، فَطِن المعىّ ، لا سيما إذا كان وفدًا من « إيران » التى كان يعدها أبناء الهند وأفغانستان ، بمنزلة اليونان ، وقصد لبلاط « أكبر » ـ فى تلك الفترة الشقية التى أصيب فيها أكبر بالتضعضع فى الدين والعقيدة ، الحكيم أبو الفتح الكيلانى ، والحكيم همايون (الحكيم همام) ونور الدين قرارى ، الأخوة الثلاثة ، ونالوا الحظوة والمكانة العالية فى البلاط ، وجاء بعد فترة يسيرة ملاّ يزدى ، الذى أطال لسانه على صحابة الرسول ـ ﷺ ـ وخطا حكيم أبو الفتح خطوة أخرى قُدمًا وأنكر ـ علنًا وجهارًا ـ الحقائق الدينية كالوحى والنبوة والمعجزة [1] ، ونزل شريف الآملى فى هذه الفترة نفسها ـ كما سبق ـ قاصداً من إيران ، وكان على مذهب « محمود بسيخانى » ويحمل الأفكار الملحدة .

وعدا هؤلاء العلماء النوابغ القاصدين من إيران ، اندسّ فى البلاط فى هذه الفترة المصابة بالاضطراب الفكرى والتضعضع العقائدى ـ رجل هندكى ـ يدعى « برهم داس » كان حاضر البديهة ، مبرزاً فى المناظرة ، فكهًا ظريفًا ، لطيف المحاضرة ، فتقرب إلى الملك، وتحكم فى ذوقه وعقليته ، وتصدر فى البلاط ، وما لبث أن لقبه الملك بـ «المصاحب » (النديم) الخاص ، فعظم قدره ، وعلا مكانه وذاع صيته باسم « راجه بيربر». إنه اتخذ موقف السخرية والاستهزاء ، والجراءة الواقحة إزاء العقائد الإسلامية، والمسائل الدقيقة ، والشؤون الدينية ، بعد أن عرف اتجاه الدولة ، ورغبة الملك ، فساير البيئة حيث كانت هذه السخرية « العملة السائدة » فى ذلك العهد ، فصفق له الناس من كل جانب ، وقام بدور خطير فى توجيه الملك توجيهًا هازلاً غير جاد فى أمور الدين [2] .

ملا مبارك وولداه ، فيضى وأبو الفضل :

وزاد الطين بلة تردد ملا مبارك الناكورى على البلاط ، وكثرة اختلافه

---

(١) انظر « منتخب التواريخ » ج ٢ ، ص ٢١١ .

(٢) راجع للتفصيل « منتخب التواريخ » ج ٢ ، ص ١٦١ .

إليه (١) ، وحصل لابنيه فيضى ، وأبى الفضل من الحظوة ولتقدير ، عند السلطان ، والتبجيل والإكرام فى البلاط ، ما لم يحصل لأحد من قبل .

وتطالعنا الدراسة المنصفة المحايدة لحياة ملاً مبارك ، وفيضى وأبى الفضل وسيرتهم على أنهم كانوا من نوابغ الأذكياء ، وذوى الباع الطويل فى العلم والثقافة الغزيرة الواسعة ، والمتبحرين فى العلوم العقلية والأدبية وأصحاب القريحة فى الشعر والنثر الفارسيين ، وخلاصة القول أنهم كانوا أفضل وأعقل وأرقى نتاج للمناهج الدراسية المطبقة فى ذلك العصر ، وأسلوب البحث والتحقيق ، والتدريس ، والعلوم والثقافات المفضلة السائدة فى عصرهم ، ولو كانوا قد جمعوا إلى هذا الإدراك الدقيق ، والعقلية النابغة ، والقريحة الفياضة ، والقلم السيال ، واللسان الذرب الطليق ، استقامة فى الدين ، ورسوخًا فى الإيمان واليقين ، وخشية رب العالمين ، والرغبة فى الآخرة ، والإخلاص فى العمل والربانية المشرقة ، لكان لهم دور أىّ دور ، وقاموا بمآثر جليلة ، ووقاية كاملة لعصرهم من الفتن والويلات ، كان من العسير أن يوجد لهما نظير ، ولكن دراسة سيرتهم وأحوالهم ومؤلفات أبى الفضل وفيضى أنفسهما تكشف لنا عن الجوانب التالية :

١ ـ لقد كان ملا مبارك ـ وهو الركن الأول من هذا الثالوث ـ مضطرب النفسية ، قلق التفكير ، موزع الهم ، درس المذاهب الفقهية الأربعة ، واطلع على الخلافات فيها ، فاتجه الى الكراهية لها والنفور منها ، وإنكار فضلها بدل أن ينحو نحو الجمع والتطبيق ، والتوجيه الصحيح ، وأنكر هذا التراث الفقهى العظيم ، وجهود السلف الصالحين ، وسيطرت عليه الفلسفة لانضمامه ـ فيما بعد ـ إلى حلقة أبى الفضل الكاذرونى من كبار فضلاء العلوم العقلية المعروفين من أبناء شيراز ، وبدأ يطالع كتب التصوف و «الإشراق» مباشرة من غير التزكية والسلوك ، والاطلاع على مصايد الشيطان ، وأمراض النفس ، ومعالجتها عن طريق المناهج المعروفة ، فوقع فى الأخطاء ، ونشأت فيه طبيعة متقلبة متلونة مضطربة بعد أن مرّ بهذه الأودية والشعاب ، ووجدت فيه ـ من جراء ذلك ـ ملكة التلون بكل لون ، والتكيف مع كل حال ، والسير فى مسار هذا المثل النفعى ، « در مع الدهر حيث دار » ، يقول عنه الشيخ خواجه كلان بن الشيخ الكبير خواجه عبد الباقى

---

(١) ذكر أبو الفضل فى « أكبر نامه » وصول ملا مبارك الى البلاط لأول مرة فى حوادث العام الثانى عشر من تولى الملك .

النقشبندى ، الذى تربى فى بيت ابنة الشيخ مبارك المذكور (١) :

« كان يعتنق فى كل دور من أدوار حياته المذهب أو الديانة التى يرغب فيها الأمراء والملوك (٢) » .

ويقول المؤرخ (Sir Welzle Haig) : « لقد اعتنق ملاّ مبارك ـ فى مختلف أدوار حياته ـ السنية والشيعية والصوفية ، والمهدوية ، وغير ذلك مالا يعلمه إلاّ الله (٣) » .

٢ ـ إنهم كانوا أصحاب طموح وطلب للجاه والنفوذ ، فلم تكن طبيعتهم القلقة الفياضة لتقنع بالعلم والتدريس ، وتنحصر فى دائرتها الضيقة المحدودة فتاقت نفوسهم إلى إظهار نبوغهم وذكائهم فى البلاط والتأثير فيه ، فاستظل بظل الملك أكبر ـ الذى كان يعتبر ظل « هما (٤) » ـ وحصل لابنيه النفوذ والسلطة وإن لم يحصل له .

٣ ـ يبد و أن علماء ذلك العصر ـ ولا سيما مخدوم الملك ، والشيخ عبد النبى اللذان كانت لهما الشيطرة والنفوذ فى البلاط ـ لم يعطوه مكانه اللائق به الذى كان يستحقه لفضله وذكائه ، وأنه عورض من قبل الأوساط الدينية لبعض معتقداته وآرائه المنحرفة ، وتلون طبيعته ، وقوبل بالإهمال وقلة الاهتمام بشأنه ، وذلك ما جرح قلبه ، وترك فيه آثاراً عميقة ، وفى تعبير الأديب الكبير الشيخ محمد حسين آزاد :« كم من سهام الظلم والحيف أصابت فؤاد الشيخ مبارك ، وأحدثت فيه ثقوبًا لا تحصر ، وأن الجراح التى نالها أبو الفضل ووالده الشيخ مبارك من « مخدوم الملك » و « صدر الصدور » لم يكن لها من برء على مرّ الأعوام وكّر السنين (٥) » ، ويقول فى موضع آخر : « إن ما أصاب الشيخ مبارك من الرزايا على يد «مخدوم الملك» ما نسيها أبناؤه ، فبدأوا ـ لتلا فيه ـ يسعون للوشاية عند الملك أكبر ، ومن ثم بدأ للتحول فى أفكاره وآرائه (٦) ، ويقول محمد حسين ـ رغم أنه من المتحررين « المتنورين » ـ : «كانت حالة فيضى وأبى الفضل كحالة أبيهما غامضة مبهمة » .

---

(١) تربى خواجه كلان فى بيت الشيخ حسام الدين ، وكانت زوجة الشيخ حسام الدين بنت الملا مبارك ، (انظر « تاريخ هندوستان » ج ٥ ، ص ٩٤٧) .

(٢) « مبلغ الرجال » ورقة ٣٣ ، ألف .

(٣) Cambridge history Of India Vol . 4 . p . 18

(٤) « هما طائر أسطورى فى الأدب الفارسى ، يعتقد فيه البركة ، ويتفاءل به فيقال إنه إذا جلس على رأس أنسان أو وقع عليه فى طيرانه ال اليه الملك .

(٥) دربار أكبرى ص ٤٩ ـ ٥٠ .

(٦) أيضًا ، ص ٣٨٩ .

وأورثت معارضة العلماء وظلم ذوى العصر عقدة « مركب النقص » فى جميع أفراد هذه الأسرة ، وعقدة مركب النقص (Inferiority Complex) تظهر فى أشكال مختلفة ، وفى صورة « مركب الاستعلاء » (Superiorty CompleX) أحيانًا ، فعزموا على أن لا تقوم قائمة لأى عالم أمام علمهم وذكائهم .

وذهب ضحية هذا الحقد على علماء البلاط والترة التى كان يحملها الثلاثة الإسلام والنظام الدينى بأسره ، حتى إذا أفل نجمهم وانطفأ سراجهم أو كاد ينطفىء إزاء نبوغ هذين الأخوين وذكائهما النادر ، وعلا فى الدولة صيتهما وطار فى الآفاق ذكرهما ، كانت حديقة الإسلام الذابلة ـ بفعلهم بين سَمْعِهِم وبصرهم ـ تلتهمها النيران ، ويشب فيها الحريق ، وكان أبو الفضل ـ حسب ما يقول المؤرخ عبد القادر ـ يردد هذين البيتين ، وهما لسان حاله واصدق ترجماته ، يقول ما معناه :

« لقد أشعلت النيران بيدى فى مربدي ، وقتلت نفسى بنفسى ، فكيف أشكو عدوى، وليس هناك عدو إلا أنا نفسيى ، آه من نفسى ويدى وعدوى » .

وكان لملاًّ مبارك هذان الولدان النابغان أبو الفيض الذى ولد عام ٩٥٤ هـ ، وأبو الفضل العلاّمى المولود عام ٩٥٨ هـ .

وكان فيضى نابغة من نوابغ العلوم الأدبية ، لا يختلف اثنان فى روعة شعره الفارسى وإمامته فيه ، وأصاب العلامة شبلى النعمانى حيث قال فى «شعر العجم » : لم ينجب الشعر الفارسى فى الهند فى عمره الطويل الممتد على ستة قرون سوى شخصين ، أذعن لهما ، طوعًا أو كرهًا ـ أصحاب هذا اللسان ، هما خسرو وفيضى » .

« تتلمذ فيضى على خواجه حسين المروى ، وبرز فى كل علم وفن ، ودخل بلاط الملك عام ٩٧٤ هـ ، العام الثانى عشر من تربع السلطان ، على عرش الدولة ـ ونال الشرف والتقدير ، ولم يزل يتقرب إلى السلطان إلا أنه لم ينسلك فى وظيفة من الوظائف فى البلاط ، كان طبيبًا نطاسيًا ، وكان شاعراً مجيداً ، وكان مؤلفًا قديراً ، يقضى وقته فى هذه الأعمال العلمية ، وأسند إليه تأديب أبناء الملك وتعليمهم وتثقيفهم ، ففى العام الثانى من تولى السلطان عهد إليه بتعليم ولى العهد دانيال ، وعلمه فيضى ـ فى أيام قليلة ـ مبادىء العلوم ، وألقى أكبر ـ هذا العام ـ خطبة فى المسجد ادعى فيها الاجتهاد والإمامة ، وكان فيضى مؤلف هذه الخطبة ، وقلل أكبر من نفوذ الشيخ عبد النبى وحدّ من سلطانه ، وفرق الصدارة ـ الرئاسة ـ فى عدة شعب ، فأسند عام ٩٩٠ هـ رئاسة آكره ولكالنجر

وكالبى إلى فيضى ، ولما بعث الجيوش لمقاومة قبيلة يوسف زئى ، أنفذ معهم فيضى للقيام بهذه المهمة معهم ، وفى عام ٩٩٦ هـ وهو العام الثالث والثلاثون من تولى أكبر للحكم - لقب فيضى بملك الشعراء ، وعين سفيراً فى « خانديس » عام ٩٩٩ هـ الموفق للعام السادس والثلاثين من حكمه - فقام بهذه الخدمة خير قيام ، ونجح فيها نجاحًا كبيرًا ، وتوفى فى شهر صفر ١٠٠٤ هـ الموافق للعام الأربعين من ولاية السلطان (١) » .

وله تفسير من أشهر ما ألفه وأسماه « سواطع الإلهام » (٢) - عدا ما خلفه من مؤلفات أدبية ، وكتب مترجمة من اللغة السنسيكريتية ، وقصائد متفرقة وديوان شعر - وتفسيره هذا تحاشى فيه الحروف المعجمة كلها ، وأكمل تأليفه على عامين ، انتهى منه سنة ١٠٠٢ هـ ، وجازاه أكبر على هذه الخدمة بعشرة آلاف روبية (٣) وكان فيضى يعتز بهذا التأليف ، ويقدر من خلال كتابه مدى قدرته البيانية ، وملكته اللغوية ، ويعترف الشيخ البدايونى - رغم الاختلاف فى العقيدة والمذهب - بعبقريته العلمية وتبحره فى اللغة ، فيقول :

« كان نشيجا وحده فى الفنون كالشعر والألغاز والعروض ،والقوافى ، والتاريخ واللغة ، والطب والإنشاء » .

---

(١) ملخص من « شعر العجم » للعلامة شبلى النعمانى ، ج ٣ ، ص ٢٨ - ٧٢ .

(٢) ألف فيضى هذا التفسير - الذى التزم فيه بأن لا يستعمل أيًا من الحروف المعجمة والذى طار صيته فى عصره ، وتحدث به القاصى والدانى - لاثبات فضله ونبوغه، والرد على اتهامه بالانصراف عن العلوم الدينية ، ولكن هذا العمل - مهما أثبت له من قدرته على اللغة العربية ، وامتلاك لناصية البيان فيها - لم يضف شيئًا علميًا مفيدًا ، وانما مثله مثل بعض الكتبة البارعين فى الخط ، الذين كانوا يتظاهرون بدقة خطهم وجمال فنهم ، بكتابة سورة الاخلاص - كاملة - على حبة واحدة من الأرز ، فجاءت - نتيجة ذاك - عبارة متكلفة لا لذة فيها ولا جمال ولا طراوة .
ولعل ما أثرة عالم الشام الشيخ محمد بدر الدين المعروف بابن الغَزّى الدمشقى (م ٩٨٤ هـ) كانت أنفع وأحق بالتقدير والاجلال ، اذ أنه فسر القرآن الكريم فى مائةج ألف وثمانين ألف بيت من الشعر ، ثم لخصه فى مجموعة أخرى من الشعر ، وقدمها الى السلطان سليمان القانونى ، وعَرَضه السلطان على العلماء حتى يبينوا اذا كان ما يخالف عقيدة الجمهور أو ان كان وقع فيه تحريف، واتفق العلماء على صحته واعترفوا بفضله ، فأعطاه السلطان جائزة قيمة غالية .
(الكواكب السائرة لنجم الدين الغزى ، وراجع أيضًا « البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للعلامة محمد بن على الشوكانى اليمنى صاحب « نيل الأوطار » (م - ١٣٥٠ هـ) ج ٣ ، ترجمة محمد بن محمد الغزى - ص ٣٥٣).

(٣) مآثر العلماء ، ج ٢ ، ص ٥٨٧ .

وكان شغوفًا بجمع الكتب ، أنشأ مكتبة قيمة ضخمة كانت تحتوى على أربعة آلاف كتاب ، أكثرها مم ألفه بنفسه ، أو أُلِّفَت فى عصره .

ويجمع العلامة عبد القادر البدايونى وجميع من فى عصره ممن كانت تجيش فى قلوبهم الحمية الإسلامية والغيرة على الدين ، ويعصرهم الحزن والألم على ما يشاهدون من الأوضاع والظروف السيئة فى عهد الملك أكبر ، على أن فيضى كان كوالده فريسة الاضطراب والتبلبل فى الأفكار ، والتزلزل فى العقائد ، وأن له يدًا فعالة فى انحراف « أكبر » وإلحاده وأن صورة « فيضى » كما تتجلى فى « منتخب التواريخ » للبدايونى ، إذا أخذناها بالحيطة، وبإبعاد عناصر المبالغة ، والإنشاء الأدبى الطليق ، لا تخلو من التحرر والانطلاق ، وعدم التقيد بالإسلام ، وذكر العلامة النعمانى مقتبسات من مذكرته تدل على طابع السخرية والاستهزاء (١) ، يقول العلامة النعمانى :

« أقام فيضى وأبو الفضل مجالس علمية ظهر لأصحاب البلاط بكل وضوح أن هؤلاء المتعصبين (من العلماء المجتمعين فى البلاط) لا يحملون سوى أدوات اللعن والتكفير(٢)» .

ويبدو أن أفكار فيضى وآراءه الملحدة انتشرت فى الآفاق ، وذاع صيتها فى الأطراف فى حياة فيضى نفسها ، فإن التواريخ التى استخرجت منظومة بمناسبة وفاته تدل على ذلك، وقصة وفاته تحمل فى نفسها العبرة والدرس.

أما صنوه أبو الفضل ـ فقد كان كما تقدم ـ من نوادر الرجال فى الذكاء وسيلان القريحة والتفنن فى العلوم ، وكانت له اليد الطولى والقدح المعلى فى الكتابة والإنشاء ، كما كان أخوه الأكبر صاحب الكعب العالى فى الشعر يقول فى كتابه « أكبر نامه » :

« إنه جن جنونه فى صغره ، ضد التقليد والظاهرية ، والصلف ، والإعجاب بالرأى»(٣) .

---

(١) أنظر « شعر العجم » ج ٢ ، ص ٤٩ و ٥٠ .

(٢) « منتخب التواريخ » ج ٢ ، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٥ ، وانظر الكلام على مذهب فيضى وآرائه فى «دربار أكبرى » بقلم الشيخ محمد حسين آزاد ، ص ٤٧١ .

(٣) يقول العالم الفرنسى الشهير « CARRADEVAUX » عن كتاب « أكبر نامه » : « انه وثيقة تاريخية يحق للشرق أن يحتز بها وان العبقريات الانسانية التى عرفت بنفسها عن طريق هذا الكتاب الضخم ، يخيل الينا أنهم سبقوا عصرهم فى تدبير شؤون الدولة والتنظيم للبلاد
CARRA DE VAUXLES PENSEURS DE L,ISLAM - PARIS . 1921

وسعد بالمثول فى البلاط الملكى عام ٩٨١ هـ بمدينة آكره ، وأهدى إلى الملك تفسير «آية الكرسى » ثم أهدى إليه تفسير « سورة الفتح » عام ٩٨٢ هـ ، ومن ثم نال الزلفى عند الملك ، ولم يزل يتقرب إليه حتى سلمت إليه الدولة وقوانينها ـ أعظم مآثره ، وإنها مرآة صادقة لوقائع الدولة التيمورية وأحوالها الدينية والعلمية ، والعائلية والمدنية والاجتماعية ، والاقتصادية والزراعية ،والصناعية والحربية ، والدولية ، ويلى هذا الكتاب الثانى « أكبر نامه » [1] ، وهو يشتمل على سيرة السلاطين التيموريين فى الهند ، وأحوالهم، وهناك ـ عدا هذين الكتابين العظيمين ـ مجموعة رسائل بعنوان « إنشائى أبو الفضل » ، ومؤلفات أخرى ، وقد قام نرسنك ديو ـ بإشارة الملك جهانكير ـ باغتياله عام ١٠١١ هـ ، فحزن عليه « أكبر » حزنًا عميقًا وبكى لموته ورثاه .

يقول الدكتور محمد باقر فى مقاله بعنوان « أبو الفضل » الذى جاء فى دائرة المعارف الاسلامية الأردية :

« كان لأبى الفضل التأثير الكبير على عقائد الملك الأكبر ، ولما أنشأ أكبر عام ٩٨٢ هـ الموافق عام ١٥٧٥ م بناية خاصة للعبادة فى فتح بور سيكرى ، وجمع علماء الدين ليستمع إلى مناظراتهم ومباحثاتهم ، كان أبو الفضل ممن يحضر هذه المناظرات ، وكان يؤيد ـ دائمًا ـ ما يذهب إليه أكبر فى العقائد والآراء ، وينحاز إليه ، حتى أثبت لأكبر أن يذهب إليه من اراء ومعتقدات أرجح وأفضل جدًا من آراء العلماء المعاصرين ، وأصدر عام ١٥٨٩م قرارًا من البلاط ينص على أن المَرجع النهائى فى الفصل بين خلافات العلماء الدينيين هو « جلالة الملك أكبر ، وقد رغبت نفسه أثناء هذه المناظرات التى كانت تعقد فى معبده فى ابتداع دين جديد فوضع أساس هذا الدين عام ١٥٨٢ م ، واختاره أبو الفضل أيضًا » [2] .

تختلف الآراء فى أبى الفضل ، أنه كان إنسانًا متحررًا ، طليقًا من القيود الدينية ، وبعيدًا عن العصبية فحسب ، أم كان مضللاً منافقًا كائدًا للإسلام ، يظن الناس ـ عادة ـ أنه كان رحب الصدر ، متسامحًا مع الناس ، يراعى الصدق والدقة فى البيان والأحداث والوقائع ، ولا يطرى الناس ، ولا يثنى على أحد أكثر من حقه ، وكان يكره تزمت المترمتين ، وعصبيتهم ، ويحسن بنا أن نذكر هنا حادثه نستطيع بها إدراك عقلية أبى الفضل، وسبر أعماقها والاطلاع على نواياه :

---

(١) انظر المرجع السابق .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، ج ١ ، ص ٨٨٩ ـ ٨٩٠ .

« حميت المناظرة - ذات مرة - فى قصر الملك أكبر الذى بناه للعبادة ، حول فضائل القرآن ، والإنجيل ، إذ كان أتباع كل واحد من هذين الكتابين المقدسين يقولون إن كتابهم هو المنزل من السماء لا غير ، فأرسل « أكبر » إلى رجل من المجاذيب يدعى الشيخ قطب الدين ، فجاء الشيخ وتحدى المسيحيين ، وقال : تعالوا نوقد النار ، وندخل فيها ، ونثبت عن طريقها صحة دعوانا ، يقول البدايونى : فأوقدت النيران ، وتقدم الشيخ قطب الدين وجذب بأطراف معاطف البطارقة المسيحيين ، وقال : تعالوا باسم الله ، ندخل فيها ، فلم يتجرأ أحد منهم أن يقتحم النار » (١) .

أما أبو الفضل فيحكى هذه القصة فى أسلوب يدل على نفسيته الحاقدة على الإسلام، فيقول :

« أقام البطريق رادلف (RUDOLF) - الذى كان نادرة عصره فى العلم والذكاء - أدلة عقلية راجحة ، ولكن هؤلاء الكذابين المتزمتين جعلوا يردون عليها فى طيش وسطحية، ولم تكن لدلائلهم أى قيمة ، فخجل المعارضون لرادلف (المسيحى) ، وبدأوا يسبون الإنجيل بدلاً من الرد على بالأدلة ، فتحداهم رادلف ،ودعاهم إلى اقتحام النار ، ليثبت كل فريق دعواه بمروره على النار سليمًا ؛ ولكن خاف هؤلاء الجبناء أصحاب القلوب السوداء ، وتظاهروا إزاء هذا التحدى بالتزمت والمراء ، وكان هذا الجبن منهم صدمة لقلب السلطان أكبر » (٢) .

وكان من الحاضرين فى البلاط - آنذاك - مع البطريق الإيطالى رادلف أكوب (Rudolf Aqua Viva) - أحد المسيحين الأسبان ، أنطونى مانسريت (Antony Mon esrrate) أحد الإيرانيين الذى اعتنق المسيحية ، فرانس هنرى كيس (Francis Henri Wuez) وألف أنطونى مانسريت كتابًا باسم Mongaticae Legationis Commentarius فى اللغة اللاتينية ، وتحدث فيه عن انطباعاته ومشاعره حول بلاط السلطان أكبر ، ويلاحظ فى الكتاب دفاعه عن جبن البطريق رادلف وتهيبه للدخول فى النار ، ويعترف بأن التحدى باقتحام النار كان من قبل عالم مسلم ، ، وتخلص منه « رادلف » قائلا: إن هذا اختبار الله ، وذلك يخالف مبادىء الدين المسيحى » (٣) .

---

(١) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ .

(٢) أكبر نامه ، ص ٢٥٥ .

(٣) FATHER ANTONY MONSERRATE. MONGATIONIS COMMENTARIUS . TRANSL . J . S . HOLLAND OXFORD UNIVERAITY PRESS . 1922 P . P . 39 ` 42 .

يكفى تناول أبى الفضل هذه الحادثة بالتحريف والتزوير ، ودفاعه عن «رادلف» وأسلوبه مع المعارضين له من العلماء المسلمين ، للدلالة على كراهية أبى الفضل للإسلام والنفور منه ، فلم يكن يتعذر على مثله فى الذكاء والدهاء أن يبذر فى قلب السلطان بذور الشك والارتياب واللادينية التى تنحرف به عن الإسلام ، وتنفره منه .

وجاء فى « مآثر الأمراء » أن الملك جهانكير كان يقول : لقد لقّن الشيخ أبو الفضل والدى أن خاتم النبيين محمدًا ـ ﷺ ـ كان أفصح الناس وأن القرآن من تأليفه ، ولذلك أوعزت إلى نرسنكه ديو عند عودة أبى الفضل من الجنوب ، أن يقتله ، وكان والدى ـ بعد ذلك ـ تاب من هذه العقيدة » (١) .

ولكن أوثق شاهد وأصدقه على ذلك ، تصريح من أبى الفضل نفسه ، يدل على أن ما قام به من دور باستعانة علمه وذكائه من صبغ أهواء الملك ورغباته بالصبغة العلمية ، وتقويتها بالأسلحة العلمية ، ورفع مكانته من والى الدولة المسلمة إلى « إمام العصر » و «مرشد الأمة » لم يكن ضميره مقتنعًا به مرتاحًا إليه ، وكان يستيقظ فيه ـ أحيانًا ـ هذا الضمير ويثور هذا الشعور ، فيقول فى رسالة وجهها إلى الأمير عبد الرحيم « خانخانان » يتحدث فيها عن نفسه :

« إن كاتب هذه السطور لتورطه فى جحيم الأشغال التى لا تعنيه ، سقط من مرتبة عبد من عباد الله إلى حضيض عبد النفس والهوى ، وكان أن ينادى يا عبد الدينار والدرهم، وأنه يبدى عن طريق هذه الكتابة ألمه وحزنة ويرى أنه بعد هذا السعى السفيه الخثيث ، طوال ثلاث وأربعين سنة ، ولا سيما هذا الصراع الذى دام اثنتى عشرة سنة مع أبناء هذا الزمان لم يبق فيه بقية من صبر ، ولا قوة على الاجتناب والبعد » (٢) .

تأثير زوجات الملك الهندوكيات :

كان عاملاً قويًا من عوامل انحراف « أكبر » وتحول نفسيته أنه بدأ يقيم الصلات والقرابات ـ لتوطيد أركان الدولة ، وإحكام السلطة ـ مع الراجوات ـ الأمراء ـ الراجبوت ، ويعيّنهم على المناصب الخطيرة العالية ، وأقدم لكسب ثقتهم وإرضائهم ـ على أمور وأعمال لم يسبق إليها أحد من سلفه من الملوك والسلاطين ، كالنهى عن ذبح البقرة ، والتخلى

---

(١) مآثر الأمراء ، ص ٦١٧ .

(٢) « انشاىء أبو الفضل » (مجموع رسائل لأبى الفضل) ج٢ ، ص١٠٢ ، طبعة لكهنئو ١٨٨٣ م.

للناس من نافذة القصر مستقبلاً الشمس ، وحلق اللحية . . . ووضع نقطة من الطين الملّون فى وسط الجبين ـ وهو من شعار الهنادك ـ والزواج من النساء الراجبوت ، ومخالطة الأميرات الهند وكيات ، والمشاركة فى العادات والمظاهر الهندوكية ، وقد كان لهؤلاء الزوجات الهندوكيات ، ولإخواتها وذوى قرباها ـ عن طريقها ـ أثر كبير على « أكبر » وكان ذلك طبيعيًا ، وأن أول هَدَّة وقعت فى بنيان الدين ، وزلزلت قواعده ، ترجع إلى هذه الصلة والقرابة مع الهندوكيات .

وتفصيل هذا الإجمال أن الشيخ عبد الرحيم قاضى « متهرا » أعد العدة لبناء مسجد فى المدينة ، فأغار أحد البراهمة فى جنح الليل ، وحمل أدوات البناء وكل ما جهز لأجله ، وبنى معبدًا هندوكيًا ، فلما أخذ المسلمون يناقشونه ويلومونه انفجر يسب الإسلام والرسول ـ ﷺ ـ فرفع القاضى عبد الرحيم أمره إلى « صدر الصدور » الشيخ عبد النبى ، فأصدر الشيخ عبد النبى ، امرًا بطلبه إلى مجلسه ، وحقق معه فى الأمر ، حتى تبين أن الحادثة كما ذكرت ، فحكم الشيخ بإعدامه ، ولكن هذا البرهمى كان مرشد الملكة جوده بائى ، والقائم بأعمال « بروهت » ـ وهو الذى يكون عالمًا من علماء الديانة الهندوكية ، ويقوم بالشؤون الدينية ، وأداء تقاليد الأعراس والمآتم ، وكفن الموتى وإحراقهم فى الأسر الهندوكية ـ وكانت الملكة تضغط على أكبر ليتدخل فى الأمر ، ويصدر العفو عن المجرم ، ولكن لم يكن الملك يريد التدخل فى الشؤون القضائية وإغضاب صدر الصدور ، وبالفعل نفذ صدر الصدور حكم الإعدام ، فثارت وتطورت القضية بدل أن يقضى عليها وتدفن ، كما يقول البديوانى :

أو غرت أخوات راجوات الهند العظام صدر السلطان ، وحركن فيه النخوة حيث أنه أطلق الحرية لعلماء الدين حتى ركبوا رؤوسهم ، لا يبالون برضا السلطان وأمره ، وأثيرت فى البلاط مسألة أن المذهب الحنفى لا ينص على القتل عقابًا لشتم الرسول ـ ﷺ ـ ولذلك فإن هذا الإجراء مخالف للمذهب الذى يسود قانونه فى هذه البلاد » .

وانتهز الشيخ مبارك هذه الحادثة لنفير السلطان أكبر من علماء الدين وتخليصه من تأثيرهم ، لأنه لما استفسر الشيخ مبارك عن رأيه فى هذا الأمر، قال له :

« إن جلالة السلطان إمام هذا الزمان ، ومجتهد هذا العصر ، فلا حاجة فى رصدار رسائله وأحكامه ـ سواء كانت تتعلق بأمور الدين أو شؤون الدنيا ـ إلى الاستعانة بأى عالم

من العلماء أو شيخ من المشايخ »[1] .

مذكرة الاجتهاد والإمامة :

كانت هذه الفرصة السانحة التى أخذ فيها الشيخ مبارك بيد الملك وأعد تلك المذكرة التاريخية الخطيرة التى تعتبر حجر الأساس فى توجيه « أكبر » وحكومته نحو الانحراف والضلال ، ويمكن أن تسمى الباب الرئيسى لذلك القصر الفخم الذى قام على الردة العقلية والحضارية والعقائدية [2] ، لقد جاء فى هذه المذكرة بصراحة ووضوح :

« إن منزلة السلطان العادلة أكرم عند الله من منزلة المجتهد ، وإن جلالة السلطان ، كهف الأنام ، أمير المؤمنين ، ظل على العالمين ، أبا الفتح جلال الدين محمد أكبر الملك الغازى ، أعدل الناس وأعقلهم وأعلمهم ، فإن كان هو - بناءً ما تقدم - يرى رجحان رأى - تيسيراً علي بنى آدم - فى المسائل التى اختلف فيها المجتهدون ، بذهنه الثاقب ورأيه المصيب، ويقره حكمًا فاصلاً فإنه يعتبر هذا الحكم من الملك حكمًا قاطعًا مجمعًا عليه ، ويتحتم على جميع الرعية الأخذ به والخضوع له » .

أعدّت هذه المذكرة فى رجب عام ٩٨٧ هـ ، ونفذت فى المملكة ، ووقع عليها جميع العلماء بإشارة من الملك ، ومن ثم أصبح الملك رماماً مجتهداً، ومستوجب الطاعة والانقياد، وخليفة الله فى الأرض وكانت هذه نقطة البداية لرحلة الردة التى انتهت لا إلى الزيغ والانحراف عن الإسلام فحسب ، بل إلى المعارضة والعناد ، والمكابرة .

ووقّع الشيخ مبارك أيضًا على هذه المذكرة ، وكتب بعد توقيعه :

«وكان هذا ما كنت أبغيه ، وأحنّ له من أعماق قلبى ، وأترقبه من أعوام طوال»[3] :

نظرة على هذه المذكرة :

لا يخلو تاريخ الحكومات المسلمة الطويل من أمثلة التأييد المطلق للسلاطين وأصحاب

---

(١) منتخب التواريخ ، ج ٣ ، ص ٨٣ .

(٢) راجع النص الكامل لهذه المذكرة ، فى « منتخب التواريخ » ج ٢ ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ ، «طبقات أكبرى » ص ٣٤٣ - ٣٤٤ ، وراجع ترجمتها العربية المفصلة فى « نزهة الخواطر » ج ٥ .

(٣) انظر « (CAMBRIDGE HISTORY OF INDIA. VOL. 4M P. 123) » .
يصرح البديوانى بأن عقلية الشيخ مبارك كانت تعمل وراء هذه المذكرة وهو الذى كتب مسودتها ، ويستفاد من تصريحه أيضًا أن الشيخ مبارك كان ممن وقّع على هذه المذكرة ، ولكن الغريب أن أبا الفضل لم يذكر اسم والده الشيخ مبارك وقع على المذكرة ، رغم أنه تحدث عنهم وذكر أسماءهم .

السلطة والقوة ، والدفاع عنهم ، والتماس العذر لأخطائهم وزلاتهم وتأويل غلطاتهم وتدعيم أوامرهم الجائرة - التى تلحق - أحيانًا - الضرر البالغ بالإسلام وتسىء إلى سمعته - وإجراءاتهم الخاطئة ، ومشروعاتهم المضللة بالشواهد الفقهية والكلامية ، وقد حدث فى التاريخ أن العلماء أخطأوا ونزلوا مرارًا وأساءوا إلى مكانتهم ومنصبهم ، نزلوا عن مستواهم - لمصلحة اختيارية أو اضطرارية - إلا أنه يصعب العثور على نظير فى التاريخ لهذه لمذكرة - التى أعدها الشيخ مبارك وحده - لمساندة السلطان وتدعيمه ، وتدبير المؤامرة ضد الشريعة والدين - فقد خوّل فيها الملك الشاب الفج (١) ، مكانة أعلى من مكانة المجتهدين ، وحق الترجيح والاختيار فى المسائل التى اختلف فيها الأئمة المجتهدون واعتبره أعقل الناس وأعدلهم ، وهو الأمى المحض ، الذى كان من قبل ، مطلق الجماح ، متحررًا منطلقًا من كل القيود ، والذى فقد ثقته فى علماء الإسلام وشراح الدين ، وفقهاء الشريعة ، وتأثر بالبيئة الهندوكية المسيطرة على بيئته وبلاطه تأثرًا عميقًا ، ووجد فيه ميل شديد إلى إتخاذ العادات والتقاليد والأفكار الهندوكية ، وكان يملك سلطة مطلقة ، وحكومة قوية جبارة ولم يكن يستفيد من ذلك إلاّ أصحاب الأغراض والأهواء ، وأولئك العلماء فى البلاط الذين كانوا يريدون باسم السلطان ، وتحت ستار أوامره ورسائله إطلاق الحرية ، وإيجاد جو من طرح القيود وتعدى الحدود ، وتحويل الشريعة الإسلامية إلى لعبة بين الأطفال ، أو أنهم كانوا يحلمون بالثأر والنتقام من معارضيهم وأعدائهم .

وما كان الشيخ مبارك فى مثل فطنته وذكائه ممن تخفى عليه نتائج هذه الخطوة وعواقبها الخطيرة ، ويصعب لأجل ذلك تأويل تلك المؤامرة التى كانت تراد من هذه المذكرة ، ويحق لمؤرخ ناقد بصير يعرف عوقب هذه الاجراءات ونتائجها الوخيمة أن يخاطب اليوم - روح الشيخ مبارك ويقول :

فإن كنت لا تدرى فتلك مصيبةٌ وإن كنتَ تدرى فالمصيبة أعظم

سقوط مخدوم الملك وصدر الصدور :

وبدأ أفول نجم مخدوم الملك ملا عبد الله السلطانبورى ، وصر الصدور الشيخ عب النبى من يوم صدور هذه المذكرة ، ومساندة الشيخ مبارك العلمية ، ابنيه النابغتين فيضى وأبى الفضل فى البلاط ، وجئ ذات يوم بمخدوم الملك والشيخ عبد النبى - اللذين نظرا إلى هذا التغيير الحادث فى البلاط ، وكانا قد اعتزلا فى البيت ، وتركا الخروج - إلى

(١) كان أكبر - اذا ذاك - فى الثامنة والثلاثين من عمره .

البلاط ، أجلسا فى صف النعال (١) ، ثم أمر مخدوم الملك أن يغادر إلى الحجاز ، فرحل إلى الحجاز عام ٩٨٧ هـ واستقبله هناك العلماء الكبار بحفاوة بالغة وأكرمه أستاذ العلماء العلامة شهاب الدين أحمد ابن حجر الهيتمى ، وبجّله، فمكث فى مكة المكرمة ثلاث سنين، ثم عاد إلى الهند وما أن بلغ كجرات حتى سقى السم ، ووافته المنية هناك عام ٩٩٠ هـ أو ٩٩١ هـ ، وتشهد كل القرائن على أن عملية السم كانت بإشارة من السلطان وقد صرح بذلك خافى خان فى « مآثر الأمرا» (٢) .

وتوجه الشيخ عبد النبى ـ أيضًا ـ إلى الحجاز ، وأقام هناك مدة يسيرة ولكن لعله لم يستطع أن يمحو من ذاكرته عهد عزه وسلطته ، وجاهه وشوكته ، فرجع إلى الهند ، والتمس من الملك العفو والمسامحة ، ويقول عبد القادر البدايونى إن الملك أمر الراجه تودرمل أن يحاسبه ، فحسبه الراجه وشدد عليه فى الحساب والمناقشة ، حتى نفذ صبره ولقى المنون إلاَّ أن « مآثر الأمراء » يقول : « إن الملك وكل به أبا الفضل ، فقتله خنقًا بيده» (٣) .

الإعداد للألف الثانى وتنفيذ الدين الإلهى :

وكانت الخطوة الثانية بعد إحلال الملك منزلة المجتهد المطلق ، المطاع الحق أنه قد مضى على طلوع الإسلام ألف سنة ، ويبدأ الألف الثانى ، وإن الدنيا بطلوع هذا الألف الثانى تستأنف عهدًا جديدًا ، فلا بد لها من دين جديد ، وقانون جديد ، وشارع جديد ، وحاكم جديد ، وليس فى العالم لهذا المنصب الجليل إلا أكبر ، صاحب التاج والعرش ، والإمام العادل العاقل ، يقول المؤرخ عبد القادر :

« ولما أنه قد رسخ فى ذهن الملك أن مدة ألف سنة ، بعد البعثة النبوية ـ وهى العمر الطبيعى لهذا الدين ـ قد انقرضت ، فلم يبق هناك ما يحول دون إبداء تلك الرغبات الكامنة فى الصدر » (٤) .

---

(١) « منتخب التواريخ » ج ٣ ، ص ٧٩ ـ ٨٣ .

(١) « نزهة الخواطر » ج ٤ .

(٢) نزهة الخواطر » ج ٤ .

(٤) منتخب التواريخ » ، ص ٣٠١ .

وبعد هذا القرار الحاسم عملت تلك التغييرات التى تكفلت بنشر هذه الفكرة وترسيخ جذورها فى أنحاء المملكة ، ومن ثم كتب التاريخ الألفى[1] على العملة ـ التى تتداولها الأيدى ، وليست وسيلة أكثر منها ذيوعًا وانتشاراً ، لإقامة الحد الفاصل فى تاريخ العالم وتقسيمه إلى الفترتين المتميزتين ، وأسند إلى لجنة مكونة من العلماء تدوين تاريخ جديد باسم « التاريخ الألفى » ، وذكروا فيه كلمة الوفاة « الرحلة » ، بدل الهجرة لبيان السنين ، وبذلت محاولات لإفهام الناس :

« إنه قد أظل زمان مرشد هذا العصر الذى يزيل الخلافات بين اثنتين وسبعين فرقة من المسلمين والهنادك ، وأنه هو الملك صاحب الصفات القدسية » [2] .

وظهر من ذلك اليوم « الدين الإلهى الأكبرى » الذى احتوى على الشرك الصريح المتمثل فى عبادة الشمس ،والكواكب ، بدل التوحيد ، وعلى عقيدة التناسخ مكان البعث والنشور ، وكان أكبر يأخذ البيعة من الناس على هذا الدين الجديد وكانت الكلمة التى يدخل بها الإنسان فى هذا الدين : لا إله إلاَّ الله ، أكبر خليفة الله » وكان مع هذه الكلمة عهد وميثاق ، يقول فيه معتنق هذا الدين :

« إننى ـ عن رغبة ورضا منى وحب من قلبى ـ أفارق دين الإسلام المجازى التقليدى الذى سمعت عنه من آبائى ، وشهدتهم عليه ، وأرفضه ، وأدخل فى الدين الإلهى الأكبرى ، وأقبل مراتب الإخلاص الأربعة فى الدين ، من ترك المال والنفس ، وترك العرض والدين » [3] .

وكان الربا والقمار ، والخمر والخنزير حلالاً طيبًا فى هذا الدين ، ونهى فيه عن ذبح البقرة ، وأجريت تعديلات فى أحكام النكاح ، وكان النهى البات عن الحجاب والختان ، وقد نظم فيه الزنا تنظيمًا خاصًا ، وعين للمومسات مكان خاص ، وأصدر بصدده قانون ، فكان بغاء رسميًا وعدلت طريقة الدفن للموتى .

وخلاصة الأمر أنه دوّن دين هندى أكبرى جديد ، وأثر فيه أسلوب الحياة الذى يوفر الغذاء للميول والرغبات الطبيعية ، وإشباع الشهوات النفسية ، وكانت تدعو إليه الأغراض

---

(١) أيضًا ص ٣٠١ .

(٢) « منتخب التواريخ » ، ص ٢٧٩ .

(٣) أيضًا ، ص ٢٧٣ .

السياسية والقومية ، والمصالح الخارجية وترجح كفته (١) .

أوج الانحراف الطبيعي والضلال الديني في « أكبر » :

ونود أن تقدم هنا مقتبسات من كتاب أبي الفضل العلامي ـ الذي كان العقل المدبر واليد الفعالة وراء أكبر ـ لأي مدى ذلك الضلال الديني ، والانحراف الطبيعي ، والزيغ والجنون الذي بلغ بأكبر إلى ما بلغ ، وإن هي إلا وقائع متناثرة جاءت في تصريحات أبي الفضل ، تدل على ذلك التحول الشامل والانحراف المستطير ، الذي ساد ذلك العصر ، ويمكن من خلالها تصور تلك السلسلة الملتهبة التي طوقت بها عنق الإسلام في هذه البلاد .

عبادة النار :

يقول أبو الفضل : « إن جلالة السلطان ـ لتنور بصيرته ـ شغوف بالنور، ويعتبر تقديسه وتعظيمه من عبادة الله والثناء عليه ، وإن الجهلة الذين أظلمت قلوبهم يعدون ذلك عبادة النار والإعراض عن الله » (٢) .

ويقول : « يشعل الخدم بعد غروب الشمس اثني عشر شمعًا ممزوجًا بالكافور ، ويضعون كل شمعة من هذه الشموع في قصاع من الذهب والفضة ، ويأتون بها إلى حضرة السلطان ، ويتغنى أحد من هؤلاء الخدم ، حلو اللسان جيد النغم بأناشيد الثناء على الله في ألحان جميلة جذابة متنوعة، وهو يحمل الشمعة ، ثم يدعو في الختام ليمد الله في عمر جلالة السلطان وثروته » (٣) .

عبادة الشمس :

كانت عبادة إله النور في عمارة تسمى « دو آشيانه منزل » ومنها بدأ تعظيم الشمس ،

---

(١) ولم يكن الموقف مع الدين الإسلامي والديانة الهندوكية ـ في هذه المسامحة المطلقة ، وحركة المصالحة التامة ـ متساويًا ، بل رجحت ـ بطبيعة الحال ـ كفة ذلك الدين أو الفرق الذي كان له نفوذ وتأثير في البلاط ، وميل إليه في نفس السلطان ، وقد اعترف مؤلفو « مختصر تاريخ الهند» دبليو ، ابج ، مورلند واي ، سي جترجي: بأن أكبر نهى عن ذبح البقرة إرضاء للهنادك، وعاقب من خالف هذا الأمر عقابًا صارمًا شديدًا ، وكانت قوانين أكبر أقرب إلى الديانة الهندوكية وأمَسّ رحمًا بها منها بالدين الإسلامي ، وقد نجحت هذه السياسة » (ASHORT HISTORY OF INDIA) ٢٥١ .

(٢) آئين أكبر ، ص ٢٨ ، طبعة لكهنئو ١٨٨٢ م .

(٣) أيضًا ج ١ ص ٢٩.

ويقول جلالة السلطان إن للشمس اهتمامًا خاصًا بحال السلاطين ، ولأجل ذلك يعتقد أن عبادتها عبادة الله ، إلاّ أن قصار النظر يقعون فى سوء الظن ، لماذا يحترم العامة من الناس الأغنياء أصحاب القلوب السوداء بغرض المنفعة الذاتية ؟ ويقصرّون - لجهلهم وعماهم - فى تعظيم منبع النور ، ويرمون العابد بما يرمون ، أصيبت عقولهم بآفة ! وإلاّ فلماذا أصبحت سورة الشمس نسيا منسيًا » [1] .

ماء نهر « كنكا » :

يقول : « إن السلطان يشرب - دائمًا - من ماء نهر « كنكا » [2] (الكنج) سفرًا وحضرًا، وقد عين فريق من الموظفين الثقات على شاطىء النهر ، يأتى إلى السلطان بمائه فى أكواب مملوءة مختومة ، وحينما ينزل جلالة السلطان فى آكره ، أو فتحبور ، يؤتى له بالماء من قرية « سورون » وفى هذا الوقت بالذات حيث نصبت الخيمة الملكية فى لاهور تجد الخزان ريّان بالماء الجيد الصافى من « هردوار » [3] . ويستعمل فى المطبخ ماء نهر «جمنا » أو نهر « جناب » أو ماء المطر ، إلاّ أن هذا الماء يكون ممزوجًا بشىء من ماء نهر كنكا » [4] .

الرسوم والتصوير :

« تكلم - ذات يوم كعبة الدنيا جلالة السلطان فى غرفة خلوته حيث كان جمع من المريدين السعداء وليس غيرهم ، فقال : إن فريقًا من الناس يعادون فن التصوير ، ويبينون عيبه وفساده ، ولكن القلب لا يقبل أقوالهم وأدلتهم ، بل إن ما يدل عليه العقل ، وتشهد عليه القرائن أن المصور يكون أقرب إلى معرفة الله - تعالى - من غيره من الطبقات البشرية المختلفة، لأنه عند تصويره لحيوان يأتى بشبيه لكل عضو من أعضائه ، ثم حين يكمل الصورة وينظر إليها يرى أنه رغم هذه الريشة المصورة الساحرة ، يعجز تمامًا عن أن ينفخ فيه الروح ، فتتجلى له عند ذاك قدرة الخالق المطلقة، ويسجد أمام هذا الصانع العظيم [5] .

---

(١) أيضًا - ج ٣ . ص ١٨٤ .

(٢) النهر المقدس عند الهنادك ، يعبدونه ويرمون فيه موتاهم ، ويتقربون بالاغتسال فيه .

(٣) مدينة مقدسة على شاطىء نهر كنكا فىّ الولاية الشمالية يحجون اليه .

(٤) آئين أكبرى ، ج ١ ، ص ٣٣ .

(٥) أيضًا ٢ ، ص / ٧٨ .

مواقيت العبادة :

« عند الفجر ، الذى به البداية لليوم السعيد ، والإشعاع والتنوير ، وعند الظهر حيث يحيط ضوء الشمس الوهاجة بأطراف العالم ، وينشط الناس نشاطًا مضاعفًا ، وعند العشى إذ تغيب الشمس منبع النور والضياء عن أبصار الناظرين » (١) .

سجدة التحية والتعظيم .

يقول : « يسجد له المريدون المعتقدون سجددة التحية والتعظيم ، ويرونها سجودًا لإله النور » .

البيعة والسلوك :

« يأتى طالب المعرفة واليقين ، حاملاً بيده ، ويضع رأسه على قدمه الشريفة ، ويقول بلسان حاله : أوجه قلبى بإرشاد سعاة جدى وحسن حظى إلى طاعة السلطان والخضوع لأمره » (٢) .

آداب المقابلة :

وكان من اداب المقابلة « أن ينادى شخص عند مقابلة شخص للسلطان ، بالله أكبر ، وينادى آخر ، « جل جلاله » .

كراهية التاريخ الهجرى والنفور منه :

« كان جلالة السلطان من مدة مديدة يفكر فى إجراء تقويم جديد للشهور والسنين فى الهند ليدفع المشكلات ويوفر التسهيلات ، ولا يحب جلالة السلطان التاريخ الهجرى لنقصه وعيوبه ،ولكن طبيعة جلالة السلطان التى تجبر القلوب لا تتحمل أن تكسر خاطر الكثيرين من قليلى الإدراك والفهم ، والقاصرى النظر الذين يعدون إجراء تقويم جديد قضية دينية ، وكان هذا هو السبب فى أن جلالة السلطان لم يستطع أن ينفذ هذا التقويم فعلاً » (٣) .

الأعياد والمهرجانات غير الإسلامية :

« يسمى المهرجان الأول مهرجان نوروز ، فعندما تكمل الشمس دورتها السنوية

---

(١) أيضًا ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

(٢) أيضًا ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(٣) أيضًا ص ١٩٣ .

وتدخل فى برج الحمل ، وتفيد أهل الدنيا ببركاتها ، يعقد احتفال لتسعة عشر يومًا كاملاً ، تقضى فى نشوة وسرور ، ولذة وترف ،ويحتفل فى نفس هذه الأيام بالعيد ليومين ، وتوزع على الناس أشياء لا حصر لها من النقود التى لا تعد ، وتوزع الصدقات والهدايا والتحف ، وأن غرة « فروردين » وتسعة عشر « فروردين » ، هما يوم الشرف والفخار ، خاصان بالعيد ، ويعتقد المجوس أن اليوم الذى يكون سميًا للشهر من أيامه مبارك جدًا ، ويحتفلون بذلك اليوم فى الملاذ والمسرات ، ويعطون المغنين والمغنيات، ويعدون لقرى الناس ، فاقتفى جلالة السلطان أثرهم وعين كل شهر فى التقويم الشمسى لمهرجان خاص، وفيما يلى كشف بهذه الأيام » :

« ١٩ / فروردين ، ٣ أردى بهشت ، ٦ /خورداد ، ١٣ / نير ، ٧ أمرداد ٤/ شهربور ، ١٦ ، مهر ، ١٠/ آبان ، ٨ ، ١٥ ، ٢٣/ دى ، ٢ / بهمن ٥/ اسفنديار » .

هذه هى الأيام التى تعقد فيها المهرجانات ، وتقام أنواع من الزينات ، وتنصب أقواس النصر ، وترفل البلاد فى حلة من الجمال والبهاء ، ويهتف المحتفلون فى نشوة وطرب وسرور ، هتافات الفرح والحبور .

وتحضر عند كل فترة من فترات النهار الطبول ، فيغنى المغنون ، ويطرب المطربون ، ويشيعون بالألحان والنغمات الحلوة ، والسرور فى الحضور » .

فرمان يمنع الزكاة :

بدأ هذا العام فى « التقويم الإلهى » من ٥/ صفر ٩٨٩ هـ (١) ، فصدر الأمر السلطانى برفع « تمغة » (٢) وإلغاء الزكاة (٣) ،وأصدرت فرامين لتنفيذ هذا الأمر إلى جميع الجهات ، « ليعلم الموظفون فى الحال والمستقبل ، والعاملون فى البلاد المحروسة أنه قد صدر فرمان فى هذا العهد السعيد الذى يبتدأ من سن ولاية جلالة السلطان للدولة ، وهو العام السابع من القرن الثانى ـ أى العام السابع والثلاثون (٤) ، لأن المراد بالقرن هنا ثلاثون

---

(١) وهو العام السادس و العشرون من جلوس السلطان ، وذكر البديوانى فى حوادث عام ٢٥ من الجلوس .

(٢) لفظة « تمغة » تعنى الختم ، او الوثيقة المختوم عليها ، كما يقال للأرض والعقار الذى رفعت عنه الضريبة الرسمية ، وتقطع لأى فرد من الأفراد جزاء على عمله الدينى او غيره مما ينفع البلاد او تستخدم فى الأمور الخيرية .

(٣) يلاحظ فى « أكبر نامة » أن أبا الفضل لا يتعرض لهذا الفرمان الذى يلغى الزكاة ابقاء على سمعة أكبر وتبرئة لساحته من مثل هذه الأحكام .

(٤) وهذا خطأ ، بل صدر هذا الفرمان عام ٢٦ من جلوس السلطان أكبر كما تقدم آنفا .

عاماً - وهو العهد الذى ظهر فيه صبح الجلال والجمال ، وازدهرت الدولة ونعمت البلاد ، إن سياسة البلاد تقتضى أن الحكومة والدولة التى هى عبارة عن حماية مصالح المواطنين والمهاجرين والموظفين والتجار ، والتى هى وسيلة لجباية ، الخراج ، الذى يعتمد عليه نظام الجنود الحارسين للأنفس والأموال والعقائد ، والذين يراقبون الأسواق ، فإن اختل ميزان هؤلاء الأمناء الدينيين الذين ينقدون النقود والغلات ، لتحولت المصالح إلى المضار ، والحسنات إلى السيئات ، ونحمد الله ـ تعالى ـ على أن جلالة السلطان لم يزل مراعيا للمصلحة العامة ، ومربيًا للرعايا ، الذين هم مثل أبنائه ـ معنى ـ والأمانة الإلهية فى يده ، وأن لله المنة علينا بأن جعل الهند والبلاد المحروسة الأخرى مهد العدل والرخاء ، ومستقر المسافرين والظاعنين » .

« وقد صدر ـ أخيرًا فرمان ـ لعطف جلالة السلطان وشفقته على الخلق ـ برفع الزكاة وجميع المكوس والضرائب الصغيرة والكبيرة على جميع العطور ، والأقمشة والقطن ، والصوف ، والأشياء المصنوعة من الجلد ، والنحاس ، وأوانى الخشب ، والقصب والعشب ، وأشياء وغلات أخرى ـ إذ أنها عماد المعيشة ـ سوى الفيل والخيل والإبل والشاة ، والسلاح والأشياء الضرورية ـ التى استثنيت من قبل ـ فى جميع البلاد المحروسة»(١) .

أكل اللحوم :

« يقول السلطان : لولا تفكيرى فى مصاعب الحياة على الناس لنهيتهم عن أكل اللحوم ، ولا أحب ـ نظرًا إلى هذه الناحية ـ أن أنفذ هذا الأمر فى الرحلة الأولى ، لأن كثيرًا من الأعمال تبقى ـ عند هذا التنفيذ السريع ـ ناقصة ، ويبلغ الحزن الممض بالناس إلى حد الجنون ، ويقول : ينبغى إبعاد بيوت الجزارين ، والصيادين للأسماك ، والمشتغلين بأمثال هذه المهن والأعمال ، ممن تقتصر مهنتهم على القتل والإماتة ، من بين عامة السكان، وتؤخذ الغرامة من كل من يتصل بهم ويقابلهم » (٢) .

الخنزير :

« يقول :إذ كان السبب فى تحريم الخنزير قلة الحياء فيه ، لزم من ذلك ، أن يكون

---

(١) طبقات أكبرى ، ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(٢) أيضًا ج ٣ ، ص ١٨٩ .

الأسد وأمثاله من السباع حلالاً طيبًا » (١) .

شرب الخمر :

« كان (جلالة السلطان) يتناول فى مهرجان هذا الشهر ، الرحيق المنبه للعقل والمنشط للفكر ، وشرب المفتى مير صدر جهان ، ومير عدل ، مير عبد الحى ، كؤوسًا من الخمر كذلك ، وجرى هذا البيت على لسان السلطان الذى يقول فيه :« لقد أصح القاضى والمفتى فى عهد السلطان ذوى العفو والغفران يشربان الخمور ويحسوان من الكؤوس» (٢) .

التقاليد والطقوس الهندكية :

« ماتت أم خان أعظم مرزاً على أثر المرض الشديد ، فحزن عليها السلطان حزنًا عميقًا حتى حلق رأسه وشاربه فى المأتم ، ورغم كل المحاولات أن لا يحلق الشعر غير أبناء الفقيدة الكبار ، إلا أن العباد المخلصين ألحوا أن يحذوا حذو السلطان » .

إنكار المعجزات :

« يقول السلطان : السفهاء يؤمنون بالمعجزات ، ولكن العقلاء لا يعتقدون فى شىء إلاَّ بعد تحققه وثبوته بالدلائل » (٣) .

استنكار الختان وكراهيته :

« من العجب أن تصروا على ختان الأطفال مع أنهم ليسوا بمكلفين بالفرائض والواجبات » (٤) .

قوانين الزواج :

« يرى جلالة السلطان أن الزواج مع ذوات القربى القريبة أمر مكروه ، ويقول : ألا يستنكر أتباع محمد - ﷺ - المتعصبون المتزمتون الزواج ببنات الأخوال والأعمام ، ويكره جلالة السلطان الزواج بأكر من واحدة » (٥) .

---

(١) أيضًا / ١٨٦ .
(٢) أيضًا ١ ، ص ١٠١ (الأردية) .
(٣) أيضًا ص / ٣٠٣ .
(٤) آئين أكبرى ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ .
(٥) أيضًا . . . رقم ٢٤ .

رؤية السلطان هى العبادة :

« يقول جلالـة السلطان : إن رؤية وجوه السلاطين هى العادة ، إنهم يـسمون « ظل الله » ، ولكن رؤيتـهم تذكر فى الحـقيقـة الخالق ، ويتـبادر عندها الذهن إلى ظـل القادر المطلق » [١] .

إعلان التقويم الإلهى وتنفيذه :

« فى عام ٩٩٢ هـ ، أضاء نور العـقل والبصيرة الشاهـنشاهية شمعـة العالم والفضل والكمال التى نورت ـ ضيائها المبارك الميمون ـ جميع العالم ، ٥ فريق السعداء وطلاب الحق ورواد الخـير من سـبات الخـيـبة والخـسران ، وغطـى القائلون بالخنا ، وضـعـفاء العـقل والبصيرة، وجوههم فى زاوية الخمول وتحقـقت إرادة جلالة السلطان الخيرة ، وشمر بقية الحكماء الشيخ العـلامة مير فتح الله الشـيرازى عن ساق الجد لإنجاز هذه المهـمة ، فوضع العلامة الشيـرازى أمامه الزيجة الكوركانية ، وقرر بالنظر فـيها ، أن يكون العام الذى تربع فيه جلالة السلطان على عرش المملكة ، بداية التقويم الإلهى » [٢] .

ولا بأس ـ بعد الإلمام بهذه الحقائق الأسـاسية التى يتكون منها هيكل الفكر الدينى عند أكبر ـ أن نكمل صورة الهـيكل وشكله الحقيقى بذكر بعض التفاصـيل والأمور الجزئية التى أوردها ملا عبد القادر البديوانى فى كتابه ، حتى تتجلى الخطة الكاملة ، والتصور الصحيح لتلك الكراهية ، والعناد والبغض للإسلام ولصاحب الشريعة الغراء ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذى كان نتيجة الإنحراف عن دين الإسلام .

الازدراء بالدين الإسلامى وإهانته :

«لقد وصم تراث الملة الإسلامية كله بالحدوث، واعتبره مجموعة من السفاهات ، وأن واضعيه ومؤسسيه أعراب فقراء من جزيرة العرب كانوا مفسدين فى الأرض، وقطاع طرق ، واستدل على ذلك ببيتين من « شاهنامه فردوسى» الذى قالهما على طريق النقل والرواية :

« من شر ألبان الإبل ، وأكل الضأن ، بلغ العرب إلى أن بدأوا يحلمون ببلاد العجم، سحقًا لدوائر الزمان سحقًا » [٣] .

---

(١) أيضًا ج ٣ ، ص ٢٤٣ .

(٢) أيضًا ج١ ، ص ٥٦٤ .

(٣) منتخب التواريخ ، ص ٣٠٧ .

السخرية من الإسراء والمعراج :

« قال السلطان مرة : كيف يتصور أن يقبل أن شخصًا يحمل جسمًا ضخمًا يبلغ ـ غتة ـ عنان السماء ، ويتحدث مع الله تسعين ألف حديث ، ذى شجون ، ويبقى فراشة دافئًا ، ثم يقبل الناس هذه الدعوى ، كما أنهم يؤمنون بشق القمر ، وأمثاله من الأمور المستعبدة» .

ثم وجّه سؤالاً إلى الحاضرين ـ وقد رفع رجله ـ قائلاً :« لا يمكن أن أقوم إلاّ بأن تكون الرجل الثانية مستندة على الأرض ، فأيش هذه الخرافات » (١) ؟ .

إهانة مكانة النبوة :

واعترض على النبوة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ مرة وعاب عليها :

« بالإغارة على عير لقريش فى أوائل أيام الهجرة . والزواج من أربع عشرة امرأة وتحريم العسل ابتغاء مرضاة الزوجات » (٢) .

النفور من أسماء النبى ـ ﷺ ـ والكراهية لها :

« كانت الأسماء مثل أحمد ، ومحمد ، ومصطفى وغيرها ثقيلة على سمع السلطان ، مراعاة للكفار خارج البيت ، والنساء داخل البيت ، وأخيراً ـ بعد أيام قليلة ـ غير أسماء خاصة أصحابه ، فكان ينادى « يار محمد » و «محمد خان » باسم « رحمت » ، ويكتب هذا الاسم نفسه عند الكتابة » (٣) .

المنع من الصلاة :

« لم يكن يستطيع أى واحد من الناس أن يؤدى الصلاة جهاراً فى القصر » (٤) .

ويقول البدايونى فى مكان آخر : « إنه قد أسقط فرائض الصلاة والصوم والحج من

---

(١) أيضًا ج ، ص ٣٠٧ .

(٢) منتخب التواريخ ، ج ٢ص ٣٠٨ .

(٣) أيضًا ص ٣١٤ ، ولأجل ذلك حذف أبو الفضل فى الجزء الأول من كتابه « آئين أكرى » لفظه «محمد » و « أحمد » من أسماء عدد من الأمراء فيسمى « محمد منعم » ، ـ « منعم خان » ، و«مرزا محمد عزيز » ـ « مرزا عزيز » ، و «شهاب الدين أحمد خان » ـ « شهاب خان » وهناك أمثلة عديدة لتغييره الأسماء، وحذف لفظة « محمد » أو احمد » منها .

(٤) أيضًا ص ٣١٥ .

قبل » (١) .

الاستهزاء بأركان الإسلام وفرائضه :

ويقول العلامة البدايونى : « ألف ان من أبناء ملاً مبارك وكان تلميذ أبى الفضل عدة رسائل عن العبادات الإسلامية فى أسلوب تهكمى ساخر ، وإيراد اعتراضات عليها ، وقد نالت هذه الرسائل إعجاب جلالة السلطان وقبوله ، وأصبحت واسطة له لدى السلطان فى ولاية أمره ، والحدب عليه » (٢) .

مفترق صعب خطير فى تاريخ الهند الإسلامى :

وبالجملة فقد وقفت الهند ـ التى ذلت فيها الجهود المتواصلة ، وكرست الطاقات البشرية الفاضلة ، والكفاءات العقلية والمواهب الفكرية ، وربانية الصالحين والصفوة الطيبين ـ على طريق ردة دينية عقلية ، وحضارية شاملة ، كانت تساندها أكبر دولة على وجه الأرض فى ذلك العصر ـ بعد الدولة العثمانية ـ والقوة العسكرية الهائلة ، وكان عدد من أذكياء ذلك العصر ونوابغه يمدون هذه الدولة بالأسلحة العلمية والعقلية ،فلو كان سير الأحداث والظروف مستمراً على هذا المنوال ، ولم تقف فى وجهها شخصية جبارة تحول اتجاه السير ، أو لم يحدث حادث يغير الأوضاع ، ويحول البلاد لكان مصير هذه الدولة والبلد الإسلامى العظيم فى القرن الحادى عشر الهجرى ، كمصير الأندلس الإسلامية ـ الذى لا يعرفه العالم المعاصر إلا باسم « أسبانيا » ـ فى القرن التاسع الهجرى » ، أو كمصير « تركستان » فى القرن الرابع عشر الهجرى « بعد الثورة الشيوعية » ، ولكن أدرك الله البلاد والعباد ، وقيض للإسلام رجلاً يحفظه من الكفر والشرك والضلال . ونختم هذا الباب بالكلمة البليغة التى سطرها قلم مؤرخ الإسلام ومؤلف موسوعة « السيرة النبوية » العلامة السيد سليمان الندوى ، وهو يتحدث عن قصة الإسلام وغربته فى ديار الهند » يقول :

« لقد مضى على هذا السبات العميق أربعة قرون ، وكاد أن يمضى على بداية رحلة الإسلام الغريب فى هذه الديار ألف سنة ، كان ذلك عهد الملك أكبر ، إذ نهض ساحر من العجم ونفث فى أذن الملك ، أن عمر هذا الدين الممتد على ألف سنة قد انقرض ، ومست الحاجة إلى أن يظهر دين إلهى جديد على يد ملك أمى ينسخ دين أمى ، فأوقد المجوس

---

(١) أيضًا ص ٣٠٦ .

(٢) أيضًا ص ٢٧٠ .

النيران فى معابدهم ، ودقت النصارى نواقيسهم فى كنائسهم ، وزينت البراهمة أصنامهم ، تمالأ التصوف واليوك وألحّا على أن يشعلا شمعة واحدة فى المعبد الهندكى والكعبة ، وإذا أراد إنسان أن يتصور مدى ما تركت هذه الحركة الخماسية من آثار فليراجع « دستان مذاهب[1] » ليرى كم من أصحاب الزنّار يحركون المسابح ، وكم من أصحاب السبح ، يعلقون فى أعناقهم « الزنانير»، كم من الأمراء يمرغون وجوههم على عتبة السلطان ، وكم من أصحاب العمائم يقفون فى البلاط ، ويسمع من منابر المساجد نداء :

« تعالى شأنه ـ الله أكبر »

كانوا فى كل هذا ، وإذا صوت يعلو من جهة « سرهند » :

« أن خلّوا الطريق ، فقد جاء صاحب الطريق ، ظهر مجدد فاروقى[2] ، فى الأبهة الفاروقية ، كان ذلك أحمد السرهندى » [3] .

(١) كتاب فى وصف الديانات المختلفة والفرق الاسلامية فى الهند ،فى الفارسية .

(٢) نسبة الى عمر الفاروق رضى الله عنه ، فإن أحمد الامام السرهندى من أعقابه .

(٣) تقديم كتاب « سيرة السيد الامام احمد بن عرفان الشهيد » (للمؤلف) بقلم العلامة السيد سليمان الندوى ، ص ٣٠ ـ ١

الباب الثالث

مجدد الألف الثانى الإمام السرهندى

موجز حياته : من الولادة إلى الإجازة والخلافة

الأسرة :

ينتمى الإمام السرهندى إلى سيدنا عمر[١] بن الخطاب - رضى الله عنه - فتنتهى سلسلة نسبه[٢] بإحدى وعشرين واسطة إلى سيدنا أمير المؤمنين عمر الفاروق - رضى الله عنه - ، ونسبه كما يلى.

االشيخ أحمد (الإمام السرهندى) بن عبد الأحد بن زين العابدين بن عبد الحى بن محمد حبيب الله بن الإمام بن نصير الدين بن سليمان بن يوسف بن اسحاق بن عبد الله بن شعيب بن أحمد بن يوسف بن شهاب الدين على فرخ شاه بن نور الدين بن نصر لدين بن محمود بن سليمان بن مسعود بن عبد الله الواعظ الأصغر بن عبد الله الواعظ الأكبر بن أبى الفتح بن إسحاق بن ابراهيم بن ناصر بن عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - .

والشيخ شهاب الدين على فرخ شاه الكابلى جده الخامس عشر ، مؤسس هذه الأسرة الشهيرة ، وأن أكثر الفضلاء النوابغ ، والمصلحين المعروفين وكبار المشايخ وأصحاب السلاسل والطرق الصوفية الذين يتصل نسبهم بسيدنا عمر الفاروق - رضى الله عنه -

---

(١) كان الإمام السرهندى يعتز بهذه الصلة النسبية بسيدنا عمر الفاروق ، وكان يرى حميته البدنية من مقتضيات هذه النسبة وآثارها الطبيعية ، ولم يتمالك عندما اطلع على رأى الشيخ عبد الكبير اليمنى يخالف به العقائد الإسلامية ، وجمهور أهل السنة والجماعة أن قال فى حماس : « أيها الشيخ المكرم ! لا صبر لى على سماع مثل هذه الأقوال ، فإنه ينبض فى العرق والفاروقى » (الرسالة رقم : ١٠٠ ، من مجموعة الرسائل الموجهة الى ملا حسن كشميرى)، ويقول فى رسالة أخرى كتبها عند علمه بأن الخطيب فى قرية « سامانة » لم يذكر الخلفاء الراشدين فى خطبة الجمعة عمدا : « وقد أثار سماع هذا الخبر البغيض ثائرتى ، وحرك العرق الفاروقى فى فكتب لذلك هذه الكلمات» (الرسالة رقم : ١٥ ، الجزء السادس من المجموعة الثانية) .

(٢) وقد اعتمدنا فى بيان سلسلة نسبه على بحث علمى رصين كتبه أحد أبناء الأسرة العظيمة المحقق الفاضل الشيخ أبو الحسن زيد الفاروقى.

كالشيخ العارف فريد الدين كنج شكر وغيره ، ينحدرون من هذه السلسلة ، وليست بين أيدينا تراجم مفصلة لعلماء أفغانستان ومشايخها ، لعدم وجود كتب الطبقات التى تتناول تراجمهم ، وكل ما نعثر عليه من سيرهم وأخبارهم نرجع فيها الى تلك المصادر التى ألفت فى ترجمة الإمام السرهندى ، وأخبار أسرته [1] ، وكان الشيخ الدين على فرخ شاه (ابن الشيخ نور الدين ، وحفيد الشيخ نصير الدين) والى كابل ، ولذلك تنسب أسرته إلى «كابل» ، وكان متحليا ً بالخصال الحميدة ، له شغف زائد بنشر الدعوة الإسلامية ، وتنكيس راية الكفر والشرك ، يمتاز فى ذلك على كثير من أقرانه .

تولى الملك بعد وفاة والده ، وبذل جهودا ً موفقة مشكورة فى رفع الخصومة ، والقضاء على الصراع بين الأفغان والمغول ، وكان له وافر من الربانية ، وصفاء الباطن وإشراقه ، مع الوجاهة والشرف ، وعظيم المنزلة ، انتفع به خلق كثير وتربوا على يديه ، وسلَّم زمام الدولة - قبيل وفاته - إلى ابنه العظيم الشيخ يوسف ، واختار لنفسه حياة العزلة ، والانزواء فى ممر يسمى « ممر فرخ شاه » - نسبة إليه - تقع على ستين ميلاً من كابل فى جانب الشمال ، ودفن هناك .

ولما فرغ الشيخ يوسف من تحصيل العلوم الدينية ، اشتغل بالتربية الباطنية والتزكية القلبية عند والده الشيخ سلطان فرخ شاه ، وخلفه فى الحكومة بعد اعتزاله عنها ، كان معروفا بالعدل والإصلاح والآستقامة والديانة ، محبباً إلى الناس ، حصل له القبول بين الناس وخاصتهم ، كانت تشتعل فى قلبه تلك الجمرة من الحب الإلهى، الذى كان يدفع سلفه الميامين فى عصور مختلفة إلى أن يتمسكوا بقول الشاعر (وقد تمثل به الإمام السرهندى فى رسائله مراراً) .

هنيئا لأرباب النعيم نعيمهم　　　وللعاشق المسكين ما يتجرّع

واعتزل السلطة والحكومة فى آخر عمره كأبيه ، ولجأ إلى زاويته ، وآثر الخلوة والعزلة فأخذ ابنه الشيخ أحمد بزمام البلاد ، وتولى شؤون الدولة وكان- كوالده - عالماً تقيا ورعا وعارفاً ربانياً فى كسوة ملك وسلطان ، وقد غلبته الجذبة الإلهية والشوق إلى الله ، حتى فارق السلطة ، ونفض يده منها ، وأوصى أبناءه بالبعد عنها ، وقطع الرجاء منها ، واحتفظ عنده بمال قليل يكفيه وعياله ، ووزع الباقى من الثروة الكبيرة على الفقراء والمساكين، وكان قد تلقى التربية الروحية - بعد والده- على شيخ الشيوخ شهاب الدين السهر وردى -قدس

---

(١)كـ « زبد المقامات » و « حضرات القدس » وغيرهما من الكتب .

سره – ونال منه الإجازة والخلافة .

وكان غيرهما من أفراد الأسرة الكبار أيضاً من الصالحين الربانيين الذين آثروا الفقر والخمول ، وإشتغلوا بالتربية والإرشاد ، وكانوا يستفيدون من مشايخ عصرهم ، وصالحى زمنهم فى التربية والسلوك ، ويأخذون عنهم الطريق ، بغض النظر عن اختلافهم فى السلاسل والطرق .

وكان الإمام رفيع الدين الذى يكون الجد السادس للإمام السرهندى والعقب التاسع للشيخ شهاب الدين فرخ شاه – كما يقول صاحب « زبدة المقامات » جامعاً بين علمى الظاهر والباطن ، أخذ الطريقة عن الشيخ الكبير السيد جلال الدين البخارى (١) (ت ٧٨٥هـ) وتلقى لديه التربية الروحية والسلوك ويدل ذلك على أنه كان من مشايخ أواخر القرن الثامن ، أو أوائل القرن التاسع وهو أول شخص من أفراد هذه الأسرة غادر « كابل» إلى الهند ، وتدير فى « سرهند » اتى كانت تسمى قديماً « سهرند » ، وقد كن هذا المكان فقراً موحشا ، ومأوى للسباع والوحوش ، ولم يكن بينه وبين قرية « سامان » التى كانت تحمل إليها الخزائن الملكية ، أى مدينة أو قرية ، فعين الملك الصالح فيروز شاه خواجة فتح الله ، الأخ الأكبر للإمام رفيع الدين ، ومن المقربين لدى السلطان على الإسكان والعمران فى هذه الناحية المهجورة ، فتوجه خواجة فتح الله يألفى راكب إلى هذه الناحية ، وبنى قلعة ، وأمر الشيخ مخدوم جهانيان الإمام رفيع الدين – الذى كان خليفته ، وإمامه فى الصلاة ، وكان مقيماً فى قرية « سُنَّام » – أن يضع حجر الأساس لهذه القلعة ، ويسكن فى هذه المدينة الجديدة ،ولم تزل هذه الأسرة ـ من ذلك العهد ـ ساكنة فى هذه المدينة ، ويقال إن تأسيس القلعة وبداية العمران فى سرهند كانا عام ٧٦٠ هـ (٢) .

وهكذا كانت مدينة « سرهند » آهلة عامرة منذ قرنين من الزمان قبل ولادة الإمام السرهندى ، وتفيد كتب السير والتراجم أنه استوطنت هناك أسر كريمة ، عامرة بالعلماء

---

(١) اقرأ ترجمته الحافلة فى الجزء الثانى من « نزهة الخواطر » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى .

(٢) قد ذكرها الرحالة الصينى الشهير هيون سانك (IHIUN SONG) . الذى زار الهند فى القرن السابع الميلادى : وقال : « أنه يستخرج الذهب من نواحى هذه المدينة ، وكان هذه المدينة فى فترة من فترات التاريخ حدًا فاصلاً بين الهنادك والغزنويين ، وكانت أرض الهند وراء هذا الحد، فسميت لأجل ذلك بـ « سرهند» ـ أى رأس الهند ـ ، وقد فتح السلطان محمود الغزنوى مدينة سرهند عام ٥٨٧ هـ الموافق ١١٥١ م ، ولم يهتم سلاطين دهلى ـ إلى زمن فيروز شاه تغلق بسرهند أى اهتمام ، ولما بدأ عهد السلطان فيزوز شاه تغلق بدأت العناية بهذه المدينة .

والمشايخ ، وأن هـذه الأرض أنجبت عددًا من نوابغ الرجـال وكبـار العلماء ، ويبـدوا أنها بلغت ذروة التقدم ، وتوطدت صلتهـا بالثقافة الإسلامية فى بداية القـرن العاشر ، ولا نجد فى كتب التاريخ والتراجم فى القرنين الثامن والتـاسع إلا أسماء معدودة ، لأفراد من أسرة الإمام السـرهندى نبغوا فى العلم وتنّبلوا ، ولكـننا نرى من بداية القرن العاشـر يقظة دينية وعلمية وحركة قوية نشيطة للإفـادة والتدريس والإفادة ، والتربية والإرشاد ، ومن ثم كان كبار الأمراء فى الدولة يولون مدينتى سرهند وفيروز بور ، وزادت أهميتهما الاستراتيجية ، وزار الملك بابر مـدينة سرهند مرارًا وتكـرارًا ، ودخل الملك همايون كذلـك فى سرهند ، ومن هناك توجه إلى دهلى ، واستعاد العرش والتـاج للمرة الثانية ، وقد بلغت هذه المدينة فى الرخاء والبـهاء أوجها فى الـعهد المغولى حـتى كان فيـها ٣٦٠ مسجـدًا ورباطًا ، وبئرًا ومقبرة (١) .

العارف الشيخ عبد الأحد السرهندى :

تناول الشيخ مـحمـد هاشم الكشمى فى « زبدة المقامـات » ترجمـة الشيخ عبـد الأحد (المعروف بالمخـدوم لجلالة شأنه) بشىء من الاسـتيعاب والتـفصيل، وأن الشـيخ الكشمى مكث فى صحـبة الإمام السرهندى ثلاث سنوات مـتواصلة ، مرجعـه فى حكاية الأحداث والوقائع فى غالب الأحيان ـ أقوال الإمام وأحاديثه ، التى سمعها منه حينًا بعد حين ، وإذا كانت فـيه زيادة فهى معـتمدة على المعلومات التى أخـذها من أبنائه العظام ، فتصـريحاته ـ نظرًا إلى ذلك ـ يوثق بها كل الثقة ، وأذكر فيما يلى خلاصة ما جاء فى كتابه :

« استولى على الشـيخ عبد الأحد من ريعان شبابه وفى أثناء دراسـته الشوق الدافع إلى تحصيل « علم اليقين » والوصـول إلى رب العالمين ، حتى لم يصبر ليتم دراسـته ، وسافر إلى الشـيخ الكبيـر عبد القـدوس الكنكوهى ـ الذى انتـهت إليه رئاسـة الطريقة الجـشتـية الصابرية ، وطبق صيته الآفاق ـ فأخذ عنه الأذكار والأوراد ، وتلقى علم التربية والسلوك، ثم لما أبدى للشيخ عـزيمته على أن يلقى رحله هنا إلى أن يلقى الله ـ عز وجل نهـاه الشيخ الخبير البصير ، عن هذا القصـد ، وأرشده ـ بتأكيد بالغ ـ إلى تمام دارسته للعلوم الدينية ، والشـريعة الإسـلاميـة ، وقال له : إن الطريقـة التى لا يرافقـها العلم ، ليـس فيهـا نور ورواء»، فقال الشيخ عبد الأحد نظرًا إلى كبر سن الشيخ وضعفه : أخاف أننى إذا قصدت تحقـيق هذا الغرض بعد كـمال دراستى للعلوم الدينيـة أن لا ألقـك ، فقـال الشيخ : إن لم

---

(١) ملخص من دئرة المعارف الإسلامية ، مقال بعنوان « سرهند شريف » .

تجذبني ، فستنال هذا التراث عند ابني ركن الدين فخضع المخدوم لأمره ، وانصرف إلى العلم والدراسة .

وكان من قدر الله أن حدث ما تخوف منه الشيخ عبد الأحد ، فلقي الشيخ ربه ، قبل فراغ المخدوم من دراسته ، فأكمل المخدوم دراسة العلوم السائدة في عصره ، ثم بدأ يسيح ويجول في الأماكن المختلفة ، ويستفيد من شيوخها وصالحي أهلها حتى جاء إلى الشيخ ركن الدين ، وبدأ يرتقي درجات السلوك والإحسان ، إلى أن أجازه الشيخ في الطريقة القادرية الجشتية ، واستخلفه في التربية والتسليك والإرشاد (١) .

وقد كانت تسيطر على هذين الشيخين الجليلين الشيخ عبد القدوس ، والشيخ ركن الدين فكرة وحدة الوجود ، والسكر والاضطراب ، والفناء والاستغراق ، وكانا من أصحاب السماع والمواجيد ، وكان الشيخ عبد القدوس من الدعاة المتحمسين إليها ، ولكنه ـ رغم كل ذلك ـ كان راسخ القدم في اتباع السنة والعمل بالعزيمة ، يغلب عليه هضم النفس وإنكار الذات ، وكان رقيق القلب كثير التعبد ، يذكر الموت والبلى دائمًا ، ويفكر في الآخرة ، وحسن الخاتمة في كل الأحوال (٢) .

وكان للشيخ عبد الأحد ـ عدا أستاذيه في التربية والسلوك الشيخ عبد القدوس والشيخ ركن الدين ـ علاقة خاصة بالشيخ كمال الكيتهلي أحد المشايخ المعروفين في السلسة القادرية ، وكان الشيخ كمال من نوابغ الرجال وأصحاب الأحوال والمقامات السنية (٣) .

وقد مضى ـ فيما تقدم ـ قول الشيخ عبد الأحد : « تفيد البصيرة الكشفية أن الشيخ كمال لا يدانيه في السلسة القادرية العلية بعد مؤسسها الشيخ الجليل عبد القادر الجيلاني ، أحد من المشايخ الربانيين » ، وكان حفيده الشيخ سكندر كذلك من المشايخ الكبار ، وقد استفاد منه الشيخ عبد الأحد أيضًا .

ولما فرغ الشيخ عبد الأحد من دراسة العلوم الدينية ، خرج يجوب البلاد، بحثًا عن رجال الله ، والربانيين الصادقين ، وعزم على نفسه عند السفر أنه إذا رأى آثار البدعة عند شيخ من المشايخ ، فسوف ينأى بنفسه عن مصاحبته فضلاً عن مبايعته ، فدار في البلاد ،

---

١) شهادة الخلافة والاجازة التي أعطاها الشيخ للمخدوم مذكورة بنصها في « زبدة المقامات » واغلبها في العربية ، راجع ص ٩٢ ـ ٩٦ .

٢) راجع للاطلاع على فضائله ومحاسنه وأذواقه « نزهة الخواطر » ج ٤ .

٣) راجع لأخباره المفصلة « نزهة الخواطر » ، ج ٤ .

ودرس واستفاد ، وعاد من هذه الرحلة الطويلة ، إلى سرهند ، فأقام فيها إلى أن لحق بالرفيق الأعلى، ولم يغادرها إلى أى مكان ، كان يدرس فى الكتب العقلية والنقلية المتداولة فى تلك الأيام بتحقيق وتدقيق ، وكان الإمام السرهندى يقول : حصلت له الملكة الراسخة فى جميع العلوم السائدة إلا أنه لم يكن له مثيل فى علمى الفقه وأصوله ، وحينما كان يلقى درسه فى « أصول البزدوى » تتجلى للحاضرين جلالة شأن الإمام أبى حنيفة وإمامته وعبقريته ، وكان يدرس كتب التصوف أيضًا مع رسوخ قدمه وعلو كعبه فى حل مشكلات « التعرف » و «عوارف المعارف » و « فصوص الحكم » (للشيخ محيى الدين بن عربى) ودقائقها الفنية ، وكان على مسلك الشيخ محيى الدين بن عربى علمًا وذوقًا ، إلا أنه لمواهبه فى علو الشأن وضبط النفس ، وتعظيم الشريعة لا تصدر من لسانه الشطحات والشوارد ، كان يغلب عليه التواضع وهضم النفس والتجريد ، لا يطلب من أحد خدمته ـ رغم كثرة تلاميذته ومريديه ـ وكان يشترى حاجيات البيت بنفسه ويحملها إلى البيت ، يعتنى أشد الاعتناء باتباع السنة ، فلا تفوته سنة ، ولا يترك شيئًا منها ما يستطيع إلى ذلك سبيلاً ، حتى كان له اهتمام كبير بالسنن العادية كاللباس والطعام ، عاملاً بالعزائم، مجتنبًا للرخص ، وكان يبدى شغفه بالطريقة النقشبندية ، ويشتاق إليها ، ويذكرها بالخير ويثنى عليها ، فكان يقول : أدعو الله تعالى أن يشرف هذه البلاد بهذه الطريقة العالية ، أو أن يبلغنا إلى مركزها حتى نستفيد منها ، وكان يؤلف ويصنف ، ومن مؤلفاته : « كنوز الحقائق » و « أسرار التشهد »، وكان محبًا لأهل بيت رسول الله ﷺ ، كما كان معظمًا لأصحابه ، عارفًا لهم فضلهم وحقهم ، يقول إن لهذا الحب تأثيرًا فى حسن الخاتمة (١).

ولما بلغ فى رحلته إلى « سكندره » (٢) ، ومكث هناك أيامًا قليلة ، تقدمت إليه أسرة كريمة لما توسمت فيه من شرف وكرم محتد ، ورأت صلاحه وتورعه ، وجمعه بين العلم والعلم ، خطبت إليه فتاة طيبة صالحة من بناتها ، فحصل الزواج ، وكان جميع أبناء الشيخ عبد الأحد من هذه الزوجة الكريمة الصالحة ، وقد رزق الشيخ عبد الأحد سبعة أبناء، وقد كان الإمام السرهندى واسطة العقد وبيت القصيد من بين إخوته ، إلا أن بقية إخوته كانوا ـ أيضًا ـ أصحاب علم وصلاح ، واستعداد قوى ، وأخذوا العلوم المتداولة ،

---

(١) « زبدة المقامات » ص ١٢٣ .

(٢) مدينة فى الولاية الشمالية .

وتلقوا التربية الروحية على يد والدهم ، أو غيره من المشايخ المعاصرين .

وكانت وفاة الشيخ عبد الأحد فى « سرهند » فى ١٧ رجب عام ١٠٠٧ هـ ، ويمكن أن يقال إن ميزة الشيخ عبد الأحد تتجلى فى الدوران معع الحق والدليل الشرعى ، والخضوع له ، والإنصاف من نفسه ، وتعظيم الشريعة الإسلامية ، والسنة النبوية وإجلالهما ، والسعى لاتباعهما ، والعناية بتطبيقهما ، والحمية الدينية ،وعلو الهمة والطموح فى ارتقاء درجات الإحسان ، والتقدم فى مراتب الإيمان ، وقد ورث منه هذه الخصيصة ، والميزة الباهرة ابنه العظيم ـ الذى قدر له أن يعيد الدين فى البلاد الغربية غضًا طريًا ، ويحفظ تراث الأمة الإسلامية من عوادى الزمن ـ وزادتها العناية الربانية نورًا وصفاءًا ، ووهبته من المحاسن والفضائل والعبقرية الإسلامية ما حولته شمسًا وهاجة تشع بالنور وتبدّد الظلمات.

ولادته وقصة حياته

ولادته وتعلمه :

ولد الإمام السرهندى ليلة الجمعة ١٤ شوال عام ٩٧١ هـ ، الموافق ١٥٦٣ م بمدينة سرهند ، وسمى « شيخ أحمد » ، كانت تبدو عليه ـ من صغره ـ مخايل السعادة والخير ، وسيما الرشد والصلاح ، وكان المشايخ الربانيون والعلماء الصالحون لا سيما الشيخ كمال الكيتهلوى الذى كان والد الإمام وثيق الصلة به ـ يحبونه ويحدبون عليه ، ويعاملونه معاملة خاصة ويؤثرونه على أترابه وزملائه .

بدأ تعلمه بحفظ القرآن الكريم ولم يمض كثير زمن حتى حفظه كله عن ظهر الغيب ، ثم بدأ يتعلم مبادىء العلم عند والده ، وبعد مدة يسيرة برزت مواهبه وصلاحيته ، وظهرت مزيته فى سرعة إدراك المواد الدقيقة ، والتعبير عنها فى عبارة واضحة مفصحة عن الموضوع، وأخذ أكثر العلوم المتداولة عن والده ، وبعضها عن غيره من علماء عصره الكبار . ؛ ثم سافر إلى سيالكوت ـ التى كانت آنذالك ـ مركزًا علميًا ودارسيًا كبيرًا وقرأ بعض الكتب النهائية العالية المقررة فى ذلك المنهج الدراسى (كالعضدى مثلاً) على الشيخ كمال الكشميرى الذى كانت له اليد الطولى فى المنطق والفلسفة، والكلام وأصول الفقه ، وكان صيت ذكائه وقوة حفظه وكثرة قراءته ودراسته وسعة معلوماته ، وبراعته فى التدريس

منتشراً فى الآفاق(١) ، وكان من تلامذته أمثال العلامة عبد الحكيم السيالوكوتى من نوابغ العلماء ، وكبار الفضلاء وحذاق المدرسين ، وقرأ بعض كتب الحديث على الشيخ يعقوب الصرفى الكشميرى الذى كان تلميذاً لمحدث عصره الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى المكى وترك فى مؤلفاته شرحًا مستفيضًا لصحيح البخارى (٢) .

وقد كان الشيخ يعقوب يحمل الإجازة من كبار المحدثين والمؤلفين فى الحديث والتفسير بهلول البدخشانى ، الذى كان عالى الكعب فى علم التفسير والحديث ، وتلميذ عالم عصره الشيخ عبد الرحمن بن فهد ، وقرأ عليه صحيح البخارى ، ومشكاة المصابيح ، وشمائل الترمذى ، وكتبًا أخرى فى الحديث كما أسند عنه ثلاثيات البخارى ، والأحاديث المسلسلة ، وروى كتب التفسير أيضًا على طريقة المتقدمين . بالأسانيد المتصلة ، وقرأ فاتحة الفراغ وهو فى السابعة عشرة من سنه (٣) .

ولما فرغ من تحصيل العلوم العقلية والنقلية ، ومعرفة الأصول والفروع ، توجه إلى التدريس والإفادة ، وألف عدة رسائل فى اللغتين ، العربية والفارسية ، منها « الرسالة التهليلية » و« رسالة فى الرد على مذهب الإمامية » ، وزار « « آكره » (المعروفة بأكبر اباد ، عاصمة الامبراطور أكبر) عاصمة البلاد ـ آنذاك ـ وجالس بها أبا الفضل وفيضى ، ولكن لم ينسجم معهما لاختلاف الاتجاه والمشرب ، وكان بينه وبينهما ـ فى بعض الأحيان ـ أخذ ورد ، وشد وجذب ، وأبدى استياءه من بعض الكلمات الجريئة الساخرة التى تفوه بها أبو الفضل ، وهجره لأجل ذلك ، فأرسل إليه أبو الفضل ، ودعاه واعتذر إليه مما صدر منه ، وساعد الإمام ـ مرة ـ أبا الفيض فيضى الذى كان منصرفًا فى تلك إلى تأليف التفسير

---

(١) كان الشيخ كمال الدين بن موسى الكشميرى المذكور ، انتقل من كشمير عام ٩٧١ هـ الى سيالكوت ، واشتغل بالتدريس والإفادة نصف قرن من الزمن وتوفى عام ١٠٠٧ هـ بلاهور ، ودفن هناك (انظر « نزهة الخواطر » ج ٥ ، ص ٣١٦) .

(١) ولد الشيخ يعقوب بن الحسن الصرفى الكشميرى عام ٩٨٠ هـ ، وسافر إلى سمرقند لتحصيل العلم ، وأخذ الطريقة الكبروية من الشيخ حسين الخوارزمى وصحبه مدة طويلة ، ثم سافر إلى الحجاز ودرس على علمائها الحديث وحمل من هناك كتبًا غالية فى الفقه والحديث والتفسير ، توفى فى ١٢ ذى القعدة عام ١٠٠٣ هـ ، (انظر نزهة الخواطر » ج ٥ ، ص ٤٣٩) وهكذا استطاع الامام السرهندى ؛ ان يتعرف عن طريق استاذه الشيخ يعقوب على الكتب الستة وغيرها من أمهات كتب الحديث .

(٢) ذكرت أسانيد الحديث المسلسل ، والأسانيد الأخرى فى « زبدة المقامات » .

غير المعجم باسم « سواطح الإلهام » إذ وقف قلمه فى موضع من المواضع لصعوبة التوصل إلى لفظة غير عـجمة ملائمة للكلام الذى هو بصـدده ، واستعصى عليه التعبير عن المعنى الذى يريده ، فأفضى بهذه المشكلة إلى الامام السـرهندى فحل العقـدة ودله على الكلمة واعترف فيضى لأجل ذلك بغزارة علمه ، وسيلان طبعه ، وحضور بديهته .

أقام فى « آكره » مدة طويلة حتى اشتاق والده إلى لقـائه ،فسافر ـ رغم كبر السن وبعد المسافة ـ إلى آكره ، وعاد الإمام السرهندى مع الوالد إلى الوطن ولما مرّا بين دهلى وسرهند بمدينة تهانيسر استقبلهما الشيخ سلطان ـ الذى كان من رؤسـاء هذه المدينة وأعيانها ، ومن علماء عـصره ومشـايخه ، وكانت له الحظوة والزلفى لـدى السلطان ، كما كـان واليًا على منطقة تهانيسر ـ بحـفاوة بالغة ، وأكرمهما غاية الإكرام ، وأنزلهمـا عنده ضيفين مبجلين ، وأبدى رغبتـه ـ لسابق إشارة غيبـية ـ فى تزويج ابنته من الإمام السـرهندى فقبل والده هذه المصاهرة ، وخطب خطبة النكاح ، وتم الزواج ، وسارت الزوجة مع القافلة إلى سرهند .

استكمال التربية والسلوك ، ومبايعة الشيخ الكبير عبد الباقى البدخشى النقشبندى والاستفادة منه :

لسنا ـ بهذه المناسبـة ـ فى حاجة إلى بيان الأدلة الشرعية والعلمـية على ضرورة السلوك والتربية الربانية الصافية ، إذ أن قراء سلسلة « رجال الفكر والدعوة » ـ التى نحن فى الجزء الثالث منهـا ـ قد ألموا بهذا المـوضوع من خلال مطالعـتهم لحيـاة الإمام الحسن البـصرى ، والشيخ عـبد القادر الجـيلانى ، ومولانا جـلال الدين الرومى ، فإذا كانت هناك بقـية من حاجة ، وتطلع إلى مزيد من الإقناع والبرهنة فليراجعوا كتاب المؤلف « ربانية لا رهبانية » .

ولكن لابد ـ فى هذا الصدد ـ من أن نشير إلى أن ذلك الوسط والعهـد الذى قام فيهما الإمام السرهندى بدوره التجديدى ، ومهمته الإصلاحيـة العظيمة ، كان التصوف فيهما قد تغلغل فى أحشـاء المجتمـع الإسلامى ، وامتـزج بلحمه ودمـه ، حتى أصبح التـصوف له طبيعة وذوقًا ، وسمة وشعارًا ، ولم يكن الأمـر مقتصرًا على طبقة خاصة من الناس ، بل كانت العامـة لا تعبأ بعالم أومرب ، أو مصلـح ، ولا تقيم له وزنًا ، ولا تعتقد فيـه الخير والصلاح ، ولا تنتـفع بمواعظه وكتاباته ، ما لم يكن له إلمام بالتـصوف والسلوك ، ويكون قد صـحب بعض المشايخ المعروفين ، وانخـرط فى سلك بعض الطرق السائدة المقـبولة فى الناس .

ثم إنه لا تقوم ثورة حقيقية على أساس الخطابة الساحرة ، وغزارة العلم ، وسعة الثقافة إذا لم تكن وراءها النفس الزكية الخاشعة ، والقلب العامر الفائض بالإخلاص واليقين ، والتوجع لحال المسلمين ، والتألم مما أصاب الدين - وهى صفات لا تنشأ غالبًا إلاَّ مع كثرة الذكر والعبادة ، ومجالسة الصالحين ، وترسم خطى المتقين - وكان من يمنّى نفسه بقلب الأوضاع التى استحكمت ورسخت ، وإصلاح المجتمع الذى استشرى فيه الفساد ، وتضافرت عليه عوامل الهدم والإفساد ، والتأثير فى بيئة زخرت بكبار العلماء ، وحذّاق الأساتذة ، ونوابغ الأدباء والشعراء ، ثم لا يزيد على أن يشاركهم فى بضاعتهم وقد يتفوقون عليه فى بعض العلوم والفضائل ، ولا يكون عنده ما يحتاجون إليه ويقدرون بتخلفهم فيه ، من صلة قوية بالله ، ومعرفة مصايد الشيطان ، ومكايد النفس ، ووصول إلى درجة « الإحسان » وأعلى مراتب الإيمان ، واستقامة على اتباع الشريعة والسنة النبوية ، وعزوف عن الشهوات ، وزهد فى الدنيا ، واستهانة بأربابها ، وإقبال على الآخرة ، كان من هذا شأنه كمثل من يخوض فى ساحة القتال من دون تجنيد وتدريب وتمرين ، ويقاتل جيشًا مدربًا مدعمًا بالأسلحة والوسائل ، أعزل لا يحمل سلاحًا ، أو يحمل ما يحملونه ، أو كمثل الأخرس الذى يحاول البيان والتعليم والإفهام ، لقد كان من حكمة الله - عز وجل - وتدبيره أن أرشد الإمام السرهندى إلى أن يأخذ عدته قبل الخوض فى المعركة ، وأن لا يأخذ هذا العلم من أهله ، ويجاهد فى سبيله فحسب ، بل يصل فيه إلى درجة الإمامة والاجتهاد ، لصحبة المشايخ الكاملين ، وتربية الأئمة الربانيين ، وبسبب المواهب الإلهية وما أراد الله به وقيضه له من إصلاح جذرى ، وانقلاب شامل ، حتى ينهض بهذه المهمة العظيمة بكامل العدة والعتاد ، والثقة والاعتماد ، وأن تظل آثار دعوته وحركته خالدة مع القرون والأجيال ، وتمتد إلى الآفاق فى بلدان العالم البعيدة النائية .

ولما دخل « سرهند » ألقى فيها عصا الترحال ، وبقى يخدم والده إلى أن أدركه الموت ، واستفاض منه كثيرًا من الفيوض الروحانية ، ودرج فى مسالك الإحسان ، مقتفيًا آثار المنهج الجشتى والقادرى ، واستمر مع ذلك ، يدرس فى العلوم الدينية ويفيد .

وهاج الحنين فى قلبه إلى حج بيت الله الحرام ، وزيارة مسجد الرسول - ﷺ - فارق جفونه ، واستولى عليه الشوق والاضطراب ، ولكن نظرًا إلى كبر سن الوالد ودنو أجله فى الظاهر - رأى من غير اللائق أن يفارقه على هذه الحال ، فلما وافاه الأجل سنة ١٠٠٧هـ لم يبق هناك عائق يحول دون السفر ، فأعد عدة السفر لزيارة الحرمين الشريفين وحج بيت الله الحرام ١٠٠٨ هـ وغادر سرهند إلى دهلى ، فجاء إليه علماؤها وفضلاؤها

ممن كانوا يسمعون بفضله ونبوغه ، ليقابلوه ويسلموا عليه . وكان فيهم الشيخ حسن الكشميرى الذى كنت للإمام معرفة قديمة به ، فتطرق الحديث بينهما إلى ذكر الشيخ الكبير عبد الباقى ، وعلو مكانته وجلاله شأنه ، وقوة باطنه ، وكان الشيخ قد مرّ ـ قبل بضعة أيام ـ بدهلى ، وكان الإمام السرهندى سمع والده أحيانًا ـ يذكر الطريقة النقشبندية ، ويبدى شوقه إليها ، فرغبت نفسه فى مقابلة الشيخ ، ورأى أن هذه الصحبة توفر له زاد الطريق إلى الحرمين الشريفين ، وأنها نعمة ينبغى أن لا تفوت ، فرافق الشيخ حسن [(١)] الكشميرى إلى الشيخ عبد الباقى ، وكأن لسان حاله يقول : « ذلك ما كنا نبغ » .

وقبل أن نتناول هذا القران السعيد وما دار فى هذا اللقاء العجيب ، وما تلته من الأحداث والوقائع ، نود أن نتعرف بالشيخ عبد الباقى [(٢)] ، ويحسن بنا أن ننقل هنا ما كتبه مؤلف « نزهة الخواطر » ـ المجلد الخامس ـ فى ترجمته ؛ فإنه يصدق عليه وصف « ما قلّ ودلّ » وقد جاء فيه لباب كتب التراجم وعصارة ما كتب عنه :

« الشيخ عبد الباقى النقشبندى الدهلوى (المعروف بخواجه باقى بالله) هو الشيخ الهمام حجة الله بين الأنام ، قدوة الأمة ، وإمام الأئمة ، رضى الدين أبو المؤيد عبد الباقى بن عبد السلام البدخشى المشهور بباقى بالله الشيخ الأجل ، قطب الأقطاب ، النقشبندى البدخشى الكابلى ثم الدهلوى ، بركة الدنيا وسر الوجود [(٣)] ، ولسان الحضرة ، ولب العرفان ، كان من العلم والمعرفة آية من ايات الله تعالى ، ومن الولاية غاية من الغايات .

ولد فى حدود سنة إحدى أو اثنتين وسبعين وتسعمائة بكابل ، واشتغل بالعلم على مولانا محمد صادق الحلوائى ، وسار معه إلى ما وراء النهر ولازمه مدة ، ثم بدا له داعية الدخول فى طريق الصوفية فترك تحصيل العلوم الرسمية وطاف حول مجلس كثير من كبار

---

(١) لقد كان الامام السرهندى طوال عمره يذكر هذه المنة للشيخ حسن الكشميرى ، ويشكره على هذه اليد البيضاء ، اذ انه كان الواسطة للحصول على هذه الثورة الغالية ، (انظر الرسالة رقم ٢٧٩ ، المجوعة الأولى) .

(٢) وللاطلاع على تراجم كبار أصحاب الطريقة النقشبندية ، ومشايخها الأجلة لاسيما حياة مؤسسها الشيخ خواجة بهاء الدين نقشبند ، وخصائص هذه الطريقة وميزاتها البارزة ، ينبغى مراجعة مؤلفات رأس هذه الطريقة فى عصر حكيم الاسلام ولى الله الدهلوى ، لا سيما كتابه « الانتباه فى سلاسل أولياء الله » و «همعات » .

(٣) أى أنه كان الصورة الجلية ، والتفسير العملى للآية الكريمة ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون ﴾ .

مشايخ وقته فى بلاد ما وراء النهر فأول من تاب على يده الشيخ خواجه عبيد خليفة مولانا لطف الله ، خليفة المخدوم الأعظم الدهبيدى ، ولما لم تظهـر عليه آثار الاستقامة تاب ثانيًا على يد الشيخ افتخـار حسين عند قدومه بسمرقند ، وكان من مشـايخ سلسلة الشيخ أحمد اليسوى ، ثـم طرأت على عزيمته هذه الفتـرة ، وظهر فيه مـا ينافى طريق الاستقامـة فجدد التوبة ثالثًـا من غير صنع واختـيار على يد الأميـر عبد الله البلخى ، فكان فى مقـام حفظ الحدود أيامًا ، ثم هدم سد تلك التوبة أخيرًا ، ثم تشرف فى المنام بزيارة خواجه بهاء الدين نقشبند ، وظهر فيه ميل إلى طريقة أهـل الله ، فصار يتوجه إلى كل طرف يسير حتى وصل إلى ملازمة الشيخ بابا ولى الكبروى فى بلدة كشمير ، فلازمه وأخذ عنه ، وهبت عليه فى ملازمته النفحـات الربانية ، وظهرت فيه الغيبة المعهـودة عند هذه الطائفة ، ولما مات الشيخ المذكور صار يدور البلاد ومضى عليه زمن من السياحة والأخذ حتى حضرت له روح الشيخ عبـيد الله الأحرار ، فـعلمه الطريقـة النقشـبندية ، وتم أمره ، ثم ذهب إلى مـا وراء النهر فأدرك بها الشيخ محمد الامكنكى ، فـأجازه الشيخ بعد ثلاثة أيام ، ورخصه ، فرجع إلى الهند وأقام سنة ببلدة لاهور ، واغتنم صـحبته فيها كثـير من العلماء ثم ارتحل منها إلى دار سلطنة الهند دهلى ، واختار للإقامـة القلعة الفيروزية التى كانت مشتملـة على نهر كبير ، ومسجد عظيم ، فأقام هناك إلى وفاته .

وكان صـاحب الأذواق والمواجيد كـثير التـواضع والانكسار ، وكان يجـتهد فى سـتر أحواله وسـيرته عن نظر الأغيـار ، ولا يرى نفسه أهلاً لمقـام الإرشاد، فإذا جـاءه شخص يطلب الطريقة كـان يقول : ليس عندى شىء من ذلك ، ينبغى لك أن تطلبـه من غيرى ، فـإذا لقيت أحـدًا من هذه الطائفة فنبّـنى عليه، وكـان بمعزل عن الدعـوى يشتـغل بخدمـة الزوار، واستمالة قلوبهم ولا يتكلم إلاّ عن ضرورة ، إلاّ فى مـسألة مشكلة من الحقائق ، فكان يوضحها حق الإيـضاح لئلا يميل صاحبها عن النهج القـويم ، وكان يمنع أصحابه عن القيام تعظيمًا له ، ويعد نفسه كـأحد منهم ، ويحب المساواة معهم فى سائر حالاته ، وكان يقعد فوق التراب من غير حائل تواضعًا ومسكنة .

وكان ذا كيـفية عجيـبة ، وتصرفات غريبـة بحيث إذا وقع نظره على شخص كان يتـغير حاله ، وكان يحصل الذوق والشوق ، والكيفية المعهودة عند هذه الطائفة فى أول صحبته، ويجرى لطائف الطالبين بالذكـر فى أول التلقين ، وكان ذلك على سبيل التعـميم ، وكانت شفقته على الخلق . . . . غاية ، حتى إنه قام ليلة فى أيام البرد عن فراشه ، فلما عاد رأى فى لحافه هرة نائمة ، فلم يرضى بإيقاظها وتحريكه إياها ، وقـعد إلى الصبح متحملاً لذلك

البرد ، وصادفت إقامته في لاهور مجاعة فلم يأكل فى تلك المدة شيئًا ، فإذا أحضر عنده طعام فرقه وقسمه على الجائعين ، ولما خرج من لاهور متوجهًا إلى دهلى رأى عاجزًا فى الطريق فنزل عن دابته وأركبه إياها ، وصار يمشى متقنّعًا لئلا يعرفه أحد ، ولما قرب إلى المنزل أنزله وركب بنفسه لئلا يطلع عليه أحد .

وكان غاية فى رؤية قصور الأحوال واتهام النفس ، لا يميز نفسه عن العامة ، فضلاً عن أصحابه ، قيل : كان فى جواره شاب يرتكب كل شيء من الفسق ، فكان يتحمله مع اطلاعه عليه ، فسعى خواجه حسام الدين الدهلوى أحد أصحابه فى دفعه وتأديبه إلى الحكام ، فأخذوه وحبسوه ، فلما اطلع عليه غضب على صاحبه وقال : لم فعلت كذا ؟ ، قال : يا سيدى إنه فاسق لا يبالى ، يرتكب كل شيء فقال : أوه لما كنتم من أهل الصلاح والتقوى رأيتم فسقه ، وإلاّ فنحن لا نعرف الفرق بيننا وبينه ، فكيف نترك أنفسنا ونسعى به إلى الحكام ، ثم سعى فى تخليصه وإخراجه من الحبس ، فأخرجوه فتاب وصار من الصلحاء ، وكان رحمه الله ـ إذا صدرت زلة من أصحابه ـ يقول : إن هذه من زلاتنا ، ظهرت منهم بطريق الانعكاس ، وكان يختار الأحوط فى العبادات والمعاملات ، ولذلك كان يقرأ الفاتحة خلف الإمام فى الصلاة فى ابتداء حاله لكثره الأحاديث الواردة فى قراءتها وقوة دليلها .

وهذه المذكورات نبذة من شمائله ، وقطرة من بحر خصائصه ، ولذلك ترى أن الناس انتفعوا به فى مدة قليلة ، وما انتشرت هذه السلسلة المباركة فى الهند إلاّ منه ـ رضى الله عنه ـ وما كان أحد يعرفها قبله ، وكان الشيخ محمد بن فضل الله البرهانبورى يقول : إنه كان معدوم النظير فى قوة الإرشاد ، فإنه أرشد ثلاث سنين أو أربع ، وفى تلك المدة القليلة أنار الآفاق بلوامع إفادته كما فى « زبدة المقامات » للكشمى ، وذلك لأنه عاش أربعين سنة ، وبعد قدومه الهند لم يعش إلاّ أربع سنوات ، وفى تلك المدة القليلة بلغ أصحابه إلى أعلى مدارج الكمال حتى أنهم محوا آثار الطرق السالفة ، وغلبت الطريقة النقشبندية على الطرق الأخرى .

قال محمد بن فضل الله المحبى فى « خلاصة الأثر » إنه قدس الله روحه ، ونور ضريحه ، اية من آيات الله سبحانه ، ونور من أنواره ، وسر من أسراره ، صاحب علم ظاهر وباطن ، وتصرفات ، كثير الصمت والتواضع والانكسار ، ذا خلق حسن لا يتميز عن الناس بشيء ، حتى إنه كان يمنع أصحابه من أن يقوموا لتعظيمه وأن لا يعاملوه إلا كما يعامل بعضهم بعضًا .

ثم قال : وظهرت له التصرفات العظيمة ، فصار كل من يقع نظره عليه ، أو يدخل فى حلقته يصل إلى الغيبة والفناء ، ولو لم يكن له مناسبة ، وكان الناس مطروحين على بابه كالكسارى ، وبعضهم كان ينكشف له فى أول الصحبة عن عالم الملك والملكوت ، وكل هذا كا من غلبة الجذبات الإلهية » انتهى .

وممن أخذ عنه الشيخ الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندى إمام الطريقة المجددية ، والشيخ العارف تاج الدين بن سلطان العثمانى السنبهلى ، والشيخ حسام الدين بن نظام الدين البدخشى ، والشيخ الهداد الدهلوى وخلق آخرون .

ومن مصنفاته الرسائل البديعة ، المكاتيب العلية ، والأشعار الرائقة ، منها سلسلة الأحرار ، شرح فيه رباعياته فى الحقائق والمعارف بالفارسى .

توفى يوم الأربعاء رابع عشر من جمادى الآخرة سنة أربع عشرة بعد الألف بمدينة دهلى، وله أربعون سنة ، وأربعة أشهر ، وقبره بها على غربيّها عند أثر قدم الرسول ﷺ .... » [1] .

البيعة والتكميل الباطنى :

ودخل الإمام السرهندى على الشيخ عبد الباقى ، فكأنه كان منه على ميعاد ، أكرمه وبالغ فى الحفاوة به ، والعطف عليه ، وكان الشيخ أبىّ النفس غيوراً ، لا يتعجل فى المعرفة والصداقة ، ولا يستلفت نظر إنسان إليه ، إلا أنه مع الإمام السرهندى أصبح طالبًا مكان مطلوب ، وقدّر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكمل الإمام فى صحبة هذا الشيخ مسيرة التكميل الباطنى ، ويستفيد تلك النسبة الخاصة التى كانت الطريقة النقشبندية تمتاز بها فى ذلك العهد ، والتربية الروحية التى كانت الحاجة تشتد إليها فى الوسط الروحى السائد فى الهند وأن يستعد ـ عن طريق هذه التربية والسلوك ـ للقيام بالأعمال التجديدية الإصلاحية من نوع جديد ، فيعيد الطريقة إلى نصابها تابعة طيّعة للشريعة ، ويرعى الناس ويسمو بهم إلى المقامات الرفيعة ، ومراتب الإحسان العالية ، وينقلهم من الوسائل والأسباب إلى المقاصد والغايات نقلة بعيدة عظيمة ، خاطبه الشيخ وقال له على غير ما عهد من عادته وطبعه : « امكث عندنا ضيفًا ، شهراً أو أسبوعًا على الأقل » .

ولما كان الشيخ أراد السفر إلى الهند ، استخار الله ـ تعالى ـ ورأى بعد صلاة الاستخارة

---

(١) « نزهة الخواطر »، ج ٥ ، ص ١٩٦ ـ ٢٠٠ .

كأن ببغاء جميلة تنطق بالحديث الحلو اللذيذ نزلت وجلست على يده ، وهو يسقيها ريقه ، فتعمه بمنقارها السكر ، فذكر الشيخ هذه الرؤيا لمرشده وشيخه فى الطريقة الشيخ خواجه الامكنكى ، فعبرها قائلاً : إن الببغاء من طيور الهند فسوف يقوم بفضل تربيتك وإرشادك فى الهند شخص يضىء العالم ، ويكون لك أيضًا منه نصيب (١) » .

ولم يكن للإمام - بعد هذا الأمر - مندوحة فى الإباء والاعتذار ، فقد كان هو نفسه يبحث عن الخرّيت والدليل ، وماء الحياة والسلسبيل ، فقبل هذه الإشارة ، ومكث هناك ، وطالت الإقامة - بصورة تدريجية - إلى شهر وأسبوعين وغلبه الشوق إلى تحصيل الطريقة النقشبندية ، والتمتع بفوائدها وفيوضها ، وبلغت هذه الرغبة الأكيدة إلى أن طلب من الشيخ أن يبايعه ، فلبى الشيخ هذه الطلبة من غير لأى وانتظار ، وذهب به إلى خلوته حيث لقنه الذكر القلبى ، وجرى قلب الإمام - فى نفس الساعة - بالذكر ، وشعر بلذة غريبة ، وبشاشة ظاهرة تزداد كل يوم ، وتحلق به فى أجواء الروح وتعلو ، فتفطن الشيخ عند رؤية هذه الأحوال ، وسرعة السير إلى الله ، إنه هو الببغاء الصادحة المترنمة ، التى رآها فى المنام ، وأن نغمتها العلوية الرخيمة ، وفطرتها الجميلة السليمة ، ستأتى بربيع زاهر جديد فى حديقة الهند ، بل فى حديقة الإسلام ، وما وصل إليه الامام فى مدة شهرين ونصف - تقريبًا - من مدارج الرقى والكمال ، وما ظهرت فيه من اثار وكرامات وكيفيات قلبية باطنة ، لا يمكن تجليتها بالعبارات والألفاظ ولا يمكن فهمها وإفهامها ، بقوالب من التعبيرات (٢) .

ثم سافر الإمام السرهندى إلى سرهند ، وكان شيخه - فى هذه المرة الأولى - قد بشره بالحصول على النسبة النقشبندية - بصورة كاملة - وأن الأمل قوى فى التقدم السريع ، والرقى المتواصل فلما ورد دهلى مرة ثانية ، ألبسه خرقة الخلافة والإجازة ، لتعليم الطالبين وإرشاد السالكين ، وتربية المريدين ووكل إليه بعض خواص أصحابه ومريديه لتعليمهم الطريقة وتسليكهم .

وجاء الإمام السرهندى - بعد ذلك - للمرة الثانية والأخيرة إلى شيخه ، فخرج الشيخ

---

(١) « زبد المقامات » ص ١٤٠ - ١٤١ ، و « حضرات القدس » ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢) وإذا أراد القارىء الاطلاع على بعض تفاصيلها فليرجع إلى الرسالة رقم: ٢٩٦ الجزاء الرابع من المجموعة الأولى ، وهى موجهة الى الشيخ خواجه عبيد الله والشيخ خواجه عبد الله ابنى الشيخ خواجه باقى بالله ، والرسالة رقم : ٢٩٠ ، الجزء الخامس من المجموعة الأولي ، وهى موجهة الى الشيخ محمد هاشم الكشمى.

ومشى طويلا لاستقباله ، وبشره بنعم كثيرة ، وجعله رأس الحلقة للتوجه والإرشاد وقال لأصحابه : ينبغى فى حضرته أن لا تلتفتوا إلاَّ إليه ، وقال له عند الوداع : أشعر بضعف شديد ، والأمل فى الحياة قليل ، ثم طلب منه اللفتات الروحية إلى ابنيه الشيخ خواجه عبيد الله ، والشيخ خواجه عبد الله ـ وكان طفلين رضيعين ـ وإلى أمهما أيضًا من وراء الحجاب ، فتفضل بها حسب أمر الشيخ ، وظهرت علائمها وآثارها عليهم فى نفس الوقت[1]» .

شهادة الشيخ المرشد على جلالة شأن الإمام :

وكتب الشيخ عبد الباقى ـ بعد الصلة الروحية مع الإمام السرهندى ـ إلى بعض المخلصين من أصحابه :

« إن الشيخ أحمد الذى هو من سكان سرهند والعالم الربانى الوافر العلم القوى العمل ، صحب هذا الفقير مدة يسيرة فشاهد الفقير عجائب أحواله ، وعظيم صفاته ، وباهر مقاماته ، وأرجو أن يكون سراجًا يضىء وقد كان الإمام السرهندى نفسه بعد حضور مجلس الشيخ لأول مرة ، ولفتات الشيخ إليه وتلقينه إياه على يقين من أنه سوف يرتقى فى هذه الدرجات العالية ، ومع ذلك كان دأبه التواضع وهضم النفس ،ويردد ـ كذلك ـ هذا البيت الذى يقول فيه :

« إننى على يقين ـ لهذا النور الذى تسكبه على قلبى ـ بأنى لا بد واصل إلى غايتى ورغبتى [2] » .

وكان الإمام السرهندى ـ رغم هذه الفضائل العلمية والمحاسن العملية ، وبلوغ المدارج الروحية العالية ـ يتأدّب مع شيخه غاية التأدب ويحترمه أشد الاحترام ، وكلما طلبه الشيخ، يتغير لونه ، ويقشعر جلده [3] ، أما الشيخ فكانت معاملته معه تختلف عن معاملة المرشدين للمسترشدين ، والمشائخ للطالبين والمريدين ، وقال عنه يومًا : إن أحمد شمس ، تأفل فى ضوئها آلاف النجوم أمثالى [4] » .

(١) « نزهة الخواطر » ، ص ١٥٥ .
(٢) « زبدة المقامات » ، ص ١٤٥ .
(٣) أيضًا ص ١٤٩ .
(٤) أيضًا ص ٣٣٠ .

الباب الرابع

أهم الأحداث والوقائع والعكوف على التربية والإرشاد والوفاء

الإقامة بسرهند :

وعكف الإمام ـ بعد هذه الاستفادة ، والتربية الروحية ، والتكميل الباطنى ، فى سرهند ، وبقى مدة غير قصيرة لا يمارس التربية والإرشاد للطالبين والسالكين ، يشعر فى نفسه بالنقص والتقصير شعوراً قويًا ، وكان يترقى ، بسرعة مدهشة ـ مدارج الكمال ، وتطمح روحه إلى بلوغ الذروة والغاية ، فكان يصعب عليه فى غلبة هذا الحال أن يقبل إلى تربية السالكين وتعليم الطالبين ، الذى يشترط فيه النزول ، إلى مستوى المريدين ، ولم يكن هذا الشرط قد حقق بعد يقول فى رسالة له :

« لقد ظهر لى ـ فى هذه الحالة ـ تقصيرى ونقصى ، وجمعت الطالبين الوافدين ، وذكرت لهم هذا النقص الذى أشعر به ، ثم ودعتهم ولكن الطالبين والمريدين حملوا ذلك على التواضع وهضم النفس ، ولم يغيروا رأيهم فى ، حتى من الله تعالى علىَّ ـ لما يريده منى من خدمة هذا الدين ، والعناية بشأن المسلمين ـ بالأحوال المرجوة » (١) .

وآن الآوان لعمله التربوى والإصلاحى ، فبدأ يشتغل بإرشاد الطالبين ، وتسليك المريدين ، وتكميل السالكين ، وكان الإمام يكتب أحواله وأخباره، وأحوال مسترشديه ، وإخوته فى الطريقة ، وما اجتاز من العقبات ، وما صعدوا من الدرجات إلى مربيه الشيخ عبد الباقى ، وظهرت له فى هذه المدة مبشرات ، ورؤى وآثار أثلجت قلبه ، ودلت على أن الله ـ عز وجل ـ يعدُّه لأمر عظيم ، وأنه سيقوم بخدمة جليلة لهذا الدين (٢) ، ولم يحظ بعد الرحلة الثالثة ، بزيارة الشيخ ، وصحبته ومجالسته ، فقد توفى قبل أن يلقاه المرة الرابعة .

---

(١) مجموعة الرسائل الأولى ، رقم : ٢٩٠ .

(١) انظر الرسالة رقم : ٧٤ ، من المجموعة الثانية .

رحلته إلى لاهور :

وتوجه إلى لاهور ـ بعد إقامة يسيرة فى سرهند ـ بإشارة من شيخه ، وكانت مدينة لاهور ـ إذ ذاك ـ تعتبر المركز الدينى والعلمى التى تلى مدينة دهلى ، وكان فيها عدد كبير من العلماء والمشايخ ، فلما سمعوا بمجيء الإمام خرجوا يستقبلونه واحتفوا به (١) ، وبايعه الشيخ طاهر اللاهورى ـ الذى أصبح فيما بعد من أجلة خلفاء الإمام ـ والشيخ حاجى محمد ، والشيخ جمال الدين التلوى ، وانخرطوا فى سلك مريديه ، فكانت تقام هناك حلقات الذكر ، ومجالس المذاكرة ، والوعظ والإرشاد (٢) .

كان الإمام فى لاهور إذ سمع بنبأ وفاة الشيخ ، فتأثر بذلك تأثراً شديداً، ويمم شطر دهلى فى حالة اضطرارية وفى توجع واضطراب وكانت « سرهند» تقع فى الطريق ، ولكن لم يعرج عليها ولم يدخل البيت ، ووصل إلى دهلى وزار ضريح الشيخ ، وذهب إلى أبناء الشيخ وزملائه فى الطريقة فعزاهم ، ودعا لهم بالصبر الجميل ، وعزم على الإقامة ـ لأيام ـ نزولاً على رغبتهم وتسلية لخواطرهم ، فعادت الحياة والنشاط إلى تلك المجالس التربوية التى اقفرت وأوحشت من بعد وفاة الشيخ ، وانشرحت الصدور الكئيبة ، وانتعشت القلوب الجريحة (٣) .

ورجع إلى سرهند بعد أن مكث فى دهلى أيامًا قليلة ، ثم لم يتفق له السفر إلى دهلى، إلاَّ مرة ، وإلى آكره ، مرّ فى اخر عمره بعدد من المدن والقرى حينما ارفق العسكر الملكى لثلاث سنين ـ كما سيأتى ذكره قريبًا ـ فتلقاه أهلها بالحب والتكريم ، واستفاد من صحبته الطالبون والسالكون(٤) .

التنظيمات الواسعة للدعوة والتبليغ ، والتربية والإرشاد وتهافت الطالبين عليه من كل مكان

بعث الإمام السرهندى عام ١٠٢٦ هـ عدداً كبيراً من خلفائه إلى مختلف أرجاء البلاد للتربية والدعوة والإرشاد ، فبعث سبعين شخصًا تحت قيادة الشيخ محمد قاسم وإمارته إلى

---

(١) « زبدة المقامات » ، ص ١٥٧ .

(٢) أيضًا ص ١٥٨ .

(٣) أيضًا ص ١٥٨ .

(٤) زبدة المقامات ، ص ١٥٩ .

تركستان ، وأربعين شخصًا فى إمارة الشيخ فرخ حسين إلى بلاد الحجاز ، واليمن ، والروم، والشام ، وعشرة أشخاص من كبار المسؤلين وأرقى السالكين تحت قيادة الشيخ محمد صادق الكابلى إلى كاشغر ، وثلاثين خليفة من خلفائه برئاسة الشيخ أحمد البركى إلى توران ، وبدخشان ، وخراسان ، ولقى هؤلاء الخلفاء فى المناطق التى وكلت إليهم نجاحًا كبيرًا ، واهتدى على أيديهم خلق كثير ، وعمت الناس الرفادة والتذكير (١) .

وضرب كثير من كبار العلماء والمشايخ المحترمين المبجلين فى مناطقهم وأوطانهم ، أكباد الابل ، وتحملوا عورة الطريق ، وعوائق السفر فى الوصول إلى سرهند حيث بايعوا الإمام واستفادوا من تربيته ، وصحبته نخص بالذكر منهم الشيخ طاهر البدخشى ـ معتمد سلطان بدخشان ، وكتابه الخاص ، وأمين سره ـ والعالم الفاضل الشيخ عبد الحق شادمانى ، والشيخ صالح الكولابى والشيخ أحمد البرسى ، والشيخ يار محمد والشيخ يوسف من طالقان ، وقد شرف الإمام معظم هؤلاء العلماء بالخلافة والإجازة ، وأمرهم بالعودة إلى مناطقهم والاشتغال بالدعوة والإرشاد .

ونصب فى مختلف أنحاء الهند كذلك تلامذته وخلفاءه فبعث الشيخ مير محمد نعمان بعد استخلافه وإجازته إلى دكن ، وكان يحضر فى زاويته مئات من المشاة والركبان ، للذكر والمراقبة ، واستخلف الشيخ بديع الدين السهارنبورى ، ووجهه ـ أولاً ـ إلى سهارنبور ، ثم أمره بالإقامة فى المعسكر الملكى بآكره حيث تم له القبول ، وألهم الناس حبه وإجلاله ، فدخل كثير من أعضاء الدولة فى حلقة مسترشديه ومريديه ، وتاب على يديه الاف من العسكريين وكان الزحام يبلغ كل يوم إلى حد يتعسر فيه على الأمراء والأعيان زيارة الشيخ، وجدد بيعة الشيخ مير محمد نعمان الكشمى ـ الذى كان من خلفاء الشيخ عبد الباقى ـ وأجازه ، وأنفذه إلى برهان بور ، حيث أصبح مرجع الطالبين المسترشدين ، وصلحت أحوال كثير من الناس ، وعمت التوبة والإقلاع عن المعاصى ، وبعث الشيخ طاهر اللاورى لإرشاد طلاب المعرفة وإرواء ظمأى اليقين فى مدينة لاهور ـ التى كانت مركزًا سياسيًا وعلميًا بعد دهلى ـ وعم النفع والإفادة فى تلك البقعة ، وأجاز الشيخ نور محمد البتنى وبعثه إلى مدينة « بتنه » حيث بدأت بجهوده سلسلة التربية والإرشاد ، والتدريس والإفادة والإرشاد ، والدعوة ، وبعثه إلى بنكاله ، وبعث الشيخ طاهر البدخشى بعد استكماله للدورة التربوية؛ وأجازه فى التدريس وتعليم الطريقة إلى جونبور وجه الشيخ أحمد البركى

---

(١) الروضة القيومية ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .

بعد إجازته فى التعليم والتربية إلى « برك » حيث عكف على الدرى والإفادة والإرشاد والتربية ، وداوم على إعلام الشيخ ـ عن طريق المراسلة ـ بأحوال مريديه وطالبيه ، وكان الشيخ عبد الحى من سكان « حصار شادمان » (فى منطقة أصفهان) وهو الذى قام بجمع وترتيب المجموعة الثانية من الرسائل ؛ أجازه الشيخ فى التربية والتعليم ، ووجهه إلى مدينة « بتنه » فكان الشيخ عبد الحى يروى الظمآن ويصدره ربان فى وسط المدينة ، وكان الشيخ نور محمد على شاطىء نهر كنكا يفجر عيون الهداية والتربية والإفادة ، وكان الشيخ حسن البركى يتولى فى وطنه بأمر الشيخ نشر السنة وتعليم الطريقة المرضية ، واستخلف السيد محب الله المانكبورى وبعثه إلى مانكبرو ثم أذن له بالإقامة فى اباد ، وتشرف الشيخ كريم بابا حسن الأبدالى بعطف خاص ولفتات نافعة ، ثم عاد إلى الوطن وما انتهى عام ١٠٢٧ هـ حتى تجوز صيت الإمام فى جلالة الشأن ، وتأثير التربية ، وقوة التوجيه والإرشاد ، إلى خارج البلاد ، وسمع صداه فيما وراء الهند من بلاد بعيدة نائية ، وقصده الناس من أقاصى العالم فرادى وجماعات ، وزاروه وصحبوه ،واستفادوا من علمه وتربيته، وكان كثير من خلفائه فى ما وراء لنهر ، وبدخشان ، وكابل ، والبلدان العجمية الأخرى ، وبلغ صيته إلى البلدان العربية كذلك ، أما فى الهند فلم تبق بقعة من بقاعها إلاّ وفيها خلفاؤه وتلامذته ، ومسترشدوه ، يدعون إلى الله ، ويرشدون الحيارى ويربون الطالبين .

موقف السلطان جهانكير مع الإمام :

مات جلال الدين أكبر سنة ١٠١٤ هـ ، وخلفه على عرش المملكة ابنه نور الدين جاهنكير ، وقد كان ما أصيب به الإسلام والمسلمون فى عهد الملك أكبر من تضييق الخناق، وسلب الحرية الإسلامية ، ومحاولة اجتثاث جرثومة الإسلام ، وهدم أساسه فى قوة وحماس تحت مؤامرة دقيقة محبوكة فى هذه البلاد العظيمة ـ التى رويت أرضها الطيبة وازدهرت بدماء الغزاه والفاتحين المسلمين ، وعرق الدعاة والمصلحين ، ودموع الأولياء والصالحين ودعوات الضارعين المبتهلين ـ لقد كان كل ذلك كفيلاً بأن يجرح قلب الإمام المتوجع الحزين ، ويثير غيرته الإسلامية ، وحميته الدينية ، ويقض مضجعه، ولكنه لانصرافه أولاً إلى التربية والتهذيب ،والتكميل الباطنى ، ثم إدراكه ثانيًا أن الفتنة فى عنفوانها وسورتها ، وأنه لم يتوصل إلى نقطة البداية للتأثير على أصحاب السلطة وسياسة الدولة ، فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين وتوجيه الميول والنزعات إلى الإسلام ، لم ينهض بعمله التجديدى الإصلاحى بقوة ونشاط ، أو أنه بدأ هذا العمل ولكن لم ينقل إلينا

التاريخ شيئًا من تفاصيله ، وكل ما نعلم عنه فى هذه الفترة أنه وجه رسائل موعظة وتذكير، إلى كل من خان خانان ، والسيد « صدر جهان » و « مرتضى خان » وكان هؤلاء من المقربين لدى السلطان والحائزين لثقته واهتمامه ، وكانت قلوبهم عامرة بحب الإمام وتقديره وإجلاله .

ولم يكن السلطان جهانكير موغر الصدر يحمل ترة على الإسلام فحسب ، بل كان فيه - نوع من سلامة القلب ، وحسن السيرة ورسوخ العقيدة ، ولم يكن يفكر - إطلاقًا - فى تنفيذ دين جديد ، وقانون جديد ، وإنما كان منصرفًا مثل جدّه إلى الترف والبذخ ، وحياة اللهو والأفراح ، والليالى الملاح ، فلما رأى الإمام السرهندى سذاجة السلطان فى قضايا فكرية وعقائدية صمم على أن ينتهز هذه الفرصة ، ويسعى لإزالة تلك التى خلفتها فى الهند حكومة « أكبر » السابقة ، وسوف نتعرض لتفصيلها فى باب مستقل - .

ولكن صادفت - قبل أن يبدأ الإمام هذا العمل الثورى العظيم - حادثة اعتقاله فى «كواليار » التى تعتبر - لجوانبها العديدة - حادثة تاريخية مهمة لحياة الإمام وعهد الإصلاح والتجديد .

تقول بعض كتب السير والتراجم أنه عرضت على السلطان جهانكير محتويات تلك الرسائل التى كانت تتعلق بموضوعات التصوف الدقيقة ومصطلحاته الفنية ، التى لا تفهم إلاً فى ضوء غرض الكاتب ومراميه ، والتى كانت من تلك المكاشفات والواردات القلبية التى تعرض للسالك فى الطريق ، ويجب عليه إعلام الشيخ المربى بها ، وإطلاعه عليها(١) ، حتى يدلى فيها برأيه ويوضح له ما أبهم ، ويرشده إلى سواء الطريق حتى يعرف مدى

---

(١) انظر الرسالة رقم : ١١ من المجموعة الأولى الى مرشده الشيخ عبد الباقى وقد وقع بعض العلماء الراسخين - أيضًا - عدا جهانكير ، عند قراءة هذه المباحث فى الاضطراب فى أمرها ، نخص منهم بالذكر محدث عصره وناشر علم الحديث فى الهند ، جامع الشريعة والطريقة ، العلامة عبد الحق بن سيف الدين البخارى الدهلوى ، فقد بقى مدة طويلة متشككًا فى أمر الإمام ، وراسله أيضًا ، ولكنه اقتنع أخيراً وانشرح صدره فى ذلك وأشار إليه فى رسالة من رسائله ويقول ابنه نور الحق ، إنه قد ثبت لدينا ثبوتًا لا يقبل الشك أن شخصًا يدعى حسن خان الذى كان من مريدى الإمام السرهندى ، وجد عليه فى شىء وذهب من عنده وتصرف فى نسخة خطية لرسائل الإمام - كانت عنده - وحرف فيها تحريفات كثيرة ونشرها محرفة بين الناس فى كل مكان ، (« مناقب العارفين» تاليف شاه محمد الفتحپورى الجشتى ، ص ١٢٦) ويمكن أن تكون هذه الرسائل المحرفة سبب الخطأ فى الفهم ، والفتنة التى أثيرت حوله .

تقدمه واستعــداده الباطنى ، وكان السلطان جهانكير لا يعدو أن يكون مـسلمًا ساذجًا سنى العقيدة لا يعرف شيئًا من مصطلـحات « الكشف » والعبور» و « الواقعة » و « الاستقرار » وتعلو على فهمه هذه الموضوعات، فأبدى دهشته واسـتغرابه وظن أنها عقائد تخالف عقائد جمهور الأمة وجميع المسلمين من أهل السنة ، وحملها على الدعاوى الباطلة ، والإعجاب بالنفس ، يتجلى هذا الاستغراب والدهشة بوضوح حيث ذكر هذه الحادثة فى كتابه « توزك» وقد تناول فيه الإمام بأسلوب غـير لائق متهكم ساخر [(١)] ؛ يدل على أنه لا يعـرف الإمام ومنزلته فى الإسلام ، وأنه يكتب بقلم السلطان ، المغـولى التورانى ـ الذى لا يعرف سوى عامة عـقائد المسلمين ، ويرى نفسه مـسئولا عن حمايتـها والحفاظ عليهـا ـ فى غير تكلف وصناعة .

وتكلم الناس فى شأن الشيـخ بديع الدين السهارنبورى الذى حصل له النفـوذ والقبول فى عسكر السلطان ، وكثر تردده إلى عيان الدولة ، فـتحدث الناس فى ذلك وبالغوا فيه ، وتوجسـوا منه الخطر ،وذكروا للسطان أن الإمـام السرهندى يريد ـ عن طريق الـشيخ بديع الدين ـ توثيق الصـلات مع الجيش والمؤامـرة معهم ، وإعـداد خطة للثورة والخـروج على السلطان ، ولم يأخذ الشيـخ بديع الدين فى مواجهـة هذه الإشاعات بالحـزم والحذر ، بل تحدث أمام الناس فى سورة حـبة للإمام عن الكشوف ، والوقائع الغريبة ، التى لا تسـيغها عقـول الخاصة الذين هم كالعـامة فكيف تدركهـا عقول العوام الذين هم كـالأنعام ، والتى كانت ـ بطبـيعتـها ـ موضع بحث وجدال ، وقـيل وقال ، ولم يعمل فى مـخاطبتـهم بهذه الوصية الذهبـية « كلموا الناس على قدر عقـولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله [(٢)] » ووقع الإمام بهذا السبب فى المشكلة ، إذ كان السلطان جهانكير ليس من هذا العلم فى عير ولا نفير وكان الوشاه فى البلاط كثيرين ، ثم إن الإمـام كان يقاوم تأثير التشيُّع فى الأعمال والمعتقـدات الذى كاد يستولى على المجـتمع الإسلامى كله بعد دخـول العنصر الإيرانى فى الهند ، وسـيطرته على الـبلاط ، وكـان يدعـو ـ علنًا وجـهـارًا ـ إلى عـقـائد أهل السنة والجمـاعة، فلا يستـغرب أن يكون الإيرانيون أصـحاب الجاه والنفـوذ فى البلاط أرادوا أن ينتـهزوا الفرصـة لإيقاع بالإمـام ، وزادت خطورة هذه القضـية بعـد أن صبـغت بالصبـغة

---

(١) راجع « توزك جهـانكيرى » ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ، حوادث عـام ١٠٢٨ هـ الموافق لسنة ١٤ من بداية الحكم ، ويرجع بعض النقـاد ان هذه السطور بقلم كـاتبه الشيـعى الذى يسجل بعض خـواطره وانطباعاته واللفظ له .

(١) الجملة مأثورة عن سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

السياسية ، وعزم السلطان جهانكير إلى اتخاذ إجراء فى هذا الموضوع .

لقد كان الإمام - فى هذا العهد - بتربيته وإرشاده كالشمس فى رابعة النهار ، وقد طبَّق صيته الافاق ، وبلغ اشتغاله بحركة الإصلاح والتجديد ، أوجه ووضع له القبول فى القلوب ، ولعل وراء هذا الابتلاء فى ذروة المجدة وعز الشياخة والإرشاد ، كانت حكمة الله - عز وجل - تريد له السلوك فى مقامات العبدية الضارعة ، ليصل إلى تلك المعارج الروحية ، ومراتب الربانية ، التى لا يمكن ادراكها من غير هذه الابتلاءات والمحن ومجاهدة الهوى والنفس .

أساب اعتقاله فى كواليار :

هذا ما ذكر فى عامة كتب التاريخ والتراجم من سبب اعتقال الإمام ، وفرض الإقامة الجبرية عليه فى قلعة « كواليار » وأنه يرجع إلى المحتويات الدقيقة ، مضامين المكاشفات والمشاهدات ، والطريقة والسلوك العميقة التى تدل على عظمته وجلالة شأنه ، وتفوقه على كثير من ربانى هذه الأمة ، ومشايخها المصلحين واشتملت عليها رسالته الموجهة إلى شيخه خواجه عبد الباقى .

ولكن المؤلف يشك فى أن هذه المحنة وقعت بسبب سوء فهم لبعض المعانى، وخطأ فى توجيه بعض العبارات ، وأن السبب العامل وراءها يرجع إلى حمية السلطان جهانكير الدينية، وغيرته على الإسلام ،وذبه عن عقائد أهل السنة وصيانتها من التحريف ، أو أنه اتخذ هذا الإجراء تحت ضغط بعض كبار العلماء والمشايخ - فى عهدة - ذوى الوجاهة والنفوذ فى بلاطه ، ولشدة إلحاحهم عليه .

ولكن جهانكير لم يكن فى يوم من الأيام صاحب النفسية الدينية ولم يكن له من ذكاء الحس ، ودقة الشعور - فى هذه المسألة التى تعلو على مداركه ، ولا تتعلق بأمور دولته وسلطته وسياسته فى البلاد ، ما يثيره على شخصية دينية محترمة ظلت مرجع الناس ومركز حبهم ، وإعجابهم ، وإجلالهم ويتخذ لتأديبه هذا الإجراء الخطير .

فقد كان الشيخ محمد غوث الكواليارى - فى عهد جده ووالده - ادعى أنه عرج به إلى السماء كمعراج الرسول - ﷺ - وأحدث هذا الادعاء اضطرابًا واستنكارًا فى العلماء ، وصدرت الفتاوى ببدعته وتكفيره ، ولكن لم يحرك ذلك من الملك همايون ، والملك أكبر ساكنًا ، ولم يتخذا أيما إجراء ، وقد ادعى فى نفس عهد السلطان جهانكير - عدد من المشائخ وصولهم إلى آخر حدود « وحدة الوجود » من « العينية » و « المساواة » وأعلنوا

هذه الدعاوى على مشاهد الناس ، وألف الشيخ محب الله الإله آبادى (م ١٠٥٨ هـ) فى عهد هذا السلطان نفسه كتابه « التسوية » بالعربية ، شرحها بالفارسية ، ولكنّ لم يعرها السلطان أى اهتمام ولم يقف منها موقف المتهم المعاقب ، ثم لا ينبغى أن يغيب عن البال أن الرسالة رقم: ١١ ، التى تدور حولها القصة ، وتتنازع فيها الآراء ، كتبها الإمام إلى شيخه عام ١٠١٢ هـ وأن حادث الاعتقال وقع بعد ستة عشر عامًا من كتابه الرسالة سنة ١٠٢٨ هـ .

ويرى المؤلف أن السبب الحقيقى للاعتقال هو ما كان بين الإمام وبين أركان الدولة ، وأمراء البلاط من علاقات خاصة وصلات وثيقة ، وما كان من حبهم وإجلالهم له ، والأمر الذى يوغر الصدور ، ويكفى لاستثارة مثل هذا السلطان المرهف الحسن الذى خرج على والده ، وأقام ضده ثورة قوية ، ونازل أبناءه ، واعتقل بعضهم حتى تمكن من عرش الدولة ، وتولى زمام البلاد ، ويمكن إضافة إلى ما تقدم أن يكون السلطان قد اطلع على تلك الرسائل المثيرة المؤثرة التى كان يكتبها الإمام إلى أركان الدولة ، وأعضاء البلاط ، لاصلاح الحال ، وتوجيه الحكومة إلى حماية بيضة الإسلام ، وإيقاظ الحمية الدنينية فى قلوبهم .

ومن الأمراء وأركان الدولة الذين وجه إليهم الإمام رسائله : خان أعظم مرزًا عزيز الدين ، وخان هان خان اللودهى ، وخان خانان مرزا عبد الرحيم قائد قواد الجيش ، ومرزا دارب ، وقليج خان وغيرهم (١) .

وما زال السلاطين المغول يتوجسون خيفة من مغالاة الناس فى اعتقادهم وحبهم وإجلالهم للمشايخ ، والتفافهم حولهم ، وتهافتهم عليهم تهافت الفراش على النور ، حدث ذلك مع الشيخ الكبير السيد آدم البنورى من كبار خلفاء الإمام السرهندى ، لما سافر إلى لاهور ١٠٥٢ هـ ، كان يرافقه فى هذا السفر عشرة الاف رجل من الأشراف والمشايخ والمسترشدين المحبين من مختلف الفئات والطبقات ، وكان الملك شاهجهان ـ آنذاك ـ فى لاهور ، فأحس بالخطر منه ، وعمل فى الخفاء من الأسباب والحيل التى أدت به إلى مغادرة الهند ، والهجرة إلى الحرمين الشريفين ، ولعل جهانكير ـ لأجل ذلك ـ بعد رفع الإقامة

---

(١) يؤيد ذلك ما يقوله جهانكير نفسه فى كتابه « توزك » أن خلفاء الشيخ (الإمام السرهندى) يوجدون فى كل مدينة وقرية (انظر ص ٢٧٢) ، وكذلك كان من المصالح المتوخاة من اعتقال الشيخ « وان تهدأ ثائرة الناس » (انظر ص ٢٧٣).

الجبرية فى قلعة كواليار ، أمره بمرافقته فى عسكره لثلاث سنين ، فى الظعن والإقامة ، حتى يتعرف على طبيعة العلاقات القائمة بينه وبين أمراء البلاط وأركان المملكة ، ويطمئن إلى أنه لاخطر منه على السلطة والدولة ، وأنه لا يستغله أى عنصر معارض للدولة ، أو مغامر طامع للاستيلاء ، فلما اطمأن خاطره بما رأى من سيرة الإمام وسلوكه، وشاهد إخلاصه ، وربانيته وإيثاره ، وبعده عن الطمع ، وسموه فى مكانته ، ورأى بأم عينيه أن الإمام لا يقيم لزينة الدنيا وزهرتها وجاهها وسلطانها أى وزن ، ولا يلتفت إليها أيما التفاتة ، أذن له بالإقامة فى سرهند كما يشاء .

الإقامة الجبرية فى قلعة كواليار :

وعلى كل فقد طلب السلطان الإمام السرهندى إلى مقرّه وأكد على حاكم سرهند أن يوجهه إليه كيفما استطاع ، فتوجه الإمام مع خمسة من أصحابه ومريديه ـ كانوا إذا ذاك عنده ـ ولما قرع سمع السلطان مجيء الإمام ، بعث الأمراء والأعيان ليستقبلوه فى الطريق ، ونصب له خيمة بجوار قصره ، وطلبه فى البلاط للمقابلة ، ولما دخل عليه فى البلاط لم يأت من الآداب والتقاليد التى كان يلتزم بها الوافدون على السلطان ، فلفت بعض أبناء الدنيا ممن لا يخاف الله ، نظر السلطان إلى أن الإمام لم يراع أدب الدخول عليه ولم يأت بالتحية المعتادة للملوك [1] ، فسأله السلطان عن السبب ، فقال إننى لم أزل متقيداً بالآداب والأحكام التى دعا إليها الله ورسوله ـ ﷺ ـ ولا أعرف غير هذه الاداب ، فغضب السلطان ، وقال اسجد لى[2] ، فقال الإمام : ما سجدت لغير الله قط ، ولن أسجد لغيره أبداً فتغيظ السلطان وزاد غضبه ، وأمر بفرض الإقامة الجبرية عليه فى قلعة كواليار[3] .

وكان شاهجهان ـ الذى كان يُكنّ للإمام الحب والاحترام ـ بعث ـ قبل هذه الحادثة ـ العلامة أفضل خان ، والمفتى خواجه عبد الرحمن بالكتب الفقهية ، وبهذه الرسالة إلى

---

(١) كانت هذه التحية تقليداً سائداً فى البلاط منذ عهد الملك أكبر ، وكانت تعد من التأدب بالآداب الملوكية ، وكانت على ثلاثة أصناف ، وأولها الكونش ، وهو أن يضع يمينه على جبينه ويطاطىء رأسه إلى الصدر ، وثانيها التسليم ، وهو أن يضع ظاهر الكف من يمناه على الأرض ويقوم ويضع باطنه على الرأس ، وثالثها السجدة ، كما يسجد فى الصلاة (الهند فى العهد الاسلامى للعلامة السيد عبد الحى الحسنى ، ص ٣٧٢) .

(٢) « حضرات القدس » ص ١١٧ .

(٣) أيضًا ص ١١٦ .

الإمام ، أن الانحناء للسلاطين مرخص فيه فى بعض الكتب الفقهية ، فلو فعلت ذلك أضمن لك بأنه لا يصيبك أى ضرر ، فقال الإمام : إنه محض رخصة والعزيمة أن لا ينحنى المسلم لغير الله ، تعظيمًا وتقديسًا (١) .

وقعت هذه الحادثة الأليمة فى شهر ربيع الآخر عام ١٠٢٨ هـ ، لأن جهانكير ذكرها فى حوادث هذا الشهر المذكور ، وقد صودرت ـ بعد اعتقاله ـ كتبه وبستانه ، وبئره ، ورباطه، وبيته الواسع الفسيح ، ونقل أهله إلى مكان آخر .

إحياء سنة سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ فى سجن كواليار :

لقد كانت هذه الإقامة الجبرية فى سجن كواليار تنطوى على حكم ومصالح دينية كثيرة، تسبب له الحب والقبول فى الناس ، وتزيده زكاء نفس وسمو روح ، وإشراف باطن ، فشمر هذا السجين كسجين مصر عن ساق الجد والاجتهاد فى الدعوة والإرشاد فى أولئك المسجونين الذين كانوا معه ، ونادى وراء جدران السجن بأعلى صوته : « يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » ، مما اهتزت له أركان القلعة وارتجت الجدران ، وسمع صداه فى الخارج ، يذكر بعض المؤرخين أن الآفا من السجناء من غير المسلمين اهتدوا على يديه ، ودخلوا بصحبته وتربيته وإرشاده ، ودعوته فى الإسلام ، وأن مئات من السجناء المسلمين تابوا على يديه ، وبايعوه ، وتمتعوا بصحبته حتى بلغوا درجات الإحسان، يقول الدكتور آرنلند فى كتابه «الدعوة إلى الإسلام» (Preaching Of isiam) :

كان فى عهد السلطان جهانكير ـ ١٦٠٥ ـ ١٦٢٨ م ـ عالم سنى يدعى الشيخ أحمد المجدد اشتهر فى عهده بالرد على العقائد الشيعية ، وكان الشيعة ذوى نفوذ فى البلاط ، فاحتالوا عليه حتى سببوا له الاعتقال فبقى فى المعتقل عامين ، واستمال فى هذه المدة مئات من رفقته السجناء من غير المسلمين إلى الإسلام ، فاعتنقوه » (٢) .

وجاء فى دائرة معارف الأخلاق والديانات Encyclopaedia Of : Religion and ithics

« يحكى عن عالم من علماء المسلمين يسمى الشيخ أحمد المجدد ـ كان فى القرن السابع عشر الميلادى فى الهند ، واعتقل ظلمًا ـ أنه أدخل مئات من غير المسلمين السجناء الذين

---

(١) « توزك جهانكيرى » ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ، ورسالة الامام رقم : (٢ من المجموعة الثالثة .

(٢) ص ٤١٢ . الطبعة الثالثة .

رافقوه في السجن ، في دين الإسلام » (١) .

لذائذ ومواهب وراء الأسلاك :

أمطر الله شآبيب نعمه ـ شأنه مع المخلصين الممتحنين ـ على الإمام السجين، وقد تحدث نفسه عما ناله من الرقى الباطني ، وانكار النفس ، ولذة الحب والهيمان ، ومشهد الخلوة في الجلوة ، في الرسائل التي كتبها إلى خواص أصحابه في لذة ونشوة وسرور ، تحديثًا بالنعمة ، وذكر لآلاء الله سبحانه .

يقول في رسالة طويلة وجهها من قلعة كواليار إلى الشيخ مير محمد نعمان :

« أحمد الله الذي رزقني العاقبة في البلاد ، ورفعني في الظلم والجفاء ، ولطف بي في المشقة والعناء ووفقني للشكر في السراء والضراء ، وأدخلني في زمرة المقتدين بالرسل والأنبياء ،والمتقين لآثار الأولياء والمحبين للعلماء الأتقياء ، فرحمة الله وبركاته على رسله وأنبيائه أولاً ، وعلى أصحابهم وأتباعهم ثانيًا » (٢) .

يبدو أنه لما ذاع خبر اعتقال الإمام بأمر السلطان ، وانتشر في الناس بدأوا يعلقون على الحادث ويخوضون فيه ، ويبالغون ويتزيدون ويخرصون ، فتألم من هذا الوضع المحبون المريدون ، فيقول الإمام في رسالة كتبها إلى أحد المخلصين المحبين الشيخ بديع الدين من السجن ، مع الإشارة إلى انتقاد الناس وملامهم :

« لما وصل هذا الفقير إلى القلعة بدأ يشعر من أوائل الأيام بأن أنوار ملام الناس ، ونقدهم وشماتتهم ، تساق إليَّ في صورة السحب النورانية من المدن والقرى ، بشكل مستمر ، وترفع شأني من الضعة والهوان إلى السمو والعزة ، لقد قطعت مسافات بالتربية المتسمة باللطف و « الجمال » أعوامًا وسنين ، ويسار بي الآن في طريق التربية المتسمة بالشدة و « الجلال » فينبغي أن تتمسك بمقام الصبر بل بمقام الشكر والرضا ، وتعرف أن« الجلال والجمال » الفان لا يختلفان (٣) .

وكان يحرض أبناءه البررة من داخل السجن أيضًا على الصبر والشكر والرضا ، والسلوان، والاشتغال بالدعاء والابتهال ، والذكر والتلاوة ، ونفي ما سوى الله ،

---

(١) ص ٧٤٨ ، المجلد الثامن .

(٢) الرسالة رقم : ٥ ، الجزء الثامن من المجموعة الثالثة .

(٣) الرسالة رقم : ٦ ، الجزء الثامن من المجمعة الثالثة .

والاهتمام بالدارسة ، وتزكية النفس والحرص على الوصول إلى الكمال [1] .

وتفيد بعض الروايات أن اعتقال الإمام بغير حق شرعى كان له رد فعل على أصحاب العقيدة السنية الصحيحة من أمراء البلاط وأركان الدولة ، وكان عبد الرحيم خان خانان ، وخان أعظم ، والسيد صدر جهان وخان جهان اللودهى وغيرهم متألمين من هذا الإجراء الذى أقدم عليه جهانكير ، وليست بين أيدينا وثائق من الكتب التاريخية التى ألفت فى ذلك العهد تدل على هذه الفوضى والاضطرابات ، كما يصعب علينا الجزم بأنه إلى أى مدى كانت صلتها ، بحادث اعتقال الإمام .

وعلى كل فإن السلطان ـ لسبب من الأسباب [2] ـ ندم على ما فرط منه، أو رأى هذه المدة للحبس تكفى لتأديبه ، وأبدى رغبته فى اللقاء ، فوجه إليه الدعوة للحضور فى البلاط، وبقى الإمام السرهندى فى قلعة كواليار عامًا كاملاً ، فلعل الإفراج عنه كان فى جمادى الآخرة عام ١٠٢٩ هـ الموافق لمايو عام ١٦٢٠ م .

الإمام فى عسكر السلطان

ومعيته وتأثيره الدينى :

خرج الإمام من القلعة فى عز وإجلال واحترام ، وأقام بسرهند لثلاثة أيام ، ثم توجه إلى عسكر السلطان حيث استقبله ولى عهده خرّم شاهجهان بن جهانكير الذى تولى الملك بعده ، ورئيس الوزراء ، وأمره السلطان بأن يمكث فى العسكر لعدة أيام ، فقبل هذه الدعوة وقد أفادت هذه المرافقة وأثرت فى السلطان وأفراد العسكر ، يقول جهانكير فى « توزك » :

« أعطيته الخلعة وألف روبية لنفقته وخيرته بين أن يذهب أو يبقى معنا فاختار مرافقتنا والبقاء معنا » .

وقد كتب الإمام عن موافقته للعسكر وفوائدها وثمراتها إلى أبنائه ، يقول : أرى البقاء فى العسكر ـ مع عدم الخيرة وقلة الرغبة ـ فرصة طيبة ، وأفضل ساعة واحدة معهم على كثير من الساعات فى أماكن أخرى » [3] .

---

(١) الرسالة رقم : ٥ ، الجزء الثامن من المجموعة الثالثة . ، كتبها الى الشيخ خواجه محمد سعيد ، والشيخ خواجه محمد معصوم .

(٢) يقال أن الملك رأى النبى ـ ﷺ ـ فى المنام ، يعض بأصبعه فى أسف ويقول : « حبست هذا الإنسان العظيم ؟ يا جهانكير ! » .

(٣) الرسالة رقم : ٤٣ المجموعة الثالثة .

ويقول فى رسالة أخرى :

« الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، إن الأوضاع والظروف التى أنا فيها تستوجب الحمد ، فنقضى ساعات طيبات فى مجالس رائقة عجيبة ، ومذاكرة مفيدة ولا يجد الكسل والمداهنة - بفضل الله ورعايته - سبيلا إلى هذه المحادثات والمذاكرات عن الأمور الدينية والأصول الإسلامية » .

فمن توفيق الله سبحانه أنى أتكلم فى هذه المجالس بنفس الأحاديث التى أتكلم فى الخلوات الخاصة ، والمجالس المحدودة ، ويحتاج ذكر مجلس واحد إلى كتاب مستقل »[(١)] .

ويقول فى رسالة أخرى عن مجلس ملكى عقد فى تلك الفترة :

« وصلت الرسالة الكريمة عن شيء جديد حصل اليوم ، فأصغوا إليه السمع ، حضرت اليوم ليلة السبت فى المجلس السلطانى ، ورجعت بعد ساعة وسمعت ثلاثة أجزاء من القرآن وبعد ساعتين غلبنى النوم » [(٢)] .

ويقول فى رسالة كتبها إلى الشيخ خواجه حسام الدين :

« كل من معى من الأصحاب ، والإخوان الأعزاء فى سرور وطمأنينة ، لا تزال أحوالهم فى رقى وصعود ، وكأن هذا المعسكر تحول بسببهم إلى رباط » [(٣)] .

وبلغ الإمام السرهندى لاهور مع العسكر ، وارتحل من هناك إلى سرهند ، وأقام فى سرهند ضيافة كريمة على شرف السلطان ، وكان الإمام يرغب فى الإقامة بسرهند ، ولكن السلطان شقّ عليه مفارقته ، فصحبه إلى دهلى ، ومنها إلى بنارس ، ثم إلى أجمير حيث قام برهة من الزمن .

التأثير على جهانكير :

ذكر بعض الكتب التى ألفت - حديثًا - فى حياة الإمام السرهندى أن جهانكير كان يحب الإمام ويجله إجلالاً كبيرًا ، وأنه بايعه ودخل فى حلقة مريديه وطالبيه ، إلاّ أنه لا توجد شواهد تاريخية على ذلك ، ثم أن الأسلوب الذى استخدمه جهانكير فى ذكر الإمام والتعرض له فى مواضع عديدة لا يفيد ذلك ، ولا يدل عليه ، فإنه مهما كان فى نشوة

---

١) أيضًا رقم : ١٠٦ .

٢) أيضًا رقم : ٧٨ .

٣) أيضًا رقم : ٧ المجموعة الثانية .

السلطة والقـوة ، ومهـما كان أسـلوبه سلطانيًا عـاليًا ، يسـتعـد جدًا أن يذكـر الإمام هذا الأسلوب .

ولكن لا يمكننا أن نجـحد ما تركت هذه المرافـقة من الأثر العمـيق فى نفس جهـانكير ، والفوائد التى اقتبسها منها ، فقد كان لمرافقته دخل كبير فى نشأة النزعة الدينية الجديدة فيه، وعنايته بتـعمـيـر المساجـد المنهدمة من جـديد ، وشغفـه بإقامة المدارس الدينـية فى المناطق المفتوحـة ، وما ظهر منه عام ١٠٣١ هـ بمناسبـة فتح قلعة كانكره من عواطف إسـلامية ، وإظهار شعائر الإسـلام فيها [١] يدل على حدوث التـحول ، والتقدم فى التديـن يمكن معه القول أنه كان غيضًا من فيض مرافقة الإمام السرهندى وصحبته .

دنو الأجل والاستعداد له :

يقول الشيخ خواجه محـمد الكشمى : « كان عام ١٠٣٢ هـ ، والإمام السرهندى مقيم فى أجمير إذ قال يومًا ، لقد قـربت أيام السفر إلى الآخرة ، وكتب إلى أبنائه الكرام الذين كانوا فى سرهند ، « أيام انقراض العمر قـريبة والأبناء بعيدون » ، وما إن وصلت الرسالة إلى الأبناء البررة حتى قاموا ، حضروا إلى أجمير ، فقال الإمام - ذات يوم - مخاطبًا لابنيه الشيخ محمد سعيد والشيخ محمد معصوم ، ولم يكن ثمة أحد : ليست لى الآن أى رغبة فى الدنيا ولا التفات إليـها ، ويستولى على مشاعرى التـفكير فى الدار الآخرة ، ويبدو أن السفر إليها قريب » [٢] .

ولما رجع الإمام من العسكر إلى سرهند أقام فيها عـشرة أشهر وثمانية أو تسعة أيام ، ثم لما عاد من أجـمير إلى سـرهند ، ترك العلائق كلهـا ، وانقطع عن جميع الناس ، واختـار العـزلة والخلوة ، فلم يكن يؤذن الدخـول عليه إلاَّ لأبنائه ، واثنين من خـواص خدمـه ، وأصحابه ، وكان يخرج للصلوات الخمس والجمعة فحسب ، ويصرف جل أوقاته فى الذكر والاستغفار ، والأشـتغال بخاصة النفس ، فكان تفسيرًا عـمليًا لقوله تعالى : ﴿ وتبتَّل اليه تبتيلا ﴾ [٣] .

واشتد مرض ضيق النفس من منتصف شهر ذى الحجة ، وكان يغلبه البكاء وعندما يبلغ الضعف شـدته ، يلهج لسانه بقوله : اللهم الرفـيق الأعلى ، ومضت - أثناء هذا المرض -

(١) انظر « توزك جهانكير » ، ص ٣٤٠ ، وراجع للتفصيل الباب السابع منه .
(٢) زبدة المقامات ، ص ٢٨٢ .
(٣) سورة المزمل ، آية ٨ .

أيام أبلّ فيها قليلاً من مرضه فوجدت القلوب الجريحة الحزينة قليلاً من الراحة والسلوى ، وكان الإمام يقول فى هذا الحال : إن اللذة والبشاشة التى كنت أشعر بها فى شدة المرض لا أشعرها فى هذا البرء لأيام قليلة » ، وأكثر عند ذلك من التصدق والإنفاق ، ثم قال اليوم الثانى عشر من شهر محرم : « نبئت بأنه يرحل بك من هذه الدنيا إلى الدار الآخرة فى ظرف خمسة أربعين يومًا ، وأريت مكان القبر » ، ورأى أبناؤه ـ ذات يوم ـ أن الإمام فى حال رقة وبكاء ، فاستفسروه عن السبب ، فقال : « شق اللقاء » فقال الأبناء البررة : ما سبب انصرافكم عنا ، وعدم حبكم لنا (على غير العادة الكريمة) قال : « لَلّه أحب إلىّ منكم » .

ولما كان من شهر صفر ، قال للخدم والأقرباء : لقد تم ـ هذه الليلة ـ أربعون يومًا فننتظر ماذا سيحدث فى هذه الأيام السبعة أو الثمانية القادمة ، ثم جعل يتحدث عن نعم الله التى لا تحصى ، وألطافه التى لا تستقصى وقسم جميع أثوياه وملابسه يوم ٢٣ صفر فى الأصحاب والخدم ، ولم يكن على جسمه ثوب محشو بالقطن ، فأصيب بالبرد ، وعادت الحمى مرة ثانية (١) ، وكأنه أدّى سنة الرسول ـ ﷺ ـ فى مرضه الأخير أيضًا ، إذ أنه ـ ﷺ ـ مرض مرة ثانية بعد برء قليل .

لقد كانت العلوم ، والمعارف الإلهية فى هذا الضعف والوهن الشديد تنهمر عليه وتفيض، قال له ابنه الشيخ محمد سعيد : تشق على حضرتكم فى هذا الضعف البالغ الغاية هذه الأحاديث ، فلو أجّلت بيان هذه الحقائق ، والمعارف السنيّة ، فقال : يا ابنى العزيز من يضمن لى الوقت حتى أؤجل بيان هذه المعانى » والتزم الصلوات بالجماعات أثناء هذا الضعف المرهق إلاّ الأيام الأربعة أو الخمسة من أواخر أيام حياته ، صلى منفردًا بعد إلحاح شديد ، ولم يكن للكسل والتوانى ـ رغم الوهن المضنى ـ سبيل إلى الاشتغال بالأدعية والأوردة المأثورة ، والذكر والمراقبة ، وكان يراعى جميع آداب الشريعة والطريقة ، مراعاة تامة دقيقة ، قام ـ ذات ليلة ـ فى الثلث الأخير وتوضأ ، ثم قام يتهجد ، وقال : «هذه آخر نافلة الليل » ، وهكذا كان .

وغلبه الاستغراق والفناء قبل الوفاة بيسير ، وسأله الأبناء البررة ، هل هذه الغيبة والاستغرق ناشىء من الضعف والمرض ، أو ناشىء من الاستغراق والانقطاع ، فقال :

---

(١) لعل ذلك كان شهر نوفمبر إذ أن الوفاة كانت فى شهر ديسمبر ، وهذا الشهر من فصل الشتاء فى هذه المناطق .

« ناشىء من الاستغراق ، وبين يدى حقائق وأمور » ، وكان يوصى فى هذا الحال من الإرهاق والإعياء ، باتباع السنة ، واجتناب البدعة ، والمداومة على الذكر والمراقبة ، وكان يقول : يجب العض على السنة بالنواجذ ، وقال أيضًا : إن صاحب الشريعة ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يدخر وسعًا فى النصيحة ، وإبلاغ الخير والدعوة إليه ، عملاً بقوله : الدّين النصيحة » ، فيجب اقتباس طريق عليها المتابعة التامة والطاعة الكاملة للرسول - ﷺ - من الكتب الدينية المعتبرة بالنواجذ ، وقال لزوجته : اتبعوا السنة فى تكفينى ودفنى ، ولا تتركوا شيئًا من السنة ، واشترى ثوب الكفن من مال صداقك ، وقال أيضًا ، يجب أن تدفنونى فى والعض مكان مجهول ، فقال له أبناؤه : كنتم أوصيتم - قبل أن يكون قبر حضرتكم بجوار قبر أخينا الأكبر خواجه محمد صادق (1) ، وتوصون الآن غير ذلك ، فقال أجل إننى أجد فى الآن الرغبة الشديدة إلى ذلك ، ولما رأى سكوت أبنائه عند سماع هذا القول منه ، وأنهم مترددون لا يعجبهم ذلك ، قال لهم : إن لم تستطيعوا ذلك فادفنوا فى خارج المدينة بجوار الوالد الكريم ، أو فى أى مكان من البستان ، وليكن قبرى غير مجصص ، حتى لا يبقى بعد مضى أيام عين ولا أثر ، نظر إلى الأبناء الذين غلبهم الهم والتفكير ، تبسم فى وجوههم ، ثم قال : لكم الخيار ادفنونى حيث شئتم .

كانت ليلة الثلاثاء ، اليوم التاسع والعشرون من صفر ، وكان اليوم المقبل يوم رحلته إلى دار القرار ، توجه إلى أصحابه وخدمه الذين سهروا على تمريضه وخدمته ، وقال : إنكم تحملتم مشاق كثيرة ، وبقيت مشقة واحدة ، ثم الراحة والاستجمام ، ونطق فى آخر الليل :

« أصبح ليلاً » فلما أسفر الفجر دعا الطست للبول ، ولم يكن فى الطست رمل ، فرده خوفًا من إصابة رشاشاته ، وقال بعض الحاضرين ، ينبغى أن يفحص الطبيب البول ، قال : لا أريد أن أنقض الوضوء ، أضجعونى على الفراش وكأنه بدا له ـ عند ذاك ـ أن الأجل قريب ، ولا يتسع الوقت لوضوء جديد ، فلما أضجعوه على الفراش ، وضع يده اليمنى تحت خده الأيمن علي طريق السنة واشتغل بالذكر ، فلما شاهد أبناؤه السرعة فى التنفس ، سألوه : كيف حاكم ؟ قال : نحن بخير ، وأن الركعتين اللتين صليتهما تكفيان ، ثم لم يتكلم بشىء ، سوى ذكر « اسم الذات » ، ولم يلبث أن فاضت روحه ، كان

---

(1) وهو ابن الامام السرهندى الأكبر ، مات ٩ ربيع الأول عام ١٠٢٥ هـ .

الحادث ضحى يوم الثلاثاء ٢٨ من صفر عام ١٠٣٤ هـ [١] ، وكان شهر صفر تسعة وعشرين يومًا ، وكان اليوم المقبل غرة ربيع الأول إذ طارت النفس المطمئنة ، وأوت إلى ربها وخالقها «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية » [٢] ، ومات وله ثلاث وستون سنة [٣] .

ولما أرادوا غسله لاحظوا أنه قابض يده اليسرى بيده اليمنى ، وممسك بالإبهام والخنصر على المعصم كهيئة القيام فى الصلاة ، وفرج الأبناء يديه بعد الوفاء ، ولكن شهد الناس أنهما عادتا مكانهما كهيئة الصلاة ، ودامت هذه الهيئة إلى ما بعد التكفين والدفن ، وكانت تبدو على شفتيه بسمة حانية وكان كما قال الشاعر :

ولدتك أمك يا ابن آدم باكيًا والناس حولك يضحكون سرورًا

فاجهد لنفسك أن تكون إذا بكوا فى يوم موتك ، ضاحكًا مسرورًا

وكلما حاولوا أن يفكوا يديه ، ويفرجوا بينهما ، عادتا إلى مكانهما من الصلاة ، وكفن على طريق السنة ، وصلى عليه ابنه الكبير الشيخ محمد سعيد ، وحمل النعش إلى مرقده الدائم [٤] .

عاداته و شمائله :

سجل الشيخ محمد الكشمى - الذى رافق الإمام وقام بخدمته فى السفر والحضر فى الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته ، تفاصيل عن عاداته وبرامجه[٥] » ، أقدم خلاصتها فيما يلى مع بعض الزيادات من « حضرات القدس » للشيخ بدر الدين السرهندى :

« سمعت الشيخ غير مرة - يقول : ما قيمة عملنا وجهودنا ! كل ذلك من فضل الله - سبحانه - وإذا كان هناك ما يعتمد عليه ، فهى طاعة سيد الأولين والآخرين ومتابعته - ﷺ - هى القطب الذى تدور حوله الأعمال ، وكل ما أعطى الله ورزق عباده فمن طريق اتباعه

---

(١) الموافق ١٠ ديسمبر عام ١٦٢٤ م .

(٢) سورة الفجر ، آية ٢٨ .

(٣) وتوصل الشيخ أبو الحسن زيد فى تحقيقه الى أن عمره بحساب التقويم الهلالى ، اثنان وستون عامًا وأربعة أشهر وأربعة عشر يومًا ، وبحساب التقويم الشمسى ستون عامًا وستة أشهر وخمسة أيام (أنظر « الامام المجدد وناقدوه » ص ٢٢) .

(٤) من « زبدة المقامات » ص ٢٥٦ - ٣٠٠ بتلخيص .

(٥) انظر « زبدة المقامات » ص ١٩٢ - ٢١٥ .

والاهتداء بهديه ، وكل ما حرمناه ، جزءًا أو كلا ، فسببه التقصير وفتور الهمة فى الاتباع بحكم البشرية ، وقال يومًا : دخلت المرحاض يومًا فبدأت برجلى اليمنى سهواً فحرمت كثيراً من الأحوال والمقامات ذلك اليوم ، وقال يوماً لصالح الختلانى : هات عدداً من القرنفل من كيسى ، فذهب وجاء بست حبات من القرنفل ، فأبدى استياءه وغضبه ، وقال لا يعرف هذا الصوفى أنه جاء فى الحديث : « إن الله تعالى وتر يحب الوتر » (١) ، فتستحب مراعاة الوتر ، ماذا يعتقد الناس فى «المستحبات » لو وهبت الدنيا والآخرة لإنسان، كفاء عمل يستحبه الله ويرضاه ، لما كان لهما قيمة يقول بعض خدمه : سألت الشيخ محمد بن فضل الله ، ماذا شاهدت فى سرهند حدثنا عنها قليلاً ، فقال ، ماذا يشاهد مثلى قاصر النظر ، عديم البصيرة ، إلاَّ أننى رأيت شدة تمسك بالسنة ، وعظيم اعتمام بها ، فكان لا يترك سنة مأثورة من السنن فى صغير وكبير ، ودقيق وجليل ، ولا أظنه بالأمر الميسور لكل أحد .

ويقول بعض أصحابه الذين جالسوه طويلاً : إن أحوال هولاء ، وكيفياتهم القلبية تعلو على مداركنا ، إلاَّ أننى أستطيع أن أقول : لقد توثق إيمانى وتصديقى بمشاهدة أحوالهم ومجاهداتهم ـ بما حكى عن الأولياء المتقدمين والربانيين السابقين ، وعلمت أنها خالية من المبالغة والمغالاة ، بل شعرت بأن المؤلفين قصروا ولم يكتبوا كل ما رأوا ، وهكذا كنا نقضى طول النهار فى مشاهدة الأحوال العجيبة ، ويقول خادمه الخاص ـ الذى كان صاحب أدواته : ما كنت أجد فسحة من الوقت إلاَّ عند قيلولته ، وفى الثلث الثانى من الليل ، وكان كثيراً ما يأمر أصحابه بدوام الذكر ، والاستحضار والمراقبة ، ويقول : هذه الدنيا دار العمل ، ومزرعة للآخرة ، فينبغى الجمع بين استحضار القلب ، وذكره ، وبين الأعمال الظاهرة ، والآداب الشرعية ، وكانت تتورم قدما الرسول ـ ﷺ ـ فى الصلاة ، (مع كونه حبيب رب العالمين ، وأفضل الأنبياء والمرسلين) .

ورغم أن الإمام كان مستحضراً للمتون والمسائل الفقهية ، صاحب ملكة راسخة فى أصول الفقه ، إلا أنه كان ـ لاحتياطه وورعه فى الدين ـ يراجع الكتب المعتبرة فى الفتاوى، ويصطحبها معه فى السفر والحضر ، ويعمل بما أفتى به كبار الفقهاء ورجحوه ، وكان يؤم بنفسه ـ غالب الأحيان ـ فى الصلاة ، وقد أشار ـ ذات يوم ـ إلى الحكمة فى تقدمه وإمامته :

---

(١) رواه الترمذى .

« إنه لا تصح الصلاة عند السادة الشافعية والمالكية بدون قراءة الفاتحة ، فيقرأونها خلف الإمام ، وتدل على ذلك أحاديث كثيرة صريحة ، ولكن لا تجوز قراءة الفاتحة خلف الإمام عند إمامنا أبى حنيفة ، والمذهب على ذلك عند جمهور الفقهاء الحنفية ، ولما كنت أحاول التطبيق ، والجمع بين هذه المذاهب ، فأرى من المستحسن أن أؤم الناس فى الصلاة » (١) .

كان من عادة الإمام أن يقوم ـ سواء كان فى السفر أو فى الحضر ، أو الشتاء أو الصيف ـ فى النصف الخير من الليل ، وأحيانًا فى الثلث الأخير منه ، فيذكر لله تعالى ، ويدعو بالدعوات المأثورة فى هذا الوقت ، ثم يتوضأ بنفسه ويسبغ الوضوء ، ولا يسمح لأحد أن يهريق عليه الماء ، ويستقبل القبلة عند الوضوء ، وإلا أنه حين يغسل الرجل يوجهها شمالاً أو جنوبًا ، كان يحافظ على السواك ، ثم يقرأ الأذكار والدعوات الواردة فى الحديث ، ويطيل القراءة والقيام فى النوافل بحضور قلب وجمعية خاطر ، وحين ينصرف من التطوع، ويتوجه إلى المراقبة فى خشوع واستغراق ، ويضطجع قليلاً قبل الفجر مراعاة للسنة ، ثم يقوم قبل طلوع الفجر ، ويتوضأ وضوءًا جديدًا ، ويصلى سنة الفجر فى البيت، ويقرأ بين صلاتى السنة والفريضة سرًا سبحان الله وبحمده ، سبحان الله لعظيم»، وكان يصلى الفجر فى آخر وقت الغلس وأول وقت الأسفار حتى يجمع بين لمذهبين فى ترجيح الغلس أو الأسفار ، ويؤم بنفسه فى هذه الصلاة ، ويقرأ الطوال (٢) ، ما ثبت فى الحديث (٣) ، ثم يجلس من بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس فى الحلقة، م يتطوع عند الإشراق يطيل فيها القراءة ، ويشتغل بالأوراد والأذكار حتى ينتهى منها فيأتى بيت ويتعهد الأهل والعيال ،ويعطى تعلمياته وإرشاداته فى الأمور البيتية اليومية ، ثم ذهب إلى الخلوة ، وينهمك فى تلاوة القرآن انهماكاً تامًا ، ويطلب بعد الفراغ من التلاوة لريدين اوالمسترشدين ، ويسألهم عن أحوالهم وشئونهم ، ويرشدهم فيها ، ويطلب فى س الوقت خواص أصحابه وتلامذته ويفيدهم بالعلوم والحقائق والمعارف العالية ، ويتوجه لبه أليهم ، ويخبرونه بأحوالهم وكيفياتهم فيؤكد عليهم بدوام الاستحضار ، وستر الحال، اتباع السنة ، وعلو الهمة ، وقال ـ مرة ـ فيسياق الحديث عن عظمة كلمة « لا إله إلا الله حمد رسول الله » ـ وجلالها ، « الكون كله إزاء هذه الكلمة أقل شأنًا من قطرة إزاء بحر

---

(١) وقد ذكر الشيخ محمد الكشمى فى موضع آخر من هذا الفصل : « أن الامام كان يقرأ الفاتحة خلف الامام ، ويستحب ذلك » ص ٢٠٩ .

(٢) وهى من سورة الحجرات إلى سورة البروج .

(٣) « حضرات القدس » ص ٨٢ .

محيط » ، وكان يحرض المريدين والأصحاب على مطالعة كتب الفقه ودراستها ، ويرغبهم في الرجوع إلى العلماء ، وسؤالهم عن الأحكام الشرعية .

وكان يقول : « يتجلى فى الكشف أن العالم بأسره غريق فى جلة البدع والخرافات المظلمة ، وأن نور السنة - فى وسط هذه الظلمة - يتلألأ تلألؤ اليراعة فى الليلة الظلماء »، وكان شديد الكراهية والمجانبة للغيبة وعيب المسلمين ،ولم يكن الخدم والمسترشدون يتجرأون لوقاره ومهابته على أن يغتابوا أحدًا فى مجلسه ، وكان يستر أحواله وكيفياته الباطنة غاية الستر ، ما رأيته فى مدة عامين إلا ثلاث أو أربع مرات ، دمعت عيناه وفاضت العبرات ، وانحدرت على الوجه المنور ، كما رأيته ثلاث وأربع مرات احمرّت وجنتاه وعيناه أثناء التذكير ، وبيان المعارف الجليلة .

وكان يدخل البيت بعد صلاة الضحى ، والضحوة الكبرى ، ويتناول الغداء مع الاهل والعيال ، وإذا أعد أحد من أبنائه أو أصدقائه ، ومعارفه شيئًا يأتى به إليه ، وإذا غاب بعض أبنائه أو خدمة فى ذلك الوقت ، يحفظ له نصيبه ، وكان اهتمامه بالإطعام ، أثناء الطعام أكثر من عنايته بأكمله ، فيتعهد غيره ، ويكرمه ، ويقدم إليه ما يرغب فيه ، ويتناول أحيانًا - ما يسد الرمق ، ويقيم الصلب ، حتى ليخيل إلى الناظرين أنه لا حاجة له إلى الطعام ولكنه يريد اتباع السنة (١) ، وفى الأيام الأخيرة من حياته لما اعتزل الناس وعكف على العبادة ، وأكثر من الصيام ، كان يتناول الطعام فى الخلوة ولم يكن يقرأ الفاتحة بعد الطعام - كما هو التقليد المتبع عند بعض المشايخ وكثير من العوام - لأنه لم ترد به أحاديث صالحة للاحتجاج ، كما لم يكن يقرأ الفاتحة بعد الصلوات المكتوبات - كما هى العادة السائدة عند بعض المشايخ .

ويقيل بعد تناول الغداء عملاً بالسنة ، ويؤذن فى أول وقت الظهر ، فيقوم ويتوضأ ، ثم يتطوع ، ويسمع بعد صلاة الظهر جزءًا من القرآن الحكيم ، أو أقل أو أكثر ، من حافظ للقرآن ، وإذا كان يوم درس يدرس ، ويصلى العصر إلا كان ظل كل شىء مثليه ، ثم يبقى من بعد العصر إلى المغرب من أصحابه ومريديه فى صمت ومراقبة ،ويتوجه إلى كيفيات المريدين وأحوالهم الباطنية ،ويصلى بعد صلاة المغرب ركعتى السنة ، وصلاة الأوابين،وأربع ركعات حينًا ، وست ركعات حينًا آخر ، ويصلى العشاء بعد زوال الشفق الأبيض مباشرة ، وكان يجمع فى صلاة الوتر بين قنوت الحنفية وقنوت الشافعية ،ويصلى

(١) « حضرات القدس » ص ٨٧ .

بعد الوتر ركعتين تـارة جلوسًا وأخرى قيامًا ،ولم يصل هاتين الركـعتين فى أواخر أيامه إلاّ قليلاً نادراً . وما عهدت عنه سجدتان بعد الوتر ، كما هى عادة معروفة بين الناس .

وكان يعتكف فى العشر الأواخر من رمضـان ، ولا يتأخر بعد العشاء والوتر فى النوم ، يأوى إلى الفراش ، ويدعو بالدعـوات المأثورة ، وكان يكثر من الصلاة على النبى ـ ﷺ ـ بخاصة لـيلة الجمعة ويوم الجمـعة ، وليلة الاثنين ، وكان يخـيل للناظر إليه ـ عند تلاوته القرآن الكريم مـن قسمـات وجهه ، وأسلوب ترتيله أن الأسـرار القرآنية تـنكشف عليه ، بركات الآيات تنزل عليه ، وسكينتها تغشاه ، وكان إذا مرّ بآية عذاب فى الصلاة أو خارج صلاة ، يتـغيـر لونه ، وإذا مر بآية فـيها تعـجيب واسـتفهـام، يظهر عليـه أثره فى لحنه صـوته، ويراعى جمـيع السنن والآداب والمستـحبـات فى الصـلاة ، ويهتم بالتطوع بعـد وضـوء ،وعند دخول المسـجد ، ولم يكن يـؤدى نوافل الصلوات بالجمـاعة غـير صـلاة تراويح ، وكان ينهى الناس عن الاجتماع للصلاة النافلة الليلة العاشرة من محرم ، أو ليلة نذر .

كان يخرج لعـيادة المرضى ، يدعو لهم بالدعوات المأثورة فى مـثل ذلك ، ويخرج لزيارة بـور ، وكان يلقى دروسًا فى بعض الكتب الدينيـة العالية مثل « تفـسير البيـضاوى » ، صحـيح البخـارى » و « مشكاة المصابـيح » ، ويدرس فى علم الفقـه وأصوله ، وعلم كلام ، و « هداية الفقه » للمرغـينانى ، و « أصول البزدوى » و « المواقف » ، ويدرس ، التـصوف : « عـوارف المعارف » ، ولكن لـم يكن فى هذه الدروس نقاش وجـدال ، يل وقال ، وقل اشتـغاله بالتدريس فى الأيام الأخيرة ، وكان يوجـه الطلاب إلى تحصيل لوم الدينية بتأكـيد بالغ ، ويقدمها على تحصيل علم الطريقـة والسلوك ، وكان يكثر من حميد والاستغفار ويلهج بالشكر والثناء ويكثر منه ، على قليل من النعمة والفضل .

كانت له عناية شـديدة بشهر رمضـان ، يختم فيه القـرآن ـ على الأقل ـ ثلاث مرات ، ان يحفظ القـرآن عن ظهر غيبه ، فكان يتلوه من غـير نظر فى غير رمضان أيضًـا ، كما ضر لسمـاعه فى الحلقات والمجالس [1] ، كان يعجل الفطور ويؤخر السـحور ـ عملاً بما ء فى السنة ـ ويهتم بذلك اهتمامًا كبيراً » [2] .

---

(1) « زبدة المقامات » ص ١٩٢ ـ ٢١٥ ، باخـتصار وتلخيص ، وما جاء فى هذا الفـصل من غيره ، أحيل إليه فى الهامش وهو قليل .
(2) « حضرات القدس » ص ٩١ .

وكان شأنه فى الزكاة أنه إذا جاءته هدية أو تحفة ، فلا يترقب حولان الحول عليه ، بل يؤدى الزكاة المفروضة فى قيمة هذه الهدايا والنعم ، وكان يفضل عند توزيع الزكاة أهل الصلاح من الرجال ، والصالحات من الأيامى وذوى قرباه ، وعزم على الحج مراراً ، ولكن لم يتفق له تحقيق هذا العزم لموانع ، ودام له هذا الشوق والحنين ، ورحل من هذه الدار الفانية فى هذا الشوق والحنين .

وكان غاية فى التواضع ، ولين الجانب ، ودماثة الخلق ، وحسن العشرة والشفقة على الخلق ، متسنمًا ذروة الرضا ، والتوكل والتفويض ، وأوذى من أقربائه وأصدقائه ، وأحبابه ومن الحكام الجائرين ، ايذاءً شديدًا ، ولكنه التزم جانب الرضا والتفويض ، وما تكلم لسانه بشىء ينم عن التبرم والشكوى ، وكان إذا رآه أحد قام احترمًا وتكريمًا له ، ويجلسه فى مكان بارز ، ويتحدث معه بما يناسب ذوقه ونفسيته ، ولكنه لم يكن يحترم غير المسلمين ويعظمهم وإن كانوا ولاة وأمراء ، وأصحاب السلطة والجاه ، وكان يبدأ بالسلام ، لا أذكر أحدًا سبقه فى البدء بالسلام ، وكان يراعى ، من له عليه حق غاية المراعاة وإذا نعى إليه إنسان يتأثر ويحزن ويسترجع ، ويحضر جنازته ، ويدعو له ويثنيه بالطاعات والقربات (١) .

كان لباسه ثوبًا يكون على كتفيه جيبان ، وعباءة فوقه ، ولكن يقتصر على الثوب وحده أيام الصيف ، وعمامة ينوطها على رأس موافقة للسنة ، تقع ذؤابتها على الظهر بين الكتفين ، وكان سر واله دائمًا - إلاَّ فى حالة قضاء الحاجة - فوق الكعبين ، وكان يلبس يوم الجمعة والعيدين لباسًا فاخرًا، وإذا لبس ثوبًا جديدًا ، أعطى القديم لخادم ، أو قريب، أو ضعيف وكان يقيم عنده - بصفة دائمة - خمسون وستون بل زهاء مائة شخص من العلماء والعارفين ، والمشايخ ، وحفظة القرآن والأشراف ، وكان طعامهم - جميعًا - من مطبخه الخاص (٢) .

حليته وصفته :

وصفه الشيخ بدر الدين السرهندى - الذى صحبه سبعة عشر عامًا ، وكان من خلفائه ، فى « حضرات القدس » بالوصف التالى :

---

(١) « حضرات القدس » ص ٩١ - ٩٢ ، تأليف بدر الدين السرهندى .

(٢) أيضًا ، ص ٩٢ .

« كان أسمر اللون ، ضاربًا إلى البياض ، يلمع على جبينه وخدّيه نور يخلب الأبصار ، أزجُ الحاجبين ، وكان حاجبه مثل القوس مع طول ، أسود، دقيقًا ، انجل العينين ، موضع سوادهما غاية فى السواد ، وموضع بياضهما غاية فى البياض ، دقيق الأنف ، رقيق الشفتين فى حمرة ، معتدل الفم ، متراص الأسنان تفتر عن مثل اللولؤ المنظوم ، كث اللحية مع وقار ورزانة ، لحيته طويلة مربعة ، ولم تتجاوز شعراتها على خديه أكثر من الحد الطبيعى ، متوسط القامة ناعم الجسم (١) .

أبناؤه الأمثال :

رزق الإمام السرهندى سبعة أبناء توفى اثنان منهما فى الصغر فى حياة الإمام ، وهما الشيخ محمد فرّخ ، والشيخ محمد عيسى ، وكان الشيخ محمد أشرف مات فى أيام الرضاعة ، وتوفى ابنه الأكبر الشيخ محمد صادق بعد الفراغ من تحصيل العلوم الدينية والسلوك عام ١٠٢٥ هـ ، وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، وبقى الثلاثة من أبنائه الأماثل الشيخ محمد سعيد ، والشيخ محمد معصوم والشيخ محمد يحيى أحياء ، تتجمل بهم هذه الأسرة العظيمة ويحق أن يسمى هؤلاء الأربعة السلسلة الذهبية ، والشموس المضيئة .

وكان الشيخ عبد الباقى أثنى عليهم ، ووصفهم بصفات عالية ، ولقبهم بـ « الجواهر العلوية » و بـ « الشجرة الطيبة » وقال أيضًا فيهم : هولاء فقراء على عتبة الله ، يحملون بين ضلوعهم قلوبًا عجيبة .

وكان ابنه الأول الشيخ محمد صادق قد بلغ الكمال ، وذروة الإحسان فى حياة والده ، وقد وصفه والده بصفات عظيمة ، تدل على علو استعداده الباطنى ، وكماله الروحى ، وقال فى رسالة له : « ابنى العزيز جماع حقائق هذا العبد الضعيف ومعارفه ، وصحيفة مقامات الجذب والسلوك»(٢) .

وولد الابن الثانى الشيخ محمد سعيد عام ١٠٠٥ هـ ، وتوفى ٢٧ جمادى الآخرة ١٠٧٠ هـ ، وقد ساهم فى نشر طريقة الإمام ، وتعليم الطالبين وإرشاد السالكين مساهمة كبيرة (٣) .

---

(١) أيضًا ، ص ١٥٥ .

(٢) الرسالة رقم : ٢٧٧ ، وانظر للاطلاع على مناقبه وفضائله « زبدة المقامات » ص ٣٠٣ ـ ٣٠٦ .

(٣) راجع للاطلاع على حياته ومناقبه « زبدة المقامات » ص ٣٠٨ ـ ٣١٥ .

وكان الابن الثالث الشيخ محمد معصوم حامل علوم الوالد العظيم وشارح معارفه وحقائقه ، وخليفته وأمين سره وانتشرت على يديه الطريقة المجددية انتشاراً عظيماً ، وأصبح تأثيرها بفصله تأثيراً عالميًا شاملاً ، وعم نفعها وخيرها ، حتى قال قائل ، وأصاب فيما قال .

« الشيخ معصوم سراج الأقطار والبلدان ، أضاءت بفضله وبركته الأرض من الهند إلى الروم » .

فقد كانت زواية دهلى الشهيرة فى العالم ، والتى كانت مأوى العرب والعجم - وتصدر فيها للتربية والإرشاد جلة المشايخ الأفذاذ كالشيخ خواجه سيف الدين ، والشيخ مرزا مظهر جان جانان ، والشيخ غلام على ، والشيخ أحمد سعيد فى عصورهم أدوارهم - حلقة من هذه السلسلة المجددية ، ومن هناك حمل الشيخ خالد الرومى الكردى [1] هذه الطريقة بعد أن تلقنها وأخذها من الشيخ غلام على إلى بلاد الشام وتركيا ، وانبثت منه عروقها فى العراق والشام ،وكردستان ،وانتشرت فى المدن والقرى، والأسر والبيوت .

وأن رسائل الشيخ محمد معصوم تقوم بمثابة شرح وتفصيل لرسائل الإمام المجموعة فى ثلاثة مجلدات ، وهى خزانة العلوم والمعارف ، والأسرار والدقائق ، وتحتاج سيرته ومناقبه إلى كتاب مستقل .

كانت ولادته ١١ شوال عام ١٠٠٧ هـ ، وتوفى فى ٩ ربيع الأول عام ١٠٧٩ هـ [2] .

وكان الابن الرابع الشيخ محمد يحيى ، كان ابن تسع سنوات عند وفاة الإمام السرهندى، أخذ العلوم على إخوته وتربى على أيديهم ، وتلقن الطريقة منهم ، وكانت وفاته عام ١٠٩٦ هـ [3] .

---

(١) سيأتى الحديث عنه مفصلاً فى الباب الثامن .

(٢) تأتى ترجمته فى آخر هذا الكتاب مقتبسة من كتاب « نزهة الخواطر » .

(٣) وكان الشيخ رؤوف أحمد ، وحفيده الشيخ أبو أحمد وابنه الشيخ محمد يعقوب، مشايخ مدينة «بوفال » ، المعروفين ، من أعقاب الإمام السرهندى .

الباب الخامس
تجديد الإيمان وإعادة الثقة بالنبوة المحمدية
نقطة تجديد الإمام السرهندى وإصلاحاته الأساسية

ما هو العمل التجديدى الذى قام به الإمام السرهندى ؟

اتفق جميع العلماء المتبصرين والمؤرخين المنصفين ـ الذين لهم اطلاع واسع على التاريخ الإسلامى ـ بصفة عامة ـ والتاريخ الإسلامى فى الهند بصفة خاصة [1] .

على أن الإمام السرهندى قام بالدور الرائع فى الدفاع عن الدين الإسلامي ، وتقويته ، ونصرته ، الذى صنع تاريخًا جديدًا ، وبدأ عهدًا جديدًا ، والذى يسمى فى مصطلح الحديث المعروف البسيط « التجديد »[2] ، الذى عرف به الإمام واشتهر اشتهار عظيمًا حتى غلب عليه لقب « المجدد » ، وظل ينوب عن اسمه ، ولا نجد له مثالا من قبل .

فما هو هذا العمل التجديدى ؟ ، إنه تجلية الفكر الإسلامى ، وانعاش الروح الدينية ، ومقاومة الفتن الخطيرة المحدقة ، واستئصالها من جذورها ، وكسر طلاسم المحاولات الضالة ـ المؤسسة على الرياضات والمجاهدات ، والإشراق وصفاء الباطن ، والتجارب الروحية ـ لمعرفة الله تعالى والوصول إليه ، التى كانت تعتمد على وسائلها وطرقها الخاصة ، وتستنكف عن اقتفاء سيدنا محمد ـ ﷺ ـ واتباع سنته وهديه ، ولا ترى لزومًا لذلك ، وكشف النقاب عن وجه العقائد والنظريات المتلبسة بالوحدة والاتحاد ، وقد بلغا أوج التطرف والمغالاة ، وانتشر فى كثير من الأوساط وتلقاهما كثير من الناس بالقبول ، وأحدثا رجة فى المعتقدات الدينية ، وهزة فى المجتمعات الإسلامية ، وفوضى فى الخلق والدين ، وعرض نظرية « وحدة الشهود » بدلاً من « وحدة الوجود » وتدعيمها علميًا وعقليًا ،

---

(١) وقد تناولناه بصورة إجمالية فى البابين الأولين من هذا الكتاب .

(٢) جاء فى سنن أبى داود : « إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها ، راجع للتفصيل شروح كتب السنن ، واقرأ فى حكمه هذا الحديث ، والحاجة الى التجديد فى أزمنة وأمكنة مختلفة كلام شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ، المشتمل على فوائد كثيرة ، فى المجلد الثامن عشر من مجموع فتاواه ، ص ٢٩٧ ـ ٣٠٥ .

والتدليل عليها وتقديمها بصورة منظمة دقيقة ، والتشديد فى الإنكار على البدع والخرافات - التى أصبحت تشريعًا إزاء تشريع - وتنفيذها ، وعدم الاعتراف بوجود «البدعة الحسنة » وتثبيت أقدام الإسلام المتزلزلة فى الهند ، وإزالة اثار الكفر ومعالم الضلال ، التى خلفها عهد أكبر المظلم ، والمحاولة الجادة الحكيمة الناجحة لثورة دينية تجديدية ، وتغيير جذرى عظيم ، كان من نتاجهما السلطان محيي الدين اورنك زيب عالمكير سلطان الهند ، وصاحب الأمر والنهى فيها ، سرهنديًا وادريًا ، وحكيم الإسلام الإمام ولى الله الدهلوى وخلفاؤه وتلامذته الذين هم من حلقات هذه السلسلة الذهبية - روحيًا وفكريًا ، وكان كل ذلك امتداد هذه الدعوة والحركة ، وهم الذين بذلوا جهودًا جبارة فى نشر تعاليم الكتاب والسنة ، والدعوة إليها بعلو همة ، وشرحهما وتبيينهما للناس ، وكانت جهودهم فى الإفادة والتدريس ، وإنشاء المدارس الدينية ، والتزكية الروحية ،والتربية الباطنية ، وإصلاح العقائد ، والرد على البدع والتقاليد ، ثم جهادهم ، واستماتتهم فى سبيل الله وسعيهم لإعلاء كلمة الله وبفضل هذه الجهود بقيت شجرة الإسلام فى الهند ، قائمة على ساقها ، ناضرة مخضرة ، بل حولوا الهند مركز الثقل فى العالم الإسلامى فى العلوم الدينية (لا سيما علم الحديث الشريف) والفكر الإسلامى ، والدعوة والإرشاد .

هذا كله صحيح ومقرر تاريخيًا وعلميًا ولكن ما هى« النقطة المركزية ، والمحور الأساسى الذى تدور حوله هذه الجهود التجديدية ، والأعمال الإصلاحية العظيمة ؟ وما هى تلك المأثرة التجديدية المهيمنة ، التى تحتضن هذه الجوانب كلها ، وتغذيها ؟ للناس - حسب ميولهم وأذواقهم - إجابات مختلفة على هذا السؤال الخطير .

وللناس فيما يعشقون مذاهب .

وتفرق الناس فى الإجابة فرقًا وأحزابًا ، نخص ثلاث فرق منها بالذكر فيما يلى :

١ - يقول فريق من هذه الفرق : إن الإمام السرهندى يستحق وصفه بمجدد الألف الثانى لأنه استعاد الهند إلى راية الإسلام ، وحفظها من الارتماء فى حضن البرهمية ، وفلسفة « وحدة الأديان » ، ووجهها إلى لواء محمد - عليه الصلاة والسلام - وسلمها لوصاية الإسلام ، وحمايته ، ودفع عنها فى القرن الحادى عشر الهجرى ، القرن السادس عشر الميلادى - ذلك المصير الذى صارت إليه فى القرن الثالث عشر هجرى - القرن التاسع عشر الميلادى - بل الواقع أنه حفظ الأمة الإسلامية الهندية من خطر الردة العقائدية والفكرية والحضارية الشاملة ، التى ظهرت - بذكاء تلك الشخصية القوية صاحبة الكلمة النافذة والإرادة الحديدية كالملك أكبر ، ودهاء مستشاريه النوابغ الأفذاذ كمُلاً مبارك ،

وفيضى وأبى الفضل ـ واقعًا ملموسًا يحس بالبنان ، وقد كان هذا التحول الروحى والمعنوى والردة الفكرية والحضارية أخطر ، وأدق ، وأرسخ جذورًا من انقراض الدولة ، والانهيار السياسى ، الذى وقعت كارثته فى أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، بقيام القوى غير الإسلامية الناهضة فى الهند ، وسيطرة الانكليز وتسلطهم فى البلاد ، ولعل الدكتور محمد إقبال أشار إلى هذه الحقيقة ، إذ قال فى بيت من شعره ، يشير إلى الإمام السرهندى .

« ذلك الحامى لذمار الأمة الاسلامية فى الهند ، الذى قيضه الله ـ فى الحين المناسب ـ ونصبه حارسًا للدين القويم » .

٢ ـ ويقول الفريق الثانى : إن عمله التجديدى يتركز فى معالجته تفضيل الشريعة على الطريقة ، وأن الطريقة تابعة خاضعة للشريعة ، فى قوة إيضاح ، وثقة وبصيرة فى ضوء تجارب شخصية ، لم يسبق إلى هذا الأسلوب القوى المبين حتى تجلى لكل ذى عينين أن الطريقة خادمة للشريعة ، وأوقف بذلك تلك الفتنة الخطيرة الناجمة فى أوساط « السلوك والطريقة » التى كانت تدعو إلى الاستغناء عن الشريعة ـ أحيانًا ـ والانحراف عنها ـ أحيانًا أخرى ، والاعتماد الكامل على الرياضات والمجاهدات ، والحواس الباطنة ، والتى كانت تستهدف أول ما تستهدف الهند ـ لكونها مركزًا لليوك والتنسُّك المتطرِّف والرهبنة ـ ولم يستطع أحد بعده أن يتجرأ على القول بـ « أن الشريعة فى واد ، والطريقة فى واد ، وليس من حق الشريعة فرض الرقابة على الطريقة » .

٢ ـ ويرى الفريق الثالث أن مأثرته التجديدية الأساسية ، هى ضربته القاصمة على عقيدة « وحدة الوجود » ، وهدم فلسفتها من أساسها بطريق لم يسبق إليه ، فشسد ذلك السيل العارم الذى كان يجرف بالعقائد الصحيحة ، وحول تياره العنيف الذى اكتسح جميع الأوساط العلمية والروحية فى القرون الأخيرة ، والذى كانت معارضته من عالم مثقف دليلاً على جهله ، وإنكارًا لضوء الشمس فى رابعة النهار ، ولقد أصاب العلامة مناظر أحسن الكيلانى حيث قال فى مقاله العظيم المثير بعنوان « المأثرة التجديدية للألف الثانى » :

« إن مآثر الإمام السرهندى الإصلاحية ، وأعماله التجديدية اختلطت بتدقيقات « وحدة الوجود » و « وحدة الشهود » ، وبحوثهما الفلسفية الدقيقة والحروب الكلامية بين المشايخ والمتصوفة على الشريعة والطريقة ، وتحللت فى هذه الضجة والغوغاء بحيث لم يعد وصفه بمجدد الألف الثانى إلاّ تقليداً متبعًا للإجلال والتبجيل ، لا أن يكون مؤسسًا على أمر مهم

خطير»(١) .

إعادة الثقة والإيمان بحتمية النبوة المحمدية وخلود الرسالة الأخيرة :

ولكن الواقع أن علمه التجديدى الأساسى الذى تدور حوله سائر أعماله الإصلاحية التجديدية ، ومنبعه الأصيل الذى تتفجر منه ينابيع جميع مآثره الإصلاحية وجهوده الثورية، وتتحول إلى نهر يجرى فى العالم الإسلامى كله ، هو ذلك العمل الإصلاحى ، العظيم الذى تجلى فى إعادة الثقة والإيمان إلى قلوب أبناء الأمة الإسلامية ، بخلود الرسالة المحمدية وحاجة الناس إليها ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وترسيخ جذور هذه العقيدة المهمة ، ولا أعلم أحدًا من المجددين فى التاريخ الإسلامى ، قام بهذا العمل على هذا النطاق الواسع ، وبهذه القوة ، والصراحة كما قام به الإمام السرهندى ، ولعل السبب فى ذلك عدم مسيس الحاجة إليها فى عهودهم ، وأنه لم تبرز على المسرح فى عصورهم فلسفة أو حركة منظمة دقيقة كتلك التى ظهرت فى عهده (٢) .

لقد كانت هذه الخطوة التجديدية سدًا منيعًا فى وجه تلك الفتن التى كانت تموج فى العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، وتقف فاغرة أفواهها لتبتلع شجرة الإسلام الطيبة، ونظامه العقائدى والفكرى والروحى بأسره ، تندرج تحتها تلك الحركة النفطوية وأتباعها الذين رفعوا علم الثورة والخروج على النبوة المحمدية وخلودها وبقائها ، بطريقة علنية سافرة ، ونادوا بأن عهد النبوة المحمدية الممتد على ألف عام قد انقضى ، وسيبدأ عهد القيادة الدينية الجديدة ، وصياغة الحياة الجديدة ، والتقنين الجديد ، الذى يعتمد على العقل والفلسفة وحدهما ، ويقود حركتها محمود البسيخانى وأتباعه وأنصاره ، ويكون مركزها الهند وإيران (٣) .

ومن هذه الفتن المدلهمة «دين أكبر الجديد» و « قانونه الجديد » ، وكان كل منهما يدعى

---

(١) انظر ترجمة « الإمام الربانى مجدد الألف الثانى » جمع وترتيب الشيخ محمد منظور النعمانى ، ص ٢٧ .

(٢) ونجد فى هذا الصدد شيئًا من التفصيل والوضوح عند شيخ الإسلام ابن تيمية ، لا سيما كتبه الجليلة القيمة ، « النبوات » و « نقض المنطق » ، «الرد على المنطقيين » ولكنه كذلك لا يعدو إشارات وبحثًا مجملاً ، ولكل مقام مقال .

(٣) انظر الباب الأول من هذا الكتاب موضوع « الفتنة الكبرى فى القرن العاشر » .

أنه يحل فى الهند محل النبوة المحمدية ، والشريعة الإسلامية ، ويؤدى دورهما ، ومنها تلك البدع والمحدثات فى الدين التى سيطرت على الحياة الدينية ، وجميع الأعمال والعبادات ، واندست فى الاجتماع والمدينة ، وكانت شريعة إزاء شريعة ، يدون لها « فقه» مستقل ، وكان تحديًا صارخًا ـ فى حقيقتها لختم الرسالة المحمدية ، وتدعى التبوأ على منصب التشريع والتقنين .

وتذكر فى هذا الصدد فلسفة « وحدة الوجود » التى كانت تعتمد ـ حسب أقوال دعاتها وكبار رجالها ـ على الحقائق الكشفية ، والتى لا يدّعى غلاة أصحابها أيضًا أن النبى ـ ﷺ ـ دعا إليها جهارًا ، صحابته الكرام ، ودعا صحابته من بعدهم من التابعين وهكذا الخ ، وكانت هذه الفلسفة والدعوة ـ تقف ـ على مرور الأيام ـ عن شعور أو غير شعور ـ معارضة للدعوة التى جاءت بها النبوة المحمدية ، وتعاليمها الواضحة ، ومقاصدها وأهدافها، وكلما أحرزت هذه الدعوة شيئًا من النجاح والانتصار ، وترسخت جذورها فى العقول والقلوب ، والمجتمع الإسلامى وحده هو الدين الحق ، ووسيلة النجاة فى الآخرة، وتنفتح أبواب الإلحاد والزندقة ، والحرية المطلقة والإباحية والتعطل والبطالة على مصراعيها، وإن كان القائلون بها من المشايخ والصوفية الأتقياء المتورعين ، متقيدين بالشريعة ، معظمين لشعائرها، معرضين للفساد بشدة وإخلاص .

ومنها الفرقة الإمامية التى تعتبر من عقائدها الأساسية عقيدة الإمامة ، والتى تصف الإمام ، وتبين خصائصه ومزاياه بطريق يجعله قرينًا للنبى ومساويًا له فى الدرجة والمكانة(١)، وتعتقد فى طائفة كبيرة من صحابة الرسول ـ ﷺ ـ ما يشك فى تأثير صحبة

---

(١) يستفاد من كتاب « الشافى » للشريف المرتضى ، « تلخيص الشافى ، للطوسى « أصل الشيعة وأصولها للعلامة الشيخ محمد حسين ال كاشف الغطاء ، أن الامام معصوم عن الخطأ والنسيان والمعاصى ظاهرًا وباطنًا ، وطاهر مطهر ، تفرض طاعته وتظهر المعجزات على يديه ، وعلمه محيط بما يتعلق بالشريعة لا يبنّد عنه شىء ، وذلك يحصل له تلقائيًا بطريق العلم اللدنى ، ويظهر كحجة لله تعالى فى كل زمن إلى قيام يوم القيامة .

ويقول العلامة محمد أبو زهرة فى كتب « تاريخ المذاهب الإسلامية » الجزء الأول بعدما استعرض عقائد الفرقة الإمامية ، وما قال علماؤهم الكبار فى الإمام والإمامة :

هذه إشارات موجزة إلى منزلة الإمام عند الإمامية والاثنا عشرية ، ويظهر أن الإمامية جميعًا على رأيهم فى هذا النظر ، وليس مقام الإمام ومقاربته لمقام النبى عندهم موضع خلاف ، فانهم يصرحون . تصريحًا قاطعًا ، بأن الوصى لا يفرقه عن النبى إلاَّ شىء ، واحد ، وهو أنه لا يوحى إليه » (ص ٥٩) . وقد جاء فى رسالة « خطاب الامام الخمينى حول ١ ـ مسألة تحرير= =

الرسول وتغييره للنفوس ، ويتّهم تربيته المؤثرة المنجبة بالنقص والتقصير ، وينافى معنى هذه الآية الكريمة : ﴿ **هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة** ﴾ [١] ، وكانت اثار هذه الفرقة ـ لأسباب سياسية وعلمية مختلفة ـ تنتشر ـ بسرعة ـ فى الهند انتشاراً واسعًا ، ويتأثر المجتمع المسلم ـ الذى كانت أكثريته سنية المعتقد والمذهب ـ بعقائدها وتصوراتها ، وأفكارها وآرائها ، وتقاليدها وعاداتها ، تأثراً كبيراً .

وهكذا فتح الإمام السرهندى بمفتاح تجديد الإيمان بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإعادة الثقة برسالتـه ، جميع الأقفال المعقدة الثقـيلة التى اخترعتها الفلسفـة الإيرانية واليونانية ، والإشراقية المصرية [٢] ،والهندية، وأصاب مقتل هذه الفتن كلها التى تهـدف الطبقة المثقفة من المسلمين ، بسهم واحد مسدّد ، ورميه مصيبة قاتلة .

عجز العقل والكشف وإخفاقهما

فى إدراك حقائق ما وراء الطبيعة :

إن العمل التجـديدى الذى قام به الإمام السرهندى هو أنه أثبت عـجز العقل والكشف وقـصورهمـا فى إدراك الأمور الغـيـبيـة ، والعلوم التى هى وراء طور العـقل ، والمعرفـة الصحـيحة لذات الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ وصفاته ـ وإحراز الـعلم الذى لا يشوبه شك ، والحقائق الثابتة القطعية التى لا تخالجها شبهة ـ بحتمية ويقين ، وإن النتائج المكتسبة بهما لا تخلو من الشك والريبة، والخطأ والزلة ، وسوء الفهم والتحريف ، ولا يمكن إدراك المعرفة

= القدس ٢ ــ مسألة المهدى المنتظر ـ « التى نشرها مركـز الاعلام العالمى للثورة الإسلامية فى إيران . . طهران ص ب ، ٣٩٣١ ـ ٢١ ، بمناسبة الحديث عن نقد مفتى مصر . ومسألة الامام المهدى: عندما نتـحدث حول هذا الموضوع ونقـول بأن الأنبياء لم يوفقـوا فى تنفيذ مقـاصدهم ، وأن الله سبحـانه وتعالى يبعث فى آخر الزمان شـخصًا يقوم بتنفـيذ مسائل الأنبيـاء ، فإن هؤلاء المساكين يقومون عن غير فهم بتأويل كلامنا خدمة للأجانب » ص ٢٢) .

وبذلك اعترف الخمينى بصحة نسبه ما شاع عنه من قول ان الأنبياء لم يوفقوا فى تنفيذ مقاصدهم، وان الأمام المهدى سيوفق فى ذلك ، وبذلك يفهم اعتقاد الشيعة فى الأئمة وفى الامام المهدى .

(١) سورة الجمعة ـ ٢ .

(٢) التى تسمى « الافلاطونيـة الحديثة» NEOPATONISM) وكان مركـزها الاسكندرية ، وكانت مـصـر مركـزًا كـبـيرًا للأفـلاطونية الحـديثـة (NEOPLATONISM) نشـأ فـيـه فـلاطنس (PLATONUS) وبارفرى) (PORPGYER وبراكلس (PROCLUS) وأسست مدرسة جديدة للأفلاطونية الحديثة .

الصحيحة لذات الله سبحانه - وصفاته إلاَّ عن طريق الأنبياء والمرسلين ، وإذا كان العقل وراء طور الحس ، فإن النبوة وراء طور العقل، ولا سبيل إلى معرفة الطريقة الصحيحة لتقديس الله وتعظيمه وتحميده ، وتمجيده إلاَّ النبوة ، وتعاليم الأنبياء وأخبارهم .

وقد وقع حكماء اليونان بهذا الصدد فى زلاّت خطيرة ، وأخطاء فاحشة، فكما أن العقل الخالص ، والعقل المجرد ليس له وجود ،وكذلك الكشف الخالص ، والكشف المجرد - الذى يكون بعيداً عن التأثيرات الخارجية ، والأهواء الداخلية صعب الوجود ، بل عديم الوجود ، وقد زلت أقدام الإشراقيين ، وأصحاب صفاء النفس وسمو الروح ، ووقعوا فريسة الأوهام والجهالات كما زل زعماء العقل والفلسفة ، فالعقل والإشراق لا يغنيان فى الحصول على اليقين والوصول إلى الله شيئًا ، والبعثة المحمدية ، والرسالة النبوية هى الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذات الله - تعالى شأنه - وصفاته ، وأحكامه .

وأعلن أن من المستحيل تجرد العقل وخلوصه ، وأن العقل - كالحواس الأخرى - يتأثر بالعقائد والمسلمات الداخلية ، والعوامل والتأثيرات الخارجية أن كثيراً من استنتاجاته ، وأحكامه تتلون بالألوان الخارجية ، التى يكون وجودها فى داخله أو باطنه ، وتمتزج بها ، وأثبت أن العقل قاصر عن أن يكون حجة وبرهانًا ، وأن بعثه الأنبياء هى الحجة البالغة ، ولا سبيل إلى التزكية الحقيقية بدون الاهتداء بهذه البعثة .

وأقام حدًا فاصلا ، وفارقًا واضحًا بن صفاء النفس ، وصفاء القلب ، وبينّ هذا الفارق بينهما ، وأثبت أن المصدق لرسالة الأنبياء ، والمؤمن بها من أصحاب الاستدلال والبرهان ، وأن إخضاع أخبار الأنبياء للعقل إنكار للنبوة وبين هذه النقطة بإيضاح : أن التعارض مع العقل شىء ، وأن يكون الأمر فوق مدارك العقل ووراء طوره شىء آخر .

إن هذه التحقيقات الدقيقة المبنية على العقل والكشف ، والتى ساعدها التأييد الإلهى ، والنور المقتبس من مشكاة النبوة ، هى تلك العلوم والمعارف الدقيقة التى أحدثت ضجة فى الأوساط العلمية والروحية ، وفتحت بابًا جديداً للتأمل والتفكير ، وزيّف كثيراً من «الحقائق السائدة » فى الأوساط العلمية والعقلية ، ونادت بعظمة النبوات والشرائع السماوية، وصدقها وجلالها ، وأعادت الثقة إليها من جديد ، وهى المأثرة التجديدية الثورية ، والعلمية الدقيقة التى لم تكن وليد المناهج الدراسية السائدة فى ذلك العصر ، ونتاج البيئة العلمية والجهود العقلية وحدها إذ أنه عالج فيها أموراً لم تتوصل إليها الأوساط العقلانية والفلسفية ، إلا بعد قرون ، وشهدت على صدقها وثبوتها التجارب العلمية والروحية ، لقد كان ذلك نتيجة التأييد الربانى ، والهداية الإلهية التى اختارته عند

بداية الألف الثانى لتجديد هذا الدين ، والدفاع عن النبوة المحمدية والذبّ عن الشريعة الإسلامية ، وكان جائزة ذلك الإخلاص ، والحمية الدينية والمتابعة الكاملة لخاتم النبيين - ﷺ - التى تمسك بها من أول الطريق وعض عليها بالنواجذ .

وينبغى - لتفصيل هذا الإجمال ، وشرح هذه الإشارات - التأمل فى تلك الخلفيات والأوضاع التى تتجلى فيها قيمة هذه التحقيقات العلمية ، وإدراكها بأبعادها وعلى حقيقتها.

التساؤلات الأساسية ، والمحاولات المختلفة للإجابة عليها ، ونقدها ودراستها :

إن التساؤلات الأساسية الأولية عن الدين وهذا الكون ، التى تعتمد عليها استقامة هذه الحياة وتنظيمها تنظيمًا سليمًا ، وتدور عليها سعادة الآخرة والنجاة من عذابها ، هى : من صانع هذا الكون ؟ وما هى صفاته وخصائصه ؟ وما هى علاقته بنا ؟ وكيف ينبغى أن تكون صلتنا به ؟ ، وما هى وضعية هذه الصلة ؟ ، وما هى الأمور التى يحبها ويرضاها؟ ، وأخرى يبغضها ويسخط عليها ؟ ، وهل بعد هذه الحياة الراهنة ، حياة أخرى ؟ وإن كانت فما هى طبيعتها وحقيقتها ؟ ، وما هى التعاليم والإرشادات المتعلقة بها ؟ .

وللإجابة على هذه التساؤلات بتفصيل ودقة ، لابد أن يتعرض المجيب للبحث فى ذات الله - سبحانه وتعالى - وصفاته ، وأفعاله ، وحدوث العالم أو قدمه ، ووجود الجنة والنار ، والوحى والملائكة ، ومباحث أخرى تتعلق بما وراء الطبيعة ، وهى تحتل مكانة العقائد الأساسية ، وأصول الديانة الأولية .

وقد نحى المعنيون بهذه المباحث للإجابة على هذه الأسئلة ، وحل هذه المشاكل نحو تجربتين اثنتين بصفة عامة ، تجربة العقل والإدراك ، وتجربة الروحانية والإشراق ، وكان من نتيجة التجربة الأولى ظهور الفلسفة ، ونتيجة التجربة الثانية نشأة التصوف الإشراقى .

ولكن هاتين التجربتين والمحاولتين الأوليتين - بالنظر إلى أصول النقد والموضوعية العلمية - مبنيتان - أساسًا - على الخطأ والمغالطات ، ويتسنى لنا قبل أن ننقل مقتبسات من رسائل الإمام السرهندى ، أن نتناول هذا الموضوع - توطئة وتمهيدًا - بشىء من الشرح والإيضاح .

الخطوة التجديدية فى نقد العقل المجرد ، والكشف الخالص :

ينبغى - قبل كل شىء - أن لا ننسى أن العقل ليس حرًا طليقًا فى أداء مسئوليته الطبيعية ، من الاكتشاف ، والتحقيق ، . والاستدلال ، وأنه فى حاجة إلى أشياء أقل منه شأنًا ، وأتفه منه قيمة ، وأن دوره الأصيل هو التوصل من المحسوسات والمعلومات والتجارب

السابقة ، إلى أمور غير محسوسة ومعلومة ، وأن يصل بترتيبها علميًا بالاستعانة بذخيرة هذه المعلومات ، والمبادىء ، والمقدمات ، إلى نتائج لم تكن حاصلة له من قبل ، وما كان يمكنه الحصول عليها ، بالاعتماد على الحواس والتجارب ، فإننا إذا نقدنا جميع المعقولات وحللناها تحليلاً علميًا يتضح لنا أ العقل لم يصل إلى هذه الحقائق الدقيقة والمعارف العالية إلا عن طريق هذه المحسوسات التافهة ، والمعلومات البدائية البسيطة ، التى لم تكن تؤدى بنفسها ـ من غير مساعدة الترتيب العقلى والعلمى ـ إلى هذه النتائج الخطيرة ذات القيمة العظيمة .

فمن الظاهر البديهى أن المجالات التى لا تستطيع الحواس البشرية أن تعمل فيها ، ولا تملك أن ركيزة لمعلوماتها الأساسية ، ولا تعرف مباديها وأولياتها ، ولا يمكن أن يكون لديها أى تقدير وتجربة لحقيقتها ، ولا دخل للقياس فيها ، فأنى للعقل والذكاء والقياس والتخمين أن يصول فيها ويجول ؟ . إن العقل ليعجز فيها عن أن يصل إلى نتيجة ما من النتائج ، ويقف مقصوص الجناح ، مثلما يعجز الإنسان عن أن يعبر البحر بغير سفينة ، أو يطير فى الجو على غير طائرة ، وليس فى إمكان أى فطن ذكى أن يحل مسألة فى علم الرياضيات من دون أن يكون له علم بالأعداد والحساب ، كما أن من لم يعرف الخط المستعمل فى لغة من اللغات ، ولا يعرف حروفها الهجائية (ALPHABET) لا يستطيع أن يقرأ سطراً واحداً من هذه اللغة مهما كان ذكاؤه وعبقريته ، ومهما استخدم العلل والقياس ، ومهما كدّ وجدّ ، كذلك يستحيل أن يستقل العقل فى الإجابة على هذه الأسئلة الخطيرة لأن الإنسان لا يعرف مباديها وأولياتها ، وهى لا تقبل القياس والتقدير .

والحقيقة الثانية أن قوة العقل ، ودائرة عمله ضيقة محدودة ، فله نطاق لا يتعداه ، وكما أن القوى الحسية فى الإنسان ، لها دوائر ومجالات لا تتجاوزها ، فحاسة البصر تلتقط آلافًا من المبصرات ، ولكنها لا تستطيع أن تسمع ، ولا صوتا واحداً ، وكذا الحواس الأخرى ، ثم إن قوة هذه الحواس وعملها فى دوائرها الخالصة ، وفى محسوسات خاصة ، ليست مطلقة غير محدودة .

كذلك العقل بالرغم من أن مجاله أفسح ، ودائرته أوسع من هذه الحواس الظاهرة إلاّ أنه محدود ، لا يتعدى طوره ، وفى تعبير ابن خلدون العلمى الدقيق :

« العقل ميزان صحيح فأحكامه لا كذب فيها ، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور

التوحيد والآخرة وحقيقة النبـوة ، وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره ، فإن ذلك طمع فى محال ، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذى يوزن به الذهب . فطمع أن يزن به الجبـال ، وهذا لا يدّل على أن الميزان فى أحكامـه غيـر صادق ، لكن العـقل قد يقف عنده، ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته ، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه » [١] .

والحقيقة الثالثة أن العقل يستعصى عليه التجرد الكامل من الشوائب الخارجية ، والحياد التام فى الأحكام والنتائج ، ويعرف العلماء المطلعون حقيقته ، أنه ليس هناك شىء أندر فى الوجود من « العقل الخالص » و«العقل المجرد » ، فإنه يصعب عليه التحرر والانطلاق من تأثير العواطف والرغبات ، والميول والنزعات ، وتأثير البـيئة ، والتربية الخاصة ، والدراسة الخاصة ، والعقائد والنظريات الخاصة ، وتأثير الوهم والخيال ، والسهو والنسيان ، ولأجل ذلك فإنه من المستبعد أن تكون أحكامه صادقة ـ دائمًا ـ ونتائجه حتمية يقينية .

ولكن الذى يستـغرب ويتعجب منه أن الفلاسـفة ـ بصرف النظر عن هذه الحقـائق البينة كلها ـ أخطأوا فى تحـديد موضوعهم ، وبحـثوا فى ذات الله وصفاته ، وما يتـعلق بها من أمور غيبية ـ من غيـر أن تكون لديهم مواد هذا الموضوع وعدته ، ومن غير أن يكونوا على علم وبصيـرة ، فى تفصيل وتدقيق وثقـة واعتماد لا يليق إلا بالخـبير الكيمـاوى الذ يقوم بالتـحليل والتـجـزئة ، والفـحص والدراسة فى المـعامل الكـيمـيـاوية ، فكانت بحـوثهم وتدقيقاتهم هذه عـبارة عن الظن والتخمين ، ومجموعة طلاسم خـيالية ، وبناءً واهيًا على أساس القياس المجرد ، وهى فى علم الالهـيات بمثابة «حكايات ألف ليلة وليلة » و « قصة عنترة [٢] » مما سنقف على نماذج منها فى السطور الآتية .

وبإزاء هذه المحاولة العـقلية والفلسفيـة ، محاولة أخرى ، وهى «الأشـراق» ومن مبائه الأساسية أن العقل ، والعلم ، والبرهان ، والاستدلال ، لا تنفع فى البحث عن اليقين ، والوصول إلى الحق شيئًا ، بل ضررها أكبر من نفعها ، وأن الشرط الأساسى لمعرفة الصدق والحقـيقـة هو الشهود أو المشـاهدة ، ولا تتيـسر هذه المشـاهدة إلاَّ بنور الباطن ، وصـفاء النفس، وتنبيه حاسة داخلية تدرك الحقائق الروحية ، وما وراء الطبيعيات ، كما تدرك هذه العيون الظاهرة الأشـياء المبصرة الظاهرة ، ولا تتولد هذه الحاسـة إلا بالقضاء على المادية ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ، طبعة دار الفكر ـ بيروت .

(٢) مجموع حكايات وأساطير .

الحـواس الظاهرة إماتـة كاملة ، فـهـذه الحكمة الإشـراقـية ، والنور البـاطنى الذى ينشـأ بالرياضات والمجاهدات ، والتأملات والمراقبات ، ويـكون مجردًا خالصًا عن كل شائبة من شوائب العالم الخارجى ، هو الوسيلة الوحيدة للحصول على الحقيقة .

إن وجود هذه الحاسة الزائدة أمر لا شك فـيه ، بل يمكن أن تكون هناك حواس أخرى كهذه ولكن على كل حال فإنهـا حاسة إنسانية ضعيفة مـحدودة ، مثل الحواس الأخرى ، قابلة للخطأ ، والتأثر بالعـوامل الخارجية ، شأن سائر القوى الإنسـانية ، ووسائل الكشف للعلم ، وما الدليل على أن هذه الحـاسة ليست محدودة ، ولا قـابلة للأخطاء ولا تتعرض محسوسـاتها ومشاهداتها للغلط ، والانخداع ، والغـرور بالنفس ؟ ، ولو كان الأمر كذلك لما كان فى نـتائجهـا تعارض ولا تناقض ، ولم يخـالجهـا اضطراب أو إمكان للخطأ ، ولـم تتورط فى مزالق وأغاليط فى القضايا المهمة الحاسمة كما هو الواقع [1] .

وعلى كل فإن هذه « الحكمـة الخاصة » يصعب عليهـا كالعقل أن تتجرد تجـردًا كاملاً ، فإنهـا كذلك تتأثر بالعـوامل الخارجيـة ، والأشياء الظاهرة والبـاطنة وتنعكس عليهـا ظلالها وأشباحـها ، ولا تصور هذه المرآة كـذلك ، الحقائق تصويرًا صـحيحًا ، وتنطبع عليـها آثار البيـئة الإشراقـية ، وعقائـدها ومسلماتهـا ، وتتأثر مشـاهداتها هذا التأثر الخـفى الدقيق ، ولأجل ذلك كان كـثيـر من الإشراقيين يـرون فى كشوفـهم ومشـاهداتهم تأييدًا لكثـير من الأساطير والخرافـات اليونانية والمصرية ، التى لا يسيغهـا العقل ، ولا تقوم إلا على أساس الوهم والخيـال ، وتتشكل كـثير من الفـرضيات والتـخمينات ، بشكـل الحقائق الثـابتة ، والمسلمات البديهية ، وليس لها فى العالم الخارجى وجود[2] .

ثم إن هذه التساؤلات المذكورة ـ أعلاه ـ كما هى خارجة عن نطاق الفلسفة وحدودها ، كذلك هى خـارجة عن نطاق الإشراق وحـدوده ، إنه قد يساعـد فى اكتشاف أسـرار عالم الأرواح وعجائبـه ، ويرى صورًا وألوانًا ، ويسمع أصداءً وأصـواتًا ، ولكنه على جهل تام بالعلم التفصيلى لمشيئة الله ، وقوانينه وأحكام شـريعته ، وأحوال الدار الآخرة وحقائقها ، كما يجهلها الإنسان العادى الذى لم يعرف مبادىء الإشراق [3] .

---

(١) راجع للأمـثلة والتفـاصـيل كتـاب المؤلف « بين الدين والمدينة » ، ص ٢٨ ـ ٢٩ ، البـاب الأول خاص ببحث « الإشراف » .

(٢) انظر « بين الدين والمدينة » للمؤلف ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

(٣) أيضًا ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

والحقيقة أن كلاً من الفلسفة والإشراق يتجهان اتجاهًا واحدًا ، وتسيطر عليهما روح واحدة ، وكلاهما يحاولان التوصل إلى الحقيقة بطرح وساطة الأنبياء والمرسلين ، وأن غاية الفريقين واحدة ، وإن تعددت الطرق فأحدهما يريد الوصول إلى غايته مشيًا على الأرض ، وآخر عن طريق التحليق فى الجو ، أو عن طريق خفى من سرداب (الطريق الروحى والإشراقى) [1] .

ولكن الحقيقة ، ولب لباب والعرفان أنه لا طريق إلى هذه الحقائق والمعارف ، إلاَّ طريق الأنبياء ، الذين شرفهم الله ـ تعالى ـ بمنصب النبوة والرسالة ورزقهم أكبر قسط من العلم بذاته وصفاته ، وبملكوت السماوات والأرض ، وأخبرهم ـ مباشرة ومن دون وسائط ـ بما يرضاه وما لا يرضاه ، وبما يأمره وما ينهى عنه ، وجعلهم وسائط بينه وبين خلقه وأن نبوتهم ورسالتهم منّة عظيمة على هذه الدنيا ، ونعمة ظاهرة ، وما يعطونه من علم جليل بذات الله وصفاته العليا ، وأسمائه الحسنى ـ من غير مشقة ، وبدون مقابل ـ لا يمكن إحراز ذرة من ذراته ، وبالتأملات الفلسفية ، والبحث والاستدلال على مدى آلاف السنوات ، وبالمجاهدات الشاقة ، وتصفية النفس ، والمراقبة والتفكير لأعوام وسنين .

﴿ **ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون**﴾ [2] .

وما أصدق ما قال القرآن : ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾ ، نعم إن الفلاسفة والإشراقيين لا يقدرون هذه النعمة ، ولا يشكرون هذه اليد المعطاة ويريدون أن يصلوا إلى الحقائق بمجادلاتهم الكلية التى قد أغناهم الله عنها ، وليست نتيجة هذه الجهود والمحاولات عبر الآلاف المؤلفة من القرون إلاَّ أقوالاً ينقض بعضها بعضًا ، وتحقيقات تتصادم وتتعارض ويضحك عليها صبيان الكتاتيب ، وهى كل تراثهم ومتاعهم فى علم « الإلهيات » وأنهم بدل أن يقربوا أتباعهم وتلامذتهم إلى ربهم ، أبعدوهم عنه ، وأوقعوهم فى الجهل المشين بذات الله وصفاته ، وقلة اليقين ، والاستغناء عن الرجوع إليه ﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار** [3] ﴾ .

إن الإمام السرهندى على علم عميق ، ودراية كاملة بكلتا الناحيتين ، «الفلسفة» و«الروحانية » وهو ـ على جانب آخر ـ من ورثة علوم الأنبياء والمرسلين ، والعارفين

---

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(٢) سورة يوسف ، ٣٨ .

(٣) سورة إبراهيم ـ ٢٨ .

البصيرين بمكانة الوحى والرسالة ، فكان نقده للفلاسفة والإشراقيين نقدًا علميًا موضوعيًا، يدل على جامعيته ورسوخه فى العلم ، وأن هذا المبحث المهم هو النقطة الرئيسية والمحور الأساسى لعلمه التجديدى العظيم ، لأن أساس الشريعة الإلهية ، والنظام الدينيى بأسره يقوم على البت فى هذه القضية ، والحكم الحاسم فيها ، وهى أنه ما هو المنبع الأصلى ، والمصدر الأساسى للحصول على العلم القطعى ، واليقين الذى لا يداخله شك ، والمعرفة الضرورية للذات الإلهية وصفاتها ، وبدء الكائن الإنسانى ونهايته ، ونجاحه وسعادته ؟ هل يكون مصدرها التأملات الفلسفية ، والبحث العلمى والاستدلال المنطقى ـ الجوانب التى تمثلها الفلسفة ـ أو النور الباطنى ، ومجاهدة النفس وتصفية القلب ، وتزكية الباطن ، والمشاهدات والكشوف التى تحصل من الحواس الباطنة، والقوى الروحية ـ الجوانب التى يمثلها « الإشراق » ؟ أو أن مصدرها اتباع الأنبياء والإيمان بهم والتسليم لهم ؟ هذه هي نقطة البداية التى تفرق منها السبل ، وتتجه هذه الجهات الثلاث ، فلا تلتقى ولا تتصافح أبدًا **﴿وأن هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾** (١) .

وما صدر فى هذا الصدد بقلم الإمام السرهندى ، من تحقيقات نادرة ، وعلوم دقيقة ومعارف عالية متناثرة فى المجاميع الضخمة لرسائله العلمية القوية ، أقدم ترجمة شىء منها بعناوين مختلفة معبرة .

قصور العقل وعجزه فى إثبات صانع الكون ومعرفة صفاته الكاملة :

« نحمد الله ـ عز وجل ـ الذى أنعم علينا بالهداية إلى الإسلام ، وجعلنا فى أمة محمد ـ ﷺ ـ وأن الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلوات والتسليم ـ رحمة للعالمين ، لأن الله عز وجل ـ أخبرنا نحن أصحاب العقول القاصرة ، والأذهان الكليلة العاجزة ـ عن طريقهم ـ بذاته العلية وصفاته العظيمة ، وخاطبنا فى بيان صفاته الكاملة ، وذاته الجليلة على قدر عقولنا المحدودة ! ومداركنا الضعيفة ، وميز بين ما يرضاه ، تمييزًا تامًا ، وأوضح لنا المنافع والمضار فى الدنيا والآخرة ، فلو لم تكن بيننا وبينه وساطة هؤلاء المصطفين لعييت العقول البشرية ، وعجزت عن إثبات صانع هذا الكون وباءت بالخيبة والكلال فى معرفة كماله وعظمته ، لقد كان الفلاسفة القدماء الذين كانوا يعتبرون أنفسهم حكماء أزكياء ، أنكروا

(١) سورة الأنعام – ١٥٣ .

صنع الكون ، ونسبوا الأشياء ـ لقصور أفهامهم وضعف مداركهم ـ إلى الدهر ، وأن مناقشة نمرود مع إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى خالق الأرض والسماوات ، معروفة مذكورة فى القرآن الكريم ، فكان فرعون الشقى يقول : « ما علمت لكم من إله غيرى » وقال مخاطبًا لموسى ـ عليه السلام ـ : « لئن اتخذت إلهًا غيرى لأجعلنك من المسجونين »، وهو ذلك الشقى المحروم الذى وجه خطابه إلى هامان : ﴿ **يا هامان ابن لى صرحًا لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السماوات فأطلع إلى اله موسى ، وإنى لأظنه كاذبًا** ﴾ ، فخلاصة الأمر أن العقل كليل عاجز كل العجز عن الوصول إلى هذه الثورة العظيمة ، وأن لا سبيل إليها إلا هدى الأنبياء وتعاليمهم » [1] .

سفاهات حكماء اليونان فى المعرفة الإلهية :

إن خالق هذا الكون ومنظمه ، وحاكمه الذى يسميه فلاسفة اليونان «المبدأ الأول » ، الذى بحث فى كيفية خلقه ، ونشأة الكون من أمره ، هولاء الفلاسفة ، لو شقوا الشعرة، وتخيلوا أمورًا ، وافتراضات ، ثم بنوا على هذا الأساس الخيالى المنهار عمارات شاهقة ، ناطحة للسحاب ، يتكفل بشرحها وتفصيلها كتب الفلسفة ، وتعلق عليها وتنقدها كتب العقائد وعلم الكلام ، فيمكن أن يراجعها القارىء للوقوف على تفاصيلها ، وليس هنا مجال لإثارتها ومناقشتها .

ولكن ينبغى ، لإدراك أفكار الإمام السرهندى وآرائه ، ومعارفه العالية ، وللاطلاع على ذلك العامل الذى يفجر قلم الإمام كالشلال الهادر ، يدفعه فى قوة وحماس للرد على تلك الأخيلة والافتراضات التى اخترعتها الفلسفة بقوتها المتخيلة وبنت على أساسها كل ما بنت، أن نقدم هنا « شجرة نسب» العقل الفعال الذى هو الموثر الأصيل ، والمدبر الحقيقى لهذا الكون عند فلاسفة اليونان ، فصوروها ، ووضعوا عليها أساس الخلق والأمر ، وهناك الاف من الزدلة والبراهين مؤيدة لها أو معارضة ، ولكننا هنا نقتصر على ذكر هذه الشجرة فحسب :

« المبدأ الأول واحد من كل وجه ، ومن المسلم أن الواحد لا يصدر منه إلاَّ الواحد ، والعالم مركب من أشياء مختلفة ، فلا يتصور أن يكون فعلاً لله ، والمبدأ الأول ، فاض من وجوده العقل الأول وهو موجود قائم بنفسه ليس بجسمه لا منطبع فى جسم ، يعرف

---

(١) الرسالة رقم : ٢٣ المجموعة الثالثة كتبها الى خواجه إبراهيم قيادياني .

نفسه ويعرف مبدأه ، وقد سميناه العقل الأول ولا مشاحة فى الأسامى ، سمى ملكًا أو عقلاً أو ما أريد ، ويلزم عن وجوده ثلاثة أمور : عقل ، ونفس الفلك الأقصى وهو السماء التاسعة ، وجرم الفلك الأقصى ثم لزم من العقل الثانى ، عقل ثالث ، ونفس فلك الكواكب وجرمه ، ثم لزم من العقل الثالث عقل رابع ، ونفس فلك زحل وجرمه ، ولزم من العقل الرابع عقل خامس ، ونفس فلك المشترى وجرمه ، وهكذا حتى انتهى إلى العقل الذى لزم منه عقل ونفس فلك القمر وجرمه ، والعقل الأخير وهو الذى يسمى العقل الفعال ، لزم منه حشو فلك القمر ، وهى المادة الكاملة للكون والفساد ، من العقد الفعال ، وطبائع الأفلاك ، ثم إن المواد تمتزج بسبب حكرات الكواكب امتزاجات مختلفة ، يحصل منها المعادن والنبات ، والحيوان ، . . . . الخ، فخرج منه أن العقول عشرة والأفلاك تسعة » [١] .

هذا هو علم الأصنام لدى حكماء اليونان ، الذى سموه الفلسفة وعلم الإلهيات ، وبدأ الناس يتأملون فيه ، ويتناقشون بجد وإخلاص ، أو أنها الأساطير الخيالية ، والافتراضات الوهمية ، وروايات ألف ليلة وليلة يتذكر الإنسان تلقائيًا عند الوقوف عليها ، قول الله تعالى : ﴿ **ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ، ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضدا**﴾ [٢] .

وما أصدق ما قال الإمام الغزالى بعد نقل هذه الشجرة الوهمية الباسقة :

« ما ذكر تموه تحكمات وهى على التحقيق ظلمات فوق ظلمات ، لو حكاه الإنسان عن منام رآه لاستُدِلَّ به على سوء مزاجه » [٣] .

وقال فى موضع آخر : « فلست أدرى كيف يقنع المجنون من نفسه بمثل هذه الأوضاع فضلاً عن العقلاء الذين يشقون الشَّعْرَة بزعمهم فى المعقولات[٤] .

إن هولاء الفلاسفة سلبوا من ذات الله ـ سبحانه وتعالى ـ كل صفات الجلال والكمال ، ونفوا خلقه وإبداعه لجميع المخلوقات ، ونفوا عنه القدرة والاختيار ، وأثبتوه جامدًا لا يتحرك ولا يعمل ، وفعلوا كل ذلك ـ بزعمهم ـ لتنزيه « واجب الوجود » ، وتقديسه

---

(١) « تهافت الفلاسفة » ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(٢) سورة الكهف ـ ٥١ .

(٣) تهافت الفلاسفة ص ٣١ .

(٤) أيضًا ص ٣٤ .

وتعظيمه ، ولا يتمالك الإمام الغزالى بهذه المناسبة إلاَّ أن يقول :

« ومن قنع أن يكون قوله فى الله - تعالى - راجعًا إلى هذه الرتبة فقد جعله أحقر من كل موجود يعقل نفسه ، ولا يعقل غيره ، فإن من يعقله ويعقل نفسه أشرف منه ، إذا كان هو لا يعقل إلا نفسه ، فقد انتهى بهم التعمق فى التعظيم إلى أن أبطلوا كل م يفهم من العظمة ، وقرَّبوا حاله من حال الميِّت الذى لا خبر له بما يجرى فى العالم إلى أنه فارق الميت فى شعوره بنفسه فقط ، وهكذا يفعل الله بالزائغين عن سبيله ،والناكبين عن طريق الهدى ، المنكرين لقوله - تعالى - ﴿ **ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم** ﴾ . ، الظانين بالله السوء ، المعتقدين أن أمور الربوبية يستولى على كنهها القوى البشرية المغرورين بعقولهم ، زاعمين أن فيها مندوحة عن تقليد الرسل وأتباعهم ، فلا جرم اضطروا ألى الاعتراف بأن لباب معقولاتهم رجعت إلى ما لو حكى فى منام لتعجب منه[1] » .

وتنبعث فى الإنسان عواطف الشكر والتقدير عندما يرى للفلسفة وتأملاتها هذا المصير ، ﴿ **وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾ وأن هذا الإخفاق الذريع فى القضايا الإلهية الذى مُنِى به فلاسفة اليونان وحكماؤها - الذين أحرزوا النجاح بعقلهم وذكائهم فى العلوم الرياضية ، والعلوم التطبيقية ، وهذا العجز والقصور الذى أصيب به العقل فى هذا المجال موضع عبرة ودرس ، حيث إنهم نسبوا إلى الله - سبحانه وتعالى - ما يستنكفون عن نسبته إلى أنفسهم ، وإلى أحقر المخلوقات فى العالم وقرَّروا أنه فاقد القدرة والعلم والاختيار ، ليس له دخل فى إحداث العالم ، وظنوا ذلك غاية التنزية والتقديس : ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ،والحمد لله رب العالمين** ﴾ .

ولنلق نظرة على أقوال الإمام السرهندى وتحقيقاته التى اقتطفناها من رسائله يقول :

« إذا كان العقل يكفى للمعرفة الإلهية ، لما كان فلاسفة اليونان - الذين جعلوا العقل إمامهم وقائدهم - حيارى تائهين فى بيداء الضلال ، ولكانوا أعلم بالله ، وأعرف به من غيرهم ، والحال أنهم أجهل الناس لذات الله - عز وجل - وصفاته وأسمائه إذ أنهم ظنوا الله - تعالى شأنه - وجودًا يتسم بالتعطل والبطالة ، ولا يعتقدون أنه خلق شيئًا سوى شىء واحد ، وهو «العقل الفعال » ، وقد كان صدوره من الله - تعالى - اضطرارًا لا عن قدرة

---

(١) أيضًا ، ص ٣٢ .

واختيـار ، إنهم هم الذين اخترعوا ـ بعقولهـم ـ العقل الفعال ، فينسبـون الحوادث إليه ، بدلاً من أن ينسبوها إلى خالق الأرض والسماوات ، ويفترون أن الأثر بالمؤثر الحقيقى ، بل بما زوروه من العـقل الفعـال ، لأن المعلول عندهم نـتيـجة للعلـة القريبـة ، ولا دخل فى حصول المعلول للعلة البـعيدة ، ويظنون ـ بجهلهم وقلة فهمهم ـ أن عـدم نسبة هذه الأمور إلى الله ـ تعالى ـ من صمـيم تنزيهه ، وعظيم كماله ، ويرون بطالتـه وتعطله عن أى عمل من تعظيمـه وتقديسه ، والحقـيقة أن الله ـ عز وجل ـ يصف نفـسـه بأنه خالق الـسموات والأرض ، ويعرف بذاته بأنه « رب المشرق والمغرب » .

إن هؤلاء السـفهـاء يعتـقدون ـ فى زعـمهـم ـ أنهم فى غنى عن الله ، وعن الخضـوع والإنابة إليه ، فلينيبوا ـ إذن ـ إلى « عقلهم الفعـال » لطلب الحاجات وتلبية الضرورات ، لأنه هو ـ فى نظرهم ـ صاحب السلطة الحـقة ، والقدرة الكاملة بل أن « العـقل الفعال » أيضًا ـ كما يزعمون ـ مقهور غير قادر على أداء أعماله فطلب الحاجات منه ، كذلك أمر غير معقول ومستسـاغ، والحق أن هولاء كما وصفهم القرآن الكريم ﴿ **لا وكيل لهم ولا نصير ، وأن الكافرين لا مولى لهم** ﴾ ، لا رب السماوات والأرض ينصرهم، ولا « العقل الفعال » يسـعفـهم وما هو هذا العـقل الذى يدبر الأمـور ، وينسب إليه الحـوادث ، وإبرازها إلى الوجود ؟ ، إن هناك آلافًا من الاعـتراضات على ثبوت هذا العـقل ووجوده ، إذ أن ثبوته ووجوده قائمان على مقدمـات فلسفية مفترضة ، ناقصة مـخدجة فى ضوء أصول الإسلام الصحيحـة وقواعده الثابتة ، وليس من يصرف الأشيـاء عن الإله القادر المريد ، والمختار ، وينسبهـا إلى الأشياء المتوهمة والمفـترضة ، إلا سفيـهًا يستحق الحجـر ، بل إن هذه الأشياء نفسها تشعر بالذل والعار فى نسبة خلقـها وإيجادها إلى شىء اختلقته الفلسفة ، ولا نصيب له من الواقع ، وإنها لتـرضى بالفناء ، وتحمد الموت والبلى ، ولا ترغب فى الحيـاة والبقاء مقابل أن تنسب إلى شىء فرضى وهمى لا أصل له فى الواقع ، وتحرم السعادة العظيمة فى سبتـها إلى القادر القـوى المختار ، ﴿ **كـبرت كـلمة تخـرج من أفـواههم ، إن يقـولون إلا كذبًا** ﴾ ، إن الكفـرة المشركين فى دار الحـرب ـ رغم عبـادتهم للأصنام والأوثان ـ خيـر من هؤلاء الفلاسفة ، إذ أنهم يتضرعون إلى الله عند الشدائد والكربات ، ويتوسلون بأوثانهم وأصنامهم إليه .

وأغرب من ذلك أن فريقًا من الناس يدعو هؤلاء السفـهاء (فلاسفة اليونان) بالحكماء ينسبهم إلى الحكمة ، إن معظم تحقيقاتهم فى القضايا الإلهية ـ التى هى المبحث الأسنى ـ خاطئة ، معارضة للكتاب والسنة ، فما هو وجه تلقـيبهم ـ وجل مباحثهم جهل وسفاهة ـ

بالحكماء اللهم إلا أن يكون سخرية منهم ، وضحكة عليهم ، أو كما يدعى الأعمى بالبصير»؟(١) .

لا كفاية لدى العقل فى إدراك الحقائق الدينية :

﴿ **الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾ ، بأى لسان نشكر الله ـ تعالى ـ ونحمده على إنعامه ببعثة الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلوات والتسليم ـ وبأى قلب نؤمن بذلك المنعم الجليل ، وأين الجوارح التى تكافىء ـ بالأعمال الحسنة ـ هذه النعمة العظيمة ؟ ، فلولا وجود هؤلاء ذوى الخيرات والبركات من كان يهدينا ـ نحن القاصرى العقول ـ إلى الإيمان بوجود خالق السماوات والأرض وتوحيده ، فإن فلاسفة اليونان المتقدمين ـ رغم ذكائهم وألمعيتهم ـ لم يهتدوا إلى خلق السماوات والأرض ، ونسبوا خلق الكون إلى الدهر ، ثم لما ظهرت دعوة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والتسليم ـ وتجلَّت ـ على مر الأيام ـ للعيان ، نهض الفلاسفة المتأخرون ـ بتأثير هذا النور وبركته ـ للرد على مذهب الفلاسفة المتقدمين واعتقدوا بوجود صانع الكون وأقرّوا بتوحيده ، فعقولنا ـ بدون نور النبوة ـ عاجزة قاصرة ، وإدراكنا من غير وساطة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كليل حسير » (٢) .

طور النبوة وراء العقل :

« إن طور النبوة وراء طور العقل والتفكير ، فالحقائق التى يعجز العقل عن إدراكها ، تأتى النبوة لتثبتها وتحققها ، ولو كان العقل كافيًا وحده ، لما بعث الأنبياء ـ صلوات الله تعالى وتسليماته عليهم أجمعين ـ ولما ربط عذاب الآخرة يبعثهم ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ ، والعقل حجة ، ولكنه ليس بحجة بالغة ، وليس فى حجته بكامل ، وقد تحققت الحجة البالغة ببعثة الأنبياء والرسل ، ـ عليهم الصلوات والتسليم ـ فقطعت ألسنة المكلفين ، وقضت على معاذيرهم ، يقول الله ـ تعالى : ﴿ **رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيمًا** ﴾ ولما ثبت عجز العقل وقصوره فى بعض القضايا ، فليس من المستحسن أن توزن جميع الأحكام الشرعية فى ميزان العقل ، وأن محاولة التطبيق بين العقل وبين الأحكام الشرعية ـ بصفة دائمة ـ

---

(١) الرسالة رقم : ٢٣ ، المجموعة الثالثة ، وهى موجهة الى خواجة ابراهيم قباديانى .

(٢) الرسالة رقم : ٢٥٩ ، المجموعة الأولى ، وهى مكتوبة إلى ابن الامام السرهندى الشيخ محمد سعيد .

دائمة ـ والتزام ذلك والتقيد به ، حكم بكفاية العقل وغناه ، وإنكار للنبوة . أعاذنا الله ـ تعالى ـ منه »[1] .

لا يمكن حياد العقل وتجرده ، ولا غناء عنده في معرفة الحقائق الإلهية ، وإن أمدّه الإشراق وصفاء النفس :

إن مما يبعث على العجب ـ ولا يمكن تأويله وتوجيهه إلا أنه قبس من التأييد الإلهى ، وإصابة الفكر ، وسداد الرأى ـ إنه فى هذا القرن العاشر ـ القرن السادس عشر المسيحى ـ الذى كانت تسود فيه العقلانية ، وكانت العلوم العقلية ـ بتأثير مقررات الفلسفة والمنطق تسيطر على جميع العالم ـ بصفة عامة ـ وعلى الهند وإيران ـ بصفة خاصة ـ التى كانت تقتصر على تدريس الفلسفة اليونانية ، والتى رفعت أفلاطون وأرسطو ، إلى مقام العصمة والقدسية ، حتى كان الاستنتاج العقلى من المقدمات العقلية ، على الطريقة المنطقية ، والتصريح بما صرح به فلاسفة اليونان ، وقرروه ، من القطعيات البديهيات ، يخرس الألسنة الذلقة ويغشى العيون المبصرة ، بل كان عُبَّاد الفلسفة والمنطق يسجدون عن طوع وخضوع أمام هذه الحقائق «المزعومة » .

فى مثل هذا الجو رفع الإمام السرهندى صوته ـ لأول مرة ـ فى حدود علمى ، بين علماء الإسلام ـ إن تجرد العقل عن صلة الجسم المادى وعن الأوهام والتصورات ، والعقائد ، والمسلمات السائدة فى بيئته ومحيطه ، وتحرره عن الميول النفسية ، والرغبات الداخلية ، والأخراق المتمكنة ، والعادات الراسخة شبه مستحيل ، حتى ولو كان الإشراق، وصفاء النفس يرافقانه فى الطريق ، ويمدانه بالمعونة ، فإن وصوله ـ متحرراً متجرداً عن التأثيرا الخارجية والداخلية ، والدراسة والتربية ، والمجتمع والبيئة ، ومما رسخت جذورها فيهما من عادات وتقاليد ، وأصبحت بمنزلة المسلمات والبديهيات ـ إلى حقيقة الأمر والواقع الصحيح وإصدار الحكم المنصف الحاسم ، ليس إلاّ شذوذاً ، و«الشاذ» كالمعدوم لا احتجاج به ولا اعتماد عليه ، إن هذا التحقيق الدقيق الذى كشف الإمام عن سره ، وضغط فى رسائله ـ عليه ـ مرات وكرات ، ليس كشفًا جديداً لعصره وبيئته ، بل إنما هو اكتشاف خطير فى عالم الأفكار والدراسات العلمية ، وإعلان تجديدى جرىء ، لم يقدر حق قدره ، ولم تعرف قيمته وأهميته حتى الآن ، بيد أنه كان يستحق أن

---

(١) الرسالة رقم : ٣٦ ، المجموعة الثالثة كتبها الى الشيخ مير محمد نعمان .

يجعل موضعًا مستقلاً للبحث والتحقيق ، والشرح والتفصيل .

ومن عجيب المصادفة ، وتوارد الخاطر ، أن الفيلسوف الألماني الشهير عما نوبل كنت (Emanuel Kant . 1724 -- 1804) بدأ ـ بعد قرابة قرنين من وفاة الإمام السرهندي ـ البحث الموضوعي ، والتحقيق العلمي في صلاحية العقل لتجرده ، وتحرره ، عن البيئة وعوامل الوراثة ، والعادات والمعتقدات والحكم الفاصل في قضية ما من القضايا ، إنه عيَّن حدود العقل ودوائره في شجاعة ووضوح ، ونشر كتابه الخير « نقد العقل الخالص » (Critique Of Pure Reason) عام ١٧٨١ م ، الذى أحدث هزة واضطرابًا في الأوساط الفكرية والفلسفية ، وكما يقول إقبال : «إنه هدم أعمال المتنورين وحولها كومة من تراب » [١] .

وقد أشاد الغرب بهذا العمل ، واعترف بقيمته العلمية وخطورته في مجال الدراسات ، اعترافًا لائقًا ، بمكانة الكتاب ، حتى قال القائلون :

«إنه كان منحة ربانية عظيمة للشعب الألماني » ويقول مؤلف « تاريخ الفلسفة الحديثة » الدكتور هيرالد هوفيدنك ، في تعليقه على هذا الكتاب : « إن هذا الكتاب قطعة حية خالدة تدل على عظمة الفلسفة وكمالها ، وأضاءت معالم الطريق في متاهات الفكر الإنساني وحيرته » [٢] .

يقول : « عما نويل كانت » : « إن الفكر يبدأ بمهمته بالدعاوى ، ويعتمد ـ عن غير شعور وفي معظم الحالات لسذاجته ـ على صحة مقدماته، ومفروضاته ، وطاقاته ، ويكون على ثقة ويقين بأنه يحل جميع المسائل ، ويصل إلى كنه الكون ، ثم يأتي عليه زمان يتجلى له فيه أن هذه الأبنية العقلية والفكرية ، لا تنطح السحاب ، ولا تسمو إلى الأفلاك ، لا يمكن الاتفاق عليها على خطة مبنية على الأعداد ، وهذه فترة الارتياب والتشكيك، وقد رأى أن هناك أمرًا متروكًا صرف النظر عنه كل من الادّعائيين ، والمتشككين ، وهو أنه من الواجب علينا البحث في عقلنا ، وإدراكنا وماهية علمنا ونوعيته ، ونكشف عن نوع الصور والقوى التي نتمتع بها لفهم الأشياء وإدراكها ، وإلى أي مدى نستطيع أن نسير في ضوئها[٣] .

---

(١) (The reconstruction Of religion thought in ISLAM).

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ، ج ٢ ص ٣٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠ ـ ٣١ .

ونود أن نقرأ ـ بعد هذا التمـهيد البسيط ـ التصريحات الواضـحة التى صدرت من عالم ومفكر مسلم ـ عاش فى الأوسـاط العلميـة والمدرسيـة المحدودة فى الهند ، وجـعل غاية حيـاته، وهدفهـا الأساسى ، علوم النبـوة والمعرفة الإلهـية ؛ ومـرضاة الله ، بدلاً من أن ينصرف كليًـا ، نحو الفلسـفة والمنطق ـ فى نقـد « العقل الخالص » بعـيدًا عن ملتـوياتها الفلسفية وتعقيداتها فى أسلوب سهل مبين .

يقول الإمام السرهندى ردًا على سؤال : إن العقل رغم كـونه بنفسه عاجزًا مشلولاً فى الأحكام الإلهية ، ولكن إذا نشأت ـ بحكـم صفاء النفس ، وإشراف الروح بينه وبين ذات الله ـ تعالى ـ مناسـبة خاصة ، واتصال خـاص غير متكيف ، بحـيث يقدر باستعـانته على الأخذ المباشر من حضرة القدس ، ولا يحتاج إلى البـعثة التى تتحقق بواسطة الأنبياء ، فما الرأى عندئذ ؟ .

« الإجابة هى أن العقل مهما اتصل وحـصل له من المناسبة مع الله ما حصل ، إلا أنه لا تزول علاقـته بالجسم العنصـري بتاتًا ، ولا يجد إلى الـتجرد الكامل ، والتـحرر المطلق سبـيلاً ، فالقـوة الوهمية تمسك بزمـامه ، والقوة المـتخيلة تأخـذ بلجامه ، وقـوة الغضب والشهوة كالظل المرافق ، وخصال الحرص والطمع الذميمة شعاره ودثاره ،والسهو والنسيان ـ وهما من لوازم الإنسـان ـ لا يبرحان ، والخطأ والغلط ـ وهمـا من خصائص البـشر ـ لا يزولان ، فليس العقل إذن جديرًا بالثقـة والاعتماد ، وليست أحكامه ونتائجـة متحررة من قيود الوهـم ، والتصرف والخيال ، وليـست بمصونة من اختـلاط السهو والنسيـان ، وشبه الخطأ والغـلط ، بعكس الملـك المنزة عن هذه الخـصـال ، والبـرىء من هـذه العيـون والتقصيـرات، فهو ـ لا محالة ـ جدير بالاعتـماد ، وأحكامه ونتائجه محـفوظة عن اقتراح الوهم والخيال وشبـه السهو والغلط والنسيان ويخـيل ـ فى بعض الأحيان ـ أن العلوم التى اكتسـبها الإنسان عن الطريقـة تختلط معهـا ـ عن غير إرادة وشعور ـ فى أدائـها إلى القَوى والحواس ـ مقدمات هى عـنده قطعيات ـ ولكنها غير حقيـقية ، بل جاءت عن طريق الوهم والخيـال ـ حتى يتـعسـر بينهمـا التميـيز ، وقـد يهتـدى الإنسان ـ فى حين آخر إلـى النقد والتميز، وقد لا يهتدى ، فلا جـرم أن هذه العلوم ـ لاختلاطها بهذه المقدمات تبقى موضع شك وريبة ، ولا فيها الصدق ، فلا يمكن الثقة بها والركون إليها [1] .

---

(١) الرسالة رقم : ٢٦٦ ، المجموعة الأولى ، كتبها إلى الشيخ خواجه عبد الله ، والشيخ خواجه عبيد الله .

أصحاب الإشراق وصفاء النفس :

قُرِّر من قديم الزمان أن الإشراق وصفاء النفس والروحانية ، من الوسائل البرئية المعصومة عن الخطأ والنسيان للوصول إلى اليقين ، والعلم الصحيح، وتهذيب الأخلاق ، وتزكية النفس وطهارة الباطن ، وإقامة المجتمع الإنسانى، وبناء المدينة الصالحة على أساسها، وكانت مصر والهند ـ فى العصور القديمة ـ مركزًا كبيرًا لهذه الحركة ، وقد ساعد على نشر هذه الحركة وتقويتها وقبولها فى الناس ، رد فعل عنيف نشأ فى روما ويونان لمقاومة التطرف والمغالاة فى تقديس العقل ـ فى جانب ـ والعبودية المجنونة للحواس فى جانب آخر ، وتمركزت ـ أخيرًا ـ فى الإسكندرية التى كانت ملتقى العقليات والديانات الشرقية والغربية .

ويقول دعاة هذه الفلسفة والحركة وأتباعها أن أكبر وسيلة لتحصيل اليقين والعلم الصحيح ، هو المشاهدة ، التى لا تحصل إلاَّ بصفاء النفس ، ونور الباطن ، وتنبيه حاسة باطنية ، وأنه ليس فى الإمكان التوصل إلى الحقائق إلا بهذا العقل الخالص المجرد (وهى حكمة الإشراق) وبالنور الداخلى (نور الباطن) الذى يتولد بالرياضة ، ومجاهدة النفس والهوى ، والفكر والمراقبة .

وإذا سلَّمنا هذه الدعوى ، فمحصلها هناك حاسة سادسة (باطنية) تعمل عملها فى الإنسان عدا الحواس الخمس المعروفة ، وأن نتائجها (المشاهدات) تتجلى للإنسان أنوارًا غير مرئية ، وأصواتًا غير مسموعة ، وحقائق لم تكن معلومة من قبل ، ولكن ما هو الدليل على أن هذه الحاسة ليست محدودة ، ولا قابلة للخطأ والمغالطات كالحواس الأخرى ؟ ، فلو كان الأمر كذلك لما تطرَّق إلى نتائجها الشك والاحتمال ، وما وجد فيها التناقض والتعارض ، ولكن تاريخ هذه الإشراقية يدلنا على أن محسوسات هذه الحاسة الباطنة ، وما تؤدى إليها من نتائج ومعتقدات ، تكون معرضة للتعارض والاختلاف ، كما يوجد هذا التعارض والاختلاف فى استنتاجات فلاسفة اليونان ، وحكماء الشرق وعقلائه .

دعوا الإشراقية القديمة ـ التى لم يحفظ تاريخها ، ولم ينقل إلينا ـ وانظروا إلى الإشراقية الدينية الجديدة (Neo Platonism) تجدون فى الأعمال المترتبة على عقائد أئمتها وروادها الدينية تعارضًا بينًا ، واختلافًا ظاهرًا ، ففلاطينس Platonus) لا يعترف بالنظام الدينى ، والعبادات السائدة فى عصره ، وهو فيلسوف حر طليق ، يركز على الفكر والمراقبة أكثر من تركيزه على العمل ، ولكن تلميذه النجيب بارفرى (Parphyre) صوفى زاهد متقشف ، ويقول فلاطينس (Platonus) بتناسخ الأرواح ، وتحول الأرواح الإنسانية

إلى الظهور فى نفوس حيوانية ، ولكن بارفرى (Parphyre) لا يؤمن بذلك ، والرائد الثالث الشهير من رواد هذه المدرسة الثلاثة ـ براكس (Proclus) كان متقيداً بجميع التقاليد والعادات ، والطقوس المصرية ، وكان يعبد الشمس ثلاث مرات فى النهار ، وكان مذهبه خليطاً من شتى العقائد والديانات ، وكان هؤلاء ـ جميعًا من أصحاب المشاهدة واليقين [١] .

وقد عارض بارفرى (Parphyre) المسيحية ، وأيد قيصر الروم فى حركته ، لإحياء الوثنية والجاهلية (Paganism) الرومية من جديد ، ولم يمنعه نور باطنه وصفاء نفسه من ربط مصيره ، بسفينة الوثنية والجاهلية الغارقة .

وأن أهل الكشف والإشراق من المسلمين أيضًا ، الذين كانوا يعتمدون على هاتين القوتين ، تجد فى كشوفهم ومحسوساتهم الباطنة كذلك اختلافًا كبيراً وتعارضًا كثيراً ، فإن واحدًا منهم يعارض آخر ، ويثبت أن كشفه بعيد عن الحقيقة ، غير مطابق للواقع ويحمله ـ أحيانًا ـ على السكر وغلبة الحال وتجدهم يصافحون العقول » ـ التى ليس لها وجود ، إلا فى الذهن ، وبطون الكتب ـ ويثبتون أنهم اجتمعوا بها وقابلوها ، إلى آخر ما هناك ، وأن تاريخ التصوف ملىء بهذه الأمثلة والوقائع .

شيخ الإشراق شهاب الدين السهروردى المقتول :

اشتهر من هؤلاء الإشراقيين المسلمين فى القرن السادس الهجرى ـ القرن الثانى عشر الميلادى ـ الحكيم الإشراقى الشيخ شهاب الدين السهروردى (٥٤٩ ـ ٥٨٧ هـ) المعروف بالمقتول ، اشتهاراً عظيمًا ، وقد قتل لآرائه وعقائده المبلبلة ، والمعارضة للإسلام ، بأمر الملك الظاهر عام ٥٨٧ هـ ، كان يلقب نفسه بالمشائى والصوفى ، وهو يحمل إضافة إلى التصورات المشائية ، كما يقول « S . V Denbergh» : « تلك الفلسفة الصوفية بحذافيرها، التى اقتبسها المسلمون من النظرية التطبيقية عند اليونان ، ومعتقداتهم ، ووحدة المذاهب والديانات ، وكما يقول كاتب هذا المقال فى دائرة المعارف الإسلامية ـ المتقدم ذكره:

« إنها فى الواقع نظرية النور عند الأفلاطونية الحديثة ، الذى يعتقد فيه أنه الحقيقة

---

(١) راجع للتفصيل موسوعة الديانات والأخلاق .
بعنوان ENCYCLOPPAEDIA OF RELIGION AND ETHICS)
. NEO PLATONiSM

الأساسية لجميع الأشياء [١] ـ :

ويقول السهروردى : « إنه كان جامعًا بين الفلسفة الذوقية (الإشراقية) والفلسفة البحثية (المشائية ، وأهم كتبه « حكمة الإشراق » الذى شرحه العلامة قطب الدين الشيرازى ، وعرف فى الأوساط العلمية الدارسية «بشرح حكمة الإشراق » .

ويرى شيخ الإشراق أن عدد العقول ليس محصوراً فى العشرة ، بل إن لكل نوع من أنواع الموجودات ، عقلاً خاصًا به ، يحفظه ويكلؤه ، ويسميها شيخ الإشراق بـ « الأنوار المجردة » ، ويرى أن السماء مخلوق حى تحمل النفس المجردة التى تحركها وأنها مصونة من الفساد والعدم ، وأن فى السماء نفسًا ناطقة ، ولذلك فإنها تملك الحواس أيضًا ويرى أن جميع السماوات مخلوق حى واحد ، تؤثر عليه الأنوار العالية يعنى عالم المجردات عن طريق الكواكب والنجوم ، وبها تتحرك القوى والأجسام ، وأن أكبر الكواكب هو الشمس، يجب فى مذهب الإشراقيين تعظيمها واحترامها ، وأن النور هو صاحب الأمر والنهى ـ مباشرة ، وبوسائط ـ فى عالم الأكوان، ومن النور تولد الحركة والحرارة ، وهما عنصران أكثر توفراً فى النار ، فكما أن النفس تنور عالم الأرواح ، كذلك النار تنور عالم الأجسام ، وقد نصب الله فى كل عالم من هذه العوالم خليفة من خلفائه ، فالعقل الأول فى عالم العقول ، والكواكب والنجوم فى عالم الأفلاك ، ونفوسها الناطقة، والنفوس البشرية فى عالم العناصر ، وأشعة النجوم والنار لا سيما فى ظلمة الليل ، كل هؤلاء من خلفائه أى أنهم يدبرون شؤونها ويصلحون أمورها ، وأن الخلافة الكبرى تحصل لنفوس الأنبياء الكاملة ، والخلافة الصغرى تتعلق بالنار ، لأنها تقوم مقام أشعة النجوم والأنوار العلوية فى الليالى المظلمة ، وتنضج المواد الغذائية ، والمواد الخام ، والعالم ـ عند شيخ الإشراق ـ قديم ، والزمان أزلى أبدى ، ولا يقول بتناسخ الأرواح ، ولا ينكره « إذ أن أدلة الفريقين فى هذه القضية غير مقنعة » [٢] .

وهكذا لم تستطع الإشراقية ، وصفاء النفس أن يمنع الحكيم الإشراقى النابغة ـ فى عصره ـ الذى حاز فى الشرق لقب « شيخ الإشراق » ، واعترف معاصروه الإيرانية ، والمفروضات والتحكمات اليونانية ، وظل محرومًا من المعرفة الصحيحة ونعمة البعثة

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) استفيد فى هذا الفصل من كتاب « حكماء الاسلام » تأليف المرحوم الأستاذ عبد السلام الندوى ، ج ٢ ، طبع در المصنفين بأعظم كره .

المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ والهداية المترتبة عليها . والنجاح فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة ، وعاش حياة متناقضة مضطربة ، مليئة بالفوضى والخيبة والخسران ، وفارق هذه الدنيا ، ولم يخلف من نظامه الفكرى الفلسفى ما ينفع الخلق ويهدى الناس.

العقل والكشف راكبًا سفينة واحدة :

لقد أثار كانت (Kant) شكوكًا كثيرة فى تجرد العقل وتخلصه وقرر أن صفاءه ، وعدم اختلاطه ، وتحرره من التأثيرات الخارجية والداخلية شبه مستحيل ، ولكنه رجل فلسفة لا شأن له بالكشوف والعلم الباطنى ، فلم يستطع أن يتقدم خطوة أخرى ، ولكن الإمام السرهندى الذى كان من الغواصين فى هذا البحر الخضم ، تقدم خطوة أخرى ، وتناول موضوع « الكشف الخالص » و « الإلهام الخالص » ، وأنهما صعبا المنال ، يندر أن يحصل عليهما ، وبشرح وتفصيل ، وقرر أن الإشراق ، وصفاء النفس ليسا كفيلين بالوصول إلى الحقائق ، والعلوم التى لا يخالجها شك وريبة ، والتى لا يقف عليها العامة والخاصة ، إلاّ عن طريق الأنبياء ورسالتهم ، كما أنه لا يمكن الوصول إلى المعرفة الصحيحة ، ولا الحصول على النجاة من النار، ولا التزكية الحقيقية ، إلاّ بالإيمان ببعثهم ، واتباع رسالتهم اقرأ ـ فيا يلى ـ بعض رسائله فى هذا الصدد :

« اختار هؤلاء السفهاء (الفلاسفة) طريق الرياضات والمجاهدات اتباعًا للصوفية الربانيين ـ الذين كانوا فى كل عصر يتبعون الأنبياء والمرسلين ـ ونبذًا لطريق الأنبياء ـ عليهم الصلوات والسلام ـ وانخدعوا بصفاء أوقاتهم، واعتمدوا على تصوراتهم ورؤاهم ، وائتمّوا بكشوفهم ومشاهداتهم ، فضلوا وأضلّوا ، إنهم يجهلون أن ما يعملونه هو «تصفية النفس » التى تضلهم وتغويهم ، وليس صفاء القلب الذى هو المنفذ إلى الهدى والنور ، فإن صفاء القلب ، بشرط أن يربى النفس ويصلحها ، فإن تصفية النفس مع ظلمة القلب ـ الذى هو مظهر أنوار الله ـ تعالى ـ وتجلياته ، مثل السراج الذى أشعل ليقوم العدو المتستر إبليس اللعين (فى ضوئه) ويهدم البيت من أساسه ، ويحوله نهبًا خرابًا .

وحاصل هذا التحقيق أن طريقة المجاهدات والرياضات فى صبغتها الاستدلالية النظرية لا تورث اليقين ، والطمأنينة ، ما لم يرافقها الإيمان بالأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلوات والتسليم ـ الذين يبلغون عن الله ـ سبحانه ـ وينزل عليهم نصره وتأييده ، وأن نظام هؤلاء ـ نزول الملائكة ، والمعصومين عن الغلط والإثم ، عليهم ـ فى مأمن من مكر العدو اللعين ، ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ ، وليس ذلك لغيرهم ، ولا يتوقع الإفراج عنهم من سجن هذا الشقى اللعين ، إلاّ من اتبع هداهم ، واقتفى آثارهم ، ولقد صدق الشيخ

سعدى الشيرازى ، إذ قال ، ما معناه :

« محال يا سعدى ! أن تسلك طريق الصلاح والصفاء إلا باتباع شريعة المصطفى - ﷺ - » .

فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وعلى إخوته من الأنبياء والمرسلين [١] .

الخلط فى الكشف :

« ينبغى أن نعلم أن الخطأ فى الكشف لا ينشأ - دائمًا - بإلهام الشيطان ووسوسته ، بل كثيرًا ما ترسب أحكام وحوادث ، لا نصيب لها من الصحة والواقعية ، فى المتخيلة حيث لا دخل للشيطان ، ثم تتمثل هذه الأخيلة والتصورات فى الخارج ، ومن هذا ما يقع لبعض الناس فى المنام من رؤية الرسول ﷺ - وتلقى أحكام عنه - تخالف أحكام الشريعة الثابتة بالنص ، وتعارض الأحاديث وتتصور غير الواقع واقعًا » [٢] .

ويقول فى رسالة أخرى :

« إن النفس - مهما أصبحت بالتزكية والتصفية نفسًا مطمئنة - لا تستطيع أن تتجرد - بتاتًا - من صفاتها وخصائصها ، ولذلك يحتمل أن يتسرب الخطأ إليها وتقع فى الغلط [٣] .

التعارض بين تعاليم الفلاسفة ، وهدى الأنبياء :

ويقول الإمام - بعد ذلك - مشيرًا إلى التعارض الصريح الواقع بين تعاليم الفلاسفة وتعاليم الأنبياء الذى لم يزل قائمًا عبر القرون ، ولا يمكن التطبيق بينهما ، وأن تعاليم الفلاسفة وبحوثهم العقلية ، وتحليقهم فى أجواء التأملات الفلسفية لا يعنى إلاَّ ما قيل : «تمخض الجبل فولد فأرة » .

كأن عقل الفلاسفة القاصر المحدود ، على الضد - تمامًا - من النبوة ، وعلى طرف النقيض منها ، فبحوثهم وتحقيقاتهم فى بدء الكون ونهايته ، وفى الدار الآخرة تعارض تعاليم الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - معارضة كاملة ، فلم يصححوا إيمانهم بالله ، ولا إيمانهم بالآخرة ، ويقولون بقدم العالم ، رغم أن جميع الديانات ، وأهل جميع الملل والنحل مجموعة على حدوث للعالم بجميع أجزائه ، ولا يؤمنون بإنفطار السماوات وانتثار الكواكب ، ونسف الجبال ، وتفجير البحار ، كما جاء الوعد ذلك ليوم القيامة ، ولا

---

(١) الرسالة رقم : ٢٣ ، المجموعة الثالثة ؛ كتبها الى الشيخ خواجه ابراهيم قباديانى .

(٢) الرسالة رقم : ١٠٧ ، وهى موجهه الى الشيخ محمد صادق الكشميرى .

(٣) الرسالة رقم : ٤١ ، وهى موجهة الى الشيخ درويش .

يؤمنون ـ كذلك ـ ببعث الأجساد وإحيائها من جديد ويكفرون بتصريحات القرآن الحكيم ونصوصه ، والمتأخرون منهم الذين يعدون أنفسهم من جماعة المسلمين ، متشبثون ـ مثلهم ـ بأصولهم الفلسفية ، ويقولون بقدم الأفلاك ، والكواكب وغيرها من الأشياء ، ويدعون أنها لا تفنى ، ولا يلحقها الهلاك ، إما رزقهم تكذيب التصريحات القرآنية وغذاؤهم إنكار ضروريات الدين ، عجبًا من هؤلاء المؤمنين ، الذين يؤمنون بالله ورسوله ، ولا يؤمنون بما صرح به الله ورسوله ـ فهل هناك سفه أكبر من هذا السفه ولله در القائل :

« إذا كان معظم الفلسفة جهلاً وسفاهة ، فكل الفلسفة جهل وسفاهة ، لأن للأكثر حكم الكل » .

إن هذه الجماعة صرفت جُلَّ عمرها وعنايتها لتحصيل آلة (المنطق) التى تعصم من الخطأ الفكرى ، والزلل العقلى ، وتجشموا فى سبيل هذا العلم المشاق وتكبدوا جهد البحث والتنقيب ، فلما وصلوا إلى البحث عن ذات الله ـ تعالى ـ وصفاته الذى هو أخطر مبحث وأعظمه ـ خارت قواهم ، وطرحوا هذه الالة ، التى كانت لتعصمهم من الخطأ فى الفكر ، وبدأوا يتعثرون ويسفسطون ، ويضلون ويتيهون فى مهامه الجهل والضلال كمثل من يعد آلات الحرب وعدته ـ على مدى أعوام وسنين ـ فإذا جدّ ، وكشرت الحرب عن أنيابها ، سرى الوهن إلى أعضائه وخارت قواه ، وسقط فى يديه .

يظن الناس أن الفلسفة مبنية على أصول حكيمة ، وتنظيم دقيق ، ويعتقدون أنها بمنجاة عن الخطأ والغلط ، فإذا سُلّم ، وجّه هذا الحكم إلى تلك العلوم التى يجدى فيها العقل ويغنى غناه ، ليس ذلك من موضوعنا الآن ، ولا يعنينا ـ أصلاً ـ ولا علاقة ـ لهذه العلوم بالآخرة ـ التى هى خالدة دائمة ـ كما لا علاقة لها بالسعادة الأبدية وحديثًا فى تلك العلوم التى يعجز العقل عن تحصيلها وإدراكها ، وهى مرتبطة بطريق النبوة ، وترتبط بها السعادة الأخروية والنجاة الأبدية » .

ثم يقول :

« ولا يجديهم علم المنطق ـ هو كالآلة للعلوم العالية ـ والذى قال عنه الناس ، إنه يجتنب عن الخطأ ـ ولا يغنيهم من جوع ولا يخرجهم من ورطة الأخطاء والغلطات فى هذا المبحث العظيم ، فإذا لم يأخذ هذا العلم بيدهم ، ولم يسعفهم أنفسهم ، فكيف يسعف غيرهم ، ويخرجهم من الخطأ والغلط » ؟ .

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ .

وإن بعض الناس الذين لهم إلمام بعلوم الفلسفة ، وواقعون فى خداعه وتزويره

الفلسفى، يعتقدون أن الفلاسفة يضاهون الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بل يكادون يفضلون علومهم المزورة المكذوبة - بتصديقها والإيمان بها - على شرائع الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - أعاذنا الله من عقيدة السوء ، نعم ! فإنهم إذ يعتقدون أنهم حكماء ويسمون علومهم بالحكمة يقعون فريسة مشاكل وتعقيدات ، لأن الحكمة عبارة عن العلم بشيء كما هو فى الواقع ، فالعلوم التى تخالف علوم الحكمة هذه (كشرائع الأنبياء) فإنها - فى ظن هولاء الحكماء - تخالف الواقع والحقيقة .

وخلاصة القول أن القول تصديق هؤلاء ، تصديق علومهم ، تكذيب للأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - وتكذيب لعلومهم ، لأن هذين العلمين - علم الحكماء وعلم الأنبياء - على طرفى نقيض ، يستلزم تصديق أحدهما تكذيب الآخر فمن شاء فليتبع دين الأنبياء ويكن من حزب الله ، وأصحاب السعادة والنجاة ومن شاء فليكن فيلسوفًا ، ويدخل فى حزب الشيطان ، ويحق له الإخفاق والخسران ، يقول الله - تعالى : - ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً ، أحاط بهم سرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا** ﴾ ، وسلام الله - عز وجل - على من اتبع الهدى واقتفى الرسول المصطفى - ﷺ وعلى إخوته الأنبياء الكرام والملائكة العظام أتم الصلوات وأكمل التسليمات » (١) .

لا تمكن التزكية الحقيقية بغير البعثة النبوية :

« إننا نقول إن التزكية والتصفية مرتبطتان بالأعمال الحسنة الصالحة التى يرضاها الله - تعالى شأنه - ويتقبلها ، ولا يعلم ذلك إلاّ عن طريق البعثة ، فلا صفاء ولا تزكية بغير البعثة» (٢) .

الحاجة إلى بعثة الأنبياء ، وعدم كفاية العقل :

يتحدث الإمام السرهندى عن الحاجة إلى بعثة الأنبياء والرسل ،والضرورة إليها للهداية، وعدم كفاية العقل وحده لذلك - مهما كان يملك من سمو الفكر وبعد الغور - فيقول فى رسالة من رسائله :

« إن بعثة الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - رحمة لأهل الأرض قاطبة ، فلولا وجود هؤلاء ووساطتهم ، لما وجد من يهدينا إلى معرفة ذات الله - وهو

---

(١) الرسالة رقم : ٢٣ ، المجموعة الثالثة وهى موجهة الى الشيخ خواجه ابرهيم قيادانى .

(٢) الرسالة رقم : ٢٦٦ ، المجموعة الأولى ، كتبها الى الشيخ خواجه عبد الله الشيخ خواجه عبيد الله .

واجب الوجود ـ وصفاته ، ويميز بين مأموراته ومنهياته .

إن عقولنا المحدودة القاصرة من غير استعانة بضوء هؤلاء الأنبياء والرسل عاجزة عن الوصول إلى هذا المطلب العظيم ، وإن مداركنا الناقصة ، من غير تقليدهم واتباعهم كليلة خائرة .

نعم ! العقل حجة ، ولكن حجيته غير كاملة ، لا تبلغ درجة التأثير والتكميل ، وإن الحجة البالغة هى بعثة الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلوات والتسليم ـ التى يرتبط بها العذاب والثواب الخالدان والدائمان» (١) .

البعثة هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذات الله وصفاته وأحكامه :

« إن البعثة رحمة ، إذ أنها سبب لمعرفة ذات الله ـ تعالى ـ وصفاته التى تتضمن جميع السعادات الدنيوية والأخروية ، وإن بنعمة هذه البعثة ، ويحصل العلم والتمييز بين ما يليق بجلال الله وعظمته ، وما لا يليق ، لأن عقولنا العاجزة . المظلمة ـ التى وُصِمَ جبينها بوصمة الإمكان والحدوث ـ أنى لها أن تدرك ما يليق من الأسماء ، والأفعال ، والصفات، بذات الله ـ تعالى ـ الذى هو قديم لم يزل ولا يزال ـ فتنسب إليه ، ما لا يليق من ذلك، فيجتنب منه بل طالما يظن عقلنا القاصر النقص كما لا والكمال نقصًا ، وأن التمييز الصحيح ـ الذى تنشئه النبوة وتربيه ـ هو نعمة أعظم وأجل ـ عند هذا العبد الضعيف ـ من نعمة ظاهرة أو باطنة ، وإن من أشقى الناس من ينسب إلى الله ـ عز وجل ـ حالا يليق بعظمته وجلاله ، وما يستكره فى حقه ، والبعثة هى التى فرقت بين الحق والباطل ، وميزت بين من يستحق العبادة ومن لا يستحق ، وبوساطة هذه البعثة ، يدعو هؤلاء الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إلى الله ـ عز وجل ـ ويشرفون عباد الله ـ سبحانه ـ بالتقرب إليه، والاتصال به ، وبهذه البعثة تعلم مرضيات الله وأوامره ، كما تقدم ذلك ، ويميز بين ما يجوز فيه التصرف من ملكوته ، وما لا يجوز التصرف فيه ، وللبعثة كثير ، من مثل هذه الفوائد والمصالح فثبت أن البعثة رحمة ، فمن يكفر بالبعثة اتباعًا للنفس الأمارة بالسوء ، وخضوعًا للشيطان الرجيم ، ولا يعمل حسب مقتضياتها ، فماذا فى ذلك من ذنب للبعثة، ولماذا لا تكون البعثة رحمة » (٢) ؟

لا طريق إلى معرفة الله ـ تعالى ـ إلاّ الأنبياء :

« بسبب ما عرف به الأنبياء والمرسلون من الدعوة إلى الله ـ خالق السماوات والأرض،

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) نفس الرسالة السابقة .

عز وجل - لاستمرار بعثتهم تواتر رسالتهم ، وتسلسل ظهورهم ، بسبب انتشار دعوتهم فاذ كلمتهم ، رجع سفهاء كل عصر ومصر - الذين كانوا فى شك مريب من وجود صانع الكون - إلى الاعتقاد بوجوده - عن غير إرادة منهم وقصد - فنسبوا الأشياء كلها ، والمخلوقات بأسرها إلى الله - عز جل - فهذا النور - الذى استناروا به - قبس من أنوار الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمال - وفتات مائدتهم ، فصلوات الله - تعالى - سلامه عليهم دائمًا أبدًا إلى يوم القيامة .

كذلك جميع الأمور المنقولة التى لم نعلم خبرها ، تنتهى إلى تبليغ الأنبياء والرسل - عليهم الصلوات التسليمات - كصفات الله الكاملة ، بعثة الأنبياء ، وعصمة الملائكة - عليهم الصلوات التسليمات والبركات - البعث ، والحشر ، والنشور ، الجنة ، والنار ، ونعيم الجنة المقيم ، وعذاب النار الأليم ، وأمور أخرى تخبرنا بها ، الشريعة المطهرة ، ويعجز العقل عن إدراكها ،و يقصر دون إثباتها بغير سماعها من الأنبياء - عليهم الصوات والتسليمات - وروايتها عنهم » (١) .

الوضع الصحيح فى الترتيب والتدريج :

« ينبغى - قبل كل شىء - الإيمان بالرسول - ﷺ وتصديق رسالته ، حتى يصدقه الإنسان فى كل أوامره وأحكامه ، وينجو بذلك من ظلمات الريب والشكوك ، يجب العلم بالأصل وتعقله وفهمه أولاً ، حتى يتيسر علم الفروع والجزئيات - بكل سهولة - وتفهمها وإدراكه ، وأن إدراك كل فرع من الفروع على حدة من غير إثبات الأصل وإدراكه ، أمر متعسر .

وأقرب طريق إلى هذا التصديق الكامل وطمأنينة القلب ، هو ذكر الله ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب ، الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب**﴾ (٢) ، ويستبعد الوصول إلى هذا الهدف الأعلى عن طريق النظر والتأمل والاستدلال ، يقول الشاعر ما معناه :

« إن أرجل أصحاب الاستدلال - أى الفلاسفة والمنطقيين - أرجل خشبية ، والأرجل الخشبية جدّ واهية ضعيفة » (٣) .

المصدق برسالة الأنبياء من أصحاب الاستدلال :

« أعلم أن من يقلد الأنبياء الكرام - عليهم الصلوات التسليمات - يقتفى

---

(١) الرسالة رقم : ٢٣ ، المجموعة الثالثة ، كتبها الى الشيخ خواجه ابراهيم قباديانى.

(٢) سورة الرعد ك ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) الرسالة رقم :٣٦ ، المجموعة الثالثة، وهى موجهة اى الشيخ مير محمد نعمان .

آثارهم ، بعد الإيمان بثبوت نبوتهم ، وتصديق رسالتهم ، يعدّ من أصحاب الاستدلال ، فإن تصديقه بأحكامهم ـ من غير دليل ـ بعد الإيمان بنبوتهم عن دليل ـ عين الدليل ، وعى سبيل المثال ، إذا كان شخص قد أثبت بعض الأصول بالدليل والبرهان ، فكل ما ينتج عنها من فروع ، تكون ـ بالطبع ـ بالدليل والبرهان ، ويكن هذا الشخص ـ عند ذاك ، من أصحاب الاستدلال فى إثبات هذه الفروع كلها ، ﴿ **الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾ ، «والسلام على من اتبع الهدى»[(١)] .

إخضاع أخبار الأنبياء للعقول إنكار للنبوة :

« إن الصراط والميزان ، والحساب حق ، لأن المخبر الصادق ـ عليه الصلاة والسلام ـ أخبر بها ، وإن استبعاد بعض الجهلة الذين لا يعرفون طريق النبوة ، لهذه الحقائق الثابتة ، ساقط مَرْذُول ، لأن طريق النبوة وراء طريق العقل ، وأن إخضاع أخبار الأنبياء الصادقة للطريقة العقلية للبحث والتأمل، والتحقيق ، والتوفيق بينهما ، إنكار ـ فى الحقيقة ـ للنبوة، فالاعتماد فى هذه القضايا التى هى وراء طور العقل ، على الاتباع الكامل، والإيمان الصادق بالأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ من غير طلب الدليل والبرهان » [(٢)] .

فرق كبير بين ما يعارض العقل وما يكن وراء طوره :

« لا يظن ظان أن طريق النبوة يعارض طريق العقل ، لا ! بل إن طريق العقل ـ وهو النظر والاستدلال ـ لا يؤدى ، بدون تقليد الأنبياء واتباعهم ، إلى هذا المقصد الرفيع ، المعارضة شيء ، العجز والقصور شيء آخر ، لأن المعارضة لا تتصور إلا بعد القدرة والتمكن » [(٣)] .

معرفة طريق تعظيم الله ـ تعالى ـ وتقديسه محصورة فى النبوة ، وتعاليم الأنبياء وأخبارهم :

فلا مناص من وجود الأنبياء ، حتى يبصرونا بطريق الشكر للمنعم الحقيقى والثناء عليه ـ الذى ثبت وجوده بالعقل لزومًا وضرورة ـ ويبينوا لنا طريق التعظيم والتكبير ـ علميًا وعمليًا ـ لواهب هذه النعم ، لأن التعظيم الذى ليس مصدر علمه هو نفسه ، تعالى شأنه

---

(١) نفس الرسالة السابقة .

(٢) الرسالة رقم : ٢٦٦ ـ المجموعة الأولى .

(٣) نفس الرسالة السابقة .

ـ لا يجدر بجلاله ، ولا يليق بكماله ، لأن القوة البشرية قاصرة عن إدراكه ، بل كثيراً ما يعتقد الإنسان تعظيمًا وتسبيحًا ما ليس بتعظيم ولا تسبيح ، ويتحول من الحمد والشكر إلى الذم والعيب ، ولا يعلم طريق تعظيمه وتكبيره ، الا بالنبوة وتعاليم الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ وأخبارهم ، وما يتلقى أولياء الله ـ تعالى ـ من الإلهامات لا تعدو قبسًا من قبسات الأنوار النبوية ، وفيضًا من فيوض اتباعهم ، والاقتداء بهم وبركة من بركاتهم »[1] .

مكانة النبوة وراء العقل كما أن مكانة العقل وراء درجة الحواس :

« وكما أن مكانة العقل ومنزلته الحواس ، حيث لا تدرك الحواس ما يدركه العقل ، كذلك مكانة النبوة ومنزلتها وراء طور العقل ودرجته ، فما لا يدركه العقل ، يدرك عن طريق النبوة ، فمن لا يعترف بطريقة لتحصيل العلم غير طريقة العقل ؛ فإنه ـ فى الواقع ـ منكر لطريقة النبوة ، معارض للهداية والنور »[2] .

مكانة النبوة :

لقد نشأ فى الفلاسفة وبعض الإشراقيين المسلمين جهل بمكانة النبوة ، واستهانة بقيمتها ـ لاشتغالهم ليل نهار بعلوم اليونان ، وحكمتها ، وفلسفتها ، التى ازدهرت وأثمرت عبر القرون والأجيال بمعزل عن دعوة الأنبياء وهداها ـ ولاعتقادهم بأنها غاية العلم وسدرة المنتهى ، وانصرافهم عن دراسة الحديث النبوى والسيرة النبوية ، واهتمام بهما ، وبعدم اهتدائهم بهدى الكتاب والسنة وتأمل فى نصوصهما ـ وانقطاعهم إلى الرياضات البدنية والمجاهدات النفسية ، والاعتكاف لمدد خاصة ، ومواقيت معينة فى القرون الأخيرة ـ ورافق هذا الجهل بمكانة النبوة نوع من التنفر والاستغراب ، والاستبعاد .

وقد قوى هذا الاتجاه أن هؤلاء الحكام والإشراقيين يقرأون فى سير الأنبياء وأخبارهم ، وفى سيرة سيد المرسلين ـ ﷺ ـ أجمعين ـ أنهم كانوا يعيشون كما يعيش الناس ، يتزوجون، ويتناسلون ويعولون أهلهم وأولادهم ، ويمشون فى الأسواق ، ويبيعون ويشترون ، ويرعون المواشى، ويشاركون فى الحروب ، ويتأثرون بالأحداث ، ويسرون بما يسر به الناس ، ويحزنون لما يحزنون له ، ليست عندهم هذه العبادات المجهدة المضنية ، فلا صوم الوصال ، ولا هذا الاعتكاف ، والاعتزال الذى يسمى بـ « الأربعينية » وغيرها مما

---

(١) الرسالة قم : ٢٣ ، المجموعة الثالثة ، وهى موجهة الى الشيخ خواجه ابراهيم قباديانى .

(٢) نفس الرسالة السابقة .

نشهدها عند أوساط الصوفية ، والأولياء ، والزهاد ، ثم أنهم كانوا لتبليغ رسالتهم ، وأداء دعوتهم مختلطين بالناس معنيين بشئونهم ـ اذ لا تتأدى هذه المسئولية ، إلا بالاتصال بهم ، والعناية بحالهم ، ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ ، فالتفاتٌ إلى شىء يصرف عن الالتفات إلى شىء اخر ، ولم تكن لهذه الجماعات والأوساط المنصرفة إلى الفلسفة والرياضات ، أى عناية بالعلوم الدينية ، لا سيما علم الحديث الشريف ، وكانت تردد صباحًا مساءً وقائع الكشوف والكرامات ، وتتحدث فى معارج الأولياء المتقدمين والإشراقيين المتأخرين ، وكمالاتهم الباطلة ، وتجريدهم وتفريدهم ، وفنائهم ، وسكرهم وغير ذلك .

« لهذه الأسباب سولت للفلاسفة والإشراقيين أنفسهم أن مقام الولاية فوق مقام النبوة، وأن الولاية عبارة عن كمال الانصراف إلى الله ، والانقطاع عن الخلق ، وأن مهمة النبوة هى التبليغ والدعوة ، التى تتعلق بالخلق فالولى «متوجه إلى الحق » والنبى « متوجه إلى الخلق » ، والتوجه إلى الحق ـ طبعًا ـ أفضل وأعلى شأنًا من التوجه إلى الخلق ، وتورع بعضهم قليلاً فقال : ليست الولاية فوق النبوة على سبيل الاطلاق ، ومراد من قال ذلك : أن ولاية النبى ـ نفسه ـ أفضل من نبوته ـ وأن النبى عند اشتغاله بالحق أرفع شأنًا من حال اشتغاله بالخلق ، دعوتهم وتبليغ الرسالة إليهم .

وعلى كل فإن الأسلوب للتكفير يدل ـ حتمًا على أن كثيرًا من الأوساط الدينية أيضًا آنذاك كانت مصابة بدهشة عظيمة للولاية ، ومدارجها وكمالاتها ، التى كانت تترك آثارًا بعيدة المدى على ارتباط الأمة الإسلامية بمنبعها الأصيل : النبوة المحمدية والشريعة الإسلامية ، وكان ذلك خطرًا عظيمًا يحتم على المجددين ، وورثة الأنبياء والمرسلين أن يقاوموه ، ويردوه على أعقابه .

وإن أول من رفع صوته بهذا الصدد ـ فى حد علمنا ـ صارخًا مدويًا ، قويًا موثرًا ، مدعمًا بالأدلة ، والحجج الناهضة ، فى أسلوب يجذب النفوس ، ويأخذ بمجامع القلوب ، هو العالم الربانى المحقق ، والعارف البصير الشهير الإمام شرف الدين أحمد بن يحيى المنيرى (٦٦١ ـ ٧٨٦ هـ) فى أواسط القرن الثامن الهجرى ، ورد على هذا الخطر ـ المشار إليه ـ ردودًا قوية مفحمة فى رسائله العلمية .

ونبغ بعد الإمام المنيرى الإمام السرهندى ، الذى كان مجدد هذا العلم العظيم ، والطريق المستقيم ، وخاتمة المحققين ، فقد أثبت فى رسائله : أن الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ هم المثل الكامل ـ خلقيًا عقليًا ، وروحيًا ، وعقيديًا ـ لصنعة الله الخلاق العظيم ،وصفة جوده الكريم ، وأن صلتهم مع الله وتوجههم ، إليه ، لا يصرفه صارف

من شغل أو عمل ، وذلك نتيجة شرح صدورهم الذى يخصهم الله به من دون العالمين ، وأن من مقتضيات علو همتهم وقوة صبرهم واحتمالهم . وسعة صدورهم ، ومن مقتضيات دعوتهم ، ورسالتهم ومهمتهم ـ التى نيطت بهم ـ أن يكونوا فى « صحو دائم » ويقظة مستمرة ، وحضور بديهة ، وسرعة إدراك ، وهى تلك الخصائص التى لا يتمتع بها أهل الولاية ، والسكر والغياب ، وأنهم يبدأون من حيث ينتهى الأولياء ، ويحصل باتباعهم التقرب بالفرائض الذى لا يسمو إليه التقرب بالنوافل ، وأن مثل كمالات الولاية ومقاماتها إزاء كمالات النبوة ودرجاتها ، مثل القطرة فى البحر ، ولندع القراء الآن ليستمعوا من الإمام السرهندى حديث هذه الحقائق الرفيعة والعلوم العالية :

الأنبياء أفضل موجود ، ومواهبهم أعظم موّهوب :

« إن الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ أفضل من جميع الموجودات ووهبوا أفضل المواهب والثورات ، وأن الولاية جزء من النبوة ، والنبوة كلّ ، فالنبوة ـ لا محالة ـ أفضل من الولاية ، سواء كانت ولاية النبى ، أو ولاية الولى ، والصحو أفضل من السكر ، لأن السكر ينطوى فى الصحو ، كالولاية تنطوى فى النبوة ، أما ما يكون عند عامة الناس من يقظة وتعقُّل ، فليس من مبحثنا إذ لا اعتبار لتفضيل السكر على هذا الصحو العامى ، ولكن الصحو الذى يحتوى على السكر ، أفضل ـ حتمًا من السكر ، وأن علوم الشريعة التى مصدرها ، ومنبعها النبوة ، كلها صحة فى صحو ، وكل ما يخالفها سكر فى سكر ، وصاحب السكر معذور ، والجديرة بالاتباع والتقليد هى علوم « الصحو » لا علوم «السكر»(١) .

لا يحول توجه الأنبياء إلى الخلق دون توجههم إلى الحق ، لانشراح صدورهم:

« قال بعض المشائخ فى حال الغيبوبة السكر : « إن الولاية أفضل من النبوة » وقال آخرون : « إن المراد بهذه الولاية ولاية النبى ، حتى لا يتوهم ، متوهم ، أن الولى أفضل من النبى » ، ولكن الواقع بالعكس ، لأن نبوة النبى أفضل من ولايته نفسه ، إذ لا يتيسر الالتفات التام إلى الخلق فى الولاية ، لضيق الصدر وحرجه ، أما فى النبوة فلسعة الصدر، وانشراحه لا يحول الالتفات إلى الخلق ، دون الالتفات إلى الحق ، ولا الالتفات إلى الحق

---

(١) الرسالة رقم : ٩٥ ، المجموعة الأولى موجهة الى السيد أحمد بجواره .

دون الالتفات إلى الخلق ، ولا يكون الالتفـات فى النبوة إلى الخلق وحدهم ، حتى ترجح عليهـا الولاية التى تتوجه دائمًـا إلى الحق ، والعياذ بالله ـ سـبحانه ـ الالتـفات الكامل إلى الخلق منزلة العوام الذين هم كالأنعام ، مكانة النبوة جليلة عظيمـة ، ولا يفة ، هذه الحقيقة أهل السكر إلاَّ قليـلاً ، فإن هذه المعرفـة حظ من حظوظ أصحـاب الصحو والاسـتقـامة ـ «هنيئًا لأرباب النعيم نعيمهم » (١) .

باطن النبى مع الحق ، وظاهره مع الخلق :

« يفضل بعض أصحاب السكر علم الولاية ـ الذى يقبل على السكر ـ على علم النبوة ـ الذى صبغ بالصحو ، ومما صدر عنهم فى حـال السكر قولهم: « الولاية أفضل من النبوة » على أسـاس أن الولاية وجههـا إلى الحق ، والنبوة وجـههـا إلى الخلق ، ولا شك فى أن التوجـه إلى الحق أفضل من التـوجه إلى الخلق ، يؤوّل بـعضهم قـائلاً : « إن ولاية النبى أفضل من نبوته » .

ويرى هذا الفقـير أن هذه الأقاويل تشدّق وتقـعير ، فليس فى النبوة التـفات إلى الخلق فحسب . بل يرافـقه الالتفات إلى الحق كذلك ، وأن باطن المتـبوأ مكانة النبوة مع الحق ، وظاهره مع الخلق ، ومن كـان كل التـفاتـه إلى الخلق فهـو من لا يؤبه بهم ، ولا خـلاق لهم»(٢) .

الرد على من يقول : « بدايات الأولياء نهايات الأنبياء » :

«إن القول المحكى عن بعض الناس : إن بداية الأولياء هى نهاية الأنبياء، قول مرذول ، والمراد ببداية الأولياء ونهاية الأنبـياء عندهم « الشريعة » نعم ، لم يكن يدرى ذلك المسكين حقيـقة الأمر فتـفوه بما يخالف الظاهر الصريح ، ولم يتـصد أحد لبيان هـذه الحقائق ، بل صرح مـعظم الناس بعكسها من الأقـوال والآراء ، ويستبـعدون هذه الحقائق الواضـحة ، ولكن المقسط العادل الذى ينظر إلى عظمة الأنبياء ، ومكانتـهم الرفيعة ، وتسيطر على قلبه ومشاعـره عظمة الشريعة ، وحـرمته يتقبل هذه الأسـرار الدقيقة ، ويجعلـها وسيلة لزيادة الإيمان وترقيته » (١) .

---

(١) الرسالة رقم : ١٠٨ ، المجموعة الأولى كتبها الى السيد أحمد بجواره .

(٢) الرسالة رقم : ٩٥ ، المجموعة الأولى ، وهى موجهه الى السيد أحمد بجواره .

(١) الرسالة رقم : ٢٦٠ ، المجمعة الأولى كتبها إلى ابنه الشيخ محمد صادق .

اقتصار دعوة الأنبياء على عالم الخلق وبحثهم عن القلب :

« استمع إلىّ يا بنى ! أن الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ قصروا دعوتهم على «عالم الخلق» وجاء فى الحديث الشريف : « بُنى الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » (١) ، ودعوا إلى تصديق القلب أيضًا لأن للقلب صلة أكثر بعالم الخلق ، ولم يتعرضوا لما وراء القلب ، ولم يبحثوا ويخوضوا فيه ، ولم يعدوه من المقاصد والغايات، تأمل فى نعيم الجنة ، وآلام النار ، ونعمة رؤية الرب ـ تعالى ـ ونقمة الحرمان منها ، كل ذلك متصل بعالم الخلق ، ولا علاقة له « بعالم الأمر» (٢) .

فى اتباع النبوة تحقيق التقرب بالفرائض :

« كذلك أداء الفرض ، والواجب ، والسنة من الأعمال ، كلها متصلة بالقلب الذى هو من عالم الخلق ، ويتصل بالأعمال النافلة ما يتعلق بعالم الأمر ، التقرب الذى يحصل بسبب هذه الأعمال ، يكون على قدر هذه الأعمال ، فثبت من ذلك أن التقرب الذى هو نتيجة أداء الفرائض ، يرجع إلى عالم الخلق ، والتقرب الذى هو ثمرة أداء النوافل ، يرجع إلى عالم الأمر ، وما من شك فى أن النفل لا يعد شيئًا فى جنب الفرض ، وليست نسبة النفل إلى الفرض ، كنسبة القطرة إلى البحر ، بل النفل بالنسبة الى السنة ، مثله كذلك مثل القطرة فى البحر ، وإن كانت النسبة بين السنة والفرض كتلك النسبة بين القطرة والبحر ، ومن هنا ينبغى أن يقاس تفاوت ما بين التقربين ، أن يدرك ما لعالم الخلق من رجحان وفضل على عالم الأمر» (٣) .

مقامات الولاية لا شىء إزاء مقامات النبوة :

« لقد شرح الله ـ عز وجل ـ صدرى لمعرفة أن مقامات الولاية ودرجاتها ليست شىء إزاء مقامات النبوة ودرجاتها ، حتى أنها لا توجد بينهما تلك النسبة التى توجد بين القطرة واليمّ، فما ينال عن طريق النبوة من خير وفضل ، امتياز يكون أضعاف ما ينال عن طريق الولاية ، فالأفضلية المطلقة للأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ والأفضلية الجزئية للملائكة ، ومن ثم فإن قول جمهور العلماء هو المصيب .

---

(١) حديث متفق عليه ، واللفظ لمسلم .

(٢) نفس الرسالة السابقة .

(٣) أيضًا .

وتجلى من هذا التحقيق أن أى ولى من الأولياء لا يستطيع أن يسمو الى مكانة الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ بل إن رأس ذلك الولى تحت قدم النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم » [١] .

وجه إصابة علوم العلماء وتحقيقاتهم ، ورجحانها وأفضليتها :

« إذا تأملت فى المسائل التى اختلفت فيها أقوال الصوفية ، والعلماء تجد الحق مع العلماء ، والسر فى ذلك أن نظر العلماء ـ لاتباعهم الأنبياء ـ ينفذ إلى علوم النبوة وكمالها ، وأن نظر الصوفية ينحصر فى كمالات الولاية وعلومها ومعارفها ، فالعلم الذى يقتبس من مشكاة النبوة ، لا جرم أن يكون أصح وأحق ، وأصوب من العلم الذى يؤخذ من مراتب الولاية [٢] .

« وقد ذكر الفقير فى كتبه ورسائله ، وحققه تحقيقًا : أن معارج النبوة بمثابة البحر الخضم ـ وكمالات الولاية ازاءها كقطرة حقيرة ، ولكن عجبًا من جماعة قالت : لعدم وصولها إلى إدراك معارج النبوة « إن الولاية أفضل من النبوة » وأوَّل لك فريق آخر . فقال : « إن ولاية النبى أفضل من نبوته » ، كلا الفريقين بجهلهما بحقيقة النبوة أصدروا حكمهم على الغائب ، ويقرب منه تفضيلهم السكر على الصحو ، فلو كانوا يدرون حقيقة الصحو لما رضوا للسكر بأن يعدل بالصحو ، « اين الثرى من الثريا » ولعلهم قاسوا «صحو» الخاصة على صحو العامة ، ويقظتهم ، ففضلوا السكر عليه ، فكان عليهم أن يحكموا على سكر الخاصة بذلك ، قياسًا لسكر الخاصة على سكرة العامة ، لأن الحكماء متفقون على أن الصحو أفضل من السكر ، وهذا الحكم نافذ فى كلا الحالين ، سواء كان الصحو والسكر مجازيين أو حقيقيين» [٣] .

عظمة الأنبياء ورفعتهم بنبوتهم :

« ينبغى أن يعلم ـ حتمًا ـ أن كل ما ناله الأنبياء من عظمة ، وعلو مكانة، نالوه عن طريق النبوة ، لا عن طريق الولاية ، وليست الولاية بازاء النبوة إلا خادمًا من خدمها ، ولو كانت الولاية أفضل من النبوة لكان ملائكة الملأ الأعلى ـ الذين ولايتهم أكمل الولايات وأجلها ـ أفضل من الرسل والأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ ولما كان فريق منهم

---

(١) الرسالة رقم : ٢٦٦ ، المجموعة الأولى وهى موجهة الى الشيخ عبد الله والشيخ عبيد الله .

(٢) أيضًا .

(٣) أيضًا .

يعتقد أن الولاية أفضل من النبوة ، أداه ذلك إلى الاعتقاد ، بأن ولاية ملائكة الملأ الأعلى أكمل من ولاية الأنبياء ، وفضل ملائكة الملأ الأعلى ـ تبعًا لذلك ـ أفضل من الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ فشذَّ عن جمهور أهل السنة .

وأن كل ذلك نتيجة الجهل بحقيقة النبوة ، ومكانتها العظيمة ، ولما أن الناس ـ لبعد عهدهم بالنبوة ، يحقرون فضائل النبوة ومدارجها إزاء مدارج الولاية وكمالها ، ويستهينون بها ، رأيت أن أتحدث عن هذا الموضوع بشرح وإسهاب ، وذكرت ذرَّة من الحقائق وواقع الحال » [1] .

﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

الإيمان بالغيب نعمة خُصَّ بها الأنبياء وصحابتهم والعلماء ، وعامة المؤمنين :

« بعد الحمد لله ، والصلاة على النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ليعلم أخي وعزيزي محب الله أن الإيمان بواجب الوجود ـ تعالى شأنه ـ والإيمان بجميع صفاته بالغيب، مما خص به الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وصحابتهم ـ رضي الله عنهم ـ والأولياء والذين ينزلون نزولاً تامًا لدعوة الخلق إلى الخالق ـ جل ذكره ـ ونسبتهم إلى الأنبياء كنسبة الصحابة إليهم ، بيد أنهم أقل منهم شأنًا ودونهم مكانًا ـ كما خص له العلماء وعامة المؤمنين، أما الإيمان بالشهود فنصيب الصوفية ، سواء كانوا من أصحاب العزلة (المنقطعين عن الخلقّ) أو أصحاب العشرة (المتصلين بالخلق) لأن أصحاب العشرة وإن كانوا ينزلون إلى الناس بعد الانقطاع إلى الحق ، ولكن لا يكون نزولهم كاملاً تامًا ، إذ أن باطنهم يبقى معلقًا بالعلو ، وهم بظواهرهم مع الخلق ، وببواطنهم مع الحق ، ولذلك يرافقهم الإيمان بالشهود ـ دائمًا ـ أما الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ فلما أنهم ينزلون نزولاً تامًا ،و أن باطنهم يبقى معلقًا بالعلو ، وهم بظواهرهم مع الخلق ، وببواطنهم مع الحق ، ولذلك يرافقهم الإيمان بالشهود ـ دائمًا ـ أما الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ فلما أنهم ينزلون نزولاً تامًا ، ويصرفون عنايتهم ـ ظاهرًا وباطنًا ـ بالدعوة إلى الحق ـ جل اسمه ـ فيكون الإيمان بالغيب نصيبهم ، ويخصون به دون الصوفية» [2] .

---

(١) الرسالة رقم : ٣٦٨ ، المجموعة الأولى كتبها الى خانخانان .

(٢) الرسالة رقم : ٢٨٢ ، المجموعة الأولى و هى موجهه الى السيد محب الله المانكبورى .

نزول الأنبياء دليل على بلوغهم نهاية النهايات :

« لقد أثبت هذا الفقير إلى الله ، فى بعض رسائله أن التعلق بالعلو بعد النزول ، والحنين إليه ، دليل على النقص والقصور ، وعلامة على عدم الوصول إلى الغاية المبتغاة ، وأن النزول التام الكامل دليل على بلوغ نهاية النهايات وغاية الغايات ، وقد ظن الصوفية الجمع بينهما (أى التوجه إلى الحق ، والتوجه إلى الخلق) كمالاً ، وعدوا الموفقين بين التشبيه والتنزيه ، والجامعين بينهما من الكاملين فأين نحن من هؤلاء ! »[1] .

حماية الشريعة الإسلامية والدفاع عنها

وإصلاح العقائد . ودحض الشرك ، وتقاليد الجاهلية :

إن منهج العلاقة مع الله - تعالى - وتقوية الصلة به ، وتقويمها والصيانة عن الغفلة والمادية ، ومعالجة الأدواء النفسية ، والأمراض الروحية ، الذى سمى - على مر الأيام - لعوامل وأسباب عديدة - بالتصوف ، هو الذى يدعى فى المصطلح القرآنى بـ « التزكية » وفى التعبير الحديث ، بـ « الإحسان » ، وقد اعتبرت هذه الشعبة من شعب الدين من مقاصد البعثة المحمدية الأربعة التى صرح بها القرآن الحكيم :

« هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم اياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »[2] .

وقد كانت هذه المهمة العظيمة لإقامة الدين قلبًا وقالبًا ، وجسمًا وروحًا ، وقانونًا وعاطفة، منوطة بخاتم النبيين - عليه الصلاة والتسليم - ثم بخلفائه الراشدين ، والوارثين لميراثهم بحق وجدارة ، وقد قام هؤلاء بتجديد هذا «الطب النبوى » والحفاظ عليه ، ونقله إلى الأجيال تلو الأجيال ، مثل حفاظهم على الشريعة الغراء ، واستمروا يبذلون الجهود فى نشر « فقه الباطن » والدعوة إليه ، مع نشر فقه الظاهر » وأدائه وتبليغه ، وقد كان عملهم هذا بإجمال أكثر منه ، بالتفصيل ، على أساس الاهتمام بالأصول أكثر من الفروع، ولكن لما توسعت الرقعة الإسلامية ، وانداحت دائرة الفتوح والانتصارات ، ودخلت بلاد جديدة فى الإسلام ، وانتشرت الدعوة الإسلامية فى الآفاق ،وانهالت الأموال والثورات ، وتيسرت سبل العيش ، وتوفرت وسائل الترف والبذخ ، وبعد عهدهم بالنبوة ، وصدق

---

(١) أيضًا .

(٢) سورة الجمعة : ٢ .

عليهم قول ربك :

﴿ فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ ومدت حبائل الشيطان ، ونجمت فتن المادية ، والأمراض الروحية ، والأدواء النفسية فى صور وألوان ، وفى ثياب النظريات الجديدة ، والفلسفات الوليدة ، قام العلماء بتدوين علم التزكية والإحسان باصطلاح حادث جديد ، ألا وهو « التصوف » كما أن اختلاط الشعوب العجمية حول قواعد اللغة (النحو والصرف) وفن المعانى والبيان ـ الذى كان أهل اللسان يعرفون أصوله ومباديه بسليقتهم وفطرتهم ـ إلى علم واسع دقيق ، وهو ما يسمى بعلم النحو والبلاغة ، وظهر فيهما نوابغ العلماء البارعين الذين انشأوا « مدارس » مستقلة ، و « جامعات » شهيرة ، ووضعت لها المناهج الدراسية، وقصدها هواة العلم والطلاب من كل حدب وصوب .

لقد كانت عمدة الطريقة لمعالجة الأمراض الروحية (أى التصوف والتزكية) على تتبع الكتاب والسنة ، وسيرة الرسول ـ ﷺ ـ وأخلاقه وعاداته وشمائله ، ثم بدأت تغزو التصوف ـ نتيجة عوامل الزمن ، والاختلاط بالشعوب العجمية ، والتى دخلت حديثًا فى الإسلام ، وصحبة النُّسّاك والزهاد ، وإجلالهم والعقيدة فيهم ـ البدع والخرافات ، والمغالاة فى التنسك والزهد ، تسربت إليه جراثيم الرهبنة ، والتجرد ، والاعتزال ، والتعظيم المفرط المتطرف لأشخاص ورجال يعتقد فيهم الصلاح والولاية وكثير من العادات والتقاليد المختلفة المفتراة ، حتى دبّت على مرّ الأيام إلى بعض الأوساط الروحية عقيدة أجنبية دخيلة على الإسلام ، وهى أن المسالك بعد الاستغراق فى العبادات بإخلاص ودقة ، واستيعاب والتزام الفرائض ، والسنن لمدة خاصة ، وبعد حصول المعرفة الكاملة يرتقى إلى مقام يرفع عنه فيه التكليف ، وتسقط عنه ذمته الفرائض الشرعية ، والعبادات المكتوبات ، ويستثنى من التزام كل ذلك والتقيد به »، وهذا ما يسمى بـ «سقوط التكاليف » ، وستدل أصحاب هذه العقيدة بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ [1] إنها كانت فتنة عمياء، صماء تجمد نظام الشريعة بأسره ، وتحرر السالك من كل القيود والحدود ، وتطلق رقبته من نير العبادات والقربات .

ويبدو أن هذه المحدثات والتحريفات فى الإسلام بدأت من أوائل القرن الرابع حين كانت الخلافة العباسية فى أوج زهرتها ، وعنفوان شبابها ، وكانت المدينة الإسلامية العظيمة (بغداد) فى ذروة الرقى والمدينة ، فإن أقدم ما ألف فى التصوف ، مما طبع ونشر

(١) سورة الحجر ـ ٩٩ ، والمراد باليقين هنا باتفاق المفسرين الموت .

تأليف الشيخ أبى النصر السراج (م ٣٧٨ هـ) « كتاب اللمع » وفيه فصل بعنوان « كتاب الأسوة والاقتداء برسول الله ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ » [١] ولعله لأجل ذلك وردت بعده فى كتاب « كشف المحجوب » للسيد على الهجويرى (م ٤٦٥ هـ) ، مثل هذه العبارات المنذرة المذكرة ، « إن إقامة الحقيقة من غير الحفاظ على الشريعة محال ، والحقيقة بغير الشريعة نفاق » .

وأقدم كتاب يضم منهجًا كاملاً للتصوف هو « الرسالة القشيرية » تأليف الإمام أبى القاسم القشيرى (م ٤٦٥ هـ) [٢] ، وقد بلغ التصوف فى عصره من التردى والانحطاط حتى قال القشيرى فى كتابه :

وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدُّوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة . . . استخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة » [٣] .

والباب الأول فى كتابه يتعلق بتعظيم حرمة الشريعة ، وقد ذكر فيه نبذة من أحوال المشايخ والصوفية ، وأخبارهم فى تعظيم حرمة الشريعة ، واتباع السنة النبوية ، ويقول فى الباب الأخير ـ رقم ٥٤ ـ بعنوان « وصية المريدين » :

« بناء هذا الأمر وملاكه على حفظ آداب الشريعة » ، والكتاب كله يحتوى على الحقائق الشرعية والعلوم الصحيحة النافعة ، وقد اهتم به الصوفية المحققون ككتاب دراسى يوثق به ويعتمد عليه .

والإمام عبد القادر الجيلانى البغدادى أجلُّ مشايخ الطريقة ، وأئمة الحقيقة شأنًا وأشدهم تحمسًا للشريعة ، وحماية لها والدعوة إليها ، فقد كان أكبر تركيز فى تعاليمه وإرشاداته على التمسك بالسنة واتباع الشريعة ، وكانت حياته كلها ترجمة حية لهذه الدعوة وصورة جلية لهذا المنهج ، وقد ربط بتأليف كتابه العظيم « غُنية الطالبين » ناصية الطريقة بأذيال الشريعة ، وتختص الموعظة الثانية من كتابه « فتوح الغيب » المشتمل على خطبه ومواعظه ، باتباع السنة ونبذ البدعة ! ويبدؤها بقوله .« اتبعوا ولا تبتدعوا».

إنه يتبوأ مكانة المجدد فى إخضاع الطريقة للشريعة ، واستخدامها لزيادة التمسك بالشريعة ، ويرشد إلى الاشتغال بالفرائض أولاً ، ثم بالسنن ثانيًا ، ثم بالتطوع ثالثًا ،

---

(١) كتاب اللمع ، ص ٩٣ ــ ١٠٤ ، طبعة لندن ١٩١٤ م .
(٢) الامام أبو الحسن على بن عثمان أبى على الجلابى ، وقبره بلاهور .
(٣) الرسالة القشيرية ، ص ١ ، طبعة مصر .

ويصرح بأن الاشتغال بالثانى بترك الأول ، سفاهة ورعونة .

وإن أكثر كتب التصوف قبولاً ورواجًا ، وأوثقها عند الصوفية وأفضلها هو كتاب «عوارف المعارف» للشيخ شهاب الدين السهروردى (م ٦٣٢ هـ) الذى تمسك به الصوفية، ورددوه فى كل عصر ومصر ، وكان يدرس فى كثير من الزوايا والرباطات ، ويتعلق الجزء الثانى من هذا الكتاب ببيان أسرار أركان الشريعة الإسلامية وآدابها وتوصل الشيخ فيه إلى هذه النتيجة : « إن التصوف عبارة عن الاقتداء بالرسول ـ ﷺ ـ قولاً عملاً وحالاً ، وبالمواظبة عليه تتقدس نفوس الصوفية ، وترتفع الحجب ، ويتحقق الاتباع للرسول ـ ﷺ ـ فى كل شىء »[١] .

وتحول التصوف فى القرن التاسع الهجرى بتأثير الشيخ محيى الدين بن عربى الأندلسى الطائى (م ٦٣٨ هـ) وتلامذته وكان تأثيرًا قويًا انتشر فى العالم الإسلامى كالتيار المندفع السريع ـ إلى فلسفة انطوت على كثير من مصطلحات الفلسفة الإلهية اليونانية ، وقضاياها المتشعبة ، وأصبحت نظرية « وحدة الوجود » ، شعار الصوفية ، يعتزون بها ويفتخرون ، وتحمست لها الزوايا والتكايا ، والمدارس ، وحلقات العلم ، وظلت الرباطات والزوايا الصوفية ـ لقلة الاشتغال بالكتاب والسنة ، والجهل بعلم الحديث الشريف ، وقلة وجود الصحاح والكتب المعتمد عليها عند أهل الصناعة ؛ مرتع العقائد والأفكار التى لا دليل عليها ، ولا سند لها ، فى مصادر الدين الأصلية ، ولم يكن يعرفها مسلمو القرون الأولى، على الإطلاق .

وهنا فى الهند ـ التى كانت منذ آلاف السنين مركز اليوك ، والتنسك والرهبانية ـ واجه الصوفية الواردين من الخارج اليوكيين المحنكين المرتاضين الذين كانوا ضاعفوا قوة نفوسهم، ومتخيلتهم عن طريق حبس الأنفاس ، والتأملات اليوكية المعروفة لديهم ، فتعلم بعض المتصوفة المسلمين منهم هذا الفن[٢] ، ويمكن الاطلاع على هذا التأثير الذى خلفته

---

(١) عوارف المعارف ، ص ١ .

(٢) هذا فى جانب ، وفى الجانب الآخر كانت هذه البلاد لا تعرف شيًا عن الصحاح الستة ، ومؤلفيها، وأئمة هذا الفن الذين نقدوا علم الحديث ونخلوه ، وميزوا بين صحيحها وسقيمها ، وقاوموا البدع والمحدثات ، وأثبتوا أن حياة المسلمين يجب أن تقوم على أساس السنة المطهرة ، وفى ضوء الأحاديث الصحيحة ونستثنى من ذلك ولاية كجرات ، التى انتشر فيها علم الحديث لنزول العلماء العرب بها، وكثرة الرحلات منها إلى الحرمين الشريفين ، ونبغ فيها العلامة على المتقى البرهان بورى و تلميذه النجيب المعروف العلامة محمد طاهر الفتنى .

الفلسفات والتجارب المحلية فى الهند على التصوف من خلال كتاب « جواهر خمسة » للشيخ محمد غوث الكواليارى ، الذى ذاع صيته فى عصره ، وحصل له القبول العظيم عند الناس ، والكتاب يشتمل على أقوال الصوفية ، وتجارب الشيخ الكواليارى الشخصية ويخيل إلينا أنهم لم يروا حاجة إلى ثبوت هذه الأمور بالأحاديث الصحيحة ، واقتباسها من كتب السيرة النبوية المعتبرة فتجد فى هذا الكتاب المذكور ـ آنفًا « صلاة الأحزاب » و«صلاة العاشقين» « صلاة تنوير القبر » ، والصلوات المخصوصة للأشهر المختلفة والأدعية الخاصة بها ، التى لا أصل لها فى السنة ، ولا أثر لها فى الحديث، وقد جمع المؤلف (الشيخ الكواليارى) فى « الجوهر الثانى » ـ حسب تقسيمه للكتاب ـ « الأسماء الأكبرية » التى تحتوى فيما تحتوى على أسماء الملائكة باللغتين العبرانية والسريانية ، وقدمت بحروف النداء ، وهذا يدل على الاستعانة بغير الله ، وذكر فيها دعاء باسم « دعاء بشمخ » الذى ذكرت فيه الأسماء السريانية والعبرانية مقدمة بحروف النداء والكتاب كله مؤسس على الدعوة إلى الأسماء ، ويعتقد أن لهذه الأسماء حفظة موكلين يعرفون حقيقتها وماهيتها ، وذكرت حروف الهجاء ، وأسماء الموكلين بها أيضًا ، وفيه دعاء بهذه الصيغة « ناد عليًا مظهر العجائب » .

لقد بدأ عمل الإمام السرهندى التجديدى فى هذا العصر الذى امتاز بهذا الخليط الغريب من السنة والبدعة ، والشريعة والفلسفة ، والتصوف الإسلامى واليوك ويقول هو نفسه فى رسالة وجهها إلى ابن شيخه محمد عبد الله ، وهو يصور هذا الوضع المكفهر :

« لقد كثرت البدع والمحدثات فى هذه الأيام كثرة فاحشة ، حتى ليخيل للناظر ، أن بحرًا من الظلمات تتلاطم أمواجه ، وأن نور السنة فى هذا البحر الهائج المائج يتلألأ تلألؤ يراعات منتشرة فى ظلمة الليل البهيم » .

رفع الإمام السرهندى صوته مجلجلاً مدويًا ـ فى هذه الفترة الخطيرة الحرجة فى الهند ، إذ كانت شأفة الإسلام تستأصل بأيدى الدولة التى تتسمى بالإسلام ، ويستهان فى الزوايا ـ الصوفية بالسنة النبوية ، ويقال ـ علنا وجهارًا . إن الطريقة فى و اد ، والشريعة فى واد ، لكل منهما طريقه وتقاليده ، وأصوله ، أما طالب الحق الذى يريد معرفة الحق ، فيسأل المشايخ عن الدليل الشرعى ، فكان جوابه « هذا واد ليس زاد المسافر فيه الا التقليد والانقياد المطلق للشيخ الحكيم ، ولو أمره بإتيان محرم ومحظور فى الشرع » .

فى هذا الجو القائم أعلن الإمام السرهندى فى قوة وجراءة ، « أن الطريقة من خدم الشريعة ، خاضعة لأمرها ، وأن محاسن الشريعة أعلى وأرفع من « المقامات ،

والأحوال، والمشاهدات » وأن العمل بحكم شرعى واحد أنفع من مجاهدة آلاف السنين ، وأن القيلولة اتباعًا للسنة ، أفضل من إحياء الليل من غير اتباع السنة ، ولا اعتداد بأعمال الصوفية فى الحل والحرمة ، بل الحاجة إلى دليل من الكتاب والسنة ، وكتب الفقه ، وأن رياضات أهل الضلال ، ومجاهداتهم لا تستوجب القرب ، بل تستحق البعد والطرد ، وأن الأشكال ، والصور الغيبية من قبيل اللهو واللعب ، ولا يسقط التكليف الشرعى أبدًا .

وأقرأ ـ بعد هذا التمهيد ـ مقتبسات من رسائل الإمام التى تشتمل على بيان هذه الحقائق :

« إن الشريعة متكلفة بجميع السعادات الدنيوية والأخروية ، وليس هناك مقصد نحتاج فى تحقيقه وإنجازه إلى شيء غير الشريعة ، وأن ما يمتاز به الصوفية من «الطريقة والحقيقة» كلتاهما خادمتان للشريعة تساعدان فى تحصيل الإخلاص وصفاء النية ، وهكذا فإن الهدف من وراء تحصيل الطريقة والحقيقة ، ليس إلا تطبيق الشريعة ، بروحها وحقيقتها ، لا ما هو خارج عن نطاق الشريعة ، أما الأحوال والمواجيد ،والعلوم ، والمعارف التى تقع فى طريق السالك لا علاقة لها بالمقاصد ، بل إنها أشكال وألوان ، وأخيلة و« لعب تربى بها أطفال الطريقة » وينبغى الوصول مرورًا بهذه الأشياء إلى مقام الرضا ، الذى هو نهاية السلوك والمواجيد والمقامات » (١) .

ويقول : فى هذه الرسالة أيضًا :

يظن قصار النظر أن الأحوال والمواجيد من المقاصد والغايات وان المشاهدات والتجليات من المطلوبات ، ويستلزم ذلك حبسهم فى سجن الوهم والخيال والحرمان من فضائل الشريعة ومدارجها العظيمة :

«كبر على المشركين ما تدعوهم إليه،الله يجتبى إليه من يشاء،ويهدى إليه من ينيب»(٢) .

ويقول فى رسالة أخرى ، مبينًا تقديم الفرائض على النوافل ، وترجيحًا عليها :

« إن ما يتقرب به إلى الله من الأعمال ، هى إما فرائض ، وإما تطوعات ، وليس للتطوعات أى قيمة ازاء الفرائض ، وأن أداء فريضة فى وقتها أفضل من تطوع ألف سنة ، ولو كان بنية خالصة .

---

(١) الرسالة رقم : ٣٦ ، المجموعة الأولى وهى موجهة الى الشيخ حاجى محمد اللاهورى .

(٢) الرسالة رقم : ٤٠ ، المجموعة الأولى ، كتبا إلى الشيخ محمد الجترى .

ويقـول فى رسالة لبـيان أن العـمل بأحكام الشريعـة بغيـة إصلاح النفس وإزالـة الأمراض الباطنية أنفع من آلاف الرياضات والمجاهدات :

« إن العمل بالأحكام الشرعية بغية إزالة الأهواء النفسانية أعظم نفعًا وتأثيرًا من رياضات ألف سنة ، ومـجـاهداتهـا التى يضـعـها السـالك من تلقـاء نفسـه ، بل هذه الرياضـات والمجاهدات التـى لا توافق مقتـضيـات الشريعـة الغراء، تزيد فى شـدة الأهواء والأمراض النفسانـية صرامتهـا ، فإن البراهمة واليـوكيين لم يدخروا وسعًا فى الـرياضات والمجاهدات الشاقة ، ولم تجدهما فتيلاً ، ولم تزدهما إلاّ عتوًا وضلالاً »

ويقول فى رسالة أخرى مبينًا أهمية محاسن الشريعة وفضلها :

« إن أكثر الناس ـ فـى هذه الدنيا ! فرحون بتخـيلاتهم ورؤاهم ومقتـصرون على اللوز والجوز ، ما يُدريهم بمحاسن الشريعة وفضائلها ، وحقيقة الطريقة وأصلها ؟ ، وإنهم يرون الشريعـة قشرة ، والطريقة لبـابًا ، ولا يدرون الحقيقة ، مـخدوعين بشطحات الصـوفية ، وأقوالهم السطحية ، مفتونين بأحوالهم ومقاماتهم » .

ويقول فى رسالة لبيان فضيلة العمل بسنة واحدة وأهميته :

« الفضـيلة مرتبطة باتباع السنة السنيـة ، والشرف قائم عى العـمل بالشريعة فـالقيلولة ـ مثلا بنية اتباع السُنة أفضل من إحـياء الليل مئات الآلاف من المرات ، وأداء فلس واحد من الزكاة أفضل من إنفاق جبال الذهب تطوعًا وتصدقًا » (١) .

ويقول فى رسالة أخرى :

« يعتقد الصوفية الناقصون أن الذكر والفكر ، أهم المهمات ، ويتكاسلون عن أداء السنن والفرائض ، ويفضلون الرياضـات والأربعينيات على الجمعة والجـماعات ، ولا يدرون أن أداء صلاة واحدة مع الجماعة أفضل من الاف الأربعينيـات التى يعتكفون فيها ، أما إذا كان الذكر والفكر مع مـراعاة الاداب الشـرعية فـهما من أفـضل الأعمال والقـربات ، وكذلك العلماء الناقـصون ؛ يجتهـدون فى نشر النوافل والتطوعات ، والدعـوة إليها ، ويضيـعون الفرائض ويفسدونها » (٢) .

ويكتب إلى الشيخ مير محمد نعمان ، فيقول :

---

(١) الرسالة رقم : ١١٤ ، المجموعة الأولى ، وهى موجهة الى الصوفى قربان .

(٢) الرسالة رقم : ٢٦٠ ، المجموعة الأولى ، وهى موجهة الى ابنه الشيخ محمد صادق .

« هناك فريق من هؤلاء الصوفية لم يقدر له أن يعرف حقيقة الصلاة وفضائلها الخاصة ، فيبحث عن علاج أمراضه الروحية فى أشياء أخرى ، ويظن أن أهدافه ومقاصده مرتبطة بأمور أخرى ، بل إن منهم فريقًا لا يرى فائدة فى الصلاة ويحملها على « الغيرية » والأجنبية ، ويفضل عليها الصوم ، إذ تتجلى فيه صفة « الصمدية » والكثرة الكاثرة من هؤلاء الصوفية تجد طمأنيتها وسلواها فى الأغانى والنغمات ، والوجد والتواجد ، وتحسب الرقص منقبة وكمالاً ، ألم يسمعوا قول الرسول ـ ﷺ ـ «ما جعل الله فى الحرام شفاء»[1] ، لو انكشفت عليهم ذرة من مكانة الصلاة وحقيقتها ما سرتهم الأغانى ، ولا أطربتهم الألحان ، ونسوا المواجيد والأذواق ، فلما لم يبصروا الحقيقة كما هى هاموا على وجوههم فى الأساطير والخرافات» [2] .

ويشير فى موضع إلى ذلك الصفاء الذى يحصل لنفوس المشركين والكفار والمنكهين فى أعمال الفسق والفجور من الرياضيين اليوكيين ، فيقول:

« تنحصر التزكية الحقيقية فى الأعمال الصالحة التى يرضاها الله ـ تعالى ـ ويتوقف ذلك على البعثة ـ كما تقدم ـ فلا تصفية ولا تزكية إلا بالبعثة وما يجده الكفار وأهل الفسق من الصفاء ، إنما صفاء النفس وليس صفاء القلب ولا يزيدها صفاء النفس إلا زيغًا وضلالاً ، ولا يهدى إلا إلى طريق الخيبة والخسران ، وما يحصل لبعض الكفار والفسقة عند صفاء النفس من كشف بعض الأمور الغيبية ، فذلك استدراج ، وليس فى حقهم إلا ضرراً وضياعًا ، وخسرانًا مبينًا [3] .

ويقول ردًا وتفنيداً لعقيدة سقوط التكاليف الشرعية عن ذمة السالك والعارف ، وتحرره من ربقة الفرائض والأحكام الشرعية ـ التى هى بمثابة متفجرات وألغام ، وضعت لنسف الشريعة الإسلامية بأسرها والقضاء عليها.

« يفكر المتصوفة المخدجون الناقصون والملحدون الضائعون فى تحرير رقابهم من طوق الخضوع للشريعة الإسلامية ، وقصر الأحكام الشرعية على العوام من الناس ، ويعتقدون أن الخواص ليسوا بمكلفين إلا بالمعرفة ، كما أن الأمراء والسلاطين مكلفون بالعدل والقسط

---

(١) ورد من حديث الطبرانى بسند صحيح عن أم سلمة مرفوعًا « إن الله تعالى لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم » وفى لفظ « ان الله لم يجعل شفاء أمتى فى ما حرم عليها » .

(٢) الرسالة رقم : ٢٦١ ، المجموعة الأولى ، وهى موجهة الى الشيخ مير محمد نعمان .

(٣) الرسالة رقم : ٢٦٦ ، المجموعة الأول وهى موجهة الى الشيخ عبد الله والشيخ عبيد الله .

بين الناس فحسب ، ويقولون إن الغرض من العمل بالشريعة ليس إلا تحصيل المعرفة ، فاذا تحققت المعرفة سقطت التكاليف الشرعية ، ويستدلون بهذه الآية : ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ (١) .

ويثبت فى رسالة أن عمل الصوفية ليس بحجة فى إباحة شيء أو حرمته، فيقول :

« ليس عمل الصوفية حجة فى الحرمة والإباحة ، ألا يكفى أن نعذرهم ونترك ملامهم، ونكل أمرهم إلى الله ، والحجة فى مثل ذلك قول الإمام أبى حنيفة والإمام أبى يوسف ، والإمام محمد مثلاً ، لا قول أبى بكر الشبلى، وأبى الحسن النورى ، إن صوفية هذا العصر التافهين يتعللون ويستدلون بأعمال مشايخهم فى الرقص ، والغناء ويتخذونهما دينًا متبعًا ، وسنة مطاعة ، وظنوهما طاعة وعبادة ، ﴿ **اتخوا دينهم لهواً ولعبًا** ﴾ (٢) .

وتحولت حماية الإمام السرهندى هذه للشريعة الإسلامية إلى حمية جياشة ، فإذا سمع شيًا من تحقيقات الصوفية وأحوالهم ، مما يخالف الكتاب والسُنة، وعقيدة جمهور الأمة ، أو يرى الاستدلال والاحتجاج بأحوال الصوفية أو أقوالهم ، أو أى كتاب من كتب التصوف، تتحرك هذه الحمية فى صدره ، ويغلى مرجله ، وينبض عرقه العمرى ، وينبجس من قلمه السيال سيل عارم من الغيرة على السنة ، والذب عن الشريعة ، والرد على البدعة ، ذكر له بعض تلاميذه قولاً شاذا ، موحشًا من أقوال الشيخ عبد الكبير اليمنى، فلم يتمالك الإمام أمامه ، وصدرت من قلمه ـ عفو الخاطر ـ هذه الكلمات :

« يا سيدى إن هذا الفقير لا يستطيع أن يصبر على هذه الأقوال ، إنه يتحرك عرقى الفاروقى ولا يترك مجالا للتوجيه والتأويل ، سواء كان قائله الشيخ الكبير اليمنى ، أو الشيخ الأكبر الشامى (٣) ، نحن فى حاجة إلى كلام محمد العربى ـ عليه وعلى اله الصلاة والسلام ـ لا كلام محيى الدين بن عربى ، ولا صدر الدين القونوى ، ولا الشيخ عبد الرزاق الكاشى ، نحن نريد النص ، لا الفص (٤) ، وقد أغنتنا الفتوحات المدنية عن الفتوحات المكية » (٥) .

---

(١) الرسالة رقم : ٣٦٧ ، المجموعة الألى ، وهى موجهة الى الشيخ بديع الدين .

(٢) الرسالة رقم : ٢٦٦ ، المجموعة ، وقد تقدمت .

(٣) أى الشيخ محى الدين بن عربى الذى توفى بدمشق ،ودفن فيها .

(٤) المراد بالنص ، النص الشرعى ، والمراد بالفص ، كتاب ابن عربى « فصوص الحكم » .

(٥) كتاب مشهور للشيخ ابن عربى ، الرسالة رقم : ١٠٠ ، المجموعة الثانية كتبها الى الشيخ ملاحسن الكشميرى .

يقول مصرحًا بأن كل عمل يؤدى وفق الشريعة الغراء ، يندرج فى الذكر :

« ينبغى صرف الأوقات كلها فى ذكر الله ، وكل عمل وفق الشريعة الغراء داخل فى الذكر ، وأمَّا البيع والشراء فيجب الاهتمام فى جميع الحركات والسكنات بالأحكام الشرعية، حتى تصبح كلها ذكرًا ، لأن الذكر عبارة عن إزالة الغفلة ، فإذا روعيت الأوامر والنواهى الشرعية فى جميع الأعمال يتخلص العالم بذلك من الغفلة والنسيان لمن أمر بهذه الأعمال وهو الله الواحد الآمر والناهى ، وتحصل له نعمة المداومة على الذكر » (١) .

محاربة العقائد والتقاليد وشعائر أهل الجاهلية ، والدعوة إلى الدين الخالص :

لقد كان معين الإسلام الصافى فى الهند ـ التى لم يزل أساس الإسلام فيها ضعيفًا ، لأسباب وعوامل تاريخية مختلفة ، وكانت موطن شعوب مشركة وديانات وثنية ـ تتسرب إليه المخلفَّات والرواسب من الديانات السائدة، وكان يخشى أن يغيب هذا الينبوع فى الظلمات المتراكمة حتى يضل الخريت ، ويحار الدليل .

ولذلك لما بدأ الإمام السرهندى رحلته التجديدية ، كانت أول خطوة خطاها على طريق الأنبياء ، وعلى نفس المنهج الذى سار عليه الرسل ، هى الخطوة نحو إصلاح العقاد ، تصحيح الاتجاه ، فقد كان إباؤه عن سجدة التحية أمام السلطان جهانكير ، ورفضه لهذه البدعة الشنيعة عنوانًا لامعًا فى تاريخ إصلاحه وتجديده ، وقد تناول فى رسائله التى وجهها إلى مختلف أصحابه وأتباعه بيان حقيقة التوحيد بأسلوب واضح مبين ،وعبارات موجزة جامعة رصينة ، وقدم الدلائل والبراهين على وحدانية الله ـ تعالى ـ وأنه هو المستحق للعبادة وحده ، وبأسلوب يدل على رسوخه وعلو كعبه فى هذا العلم ، وقام بدحض الشرك مظاهره وتقاليده ، ونهى أصحابه وأتباعه نهيًا شديدًا عن الاعمال الشركية ، والعادات الجاهلية ، وتقليد الكفار من اليهود والنصارى والمشركين ، إذ أنه لا بداية لعمل الإصلاح والتجديد إلاَّ به فضلاً عن نهايته وكماله .

وهنا مقتطفات من رسالة مسهبة كتبها إلى امرأة صالحة بايعته وتابت على يده ، وقد تضمنت هذه الرسالة الرد على عامة ما يُبتَلى به الجهلاء من المشركين خصوصًا النساء منهم، يقول فيها :

---

(١) الرسالة رقم : ٢٥ للمجموعة الثانية ، وهى الى الشيخ خواجه محمد شرف الدين .

تعظيم مظاهر الشرك والوثنية :

« إن تعظيم مظاهر الشرك ، وأعياد الجاهلية من أعظم أنواع الإشراك بالله ـ عز وجل ـ وأن من يعتقد بصحة دينين وصلاحيتهما فى وقت واحد ، فهو مشرك ، وأن من يعمل بأحكام الإسلام وأعمال الكفر والشرك ، فهو مشرك ، ولا يتم الإسلام الاَّ بالبراءة من الشرك ، ومحادّته ومعاداته ، وأن التوحيد هو الاشمئزاز والنفور من كل شابة من شواب الشرك » .

الاستعانة بغير الله :

ويقول رحمة الله : « إن الاستعانة بالطواغيث والأصنام فى دفع الأمراض وشفاء الأسقام ـ التى راجت فى المسلمين وعمّت فى دَهَمَّائهم ـ عين الشرك والضلال وأن طلب قضاء الحاجات من الأحجر المنحوتة جحود صريح بالله ـ تعالى ـ وعين الكفر ، يقول الله تبارك وتعالى ـ مبينًا حال بعض الغواة الضالين :

﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾ .

وإن كثيراً من النساء ـ لغاية جهلهن وضلالهن ـ يطلبن قضاء حوائجهن من غير الله ، ويسألن بأسماء ما أنزل بها من سلطان ، دفع البليات وكشف الكربات ، إنهن لأسيرات فى أغلال الشرك وطقوسه وتقاليده .

سيتله :

وتتجلى هذه العقائد الشركية وتشاهد هذه الأعمال والتقاليد الجاهلية ـ بصفة خاصة ـ عندما ينتشر الجدرى (الذى يعرف فى أوساط النساء فى الهند باسم « سيتله » [1] ـ حيث تقع جميع النساء فى الجهل المطبق ، والكفر الصريح ، ويأتين بأعمال شركية ، وقلما تجد امرأة تتقى دقائق هذا الشرك ، ولا تقدم على أى نوع من أنواع الشرّك بهذه المناسبة ، اللهم إلا من عصم ربك » .

---

(١) اسم إلهة من الإلهات المفروضة المتخيلة عند وثنى الهند ، يعتقدون أنها تسبب الجدرى ، ولا يرتفع هذا الوباء ، ولا يشفى المريض الا اذا ارضيت هذه الالهة بالنذور والقرابين .

تعظيم أعياد الكفار والمشركين وتقليد عاداتهم وطقوسهم :

« كلك فإن تعظيم أعياد الهنادك ، والاحتفال بالأيام التى يقوم فيها الهنادك بتقاليدهم وطقوسهم ، يستلزم الشرك ويستوجب الكفر ، وإن الجهلة من المسلمين فى أيام «ديوالى»- وهو عيد من أعياد الهنادك ، يوقدون فيه المصابيح ويقامرون ، ويتبادلون الهدايا والتهانى - لا سيما نسائهم يقلدون الهنادك فى عاداتهم وطقوسهم ، ويحتفلن بعيدهم ، ويتهادين فيما بينهن ، فيبعثن بالتحف والهدايا إلى أخواتهن وبناتهن مثل ما يفعل المشركون والمشركات ويلونّن أوانيهن بنفس الألوان التى تلوّن بها الكافرات، ويملأنها « بالفيرنى » الأحمر (١) ، ثم يبعثنها هدايا ، ويحتفلن بهذه الأيام ، وهذا العيد ، احتفالاً كبيرًا وكل ذلك شرك ، وكفر بدين الإسلام وجحود به » .

النور وذبح القرابين للأولياء وللصالحين :

ويقول فى هذه الرسالة : « وكذلك ينذرون الحيوانات للمشايخ والصالحين، فيسوقونها إلى قبورهم ، ثم يذبحونها هناك ، وقد ورد فى كتب الفقه ما يدل على أن هذا كذلك من الشرك ، وجاء فيه تشديد وتأكيد ، واعتبرت هذه الحيوانات التى تذبح على قبورهم كالذبائح التى تذبح باسم الجن التى كان المشركون يذبحونها خوفًا منهم وطمعًا فى نوالهم ، مما هو منهى عنه شرعًا ، وداخل فى الشرك ، فلا بد من اجتناب هذا العمل الذى تشم منه رائحة الشرك، وإن للنذر طرقًا كثيرة وأشكالاً متعددة فما الذى يلزمهم بنذر الحيوانات ؟ حتى يتشبهوا بعملهم هذا بعُبَّاد الجن لمشابهة ذبائحهم وقرابينهم ذبائح المشركين للجن » .

نذر الصيام للأولياء والصالحات :

« ويدخل فى ذلك تلك الصيام التى تصومها النساء باسم المشايخ والأولياء والصالحات الزاهدات من النساء ، فكثيرً ما ينتحلن أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، فينذرون الصيام لها ، ويخترن طريقة خاصة لكل صوم من هذا الصيام عند الإفطار ، ويحددن لها أيامًا خاصة ، ويربطن قضاء حوائجهن ، وبلوغ مقصادن بهذا الصيام ويسألن باسم هذا الصيام الأولياء الصالحين والنساء الصالحات أن تقضى حوائجهن ، ويعتقدن بأنهم يقضون حاجاتهن، ويلبُون مطالبهن ، وذلك من الإشراك فى العبادة ، والاستعانة بغير الله

---

(١) طبيخ الرز واللبن والسكر ، وهو مثل المهلبية .

- تعالى - عن طريق العبادة لغير الله - عز وجل - فينبغى أن يعلم قبح هذه الأعمال وشناعتها ، وقد جاء فى حديث قدسى : «يقول الله - عز وجل - الصوم لى وأنا أجزى به»، ومعنى ذلك أن عبادة الصوم لى خاصة ، لا يشركنى فيها أحد ، ومعلوم أنه لا يجوز الإشراك إطلاقًا فى أى نوع من أنواع العبادات إلا أن تخصيص الصوم هنا بذلك لأهمية هذه العبادة ، ولذلك جاء النفى للإشراك فى هذه العبادة بتأكيد بليغ .

وإن من الحيل وخداع الشيطان أن بعض النساء (عندما يكشف لهن عن قبح هذه الأعمال الشنيعة) يقلن : إنما نصوم هذا الصيام لله تعالى ، ونهدى ثوابه إلى الأولياء ، فلو كن صادقات فى قولهن ، لما التزمن من أنفسهن أيامًا معينة ، وأطعمة خاصة ، ولما انتحلن العادات القبيحة ، والآداب المخترعة المحددة عند إفطارهن ، فإهن لكثيراً ما يرتكبن عند الإفطار أموراً من المحرمات ، فيفطرن على حرام ، ويتكففن بدو ضرورة ، ويسألن عن غير حاجة ، فيفطرن بما يحصلن عليه عن طريق التكفف ، ويعتقدن بأنهن - بهه الأعمال المحرمة - يقضين حوائجهن ، ويكملن مطالبهه ، وذلك عين الضلال وخداع إبليس اللعين ولا عاصمَ إلاَّ الله » [1] .

النهى عند سجدة التحية :

وهناك عدد من رسائل الإمام القوية الواضحة فى انهى عن سجدة التحية ، نذكر بعض مقتطفاتها فيما يلى :

« إنه لا يليق بالسلاطين العظام إلا التواضع أمام ربهم - عز وجل والنظر إلى عجزهم وضعفهم ، وأن لا يسمحوا - أبداً - بهذا الذل ، وغاية الخضوع الا لله تعالى - وقد سخر الله لهم البلاد وأحوج إليهم العباد ، فعليهم أن يشكروا هذه النعمة الجسيمة ، ويخصوا هذا النوع من الخضوع والذل والاستكانة لحضره ذى الجلال والجبروت ، ولا يجوز الإشراك به فى ذلك ، وإن كانت طائفة من الفقهاء رأت جواز ذلك [2] ، ولكن ينبغى لهؤلاء السلاطين - بتحليهم بالتواضع والأدب أن لا يبيحوا ذلك لأحد ، وذلك لقول الله - عز وجل - ﴿ هل جزاء الإحسان إلاَّ الإحسان ﴾ .

ويقول فى رسالة إلى الشيخ نظام التهانيسرى :

« ذكر لى الناس أن أصحاب بعض خلفائك يسجدون له سجدة التحية ، ولا يكتفون

---

(١) الرسالة رقم : ٤١، ج ٢ ، كتبها إلى احدى الصالحات .

(٢) لم نطلع على من اباح ذلك ، ولو ثبت حمل على الشذو والمنكر من القول .

بالانحناءة المعتادة للتحية (عند المبتدعين) ألا إن قبح هذا العمل وشناعته أظهر من الشمس ، فانههم عن ذلك ، وأكد عليهم النهى ، وشدد النكير ، إن الاجتناب عن هذه الأفعال مطلوب من جميع الناس لا سيما من شخص قد نصب نفسه ليكون قدوة لغيره ، فاجتنابه مثل هذه الأفعال القبيحة من أشد ضروريات الدين ، إذ أن أتباعه يقتدون به ، ويقتفون أثره ، فيقعون في هذه الأحابيل والويلات » (1) .

وكان هذا هو العمل التجديدى العظيم لإصلاح العقائد الفاسدة ، والرد على الشرك والبدعة ، والدعوة إلى الدين الخالص ، الذى بدأه الإمام السرهندى على أرض الهند التى كانت الأقلية المسلمة فيها تواجه خطر الجاهلية المشركة بصفة دائمة ـ لإحاطة الأكثرية المشركة بها ، وقرب عهد البلاد بالإسلام ـ ووسعه وأكمله ـ فيما بعد ـ مشايخ سلسلته الكبار ، مثل حكيم الإسلام الإمام ولى الله الدهلوى ، وأفراد أسرته (2) ، إلى الإمام أحمد بن عرفات الشهيد ، وكان ذلك عن طريق الخطابة والكتابة ، والرسائل والمؤلفات ، وترجمة معانى القرآن ، والأحاديث النبوية والجولات الدعوية الواسعة ، والحركة الجهادية العظيمة (3) .

نشر السنّة والرد على « البدعة الحسنة » :

تعرف البدعة بأنها إدخال شىء فى الدين لم يدخله الله ورسوله فيه ، ولم يأمرا به ، واعتقاد أنه جزء من الدين ، يعمل به احتسابًا ، والتزام آدابه ، وشروطه المزعومة ، كالتزام الحكم الشرعى ، والبدعة شريعة وضعية إزاء شريعة إلهية ، ولها فقهها المستقل ، وفرائضها وواجباتها ، وسننها ، ومندوباتها التى تقف ندًا للشريعة الإلهية حينًا ، وتفوقها أهمية وعظمة حينًا آخر .

وتغض البدعة طرفها عن حقيقة ناصعة ، وهى أن الدين قد أكمل ، وأن الشريعة قد ختم عليها ، فما كان ينبغى أن يتقرر ، تقرّر ، وما كان بيتعين فرضًا أو واجبًا ، ليتعين فرضًا أو واجبًا ، وأغلقت « دار الضرب » للدين ، فأى عملة جديدة تنسب إليه لا تكون إلاّ مزورة مزيفة ، وما أحسن ما قال الإمام مالك ـ رحمه الله :

---

(1) الرسالة رقم : ٢٩١ ، ج ٢ ، كتبها الى الشيخ نظام التهانيسرى .

(2) على رأسهم وفى مقدمتهم حفيده الشهير العلامة محمد اسماعيل الشهيد (١٢٤٦) .

(3) راجع للتفصيل كتاب المؤلف « اذا هبت ريح الايمان » ، ورسالته « الامام الذى لم يوفّ حقه من الإنصاف والاعتراف » .

« من ابتدع فى الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ـ ﷺ ـ خان الرسالة ، فإن الله سبحانه ـ يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم » فما لم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا » .

وإن من خصائص الشريعة المنزلة من الله ـ عز وجل ـ أن تكون سمحة سهلة ، صالحة للعمل والتطبيق فى كل عصر ومصر ، لأن من شرع هذا الدين هو الذى خلق الناس ، فهو الذى يعرف ضروراتهم وحاجاتهم ، وطباعهم ، وطاقاتهم ومواضع ضعفهم وعجزهم ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ (١) .

ولأجل ذلك لوحظت مراعاة هذه الأمور كلها فى التشريع الإلهى ، ولكن إذا اتخذ الإنسان نفسه شارعًا فلا سبيل إلى مراعاة هذه الجوانب المتعددة ، وكلما تختلط البدع والمحدثات بالدين ، وتجرى تعديلات وإضافات بشرية فيه ، يزداد الدين عسراً وضيقًا وتعقداً ، حتى يضطر الناس إلى أن يخلعوا ربقة الدين من رقابهم يحرموا هذه النعمة المتحققة فى رفع الحرج ، ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ ، ويمكن أن تلاحظ أمثلة ما نقل فى تلك الفهارس الطويلة للطقوس والعبادات ، والفرائض والسنن المحدثة التى عملت فيها البدع عملها بكل حرية وانطلاق .

ومن خصائص الدين والشريعة الإسلامية الانسجام التام ، والوحدة العالمية ، فلا يتغيران ، ولا يتفرقان فى عصر وزمان ، فلو سافر مسلم من بقعة فى العالم الإنسانى إلى بقعة أخرى ، لا يلقى أى صعوبة وحرج فى العمل بالدين ، وتطبيق الشريعة ، ولا يحتاج إلى منهج مخصص ، أو دليل محلى ، أما البدع فلا توافق فيها ولا انسجام ، فهى تصهر فى بوتقة محلية فى كل مكان ، وتضرب فى دار الضرب لمدينة ما من المدن ، أو بلد من البلدان ، وتكون نتاج العوامل التاريخية المحلية الخاصة ، والمصالح الشخصية ،والأغراض الفردية الخاصة ، فتختص بدع كل بلد من البلدان ، بهذا البلد نفسه ، بل بدع كل ولاية ، وكل مدينة وخرافاتها ، بل بدع كل حى من الأحياء ، وكل بيت من البيوت ، وأباطيلها وخرافاتها ، تختص بها نفسها ، ينتج من كل ذلك دين متعارض يصطدم بعضه ببعض فى كل قرية وبلد ، وكل حى ومنزل .

لهذه المصالح الشاملة الخالدة التى نعلم بعضها ولا نحيط بها ، نهى الرسول ـ ﷺ ـ من اقتراب البدع ، وأمرهم باجتناب كل المحدثات فى الدين، والحفاظ على السنة ، والتمسك

---

(١) سورة الملك ـ ١٤ .

بها ، يقول ـ عليه الصلاة والسلام :

« من أحدث فى أمرنا هذا ، ما ليس منه فهو رد » [(١)] ، « إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » [(٢)] .

وتنبأ بهذه النبوءة الحكيمة : « ما أحدث قوم بدعة إلا رفع بها مثلها من السنة » .

وقد عارض الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ وأئمة الدين ، وفقهاء المسلمين، وجميع المجددين والمصلحين ، والعلماء الربانيين فى عصورهم ، محدثات زمانهم والبدع الناشئة فيه معارضة عنيفة قوية ، وبذلوا جهد طاقتهم فى الحيلولة دون رواج هذه البدع ، والمحدثات وتأثيرها فى المجتمعات الإسلامية، والأوساط الدينية ، وقد صور القرآن الحكيم ما يوجد فى هذه البدع والمحدثات ـ فى كل عصر ـ من جاذبية مغناطيسية ، وما ترتبط بها من أغراض أبناء الدنيا ، والمحترفين بالدين ، ومصالح الفرق الدينية المغرضة الشخصية ، ومنافعها الذاتية ، فى أسلوب المعجز الحكيم :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدّون عن سبيل الله ﴾ [(٣)] .

ولقى هؤلاء الدعاة والمصلحون ، والمجددون فى سبيل ذلك من الأذى ، والاضطهاد ، ما لقوا ، ولكنهم لم يبالوا بما أوذوا به فى سبيل الله ، واعتقدوا أن عملهم هذا جهاد الساعة ، والمهمة الدينية المقدسة لصيانة الشريعة الغراء والدين الخالص من التحريف ، والتزوير ، وقد لقب هؤلاء المعارضين للبدع والمحدثات ، والحاملين لراية السنة ، والشريعة المطهرة ، مخالفوهم من العامة ، أو الخاصة الذين لا يمتازون عن العامة بألقاب تشبه ألقاب الكفار من قريش للمسلمين كالصابئة والمارقة [(٤)] وأعداء الدين ، فلم يعيروها أى اهتمام فقضوا بجهادهم وكفاحهم بالقلم واللسان ، وإثبات الحق، وإبطال الباطل على كثير من البدع ومحدثات الأمور ، التى لا نجد لها الآن ذكراً إلاّ فى بعض كتب التاريخ ، وما بقى منها ، لم يزل يكافحها العلماء الربانيون ، ولا يزالون يحاربونها ، ويقضون عليها :

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من

---

(١) متفق عليه

(٢) رواه أحمد وأبو داود (نقلاً عن مشكاة المصابيح ، باب الاعتصام بالكتاب والسنة) .

(٣) سورة التوبة ـ ٣٤ .

(٤) مثل « الوهابية » والجامدين والمحافظين ، والقشوريين ، والحرفيين ، وغيرها ، فى عصرنا هذا .

ينتظر ، وما بدّلوا تبديلاً ﴾ (١) .

وقد كانت أكبر مغالطة فى هذا الصدد ، ومغالطة البدعة الحسنة ، فكأنّ الناس قسموا البدعة قسمين : البدعة السيئة ، والبدعة الحسنة ، وكانوا يقولون : إنه ليس كل بدعة سيئة، فكثير من البدع حسنة ، استثنيت من إطلاق حديث : « كل بدعة ضلالة » (٢) .

إن ما قام به الإمام السرهندى من معارضة شديدة ، واستنكار قوى ، لهذا التقسيم ، المحدث للبدعة الحسنة ، والبدعة السيئة ، فى ثقة وقوة واعتماد ، وبأسلوب علمى ، واستدلال موضعى ، لا يوجد له نظير فى كثير من الأقطار ، فاقرأ ـ فيما يلى ـ مقتبسات من رسائله فى هذا الصدد :

يقول فى رسالة ـ محرِّضًا على نشر السنن النبوية ، وترويجها ، ومرغِّبًا فى رد المحدثات، والقضاء عليها ـ موجهة إلى ابن شيخه ومرشده الشيخ محمد عبد الله :

« هذا هو العصر الذى مضت ببدايته ألف سنة على البعثة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ وبدأت أمارات الساعة تظهر ، فأصبحت السنة لبُعد عهد النبوة محجوبة متروكة ، والزمان زمان الكذب والاختلاق ، فتروج البدع وتنتشر المحدثات ، ويرنو العالم إلى بطل يحمى حوزة السنة ، وينصرها ، ويدحر البدعة ويغلبها ، فإن نشر البدعة إماته السنة ، وإن تعظيم المبتدع وإكرامه بمثابة هدم لقصر الإسلام وتخريبه ، وقد جاء فى الحديث :

« من وقَّرَ صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام » (٣) .

فينبغى الاهتمام بالهمة العالية ، والعزيمة الصارمة ، بنشر سنة من السنن، وإزالة بدعة من البدع ، لقد كان هذا العمل فريضة فى كل عصر ، ولكن وجوبه فى هذا العصر الذى

---

(١) سورة الأحزاب ـ ٢٣ .

(٢) وأكبر دليل للناس فى هذه القضية قول عمر ـ رضى الله عنه ـ حين رأى الناس مجتمعين لصلاة التراويح : « نعمت البدعة هذه » ، مع أن العلماء متفقون عى أن اطلاق لفظ « البدعة » هنا بمعناه اللغوى ، لأن صلاة التراويح ثابتة بالأحاديث الصحيحة ، وبالتواتر العملى ، وينبغى للاطلاع على تعريف البدعة ، والتفصيل فيها مراجعة كتاب «الاعتصام بالسنة» للإمام الشاطبى ، وكتاب «ايضاح الحق الصريح فى أحكام الميت والضريح» للإمام محمد اسماعيل الشهيد ، وهما من أجود الكتب فى هذا الموضوع .

(٣) رواه البيهقى فى شعب الايمان مرسلا (مشكاة المصابيح ، باب الاعتصام بالكتاب والسنة) .

ضعف فيه الإسلام ، وارتبطت اقامة معالمه ، وتعظيم شعائره بنشر السنة ، وهدم البدعة ، أقوى وأشد » .

ثم يقول فى نفس هذه الرسالة مفنداً لاصطلاح البدعة الحسنة ، ومنكراً لوجود نوع من الحسن والخير فيها :

« رأى بعض الناس فى العصر الماضى شيئًا من الحسن فى البدعة فاستحسنوا بعض أنواع البدع والمحدثات ، ولكن الفقير لا يوافقهم فى ذلك، فإنه لا يرى أى بدعة حسنة ، ولا يشعر فيها إلاّ بالظلمة والكدر ، وقد قال ـ ﷺ ـ : « كل بدعة ضلالة » [(1)] .

ويقول فى رسالة أخرى باللغة العربية ، كتبها إلى الشيخ مير محب الله :

« النصيحة هى الدين ، ومتابعة سيد المرسلين عليه وعلى آله وعليهم الصلاة والسلام ، وإتيان السنة السنية ، والاجتناب عن البدعة الغير المرضية ، وإن كانت البدعة ترى مثل فلق الصبح ، لأنه فى الحقيقة لا نور فيها ولا ضياء ، ولا للعليل منها شفاء ولا للداء منها دواء، كيف والبدعة إما رافعة للسنة ، أو ساكتة عنها ، والساكتة لا بد أن تكون زائدة على السنة ، فتكون ناسخة لها فى الحقيقة أيضًا ، لأن الزيادة على النص نسخ له ، فالبدعة كانت تكون رافعة للسنة نقيضة لها ، فلا خير فيها ولا حسن فيها ، وليت شعرى من أين حكموا بحسن البدعة المحدثة فى الدين الكامل والرسلام المرضى بعد إتمام النعمة ،ولم يعلموا أن الأحداث بعد الإكمال والإتمام وحصول الرضا بمعزل عن الحسن فماذا بعد الحق الاّ الضلال ، ولو علموا أن الحكم بحسن المحدث فى الدين الكامل مستلزم لعدم كماله ، ومنبىء عن عدم تمام النعمة ، لما اجترؤوا عليه ، ﴿ **ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا** ﴾ ، والسلام عليكم وعلى من لديكم » [(2)] .

ويقول فى رسالة أخرى ، وهو يتحدث عن هذا الاستثناء المذكور ـ آنفًا ـ :

« لما كان كل محدث فى الدين بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، فلا معنى للحسن فى بدعة من البدع ، ولما كانت الأحاديث الصريحة تفيد بأن كل بدعة ترفع سنة ، من غير تخصيص وتقييد ، فلا معنى لذلك ، ولا بد أن تكون كل بدعة سيئة ، ورد فى الحديث :

---

(1) الرسالة رقم : ٢٣ ، المجموعة ثانية ، وهى موجهة الى ابن شيخه الشيخ محمد عبد الله ، وروى هذا الحديث فى صحيحه .

(2) الرسالة رقم : ١٩ ، المجموعة الثانية .

«ما أحدث قوم بدعة إلاّ رفع مثلها من السنة ، فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة»[١] .

وروى عن حسان بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال :

« ما ابتدع قوم بدعة فى دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها ، ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة » .

اعلم أن بعض البدع التى استحسنها بعض العلماء ، والمشايخ ، يتجلى عند التأمل الدقيق فيها أنها كذلك ترفع السنة وتمحوها [٢] .

ويقول فى هذه الرسالة ، مستنكرًا لوجود البدعة الحسنة :

« يقول الناس : إن البدعة قسمان : البدعة الحسنة ، والبدعة السيئة ، فيسمون العمل المحدث بعد عهد النبوة ، وعهد الخلفاء الراشدين بدعة حسنة، وهى لا ترفع ـ عندهم ـ سنة من السنن ، والبدعة السيئة ، هى التى ترفع السنة ، أما هذا الفقير فلا يرى فى شىء من البدعة أى حسن ونور،ولا يوجد فيها الاّ ظلمة وكدرًا ، ولو فرضنا أن إنسانًا يرى فى العمل المبتدع ـ لضعف بصره ـ نضرة وصفاء ، فإنه ما يكون غدا حديد البصر ، بعيد النظر، سوف لا يجد إلاّ الحسرة والندم ، ولات ساعة مندم ، وكان كما قال الشاعر :

وسوف ترى إذا انكشف الغبار أفرسٌ تحت رجلك أم حمار ؟

يقول سيد البشر ـ ﷺ ـ :

« من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » [٣] .

كان من ضمن هذه « البدع الحسنة » التى كانت قد انتشرت فى ذلك العصر مجلس مولد النبى ـ ﷺ ـ والاحتفال له ، وكان من العسير الإنكار عليه لعزوه إلى ذات الرسول ـ ﷺ ـ ولما كان يقصد منه من ذكر مناقبه ـ ﷺ ـ وما خصه الله به من فضل ومكانة ، وكان موضوع نقد هذه المجالس فى ضوء الشريعة والسنة موضوعًا مثيرًا للجماهير ومظنة حملهم ذلك على قلة الحب للرسول ـ ﷺ ـ وإساءة الأدب معه ، ولكن الإمام السرهندى قد شرح الله صدره فى كل ما لم يؤثر عن خير القرون ، فكان مقتنعًا بأنه ليس فى فلاح للأمة ، وليس فى صالح هذا الدين ، وكان يخشى أن كل ذلك يجرّ على مرّ الأيام إلى مفاسد مختلفة .

---

(١) مشكاة المصابيح ، باب الاعتصام بالكتاب والسنة .

(٢) الرسالة رقم: ١٨٦ ، المجموعة الألى ، كتبها الى الشيخ المفتى عبد الرحمن الكابلى.

(٣) نفس الرسالة السابقة ، والحديث رواه البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها .

وقد سئل عن رأيه فى هذا المجلس إذا تجرد عن محظورات شرعية ، واقتصر على مجرد الاجتماع والاستماع إلى قصة المولد فى يوم معينّ ، واهتمام خاص ، فأجاب عن ذلك بقوله :

« « سيدى ! يجول فى خاطر هذا الفقير أنه ما لم يسد هذا الباب على مصراعيه ، لم يزل لأهل الأهواء مجال فى هذا الشأن ، فلو وسعّ فى الأمر، وأطلق شىء من العنان ، انجرّ الأمر إلى ما لا تحمد عاقبته ، « قليله يُفضى إلى كثيره » [١] .

وهكذا كان موقفه الجرىء الحاسم إزاء البدع وإنكاره لوجود « بدعة حسنة » سداً للذريعة ، وقضاءً على فوضى دينية قد بدت طلائعها بتأييد العلماء غير المحققين الذين لا ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، واحتضان المشايخ الذين لم يكن لهم رسوخ فى العلم ، وإلمام بمقاصد الشريعة وعلوم الحديث والسنة، ودافع عنها وتحمس لها أمراء وملوك لم يكن لهم نصيب من العلم ، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

---

(١) الرسالة رقم : ٧٢ ، ٣ ، آلى الشيخ حسام الدين الدهلوى .

الباب السادس
وحدة الوجود أو وحدة الشهود ؟

الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى . وتدوين نظرية « وحدة الوجود » وشرحها وتفصيلها :

لقد صدرت من لسان بعض الصوفية المتقدمين ممن غلب عليم السكر والحال ، أقوال هى شبه نظرية الاتحاد ، وتدل على « وحدة » الوجود » ، وقد اشتهر من بين هذه الأقوال العارف الشهير الشيخ أبى يزيد البسطامى ـ الذى هو من كبار المشايخ الذين تنتمى إليهم معظم السلاسل والطرق الصوفية ـ « سبحانى ما أعظم شأنى » ، وقوله : « ليس فى جبّتى إلاَّ الله»، وما اشتهر عن الحسين بن منصور الحلاج من هتافه : « أنا الحق » .

ولكن الشيخ محيى الدين بن عربى (م ٦٣٨ هـ) ـ الذى عرف واشتهر باسم « الشيخ الأكبر » ـ كان مؤسسًا لهذه النزعة ، والمذهب ـ من الناحية العلمية ـ ورائدًا له ، ومجددًا، وخاتمة المحققين لهذه النظرية ، ومنذ ذلك العصر الذى عاش فيه أبن عربى ، بلغت هذه النظرية من الذيوع والانتشار والقبول والرّواج ، حتى سرت فى أوصال التصوف وجرت منه مجرى الدم كالوباء الذى لا يستطيع أقوى الناس طبعًا وجسمًا أن يقاومه ، ولا يتأثر بمفعوله حتى ظلت شعار أصحاب الذوق والتحقيق ، وكلمتهم الجامعة ، وكان إنكارها دليلا على جهل صاحبه وتطفله على مائدة الصوفية ، وغفلته عن دقائقهم وأسرارهم ، وكما يقول الإمام السرهندى :

« إنه وضع لها أبوابًا وفصولاً كما هو الشأن فى علم النحو والصرف » [(١)] وبعد ، فما هى حقيقة « وحدة الوجود » عند الشيخ محيى الدين ، وكيف يعرضها ويبينها ، وما هى الأدلة والحجج التى يسوقها لإثباتها ؟ ، وكيف يحول هذه النظرية إلى عملية كشفية ، ومشاهدة ، وتجربة عملية تطبيقية ، بل إلى حقيقة بديهية ؟ . ثم كيف اتخذت شكل فلسفة مستقلة ، وتحولت إلى مدرسة فكرية إشراقية ، وتكونت حولها تلك المكتبة الضخمة التى يحتاج استعراضها إلى كتاب ضخم مستقل ؟ كل ذلك لا يمكن أن يسعه هذا الكتاب ، ولما أن القضية من القضايا الدقيقة العويصة فى الفلسفة والتصوف ، التى يحتاج الإنسان

---

(١) الرسالة رقم : ٨٩ ، المجموعة الثالثة ، كتبها الى القاضى الشيخ اسماعيل الفريد آبادى .

لإدراك مبادئها إلى مراجعة المصطلحات الدقيقة للفلسفة والتصوف ، كما أن لها صلة وثيقة بالتجارب الباطنية ، والسلوك العلمى ، فليس من السهل ـ لذلك ـ استيعابها وإلقاء الضوء الكامل عليها فى هذا الباب الوجيز ، فمن كان عنده تذوق لهذه المعانى ورغبة فى دراستها العلمية فليراجع كتب الشيخ محيى الدين بن عربى كـ « الفتوحات المكية » و « فصوص الحكم » [1] ، وقد كتب الإمام السرهندى فى إثبات « وحدة الشهود » رسائل مفصلة طويلة ، يتوصل منها ـ فى ضوء الإمام السرهندى لمذهب ابن عربى وتلخيصه وشرحه ـ إلى فهم هذا المذهب و،إدراك أبعاده وغاياته ومقاصده ، وسوف ترد مقتطفاتها المهمة فى خلال هذا الباب ، فى مواضعها المناسبة .

ونورد هنا مقتبسات من رسالة « وحدة الوجود » للعلامة عبد العلى بحر العلوم اللكنوى (م ١٢٢٥ هـ) إذ أنه مع تبحره فى علوم الحكمة وأصول الفقه ، يعتبر شارحًا وترجمانًا ، لنظرية الشيخ محيى الدين فى « وحدة الوجود » وغواصًا ماهرًا فى بحر مؤلفاته : لا سيما « الفتوحات المكية » و« فصوص الحكم » وسوف تعين القارىء هذه المقتبسات فى فهم مراد الشيخ الأكبر ومقاصده ، وإن كانت وردت فيها أيضًا مصطلحات وتعبيرات لا يعرف معانيها إلا أصحاب المعرفة والذوق فى هذا الشأن ، الملمّين بهذا الأسلوب وهذه التعبيرات، ولم نقف على شرح لهذه النظرية فى وضوح وإيجاز أخصر من هذا الشرح ، فرأيت أن أورده فيما يلى :

« جميع ما سوى الله ـ تعالى ـ عالم الشؤون والتعيينات ، وجميع الشئون والتعيينات مظاهره ، هو ظاهر فيها وسار ، ليس هذا السريان هو ما يقول به أصحاب « الحلول » أو يعتقده أهل « الاتحاد بل إن هذا السريان كسريان عدد الواحد فى الأعداد ، وجميع الأعداد ليست إلاّ وحدات ، فلا يظهر فى العالم إلاّ عين واحدة أو ذات واحدة ، وهى التى ظهرت من ذات الله القدوس فتتجلى ذات الله ـ تعالى ـ فى هذه الكثرة ، فالله هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، تعالى عن الشركاء والأنداد .

ولا تظهر أسماء الله ـ تعالى ـ فى غير مظهر ، سواء هذه الأسماء المباركة تنزيهية أو تشبيهية ، ولما كانت الأسماء بالمظاهر ، ولا يتصور كمالها بدون مظاهرها ، أوجد الله

---

(١) ويفيد فى هذا الصدد الاطلاع على كتاب « أصل الأصول فى بيان الكشف بالمعقول والمنقول » ، للسيد عبد القادر مهربان فخرى الميلابورى (م ١٢٠٤ هـ) طبعة جامعة مدراس ١٩٥٩ م ، فهو كتاب جامع فى هذا الموضوع .

سبحانه وتعالى أعيان العالم ، لتكون مظاهره وتنجلى كمال أسمائه بأجلى مظاهره ، وأن الله ـ تعالى ـ غنى فى كماله الذاتى ولكنه لا يستغنى فى مرتبة الكمال الإسمى عن الوجود الخارجى للعالم ، يقول الحافظ الشيرازى ، ما معناه :

«لو استظل العاشق بظل المعشوق فماذا فيه ؟ فنحن فى حاجة إليه وهو فى شوق إلينا».

وأشير إلى ذلك فى هذا الحديث القدسى : « كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق (١) .

والذى يعتقد فى وجودين اثنين ، وجود الله ـ واجب الوجود ـ ووجود الممكن ، فإنه يشرك ، وشركه هذا شرك خفى ، أما من يعتقد فى وجود واحد ويقول إنه لا وجود إلاَّ الله ، وكل ما سواه فمظاهره ، وكثرة المظاهر لا تنافى وحدته ، فهو إنسان موحد » .

« ولست عين الحق ، لأنه هو الوجود المطلق ، وأنت المقيد المتعين ، ولا يمكن أبدًا أن يكون المقيد عين المطلق ، ولكنك فى حقيقتك عين الحق ، لأن الحق تعين فيك ، فتجد الحق ـ جل شأنه ـ مطلقًا من قيد التعين فى عين الموجودات ، ومقيدًا بقيد التعين فيها ، أى أنك ترى الحق ظاهرًا فى المتعين لا موجود ولا إله إلاَّ الله (٢) .

وقد كان لهذه النظرية من التأثير العالمى الشامل ـ بعد عصر الشيخ محيى لدين حتى يمكن أن يقال إن تسعة وتسعين فى المئة من الصوفية والفلاسفة ، والشعراء ، تهيبًا أو اجلالاً للنظرية أو لقائلها أيدوها واعتنقوها ، ومعظم من يعارض الشيخ محيى الدين فى هذه المسألة هم المُحدِّثين والفقهاء وكبار العلماء ، منهم الحافظ ابن حجر العسقلانى ، والعلامة السخاوى، والمفسر أبو حيان ، وشيخ الإسلام عزِّ الدين بن عبد السلام ، والحافظ أبو زرعة ، وشيخ الإسلام سراج الدين البلقينى ، والعلامة نور الدين على بن سلطان محمد الهروى (المعروف بملا على القارى) والعلامة سعد الدين التفتازانى ، العلماء النوابغ ، وأئمة الفن ورجال الإسلام .

وإن هؤلاء العلماء ـ رغم تفوّقهم على الناس فى التبحُّر والتعمُّق فى العلوم الدينية ،

(١) هذا الحديث أو ما معناه قد كثر وروده فى كلام الصوفية ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية « ليس من كلام النبى ـ ﷺ ـ ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف ، وتبعه الزركشى والحافظ ابن حجر فى اللآلى ، والسيوطى وغيرهم (مستفاد من « كشف الخفا ومزيل الالباس للعجلونى ، المؤلف) .

(٢) رسالة « وحدة الوجود » (بالفارسية) للعلامة بحر العلوم عبد العلى الأنصارى اللكنوى ، انظر ص ٢٩ ـ ٥٦ .

ودراستهم الواسعة العميقة للكتاب والسنة ، وفضلهم وصلاحهم وتورعهم ـ لا يعترف المتصوفة وأصحاب « الحقائق » بمعرفتهم . باستثناء شخص منهم أو شخصين ـ للعلوم الباطنية ، والحقائق الروحية الغامضة ، لذلك حملوا معارضتهم على المثل الشائع : «الناس أعداء ما جهلوا » .

شيخ الاسلام ابن تيمية ، ونقد عقيدة « وحدة الوجود » ، ومعارضتها والرد عليها :

إن أكبر قادة حركة المعارضة لنظرية « وحدة الوجود » الذى قام بنقدها وتحليلها تحليلاً علميًا ، والتعليق عليها ، وإبداء رأيه الحرّ عنها على أساس الكتاب والسنة ، وفى وضوء تلك النتائج والاثار التى ظهرت لاعتناق هذه النظرية ، خلال مدة قليلة فى أوساط التصوف وعامة الناس ، هو شيخ الإسلام تقى الدين الحافظ أحمد بن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ) الذى اسمه فى صف المعارضة لهذه النظرية ، وكان قد ولد بعد وفاة الشيخ محيى الدين (عام ٦٣٨ هـ) بثلاث وعشرين سنة ، ونشأ فى نفس المدينة (دمشق) ـ التى توفى فيها الشيخ محيى ادين ودُفِنَ فيها ـ وتعلّم ، وتربى ، وبلغ المكانة الفريدة فى المجالات العلمية والفكرية ، فلما بلغت مداركه النضج الفكرى ، وتهيأ لدراسة بيئته ومحيطه دراسة ناقدة ، لم يكن قد مضى على وفاة الشيخ ابن عربى أكثر من أربعين أو خمس وأربعين سنة ، وكان لتحقيقاته العلمية النادرة دوى فى أجواء مصر والشام ، وكانت الأوساط الصوفية سكرى بمشربه فى التوحيد ، وكان الشيخ أبو الفتح نصر المبنجى فى مصر ، من غُلاة محبّيه ومريديه ، كما كان ركن الدين بيبرس الجاشنكير صاحب السلطة المطلقة فى مصر والشام (بعد ما اعتزل السلطان ناصر بك قلاوون السلطنة سنة ٧٠٨ هـ) معجبًا بالشيخ نصر المنبجى ومريدًا له ، وكانت كتب الشيخ ابن عربى لا سيما « الفتوحات المكية » و «فصوص الحكم» متداولة فى أيدى الناس بالشام ومعظم البلدان العربية آنذاك ، قد نالت القبول والإعجاب ، يقرأها الناس فى نشوة وانفعال ، حتى الإمام ابن تيمية اعترف بأن فى «الفتوحات المكية» و « كنه الحكم المربوط » و «الدرة الفاخرة » و « مطالع النجوم » بعض الفوائد العلمية ، والتحقيقات الجيدة [1] وكان من أشهر المعتنقين لمذهب ابن عربى ، ابن سبعين ، وصدر الدين القونوى ـ الذى كان تلميذًا مباشرًا للشيخ ابن عربى ـ ، والبليانى والتلمسانى وقد فضَّل ابن تيمية الشيخ الأكبر على جماعته وأصحابه كلهم ، مما يدل على

---

(١) انظر « جلاء العينين ، ص ٥٨ ، للعلامة نعمان الآلوسى .

إنصافه وتحقيقه وموضوعيته ، وعمله بقول الله - عز وجل - «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

يقول ابن تيمية :

« لكن ابن عربى أقربهم إلى الإسلام ، وأحسن كلامًا فى مواضع كثيرة فإنه يفرق بين المظاهر والظاهر ، فيقر الأمر والنهى ، والشرائع على ما هى عليه ، ويأمر بالسلوك بكثير مما أمر به المشايخ من الأخلاق والعبادات ، ولهذا كثير من العبّاد يأخذون من كلامه سلوكهم ، فينتفعون بذلك ،وإن كانوا لا يفقهون حقائقه ، ومن فهمها منهم ووافقه فقد تبين قوله » (١) .

ويقول فى موضع آخر فى إحساس مشوب بالحرج فى الحكم الفاصل ، والشعور بدقة الموقف ، وإحسان الظن بمسلم له مكانته ، ومنزلته عند كثير من المسلمين :

« والله تعالى أعلم بما مات الرجل عليه ، والله يغفر لجميع المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، الأحياء منهم والموات » ، « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » (٢) .

غُلاة الدُّعاة لعقيدة :

« وحدة الوجود » ، وآثارهم ونتائجهم :

ولكن يبدو أنه - للحماس الزائد ، وقلة الحذر والحيطة فى تعليم هذه النظرية وتلقينها للناس ، ونشرها والدعوة إليها دعوة عامة شاملة ، وللأذواق والنفسيات الخاصة - ظهرت هناك فى الشام - التى كانت مركزًا كبيرًا للعلوم الدينية ، وولاية ذات شأن من ولايات دولة يحكمها حكام من سلالة تركية - فوضى خلقية وفكرية ظلت تعم وتسود ، وبدأ الناس يتعدون حدود العقل والشريعة ، والأخلاق ، ووقعت محنة خطيرة فى المجتمع الإسلامى، وحسب ما يقول بعض الحكماء « أن الشجرة بثمرتها لا بأصلها»، كان ما تأتى به عقيدة « وحدة الوجود » من ثمار مرّة ، ونتائج خطيرة ، يدفع الغيارى على الإسلام وحماة الشريعة والدعاة إلى الله إلى أن يقلقوا لهذا الوضع ويثوروا عليه ، وينتقدوه ، وكانت تستحق الرد والتفنيد .

---

(١) جلاء العينين » ص ٥٨ .

(٢) أيضًا .

يحكى ابن تيمية ـ وهو ثقة فى حكايته وروايته ، إن « التلمسانى » ـ وهو من حُذَاقهم علمًا ومعرفة ـ كـان يطبّق المذهب الوجودى عمليًا فيستحل جـميع المحرمات (لأنه إذا كان الموجود واحدًا فَلِمَ التفريق بين الحلال والحرام ؟ [1])

ويقول ابن تيمية :

« وحدثنى الثـقة أنه قـرأ عليه « فصـوص الحكم » لابن عربى ، وكـان يظنه من كلام أولياء الله العارفين ، فلمـا قرأه رآه يخالف القرآن ، قال : فـقلت له : هذا الكلام يخالف القرآن ، فقال : القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد فى كلامنا ، وكان يقول : ثبت عندنا فى الشكف ما يخالف صريح المعقول » [2] .

ويمضى قائلاً :

« وحدثنى من كان معه آخر نظير له ، فمرّت على كلب أجرب ميت بالطريق ، فقال له رفيقه : هذا أيضًا هو ذات الله ؟ ، فقـال : وهل ثَمَّ شىء خارج عنها ؟ ، نعم الجميع فى ذاته » [3] .

ويقول فى كتابه « الردُّ الأقوم على « فصوص الحكم » :

« وقيل لبـعضهم : إذا كان الوجود واحـدًا ، فلم كانت الزوجة حـلالاً والأم حرامًا ؟ فـقال : الكلُّ عـندنا واحد ، ولكـن هؤلاء المحجـوبون قـالوا : حرام ، فـقلنا : حـرام عليكم»[4] .

ولا يمكن أن يقال إن مسئولية هذه الجراءة على الله ، والإباحية والفوضى الخلقية تقع ، على الشيخ محيى الدين بن عربى وحده ، والذى كان يجتهد فى اتباع السنة [5] وكان عابداً زاهداً متنسكًا ، صـاحب رياضات ومجـاهدات ، ومحاسـبة شديدة للنفس ومـعرفة دقيـقة واسعة بمصايد الشيطان ونزعـاته ، وغوائل النفس وآفاتها [6] ، ولكن مع ذلك توجد عنده أقوال شـاذة غريبة ، تكون مادة لمن يريد أن يـجعل من الحبة قـبة ، مثل قوله ، ان عُـبَّاد العجل ـ فى عـهد موسى عليه السـلام – ما عبـدوا الا الله ، وأن موسى أنكر على هارون

---

(١) ،(٢) ، (٣) الفرقان بين الحق والباطل ، ص ١٤٥ .

(٤) الردُ الأقوم على فصوص الحكم ، ص ٤٢ .

(٥) كان الشيخ ابن عربى متبعاً لمذهب داود الظاهرى الذى ينكر القياس ، ويأخذ بظاهر الحديث .

(٦) راجع كمثال على ذلك كتابه « روح القدس » .

لكون هارون أنكر عليهم عبادة العجل (لأنها فى الحقيقة ، عبادة الله ، إذ الموجود واحد) وأن موسى كـان بزعمهم من العـارفين الذين يرون الحق فى كل شىء ، بل يرونه عين كل شىء ،وأن كان فرعون فى منصب الحكم صاحب الوقت ، وجاز له أن يقول : « أنا ربكم الأعلى » أى وإن كـان الكل أربابًا بنسبـة ما ، فـأنا الأعلى منهم بما أعطيتـه فى الظاهر من مقاليد الحكم فيكم ، قال : ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه ، وأقرُّوا له بذلك وقالوا له : « فاقض مـا أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيـا » ، فصح قول فرعون « أنا ربكم الأعلى » ولهذا عاب نوحًا ،وعظم قومه الكفار ، الذين عبدوا الأصنام، وقال : إنهم ما عبدوا إلاَّ الله ،وأن طوفان نوح كان طغيان المعرفة الإلهية ، وهيجان بحرها الذى غرقوا فيه (١) .

ولأجل ذلك كان كثير من المشايخ العارفين ـ الذين كانوا يعترفون بمكانة الشيخ ابن عربى وعلو كعـبه ، فى العلوم ويرونه من الأوليـاء المقبولين ـ ينهـون أصحابهـم وتلامذتهم عن مطالعة كتبه ، يحكى الشيخ محيى الدين عـبد القادر العيدروس مولف « النور السافر » عن شيخه العلامة بحرق إنه سمع الشيخ أبا بكر العيدروس يقول :

« لا أذكر أن والدى ضربنى ولا انتـهرنى إلاَّ مرة واحدة بسـبب أنه رأى بيدى جزءًا من كتاب « الفتوحات المكية » لابن عربى فغضب غضبًا شديدًا ، فهجرتها من يومئذ قال : كان والدى ينهى عن مطالعة كتابى « الفتـوح » و «الفصوص » لابن عربى ، ويأمر بحسن الظن فيه ، وباعتقاد أنه من أكابر الأولياء العلماء بالله العارفين » (٢) .

عقيدة وحدة الوجود فى الهند :

ولما وصلت هذه العقـيدة فى القرن الثامن إلى الـهند ، كان لها ـ بسبب مـا كانت الهند نفسها مركزًا قديمًا للدعـوة المتحمسة إلى هذا المذهب ، والذوق الإشراقى الخاص ، والإيمان به إيمانًا منبعثًا دافعًا ، وكما يقـول بعض مؤرخى التصوف أن المتصوفة المسلمين الذين ولدوا فى إيران والعراق والمغرب ، ونشأوا فيهـا ، وإنما كانوا تعلمّوا نظرية « وحدة الوجود » من الهند ، ولم تزل هذه البلاد حـتى بعد الفتـوح الإسلامية - بـاستمرار ومن غـير انقطاع -

---

(١) هذه الأقوال كلها مقـتبسة من « الرد الأقوم على ما فى كتاب فـصوص الحكم » وينبغى الإشارة هنا الى أن فريقًا من المهتمين بعلوم الشيخ ابن عـربى وكتاباته يقول بأن هناك إلحاقات وزيادات دُست فى كتبه ، لا سيما فى كتابه « فصوص الحكم » .

(٢) النور السافر ، ص ٣٤٦ .

حاملة لواء هذه العقيدة والمتمسكة بها ، وطبيعة النسل الآرى تتجه دائمًا إلى حب «الإطلاق» والتهرُب من القيود والتعيّنات ، بعكس الديانات الناشئة فى مواطن الشعوب السامية ، ومسقط رأس الأنبياء والمرسلين ، فكانت سمة هذه البلاد ـ الخاضعة لتأثير السلالة الآرية حكمًا وعقلية وثقافة ـ التمسك بعقيدة وحدة الوجود ، ووحدة الديانات من آلاف السنوات ، لذلك كله ، كان لعقيدة وحدة الوجود فى الهند من التأثير والقوة والقبول، ما لم يكن لها فى بلد آخر ، وقد انسجمت طبيعة هذه الفلسفة بطبيعة البلاد ، وائتلفت أرواحهما ، واحتضنت إحداهما الأخرى ، فكان من هذا الوئام حماس جديد ، وحرارة جديدة ، وتشكلت مدرسة إشراقية جديدة ، فنجد عددًا كبيرًا من أبناء هذه البلاد ومشايخها بتحمس لهذه العقيدة ، ويدافع عنها ويدعو إليها ، فمن أخصهم وأشهرهم فى هذا الباب شيخ السلسلة الجشتية الصابرية الشهير الشيخ عبد القدوس الكنكوهى (م ٩٤٤ . هـ) والشيخ عبد الرزاق الجهنجهانوى (٩٤٩ هـ) والشيخ عبد العزيز الدهلوى المعروف بشكربار (م ٩٧٥ هـ) والشيخ محمد بن فضل الله البرهانبورى (م ١٠٢٩ هـ) والشيخ محب الله الإله ابادى (م ١٠٥٨ هـ) (١) ، وكان كل واحد من هؤلاء ابن عربى عصره ، وابن فارض مصره ، وتصدّر معظم هؤلاء قبل الإمام السرهندى ، بزمن قليل أو بعده بقليل ، أو فى عهده نفسه ، للتربية والإرشاد ، والدعوة والإفادة .

الشيخ علاء الدولة السمنانى ومعارضة نظرية « وحدة الوجود » :

قلنا فيما تقدم أن من تصدى للرد على مذهب « وحدة الوجود » وانتقاد الشيخ محى الدين بن عربى ، ومعارضته وكان معظمهم من العلماء المتبحّرين فى العلوم الدينية ، غير المتذوقين للمعارف والحقائق ، لم يقاسوا الرياضات والمجاهدات ، ولم يلموا بالتجارب العملية الشخصية ، ولا سلكوا أودية الكشوف والمشاهدات ، فكان أصحاب المعرفة والذوق من هذه المدرسة الإشراقية لا يلقون لهذه الانتقادات والاعتراضات بالاً ، ويرونها لا تستحق أى اهتمام ، ويقولون استصغار لشأنهم :

« لا تستطيع أن تعرف لذة الخمر ما دمت لم تذقها »

ويخاطبونهم بقول الشاعر :

وإذا لم تر الهلال فصدق ... لأناس رأوه بالأبصار

وإن أول مسلم صوفى ، ومحقق عارف تصدى للرد على هذه العقيدة وتفنيدها بعناية

بالغة واهتام كبير ، هو الشيخ ركن الدين أبو المكارم علاء الدولة السمنانى [1] .

ولد علاء الدولة السمنانى (٦٥٩ ـ ٧٣٦ هـ) فى أسرة شهيرة ، كان أفرادها يتبوإون مناصب عالية فى الحكومة والوزارة ، بقرية سمنان من ولاية خراسان ، واستفاد المعارف الباطنية من الشيخ نور الدين عبد الرحمن الكسرقى الاسفرائينى فى الطريقة الكبروية ، ونال الاجازة والخلافة واستمرّ فى مناظراته ضد نظرية الشيخ الأكبر فى « وحدة الوجود »، وتعرض لها فى مواضع كثيرة من رسائله ، فإنه يرى أن غاية السالك هى العبودية لا التوحيد الوجودى ، جمع رسائله ورتّبها أحد مريديه الشيخ إقبال بن سابق السجستانى ، توجد عدة نسخ ، منها باسم « جهل مجلس » ـ أربعون مجلسًا ـ أو « أقوال الشيخ علاء الدولة السمنانى » وغيرهما فى المكتبات ، وتشتمل أكثر أجزاء « نفحات الأنس » [3] ، للجامى على أقواله ومواعظه » [4] .

وحدة الشهود :

لا نعلم ـ فى حدود دراستنا واطلاعنا إلاَّ شخصيتين شهيرتين ، نجد عندهما فكرة وحدة الشهود إزاء نظرية وحدة الوجود ، وإشارات متفرقة إليها ، رغم ما بينهما من اختلاف فى الذوق والمشرب ، وبون كبير فى المنهج وأساليب الدعوة ، إلاَّ أن بينهما وحدة الإخلاص وصفاء النية ، وسلامة الذوق ، واستقامة الفطرة ، التى تفتح لها أبواب الهداية الربانية «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » أحدهما شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الذى كان محدثًا ومتكلمًا وفقيهًا ، والآخر الإمام شرف الدين يحيى المنيرى الذى كان عارفًا محققًا ، وإمامًا من أئمة التصوف والإحسان ، يتجلى من كتابه المتقدم الذكر « العبودية » أنه من المطلعين على فكرة وحدة الشهود ، ويعرف هذه الحقيقة أنها مقام يعترض السالك أثناء تربيته وسلوكه، وأنها منزلة لا تسمو إلى مكانة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأتباعهم بإحسان من الصحابة الكرام ـ رضى الله عنهم ـ وغيرهم ، ولكنها على كل حال منزلة

---

(١) يمكن الاطلاع على تراجمهم واتجاهاتهم وأذواقهم فى الجزء الرابع والجزء الخامس من كتاب « نزهة الخواطر » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى .

(٢) انظر « رسائل الامام الربانى » الرسالة رقم : ٨٩ ، المجموعة الثالثة .

(٣) انظر « نفحات الأنس » ص ٥٠٤ ـ ٥١٥ ، وللشيخ علاء الدولة رسالة خطية أسماها « العروة لأهل الخلوة مكتبة خدابخش خان بتنه ـ مخطوطة رقم : ٩٠٥ ، اقرأ ورق ٨٣ ـ ٨٤ (ألف) ورق ٨٦ (ألف) .

(٤) (دائرة المعارف الاسلامية) مقال F. Meier.

فوق منزلة « وحدة الوجود » وأفضل منها حالاً وأرفع مكانًا [1] ، ولكنه ـ لعدم خوضه فى هذا المجال ـ يكتفى بإيماءات وإشارات .

وأما الشيخ المنيرى (م ٧٨٣ هـ) فقد قدَّم هذه الفكرة فى رسائله بتفصيل أكثر ، فيقول فى ضوء تجاربه الشخصية ، وتحقيقه العلمى لهذا المقام الخاص :

« إن ما يظن وحدة الوجـود ، وفناء كل موجود سوى واجب الوجود ، وعدمـه عدمًا كاملاً هو ـ فى واقع الأمر ـ ليس إلا أفول الموجودات إزاء الوجـود الحقيقى ، وغروبها ، وانقهارها ، كـما يخبو ضوء النجوم وينطمس إزاء ضـوء الشمس الوهاج ، وتصبح الذرات كأنها لا حقيقة لها ولا وجود ».

إنه يلخص النظريتين فى كلمتين خفيفتين ، فـيقول : « عدم الأشياء وفناؤها شىء وعدم رؤيتها شىء آخر » ، ويقول : « إنه مقام دقيق خطيـر تتعثر فيه أقدام الكبار من المشايخ ، وتتعسر الاستقامة إلا بتوفيق الله ، ثم بتربية المرشد المحنّك الخبير » [2] .

الحاجة إلى شخصية تجديدية جديدة :

ولكن كانت الحاجة ماسَّة ـ لتنقيح هذه الفكرة وإيضاحها ، وإقامة الحجة على الناس فى بيـانها ـ إلى شـخصـية جـديدة ، خاضت فى أودية السلوك والإشـراق الشائكـة ، ومرت برباعها ومنازلهـا ، وعرجت على مقاماتهـا العالية ، وسبحت فى بحور المعـارف الإلهية ، والحقائق الربانية ، وعبـرت البحر الطاغى المتلاطم بالتجارب التطبيقـية العملية إلى شاطىء الحقيقة ، فلا يستدل بعدم العلم على عدم الوجود ، بل يقول كشاهد العيان والمسافر المغامر الطموح فى ثقة وقوة ، وبصيرة واعتماد ، « عرف كل ربع من هذه الرباع (وحدة الوجود) بل كل ذرة من ذرات هذه الدار ، فقد استمر بها عهدى ، ودامت بها صلتى ،ولكن يردفه بهذا القول : « إن وراء هذه الكواكب والنجوم عوالم أخرى ، ومجالات أفسح » .

لقد كانت هناك ثلاثة مذاهب بين المثبتين والنُّفاة لنظرية « وحدة الوجود » ، وهى :

١ ــ التـأييـد الكامل لنظرية وحـدة الوجود ، وأنهـا ليـست إلاَّ نتـائج القـوة الوهميـة والمتخيلة، والمشاهدات الباطنية ليس غير .

---

(١) انظر « رسالة العـبودية » ص ٨٥ ـ ٨٨ ، وأما النوع الثـانى فهو الفناء عن شهـود السوى .. الخ (المكتب الإسلامى ، دمشق) .

(٢) راجع الرسالة الأولى من مكتوبات « ستة صدى » .

٢ - المعارضة الكلية لنظرية وحدة الوجود وأنها ليست الا نتائج القوة الوهمية والمتخيلة والمشاهدات الباطنية ليس غير .

٣ ـ عرض نظرية « وحدة الشهود » بدلاً من وحدة الوجود ، وأن ما يراه السالك ، والذى هو واقع الحال ليس أن الوجود واحد ، وما سوى واجب الوجود معدوم لا حقيقة له ، بل الواقع أن الموجودات قائمة فى مكانها ، ولكن نور الوجود الحقيقى لواجب الوجود حجب وجودها عن الأبصار حتى كأنها فانية معدومة ، وكما أن النجوم تنكدر وتأفل إزاء ضوء الشمس بعد طلوعها ، حتى لو قال قائل : إن النجم غير موجود لما كان كاذبًا ، كذلك هذه الموجودات إزاء الوجو الكامل الحقيقى ، تتضاءل أمامها ، وتهون وتصغر حتى كأنها معدومة لا وجود لها .

مركز الإمام السرهندى الاجتهادى والتجديدى :

اختار الإمام السرهندى مذهبًا رابعًا إزاء هه المذاهب الثلاثة ، هو أن « وحدة الوجود » مقام يعرض للسالك خلال السلوك ، فيشاهد ـ عند ذاك ـ عيانًا وجهارًا ـ أنه لا وجود هناك إلاَّ لواجب الوجود ، وكل ما يراه الإنسان من وجود ، فهو وجود واحد ، وما سواه فليس إلاَّ « تنوعاته وتلويناته » وفى تعبير الشيخ محيى الدين بن عربى ،والعارفين المتذوقين لهذا المشرب الوجودى إنما هى « تنزُّلاته » .

ولكن لو حالف التوفيق الربانى ، ورافق الهدى النبوى ، وكان السالك صاحب طموح وعلو همة ، فإنه يفوز بمقام آخر ، وهو مقام « وحدة الشهود » .

وهكا يضيف الإمام السرهندى ـ مع نقضه لنظرية وحدة الوجود ـ الذى كان مذهب غالب المتصوفين والحكماء المدققين ، والإشراقيين المتعمقين ، واعترافه بعلو كعب مؤسس هذه النظرية ـ علميًا ـ ورائدها الأكبر ، الشيخ محى الدين بن عربى ـ فى كثير من العلوم والتحقيقات ـ إضافة جديدة ، ويكتشف عالمًا جديدًا يوافق عقيدة جمهور المسلمين ، ويتفق مع الكتاب والسنة والشريعة الإسلامية ، فى جانب ، ويضيف شيئًا ـ بدون أن يرجع بالعلوم القهقرى ، ويلغى تحقيقات جماعة كبيرة ذات شأن وعلومها ومداركها ـ ينسجم مع التحقيقات والكشوف الأخيرة فى الأنفس والآفاق ، ويتلاءم مع النصوص الشرعية ، والأصول القطعية ، ويطابق بينها جميعًا .

التجربة والمشاهدة الشخصية :

واقرأ معى ـ بعد هذا التمهيد البسيط ـ مقتبسات من رسائل الإمام العالية ـ التى هى

أقرب إلى الفهم ، وأوضح فى العبارة ، وأسهل للإدراك .

يتحدث عن تقدمه ورقيه فى الروحانية ، وانتقاله من مذهب « وحدة الوجود » إلى «وحدة الشهود» ما شاهد ـ أثناء ذلك ، فيكتب إلى بعض أصحابه المتصلين به من المشايخ الصوفية :

« سيدى العزيز ! كان هذا الفقير ـ من الصغر ـ يعتقد اعتقاد أهل التوحيد (أصحاب وحدة الوجود) وكان والد الفقير ـ قدس سره ـ على هذا المذهب ، ويشتغل بهه الطريقة ، فنال هذا الفقير ، حسب ما يقال : « ابن الفقيه نصف الفقيه » قسطًا علميًا وافرًا من هذه الطريقة ، فكان يجد فيها لذة ومتعة كبيرة ، حتى ساقنى سائق التوفيق الربانى إلى الإمام العارف بالحقائق والمعارف ، مؤيد الدين ، الشيخ الراشد المرشد إلى صراط الله المستقيم ، محمد الباقى ـ قدس سره ـ فعلمه الشيخ المرشد الطريقة النقشبندية لهذه الطريقة مدة قليلةـ « التوحيد الوجودى » ، وكان فى هذا الاكتشاف شىء من التطرف والمغالاة ، وفاضت عليه فى هذا المقام علوم ومعارف كثيرة ، حتى لم يبق شىء من دقيق وجليل يتعلق بها المقام إلاّ انكشف عليه وظهر له جليًا .

وتجلت له علوم الشيخ محى الدين بن عربى الدقيقة الخطيرة ، كما ينبغى أن تتجلى ، وفاز بمعراج التجلى الذاتى الذى ذكر صاحب الفصوص ، والمقام الأعلى فيه الذى يقول عنه : « ما بعد هذا إلاّ العدم المحض » ووقف على علوم هذا التجلى معارفه التى يظن الشيخ اختصاصها بخاتم الولاية ، بافاضة وتفصيل ، وبلغ منه السكر فى هذا المقام وغلبة الحال حتى كتب فى بعض رسائله التى بعث بها إلى الشيخ المرشد ، أبياتًا من الشعر فى السكر .

وطال هذا الحال مدة طويلة ، ودام شهوراً بل أعوام ، إذ فاجئته العناية الربانية ، وتطلعت من نافذة الغيب ، تجلت ،وجلّت ذلك الغطاء الذى كان مسدلاً على « لا كيف ولا كم » ، « ليس كمثله شىء » ، ومات تلك العلوم والمعارف السابقة التى كانت تنبىء عن الاتحاد والوحدة إلى الزوال والانقراض ، وتستّرت تلك الإحاطة ، والسريان ، والقرب والمعيّة الذاتية التى كان انكشافها فى ذلك المقام ، واختفت ، وظهر العلم الذى هو يقين اليقين ، إنه ليست لهذا العالم الصانع للكون ، أى نسبه من تلك النسب التى تعزى إليه ، وأن إحاطته ومعيته علمية ، وليست بذاتية ، كما هى عقيدة أهل الحق ، « شكر الله سعيهم » إن الله الأحد القدوس لا يتحد بشىء « ليس كمثله شىء » والعالم متسم بالحدث والنقص ، والمحدودية ، فكيف يمكن أن يكون مالا يوصف بالكيف والكم عين أو مثل ما

يوصف بالكيف والكم ، وكيف يقال للواجب إنه عين الممكن ولن يكون القديم عين الحادث ، ولا ممتنع العدم عين جائز العدم ، وانقلاب الحقائق مستحيل ـ عقلاً وشرعًا ـ ولا يصح ـ أبدًا ـ أن يحمل شيء على شيء آخر أصلاً ورأسًا ، والعجب من الشيخ محى الدين وأتباعه يصفون واجب الوجود بالمجهول المطلق ، ولا يرونه محكومًا عليه بحكم ، ورغم ذلك يثبتون الإحاطة الذاتية والقرب ، والمعية الذاتية ، والصحيح فى هذا الباب ما قاله علماء أهل السنة ، إن الأمر كله راجع إلى القرب العلمى ، والإحاطة العلمية .

فى أيام فيضان هذه العلوم والمعارف المخالفة لوحدة الوجود ، قاسى هذا الفقير فترة صعبة قلقة ، لأنه ما كان يظن أن وراء هذا التوحيد توحيد آخر ، فكان يدعو متضرعًا مبتهلاً ، أن لا يسلب هذه المعرفة حتى انقشعت تلك الحجب كلها التى كانت ملقاة على وجه هذه الحقيقة ، وتجلت الحقيقة الواقعة وعلم أن العالم وإن كان بمثابة مرآة لصفات الله الكاملة ، ولكن العكس الذى تراه على وجه المرآة ، ليس هو ذلك لوجود نفسه الذى ينعكس مظهره عليها ، وأن الظل لا يمكن أن يكون عين صاحب الظل ، كما يعتقد أصحاب وحدة الوجود .

ولنضرب لشرح ذلك أكثر من ذى قبل ، مثالاً ، أراد عالم بارع يجمع بين جميع العلوم والفنون ، أن يظهر كماله وكفاءاته المتنوعة الكثيرة ، ويعلن فضائله ومحاسنه الخفية على مشاهد الناس ، فأبدع حروفًا وأصواتًا ليظهر كمالاته المخفية فى مرآة هذه الحروف والأصوات ، فلا يمكن ـ فى هذه الحال ـ أن يقال : إن هذه الحروف والأصوات التى هى مظهر هذه المحاسن المستورة ، ومرآة الكمال المكنون ، إنما هى عين هذه المحاسن والكمال، أو أنها محيطة بها إحاطة كاملة ، أو أنها قريبة منها أو معها معية ذاتية ، وقربًا ذاتيًا ، بل إن بينهما من النسبة ما بين الدال والمدلول عليه ، فليست هذه الحروف والأصوات إلاّ دليلاً على هذا الكمال ، وما نشأت من النسبة بينهما ، إنما هى بفعل الوهم والخيال ، والحق أنه لا تتحقق نسبة من نسب ـ العينية ، والاتحاد ، وإحاطة القرب ، والمعية الذاتية ـ هناك ، ولكن لما أن نسبة الظاهر ، والمظهر ، والدال والمدلول عليه متحققة بين هذه الأصوات والحروف ، والمحاسن والكمال لذلك تحصل ـ بتأثير بعض العوامل والعوارض ـ لبعض الناس ، هذه النسب ، الوهمية المتخيلة ،ولكن هذه المحاسن ـ فى حقيقة الأمر ـ خالية بعيدة من جميع هذه النسب ، ولا صلة بين الحق والخلق ، إلاّ ما يتصور من صلة بين الدال والمدلول عليه ، والظاهر والمظهر ، وتؤدّى كثرة مراقبة التوحيد ببعض السالكين إلى إصدار هذه الأحكام الوهمية ، لأن صورة هذه المراقبات تنقش فى القوة المتخيلة ، تتثبت

فيها ، ويحصل لبعض الناس ـ للإمعان فى دراسة علم الوحدة ، ومذاكرتها ، وإجالة النظر فيها ـ ذوق خاص فى هذه الأحكام ، ويدفع بعض الناس إلى هذه النزعة الوجودية ، والاعتقاد بالوحدة ، غلبة الحب عليهم ، لأن استيلاء حب المحبوب على القلب يطرد غير المحبوب ، فلا يرى فى العالم إلاَّ المحبوب ، وليس الواقع أن غير المحبوب معدوم ، إذ أنه معارض للعقل والحس والشرع ، وتدفع هذه المحبة نفسها أحيانًا إلى الحكم بالقرب الذاتى والإحاطة الذاتية . . . وأن هذا النوع من التوحيد أرفع وأفضل من النوعين السابقين ، داخل فى دائرة « الأحوال » وإن كان لا يطابق الواقع ولا يتفق مع العقل ، وتطبيقها مع الشريعة والواقع ، تنطع وتكلف خالص ، وغاية ما فى الباب أنه خطأ كشفى ، هو فى حكم الخطأ الاجتهادى يرتفع عنه العِتاب واللوم ، بل يصوب أحيانًا لغلبة الحال واستيلاء السكر » (١) .

التوحيد الشهودى (أو وحدة الشهود) :

ويقول الإمام فى رسالة أخرى ، كتبها إلى الشخ فريد البخارى :

« إن التوحيد الذى يحصل للصوفية فى أثناء سلوكهم ينقسم قسمين : التوحيد الشهودى ، والتوحيد الوجودى ، والتوحيد الشهودى عبارة عن رؤية احد ، أى أن لا يكون شهود السالك إلاَّ فردًا أحدًا ، والتوحيد الوجودى عبارة عن اعتقاد وجود واحد ، وفناء كل ما سواه وعدمه » .

ثم يقول :

« مثل أن يطمئن قلب إنسان على وجود الشمس ، فلا يستلزم استيلاء هذا اليقين أن يعتقد عدم النجوم وفناءها ، ولكنه عندما يرى الشمس ولا يرى النجوم ، فإن مشهوده ـ حينئذ ـ ليس إلاَّ الشمس ، ولكنه رغم ذلك لا يعتقد أن النجوم فانية معدومة ، بل يكون على يقين من أنها مختفية ، ومغلوبة بضوء الشمس وشعاعه » .

ويضيف قائلاً :

« كان شيخنا المرشد الشيخ الكبير عبد الباقى ـ لمدة يسيرة ـ على مذهب التوحيد الوجودى ، وقد أبدى ذلك فى رسائله ، ولكن العناية الربانية تقدمت به من هذا المقام أعلى ، وهدته إلى ذلك الصراط السوى ، والطريقة الفسيحة التى نجا بها من ضيق هذه

---

(١) الرسالة رقم : ٣١ ، المجموعة الأولى كتبها الى شيخ صوفى .

المعرفة »[1] .

ويقول فى رسالة أخرى ، مبينًا مذهب الشيخ ابن عربى وأتباعه :

« إنه يقول : « وحدة الوجود » ، ويرى أنه لا موجود فى الخارج إلاَّ موجود واحد ، ليس غير ، وهو الحق ـ سبحانه ـ ولا جود للعالم فى الخارج ـ بتاتًا ـ إلاَّ أنه يعتقد بتحقيقه العلمى ، ويقول : « الأعيان ما شمت رائحة الوجود » ويعتقد أن العالم ظل الله سبحانه ـ ولكن هذا الوجود الظلى ـ بزعمه ـ فى مرتبة الحسّ ، أما فى نفس الأمر وفى الخارج فعدم محض .

ويحكى الإمام السرهندى فى نفس هذه التوحيد قصة انتقاله من مقام « وحدة الوجود » إلى « وحدة الشهود » ، فيقول :

« لقد كان كاتب السطور يعتقد أولاً فى التوحيد الوجودى ، وكان على علم بهذا التوحيد من صغره ، وقد رسخ يقينه فى قلبه ، إلاَّ أنه لم يكن ـ عند ذلك ـ صاحب الحال فى هذا المقام ، فلما شدا فى طريق السلوك ، انكشف له طريق توحيد الوجود خاصة ، فجال فى هذا المقام ومراتبه وصال ، لمدة طويلة من الزمن ، وفاز بعلوم كثيرة خاصة بهذا المقام ، وانحلت عقد تلك الواردات والخواطر المشكلة التى تعرض لسالكى طريق الوحدة ، بهذه المكاشفات ، والعلوم المفاضة الموهوبة ، ثم استولت على هذا الفقير بعد مدة قليلة نسبة أخرى ، فتردد فى طريق توحيد الوجود فى حال استيلاء هذه النسبة ، ولكن هذا التردد كان يرافقه حسن الظن ، لا الإنكار والجحود ، وبقى متوقفًا مترددًا مدة طويلة من الزمن ، حتى بلغ به الحال إلى الإنكار ، وكشف له أن هذه المنزلة أدنى وأحط ، ووصل إلى مقام الظليّة الذى يفوقها ويفضل عليها ، وكان هذا الإنكار اضطرارًا وعن اندفاع ، فإنه لم يكن يحب الخروج من هذا المقام ، لأن كبار المشايخ العارفين ألقوا به عصا الترحال ، ولكه لما بلغ مقام الظليّة ، رأى نفسه والعالم كله ظلاً ، تمنى أن لا يفارق هذا المقام ، لأنه كان يعتقد الكمال فى وحدة الوجود ، ولهذا المقام مناسبة بها بالجملة ، ولكن كان من مقادير الله ، ولطفه وكمال شفقته عليه ، أن رقاه إلى مقام أسمى وأرفع ، هو مقام العبدية فتجلى له عند ذاك – كمال هذا المقام وعظمته ، وجعل يتوب إلى الله ، ويستغفره من المقامات السابقة ، فلو لم يكن لطف الله أرشد هذا المسكين إلى هذه الجادة الواضحة ،

---

(١) الرسالة رقم : ٤٣ ، المجموعة الأولى ، هى موجهة الى الشيخ فريد البخرى .

ولم يكشف له تفوق مقام على مقام ، لكان يعتقد انحطاطه وسقوطه فى ذلك المقام ، لأنه كان يرى أن لا مقام أفضل وأعلى من مقام « وحدة الوجود » ، « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » (١) .

الرأى الوسط العادل عن الشيخ الأكبر :

يقول الإمام ـ رغم ما بينه وبين الشيخ ابن عربى من اختلاف ، مبينًا مذهبه ومنهجه :

« يرى هذا الفقير أن الشيخ محيى الدين بن عربى من الرجال المقبلين ولكنه يرى معارفه وعلومه التى يخالف فيها عقائد جمهور الأمة ، وظاهر الكتاب والسنة ـ خطأ وضرراً على قارئيها . . . وقد سلك الناس فى أمره مسلك الإفراط التفريط ، وابتعدوا عن التوسط والاعتدال ، ففريق من الناس يطعن فى الشيخ ويجرحه ، ويخطئه فى علومه ومعارفه ، وفريق قلده تقليداً كاملاً ، واعتقد جميع معارفه وعلومه حقًا وصوابًا ، ويثبت صحتها وحقيقتها بالحجج البراهين ، وما من شك أن كلا الفريين وقع فى الإفراط والتفريط ،وجانب الاعتدال » .

« ومما يعجب له أن الشيخ ابن عربى يبدو من المقبلين ، وتبدو أكثر معارفه وتحقيقاته التى جانب فيها أهل الحق خاطئة بعيدة عن الصواب » (٢) .

ويذكر ـ فى موضع من رسائله ـ الفارق الحقيقى بينه وبين عامة المثبتين أو النافين «لوحدة الوجود» ، فيقول :

« إن اختلاف هذا الفقير مع القائلين بوحدة الوجود ، عن طريق الكشف والشهود ، والعلماء يستقبحون هذه الأمور (كوحدة الوجود ، والنفى المطلق لما سوى واجب الوجود) أما الفقير فلا يتردد فى الاعتراف بحسن هذه الأقوال والأحوال الصادرة من فكرة وحدة الوجود ، إذا أدّت بصاحبها إلى العبور ، «أى أن يعبر السالك هذا المقام إلى مقام أرفع»(٣) .

---

(١) الرسالة رقم : ١٦٠ ، المجموعة الأولى كتبها الى شيخ يار محمد الجديد البدخشى الطالقانى .

(٢) الرسالة رقم : ٢٦٦ ، المجموعة الأولى .

(٣) وهو مقام العبدية والتوحيد ، الذى جاء به الأنبياء (صلوات الله عليهم وسلامه)، الرسالة رقم : ٤٢ ، المجموعة الثانية ، بعث بها إلى الشيخ جمال الدين حسين .

الحاجة إلى معارضة وحدة الوجود والرد عليها :

وهنا يثور سؤال ، وهو أنه ما دامت « وحدة الوجود » مقامًا من مقامات السلوك، ومرحلة انتقالية ، مرّ بها - فى كل عصر - جم غفير من السالكين والعارفين ، فتوقف فريق كبير منهم عند هذه المرحلة وثبت عليها ، وقاد بعضهم التوفيق الإلهى ، والسعادة الربانية من هذه المرحلة ، إلى مقام «وحدة الشهود » ، فما وجه الاستنكار والاعتراض ؟ ، ولماذا يكرُّ عليها الإمام السرهندى بالرد والتفنيد ، ويستخدم قلمه السيال - فى قوة وحماس - لتقرير وحدة الشهود وتفضيلها على « وحدة الوجود » ؟ .

وللإجابة على ذلك نقول : إنه نشأ هناك بين القائلين بنظرية « وحدة الوجود » الحاملين للوائها ، والدعاة المتحمّسين إليها - فى عصر الإمام السرهندى ، وقبل عصره - عدد كبير من الصوفية المتزعمين الذين تحرروا من كل الى الحدود الشرعية ،وخلعوا ربقة الفرائض ، والواجبات الإسلامية واعتقدوا أن كل شىء من عند الحق ، بل كله عين الحق ، فلماذا هذا التفريق والتمييز بين الحق والباطل ، والكفر والإيمان ، والحلال والحرام ؟ ، وأن غاية أنفسهم مقام أسمى وأرفع لا يحظى بها إلا الكاملون الواصلون إلى حضرات القدس ، هو مقام وحدة الوجود ، وقد كانت هذه الصبغة الوجودية - فى القرن العاشر ، العصر الذى ولد فيه الإمام السرهندى ، وعقل ووعى ونضج روحيًا وفكريًا - هى السائدة فى الهند ، حتى كان الشعراء المتذوقون لهذه المعانى يتغنون بهذه العقيدة ، ويساوون بين الكفر والإيمان، بل قد يتعدون حدود ذلك إلى ترجيح الكفر على الإيمان ، وكان الناس يرددون أبياتًا معناها :

« الكفر الإيمان قرينان ، فمن لم يتمتع بالكفر لم يتمتع بالإيمان » .

ثم قيل فى بعض الكتب شرحًا لهذا البيت ، إيضاحًا لمعناه :

« ثبت من ذلك أن الإسلام فى الكفر ، الكفر فى الإسلام ، يعنى « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل » فالمراد بالليل هو الكفر ، والمراد بالنهار الإسلام » .

وينقل فى موضع آخر ، البيت الى معناه :

« للعشق مع الكفر صلة وقرابة ، الكفر يتجلى فى نفس الإشراق والتصوف » .

ثم يقول :

« أصبح العلم حجابًا أكبر ، - والمراد بها العلم ه العبدية التى هى حجاب أكبر فإذا ارتفع

هذا الحجاب ، اختلط الكفر بالإيمان ، والإيمان بالكفر وارتفعت العبادة العبودية [(١)] .

هذه هى الخلفيات الخطيرة التى بعث الإمام السرهندى على الحاسة الدينية العلمية لهذه العقيدة وقد هبه الله قسطًا كبيرًا من الحمية الدينية الثائرة ، والغيرة « العمرية » الشديدة والذى كانت تتحقق به تلك النبوءة العظيمة فى الحديث المشهور ، التى قيل فيها :« يحمل ها العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين»[(٢)] .

وقد قام بالنقد العلمى الموضوعى لهذه الفكرة التى تستخدم لنشرها وتعميمها كل وسائل النشر والإذاعة فى ذلك العصر ، وفى بلاد الهند ـ بضفة خاصة ـ فى حماس بالغ ونشاط زائد ، وبكل حرية وانطلاق ،كان الإمام السرهندى يشهد بأم عينيه أن التمسك بالشريعة ، وتعظيم حرماتها ، وشعائرها نحو الزوال ، وأن التفكك والانحلال يتسرَّبان إلى الأمة الإسلامية ، يقول فى رسالة من رسائله :

« إن معظم أبناء هذا العصر ـ اعتماداً على التقليد أو على قوة العلم المحض ، أو اعتماداً على العلم الذى يختلط معه الذوق ، ولو فى قدر محدود ـ أو بسبب الزندقة والإلحاد ـ تمسكوا بفلسفة « وحدة الوجود » فيعتقدون أن كل شىء من الحق ، بل هو عين الحق ، ويخلعون ـ بحيلة أو أخرى ـ عن رقابهم ربقة التكاليف الشرعية ، ويتساهلون فى العلم بالأحكام الشرعية ، ويداهنون ، هم فرحون بسلوكهم هذا ومطمئنون ، وأنهم إذا اعترفوا بضررة العمل بالأوامر والنواهى الشرعية ، واعترفوا به كعمل ثانى فرعى ويرون الغاية المبتغاة وراء طور الشريعة ، حاشا لله ، ثم حاشا لله أعاذنا من هذه العقائد الفاسدة السيئة » .

ويقول فى نفس هذه الرسالة :

إن كثيراً من الناس ، الذين تلبسوا بلباس الصوفية ، فى عصرنا هذا ، يعلنون عقيدة وحدة الوجود على ملأ من الناس ، ولا يعتقدون الكمال والرقى إلاَّ فيها ، فقد جانبوا بعملهم هذا وجه الحقيقة والصواب ،وحملوا أقوال المشايخ على ما يخطر فى عقولهم من معان وأفكار ، ثم قلدوها،واعتنقوها ، وهكذا جعلوا سوق أوهامهم وتخيلاتهم الكاسدة

---

(١) انظر « رسالة عشقية » ، ص ٧٣ .

(٢) مشكاة المصابيح ، كتاب العلم .

نافقة متحركة » [١] .

ميزة الإمام السرهندى وعبقريته :

ليست مأثرة الإمام التجديدية فى إثباته بالدليل والبرهان أن نظرية « وحدة الوجود » التى كان لها القبول العام ، وكانت كالعملة السائدة ، لا تجدر بأن تكون مقياسًا صحيحًا ، وغاية أخيرة فى طريق السلوك المعرفة ، بل إن ميزته وعبقريته فى هذا الباب ، أنه تناول هذه النظرية بالنقد فى ضوء تجاربه الشخصية ومشاهداته الذاتية ، وأثبت للناس أنه سبر أعماق هذا البحر الزاخر وأبعاده ، ونزل إلى قعره ثم خرج ، وقد ساقه التوفيق إلى أن يجدف سفينة المعرفة التحقيق إلى بر الأمان ، وشاطىء السلامة ، وأنه يتعذر ـ فى هذا المجال ـ أن يكون له زميل أو مثيل ، وقد أصاب المؤلف الغربى بيتر هاردى (Peter Hardy) رغم أنه ليس حجة فى هذا الباب :

« إن سرّ النجاح العظيم الذى أحرزه الشيخ السرهندى يكمن فى أنه قد خلّص الإسلام الهندى عن طريق التصوف من التطرُّف الصوفى ، ولعل السبب وراء ذلك ، أن النظرية التى رد عليها وعارضها ، كان على إدراك شخصى عميق لمعانيها ومقاصدها ، وأهميتها وخطورتها » [٢] .

موقف العلماء والمشايخ بعد الإمام السرهندى تجاه نظرية وحدة الوجود :

وقبل أن ننتهى من هذا الباب لابد من إعلان هذه الحقيقة التاريخية كمؤرخ محايد ، إنه لم تبق هناك بعد وفاة الإمام السرهندى ـ باستثناء سلسلته وطريقته الخاصة التى انتشرت على أيدى ابنه الشيخ محمد معصوم فى الهند وخارج الهند ـ نزعة واضحة حاسمة فيم يتعلق بنظرية وحدة الوجود ، ولم يبق ذلك اليقين والإيمان بصحة حاسمة فيما يتعلق بنظرية وحدة الشهود » التى رفع الإمام السرهندى لواءها ، وكان يقول بها على بيّنة ويدع إليها على بصيرة ، ونشأت بعد وفاته نزعة جديدة فى أوساط التصوف والطرق الصوفية والأوساط التى كانت تنتمى إليها هى : نزعة التوفيق والتطبيق بين النظريتين ، حتى قال بعض كبار العلماء المحققين : « إن هذا النزاع كان نزاعًا لفظيًا صرفًا » ، وقال بعضهم :

---

(١) الرسالة رقم ك ٤٣ ، المجموعة الأولى ، بعث بها الى الشيخ فريد البخارى .

(٢) Sources of indion Tradition. N . Y . P - 449

« إن الإمام السرهندى أخطأه التوفيق فى هذا المجال ، وأنه لم يطّلع على جيع مؤلفات الشيخ الأكبر ، ابن عربى » ، ولأجل لك ألف الشيخ غلام يحيى البهارى (م ١١٨٠ هـ) أحد مريدى الشيخ الأجل مرزا مظهر جان جانان (أحد المشايخ الكبار فى السلسلة المجددية) بأمر منه ، كتابًا بعنوان « كلمة الحق » صرح فيه بتحقيق السرهندى ، وبينه بيانًا شافيًا ، ورد على تلك النزعة التطبيقية التى كان بعض أوساط السلسلة المجددية أيضًا يحاول على أساسها التوفيق بين وحدة الوجود ، ووحدة الشهود .

الإمام أحمد بن عرفان الشهيد على أثر الإمام السرهندى :

وإذا كان هناك فى هذه السلسلة المجددية العالية بعد وفاة الإمام ـ شيخ من المشايخ العارفين المحققين ، يدعو إلى نظرية « وحدة الشهود » الواضحة النيرة ، يسير على آثار الإمام السرهندى ، فهو شيخ السلسلة المجددية الأحسنية [1] المعروف ، الداعى إلى الله،المجاهد فى سبيل الله الإمام أحمد بن عرفان الشهيد الرائى بريلوى [2] (ت ١٢٤٦هـ) .

(١) هى سلسلة الشيخ السيد آدم البنورى ، خليفة الإمام السرهندى ، التى تسمى السلسلة الآدمية ، والسلسة الأحسنية .

(٢) ويمكن أن يكون ذلك نتيجة الميول التى ورثها عن آبائه ، لأن جده الرابع الشيخ الأجل السيد عبد الله الحسنى ، كان خليفة الشيخ السيد آدم البنورى ، كما يمكن أن يكون نتيجة بحثه وتحقيقه واجتهاده الذى كان جديراً به .

الباب السابع
جهود الإمام الدؤوبة الصامتة فى توجيه الدولة إلى الإسلام من جديد

العلماء المشايخ الشجعان الصرحاء فى عهد « أكبر » و « جهانكير » :

ونرى من الواجب ـ قبل أن نذكر تلك الجهود الموفقة التى بذلها الإمام السرهندى ، التى غيرت مجرى الدولة وحولت تيارها العنيف ـ أن نصرح بحقيقة مهمة ، وهى أنه لا يصح التصور عن عهد الملك أكبر ، أنه كان يسود الهند ، خلال هذا الاضطراب ـ الذى يشبه الاضطهاد ـ صمت كامل ، ويخيم عليهم من أقصاها إلى أقصاها ، هدوء تام فى صفوف العلماء ، ولم يكن هناك من ينتقد « أكبر » ، ويعترض عليه ، ويعمل بالحديث المثير ولو بأدنى درجة من درجاته :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإنه لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » [1] .

فنذكر ـ فيما يلى ـ رجالاً تشهد كتب التاريخ والتراجم ، بأنهم بذلوا جهودهم ، وأبدوا استنكارهم لهذه الأوضاع فى نطاق عملهم وقدر مستطاعهم ، وجاهروا بعواطفهم الدينية وحميتهم الإسلامية .

ذهب الشيخ ابراهيم المحدث الأكبر آبادى (م ١٠٠١ هـ) ـ ذات مرة ـ إلى معبد الملك الأكبر على دعوته ، فلم يأت بالآداب والتحيات التقليدية للملك ، التى كانت مخالفة للشريعة ، ثم خطب عنده ، فرغبه ورهبه ، وذكره بالله ، ولم يتهيب الشوكة والحشمة الملوكية [1] ، وغادر الشيخ حسين الأجميرى ، الذى توفى بعد عام (١٠٠٩ هـ) ، مدينة أجمير استنكاراً لمجيء الملك أكبر هناك ، وساخطًا عليه ، فعزله الملك أكبر عن نظارة زاوية جده الشيخ الكبير معين الدين الجشتى وضريحه ، وأمر بجلائه إلى الحجاز ، فلما رجع

---

(١) متفق عليه .

(٢) انظر « نزهعة الخواطر » ج ٥ .

إلى الهند ، لم يباشر سجدة التحية له غضب عليه السلطان ، وأمر بحبسه فى قلعة بكهّر ، فلبث بها بضع سنين ، ثم أطلقه ، فلما مثل بين يديه أبى أن يحييه على المرسوم ، ولم يقبل هدية السلطان [1] .

وغضب السلطان ـ مرة ـ على الشيخ سلطان التهانيسرى ـ الذى كان من أصحاب الحظوة والتقرب لديه ، وكان السلطان أمره ، بترجمة « مهابهارات» ـ الكتاب المقدس عند الهنادك ، فى اللغة السنسكريتية ـ إلى اللغة الفارسية، وكان سبب هذا الغضب اتهام الهنادك إياه بذبح بقرة ـ وكان ذبحها محظوراً فى القانون « الإلهى » الجديد ـ وأمر بجلائه إلى بهكَر ، من أرض السند ، وولاّه على كرور كيرى » ، أى جعله محصلاً للخراج بها ، ثم بلغ السلطان عنه بعض الشكاوى ، التى تتعلق بموقفه الإسلامى الخالص ، فأمر السلطان بإعدامه ، ونفَّذَ فيه الحكم عام ١٠٠٧ هـ [2] .

وأكبر خطوة جريئة ومغامرة قام بها الشيخ شهباز كنبوه (م ١٠٠٨ هـ) الذى كان من كبار الأمراء فى بلاط السلطان أكبر ، وتولى أخيراً ـ منصب «مير بخشى (٤) ، وكان ذا جرأة ونجدة لا يقصر عن قول الحق عند السلطان، ولا يخافه ، ولا يبالى برضاه أو سخطه فى الأمور الشرعية ، فلم يقصر اللحية ، ولم يشرب الخمر ، ولمَ يرغب فى الدين الإلهى المخترع قط».

وقال شاه نوازخان فى « مآثر الأمراء » : « إن أكبر شاه السلطان كان يتفرج يمًا بين العصر والمغرب ، على بركة ماء بفتحبور ، وكان شهباز خان بين يديه ، فأخذ بيده والتفت إليه ، وكان يمشى ويتكلم معه ، والناس كانوا يزعمون أن شهباز لا يستطيع أن ينزع يده عن يد السلطان فتفوته الصلاة وكان من عادته أن لا يتكلم بعد العصر إلى المغرب ، فلما رأى شهباز أن الشمس قد مالت إلى الغروب استأذن السلطان للصلاة ، فقال السلطان : تداركها بالقضاء ،ولا تتركنى خليًا ،فنزع شهباز يده ،وبسط مئزره على الأرض واشتغل بالصلاة، ثم بالأوراد الراتبة والسلطان واقف على رأسه يشدِّد عليه ، وتواجد مير أبو الفتح ،

---

(١) انظر « نزهة الخواطر » ج ٥ ، ترجمة الشيخ حسين الأجميرى .

(٢) منتخب التواريخ ، وكان الشيخ التهانيسرى والد زوجة الإمام السرهندى .

(٣) الأمير الكبير الذى يرجع إليه أمر العساكر السلطانية المعينة فى تلك الولاية . وأمر « الداغ » أى وسم الخيل ، والتصحيح ، وغير ذلك من المهمات العسكرية، وهو من أمراء الألوف (الهند فى العهد الإسلامى) .

والحكيم على الكيلانى أيضًا فى تلك الساعة فشعرا بدقة الموقف فتقدما وقالا ـ لصرف نظر السلطان وغضبه عنه ـ نحن نستحق أيضًا ، أن يلتفت إلينا السلطان ، فسكن غضبه ، وانصرف عن شهباز خان ، والتفت إليهما (١) .

وكان الشيخ عبد القادر الأجى كذلك من أصحاب النجدة والجراءة ، لم يوافق السلطان فى مخالفة الشريعة ، قدَّم إليه أكبر ـ ذات يوم الأفيون على جرى عادته ، فامتنع عن بلعه، فأنكر عليه السلطان ، فبينما هو قد فرغ من الصلاة المكتوبة يومًا فى « عبادت خانه » ـ القصر الذى بناه أكبر للعبادة ـ واشتغل بالنوافل ، إذ خرج عليه أكبر ، وقال ينبغى لك أن تَتَنَفَّلَ فى بيتك، فقال عبد القادر : يا مولانا ، هذا ليس بملك فيكون تحت سلطانك ، فغضب عليه السلطان وقال : إذا لم تكن ترضى عن ملكى ، فاخرج عنه ، فخرج الشيخ من ساعته ، ورحل إلى مدينة « أج » ، وعكف على الإفادة والعبادة (٢) ، وكذلك سميه عبد القادر اللاهورى (م ١٠٢٢ هـ) الذى كان السلطان ساخطًا عليه لتصلبه فى الدين ، وشدة تمسكه بالشريعة ، فأمره أن يسافر إلى مكة المكرمة (٣) .

ومنهم مرزا عزيز الدين الدهلوى كوكه (م ١٠٣٣ هـ) الذى كان تربا لأكبر وأخاه من الرضاعة ، يحبه «أكبر » حبًا مفرطًا ، ويقدمه فى كل باب ، وكان عزيز الدين ـ مع ذلك ـ يغلظ القول عليه فيما يأمره وينهاه ، لا سيما فيما يخالف الشرع ، فعزله عن ولاية كجرات ، ثم ولاه على بنكاله وبهار ، ولقبه بالخان أعظم وكان رغم ذلك ، لا يستحسن بعض ما اخترعه من السجدة بحضرته ، وحلق اللحية وغيرها ، ومنهم الشيخ منور بن عبد الحميد اللهورى (م ١٠١٥ هـ) ولاه أكبر الصدارة عام ٩٨٥ هـ بأرض مالوه ، ولكن لم يدم له هذا الحال ، لصلابته فى الدين ، واستقامته فى السلوك ، وضيق عليه فى السجن حتى مات (٤) .

واستمرت ـ بعد جلوس السلطان جهانكير على عرش الدولة ـ القوانين والطقوس التى اخترعها أكبر ، وكانت نافذة فى عصره إلى مدة يسيرة ، فكانت تسود الدولة نفس الأساليب ـ والأعمال ـ عدا المعارضة الصريحة للإسلام ـ التى كانت من قبل ، إلى أن مال السلطان جهانكير إلى تعظيم الشريعة الإسلامية ، واحترام شعائرها ، وقد تصدَّى عدد من

---

(١) نزهة الخواطر ، ج ٥ ، ترجمة شهباز خان .

(٢) ، (٣) أيضًا ، وراجع هؤلاء المذكورين .

(٤) المصدر السابق نفسه ، وراجع تراجم هؤلاء المذكورين .

العلماء والمشايخ أثناء تلك الفترة من عهد جهانكير ـ للإنكار على هذه التقاليد والقوانين ، وخاطروا بأنفسهم فى رفض تلك التقاليد والآداب على هذه التقاليد والقوانين ، وخاطروا بأنفسهم فى رفض تلك التقاليد والآداب الملوكية ، التى كانت تعارض الدين والشريعة الإسلامية البيضاء ، ولم يرضوا لأنفسهم بأن يتجاوزوا حدود الله ، ولم يتلعثموا فى الجهر بكلمة الحق ، فكان الشيخ أحمد بن محمد بن رلياس الحسينى الغرغشتى أحد مشايخ الطريقة فى الحدود الشمالية الغربية للهند ، طلبه جهانكير بين يديه، فلم يرض أن يحييه بالآداب المرسومة ، فحبسه فى قلعة كواليار ، فلبث بها ثلاث سنين ثم أطلق سراحه عام ١٠٢٠ هـ وأستصحبه إلى آكره .

ميزة الإمام السرهندى من بين هؤلاء :

ولكن الفضل الأكبر فى مقاومة انحراف الدولة وضلالها ، معارضتها بقوة وتنظيم ، والجهود الموفقة الحكيمة فى إصلاحها وتقويمها يرجع إلى الإمام السرهندى الذى قيضه الله ـ عز وجل ـ لصيانة الدين ، ونصر الإسلام والمسلمين ، وقدر أن يناط هذا العمل التجديدى العظيم ، الذى واصل ليله بنهاره فى إكمال هذه الخطة التجديدية ، وإحداث تلك الثورة الصامتة الهادئة التى لم تهرق فيها الدماء وغيرت مجرى التاريخ ، ولا يوجد لها نظير فى تاريخ الدول والبلاد الإسلامية الأخرى ، وكان نتيجة هذه الجهود أن تولى الدولة ـ بعد وفاة السلطان أكبر ـ من كان خيراً منه وأفضل، يمتاز بحميته للإسلام ، وتعظيمه لحرمات الدين ، وسلامته من الجراثيم المناوئة للإسلام والكراهية له ، وانتهت هذه السلسة الذهبية ، وبلغت الأوج والكمال على يد السلطان محيى الدين أورنك زيب الذى مكان مثله الأعلى حياة الخلفاء الراشدين ، وخدمتهم للاسلام والمسلمين [1] .

جلوس السلطان جهانكير على عرش الدولة واستئناف الإمام السرهندى عمله التجديدى لإصلاح الدولة والسلطان :

مات السلطان جلال الدين أكبر عام ١٠١٤ هـ ، وكان الإمام السرهندى ـ إذ ذاك ـ فى الثالثة والأربعين من سنّه ، لقد كانت الأيام الأخيرة من حياة السلطان أكبر ـ التى أحدقت فيها الفتن والأخطار بالهند ، وهدَّد الإسلام بالزوال والانقراض ـ هى الفترة التى بلغ فيها الإمام السرهندى كماله الروحى ونضجه الفكرى ، وذروة الصفاء والربانية ، ولم تكن له

---

(١) نزهة الخواطر ، ج ٥ ، ترجمة أحمد بن محمد البجواروى .

أى صلة بأركان الدولة وأمرائها ، كما أنه لم يحن الوقت الذى يطلع فيه أهل البلاط على جلالة شأنه ، وعظم منزلته ، وإخلاصه ، وربانيته ، وكماله الباطنى ، ولأجل ذلك كان الإمام السرهندى لا يجد الطريق لبداية عمله ، وإزجاء مشاعره وانطباعاته ، وتسريب خواطره ، وأحاسيسه إلى البلاط الملكى،وتأثيره على سياسة الدولة العامة فيما يتعلق بالدين والقانون ، وكان يستولى على البلاط ، وعقلية السلطان ونفسيته ،وعلى التنظيم والإدارة ـ عند ذاك ـ الأشخاص الذين كانوا يحولون بين السلطان وبين كل رجل متدين مخلص ، وقد أقاموا سورًا حديدًا حول البلاط ، حتى لا تصل إليه نفحة طيبة منعشة ، ونسمة خالصة نقية من الخارجة ، ولا يعرف السلطان وحاشيته ما يدور فى البلاد وما يختلج فى نفوس الرعايا من كره أوحب ، أو سخط أو رضا ،وكان الإسلام والمسلمون فى هذه البلاد الواسعة ـ التى قامت فيها حكومات مسلمة قوية فى اتصال واستمرار ـ يعانون ما صوره القرآن الحكيم فى تعبيره البليغ المعجز :

﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلاَّ إليه ﴾ (١).

ولكن لم يبق الوضع على ذلك بعد أن أخذ السلطان جهانكير زمام هذه البلاد بيده عام ١٠١٤ هـ ، ولئن كان جهانكير ـ لعوامل خاصة من التعليم والتربية فى إشراف والده السلطان أكبر ـ لا يمتاز بصلاح ونزعة دينية ملحوظة ،وتقيد بالشريعة الإسلامية ، والتزام للفرائض والواجبات الدينية، فإنه لم يكن ـ كذلك ـ يحمل فى صدره البغض والاستيحاش من الإسلام ، أو الشغف والتأثر بحضارة قومية ، أو فلسفة من الفلسفات الدينية ، والرغبة فى إعلان دين جديد وقانون جديد ، وتنفيذهما ، وبتعبير آخر ، أنه إن لم يكن حاميًا لبيضة الإسلام ، ذابًا عن حماه لم يكن كذلك راغبًا فى محو اثاره ، وطمس معالمه ، فإن السلاطين المغرمين باللهو والمجون ، والمعيشة القارهة الباذخة ، لا يُعَنون ـ بصفة خاصة ـ بإزالة النظم السائدة ، وإحلال النظم الجديدة مكانها ، بل إنما كلُّ همّهم فى حياة الأفراح والليالى الملاح ، عز السلطان ، وفخفخة الدولة ، وقد شوهد فيهم فى مطاوى النفس إعجاب وإكبار لأولئك الرجال الذين يتسامون بأنفسهم عن هذا المستوى المادى ، ولا يلتفتون إلى بهرج الدنيا وزينتها ، ويستغنون عن الجاه والمنصب ويكون لديهم استعداد أكثر لقبول الحق منهم ، والخضوع له ، من أولئك الذين يدعون إلى حركة ويتبنون فلسفة

---

(١) سورة التوبة - ١١٨ .

جديدة ، أو يطمحون إلى أن يكون لهم ذكر فى التاريخ أو شهرة فى الناس كمخترع طريقة، أو مبتكر مذهب خاص.

المنهج الصحيح :

كانت فى هذه الفترة ـ أمام الإمام السرهندى وجميع العلماء الغيارى على الإسلام ـ الذى كانوا يتحلَّون بالعلم الدينى ، والصلاح الباطنى ، وكانوا مشغولين بخواص أنفسهم ويقطعون فيافى السلوك إلى الله ، وتملك قلوبهم ومشاعرهم الحمية الدينية الثائرة ، والغيرة الإسلامية المتأجّجة لمواجهة هذه الأوضاع التى كانت تظل الدولة وتحيط بها ـ ثلاث طرق :

١ ـ الطريقة الأولى ، أن يعتزلوا الدولة والبلاد ، ويتركوا حبلها على غاربها ، ويلجأوا إلى زاوية ، يشتغلون فيها بذكر الله ـ فى سكينة وطمأنينة ـ وتربية الطالبين وإرشاد السالكين ، والانهماك فى الطاعات والعبادات ، كان هذا هو الطريق الذى اختاره ـ فى عهد الإمام السرهندى ـ عشرات بل مئات من العلماء والمشايخ ، وكانت لهم رباطات وزوايا فى كل بقعة من البقاع حيث كانوا منصرفين إلى التربية والإرشاد فى هدوء وصمت وانهماك وكان الطالبون والمسترشدون من عباد الله يشدون إليهم الرحال ، ويستفيدون منهم فوائد روحية ، وإيمانية كبيرة .

٢ ـ الطريقة الثانية ، أن يقطعوا الرجاء ـ بصورة حاسمة ـ من إصلاح السلطان ـ الذى كان انتماؤه إلى الأسرة الإسلامية إسميًا ـ ويعتبروه معارضًا عنيدًا للإسلام تشهد بذلك كثير من القوانين والمراسيم الملكية ، وسيرته وسلوكه ، وييئسوا من إصلاح الدولة ، فيلجأوا إلى إقامة جبهة دينية معارضة مقابل الدولة والسلطان وإلى محاربته ، والنضال المستمر معه نظرًا إلى أنه عدو لدود للإسلام . ومعارض دائم للدين .

وأن يجمعوا حولهم رجالاً تغلى فيهم الحمية الدينية ، وتستولى على مشاعرهم عواطف الجهاد والاستماتة فى سبيل الله ، ويتميزون غيظًا من الأوضاع الراهنة من الأمراء والأتباع والمريدين : والمحبين والمعجبين بهم ، ويحدثوا ـ بعد ذلك ـ ثورة فى الدولة ، بالإجراءات السياسية والعسكرية ، ويحاولوا أن يولوا السلطة رجلاً صالحًا دينًا ـ ولو كان من الأسرة المغولية ، ومن أبناء « بابر » ـ بغير وجهة الدولة ، فتتغير الأوضاع ، وتتحسن الظروف .

٣ ـ الطريقة الثالثة ، أن يتصلوا بأعضاء الدولة وأمائها ، ويثيروا الحمية الإسلامية ، والعواطف الدينية ، فيمن عرفوهم واتصلوا بهم من قبل ، ويعتقدون فى إخلاصهم وسمو شخصيتهم ، وتوجعهم للأوضاع وينفضوا الرماد عن تلك الجمرات الكامنة فى

قلوبهم ، ويشعلوها وينفخوا فيها ، ويحرضوهم على النصيحة للسلطان ، وأن يحركوا تلك العروق الإسلامية التى ورثها عن آبائه وأجداده المؤمنين ، ويحملوه على حماية حوزة الإسلام ، وتضميد القلوب الجريحة للمسلمين وتدارك العهود الماضية ، وأن يسموا بأنفسهم ويترفعوا على الجاه والمناصب ، ويثبتوا للناس زهدهم وتقشفهم فى الحياة واستغناءهم عما فى أيدى الناس ، ويكلوا الدولة إلى أهل الدولة ، والمناصب إلى أهلها ، والمتبوئين عليها ، ويتظاهروا بإخلاص ونزاهة ، وسمو نفس لا ترقى إليه شبهة ، ولا يقدر أشد الناس معارضة لهم ، وأكثرهم كيدًا وحسدًا ، أن يتهمهم بالحرص والطمع فى الجاه والسلطان ولا تنجح أى مؤامرة لإسقاط شأنهم وحط منزلتهم .

أما الطريق الأول فما كان يلائم طبيعة الإمام وعلو همته وشدة عزيمته ، وعظيم مكانته التى بوأه الله ـ تعالى ـ إياها ، ولا ينسجم معها أيما انسجام ، فقد كان الإمام السرهندى ـ بعد أن فاز بالتكميل الباطنى ، والتربية الروحية العالية ـ على ثقة ويقين تام ، بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هيأه لأمر عظيم ، وأن لم يخلق للعبادات الفردية المكتوبة ، والتقدم فى المراحل الروحية ، فحسب ، أو بشياخة الطرق ، وإرشاد السالكين فحسب ، وقد أباح سرّه وتحدث عن نفسه عندما أشار إلى قول من أقوال الشيخ الكبير الشيخ عبيد الله أحرار (م ٨٩٥ هـ) الذى كان شيخًا رفيع المكانة من مشايخ سلسلة الإمام السرهندى ، بل يعتبر إمام هذه السلسلة ـ يقول :

كان الشيخ عيد الله الأحرار يقول :

« لو تصديت للشياخة والإرشاد ، وأخذ البيعة من الناس لما وجد أى شيخ من مشايخ الطرق ، من يبايعه ، وينخرط فى سلك مريديه ،ولكن الله ـ تعالى ـ أراد بى أمرًا آخر ، وهو نشر الشريعة السمحة ، وتأييد الملة الحنيفية » .

ثم يقول الإمام تعليقًا على ذلك :

« كان (الشيخ الكبير عبيد الله) يدخل على السلاطين ويحضر فى مجالسهم ، ويؤثر فيهم بقوته الباطنية ، وملكته الروحية ، فينقادون له ، ويطيعونه ، ثم يستعين بهم فى نشر الشريعة » .

أما الطريق الثانى ، فإنه لا يسلكه من الدعاة أو القادة إلا صاحب عقلية سياسية ، قاصر النظر ، محدود التفكير الذى يبدأ عمله من الشك وسوء الظن ، ويجعل الحكومة ـ بتسرعه وترجيح إقامة الجبهة المعارضة على حكمة الدعوة ، وعاطفة الإصلاح والنصيحة ـ

تقف إزاءه وجهًا لوجه ، وتعارضه من أول الطريق ، وهو بذلك يضيق عليه الأرض بما رحبت ويقلل إمكانيات انتصار الدين وهيمنة الشريعة وليس هذا طريق الداعى الموفق إلى الله الذى لا يريد لنفسه ولحزبه علواً فى الأرض ، وسيطرة على الحكم بل كل همه أن يظهر الدين وتنفذ أحكام الشريعة ، وتصلح الدولة ، كائنًا من كان المنفذ لهذه الأحكام المسيطر على البلاد .

وكان القيام بتكوين جبهة معارضة للدولة ، وإعلان الحرب عليها محفوفًا بالصعوبات والأخطار ، وكانت هذه الخطوة - فى الأوضاع السياسية السائدة فى البلاد - نوعًا من الانتحار فى حق الإسلام ، لأن الدولة المغولية، التى وطد أركانها السلطان بابر وثبت جذورها بيديه ، وتجشم لها الملك همايون مشاق الرحلة الخطيرة إلى أيران ، وأحكمها وقواها السلطان أكبر بفتوحه ، وانتصاراته المتتالية ، وتسخير البلاد - كانت شابة فتية ، لم تبد فيها آثار الضعف والهرم ولم يستطع السلطان سليم شاه خليفة الملك العصامى السلطان شيرشاه السورى أن يقضى عليها ، وأخفقت كل المحاولات - فى فترات مختلفة - للثورة وقلب نظام الحكم ، ثم إذا نجحت الجهود لخلع السلطان المغولى ، كان من المتوقع جدًا ، أن يستولى الراجبوت - الذين تولوا فى عهد السلطان مناصب عالية خطيرة فى الدولة - وكانت قوتهم العسكرية هى الوحيدة التى كان السلطان يثق بها ويعتمد عليها - على الحكم فيكون ذلك ضربة قاصمة للسلطة فى هذه البلاد إلى الأبد .

ثم إن هذه التجربة لقيت إخفاقًا ذريعًا ، من قبل ، فقد قامت - فى عهد السلطان أكبر - حركة دينية ، منظمة كبيرة تحت قيادة الشيخ بايزيد - باسم الفرقة الروشنائية - وقد تقدم ذكر شيء من تاريخها وعقائدها - وحاربت هذه الفرقة جيوش الدولة المغولية الجرارة ، طوال أعوام وسنين ، واستولت على ممر خيبر ، بعد أن جعلت مقرها « جبل سليمان » وشنت غارات على المناطق المجاورة وبعث السلطان أكبر لمقاومتها « راجه مان سنكهه » و « راجه بيربل » وزين خان ، وكلهم باؤوا بالخيبة والهزيمة ، وقتل بيربل فى معركة من المعارك واستولت الفرقة الروشنائية بجيشها اللجب على غزنين ، ولم يمكن التغلب على هذه الفتنة الداهية إلا فى عهد السلطان جهانكير ، ثم قضى عليها قضاءً باتا فى عهد السلطان شاهجهان ، ورغم كل ذلك ، لم تنتج هذه الثورة إلاّ فوضى واضطرابًا ، واستسلمت - أخيرًا - للدولة المغولية ، وبقى اسمها يذكر فى التاريخ .

إن مثل هذه الإجراءات العسكرية باسم إصلاح الأوضاع الفاسدة تستهدف للظنون السيئة، والشكوك المريبة عند أصحاب السلطة والحكومات فيشمرون عن ساق الجد - لظنهم

أن الدين هو العارض المناوىء لسلطتهم ـ لاستئصاله والقضاء عليه ، ويتتبعون أتباعه والمتحمسين له ، فيصفونهم ويبيدونهم إبادة كاملة ، ولعل الإمام السرهندى لأجل ذلك ـ بعد خروجه من معتقل كواليار ، ومرافقة العسكر الإجبارية أربع أو خمس سنين ، أشار على الوزير الشهير فى بلاط السلطان جهانكير الأمير مهابت خان عندما قام بالثورة عام ١٠٣٥ هـ على الدولة أن يكف عنها ، ولا يثير الاضطراب ، فكان دليلاً واضحًا على فراسته الإيمانية ، والتوفيق الربانى الذى كان حليفه ، إنه ما اختار ـ لاحداث تغيير جذرى فى الأوضاع ـ هذا الطريق المشبوه المحفوف بالأخطار ، بل سلك طريق البناء بدل الهدم ، والإيجاب بدل السلب ، والإمالة بدل الإزالة الطريق الذى كان بمأمن من كل خطر وضرر .

ولم يبق بين يدى الإمام إلاَّ طريق واحد ، وهو أن يبدأ باتصالات خاصة مع أركان الدولة وأعيانها ـ الذين كانوا مسلمين ـ وكان الإمام السرهندى يعرف بذكائه الموهوب ـ معرفته العميقة للنفوس إنه لم يكن لهم فى هذه المؤامرة والكيد على الإسلام فى عهد السلطان أكبر ، ناقة ولا جمل، بل كانوا يستنكرون كثيرًا من إجراءاته ، ولكن السلطة لم تكن بأيديهم حتى يعملوا شيئًا ، وكان عدد منهم يتصف بالحب العميق للإسلام ، والحمية الدينية ، وعدد آخر كانوا معجبين بشيخ الإمام ومرشده الشيخ الكبير عبد الباقى ، ويحبونه ويعتقدون فى علو مكانته ، وإن لم يكونوا من مريديه ، والمبايعين على يديه ، وكانوا يعرفون إخلاص الإمام السرهندى، وتحرقه للإسلام وتوجعه للدين ، ووزهده وعفافه .

وكان أشهر هؤلاء الأعيان ، وأجلهم شأنًا النواب السيد مرتضى المعروف بالشيخ فريد (م ١٠٢٥ هـ) وخان أعظم مرزا كوكه (م ١٠٣٣ هـ) ووخان جهان اللودهى (م ١٠٤٠ هـ) وصدر جهان البهانوى (م ١٠٢٧ هـ) والإله بيك جهانكير .

ما صدر من القلب نفذ إلى القلب :

وجّه الإمام السرهندى خطابه إلى أركان الدولة وكبار الأمراء والوزراء، واستأنف المراسلة معهم ، ونثر قطع قلبه ، ومُزع نفسه على صفحات الرسائل ، التى تمتاز ـ بين مجاميع الرسائل التى كتبت فى لغة من لغات العالم وفى تاريخ أى حركة دينية إصلاحية ـ بلاغتها ، ونصاعة أسلوبها ، وروعة تأثيرها ، وتدفق معانيها وقد تجلى فيها تألم منشئها للوضع والواقع ، وإخلاصه واستحوذ الفكرة عليه فى أروع مظاهره ولا تزال ـ رغم مضى مئات السنين عليها ـ تحمل ذلك التأثير والروعة ، والجمال ، يقدر بملاحظتها القارىء ما كان لها من فعل وتأثير فى نفوس من وجّهت إليهم ، والواقع أن هذه الرسائل هى

رسول الإمام السرهندى ، وسفيره فى الدعوة والتبليغ وترجمانه الصحيح لقلبه الكلوم الجريح وهى قطرات دموعه ، وفلذات أكباده ، وقد كانت لها مساهمة أساسية فعالة فى إحداث ذلك الانقلاب العظيم الذى ظهر فى الدولة المغولية فى القرن العاشر بالهند .

الرسائل الدعوية المحرضة إلى أمراء الدولة :

إن عددًا كبيرًا من هذه الرسائل بعث بها الإمام السرهندى إلى الأمير السيد فريد (١) ، الذى كان يتمع بمكانة مرموقة فى أركان الدولة ، وأمراء الولايات ، وكان مستشارًا خاصًا ، وصاحب حظوة وزلفى فى الدولة ، من عهد السلطان أكبر ، وكان معجبًا بالشيخ عبد الباقى ، محبًا له مع الإجلال والاحترام وانتهز الإمام هذه الحمية الدينية فيه وشرف نسبه ، وحرضه - مذكرًا إياه بما خصه الله به من صفات النبل وكرم المحتد - على أداء مسئوليته الدينية ، وما يفرض عليه كونه من أهل بيت النبوة من واجبات إسلامية،وأن ينصح السلطان جهانكير ، ويشير عليه بما يغير مجرى الدولة من سيرها على خطة الملك أكبر ، وغفلتها من مقتضيات الإسلام ، وقلة الاهتمام بشأن الدين ، وما يعانى الإسلام والمسلمون من غربة ووحشة ، ويوجهها إلى تعظيم شعائر الدين الحنيف ، وحماية بيضة الإسلام ، واحترام الأحكام الشرعية والتعاليم النبوية .

ولا تحمل هذه الرسائل - للأسف - تاريخ كتابتها ، وإلاّ تعرفنا على جوانب كثيرة ، من حكمة الدعوة ، والتقدم التدريجى فيها ، ووقفنا على سلسلة هذه المراسلة ، وكيف وجّه الإمام السرهندى من خاطبه فى رسائله توجيهاً تربوياً وماذا عملوا للتأثير على السلطان ، ثم

---

(١) هو الأمير الكبير مرتضى بن أحمد أبى بكر البخارى المعروف بنواب فريد الدين، أحد أجواد الدنيا ، لم يكن له نظير فى زمانه فى السياسة والتدبير ، والسخاء والكرم ،والمحبة لأهل الفضائل والميل إلى معالى الأمور ، أدرك أكبر بن همايون فى صغر سنه ، فتقرب إليه وتدرج إلى الإمارة حتى نال « الميربخشى كرى » (وهو الذى يرفع إليه أمر العساكر ويعين لها الرواتب) ثم لما ولى المملكة ولده جهانكير أضاف فى منصبه ، ولقبه بصاحب السيف والقلم ، وولاه على كجرات أولا ، ثم على بنجاب ، فأقام بها مدة حياته ، وكان أجود الناس ، وأنفعهم خيرا ، لم يخيب سائله قط حتى كان يبذل عليهم قباءة ودثاره ، ورداءه ، وما كان عليه ، وكان قد وظف الأيامى والمتوكلين ، وأهل الحاجة ، من يومية وسنوية ، وكان يكفل اليتامى ويربيهم كتربية الآباء للأبناء ويزوج البنات العوانس ، ويجهز لهن ، وكان يأكل على سفرته قرابة ألف وخمسمائة نفس كل يوم ، وسميت مدينة « فريد آباد » (بقرب دهلى) نسبة إليه ، توفى فى عام ١٠٢٥ هـ . (ملخص من ترجمته فى « نزهة الخواطر » ، ج ٥) .

كيف قام السلطان بتغيير وجهـة الدولة إلى صيانة الإسلام وحمايته ، وكيف بدأت مخلفات الحكومات الســابقة ورواسبهــا تضمل وتتلاشى ـ تدريجيًــا ، ويحل محلها احـترام الإسلام ومعرفة قدره وأهميته والميل إليه .

ونحن نحاول ـ حـسب تقديرنا ـ أن نقدم هذه الرسائل مـرتبة ترتيبًا تدريجـيًا ، إلى حد ممكن .

يقول الإمام السرهندى فى رسـالة بعث بها إلى الأمير السيد فـريد البخارى فور جلوس السلطان جهانكير على عرش المملكة ، كما يبدو :

يدعو له باستقامته على جادة آبائه الميامين وبخاصة جده سيد المرسلين ـ ﷺ ـ ثم يقول :

« إن السلطان فى الدنيـا ، كالقلب فى البـدن ، فإذا صلح القلب صلح الجـسد ، وإذا فسد القلب فسد الجسد ،وإن صلاح السلطان ، صلاح الدنيا وفساد السلطان فساد الدنيا .

وأنتم تعرفون جـيدًا ما منى به الإسلام فى القرن الماضى ـ فى عهـد السلطان أكبر ـ من رزيئة ونكبة ، ولم يكن الإسـلام ـ رغم غربته فى القرون التى مضت قبله ـ ذلـيلاً مهانًا ، مثل ما كـان فى هذا القرن ، فقد كـان فى الزمن الذى مضى قبله ، يتمسـك الكافر بكفره والمسلم بإسلامه ، «لكم دينكم ولى دين » ولكن ظهر أهل الكفر فى القرن الماضى وغلبوا أهل الإسـلام ، وبدأوا ينفـذون أحكام الكفـر بصورة سـافـرة ـ فى دار الإسلام ، وكـان المسلمون لا يقدرون على إظهار أحكام دينهم ، ومن تجـاسر على إظهار دينه لقى العقاب ، وحكم عليه بالإعدام .

واويلاه ، وامصيبتاه ، واحزناه ، واحسـرتاه ! أتباع محمد ـ ﷺ ـ الذى هو حبيب رب العالمين ـ أذلة ضعفـاء مهانون ، والجاحدون بنبوته ، أعزه أقـوياء مكرمون ، كان المسلمون بقلوبهم الجريحـة المكلومة ، يندبون الإسلام ، ويرثونه وينوحون عليـه ، وكان المكابرون الجاحدون يسخرون ، ويستهزؤون وينكئـون جروح المسلمين الدامية ، غابت شمس الهداية فى ظلال الضلال ، واختفى نور الحق فى حجب الباطل وسحبه الداكنة .

واليوم بعد أن زال ما كان يحول بين الإسـلام ، وتقدمه وانتصاره ، وتشنفت الاذان ، ببشرى تمكن سلطان الإسلام من عرش الحكومة ورأى أهل الإسلام من الواجب عليهم أن يساعـدوا السلطان ويناصـروه ، ويبصـروه بطريق نشر الشـريعة الإسـلامية ، وتأيـيـد الملة الحنيفية ، سواء كانت هذه المساعدة والمناصرة باليد أو باللسان » .

ويقول بعـد بضعـة سطور ، وقد وضع الأصـبع على الداء الذى أصيـبت به الدولة فى

العهد الماضى :

« كل رزيئة رزىء بـها الإسلام فى القـرن الماضى ، كان من شـؤم علماء السـوء ، فهم الذين أضلوا السلطان وأغووه ، وعندما تفرقت الملة الإسلامية اثنتين وسبعين فوقة واتخذت طريق الزيغ والضلال كان علماء السـوء رؤوس هذه الفتن ، وقادة هذا الانحراف ، وقليل من ضل من العلـماء وانحـرف ، ولم يؤثـر ضلالـه على الناس ، وأن مـعظم جـهلة هذا العصـر ، والمتزعمين للتـصوف يمثلون دور علماء السوء ، فـفسادهم ـ كـذلك ـ فساد متـعدّ مُعد ، فإذا كان هناك من يستطيع أن يناصـر فى هذا العمل (نَصر الدين الحنيف) ثم يقصر ويتكّاسل ولا يؤدى دوره ، فإنه مسئول عن الإسلام ، يستحق الملام .

نظرًا إلى ذلك يحب هذا الفقير ـ الذى بضاعتـه مزجاة ـ أن ينضم إلى معسكر المناصرين للإسلام ، وللدولة المسلمـة ، ويحاول جهده فى نصـرة الدين ، فإن « من كثّـر سواد قوم فهو منهم » ، ومن يدرى ، لعل الله يجعل هذا الفقير من هذه الجماعة الكريمة ، وهو يرى أن مثـله مثل تلك العـجوز المسكينة ، التـى فتلت عـددًا من الحبـائل ، لتنسلك فى سلك المساومين فى يوسف الكريم [1] ، ويأمل هذا الفقـير أن يتشرف بالحـضور لديكم فى وقت قريب ، أرجـو منكم ـ لتقربكم إلى السلطـان وتهيئو الفـرص فى الحديث معـه ـ أن تبذلوا جهودكم فى تمكين الشريعـة المحمدية ونشرها ، وتخرجوا المسلمين من غـربتهم ومسكنتهم ومهانتهم » [2] .

ويقول فى رسالة أخرى إلى السيد فريد :

« إن المسلمين الغـرباء الذين هم فى هذه الورطة الهائلـة ـ فى هذه الأيام ـ إنما يتوقـعون خلاصهم منها بسفينة أهل البيت ، فقد قال الرسول ـ ﷺ ـ: «مثل أهل بيتى كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك» [3] .

فركزوا همـتكم القعساء على هذا الهدف العظيم ، لتنالوا هذه السـعادة العظمى ، وقد

---

(١) قصة يحكيها بعض القصاص ، وأوردها بعض المفسرين فى كتب التفسير ، وقد أصبحت مثلاً لمن يلقى دلوه فى الدلاء ، ويريد أن يخرط فى سلك الأغنياء والعظماء ، على قلة البضاعة .

(٢) الرسالة رقم : ٤٧ ، المجموعة الأولى .

(٣) رواه الطبرانى والبـزار وغيرهما عن أبى ذر رضى الله عنه ، وروى عن ابن عـباس وابن الزبير ، وأبى سعـيد قال فى مجـمع الزوائد ، فيه ابن لهـيعة وهو لينّ ، وقـال الهيثـمى فيه جمـاعة لم أعرفهم، مجمع الزوائد ٩/ ١٦٨ .

وهبكم الله ـ عز وجل ـ كل أنواع الحشمة والجاه والسلطان ، فلو جمعتم بين شرفكم فى النسب ، وبين هذه السعادة الجليلة ، لبذّت سعادتكم جميع السعادات ، وينوى هذا الفقير ـ للتحدث معكم فى هذه الأمور التى يقصد من ورائها تأييد الشريعة الإسلامية وترويجها ـ أن يتشرف بالحضور لديكم (١) .

ويقول فى رسالة ثالثة إليه :

« سيدى الشريف ! إن الإسلام ـ اليوم ـ مسكين غريب ، وإن فلسًا واحدًا ينفق -الآن- لتقوية الإسلام وتأييده ، يعادل الملايين ، فلننظر من يكون ذلك الصقر الجرىء الذى ينعم الله عليه بهذه النعمة الجليلة ، إن العمل الذى يقوم به الإنسان لنشر الدين وتأييد الملة ـ فى أى عصر من العصور ـ جميل محبوب ولكنه اليوم حيث الإسلام غريب أجمل وأحب ، فجديرٌ بكم ـ أنتم الأشراف ـ إذ أن هذه الثروة العظيمة من ميراثكم ، وهو لكم مباشرة ، ولغيركم بواسطة ، وإن وراثتكم لجدكم الكريم لها أهميتها الكبيرة فى نيل هذه السعادة ، فإن هذه الساعة هى التى ورد عنها الحديث ، ذلك : « عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إنكم فى زمان من ترك منكم عشر ما أمر به هلك ، ثم يأتى زمان من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا » (٢) .

وإن هذه الجماعة من الناس ، هى تلك الجماعة ، « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » .

والشخصية الثانية التى وقع اختيار الإمام السرهندى عليها بعد الأمير السيد فريد ، هو ركن الدولة المغولية المكين خان أعظم (٣) الذى كانت له مع الأسرة الملوكية صلة وقرابة ماسة ، وكان جهانكير معترفًا بعلو مكانته ،وأهميته وكان فى قلبه إجلال وإكبار ، لمشايخ

---

(١) الرسالة رقم : ٥١ ، المجموعة الأولى .

(٢) رواه الترمذى ، وقال حديث غريب .

(٣) هو الأمير الكبير مرزا عزيز الدين ، كان يلقب بكوكه لكونه أخا السلطان أكبر من الرضاعة ، استوطن غزنين ، ثم مدينة دهلى ، كان واليًا على كجرات عام ٩٨٠ ـ ولما خالفه محمد حسين مرزا وحاصره ، سار إليه أكبر وجاب ١٤٠٠ ميل فى تسعة أيام ، وولى على بكاله وبهار بعد ولاية كجرات ،ولقب بالخان الأعظم، وولى على كجرات مرة ثانية عام ٩٩٧ هـ .
ومع هذا التقرب والزلفى لدى السلطان ، كان يغلظ القول عليه ، فيما يأمره وينهاه ، ورغم ذلك سلم إليه السلطان خاتمة « مهراوزك » وجعله وكيلاً مطلقًا فى مهمات الأمور وأسند إليه السلطان وجهانكير أيضًا مناصب خطيرة ، وولاه على كجرات وتوفى عام ١٠٣٣ هـ (ملخص من ترجمته فى « نزهة الخواطر » ج ٥) .

الطريقة النقشبندية ، ولعل الإمام بعث بهذه الرسالة التـالية إليه بعد تولى السلطان جهانكير للدولة ـ يقول فيها :

« أيدكم الله ـ سبحـانه ـ ونصركم على أعداء الإسلام فى إعلان الاسـلام ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « بدأ الإسلام غريبًا وسيعـود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء » (١) . فقد بلغت غربة الإسلام فى هذه الديـار أن أطال الكفار ألسنتهم على الإسلام ، ويعـيبون المسلمين ، ولا يستحيـون من إظهـار أحكام الكفر ، ومـدحه والثناء عليـه فى المشاهـد والأسواق ، والمسلمون إزاءهم لا يقدرون على إظهار أحكام الإسلام ويُعابون اذا عملوا بها ويُذمون ».

وقد قال الشاعر ما معناه :

« ما بال الحور العين مصفرة الوجوه ، شاحبة الألوان ، والسعالى فى الجمال والدلال، يا للحيرة القاتلة ، ويا للعجب العجاب » .

ثم يقول :

« نرى وجودكم الكريم ـ اليوم ـ نعمة سابغـة ، ولا رى فارسًا غيركم فى الساحة لإدالة الإسلام من منافسيه ، وخصومه وإقالة عثاره ، أيدك الله ونصرك بحرمة النبى وآله الأمجاد عليه وعليهم الصلوات والتسليمات والبركات ، ورد فى الحديث الشريف ، ما معناه : «لن يؤمن أحدكم حتى يقال أنه مجنون» (٢) ، وإن الجنون الذى يكون دافعه الغيرة المفرطة على الإسلام ، لا نحس به الآن إلاَّ فى طبـيعتكم الفـياضة ، فالحـمد لله سبـحانه على ذلك ، اليوم يوم الجزاء الجـزيل الجليل على العمل الحقير القليل ، لم يظهـر من أصحاب الكهف من الأعمـال البارزة إلاَّ الهـجرة العمليـة ، فكانت لها هذه الأهمـية الكبـيرة ، وإذا أبدى الجندى عند غلب الأعداء وانتصارهم، شجاعتـه ونجدته ، يلقى من التبجيل والإكرام ما لا يلقاه فى حال الأمن والسلام ، إذ الأعداء فى بلادهم ، إن هذه الفرصة للجهادبكامة الحق التى أتاحهـا لكم اليوم هو الجـهاد الأكبر فـانتهـزوا هذه الفرصة وقـولوا : هل من مزيد واعتبروا هذا الجهاد باللسان ـ فى هذا الوقت بالذات ـ أفضل من الجهاد بالسيف والسنان ، ونحن الفقراء العجزة . حرمنا هذه النعمة العظيمة :

---

(١) رواه مسلم .

(٢) ولفظ الحديث كما أخرجه الحاكم المستدرك : « أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون » (ص ٤٩٩ . ج ١) . قال الذهبى فى التلخيص : صحيح ورواه الامام أحمد فى المسند وابن حبان فى الصحيح كما جاء فى الجامع الصغير للسيوطى .

هنيئًا لأربـاب النعيم نعيمهم وللعـاشق المسكين مـا يتجرَّع

هديناك إلى مكان الكنز الدفين ، فإن كنتُ لم أظفر به لعلك تظفر به ».

ثم يقول بعد بضعة سطور :

« إن ما كان يشـاهد من المعارضة العنيفة للدين الحنيف فى الدولة السـابقة لا نجدها فى هذه الدولة اللاحقة ، وإن كان هناك شىء من ذلك فسـببه الجهل ، ويخاف أن يصل الأمر - بتدريج - إلى نفس تلك المعارضة والمعاندة ، ويضيق الخناق على المسلمين » (١) .

ويكتب إلى شخص آخر من أصحاب المناصب العالية فى بلاط السلطان جهانكير ، وهو خان جهان (٢) ، فى نفس الموضوع :

« لو جمعتم بين ما تتبوأون من منصب كبـير وبين العمل على الشريعة الإسلامية لأديتم أمـانة الأنبـيـاء ـ عليـهم الصلوات والتـسليـمـات ـ وأوضـحـتم الدين المتين وأضـأتموه ، وعممتـموه، ولو جهدنا ـ نحن الفقـراء ـ أنفسنا أعوامًا طوالاً ، لما لحقنا بغبـار أمثالكم من صقور الإسلام .

ألا نفوس أبيّـات لهـا همم أمـا على الخير أنصـار وأعوان ؟

ويقول فى رسالة مسهبة :

« لا يعرف الناس قيمة تلك النعمة الجسيمة التى شرفكم الله ـ عز وجل بها وأخاف أنكم كذلك لا تعرفـونها حق معرفتهـا ، ذلك ، أن السلاطين فى هذه البلاد من سبعـة أجيال ، مسلمـون ، ومن أهل السنة والجماعـة ، متمسكون بالمـذهب الحنفى ، وإن كان فى الزمن الأخيـر منذ بضعة أعوام ـ إذ الزمـان زمان دنو الساعة وبـعد العهد بالنبـوة ـ تقرّب بعض الأذكياء بشؤم طمعهم وحرصـهم ـ الذى هو وليد فسار طبعهم ، وأضلّوا السذّج من الناس عن الصراط المستقـيم ، ولما كان السلطان العظيم جـهانكيـر يستـمع إلى حديثكم بإصـغاء واهتمام، ويقدره قـدره ، فما أجمل هذه الفرصة لتبلغـوا إلى السـلطان ـ بصريح العبارة أن الإشارة كلمة الحق التى يعتـقدها أهل السنة والجماعة ، شكر الله سعيهم ، وتـتقدموا إليه

---

(١) الرسالة رقم : ٦٥ ،المجموعة الأولى .

(٢) الأمير الكبير خان جهان بن دولت خان اللودهى ، كان جهانـكير يعتمد عليه ، ويحبه حبًا مفرطًا لا يتصور فوقـه ،وكان من خيار الأمراء ، يحب العلم والعلماء ، ويحسـن الى الناس كافة ، قام فى عهد السلطان شاهجهان بالثورة ضده ، وقتل ١٠٤٠ هـ (« نزهة الخواطر »،ج ٥ باختصار).

بكلام أهل الحق ما اتسع له المقام ، واقتضى الحال ، بل انظروا والتمسوا دائمًا مناسبة من المناسبات يتطرق فيها الكلام إلى الدين والشريعة الإسلامية ، حتى تنتهزوا الفرصة لإظهار أن الإسلام حق ، والكفر باطل شنيع » (١).

وقد كتب الإمام السرهندى ـ عدا هؤلاء الأمراء الكبار وأعيان الدولة ـ رسائل عديدة تثير نفس المواضيع إلى الإله بيك ، الذى كان يحتل منصب « بخشى» للسلطان مراد ، ابن السلطان أكبر ، وكان واليًا على بهار ، يقول:

« زادنا الله ـ سبحانه ـ وإياك حمية الإسلام ، لقد مضى على غربة الإسلام ومسكنته قرن كامل ، وبلغ الحال بهذه البلاد إلى أن أهل الكفر لا يرضون بالعمل على أحكام الكفر فحسب ، بل يريدون أن تزول الأحكام الإسلامية ـ بتاتًا ـ ولا يبقى أى فرق بين الكفر والإسلام ، لقد تجاوز الأمر إلى أن مسلمًا لو أراد إظهار شعيرة من شعائر دينه (كذبح البقرة) يعاقب بالقتل والإعدام » .

ويزيد قائلاً :

« فلو تمكن الإسلام فى بداية هذه الدولة ، وارتفعت رؤوس المسلمين ونالوا العزة والكرامة فبها ونعمت ، وإذا حال توقفٌ فى هذا الأمر دون ذلك ، والعياذ بالله ، فسوف يزداد حال المسلمين سوءًا وتعقدًا ورزيئة ، فالغياث الغياث ، ثم الغياث الغياث ، فلننظر من المقبل المنصور الذى يشرفه الله بهذه السعادة ، ومن هو الصقر الجسور الذى يظفر بهذه النعمة الجليلة «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم» (٢) .

يقول فى رسالة إلى « صدر جهان » (٣) أحد أمراء الدولة فى عهد جهانكير :

« أنا على يقين من أن قادة الإسلام الأشراف العظام ، العلماء الكرام منصرفون إلى تأييد الدين المتين وتقويته ونصره ، وبناء الصراط المستقيم وتكميله ـ سرًا وعلانية ـ فلا داعى لهذا الفقير العاجز إلى إطالة النفس ، والإفاضة فى الحديث » (٤) .

---

(١) الرسالة رقم : ٦٧ ،المجموعة الثانية .

(٢) الرسالة رقم : ٨١ ، المجموعة الأولى .

(٣) هو الشيخ العالم المفتى صدر جهان الحسينى البهانوى (مديرية هردوئى حاليًا) كان من العلماء المبرزين فى العلوم العربية ، ولى الافتاء فى المعسكر ثم ولى الصدارة ، وتتلمذ عليه جهانكير ، أخذ عنه أربعين حديثًا ، ولاه على منصب أربعة الاف ،وأقطعه أراضى واسعة عاش مئة وعشرين سنة ، مع صحة حواسه وسلامة أفعاله ، توفى سنة ١٠٢٧ هـ (نزهة الخواطر ، ج ٥ ملخص).

(٤) الرسالة رقم : ١٩٤ ، المجموعة الأولى .

ينبغي أن لا يعاد الخطأ مرة أخرى :

وحان - أخيرًا - ذلك العهد السعيد الذى شعر فيه السلطان جهانكير بخطئه ، وأراد - حسب القوانين العامة للحكومة والإدارة - أن يكون لجنة من العلماء للاستشارة فى الأمور الدينية ، وتجنيب الدولة من الأخطاء والمشاكل التى تقع فى هذا الصدد ، فطلب من أعيان الدولة المتدينين أن يبحثوا عن العلماء الصالحين ، ويدعوهم إلى البلاط ، ويحثوهم على أن يقيموا فى البلاط - بصفة دائمة - ليبينوا المسائل الشرعية ، ويستفتوا فى القضايا الدينية ،ويهتدى بهم .

ولما اطلع الإمام السرهندى - الذى آتاه الله الحكمة والفراسة الإيمانية ، والبصيرة فى الدين ، وكان يعرف خطَّ الانحراف فى الدولة السابقة وتاريخه ، وعوامله وخلفياته معرفة عميقة - ارتاع لذلك ، بدل أن يفرح بهذا النبأ السار - فى الظاهر - وكتب رسالة إلى الأمير السيد فريد وأخرى إلى الأمير صدر جهان ، وقال فيهما ما يلى :

« أناشدكم بالله - سبحانه - أن لا تقدموا على هذا الخطأ ، واختاروا عالمًا واحد ، بانيًا مخلصا ، بدل أن تختاروا عددًا من علماء الظاهر » .

ويقول فى الرسالة التى وجهها إلى السيد فريد :

« ثبتكم الله - سبحانه - على جادّة آبائكم الكرام ، سمعنا ، أن سلطان الإسلام - بما جُبل عليه من سلامة الفطرة ، وحبه للإسلام - أوصاكم بأن تختاروا أربعة من العلماء ، ليقيموا فى البلاط ، ويبينوا المسائل الشرعية ، حتى لا يقع عمل من السلطان ، أو لا يصدر حكمًا من الأحكام خلاف الشريعة الإسلامية ، الحمد لله - سبحانه - على ذلك ، فليست هناك بشرى للمسلمين أعظم من هذه البشرى ، ولا خبر يدخل السرور على المفجوعين والثكالى أعظم من هذا الخبر ،ولكن الفقير مضطر إلى أن يتحدث معكم قليلاً رجاء المعذرة ، فإن صاحب الغرض مجنون .

فالذى أريد أن أقوله ، هو أن مثل هؤلاء العلماء المتدينين الذى يتسامون بأنفسهم عن حب الجاه والسلطان ، ولا همّ لهم إلاّ تأييد الإسلام ونصر الدين ، ونشر الشريعة الحنيفية، أقل قليل ، فإن كان واحد من هؤلاء العلماء يميل إلى الجاه ، ويتظاهر بفضله وتفوقه وبراعته ، ويثير مسائل خلافية ، ويحاول عن طريق ذلك ، الزلفى لدى السلطان ، والحفاوة والإكرام ، فإن ذلك يسىء إلى الدين ويعرضه للخطر ، فقد كانت هذه الخلافيات الجزئية بين العلماء فى القرن الماضى ، هى التى سببت الكارثة ،وأصابت الدنيا

بداهية ، ويعـود نفس ذاك الخطر ، الذى يكون سببًـا لتلف الدين وضياعه فـضلاً عن تمكين الدين وتأييده ، العيـاذ بالله ـ سبحانه ـ من ذلك ، ومن فتنة العلماء السـوء ، فلو اختير ـ بدل الأربعـة ـ عالم واحـد ، لكان أصلح وأحسن ، لأنه إن كـان من علمـاء الآخرة فـما أحسن ذلك ، ومجالسـته كالكبريت الأحمر ، وإن لم يكن من علمـاء الاخرة ؛ فينبغى أن يختار من طبقـة العلماء من هو أحسنهم حالاً ، وأفضلهم شأنًـا « فما لا يدرك كله لا يترك كله » .

ثم يقول :

« لا أدرى ماذا أكـتب ، إن نجاة الخلق وخـلاصهم كـما هو مـرتبط بالعلمـاء ، كذلك خسرانهم وضيـاعهم مرتبط بالعلماء ، فأفضل الناس فى العلمـاء أفضلهم فى الدنيا ، وشر الناس من العلماء ، أسوأهم وأفسدهم فى الدنيا، فقد ارتبط بهم الهداية والإضلال ، رأى بعض الصالحين إبليس اللعين قاعدًا فى تعطل وبطالة ، فـسأله عن سبب ذلك ، فقال : إن علماء هذا الـعصر يكفـوننا همنا ، ويؤدون دورنا فى الإغواء والإضـلال ،ويقول الشـاعر مخاطبًا للعلماء :

يـا أيهـا القرّاء يا ملح البلد مـا بصلح الملح إذا الملـح فسد ؟

والغرض من كل ذلك ، أن لا تتخذوا أى إجراء فى هذا الصدد إلاَّ بعد تروٍّ كثير وتفكير عميق ، لأنه إذا انقضى الأمر فـلا تدارك ولا علاج ، وأنا خجل من مثل هذا الحديث مع أصحاب الفطنة والألمعية ، ـ مثل شخصكم الكريم ـ ولكن لاعتقادى أن هذا سبب سعادتى وجدت فى نفسى اندفاعًا إلى هذا الحديث »(١) .

المعجبون بالإمام السرهندى
من أعيان الدولة وأمرائها ، ومراسلته معهم :

عـدا هولاء الأمراء ـ الذيـن تقدَّم ذكـرهم ممن راسلهم الإمـام السـرهندى ، وبكى فى رسالته ، دموعًا غزيرة من الدم على غربة الإسلام ، ومهانته ، وقلة حيلته وانتهاك حرمات الشعائر الإسـلامية ،والأحكام الدينية ، وهوان المسلمين وإلجام ألسنتهم أن تنطق بالحق ، ووجههم ـ باستخدام مناصبهم الكبـيرة ، ومكانتهم الخطيرة ، وخدماتهم العظيمة للدولة ـ

---

(١) الرسـالة رقم : ٥٣ ، المجمـوعة الأولى وعـالج نفس هذا الموضـوع فى رسالة أخـرى ، رقم : ١٩٤، المجموعة الأولى ، التى بعث بها الى الأمير صدر جهان.

إلى أن يلفتوا نظر السلطان إلى الأوضاع المتردية ، وما يعانى الإسلام من غربة ، وأن يثيروا فيه عرقه الإسلامى الذى ورثه عن آبائه ، ويوقظوا الحمية الدينية من سباتها ، عدا ذلك هناك رسائل إصلاحية تربوية أخرى ـ فى عدد كبير ـ كتبها إلى عدد من كبار الأمراء وأركان الدولة ، وعالج فيها مواضيع التربية والسلوك ،وحل فيها مشكلات الطريق ، وغوامض الفن ، وأرشدهم فيها إلى الزهد فى الدنيا والرغبة عنها ، والشوق إلى نعيم الجنة ، والاهتمام بتنوير الباطن ، وتزكية النفس ، وهذه الرسائل موجهة إلى عبد الرحيم خان خانان (م ١٠٣٦ هـ) وقليج خان الأندجانى الأكبرى (م ١٠٢٣ هـ) وخواجه جهان (١٠٢٩ هـ) ومرزا داراب ابن خان خانان الجهانكيرى (م ١٠٣٤ هـ) وشرف الدين حسين البدخشى ، ويقدر من هذه الرسائل ، أن هؤلاء الأمراء الكبار كانوا يحبون الإمام ، ويجلونه إجلالاً كبيرًا وهى مثل ما يكتب الشيخ المرشد إلى مريديه ومسترشديه ينبههم على أخطائهم ، ويذكرهم وينصحهم ، ويبدى سروره وارتياحه على تقدمهم فى الدين ، ورقيهم فى الاستعداد الروحى ، وصفاء الباطن وقوة النسبة .

ويستطيع الإنسان أن يقدر من خلالها أيضًا أن هؤلاء الأمراء الكبار لم يكونوا قد قصروا فى النصيحة للإسلام والعطف عليه ، والجهر بكلمة الحق عند السلطان ـ حسب ما أراد الإمام السرهندى منهم لإصلاح الدولة والبلاد ـ وتحقيق آمال شيخهم ومرشدهم التى كان يعلقها بهم ، والتعاضد مع الأمراء الآخرين وتأييدهم فى انجاز ذلك الهدف العظيم الذى وجههم إليه الإمام السرهندى فى رسائله .

تأثير الإمام السرهندى الشخصى وأثره الباطنى فى إصلاح الأوضاع :

ما ذكرنا ـ فيما تقدم ـ يتصل بتلك المحاولات والجهود التى بذلها الإمام عن طريق الأمراء ، فإن هذه الرسائل التى كانت تترى على الأمراء وأعيان الدولة من قبل الإمام السرهندى ، والتى كان يحرضهم فيها على نصر الإسلام وحماية الدين ، وتوجيه السلطان إلى احترام شعائر الإسلام وتنفيذ الشريعة الإسلامية ، وإصلاح الأوضاع الفاسدة ، الرسائل التى تبرق وترعد حماسًا وحمية ، وتتدفق قوة غيرة ، وتكاد تسيل رقة وعذوبة ، لم تذهب هذه الجهود عن طريق الرسائل سدى فى تكميل خطته ، وأداء دوره ، وقد لعب من وجهت إليهم هذه الرسائل دورهم ، لا سيما الأمير السيد فريد الذى قام بمهمة موفقة أساسية فى تغيير تيار الدولة ، وتحويل اتجاهها إلى الإسلام من جديد .

ولكن لم يحدث ـ إلى ذلك الوقت ـ فى نفسية السلطان جهانكير ذلك التغيير الجذرى الذى كان يحتاج إليه هذا العمل العسير العظيم ، ومعلوم أن شخصية السلطان فى الحكومات الملوكية تحتل مكان النقطة المركزية والقطب الذى تدور حوله جميع أنظمة الدولة، فلو قصد أمرًا ، أو اعتنق فكرة ، أو أحب شخصًا ، أو اعتقد فى رجل ربانى مخلص وأكن له الإجلال والإكبار ، واعتمد على صلاحه ووثق بإخلاصه ، فإنه يقطع مسافة آلاف الأميال فى ساعات ودقائق ، وقد يجعل المستحيل ممكنًا بل أمرًا واقعًا .

وكان جهانكير ـ إلى تلك الساعة ـ يجهل مكانة الإمام السرهندى ومنزلته فى العلم والربانية ، لأنه لم يكن من العلماء والمشايخ الذين يترددون إلى البلاط ، ويختلفون إليه ، إذن فما هو الطريق للاتصال به مباشرة ، حتى يعرف علو مكانته ، وعظم منزلته ـ فى حدود استعداده وكفاءته ـ ؟ .

هنالك دبرت مقادير الله ـ تعالى ـ فى ذلك تدبيرًا وكان تفسيرًا عمليًا لقوله تعالى : **﴿عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم﴾** .

تأثر السلطان جهانكير :

قرأنا فى الباب الثالث قصة اعتقال الإمام فى قلعة كواليار ، والإقامة الجبرية فى المعسكر، وكان الإمام السرهندى مكث فى المعسكر ثلاث سنين وستة أشهر [1] صحب فيها السلطان وجالسه ، وذاكره فى المسائل الدينية وشهد السلطان شدة شكيمته وصلابته ، واستقامته فى الدين فى مظهر ربانه الصريح عن سجدة التحية ، والآداب الرسمية ، وإقامته فى قلعة كواليار سجينا فى عزة نفس واعتداد وكرامة ، وعدم خضوع لطلب العفو، كما شهد تأثير صحبته ومجالسته ، وتأثيراته الباطنية ، وقوته الروحية ، فى دخول المئات من الكفار فى حظيرة الإسلام ، واطلع ـ أثناء إقامته فى المعسكر ـ ومرافقته الطويلة ـ على زهده وتقشفه ، واستغنائه ، وانهماكه فى العبادات ، واهتمامه بالأوراد والأذكار ، ورأى تبحره ورسوخه فى العلم أثناء مجالسته ، وفى الحديث معه .

وكان جهانكير حاكم دولة عظيمة يمتاز بسلامة الفطرة ، والذكاء والنبوغ، وسنحت له فرصة الخبرة بكثيرة من الأمراء والعلماء ،والمشايخ ، وأبناء الدنيا وعبّاد المادة ، والصالحين

---

(١) أطلق سراحه من قلعة كواليار فى شهر جمادى الآخرة عام ١٠٢٩ هـ وودع المعسكر فى شهر ذى الحجة عام ١٠٣٢ هـ ، وهكذا تكون هذه المدة ثلاث سنين وستة أشهر .

المتدينين من عهد والده أكبر ، إلى عهد حكمه ، نشأت فيه ملكة التعرف على طبائع الناس وخصائصهم التى لا يتمتع بها من لم تحصل له هذه الفرصة الكثيرة ، للخبرة والنقد ، وتمييز الزيف من الصحيح ، فلا شك أنه أدرك أن الإمام السرهندى طراز آخر من الرجال، يختلف اختلافًا كبيرًا عَمَّنْ كانوا يحتلون المناصب فى الدولة ، ويتجمل بهم البلاط ويزدان بهم دست العلم والشياخة .

يتجلى هذا التأثير لصحبة الإمام وخواطره وعواطفه ، فى الحادثة التالية التى سجلها السلطان جهانكير نفسه فى شيء من الفخر والاعتزاز ، وتزداد أهمية هذه الخطوة التى اتخذها جهانكير ، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذه القلعة فتحت بأيدى الراجه بكر ما جيت الهندكى ، لا بأيدى قادة الجيش المسلمين المحنكين .

يقول جهانكير :

« خرجنا يوم ٢٤ من شهر « دى » [١] المذكور للتفرج والنزهة فى قلعة كانكره ، فأمرنا أن يرافقنا القاضى وميـر عدل وغيرهما من العلماء ، ليظهروا فى هذه القلعة شعائر الدين الإسلامى وأحكام الشريعة المحمدية ، على سبيل الإيجاز ، وصلنا بعد سير فرسخ واحد إلى ذروة القلعة ، فأمرت - بتوفيق الله تعالى - بالأذان ، فأذن ، ثم ألقيت خطبة ، وأمرت بذبح البقرة ـ ولم يتفق ذلك قط منذ بناء هذه القلعة ـ خررت لله ساجدًا على أن وفقنى إلى ما لم يوفق إليه أى سلطان قبل ، وأمرت ببناء مسجد واسع عال فى داخل القلعة » [٢] .

وهكذا تحول اتجاه الدولة ـ بالجهود المباشرة أو غير المباشرة ـ من إهمال الإسلام ، والغفلة عنه ، بل من معارضته ومشادّته ، إلى تعظيم الشعائر الإسلامية وإعلاء كلمة الله ،واحترام الدين ، وشغف السلطان المسلم بالإسلام بدأ هذا التحول الكبير من أواخر عهد السلطان جهانكير ،وامتدت ظلاله الوارفة إلى عهد السلطان شاهجهان .

عهد السلطان شاهجهان :

لقد كان عهد السلطان الغازى شاهجهان (١٠٠٠ ـ ١٠٧٥ هـ) الملقب « بصاحب القران الثانى » [٣] عهد الخير والإصلاح التدريجى ، وقد بدأ من عام ١٠٣٦ هـ

(١) الموافق غرة ربيع الأول ١٠٣١ هـ .

(٢) توزك جهانكيرى ، ص ٣٤٠ .

(٣) سمى بذلك لأن الألف الثانى يلتقى بالألف الأول فى عهده .

واستمـر بأبهته وعظمـته ٣١ سنة ، وكان قد تولى زمـام البلاد بعد وفاة الإمـام السرهندى بعامين ، وليست لدينا وثيـقة تاريخية موثوق بهـا ، تفيد اتصال السلطان شاهجـهان بالإمام السرهندى أو بابنه الجليل الشيخ محمد معصوم اتصال بيعة واسترشاد خاص ، ولكن الذى لا يشك فيه أنه كان دائم الإجلال والتعظيم للإمام السرهندى ، ولأجل ذلك لما قصد الإمام السرهندى زيارة السلطان على طلب منه ، وكان يعرف أن الإمام لا يباشر الاداب الرسمية و يرفض سجـدة التحية ، بعث بـالشيخ أفضل خان والمفـتى عبد الرحـمن ـ اللذين كانا من المصاحـبين لولى العهد والمقـربين لديه ـ ببعض الكتب الفقـهية وأمرهمـا أن يقولا له : أن سجـدة التحيـة تجوز للسلاطين ، وقـد أجازها بعض الفـقهاء فى ظروف خـاصة [١] «فلو باشـرت هذه الآداب الرسمـيـة عند مقـابلة السلطان ، فـأنا ضـامن لك بأنه لا يصلك أى ضرر»، فأبى الإمـام السرهندى ورفض هذا العرض ، وقال : إنها رخـصة، والعزيمة أن لا يسجد لغير الله مهما كانت الأوضاع والظروف » [٢] .

واتفق المؤرخـون على أن السلطان شـاهجـهان كـان طيب النفس ، مـعظمًـا للشريعـة الإسلاميـة ، شغوفًا ببناء المساجد ، ملتـزمًا ـ فى ذات نفسه ـ بالفرائض الشـرعية ، يدنى إليه العلماء والصالحـين ،ويقربهم ويعتمد عليهم، وكان وزيره المدبـر الحصيف جملة الملك سعد الله خـان العلامى (م ١٠٦٦ هـ) من نوابغ العلماء والمدرسين فـى عصره [٣] ، ورفع السلطان شاهجهان بعض التـقاليد والآداب الرسمية التى كانت اخترعـت فى العهود السابقة واستمـرت إلى عهده ، يقول الأسـتاذ المؤرخ ذكاء الله الدهلوى ، على أسـاس ما جاء فى الكتب التاريخية المعاصرة بالفارسية كـ « بادشاه نامه » وغيره .

« لما تربَّع السلطان على أريـكة الدولة ، كان له من الاهتـمـام والاحتـرام لشعـائر الملة الحنيفية ، والشريعة المحمدية ـ التى كـان تسرب إليها الإهمال والغفلة من قبل ـ أن أمر بأنه لا يستحق السـجود إلاّ المعبود بحق ، فلا يعـفرنّ أحد جبهتـه فى الأرض لأحد من بعد ، وأشار عليه مهابت خان بتحيـة « زمين بوس » ـ التى يلمس فيها الأرض باليد عند التحية ـ

---

(١) لم نطلع على هذه النصوص الفقـهية ، وفتاوى الفـقهاء التى تبيح السجدة لغـير الله ، والذينعرف أنها محرمة اطلاقـا ، الا أن يكون ذلك كأكل الميتة وتناول المحرمات ، وقاية للحـياة وعصمة من القتل ، مع فضل من عمل بالعزيمة، وتجنب الرخصة .

(٢) راجع للتفصيل الباب الثالث من هذا الكتاب .

(٣) راجع لترجمة الحافلة « نزهة الخواطر » ج ٥ .

فأمر بها ، ولكن رأى أن فيها كذلك شبهًا بالسجدة ، فنهى عنها ، وأمر بـ «التسليم الرابع»(١) .

ويقول سير ريجرد برن : (sir richard bum)

كان السلطان شاهجهان يريد إحياء العقائد الإسلامية وإعادتها بقوة وشدة ولكنه ـ فى الوقت نفسه ـ لم يكن يحب التعرض لأصحاب الديانات الأخرى ، ورفع بعد اعتلائه على سرير الملك بيسير ، سجدة التحية الرسمية،وانتهى استخدام التقويم الإلهى ، الذى بدأه أكبر ، وروجه فى الناس ، من الأوراق والوثائق الرسمية ، والعملات السائدة ، بعد ولاية شاهجهان ببضعة أعوام وأصدر أمرًا عام ١٦٣٤ م بمنع الزواج بين المسلمين والهندوكين ، الذى كان سائدًا منتشرًا فى بنجاب وكشمير » (٢) .

ويقول المؤرخ ذكاء الله :

« وظف القضاة والمعلمون من قبل السلطان ، ليعلمون الناس أحكام الشريعة ،وآداب العبادة ، وعين الشيخ محمود ليفك النساء المسلمات ـ بعد التحقيق والإثبات ـ من حبالة الرجال الهندوكيين ، ويميز عمارات المسلمين ومساجدهم عن أبنية الهنادك ومعابدهم ، فنفذ هذا الأمر ، واستعاد كثيرًا من المساجد التى كانت تحت تصرف الهنادك ، وفرض عليهم غرامات ، ثم بناها من جديد ، وعاقب من الهنادك من ثبت عليه إهانة القرآن الكريم عقابًا رادعًا ، ثم أمر السلطان ، أن يحقق جميع الموظفين للمهمات الشرعية فى مثل هذه الأمور ـ إن كانت وقعت ـ فى سائر ولاية بنجاب » (٣) .

ولكن ـ رغم كل هذه الحمية الدينية واحترام الشعائر الإسلامية ـ لانشك فى أن السلطان شاهجهان كان يفضل ابنه دارا شكوه على ابنه أورنك زيب العالم المتدين ، وصاحب الكفاءة والمقدرة ، ويجب أن يتولى دارًا شكوه أمر هذه الدولة ، ويخلفه فى الملك وهذه خصيصة الحكام والسلاطين المتمسكين بمبدأ الحكومات الشخصية الوراثية ، والفصل بين الدين والسياسة، حيث لا يكون لتدينهم الذاتى أى تأثير على شئون الدولة ، ولا يحول بينهم وبين أن يختاروا خليفة غير كفؤ ، يلحق الأضرار بما بنوه وأنشئوه ويخل بالنظام .

---

(١) تاريخ هندرستان ج ٧ ، ص ٥٥ ـ ٦٦ ملخصًا .

(٢) C ambridge History Of India Vol. IVP. 217 باختصار .

(٣) « تاريخ هندوستان » ج ٧ ، ص ٧٥ ـ ١٧٦ ، باختصار .

ولى العهد دارا شكوه :

تفيدنا تصريحات المؤرخين من غير المسلمين أن دارا شكوه ، كان أقرب إلى مذهب جده السلطان أكبر ومشربه ، وكان معجبًا بفلسفة وحدة الديانات ، ويحاول التوفيق والتطبيق بين الشريعة الإسلامية ، و« الويدانت » ـ شريعة الهنادكة ـ يقول الدكتور الفرنسى برنير :

« كان دارا شكوه يصغى إلى مواعظ البطريق فليمش الدينية ، ويستمع اليها بشوق ورغبة زائدة ، وكان يحاول الجمع بين الديانة الإسلامية ، والديانة الهندوكية » .

وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية :

« كان دارا شكوه ولوعًا بالتصوف ، معجبًا بالفلسفة الهندوكية ، أقام علاقات وطيدة مع الصوفية المسلمين ، والنساك الهندوكيين ، كان منهم (مع العلماء والصوفية المسلمين) «سرمد» المعروف بعقيدته فى وحدة الوجود وبابالال داس بيراكى ، تلميذ « كبير » «ومريده» .

« تنم بعض مؤلفات دار شكوه الأخيرة عن عقيدته وتمسكه بنظرية وحدة الوجود ، وكأنه كان متأثرًا بالفلسفة الهندوكية ، معجبًا بالوثنية ، ولأجل ذلك نزع إلى عدد من الآراء الملحدة التى توجد نظائرها الصريحة فى الفلسفة الهندوكية ، ولا مجال لها فى الإسلام ، وقد توصل دارا شكوه إلى أن التصوف ، والويدانت ـ اللذان يستعان بهما فى إدراك «الحق» ـ لا يتعارضان ، وأن الفارق بينهما لفظى ، وحاول دارا شكوه فى ترجمته لـ « أو بنيشد » . . . التى كان يعتبرها منبع « الوحدة » التوفيق والتطبيق بين نظريات وآراء أتباع الديانتين الكبيرتين ـ الإسلام ، والهندوكية ـ المشتركة ، وأراد أيضًا أن يعرف المسلمين عن طريق الترجمة بمعتقدات الهنادك »(١) .

وليس محل استغراب ـ بسبب هذه الآراء والنظريات ، والميول والنزعات التى كان يحملها دارا شكوه ، ولم تكن لتخفى على المجتمع المسلم ـ آنذاك ـ فى الهند والتى يمكن أن يكون ولى العهد أورنك زيب انتفع بها فى صالحه، أن تكون الأوساط الدينية من علماء الدين ، ومشايخ الطريقة المتمسكين بالشريعة ، وأتباعهم ـ الذين شهدوا بأم أعينهم غربة الإسلام ، وذلته فى عهد السلطان أكبر ، أو سمعوا قصصها وحكاياتها من آبائهم ـ فى

---

(١) راجع دائرة المعارف الإسلامية (أردو) المقال بعنوان « دارا شكوه » ج ٩ ، وكاتب المقال هو ستيش جندر الباحث الهندكى ، وراجع أيضًا (AURANGZEB) تاليف ظهير الدين الفاروقى ، ص ٣٨ ـ ٤٧ .

صف ولى العهد أورنك زيب ـ أعظم حماة الإسلام فى الهند المتمسك بالشريعة والدين ـ فى هذه الحرب الداخلية بين الأخوين ، وأن يساعدوه ويناصروه باستمالة الناس إليه ، وحثهم على تأييده ، والدعاء له » [1].

ويعرف جميع المطلعين نتيجة هذه الحرب ، فقد انتصر السلطان أورنك زيب على دارا شكوه ، وتربع على عرش المملكة عام ١٠٦٨ هـ ، وحكم نصف قرن من الزمان ، بالشوكة والقوة والسلطان .

السلطان محيي الدين أورنك زيب عالمكير وحميته الدينية ، وحمايته للإسلام :

اتصل السلطان أورنك زيب ـ الذى كان يجلّ أسرة الإمام السرهندى ورجالها ويعظمهم ، وينسجم مع دعوتهم ، ومذهبهم ، بالشيخ محمد معصوم بن الإمام السرهندى ، اتصال بيعة وسلوك [2] ، وتشهد قرائن كثيرة على صلة السلطان بالشيخ محمد معصوم لم تكن صلة إجلال واحترام عادية فحسب ، بل كانت صلة التربية والاسترشاد ، وتحصيل علم السلوك على يديه وقد كان الشيخ محمد معصوم من يوم أن كان السلطان ولى العهد ، يعتنى به اعتناءً خاصًا ويلقبه بولى العهد الحامى لذمار الإسلام ـ الذى كان إرهاصًا لمستقبله العظيم ، وتفاؤلاً نافعًا ـ يقول الشيخ سيف الدين فى رسالة بعث بها إلى والده الشيخ محمد معصوم :

« إن إخلاص السلطان الحامى لذمار الإسلام لسيدى الشيخ من طراز آخر ، وقد مر بمقام اللطائف الستة ، وسلطان الأذكار ، إلى مقام ذكر النفى والإثبات وهو يقول : إنه لا تدغدغه الوساوس ـ بإطلاق ـ وإذا طرأت وسوسة من الوساوس ، لا يكون لها قرار ، فهو فى مأمن من خطرها، ويقول : إنه كان ـ قبل ذلك ـ يقلق ويضطرب لزحمة الوساوس والخطرات، ويشكر هذه النعمة » .

واثنى الشيخ محمد معصوم على الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحمده كثيرًا فى تلك الرسالة التى بعث بها ردًا على رسالة الشيخ سيف الدين ، وشكره الله ـ عز وجل ـ أن وهب السلطان هذه المقامات الروحية العالية ، ويستفاد من هذه الرسالة أيضًا ، أن السلطان بلغ

---

(١) راجع للتفصيل مقال البروفيسور محمد اسلم بعنوان « دور العلماء والمشايخ فى تولية السلطان «اورنك زيب» فى كتابه « المحاضرات التاريخية » ص ٢٢٦ ـ ٢٤٣ .

مرتبة « الفناء القلبى » الذى هو من أعلى « المقامات وأرفعها فى السلوك » [١].

يقول أبو الفتح فى « آداب عالمكيرى » :

جاء الشيخ محمد معصوم وأخوه الأكبر الشيخ محمد سعيد فور جلوس السلطان أورنك زيب على عرش الدولة إلى البلاط ، وأهدى إليهما اورنك زيب ـ بهذه المناسبة ـ ثلاث مئة خاتم ذهبى » [٢].

ونقل البروفيسور محمد أسلم فى مقالة بعنوان « دور العلماء والمشايخ فى تولية السلطان أورنك زيب » حوادث من « مرآة العالم » و « فتوحات عالمكيرى » [٣] ، تدل على الصلات العميقة بين السلطان وبين أسرة الإمام السرهندى ، وأبنائه الكرام ، فكانوا يقابلون السلطان ، ويقدم السلطان إليهم هدايا فاخرة ثمينة وقابل الشيخ محمد معصوم وغيره من أفراد الأسرة المجددية عدة مرات فى سرهند ، ذاهبًا من دهلى إلى لاهور ، أو آيبًا فى طريقه إلى دهلى .

تفيد دراسة رسائل الشيخ سيف الدين ـ التى بعث بها إلى السلطان أورنك زيب وطبعت باسم « المكتوبات السيفية » دراسة عميقة أن صلة السلطان أورنك زيب بالشيخ سيف الدين - بصفة خاصة - وبأسرة الإمام السرهندى ـ بصفة عامة ـ لم تكن صلة حب وإجلال فحسب ، كما توجد لدى السلاطين المتدينين مع علماء ومشايخ بلادهم وعهودهم ، بل كانت هذه الصلة عملية عاطفية وتربوية إصلاحية أكثر منها حبًا وإجلالاً محضًا ، يقول الشيخ سيف الدين فى رسالة كتبها إلى والده ، وهى الرسالة الثالثة فى الترتيب :

« سيدى الوالد نعيش هذه الأيام مجالسات ومذاكرت طويلة ، ونذاكر فى بعض الرسائل الدقيقة ، ويستمع السلطان بغاية الإخلاص والإصغاء » .

ويقول فى رسالة رقم : ١٤٢ ، بعثها إلى الشيخ محمد باقر اللاهورى:

« شرفنا السلطان فى البيت ليلة السبت التى كانت الليلة الثالثة من هذا الشهر ، وتناول

---

(١) رسائل الشيخ محمد معصوم ، الرسالة رقم : ٢٢٠ .

(٢) اداب عالمكيرى « لابى الفتح ، النسخة الخطية فى India office Library London ، ٣١٧ ق ب ٤٣١ ، محمد كاظم « عالمكير نامه » طبعة كلكته ١٨٦٨ م ، ص / ٢٩٣ ، مقتبس من «المحاضرات التاريخية» للبروفيسور محمد أسلم .

(٣) يوجد الكتابان فى مكتبة المكتب الهندى India office Library ومكتبة المتحف البريطانى British Museum.

ما حضر من الطعام من غير كلفة ، وطالت الصحبة ،ووقع فى أثنائها السكوت والصمت ، وبالجملة فإنى آمل ظهور الطريقة العالية أيضًا كما يجب ويتمناه المخلصلون » . (ص ١٦٨- ١٦٩) .

واستمرت هذه الصلات والعلاقات وذلك التأثير إلى وفاة السلطان اورنك زيب ، وقد وردت إشارات وتنبيهات فى الرسائل التى كتبها شيخ الطريقة الجشتية النظامية الشهيرة الشيخ كليم الله الجهان آبادى (م ١١٤٣ هـ) إلى خليفته الخاص الشيخ نظام الدين الاورنك آبادى أنه يرافق السطان - فى هذه الأيام - أبناء الإمام السرهندى ، فينبغى أن تأخذوا بالحيطة والحذر فى عقد حفلات الغناء والأناشيد لئلا يتكدر صفو خاطرهم ، ويسيء إليهم ، تدل هذه الشواهد دلالة واضحة على أن أفراد هذه الأسرة ذوى المكانة العالية كانوا يرافقون السلطان - من حين لآخر - فى غزواته ورحلاته إلى الدكن ، وإقامته الطويلة فيها ، ويساهمون معه بتفكيرهم ودعائهم كذلك.

وقد طلب السلطان - مرارًا - كما يحكى المفتى غلام سرور مؤلف « خزينة الأصفياء » - من الشيخ محمد معصوم أن يرافقه فى سفره وإقامته ، ولكنه ما اختار مرافقة السلطان - حسب وصية والده - وبعث مكانه ابنه الشيخ سيف الدين الى دهلى ، وتفيد رسالتان رقم: ٢٢١ ، و٢٣٧ من «المكتوبات المعصومية » وجهتا إلى السلطان أن علاقة السلطان بالشيخ علاقة مريد مسترشد مع شيخه ، وسوف يأتى ذكر صلاته بالسلطان ، وتأثر السلطان به ، والعمل وفق إشارته وإرشاداته فى الباب الثامن ، فى ترجمة الشيخ سيف الدين ، وقد واصل الشيخ سيف الدين جهوده مع السلطان فى إحياء السنة ، وتنفيذ الشريعة الإسلامية، ولم يدخر فى ذلك وسعًا ، وتوجد فى مجموعة رسائله « المكتوبات السيفية » ثمانى عشرة رسالة [1] كتبها إلى السلطان لفت فيها انتباهه إلى إزالة البدع والمنكرات ، وإحياء السنة ، وإعلاء كلمة الله ، وتمكين الدين الإسلامى فى هذه البلاد .

ويصعب الحكم على جميع أعمال أى حاكم أو سلطان لدولة ما من الدول ، وجميع عاداته وأخلاقه ، وأحكامه وأقضيته ، وإجراءاته ، بأنها موافقة - مئة فى المئة - للتعاليم الإسلامية ، والأحكام الشرعية ، ولا يمكن أن يقال ذلك إلاَّ فى الخلفاء الراشدين المهديين، وبعض الولاة الذين كانوا على سيرة سيدنا عمر بن عبد العزيز فى إقامة الخلافة

---

(١) وأرقام هذه الرسائل كما يلى : ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٢٩ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ٧٢، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، انظر المكتوبات السيفية » .

على منهاج النبوة كما تعذر الإدراك الدقيق للمصالح والضرورات التى اتخذت فى ضوئها هذه الإجراءات السياسية والإدارية ، التى تختلف فيها الآراء ،وأنه ما مدى واقعية تلك الصورة التى تتجلى لهذه الأعمال والإجراءات فى ضوء بيانات المؤرخين وتصريحاتهم ، وإلى أى حد تقوم على الصدق والواقع فمن الصعب جدًا ـ بعد مضى مدة طويلة ، وعدم توفر الشواهد والوثائق التاريخية المعتبرة ـ أن نحكم عليها حكمًا قطعيًا حاسمًا .

ورغم كل ذلك ما يوجد لدينا من الوثائق التاريخية الثابتة عن السلطان اورنك زيب ، يدلنا بكل وضوح ، ويورث فينا الاعتماد على أن السلطان كان متأثرًا بالغ التأثر بحركة الإمام السرهندى الإصلاحية التجديدية ، ومحاولاته المتواصلة الصامتة لإحداث تغيير أساسى فى الدولة وتحويل اتجاهها من هدم وتخريب للإسلام ، إلى بناء وتعمير وتمكين له ، كما كان متأثرًا معجبًا غاية الإعجاب بربّانية أبنائه الكرام وأفراد أسرته الأخرين ، وإخلاصهم ، وصفاء نفوسهم وشخصياتهم المؤثرة الأخذة بمجامع القلوب ، وقد كان انسجم مع دعوة الإمام وحركته ، وأهدافه كل الانسجام ،وكان يريد أن يخطو خطوات جريئة ، ويحدث تغييرات عميقة بعيدة المدى فى نظام الدولة ، وفى المجتمع المسلم الخاضع لهذا النظام ونفذ ـ لأول مرة ـ الإصلاحات التى كانت تؤثر على اقتصاد الدولة ، تطبيقًا لبعض الأحكام الصريحة فى الشريعة الإسلامية .

وبغضّ النظر عن حياته الشخصية التى اتفق المؤرخون على أنه كان فيها متدينًا متورعًا ، يتمسك بالشريعة ، ويعمل بها ، والتى نكتفى فى الإشارة إليها ببعض الأمثلة التى تلقى الضوء على نبذة من حياته الدينية :

يقول مؤرخ الهند الأستاذ ذكاء الله الدهلوى :

« كان شهر رمضان وكانت تهب السموم اللافحة ، وكان النهار طويلاً ، ولكن السلطان يصوم النهار ، ويقرأ الأوراد ، ويتلو القرآن ، ويحفظه غيبًا ، ويكتب ويؤلف ، ويدير دفة شؤون الدولة ، ويقوم بأعمال المحكمة والقضاء والسلطة وبعد أن يدخل « مسجد غسل خانه » (« مسجد الدرّة » المعروف فى داخل القلعة الحمراء) فيصلى المكتوبات ، والتراويح، والنوافل حتى ينتصف الليل ، فيتناول قليلاً من الطعام ، وقليلاً ما يهجع وينام، ويحيى بقية الليل بالقيام ويحيى بعض الليالى ذات الخيرات والبركات كلها، وهكذا شهر رمضان » (١).

---

(١) « تاريخ هندوستان » ج ٨ ، ص ٢١٤ ، تاليف الاستاذ ذكاء الله الدهلوى : (نقلاً عن « مآثر عالمكيرى » وغيره) .

ويقول المؤرخ وهو يصف حاله عند احتضاره :

« غلبته الحمى العام الواحد والخمسين من جلوسه ، الموافق ١١١٨ هـ، والتزم الصلاة بالجماعة ـ رغم شدة المرض ـ أربعة أيام ، لكمال تورعه وتقواه وكان قد كتب وصية من قبل ، أوصى فيها بأن ينفق أربع روبيات ونصف روبية ـ وهى ما بقى مما اكتسبه بيده بخياطة القلانس ـ فيشترى بها ما يحتاج إليه فى التكفين والتدفين ، وتوزع ثمانية وخمس روبيات ، وهى ما حصلت لى من أجرة كتابه المصاحف ، على الفقراء والمساكين ،ولما كان يوم الجمعة ٢٨ ذى القعدة عام ٥١ للجلوس ، والموافق ١١١٨ هـ ، صلى السلطان صلاة الفجر ، ثم اشتغل بالتهليل ، حتى فارق هذه الدنيا الفانية بعد أن تعالى النهار ، ورحل للأبد إلى دار القرار » (١) .

ونقتصر ـ فيما يلى ـ على تلك الأحكام والفرامين السلطانية التى تتعلق بتعظيم الشعائر الإسلامية ، وتنفيذ الأحكام الشرعية :

يقول المؤرخ فى حوادث العام الثانى من ولاية السلطان الموافق عام ١٠٦٩ هـ :

« أسس التقويم المتبع فى الإدارة والولاية منذ عهد السلطان جلال الدين أكبر على غرة «فروردى» التى فيها الشمس برج الحمل ، ويزدهر الربيع وكان تاريخ جلوس السلطان قريبًا من هذا التاريخ ، فوضع التقويم بدءًا من شهر « فروردى » إلى شهر « اسفندريار » (٢) وسمى الشهور « شهورًا إلهية» ، ولما كان هذا الأمر يشبه طريقة السلاطين المجوس عباد النار ، بدأ السلطان ـ مراعاة للشريعة الرسلامية ـ التقويم الهلالى للشهور والسنين لجلوسه وإدارته ومهرجاناته ، وأمر بتقديم التقويم العربى الهلالى على التقويم الشمسى ، وأمر برلغاء الاحتفال بمهرجان نوروز .

ويعلم جميع الناس أن الشهور الهلالية تتغير دائمًا ، وتحدث مشاكل وتعقيدات فى استخدام التقويم الهلالى ، ولكن هذا السلطان المتدين لم يبال بمشاكل هذا التقويم ، ونهى الاحتفال بمهرجان « نوروز » لتشبهها بطريقة عباد النار المجوس ـ أصلاً ـ وقرر بداية تاريخ الجلوس الثانى بغرة شهر رمضان وهكذا بدأ تقويمًا جديدًا للجلوس ، أبدأ مهرجان نوروز ، بمهرجان عيد الفطر (٣) .

---

(١) أيضًا ، ص ٤٦٥ .

(٢) وهما شهران فى التقويم الايرانى القديم .

(٣) أيضاً ، ص ٨٣ - ٨٤ .

ويذكر المؤرخ وقف السلطان لـلدخل الكبيـر الذى كـان يأتى الدولة من طريق غـري شرعى، فيقول :

« أمر السلطان بإلغاء « راهدارى » - ضريبة الطريق - الذى كان يؤخذ على جميع الحدود والثغور ، وتوضع جميع وارداته فى خزانة الدولة ،فكان دخلها ودخل خراج « باندارى » الذى يسمى « ته بازارى » . . . . يزيد على مئات الآلاف ويدخل الخـزانة السلطانية ، كما ألغى السلطان جمـيع الواردات التى كان دخلها من الحـانات والخمارات ، والغرامـات وما يقدم إلى الموظفين والحكام إظهاراً للشكر وغير ذلك ، مما يبلغ الملايين من الروبيات ، وكان دخلاً كبيراً للدولة » (١).

كانت الحسبة منصـبًا خطيراً فى الحكومات الشرعية ، وشعـاراً ظاهراً من شعائر الخلافة الإسلامية ، وألف كثير من العلماء لبيان مسئوليات هذه الوظيفة المهمة ونوعية العمل فيها ، كتبا بعنوان « الحسبـة فى الإسلام » وكـانت هذه المهمـة ، الخطيرة مـهجورة مـعطلة فى الحكومات المسلمة فى الهند، وأحيا السلطان هذه السنة أيضًا .

يقول المؤرخ :

« عين السلطان الشيخ وجـيه محـتسبًا ، وأمـره بأن ينهى الناس عن جميع المحـرمات ، خاصـة عن شرب الخـمور ، وتناول الحشـيش وجمـيع المسكرات ، وجمـيع الفواحش ، ويمنعهم - قدر المستطاع - من جميع المسيئات والمنكرات» (٢) .

ويقول المؤرخ فى حـوادث ووقائع السنوات من عـام ١١ للجلوس الى ٢١ للجلوس ، الموافق عام ١٠٧٨ هـ .

« كان السلطان يزداد - كل يوم - اهتمـامًا بإجراء الأحكام الشرعية وتنفـيذها ، ومراعاة الأوامـر والنواهى الإلهـيـة ، فكان يصـدر فرامين مـفـصلة لإلغـاء دخل « راهدارى » و «باندارى» الذى كـان يبلغ مئـات الآلاف من الروبيات كل عـام ، وكان يدخل فى الخـزانة السلطانية ، وكان يأمر بإغلاق الحانات والخمارات ، ومكامن الريبة والفساد » (٣) .

---

(١) أيضًا ، ص ٩٠ .

(٢) أيضًا ٩٢ ، ذكر مؤلف « نزهة الخـواطر » اعتمادًا على كتب التاريخ بالفارسـية ، أن عالمكير نسخ عام ١٠٦٩ هـ ثمـانين نوعًا من الخراج والضرائـب ، التى كان دخلها السنوى للخـزانة السلطانية ثلاث ملايين روبية .

(٣) أيضًا ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ باختصار .

ويزيد قائلاً :

« أمر السلطان بإلغاء الرقص والغناء ، ونهى عن اجتماع الناس تحت قصر السلطان لزيارته ، ورؤية طلعته من نافذة فى أعلى القصر - وكان هذا تقليداً من التقاليد السلطانية المخترعة ، ويسمى « جهروكه درشن » ، وترك الجلوس عى النافذة ، استنكاراً لهذه التقاليد غير الشرعية » .

كان السلاطين المسلمون فى الهند - حسب معتقدات الهنادك وعاداتهم القديمة - يثقون كثيراً بالتنجيم والمنجمين ، ويعينون الأيام والشهور لأعمالهم الخاصة حسب ما يقرر المنجمون فى ضوء علم التنجيم ، فقضى السلطان عالمكير على هذه العقيدة والعادة المتبعة ، وأهم من ذلك أن الأحكام القضائية كانت تقتصر على محاكم الحكام والأمراء وأحكامها ، فعين السلطان عالمكير قضاة شرعيين وأعطاهم السلطة المطلقة فيما يتعلق بالقوانين الشرعية .

« الشعراء والمنجمون الذين كان لهم مكانة واعتبار فى الدولة ، منعوا من ممارسة أعمالهم خاصة ، فى عهد السلطان شاهجهان ، وعين القضاء للشؤون الداخلية والمرافعات الجزئية والكلية ، وحصل لهم من التمكن والاستقلال فى شؤونهم ما بعث الأمراء وأعيان الدولة ، على الغبطة والحسد » (١) .

وتكلف السلطان - لتنفيذ القوانين الشرعية فى سائر البلاد ، وتوفير التسهيلات للقضاة - بترتيب المسائل الفقهية ، وتدوينها من جديد ، وكوّن لأجل ذلك لجنة من العلماء البارعين ليرتبوا المسائل فى عبارة سهلة واضحة ترتيباً جيداً ، ويقتصروا فى المسائل على ظاهر الرواية، ولا يلتفتوا إلى «النوادر » إلا عند الضرورة ، ويحيلوا على المراجع التى يقتبسون منها ، وعين ذلك - فى أوائل حكمه - الشيخ نظام الدين البرهانبورى رئيس هذه اللجنة ، الذى استعان بكبار العلماء البارعين فى الفقه الحنفى (٢) ، وتم هذا العمل الضخم فى ستة مجلدات وأنفق عليه من الخزانة السلطانية مئتا ألف روبية - وهى تساوى الآن ملايين الروبيات - ويعرف هذا العمل الفقهى العظيم فى الهند بـ « الفتاوى العالمكيرية » وفى بلاد

---

(١) أيضًا ، ص ٢٧٧ ، وراجع كذلك كتاب (Aurangzeb And His Age) لمؤلفه الفاضل ظهير الدين الفاروقى « أورنك زيب وعصره » الباب بعنوان A Reormer .

(٢) راجع ترجمة « أورنك زيب عالمكير » فى « نزهة الخواطر » ج ٦ ، و «الثقافة الاسلامية فى الهند» للعلامة عبد الحى الحسنى طبع المجمع العلمى بدمشق، وقد سرد فيه أسماء أعضاء هذا المجمع الفقهى ، وهم من كبار علماء الهند ، فبلغ عددهم الى عشرين عالمًا .

مصر والشام ، وتركيا بـ « الفتاوى الهندية » ويحتل لبعض خصائصه وميزاته أهمية كبيرة فى كتب الفقه والفتاوى ، وكانت الخطوة الأخرى أكثر جراءة وشجاعة ، فقد أذن السلطان لرعاياه أن يرافعوا إلى المحكمة ضد السلطان ، ويطالبوا بالحكم طبق الشريعة الإسلامية ، وعين لذلك محامين شرعيين ، يقول مؤرخ الهند:

« أمر السلطان عام ١٠٨٢ هـ) ، بأن ينادى فى البلاد والمدن والقرى :

من كانت له دعوى شرعية على السلطان ، فليحضر وليراجع وكيل السلطان، وليأخذ حقه إذا ثبتت دعواه ، وأمر بتعيين المحامين والوكلاء فى البلاط ، وفى المدن القريبة والبعيدة حتى يرفع من لا يستطيع الوصول إلى البلاط إليهم ، ويثبتوا عن طريقهم دعواهم، ويطلبوا حقهم » (١) .

كانت الآداب والتقاليد الجاهلية للتحية - التى كانت فيها مناقضة صريحة للشريعة الإسلامية ، والتعظيم المتطرف المفرط الذى لا يصح لغير الله - سائدًا فى البلاط المغولى للسلاطين المغولية ، أما التسليم فلم يكن سائدًا فى أوساط كثير من المشايخ والعلماء فضلاً عن الأعيان والأمراء ، وفى محيط البلاط الملكى ، فتناول السلطان هذه العادة بالإصلاح ، وأمر بالاقتصار على التسليم .

يقول المؤرخ نفسه :

« وصدر الأمر - فى تلك الأيام - بأن المسلمين عند مقابلة السلطان ، ينبغى أن يقتصروا على أن يقولوا السلام عليك ، ولا يضعوا أيديهم على رؤوسهم مثل الكفار ، ويجب على الحكام والأمراء أن يتبعوا ذلك مع الخاصة والعامة .

ولقبت الأوساط الدينية السلطان أورنك زيب - بناءًا على هذه الإجراءات والعواطف الإسلامية - « بمحيي الدين » وكان الدكتور إقبال - كذلك - الذى يعرف فلسفات الهند ونزعاتها ،والحرب القائمة فيها بين الشريعة و « الويدانت » والصراع الشديد بينهما فى صيانة المستقبل للهند ، معرفة عميقة دقيقة - يعدّ السلطان أورنك زيب من تلك الشخصيات العديدة التى يرجع إليها الفضل فى صيانة الدين وحماية المسلمين عن الذوبان فى الحضارة

---

(١) « تاريخ هندوستان » لذكاء الله ، وللاطلاع على تفاصيل أخرى تلقى الضوء على اتجاه عالمكير الدينى يحسن مطالعة كتاب (History Of Aurangzeb) للمؤرخ الهندكى الفاضل جادو ناتهركار ، وكتاب Aurangzeb للمؤرخ الانجليزى المشهور استينلى لين بول .

الهندية ، وقد كان كاتب هذه السطور ذكر فى مقالة بعنوان « ساعات مع العارف الهندى » الذى كتبه كمذكرة لمقابلته مع الدكتور محمد إقبال يوم ٢٢ نوفمير بلاهور ، والاجتماع به لمدة ساعات ، ما يلى :

« وتطرّق الحديث إلى حركة الإصلاح والتجديد فى الهند ، فأثنى الدكتور على مجدد الألف الثانى الإمام السرهندى ، والإمام ولى الله الدهلوى ، والسلطان محيى الدين عالمكير ـ رحمهم الله ـ ثناء كثيراً ، وقال أننى أقول دائمًا إنه لولا وجود هؤلاء ، وجهودهم الموفقة لذاب الإسلام فى الديانة الهندكية وحضارتها » .

وقال فيه ـ لأجل هذا اليقين والإيمان بعظمة شخصيته ودوره فى تاريخ الهند الإسلامى ـ هذه القصيدة المثيرة المؤثرة الرائعة ، التى أحاول ترجمتها فيما يلى :

« ذاك السلطان أورنك زيب ذو المجد السامق الذرى الذى تتباهى به الأسرة الكوركاتية ، وتعتز به ، علا به نجم المسلمين ، وارتفعت مكانتهم ، ونالت به الشريعة الإسلامية عزها وكرامتها ، كان السهم الأخير فى كنانة الإسلام، للحرب الحامية بين الكفر والإيمان ! . تعرضت الأمة الإسلامية لمحنة عظيمة، بسبب بذرة الإلحاد والزندقة ، التى بذرها أكبر ، وسقاها ونماها ، والتى نشأت ـ مرة ثانية ـ فى فطرة دارا شكوه ، وكانت شموع القلوب فى الصدور خامدة مظلمة بسبب الفساد الشامل والظلام الحالك .

هنالك قيض الله ـ سبحانه وتعالى ـ السلطان عالمكير ، ذلك الزاهد الغيور والفراس الجسور ، الذى اجتنباه الله ـ عز وجل ـ لإحياء الدين وتجديد الإيمان واليقين ، فحرقت صواعق سيوفه المهندة بيادر الكفر والزندقة، وأضاءت شموع الدين فى محافل المسلمين ، وتخرص المتخرصون من قصار النظر ، وضعاف النفوس ، فحكموا عليه بأحكام قاسية ، وقاسوه بمقاييسهم الزائفة (١) ، ولم يعرفوا عمق مداركه وأبعاد تفكيره ، لقد كان فراشة متهافتة على شعلة التوحيد ، وكان فى بلاد الشرك والوثنية كإبراهيم فى نار نمرود ، نسيج وحده فى صف الملوك والسلاطين ، ومثالاً فريدًا فى زمرة الزهاد والناسكين » (٢) .

وأخيراً أثمرت جهود خليفتى الإمام السرهندى الكبيرين ـ الشيخ محمد معصوم والشيخ السيد آدم البنورى ، وخلفائهما الربانيين المخلصين العظام ، وأصبح هذه البلاد - تدريجيا-

---

(١) اشارة الى كتاب المؤرخين المغرضين من غير المسلمين ـ والشائعات التى شاعت عنه فى أوساط غير المحققين من المسلمين .

(٢) « رموز بخودى » الديوان الفارسى ، ص ٩٨ .

مركزًا روحيًـا وعلميًا للعالم الإسلامى الذى الذى كانت تغـشاه سحب الضعف والانحطاط الفكرى والعلمى فى القرنين الحادى عشر والثـانى عشر ، وبدأت الوفود من أقاصى العالم الإسلامى ، تتوجه إلى الهند لينهلوا من معينهـا العلمى والروحى ،ويتلقوا التربية الدينية، ويقطعوا مفاوز السلوك على مـشايخها الربانيين ، ويأخذوا الحديث الشريف على مـحدثيها البارعـين ، وقامت فى كل بقـعة من بقاع هـذه البلاد، زوايا روحيـة للطريقـة المجددية ، ومراكز علمية لتعليم الكتاب والسنة ، واستفاد بها القاصى والدانى .

الباب الثامن

قيام خليفتى الإمام السرهندى وأصحابهما بتوسيع نطاق عمله التجديدى وتكميله

مشاهير خلفائه :

إن استيعاب أسماء خلفاء الإمام السرهندى العظام ، وإحصاء مآثرهم الجليلة ، ليس أمرًا ميسورًا ، فقد بلغ عددهم الآلاف ، وتفرقوا فى أقطار العالم يحملون هذه الدعوة ، وينشرون هذه الحركة ، وقد مرَّت بنا ـ فى الصفحات المتقدمة ـ أسماء عدد من كبار خلفائه الذين بعثهم الإمام إلى بعض البلدان الخارجية ، للتربية والدعوة والإرشاد ، وعين بعضهم فى المناطق الرئيسية الحساسة فى الهند ، للقيام بهذه الخدمة العظيمة ، ونذكر هنا ثبت المشاهير من خلفائه مرتبًا على الحروف الهجائية ، ثم نذكر خليفتيه الجليلين ـ الشيخ محمد معصوم والشيخ السيد آدم البنورى ـ شىء من التفصيل ، ونقدم ـ بصورة إجمالية ـ نبذة من أخبار خلفائهما الكبار ، وانتشار سلاسلهم ، وما قاموا به فى مجال التربية والإصلاح ، وأسسوا من المراكز الروحية التربوية ، وما استفاده العامة والعلماء منهم من فوائد العلم والتزكية والتربية ، نستطيع أن نقدر به ذلك القبول العظيم والانتشار الواسع الذى أحرزته طريقة الإمام السرهندى ، وكيف أثمرت جهوده الإصلاحية والتجديدية ، وآتت والقبول عند الله ـ سبحانه ـ وغاية الإخلاص والصفاء واتباع السنة النبوية والشريعة الغراء

وفيما يلى ثبت الخلفاء المشاهير ، ويعرف منه تنوع أوطانهم وأصولهم ويفهم منه انتشار سلسلة الإمام فى بلاد الإسلام

١ ـ الشيخ السيد آدم البنورى ، ٢ ـ الشيخ أحمد البركى ، ٣ ـ الشيخ أحمد الدبينى ، ٤ ـ الشيخ أمان الله اللاهورى ، ٥ ـ الشيخ بدر الدين السرهندى ، ٦ ـ الشيخ بديع الدين السهارنبورى ، ٧ ـ الشيخ حسن البركى ، ٨ ـ الشيخ حميد البنغالى ، ٩ ـ الحاج خضر خان الأفغانى ، ١ ـ الشيخ مير صغير أحمد الرومى ، ١١ ـ الشيخ طاهر البدخشى ، ١٢ ـ الشيخ طاهر اللاهورى ، ١٣ ـ الشيخ خواجه عبيد الله المعروف بخواجه كلان ، ١٤ ـ الشيخ خواجه عبد الله المعروف بخواجه خورد ، ١٥ ـ الشيخ الحى الحصارى ، ١٦ ـ الشيخ عبد الواحد اللاهورى ، ١٧ ـ الشيخ عبد الهادى الفار

وقى البدايونى ، ١٨ ـ الشيخ فرّخ حسين الهروى ، ١٩ ـ الشيخ قاسم على ، ٢٠ ـ الشيخ كريم الدين بابا حسن الابدالى ، ٢١ ـ الشيخ السيد محب الله المانكبورى ، ٢٢ ـ الشيخ محمد صادق الكابلى ، ٢٣ ـ الشيخ محمد صالح الكولابى ، ٢٤ ـ الشيخ محمد صديق الكشمى ، ٢٥ ـ الشيخ مزمل ، ٢٦ ـ الشيخ الحافظ محمود اللاهورى ، ٢٧ ـ الشيخ نور محمد الفتنى ، ٢٨ ـ الشيخ يار محمد الجديد البدخشى الطالقانى ، ٢٩ ـ الشيخ يارمحمد القديم ، ٣٠ ـ الشيخ يوسف البركى ، ٣١ ـ الشيخ يوسف السمرقندى .

الشيخ محمد معصوم السرهندى (١) :

لشيخ الإمام العالم الكبير معصوم بن أحمد بن عبد الأحد العدوى العمرى الشيخ محمد معصوم النقشبندى السرهندى ، كان أحب أولاد أبيه ، وأشبههم سمتًا به ، وأقربهم منزلة إليه ، وأتبعهم لسيرته ، وأخصهم بمعارفه ، وأبعدهم صيتًا بين الناس ، وأنفعهم لهم .

ولد لإحدى عشرة خلون من شوال سنة سبع أو تسع بعد الألف ، وقرأ بعض الكتب الدراسية على صنوه الكبير محمد صادق ، وأكثرها على والده، وعلى الشيخ محمد طاهر اللاهورى ، ولازم أباه ، وأخذ عنه الطريقة وحفظ القرآن فى ثلاثة أشهر ، وحاله فى تحصيل نسبة والده كحال صدر الشريعة صاحب « شرح الوقاية » حيث كان يحفظ ما يؤلفه جده بلا تأخير ، ولذلك بلغ رتبة لم يصل إليها أحد من أصحاب والده ، فبشره والده بمقامات عالية ، ولما توفى أبوه ، جلس على مسند الإرشاد ، وسافر إلى الحرمين الشريفين فحج وزار ، وأقام بالمدينة المنورة زمانًا صالحًا ، ثم رجع إلى الهند وصرف عمره فى الدرس والإفادة ، وكان أكثر اشتغاله تدريسًا بتفسير البيضاوى ، والمشكاة ، والهداية ، والعضدى والتلويح .

قال الشيخ مراد بن عبد الله القزّانى فى « ذيل « الرشحات » « إنه كان آية من آيات الله مثل والده الماجد ، قد نور العالم ، وبدد ظلمات الجهل والبدع بيمن تجهاته العليّة ، وأحواله السنّية وصار ألوف من الرجال ، محرمًا للأسرار الخفية ، وتحققوا بالحالات السنية بشرف صحبته العلية ، حتى قيل إن جميع من بايعه فى الطريقة تسعمائة ألف ، وعدد خلفائه سبعة آلاف ، منهم الشيخ حبيب الله البخارى كان أعظم مشائخ خراسان وما وراء النهر فى زمانه ،وقد تنورت بخارى بنور السنّة بعد ماغشيتها ظلمة البدعة وشرف

---

(١) هذه الترجمة للشيخ محمد معصوم ، التى جاءت فيها معظم الجوانب المهمة من حياته ، مقتبسة من « نزهة الخواطر » ج ٥ ، بتعديل يسير .

بالخلافة والإجازة أربعة آلاف من مريديه بعد إيصالهم إلى رتبة الكمال » ، انتهى .

وللشيخ معصوم مكاتيب فى ثلاثة مجلدات مثل مكاتب والده متضمنة لغوامض الأسرار اللطائف ، أكثرها فى حل مغلقات معارف والده المرحوم .

توفى فى اليوم التاسع من ربيع الأول سنة تسع وسبعين وألف بمدينة سرهند فدفن بها .

الشيخ آدم البنورى (١) :

الشيخ العارف الولى الكبير آدم بن اسماعيل بن بهوه بن يوسف بن يعقوب بن الحسين الحسينى الكاظمى البنورى ، أحد كبار المشائخ النقشبندية بشر به والده فى رؤيا صالحة ، بشره بذلك النبى ﷺ ، ولد ونشأ بقرية « بنور » بفتح الموحدة وتشديد النون من أعمال سرهند ، وأخذ الطريقة عن الحاج خضر الروغانى أحد أصحاب الشيخ أحمد بن عبد الأحد العمرى السرهندي ، بمدينة ملتان ، ولازمه شهرين كاملين ، ثم قدم سرهند بأمره ، ولازم الشيخ أحمد المذكور مدة من الزمان ، وأخذ عنه ، وقد ذكر فى «خلاصة المعارف » أنه حصلت له نفحة من الجذبات الربانية عن الشيخ محمد طاهر اللاهورى بحق ما وصل إليه عن الشيخ اسكندر عن جده كمال الدين الكيتهلى ، وبالجملة فإنه بلغ رتبة لم يصل إليها كثير ممن عاصره من المشائخ، وكانت طريقته اتباع الشريعة المحمدية اقتفاء آثار السنة السنية لا ينصرف عنها قدر شعرة فى الأقوال ، ولا فى الأفعال .

أخذ عنه خلق كثير حتى قيل إن أربعمائة ألف مسلم بايعوه ، ثم ألف رجل منهم نالوا عنه حظًا وافرًا من العلم والمعرفة ، وقيل ان زوايته قلما كانت تخلو عن ألف رجل كل يوم، وكلهم كانوا يأكلون الطعام من مطبخه ويستفيدون منه .

فى « التذكرة الآدمية » أنه سار إلى لاهور سنة اثنتين وخمسين وألف ، وكان معه عشرة آلاف من السادة والمشائخ ،ومن كل طبقة ، كان شاهجهان بن جهانكير سطان الهند بلاهور فى ذلك الزمان ، فاستعظمه وأمر سعد الله خان أن يذهب إليه ، فجا سعد الله خان ، وتكدرت صحبته بالشيخ ، فسعى إلى السلطان بالوشاية ، فأمر السلطان أن يسافر الشيخ إلى الحرمين زادهما الله شرفًا ، فسافر معه أصحابه وعشيرته فحج وسكن بالمدينة المنورة حتى مات بها » انتهى :

وللشيخ آدم رسائل فى الحقائق والمعارف ، منها « خلاصة المعارف » فى مجلدين

---

(١) مقتبس من « نزهة اخواطر » ، ج ٥ ، بتعديل يسير .

بالفارسية ، أوله : « الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً بقدر كمالات أسمائه وآلائه . . . الخ » ومنها « نكات الأسرار » .

وكان الشيخ آدم أميا ما قرأ شيئًا من الكتب على أهل العلم .

مات لِسبْع بقين من شوال سنة ثلاث وخمسين وألف بالمدينة المنورة ، فدفن ببقيع الغرقد عند قبة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه .

السلسلة المجددية المعصومية

ومشايخها الكبار :

نذكر ـ أولاً وبصورة إجمالية ـ نبذة من حياة المشايخ الكبار فى سلسلة الشيخ محمد معصوم ، لعلنا نستطيع أن ندرك بها ما أحرزوا من القبول والإعجاب ، وتهافت الناس عليهم تهافت الفراش على النور ، وسعة حلقتهم للتدريس والإفادة والتربية ، والإفاضة،وكثرة وفود الطالبين والمسترشدين ، تأثيرهم الواسع العميق فى المجتمع الإسلامى المعاصر وحياة المسلمين ـ بصفة عامة ـ ينبغى للاطلاع على تراجمهم المفصلة الرجوع إلى الكتب التى ألفت فى حياتهم ـ بصفة مستقلة ـ أو كتب السير والتراجم العامة التى تقدم ذكرها إجمالاً ، أما يتعلق بالهند ، فيكفى إلقاء نظرة على الأجزاء : الخامس،والسادس ، والسابع ، من كتاب العلامة السيد عبد السحى الحسنى الشهير « نزهة الخواطر ».

الشيخ سيف الدين السرهندى :

انتشرت طريقة الشيخ محمد معصوم ، وحققت أهداف الإمام السرهندى ـ مؤسس هذه الطريقة ـ ومقاصده ـ التى تشتمل ـ بصفة خاصة ـ على تجديد الصلة مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ والدعوة إلى اتباع السنة ، ونبذ البدع والمنكرات ، وبلغت ذروة الرقى والكمال على يد الشيخ سيف الدين بن الشيخ محمد معصوم وخليفته اراشد (١٠٤٩ ـ ١٠٩٦ هـ) الذى اختار بلدة دهلى للإقامة بأمر والده فصار مرجعًا للطالبين ، ومجمعًا للسالكين،وتأسست على يديه تلك الزواية العامرة التى أصبحت فى عهد الشيخ المرزا مظهر (جان جانان) ، والشيخ غلام على مركزاً عالميًا روحيًا للتربية والإفاضة ، واستنارت بها أرجاء أفغانستان وتركستان ـ فى جانب ـ وأضاءت العراق والشام فى جانب آخر ، وصدق قول الشاعر الذى وصف الشيخ محمد معصوم بما معناه :

« الشيخ محمد معصوم سراج يضيء الممالك والبلاد ، استنارت به الأفاق من الهند إلى الروم » .

وتلقَّى السلطان أورنك زيب التربية الروحيـة عى يد الشيخ سيف الدين ويذكر فى كتب التـاريخ دخل الشيخ سـيف الدين في قـصر السلطان ، وإنكـاره على الصور المنحـوتة فى الجدران ، وانقـياد السطان له ، وأمـره ـ مباشـرة ـ بإزالة هذه الصور [١] ، وأخبر الشيخ سيف الدين والده بهذه الحادثة فى رسـالة إليه ، فوجه والده الشيخ محمد مـعصوم رسالة إلى السلطان ، وأبدى فيها سروره ، يقول فيها :

« إنها لنعـمة عظيـمة أن يسمع السلطان ـ رغم أبهـته وشـوكته وحـشمتـه ـ كلمة الحق وينصاع لها ، ويؤثر فيه قول مسكين فقير » [٢] .

كما أخـبر الشيخ سيف الديـن والده بظهور اثار الذكر على اللسطان ، وقطعـه المسافات الطويلة فى « السلوك » ، فـكتب إليه والده الشـيخ مـحمـد معـصـوم فى سرور وارتيـاح وغبطة، يقول :

« ما ذكرته من أحوال السلطان الحامى ذمار الإسلام ، مثل سريان الذكر فى اللطائف ، وحصوله على « سلطان الأذكار » و « الرابطة القلبية » وقلة الوساوس والخطرات ، وتقبله الحسن لكلمـة الحق ، وإزالة بعض المنكرات وزوال « لوازم الطلب » انكشف لى كل ذلك برسالتك غـاية الانكشاف ، فيـجب علينا أن نحمد الله ـ عـز وجل ـ على ذلك ، فإن هذه الصفات شاذة نادرة فى طبقة السلاطين [٣] .

وداوم السلطان على الاتصـال به روحيًا وتربويًا ، فـقد ذكر مـؤلف « مآثر عـالمكيرى » محمد ساقى مستعد خان ، فـى وقائع يوم ١٣ محرم العام الثانى عشر للجلوس الموافق عام ١٠٨٠ هـ ، أن السلطان ذهب بعد ما مضى هزيع من الليل إلى بيت الشيخ سيف الدين ، من البسـتان الذى كان فـيه وجلس عنده ساعـة يستفـيد بصحـبته المبـاركة وكلماته الطيـبة النافعة، وأبدى له إجلاله واحترامه ، ورفع شأنه ثم رجع إلى قصره [٤] .

---

(١) « ذيل الرشحات » لشيخ محمد الفزانى ص ٤٨ ، المطبعة الأميرية بمكة المحمية ١٣٠٠ هـ .
(٢) رسائل شيخ محمد معصوم ج ٣ ، الرسالة رقم : ٢٢٧ .
(٣) أيضًا ج ٣ ، الرسالة رقم : ٢٢٠ .
(٤) مآثر عالمكيرى ، قام بنشره «مجمع بنغال الآسيوى» (BENGAL ASIATIC SOCIETY) .

قال الشيخ مراد بن عبد الله القزانى فى « ذيل الرشحات » : « كان فى الأمر بالمعروف النهى عن المنكر على رتبة لم يكن عليها شيخ من المشايخ مثله ، حتى كادت البدع ترتفع عن بلاد الهند فى زمنه وتستأصل ، ولذلك لقبه والده بمحتسب الأمة ، وكان صاحب جذب قوى ، وتصرف عال بحيث كان الناس يضطربون من قوة توجهاته ، ويبقون بلا اختبار فى يده » .

وكانت له شوكة ظاهرة حتى كان السلاطين والأمراء يقومون عى أرجلهم بالأدب التام بين يديه ، ولا يتجاسرون على القعود أمامه ، وكان يأكل من مطبخه كل يوم ألف وأربعمائة رجل مرتين مما يوافق طبعه ، وترغب فيه نفسه » (١) .

وخلف الشيخ سيف الدين السيد نور محمد البداونى (م ١١٣٥ هـ) الذى عمر هذه الزاوية ، نورها بنور الشريعة المحمدية ، ثم خلفه الشيخ مرزا مظهر جان جانان ، الذى ازدادت به هذه الزواية بهاء ونورًا .

من الشيخ محمد زبير إلى الشيخ فضل رحمن الكنج مراد آبادى :

وكان الابن الثانى للشيخ محمد معصوم هو الشيخ محمد نقشبند (م ١٠٣٤ - ١١١٤هـ) الذى اشتهر بحجة الله نقشبند ، استخلفه الشيخ محمد معصوم وأجازه فانصرف - بعد وفاته - إلى التربية والإرشاد ، انصرافًا كليًا .

وكان من خلفائه الشيخ محمد زبير بن أبى العلاء بن الشيخ محمد معصوم (م ١١٥١هـ) حصل له من رجوع الناس إليه ، وتقاطرهم عليه من كل حدب وصوب ما لم يحصل لغيره ، فى عصره إلا نادرًا ، وإذا خرج يعود مريضًا أو يلبى دعوة ، تبعه الملوك والأمراء فيظن أنه موكب السلطان (٢) .

خلفه فى الدعوة والإرشاد الأعلام من الرجال ، اشتهر منهم ثلاثة : الشيخ ضياء الله ، الذى خلفه الشيخ محمد آفاق ، والشيخ محمد ناصر عندليب ، الذى خلفه الشيخ محمد افاق ، والشيخ محمد ناصر عندليب ، الذى خلفه ابنه الشاعر العارف ميردرد الدهلوى ، والشيخ عبد العال ، الذى كان من خلفائه الشيخ عبد القادر الدهلوى أول مترجم لمعانى

---

(١) انظر « نزهة الخواطر » ج ٦ ، نقلا من « ذيل الرشحات » . ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) « در المعارف » مجموعة أقوال الشيخ غلام على ، وانظر « نزهة الخواطر » ج ٦ .

القرآن الكريم بالأردية لسان مسلمى الهند ، وابن الإمام حكيم الإسلام ولى الله الدهلوى .

وكان الشيخ ضياء الله من أجلة المشايخ ، صاحب الصلة القوية مع الله، حتى كان الشيخ غلام على يقول : من لم يشهد النسبة المجددية فلينظر إلى الشيخ ضياء الله (١) .

ورزق خليفته الشيخ محمد آفاق (١١٠٦ـ ١١٥١ هـ) قبولاً عظيما ، وطبق صيته الآفاق ، فاستفاض به الناس من دهلى إلى كابل ، ولما سافر أفغانستان بايعه زمان شاه ملك «كابل» وخلق كثير (٢) .

وكان خليفة الشيخ محمد آفاق ، الشيخ فضل رحمن الكنج مراد آبادى ، الذى عمر الهند وأضاءها ـ لا سيما المنطقة الشمالية منها ـ بروحانيته وطهارة أنفاسه ، وحرارة حبه ولوعته ، وزهده فى زخارف الدنيا ، واتباعه للشريعة الغراء ، واشتغاله بتدريس الحديث الشريف ، وتمسكه بالسنة فى دقيق وجليل، أكثر من نصف قرن من الزمان ، وبتعبير دقيق « قامت سوق الحب الإلهى ونفقت نفاقًا عظيمًا » .

ويقول مؤرخ الهند ومترجم رجالها ، المعروف بأمانته العلمية ، وسعة نظره وتحرّية للدقة وعدم المبالغة ، العلامة السيد عبد الحى ال×حسنى مؤلف «نزهة الخواطر » فى ترجمته الحافلة الجميلة فى كتاب « نزهة الخواطر ، وبهة المسامع والنواظر » :

« الشيخ العلامة المحدث المعمر صاحب المقامات العلية ، والكرامات المشرقة الجلية شرف الإسلام فضل الرحمن بن أهل الله بن محمد فياض ابن بركة الله بن عبد القادر بن سعد الله بن نور الله المعروف بنور محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحيم بن محمد الصديقى المانوى ثم امراد آبادى ، كان من العلماء الربانيين .

ولد سنة ثمان ومائتين وألف بملاّنوان ـ بتشديد اللام ـ وقرأ العلم على مولانا نور بن أنوار الأنصارى اللكهنوى وعلى غيره من العلماء ، ثم سافر إلى دهلى بصحبة الشيخ حسن على اللكهنوى المحدث ، فأدرك بها الشيخ عبد العزيز بن ولى الله والشيخ غلام على ، واشيخ محمد افاق وغيرهم من كبار المشايخ ، وأخذ الحديث المسلسل بالمحبة عن الشيخ عبد العزيز المذكور ، وسمع منه شطراً من صحيح البخارى ثم رجع إلى بلدته ولبث برهة من الزمان ، ثم سافر إلى رهلى بعد ما توفى الشيخ عبد العزيز ، فلازم سبطه الشيخ

---

(١) در المعارف ، ص ١٦ .

(٢) انظر « نزهة الخواطر » ، ج ٧ .

اسحاق بن محمد أفضل العمرى ، وقرأ عليه الصحاح الستة ،وأخذ الطريقة عن الشيخ محمد افاق النقشبندى الدهلوى ، صحبه مدة ، حتى نال حظًا وافرًا من العلم والمعرفة ، ثم عاد إلى بلدته وأقام بها ، زمانًا ، ولما توفيت أم عياله انتقل إلى مراد اباد على أربعة أميال من ملانوان وتزوج بها وسكن ، ولكنه كان فى ذلك الزمان يؤثر السفر على الإقامة، فربما يسير إلى لكهنئو وكانبور وبنارس وقنوج وغيرها من البلاد ، وربما يشتغل بتصحيح المصاحف فى دور الطباعة ، ويشتغل بتدريس الحديث الشريف .

ثم لما كبر سنة ترك السفر واعتزل بمراد آباد ، فتهافت عيه الناس تهافت الظمآن على الماء، وتواترت عليه التحف والهدايا ، وخضع له الوجهاء وسراة الناس يأتون إيله من كل فج عميق ومرمى سحيق ، حتى صار علمًا مفردًا فى الديار الهندية ورزق من حسن القبول ما لم يرزق أحد من المشائخ فى عصره .

وكان أكبر من رأيت وأعلمهم بهدى النبى ﷺ ، ودله وسمته ، لا يتجاوز عنه فى أمر من الأمور مع العفاف والقناعة ، والاستغناء والسخاء ،والكرم والزهد ، لا يدخر مالاً ، ولا يخاف عوزاً ، تحصل له الألوف من النقود فيفرقها على الناس فى ذلك اليوم ، حتى كان لا يبيت ليلة ، وفى بيته درهم أودينار وكان لا يحسن الملبس والمأكل ،ولا يلبس لبس المتفقهة من العمامة والطيلسان فضلاً عن تكبير العمامة وتطويل الأكمام ، ولا يهاب أحدًا فى قول الحق ، وكلمة الصدق ، ولو كان جبارًا عنيدًا ، قد انتهت إليه الإمامة فى العلم والعمل والزهد والورع ،والشجاعة والكرم ، والجلالة والمهابة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مع حسن القصد والإخلاص ، والابتهال إلى الله تعالى ، ودوام المراقبة له والدعاء إليه ، وحسن الأخلاق ونفع الخلق ، والإحسان إليهم ، فإن حلفت بين الركن والمقام أنى ما رأيت فى العالم أكرم منه ، ولا أفرغ منه عن الدينار والدرهم ، ولا أطوع منه للكتاب والسنة ما حنثت ، وأنى ما رأيت أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ منه .

وكان ربع القامة نقى اللون ، عظيم الهامة ، مرسل اللحية ، قصيرها ، يصلى بالناس فى المسجد ، ويسكُنُ فى حجرة بفنائه ،ويسعى مع أصحابه فى مصالحهم ، وملبوسه كآحاد الناس ، يدرس القرآن الحكيم والحديث الشريف قبل الظهيرة ، وبعد العصر فى أغلب الأوقات ، سمعت منه المسلسل بالأولية والمسلسل بالمحبة ، وشطرًا من صحيح البخارى ، كان يقرأ رضى الله عنه ، ويتكلم فى أثناء القراءة على الأحاديث .

وأما كشوفه وكراماته فلا تسأل عن ذلك ، فإنها بلغت حد التواتر ، وأنى ما وجدت فى الأولياء السالفين من يكون مثله غير الشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه .

توفى لثمان بقين من ربيع الأول سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة وألف بمراد آباد فدفن بمقبرة مراد خان » .

الشيخ مرزا مظهر جان جانان والشيخ غلام على :

كان الشيخ مرزا جان جانان ، الشهيد (١١١١ ـ ١١٩٥ هـ) خليفة السيد نور محمد لبدايونى الذى بقى ٣٥ سنة يشعل بحرارة أنفاسه مجامر القلوب ، وينور بإشراقه الأرواح والنفوس ، وأقام سوق الحب لله بدهلى العاصمة ، يقول عنه العالم الكبير ، ومعاصره لناقد البصير الإمام ولى الله الدهلوى :

« لا تخفى علىّ أخبار رجال الهند وسيرهم ، فقد ولدت هنا ، وعشت وزرت البلدان لعربية ، وقمت فيها برحلات وجولات ، وسمعت أحوال رجال أفغانستان ، وإيران من هلها الثقات ، توصلت بعد كل ذلك إلى أنه لا يوجد فى أى بلد من هذه البلدان مرب وحى يضاهيه فى اتباعه للكتاب والسنة ، وتمسكه بهما ، واستقامته على جادة الشريعة الطريقة ، ويساويه فى علو كعبه فى إرشاد الطالبين وتربية السالكين ، وفى قوة تأثيره، فى عصرنا هذا ، يمكن ـ من غير شك ـ أن يكون أمثاله فى القرون الماضية ، وفى المتقدمين بل لواقع أنه لا يوجد أمثاله فى : عشر ، إلاَّ عدد قليل ، فضلاً عن هذا العصر الذى عم فيه فساد وشمل البلاد والعباد » [1] .

وخلفه ـ فى تربيته وإرشاده ـ نوابغ العلماء وأعلام المشايخ [2] ، كالشيخ نعيم الله بهراجسى (١١٥٣ ـ ١٢١٨ هـ) والشيخ القاضى ثناء الله البانى بتى (م ١٢٢٥ هـ) يهقى عصره (كما لقبه بذلك مسند الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوى) ومؤلف « التفسير لظهرى » و « مالا بد منه » وشيخ غلام يحيى البهارى (١١٨٠ هـ) ، ولكن قيض الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنشر طريقته ، بل الطريقة المجددية وتبليغها على النطاق العالمى الواسع خليفته الشيخ غلام على البتالوى [3] (١١٥٦ ـ ١٢٤٠ هـ) الذى يستحق أن يدعى بمجدد طريقة المجددية ، بل مجدد علم السلوك والإحسان والتزكية ـ الذى يعرف بعلم التصوف فى القرن الثالث عشر الهجرى ، الذى قصده الطالبون من البلاد العربية العجمية ، تهافتوا عليه تهافت الفراش على النور ، ولم تبق مدينة من مدن الند ، إلا وتشرفت

---

(١) « كلمات طيبات » ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

(٢) وقد جاء فى كتاب « مقامات مظهرى » ص ٦٤ أسماء ٤٣ شخصًا من خلفائه .

(٣) كان اسمه عبد الله ، ولكنه اشتهر باسم لشيخ غلام على .

بخليفة من خلفائه ، وكان فى مدينة « أنباله » وحدها خمسون شيخًا مرشدًا من خلفائه ، يقول السر السيد أحمد خان الدهلوى مؤسس جامعة عليكره الإسلامية ، وقد أدرك آخر أيام حياته فى كتابه « آثار الصناديد » :

« شاهدت بأم عينى فى زوايته رجالاً من الروم والشام ، وبغداد ومصر ، والصين والحبشة ، وفدوا عليه وبايعوه ، ورؤا خدمة هذه الزواية سعادة العمر وحسنة الدهر ، أما البلدان والمدن القريبة مثل الهند ، وبنجاب وأفغانستان فلا تسأل عن أهلها ، الذين قصدوه كالجراد المنتشر ،وكان يسكن فى زوايته زهاء خمسمائة من الطالبين المنقطعين إلى التزكية ، وكان الشيخ متكفلاً بطعامهم وملابسهم » [1] .

ويذكر الشيخ رؤوف أحمد المجددى فى كتابه « در المعارف » فهرس القرى والمدن والبلدان التى ينتمى إليها المحتشدون من أنحاء مختلفة فى هذه الزواية وذلك فى يوم ٢٨ جمادى الأولى عام ١٢٣١ هـ ، واقرأ ـ فيما يلى ـ هذا الفهرس .

«سمرقند ، وبخارى ، غزنين ، تاشقند حصار ، قندهار ، كابل ، بشاور ، كشمير ، ملتان ، لاهور ، سرهند ، أمررهه ، سنبهل ، رامبور ، بريلى ، لكهنؤ ، جائس ، بهرائج، كور كخبور ، عظيم اباد ، دهاكة ، حيدر آباد ، بونا وغيرها من المدن والقرى» [2] .

الشيخ خالد الرومى :

وقدر الله ـ عز وجل ـ أن تنتشر سلسلة الشيخ غلام على وطريقته ، ويمتد رواقها على العراق والشام وتركيا ، بالشيخ خالد الرومى الشهرزورى ، أحد الفضلاء الأكراد ، الذى بلغه صيت الشيخ غلام على وإرشاده وتربيته فى بلاده ، فشد رحله فى شوق وحنين واضطراب ، وقطع المفاوز والمسافات الشاسعة ، حتى وصل فى مدة عام كامل إلى دهلى ، فألقى رحله فى زوايته ولزمها إلى أن أكرمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعد التربية والسلوك ، بالإجازة والخلافة ، وقد كان من انقطاعه الكامل إلى الاشتغال بتزكية نفسه أثناء إقامته، أن العلماء والمشايخ من أهل دهلى الذين كانوا يسمعون ـ من أعوام وسنين ـ أخبار فضله ونبوغه ، وسمو منزلته يأتون لزيارته ، فيقول لهم :

---

(١) آثار الصناديد ، الباب الرابع .

(٢) در المعارف ، ص ١٠٦ .

« لا يستطيع الفقير أن يلتفت إلى شيء آخر غير هدفه المنشود الذى جاء لأجله » .

ولما رجع إلى بلاده تهافت عليه الناس من كل صوب وحدب ، وقصدوه زرافات ووحدانًا ، ورزق من القبول ورجوع الطالبين ما يندر نظيره ، يقول الشيخ رؤوف أحمد المجددى فى « در المعارف » فى مذكرة يوم الجمعة ٢٤ رجب ١٢٣١ هـ :

« حضر شيخ مغربى متجشمًا عناء السفر الطويل فى هذه المسافة الشاسعة البعيدة عندما سمع بذكر شيخنا الجليل ، ولقى فى الطريق ببغداد الشيخ خالد الرومى ، فذكر من حال قبوله العظيم ورجوع الناس إليه ، وقال إنه بايعه ، وتاب على يديه زهاء مائة ألف شخص ، وانخرطوا فى سلك مريديه، كما بايعه ألف من العلماء المتبحرين ، الذين يمثلون لدى الشيخ فى إجلال واحترام » (١) .

ويقول الشيخ خالد الرومى نفسه فى رسالة كتبها إلى الشيخ أبى سعيد ـ تحديثًا بالنعمة وشكرًا على الاء الله ـ :

« جميع بلاد الروم والعرب والحجاز والعراق ، وبعض بلاد العجم وجميع كردستان تأثيرًا عميقًا بالطريقة النقشبندية العالية ، وبركاتها ، ويتذاكر الناس ـ صغارهم وكبارهم ـ فى مجالسهم ومحافلهم ، ومساجدهم ومدارسهم ـ صباح ومساء ـ محاسن الإمام الربانى مجدد الألف الثانى ومنوّره ومآثره وفضائله ، فهو حديث المجالس والنوادى ،وما كنا نتوقع ـ الى أى بلد وفى أى عصر ـ أن تشنف سمع الزمان هذه الألحان ، أو تشهد السماء هذه الرغبة ، والشوق والاجتماع ، وإن كان الحديث عن هذه الأمور يحمل نوعًا من الجراءة والاعجاب بالنفس ، والفقير خجلان ، ولكنه أقدم على بيان ذلك ، مراعاة لحق الأحباب والأصدقاء » .

كان العلامة ابن عابدين المعروف بالعلامة الشامى مؤلف «رد المحتار شرح الدر المختار» تلميذ الشيخ خالد الرومى ، تربى على يديه ، وألف رسالة مستقلة عنه بعنوان « سلّ الحسام الهندى لنصرة موانا خالد النقشبندى » وهى فى الحقيقة رد على كتاب ألفه بعض الحاسدين الكائدين ، فى معارضة الشيخ خالد الرومى وتضليله ، وتناول فى آخر الرسالة ترجمة حياته ـ بإيجاز ـ .

---

(١) « در المعارف » ، ص ١٧٠ .

الشيخ أحمد سعيد وخلفاؤه :

كان خليفة غلام على الحقيقى ـ الذى نشر طريقته فى الآفاق ـ الشيخ أحمد سعيد بن الشيخ أبى سعيد (١٢١٧ ـ ١٢٧٧ هـ) (١) ، الذى كان سليل الأسرة المجددية الذى تلقى التربية فى أحضان الشيخ غلام على وازدانت به ـ بعد وفاة والده عام ١٢٥ هـ زاوية الشيخ غلام على ، والشيخ مرزا مظهر جان جانان ، وقضى ٢٣ سنة كاملة ـ من ١٢٥٠ لإى ١٢٧٣ هـ ـ فى الجهود المتواصلة لنشر الطريقة المجددية ، واضطر فى هذا العام نفسه ـ الموافق ١٨٥٧ م أن يغادر الهند ويودع زواية آبائه الميامين ، فغادر دهلى فى شهر محرم الحرام عام ١٢٧٤ هـ ، ووصل مكة المكرمة فى شهر شوال ١٢٧٤ هـ ، ثم اختار السكنى الدائمة بالمدينة المنورة ، وعاش عامين ، حتى وافاه الأجل المحتوم ، فدفن بها ، وتهافت المئات من العرب والأتراك عليه ـ فى هذه المدة القليلة ـ للبيعة والتوبة على يديه ، حتى قال أحد شاهدى العيان : « لو مد فى أجله واستمرت هذه السلسلة للبيعة لبلغ عدد تلاميذته ومريديه مئات الألوف من الناس » (٢)

ويتعذر استقصاء خلفاء الشيخ أحمد سعيد ، فقد ذكر عددهم فى «المناقب الأحمدية (٣) ثمانين ، وانتشرت طريقته فى الهند لجهود الشيخ دوست محمد القندهارى ، الذى تصدى خليفته الأكبر الشيخ عثمان الدامانى (م ١٣١٤ هـ) فى قرية « موسى زئى » من قرى « ديره اسماعيل خان » فى المنطقة الشمالية الغربية من الهند (٤) ، للإفادة والإفاضة ، وملأ الجو بحيوية الحب الدافق وحرارة العشق الطاهر ، وغشاها بسكينة النسبة النقشبندية ، ثم قام خليفته الأكبر الشيخ سراج الدين (م ١٣٣٣ هـ) بنشر هذه الطريقة فى الآفاق ، وقد كساه الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثوب المهابة والوقار ، فعمر زاوية سلفه الكرام بالتربية والإرشاد ، والتدريس والإفادة، والاشتغال بعلم الحديث الشريف

وخلفه الشيخ حسين على (١٢٨٣ ـ ١٣٦٣ هـ) من « وان بجهران (٥) » الذى كان له أسلوب خاص فى تفسير القرآن الكريم يُعنَى فيه بشرح آيات التوحيد عناية خاصة ، وكان

---

(١) راجع لترجمته امفصلة « نزهة الخواطر » ، ج ٧

(٢) رسالة الشيخ محمد عمر بن الشيخ أحمد سعيد الى السيد عبد السلام الهنسوى

(٣) تاليف الشيخ محمد مظهر

(٤) الآن فى باكستان الغربى .

(٥) تقع هذه القرية فى مديرية « ميانوالى » فى البنجاب الغربية فى باكستان

داعيًا متحمسًا إلى التوحيد الخالص ، قام بإصلاح العقائد الفاسدة ، ودحض البدع الباطلة ، ورفع راية التوحيد اخالص فى بنجاب ، وفى مناطق عمت فيها الأعمال الشركية ، وانتشرت فيها البدع ، واتخذ فيها الناس الضرائح مساجد ومعابد ، والأولياء الصالحين أربابًا من دون الله ، لا يهاب فى ذلك أحدًا ، ولا يخاف لومة لائم (١) .

وكان فى هذا العصر بالذات ، الشيخ الإمام على المكانوى (١٢١٢ ـ ١٢٨٢ هـ) أحد المشائخ الكبار فى السلسلة المجددية ، كان لكثرة وفود الناس وتهافتهم عليه وقبوله العام فيهم ، يذبح فى مطبخه ـ كل يوم ـ ثلاثمائة طلىّ لقرى الضيوف (٢) .

وكان من أجلّة خلفاء الشيخ أحمد سعيد ، الشيخ عبد السلام الواسطى الهنسوى (٣) (١٢٣٤ ـ ١٢٩٩ هـ) الذى كان صاحب نسبة عالية ، واستقامة وورع وانتشرت به هذه الطريقة فى الولايات المتحدة بالهند ، وكان الشيخ عبد الرشيد ـ أحد أبناء الشيخ سعيد ـ الذى تلقى التربية عى يديه الأمير كلب على خان أمير ولاية رامبور ـ خليفة أبيه بعد وفاته فى المدينة المنورة ، وسكن فى مكة المكرمة آخر أيام حياته ، وبقى مشتغلاً بتربية السالكين وإرشاد الطالبين ، إلى أن لبى داعى الأجل ، ودفن فى المعلاه ، وأسس ابنه الشيخ محمد معصوم (١٢٦٣ ـ ١٣٤١ هـ) الزواية المعصومية برامفور ، وأقام بها ٣٢ سنة ، وتوفى فى مكة المكرمة عام ١٣٤١ أحمد سعيد وهو الشيخ محمد مظهر (١٢٤٨ - ١٣٠١ هـ) كان صاحب نسبة قوية ، وشيخًا كثير الاشتغال بالتربية والإرشاد ، واستفاد به مئات من الطالبين الوافدين من سمرقند وبخارى ، وقزان وأرض الروم وأفغانستان ، و إيران وجزيرة العرب ، والشام ، وبنى عام ١٢٩٠ هـ عمارة فخمة ذات ثلاثة طوابق لزاويته فى المدينة ، تعرف بالرباط المظهرى وتقع بين باب النساء والبقيع .

وكان ابنه الثاث الشيخ محمد عمر (١٢٤٤ ـ ١٢٩٨ هـ) الذى أنجب الشيخ أبا الخير المجددى .

الشيخ عبد الغنى :

هو أخو الشيخ أحمد سعيد الصغير ، ولكنه الكبير منزلة ، وهو المحدث الجليل الشيخ عبد الغنى بن أبى سعيد ولد فى سنة ١٢٣٥ هـ ، جمع بين تدريس الحديث الشريف ،

---

(١) اقرأ ترجمته فى « نزهة الخواطر » ج ٨ .

(٢) نزهة الخواطر ، نقلاً عن «تذكره بى مثل راجكان راجور» مرزا ظفر الله خان، ص ٥٠٨ ـ ٥٢١ .

(٣) راجع ترجمته المفصلة ، نزهة الخواطر ج ٧ .

والتربية والتسليك بحيث يتعذر نظيره باستثناء الشيخ عبد العزيز الدهلوى ، كان - مع تحليه بنعمة الصفاء الباطنى والنسبة المجددية وشياخة الطرق - انتهت إليه رئاسة التدريس فى الحديث الشريف فى الهند والحجاز وتخرج على يديه أعلام العلماء ، كالشيخ الأجل الإمام محمد قاسم النانتوى ، - مؤسس دار العوم ديوبند - والشيخ المحدث الكبير العلامة رشيد أحمد الكنكوهى ،وانتشر به علم الحديث ،وأصبحت مدرستا دار العلوم بديوبند ، ومظاهر العلوم بسهانفور ، العظيمتان مركزًا لتدريس الحديث الشريف .

ولما وقعت كارثة عام ١٨٥٧ م هاجر من الهند مع أخيه الأكبر إلى المدينة المنورة وأقام فيها ، وأحيا سنة العلامة الشيخ على المتقى مؤلف « كنز العمال » فاشتغل - طول عمره - بخدمة الحديث الشريف فى الحرمين الشريفين ، وأفاد الطلاب - عربًا وعجمًا - حتى توفى سنة ١٢٩٦ هـ ، ودفن فى البقيع [(١)] ، له نفيس على سنن ابن ماجه سماه « انجاح الحاجة على سنن ابن ماجة » .

ومن مشاهير الخلفاء الشيخ عبد الغنى ، الشيخ عبد الحق الإه آبادى المهاجر إلى مكة المكرمة المعروف بـ « صاحب الدلائل » (م ١٣٣٣ هـ) والشيخ أبو أحمد المجددى البوفالى (م ١٣٤٢ هـ) ، والشيخ رفيع الدين الديوبندى - العميد الأول لدار العلوم ديوبند - (م ١٣٠٨ هـ) الذى نال منه المفتى عزيز الرحمن الديوبندى (م ١٣٤٧ هـ) الإجازة والخلافة .

واقفرت هذه الزواية - العامرة من نصف قرن - بعد هجرة الشيخ أحمد سعيد والشيخ عبد الغنى إلى مكة المكرمة ، وأخيرًا عمرها وأعاد إليها الحياة سليل هذه الأسرة العظيمة وأحد المشايخ الأجلاء الشيخ أبو الخير المجددى (١٢٧٢ - ١٣٤١ هـ) الذى كان حفيدًا للشيخ أحمد سعيد ، فأمّ هذه الزواية - فى مدة قريبة - القاصى والدانى ، وأصبحت مرجعًا للطالبين المسترشدين .

---

(١) ألف تلميذه النجيب الشيخ محمد يحيى الترهتى فى سيرته ومشايخه كتابًا مستقلا بالعربية ، أسماه « اليانع الجنى فى أسانيد الشيخ عبد الغنى » ، وترجم له العلامة عبد الحى الحسنى الادريسى الكتانى الفاسى فى الجزء الثانى من كتاب «فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات » ، فجاءت ترجمته فى أربع صفحات من القطع الكبير (طبع المطبعة الجديدة بطباعة فاس سنة ١٣٤٧ هـ) قال فيها أخذ عن الشيخ عبد الغنى أناس بالحجاز الهند والمغرب ، طبقة بعد طبقة.

وتفرقت أسرة الإمام السرهندى العالية فى جيلها الرابع والخامس فى مختلف أقطار العالم وأنحائه ، وكان فى ذلك مصالح كبيرة ، من اجتناب مجاورة قبور الآباء الكرام ـ التى أصبحت عادة عند كثير من خلفاء المشايخ الصوفية ، ظهرت مفاسدها وعيوبها الكثيرة من خلفاء المشايخ الصوفية ، وظهرت مفاسدها وعيوبها الكثيرة ـ ونشر الطريقة المجددية ، والقيام بالدعوة وإرشاد ، بكابل ـ وكان مركزه الأخير قلعة جواد [1] ، وكان الشيخ نور المشائخ فضل عمر المجددى المعروف بـ « شير آغا » ينتمى إلى هذا الفرع ، وقد تجاوز عدد مريديه المئات ، وكانوا منتشرين فى الهند وباكستان ، وكان أخوه الأصغر الشيخ محمد صادق المجددى سفير أفغانستان فى الشرق الأوسط سابقًا ، وعضو المجس التأسيسى لرابطة العالم الإسلامى ـ يمتاز بامكانة المرموقة فى البلدان العربية ، وقد كان لهذين الأخوين مساهمة فعالة رائدة فى الحركة التى اضطرت الأمير أمان الله خان إلى الاعتزال عن الدولة، وتولية نادر شاه مكانه .

وكان أحد فروع هذه الأسرة الكريمة يسكن فى قرية تنده سائين داد ، بحيدر آباد السند، نبغ فيه واشتهر الشيخ محمد حسن المجددى وابنه الشيخ الحافظ محمد هاشم جان المجددى ، توجد بعض فروع هذه الأسرة فى المدينة المنورة ، ومكة المكرمة ، وهى معروفة بتمسكها بتقاليد هذه الأسرة الموقرة الاشتغال بالوظائف والمهن الكريمة ، محتفظة بحسن الصيت وجميل الذكر .

السلسلة الأحسنية ومشايخها الكبار :

وبالرغم من أن الشيخ السيد آدم البنورى [2] من المنتمين إلى طريقة الإمام السرهندى ، وتلقى التربية فى أحضانه ، كان مؤسس طريقة جانبية ، تسمى لكثير من خصائصها الاجتهادية بالطريقة الأحسنية ، وكان من مظاهر حكمة الله ـ عز وجل ـ وقدرته أن حظيت هذه الطريقة العايلة التى أسست بيد رجل أمى، بكثير من العماء النابغين ، والمحدثين البارعين ، أساتذة عصرهم، والقائمين بنشر الكتاب والسنة والدعاة ،المصلحين ، ومؤسسى

---

(١) ومما يؤسف له أن هذا المركز ـ بغزو الجنود السوفيتية والحكومات الأفغانية الاشتراكية عاد خرابًا بقعًا، واعتقل علماؤه ، ومشائخه ، وطردوا من بلادهم ، وكان المؤلف قد سعد بزيارة هذا المركز عام ١٩٧٣ م وكان عامرًا ناصرًا ، راجع كتاب المؤلف من نهر كابل الى نهر اليرموك » ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(٢) توفى ٢٥ محرم الحرام ١٣٧٦ هـ ، زاره المولف بمكة المكرمة ولاهور .

المدارس الدينية الكبيرة ، والمؤلفين والباحثين المحققين وهو فى ذلك على أثر جده سيد المرسين - ﷺ - والسائر على سنته ، والوارث لميراثه ، فقد كان حكيم الإسلام ولى الله الدهلوى وسراج الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوى ، والداعى إلى الله المجاهد فى سبيل الله الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، والعلامة محمد اسماعيل الشهيد ، ومسند الهند الشيخ اسحاق الدهلوى ، ومؤسس دار العلوم ديوبند الشيخ محمد قاسم النانتوى ، والعالم الربنى الشيخ رشيد أحمد الكنكوهى ، والمجاهد الكبير الشيخ ولاية على العظيم آبادى ، والمربى الكبير الداعى إلى الله الشيخ عبد الله الغزنوى الأمرتسرى ، ونجله الشيخ عبد الجبار الغزنوى الامرتسرى ، كلهم ينتمون إلى الطريقة المجددية النقشبندية، بوساطة المشايخ الكبار للطريقة الأحسنية ، وكانوا أصحاب الإجازة والخلافة فيها .

وكان خلفاء الشيخ آدم البنورى فى عدد كبير يتعذر احصاؤهم فى هذا الباب ، وقد وردت هذه الأسماء التاية فى « نزهة الخواطر » أصحاب الشيخ آدم البنورى من مريديه ومسترشديه ، وحاملى نسبته ، وبعضهم ممن نال منه الإجازة والخلافة وهم :

ديوان خواجه أحمد النصير آبادى (م ١٠٨٨ هـ) ، والشيخ بايزيد القصورى (م ١٠٩٠ هـ) ، والشيخ فتح الله السهارنفورى . م ١١٠٠ هـ) ، والشيخ سعد الله البخارى اللاهورى (م ١١٠٨ هـ) .

ولكن انتشرت هذه الطريقة بهؤلاء الأعلام الأربعة الذين كانوا مثالاً كاملاً لتربيته واجتهاده وتعليمه ، وصورة حية لتأثيره وإفادته ، وهم : الشيخ السيد علم الله الحسنى (١٠٢٣ - ١٠٩٦ هـ) والشيخ سلطان البلياوى ، والشيخ الحافظ السيد عبد الله الأكبر آبادى ، والشيخ محمد شريف الشاه آبادى .

الشيخ السيد علم الله الحسنى وأسرته :

قال الشيخ آدم البنورى للشيخ علم الله الحسنى عند توديعه « سر على بركة الله ، وتصدّ للتربية والإرشاد بجمعية القلب وطمأنينة البال ، فإنك ستكون بين مشايخ ولاية « أوده » كالشمس بين النجوم » (١) .

ويقول عنه الشيخ محمد أمين البدخشى - خليفة الشيخ آدم البنورى ومن خواص

---

(١) راجع لترجمته المفصلة « سيد احمد اشهيد » (بالاردية) لشيخ غلام رسول مهر، ج ١ ، و« سيرة سيد احمد شهيد » ج / ١ ، مؤلف ، و « تذكرة شاه علم الله للأستاذ محمد الحسينى ، وراجع أيضًا « أنفاس العارفين »للإمام ولى الله الدهلوى . .

أصحابه « لا يسمح رائحة الدنيا أن تمر ببابه ، وقد طبق صيته لورعه واستقامته ، الهند والبلدان العربية . . . وأكثر الناس الذين يرونه يقولون لعل الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ كانوا هكذا » (١) .

ويقول مؤلف « البحر الزخار » فى ترجمته :

« ان المجاهدات الشاقة التى ظهرت من هذا النابغة الفريد فى النفور من الدنيا ، واتباع السنة النبوية ـ صلى الله على صاحبها وسلم ـ يندر مثلها بعد الصحابة الكرام ـ رضى الله عنهم ـ فى الأولياء والمشايخ المتأخرين » ، ويقول : « إنه لما سافر إلى مكة المكرمة ، والمدينة المنورة للحج والزيارة ، كان الناس عندما يشاهدون جده واجتهاده وقوته على الطاعات ، وكمال اتباعه للسنة ، والأخذ بالعزيمة ، يقولون : « هذا كأبى ذرّ » حتى سارت هذه الكلمة مسير الأمثال على ألسنة الناس » .

وكانت نتيجة هذا التمسك الشديد ، بالسنة النبوية ، أن رأى السلطان عالمكير فى المنام ليلة وفاته ، أن الرسول ـ ﷺ ـ توفى فاضطرب ، وأهمّه هذا الأمر ، فعرض على العلماء والمشايخ ، وسألهم تأويله ، فأولوه بأنه توفى فى تلك الليلة من كانت له نسبة صحيحة بالنبى ـ ﷺ ـ وقدم راسخة فى اتباعه ، ثم أخبر بأن السيد علم الله توفى فى تلك الليلة ، فأجمع العلماء على أنه هو المعبر عنه بذلك المنام » (٢) .

واستمرت هذه الطريقة الأحسنية فى أسرته ، والتى نبغ فيها من العلماء والمشايخ الكبار كابنه الرابع الشيخ السيد محمد (١١٥٦ هـ) وابنه الشيخ السيد محمد عدل المعروف بشاه لعل (م ١١٩٢ هـ) والشيخ السيد محمد صابر بن السيد آية الله بن الشيخ علم الله (م ١١٦٣ هـ) والشيخ أبو سعيد بن السيد محمد ضياء بن السيد آية الله بن السيد علم الله (١١٩٣ هـ) والسيد محمد سعيد واضح (٣) ابن السيد محمد صابر ، والسيد محمد ظاهر الحسنى (م ١٢٧٨ هـ) والسيد خواجه أحمد بن السيد يسين النصير آبادى، والشيخ السيد ضياء النبى الحسنى (م ١٣٢٦ هـ) الذين نفع الله بهم خلائق لا يحصون ، وتاب على

---

(١) « نتائج الحرمين » رواية الشيخ عبد الحكيم .

(٢) انظر« نزهة الخواطر » ، ج ٥ ، و« البحر الزخار » للشيخ وجيه الدين أشرف وقد جاء فيه المنام مفصلاً ، و « در المعارف » للشيخ رؤوف احمد المجددى ، ص ٤٦ ، وذكرت فيه هذه الرؤيا الصادقة اجمالاً .

(٣) توفى فى بداية القرن الثالث عشر الهجرى .

أيديهم الألوف المؤلفة ، وفازوا بنعمة الإيمان والإحسان ، والتمسك بالشريعة الإسامية ، واتباع السنة النبوية ، ونبذ البدع والمحدثات (١) .

الشيخ سلطان البلياوى :

كان الخليفة الثانى للشيخ آدم البنورى الشيخ سلطان البيلاوى ، يستفاد من « نتائج الحرمين » أنه كان من أجلّة خلفاء الشيخ البنورى ، وكبار أصحابه ، ويذكر اسمه قرينًا باسم الشيخ علم الله الحسنى .

الشيخ الحافظ السيد عبد الله الأكبر آبادى والطريقة الولى اللهية :

وكان الخليفة الأجل الثالث للشيخ ادم البنورى ، الذى انتشرت به هذه الطريقة فى أوسع نطاق ، هو الشيخ الحافظ السيد عبد الله الأكبر ابادى (٢) .

وكان والد الإمام ولى الله الدهلوى ، الشيخ عبد الرحيم الفاروقى (م ١١٣١ هـ) خليفته ، تلقى عنه التربية الروحية ، وينتمى إلى هذه الطريقة الأحسنية المجددية فى سلسلة الإمام ولى الله الدهلوى ، وسراج الهند الإمام عبد العزيز الدهلوى ، الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، عن طريقة الشيخ الحاج عبد الرحيم الولايتى الشهيد ، والشيخ نور محمد الجهنجهانوى ، عن طريقه شيخ العرب والعجم الشيخ الأجل إمداد الله التهانوى المهاجر إلى مكة المكرمة ، وخلفاؤه الشيخ محمد قاسم النانتوى ، والشيخ رشيد أحمد الكنكوهى، والمصلح الكبير الشيخ أشرف على التهانوى ، ثم طريق الشيخ رشيد أحمد الكنكوهى ، شيخ الهند الشيخ محمود حسن الديوبندى، والشيخ عبد الرحيم الرائى بورى، والشيخ خليل أحمد السهارنبورى ، والمجاهد الكبير السيد حسين أحمد المدنى،ومن خلفاء الشيخ عبد الرحيم الرائى بورى ، الشيخ عبد القادر الرائى بورى ، ومن خلفاء الشيخ خليل أحمد السهارنبورى ، الداعية الكبير محمد إلياس الكاندهلوى ، مؤسس «جماعة التبليغ» والعلامة المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى صاحب « أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك » ،« حجات النبى ﷺ وعمراته » وكتب كثيرة ، وكلهم من أصحاب

---

(١) راجع تراجمهم « نزهة الخواطر » ج ٦ـ ٧ .

(٢) راجع للاطلاع على ترجمته ومناقبه الجليلة « أنفاس العارفين » ، ص ٦ ـ ١٥ ألفه الإمام ولى الله الدهلوى فى ترجمة والده ، وتناول فيه حياته وأعماله وتراجم أسرته ، بتفصيل ، وطبع عام ١٣٣٥ هـ بمطبعة مجتبائى ، انظر ص ١٥ - ٨٧ .

الإجازة والخلافة فى هذه الطريقة ، ونقل الشيـخ غلام على وصف الشيخ مرزا مظهر جان جانان للإمام الدهلوى فى كتابه « مقامات مظهرى » ، فقال :

« إن الشيـخ ولى الله قد بين طريقـة جديـدة ، وله أسلوب خاص فى تحـقيق أسـرار المعرف ، وغوامض العلوم ، وإنـه ربّانى من العلماء ، ولعله لم يوجد مثله فى الصـوفية المحـققين . الذين جـمعـوا بين علمى الظاهر والبـاطن وتكلمـوا بعلوم عديدة إلاّ رجـال معدودون » (١).

ولما وقف إمام العلوم العقليـة العلامة فضل حق الخير آبادى على كـتابه «إزالة الخفاء » قال بمحضر من تلامذته ، « إن الذى صنف هذا الكتاب لبحر زاخر لا يرى له ساحل » .

أما سـراج الهند الإمام عبد العـزيز الدهلوى فإنه نادرة عصـره فى نبوغه وبراعـته ، فى لعلوم العقـلية والعلوم النقليـة ، والفنون الأدبية ـ فى حين واحد وانهـماكـه فى التدريس والافادة ، ونشر علم الحديث ، والإفـاضة الباطنية ، والتربية الربانيـة ، وسيلان قلمه فى لتأليف ، وحـلاوة منطقه وملاحة كـلامه ، ورحابة صدره ، وجـميل عشرته ، وتوجـعه لأمة الإسلامـية الهندية واهتمامه بها ، وعـموم إفادته ، وكثرة فيـضه ، ويندر نظيره فى نحاء العالم الفسيحة ، والأقطار النائية (٢) .

لإمام أحمد بن عرفان الشهيد وجماعته :

أما الإمـام أحمـد بن عـرفان الشـهيـد الذى كانت له صلة خـاصة بالطريقـة الأحسنـية لجددية، فقـد ألف حوله كتبًـا ضخمة ، يكفى الاطلاع منهـا : على كتاب « سيـد أحمد هيد » للمـؤرخ الباكستانى الشهيـر الأستاذ غلام رسول مهر فى أربعـة أجزاء ، و« سيرت سيد أحـمد شهيد » للـمؤلف فى جزئين (٣) ، ونكتفى هنا لـلإشارة إلى تأثيره العـميق فى عصوره وفى تاريخ الهند ، وما أنجز الله ـ تعالى ـ على يديه من هداية عامة شاملة ، ونشر

---

١) نزهة الخواطر ، ج ٦ ، ص ٤٠٥ ، نقـلاً عن « مقامات » مـظهرى » طبعة المطبع الأحـمدى ص ٦٠ - ٦١ .

٢) راجع للاطلاع على أحواله ومناقبه العظيمة بتفصيل وافاضة ، نزهة الخواطر ج ٧ .

٣) وكلاهمـا بالأردية ، وللمؤلف كتـاب بالعربية بعنوان « إذا هبت ريح الايمان » يتـحدث عن دوره العظيم ، وجهـوده الموفقة فى إقامـة الدولة الاسلاميـة فى اسلوب قصصى ، وكتـاب آخر بعنوان الامام الذى لم يوف حقه من الانصاف والاعتراف»، رد فيـه على الشبه المثارة حوله وصدر له أكثر من طبعة فى الهند ومصر .

للدعوة الإسلامية وحفاظ على خصائص الإسلام وميزاته ، ببعض الشهادات .

يقول معاصره العالم الجليل الشيخ عبد الأحد الذى له خبرة واسعة بأحوال الهند وأخبارها :

« أسلم على يديه أكثر من أربعين ألف شخص من الهنادك والكفار ، وبايعه ثلاثة ملايين من المسلمين ، ولو وضعنا فى الاعتبار سلسلة البيعة والإرشاد التى لا تزال متصلة الحلقات ، وتجرى حتى اليوم على أرض الله عن طريق أتباعه وأتباع أتباعه ، ليكون قد دخل فى بيعته ملايين الملايين من الناس » .

ويقول مؤلف الهند الشهير السيد صديق حسن خان أمير بوفال (م ١٣٠٧ هـ) الذى شاهد آثار تربيته وإرشاده ، واطلع عليها عن كثب ، وعاصر كثيرًا ممن شاهدوه وصحبوه فى ، كتابه « تقصار جيود الأحرار » :

« إنه كان آية من آيات الله ـ تعالى ـ فى هداية عباده ،وإصلاح حالهم، والرجوع بهم إلى الله وعبادته ، وبلغ خلق كثير وعالم بأسره إلى درجة الربانية و « الإحسان » بتعليمه وتربيته ، وتزكيته القلبية والجسمية ، وتطهرت الهند من أدناس الشرك والبدع والخرافات والأوهام ، بفضل مواعظ أصحابه وخلفائه واهتدت إلى جادة الكتاب والسنة ، ولا تزال مواعظه ، وتعاليمه تفعل فعلها وتؤتى أكلها » ، إلى أن قال :

وقصارى القول : إننا لا نعلم رجلاً يدانيه فى جلالة شأنه وفضله فى أى جزء من أجزاء العالم المعاصر ، وما جناه الخلق من المنافع الإيمانية والمكاسب الروحية من هذه الجماعة الحقة ، لم ينالوا معشاره من العلماء والمشايخ المعاصرين الآخرين » .

وإن أعلام مشايخ ديوبند ، وصادقبور (١) ، ـ كما تقدم من قبل ـ ينتمون إلى الطريقة المجددية النقشبندية ، وحصلوا على الإجازة والخلافة فيها عن طريق الإمام أحمد بن

---

(١) « صاد قبور » حى من أحياء مدينة بتنه ، كان مركزًا مهمًا لدعوة الامام احمد بن عرفان الشهيد وجهوده الإصلاحية ، وواصل أهله هذه الحركة الى أن قضت عليها الحركة الانجليزية قضاء كاملاً ، وصبت عليها كأس غضبها وحقدها ، كان من أشهرهم وأرفعهم مكانًا الشيخ ولايت على العظيم آبادى ، والشيخ يحيى على ، والشيخ أحمد الله ، والشيخ عنايت على الغازى ، والشيخ عبد الله ، أمير جماعة المجاهدين (جمرقند) والشيخ عبد الرحيم الصادقبورى ، وكان شعارهم الجمع بين عقيدة التوحيد الخالصة ، والعمل بالحديث الشريف ، والاشتغال بالذكر ، والتزكية والجهاد فى سبيل الله .

عرفان الشهيد ، ولا يستطيع أن ينكر فضلهم وجهادهم فى نشر العلوم الدينية ، وتأسيس المدارس الإسلامية ، وجهودهم العظيمة فى سبيل الدعوة والتربية والإرشاد ، وأعمالهم الإصلاحية الواسعة النطاق فى شبه القارة الهندية ، إلاّ جاحد مكابر .

وكل ذلك من نتائج العمل الإصلاحى التجديدى الذى قام به الإمام السرهندى وثماره اليانعة الجنية ، لأنه هو الذى شق الطريق أمام النمس فى فترة القرن الحادى عشر الهجرى الحرجة الشائكة المليئة بالفتن والأخطار، وهيأ الجو الملائم وغير مجرى الأحداث للعمل الإسلامى العظيم ، وأيقظ النائمين ونبه الخاملين ، ونفخ فى جسم الأمة الإسلامية الهامدة روحًا جديدة ، وعاطفة فياضة ، وربى أمة سهرت على الدين والحفاظ عليه، وحفظت بلوعة قلبها ، وحرارة نفسها ، ونور باطنها شعلة الإيمان واليقين مضيئة ملتهبة ، واستمرت هذه الشعلة تنتقل من جيل لى جيل ، تلهب النفوس وتضىء القلوب ، ولم تعد الجاهلية والكفر ، والشرك والوثنية ، والمنكرات والبدع تنشر جناحها الأسود المظلم ، وظلها الكثيف الثقيل على المجتمع الإسلامى الهندى ، كما نشرته فى القرن العاشر الهجرى ، وحق لمن انتمى إليه ـ مباشرة ـ أو بواسطة ـ أن يقول فى ثقة واعتزاز :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

مؤلفات الإمام السرهندى ورسائله :

وللإمام السرهندى مؤلفات ورسائل أكثرها بالفارسية ، وأشهرها وأنفعها مجموع رسائله التى تسمى « مكتوبات أمام ربانى » ، وهى من أعظم مآثره العلمية والإصلاحية والتجديدية، وتصوير حى لعواطفه ، ومشاعره ، وبهاتعرف مكانته فى التجديد والإصلاح، وبلوغه درجة الاجتهاد والإمامة فى المعارف الإلهية والعلوم الدقيقة ،والانتصار للكتاب والسنة ، وهى مليئة يبالتحقيقات العالية ،والنكت البديعة التى لا يوفق لها ولا يخص بها إلا الأفذاذ من العدول ، الذين ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، وانتحال المبطلين ، عبر القرون والأجيال ، ويحتاج الحديث عن مكانتها العلمية ، وتعيين درجتها فى الأدب الفارسى إلى كتاب مستقل ، قلما حظى مجموع من الرسائل فى الآداب واللغات التى نعرفها بالقبول والانتشار وعنى بالدراسة والتأمل مثل ما حظى هذا المجموع ، وقد ترجم إلى العربية والتركية ، وقرر ككتاب دراسى فى المراكز العلمية والروحية ،

(*) من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا * .

وعكف عليه العلماء والسالكون واشتغلوا به ورده ، ولا يزال - إلى يومنا هذا - غضًا طريًا ، كأن الرسائل كتبت اليوم .

ويقع هذا المجموع فى ثلاثة أجزآء ، وعدد هذه الرسائل يبلغ ٥٣٦ رسالة وطبعت مجاميع هذه الرسائل عدة طبعات فى مختلف السنوات ولا يزال يعاد طبعها .

ومن رسائله : ١ ــ اثبات النبوة » ، ، ٢ ــ رد الروافض » ، وهه رد على بعض علماء الشيعة الإيرانيين ، ألفت حوالى سنة ١٠٠١ هـ ، بالفارسية ، وقد شرح الإمام ولى الله الدهلوى هذه الرسالة ولم يطبع بعد ، ٣ ــ « الرسالة التهليلية » (بالعربية) فرغ من تأليفها فى عام ١٠١٠ هـ ، وهى مطبوعة مع الترجمة الأردية ، ٤ ــ « وشرح رباعيات » وللإمام ولى الله الدهلوى شرح له ، باسم « كشف العين فى شرح رباعيتين » وكلاهما مطبوع ، ٥ ــ « معارف لدنيه » بالفارسية ، يشتمل على معارف الإمام السرهندى وتحقيقاته الخاصة فى علم السلوك والطريقة ، ألفه عام ١٠١٥ هـ ، ويبلغ عدد هذه المعارف ٤١ معرفة ، والكتاب مطبوع عدة طبعات ، ٦ ــ « المبدأ والمعاد » بالفارسية ، يشتمل على معارف الإمام السرهندى وعلومه ، وتبلغ هذه الفصول ٦١ فصلاً ، الكتاب مطبوع ، وقد ترجم الشيخ مراد المكى هذه الرسالة إلى العربية ونشرت هذه الترجمة مع مجموعة رسائله المترجمة إلى العرية فى الحاشية ، - ٧ ــ « مكاشفات عينية» بالفارسية، والكتاب مطبوع .

والحمد الله أولاً وآخرًا ، وصلى الله على نبيه محمد وآله وأصحابه وأهل بيته ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

أما بعد ! فيسرُّ المؤلف ويسعده أن يقدم للقراء العرب الجزء الرابع من كتابه : « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » ، وهو الجزء الخاص بحياة حكيم الإسلام الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ ولى الله الدهلوى (١١١٤ - ١١٧٦ هـ) والتعريف بدوره الإصلاحى التجديدى ، التربوى القيادى ، الذى قام به ووفق له فى شبه القارة الهندية ، التى كانت الجزء الحاسم الحسّاس من العالم الإسلامى فى القرن الثانى عشر وما بعده . وبدوره فى إحياء الفهم الصحيح للدين ، وإعادة الحياة والنشاط والحيوية والنموّ إلى الفكر الإسلامى ، وعرض الشريعة الإسلامية فى صورة متناسقة شاملة ، والكشف عن أسرار الأحكام الشرعية ومقاصدها وحكمها والتطبيق بين العقل والنقل ، وبين الفقه والحديث ، والتوفيق بين المذاهب الفقهية الرئيسية ، وذلك فى مجال العالم الإسلامى كله ، وللأجيال الآتية كلها ، فهو بذلك استحق دراسة اختصاصية من الباحثين فى تاريخ الإصلاح الدينى والفكر الإسلامى ، ومن المعنيِّين بالصحوة الإسلامية وربط المجتمع الإسلامى بالأصول الإسلامية السليمة ، والتعاليم الشرعية القويمة ، فى كل بلد من بلاد الإسلام ، وفى كل طبقة من طبقات المثقفين الإسلاميين ، والعاملين لرفع شأن الإسلام ، والمسلمين .

إن العمل الضَخم المتنوع الواسع ، الذى قام به الإمام الدهلوى اشتمل على إصلاح العقائد ، ونشر الكتاب والسنّة ، والردّ على المذاهب الدخيلة على الإسلام ، النابتة الطفيلية فى حقله ، وعلى المحاولة الحكيمة ، القائمة على الدراسات العميقة ، لجمع شمل الأمة المحمدية ، بتقصير الفجوة بين المذاهب الفقهية السائدة ، وبين الفقه والحديث، ورفع الفجوة بين المنتمين إليها ، وعرض الشريعة الإسلامية وشعبها وأوابها فى ترابط ونظام، وفى تناسق واتّزان ، يخيّل إلى القارئ كأنها لآلى العقد المنظوم ، أو حلقات سلسلة مترابطة ، وعلى رفع القناع عن فوائد الشريعة العملية والاجتماعية والمدنية ، وشرح التعاليم الدينية والهداية السماوية فى محيط الحياة الواسع ، وفى سياق العلاقات المشتركة بين الناس ، وصلة الأسباب بالنتائج .

هذا هو الدور القيادى المجاهد الذى قام به فى عهد الفوضى السياسية واحتضار الدولة الإسلامية فى الهند ، وبذل الجهود لإقامة مملكة قوية موطّدة الأركان ، الدور القيادى الحكيم الذى يقوم به أكبر سياسيى بصير لا يمتُّ إلى التأليف والتصنيف والبحث والتدريس بأى صلة ، مع عدم إهمال المجتمع المسلم الذى هو مصدر كل انقلاب صالح وغير صالح، والحاضنة للقادة والحكّام ، والأرضية التى تقوم عليها الحكومات والمنظّمات ، وقد وفق لوضع الأصابع على أمراض طبقاته المختلفة ومواضع ضعفها ، وضرب على الوتر الحسّاس، ودل على مكامن الضعف والانحراف وأنواع الغرور والخداع ، مع توجيه النصائح والملاحظات ، إلى كل طبقة من هذه الطبقات .

ولم يكن كل ذلك نظرياً وعملياً فحسب ، ومقصوراً على شخصه الخاص ، فقد ضم إلى كل ذلك تربية الخلفاء والرجال الأكفاء ، الذين قاموا بإكمال مهمته ، حسب مقتضيات الزمن ، ومتطلبات الدين ، ومدّ دوره الإصلاحى إلى مساحة مكانية وزمنية من أوسع المساحات التى قيضت لمصلح دينى ، وعالم مؤلف ، مدرس مربّ ، مضافاً إلى ذلك كله ، إحياء الجهاد فى سبيل الله ، ومقاومة الخطر على حرية المسلمين وسلطتهم .

وبهذا الشمول العجيب ، والتنوّع النادر ، والفكر الإسلامى الأصيل ، والعلم الدينى الراسخ ، وفهم روح العصر ، والتنبّه للأخطار والتحديّات التى كان يتمخّض بها المستقبل ، ولا تزال فى ضمير الزمان ، والتنبيه عليها ، والدعوة إلى إعداد العدّة لها ، أصبح نموذجاً كاملاً للمصلح الدينى ، والمجدد الإسلامى فى كل بيئة من بيئات العالم الإسلامى ، وفى أوضاع دينية واجتماعية وسياسية ، يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً ، وأصبح مدرسة علمية فكرية ، واسعة جامعة ، يتخرج فيها علما مصلحون ، ومفكرون إسلاميون ، على اختلاف مستوياتهم ، وتنوع اتجاهاتهم .

وفى الحقيقة أن هذا العصر هو عصر شيخ الإسلام الحافظ أحمد بن تيمية الحرّانى (م٧٢٨ هـ) ، وحكيم الإسلام الإمام أحمد بن عبد الرحيم الشيخ ولى الله الدهلوى (م١١٧٦ هـ) ، وذلك لاعتمادها على الكتاب والسنة - الذين كتب لهما من الخلود وصلاحية البقاء ما لم يكتب لنتاج علمى ومدرسة فكرية - واعتبارهما الأصل والأساس ، والقائد والنبراس فى حل المعضلات والمشاكل ، فى العبادات والمعاملات والأخلاق والاجتماع والمدنية والسياسية ، وتربية النفوس وتزكيتها ، وبما كانا يدينان به من الحاجة إلى الاجتهاد فى كل عصر ، وتجديد الفكر الإسلامى ، وبما كانا يتصفان به من مقاومة الجمود والتحجّر العلمى والعصبية الشديدة للمذاهب الفقهية ، ويمتازان به من دراسة الديانات غير

الإسلامية ، والمذاهب المتزعمّة للإسلام ، هذا مع ما لا بد منه مع اختلاف فى المنهج ، والذوق ، وفى العناصر التى تركبت بها شخصية كل واحد منهما ، وتكوّن بها مزاج خاص، اختلاف يقتضيه اختلاف البيئات ، وأساليب التربية ، وطبيعة الزمان والمكان ، واتجاه الأسر والآباء ، لذلك كان نشر مؤلفات كل واحد منهما وتحقيقاته وتاريخ كفاحه ، ودوره الإصلاحى ، فى مكانه وأوانه .

وقد سبق للمؤلف وضع كتاب خاص بحياة شيخ الإسلام الحافظ أحمد بن تيمية كوّن الحلقة الثانية من « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » [1] ، وأتبع ذلك إصدار كتاب خاص بالإمام السرهندى الشيخ أحمد بن عبد الأحد (٩٧١ م - ١٠٣٤ هـ) يكوّن الجزء الثالث من سلسلة « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » وقد صدر فى سنة ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م) ، وهو إمام من كبار أئمة الإصلاح والتجديد فى تاريخ الإسلام الطويل ، وقد كتب له من النجاح فى أهدافه الإصلاحية والتجديدية ما قلّ ما كتب لمصلح آخر فى الماضى، فقد قضى على بعض الفتن التى كادت تقضى على الإسلام - لولا قضاء الله ببقائه وكفالته بحفظه - وجلّى بعض الحقائق الدينية الرئيسية ، والحاجة إلى النبوة ، وفضل الأنبياء وإعادة الثقة والإيمان بالنبوة المحمدية ، تجلية لم تؤثر عن مصلح آخر ، وغيّر مجرى التاريخ فى شبه القارة الهندية ، وحوّل وجهة الإمبراطورية المغولية ، من الفكر والإلحاد ، والبرهمية ووحدة الأديان ، إلى الدين الحنيف والشريعة الإسلامية السمحة ، ذلك كله بطرق حكيمة سلميّة ، وأساليب دعوية تربوية ، وربانية صادقة خالصة .

وها هى الحلقة الرابعة من هذه السلسلة الذهبية ، يسند بعضها بعضاً ، وكلها مترابطة متناسقة ، تدل على أن شجرة هذا الدين تؤتى أكلها كل حين ، وعلى أن خليته لا تنقطع عن التعسيل ، وكنانته لا تنفد ، ولا تخطئ سهامها .

وقد وضع المؤلف هذا الكتاب أصالة فى الأردو ، لغة شبه القارة الهندية ، العلمية والتأليفية ، التى يفهمها أكثر من مائتى مليون إنسان فى شبه القارة وخارجها ، والتى ابتدأ المؤلف وضع هذه السلسلة التاريخية فيها ، وقد قام بنقل الجزئين الثالث والرابع من هذه السلسلة [2] العزيز الأستاذ السيد سلمان الحسينى الندوى من أساتذة دار العلوم ندوة العلماء

---

(١) صدرت الطبعة الأولى للكتاب من دار القلم (الكويت) سنة ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) والثالثة سنة ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م) .

(٢) قام بنقل الجزء الثانى من هذه السلسلة وهو الجزء الخاص بشيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية ، = =

خير قيام ، استحق به دعوات المؤلف بطول حياته وحسن توفيقه ، وشكر القراء ، وفوق كل ذلك ، رضا من الله وحسن ثوابه .

أرجو أن ينال هذا الكتاب مكانه اللائق فى المكتبة الإسلامية الحديثة ، وفى أوساط الدارسين والباحثين ، والمعنيين باليقظة الإسلامية والإصلاح الدينى ، وعلى الله قصد السبيل .

أبو الحسَن على الحسَينى الندوى

دارة الشيخ علم الله الحسنى
رائى بريلى ، ١٣ من جمادى الآخرة
سنة ١٤٠٥ هـ .

= الأستاذ سعيد الأعظمى الندوى ، أحد أساتذة دار العلوم الكبار ، ورئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامى » وجزاه الله خيراً .

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول
العالم الإسلامى فى القرن الثانى عشر الهجرى

أهمية دراسة أوضاع البلاد الإسلمية وتطوراتها وأحداثها فى القرن الثانى عشر الهجرى :

لقد صرح مؤلف هذا الكتاب (الجزء الرابع من سلسلة « رجال الفكر والدعوة ») فى بداية الجزء الثالث من « رجال الفكر والدعوة » ، الذى يختص بحياة الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندى (٩٧١ ـ ١٠٣٤ هـ) وتاريخ عصره ومآثره الإصلاحية والتجديدية العظيمة ، وهو يشير إلى أهمية الدراسة التاريخية للقرن العاشر الهجرى (الذى ولد فيه الإمام السرهندى ،ونشأ نشأته العقلية والعلمية) بما يلى :

« وينبغى ـ ونحن فى هذه الدراسة ـ أن لا نغفل حقيقة ذات شأن ، وهى أن العصر الذى يولد فيه الإنسان ، والعالم الذى يعاصره ، والمجتمع الإنسانى الذى يعيش فيه ، هو كالنهر الجارى ، تتصل كل موجة فيه بالموجة الأخرى ، وتتسق معها ، فلا يمكن لأجل ذلك أن يبقى بلد ـ مهما كان بعيدا نائيا ، ويعيش فى عزلة عن سائر العالم ـ غير متأثر بالأحداث الخطيرة والثورات العظيمة والقوى المتحاربة ، والحركات المؤثرة القوية التى تجرى فى بلدان العالم الأخرى ، ولاسيما إذا كان مركز هذه الأحداث والوقائع ، والثورات والتطورات ، بلدا يشاركه فى العقيدة والمذهب والمشرب ، ويجاوره فى المكان ، ولذلك فلا يجوز للمؤرخ البصير فى هذه الدراسة التاريخية أن يقتصر على الهند فحسب ، بل يلزمه أن يلقى نظرة عامة على العالم الإسلامى كله فى القرن العاشر ، لاسيما البلدان المسلمة المجاورة التى كانت بينها وبين الهند أواصر علمية ودينية وحضارية ، وكانت تصل

إليها لفحاتها الشديدة اللاذعة ، ونفحاتها الرخية الناعمة على بُعد الداروطول المسافة »[١].

إن الحاجة إلى مراعاة هذه الحقيقة التاريخية ، وتطبيق هذا الأصل المهم فى دراسة حياة الإمام الدهلوى ، وإلقاء الأضواء على أعماله التجديدية الكبيرة أشد وأكثر ، إذ أنَّ تربيته الفكرية والعلمية تدين لبلاد الحرمين الشريفين ، وأن لهما الدور الأساسى فى تكوين عقليته وثقافته ، حيث أقام الإمام الدهلوى أكثرمن عام واحد فى الفترة الواقعة بين ١١٤٣ - ١١٤٤ هـ [٢] ، ودرس علم الحديث الشريف على المحدث الشيخ أبى طاهر محمد بن إبراهيم الكردى المدنى أحد أئمة الفن وعلماء الحديث الكبار فى عصره ، الذى كان يؤمه طلاب الحديث من مختلف الأقطار والأمصار ، وتخرج على يديه وأسند عنه جميع مروياته، جالس علماء الحرمين الشريفين (الذين كانوا من مختلف البلدان الإسلامية والعربية) صحبه مدة من الزمن ، قد كان الحجاز آنذاك فى ولاية الدولة العثمانية وإدارتها، وكان أشراف مكة يتبوأون منصب الإمارة كنُوّابٍ عن السلاطين العثمانيين ، وقد كان الحرمان الشريفان - لا سيما المدينة المنورة على صاحبها الصلاة والسلام - اللذان يجمعان فى أيام الحج فى رحابهما كل عام صفوة أصحاب العقول النيرة والقلوب الصافية يتهافتون عليهما تهافت الفراش على النور - مركزاً دائماً لعلم الحديث الشريف ، حيث يلتقى طلاب هذا العلم وهُواته من كل بقعة من بقاع العالم الإسلامى .

وكان من الميسور لمن يقيم بها أن يستعرض العالم الإسلامى كله ويدرسه روحياً وعلمياً، وخلقياً واجتماعياً ، ومدنياً وسياسياً ، وأن يقدر - بسُهولة - رُقىَّ البلدان الإسلامية والعربية ، وازدهارها أو سقوطها وانحطاطها من هذه النواحى كلها ، ويطلع على مختلف رجالها وشخصياتها ونوابغها ، وحركاتها ، ودعواتها الإصلاحية وما يبذل فيها من جهود بناءة ، ومثمرة وما تحاك فيها وتبيت من مؤامرات مفسدة مُدمِّرة ، بل كان من الممكن أن يجُسَّ نبض العالم الإسلامى ويقدر سيره ويسمع خفقات قلبه ، ومن اللازم أن إماماً نابغة كالإمام الدهلوى فى ألمعيته وتوقد ذكائه ، ولوعة قلبه وتوجّعه ، يكون قد استفاد من كل ذلك ، وتأثّر به ، واستخدمه فى توسيع نطاق فكره وبُعد نظره ، وآفاقية دعوته وفلسفته

---

(١) « الإمام السرهندى-حياته وأعماله » ص : ١٨ .

(٢)لقد كان الإمام الدهلوى وصل إلى الحجاز فى أواخر عام ١١٤٣ هـ وعاد منها إلى الهند فى أوائل عام ١١٤٥ هـ ، وحج حجتين .

ومنهجه .

زد على ذلك أن الهند كانت - عبر قرون وأجيال - مجالاً للغزاة والفاتحين من الأُسَر الأفغانية والتركية بآسيا الوسطى ، ولم تزل هذه البلاد تحت وصايتهم سياسياً وإدارياً ، وهم الذين كانوا يزودون حكوماتها الضعيفة النحيلة ، هيكلها التنظيمى والإدارى بدماء جديدة حارة ،ويهبون إدارتها المفككة المهلهلة وقوتها العسكرية المتخاذلة قسطاً جديداً من القوة والحيوية والحرارة ، وإذا أشرفت أسرة حاكمة - طال عهد حكمها - على مرحلة الشيخوخة والهرم ،أقبلت من ممرّ « خيبر » أو ممرّ « بولان » قوة عسكرية جديدة دافقة الحيوية والحرارة إلى الهند ، وطعمت سلسلة الحكومات التى كانت تدين بدين واحد «الإسلام » وعقيدة واحدة « عقيدة أهل السنة والجماعة » ، وقانون واحد « الشريعة الإسلامية » ، ولغة واحدة « التركية أو الفارسية » ، وحضارة واحدة (هى الحضارة التى كانت مزيجاً من الحضارات العربية والإيرانية التركية والهندية) بالقوة والنشاط ، ووهبتها قسطاً جديداً من الحياة .

ثم إنه لا ينبغى أن ننسى حقيقة تاريخية ، وهى أن أفغانستان وولايتها الكبيرة المهمة «كابل» و «قندهار » لم تزل منذ عهد استيلاء الملك بابر وقيام الدولة المغولية جزءاً من الحكومة الإسلامية الهندية ، قلعة خارجية لها وسوراً منيعاً ، وقد كان دخول الملك نادر شاه ملك إيران فى الهند ، وزحفه إلى دلهى فى عهد الإمام الدهلوى نفسه ، كما غزا الهند فى عهده أحمد شاه الأبدالى عدة مرات حتى كانت أخيراً عام ١١٧٤ هـ الموافق عام ١٧٦١ م تلك المعركة الحاسمة فى ساحة « بانى بت » التى هزم فيها المرهتة هزيمة نكراء وغير وجهة التاريخ وتيار الأحداث ، وأعطى الدولة المغولية فرصة صالحة تستدرك ما فات وتعود إلى الحياة والمجتمع المسلم وطبقة الأمراء والولاة فرصة للقيام بدور جديد لم يستطيعوا أن يقوموا به لعدم كفاءتهم وسوء تصرفاتهم ، لقد كانت هذه الأحداث كلها فى عهد الإمام الدهلوى ، بل كان الحدث الأخير منها بإشارة منه وإرشاد ، وكان صاحبا هاتين الغزوتين ينتميان إلى إيران وأفغانستان ، ولأجل ذلك لا يمكن فى دراسة عهد الإمام الدهلوى واستعراض القرن الثانى عشر الهجرى التغاضى عن أوضاعهما وانقلابات الدول بجراء كل ذلك .

تأثير إيران الحضارى والثقافى على الهند :

ثم إن الهند كما كانت من القرن الخامس الهجرى تحت تأثير تركستان وأفغانستان من النواحى السياسية والعسكرية ، كذلك كانت فى قليل أو كثير تحت تأثير إيران ، من

النواحى العلمية والأدبية والثقافية والحضارية والفكرية ، وتجد على فكرتها وعقليتها ظلال أدبها وشعرها ، وطرق تصوفها ، وأخيراً ظلال مناهجها الدراسية ونظمها التعليمية ، ومؤلفات علمائها ونوابغها ، لا سيما منذ دخول الملك همايون إلى إيران واستعادة الدولة الهندية بمناصرتها وتأييدها .

ثم منذ مقدم الأمير فتح الله الشيرازى والحكيم على الكيلانى فى عهد الملك أكبر أصبحت الهند - كلياً - عالة على إيران فى مناهجها الدراسية وطرق التعليم وتحديد مقاييس الفضل والنبوغ ، وفى مجال العلوم العقلية والحكمية تقلدها وتدين لها وتمشى فى أثرها ، وتمت بذلك السلطة العليا لإيران على الهند فى هذا الصدد ، فلا يمكننا - نظراً إلى هذه الحقيقة التاريخية - أن نغفل الأحداث الجارية فيها فى هذه الدراسة التاريخية .

أهمية الدولة العثمانية وعظمتها :

كذلك لا يمكننا التغاضى - عدا بلاد أفغانستان وإيران المجاورة - عن الدولة العثمانية (التى كانت تتولى من القرن العاشر الهجرى منصب الخلافة ، وهى وإن كان موقعها الجغرافى على مسافة شاسعة من الهند فى أوربا وآسيا الصغرى ، لكنها كانت تحتضن جميع البلدان العربية تقريباً (مصر ، الشام ، العراق ، اليمن ، نجد ، الحجاز ، والجزء الكبير من أفريقيا الشمالية) .

وقد كان المسلمون كلهم ينظرون إليها ، من حيث كونها حامية للديار المقدسة وحاملة عبء الخلافة الإسلامية ، ولأنها كانت قوة ومملكة كبرى ورمز للجبهة الإسلامية فى نظر الغرب والقوى المعادية للإسلام ، ومحافظة على كثير من المصالح الإسلامية ، نظرة تقدير واحترام ، ولم يكونوا يهتمون بما يجرى فيها من وقائع وأحداث فحسب ، بل كانوا يتأثرون بها ويتكيفون معها ، فلم يكن يمكن مثل الإمام الدهلوى فى سعة أفقه وعالمية تفكيره ، والذى كان اطلاعه على التاريخ الإسلامى اطلاعاً واسعاً عميقاً أن يغض النظر عن الدولة العثمانية ، وقد كان خبيراً بموقف الشريعة الإسلامية من الخلافة ، وأهميتها السياسية والاجتماعية ، وكان يرى أنه لا بد للدين والأخلاق الصالحة والمجتمع الصالح والمدنية الصحيحة والحياة الإسلامية من حكومة مستقلة حرة ، وقوة سياسية صالحة ، وكان يتمنى أن يرى المسلمين قوة مؤثرة آمرة ناهية لا فى بلادهم فحسب بل فى العالم كله ، وكيف كان من الممكن أن يتغاضى عن رقى أعظم مملكة للمسلمين وسقوطها ، وصعودها وهبوطها ، وهدوئها الداخلى واضطرابها ، لا سيما وقد عاش فى أحب البقاع وأكرمها فى نطاق دولتها وهى الحجاز بعين مفتوحة ، وذهن وقاد ، وعقل حاضر ، وقلب شاعر ، وكان قد درس

تلك التأثيـرات وسمع أخـبارها عن طريق الوافدين مـن ممتلكاتها وولايتاتهـا والبلدان التى كانت تحـت وصايتهـا كمـصر والشـام والعراق التى كـانت تترك على أوسـاط هذه البلدان العلمية والدينية بصماتها ، نتيجة لميـول سلاطينها العثمانيين ووزرائها و « شيوخ الإسلام » والعلماء الأتراك فيهـا وعقليتهم ونزعاتهم ، فلا بد إذن من إلقاء نظـرة جمالية على المملكة العثمانية فى القـرن الثانى عشر الهجرى (القرن الثامن عشر المسـيحى) وعلاقاتها بالبلدان الغربية المسيحية المجاورة ، وتفككها وانحلالها ، وتماسكها واستحكامها ودورات المد والجزر فى قوتها السياسية

الوضع السياسى فى العالم الإسلامى

سننظر - أولاً : فى حالة العالم الإسلامى السياسية ، وانقلاب الدول والحكومات وأهم الوقائع والأحداث ، ثم ندرس أوضاع العالم الإسلامى العلمية والدينية والخلقية .

الدولة العثمانية فى القرن الثانى عشر :

ولد الإمام الدهلوى عام ١١١٤ هـ وتوفى عام ١١٧٦ هـ وقد توالى فى هذه الفترة -(٦٢) عاماً - على عرش الدولة العثمانية خمسة سلاطين ، وهم : مصطفى الثانى (م١١١٥ هـ) أحمد الثالث (م ١١٤٣ هـ) محمود الأول (م ١١٦٧ هـ) عثمان الثالث (م ١١٧١) ومصطفى الثالث (م ١١٧١ هـ - ١١٨٧ هـ) ، تولى أربعة من هولاء السلاطين أحمد الثالث ، محمد الأول ، عثمان الثالث ، ومصطفى الثالث ، زمام الأمور فى عهد بلغ فيه الإمام الدهلوى أشده ، واكتمل وعيه ، وبدأ عمله وتفكيره ، إلا أن أهم الفترات الزمنية من حياته (وهى السنوات الخمس الأخيرة) قضاها فى عهد مصطفى الثالث .

حكم مصطفى الثالث (١٦) عاماً ، و ( ) أشهر ، واندلعت فى عهده نار الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا ، انهزمت فيها الدولة العثمانية عام ١٧٦٩ م ولكن لم يكن لروسيا فيها أى مفخرة ومكرمة بل كانت هذه الهزيمة بسبب بعض الأحداث والخلل فى بعض التدابير والإجراءات [٣] ، وأراد الجنرال الروسى « الفنتن » أن يحمل على القسطنطينية أيضاً ، إلا أنه منع من ذلك ، واتخذ مصطفى خان إجراءات لتعزيز جنوده واهتم بالإصلاحات العسكرية وأحرز مكاسب عسكرية ، وتقدمت روسيا بشروط للمهادنة ، كانت تشتمل على الإهانة لتركيا وجرح كرامتها وعقد فى « بخارست » فى ١٣ شعبان عام ١١٨٦هـ (أى بعد وفاة الإمام الدهلوى بعشرة أعوام) الموافق ٩ نوفمبر عام ١٧٧٢م مؤتمر، قدمت فيه بعض الشروط ولكن رفضتها الدولة العثمانية ، وأصدرت أوامرها للجيش التركى بإعلان الحرب ضد روسيا ، فلقيت فيها روسيا هزيمة منكرة ودخل فى قلوبهم الرعب حتى عندما مر الجيش التركى بسوق « جق » (التى تدعى اليوم TOBULKHIN) خلى سكان هذه المدينة الروس المدينة بأكملها ، يقول المؤرخ هيمر (HEMER) : « إن

(٣) انظر للتفصيل « تاريخ الدولة العلمية العثمانية » لمحمد فريد بك المحامى ، ط بيروت .

العثمانيين وجدوا قدورا موضوعة على المراجل والأثافى كان يطبخ فيها اللحم » .

توفى السلطان مصطفى الثالث فى ٨ ذى القعدة عام ١١٨٧ هـ (الموافق ٢١ يناير عام ١٧٧٤ م) ويثنى المؤرخون على عدله ورغبته وجهوده فى أمور الخير ، وكان قد أقام فى عهده كثيراً من المدارس والرباطات .

وقد انتشرت المطابع فى الدولة العثمانية حين كان الإمام الدهلوى شابا وقامت المطبعة الأولى فى القسطنطينية وظهرت فى هذا العهد نفسه حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ هـ - ١٢٠٦ هـ) (٤) .

واستولى على بك الذى كان يدعى « بشيخ البلد » فى عهد عثمان الثالث على حكومة مصر وإدارتها ، وتآمر مع الجنرال الروسى الذى كان قد عين لبحر الروم واشترط عليه مساعدته بالسلاح والذخيرة حتى تستقل مصر ، ونجح على بك بمساعدته فى سيطرته على غزة ونابلس والقدس ويافا ودمشق ، وكان يريد التوجه إلى أناطوليا إذ خرج عليه أحد القادة المماليك المدعو بحمد بك المعروف بأبى الذهب الذى اضطر على بك للعودة إلى مصر، ولقى هزيمة على يديه ، كان من نتيجة هذه الحروب الداخلية والفوضى أن أطلقت الأساطيل الروسية النيران على بيروت ، وانهدم بسببها حوالى ثلاثمائة بيت ، ثم وقعت الحرب بين جيوش على بك ومات بجروحه وفصل رأسه من جسده وبعث به مع أربعة ضباط روس إلى الوالى العثمانى خليل باشا الذى أرسله إلى القسطنطينية وعادت مصر مرة ثانية إلى حكم الدولة العثمانية .

الوضع السياسى فى الحجاز :

عندما سافر الأمام الدهلوى إلى الحجاز ، وأقام فى الحرمين الشريفين مدة عام ، كان ذلك فى خلافة السلطان محمود الأول (١١٤٣ هـ - ١١٦٧ هـ) وكان يمثل السلطان العثمانى وينوب عنه فى الحجاز محمد بن عبد الله (٥) بن سعيد بن زيد بن محسن الحسنى

---

(٤) المصدر السابق ، ص : ٣٢٩ - ٣٤٠ .

(٥) واستولى بعد ذلك الأمير سعود بن عبد العزيز (١١٦٣ هـ - ١٢٢٩ هـ) أمير نجد بقوة التنظيم العسكرى وحماسه للجهاد وبهذه الدعوة على الجزء الأكبر من الحجاز وجزير العرب عام ١٢١٨هـ، ثم عادت هذه البقعة بجهود الخديوى محمد عليوالى مصر إلى قبضة الدولة التركية عام ١٣٤ هـ ، ونفى الأمير عبد الله بن سعود بن عبد العزيز إلى قسطنطينية وقتل بها . (٣) ذكر اسمه فى بعض الكتب محمد عبد الإله ولعل دلك لأجل تجنب المماثلة اللفظية لاسم محمد بن عبد الله تأدباً واحتراماً .

(م ١١٦٩ هـ) واليه على الحجاز (الذى كان يقال له شريف مكة) وكان قد ولى الحجاز بعد وفاة والده عام ١١٤٣ هـ [٦] ، وقد كان عهده عهد الحرب الداخلية والصراع بين أفراد الأسرة على الإمارة فقد عزله عمه مسعود بن سعيد عام ١١٤٥ هـ وتسل على الامارة ، ولكنه استعاد منصبه عام ١١٤٦ هـ ، ثم عزله عمه ، وبقى والياً عليها إلى آخر عمره عام ١١٦٥هـ ، وساد فى عهده الأمن والسلام فى الحجاز، ويصفه المؤرخون أنه كان ذكيا متيقظا وسياسيا محنكا [٧] .

وإننا نجد كتب التاريخ والرحلات ومذكرات الحج التى ألفت فى منتصف القرن الثانى الهجرى أو تؤرّخ ذلك العهد ، إنها تشكو قلة الأمن فى الطرق وغارات البدو وفساد النظام وسوء الإدارة ، الذى كان نتيجة بُعد مركز الدولة العثمانية (القسطنطينية) وسياسية عدم التدخُّل من جانب الأتراك إلى حد المستطاع فى الأمور الداخلية للحجاز ، والتسامح الزائد مع أشراف مكة (الذين كانوا من الأسرة الحسنية وكان نسبهم صحيحاً معلوماً) والإجلال الزائد للعرب ، واحترامهم ، وسياسة التغاضى عن تجاوزاتهم وسوء تصرفاتهم ، وعلاوة على ذلك نظام الوراثة فى إمارة الحجاز ، وانحصارها فى أسرة واحدة ، ومن الممكن أن يقطع بأن الإمام الدهلوى كان قد نظر فى هذه الأوضاع القلقة المضطربة ، والصراع الداخلى على منصب الإمارة وقلة النظام وضعف الإرادة عين بصيرته وشعر بفداحة الأمر بقلبه العامر بالحمية الدينية ، ولعل الصراع بين العم وابن أخيه على الإمارة الذى كان عام ١١٤٥ هـ ، قد يكون وقع فى مدة إقامته بالحجاز ، ولعله توصل بهذه الأوضاع إلى نتائج بعيدة المدى ، وأخذ منها شواهد على الانحطاط الخلقى الذى أصيبت به هذه البلاد .

---

(٦) لم يزل أشراف مكة (الذين كانوا يُختارون من السادة الحَسَنيين نسبة إلى الحسن بن على رضى الله عنه ، ولذلك كانوا يُدعون بالأشراف) يتولون شئون الحجاز من الثلث الأول للقرن الرابع الهجرى، فقد عين الشريف الأول بمكة فى عهد الخليفة العباسى المطيع لله (٣٣٤ هـ - ٣٦٣ هـ) ثم كانت تولية الأشراف إلى عهد استيلاء السلطان سليم على الشام ومصر وولايته للحرمين الشريفين من قبل أسرة المماليك فى مصر فلما استولى السلطان سليم أقّر شريف مكة فى عهده السيد بركات وابنه السيد أباثمى على منصبهما ، وكانا شريفى مكة ، واستمرت هذه الإمارة فى الأشراف إلى الشريف حسين ، الذى خرج على العثمانيين فى يونيو عام ١٩١٦ م الموافق شعبان عام ١٣٣٤ هـ وخلع فى يناير عام ١٩٦ م ، بعد استيلاء السلطان ابن مسعود على الحجاز .

(٧) الأعلام جـ - ٨ ، ص : ١١١ - ١١٢ ، نقلاً عن خلاصة الكلام ، وعنوان المجد وتذييل « شفاء الغرام لأخبار البلد الحرام » حـ - ، ص : ٣٠٩ - ٣١٠ اب ولاة مكة .

اليـــمـــن :

وكـان يسود فى اليــمن أيضـاً مثل هذا النظـام السيـاسى ، فكانت اليـمن تحت السلطة العثمانية من الناحية السياسية بصفة عامة ، والسياسية الخارجية بصفة خاصة فكان يوجد بها حاكم من الحكام العـثمانيين يُعيِّن من قـبل الدولة العثمانيـة ، ولكنها رغم ذلك يسود فـيها نظام الإمامـة كذلك ، الذى كان يسـتمر فيـها من القرن الثـالث الهجرى ، وكـان يتولاها الأشراف الزيديون (٨) .

فكان أهل اليمن يـبايعونهم بيـعة الخلافـة ويدعونهم « الإمام » ، وكـان من يتولى هذا المنصب يعتقد فيه أنه بلغ رتبة الاجتهاد والإمامة فى المذهب ، وأنه عالم متبحر فيه ، مسلم له الزعامة والقيادة .

دخلت اليمن فى حـوزة الدولة العثمـانية فى عهـد السلطان سليمـان القانونى ابن ياوز سليم، وكان يحكمـها - آنذاك - « إمامهـا وخليفة الأئمة الأشـراف فيها السيـد المطهر ابن الإمام شرف الدين (م ٩٨٠ هـ) فكانت بينه وبين القائد التـركى سنان باشا حرب أسفرت عن خضوع اليمن للدولة العـثمانية (٩) ، إلا أن الأتراك العثـمانيين أبقوا هنا كالحـجاز على نظام الإمارة ، وأعطوا الإمـام الحرية فى الشئـون الداخلية ، ولما كـان الإمام الدهلوى فى الحجاز كان الإمـام المنصور بالله الحسين بن المتوكل على الله قاسم بن حـسين إمام اليمن ، الذى استمر عهد إمامته وإمارته من ١١٣٩ هـ إلى ١١٦١ هـ ، وكان أكثر سكان اليمن -

---

(٨) يرى العلامة محمد أبو زهرة فى كتابه : « تاريخ المذاهب الإسلامية » :

« هذه الفرقة هى أقرب فرق الشـيعة إلى الجماعة الإسلامية وأكـثر اعتدالاً ، وهى لم ترفع الأئمة إلى مرتبة النبوة ، بل لـم ترفعهم إلى مرتبة تقـاربها بل اعتبروهم كسائر الناس ، ولكنهم أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ ، ولم يكفروا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ .

و« الزيدية » لا يؤمنون أن الإمـام الذى أوصى به النبى ﷺ ، قـد عينه بالاسم والشـخص ، بل عرفـه بالوصف ، وأن الأوصاف التى عـرفت تجعل الإمـام علياً - رضى الله عنه -هـو الإمام من بعده» .

« ... وعلى ذلك الأصل أقـر الإمام زيد إمـامة الشـيخـين أبى بكر وعمـر ولم يكفر أحـداً من الصحابة ... » .

« ... وعلى ذلك نقول : إن الزيدية قسـمان : المتقدمون منهم وهم لا يعدون رافضـة ويعترفون بإمامة الشيخين أبى بكر وعمر » .

(٩) راجع للتفصيل « البرق اليمانى فى الفتح العثمانى » للعلامة قطب الدين النهروالى الفتنى الحنفى.

سلطة المذهب الزيدى ورعايته الحكومية - من أهل السنة فى العقائد والشافعية فى المذهب.

وقد كانت اليمن مركزاً كبيراً لعلم الحديث الشريف فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، حيث ولد الإمام محمد بن إسماعيل الأمير (م ١١٤٢ هـ) صاحب « سبل السلام» فى القرن الثانى عشر ، والعلامة محمد بن على الشوكانى (م ١٢٥٥ هـ) صاحب « نيل الأوطار » فى القرن الثالث عشر ، ولعل الإمام الدهلوى أثناء إقامته بالحجاز يكون - لقرب المسافة والعلاقات العلمية - قد استفاد من مؤلفات علماء اليمن وخدماتهم الجليلة فى الحديث الشريف .

كان قد مضى فى إيران على الأسرة الصفوية الحاكمة قرنان من الزمن وجرى عليها حسب سنة الله - تعالى - من الضعف والهرم ما يقول عنه المؤرخ الفيلسوف العلامة ابن خلدون : « إن الهرم إذا نزل بدولة لا يرتفع »(١٠) ، وقد استغل هذا الوضع فى إيران البلد المجاور أفغانستان ، وحمل عليها فى قيادة حاكمها الطموح الشجاع محمود خان غزئى عام ١١٣٤ هـ وفتح أصفهان ، فأسر حسين شاه ، ثم أراد الأفغانيون فتح ما بقى من المدن والأمصار ولكن لم يكن عندهم من العدد ما يكفى للاستيلاء على مناطق أخرى والبقاء فيها، ومات محمود خان بعد أن حكم ثلاثة أعوام ، عام ١١٣٧ هـ الموافق ١٧٢٤ م وانتشرت الفوضى فى البلاد فى عهد خلفه أشرف خان ، فزحف حاكم الروس « البطرس الأعظم » على المديريات الشمالية فى إيران ، واضطر ملك إيران إلى الصلح ، وخسرت إيران بذلك كثيراً من مناطقها الخصبة المهمة ، وكان « شاه إيران » فى الأسر ، إذ رزق خلفه وولى عهده طهماسب قائداً محنكاً صاحب عزيمة وتدبير وسياسة ، وهو رغم كونه ينتسب إلى أسرة خاملة ، وكونه رجلاً من عامة الناس - استطاع بكفاءاته الممتازة ، وصلاحيته للقيادة أن ينخرط فى سلك أولئك العصاميين الذين يؤسسون الدول والحكومات، كان ذلك نادر شاه .

نادر شاه أفشار :

أجلس نادر شاه ، ولى العهد طهماسب على عرش آبائه ، وكانت الدولة الصفوية تعانى السقوط والانهيار ، ولم تكن هناك علائم العودة إلى الحياة والنشاط وكانت الفوضى تسود البلاد ، وفقدت الثقة بين الناس فأحسن نادر شاه استغلال هذا الوضع ونظم قوة عسكرية جديدة ونفخت رجولته وطموحه وشجاعته روحاً جديدة فى الإيرانيين فهب كالعاصفة

---

(١٠) مقدمة ابن خلدون .

العاتية ، واستولى على البلاد وطرد الأفغانيين كلياً من إيران عام ١١٤٣ هـ الموافق عام ١٧٣٠ م ، ووقفت الجيوش الروسية عام ١١٤٦ هـ الموافق ١٧٣٣ م على بحيرة الخزر (CASPIANSEA) وصالحهم مصالحة عزيزة مع إباء وشمم ، ولم يدع العرب يتجاوزون الحدود الغربية ، واضطر سلطان الروم إلى الإنسحاب من الشمال ، واستعاد ولايات المملكة الإيرانية القديمة من المستولين عليها وتوسعت إيران نتيجة لكل ذلك حتى عادت عام ١١٤٨ هـ الموافق ١٧٣٥ م إلى حدودها وثغورها القديمة وانتهت الأسرة الصفوية عام ١١٥٠ هـ الموافق ١٧٣٧ م وسيطر نادر شاه على إيران كلها فكان ملكها الوحيد غير منازع[١١] .

كان نادر شاه – حسب تصريح – مؤلف موسوعة تاريخ العالم – قبل عرش المملكة على شرط أن يتخلى الإيرانيون عن التشيع ويتبرأوا منه ، وكان نادر شاه سُنّياً عقيدة ، تركياً نسبة – والأتراك معروفون بشدة تمسكهم بالسنية – ولكن نادر شاه لم ينجح فى استمالة الإيرانيين إلى قبول المذهب السنى ، لقد استولى قواده عام ١٧٣٧ م على بلوجستان ، وبلخ ، وتم استيلاؤهم عام ١٧٣٨ م على قندهار ، ثم توجه للاستيلاء على الهند إلى كابل ، وبشاور ، ولاهور ، واستولى عليها وهزم عام ١٧٣٩ م جيش الملك المغولى الجرار قرب دهلى واستولى على دلهى ووضع فى رقاب أهلها السيف فأقام مجزرة رهيبة [١٢] ، ولم يسلب نادر شاه عرش المغول بل أخذ منها جباية خمسمائة مليون دولار كما أدخل المناطق الشمالية الغربية من نهر السند فى مملكته ، وتم استيلاؤه على بخارا وخوارزم (خيوه) عام ١٧٤٠ م ، وكان هذا نهاية حملاته التوسعية وسيطرته ، ومن هنا بدأ التحول فى حياته .

لقد كان نادر شاه قائداً عصامياً كبيراً ، ولكنه لم يكن يملك من التدبير السياسى وصلاحية الإدارة والتنظيم شيئاً ، وكان من نتيجة محاولاته القضاء على التشيع [١٣] أن

---

(١١) ملخص من كتب تاريخ إيران والهند .

(١٢) انظر تفاصيل هذه الوقائع فى الصفحات التالية .

(١٣) يمكن أن تثار شبهة فى تصريحات المؤرخين الغربيين وبعض المؤلفين المسلمين أن نادر شاه أراد استئصال مذهب التشيع من إيران بجد وإصرار ، وأنه كان سنياً متعصباً ، هل كان ذلك محاولة لتغيير العقائد نفسها والمذهب نفسه أم كانت سياسة اتخذها لأغراض أخرى ؟ فإنه لا يتضح لنا من حملاته على دلهى وإقامته بها وبأىّ شئ فى حياته أنه كان سنى المُعتَقد ، وأنه كان يريد سوق إيران إلى راية السنية وتحت حكمها .

اضطربت الأمور وعمت الفوضى ، وتعود نادر شاه لقمع هذه الاضطرابات والقضاء عليها الجور والظلم والعدوان ، وأرهق بلاده بجباياته الباهظة ومكوسة الظالمة ، وقتل أخيراً بيد أحد أبناء قبيلته عام ١٧٤٧ م .

حالة إيران بعد مقتل نادر شاه :

لقد أدى مقتل نادر شاه فى إيران إلى فساد الأمن واضطراب الأوضاع وطوائف الملوك، وبدأ يحلم قادة جيشه بحكوماتهم المستقلة وتربع على عرشه بعد قتله ابن أخيه عادل شاه (١٧٤٧ م) الذى أعمل السيف فى أسرته وقتل جميع أفرادها ، ولم ينج من بطشه إلا «شاه رخ » أحد أبناء الملك المقتول الذى كان حينئذ ابن أربع عشرة سنة ، وعزل عادل شاه فى ظرف عام واحد بيد أخيه إبراهيم وسملت عيناه ، أعقب ذلك ثورة فى جيش إبراهيم ، فأسره ضباط جيشه ، ثم قتلوه ، ثم قتل عادل شاه كذلك ، ثم استولت على إيران أسرة «زند » ، وحكم كريم خان زند (١١٦٤ هـ - ١١٩٣ هـ) الموافق (١٧٥٠ م - ١٧٧٩ م) على إيران تسعة عشر عاماً وجعل مدينة « شيراز » عاصمة مملكته ، وكان معروفاً بعدله ورأفته ، وأعاد إلى ريان بعد الحروب والمعارك الدامية الأمن والطمأنينة والسلام ولذلك حزن الناس على موته ورثوه وخلفه عدد من الملوك الضعاف حتى انقرضت حكومة هذه الأسرة فى عهد لطف على انقراضاً كلياً ، فقتل لطف على عام ١٢٠٩ هـ الموافق عام ١٧٩٤ م ، وخلا عرش إيران لأسرة قاجار ولا نريد أن نتعرض لهذا العهد وما يليه لأنه لا علاقة له بعهد الإمام الدهلوى .

أفغانستان وأحمد شاه الأبدالى :

لقد كان بعض الأجزاء من بلاد أفغانستان قبل القرن الثامن عشر الميلادى تحت سلطة إيران والجزء الآخر تحت سلطة الهند ، وكان يحكم الجزء الثالث خوانين بخارى واستقلت قندهار عام ١٧٠٦ م ثم استولى نادر شاه على قندهار عام ١٧٣٧ م وأخذ الحكم من أيدى الأفغانيين ، ثم استولى على أفغانستان كلها والجانب الغربى من الهند .

وجيئ إلى نادر شاه فى تلك الأيام بشخص كان يعرف بأحمد خان كأسير من أسرى الحرب ، وأعجب نادر شاه به ، وجعله فى حاشيته وخدمه ، فصار أحمد خان يتدرج فى مراتب الرقى ، ويحوز على ثقة الملك ، ويتمكن من نفسه ، فلما قتل نادر شاه ، انتدب هو نفسه وتولى زمام الولايات الافغانية ، وكان ينتمى إلى الفرع الدرانى (سدوزئى) من القبيلة الأبدالية ، ولقب : « دردوران » وسميت أسرته لأجل ذلك بالدرانية .

لقد أرسى أحمد شاه قواعد الحكومة للأسرة الدرانية ، بل أسس المملكة الدرانية ،

وكانت المملكة الأفغانية حين وفاته تحتوى على شرق ريران (مشهد) وبلاد أفغانستان كلها، وبلوجستان كلها وعلى كشمير وبنجاب فى الناحية الشرقية ، وهو يستحق أن يعد من كبار المؤسسين للدول والحكومات ، والقادة المحنكين العصاميين والحكام العادلين الطيبين الذين يخشون الله ، ويستحق من حيث مجموع صفاته وخصائصه (إذا نظرنا إلى بيئته وحياته البدائية، وفقره وقلة وسائله) أن يعد من الشخصيات العبقرية (GENIUS) النابغة ، إنه جعل الهند كالسلطان محمود الغزنوى ساحة لحروبه وغزواته من عام ١٧٤٧ م إلى ١٧٦٩ م ، وقد اعترف عدد من معاصريه المعروفين الكبار بحنكته وذكائه وصلاحيته العسكرية ، وتدينه ، وحبه للعلم والعلماء ، وطيب نفسه وكرم طبعه ، إنه وحد أفغانستان التى كانت تشتمل على وحدات متعددة منتشرة بعد مدة طويلة من الزمن ، وضم هذه الوحدات بعضها إلى بعض فى صورة وحدة قوية محكمة ثابتة (١٤) .

أفغانستان بعد أحمد شاه الأبدالى :

توفى أحمد شاه الأبدالى عام ١١٨٦ هـ الموافق ٢٣ / أكتوبر عام ١٧٧٢ م بقندهار ، ومن المؤسف أن خلفاءه كخلفاء السلطان العادل أورنك زيب عالمكير ، كانوا ضعفاء غير أكفاء (وقد وقعت هذه المأساة مع أكثر مؤسسى الدول والحكومات والفاتحين المظفرين والحكام الأقوياء) فكان تيمور شاه الذى خلفه فى السلطان وورث عنه هذه المملكة العظيمة الناشئة ، لا يمت إلى والده العظيم العبقرى الطموح بأى صلة فى خصائصه ومزاياه ، فقد حكم عشرين سنة فى ضعف واختلال كانت تظهر أثناءها على مملكته الناشئة علامات السقوط والانهيار ومات عام ١٧٩٣ م ، وانتقلت السلطة أيام حكم ابنه محمودإلى أسرة « بارك زئى » (١٥) ، التى لم تزل تحكم أفغانستان إلى ثورة عام ١٩٧٥ م (١٦) .

وضع العالم الإسلامى العلمى والدينى :

سنتعرض - بعد أن استعرضنا العالم الإسلامى سياسياً وإدارياً - لدراسته علمياً ودينياً إذ إن لها صلة قريبة بحياة الإمام الدهلوى وموضوعه وتخصصه وذوقه وعمله الإصلاحى والتجديدى .

---

(١٤) وسيأتى عنه تفصيل أكثر فى الباب التاسع فى ذكر أحمد شاه الأبدالى .

(١٥) انظر للتفصيل « سيرة سيد أحمد شهيد » بالأردية ، الجزء الأول : « سقوط الأسرة الدرانية وأسبابه » ، ص : ٤٢٠ - ٤٢٣ .

(١٦) كانت هذه هى الأسرة التى واجهها الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وأصحابه وانتهى فرعها الأخير على الملك ظاهر شاه عام ١٩٧٥ م .

نوابغ القرن الثانى عشر الهجرى :

تفيدنا دراسة تاريخ المسلمين العلمى والفكرى وقصة نشاطاتهم العلمية التحقيقية والتأليفية أن حياتهم العلمية والفكرية ونشاطاتهم فى مجالات العلم والبحث والتصنيف والتأليف لم تكن مرتبطة بالتقدم السياسى ورقى الدول وازدهارها وفتوحها وانتصاراتها مثلما نجد فى تاريخ الشعوب والملل غير الإسلامية ، فإنها تعانى من الانحطاط العلمى وأزمة الرجال مع الانحطاط السياسى وانقلاب الحكومات وسوء الإدارة والفوضى فى البلاد .

وإذا فقدت تشجيع الحكومات وإشرافها واحتضانها ، وفقدت الثقة بالنفس والشعور بالاستعلاء فإنها تجف منابع فكرها وذكائها ، وتموت فيها عواطف المسابقة والمنافسة وحب التقدم وتضعف دوافع العمل وأسباب الإنتاج .

أما المسلمون فإن شأنهم يختلف فى ذلك عن غيرهم ، فقد نبغ فيهم مراراً وتكراراً - رغم انحطاطهم السياسى والفوضى الداخلية واضطراب الأوضاع - عباقرة ونوابغ لا يبدو أنهم وليدو عهد السقوط والانهيار ، ففى آخر القرن السابع الهجرى بعد سقوط بغداد - عاصمة المسلمين ودار خلافتهم - على أثر هجمات التتار - ذلك الجراد المنتشر - الذى حطم شرق العالم الإسلامى وأهلك الحرث والنسل ، وخرب الديار والبلدان التى كانت مراكز العلم والمعرفة منذ عدة قرون ، بعد كل هذا الدمار والسقوط والانهيار نجد فى أواخر هذا القرن وأوائل القرن الثامن رجالاً من نوابغ العلماء كشيخ الإسلام تقى الدين بن دقيق العيد (م ٧٠٢ هـ) محدثاً ، والعلامة علاء الدين الباجى (م ٧١٤ هـ) أصولياً ومتكلماً، وشيخ الإسلام ابن تيمية الحرانى (م ٧٢٨ هـ) إماماً ومجتهداً ، والعلامة شمس الدين الذهبى (م ٧٤٨ هـ) محدثاً ومؤرخاً ، والعلامة أبو حيان النحوى (م ٧٤٥ هـ) نحوياً ومفسراً ، وأمثالهم من نوابغ العلماء وعباقرة الفنون .

والسِرُّ فى ذلك أن دوافع النبوغ فى العلوم الدينية والبواعث على خدماتها ونشرها والحفاظ عليها مما تستقر فى داخل هذه الأمة وباطنها ، لا فى الخارج من إشراف الحكومات وتقديرها وتشجيعها ، وهذه الدوافع الخفية الباطنة هى الرغبة فى الحصول على رضا الله - تعالى - ووالقيام بواجب نيابة الأنبياء والمرسلين والشعور القوى بالحفاظ على الدين ونقله مصوناً من جيل إلى جيل .

فبالرغم من أن هذا العهد الذى نؤرخه هو عهد الاضطرابات الداخلية فى البلاد ، وقد

بدت فى الأفق علامات سقوط الدول والحكومات المسلمة حتى المملكة العثمانية العظيمة ظهرت عليها أمارات الهرم والسقوط ، وكانت البلدان الإسلامية حتى بلاد الحجاز تشهد صراعات وحروباً داخلية للتوصل إلى الإمارة والسلطان ، كان العلماء فى مصر والشام والعراق والحجاز واليمن وإيران والهند وغيرها من بلدان العالم الإسلامى منصرفين إلى التدريس والإفادة ، وكان الباحثون والمحققون والمفكرون مقبلين على التأليف والتصنيف والبحث والتحقيق ، وكان المشايخ والصوفية الربانيون متجهين إلى إصلاح النفوس وتزكية القلوب ، متصفين بالفضائل الروحية من صفاء القلب وإشراق الروح ، وقد بلغ بعضهم من علو المكانة وجلالة الشأن ما لا يوجد له نظير فى الأقطار المترامية والبلاد القاصية والدانية فى الماضى القريب .

خذ مثلاً علم الحديث الشريف ، تجد فيه المحدثين الكبار كالعلامة أبى الحسن السندى الكبير (م ١١٣٨ هـ) الذى درس مدة طويلة فى الحرم الشريف وتعليقاته على الكتب الستة معروفة بالهوامش الستة ، والشيخ محمد حياة السندى (م ١١٦٣ هـ) الذى يزدان به كذلك هذا العهد ، والشيخ إسماعيل العجلونى المشهور بالجراحى (م ١١٦٢ هـ) الذى كان من المحدثين الكبار فى الشام وكتابه « كشف الخفاء ومزيل الألباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس » (١٧) من أنفع الكتب وأجمعها فى هذا الموضوع ، ولعله أكبر مجموعة من مجاميع الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، ويتضح من دراسة الكتاب ما يملكه المؤلف من سعة النظر والإحاطة بالموضوع والأخذ بالإنصاف والاحتياط ، وتشتمل هذه المجموعة عدا الأحاديث الضعيفة والموضوعة على تلك الأحاديث المشتهرة بين الناس التى لا يعرف تخريجها بصفة عامة ، فعرف بها المؤلف وخرجها ، وكان الحرمان الشريفان من أكبر المراكز لتدريس الحديث الشريف حيث كان الشيخ أبو طاهر الكورانى الكردى ، والشيخ حسن العجيمى يلقيان الدروس ، وكان فى اليمن الشيخ سليمان بن يحيى الأهدل (م ١١٩٧ هـ) محدث اليمن الجليل ومن أكبر المحدثين وأجلهم فى عصوره خدمة للحديث ونشراً لعلوم السنة المطهرة ، وكان الشيخ محمد بن أحمد السفارينى (م ١١٨٨ هـ) من كبار علماء الحديث والأصول ، وهو صاحب : « الدرر المصنوعات فى الأحاديث الموضوعات » ، وكان الأمير محمد بن إسماعيل الحسنى الصنعانى (م ١١٤٢ هـ) محدثاً جليلاً ، ومحققاً كبيراً ومن مؤلفاته الجليلة « سبل السلام » ، شرح « بلوغ المرام » ،

---

(١٧) نشرته « مكتبة التراث الإسلامى » بحلب - سوريا .

و « توضيح الأفكار ، شرح « تنقيح الأنظار » ، ويلمع فى نوابغ هذا القرن أيضاً اسم العلامة الشيخ محمد سعيد السنبل (م ١١٧٥ هـ) الذى يعتمد أكبر شيوخ الحديث على أوائله لكتب الحديث [١٨] ، فى رواياتهم وإجازاتهم ، ومن كبار المحدثين كذلك العلامة محمد بن عبد الباقى الزرقانى (م ١١٢٢ هـ) الذى وصفه المؤرخون بقولهم : « خاتمة المحدثين بالديار المصرية» [١٩] .

ومن العلماء البارزين فى هذا العهد فى تبحرهم العلمى ، وكثرة التدريس والإفادة ، والتصنيف والتأليف ، الشيخ عبد الغنى النابلسى (م ١١٤٣ هـ) الذى كثر تلامذته والآخذون عنه ، ويصفونه : « بالأستاذ الأعظم » ، ويقال : إن مؤلفاته تبلغ مائتين وثلاثة وعشرين ، وقد كان العلامة إسماعيل الحقى (م ١١٢٧ هـ) أيضاً من علماء هذا العصر الذى ألف كتابه « روح البيان فى تفسير القرآن » ويعرف بالتفسير الحقى كذلك ، وكان الشيخ عبد الله بن حسين السويدى (م ١١٧٤ هـ) من علماء بغداد ، صاحب مؤلفات كثيرة [٢٠] .

وتوجد فى هذا العصر عدا المدارس والجامعات القديمة كالجامع الأزهر وجامع الزّيتونَة بتُونس ، وجامعة القرويين بفاس - المغرب - أسماء المدارس الأخرى بدمشق كالمدرسة الحافظية ، والمدرسة الشلية والمدرسة العذراوية [٢١] ، ويتكرر من بين الطرق الصوفية ذكر طرق النقشبندية ، والخلوتية ، والشاذلية ، والقادرية ، والرفاعية ، ويظهر أن مشايخها وأصحابها منتشرون من تركيا إلى أندونسيا .

نظرة على الذوق العلمى والأدبى والروحى فى العالم الإسلامى :

يغلب على أصحاب العلم والمثقفين فى هذا العصر ذوق الأدب والشعر وثقافة المجالس والنوادى ، واللطائف والطرائف ، والألغاز والأحاجى ، ولا يبدوا أنهم حازوا فيها الفضل والسبق ، أو ابتكروا نوعاً جديداً ، بل يطّرد فيه السجع وتكثرُ القوافى ويغلب

---

(١٨) وهو المعروف بالأوائل السُّنبلية فى أوائل كتب الحديث .

(١٩) انظر للتفصيل « البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » للعلامة محمد بن على الشوكانى صاحب « نيل الأوطار » و « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » للمرادى » .

(٢٠) انظر « سلك الدرر والبدر الطالع » .

(٢١) انظر « سلك الدرر » .

التكلف والتعمل ويتجلّى تأثير الحكومة التركية[٢٢] على الأوساط العلمية والأدبية ، فلا يعثر على باحث محقق ومفكر كبير إلا بعد بحث كبير ، وتزخر المجلدات الأربعة لـ «سلك الدرر » للمرادى بالقصائد والغزليات والأبيات والمقطوعات الشعرية ، ويكثر فيها ذكر المكاشفات والكرامات ، والأوهام والخرافات ، ويتوجه علماء البلدان التى هى تحت السلطة العثمانية ونوابغها وأصحاب الفضل والكمال فيها إلى دار الخلافة القسطنطينية ويتولون مناصب الحكومة ، والعلوم العقلية والحساب والهندسة وعلوم البلاغة والفقه وشئ من الحديث هى الأجزاء الأساسية للمناهج الدراسية ، وتنتشر الرقى والتمائم ، وقد نظم بعض العلماء متن « القدورى » ، والمتون الفقهية الأخرى ، وكان عدد من العلماء العرب يعرفون اللغة الفارسية والتركية ، وكان الناس لا سيما فى الشام يألفون اللغة التركية لكونها اللغة الرسمية ، وكان عدد كبير من علماء تركيا نازلين بسوريا ، ويتكلمون بالعربية الفصحى ، وكان التدريس فى الجامع الأموى بدمشق من أسباب الفخر والاعتزاز ، وكان بعض العلماء والمشايخ يلقون الدروس فى « الفتوحات المكية » وآخر يدرس « نصوص الحكم » وكان يدرس « شرح الجامى » و « مختصر المعانى » فى الشام أيضاً ، وكان التصوف هو السِّمة الغالبة حتى على العلماء والمحدثين ، وكان الشيخ عبد الغنى النابلسى وعدد من العلماء والمشايخ يقولون بوحدة الوجود[٢٣] .

سيطرة العلوم العقلية فى إيران وتأثيرها على البلدان المجاورة :

لقد أسس إسماعيل الصفوى (٩٠٥ - ٩٣٠ هـ) فى بداية القرن العاشر الهجرى ، الحكومة الصفوية فى إيران ، وجعل المذهب الشيعى هو المذهب الرسمى فى البلاد ، وقضى على المذهب السنى ومحا آثاره إلى حد كبير ، وبذلك انقطعت صلة إيران - تلك البلاد الخصبة التى أنتجت - فى جانب - أئمة فن الحديث ، والأساطين الأربعة لبنيان الحديث الشامخ ، وهم الإمام المسلم ، والإمام أبو داود ، والإمام النسائى ، والإمام ابن ماجة ، الذين خضع الناس لإمامتهم وجلالة شأنهم وأنتجت فى جانب آخر ، كبار الفقهاء النابغين ، والعلماء المتبحرين كالإمام أبى إسحق الشيرازى ، وإمام الحرمين أبى المعالى عبد الملك الجوينى ، وحجة الإسلام أبى حامد محمد الغزالى - وأمثالهم من نوادر الزمن

---

(٢٢) طبيعة الاتراك فى طبيعة السياسة والإدارة العسكرية (Martial Race) ولا نجد فيهم فى عهد حكمهم الطويل كبار العلماء المحققين والمؤلفين البارزين أمثال العلامة أبى السعود وطاش كبرى زادة وخليفة جلبى إلا قليلاً جداً .

(٢٣) انظر « سلك الدرر » ، الأجزاء : ١ - ٢ -٣ - ٤ .

ونوابغ العلوم - لقد انقطعت صلة إيران فى عهد هذه المملكة القوية العظيمة الذى يمتد على قرنين وربع قرن من الزمن عن الحديث الشريف والفقه والعلوم النافعة المفيدة .

فقد كان الملوك الإيرانيون يميلون إلى الحكمة والفلسفة ، لأن الشيعة لم تزل متعلقة بالفلسفة والاعتزال ، وقد كان الفيلسوف والرياضى المعروف خواجه نصير الدين الطوسى (م ٦٧٢ هـ) مؤلف « شرح إشارات ابن سينا » - الذى كان شيعياً ومعتزلياً - مستشاراً خاصاً لهلاكو خان وأميناً لديه (٢٤) .

وكانت هذه الثقة والزلفى عند الملك التتارى سبباً كبيراً فى نشر علوم الفلسفة والرياضيات فى المملكة التتارية التى كانت تحتوى على تركستان وإيران والعراق فقويت فيها الميول إلى العلوم العقلية ، وفى عهد الحاكم الثانى الملك طهماسب (م ٩٨٤ هـ) للمملكة الصفوية نفسها لمع نجم ميرغيات الدين منصور (م ٩٤٨ هـ) الذى كان حكيماً إشراقياً وفيلسوفاً ومؤسساً للمدرسة المنصورية بشيراز ، وتولى منصب الرئاسة فيها فى عهد الملك طهماسب لمدة طويلة ، وانتشر تلامذته وتلامذته إلى الهند ، فكان الأمير فتح الله الشيرازى (م ٩٩٧هـ) من تلامذته الذى قصد الهند فى أواخر القرن العاشر الهجرى وولاه الملك أكبر منصب الصدارة وهو الذى طبع المناهج والقرارات الدراسية والطرائق التعليمية فى الهند بالطابع العقلى وترك تأثيراً عميقاً استمر مفعوله إلى القرن الثالث عشر الهجرى وهو الذى جاء حسب تصريح العلامة آزاد البلكرامى - بمؤلفات صدر الدين الشيرازى والميرغيات الدين منصور ، والفاضل مرزاجان (م ٩٤٤ هـ) إلى الهند ، وقررها فى المدارس الإسلامية ، وطلعت شخصية المير باقرداماد (م ١٠٤١ هـ) فى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى الذى سيطر بذكائه وعقليته وأدبه على الأوساط العلمية والتعليمية من إيران إلى الهند ، وقد كان مرموقاً عظيم القدر والحظوة فى بلاد السلطان عباس الصفوى (م ١٠٣٧ هـ) وظلّ كتابه « الأفق المبين » غاية ما يحلق فى أجوائه المعلمون والكتاب النهائى فى الأوساط الدراسية .

ثم برزت شخصية العلامة صدر الدين الشيرازى (م ١٠٥٠ هـ) الذى كان حكيماً إشراقياً ، وفيلسوفاً طليقاً ، حر التفكير ، ومؤلفاه « الأسفار الأربعة » و « شرح هداية الحكمة » المعروف بـ « صدراً » (٢٥) يحملان صيتاً ذائعاً وشهرة عالمية ، لقد تعاون الذوق

---

(٢٤) انظر « تاريخ أخبار وآثار خواجة نصير الدين الطوسى » نشر جامعة طهران ، إيران .

(٢٥) كتاب « صدراً » مقرر فى المناهج الدراسية فى الهند من القرنا لحادى عشر الهجرى ولم يكن الطالب يعد قبل دراسته وإحراز البراعة فيه خريجاً فاضلاً لأى مدرسة من مدارس الهند .

الإيرانى - الذى تعود منذ قرون على صنع القبة من الحبة تشقيق الشعرة مع هذه النزعة العقلية الفلسفية ، وبث شبكة التقعير فى الألفاظ وتوليد الطرائف والنكات وتعقيدات الدعاوى والمفروضات من الحدود الغربية لإيران إلى الحدود الشرقية للهند ، التى لم يكن مثلها إلا كما يقال « تمخض الجبل فولد فأراً » ، لقد كانت دولة العلوم العقلية والفلسفية تسيطر على الأوساط التعليمية والتأليفية من عجم القرن العاشر إلى عرب القرن الثانى عشر، ولم تكن هناك وسيلة للعلماء لإظهار فضلهم ونبوغهم وإثبات ذكائهم وعبقريتهم إلا حل عبارات المؤلفين السابقين ، وشرحها والتحشية عليها ومحاولات فهمها وإفهامها ، وكان أدنى مقال وانتقاد لفائدتها وثمرتها إثباتا للجهل والغباوة وسوء الفهم .

لقد تركت إيران تأثيرها - بطبيعة الحال - على أفغانستان ، ولا سيما على « هرات » المدينة الغربية لأفغانستان ، فكان القاضى محمد إمام الهروى الكابلى (م ١٠٦١ هـ) كسفير لأساتذة إيران ، ونوابغها فى المنطق والفلسفة ، ورفع ابنه القاضى محمد زاهد ، المعروف بمير زاهد (م ١١٠١ هـ) منار هذه العلوم زاد فى قدرها ومكانتها ، وقد أمضى معظم حياته فى الهند ونالت حواشيه الثلاثة على « شرح المواقف » و « شرح التهذيب » و« الرسالة القطبية » التى تعرف بـ « الزواهد الثلاثة » قبولاً كبيراً ورواجاً عظيماً فى الأوساط الدراسية فى الهند .

ولم يكن هو بجانب فضله ونبوغه فى العلوم العقلية عالى الكعب فى الفقه والحديث والعلوم الشرعية حتى إنه لم يكن يثق بنفسه فى تدريس كتاب متوسط متداول فى الفقه كـ«شرح الوقاية » ، فقد جاء فى « ملفوظات الشيخ عبد العزيز الدهلوى » وهى مجموعة كلماته التى دوّنها بعض أصحابه : كان أحد الأمراء يقرأ على مير زاهد كتاب « شرح الوقاية» ولكنه - لعدم ثقته بنفسه فى تدريس هذا الكتاب - لم يكن يدرس إلا بعد أن يحضر الجد (٢٦) ، (وهو الشيخ عبد الرحيم ، الذى كان أحد تلامذته نفسه فى العلوم العقلية »).

وكان خوضه - بجانب ذلك - فى العلوم العقلية إلى حدّ أن كان يقول « كلام المزاجان هو روحى وكلام أخوند هو روح روحى » (٢٧) .

لم يكن هذا التأثير لإيران على الهند وأفغانستان فحسب ، بل كانت إيران تترك تأثيرها

---

(٢٦) ملفوظات شاه عبد العزيز.

(٢٧) أيضا ص : ٨٣ .

على العـراق والشام أيضـاً ، فكان ينظر هناك كـذلك إلى علمـاء المعقـولات بعين التقـدير والاحترام ، وكانت لهذه العلوم مهابة فى القلوب وجلالة فى الـنفوس وكانت كتبها مقررة فى المناهج الدراسية .

الوضع الخلقى والاجتماعى والعقائدى العام :

لقد كان العالم الإسـلامى - رغم اشتغال العلماء بالعلم والبحث ووجود عـدد كبير من النوابغ وأصحاب الفضل والكمال وانتشـار السلاسل والطرق الصوفية فى الناس ، والعناية الحديـث النوى الشريف ، وتدين كـثيـر من الملوك والحكام ورغم وجود تلك الحكـومات المسلمة التـى كانت تدين الإسلام وتدين بالشـريعة الإسلامـية فى كـثير من نواحى الحـياة العمـلية وقوانين الأحـوال الشخـصيـة ووجود المدارس آهلة والمسـاجد مـعمـورة ، وكون الجمهور وعامة المسلمين يحبـون الإسلام ويدينون به ، ويعتقدون فى المشايخ والصالحين ، ويحافظون على أركان الدين وفـرائضه ، ولا تخلو قلوبهم من الحمية الإسـلامية - ، كان العالم الإسـلامى رغم كل ذلك يعانى من الجمود ،والانحطاط ، وقـد تسربت الأدواء إلى الأخلاق والاجـتماع وقبل المسلمـون كثيـراً من العادات والشعائر والـتقاليد العـجمية غـير الإسلاميـة ، وكان الحكام والأمراء أنانيين قـد ركبوا رؤوسهم وعـملوا بأهوائهم ، وكانت الفـوضى فى الدول والحكومات ، وقـدألهت طبقـة الأمراء والأثرياء أمـوالهم وثرواتهم ، وتسربت إليـهم أخلاق المترفين ونزعاتهـم ، وسيطرت على كثيـر من طبقات المجتـمع عادة الكسل والتـواكل والبطالة ، والتعلق بحـواشى السلطان ، والتقـرب فى البلاد ، والإطراء والتملق ، وكانت طبـقات أخرى تهيم فى الأوهام والخرافات ، وكانـت تتراءى نماذج عبادة القبور وتـقديس الأولياء وتعظيمـهم إلى حد التأليه وتعـدى حدود التوحيد ، حـتى ظهرت مظاهر الشرك الجلى فى بعض المواضع .

وقـد صـور الـمؤلف الأمـريكى الدكتـور لوتروب استـودرد (STODDARD LOTH-ROP) فى كتابه الشهير « NEW WORLD OF ISLAM » (حاضر العالم الإسلامى) : العالم الإسلامى فى القـرن الثامن عشر المسيحى ، وهو إن كـان يوجد فيه إفراط وغلو فى بعـض المواضع ولكـنه بمجـمـوعـة ليس تـصـويراً خـطأ (٢٨) للعـالم الإسـلامى

(٢٨) لقد صدَّق هذا التصوير والاستعراض العام للعالم الإسلامى واستحسنه ورآه أمس بالحقيقة والواقع أمير البـيان شكيب أرسلان فى حواشـيه الشهيرة علـى ترجمة هذا الكتاب للعربـية التى نشرت باسم « حاضر العالم الإسلامى » فقال معلقاً على هذا الوصف « لو أن فيلسوفاً من فلاسفة = =

حينذاك ، وقد جاءت فيه جوانب كثيرة لا ينتبه لها من يعيشون داخله ، والمشاهدون له كل حين ، وتسترعى انتباه الزائرين الجدد والمشاهدين لأول مرة ، وسوف لا يكون خطأ ولا غير لائق بالمكان أن ننقل شيئاً من هذا التصوير بدون أن نتحمل مسئولية صحته مائة فى المائة ، يقول المؤلف الأمريكى :

« فى القرن الثامن عشر كان العالم الإسلامى قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ ومن التدنى والانحطاط أعمق دركة ، فأربدَّ جوُّه ، وطبَّقت الظُّلمة كل صقع من أصقاعه ورجاء من أرجائه ، وانتشر فيه الفساد الأخلاق والآداب ، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربى » .

« واستغرقت الأمم الإسلامية فى اتباع الأهواء والشهوات وماتت الفضيلة فى الناس ، وساد الجهل ، وانطفأت قبسات العلم الضئيلة ، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال ، فليس يرى فى العالم الإسلامى فى ذلك العهد سوى المستبدين الغاشمين كسلطان تركية وأواخر ملوك المغول فى الهند ، يحكمون حكماً واهناً فاشى القوة متلاشى الصبغة ، وقام كثير من الولاة والأمراء يخرجون على الدولة التى هم فى حكمها وينشئون حكومات مستقلة ولكن مستبدة كحكومة الدولة التى خرجوا عليها ، فكان هؤلاء الخوارج لا يستطيعون إخضاع من فى حكمهم من الزعماء هنا وهناك ، فكثر السلب والنهب ، وفقد الأمن وصارت السماء تمطر ظلماً وجوراً ، وجاء فوق جميع ذلك رجال الدين المستبدون يزيدون الرعايا إرهاقا فوق إرهاق فغلت الأيدى وقعد عن طلب الرزق ، وكاد الغرم يتلاشى فى نفوس المسلمين ، وبارت التجارة بواراً شديداً ، وأهملت الزراعة أيما إهمال » .

وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء ، فألبست الوحدانية التى علمها صاحب « الرسالة» الناس سجفاً من الخرافات وقشور الصوفية ، وخلت المساجد من أرباب الصلوات وكثر عديد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم فى الحج

= الإسلام أو مؤرخاً عبقرياً بصيراً بجميع أمراضه الاجتماعية ، أراد تشخيص حالته فى هذه القرون الأخيرة ما أمكنه أن يصيب المحز وأن يطبق المفصل تطبيق هذا الكاتب الأمريكى ستوارد » (ش).

إلى قبـور الأولياء ويزينون للناس الـتماس الشـفاعـة من دفناء القبور ، وغـابت عن الناس فضائل القـرآن ، فصار يشرب الخـمر والأفيون فى كل مكان ، وانتـشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء » [٢٩] .



---

(٢٩) « حاضر العالم الإسلامى » (تعريب الأستاذ عجاج نويهض) جـ ١ ص : ٢٥٩ - ٢٩٠ .

الباب الثانى

الهند

الوضع السياسى :

ولد الإمام ولى الله الدهلوى قبل وفاة السلطان أورنك زيب عالمكير (م ١١١٨ هـ) بأربع سنين ، عام ١١١٤ هـ ، وقد كان السلطان عالمكير فى ضوء التاريخ المعلوم المحفوظ ، أكبر سلاطين شبه القارة الهندية بعد الملك أشوكا (إذا كانت البيانات والتصريحات عن سعة مملكته وعظمتها صحيحة معتمدة) وكانت مملكته وحكومته أوسع الحكومات التى قامت فى الهند ،يقول مؤلفو «تاريخ الهند» CAMBRIDGE HISTORY OF INDIA:

« كانت حكومة أورنك زيب من غزنين إلى شتا غونغ ، ومن كشمير إلى كرناتك » [1].

ويقول المؤرخون الآخرون : « لم تقم فى الهند من العهد القديم إلى عهد سيطرة الإنجليز وغلبتهم مثل هذه الحكومة (حكومة أورنك زيب) الواسعة الأرجاء ، الطويلة الأبعاد [2] .

وقد فتح مير جملة فى عهده وبإيعاز منه ولاية « آسام » لأول مرة (التى كانت ولا تزال منطقة مستقلة عن الهند فى لغتها وثقافتها ومدنيتها ، وديانتها وسلالتها) وضمها إلى الهند[3]، وبالرغم من تعليقات وانتقادات المؤرخين الغربيين والمؤرخين الهندوس التى ليس الدافع إليها إلاّ حمية أورنك زيب ، وحمايته للإسلام [4] ، فإن قوة إرادته التى لا يوجد لها نظير ، ورباطة جأشه ومقدرته الإدارية والتنظيمية ، وحياته البسيطة الزاهدة ، وبطولته

---

(١) CAMBRIDGE HISTOY OF INDIA , VOL , 4 P . 316 .

(٢) MUSLIM RULE IN INDIA , D . P MAHAJAN . DELHI , 1971
CAMBRIDGE HISTORY OF THE WORLD . P . 175 DLHI 1970.

(٣) انظر للتفصيل « مآثر عالمكير » لمحمد ساقى مستعد خان ، ص : ٣٩ - ٤٠ ، طبع كلكتة عام ١٨٧١ م ، « وقائع سيرو سياحت » (مذكرات السياحة) للدكتور برنير (DR . BERNIE) ص : ٢٩٤ .

(٤) انظر للتفصيل « رجال الفكر والدعوة » للمؤلف الجزء الثالث الإمام السمرقندى) ص : ٢٩٥ - ٣٠٩ .

وشجاعته من الحقائق التاريخية التى لا يختلف فيها اثنان ، ويعترف بها جميع المؤرخين(٥) .

أورنك زيب عالمكير :

وجه السلطان أورنك زيب بعد ما تولى بيده زمام الأمور كل همه إلى القضاء على آثار العهد الأكبرى المخالفة للإسلام ، والحد من تأثير التشيع (الذى كان أكبر مراكزه فى جنوب الهند ، ولذلك صرف عالمكير الجزء الأكبر من حياته وطاقاته للسيطرة عليه) واستئصال التأثيرات الحضارية لإيران المختلطة بالنزعات المجوسية التى دخلت فى عهد الملك أكبر وكانت توجد فى أشكال التقويم الإيرانى وعيد النيروز ، وعين المنصب الشرعى للمحتسب، ليردع الناس عن ارتكاب المحرمات والمنهيات ، وعطل كثيراً من أنواع الدخل المحرمة التى كانت تحصل بها للحكومة ثروات طائلة ، ووقف الرقص والغناء ، وعادة الاجتماع لزيارة السلطان التى كانت تشم منها رائحة التقديس ، وعيَّنَ القُضاة الشرعيين ، وخول لهم حقوقاً وسلطة كبيرة وتولى - تيسيراً للقضاة وتطبيقاً للقوانين الشرعية وتنفيذاً لها فى سائر مملكته - تدوين المسائل الفقهية ، وترتيبها من جديد ، فكان من نتيجة ذلك أن ظهرت مجموعة ضخمة باسم « الفتاوى العالمكيرية » التى اعتبرت فى مصر والشام أيضاً (حيث تعرف باسم « الفتاوى الهندية ») مصدراً معتمداً كبيراً من مصادر القانون الإسلامى وألغى عادات تقبيل العتبة والأرجل غير الإسلامية عند التحية والتسليم وكل ما يخالف التوحيد ، وأعاد العمل بسنة التحية الإسلامية ، وبالجملة فقد كان كما يقول الدكتور إقبال فى بيت من شعره :

« كان فراشة لشمعة التوحيد ، وكان فى بيت الأصنام والأوثان كإبراهيم - عليه السلام- » .

وعلاوة على هذه المآثر الإصلاحية الثورية - التى تحمل قيمة دينية كبيرة - كانت من أكبر مزاياه وأبرزها ، يقظته وذكاؤه ، وجِدُّه ونشاطه ، واهتمامه بالمسئولية ، ومعرفته الدقيقة بكل صغير وكبير فى أمور دولته ، ومحاولته الهيمنة الكلية على إدارة البلاد ونظامها ، الأمر الذى يعتبر من الشروط الأولية لأى حاكم من حكام هذه المملكة الواسعة العريضة ، إنه كان قد كتب إلى والده السلطان شاهجهان - وتشهد عليه حياته وتؤيده - :

---

(٥) انظر كتاب استينلى لين بول بعنوان « أورنك زيب » وكتاب ظهير الدين الفاروقى ، بعنوان (AURANGZEB AND HIS AGE) وكتاب جادونات سركار « HISTORY OF AURANGZEB » ، ومقالات العلامة شبلى النعمانى « عالمكير » .

« إننى لا يمكن أن أُتَّهمَ بالكسل والفتور » (٦) ، وقال مرة وهو يردُّ على كلام أحد الأمراء الذى أشار عليه بألا يتحمل المجهودات اشاقة المضنية فى أمور الدولة (فإنه يخاف منها الإضرار بصحة الملك) فقال : إن ربى ابتعثنى لأن اجتهد وأكدح للناس ، وأنشد بيتاً من شعر السعدى ما معناه :

« لا تَنَمْ غافلاً فإن النوم حران على قائد القوم » (٧) .

إن هذا الاطلاع الواسع والمعرفة الدقيقة الشاملة بإدارة البلاد ، وشئونها - رغم سعة الدولة وانتشار أطرافها - ليس إلا عمل ذلك الرجل العصامى الذى يحمل إرادة حديدية ، وجسداً حديدياً ، وشعوراً بالغ الغاية بالمسئولية وخشية الله تعالى فى السر والعلن ، ومن المدهش الغريب أن معرفته بالكليات ومهام الدولة وشئونها الكبيرة لم تكن تحول دون معرفته بالجزئيات ، بل كانت معرفته بالكليات لا تقل عن اطلاعه على جزئيات الدولة ، إنه كان فى دكن (الجنوب) ولكنه كان فى الوقت نفسه خبيراً بما يجرى فى شمال الغرب والشرق، وكان لأجل اطلاعه الشخصى ، وبالاستعانة بكُتّابه يفحص بنفسه تفاصيل الأمور الإدارية ويختبرها ، وكان عُمّاله لذلك دائماً فى حالة حذر وتهيؤ ، وهو الذى يعين الكتاب ، والمحررين بنفسه (٨) ، ويعبر هذا البيت من شعره عن قلبه وشعوره بالمسئولية ، ويصور ما يواجهه - نتيجة هذا الشعور الزائد - من مشاكل ومعضلات ، فقد كان ينشد هذا البيت كثيراً الذى معناه :

« إن هموم العالم وأحزانه كثيرة ، ولا أحمل إلا قلباً واحداً ، فكيف أحمل رمال هذه الصحراء فى زجاجة ساعة واحدة » (٩) .

وكان ينشد أحياناً هذا البيت ويأخذ به فى العمل والتطبيق ، ومعناه : « لا أقول لك ، ضيع أو فكر فى المنفعة ، أيها الغافل عن الفرص المتاحة لك كن أسرع ما تكون فيما تحب أن تكون » .

أخلاف عالمكير الضعفاء :

وخلف أورنك زيب على عرشه العظيم المهيب (الذى كان قد أصبح حامياً للدين

---

(٦) انظر ظفر نامه شاهجهان .

(٧) انظر « أورنك زيب » لاستينلى لين بول ص : ٧٢ - ٧٣ .

(٨) المصدر السابق ، ص : ٧٩ .

(٩) « تاريخ هندوستان » ص : ٤٧٥ ، جـ : ٨ .

وحارساً له وخادماً للشعب المسلمْ بَدَلَ أن يكون ماحياً للدين وهادماً له ومستغلاً للشعب) من أولاده أولئك الأشخاص الضعاف الذين كأنهم حلفوا أن يتداركوا ما وقع فيه عالمكير من « خطأ » الحفاظ على الدين والذبّ عنه ، وإحياء الشريعة الإسلامية ، وإجراء السنة النبوية ، وإنهم سيكفّرون - دائماً - عن تلك « الجريمة » التى ارتكبها السلطان عالمكير بتوسيعه لحدود المملكة ، وتنظيمه لإدارة البلاد ، وتوطيد دعائم الحكم بيقظته وحنكته ، وجدّه ومثابرته ، وشعوره بالمسئولية وما أدخل من الرعب والهيبة فى قلوب العامة ، والأشرار والمفسدين ، بترفهم وبذخهم وكسلهم وعدم كفاءتهم ، وصراعهم الداخلى ومنازعتهم ، واعتمادهم - كلياً - على الوزراء وأركان البلاط المغرضين المتكالبين على الجاه والسلطان ، وغفلتهم عن شئون الدولة وإدارة البلاد ، فكان من سوء حظ الدولة المغولية، بل الأمة الإسلامية ، بل الهند كلها أن توالى على عرش مملكتها ملوك ضعفاء غير أكفاء وكان من عجائب التاريخ ومن الأدلة على أن الله - تعالى - غنى عن العالمين ، أن كان خليفة أورنك زيب الأول (شاه عالم بهادر شاه الأول) نفسه على الضد من والده العظيم.

لقد توالى على عرش الدولة المغولية فى عهد الإمام ولى الله الدهلوى (١١١٤ - ١١٧٦ هـ) بعد السلطان أورنك زيب أحد عشر ملكاً ، وها هى أسماؤهم :

١ - محمد معظم بهادر شاه (الملقب بشاه عالم بهادر شاه الأول) .

٢ - معز الدين جهاندار شاه .

٣ - فَرُّخ سير ابن عظيم الشان .

٤ - نيكوسير .

٥ - رفيع الدرجات بن رفيع القدر .

٦ - رفيع الدولة بن رفيع القدر .

٧ - محمد شاه بن جهان شاه .

٨ - أحمد شاه بن محمد شاه .

٩ - عزيز الدين عالمكير بن جهاندار شاه .

١٠ - محى السنة بن كام بخش بن عالمكير .

١١ - شاه عالم بن عزيز الدين .

أى أنه تعاقب أحد عشر ملكاً فى مدة نصف قرن من الزمن ، وكان منهم من لم تمتد

حكومته إلا عشرة شهور [١٠] ، ومنهم من حكم أقل من أربعة شـهور [١١] ، ومنهم من حكم لأيام [١٢] أو مدة يسيرة جداً [١٣] ، وسوف نتحدث فى السطور التالية عن أهم الوقائع والأحداث فى عهد خلفه الأول شاه عالم بهـادر شاه ، والملك فرُّخ سير بن عظيم الشان ، والملك محـمد شاه ، والملك شاه عـالم الثانى ، الذين أسهـموا بدورهم فى تاريخ الهند ، ومصير المسلمين الهنود .

شاه عالم بهادر شاه الأول :

كان هذا أكبر أبناء عالمكير الذى هزم أحـد إخوته محمد أعظم وتربع على عرش الدولة، وأكبر دليل وأوله على اخـتلاف ميوله وطبيعتـه عن ميول عالمكير وطبيـعته أنه تبنى المذهب لشيـعى الذى لم يكن مخالفًـا لعقائد السلطان عالمكـير وطبيعـته وذوقه فحـسب ، بل كان مخالفاً لعقائد جميع الملوك التيموريين المغـول ومذهبهم ومنهجهم فى الحياة ، وكان معاكساً لمصالح هذه الدولة أيـضاً (التى كان تسـعون إلى خمـسة وتسعين فى المائة مـن سكانها من حدودها الشرقية بنغاله إلى حدودها الغربيـة بكابل وقندهار سنيين عقيدة ، حنفيين مذهباً) ولم تكن هناك إمكانيـات فى الهند لقبـول هذا المذهب ونجاحـه على مستـوى الجمـاهير ، وحسب تصريح غلام حـسين طبا طبائى مؤلف « سير المتأخـرين » (الذى ينمتى إلى الفرقة الاثنى عشرية ، وتتجلى شـيعيته فى تاريخه للوقائع والأحداث) لما أمـر بهادر شاه باعتناق المذهب الشيعى ، وعقد المباحثـات والمناظرات مع علماء أهل السنة فى هذه القضية ، وأمر بإدخال هذه الكلمـات : « على ولى الله ، وصى رسول الله » فى الخطبـة حدث اضطراب فى لاهور حيث كـان الملك مقيماً ، ووقـعت اشتباكـات ، وصرح المؤلف بأن ذلك لم ينل قبولاً ورواجاً ، يقول :

« لم يزل بهادر شاه يصرُّ على هذا ، ويسعى جاهـداً فى نشر المذهب الشيعى وتقويته ، ولم يزل باب المناقشـة والمناظرة مع العلماء مفتـوحاً لمدة طويلة من الزمن ، ولكن ذلك لم يُجِد شيئاً » [١٤] .

وكان من نتيجة هذا التغيير أن اسـتاء الجماهير والجيش كذلك،ولم يبق فى الجيش ذلك

---

(١٠) وهو معز الدين جهاندار شاه .

(١١) هو رفيع الدرجات بن رفيع القدر ، وكانت مدة حكومته ثلاثة شهور وعشرة أيام .

(١٢) محى السنة بن كام بخش بن عالمكير .

(١٣) رفيع الدولة بن رفيع القدر .

(١٤) « سير المتأخرين » ، جـ : ٢ ، ص : ٣٨١ .

الحماس الديني الذى كان فى عهد المغول الماضى قـوة دافعة كبيرة ، وقد تفطن لذلك بعض المؤرخين من غيـر المسلمين أيضاً ، يقول الدكتـور ستيش جندر : « لقد ضـعف تأثير الدين على سياسة الحكومة » (١٥) .

ويقول الشيخ ذكاء الله فى « تاريخ الهند » :

« لقد حدثت انقلابات وتطورات كبيرة ، بعـد عالمكير فى أمور الدولة ، وتغيرت أشكال العلاقـات كلها ، وإنقلبت العـلاقات التى كـانت بين الدولة التيـمورية والمرهتـة رأساً على عقب، وكانت الدولة المغـولية قد بلغت من الضعف والهزال حد الاحـتضار ، ولكنها رغم احتضارها وإشرافها على الموت لم تنس كبرياءها وغطرستها » (١٦) .

كان عالمكير إذا كان فى أورنك اباد (١٧) خافه أركان الدولة وكبار الأمراء فى بهار وبنغاله فضلاً عن دهلى وهابوه ، فقد كان متفـقداً للأحوال ، مطلعاً على الأمور الجليلة والحقيرة من شئون الدولة ، ولم يكن يتأخر لحظـة فى إصدار أوامره فى الحين المناسب ، أما خلفه (بهادر شاه) فكان حاله كما يقول مؤرخ الهند :

« كانت أوامره غير منتظمة ، ولم يعد أى اعـتبار لتوقيع السلطان ، وكان السلطان يقول لخدمه وحـواشيه : لقد تحـالف كل المؤظفين وتوافقوا فـيما بينهم فمـا يرونه أفضل عندهم ينفذونه ، وليس لى إلا الإسم ، ولم يعـد لى عمل سوى أن ألبّى حاجـات الخلق وأحقق مطالبهم » (١٨) .

ويقـول : « لقـد أرخ بعض الظرفـاء المتندّرين جـلوسـه على عـرش الدولة بـ « الملك الغافـل» ، إنه يسهر الـليالى ، وينام إلى الضـحى ، وهذا يسبب المصـاعب للناس فى أيام أسفارهم . . . » (١٩) .

---

(١٥) DR . SATISH CHANDRA PARTES AND POLITICS IN THE MUCHAL OURT , 1707 - 40 ALIGARH 1959 , P - 40 .

(١٦) « تاريخ هندوستان » للمُولوى ذكاء الله الدهلوى ، جـ ٩ ، ص : ٣٣ .

(١٧) مدينة فى الجنوب ، كانت فى إمـارة حيدر آباد سابقاً وتقع الآن فى مهاراشـتر وتبعد من دلهى ميلاً ، وقد أقام فيها أورنك زيب (سنة) للقضـاء على الإمارات النابتة (وأكثرها شيعية) التى انفصلت عن المركز فى فترات مختلفة .

(١٨) « تاريخ هندوستان » ، ص : ٣٨ .

(١٩) أيضاً .

ويقول : « أن الأمر الثالث الذى أقدم عليه مخالفاً لدستوره وقانونه ، أنه عاتب العلماء وغضب عليهم ، وأودعهم فى السجون ، ثم غلب عليه الخفقان حتى ودع هذه الدنيا الراحلة فى عاصمته لاهور فى ١٩ / محرم عام ١١٢٤ هـ » (٢٠) .

ويشير الطباطبائى أيضاً إلى ما حصل له فى آخر عمره من اختلاط سفه ، وإصدار أمر بقتل الكلاب ، وأنه كان يظن به السحر » (٢١) .

وهكذا تضعضعت الدولة المغولية العظيمة فى عهد الخليفة الأول لعالمكير ، وفى مدة ست سنوات فحسب ، وزالت تلك المهابة والسطوة ، والعظمة التى كانت من عهد الملك بابر تخيف القوى المخالفة ، وترعب قلرب الغوغائيين وأصحاب الفتن والثورات ، وتسيطر على قلوب الخاصة والعامة .

فرّخ سير :

لقد استولى فى عهد فرخ سير (١١٢٥ هـ - ١١٣١ هـ) حسين على خان وعبد الله خان (اللذين كان يلقب الأول منهما : بأمير الأمراء والثانى بقطب الملك) على الملك ، وعلى المملكة كلها ، فكان فرخ سير ألعوبة فى أيديهما ، وقد حبساه أخيراً ثم أطلقاه من قيد الحياة ، يقول مؤلف « تاريخ الهند » :

« لقد كان فرخ سير طيب الأخلاق ، رحب الصدر ، يقدر الناس ، وكان يحاول يقابل خدمة كل أحد ، واهتمامه به أن يوليه منصباً لائقاً وخدمات جيدة ، ويبرزه فى الأقران ، ولكنه لم يكن يملك من السلطة شيئاً ، ولم يكن محنكاً ، فقد نشأ وتربى فى ولاية بنغاله بعيداً عن آبائه وأجداده وفى غفلة عن أمور المملكة وشئون الدولة ، وكان يفقد الثبات والاستقامة والرأى السديد ، ويقتدى بآراء غيره ، قد أتاه الجد والحظ بالعرش والتاج ، وقد كانت الأسرة التيمورية تمتاز بالبطولة والشجاعة ، أما هو فكان خلوا من ذلك جباناً ضعيفاً ، ولم يكن يسبر غور الكلام ، ولا يتوصل إلى فهم غرض المغرض ، فأصبح بنفسه من بداية حكمه معول هدم لدولته » (٢٢) .

وكان راجه رتن سنكه (ديوان السيد عبد الله خان) يتدخل فى أمور جميع الولاة

---

(٢٠) أيضاً .

(٢١) « سير المتأخرين » ص : ٣٨١ - ٣٨٢ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص : ١٠٩ .

والأمراء ، فلم يكن عنده لأى واحد من النـاس تقدير ولا اعتبـار ، ولا سيما فى الشئون المالية ، وقد ازداد ترف الملك وخلوته وسفهه وكانت ضرورات الناس معطلة [٢٣] .

وأخيراً سمل الإخـوان (قطب الملك وأمير الأمراء) عينى الملك فرخ سيـر وحبساه فى السجن داخل القـلعة التى كانت كـحفرة القـبر ، ومات الملك بعـد أن حكم ست سنوات وأربعة أشهر ، وقـد قضت هذه الوقائع والأحداث على ما كان لخلفـاء العرش المغولى من تقدير واحترام وما كان للولة المغولية من قوة واعتبار .

محمد شاه بادشاه (م ١١٦١ هـ) :

حكم محـمد شاه تسـعاً وعشرين سنة وسـتة أشهـر ، وعهده مليئ بالحـوادث والوقائع الهائلة ، ففى عهده كانت حمـلة نادر شاه التاريخية على دلهى ، ولكن هذين الأخوين من الشيـعة الأشـراف المعروفين بـ « سادات بارهـه » قطب الملك عبد الله خـان وأميـر الأمراء حسين على خان ، كانا مُسيطرين على الدولة - كُلّياً - وكان أهل البلاط يرون أن الملك لم يبق له - لأجل سيطرة هذين الأخوين - شئ من الحكم وإصدار الأوامـر إلا صلاة الجمعة ... وكأن هذين الأخـوين قد شمرا عن سـاق الجد على أن يلحقـا العار بالأسرة التركـية والمغـولية ، ولا نجـاة فى الخلوة والعـزلة عن المناصب ، وقلوب الوارثـين للعرش والتـاج وأبنائهم وأحفادهم وحشمهم وخدمهم البعيدين والقريبين الذين يفدونهم بالأرواح فى حزن عميق وأسى بالغ إذ يرون وارث العرش والتاج لا سلطة له ولا اختيار ولا قدرة على إجراء أحكام الشرع ولا صـلاة الجمعـة ، والهنادك من قرب مدينـة أكره إلى ساحل البـحر يبنون المعابد ، ويمنعون من ذبح البقر [٢٤] .

وكان الناس كلهم صغـيرهم وكبيرهم يحنقون علـى رتن جند سلطته وتدخله فى الأمور الدولية والشئون المالية الذى لم يكن يراعى إلا أشـراف « بارهه » وقبيلة البقالين ، وكانت البيوتات الكريمة فى كل مكان تعيش بالذل والمهانة » [٢٥] .

ويقول الطباطبائى مؤلف « سير المتأخرين » :

« لما أن الملك كان شاباً فاقداً العزيمة ، قليل الجراءة ، ينهمك فى اللذات وحياة الترف

---

(٢٣) أيضاً ، ص : ١٣٠ .

(٢٤) « تاريخ هندوستان » ، جـ : ٩ ، ص : ١٦٦ .

(٢٥) أيضاً ، ص : ١٨٢ ، جـ : ٩ .

والبذخ ، ولا يلتفت إلى شئ من أمور الحكم إلا إذا كان أمراً ضرورياً جداً ، وهكذا زال الخوف والمهابة - تدريجياً - من قلوب الأمراء والأعيان والوجهاء ، بل من قلوب عامة الناس ، فكان كل أحد منهم يفكر فى محله أن يعلن حريته واستقلاله ، وينفض يده من الطاعة والانقياد (٢٦) .

ولم يكن حينذاك فى البلاط وأركان الدولة إلاشخصية نظام الملك آصف جاه الذى كان مع مضاء عزيمته وعلو همته وفياً لصاحب العرش والتاج مخلصاً ناصحاً ، ولكن الأشراف والعناصر الإيرانية كانت تتغلب عليه ولا تدع له أى مجال ولا تسمع له كلمة ، ولذلك لما رأى آصف جاه أنه لا يقدر وفاءه وإخلاصه وأن إقامته هنا إضاعة للوقت ، وتعريض النفس للخطر فى كل حين اتجه إلى دكن (الجنوب)وخلا الجو فى دلهى للمغرضين وأصحاب المطامع .

ثم غلب على محمد شاه ترف بالغ حتى خلف وراءه المترفين السابقين وأنسى الناس قصصهم ورواياتهم ، وضرب رقماً قياسياً فى البذخ والعيشة الرغيدة الناعمة ، يقول مؤرخو الهند :

« إن محمد شاه لم يغير ديانته ، ولكنه غير مذهبه ، فأصبح السحاب الداكن من محبوبيه ، وصدر الأمر العام بأنه إذا هاجت السحب من سفوح جبال هملايا ، ورعدت وبرقت فلتنصب له الخيام فى الصحراء ، ثم لا يسمع إلا صوت الملك الهائم السكران :

الصبوح الصبوح يا أصحاب المدام المدام يا أحباب

وانتهت - أخيراً سلطة أمير الأمراء السيد حسين خان وقطب الملك النواب عبد الله خان (حسن على خان) من أشراف « بارهة » ، وطفحت كأس حياتهما ولكن الدولة المغولية - رغم ذلك - لم تتغير ، لأن الملك كان يفقد كل صلاحية للحكم ، وأدنى بصيرة وتغرس للأخطار المحدقة .

يقول السيد هاشمى الفريد آبادى فى تاريخه للهند :

« لقد احتفل فى البلاد كلها بمناسبة انتهاء الأشراف « صانعى الملوك » وعودة القوة والسلطة إلى محمد شاه ، واستقبل الناس ذلك - بصفة عامة - بفرح وسرور ، ولكن هذ السرور إن لم يكن نتيجة عاطفة الحُبّ للسلاطين والملوك ، بل كان مؤسسًا على أمانى

---

(٢٦) « سير المتأخرين » ، جـ : ٢ ، ص : ٤٥٨ .

الإِصلاح فى المستقبل للإِدارة والنظام وتحقيق مصالح البلاد ورفاهية الناس فلم يكن عاقبتها إلا الحزن والبأس والآس ، لأن هذا الخليفة الجديد للملك أكبر والسلطان زيب كان عرياً عن صفات آبائه الغُر الملوكية أنه لم يكن له فى حياته المترفة والباذخة والاشتغال بالمتع والملاهى فرصة للنظر فى شئون البلاد ، أنه كان أكثر غفلة وجهلاً بأحوال الدولة وأقل تفكيراً فى فساد الدولة وخرابها من نساء القصر الملكى ، حتى أننا نقرأ كثيراً عن جدته (مهربرور زوجة شاه عالم بهادر شاه) أنها كانت تنبه حفيدها الغافل النائم من سباته العميق وكانت النتيجة الواضحة لكل ذلك الانحطاط والسقوط » (٢٧) .

وينبغى فى هذا الموضوع ألا نغفل رأى جادوناته سركار ،الذى أبداه وهو يعلق على مواضع الضعف فى محمد شاه ، يقول :

« لئن كان محمد شاه لا يستحق التقدير الاحترام فإنه يستحق الرحمة والعطف لقد كانت الظروف والأوضاع أدت به إلى موقف كان فى حاجة إلى شخصية عبقرية (GENIUS) ولكنه كان إنساناً عادياً ، وأن المؤرخين يعيبونه على أنه قضى عمره فى البذخ والترف ، بدلاً من أن يهتم بأمور الدولة ، ولكن المأساة هى أن مثله لو صرف همته إلى شئون الحكم والإِدارة ، ما كان بوسعه أن يغير تيار الأوضاع لقد كان أمثال « رفيع الدرجات » و « رفيع الدولة » ألعوبة فى أيدى غيرهم ، ولم يكن لديهم شعور بذلهم ومهانتهم، أما محمد شاه فكان يشعر بفداحة الخطب وسوء الأوضاع ، وضعفه وعجزه عن الإِصلاح (٢٨) .

وبالجملة فإن المملكة العظيمة التى قامت بعزيمة بابر وبطولته النادرة ، وجده وجهاده وقوته وثباته ، والتى حفظها وأبقى عليها أخلافه إلى السلطان أورنك زيب بشجاعتهم وقوة شكيمتهم وغيرتهم التيمورية ، بلغت إلى غاية من الترف واللهو والغفلة والإِهمال الذى أصبح حظ الحكومات الوراثية الجابرة الجائرة ، وما أصح ما قال الدكتور إقبال :

« أنا أنبئك أيها الإِنسان بحظوظ الشعوب وجدودهم ، إن بدايتها بالسيوف والرماح ، ونهايتها بالطواويس والطبول » .

وكانت النتيجة - أخيراً - هى تلك التى عبر عنها محمد شاه نفسه فى شطر من شعره ، ومعناه :

« إن شئوم أعمالنا ظهر فى صورة نادر » .

---

(٢٧) تاريخ الهند للفريد آبادى ، جـ: ٣ ، ص : ٢٦١ .

(٢٨) FALL OF MUGHAL EMPIRE , P > 373 - 74 ..

توجه نادر شاه إلى دلهى عام ١١٥١ هـ ، وكان قد كتب - قبل ذلك - عدة رسائل إلى محمد شاه ، ولكن حسب تصريح المؤرخ :

« كانت هنا - إذ ذاك - أيام الأفراح والليالى الملاح ، وكان محمد شاه بهادر صاحب العرش والتاج ، ولم يكن له من العمل ، إلا الراحة واللذة ، فلا تفارق الكأس يديه ، ولا تفارق الغادة ذراعيه ، فمن يكون له التفكير فى الرد على الرسائل والاهتمام بالبريد؟[٢٩] .

وينبغى أن تقرأ تفاصيل حملة نادر شاه فى كتب تاريخ الهند ، وما وصلت إليه حال دلهى بعد حملته (ولايغيبن عن البال أن الإمام الدهلوى كان حينذاك ابن ٣٧سنة ، وكان قد رجع من زيارة الحرمين الشريفين) ، نستمع لوصفه إلى مؤلف « تاريخ الهند» .

« لقد كانت المدينة (دلهى) بعد رجوع نادر شاه مليئة بالجثث والأشلاء فارغة من الأحياء ، وكانت البيوت خراباً مهدمة يخيم عليها السكوت المهيب ، وكانت الأحياء والحارات بأسرها محرقة تحولت إلى رماد ، وكانت العفونة الصاعدة من الجثث والرياح الكريهة المنتنة تكاد تشق الدماغ وتفطره ، ولم يكن هناك من يكفن أحداً ، أو يدفن فى القبر أحداً ، وقد اختلطت جثث المسلمين والهندوس ، واحترقت فى ركام إلى رماد ، هذا حال المدينة ، أما حال البلاد ، فكان يغط فى النوم أياماً فلما هب من نومه ، كانت القذارة تغطى عينيه حتى يتقزز من النظر إليه ، ولم يكن فى الخزانة فلس واحد ، ولا يعرف أين الخراج والمحاصيل ، وكان الجيش محطماً منهوكاً هالكاً ، وعلاوة على كل ذلك كان الخوف من المرهتة لايزال مسيطراً ، وقد خربت تلك الولايات التى كانوا استولوا عليها ، ورغم كل هذه المصائب والمحن كان النزاع قائماً بين أهل البلاط والحاشية ، فكان فريق من الأمراء التورانيين الذين كان على رأسهم آصف جاه وقمر الدين خان الوزير ، وفريق آخر للأمراء الآخرين الذين كانوا يحاولون عزلهم وإبعادهم عن البلاط ، وكان الملك أيضاً يعد منهم ، ولو لم تقع قضية المرهتة ولم تواجههم مشكلتهم لكان هؤلاء الأمراء قد توزعوا المملكة كلها فيما بينهم من زمان ، وتركوا الأسرة التيمورية اسماً بلا رسم »[٣٠] .

ولما رجع نادر شاه من الهند كان من أولى نتائج رجوعه أن انفصلت ثلاث ولايات مخصبة ، بنغاله ، بهار ، واريسه ، من حكومة دلهى ، وقامت فيها حكومة مستقلة لعلى

---

(٢٩) « تاريخ هندوستان » ، جـ : ٩ ، ص : ٢٥١ .

(٣٠) المصدر السابق ، جـ : ٩ ، ص : ٢٧٢ .

وردى خان [٣١] .

وأصيب محمد شاه أخيراً بمرض الإسهال ومات فى هذا المرض فى ٢٦ / ربيع الآخر عام ١١٦١ هـ الموافق أبريل عام ١٧٤٨ م ، وحسب مـا يقول مؤلف « تاريخ الهند » أنه حكم ثلاثين سنة ، وقد أدى فيها بالأسرة التيمورية إلى شفا الهلاك والدمار [٣٢] .

شاه عالم الثانى :

لئن كانت الدولة المغولية منيت فى عهد محمد شاه بالانحطاط الخلقى والإدارى ، ومال المجتمع الهندى ، وطبقة الأمـراء والأغنياء - بصفـة خاصة - لقـانون « الناس على دين ملوكهم » إلى حياة المتع واللذائذ والترف والبذخ ، والدعة والراحة ، فإنها أصيبت فى عهد شـاه عالم الثـانى الذى تولى زمـام الحكم عـام ١١٧٣هـ الموافق عـام ١٧٥٩ م بالانحطاط السياسى الشين الذى بلغ الغاية ، أنه لم يزل فى عهد حكومـته الممتد على ٤٧ عاماً ألعوبة فى يد غيره ، وقد خـضع للإنكليز وقبل طاعتهم عام ١٧٦٤ م بـعد أن لقى أمير أوده وزير شجاع الدولة ومير قاسم هزيمة على أيدى الإنكليـز فى معركة « بكسر » ووقع الوزير شجاع الدولة على معـاهدة ظلّ بسببـها موظفا يتـقاضى راتبه من الإنكليـز ، ثم كانت له اتفاقـية أخرى مع الإنكليـز عام ١٧٦٥ م أدت إلى تولى الشركـة الشرقيـة الهندية جباية المحـاصيل والسلطة على المحاكم فى ولايـات بنغاله وبهار واريسه ، ودخـل شاه عالم نفســه فى جوار المرهته ، ووهبهم مديريات إله آباد وكَرَه .

لقد كانت البلاد كلهـا قبل عهد الشاه عالم الثانى بزمن ، تحت رحـمة السيخ والمرهتة ، وكانت مناطق دلهى وآكره وراجبوتانه تحت رحمة الزط ، الذين كانـوا يعيثون فيها فساداً ، ويخرجـون كالطوفـان ويهلكون الحرث والنسل ، ولم تـكن فى البلاد قوة تملـك أن تبسط الأمن وتفرض القانون [٣٣] ، وقد حفظ أحمد شاه الأبدالى هذه البلاد من خطر المرهتة بعد أن هزمهم فى ساحة بانى بت بـ ١٤ / يناير عام ١٧٦١ م هزيمة ساحقة نكراء ، وقد حاول جـهده فى طلبـه شاه عـالم إلى دلهى ، وأرسل إليـه سفـيره لذلك ، حـتى اضطر إلى أن استكتب والدته النواب زينت مـحل رسالة إليه ، ولو كان فى الدولة المغـولية أى رمق من الحياة ، وفى شاه عالم أى كفاءة وصلاحية للحكم ،لكان قد استفاد من نتائج حرب « بانى بت » واستعاد قوته وسلطته ، ولكن الدولة كانت جـسداً بلا روح وكان الملك فاقداً الهمة

---

(٣١) المصدر السابق ، ص : ٢٦٢ .

(٣٢) أيضاً ، ص : ٢٨٤ .

(٣٣) انظر التفصيل فى الباب التاسع من هذا الكتاب .

والعزيمة خالياً من الغيرة والحمية ، وكما يقول محمد إقبال :

« إن ما يقال لها الحمية ذهبت من أسرة تيمور وولت من غير رجعة » .

وعاد الملك من إله آباد إلى دلهى عام ١٧٧١ م بعد عشر سنوات كاملة وقد فات الأوان، فلم يقدر له أن يستفيد من الفتح العظيم فى ساحة « بانى بت » والهزيمة الساحقة التى لحقت بالمرهتة ، بل واجه هنا فتنا جديدة ، صراعاً بين الأمراء وتحايلهم وتنازعهم ، وقوة « روهيله » الجديدة ، وحملات السيخ ، وأخيراً استولى غلام قادر روهيله حفيد نجيب الدولة على دلهى عام ١٧٨٨ م ونهب القصر الملكى وأمر بضرب الأميرات بالسياط ، وأخرج عينى الملك المغولى ووارث العرش التيمورى بظبة الخنجر ، ولم يكن قد سبق أن عومل وارث العرش المغولى بهذه المهانة والفضيحة والعار .

وقتل سندهيه غلام قادر عام ١٧٨٩ م بقسوة فظيعة ، وأجلس شاه عالم على العرش مرة ثانية ، وعين تسعمائة ألف روبية سنوياً لمصروفاته ، ودخل عام ١٨٠٣ م اللورد ليك بجيشه الإنكليزى فى دلهى بعد حروب عديدة ، وأجلى المرهتة ، وقرر للملك المتقاعد راتب مائة ألف روبية سنوياً (٣٤) .

ولقى شاه عالم أجله عام ١٨٠٦ م ، بعد أن حكم ٤٥ عاماً ، وقضى ١٨ عاماً فى العمى مخلوعاً مهاناً .

الوضع العلمى والروحى :

لقد كان هذا العهد رغم الاضطراب السياسى ، والفوضى الاجتماعية ، والإنحطاط العام، عهد النبوغ العلمى ، والاشتغال بالتدريس والتأليف ، والعزلة الروحية ، والرقى الباطنى وتزكية النفوس وإصلاح القلوب ، من الناحية الفردية ، وقد ظهر فيه عدد من النوابغ وأصحاب الفضل والكمال ، وممن لا يمتّون إلى هذا العهد من الانحطاط والفوضى بصلة ، ولا يوجد عليهم أى تأثير لليأس من الأوضاع والخوف منها ، يقول بعض المطلعين أن كثيراً من المآثر والروائع العلمية والأدبية تدين لجهود أولئك الأفراد الأفذاذ الذين كانوا يعانون من الأمراض المزمنة أو شيئاً من العلل ، والصدمات الداخلية ، ويعلل ذلك علماء النفس بأن قوة الدافع والمقاومة تندفع فى مثل هذه الحالة وتقوى الشعور بتدارك ما لحق بذلك المرض ، ويدفع ذلك الشخص إلى إنجاز ما لا يقدر على إنجازه لو كان فى الأحوال

---

(٣٤) انظر « تاريخ هندوستان » ، جـ : ٩ ، ص : ٣٤٣ ، وقد جاء فى بعض كتب التاريخ الإنكليزية أنه قرر تسعين ألف روبية .

العادية ، أن هذه الناحيــة العلميــة والروحية فى الهند ، وظهــور هؤلاء الأفذاذ النوابغ فى عهد الانحطاط إثباتٌ لقوة المقاومة الداخلية فى مجتمع مريض منحط مشرف على السقوط، ودليل على أن خلية الإسلام لم تزل تعسل ، وإنه لم يزل يصنع الرجال وينتج العبقريات .

فإننا نجد فى هــذا العهد فى سعة العلم والـذكاء الباهر ، وقوة التدريس وحــسن التأليف والتصنيف أمثـال الشيخ أحمد بن أبى سـعيد الأميتـهوى (١٠٤٧ - ١١٣٠ هـ) صاحب «نور الأنوار » و « التفسيرات الأحـمدية » ، والشيخ حمد الله السنديلوى (م ١١٦٠ هـ) صاحب « شـرح سلم العلوم » المعروف بـ « حمد الله » ، والشـيخ محمد حـسن المعروف بملا حـسن الفـرنكى مـحلى صـاحب « شـرح السلم » ، المعـروف بـ « مـلاحـسن » (م ١١٩٩هـ) ، والشيخ رستم على القنوجى (م ١١٧٨ هـ) والشيـخ صفة الله الخير آبادى (م ١١٥٧ هـ) والشـيخ على أصـغر القنوجى (م ١١٤٠ هـ) والـشيخ غـلام على آزاد البلكرامى (١١١٠ هـ - ١٢٢٠ هـ) والـشيخ غـلام نقـشـبند اللكنوى (م ١١٢٦ هـ) والقاضى محب الله الـبهارى (م ١١١٩ هـ) مؤلف « سلم العلوم » و « مـسلم الثبوت » (الذى شغل علمـاء الهند ومدرسـيها فى شـرح هذين الكتابين وتحـشيتـهما قـرابة قرن من الزمان، وكانت كـتبه مرجع العلماء الـكبار ، وأساتذة الأزهر فى مصر) والقـاضى مبارك الكوبا مـوى (م ١١٦٢ هـ) مـؤلف « شرح الســلم » المعروف بـ « قـاضى » ، والشـيخ محمـد أعلى التهانوى مؤلف « كـشاف اصطلاحات الفنون » (وهو كتـاب فريد فى بابه) وملا نظام الدين اللكنوى (م ١١٦١ هـ) الذى كان يسيطر منهجه الدراسى المعروف بالمنهج النظامى على الأوساط العلمية من الهند إلى بخارى وسمرقند ، والذى وصفه مؤلف «نزهة الخـواطر » بـ « غيث الإفـادة الهـتون ، العـالم بالربع المسكون ، أسـتـاذ الأساتذة وإمـام الجهـابذة» ، وأمثـال هؤلاء من العلماء النابغين والمدرسـين والمؤلفين والمؤسسين للحـركات العلمية ومناهج التعلـيم والتربية ، الذين يتجمل بهم التاريخ وتعتـز بهم البلاد والأمصار ، لقد كان هؤلاء من رجال هذا القرن وأعيانه (٣٥) .

وإذا نظرنا إلى الطريقـة والسلوك ، فقـد كان فى هذا القـرن الشيخ الربانى مـرزاً مظهر جان جانان (١١١١ - ١١٩٥ هـ) من كبار أصحاب التربية والتزكية فى السلسلة النقشبندية المجددية ، الذى قـال فيـه الإمام ولى الله الدهلوى نفسـه : « أن أمثـال هؤلاء المشايخ لا يوجدون فى عدد كبير فى كل عصر ، فكيف فى هذا العصر المليئ بالفتن والفساد (٣٦) .

---

(٣٥) مقتبس من « نزهة الخواطر » ، جـ : ٩ .

(٣٦) انظر « كلمات طيبات » ، ص : ٦٥ .

ونجد فى هذا العهد شيخ السلسلة القادرية المعروف ، والمرشد الروحى للعلامة نظام الدين اللكنوى مؤسس المنهج النظامى ، السيد عبد الرزاق البانسوى (م ١١٣٦ هـ) ، ومجدد السلسلة الجشتية النظامية الشيخ كليم الله الجهان آبادى (م ١١٤٠ هـ) وإمام هذه السلسلة وناشرها فخر الدين الدهلوى (م ١١٩٩هـ) وشيخ السلسلة المعروف الشيخ محمد غوث القادرى اللاهورى (١١٥٤ هـ) وشيوخ السلسلة النقشبندية الربانيين الكاملين كالشيخ محمد عابد السُّنَّامى (م ١١٦٠ هـ) والشيخ محمد ناصر عندليب (والد الشاعر العارف الكبير خواجه ميردرد الدهلوى) (م ١١٧٢ هـ) ، والشيخ منيب الله البالا بورى، والشيخ نور محمد البدايونى (م ١١٣٥ هـ) (٣٧) ، يزينون مجالس الطريقة والسلوك ، ويرشدون إلى طرائق الحق ويصلحون القلوب .

وبالجملة فقد كان هذا العهد عهد انتشار هذه الطرق الثلاثة : القادرية والجشتية والنقشبندية ، وقبولها ، وشيوعها ، وكان شيوخ هذه الطرق الثلاثة الكبار بقيد الحياة وعلى نشاط ، قال الشيخ عبد العزيز الدهلوى :

« كان فى عهد محمد شاه اثنان وعشرون من المشايخ الربانيين المرشدين المنتمين إلى مختلف الطرق بدلهى ، ولا يتفق وجود مثل هذا إلا قليلاً » (٣٨) .

الانحطاط الخلقى والاجتماعى :

ولكن من الواقع - رغم وجود هؤلاء النوابغ وأصحاب الفضل المعروفين والشيوخ الكاملين والمرشدين الربانيين - أن المجتمع المسلم فى الهند - ولا سيما طبقة الأمراء - قد وصل ذروة التردى الخلقى والإسفاف الاجتماعى بتأثير الولة والانحطاط السياسى ، وتدفق الأموال والثروات الطائلة وبتأثير الحضارة الإيرانية ، ولأجل ذلك كانت هذه الطبقة عاجزة - تماماً - عن أداء الدور الذى لعبته هذه الطبقة فى كل عصر عند انقلاب الدول وتحول الحكومات ، فقد برز من هذه الطبقة (التى كانت خطا ثانياً (SECONDLINE) فى مختلف العصور أولئك الأفراد الذين ملئوا الفراغ الحادث فى المجال السياسى والإدارى ، ولقد أصاب المؤرخ الفاضل السيد هاشمى الفريد آبادى إذ قال :

« إن ثروات الهند وأموالها الطائلة كانت قد مالت بهذه الطبقة للأمراء إلى الترف والبذخ

---

(٣٧) استفدنا هذه الأسماء ووفياتهم وخصائصهم المميزة من « نزهة الخواطر » جـ : ٦ للعلامة السيد عبد الحى الحسنى رحمه الله تعالى .

(٣٨) انظر « ملفوظات عزيزية » ، ص : ١٠٦ .

والدعة والاسترخاء . . . فإننا نرى أن جهود هؤلاء الأمراء وكفاءاتهم كلها تبذل فى الاحتيال والمؤمرات للأغراض الخسيسة التافهة ، فلم يكن أحد من هؤلاء الأمراء يجسر على إعلان استقلاله فى محله ، دع عنك قلبهم للنظام والاستيلاء على الملك والسلطان ، فإذا كان الفساد الداخلى فى الإدارة والنظام يسود فى جانب فى هذه الفترة ، ففى جانب آخر كانت تفقد - تدريجياً - من أفراد الطبقة الحاكمة أى صلاحية لادارة الحكومة ، والإيهام فى العمل والمسئولية »[39] .

يقول الشيخ عبد العزيز الدهلوى :

« كانت النساء فى بيت النواب قمر الدين ، يغتسلن الغسل الأخير بماء الورد وكان يصرف فى بيوت النوابين (الأمراء) الآخرين ثلثمائة روبية على ورقة التنبول والورود»[40] .

ويقول الشيخ غلام على آزاد البلكرامى فى « مآثر الكرام » :

« يقول سكان أورنك آباد بإجماع منهم أن معظم الناس لم يكونوا يطبخون الطعام فى بيوتهم فى عهد أمير الأمراء حسين على خان ، فكان طباخ قصر أمير الأمراء يبيع حصته من الطعام ، وكان الناس يشترون طبق « بلاؤ » الممتاز (وهو كالكبسة الممتازة عند السعوديين) بفلوس معدودة[41] .

فساد العقيدة واستيلاء الإشراك والبدع :

وأفزع من هذا الانحطاط الخلقى والإسفاف الاجتماعى ، وأدعى للحرمان من نصر الله - تعالى - وتأييده ، والتجريد من القوة الحقيقية ، هو الفساد العقيدى فقد كانت البدع والمحدثات ، وكثير من تقاليد الهنادك والشيعة وعاداتهم تسيطر على المجتمع المسلم وقد تسربت فى حياة العامة من الناس وتغلغلت فى أحشائها مخالفة للإعلان القرآنى الصريح ﴿ألا لله الدين الخالص﴾[42] وكانت توجد للشرك الجلى فى كثير من المواضع والأوساط صور وأشكال ، لا يمكن أن تعلل تعليلاً علمياً ، فمن عبادة القبور ، وسجدة التحية

---

(٣٩) تاريخ الهند ، جـ : ٣ ، للسيد هاشمى الفريد آبادى ، ص : ٢٦٢ - ٢٦٣ ، طبع حيدر آباد ، ١٩٢١ م .

(٤٠) انظر « ملفوظات عزيزية » .

(٤١) « مآثر الكرام » جـ : ١ ، ص : ١٧٠ .

(٤٢) سورة الزمر الآية : ٣ .

للمشائخ ، وتقديس الأماكن الخاصة للزيارة كتقديس الحرم ، ووضع الكسوة على القبور والنذور والقرابين ، والذبح بأسماء الأولياء والمشائخ ، والطواف بالقبور والأماكن المقدسة المزورة ، والاحتفال وإقامة الأعياد بها ، والأغانى والمزامير ، وإشعال الشموع وباختصار اعتقاد هذه الأماكن هى المرجع والمصير ، والملجأ والمجير ، وأمثال هذه من الأحوال والمشاهد التى لا تحتاج لزيارتها أن تتجشم السفر البعيد والانتظار الطويل ، بل كانت منتشرة فى كل مكان ، كذلك الكبش المنذور للشيخ سدّو ، وبقرة السيد أحمد الكبير ، وأعلام غازى ميان ، وتعزية محرم (وهى القباب والمقابر المصنوعة من القرطاس يحملها الشيعة أيام المحرم) والاحتفال الرائع بالأعياد غير الإسلامية ، والإلتجاء إلى الأرواح الخبيثة فى رفع الأمراض ، واسترضاء الألهة والإلاهات والخوف منهم ، وتقديس « سيتلا »(٤٣) لدفع مرض الجدرى ، والنذر والذبح للأولياء الصالحين ، والصوم باسم الأولياء والصالحات ، وتعليق الحاجات بهم ، والسؤال منهم ، وتعيين الأطعمة الخاصة فى الأيام الخاصة ، والإلتزام فيها بآداب خاصة ، هذه وغيرها من العناوين الكبيرة التى تضم تحتها سلسلة طويلة من الأوهام والخرافات والعقائد الفاسدة المنحرفة ، وتقاليد الجاهلية ، وعاداتها والتزاماتها وقيودها ، كما أنه كانت الأسماء مثل على بخش (أى عطاء على) حسين بخش ، بير بخش (أى عطاء الشيخ) مدار بخش وسالار بخش ، عامة شائعة .

وكانت عقيدة التوحيد فى دائرة كبيرة قد انحصرت فى هذا المفهوم وهو أن الله - تعالى- هو الخالق الحقيقى للأرض والسماوات والصانع للكون ، وهو المعبود حقيقة ، وهو الذى يدبر الأمور العظام ، ولكنه كسلاطين الدنيا قد ولى كثيراً من مصالح مملكته وشعبها عباده المقبولين المقربين ، الذين قد ملكوها وخيّروا فى التصرف فيها ، فهم يتصرفون حسب ما يشاءون ، فلا يمكن الآن إحراز أى نجاح أو قضاء أى حاجة إلا باسترضائهم وإقامة الصلة القوية بهم ، وأن الشرك ليس إلا أن يعتقد لهذا العالم صانع وخالق غير الله ، ويظن أنه يستحق العبودية والسجود مباشرة ، من دون اعتقاد بالوسيلة والشفاعة (٤٤) .

وبالجملة فإن الهند فى القرن الثانى عشر الهجرى كانت قد تردت من الناحية السياسية والإدارية ، والخلقية والاجتماعية ، والإعتقادية إلى حد كبير فى الحضيض ، ووصلت إلى

---

(٤٣) إلهة من الإهات الهندوس يعتقدون أن مرض الجدرى من تأثيرها .

(٤٤) سيأتى تفصيل هذا التصور للتوحيد فى باب « إصلاح الإمام الدهلوى وتجديده للعقائد » فلينظر هناك .

آخر نقطة من الانحطاط والانهيار ، وهى التى تكون مرحلة خطيرة مؤسفة لسقوط البلدان الإسلامية وانحطاط المجتمع المسلم وقد صور العلامة السيد سليمان الندوى هذه الأوضاع بمجموعها فى إحدى مقالاته تصويراً بليغاً موجزاً ، يقول :

« لقد كانت شمس الدولة المغولية فى أفول ، وكان للعادات والتقاليد الجاهلية فى المسلمين صولة وجولة ، فكان الدراويش والمشايخ الكاذبون المتصنعون متربعين على دست مشائخهم فى رباطهم ، جالسين يوقدون الشموع على مقابرهم وكانت جنبات المدارس ترتج بأصداء الفلسفة والمنطق وكان التقيدُ بالنصوص الفقهية والالتزام الحرفى فى الفقه والفتاوى شعار كل مفت وفقيه ، وكان التحقيق والبحث فى المسائل الفقهية جريمة كبرى فى جانب الدين ، وكانت الخاصة فضلاً عن العامة جاهلة بمعانى القرآن الحكيم ومطالبه ، وأحكام الأحاديث النبوية وإرشاداتها وأسرار الفقه ومصالحه (٤٥) .

* * *

(٤٥) « مقالات سُليمانى » ، ص : ٤٤ .

الباب الثالث

أجداد الإِمام الدهلوى ووالده

أجداد الإمام الدهلوى :

إن عهد الأجداد الأولين للإِمام الدهلوى (الذين استوطنوا مدينة « رهتك » من عهد الشيخ شمس الدين المفتى) هو ذلك العهد للتاريخ العلمى والتأليف فى الهند الذى لم يبدأ فيه تأليف كتب التراجم بصفة عامة ، وأكثر ما يوجد من كتب التراجم فهى تراجم فردية لبعض مشائخ الطرق المعروفين ، ويحتل فيها ما كتب فى حياة العارف الكبير الشيخ نظام الدين الدهلوى باسم « سير الأولياء » الذى ألفه أمير خورد ، مكانة ممتازة ، أو كانت هناك كتب تشتمل على تراجم عدة من المشائخ والصالحين ، ويجدر منها كتابان بالذكر ، أولهما «كلزار أبرار » للشيخ محمد بن حسن الغوشى المندوى (الذى يحتوى معظمه على تراجم مشائخ ماندوومالوه) والثانى « أخبار الأخيار » للشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى ، وكانت الكتب المؤلفة فى تراجم أصحاب الفضل والنبوغ والشخصيات العلمية المعروفة ، التى تشتمل على تراجم رجال مختلف الطرق الصالحين ، أو على تراجم الشخصيات البارزة فى مختلف المناطق والأصقاع (التى لم تكن مؤسسة لإحدى السلاسل والطرق ، أو حلقة مهمة من حلقاتها) وعلى تفاصيل حياتهم : قليلة نادرة ، وإن كانت فهى تلك التى تدور حول شخصيات العاصمة المركزية أو عاصمة الولايات وأعمالها ونواحيها أو رجال المدن المركزية ذات الشهرة التاريخية ، الذين كان يتيسر للمؤلف التوصل إلى وسائل الاطلاع على أحوالهم وفضلهم وأعمالهم .

وقد كانت أسرة الإِمام الدهلوى نازلة فى « رهتك » من عهد الشيخ شمس الدين المفتى إلى عهد جده الشيخ وجيه الدين ، ولم تكن هذه المدينة تحمل تلك الأهمية والمكانة الكبيرة، ولذلك فإننا لا نعثر فى عامة كتب التراجم على أحوالهم ووقائعهم .

وكان يخشى أن تبقى أخبار هذه الأسرة الكريمة مطمورة مغمورة ، ويواجه المؤلف لترجمة حياة الإمام الدهلوى أو لتاريخ أسرته صعوبة شديدة ، لو لم يكن الإمام الدهلوى نفسه ألف رسالة باسم « الإِمداد فى مآثر الأجداد »[1] فى تراجم أجداده وأحوالهم ، وهذه

---

(١) هذه الرسالة تشتمل على ١٠ صفحات بالقطع المتوسط ، وقد نشر فى مجموعة رسائله = =

الرسالة نفسها تشتمل على تراجم مختصرة مجملة لأجداده الأولين ، وترجمة مفصلة - إلى حد ما - لجده الشيخ وجيه الدين لقرب العصر ، وقلة الوسائط ، ولذلك فإننا نعتمد على « مآثر الأجداد » ونكتفى به ، فإن صاحب البيت أدرى بما فيه .

سياق النسب :

لقد ذكر الإمام الدهلوى الذى ينتمى - نسباً - إلى سيدنا عمر الفاروق - رضى الله عنه- ساق نسبه فى بداية هذه الرسالة إلى سيدنا عمر الفاروق - رضى الله عنه - وقد كان فى أعقاب الشيخ سالار حسام الدين أحد أخوة الشيخ شمس الدين المفتى الذى كان أول من قدم إلى « رهتك » من هذه الأسرة ، وألقى بها عصا الترحال ، أحد المشائخ الصالحين الذى يدعى « شاه أرزانى البدايونى » وأن أنساب أسرته أيضاً تصدق هذه السلسلة من النسب، وتؤكد صحتها ، وتصل هه السلسلة النسبية بثلاثين واسطة إلى سيدنا عمر الفاروق - رضى الله عنه - [(٢)] .

ويرد فى هذه السلسلة لقب « ملك » مع عدد من الأسماء ، يقول عنه الإمام الدهلوى ، أنه كان يستعمل للتبجيل والتعظيم كلقب « خان » فى عصرنا .

دخول أسرة الإمام الدهلوى فى الهند :

إن أول من نزل مدينة رهتك من أسرة الإمام الدهلوى حسب تصريحه وروايته ، (ولعله هو أول من دخل الهند من أسرته أيضاً) هو الشيخ شمس الدين المفتى ، ويقدر من حساب عدد الوسائط والأعقاب ، وأعمارهم الطبيعية التقريبية أن الشيخ شمس الدين المفتى يكون قد قدم الهند فى أواخر القرن السابع أو أوائل القرن الثامن الهجرى ، حين كانت حملات التتار تدمر العالم الإسلامى ، وتنتهك حرمات الأسر والبيوتات الإسلامية ، وتبدّد خزائنهم العلمية ، وتحول المدن الشهيرة الراقية من إيران وتركستان إلى خراب يباب ، ويفيد « تاريخ فيروز شاهى » وكتب التاريخ الأخرى أن كثيراً من البيوتات الكريمة والأسر الشريفة ذات الفضل والنبوغ توجهت فى تلك الآونة إلى الهند التى كانت تحكمها الأسر المسلمة التركية الأصل التى ردت حملات التتار على أعقابها ، واضطرتها للانسحاب ، وبذلك فإنها

= الخمسة والرسالة الأولى منها ، بعنوان « إنسان العين فى مشائخ الحرمين » ، طبع مطبعة الأحمدى بدلهى ، وهى مضمومة مع الرسائل السبعة أيضاً التى نشرت مع « أنفاس العارفين » .

(٢) راجع « الإمداد فى مآثر الأجداد » فى مجموعة الرسائل الخمسة للإمام الدهلوى طبع - المطبعة الأحمدى - دلهى .

لم تحفظ هذه البلاد من غاراتهم الوحشية فحسب بل حولت هذه البلاد لرعايتها للدين وحبها للعلم والمعرفة دار علم وفضل ومدرسة واسعة تستقبل أصحاب الفضل والنبوغ وتوجد فيها فى كل مكان حلقات للدروس ، ومراكز للذكر والعبادة وتزكية النفوس ومجامع لأصحاب الأقلام وأهل البحث والتحقيق ، حيث كانت الفرص مهيأة ومواتية لأن ينجز كل واحد منهم عمله فى سكينة وطمأنينة وسلام (٣) .

الإقامة بـ « رهتك » :

يخيل إلينا ، ويبدو من تصريح الإمام الدهلوى أيضاً ، أن مدينة « رهتك » كانت إذ ذاك مدينة ذات أهمية وخطورة للدولة الإسلامية الناشئة وكانت أول منزل وأهمه قبل دلهى للجيوش الإسلامية والمجاهدين المسلمين ، ودعاة الإسلامية والمبلغين والعلماء والمشائخ الربانيين الذين يتوجهون إلى دلهى من غرب الهند ، ويفيد الإمام الدهلوى أن أقدم المشائخ الصالحين من القرشيين الذى قدم هذه المدينة ، وظهرت بها بسببه شعائر الإسلام وانتكست أعلام الكفر والجاهلية وانطمست معالمها هو الشيخ شمس الدين المفتى ، وقد ذكر الإمام الدهلوى بعض كراماته ، التى لا تستغرب نظراً إلى صلاحه وتقواه وظروف ذلك العصر وتلك البيئة ، وكان يولى كل من ينزل بتلك المدينة من كبار العلماء والمشائخ منصب القضاء والحسبة ، ويولى أحياناً إدارة المدينة أيضاً ، ولكنه لم يكن يدعى فى ذلك العصر بالقاضى أو المحتسب .

من الشيخ شمس الدين المفتى إلى الشيخ وجيه الدين :

وقد تولى بعد وفاة الشيخ شمس الدين المفتى أكبر أبنائه منزلة الشيخ كمال الدين المفتى، ثم ابنه الشيخ قطب الدين ، ثم ابنه الشيخ عبد الملك هذه المناصب ، وقاموا بهذه المسئوليات ، ثم بدأ تعيين القضاة بعد هؤلاء المشائخ الكرام بصورة رسمية محددة ، وقد أبقى الشيخ قاضى بده ابن الشيخ عبد الملك على هذه التقاليد للأسرة ، وعلى الحياة والمكانة ، وقد استمر نسله من ابنيه ، وحدثت مصاهرة بين هذه الأسرة وبين الصديقيين (المتمين نسباً إلى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه) فى رهتك ، والأشراف فى « سونى بت » فكان زواج الشيخ محمود (الذى هو الجد الخامس للإمام الدهلوى) والذى ترك منصب القضاء وتولى مناصب الحكومة والإدارة) فى أشراف « سونى بت » ، وولد له ابن أسماه أحمد ، وقد ودع أحمد - فى صغره - مدينة « رهتك » وأقام مع الشيخ عبد

---

(٣) انظر للتفصيل « رجال الفكر والدعوة » جـ : ٣ ، ص : ١٩ - ٢١ .

الغنى بن الشيخ عبد الحكيم فى « سونى بت » واستوطنها ، وزوجه الشيخ عبد الغنى بنته، وقام على تربيته ، ثم قدم الشيخ أحمد مدينة رهتك وبنى عمارة خارج القلعة ، وجمع أحبابه وأقرباءه ، وكان ابنه الشيخ منصور جامعاً للفضائل من جاه وشجاعة وحكم، وقد تزوج أولاً ببنت الشيخ عبد الله بن الشيخ عبد الغنى ، وكان ابنه الشيخ معظماً كاسمه وجيهاً مهيباً وقوراً ، يملك شجاعة نادرة ، وقد صدرت منه حوادث عجيبة ، ينقل الإمام الدهلوى عن والده الشيخ عبد الرحيم أن الشيخ منصور اشتبك فى حرب مع أحد الراجوات (الأمراء) الهنادك ، وكان معيناً على ميمنة الجيش ولم يتجاوز سنه الثانية عشرة من عمره وكانت الحرب شديدة حامية ، وقد قتل من الفريقين عدد كبير ، وفى أثناء المعركة خاطب أحد الناس الشيخ معظم وقال له : إن والدك الشيخ منصور تناول كأس الشهادة ، وانهزم الشيخ الإسلامى ، فلم يملك أن ثارت غيرته الإسلامية ، ونبض عرقه الفاروقى ، وخاض مجاهداً باسلاً فى صفوف الأعداء ، يشقها ويفرقها حتى وصل بعد محاولات شديدة إلى فيل الأمير الهندوسى ، وانبرى له أحد القادة الكبار من العدو ، فضربه الشيخ معظم بالسيف وصيره فلقتين ، فهجم عليه أصحابه وأنزلوه من فرسه ، وازدحم عليه الناس ، ولكن الأمير زجرهم ونهاهم من التعرض له بسوء ، وقال أن هذا الناشئ اليافع ، وهذه البسالة والجراءة ! إنه - فعلاً - من عجائب الزمن ، وأخذه الأمير وقبل يديه ، وأكرمه وأكبره ، وسأله لماذا هذا الغضب الفائر ؟ فقال الشيخ معظم : نبئت أن والدى قد استشهد ، فعزمت على أن أحمل بنفسى ولا يقر لى قرار حتى أقتل قائد العدو وألحقه بمقره، وكنت قد قررت فى نفسى أننى إما سأموت وأقتل أو أقتل ، فقال الأمير : إن من أخبرك بخبر والدك كاذب ، إن والدك حى ، وانظر تتراءى أعلامه تلك ، وأرسل الأمير - فى الوقت نفسه - سفيره إلى الشيخ منصور أننا قد صالحنا لأجل هذا الناشئ ، وقبل كل ما قيل له ،ورجع أدراجه .

ويحكى الإمام الدهلوى عن والده أيضاً قصة أحد الملاك المعمرين للأراضى فى قرية شكوه بور (التى كانت تحت ولاية الشيخ معظم) أن ثلاثين من قطاع الطرق استاقوا - ذات مرة - مواشى هذه القرية وفروا بها ، وكان الشيخ معظم إذ ذاك بها وحيداً ، ولم يكن هناك أحد من أقربائه أو أبنائه ، فنمى إليه هذا الخبر وكانت سفرة الطعام قد وضعت ، فلم يتظاهر بأى عجلة أو فزع بل تناول الطعام كعادته بكل طمأنينة حتى فرغ منه ، وغسل يده ، ثم قال علىّ بسلاحى وفرسى ، فلما ركب وسار ، رافقه بعض ملاك الأراضى مزدين بالأسلحة ، ولكن الشيخ معظم أمرهم بالعودة ، وقال إننى سوف أغد السير وأطير بفرسى حتى لا يمكنكم أن تلحقوا غبار فرسى ، إلا أنه أخذ معه راوى هذه القصة الذى كان سريعاً

فى سيره حتى يخبر الناس بما يجرى ، ثم ركض فرسه حتى أدرك جماعة قطاع الطرق الذين كانوا قد قطعوا عدة منازل ، واستثار غيرتهم ودعاهم إلى النضال ، وبدأ يرمى بالنشاب ، فلما رأى قطاع الطرق براعته هذه فى الرمى ، أخذهم الرعب ودهشوا ، واستغاثوا به وقالوا نتوب مما اقترفنا ، فليصفح عنا ، فقال لهم الشيخ : إن توبتكم أن تجردوا أنفسكم من أسلحتكم ، ويربط كل واحد منكم يدى الآخر ، ثم ساقهم فى هذه الحالة المهينة مع الأسلحة والمواشى إلى القرية ، وحلفهم حسب ما فى ديانتهم أنهم سوف لا يفكرون فى العودة إلى هذه القرية ولا ينظرون إليها ، فقبلوا ذلك .

وأعقب الشيخ معظم من زوجته بنت السيد نور الجبار السونى بتى ثلاثة أبناء ، الشيخ جمال، والشيخ فيروز ، والشيخ وجيه الدين ، وهذا الأخير هو جد الإمام الدهلوى ووالد والده .

جد الإمام الدهلوى الشيخ وجيه الدين :

لقد ذكر الإمام الدهلوى ترجمةحياة جده الشيخ وجيه الدين بشئ من التفصيل بالنظر إلى غيره ، يقول : « إنه كان يجمع بين صفتى الصلاح والتقوى والشجاعة والفتوة ، كان الوالد (أى الشيخ عبد الرحيم) يقول : كان والدى (الشيخ وجيه الدين) جعل حزبه أن يقرأ يومياً جزأين من القرآن الكريم ، ولم يكن يترك ذلك سفراً وحضراً وفى حالة المنشط والضعف والكسل ، فلما كبر وضعف بصره ، فكان يحمل معه مصحفاً مكتوباً بالحروف الكبيرة ، ولم يكن يفارقه فى السفر أبداً ، وكان يقول إنه لم يكن يدع فرسه يرعى حقل غيره ، ولو كان الجيش كله يركضون أفراسهم وخيولهم فى الحقول المزروعة ، ولذلك كان أحياناً يتجشم الطريق الأبعد غير المعروف المسلوك ، وكان يقول أيضاً أنه إذا قلت التموينات فى إحدى الحروب ، ولم يتهيأ من المطعومات فكان أصحابه وزملاؤه من الجنود يسطون على مواشى القرى ويأكلونها أما هو فكان يتورع من ذلك ، فإن طالت ساعات الجوع ولم يجد شيئاً يوماً أو يومياً وخارت قواه ، فيهيئ الله - تعالى - له رزقه من حيث لا يحتسب، وكان أحياناً يمعن فى التفكير ، ويضرب سوطه على الأرض ، فتخرج منها الحمص قدر ما يغذيه أو يعيشه فكان يغسلها ويطهرها ، ويغمسها فى الماء ثم يتناولها ، وكان يقول : إن سلوك والدى مع باعة التبن وأصحاب الحرف الوضيعة (كما يظنون) كان فى غاية اللطف واللين والعدل والنصفة مما يندر نظيره فى أصحاب التقوى والورع أيضاً ، وكان يقول أيضاً: إنه شاهد - فى أحد أسفاره - بعد علائم الولاية ، فبايع ، واشتغل بالأشغال الصوفية ، واتخذ قلة الكلام وقلة الاختلاط بالأنام (الذى هو عادة الصوفية النقية)

شعاره ، والتزم به التزاماً يكاد لا يوجد فى صوفية هذا العصر .

ويقول الإمام الدهلوى : إن الوالد كان يذكر جراءته وشجاعته كثيراً ، وقد ذكر الإمام الدهلوى فى هذا الموضوع عدداً من وقائع شجاعته النادرة نقلاً عن والده ، فقد واجه - بعض المرات - جماعات وفرقاً من الأعداء ، وبارزهم وقاتلهم وحده ، وكان يخرج فى العسكر الملكى إلى مالوه ، وكان قد بارز كبار الشجعان والأبطال المغاوير فى عصره ، وأنقذ - بعض الأحيان - أصحابه أو ضباط جيشه الذين كانوا تعرضوا لخطر العدو منهم فى اللحظة الحرجة ، وصرح - ذات مرة - ثلاثة من المصارعين المبارزين كانوا لا يبالون بأحد ولا يعيرون لأحد أى اهتمام ، وكان فريداً فى فن الفروسية (٤) .

وكان هو مع عالمكير فى حربه مع إخوته ، ولما خرج شاه شجاع ضده فى بنغاله ، كان هو فى عسر عالمكير ، وقد قام بدور كبير ، وأدى حق الوفاء بولى نعمته ، وأثبت صدقه واستقامته (٥) ، وقد كتب النصر لعالمكير فى تلك المعركة برجولته وشجاعته ، وأراد الملك بعد الفتح أن يرقى منصبه ، فلم يقبل ذلك لزهده فيه ، وقد أدى - أحياناً - حق الصداقة والود لأحبابه وأصدقائه ، وخاطر لأجلهم بنفسه وأنقذهم فى المواقع الصعبة (٦) ، وقد ذكر الشيخ عبد الرحيم عدداً من وقائع مغامراته وبطولاته ورباطة جأشه ، وقوة شكيمته وعلو همته ، كما ذكر وقائع أخرى لمواساته ومطايبته وشفقته على الفقراء والمساكين .

وقد تزوج الشيخ وجيه الدين ببنت الشيخ رفيع الدين محمد ، وكان الشيخ رفيع الدين ابن الشيخ قطب العالم ، وهو ابن الشيخ عبد العزيز شكربار (٧) وولد للشيخ وجيه الدين من هذه الزوجة ثلاثة أبناء ، وهم : الشيخ أبو الرضا محمد والشيخ عبد الرحيم ، والشيخ عبد الحكيم .

يقول الشيخ عبد الرحيم : كان والدى ذات مرة يصلى التهجد ، فأطال إحدى السجدات حتى ظن أنه فارق الحياة ، فلما رفع رأسه قيل له لماذا أطلت السجود إلى هذا الحد ؟ ، قال : اعترتنى حالة الغيبوبة ، وانكشف لى فيها درجة الشهيد وما أعد له من ثواب ، فتمنيت على الله - تعالى - أن يرزقنى الشهادة ، وألححت وبالغت فى الدعاء حتى انكشف لى قبول الدعاء ، ووقعت الإشارة إلى جهة « دكن » (جنوب الهند) أن محل

---

(٤) انظر للتفصيل « مآثر الأجداد » ص : ٦ - ٧ .

(٥ ، ٦) أيضاً ص : ٨ - ٩ .

(٧) اقرأ ترجمته فى نزهة الخواطر جـ : ٤ .

الشهادة هو ذاك ، يقول الوال : أنه بعد هذا الحادث - رغم أنه كان ترك وظيفة الجيش ، وكان قد كرهها ونفر منها ، ولكنه هيأ أسباب السفر من جديد ، واشترى الخيل ، وتوجه إلى دكن ، وكان يخيل إليه أن حادث شهادته يقع فى « سيوارا » الذى كان واقعاً خارج حدود الدولة الإسلامية ، وكان حاكمه قد تعرض للقاضى المسلم بالإهانة والازدراء، إلا أنه لما وصل إلى برهانبور انكشف عليه أنه تخطّى محل الشهاة ، فرجع القهقرى ، ورافق فى الطريق بعض التجار ممن كانت تلوح عليهم آثار الرشد ، والصلاح ، وكان يريد العودة من قرية « هنديا » إلى الهند ، إذ به عرض له رجل مس ضعيف كان يعدو وهو لاغب مكدود ، فأشفق عليه ، وسأله عن حاله ، فقال : أريد الذهاب إلى دلهى ، فقال له: ابق عندنا وأعطيك ثلاث بيسات من راتبى كل يوم ، وكان ذلك العجوز أحد جواسيس الكفار، فلما وصل القافلة إلى رباط « نويزايا » أخبر الجاسوس أصحابه بخبر هذه القافلة للتجار ، وأنها نازلة فى الرباط ، فهجم كبير من قطاع الطرق على هذا الرباط ، وكان الشيخ وجيه الدين إذ ذاك يتلو القرآن الكريم ، فتقدم إليه منهم اثنان أو ثلاثة ، وقالوا : من هو وجيه الدين ، فقال : ها أنا ، فقالوا : ما لنا بك من حاجة ، فنحن نعلم أنك لا تحمل شيئاً من الفلوس ، وأن لك على أحد منا حق الضيافة ، ولكننا لا نترك هؤلاء التجار الذين يحملون أمتعة كثيرة ، ، ولما أن الشيخ وجيه الدين كان أصل غرضه من رحلته هذه الشهادة ، فلما يرض بمفارقتهم والتخلية بينهم وبينهم ، فتصدى للمهاجمين ، وانبرى يقاتلهم ، وقد وقع فى جسمه اثنان وعشرون جرحة وطعنة ، وكانت الطعنة الأخيرة فصلت رأسه من جسده ، ولم يزل لسانه فى هذه الحال أيضاً رطباً بالتكبير ، حتى سقط أخيراً فى مكان ودفن به ، وقد أشهد الله - تعالى - الشيخ عبد الرحيم هذا الحادث ، فرأى أنه يريه جروحه ، وأراد الشيخ عبد الرحيم أن ينقل جثته ، ولكن إشارة غيبية منعته من ذلك .

جد الإمام الدهلوى من أمه الشيخ محمد الفلتى :

كان الشيخ محمد الفلتى جد الإمام الدهلوى لأمه(٨) وموطن أسرته الأول « سدّهور»(٩) ونزحت هذه الأسرة فى عهد السلطان سكندر اللودهى إلى « فلت » كان والده يسمى الشيخ محمد عاقل الذى كان من صغره ذكياً ألمعياً ، ومقرباً لدى العلماء الصالحين والمشائخ

---

(٨) للإمام الدهلوى رسالة فى ترجمة حياته بعنوان « العطية الصمدية فى الأنفاس المحمدية » ، وهى مضمومة إلى مجموعة الرسائل الخمسة .

(٩) مديرية بارة بنكى - حالياً - .

الربانيين ، وكان الشيخ جلال خليفة الشيخ السيد آدم البنورى بشّر عند ولادته بمراتبه العالية ، قرأ أولاً على عم الإمام الدهلوى الشيخ أبو الرضا محمد ، ثم على الشيخ عبد الرحيم ، وكانت له به مناسبة تامة ، وقصد بعد الفراغ من تحصيل العلوم إلى فلت وكان صاحب قدم راسخة فى الجود والعطاء وإنكار الذات وفناء النفس ، وكان قوى التأثير ، صاحب التزكية والإرشاد ، وقد ذكر الإمام الدهلوى وقائع من طاعته وخضوعه وتسليمه وانقياده لأستاذه ومربيه الشيخ عبد الرحيم (١٠) ، وقد حصلت له الإجازة من الشيخ عبد الرحيم ، وكان ابنه الشيخ عبيد الله الذى كان خال الإمام الدهلوى ووالد زوجته ، وخليفته الأجل الشيخ محمد عاشق الفلتى (١١) ، وقد ذكر الإمام الدهلوى عدداً من وقائع قوة التأثير التى كان يمتاز بها الشيخ محمد الفلتى وإفاداته وإفاضاته (١٢) ، توفى الشيخ محمد فى ٨ / جمادى الآخرة ، عام ١١٢٥ هـ (٦).

عم الإمام الدهلوى الشيخ أبو الرضا محمد :

كان الشيخ أبو الرضا محمد الابن الأكبر للشيخ وجيه الدين ، والعم الأكبر للإمام الدهلوى ، وقد أثبت الإمام الدهلوى فى « أنفاس العارفين » ترجمة مستقلة له ، بعد ترجمة والده ، ووصفه بـ « إمام الطريقة والحقيقة » وكانت معظم علومه (وإن كان هو قد قرأ على أساتذة عصره) وهبية فى نظر الإمام الدهلوى ، بدأ - بإذن والده وإشارته - يتردد إلى أحد الأمراء ، ثم إذا به قد جذبته جاذبة التوفيق الإلهى ، ومنعته منه ، واتخذ التوكل الكامل والتجريد التام والعمل بالسنة ديدنه وشعاره وقد خير زوجته أيضاً مستنداً بقوله تعالى : ﴿ **إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها** ﴾ (١٣) ، بين أن تختار الفقر والسغبة إذا اختارت مرافقته والبقاء معه ، وإلا فلتذهب إلى بيتها ، وقد اختارت هى أيضاً مقتدية لسنة الأزواج المطهرات ، الفقر والمسغبة ، ولم ترض بمفارقته ، وكانت تتوالى عليه يومان أو ثلاثة أيام لا يجد طعاماً فيبيت على الطوى ، وكانت له نسبة خاصة بالشيخ عبد القادر الجيلانى ، كما كان له حب خاص ومناسبة خاصة بسيدنا على بن أبى طالب - كرم الله

---

(١٠) العطية الصمدية ص : ٢٠ .

(١١) انظر لترجمة الشيخ محمد عاشق الفلتى « نزهة الخواطر » جـ : ٤ .

(١٢) العطية الصمدية ، ص ٩ : ٢٢ - ٢٥ .

(٦) ص : ٢٥ .

(١٣) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٨ .

وجهه -[14] ، وقد أراد السلطان عالمكير زيارته مراراً ، ولكنه لم يرض بذلك ، وذلك لأنه كان لا يقبل على الأمراء والحكام ، أما الخصافون وأصحاب الطواحين وأمثال هذه الحرف فكان يقبل عليهم ويحبهم وإذا قدموا له ثلاثة أو أربعة فلوس كهدية يقبل منهم بكل رضا وسرور » .

وقد نعته الإمام الدهلوى بـ « قوى العلم ، فصيح اللسان ، عظيم الورع ، واسع المعرفة ، كان جميل المحيا ، طويل القامة ، أبيض اللون ، حفيف اللحية ، لطيف الكلام، وكان يعظ ويذكر بعد صلاة الجمعة ، ويسمع الناس من حفظه ثلاثة أحاديث ثم يترجمها إلى الفارسية ثم إلى الهندية ، وكان يلقى الضوء على معانى هذه الأحاديث وفوائدها ، إلا أن كل ذلك بإيجاز واختصار ، وكان أولاً يدرس كتاباً فى كل فن ، ويزدحم عليه الناس إعجاباً بحسن بيانه وحلاوة منطقه ، ثم اكتفى أخيراً بدرسين ، أحدهما فى تفسير البيضاوى ، والثانى فى مشكاة المصابيح ، وكان يشرح كلمات الصوفية شرحاً عجيباً، وكان مستجاب الدعوات ، وقد ذكر الإمام الدهلوى كثيراً من الوقائع التى تدل على حب الناس له وأنه من المصطفين الأخيار [15] ، كان له اهتمام بالغ بأداء السنن وكان ينشد أحياناً الدوبيت فى الهندية من شعر الحقائق والمعانى ، وقد ذكر الإمام الدهلوى عدداً من وقائع كشوفه وكراماته [16] ، ونقل بتفصيل كثير أقواله وكلماته ، التى يصعب فهمها والاستفادة فى هذا العصر ، ولذلك نفضل الإعراض عن ذكرها [5] كان عمره بين الخمسين والستين إذ وافاه الأجل المحتوم فى ١٧ / محرم الحرام عام ١١٠١ هـ بعد صلاة العصر ، وأرخت وفاته بكلمة « آفتاب » (أى الشمس) [17] .

والد الإمام الدهلوى الشيخ عبد الرحيم :

لقد ألف الإمام الدهلوى نفسه فى حياة والده ومناقبه وكراماته وفضائله ، كتاباً مستقلاً مفصلاً ، أسماه « بوارق الولاية » ويعرف بـ « أنفاس العارفين » [18] ، وأنه لا تتوفر لدينا

---

(١٤) « أنفاس العارفين » ص : ٨٦ - ٨٨ .

(١٥) أيضاً ، ص : ٨٩ - ٩٠ .

(١٦) أيضاً ، ص : ٩٠ - ٩٤ .

(٥) ص : ١١٩ .

(١٧) المصدر السابق ، ص : ١٥٥ .

(١٨) طبع أولاً فى المطبع الأحمدى ثم طبع فى المطبع المجتبائي ، والإحالات إلى الطبعة الأولى .

أمثلة ونماذج فى تاريخ الإسلام العلمى لتأليف كتب مستقلة بأقلام الأبناء النوابغ فى تراجم آبائهم النوابغ الفضلاء بالدقة العلمية والمسئولية التاريخية ويمكن أن يمثل فى هذ الصدد بترجمة العلامة تاج الدين السبكى فى كتابه الشهير « طبقات الشافعية » لوالده العلامة الشيخ تقى الدين السبكى ترجمة مفصلة مسهبة [19] ، وتأليف العلامة الشيخ أبى الحسنات عبد الحى اللكنوى الفرنجى محلى رسالة مستقلة بعنوان « حسرة العالم بوفاة مرجع العالم » فى حياة والده الشيخ عبد الحليم اللكنوى .

وسوف نختار من هذا الكتاب تلك الجوانب والوقائع التى تلقى الضوء على شخصيته ، والتى يمكن أن تقدر بها مكانته العلمية والدينية والروحية ، ويستعان به فى تحديد ذلك الدور الأساسى الذى قام به والده فى تكوين شخصية الإمام الدهلوى وميوله وذوقه والتأثير فى حياته ، ولا نكثر من ذكر الكرامات والكشوف والتجارب الروحية والمدارج الباطنية (التى كانت الشغل الشاغل فى ذلك العهد ، وكانت للمترجم بها مناسبة خاصة) لأن فهمها وإدراكها يتعسر على أصحاب هذا العصر وينبغى لمن يريد هذه التفاصيل أن يرجع إلى أصل الكتاب ، ولابد من أن نقول - إجمالاً - إن هذه الأحوال والوقائع تدل على استعداد روحى بالغ ونبوغ باطنى طبيعى تذكر بأحوال الأولياء المتقدمين الذين كانت استعداداتهم ومداركهم قوية بالغة ، وكان الزمن مواتياً صالحاً والبيئة متجاوبة مساعدة ، بل باعثة ومرغبة ، وكانت قدرة الله وتربيته بموجب قوله - تعالى - : ﴿ **كل يوم هو فى شأن** ﴾ [20] تتجلى فى هذا المجال ، وكان ذلك تفسيراً لقوله - تعالى - : ﴿ **كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً** ﴾ [21] .

لا يوجد التصريح فى كتب التراجم بسنة ولادة الشيخ عبد الرحيم ، ولكن لما أنه توفى عام ١١٣١ هـ ، وعمره ٧٧ عاماً لذلك نستطيع أن نحدد سنة ولادته وهى ١٠٥٤ هـ [22] .

وكان للشيخ عبد الرحمن ثلاثة أخوة ، الشيخ أبو الرضا محمد ، والشيخ عبد الحكيم والشيخ عبد الرحيم .

يقول الشيخ عبد الرحيم : كنت من صغرى ألوث على رأسى العمامة وأجلس جلسة

---

(١٩) وهى تشتمل على ٨١ صفحة بحروف صغيرة .

(٢٠) سورة الرحمن ، الآية : ٢٩ .

(٢١) سورة الإسراء ، الآية : ٢٠ .

(٢٢) أيضاً ، ص : ٨٥ .

الصلاة ، وكنت أسبغ الوضوء ، واهتم بسننه وآدابه ، وكان خالى الشيخ عبد الحى (الذى كان أيضاً من المشائخ الربانيين) يرانى فيسر بى ، ويقول يطمئن قلبى عند رؤيته على أن هذه الثروة المعنوية لسلفنا ستستمر فى أعقابنا ، فلو لم يظفر بها أحفادنا فلا بأس فإن اسباطنا سيكونون حملة أمناء لهذا التراث (٢٣) .

لقد كان الشيخ عبد الرحيم من صغره ميالاً إلى الدين ، نفوراً من الدنيا ، ومالها وجاهها ، فكان لا يلتفت إلى شيخ يريد أن يعلمه دعاءاً يحقق حاجات الدنيا ويقول : لا حاجة لى به ، فلما رأى ذلك منه أحد المشائخ النقشبنديين الذى كان اسمه خواجه هاشم، وكان قد قدم من بخارى ونزل فى الحى الذى كان يسكنه الشيخ عبد الرحيم ، لقنه « طريق الاستكتاب » (٢٤) ، يقول الشيخ عبد الرحيم : وقد غلبت علىَّ هذه الطريقة واستحوذت على نفسى حتى أننى انتسخت مرة حاشية ملاّ عبد الحكيم (وهى حاشيته على شرح العقائد) فبدأت أكتب اسم الذات حتى تم جزء واحد ولم أشعر به (٢٥) .

وكان الشيخ يحضر عند الشيخ عبد الله المعروف بخواجه خورد ابن الشيخ الربانى خواجه باقى بالله ، وكان من كبار العارفين ، وقد تقدم إليه الشيخ لبعض الاشارات الغيبية والبشارات الروحية بطلب البيعة على يديه ، فأشار عليه ناصحاً أن يبايع أحد خلفاء السيد آدم البنورى ممن تكون له قدم راسخة فى العمل بالشريعة ، والزهد فى الدنيا وتهذيب النفس ، فقال له : إن الشيخ الحافظ السيد عبد الله (٢٦) ، من خلفاء السيد آدم يسكن بجوارنا ، فقال اغتنم وجوده ، فلا تتأخر فى بيعته، يقول الشيخ :فجئت إلى حضرة السيد عبد الله ، كان يغلب عليه إخفاء حاله ويعيش فى الخمول ، ولكنه أجابنى على طلبى الأول وقبلنى للبيعة ، فكنت أحضر لدى الشيخين الشيخ خواجه خورد ، والشيخ السيد عبد الله، واستفيد منهما ، وكانت عناية السيد عبد الله متوجهة إلى الشيخ عبد الرحيم ،فقال له يوماً : كنت صغيراً ، تلعب مع الولدان ، فوجدت فى نفسى انجذاباً إليك ، فدعوت الله -

---

(٢٣) أيضاً ، ص : ٤ .

(٢٤) كان المشائخ لغرض نقش اسم الله - تعالى - على لوح قلب الطالب يستكتبونه اسم الله -تعالى- بكثرة على الورق حتى ينقش فى القلب ، وكان هذا أحدى الطرق لعلاج القلوب وإحيائها بذكر الله - تعالى - .

(٢٥) « أنفاس العارفين » ، ص : ٥ .

(٢٦) انظرلترجمته « أنفاس العارفين » ، ص : ٦ - ١٥ .

تعالى - أن يجعل هذا الولد من الأولياء والصالحين ، وأن يظهـر نبوغه على يدى ، فأحمد الله - تعالى - على أن ثمرةهذا الدعاء قد ظهرت [٢٧] .

دراســـتــــه :

قرأ الشيخ عبدالرحـيم من الرسائل الصغيرة إلى « شرح العقائد » و « حـاشية الخيالى » على أخيه الأكبر أبو الرضا محمـد ،وقرأ سائر الكتب على ميرزا زاهد (المعرف بمير زاهد) وكان يقول : لقد قرأت « شرح المواقف » وسائر كتب الأصول على ميرزا زاهد ،وكانت له بى عناية خاصة ،حتى لو قلت له يومـاً ، لم أطالع الكتاب الليلة فكان يقول : أقرأ سطراً أو سطرين حتى لا يذهب اليوم خالياً من الدرس ، وراجع الشـيخ خواجه خورد أيضاً فى حل بعض المواضع من « حاشية الخـيالى » واطمئن بحلوله وكان يقرأ - أحيـاناً - شيئاً من بداية الكتاب ،ثم يدرسه إلى نهايته بنفسه ، وكان الشـيخ خواجه خورد تلميذ الشيخ رفيع الدين جد الشيخ عبد الرحـيم لأمه ، وكان الشيخ خواجه خورد استفـاد من أستاذه علمياً وروحياً ، لذلك كان يعامل الشيخ عبد الرحيم معاملة خاصة .

وراجع الشيخ عبد الرحـيم بعد وفاة السيد عبد الله الشـيخ أبا القاسم الأكبر آبادى [٢٨] أحد كبار المشائخ فى السلسلة أبى العلائية الأحرارية ، واستفاد من الأمير نور العلاء أيضاً، وأجازه كذلك الشيخ أبو القاسم ، وكان الشيخ يكرمه ويقدره ويعتنى به اعتناءً خاصاً لأجل أنه كان يتصل بالشيخ عـبد العزيز شكربار ، أحد أجداد الشيخ عبـد الرحيم من أمه اتصالاً خاصاً .

وقد ذكـر الإمام الدهلوى فى كتـابه « أنفاس العارفين » حوادث ووقـائع كثيـرة للقاءات الشيخ عبد الرحيم مع مـشائخ وأولياء عصره ، ومجاذيبه وعناياتهم الخـاصة به ، فقد كان عصـر الازدهار للسلوك والتصـوف والشوق إلى الله ، ومعـرفته والوصـول إليه والزهد ، وكان أمثال هؤلاء المشائخ الذين يتذوّقون هذه الأشياء ، ويتحلون بالفضائل الروحية الباطنية

---

(٢٧) أيضاً ، ص : ١١ .

(٢٨) كان الشيخ أبو القاسم خليفة الشيخ ولى محمد النارنولى ، وهو خليفة الأمير أبى العلاء الحسينى الأكبر آبادى ، وقد عاصر الشيخ أبا القـاسم أبا العلاء وصحبه ، ولكنه حصل على الإجازة من الشيخ محمد النارنولى ، توفى عام١٠٨٩ هـ ، وينبغى أن يعلم أن الطريقة أبا العلائية الأحرارية هى مزيجة من الطريقتين الجشتية والنقشبندية وسلسلة كـالبى الشهيرة التى كان فيها الشيخ السيد محمد الترمذى ، تنتمى إلى هذه السلسلة انظر للتفصيل « نزهة الخواطر » جـ : ٥ ، ص :٢٢ .

موجودين بكثرة [٢٩] ، وقد كان لهم إقبال كبير على الشيخ عبد الرحيم وعناية خاصة به ، وكانت للشيخ معهم لقاءات طيبة ،وذكر الإمام الدهلوى وقائع من كشفه للأرواح مما يدل على قوته الباطنية وتأثيره الروحى الكبير [٣٠] ، كما ذكر أيضاً كراماته وإشراقاته [٣١] ، ثم ذكر أقواله وكلماته بتفصيل كبير [٣٢] ، ويظهر من أقواله وكلماتـه دقة نظره وثقوبه وذكائه ، وصلاحيته العلمية الفائقة .

يقول الإمام الدهلوى : كان عمل والدى فى أكثر المسائل على المذهب الحنفى ، وكان فى بعض المسائل يأخذ بالحديث ، أو يرجح أحد المذاهب بما يملى عليه وجدانه ، فكان من اختياراته قراءة الفاتحة خلف الإمام ، وقراءة الفاتحة فى صلاة الجنازة .

وقد كان الشيخ عبد الرحيم فى تلك اللجنة من العلماء التى عهد إليها بترتيب « الفتاوى الهندية » المعروف فى الهند بـ « فتـاوى عالمكيرى » ، والتى كانت تشمل على كـبار العلماء البارزين والمدرسين والفقـهاء البصيرين فى الفقـه الحنفى فى هذه البلاد ، وكان رئيس هذه اللجنة والمشرف عليهـا الشيخ نظام الدين البرهانبورى وقد أنفـق السلطان عالمكير على هذه الخدمة الجليلة مـائتى ألف روبية [٣٣] ، وقد ذكـر مؤلف « الثقـافة الإسلامـية فى الهند » أسماء هؤلاء العلماء المؤلفين بعـد تتبع وفحص كبير ، فبلغ عـددهم اثنين وعشرين ، وكان الشيخ عبد الرحيم أحد أعضاء هذه اللجنة [٣٤] .

يقول الإمـام الدهلوى : لقد كان السلطان عـالمكير فى هذه الفتـرة من الزمن على غاية الاهتمام بهذا الـترتيب والتدوين ، وكان الشيخ ملا نظام الدين (أحـد المشرفين على عمل اللجنة) يقرأ كل يوم صفحة من الكتاب على السلطان فقرأ - ذات يوم - ذلك الجزء الذى كان عهـد بترتيبه إلى الشيخ مـلا حامد ، وكان قد خلط بين عـبارتين متفرقـتين من كتابين تتعلقان بمسألة واحدة ، فنشأ غموض وإبهـام فلما وقع بصر الشيخ عبد الرحيم (الذى كان

---

(٢٩) انظر « أنفاس العارفين » ، ص : ٢٩-٣٤.

(٣٠) « أنفاس العارفين » ، ص : ٣٥ - ٥٠ .

(٣١) أيضاً ، ص : ٥٠ - ٦٥ .

(٣٢) أيضاً ، ص : ٦٦ -٨٥ .

(٣٣) ولا يقل ذلك اليوم عن خمس ملايين روبية .

(٣٤) انظر « الثقافة الإسلامية فى الهند » للعـلامة السيد عبد الحى الحسنى المرحوم ص : ١١١ ، طبع المجمع العلمى دمشق .

أحد أصدقائه) على هذا الموضع ، قام بالبحث والتحقيق ، فظهر له أنه جمع بين عبارتين مختلفتين المؤدى ، فكتب على حاشية المسودة هذه العبارة : « من لم يتفقه فى الدين قد خلط فيه ، هذا غلط ، وصوابه كذا ، فقرأ ملا نظام مع عبارة المتن هذه الحاشية كذلك ، ولم يتنبه فى سرعة قراءته للحقيقة ، أما السلطان الفاضل الذى كان يسمع بإصغاء واهتمام ، فقد التفت وتفطن ، وقال : ما هذه العبارة ؟ فاضطرب ملا نظام بعض الاضطراب ، إذ أنه لم يكن قد طالعه من قبل ، ثم تمالك نفسه ، وقال إننى لم أكن قد طالعت هذه الجزء وسوف أشرح ذلك غداً بتفصيل ، لما جاء منزله ، شكى إلى ملا حامد توريطه ، وقال : كنت تركت مطالعة هذا الجزء ثقة بك واعتماداً عليك ، وقد افتضحت بسببك لدى السلطان ، فلم ينبس ملا حامد حينئذ ببنت شفة ، بل شكى ذلك إلى الشيخ عبد الرحيم ففتح الشيخ أمامه الكتاب وأراه موضع الغلط ، وأن العبارة نشأ فيها غموض واضطراب وكان : ذلك مثار الحسد عند بعض الزملاء ، حتى اضطر الشيخ عبد الرحيم إلى أن يعتزل هذا العمل بعد الانتظام فى سلكه لمدة من الزمن .

أخلاقه وشمائله وعاداته وأوراده :

يقول الإمام الدهلوى عنه : أنه كان مجمعاً للفضائل والصفات الكريمة والأخلاق الحميدة ، وقد كان متصفاً بغاية الشجاعة والجراءة ، الغيرة والفراسة ، وكان له مع « عقل المعاد » والتفكير فى الآخرة النصيب الأوفر من « عقل المعاش » والحزم فى الشئون الدنيوية ، وكان يحب التوسط والاعتدال فى جميع أحواله وأموره ، فلم يكن له فى الزهد والعبادة من الإفراط والغلو ما يصل إلى حدود الرهبانية ولا من الرخصة والسهولة ما يبلغ حد التساهل وقلة الاهتمام ، ولم يكن يتكلف فى اللباس فما تيسر له من اللباس الخشن أو الناعم لبسه من غير كلفة ، إلا أن الله - تعالى - هيأ له دائماً من اللباس ما نعم وطاب ، وكان الله - تعالى - يكفيه جميع حاجاته ، فكان قليلاً ما يخرج إلى السوق لشراء الحاجيات ، ولا كان يذهب إلى قصور الأمراء والأغنياء ، فقد أغلق على نفسه الباب ، أما إذا زاره أحد من الأمراء أو الأثرياء فكان يستقبله طليق الوجه ، ببشر وطيب خلق ، وكان يكرم الكريم منهم ، وإذا طلب أحد منهم موعظة ، وعظه برفق ولين ، وأدى مسئولية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكان يعظم العلم والعلماء ، وينفر من الجهل والجهلة ، وتتبع - دائماً وفى كل حال -سنن المصطفى ﷺ ومن استقامته والتزامه بالعبادات أنه لم تفته الجماعة بغير عذر فى عمره كله ، ولم يمل طبعه - فى صباه كذلك - إلى المحرمات والمنهيات ، ولم يكن يتحاشى البيع والشراء فى الأمور الحاجية ولا يلتزم هيئة العلماء

وآدابهم المتكلفة ، ولا ملابس الفقراء والدراويش المطلقة ، بل كان يعيش بعيداً عن التصنع والتكلف ، وكان يكره الاستدانة بدون ضرورة ، ويكره من يستدين للتفكه ورغد العيش ويعيبه ، وكان له إدراك وذكاء بالغ فى علم الطب .

وكان من التزاماته وأوراده اليومية أن يصلى على النبى ﷺ ألف مرة ، ويهلل ألف مرة، بعضها جهراً وبعضها خفية ، ويردد اسم الله - تعالى -اثنى عشرة ألف مرة ، وكان بعد وفاة أخيه الشيخ أبو الرضا محمد ، يدرس فى «مشكاة المصابيح » و « تنبيه الغافلين» ، و « غنية الطالبين » ، ثم بدأ - أخيراً - إلقاء الدروس فى التفسير ، وكان قد فرغ من تفسير الزهراوين (سورتى البقرة وآل عمران) إذ اعتراه الضعف وانقطع هذا الدرس .

حميته الإسلامية :

لقد كان الشيخ عبد الرحيم حسب تقليد سلفه وارث والده الشيخ وجيه الدين يتصف ببالغ الحمية الإسلامية ، ويحمل مشبوب العواطف الجهادية ، ومن المعلوم أن الجهاد والأخذ بالعزيمة تسلسلاً فى أسرته جيلاً بعد جيل من دون انقطاع ، فكان قد ورث الشجاعة والفتوة ، والغيرة ، وإن لم نعثر على حادث اشتراكه فى معركه من معارك الجهاد ولكن الوقائع المذكورة فى « أنفاس العارفين » تكفى للدلالة على ما كان يمتاز به من علو همة ، وعزيمة ، وغيرة دينية ، وهذا هو التراث الجليل الذى انتقل إلى أعقابه أيضاً .

زواجه وأولاده :

كان زواج الشيخ عبد الرحيم الأول فى حياة والده ، وقد ولد له من زوجته الأولى ابن سمى « صلاح الدين » الذى لم يلبث أن مات (٣٥) ، وبقيت هذه الزوجة على قيد الحياة مدة طويلة ، وتوفيت بعد زواج الإمام الدهلوى عام ١١٢٨ هـ أو ١١٢٩ هـ (٣٦) .

وكان الزواج الثانى فى الكبر لبعض البشارات والإنتسارات الغيبية بكريمة الشيخ محمد

---

(٣٥) يستفاد من « القول الجلى » أن هذا الأخ العلائى للإمام الدهلوى المدعو بصلاح الدين كان قد بلغ سن الشباب ، (انظر القول الجلى المخطوط فى مكتة كاكورى) .

(٣٦) يقول الإمام الدهلوى فى « الجزء اللطيف فى ترجمة العبد الضعيف » : أن والدى زوجنى وكنت فى ١٤ سنة ، وقد أسرع فى أمر زواجى وقال لمن كان يريد التأجيل إن فى هذا مصلحة مرعية ، ثم وقعت بعد الزواج عدة مصائب فى الأسرة لو كانت وقعت منها مصيبة قبل الزواج لتأجل الزواج ، وذكر الحادثة الأخيرة من هذه الحوادث وفاة والدة أخيه الكبير صلاح الدين (انظر الجزء اللطيف ص :٢) .

الفلتى الصديقى ، وقد ولد منها ابنان : الإمام الدهلوى ، والشيخ أهل الله .

وفـــاتـــه :

لقد صام الشـيخ عبد الرحيم آخـر صيام حيـاته فى شهر رمضان حين بـلغ ٧٧ عاماً من عمره ، ثم مرض فى شوال ، وانقطع الرجاء فى الحياة ، ثم عادت إليه الصحة ، ثم رجع المرض فى أوائل صـفر واشـتد ، وبدت عـلائم الموت قـبل الفجـر الصادق ، وكـان جل اهتمـامه - حينذاك - أن لا تفـوته صلاة الفجـر فسأل فى هذه الحـالة من الضعف ، هل أصبحنا ، هل طلع الفـجر ؟ ، فقال الحضور ، لا لم يطلع بعـدُ ! فلما دنا الوقت جداً ، اشتد على هؤلاء وردّ عليـهم بغضب وقال إن كان وقت صلاتكم لم يحن بعـد ، فقد حان وقت صلاتى ، وقـال وجهونى إلـى القبلة ، ثم صلى يومئ إيماءً ، وقـد كان فى الطلوع شك ، ثم اشتـغل بحركـة شفوية بذكـر « اسم الذات » وأسلم روحه لبـارئها ، وقع هذا الحادث يوم الأربعاء ١٢ / صفر عام ١١٣١ هـ ، وكان هـذا آخر عهد الملك فرخ سير ودام فرخ سير بعـد وفاته خمسين يوماً فى الحبس ، ووقع فى المدينة اضطراب كبـير وكان عمره عند وفاته ٧٧ سنة [٣٧] .

الشيخ عبد الرحيم فى نظر الإمام الدهلوى :

رغم أنه لا يوجد أى مـؤلف (سوى رسالة واحدة) للشـيخ عبد الرحيم يحـدد مكانته العلمية ، وأن صيته إنما يدين لولده النابغـة العظيم ، وهو الذى عرف به وترجمه فى كتابه «أنفاس العرفين » ، وليس هناك أى كتاب لأحد من تلامذته ومسترشديه فى حياته ، ولكن مؤلفـات الإمام الدهلوى ولا سيمـا كتابه « أنفاس العـارفين » يدل على أن الإمام الدهلوى كبير الإعجـاب والاقتناع - على بصيرة وهدى - بسمو مكانته وقوته الـروحية، وقبوله عند الله - تعالى - ومـنزلته الرفيـعة فى العلم والسلوك مما يـكون من تأثُّر الابن البار بفـضائل والده ومآثره واعترافه بمنته العظيمة وثنائه عليه ، ويظهر أن الإمام الدهلوى على علم اليقين والوجدان الصحيح فيما يتعلق بفضائله وكـمالاته الروحية والعلمية ، ويستشعر القارئ فى ترجمتـه له بأنه معجب به غايـة الإعجاب ، يجد اللذة والحلاوة فـى ذكره ، ويبدو أن فى تعليم الإمام الدهلوى وتربـيته وفضـائله العلمية والروحـية والحصول على المدارج البـاطنية ووصوله إلى درجة الإمامة والاجتهاد فى العلم والسلوك حظاً كـبيراً ونصيباً وافراً لقوة تأثير والده ونسبته الروحية ، وشفقته وأدعيته وابتهالاته .

---

(٣٧) « أنفاس العارفين » ، ص : ٨٣ - ٨٥ .

الأسر العربية الأصل فى الهند وخصائصها وتقاليدها :

تفيد التراجم المختصرة لأجداد الإمام الدهلوى وسلفه (التى قدمنا خلاصتها فى الصفحات الماضية) أن هناك ثلاث خلال مشتركة تتوارث فيهم - بصفة عامة :

١ - صلة عامة بالعلم والدين والتقوى والورع والقضاء والإفتاء [٣٨] ، الذى لا يستبعد تسلسله واستمراره على أساس هذه المناسبة والانسجام السلالى الموروث بالعلم والدين والعزيمة وعلو الهمة (التى كان يغذيها تعليم المربين والمشرفين من أصحاب الإخلاص والعزيمة والهمة العالية ، وتربيتهم ، والقصص والوقائع التى يتناقلها أفراد الأسرة كابراً عن كابر) وقد حفظ الله - تعالى - كثيراً من الأسر والبيوتات لأجل مآثر الأسلاف ومكارمهم وصلاحهم وتقواهم ، ونظم واستخدمها للحفاظ على ثروة الدين وتراثه العظيم ، كما حفظ جدار اليتيمين ، الذى كان يريد أن ينقض بيد أحد عباده المخلصين المقبولين ، وشيد به بنيانه ، وقد كان أبوهما صالحاً » [٣٩] ، ويشهد تاريخ عشرات من الأسر فى الهند التى استمر فيها العلم والدين والقضاء والإفتاء والتدريس والتأليف والدعوة والإرشاد على هذا التسلسل فى كثير من صفات الوراثية ، وحفظ الله - تعالى - لهم وعنايته بهم .

٢ - حفظ الأنساب ، وتعهد سلسلة النسب للأسرة وترتيبها والحفاظ عليها ، والاهتمام بـ « الكفاءة » بالمقياس والحد الذى لم يكن يوجد فى البلاد العربية والبلدان الإسلامية القديمة ولعل الدافع إلى ذلك كان عاطفة الحفاظ على النسب العربى الذى حملته هذه الأسر من البلدان العربية فى هذه البلاد الأعجمية وقد كان للتأثر بالنظام الطبقى فى الهند أيضاً نصيب ، فقد عرف بالتفاخر بالنسب والاعتزاز به من قديم الزمان ، بالرغم من أن الشريعة لم تكلف الناس بهذا الاهتمام البالغ والرعاية الدقيقة ، وقد نشأ فيها إفراط وغلو فى القرون المتأخرة وفى البلاد الأعجمية ، ولكن ينبغى أن يلاحظ - مع كل ذلك -أن من نتائج هذا الحفاظ على النسب كان استمرار الخصائص الأسرية فيهم عبر قرون وأجيال ، وأنهم لم يذوبوا فى مجتمع البلاد غير الإسلامية وحضارتها .

٣ - والصفة الثالثة هى صفة الشجاعة والجلادة والفتوة والفروسية التى هى كذلك من الخصائص السلالية الوراثية للنسل العربى ، ولا سيما قبيلة قريش ، والتى مرت بنا أمثلتها فى وقائع الشيخ معظم والشيخ وجيه الدين وقصصهما البطولية ويشاهد نموذجها الرائع فى حياة حفيد الإمام الدهلوى نفسه ، الشيخ محمد إسماعيل الشهيد .

---

(٣٨) وظاهر أن هذا ليس كلية من الكليات التى لا مجال فيها للاستثناء ، بل هى قاعدة أغلبية كعامة البيوتات وأسر الأشراف وأهل الفضل والكمال .

(٣٩) سورة الكهف قصة خضر مع جدار يتيمين كان أبوهما صالحاً ، الآية :٨٢ .

وهناك عوامل ودوافع نفسية وعقلية أخرى لتوارث هذه الخصائص وتسلسلها ، منها أن الأسر العربية الأصل التى نزحت إلى الحجاز والعراق وإيران وتركستان والهند فى مختلف فترات التاريخ ، وعهوده ، إنما كان العامل الأساسى فى هجرة أكثرهم واستيطانهم الهند مثلاً إما الحفاظ على دينهم وعقيدتهم أو عاطفة الحماية لمكانتهم وأعراضهم ، فقد كانوا تعرضوا لخطر الحملات التتارية ، وقد حفظت الأجيال بعد الأجيال هذا الغرض الأساسى ، ولم يمح من ذاكرتها ، وكانوا يحافظون عليه ويهتمون به ، فبارك الله - تعالى - لذلك فى تدينهم وتقواهم ، فقد كانوا مصداق قول الله - تعالى - : ﴿ **فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا** ﴾ (٤٠) ، أو كانت عاطفة الجهاد فى سبيل الله والدعوة إلى الله ، التى كانت الهند لها (فى عالم القرن السادس والسابع) مجالاً واسعاً وميداناً فسيحاً ، فكانت كثيراً من مناطق هذه البلاد الواسعة الأطراف (التى يصح أن تدعى شبه القارة) لم تخضع لدولة المسلمين ، ولم تدخل فى طاعتهم ، وكان يحكمها أمراء وحكام وثنيون ، وكانوا - أحياناً - يعرقلون إقامة شعائر الإسلام وتنفيذ الأحكام الشرعية، وكان كثير منهم يخرج - بين فينة وأخرى - ضد الدولة الإسلامية ، ويقيم فتنة وثورة ، ولم يكن من الميسور وصول الجيش الإسلامى إلى كل مكان ، فكان قيام هذه الأسر العربية الأصل الشريفة النجيبة ذات الطموح والهمة العالية ، والراغبة فى الجهاد والغزوات، وهؤلاء الأعيان والوجهاء ، بفتح هذه المناطق وتسليمها إلى السلطة المركزية وإخضاعها لدولة الإسلام إرواءً لغليل طموحهم وعزائمهم ، وإشباعاً لعواطفهم الدينية الجهادية ، وسبباً من أسباب الجاه والإمارة ، فكانوا يقطعون أراض واسعة ، ويولون مناصب القضاء والإفتاء والنيابة عن الأمراء ، ولذلك تكثر فى هذه الأسر العربية والإيرانية الأصل أيضاً - وقائع فتحهم لمناطق بعيدة شاسعة مجهولة ، غير ذات شأن كبير ، لم تكن قد دخلت فى الدولة الإسلامية (٤١) .

---

(٤٠) سورة آل عمران ، الآية : ١٨٥ .

(٤١) ومن أمثلته الأمير الكبير السيد قطب الدين محمد المدنى (م٦٧٧ هـ) الذى هو مؤسس الأسرة القطبية الحسنية فى ولاية أودهـ ، والجد الأعلى للإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، قدم من طريق غزنين مع جماعة من أقربائه والأشراف وأعيان غزنين ووجهائها ومجاهديها فى أوائل القرن السابع إلى دلهى ، ثم توجه من دلهى إلى الشرق وحمل أولاً على مدينة قنوج ، ثم على «مانك بور» و «كره» (التى كانت مركزاً لحكومة مستقلة فى ذلك العصر) وفتح هذه المناطق كلها وضمها إلى دولة المسلمين (انظر سيرت سيد أحمد شهيد ، جـ : ١ ، ص : ٧٩ .)

كانت هذه الأسر تشعر فى نفسها بأنها لم تأت الهند إلا لغرض سام كبير ، وأن المنبع الأصيل لديننا وحضارتنا وسعادتنا هو مركز الإسلام ومهبط الوحى جزيرة العرب ، بل الحجاز المقدس ، فلا يجوز لنا أن ننقطع عن أصلنا هذا كلياً ، ولا بد لنا من الحفاظ مهما كان الأمر ، على خصائصنا وميزاتنا الأسرية والحضارية والخلقية والاجتماعية ، وحينئذ نستطيع أن نبقى - فى هذا الجزء البعيد من العالم وفى هذه الحضارة والبيئة الأجنبية التى تحمل فى نفسها تلك القوة من الصهر والإذابة التى أذابت الشعوب والسلالات الوافدة من الخارج وصبتها وقضت على خصائصها وميزاتها وأحرقتها - أعزة محفوظين من التأثيرات الخارجية ، وقد أنتج فيهم هذا الشعور غيرة دينية وسُلالية ، وقوة مقاومة خارقة ضد كل التأثيرات الخارجية ، استطاعت أن تبقى على شخصيتهم المميزة إلى حد كبير ، وأن تنقل خصائصها عبر القرون إلى الأجيال بعد الأجيال .

وقد جاءت هذه الحقيقة واضحة جلية فى وصية من وصايا الإمام الدهلوى التى كتبها فى رسالة باسم « المقالة الوضيئة فى الوصية والنصيحة » التى خاطب فيها أولاً أسرته وعشيرته الأقربين ، ثم سائر أصحابه ، والأمة الإسلامية الهندية كلها ، يقول الإمام الدهلوى :

« إنه لا ينبغى لنا أن ننسى أننا غرباء (فى هذه البلاد) لقد هاجر آباؤنا إلى الهند ، وأن عربيّة نسبنا ولغتنا مفخرتان لنا عظيمتان ، فهما تقربان من سيد الأولين والآخرين وأفضل الأنبياء والمرسلين ، ومفخرة الكون والخلق أجمعين محمد عليه الصلاة والتسليم ، وإن من واجب الشكر على هذه النعمة الجليلة أن لا تنقطع صلتنا - كلياً - بعادات أولئك العرب الأولين وتقاليدهم ، الذين نشأ فيهم رسول الله ﷺ - ولا ندع تقاليد العجم وعادات أهل الهند الوثنيين وطقوسهم تنتشر وتشيع فينا » .

ثم يقول :

« أن السعيد منا من له مشاركة فى اللغة العربية ، وإلمام بالصرف والنحو والأدب ، واطلاع على القرآن والحديث ، ويلزمنا أن نتشرف بزيارة الحرمين الشريفين - بين فينة وأخرى - وتكون لنا بها صلة قلبية ، ففى ذلك سرُّ سعادتنا وفى الإعراض عنه سرُّ شقائنا وحرماننا [٤٢] .

---

(٤٢) « المقالة الوضيئة فى النصيحة والوصية » (بالفارسية) طبع دلهى عام ١٢٦٧ هـ .

وقد كانت هذه الأسرة علاوة على أنها كانت عربية الأصل ، جليلة النسب ، حائزة على شرف الانتساب إلى سيدنا عمر الفاروق - رضى الله عنه - وقد وفق الله - تعالى - الأسر العُمرية الفاروقية فى الهند ، - مراراً وتكراراً - للمآثر التجديدية العظيمة من الحفاظ على الدين ، وإعلاء شعائر الإسلام ، ومقاومات الحركات المعادية للإسلام ، التى كانت تنطوى فيها الغيرة الفاروقية ، ولعل الصلة النسبية والروحية سيدنا عمر الفاروق - رضى الله عنه - أيضاً كانت تدفع إليها ، وهى من أكبر الدوافع النفسية وأقواها ، فقد قاوم أحد أفراد هذه السلالة فى القرن العاشر فتنة الملك أكبر ، واجتث - بحول الله تعالى - جرثومتها ، وحفظ - بإذن الله تعالى - الهند من تعرضها لمؤامرة خطيرة من فتنة وَحدة الأديان ، ودعاوى « العهد الجديد » و « القانون الجديد » و « الألف الجديد » و « الإمامة الجديدة » ، والكفر والإلحاد (٤٣) ، وكان الشيخ أحمد السرهندى يعتز بهذه النسبة ، ويرى هذه الحمية الدينية نتيجة طبيعية لها وإحدى مقتضياتها ، وقد صدرت من قلمه على سماع بعض التحقيقات المخالفة للعقائد الإسلامية ومسلك جمهور أهل السنة والجماعة منسوبة إلى شيخ وعارف شهير ، هذه الكلمات القوية :

« يا سيدى ! إن هذا الفقير لا يستطيع أن يصبر على هذه الأقوال إنه ينبض فىّ عرقى الفاروقى » (٤٤) .

وكذلك لما سمع أن خطيب الجمعة فى قرية « سامانه » ترك ذكر الخلفاء الراشدين عمداً فى خطبته ، قال :

« لما أورث هذا الخبر الموحش المقلق اضطراباً فى نفسى وحرك عرقى الفاروقى وأثاره صدرت من قلمى هذه الكلمات المعدودة » (٤٥) .

ومن المقطوع به أنه يكون لهذه النسبة والنسب والشعور بشرفه ومسئوليته تأثير ودخل فى ذلك العمل الضخم المتنوع الواسع ، الذى قام به الإمام الدهلوى لتجديد الدين وإحيائه (والذى اشتمل على إصلاح العقائد ، والرد على الإشراك والبدع ، ونشر الكتاب والسنة، وترويج فى الحديث الشريف ، والرد على الرفض والتشيع ، وإثبات خلافة الخلفاء

---

(٤٣) انظر للتفصيل « رجال الفكر والدعوة » جـ : ٣ ، ص : ٥٤ -٦٣ ، وص : ٩٨ - ١٠٢ .

(٤٤) الرسالة رقم ١٠٠ ، وهى موجهة إلى الشيخ حسن الكشميرى .

(٤٥) الرسالة رقم ١٥ ، الجزء السادس ، المجلد الثانى .

الراشدين ، وغير ذلك) وهو أمر يتفق وعلم النفس وعلم الحياة ، والتجارب والأصول النسلية (التى توجد أمثلتها والشواهد عليها فى تاريخ الأسر والأجيال بكثرة) ويؤيده العقل والقياس ، وقد جاء فى الحديث الصحيح :

« الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » [٤٦] .

---

(٤٦) صحيح مسلم .

الباب الرابع

حياة الإِمام الدهلوى بإيجاز [1]

ولادتــه :

ولد الإِمام الدهلوى صباح يوم الأربعــاء عند طلوع الشمس فى٤ / شوال عام ١١١٤هـ فى أخواله قرية « فلت » فى مديرية مظفرنكر ، وأرخت ولادته بـ « عظيم الدين » [2] ، وقد كان والده الشيخ عبد الرحـيم عند ولادته فى الستين من سنه ، وقد سبقت ولادة هذا الابن المبارك كثير من المبشرات ، ولما كان الشيخ عبدالرحيم أراد أن يتزوج زواجاً ثانياً وكان قد بلغ الستين ، وزوجته الأولى والدة الشيخ صلاح الدين فى حبالته ،كان فى هذه الإِرادة دخل للإِشارات الغـيبية والبـشارات الكثيرة ، ولما علـم بذلك الشيخ محمـد الفلتى قرر أن ينكحه ابنته [3] ، وتم هذا الزواج السعيد فى أوائل عام ١١١٤ هـ .

ويفيد « القول الجلى » أن اسم هذه الزوجـة كان فخر النساء ،وكانت تمتاز ببـراعة فائقة فى العلوم الدينية ،قلما يتيسر مثلها للنســاء ، يقول مؤلف هذا الكتاب الشيخ محمد عاشق الفلتى الذى كان ابن أخيها الشقيق ، وصاحب البيت أدرى بما فيه :

« كانت أمه الكـريمة عالمة بالعلوم الشرعيـة كالتفسيـر والحديث متحليـة بآداب الطريقة عارفة بأسرار الحقيقة ، وكانت لجمعها هذه الفضائل مفخرة للنساء ، واسماً على مسماه » .

وقد رأى الشيخ عبـد الرحيم قبل ولادته ، الشيخ خواجه قطب الدين بـختيار الكعكى

---

(١) لقد نُقلت إليـا من حُسن الحظ-ترجمـة الإِمام الدهلوى ، وما قـرأ من مقررات دراسـية وشئ من منهج والده فى التربية والتعليم ، وبيعته وإجازته ، ورحلته إلى الحجاز ، واستفادته من مشائخه ، والتعـريف بهم وتراجمهم ، وأهم وقـائع حياتهم بقلم الإمام الـدهلوى نفسه ، فهناك مـصدران أساسـيان لهذه المواد والمعلومـات ، أولهما « الجـزء اللطيف » والثانى « إسنان العين فى مـشائخ الحرمين » ،وقد اقـتبسنا ما يتعلق بـحياة الإمام الدهلوى من هذين الكتابن ، واسـتنفدنا فى بعض المواضع من « أنفاس العارفين » و « القول الجلى » .

(٢) الجزء اللطيف ، ص : ٢ ، طبع لاهور .

(٣) أنفاس العارفين ، ص :٦٢ - ٦٣ .

فيما يراه النائم ، فبشره بالولد ، وقال اجعل اسمه على اسمى « قطب الدين أحمد » يقول الإمام الدهلوى : لما وُلِدتُ كان الوالد قد نسى هذا المنام ، وسماني بولى الله ثم تذكر بعد برهة ، فسماني ثانياً قطب الدين أحمد .

كان الإمام الدهلوى فى السابعة من عمره إذ شارك والديه فى قيام الليل ووضع يديه عند الدعاء فى أيديهما ، وهكذا جاء تأويل تلك الرؤيا التى كان رآها والده قبل ولادته» (٤) .

دراسـتــه :

ولما بلغ الإمام الدهلوى الخامسة من عمره أدخل الكتاب (٥) ، واختتن فى السابعة من عمره وعود من هذه السن على الصلاة ، وفرغ فى أواخر هذه السنة من حفظ لقرآن الكريم ، وبدأ قراءة الكتب الفارسية والكتب الإبتدائية المختصرة فى العربية (٦) ، وفرغ من « الكافية » وبدأ قراءة « شرح الجامى للكافية » وهو ابن عشر سنوات ، يقول : « وحصل لى استعداد المطالعة فى الجملة (٧) ، ولما كان فى السنة الرابعة عشرة من عمره قرأ شيئاً من البيضاوى ، وفرغ من العلوم المتداولة فى هذه البلاد ، وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، يقول : ونظم سيدى الوالد بهذه المناسبة السارة مأدبة فخمة للخاص والعام ، وأطعم طعاماً وافراً (٧) .

ويقول : وسمعت (وهو فى الخامسة عشرة من عمره) من سيدى الوالد بقراءة بعض أصحابى المشكاة إلا طرفاً يسيراً أعنى من كتاب البيوع إلى الآداب ، ولكن تداركت ما فات عنى بالإجازة وقرأت من الصحيح للبخارى إلى كتاب الطهارة تقريباً والشمائل للترمذى كله، وقرأت فى التفسير طرفاً من المدارك والبيضاوى (٨) ويقول : ومن منن الله العظمى على أنى حضرت مراراً عند والدى لدراسة معانى القرآن والبحث عن أسباب النزول والنظر فى تفاسير ، فكان هذا سبب فتح أبواب معانى القرآن العظيم والحمد لله (٩) .

---

(٤) أنفاس العارفين ، ص : ٦٣ .

(٥) الجزء اللطيف ، ص : ٢ .

(٦) أيضاً .

(٧) أيضاً .

(٨) أيضاً .

(٩) أيضاً .

المقررات التى درسها الإِمام الدهلوى :

لقد ذكر الإِمام الدهلوى فى الجزء « اللطيف » تلك المقررات الدراسية - بتفصيل - التى درسها ، وهى كما يلى :

يقول : وقرأت من الفقه « شرح الوقاية » و « الهداية » إلا طرفاً منهما ومن أصول الفقه « الحسامى » ، وطرفاً صالحاً من « التوضيح والتلويح » ومن المنطق « شرح الشمسية» كله ، وقسطاً من « شرح المطالع » ، ومن الكلام « شرح العقائد » كله ، مع جملة من حاشية الخيالى ، وشيئاً من « شرح المواقف » ، ومن السلوك قطعة من «العوارف » ، وبعضاً من « الرسائل النقشبندية » وغيرها ومن الحقائق « شرح الرباعيات » لمولانا الجامى و« اللوائح » و « مقدمة شرح اللمعات » ومقدمة « نقد النصوص » ، ومن خواص الأسماء والآيات المجموع الخاص لذاته ، و « الفوائد المائة » وغيرها ، وأجازنى بها مرة بعد أخرى .

ومن الطب « الموجز » ، ومن الحكمة « شرح هداية الحكمة » وغيره ، ومن النحو «الكافية » وشرحه للجامى ، ومن المعانى « المطول » أكثره و « المختصر » قدر ما عليه حاشية لملازاده ، وبعض الرسائل المختصرة من الهندسة والحساب :

لقد كان فى هذه المقررات التى درسها الإِمام الدهلوى دخل ما لاجتهاد والده وأستاذه الأول الحقيقى الشيخ عبد الرحيم واختياره وانتقائه ، فإن المقررات الدراسية التى كانت متداولة فى القرن السابع الهجرى فى الهند والتى أضيف إليها فى القرن التاسع الهجرى بعد مقدم الشيخ عبد الله والشيخ عزيز الله من ملتان إلى دلهى وبقيت مشتمره سائرة فى الأوساط الدراسية إلى القرن الثانى عشر الهجرى عدد من الكتب فى علم الكلام والبلاغة والمعقولات ، ثم أدخلت فيها فى القرن العاشر بعد مقدم الأمير فتح الله الشيرازى إلى الهند مؤلفات العلماء الإيرانيين المتأخرين كالمحقق الدوانى والميرصدر الدين الشيرازى والميرغياث الدين منصور وميرزاجان ، ولعل الشيخ عبد الرحيم لواقعيته واعتماده على ذكاء ابنه حذف منها عدداً من الكتب (التى كانت تشتمل على مواضيع ومعلومات متكررة) فقد درّسه فى النحو - على سبيل المثال - « الكافية » و « شرح الجامى » مكان « المصباح » و « لب الألباب » تأليف القاضى ناصر الدين البيضاوى ، و « الإرشاد » تأليف القاضى شهاب الدين الدولة آبادى ، وفى أصول الفقه طرفاً صالحاً من « الحسامى » و « التوضيح والتلويح » « بدل » المنار « وشروحه » و « أصول الرزدوى » وحذفَ « الكشاف » فى التفسير ، كما لا يوجد « مشارق الأنوار » فى مقررات الحديث .

وقد كان لمقامات الحريرى فى الأدب رواج وسيادة حتى يذكر أن بعض المشائخ كانوا يحفظونه عن ظهر قلوبهم ، ولكننا لا نجده فى المقررات الدراسية عند الإمام الدهلوى ، ومن الممكن أن كثيراً من هذه الكتب أصبحت مهجورة فى كثير من الأوساط الدراسية إلى أوائل القرن الثانى عشر .

وليكن معلوماً أنه فى القرن الثانى عشر الهجرى نفسه كان أستاذ العلماء ملا نظام الدين السهالوى الفرنكى محلى (الذى كان معاصراً للإمام الدهلوى وأكبر منه فى عمره ، والذى توفى قبل وفاة الإمام الدهلوى بـ ١٥ سنة عام ١١٦١ هـ) قد زاد زيادات كثيرة فى هذه المقررات الدراسية ، لا سيما فى علم الصرف والنحو والمنطق والفلسفة والرياضيات والبلاغة وعلم الكلام ، فقد أضاف فيها كثيراً من الكتب والتى ظهرت بعد زيادات وإضافات أخرى (وهى التى تمت فى عهد تلامذته وتلامذة تلامذته بدون تصميم وتخطيط) فى صورة المنهج النظامى أو المقررات الدراسية النظامية التى لا تزال سائدة فى المدارس القديمة أو القائمة على الطراز القديم (١٠) .

ولا نجد ضمن المقررات التى ذكرها الإمام الدهلوى أى كتاب فى الأدب العربى مع أن مؤلفات الإمام الدهلوى ، لا سيما « حجة الله البالغة » تشهد على أنه ليس قادراً على اللغة العربية ، والتحرير والإنشاء فحسب بل إذا نظرنا إلى كتابه « حجة الله البالغة » فهو مؤسس لطراز أسلوب جديد هو أليق ما يكون من الأساليب بشرح المواضيع والمطالب العلمية وتحريرها ، ولا نجد له فيه بعد العلامة ابن خلدون نظيراً ولا قريناً ، ويبدو أن الإمام الدهلوى كان قد طالع بنفسه كتب الأدب العربى وكتب النثر والنظم الديمة ذات المستوى الرفيع التى كانت مثالاً لسلامة البيان وحلاوة العبارات ، وكانت مصونة من التأثيرات الأعجمية ، وأنه قد أعد نفسه أثناء أقامته بالحجاز لذلك العمل التأليفى العظيم فى اللغة العربية – بصفة خاصة – الذى كان قد اختصه به التدبير الإلهى (١١) ، وإذا كان لم يهمل ذكر « مقامات الحريرى » سهواً ونسياناً فكان عدم إدخالها فى مقرراته الدراسية خيراً له

(١٠) انظر للاطلاع على التطورات الحادثة فى المقررات الدراسية فى الهند ، والتغير فى مقاييس الفضل والنبوغ فى مختلف العهود ، وزيادة عدد من الشروح والحواشى لكتاب واحد فى المقررات وعواملها وأسبابها ، كتاب « الثقافة الإسلامية فى الهند » للعلامة عبد الحى الحسنى ، طبع المجمع العلمى بدمشق .

(١١) يقول مؤلف « اليانع الجنى » : وقد أقام بالحجاز سنتين وزاحم العرب وسمع من أهل البادية وهم يومئذ أحسن حالاً منهم فى زماننا » ، ص : ٨٣ .

ومفيداً بدلاً من أن ينقصه ويضره ، فإن أكثر المتأخرين من صرعى هذا الكتاب ، الّذين قيدوا أنفسهم بالعبارات المسجعة والجمل المقفاة حتى لم يعودوا قارين على أداء المطالب العالية ، والتعبير عمّا في نفوسهم بعبارة سهلة سلسلة غير متكلفة ، وكل من جاء بعد الحريرى وألف في موضوع من المواضيع ألف بقلم الحريرى الذى كان قد بلى ومضى عليه الدهر ، حتى لا نجد الرسائل والمكاتبات ، وتقريظات الكتب والمقدمات إلى عبارات الفتاوى الطويلة حرة طلقة من هذا التأثير للحريرى .

يقول الإمام الدهلوى : وكان يخطر ببالى فى أيام الطلب المطالب العالية تزداد بالجد والاجتهاد . . . وبعد وفاة (سيدى الوالد) واظبت على تدريس الكتب الدينية والعلوم العقلية نحواً من اثنتى عشرة سنة ، ووقع الخوض فى كل علم (١٢) .

تربية الوالد وعطفه وإجازته واستخلافه :

يقول الإمام الدهلوى : كان (والدى) يعطف على الفقير ويراعى حقوق البُنّوة بكل لطف ودقة ، لا يعدله عطف أى أب على الابن ، ولا ضنة أى استاذ بتلمذه ولا رأفة أى مرشد لمريده (١٣) .

وكان منهج الشيخ عبد الرحيم فى التربية منهجاً تربوياً حكيماً ، يقول الإمام الدهلوى : خرجت ذات مرة - فى صغرى - مع جماعة من أصدقائى وأقربائى إلى بستان ، فلما عدت من هناك ، قال لى والدى : ولى الله ! ما الذى أحرزته فى هذا اليوم والليلة مما يبقى ؟ أما أنا فقد صلّيت على النبى ﷺ كذا مرة ، يقول الإمام الدهلوى : لقد انصرف قلبى عند سماع هذا كلياً عن زيارة البساتين والتفرجج فيها ، ثم لم تعد لى رغبة إليها (١٤) ، ويقول: كان والدى يعلمنى - كثيراً - الحكمة العلمية ، وآداب المجالس والمحافل وكثيراً من أمور الحكمة والأدب ومكارم الأخلاق ، وكان كثيراً ما ينشد ها البيت الفارسى الذى معناه :

« راحة العالمين (عالم الدنيا وعالم الآخرة) تفسير لهاتين اللفظتين ، الملاطفة مع الأصدقاء والمداراة مع الأعداء » (١٥) .

---

(١٢) الجزء اللطيف ، ص : ٣ .

(١٣) أيضاً .

(١٤) أنفاس العارفين ، ص : ٦٣ .

(١٥) (٢) أيضاً .

ويقول : وكان ينصحنى بأن أبدأ - دائماً - من هم أقل شأناً ومرتبة بالسلام ، وأن أبش فى وجوههم واستقبلهم ببشر ، وأتعهدهم وأتفقد أحوالهم ولا أرى ذلك أمراً هيناً زو شيئاً تافهاً ، يقول أحد شعراء الفارسية ما معناه :

« تسطيع بأدنى لحظتك أن تشترى مئات مملكة القلوب ، ولكن أصحاب الحسن والجمال يقصرون فى هذا ولا يبالون » .

وكان يقول : إن بعض الناس يلتزمون لباساً خاصاً ، أو يتقيدون بعادة خاصة ، أو يتعودون على كلمة يكررونها ، أو يكرهون بعض الأطعمة إلى حد أنهم يعافون ذكره ، ويغضبون عند سماع اسمه ، فينبغى الاحتراز من هذه الأشياء كلها ، ولا يكون الغرض حقيق مطلب أو قضاء حاجة من الحاجات ، أو الحصول فى فضيلة من الفضائل ، أو أداء ستة من السنن ، ولا يظهر منك الكسل أو الضعف فى المشى والسير والقيام والقعود وفى أى شئ ، وكان الشيخ عبد الرحيم - حسب تصريح الإمام الدهلوى - متصف بصفات الرجولة والشهامة من شجاعة وفراسة وحسن إدارة وغيرة ، وكان يملك « عقل المعاش » كاملاً موفوراً كـ « عقل المعاد » ، وكان يحب التوسط فى كل شئ ، وقد كانت سيرة الإمام الدهلوى وأخلاقه عكساً من عكوس سيرة والده وأخلاقه (١٦) .

يقول الإمام الدهلوى : ثم بايعت (وكان فى الرابعة عشرة من سنه) سيدى الوالد ، ثم اشتغلت بأشغال الصوفية سيما المشائخ النقشبندية ، وحصلت التوجه والتلقين وطرفاً صالحاً من تعليم آداب الطريقة وألبست الخرقة ، ثم حين بلغت السابعة عشرة من عمرى ، مرض سيدى الوالد ، وانتقل إلى جوار رحمة الله تعالى ، وفى المرض الذى مات فيه أجازنى للبيعة والإرشاد ، وكرر « يده كيدى » (١٧) .

زواجـــه :

يقول الإمام الدهلوى : وفى السنة الرابعة عشرة تزوجت (وكان زواجه هذا ببنت خاله الشيخ عبد الله الصديقى الفلتى) وأسرع فضيلة الوالد فى التزويج حتى أنه لما اعتذر أصهارى عن تحمل أعباء هذا الأمر واستمهلوه ، كتب إليهم سيدى الوالد : أن فى هذا التعجيل سراً ، ثم أثبتت الوقائع والفجائع المتتالية فيما بعد أن التزويج إن لم يكن فى

---

(١٦) أنفاس العارفين ، ص : ٨٣ .

(١٧) الجزء الليف ، ص : ٢ .

ذلك الحين ، لم يكن إلى سنين [١٨] ، وقد ولد له من هذه الزوجة ابنه الأكبر الشيخ محمد، الذى تخرج عليه ،وألف الإمام الدهلوى له رسالة ابتدائية ، وكان هو من الحاضرين مع الشيخ عبد العزيز فى درس « شمائل الترمذى » وقارئه[١٩] ، وانتقل بعد وفاة الإمام الدهلوى إلى قرية « بدهانة » ولبث بها إلى أن توفى عام ١٢٠٨ هـ ودفن فى فناء الجامع بالقرية [٢٠] ، وكان الإمام الدهلوى يكنى به « أبا محمد » [٢١] ويرد ذكر ابنين للشيخ محمد دفنا جنبيه فى كتاب « مقالات طريقت » ، ولكن الكتب الأخرى تصفه أنه لا عقب له ، وقد وجه الشيخ عبد العزيز فى ثلاث من رسائله إلى الشيخ أبى سعيد الحسنى الرائى بريلوى تحيات أخيه الأكبر الشيخ محمد بن ولى الله وتسليماته إليه ،ووصفه فى رسالة : « الأخ الأكبر الشيخ محمد » وفى أخرى : «الشيخ الكبير محمد » ، ويقدر من هذه الرسائل ما كان بين الأخوة من حب ومودة [٢٢] .

الزواج الثانى :

لقد تَمَّ زواج الإمام الدهلوى الثانى بعد وفاة زوجته الأولى بكريمة السيد ثناء الله السونى بتى المسماة « السيدة أرادت » ، وكان السيد ثناء الله من سكان سونى بت ومن أعقاب السيد ناصرالدين السونى بتى الشهيد ، وقد ولد الإمام الدهلوى من هذه الزوجة الكريمة أبناءه الأربعة المعروفون (الشيخ عبد العزيز ، الشيخ رفيع الدين ، الشيخ عبدالقادر ،والشيخ عبد الغنى) الذين هم الأركان الأربعة للنهضة الدينية العظيمة فى الهند ، رحمهم الله تعالى - كما ولدت له كذلك بنت سميت بـ « أمة العزيز » ، وكان زواجها بالشيخ محمد فائق بن الشيخ محمد عاشق الفلتى ، وكان لها أولاد ، تناسلوا وتعاقبوا .

رحلته للحج :

إن رحلة الإمام الدهلوى إلى الحجاز وإقامته به تحتل فى حياته العلمية والفكرية

---

(١٨) يقول الإمام الدهلوى : أنه قد ماتت أم زوجتى بعد أيام ، ثم بعد قليل توفيت جدتها من قبل الأم ، ثم مات الشيخ فخر العالم بن فضيلة عمي الشيخ أبو الرضا محمد قدس سره ، ثم ماتت أم أخى الكبير الشيخ صلاح الدين .

(١٩) نزهة الخواطر ، جـ: ٦ .

(٢٠) أيضاً .

(٢١) الإرشاد فى مهمات الإسناد .

(٢٢) مكتوب المعارف (مخطوط) ص: ١٦ -١٧ -١٨ .

والدعوية التجديدية مكانة تاريخية كبيرة ، وتعتبر باباً جديداً ، خطاً فاصلاً ، بين عهدين، إن ملكاته العلمية والعقلية فى إثناء هذه الإقامة الطويلة التى تمتد على أكثر من عام، قد تدرجت فى مدارج الرقى التى لم تكن لتتيسر له - فى ظاهرالحال - لو بقى فى الهند ، كان لا بد لذلك من مكان مركزى عالمى كالحرمين الشريفين ، ففى هذه الرحلة كانت دراسته الواسعة العميقة لعلم الحديث الشريف ، وأكمل هذا الفن على أيدى الأساتذة الكبار الشيوخ الكاملين ، الذين كانوا قد اجتمعوا هناك من مختلف الأقطار والأمصار، وذلك ما يحتل مكانة « حجر الزاوية » فى إيوان إصلاحه وتجديده العظيم ، والذى قد وصل به إلى تلك المنزلة من التحقيق والاجتهاد التى قل من يصل إليها فى هذه القرون المتأخرة (وأما اكتناهه لأسرار الشريعة مقاصدها وغاياتها وتطبيقه بين الفقه والحديث) فلم يصل إليها أحد منذ عدة قرون .

كان الإمام الدهلوى عند رحلته للحج فى الثلاثين من عمره [٢٣] ، وقد كانت هذه الرحلة دليلاً ساطعاً على علو همته وحبه للعلم ، وصلته القلبيةالقوية بالحرمين الشريفين نظراً إلى أوضاع ذلك العهد السياسية ، وحالة الأمن المضطربة فى الطرق وسيطرة بعض القوى الأجنبية ، والأخطارالبرية والبحرية ،والقرصنة وقطع الطريق كما يدل على حميته الإسلامية وبعد نظره وسمو فكره ، إذ أنه لم يكن منحصراً فى مهمة الحفاظ على الدين فى الهند ، وتقدم الأمة الإسلامية الهندية ، وازدهارها واستقلالها فى دراسة أوضاع الهند ،والاطلاع على ظروفها وأحوالها فحسب ، والتفكير فى علاجها وإصلاحها ، بل إنه كان يريد أن يستفيد تطبيقاً لهذه الإشارة القرآنية البليغة : ﴿ **ليشهدوا منافع لهم** ﴾ [٢٤] ، من قلب العالم الإسلامى ومركزه ومن علوم الوافدين من أقطار الأرض وأرجاء المعموة من وفود الإسلام وضيوف الرحمن ومعارفهم ، وعقولهم وأذهانهم ، وأفكارهم وآرائهم ، وجهودهم وتجاربهم .

---

(٢٣) يستفاد من « القول الجلى » أن الإمام الدهلوى قبل هذه الرحلة للحج التى وفق فيها كان قد عزم فجأة على السفر للحج ، والهجرة إلى الحرمين الشريفين فى حين كان عمره عشرين سنة ، وخرج من الوطن خفية بدون زاد وراحلة ، فلما وصل إلى المرفأ علم أن السفن تحركت ولم تبق أى سفينة ، فاضطر للإقامة فى مدينة « كهبايت » ثم غلبت عليه فى إحدى مراقباته وخلواته كيفيةصرفته عن هذه الإدارة ، فمال طبعه عن السفر وعزم على الرجوع وكانت فى ذلك أشارة من حضرة النبى ﷺ أيضاً . (القول الجلى) .

(٢٤) سورة الحج الآية : ٢٨ .

وقد كانت « سورت » - حينذاك - ميناء الهند وباب مكة المشرفة ، وكانت المناطق الواقعة فى الطريق لا سيما مناطق مالوه وكجرات معرضضة لغارات المرهتة وحملاتهم وعمليات سلبهم ونهبهم ، وكان من العسير الشاق قطع هذا الطريق من شمال الهند إلى جنوبه بالمراكب القديمة وعجلات الإبل والثيران [٢٥] ، وكانت جميع سواحل بحر الهند والبحر الأحمر مهددة بهجمات القراصنة البرتغاليين والهولنديين وحملات الفرنسيين والإنكليز المستعمرين ، ويمكن أن تقرأ تفاصيل مصائب الحجاج وحوادثهم والأخطار التى كانت تحدق بسفر الحج ، فى مذاكرات الرحلات لذلك العهد (التى لم يترتب منها ولم يحفظ إلا القليل) وقد كان هذا الحال فى الهند نفسها أن شخصاً إذا ترك وحده فى الليل فى قرية أو عمران فكان يخشى عليه ، ويدعو الإمام الدهلوى نفسه متضرعاً : يا بديع العجائب ، (وكان ذلك ورداً يقرأ عند غياب شخص والخوف عليه) .

وصل الإمام الدهلوى من « سورت » إلى جدة فى ٤٥ يوماً ، ودخل مكة المكرمة يوم ١٥ من ذى القعدة ، وبدأ على طلب العلماء والطلاب - درسه فى المسجد الحرام عند المصلى الحنفى ، الذى كثر فيه الناسُ وتهافتوا عليه [٢٦] .

يقول الإمام الدهلوى فى « الجزء اللطيف » : فى سنة ١١٤٣ هـ تُقتُ إلى زياة الحرمين الشريفين. ، وتشرفت بالحج فى آخرها ثم جاورت فى سنة ١١٤٤ هـ بيت الله الحرام ، وزرت المدينة المنورة ، أروى الحديث عن الشيخ أبى طاهر المدنى وغيره وجالست علماء الحرمين وغيرهم مجالسات طويلة واسعة ، ولبست الخرقة الصوفية من الشيخ أبى طاهر المدنى - رحمه - ولعلها حاوية لخرق الصوفية كلها ، وعلى تمام هذا العام ، أى عام ١١٤٤ هـ ، أديت مناسك الحج ثم عدت إلى الهند فى أوائل سنة ١١٤٥ هـ وانتهيت إلى الوطن المألوف فى يوم الجمعة العاشر من رجب سنة ١١٤٥ هـ فى كنف الصحة والسلامة.

مشايخ الإمام الدهلوى وأساتذته فى الحرمين الشريفين :

لقد ألّف الإمام الدهلوى فى تراجم مشائخه وأساتذته فى الحرمين الشريفين رسالة سماها « إنسان العين فى مشائخ الحرمين » وقد ذكر فيها شيخه الخاص وأستاذه المحسن إليه

---

(٢٥) تفيد مجموعة كلمات الشيخ عبد العزيز الدهلى (ملفوظات عزيزة) أن الإمام الدهلوى كان قد مرَّ فى هذه الرحلة بولاية « راجبوتانة » أيضاً ، انظر ص : ٧٣ .

(٢٦) القول الجلى ، (مخطوط) .

المحبوب الشيخ أبا طاهر محمد بن إبراهيم الكردى المدنى بشئ من التفصيل ، ولما كان الأساتذة والمشايخ المربون يطبعون تلامذتهم الأذكياء ذوى الاستعداد العالى بطابعهم العميق، ويكون لميولهم ونزعاتهم وبحوثهم وتحقيقاتهم تأثير كبير مثير على الطلاب النجباء فمن المناسب هنا أن نذكر تراجمهم بشيئ من التفصيل .

الشيخ أبو طاهر المدنى :

يقول الإمام الدهلوى : لقد قرأ الشيخ أبو طاهر محمد بن إبراهيم الحديث على والده الشيخ إبراهيم الكردى ، ثم كانت أكثر استفادته من الشيخ حسن العجيمى (٢٧) ثم قرأ على الشيخ أحمد النخلى والشيخ عبد الله البصرى ، شمائل الترمذى « ومسند الإمام أحمد » فى أقل من شهرين ، وكان يستفيد من العلماء الوافدين إلى الحرمين الشريفين ، وقد نال من الشيخ عد الله اللاهورى إجازة رواية الكتب للشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى ، والشيخ عبد الحكيم السيالكوتى ، وقرأ على الشيخ سعيد الكوكنى بعض الكتب العربية والربع من « فتح البارى » (٢٨) .

وذكر العلامة محسن بن يحيى الترهتى فى « اليانع الجنى » : أن الشيخ أبا طاهر كان يقول : كان الشيخ ولى الله يسند عنى اللفظ وكنت أصحح منه المعنى وكتب ذلك فى إجازته له أيضاً (٢٩) .

وقد كان كان الشيخ أبو طاهر (رغم كونه محدثاً جليلاً) حسن الظن بالصوفية محترزاً عن انتقادهم والزراية عليهم ، ويقول الإمام الدهلوى : إننى لما ذهبت إلى الشيخ أبى طاهر للتوديع والمغادرة إلى الوطن ، أنشدنى هذا البيت :

نسيت كل طريق كنت أعرفه إلا طريقاً يؤدّينى لربعكم

وكان رد الإمام الدهلوى كذلك ، ويقول الشيخ عبد العزيز الدهلوى : لما أراد والدى

---

(٢٧) ذكر الإمام الدهلوى فى « إنسان العين » نسبته « العجمى » ولعله خطأ مطبعى ، فإنه ذكر فى عامة كتب التراجم « العجيمى » (بالتصغير) (انظر الأعلام للزركلى ، جـ : ٢ ، ص : ٢٢٣) .

(٢٨) « إنسان العين » ص : ١٣ .

(٢٩) « اليانع الجنى فى أسانيد الشيخ عبد الغنى نقلاً عن « كشف الأستار عن رجال معانى الآثار » طبع دار الإشاعة والتدريس (ديوبند الهند) .

العودة من المدينة المنورة ، قال لشيخه (أبـى طاهر) وقد سُرَّ الشيخ بهذا القول : إننى قد نسيت كل ما قرأته سابقاً إلا علوم الدين وعلم الحديث الشريف - بصفة خاصة -[٣٠] .

وقد صـدقت ذلك حياة الإمـام الدهلوى وأشغاله وأعـماله (التى سـيأتى تفصـيلها فى الصفحات القـادمة) فيما بعد ، وقد حقق مـا نطق به لسانه وأثبت القول بالعمل : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ [٣١] .

توفى الشيخ أبو طاهر فى شهر رمضان عام ١١٤٥ هـ ، أى بعد مغادرة الإمام الدهلوى المدينة المنورة والوصـول إلى دلهى بشهر ونصف أو شـهرين [٣٢] ، فلم تمهله الفرصـة بعد مقدم الإمام الدهلوى إلى الهند للافادة والتربـية والتدريس إلا قليلاً ، « وذلك تقدير العزيز العليم » .

ومما يجدر بالذكر فى ترجمته أن والده الشيخ إبراهيم الكورانى [٣٣] كان يدافع عن شيخ الإسلام ابن تيـمية ، يقول العـلامة السيـد نعمان خيـر الدين الألوسى البغدادى فى كـتابه الشهير « جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين » .

وكان سلفى العـقيدة ، ذابا عن الشـيخ الإسلام ابن تيمـية ، وكذا يذب عـما وقع فى كلمات الصوفية ما ظاهره الحلول أو الاتحاد أو العينية [٣٤] .

ويستنتج من ذلك أن ما جاء فى كتـابات الإمام الدهلوى من تعريف وإشادة بكتب شيخ الإسلام ابن تيمـية ، والانتصار له والدفاع عنه ، ونزعـته التطبيقـية التى ورثها عن آبائه ، كان لأحاديث الشيخ أبى طاهر فيهـا أيضاً نصيب وتأثير ، ولعله ورث هذه النزعة من والده الشيخ إبراهيم الكورانى .

الشيخ تاج الدين القلعى الحنفى :

وكان الأستـاذ الثانى للإمام الدهلوى الذى أجازه بـرواياته هو الشيخ تاج الدين القلعى الحنفى مفتى مكة المكرمة ، وقد كانت أكثر دراسته للحديث الشريف تمت على يدى الشيخ

---

(٣٠) ملفوظات الشيخ عبد العزيز ، ص : ٩٣ .

(٣١) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٣ .

(٣٢) « إنسان العين » ص : ١٤ .

(٣٣) ولد سنة ١٠٢٥ هـ وتوفى سنة ١١٠١ هـ ، وله أكثر من ثمنين مؤلفاً .

(٣٤) جلاء العينين ، طبع مطبعة المدنى ، مصر ، ص : ٤١ .

عبد الله بن سالم المصرى ، وقرأ الصحيحين على الشيخ العُجَيمى ونال منه الإجازة العامة المطلقة ، وله إجازة أيضاً عن الشيخ أحمد النخلى وغيره ، وقد حضر الإمام الدهلوى دروسه لصحيح البخارى ثلاثة أيام وسمع منه أطراف الكتب الستة وطرفاً من « الموطأ » ، و« مسند الدارمى » و « كتاب الآثار » للإمام محمد و« الموطأ » له ، وأجاز الشيخ جميع الحاضرين ، وكان منهم الإمام الدهلوى ، وسمع منه الحديث المسلسل بالأولية (٣٥).

الشيخ محمد وفد الله المالكى :

وأخذ الإمام الدهلوى إجازة الشيخ محمد وفد الله المالكى لجميع مروياته عن والده حافظ الحديث ومجمع الفضائل الشيخ محمد بن محمد بن سليمان المعربى (الذى كان يملك النسخة البنّونية ، جاء بها من استانبول إلى الحرمين الشريفين وكان شيخ جمهور أهل الحرمين وأستاذهم) وقرأ عليه - زيادة على ما تقدم - جميع « الموطأ » برواية يحيى بن يحيى المصمودى ، وأجازه الشيخ بروايته (٣٦).

وكان الإمام الدهلوى - أيام طلبه فى الهند - حضر دروس إمام الحديث الشيخ محمد أفضل السيالكوتى (٣٧) ، الذى كان يروى الحديث عن الشيخ سالم بن عبد الله البصرى ، وكان هو تلميذ الشيخ عبد الأحد ابن الشيخ محمد سعيد السرهندى أيضاً ، الذى كان يدرس فى مدرسة غازى الدين خان بدلهى ، وكان الشيخ ميرزاً مظهر جان جانان استفاد منه فى الحديث والسلوك (٣٨).

وقد كان يرافق الإمام الدهلوى فى رحلته هذه خاله الشيخ عبيد الله البارهوى وابن خاله الشيخ محمد عاشق الفلتى (مؤلف القول الجلى) وقد سمع الإمام الدهلوى نبأ وفاة والدته فى العودة من هذه الرحلة بمكة المكرمة (٣٩).

لقد كانت هناك للإمام الدهلوى فرص طيبة مواتية فى الحرمين الشريفين لتذوق الحديث الشريف والتوسع فيه ، وتدريسه وخدمته ونشره ، وكانت إمكانيات الإفادة للعلماء وطلبة

---

(٣٥) إنسان العين ، ص : ١٥ - ١٦ .

(٣٦) إنسان العين ، ص : ٧ .

(٣٧) نزهة الخواطر ، جـ ٦ .

(٣٨) أيضاً .

(٣٩) القول الجلى (مخطوط) .

العلم والوافدين من مختلف اللدان والأقطار متوفرة ميسرة ، ثم كانت مجاورة بيت الله الحرام ، وبركات جوار النبى ﷺ والأوضاع المضطربة فى الهند واضطراب الدولة الإسلامية فيها ، والاطلاع على سيطرة القوى الأجنبية وإحكام استيلائها يوماً فيوماً ، كل ذلك كان من الأسباب والدوافع القوية إلى نية الهجرة والإقامة فى الحجاز ، ولم تكن تهيئ له الأدلة على جوازها فحسب بل تؤيدها المصالح الدينية والعلمية ، ولكنه عزم على العودة إلى الهند ، تلك العزيمة التى كانت تنطوى على خير كبير قدره الله - تعالى - وتجلى فى أروع مظهر فى عمله التجديدى والاجتهادى العظيم ، وكان فيها تحقيق تلك البشارة النوية - ﷺ - التى تلقاها فى المدينة المنورة ، وهى :

« إن مراد الحق فيك أن يجمع شملاً من شمل الأمة المرحومة بك » (٤٠) .

ولم يكن الإمام الدهلوى يرى ذلك لنفسه بل كان يرى لخواص أصحابه أيضاً أن يتخذوا الهند مركز نشاطاتهم وخدماتهم العلمية والدينية ، تلك البلاد التى أنفق عليها أسلافهم الميامين ما كانوا يملكون من كفاءات علمية ودينية فاضلة ، وقوى وطاقات كبيرة ، والتى أنتجت المحققين والعلماء الربانيين فى كل عصر ، وكانت تتهيأ لتكون فى المستقبل مركزاً لعلم الحديث الشريف وللعلوم الدينية الأخرى ، ولما سافر أحد خواص تلامذته الشيخ معين الدين السندى إلى الحجاز وأبدى عزمه ، على البقاء والإقامة هناك ، كتب إليه الإمام الدهلوى ينهاه عن ذلك ، يقول :

« أما عزم ترك الرجوع إلى الوطن فلا تستبدّوا به حتى يشرح الله صدوركم أو صدر رجل لأجلكم » (٤١) .

تدريس الإمام الدهلوى للحديث الشريف :

بدأ الإمام الدهلوى بعد عودته من الحجاز تدريسه للحديث الشريف فى المدرسة الرحيمية لوالده التى كانت واقعة فى دلهى القديمة فى ذلك الحى الذى يسمى الآن « حىّ مهنديان» ولم يلبث أن تواردت إليه جماعات الطلاب وضربت إليه أكباد الإبل من مختلف الأنحاء والأصقاع ، وضاق بهم المكان ، وكان الله تعالى قد قدر للملك محمد شاه (رغم كثير من سقطاته ومواضع ضعفه) هذه السعادة أن وهب لمدرسة الإمام الدهلوى فى المدينة

---

(٤٠) فيوض الحرمين ، ص : ٦٢ ، طبع المطبع الأحمدى دلهى .

(٤١) « حيات ولى » (مكتوبات الإمام الدهلوى ، المكتوب العاشر ، ص : ٥٣٦ ، طبع مطبع السلفية - لاهور) .

بيتاً فخماً كبيراً ، ودعاه إلى المدينة ، فبدأ إلقاء دروسه هناك [٤٢] ، يقول الشيخ بشير الدين .

« كانت هذه المدرسة - فى فترة من الفترات - كبيرة فخمة زاهية ، وكانت تعتبر « دار العلوم الكبرى » ولم تزل على حالها الأولى إلى ثورة (١٨٥٧ م) ثم نهبت البيوت أيام الثورة ، وحمل الناس حتى الألواح والعرى والحلقات » .

ويزيد الشيخ قائلاً : « وقد بينت الآن بيوت عدد من الناس فى هذا المكان ، إلا أن الحى لا يزال يدعى باسم مدرسة الشيخ عبد العزيز الدهلوى » .

وجاء ذكر مسجد هذه المدرسة فى أحد المواضع فى مجموعة كلمات الشيخ عبد العزيز (ملفوظات الشيخ عبد العزيز) ، يقول فيها :

« كان - فى العهد الذى ولدت فيه - كثير من الأولياء الصالحين الذين كانوا من خواص أصحاب السيد الوالد وأحبابه كالشيخ محمد عاشق والشيخ محمد نور ، يعتكفون فى هذا المسجد » [٤٣] .

وقد كان العلامة السيد عد الحى الحسنى مؤلف « نزهة الخواطر » سافر إلى دلهى وما يجاورها من المدن والقرى عام ١٣١٢ هـ الموافق ١٨٩٤ م وقيد مذكرات هذه الرحلة ، يقول فى مذكرات يوم ٢٦ / من رجب :

« أردت بعد عودتى من درس الشيخ المحدث السيد نذير حسين أن أزور مدرسة الشيخ الجليل قدوة العلماء والفضلاء التى استفاد فيها سلفنا جيلاً بعد جيل ، ورأوا من الفخر والسعادة خدمة الكناسة فيها [٤٤] ، مشيتُ من هنا إلى المسجد الجامع ، ومن ثم قدامه إلى « كلان محل » ، وفى « كلان محل » توجد مدرسة شيخ مشايخنا مولانا ومقتدانا ، فتذكرت على رؤيتها الآية الكريمة : ﴿ **خاوية على عروشها ، قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها** ﴾ [٤٥] سبحان الله ، إنها لعجائب قدرة الله ، لقد كان يوم تقيم فيه الطلاب العرب

---

(٤٢) انظر « دار الحكومت دلهى » جـ : ٢ ، ص : ٢٨٦ ، للشيخ بشير الدين .

(٤٣) ملفوظات الشيخ عبد العزيز ، ص : ١٠٩ ، طبع المطبع المجتبائى ، ميرته .

(٤٤) ذكر العلامة هنا أسماء عدد من أسلاف أسرته الذين لم يزالوا من عهد الإمام إلى عهد الشيخ عبد العزيز يردون إلى هذه المدرسة ويستفيدون بها ويتعلمون .

(٤٥) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٩ .

والعجم فى هذه المدرسة ويستفيدون ، وقد آلت اليوم إلى هذه الحال من الخراب والدمار ، ما بها من أنيس ولا جليس »[٤٦] .

ثم حكى عن بقية هذه الأسرة العلية الشيخ السيد ظهير الدين أحمد ، أن فى حى «مهنديان » حيث توجد قبور هؤلاء الأعلام ، كانت تجد مدرسة أيضاً ، وقدم الإمام الدهلوى - بعد وفاة والده اليخ عبد الرحيم - إلى المدينة (دلهى) الجديدة وعهد إليه بهذه المدرسة ، وأقام بها[٤٧] .

بعض عادات الإمام الدهلوى وخصائصه كما ذكرها الشيخ عبد العزيز الدهلوى

من المؤسف أنه لا توجد لدينا ترجمة معاصرة أو رحلة أو مذكرة تطلعنا بتفصيل على خصائص الإمام الدهلوى وعاداته وأحوال مواعيد أعماله وقيامه وقعوده ، وقد ترد إشارات إلى شئ من ذلك فى مجموعة كلمات اليشخ عبد العزيز الدهلوى .

يقول : لم أر مثل السيد الوالد فى قوة ذاكرته ، لا أقول إننى لم أسمع بمثله ولكننى لم أشاهد[٤٨] ، وكان - علاوة على علومه وفضائله - عديم النظير فى ضبط مواعيده وتنظيم أوقاته ، وكان إذا جلس مجلسه بعد الإشراق لم يغير جلسته ، ولا يحك جسده ولا يبصق إلى الظهر[٤٩] ،وكان قد هيأ فى كل فن وعلم رجلاً من أصحابه ، وكان يعهد بطالب ذلك الفن إليه ، وينصرف نفسه إلى بيان المعارف والحقائق ، وتحريرها وتدوينها ، وكان يدرس الحديث الشريف ويدرسه ، وكان إذا انكشف عليه شئ سجله ، وكان قليلاً ما يمرض[٥٠] ، وقد كان جدى وعمى (اللذين كانا طبيبين أيضاً) يعالجان الناس ، أما الوالد فقد انصرف عن هذا الشغل ، إلا أنه كان يطالع كتب الطب ، وكان - من صباه - لطيف الطبع يحب النظافة، وقل ما كان ينشد الأبيات الصوفية ، إلا أنه - أحياناً - كان ينشد بيتاً أو بيتين[٥٢] .

---

(٤٦) « دهلى أوراس كى أطراف » طبع انجمن ترقى اردو ، ص : ٦٣ - ٦٤ .

(٤٧) أيضاً ، ص : ٦٧ .

(٤٨) ملفوظات الشيخ عبد العزيز ، ص : ١١ .

(٤٩) أيضاً ، ص : ٤٣ .

(٥٠) أيضاً ، ص : ٤٠ .

(٥١) أيضاً ، ص : ٢٢ .

(٥٢) أيضاً ، ص : ٤٣ .

وفاة الإمام الدهلوى :

وأخيراً آن وقت الرحيل لتلك الحياة الغنية المباركة التى كانت كل لحظة منها كبيرة القيمة، مصروفة إلى إعلاء كلمة الله - تعالى - واللهج بذكره ونفع الإسلام والمسلمين ، وإحياء السنن ونشر الكتاب والسنة ، والتعليم والتربية ، الرحيل الذى يُسْتثنى منه لقوله تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ (٥٣) ، أى نبى ولا ولى ولا مجدد ولا مجاهد ، كانت بداية عام ١١٧٦ هـ وكان آخر تاريخ شهر المحرم الحرام أن وافاه الأجل المحتوم ، فودع الإمام الدهلوى حين بلغ من عمره اثنين وستين عاماً (٥٤) ، هذه الدنيا الفانية ، وأسلم روحه لبارئها الكريم ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، وصدق الله العظيم : ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية** ﴾ (٥٥) .

ولا تتوفر تفاصيل المرض وحادث الوفاة فى أى كتاب من كتب التراجم ، ومما يسر المؤلف ويشرفه أن كل ما يوجد من معلومات وتفاصيل بهذا الصدد فمصدرها الوحيد هو رسالة من أحد أفراد أسرته الحسنية القطبية الكبار الشيخ السيد محمد نعمان الحسنى (٥٦) ،

---

(٥٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٨٥ .

(٥٤) جاء فى « ملفوظات الشيخ عبد العزيز » (الترجمة الأردية) أنه قال : كان عمره (الإمام الدهلوى) إحدى وستين سنة وأربعة أشهر ، ولد فى الرابع من شوال عام ١١١٤ هـ وتوفى فى ٢٩ محرم الحرام عام ١١٧٦ هـ ، وكان تاريخ وفاته بـ « إمام أعظم دين » (انظر ملفوظات الشيخ عبد العزيز ، ص : ٥٦) .

(٥٥) سورة الفجر ، الآية : ٢٧ .

(٥٦) السيد محمد نعمان هو ابن حفيد الشيخ علم الله الرائى بريلوى ، ونسبه هكذا نعمان بن نورين هدى بن علم الله الحسنى الحسينى ، ولد فى موطن الأسرة القديم « نصير اباد » بمديرية رائى بريلى ، واشتغل بالعلم زمانا فى بلدته ، ثم سافر إلى لكنهئو « وقرأ على الشيخ عبد الله الأميتهوى » ثم رجع إلى « رائى بريلى » ، وبايع السيد محمد بن علم الله البريلوى ولازمه زمانا، ولما توفى السيد محمد المذكور لازم ولده محمد عدل ، وأخذ عنه الطريقة ، ثم ساح البلاد وأدرك المشائخ الكبار ، منهم محمود رسن تاب الخورجوى أحد أصحاب السيد علم الله المذكور، ومنهم الشيخ يوسف بن فتح محمد الأنبالوى ، ومنهم الشيخ ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى وخلقاً آخرين من المشائخ ، فاستفاض منهم فيوضاً كثيرة ، ثم سافر إلى الحرمين الشريفين فحج وزار وراح إلى « القدس » « الخليل » ، وتوفى فى أثناء السفر ، ودفن فى « بيت المقدس » أرض الأنبياء الكرام ، وكان ذلك عام ١١٩٣ هـ (نزهة الخواطر جـ : ٦) .

ان قد وجهها إلى شخصية معروفة كبيرة من شخصيات هذه الأسرة كذلك الشيخ السيد بى سعيد بعد وفاة الإمام الدهلوى فوراً من دلهى ، وأن كاتب هذه الرسالة السيد محمد عمان هو عم المجاهد الكبير الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، والمرسل إليه السيد أبو سعيد ان جد الإمام الشهيد من قبل أمه ، وقد كان الشيخ السيد أبو سعيد من مسترشدى الإمام دهلوى وخواص أصحابه ، ويوجد عدد من رسائل الإمام الدهلوى الموجهة إليه ، وننقل بض محتويات هذه الرسالة - فيما يلى - كما جاء فى مجموعة رسائل الأسرة «مكتوب لعارف » (مخطوط) :

« الحمد لله على النعماء والرضا على القضاء ، والصبر على المصيبة والبلاء والصلاة السلام على سيد الشاكرين وزبدة الراضين وقدوة الصابرين ، شفيع المذنبين ورحمة لعالمين ، محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين ، وعلى ورثته العلماء الراسخين والأولياء رشدين إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن حادث وفاة أهل السنة والجماعة . . . وقع وله من العمر اثنان وستون اماً، وأدخل السرور على أهل البدع والضلالات ، وأصيب أهل الدين والصلاح بالحزن لأسى ، وقد كان ذلك سلخ محرم الحرام عام ١١٧٦ هـ يوم السبت وقت الظهر ، ﴿**فإنا وأنا إليه راجعون**﴾ . . .

. . . إن المجالس الأخيرة من حياته كانت مجالس عجيبة ، زاخرة بالفيوض ، فكنا سعر - بصفة مستمرة - بنزول الملائكة والأرواح الطيبة ، وكانت تهب نفحات الأنس لرحمة ، وتنزل رشحات القدس والبركة كالمطر ، وكان أكثر أصحاب الصلة الروحية حسون بذلك بوجدانهم الصحيح . . .

. . . وأحمد الله - تعالى - على أننى وجدت رضا الشيخ المرشد قدس سره عنكم عناياته البالغة بحالكم إلى حد لا أقدر على وصفه ، فكان يسأل كثيراً عن أحوالكم ، كان يذكر بلسانه الناطق بالجواهر والدرر معركة الأبداليين ومفاجأتكم بالوصول إلى مكان بركة ، وانطفاء لهيب الفتنة بقدومكم (٥٧) ، ولعل الشيخ المرشد كان يتمنى آخر لقاء م، لأنه قال - ذات مرة - : ينوى السيد أبو سعيد القدوم فلو عجل بالقدوم كان خيراً.

---

٥) لم نطلع على هذا الحادث الذى وقعت الإشارة إليه هنا .

يا سيّدى ! لقد حُـرِمنا الآن صحبة الشيخ الظاهرة ، ولكن عدد مؤلفاته تـسعون بل أكثر ، ففى علوم الدين أى التـفسيـر والأصول والفقه والكـلام والحديث « حجة الله البـالغة » ، «أسرار الفقه » [58] ، « منصور » [59] ، و « إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء » ، وترجمته للقرآن ، وكل واحـد من هذه الكتب يشتمل على ثمـانين أو تسعين جزءاً ، وفى الحـقائق والمعارف ، رسـائل أخرى كـ « ألطاف القدس » و« همـعات » ، و« فيـوض الحرمين » ، و«أنفاس العارفين » ، وغيـرها ، وهى بديل صحبة الشيخ المرشد والممثل عنها ، فـلتهتموا بهذه الكتب وتعزمـوا على كتابتها ونشرها ، وأن هذا العـمل سيتم بأدنى عناية ، يعلم الله هل ألفت أمثال هذه الكتب سـابقاً أولاً ، كما يعتـرف بمكانتها أصحاب البصـيرة ، وكل ما كتبه الشيخ المربى فى أى موضوع من المواضيع يحتل مكانة الأصول والأساس .

والشئ الثانى أن الشيخ محـمد عاشق بعد أن بلغ تحياته إليك قـال : اكتب إلى مير أبى سعيد أن يرسل إليك نسخ جـميع الرسائل التى وجهها الشيخ المرشد إليـه حتى نضمها إلى مجموعة رسائله » [60] (انتهى) .

كانت فاة الإمام الدهلوى فى ٢٩ / محـرم الحرام ١١٧٩ هـ يوم السبت ظهراً (الموافق ٢١ / أغسطس عام ١٧٦٢ م) كما علمنا من الرسالة المذكورة أعلاه [61] .

وجاء فى مجموعة « كلمات الشيخ عبد العزيز » - رحمه الله - :

« توفى فى ٢٩ / من محرم الحرام ظهراً » [62] .

مـــدفنـــه :

لقـد دفن الإمام الدهلـوى فى جانب اليســار من « دلى دروازه » (باب دلهى) بالحىّ الذى يسمى « مـهنديان » ، ولقد كان مكان هذه المقبـرة - يوماً - رباط الشيخ عبـد العزيز شكربار أحد أجداد الشيـخ عبد الرحيم لأمه ، ولا يزال قبره هناك على مـسافة قليلة ، ثم كانت إقامة الشيخ رفيع الدين بهذا المكان ، كما كانت بيوت أسرة الإمام الدهلوى أيضاً به، وكان الإمام الدهلوى ترك الإقامة هنا واختار الإقامة داخل شاهجهان آباد ، وتوجد فى هذه

(٥٨ ، ٥٩) لم يتضح لنا ما هو مراده بهذين الكتابين .

(٦٠ ، ٦١) مكتوبات المعارف الفارسية مخطوط ص : ١٩ - ٣٠ .

(٦٢) ملفوظات الشيخ عبد العزيز ، ص : ٤٠ .

المقبرة قبور أبناء الإمام الدهلوى الأربعة ، وقبر والده الشيخ عبد الرحيم أيضاً وقد علقت عليها اللوحات التى كتبت فيها أسماؤهم وتواريخ وفياتهم ، كما توجد بها كذلك قبور أفراد الأسرة الآخرين رجالاً ونساءً ، ويقوم بجنبها مسجد تنتشر حواليه قبور كثير من العلماء والصالحين ، والمحبين للإمام الدهلوى ومسترشديه ، ولا تزال المقبرة تتسع وتستقبل مزيداً من الموتى ، غفر لهم الله ورحمهم أجمعين .

* * *

الباب الخامس

مآثر الإمام الدهلوى التجديدية
إصلاح العقائد والدعوة إلى القرآن

سعة دائرة التجديد الذى قام به الإمام الدهلوى وتنوعه :

إن الأعمال والمآثر الجليلة التى وفق الله - تعالى - الإمام الدهلوى لتحقيقها وإنجازها من التجديد وإصلاح الأمة ، وإحياء الفهم الصحيح للدين ، ونشر العلوم النبوية وإعادة الحياة والنشاط والحيوية فى فكر عهده والأمة الإسلامية وعملها وجهودها تتسع دائرتها وتتنوع شعبها بحيث لا يوجد له نظير لا فى المعاصرين فحسب بل فى عامة العلماء والمؤلفين فى العهود السابقة أيضاً ، ويمكن أن يكون سبب ذلك - عدا التوفيق والتقدير الإلهيين - يرجع إلى مقتضيات ذلك العهد الذى عاشه ، وإلى ذلك الاحتواء والشمول وعلو الهمة ، والمنهج الخاص للتعليم والتربية الذى خصه الله وقدره له وقد كان نتيجة كل ذلك أن الإمام الدهلوى قام بمآثره التجديدية والإصلاحية فى مجالات متنوعة من العلم والعمل حتى إن المترجم له والكاتب فى « تاريخ رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » ليواجه الصعوبة فى استيعابها ودراستها التحليلية والتفصيلية ، والذى يريد استيعاب هذه الجوانب والمجالات كلها فإن لسانه ينشد ويشكو بهذا البيت الفارسى المعروف الذى معناه :

« إن ذيل النظر ضيق وورود حسنك كثيرة ، وإن مقتطف ربيعك يشكو من ذيله الضيق» .

وإذا أردنا أن نفرقها فى مواضيع مستقلة ، فهى تأتى بهذه العناين البارزة :

١ - إصلاح العقائد الدعوة إلى القرآن .

٢ - القيام بنشر الحديث الشريف وترويجه ، والجهود الموفقة للتطبيق بين الفقه والحديث والدعوة إليه .

٣ - عرض الشريعة الإسلامية فى صورة متناسقة مدعمة بالأدلة والبراهين والكشف عن أسرار الأحكام الشرعية ومقاصدها وحكمها .

٤ - بيان مكانة الخلافة ووظيفتها فى الإسلام وشرح خصائص الخلافة الراشدة ومميزاتها

وإثباتها بالأدلة ، والرد على الروافض .

٥ - عمله التجديدى القيادى فى عهد الاضطراب السياسى ، واحتضار الدولة المغولية .

٦ - الحسبة على مختلف طبقات الأمة ودعوتها إلى الإصلاح والتغيير .

٧ - القيام بتربية العلماء الراسخين ورجال العزيمة والكفاح وتخريجهم حتى يقوموا - بعده - بهذا العمل التجديدى من الإصلاح ونشر الدين الصحيح وينقلوه إلى الأجيال القادمة .

ونتناول أولاً - عنوان إصلاح العقائد والدعوة إلى القرآن ، إذ أنه يحتل الدرجة الأولى ويأتى فى مقدم الصف إذا دأ إصلاح الأمة وتجديد الدين فى أى عصر أو مصر ، وكل جهد يبذل لإحياء الدين وإنعاش الأمة بغض النظر عن ذلك فإنه لا يعدو خطاً على الماء ومبنى بغير أساس ، وقد أثبت القرآن الكريم بقصص الأنبياء والمرسلين ووقائعهم وحوارهم لشعوبهم ، وأثبت التاريخ الموثوق به من عمل العلماء الربانيين وورثة الأنبياء والمرسلين ومنهجهم فى الدعوة تدريجهم فيها هذه الحقيقة الأساسية ، وسوف يبقى هذا منهج كل إصلاح وتجديد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، إذا كانا قائمين على الطبيعة النبوية والنظام القرآنى .

أهمية العقائد :

يكتفى المؤلف هنا بإيراد بعض كتاباته السابقة التى تشرح هذا الموضوع شرحاً وافياً ، يقول :

« إن سمة هذا الدين الأولى وشعاره المميز الأول : التركيز على العقيدة أولاً وقبل كل شئ ، فما زال الأنبياء من لدن آدم إلى خاتم الرسل محمد ﷺ يدعون إلى عقيدة معينة يوحى بها إليهم ، يدعون إليها ويطالبون بها ، لا يقبلون عنها صرفاً ولا عدلاً ، ولا يبغون بها عوضاً ولا بدلاً وإن أفضل حياة خلقاً وسلوكاً ورحمة وبراً ، واستقامة وسداداً ، وإن أنجح إنسان فى تأسيس حكومة أو إنشاء مجتمع أو إحداث انقلاب ، لا قيمة له عندهم إذا لم يقترن كل ذلك بعقيدة جاءوا بها ودعوا إليها ، ولم يقم كل هذه الجهود على أساسها ، وهذا هو الخط الفاصل الواضح العريض بين دعوة الأنبياء - عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام - وبين الزعماء والقادة القوميين والانقلابيين والثوريين والنفعيين والماديين ، وكل من كان مصدر تفكيره غير تعاليم الأنبياء وسيرهم لسبب من الأسباب الأصلية أو الطارئة من التعليم والتربية ، أو رد من ردود الفعل ، أو الحب الزائد لتحقيق النتيجة المطلوبة أو

قلب نظام أو انتصار وانتقام [1] .

إن أجلّ علم أُخذ عن الأنبياء - عليهم صلوات الله وسلامه - معرفة الله وعلم ذاته وصفاته وأفعاله ، وذلك علم يختص بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إذ هو علم ليست له وسائل وآلات ومعلومات أولية وتجارب عند البشر ، ولا يتناوله القياس ولا يفيد فيه الذكاء والفطنة لفقدان أساس القياس ، وتعالى الله - تعالى - عن الأشباه والنظائر ، وسموه وتقدسه وتنزهه عن التشبه والتمثل ولبعده عن كل ما عرفه البشر وألفه وجربه فى عالم الحس والمادة ، لأنه ليس حلبة تجرى فيها جياد العقول ، وتتسابق فيها عتاق العلم والتجربة .

وكان أجل علم تتوقف عليه سعادة البشر إذ هو الأساس للعقائد والأعمال والأخلاق والمدنية ، وهو الذى يعرف به الإنسان نفسه ، ويفك لغزة الكون ، ويكشف عن سر الحياة، وبه يعين الإنسان مركزه فى هذا العالم وينظم علاقاته واتصالاته ببنى جنسه ، ويضع منهاج حياته ، ويحدد غاياته فى ثقة وبصيرة ، ووضوح ويقين [2] .

وإن عناية الله - تعالى - الخاصة بهذه الأمة ووعده المؤكد لها بالنصر والتأييد والرضا والعزة والغلبة ، إنما هو - بصفة خاصة - على أساس العقائد الصحيحة والخصائص والصفات الإيمانية ، وعقيدة التوحيد الخالصة المبرأة من كل الشوائب ، يقول الله - تعالى-:

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ [3] .

ويقول فى صراحة ووضوح : **﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾** [4] .

إن ورثة الأنبياء بحق ، العلماء الربانيين الذين يعرفون طبيعة هذا الدين وفطرته

---

(١) العقيدة والعبادة والسلوك ، ص : ٢٤ - ٢٥ .

(٢) المصدر السابق ص : ٦٧ - ٦٨ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٩ .

(٤) سورة النور ، الآية : ٥٥ .

الصحيحة ، يهيئون الأرض - قبل إقامته فى مكان - ويصلحونهـا وينظفونها ويمهدونها ، ويستـأصلون جذور الشرك والجاهليـة وعروقها (سـواء كانت من بقايا الوثنيـات القديمة أو نتائج التأثيرات القومية والمحلية) ويستخرجون جميع بذورها ويقلبون الأرض ظهراً لبطن ، مهما اقتضى هذا العمل منهم من مدة طويلة ومشقـة كبيرة ، فإنهم لا يستعجلون النتيجة ، ولا يفقدون الصبر .

« إن هذه الوثنية والشرك فى مختلف أشكالهـا وصورها ، هى الجاهلية العالمية التى هى أقدم أدواء البشر ومواضع ضعفه وسقطتـه ، وهى باقية مع البشر فى جميع مراحل حياته وتطوراتها ، وهى التى تثيـر غضب الله وغيرته وتحول بين العبـد وتقدمه الروحى والخلقى والمدنى ، إنها هى الجاهلية التى تخنق القوى وتقتل المواهب وتقضى على الاعتماد على الله والاعتداد بالنفس والثقة بها ،وتصرف الإنسان عن الالتجاء إلى الله السميع البصير ، العليم القدير ، الجواد الوهاب ، الغفور الودود ، والاستفادة من صفاته التى لا تحد وخزائنه التى لا تنفد إلى الالتجاء إلى الضعيف الفقير ، العاجز الحقير الذى لا يملك شيئاً»(٥) .

الحاجة إلى شرح عقيدة التوحيد والدعوة إليها من جديد :

لقد قـال المؤلف فى الجزء الثـانى من « رجال الفكر والدعـوة » الذى هو خاص بحـياة الإمام ابن تيمية وأعماله تحت عنوان « العقائد والتقـاليد الشركية فى عهد الإمام ابن تيمية » ما يلى :

« كانت العـقائد والتقاليـد نالت رواجاً بين عامـة المسلمين باختلاطهم مع غـير المسلمين والعجم ونفوذ الحكومة الباطنـية والإسماعيلية وتأثيرهما وانتشـار تعليمات الجهلة والضلالة من الصوفية وأعمالهم ، فقد وجد عدد وجيه من المسلمين فى ذلك الحين يعتقدون فى أئمة دينهم ومشائخهم والأولياء والصالحين منهم من الاعـتقادات الفاسدة ويحملون من الأفكار المشركـة ما كـان يعتـقده اليهـود والنصارى فى عـزيز والمسيح عليـهمـا السلام وأحـبارهم ورهبانهم، وكل ما كـان يدور حول قبور الأولياء والمشـائخ إنما كان تقليداً ناجحـاً للأعمال والتقاليد التى كانت تنجز فى معابد غيـر المسلمين وقبور المقدسين عندهم ، فالاستغاثة منهم والاستعانة بهم ، ومدُّ يد الطلب والضراعة إليهم ، كل ذلك كان عاماً شائعاً بينهم كما عمت عادة بناء المسـاجد الفـخمة على قـبورهم وجعـلها مسـاجد وعقـد المهرجانات عـليها عـاماً

---

(٥) النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن للمؤلف ، ص : ٥٦ - ٥٧ (طبع دار القلم الطبعة الرابعة) .

فعاماً ، وقطع المسافات الطويلة للوصول إليها ، وقد كانت عبادة القبور - بجراءة ووقاحة - وعدم الخشية من الله - تعالى - والخوف من أصحاب القبور والخشية منهم والاستهزاء بذات العلى القدير والاستهانة بشعائره ، والجراءة وقلة الأدب وتقديس الأولياء إلى حد التأليه، والحج إلى المشاهد والقبور وترجيحه - بعض الأحيان - على الحج إلى بيت الله العتيق ، وخراب المساجد وضياعها ، وروعة المشاهد والأماكن الخاصة للزيارة والعناية بها كان كل ذلك من قسمات الحياة الجاهلية وعلائمها البارزة التى لم تكن تحتاج لرؤيتها إلى قطع مسافات طويلة ولا إلى تفكير وتأمل كثير (٦) .

لقد كان هذا الوضع فى بلاد كمصر والشام والعراق التى فتحها الصحابة - رضى الله عنهم - بأيديهم المباركة ، ثم هى أقرب البلاد وأكثرها اتصالاً بمركز الإسلام ومهبط الوحى وموطن الرسول ﷺ وكانت لغتها العربية التى نزل فيها القرآن ، ولم تتوقف فيها - ليوم واحد - سلسلة دروس الكتاب والسنة ، وألفت فيها كت جليلة فى علوم الحديث الشريف وشروحها .

ولا يبعد إذن أن نقدر الوضع بإزاء ذلك فى الهند (لا سيما هذا القرن الثانى عشر) التى وصل إليها الإسلام بعد أن طاف بتركستان وإيران وأفغانستان وفقد كثيراً من طاقته وحيويته ونضارته بأيدى أولئك الذين لم يتشرفوا بصحبة النبى ﷺ ولم يتمتعوا بالاستفادة - مباشرة - من مصدر النبوة الفياض ، والذين كان كثيراً منهم لم يتحرروا - كلياً - من تأثيرات شعبهم وسلالاتهم ، ثم إن الهند كانت تسيطر عليها - من آلاف السنين - الديانة والفلسفة والحضارة التى عجنت طينتها بالشرك والوثنية وجرياً فيها مجرى الدم ، والتى كانت أكبر ممثل - فى هذه القرون الأخيرة - للوثنية والمحافظة الأمينة على الجاهلية القديمة، وقد انتقل عدد كبير من سكان هذه البلاد المسلمين من البرهمية والأوساط الشركية الأخرى إلى حظيرة الإسلام ، ثم لا يعزبَنّ عن البال أن هذه البلاد لم تكن لها من الصلة المباشرة (عبر المدى الطويل) بالقرآن والسنة ، ما كانت - لتأثير إيران - بالعلوم الحكمية العقلية والفلسفة اليونانية ، وإذا كانت لها علاقة علمية ودراسية بالعلوم الدينية ، فبالفقه وأصول الفقه وعلم الكلام ، العلوم التى يرجع موضوعها ومجال البحث والتحقيق فيها إلى القضايا والجزئيات الفقهية القانونية ، وأصول استنباطها ، والبحوث الفلسفية فى العقائد ، لا بإصلاح العقائد ، والدعوة الأساسية إلى التوحيد الخالص .

---

(٦) انظر « رجال الفكر والدعوة » (الجزء الثانى) ص : ١٧١ - ١٨٠ .

ويمكن أن يقدر مـا خلفته ديانات الهند وفلسفـاتها وتقاليدهـا وعاداتها من تأثيـر فى القرن العاشر الهجرى نفسه على المجتمع المسلم من إحدى رسائل الإمام السرهندى التى كتبها إلى إحدى الصالحـات من مسترشـدانه ، ويقدر منها مـا بلغه المجتمع المسلم من تعظيم شـعائر الشرك ، والاستعـانة بغيـر الله ، وطلب الحاجـات من غير الله ، وتـعظيم أعياد الـكفار والمشركين ، وتقـليد رسومـهم وعاداتهم وطقـوسهم والنذر والذبح للأوليـاء والصالحين ، والصيام بأسماء المشائخ والصالحات ، والخوف من سـتيلا (التى كانت تعتبر إلهة الجدرى) وإجلالها ، وأمثال هذه الأشياء التى تدل على العـقلية الهندوسية الوثنية والخضوع للأوهام والخرافات ، التى غزت عقر دار المسلمين ، ولا يتعسر تقدير ما وقع بعد مضى قرن آخر من الزمان على هذا العـهد وفقدان الصلة القـوية العامة بالكتـاب والسنة من زيغ وانحراف فى العقائد وتأثير للعقـائد والأعمال غير الإسلامية ، بل المعارضة المنافـية للإسلام ، على كثير من الأسر والبيوتات .

ويمكن أن يقدر أيضاً مـا أنتج تأثير غير المسلمين على المجتـمع المسلم ، والجهل بالكتاب والسنة ، والبـعد عنـهمـا ، والفراغ الطـويل فى الجهـود المؤثرة المركـزة (بغضّ النظر عن الدهماء والجماهير سخطـوا أم رضوا ، وبإغماض العين عن النتائج والأخطار) - فى الهند من وضع سيئ ، ومـا قام من نظام للعـقائد ، إزاء الدين الحنيف (الذى لم يكن فـيه أى مجال لظل من ظلال الشرك والوثنية) وما نبتت فى سـاحة حياة المجمتع المسلم من نباتات الجاهلية وحشـائشها الشيطانية ، يمكن أن يقدر كل ذلك من بعـض كتابات الإمام الدهلوى نفسه ، يقول فى « التفهيمات الإلهية » :

« قال رسول الله ﷺ : (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جُحر ضبْ لـتبّعتمـوهم ، قلنا يا رسول الله ! اليهود والنصـارى ؟ قال فمن ؟) [أخرجه البخارى ومسلم] صدق رسول الله ﷺ فقد رأينا رجالاً من المسلمين الذين ضعف إيمانهم يتخذون الصلحاء أربابـاً من دون الله ، ويجعلون قبورهم مساجد ، كمـا كان اليهود والنصارى يفعلون ، ذلك وقـد رأينا رجالاً منهم يحرفون الكلم عن مواضعـه ، ويعتمدون فى ترك العـمل وإرضـاء الشـهوات على الـقول المعـزو إلى النبى ﷺ « الـصالحـون لله ، والطالحون لى » كما قال الذين من قبلهم : ﴿ **لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة** ﴾ (٧) ، وإن

---

(٦) انظر « رجال الفكر والدعوة » (الجزء الثانى) ص : ١٧١ - ١٨٠ .

(٧) سورة البقرة ، الآية : ٨٠ .

سألت الحق فقد فشى التحريف فى كل طائفة .

فالصوفية أظهرت أقاويل لا يدرى لها توفيق بـ « الكتاب والسنة » ، لا سيما فى مسألة التوحيد (الوجودى) لظهر من ذلك أنهم لا يحتفلون بالشرع وليست له عندهم قيمة [٨] .

ويقول فى كتابه الشهير « الفوز الكبير » :

« وإذا كنت تتوقف فى التسليم بصحة ما يقال عن عقائد المشركين وأعمالهم [٩] فانظر إلى المحرفين المنحرفين فى هذا العصر لا سيما من يقطنون منهم بأطراف دار الإسلام ، ما هى تصوراتهم عن « الولاية » ورغم أنهم يعترفون بولاية الأولياء المتقدمين يرون وجود الأولياء فى عصرنا من المستحيلات ، ويؤمّون القبور والعتبات ، وقد ابتلوا بأنواع من الشرك والبعد والخرافات وتمكن منهم التحريف والتشبيه وتغلغل فى نفوسهم حتى لم تبق - بحكم ما جاء فى الحديث الصحيح : « لتتبعن سنن من كان قبلكم . . إلخ » - بلية من البلايا ، ولا فتنة من الفتن إلاّ وطائفة من طوائف المسلمين - تخوض فيها وتعلق بها ، عافانا الله سبحانه عن ذلك [١٠] .

الطريق المؤثر لعلاج هذه الأدواء وإصلاح الأوضاع نشر القرآن الكريم والدعوة إلى فهمه :

لقد رأى الإمام الدهلوى أن دراسة القرآن الكريم وفهمه وتدبره هو أقوى الطرق وأكثرها تأثيراً لعلاج هذا الداء ، بل الفتنة العمياء ، ولم يكن تفطنه لهذه الحقيقة مبنيًا على أساس الذكاء وطول الدراسة والقياس فحسب ، بل كانت حقيقة بديهية ، يشهد عليها القرآن نفسه، ولا يشهد تاريخ عهد البعثة والنبوة فحسب بل تاريخ الدعوة والإصلاح والتجديد فى الإسلام كل شهيد عليه ، ولا يتصور لإعلان حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك وسيلة أقوى وأصرح وأوضح وأكثر تأثيراً فى النفوس وجذباً للقلوب منه ، وقد صرح ترجمان القرآن الشيخ عبد القادر (ابن الإمام الدهلوى) فى مقدمة « موضح القرآن » وترجمته للقرآن الكريم وتحشيته عليه (بالأردية) بهذه الحقيقة فى أسلوب ساذج نفاذ بما لا مزيد عليه ، يقول :

---

(٨) التفهيمات الإلهية ، جـ : ١٣٤ - ١٣٥ .

(٩) وقد ذكر الإمام الدهلوى قبل ذلك حقيقة إشراك المشركين فى الجاهلية وأنواعها ومظاهرها .

(١٠) الفوز الكبير ، ص : ٨ - ٩ (المكتبة المحمدية) .

« ليقل القائلون ما شاءوا ولكن ليس أحد يستطيع أن يقول كما قال الله ، ولا يوجد فى كلام أحد من التأثير والنفوذ ما يوجد فى كلام الله » (١١) .

ولعل شعور الإمام الدهلوى بهذا الوضع الدينى فى الهند ، وبعدها عن تعاليم القرآن الكريم الحكيم وتعاليم الإسلام - بصفة عامة - ومنافاتها لها ، قد قوى واشتد أثناء إقامته بالحجاز ، وانبعث فى قلبه الدافع القوى ، فى ذلك الجو الروحى النورانى القرآنى - الذى علا منه هتاف التوحيد قبل كل مكان - إلى أن يقوم بنشر القرآن الكريم وتعميمه بين الناس فى الهند ، بوضوح وقوة يمكن أن يعبر عنها بالإلهام والإشارة الغيبية التى ترد - فى كل عصر - على النفوس الزكية لتحقيق مهمة دينية ضرورية ، ويكاد يستحيل دفعها والتغلب عليها ، ولذلك نرى أن الإمام الدهلوى بدأ بعمل ترجمة القرآن الكريم باللغة الفارسية التى تمت وتحققت باسم : « فتح الرحمن » بعد عودته من الحجاز (١٢) .

وقد كان من « الحقائق » المسلم بها ليس فى الهند فحسب بل فى جميع البلدان العجمية - تقريبا - بما فيها تركستان ، وإيران ، وأفغانستان ، والبلدان المجاورة للهند - وكانت ميولها ونزعاتها ، وأعمالها وأذواقها وحقائقها المعترف بها عندها تظلل على الأوساط

---

(١١) مقدمة : « موضح القرآن » للشيخ عبد القادر الدهلوى .

(١٢) لقد ذكر مؤلف « حياة ولى » نقلا عن أحد المعاصرين قصة مؤثرة شجية لتشغيب علماء السوء على الإمام الدهلوى لارتكابه « جريمة » ترجمة القرآن الكريم ، وإثارتهم الأوغاد المفسدين للحملة القاتلة عليه ، ثم استنتج من ذلك أن الإمام الدهلوى اختار السفر إلى الحجاز تخلصاً من هذه الفتنة والشغب (انظر صـ : ٤١٨ - ٤٢٣) .

ولكن هذا لا يؤيده أى مصدر تاريخى آخر ، بل يوجد فى مقدمة « فتح الرحمن » نفسه تصريح بأن الإمام الدهلوى بدأ الترجمة فى ١٠ ذى الحجة عام ١١٥٠ هـ وأكملها عام ١١٥١ هـ ، ويتضح من ذلك أنه شرع فى هذا العمل المبارك بعد عودته من الحجاز بأربعة أو خمسة أعوام ، وتوجد فى خزانة أسرتنا للكتب نسخة مخطوطة لـ « فتح الرحمن » فى مجلدين ، وقد كان الإمام الدهلوى نفسه أهداها إلى الشيخ محمد ـ أعظم العثمانى النصير آبادى ، وكان الشيخ محمد أعظم تلميذ الشيخ محمد نعمان (عم الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وخريجه) وهو الذى نشأه ورباه ، وانتقلت هذه النسخة إلى ملك الشيخ قطب الهدى المحدث تلميذ الشيخ عبد العزيز الدهلوى ولم تزل تنقل من يد إلى يد حتى وصلت إلى والدى العلامة عبد الحى الحسنى ، وقد كتبت هذه النسخة عام ١١٦٥ هـ أى قبل وفاة الإمام الدهلوى بـ ١١ عاما ، وهذا أيضاً دليل على أن مأثرة « فتح الرحمن » تحققت بعد عودة الإمام من الحجاز ، وأما قبل السفر إلى الحجاز فكان قد أنجز ترجمة سورتى البقرة والنساء .

العلمية والدينية فى الهند وتؤثر عليها - أن القرآن الحكيم إنما هو كتاب خاصة الخاصة ليطالعوه ويدرسوه ويفهموه ويتدبروه ، وأن فهمه يتوقف على معرفة أكثر من اثنى عشر علماً ، وأن نشره فى العامة ، وتوعيتهم - مباشرة - بمعانيه ومطالبه ، والدعوة العامة إلى استهدائه والاستيضاء به والاستفادة منه مباشرة خطر شديد ، وضلال كبير ، وفتح لباب فتنة مسيطرة ، وإنها دعوة إلى الاضطراب الفكرى فى العامة ، والقول بالرأى ، والاستغناء عن العلماء ، بل فوق ذلك دعوة إلى الخروج عليهم والتمرد والطغيان ، وقد صرح الإمام الدهلوى بهذا الطراز من التفكير وهذا النوع من الدليل فى رسالته الوجيزة « تحفة الموحدين» [١٣] فى أسلوب مؤثر جميل :

« يطلق بعض الناس القول بأن القرآن الكريم والحديث الشريف لا يمكن أن يفهمها إلا من درس العلوم الكثيرة ، وقرأ الكتب التى لا تحصى ، ويكون « علاَّمة عصره » ويرد الله - تعالى - عليهم ، فيقول : ﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾ [سورة الجمعة ، الآية : ٢] ، فقد كان النبى ﷺ أمياً وأصحابه أميين ، ولكن رسول الله ﷺ لما تلا على أصحابه آيات الكتاب الحكيم تزكت بها قلوبهم وصفت بها نفوسهم ، فلو كان الأمى لا يمكنه أن يفهم القرآن والسنة ، ولا يملك صلاحية لفهمه وإدراكه ، فكيف أمكن للصحابة أن يتزكوا بها ويتطهروا من الشرور والمفاسد ، ويا أسفى على قوم يدَّعون فهم «صدراً»[١٤] ، وعلم « القاموس » ولكنهم يتظاهرون بأنهم مجرد جهلة فيما يتعلق بفهم القرآن والحديث .

ويقول بعضهم نحن المتأخرين زمناً ، فأنى لنا بركات عهد النبى ﷺ وسلامة قلوب عهد الصحابة - رضى الله عنهم - حتى ندرك مغزى القرآن والحديث ، ويردُّ الله تعالى على ذلك : ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾ [سورة الجمعة ، الآية : ٣] ،

(١٣) نشرت هذه الرسالة باسم الإمام الدهلوى ومنسوبة إليه ، ولكن لما أنها لا تذكر فى مجموعة مؤلفاته ورسائله فى الكتب التى ترجمت له ولا يرد ذكرها فى فهرسة تأليفاته بصفة عامة - فلا سبيل لنا إلى القطع واليقين بأنه من مؤلفات الإمام الدهلوى ، إلا أن الموضوع الذى اقتطفناه هنا، يعرض تلك الفكرة الخاطئة التى كانت سائدة عرضاً واضحاً صحيحاً ، ثم يردُّ عليها رداً مُقنعاً شافياً .

(١٤) المراد به « شرح هداية الحكمة » للعلامة صدر الدين الشيرازى (م ١٠٥٠ هـ) ويعرف «بصدرا » فى الأوساط الحكمية ويعتبر كتابا نهائياً مثالياً فى العلوم الحكمية .

أى أن المتأخرين سواء كانوا مثقفين أو أميين ، إذا كانوا مسلمين وعزموا على سلوك طريق الصحابة الميامين ، وأصغوا بآذانهم إلى الكتاب والسنة ، فإنهما كفيلان لهم أيضاً بتزكية قلوبهم وتصفية نفوسهم ، ويقول الله - تعالى - : ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾ [سورة القمر ، الآية : ٢٢] فكيف يتسنَّى لدارسى « الكافية » وعلماء « الشافية » أن يتظاهروا بعجزهم عن فهم معنى هذا الكتاب الذى كان يفهمه العرب البدو ويدركون حقيقته ومغزاه ، ويقول الله تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن** ﴾ [سورة محمد ، الآية : ٢٤] فلو لم يكن القرآن ميسراً كيف يتمكن من التدبر فيه : ﴿ **أم على قلوب أقفالها** ﴾ [سورة محمد ، الآية : ٢٤] ورغم أنه ليست على قلوبهم أقفالها فلماذا لا يعملون عقولهم فى تدبره ولا يتفكرون » (١٥) .

لقد قرر الإمام الدهلوى نظرًا إلى فساد الذوق وانحراف الفكر وقلة التوفيق وسوء الفهم الذى كاد يصل إلى حدود « ويصدون عن سبيل الله » أن يقوم بنقل معانى القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية السهلة التى كانت - منذ قيام الحكومة الإسلامية فى الهند - لغة البلاد الإدارية والعلمية والتأليفية ولغة المكاتبات والمراسلات ، وكل مسلم مثقف إن لم يكن يستطيع أن ينطق بها فلا أقل من أن يفهمها ، ولو كانت هناك عشرات من تراجم القرآن الكريم باللغة الفارسية فى عهد سيادتها الذى يمتد على سبعة قرون لم يكن ذلك مما يثير العجب ، ولكن الغريب أننا لا نعثر على أى محاولة لنقل معانى القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية قبل ترجمة الشيخ حسن بن محمد العلقمى المعروف بالنظام النيسابورى ثم الدولة آبادي - الذى كان من علماء القرن الثامن - وهذه الترجمة للنيسابورى مضمومة مع تفسيره للقرآن الكريم بالعربية المعروف بـ « غرائب القرآن » (١٦) .

وكانت هناك ترجمة معروفة بترجمة الشيخ سعدى ، وهى وإن لم تكن سائدة متداولة كمؤلفاته الشهيرة المتداولة « كلستان » و « بوستان » ، ولكنها كانت توجد فى بعض المواضع ، إلا أن نسبتها إلى الشيخ سعدى غير صحيحة ، والحقيقة أنها ترجمة السيد شريف على الجرجانى (م ٨١٦ هـ) ، فقد صرح الشيخ عبد الحق حقانى مؤلف «التفسير الحقانى » عن مشاهدة وعيان :

---

(١٥) انظر « جائزة تراجم قرآنى » (استعراض الترجمات للقرآن الكريم) طبع مجلس معارف القرآن، دار العلوم ديوبند ، ص : ١٣ - ١٤ .

(١٦) كتابان نالا من القبول فى تعليم اللغة الفارسية وأدبها ما لم ينله أى كتاب فى شبه القارة الهندية. تحفة الموحدين ص / ة - ٧ - ٢ طبع المكتبة السلفية ، شيش محل روده لاهور .

« الترجمة التى ينسبها الجهلة إلى الشيخ سعدى هى فى الحقيقة ترجمة السيد شريف ، وقد نسبها صاحب الطبعة أمامى إلى الشيخ سعدى لنشرها وترويجها »[(١٧)] .

وعلى كل فإن الإمام الدهلوى قد اطمأن بعد عودته من الحجاز بخمسة أعوام (ولعل ذلك بعد ما شاهد من نتائج الجهود المبذولة لإصلاح العقائد عن طريق التدريس للخاصة ، وإلقاء الدروس العامة ، والوعظ والإرشاد) إلى أنه لا طريق أبلغ وأقوى تأثيراً للإرشاد العام وإصلاح العقائد ، وتقوية الصلة بالله - تعالى - من نشر تعاليم القرآن الكريم وإرشاداته ودعوته وتبليغها إلى الناس بطريقة مباشرة ، وليس هناك لذلك إلا وسيلة واحدة، وهو نقل معانى القرآن الكريم باللغة الفارسية (لغة البلاد الرسمية السائدة) ونشرها ، وهو الذى شاع التعبير عنه بـ « الترجمة » ، واسمع عن تاريخ هذه الخطوة الجريئة والأسباب والدوافع إليها من الإمام الدهلوى نفسه ، يقول فى مقدمة تفسير « فتح الرحمن » :

« إن هذا العصر الذى نعيشه ، وهذه البلاد التى نسكنها تقتضى فيها مصلحة المسلمين ونصيحتهم أن ينقل معانى القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية السلسة (من دون تنميق وتحبير وتظاهر بالفضل وذكر للقصص المتعلقة ووجوه التأويل) حتى يفهمها العامة والخاصة على قدم سواء ، ويدرك الصغار والكبار جميعاً معانى القرآن الكريم ومطالبه ، وقد ألقى الدافع إلى هذا العمل فى روعى ، واضطررت إليه اضطراراً .

وقد ألقيت نظرة فاحصة على الترجمات السابقة حتى إذا كان بعضها على المستوى اللائق المطلوب اكتفى بنشرها وترويجها ، ولا بد أن تكون هذه الترجمة منسجمة مع ذوق أهل هذا العصر إلى حد المستطاع ، ولكن هذه الترجمات إما طويلة مملة أو قصيرة مخلة ، وقد تحقق لى أثناء ذلك ترجمة الزهراوين (سورتى البقرة والنساء) ثم صادفنى السفر إلى الحرمين الشريفين ، وإنقطع ذلك العمل ثم بعد عدة أعوام بدأ بعض الأحبة يقرأ على ترجمة القرآن ، فأصبح هذا الدرس باعثاً على العزيمة الأولى ، وتقرر أن تقيد الترجمة قدر الدرس اليومى ، فلما تمت ترجمة الثلث من القرآن الكريم ، وقع لهذا العزيز سفر وتوقف عمل الترجمة ، ثم جاءت مناسبة أخرى بعد مدة من الزمن ، وعادت الإرادة القديمة من جديد ، وتمت الترجمة إلى الثلثين .

---

(١٧) « البيان فى علوم القرآن » (مقدمة التفسير الحقانى) للعلامة عبد الحق حقانى ، ص : ٥٠٧ .

وعهد إلى بعض الأصدقاء بتبييض المسودة ، وأن يكتبوا معها متن القرآن الكريم أيضاً حتى تتهيأ نسخة مستقلة (للقرآن الكريم مع الترجمة) فبدأ هذا الصديق السعيد تبييض المسودة من عيد الأضحى عام ١١٥٠ هـ ، فتحرك العزم وعاد الدافع وكملت الترجمة إلى آخر القرآن الكريم ، ووقع الفراغ من التسويد فى أوائل شعبان وبيضت المسودة عام ١١٥١هـ ، ونشرت عام ١١٥٦ هـ بعناية الأخ العزيز الشيخ محمد أمين - أكرمه الله تعالى بشهوده - وبدئ بتدريسها ، وتهيأت لها عدد من النسخ واسترعت انتباه المعاصرين ، والحمد لله - تعالى - على أن ذلك النقش الذى نقش فى قلبى ، قد ظهر - أخيرا - من وراء ستار التقدير [١٨] .

وقد كتب الإمام الدهلوى عدا هذه الترجمة والتفسير المسمى بـ « فتح الرحمن » مقدمة فى أصول الترجمة كذلك ، وهى - رغم وجازتها وقصرها - مقدمة فاضلة تحتوى على فوائد جمة ، يقول فى بدايتها :

« يقول الفقير إلى رحمة الله الكريم ، ولى الله بن عبد الرحيم ، إنها رسالة فى قواعد الترجمة وأصولها مسماة بـ « المقدمة فى قوانين الترجمة » ، وقد جرى بضبطها القلم أثناء كتابة ترجمة القرآن الكريم [١٩] .

ويخيل إلينا أن الصخرة الصلدة التى كانت تحول فى سبيل ترجمة القرآن الكريم ونشره بين الناس أزيحت بهذه الخطوة الجريئة التى قام بها شخصية جليلة كالإمام الدهلوى (التى كانت طبقة أصحاب العلم والفكر الصحيح فى عهده مجمعة كلها - تقريباً - على تبحره فى العلم وجمعه للفضائل والمحاسن ، ومنزلته الروحية العالية وإخلاصه وتجرده) وفتح الطريق ، ولم يزل يحدث ويتسلسل فى التاريخ الإسلامى أن شخصية كبيرة ذات شأن إذا بدأت بعمل كانت تحوم حوله الريب والظنون ، تنقشع عنه بسببه سحب الريب والظنون وسوء الفهم وينفتح الطريق العام ، وإن مشاركة الإمام أبى الحسن الأشعرى فى البحوث الكلامية واستخدامه الاستدلال العقلى ، ودراسة الإمام الغزالى للفلسفة ، تنقيحها والرد عليها وكثير من مثل هذه الأعمال والخطوات التى قام بها كبار العلماء والمخلصين حسب مقتضيات عهدهم للحفاظ على الإسلام أو الدفاع ، كلها أمثلة رائعة فى هذا الصدد .

---

(١٨) مقدمة فتح الرحمن ، طبع دلهى ١٢٩٤ هـ .

(١٩) توجد مخطوطتها فى مكتبة ندوة العلماء وتشتمل على ست صفحات بالقطع الكبير .

الترجمات الأردية للقرآن الكريم بعد الإمام الدهلوى :

وقد أمست الحاجة - سريعاً - بعد ترجمة الإمام الدهلوى بالفارسية إلى ترجمة القرآن الكريم باللغة الأردية ، إذ أنها كانت بدأت فى الجزء الأخير من القرن الثانى عشر الهجرى نفسه تحل محل اللغة الفارسية ، وبدئ فيها بعمل الكتابة والتأليف ، وقد شعر بهذه الحاجة الماسة وتغير الوضع أول ما شعر الشيخ عبد القادر الدهلوى (م ١٢٣٠ هـ) ابن الإمام الدهلوى نفسه ، وقام بترجمة القرآن الكريم عام ٥ - ١٢٠٤ هـ إلى اللغة الأردية الأدبية التى يمكن أن يقال عنها إنه ليس فى علمنا محاولة نقل معانى القرآن الكريم إلى غير العربية بلغت من النجاح والسهولة والجمال وتناولت روح الألفاظ القرآنية إلى الحد الكبير ، ما بلغته هذه الترجمة يقول الشيخ عبد القادر فى مقدمة ترجمته هذه :

« لقد جال فى خاطر هذا الفقير عبد القادر أن والدنا الجليل الشيخ ولى الله ابن الشيخ الكبير الشيخ عبد الرحيم العالم بالحديث ومن أبناء الهند كما ألف ترجمة القرآن الكريم بالفارسية بتسهيل وتيسير (كذلك يعمل هذا العبد الفقير بالأردية) وأحمد الله - تعالى - على أن هذه الأمنية تحققت عام ١٢٠٥ هـ (الموافق ١٧٩٠) [٢٠] .

ثم قام الشيخ رفيع الدين (م ١٢٣٣ هـ) أخ الشيخ عبد القادر الأكبر بترجمة القرآن الكريم - مع مراعاة ترجمة كل لفظة بلفظة وحرف بحرف - الى نالت بجوانب حيطتها البارزة وتبحر مؤلفها فى العلم وإخلاصه ، قبولا ورواجا كبيرا ، فنال ترجمة الشيخ عبد القادر ، السلسة المترابطة ، القبول والرواج فى بعض الأوساط وترجمة الشيخ رفيع الدين القبول والرجحان فى أوساط أخرى .

وقد انتشرت وعمت هاتان الترجمتان فى بيوت المسلمين ، وعمت قراءتهما مع تلاوة القرآن الكريم انتشاراً لا مثيل له فى أى كتاب دينى آخر ، أما فيما يتعلق بتصحيح العقائد وتبليغ عقيدة التوحيد الخالصة ونشرها ، فلا يحصى كم من مستفيد ومنتفع بهاتين الترجمتين، فإن عددهم يتجاوز مئات الألوف ، والحق أن أية حكومة إسلامية بوسائلها وأسبابها لا تستطيع أن تقوم بما قامت به هذه الترجمات الثلاث فى مجال الدعوة والإصلاح، وهى كلها أغصان دوحة واحدة وفروع شجرة الطوبى ، « وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

---

(٢٠) موضح القرآن ، جـ : ١، صـ : ٢.

ثم سال سيل الترجـمات الأردية التى يصعب إحصاؤها واستقـصاؤها ، ويتطلب بحوثا تحقيقية علمية مستقلة [٢١] .

دروس القرآن الكريم :

وعلاوة على هذه التراجم الأردية للقـرآن الكريم التى قام بها شيخـان جليلان من أفراد هذه الأسرة الكريمة الشيخ عبد القادر الدهلوى والشيخ رفيع الدين الدهلوى ، والتى ظلت تقرأ وتدرس فى البيوت حيث كانت الـلغة الأردية لغة النطق والكتابة فى الهند ، كان هناك الجهد الطويل الجاد ، المؤثر العميق البليغ لتصحيح العقائد وإصلاح الأعمال والأخلاق عن طريق إلقاء دروس القرآن الكريم العـامة ، وشرحه وتفسيره شـفوياً ، وقد تحقق ذلك على يدى أكبر أبناء الإمـام الدهلوى ، والمضطلع بأعباء أعمـاله التجديدية والإصلاحـية وتوسيع نطاقها وتكميلها بعده الشيخ عبد العزيز الدهلوى (١٢٣٩ هـ) الذى استمر اثنتين وستين ، أو ثلاث وستين سنة ، يلقى دروسه المؤثرة فى القرآن فى مدينة مـركزية كالعاصمة دلهى ، وفى عهد خطير كالقرن الثالث عشـر الهجرى ، وما كسبت هذه الدروس من نجاح وقبول ، وما تحقق بها من إنجازات كبيرة فى تصحيح العقائد والمفاهيم لا يوجد له فى علمنا أى نظير ولا مثيل .

---

(٢١) بين أيدينا الآن كتاب « جائزة تراجم قرآنى » (استعراض الترجمات القرآنية) فقد بلغت فيه عدد الترجمات (بعد هاتين الترجمتين للشيخ عبـدالقادر والشيخ رفيع الدين) التى استعرضها المؤلف وعرف بها بإيجاز إلى خمس وخمسين ترجمة .

« الفوز الكبير » :

إن كتاب الإمـام الدهلوى « الفوز الكبير فى أصـول التفسير »» مـأثرة تجديدية ثورية فى صدد الدعـوة إلى القرآن ، وإنشاء ملكة الفهـم والتدبر للقرآن الكريم فى أوساط الخـاصة وأصحاب العلم والمثقـفين ، وإيقاظ عاطفة الإصلاح للأمة الإسلامـية ، وأنه لكتاب فريد (فى المكتبة الإسلامية العامرة حسب علمنا) فى بابه .

لا يوجد فى أصـول التفسير شـئ مستقل - بصفـة عامة - وما هى إلا بعـض القواعد والضوابط وشئ من الأصول يذكرها بعض المفسرين فى مقدمـة تفاسيرهم أو لبيان منهجهم فى التفسيـر والتأويل فى بضعة سطور ، وإن كان كتاب الإمـام الدهلوى « الفوز الكبير فى أصول التفسير » أيضاً وجيزاً مختـصراً ، ولكنه كله نقاط أساسية وكليات جامعة ، وهو - فى الحقـيقة - مذكـرة نادرة قيمـة لعالم جليل عانى مـشكلات القرآن ، ومارسهـا ممارسة المجرب الخبير .

ولا يقدره حق قدره إلا من واجه هذه المشكلات والمسـائل العويصة وإن بعض الأصول والكليات الـتى سجلها الإمـام الدهلوى بناء على ذوقه ووجـدانه وإدراكه لمغـزى القرآن لا يمكن الحـصول عليـها بمطالعـة مئـات الصفـحات فى الكتب الأخـرى وإن تصريـح الإمام الدهلوى فى مقدمة هذا الكتاب بما يلى ، صحيح مائة فى المائة :

« يقول الفقير إلى الله ، ولى الله بن عبد الرحـيم - عاملهما الله تعالى بلطفه العظيم - إنه لما فتح الله - تعالى - علىّ باباً من كتابه الحكيم ، خطر لـى أن أقيد الفوائد النافعة التى تنفع إخوانى فـى تدبر كلام الله - عزو وجل - وأرجـو أن مجرد فـهم هذه القواعـد يفتح للطلاب فريقـاً واسعاً إلى فـهم معانى كـتاب الله - تعـالى - وأنهم لو قضوا أعـمارهم فى مطالعة كتـب التفسير أو قـراءتها على المفسـرين - على أنهم أقل قليل فى هذا الزمان - لا يظفرون بهذه القواعد الضابطة والمضامين المترابطة » (٢٢) .

إن ما كتبه الإمام الدهلوى فى مقاصـد القرآن الكريم وموضوعاته ، وخصائص أسلوبه ومنهجه ، واختلافه وتميزه عن المؤلفات البشرية لا سيما كتب المتأخرين الدراسية ، وأسباب النزول فى كلمـات قليلة معدودة ، يمكـن أن لا يشعر فـيه - اليوم - بـالجدة والابتكار ،

---

(٢٢) الفوز الكبير .

ولكنها كانت فى القرن الثانى عشر آراء ونظرات جديدة ، ولا تزال هذه الآراء غريبة مجهولة فى كثير من الأوساط ، لقد وقع هناك نقص كبير وفرق هائل - نتيجة كثرة الروايات المتعلقة بأسباب النزول والتأكيد على أهميتها والتركيز عليها الذى كان أصبح شعار القرون المتأخرة - فى الاستفادة من مضامين القرآن العظيم وقصصه والانتفاع بعظاته وعبره فى كل عصر ودور من أدوار التاريخ ، وتطبيقها على ظروف العصر وأوضاعه وقضاياه ، فقد أزاح الإمام الدهلوى بهذا التحقيق والتنقيح ذلك الستار الكثيف ، وكشف عن جمال القرآن الكريم وبهائه ورونقه ، يقول الإمام الدهلوى فى الباب الأول من كتابه : « الفوز الكبير » :

« وقد ربط عامة المفسرين كل آية من آيات الأحكام وآيات المخاصمة بقصة تروى فى سبب نزوله ، وظنوا أنها هى سبب النزول .

والحق أن نزول القرآن الكريم ، إنما كان لتهذيب النفوس البشرية ، وإزالة العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة .

فالسبب الحقيقى - إذن - فى نزول آيات المخاصمة هو وجود العقائد الباطلة فى نفوس المخاطبين .

وسبب نزول آيات الأحكام ، إنما هو شيوع المظالم ووجود الأعمال الفاسدة فيهم .

وسبب نزول آيات التذكير (بلاء الله وأيامه وبالموت) إنما هو عدم تيقظهم وتنبههم بما يرون ويمرون عليه من آلاء الله وأيامه وحوادث الموت ، وما سيكون بعده من وقائع هائلة.

أما الأسباب الخاصة والقصص الجزئية التى تجشم بيانها المفسرون فليس لها دخل فى ذلك إلا فى بعض الآيات الكريمة التى تشتمل على تعريض بحادث من الحوادث فى عهده النبى ﷺ أو قبله ، بحيث يقع القارئ بعد هذا التعريض فى ترقب وانتظار لما كان وراءه من قصة أو حادث أو سبب ولايزول ترقبه إلا ببسط القصة وبيان سبب النزول » (٢٣) .

وإن بيان مواضع الضعف فى الفرق التى تكفل القرآن الكريم بالرد عليها والتصريح بعقائدها وأفكارها وآرائه الصحيحة الأصلية ، وأسباب ضلالها وانحرافها وسوء فهمها للحقيقة وتاريخ هذه الأسباب ، وبيان اتفاق وتطبيق هذه الأمور على بعض طبقات

---

(٢٣) الفوز الكبير ، الباب الأول ، صـ : ٣ - ٤ .

المسلمين، هو الأساس الأول لفهم القرآن الكريم الذى لا يوجد - رغم الاختصار والإيجاز- بهذا الوضوح فى أى من التفاسير الكبيرة كما يوجد فى هذا الكتاب .

وكذلك شرح الفرق بين اصطلاحات المتقدمين والمتأخرين فى النسخ والتطبيق والتوفيق بين الآيات الناسخة والمنسوخة ، وحل الخلافات التفسيرية بين الصحابة والتابعين ، من بحوث الإمام الدهلوى الجيدة النادرة .

وإن ما ذكره الإمام الدهلوى من توجيه لعدم مطابقة بعض الآيات القرآنية مع قواعد النحو الظاهرة المعروفة وعدم موافقتها لها ، يعرف قدره وأهميته من درس تاريخ تدوين النحو ، وكان له اطلاع واسع على الخلافات النحوية بين مدرستى الكوفة والبصرة ، وإن من أكبر ميزات هذا الكتاب أن القارئ يطلع من خلاله على مواطن الضعف الحقيقية فى الديانات السابقة والفرق الضالة والشعوب والملل وأمراضها القديمة وعللها الموروثة ، ويوفق أجيال المسلمين ، والمجتمع المسلم فى كل عصر وطبقات الأمة المختلفة أن ترى وجهها فى مرآة القرآن الكريم ، وتحاسب نفسها ، وتفكر فى أن لا تتسرب أمراض الديانات والفرق القديمة ومواطن ضعفها المتوارثة إليهم ، ولا تدخل بخطى صامتة عليهم .

﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون** ﴾ (٢٤) .

---

(٢٤) سورة الأنبياء : ١٠ .

التحقيق والتنقيح العلمى لمسألة التوحيد :

لم يقتصر الإمام الدهلوى فى سبيل تصحيح العقائد والمفاهيم والدعوة إلى التوحيد الخالص على ترجمة القرآن الكريم وإلقاء الدروس فيه ، بل درس هذا الموضوع كعالم وباحث محقق دراسة واقعية موضوعية ، لقد كانت عقيدة التوحيد شعار الملة الإبراهمية الأكبر ، والمقصد الأعظم لدعوة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وجهده وأساس دعة خاتم النبيين ﷺ ومبدأه ومنتهاه ، يشهد عليه القرآن الكريم كله ، ومجاميع السنة والسيرة النبوية، لقد أقام بين التوحيد والشرك خا فاصلا ، وبين حقيقة التوحيد بيانا واضحا،وجاهد ضد أى شائبة من شوائب الشرك وأى ظل خفيف من ظلاله ، وسد باب كل ذريعة إلى تسرب الشرك فى عقائد الأمة الإسلامية ، ووقوع الضعف فيها ، بمالا يتصور المزيد عليه ، وهذه الحقائق كلها بدهية متواترة لا تحتاج إلى إيراد الشواهد والأدلة ، وكل من له أدنى إلمام بالكتاب والسنة يضطر إلى الاعتراف ها والإذعان لها .

ثم كيف تسربت هذه الأعمال والمعتقدات الشركية بعد مضى القرون المشهود لها بالخير ، وفتح بلاد جديدة ، وإقبال أهلها على الإسلام ، والاختلاط بالشعوب غير الإسلامية ومجاورتها ، ومضى الدهور والأعصار ، إلى طبقة كبيرة من العامة ، وكيف تمكنت من الحصول على مكانها مع كثير من شعائر التوحيد وعلاماته فى المجتمع المسلم ، وكيف تجاسر كثير من أدعياء العلم على احتمالها ، وتوجيهها وتأويلها وتحليلها ، وكيف وقع كثير من المسلمين المثقفين أسرى هذه المغالطات ، والتأويلات ؟

إن السبب فى ذلك عند الإمام الدهلوى يرجع إلى عدم الإدراك والفهم لحقيقة الشرك وحقيقة معتقدات المشركين ،لاسيما المشركين العرب فى الجاهلية عن كون الله ـ تعالى ـ خالق الكون ، ومدبر الأمور العظام ،وقد فهمت الطبقة الكبيرة من العامة حقيقة الشرك على أنه إشراك كائن (سوء كان حيا أو ميتا) مع ذات الله ـ تعالى ـ على قدم سواء ، وأن يجعل له ند ومثيل ، تنسب إليه جميع صفات الله ـ تعالى ـ وأفعاله ، ويعتقد بأنه هو الخالق ، الرازق ، والحيى والمميت ، حقيقة وأصلا ، أما نسبة بعض صفات الله ـ تعالى ـ إلى بعض عباده المقربين عنده ، واعتقاد صدور بعض الأفعال (التى هى خاصة بالله ـ تعالى ـ) منهم ، وتوليتهم بعض أمور القدرة المطلقة ، وتخويلهم بعض حقوقه بإذنه ورضاه ، كل ذلك لا ينافى عندهم التوحيد ولا يرادف الشرك ، كذلك كانوا يعتقدون أن تقديس أحد لمحض التزلف إلى الله ـ تعالى ـ تقديسا بالغا ، ومعاملته بأعمال وهيئات تدخل فى حدود العبادة والتأليه ، لا علاقة له بالشرك إذ أنه مجرد وسيلة من الوسائل للحصول

على رضا الله ـ تعالى ـ وطريق نافع مؤثر للوصول إلى حضرة الجلالة (التى لا يصل إليه أى بشر عادى) وكان الكفار العرب يقولون : ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾(٢٥) .

كانت هذه هى المغالطة والتلبيس الذى جر كثيرا من أفراد هذه الأمة إلى حمى الشرك المحرمة ، وقد تخطوا ذلك الخط الأخير الذى هى الحد الفاصل (LINE OF DEMARC ATION) بين الشرك والتوحيد ، ولذلك فإن أول وأهم حاجة فى هذا الصدد أن يعلم ما هى تلك العقيدة التى كان يدين بها المشركون العرب والجاهليون حقيقة ، وماذا كانوا يعتقدون فى ذات الله ـ تعالى ـ وصفاته ، ولماذا اعتبرهم رسول الله ﷺ مشركين رغم كونهم صاحب القدرة المطلقة ، وأعلن القرآن الكريم أنهم مشركون .

يقول الإمام الدهلوى فى كتاب العديم النظير « الفوز الكبير فى أصول التفسير » :

« والشرك هو إثبات الصفات الخاصة بالله ـ تعالى ـ لغيره مثل إثبات التصرف المطلق فى الكون ، بالإرادة المطلقة ، التى يعبر عنها بـ « كن فيكون » أو إثبات العلم الذاتى الذى يحصل بالاكتساب عن طريق الحواس والدليل العقلى والمنام والإلهام ، وأمثال هذه من الوسائل المادية أو الروحية أو إثبات إيجاد شفاء المريض أو إثبات اللعنة على شخص أو السخط عليه بحيث ينقلب نتيجة هذا اللعن والسخط معدماً فقيراً ، أو مريضاً أو شقياً أو الرحمة لشخص والرضا عنه ، بحيث ينقلب هو لسبب هذه الرحمة والرضا غنياً صحيحاً معافى سعيداً .

وهؤلا المشركون لا يعرفون مع الله - تعالى - شريكاً فى خلق الجواهر (أى أصول المادة) وتدبير الأمور العظام ، ويعترفون بأنه لا قدرة لأحد إذا أبرم الله - تعالى - شيئاً وقضى ، أن يمانعه ويقف دونه ، إنما كان إشراكهم فى أمور خاصة ببعض العباد ، إذا أنهم يظنون أن سلطاناً عظيماً من السلاطين العظام كان يرسل عبيده وأصحاب الزلفى لديه إلى بعض نواحى مملكته للقيام ببعض الأمور الجزئية وأنه لا يقوم بشئون الرعية وأمورهم الجزئية بنفسه ، بل يكل ذلك إلى الولاة والحكام ، ويقبل منهم شفاعتهم ، وتزكيتهم للموظفين الذين يعملون تحت إشرافهم ، والمتصلين بهم والمتزلفين لديهم ، كذلك قد خلع ملك الملوك على الإطلاق - تعالى شأنه - على بعض عباده المقربين ، خلعة الألوهية وجعل سخطهم أو رضاهم مؤثراً فى عباده الآخرين .

---

(٢٤) سورة الزمر : ٣ .

فكانوا - لأجل ذلك - يرون من الضرورة التزلف إلى أولئك العباد المقربين حتى يكون هذا وسيلة لصلاحية القبول فى حضرة الملك الحقيقى ، وتنال شفاعتهم فى حقهم - عند الجزاء على الأعمال والحساب - الحظوة والقبول عند الله - سبحانه - .

ونظراً لهذه الملاحظة والتصور الذى رسخ فى نفوسهم ، حدثتهم أنفسهم بالسجود أمامهم والذبح لهم والحلف بأسمائهم ، والاستعانة بقدرتهم المطلقة ، وتحت صورهم وتماثيلهم من حجر وصفر ونحاس وغير ذلك ، وجعلها قبلة للتوجه إلى أرواحهم ، وتدرج الجهلة من هذا الطريق إلى أن بدأوا يعبدون هذه الصور والتماثيل ، ويعتقدون أنها آلهة بذاتها ، ووقع فى المعتقدات خلط والتباس وفساد عظيم » (٢٦) .

ويقول أيضاً فى « حجة الله البالغة » :

« حقيقة الشرك أن يعتقد إنسان فى بعض المعظمين من الناس أن الآثار العجيبة الصادرة منه إنما صدرت لكونه متصفاً بصفة من صفات الكمال مما لم يعهد فى جنس الإنسان بل يختص بالواجب - جل مجده - ولا يوجد فى غيره إلا أن يخلع هو خلعة الألوهية على غيره أو يفنى غيره فى ذاته ، ويبقى بذاته ، أو نحو ذلك ما يظنه هذا المعتقد من أنواع الخرافات كما ورد فى الحديث : « إن المشركين كانوا يلبون بهذه الصيغة : لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك » فيتذلل عنده أقصى التذلل ، ويعامل معه معاملة العباد مع الله - تعالى - (٢٧) .

ويقول كذلك - وهو يبين حقيقة إشراك المشركين ، ويصرح بأنه كان هناك أمور مشتركة بين المشركين وبين المسلمين ، فقد كان المشركون العرب لا ينكرون وجود الله - تعالى - ومكانته المتفردة وقدرته المطلقة ، وكانوا يرون أن المقربين لديه والمحبوبين عنده يشاركونه فى بعض الصفات والحقوق - وذلك أيضاً بإذنه ورضاه - ولأجل ذلك كانوا يعاملونهم معاملة العبودية والخضوع - يقول تحت « باب التوحيد » :

« والمشركون وافقوا المسلمين فى تدبير الأمور العظام وفيما أبرم وجزم ، ولم يترك لغيره خيرة ، ولم يوافقوهم فى سائر الأمور ، ذهبوا إلى أن الصالحين من قبلهم عبدوا الله - تعالى - وتقربوا إليه ، فأعطاهم الله الألوهية فاستحقوا العبادة من سائر خلق الله كما أن

---

(٢٦) الفوز الكبير ، ص : ٧ - ٨ .

(٢٧) حجة الله البالغة ، جـ : ١ ، صـ : ٦١ ، باب أقسام الشرك .

ملك الملوك يخدمه عبده فيحسن خدمته فيعطيه خلعة الملك ، ويفوض إليه تدبير بلد من بلاده ، فيستحق السمع والطاعة من أهل ذلك البلد ، وقالوا : لا تقبل عبادة الله - تعالى- إلا مضمومة بعبادتهم ، بل الحق فى غاية التعالى ، فلا تفيد عبادته تقرباً منه ، بل لا بد من عبادة هؤلاء ليقربوا إلى الله زلفى ، وقالوا هؤلاء يسمعون ويبصرون ويشفعون لعبادهم، ويدبرون أمورهم وينصرونهم فنحتوا على أسمائهم أحجاراً ، وجعلوها قبلة عند توجههم إلى هؤلاء ،فخلف من بعدهم خلف ، فلم يفطنوا للفرق بين الأصنام وبين من هى على صورته فظنوها معبودات بأعيانها (٢٨) .

ويقول فى موضع آخر :

(لقد كان المشركون يعتقدون) « بأنه لا شريك لله - تعالى - فى خلق السموات والأرض ، وما فيها من الجواهر ، ولا شريك له فى تدبير الأمور العظام وأنه لا رادَّ لحكمه ولا مانع لقضائه ، إذا أبرم وجزم ، وهو قوله - تعالى - : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **بل إياه تدعون** ﴾ ، وقوله -تعالى-: ﴿ **ضل من تدعون إلا إياه** ﴾ ، لكن كان من زندقتهم قولهم : « أن هنالك أشخاصاً من الملائكة والأرواح تدبر أهل الأرض فيما دون الأمور العظام من إصلاح حال العابد فيما يرجع إلى خويصة نفسه وأولاده وأمواله ، وشبهوهم بحال الملوك بالنسبة إلى ملك الملوك، وبحال الشفعاء الندماء بالنسبة إلى السلطان المتصرف بالجبروت ، ومنشأ ذلك ما نطقت به الشرائع من تفويض الأمور إلى الملائكة ، واستجابة دعاء المقربين من الناس فظنوا ذلك تصرفاً منهم كتصرف الملوك قياساً للغائب على الشاهد ، وهو الفساد (٢٩) .

وهكذا توصل الإمام الدهلوى إلى جذور الأعمال والعقائد الشركية التى كان يخوض فيها العامة والخاصة الذين هم أشباه العامة ، وكشف عن المغالطة التى جرَّت كثيراً من الجهلة وأدعياء العلم إلى الوقوع فى شراك هذه الأعمال والتقاليد وشعائر الشرك ، والنذر والذبح لغير الله ، والصيام بأسماء الأولياء والصالحين ، ودعائهم والسؤال منهم والالتجاء إليهم ، والخوف والرجاء منهم ، والاستمداد والاستعانة بهم ، وتعظيم قبورهم ، وكل ما يمتُّ إليهم بصلة كتعظيم بيت الله - تعالى - والحرم المحرم والالتزام بآدابه واعتقاد تصرفهم

---

(٢٨) حجة الله البالغة ، جـ : ١ ، صـ : ٥٩ ، باب التوحيد .

(٢٩) حجة الله البالغة ، جـ : ١ ، صـ : ١٢٥ ، باب « ما كان عليه أهل الجاهلية فأصلحه النبى ﷺ .

- ولو جزئياً - فى الكون ، وتأثيرهم فى شقاء الإنسان وسعادته وصحته ومرضه ، وسعته وإقتاره ، وكانوا قد حرموا من العلم لقوله - تعالى - : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ وكرامة الإنابة والإخبات والتوكل على الله - تعالى - والانقطاع إليه ، وإذا سمع الإنسان بعض أخبارهم وشاهد بعض أعمالهم تذكر الآية الكريمة : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ .

ولو لم تكن للإمام الدهلوى وأخلافه مأثرة غير هذا التجديد لعقيدة التوحيد وتنقيحها وتوضيحها ونشرها وترويجها ، وإزالة ما علق بها من سوء فهم وتصورات خاطئة ، لكفى ذلك فى عدة من المجددين فى هذه الأمة ، ولكن له مع ذلك أعمال ومآثر ، سيأتى تفصيلها فى الصفحات التالية .

* * *

بيان العقائد وشرحها فى ضوء الكتاب والسنة وعلى منهج الصحابة والسلف الصالح

لقد كان للإمام الدهلوى - علاوة على هذه المآثر التجديدية الأساسية التى كانت تتعلق بالمسلمين - عامة - والمجتمع الإسلامى كله ، والتى يشك بدونها فى الهداية والنجاة ، وتستحيل نصرة الله - تعالى - وتأييده ، مأثرة علمية وإصلاحية جزئية وهى أنه قام ببيان العقائد الإسلامية وشرحها فى ضوء الكتاب والسنة ، ودعا فى هذا المجال إلى تطبيق منهج الصحابة والسلف الصالحين - رضى الله عنهم - وذوقهم ومشربهم ، وقد بدأ بهذا العمل وقدم مثالاً عملياً .

لقد كان العالم الإسلامى فى حاجة إلى أولئك النوابغ من المفكرين والمتقيدين بالنصوص من المجتهدين الذين يستطيعون أن يواجهوا آراء الفلسفة والفلاسفة ونظرياتهم (التى كان لها تأثير كلى على علم الكلام نفسه) مواجهة الندّ للندّ ، يؤمنون بالقرآن كما نزل ، ويعتقدون فى صفات الله - تعالى - وأفعاله بما يقوله هو عن نفسه من دون تأويل أو تحريف وتعطيل ، ويفسرون هذه الحقائق تفسيراً يؤيده العلم الصحيح والأدلة الشرعية فى جانب ، ويعترف به العقل الصريح والمنطق الصحيح فى جانب آخر ، ولم يكن لذلك إلا العلماء الربانيون الذين تربوا وتخرجوا فى مدرسة القرآن الكريم مباشرة ، واقتبسوا النور من مشكاة النبوة الصافية وكانوا - مع معرفتهم الواسعة وإحاطتهم بعلوم الفلسفة والبحوث والتدقيقات الكلامية ملتزمين فى مجال العقائد بكتاب الله - تعالى - وسنة نبيه المتواترة - ﷺ - ويؤمنون بالله - تعالى - بصفاته وأسمائه الحسنى التى تكفل هو بيانها فى كتابه الحكيم ، وكان يصدق عليه - كلياً - تعريف العلماء الربانيين الذى ورد فى الحديث الشريف :

« ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » (٣٠) .

ولم يخل أى عصر من عصور التاريخ الإسلامى من أمثال هؤلاء العلماء الربانيين ، ومن أبرزهم شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الحرانى (م ٧٢٨ هـ) فى الثامن الهجرى ،

---

(٣٠) رواه البيهقى ، ولفظ الحديث : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الغالين إلخ » .

وتلميذه النابغة العلامة ابن قيم الجوزية صاحب « زاد المعاد » (م ٧٩١ هـ) وآخرون من العلماء الأجلة الذين ساروا على هذا الدرب ، وليست قائمة أسمائهم طويلة .

وإن كان بعد الإمام ابن تيمية من يمكن أن يصرح باسمه فى هذا المجال بكل ثقة واعتماد، وأعماله ظاهرة معروفة فى أوساط العلماء ، فهو الإمام ولى الله الدهلوى ، فقد كان يملك المقدرة الكافية لبيان العقائد وشرحها وعرضها وفق منهج السلف الأولين ، لأنه كان درس الفلسفة اليونانية دراسة واسعة عميقة فى جانب ، وكانت الثروة لعلم الكلام بين يديه بل فى متناوله ، وكان مفسراً دقيق النظر للقرآن الكريم وعالماً وبارعاً فى علوم الحديث الشريف ، وعارفا بأسرار الشريعة وحكمها ومقاصدها فى جانب ، ولذلك فهو يقوم على الجادة المتوسطة بين « التأويل » و « اللفظية » وكتابه « العقيدة الحسنة » (٣١) يجمع بين عمق الدراسة وسهولة العبارة وطلاقتها ، وإنه لمن المتون الجامعة المحررة لعلم التوحيد (الذى يمسى الآن بعلم الكلام بصفة عامة) التى احتوت على خلاصة عقائد أهل السنة والجماعة ولبابها الذى يجب أن يطلع عليه كل مسلم مثقف يعدُّ نفسه ويعتبرها فى أهل السنة ويريد أن يجعل عقائد أهل السنة شعاره ومسلكه .

يقول الإمام فى رسالة « وصاياه » (٣٢) ، (وهى باللغة الفارسية) :

« وصية هذا الفقير الأولى أن يتمسك المسلم فى العقائد والعلم بالكتاب والسنة ويعض عليهما بالنواجذ ، ويعمل بهما دائماً ويختار فى العقائد منهج المتقدمين من أهل السنة ، ويعرض فى باب الصفات والآيات المتشابهات التى لم يخض السلف فى تفصيلها والبحث فيها عنه ، ولا الالتفات إلى تشكيكات العقلانين المتكائسين » .

---

(٣١) طبع هذا الكتاب باسم « العقيدة الحسنة » (بالفارسية) فى مطبع « مفيد عام » بآكره ، وقام الأستاذ الفاضل الشيخ محمد أويس الندوى - عليه رحمة الله - شيخ التفسير بدار العلوم ندوة العلماء - سابقاً - بترتيبه مع تعليقاته وحواشيه (التى اقتبس أكثرها من المؤلفات الأخرى للإمام الدهلوى) باسم « العقيدة السنية » وطبع بمقدمة مؤلف هذا الكتاب فى مطبع دار العلوم ندوة العلماء عام ١٣٨٢ هـ الموافق عام ١٩٦٢ م وقد جاءت خلاصة هذا الكتاب فى كتاب المؤلف «العقيدة والعبادة والسلوك » ، يوجد بحث العقيدة الحسنة كله فى « التفهيمات » للإمام الدهلوى، ولعل أفرد منه ونشر فى رسالة مستقلة (انظر « التفهيمات الإلهية » ، جـ : ١ ، صـ: ١٤٤ - ١٤٨) .

(٣٢) كان الإمام الدهلوى أسمى هذه الرسالة بـ « المرآة الوضيئة فى النصيحة والوصية » وقد نشرت ضمن مجموعة رسائله الأخرى .

ويقدر منهج الإمام الدهلوى فى باب الأسماء والصفات ومسلكه فيها بهذه القطعة التى نقدمها فيما يلى :

« اعلم أن الحق - تعالى - أجل من أن يقاس بمعقول أو محسوس أو يخل فيه صفات كحلول الأعراض فى محالها ، أو تعالجه العقول العامية أو تتناوله الألفاظ العرفية ، ولا بد من تعريفه إلى الناس ليكملوا كمالهم الممكن لهم ، فوجب أن تستعمل الصفات بمعنى وجود غاياتها لا بمعنى وجود مباديها ، فمعنى الرحمة إفاضة النعم لا انعطاف القلب والرقة، وأن تستعار ألفاظ تدل على تسخير الملك لمدينته ، لتسخيره لجميع الموجودات إذ لا عبارة فى هذا المعنى أفصح من هذه ، وأن تستعمل تشبيهات بشرط أن لا يقصد إلى أنفسها بل إلى معان مناسبة لها فى العرف . . . وقد أمعت الملل السماوية قاطبة على بيان الصفات على هذا الوجه ، وعلى أن تستعمل تلك العبارات على وجهها ولا يبحث عنها أكثر من استعمالها وعلى هذا مضت القرون المشهود لها بالخير ، ثم خاض طائفة من المسلمين فى البحث عنها وتحقيق معانيها من غير نص ولا برهان قاطع » (٣٣) .

لقد كان العالم الإسلامى من قرون لا سيما تلك البلدان التى كانت تحت تأثير إيران علمياً وعقلياً ودراسياً ، يسود فيها تلك التدقيقات الكلامية وشق الشعرة والتأويلات البعيدة- التى تنجر إلى أن يصبح الذات الإلهية معطلة وبدون معنى ووصف - والاندهاش والتهيّب بالفلسفة اليونانية الذى بلغ حد العبودية العقلية ، وحد الاستخفاف والاستهانة فيما يتعلق بمسلك السلف ومنهجهم ، فكان من أنصف منهم - فى زعمه - وأخذ بالاحتياط ، قال : « مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أعلم » ، لقد كانت هذه الخدمة العلمية والجراءة من الإمام الدهلوى نظراً إلى هذه الخلفية العلمية والتاريخية ، إحدى مآثره وأعماله التجديدية الاجتهادية .

وقد كان هذا التأييد والانتصار لمنهج السلف فى باب الأسماء والصفات وعدم الانسجام مع الفلاسفة المتكلمين (الذين أبعدوا النجعة فى التأويلات ويخيل - بعض الأحيان - أن أقوالهم تصل إلى حدود التعطيل فى الصفات) وحبه واجلاله للحديث والسنة المشرفة ، حافزاً للإمام الدهلوى على الدفاع عن الإمام ابن تيمية والاعتراف بجلالة شأنه وعلو مكانه، فقد كانت شخصيته فى القرون الأخيرة تدور حولها مناقشات وخلافات حادة ، بل كانت تستهدف للشبهات والمطاعن ، لقد أثنى عليه الإمام الدهلوى ثناءً عاطراً ودافع عنه فى

---

(٣٣) حجة الله البالغة ، ـ : ١ ، صـ : ٦٣ . باب الإيمان بصفات الله .

حماس ، يقول فى « التفهيمات الإلهية » :

« وليس شىء منها إلا ومعه دليله من الكتاب والسنة ، وآثار السلف ، فمثل هذا الشيخ عزيز الوجود فى العالم ، ومن يطيق أن يلحق شأوه فى تحريره وتقريره ؟ ، والذين ضيقوا عليه ما بلغوا معشار ما آتاه الله - تعالى - »(٣٤) .

* * *

(٣٤) « جلاء العينين » صـ : ٤٦ ، نقلا عن « التـفهيمات الإلهية » وللإمـام الدهلوى رسالة مطبوعة مستقلة باسم « مناقب الإمام ابن تيمية » وهى رسالة وجهها إلى أحد اصحابه .

الباب السادس

القيام بنشر الحديث الشريف والسنة المشرفة والفقه والجهود فى سبيله

أهمية الحديث الشريف والحاجة إليه فى كل عصر ومصر :

لقد قام الإمام الدهلوى فى شبه القارة الهندية وفى عهدها الأخير - حقيقة - (الذى يمتد من أواسط القرن الثانى عشر الهجرى إلى هذا الحين) بمأثرة عظيمة ، وهى القيام بنشر الحديث النبوى الشريف وترويجه وإحياء دروس الحديث والعناية بهذا الفن الجليل ، ومؤلفاته فى هذا الموضوع تمتاز بالدقة والاجتهاد والتحقيق ، وتعتبر فصلاً مضيئاً مهما فى صحيفة تجديده وكتاب حياته والتى غلبت على فضائله ومجالاته العلمية وخدماته الدينية الأخرى حتى غدا « المحدث الدهلوى » جزءاً من اسمه ، وعنواناً لتعريفه ووصفه ، وجرى على ألسنة الناس وأقلامهم « الإمام ولى الله المحدث الدهلوى » وأصبح ذلك علمه المعرف الكامل .

ولكن قبل أن نتعرض لتاريخ هذه المأثرة الجليلة وبيانها - بتفصيل - يلزمنا لإدراك جلالة هذا العمل وخطورته أن نعلم مكانة الحديث الشريف فى نظام الدين وإطار الشريعة الإسلامية ، والجهود المبذولة للحفاظ على الإسلام فى صورته الصحيحة ، وتكوين المناخ والبيئة الإسلامية والحفاظ عليها ، ولماذا يجب القيام بنشره وصيانته فى كل عصر وكل بلد (يعيش فيه المسلمون) وما يحمل الغفلة عنه والجهل به أو إنكاره من أخطار وما يحتوى عليه من مضار ، وما هو الفراغ الهائل الذى يحدثه انقراض هذا العلم أو تجاهله والتغافل عنه فى أى بلد أو فى أى عصر ، والذى لا يملأ بشىء آخر ، سوف يقدم المؤلف - لتوضيح هذه النقاط - مقتبات من رسالة له نفسه ، حاول فيها عرض هذه الحقيقة وإثباتها بوضوح وبشىء من التفصيل (١) :

---

(١) نشرت هذه الرسالة باسم « دور الحديث فى تكوين المناخ الإسلامى وصيانته » وهو فى الحقيقة مقال كان المؤلف قد أعده لافتتاح دورة المحاضرات لرابطة العالم الإسلامى فى موسمها الثقافى= =

« إن الحديث ميزان عادل يستطيع المصلحون فى كل عصر أن يزنوا فيه أعمال هذه الأمة واتجاهاتها ، ويعرفوا الانحراف الواقع فى سير هذه الأمة ، ولا يتأتى الاعتدال الكامل فى الأخلاق والأعمال إلاّ بالجمع بين القرآن وبين الحديث الذى هو يملأ هذا الفراغ الذى وقع بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وهذه الفجوة لا بد منها فى السنن الإلهية ، **﴿وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل﴾** [٢] ، **﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾** [٣] ، «فلولا الحديث الذى يمثل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتزنة ، ولولا التوجيهات النبوية الحكيمة ، ولولا هذه الأحكام التى أخذ بها الرسول المجتمع الإسلامى ، لوقعت هذه الأمة فى إفراط وتفريط ، واختل الاتزان ، وفقد المثال العملى الذى حث الله على الاقتداء به بقوله : **﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة﴾** [٤] وهو الذى يحتاج إليه الإنسان ويستمدّ منه الثقة والقوة فى الحياة ويقتنع بأن تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسور وواقع .

« ثم إن الحديث زاخر بالحياة والقوة والتأثير الذى لم يزل يبعث على الإصلاح والتجديد، ولم يزل باعثاً على محاربة الفساد والبدع ، وحِسبة المجتمع ، ولم يزل يظهر بتأثيره فى كل عصر وبلد ، من رفع راية الإصلاح والتجديد ، وحارب البدع والخرافات ، والعادات الجاهلية ، ودعا إلى الدين الخالص والإسلام الصحيح لذلك كله كان الحديث من حاجات هذه الأمة الأساسية ، وكان لا بد من تقييده ، وتسجيله وحفظه ونشره .

وقد ظلت كتب السنة والحديث - ولا تزال - مصدراً من مصادر الإصلاح والتجديد ، والتفكير الإسلامى الصحيح فى الأمة الإسلامية ، تلقى منه المصلحون فى عصورهم العلم الدينى الصحيح ، والفكر الإسلامى النقى ، واحتجوا بأحاديثه ، واستندوا إليها فى دعوتهم إلى الدين والإصلاح ، وفى محاربتهم للبدع والفتن والفساد ، ولا يستغنى عن هذا المصدر كل من يريد إرجاع المسلمين فى عصره إلى الدين الخالص ، والإسلام الكامل، ويريد أن يوجد صلة بينهم وبين الحياة النبوية ، والأسوة الكاملة ، وكل من تلجئه الحاجة

= بمكة المكرمة عام ١٤٠١ هـ وقد قرىء هذا البحث فى ١٦ من ذى القعدة عام ١٤٠١ هـ (الموافق ١٣ سبتمبر عام ١٩٨١ م) بمكة المكرمة أمام لفيف من العلماء والمثقفين ، ونشرت هى وترجمتها بالأردية والإنكليزية من « المجمع الإسلامى العلمى» - لكهنئو - الهند .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٤ .

(٣) سورة الزمر ، الآية : ٣٠ .

(٤) سورة الأحزاب ، الآية : ٢١ .

وتطورات العصر إلى استنباط الأحكام الجديدة .

شهادة التاريخ لتأثير الحديث وكتب السنة فى الأصلاح والتجديد :

ويشهد بهذه الحقيقة تاريخ الإسلام والمسلمين نفسه ، فكلما ضعفت صلتهم بكتب الحديث والسنة ومعرفتهم بها ، على كثرة وجود الدعاة إلى الله ، والمشتغلين بتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق ، والزهد فى الدنيا والعمل بالسنة ، وطالت هذه الفترة ، غزت المجتمع الإسلامى - الزاخر بأصحاب الاختصاص فى العلوم الإسلامية ، المتبحرين فى العلوم الحكمية والأدبية ، وفى عهد غلبة الإسلام وحكم المسلمين - بدع طريفة وتقاليد عجمية ، وأعراف دخيلة ، حتى يكاد يكون نسخة من مجتمع جاهلى ، وصدقت النبوة المحمدية والحديث الصحيح : « لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع [٥] » ، وخفت صوت الإصلاح وخبا مصباح العلم .

ومن شاء فليستعرض الوضع الدينى وواقع حياة المسلمين فى القرن العاشر الهجرى فى الهند ، القرن الذى كادت صلة الأوساط الدينية والعلمية فى شبه القارة الهندية تنقطع عن علم الحديث الشريف ومصادر السنة الصحيحة ، وكانت تعيش فى عزلة عن مراكز العلم الدينى ، وتدريس الحديث الشريف ، (كالحجاز ، واليمن ، ومصر ، والشام) وأصبحت مقتصرة على كتب المذهب وشروحها وتدقيقاتها وكتب الأصول والحكمة ، كيف فشت فيها البدع وعمَّت المنكرات ، واستحدثت أشكال متنوعة للعبادات والقربات » [٦] .

وقد قال مؤلف هذه السطور فى الجزء الثالث من « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام »، وهو يتحدث عن كتاب « جواهر خمسة » لأحد المشائخ المعروفين فى القرن العاشر الهجرى، الشيخ محمد غوث الكواليارى ، ما يلى :

« لقد كانت الهند لا تعرف شيئاً عن الصحاح الستة ومؤلفيها ، وأئمة هذا الفن ، الذين نقدوا علم الحديث ونخلوه وميزوا بين صحيحها وسقيمها وقاوموا البدع والمحدثات وأثبتوا أن حياة المسلمين يجب أن تقوم على أساس السنة المطهرة ، وفى ضوء الأحاديث الصحيحة، ونستثنى من ذلك ولاية كجرات التى انتشر فيها علم الحديث لنزول العلماء العرب بها ، وكثرة الرحلات فيها إلى الحرمين الشريفين ، ونبغ فيها العلامة على المتقى

---

(٥) رواه الحاكم .

(٦) « دور الحديث فى تكوين المناخ الإسلامى وصيانته » ، صـ : ٢٦ - ٣٠ .

البرهان بورى وتلميذه النجيب المعروف العلامة محمد طاهر الفتنى (فى القرن العاشر الهجرى) .

ويمكن الاطلاع على هذا التأثير الذى خلفته الفلسفات ، والتجارب المحلية فى الهند على التصوف من خلال كتاب « جواهر خمسة » للشيخ محمد غوث الكواليارى الذى ذاع صيته فى عصره ، وحصل له القبول العظيم عند الناس ، والكتاب يشتمل على أقوال الصوفية ، وتجارب الشيخ الكواليارى الشخصية ، ويخيل إلينا أنهم لم يروا حاجة إلى ثبوت هذه الأمور بالأحاديث الصحيحة ، واقتباسها من كتب السيرة النبوية المعتبرة ، فتجد فى هذا الكتاب المذكور - آنفاً - « صلاة الأحزاب » و « صلاة العاشقين » و « صلاة تنوير القبر » والصلوات المخصوصة بالأشهر المختلفة والأدعية الخاصة بها التى لا أصل لها فى السنة ، ولا أثر لها فى الحديث » (٧) .

ولم تكن هذه خصيصة « جواهر خمسة » فحسب ، بل تتوفر أمثلة ذلك فى مجاميع أقوال أمثال هؤلاء الصوفية غير المعتبرة ، فقد كانت سجدة التحية للمشائخ شائعة ، واتخذت القبور مساجد علناً وجهاراً ، فكانت توقد عليها السراج ، وتفرش عليها الأردية ، وتعظم أطرافها وحواليها كتعظيم الحرم ، ويحتفل بها باسم « العرس (الاحتفال الدينى) وقراءة الفاتحة » وتكثر فيها النساء ، وكانت « الصلاة الغوثية » و « الصلاة المعكوسة » والنذر لغير الله - تعالى - باسم الأولياء الصلحاء والذبح لابتغاء مرضاتهم، والصوم باسم غير الله ، وأمثال هذه من البدع الكثيرة (التى كانت تصل حدودها إلى الشرك) كانت شائعة فى الناس يقبل عليها الخاصة منهم والعامة ، وكانت تعقد احتفالات إحياء أيام الولادة والوفاة للأولياء والصالحين ، ويحتفل بمهرجانات وأعياد .

ولولم تكن كتب الحديث فى متناول أيدى العلماء المسلمين ، ولم تتيسر لهم هذه الوسيلة المعتبرة السهلة للتفريق والتمييز بين البدع والسنن ، لما كانت هذه السلسلة من عهد شيخ الإسلام ابن تيمية (م ٧٢٨ هـ) إلى عهد الإمام الدهلوى (م ١١٧٦ هـ) للعلماء المصلحين والدعاة إلى الدين الخالص ، ولم يظهر المصلحون والمجددون حملة راية التجديد والإصلاح وتصحيح العقائد ، وإزالة التقاليد الجاهلية .

اقرأ تراجم علماء أفغانستان (كابل وهرات وغزنين) فى القرنين العاشر والحادى عشر ، والق نظرة على كتبهم ومؤلفاتهم ، قلما تجد عليها مسحة الدفاع عن السنة والرد على البدعة والتحقيق والتنقيح فى المسائل ، وإذا بشخصية العلامة على بن سلطان بن محمد

---

(٧) انظر « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » جـ : ٣ ، صـ : ٢١٨ .

الهروى (م ١٠١٤ هـ) المعروف بملاّ على القارى ، تظهر على الساحة ، الذى سافر إلى الحجاز وقرأ على كبار أساتذتها ومحدثيها الأجلة كتب الحديث ونبغ فيها ، وتتجلى هذه المسحة الظاهرة فى شروحه لكتب الفقه والحديث وترجيحه للمسائل ورده - بصراحة ووضوح - على بدع عصره ومحدثاته ، وقد أدت به دراسته وبحثه وقوله بالحق وإنصافه إلى أنه دافع عن شيخ الإسلام ابن تيمية وشهد بأنه كان من أكابر أهل السنة والجماعة وأولياء الأمة (٨) .

وقد كانت هذه الحال فى عدد من البلدان العربية كالعراق والشام ومصر وتونس والجزائر ومراكش (٩) .

علم الحديث والعرب :

إن من حقائق فلسفة التاريخ الإسلامى أن البلاد التى كان العرب حملة الإسلام إليها ، وإليهم يرجع الفضل فى انتشاره فيها ، انتشر فيها علم الحديث الشريف مع انتشار الإسلام وازدهر ، إذ أنه كانت هنالك صلة قوية ومناسبة خاصة بين هذا العلم وطبيعة العرب وقوة حفظهم وحياتهم العملية وواقعيتهم وصلتهم العميقة بذات النبى ﷺ فحيثما حلوا وساروا حملوا معهم علم الحديث ، وظهرت العناية به فى عهد سيادتهم وتأثيرهم ونفوذهم فى قوة ووضوح ، وكانت حركة تدريسه والتصنيف والتأليف فى مختلف جوانبه قائمة على قدم وساق لقد كان هذا حال اليمن وحضرموت ومصر والشام والعراق ، وشمال أفريقيا والأندلس ، وولاية كجرات فى الهند نفسها ، وهو مثال ودليلٌ على ما ذكرناه فى صلة العرب بالحديث ، فقد أنتجت كجرات أمثال الشيخ على المتقى البرهانبورى مؤلف « كنز العمال » (م ٩٧٥ هـ) والعلامة محمد طاهر الفتنى صاحب « مجمع بحار الأنوار » (م ٩٨٦ هـ) من المحدثين الأجلة الكبار ، وذلك كما سبق لأن صلة كجرات بالحجاز كانت أقوى وأكثر بالنسبة إلى سائر الولايات الهندية ، وكان العلماء العرب - دائماً - يؤمونها ويترددون إليها .

أما البلاد التى انتشر فيها الإسلام بأيدى العجم ، فليس شأنها فى هذا الأمر كذلك ، فقد حكمت فى الهند أسر تركية الأصل أو أفغانية الأصل ، وقام فيها بنشر الإسلام وتبليغه والدعوة إليه أولئك المشائخ والعلماء الدعاة الذين كانوا معظمهم من أصول عجمية أو من

---

(٨) انظر « المرقاة » شرح المشكاة ، جـ : ٤ ، صـ : ٢٧ .

(٩) انظر رسالة المؤلف (دور الحديث فى تكوين المناخ الإسلامى وصيانته) .

أبناء البلاد العجمية ، لا سيما إيران وتركستان ، ثم لما جاء عهد التدريس وإنشاء المدارس وترتيب المناهج الدراسية فى الهند ، كانت هى قد تأثرت - كلياً - بالفضلاء العجم و«حكماء إيران » وطبعت بطابعهم ، وقد قدمنا فى الباب الأول أن إيران التى أنجبت أساطين الحديث لما قامت فيها الحكومة الصفوية ، وأعلنت المذهب الشيعى مذهبها الرسمى فيها (وقد وقع ذلك فى بداية القرن العاشر الهجرى) انقطعت صلتها بالحديث الشريف لذلك لم يكن فى الهند - بعد النفوذ الإيرانى الثقافى - مجال للشعور بأهمية الحديث وجلالة خطره وعظمته ، والمسابقة فى القيام بنشره ، بل بالعكس من ذلك كلما كان تأثير إيران يتضاعف على الأوساط العلمية فى الهند ، تزداد معها قلة العناية واللامبالاة بالحديث الشريف ، وقد بلغ ذلك فى عهد الإمام الدهلوى أوجه وقمته .

ازدهار علم الحديث وانحطاطه فى الهند :

نقدم هنا - لاستعراض تاريخ الازدهار والانحطاط الذى مر به علم الحديث فى الهند باختصار ، مقتطفات من كتاب العلامة عبد الحى الحسنى - رحمه الله - « الثقافة الإسلامية فى الهند » ، وقد جاءت فيها عصارة الدراسة لمئات الصفحات وخلاصة هذا الموضوع : يقول المؤلّف :

« ولما انقرضت دولة العرب من بلاد السند ، وتغلبت عليها الملوك الغزنوية والغورية ، وتتابع الناس من خرسان وما وراء النهر صار الحديث فيها غريباً كالكبريت الأحمر ، وعديماً كعنقاء المغرب ، وغلب على الناس الشعر والنجوم والفنون الرياضية ، وفى العلوم الدينية الفقه والأصول ، ومضت على ذلك قرون متطاولة حتى صارت صناعة أهل الهند حكمة اليونان ، والإضراب عن علوم السنة والقرآن ، إلاّ ما يذكر فى الفقه على القلة ، وكان قصارى نظرهم فى الحديث فى مشارق الأنوار للصغانى ، فإنه ترقّع أحد إلى مصابيح السنة للبغوى أو إلى مشكاة المصابيح ظن أنه وصل إلى درجة المحدثين ، وما ذلك إلاّ لجهلهم بالحديث ، ولذلك تراهم لا يذكرون هذا العلم ، ولا يقرءونه ولا يحثون عليه . ولا يجذبون إليه ولا يعرفون كتبه ولا يعلمون أهله ، والقليل منهم كانوايقرءون المشكاة لا غير ، وهذا على طريقة البركة لا للعمل به ، والفهم له ، وعمدة بضاعته من الفقه على طريقة التقليد دون التحقيق إلاّ ما شاء الله تعالى فى أفراد منهم ، ولذلك كثرت فيهم الفتاوى والروايات وتركت النصوص المحكمات ، ورفض عرض الفقه على الحديث وتطبيق المجتهدات بالسنن المأثورة عن النبى المعصوم المأمون ﷺ .

حتى منّ الله - تعالى - على الهند بإفاضة هذا العلم ، فورد به بعض العلماء فى القرن

العاشر ، كالشيخ عبد المعطى بن الحسن بن عبد الله باكثير المكى المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٨٩ هـ والشيخ الشهاب أحمد بن بدر الدين المصرى المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٩٢ هـ ، والشيخ محمد بن أحمد بن على الفاكهى الحنبلى المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٩٢ هـ ، والشيخ محمد بن محمد عبد الرحمن المالكى المصرى المتوفى بأحمد اباد سنة ٩١٩ هـ ، والشيخ رفيع الدين الجشتى الشيرازى المتوفى بأكبر آباد سنة ٩٥٤ هـ ، والشيخ إبراهيم بن أحمد بن الحسن البغدادى ، والشيخ ضياء الدين المدنى المدفون بكاكورى ، والشيخ بهلول البدخشى، والخواجه ميركلان الهروى المتوفى بأكبر آباد سنة ٩٨١ هـ ، وخلق آخرون .

ثم وفق الله سبحانه وتعالى بعض العلماء من أهل الهند أن رحلوا إلى الحرمين الشريفين، وأخذوا الحديث وجاءوا به فى الهند ، وانتفع بهم خلق كثير . كالشيخ عبد الله بن سعد الله السندى ، والشيخ رحمة الله بن عبد الله بن إبراهيم السندى المهاجرين إلى الحجاز ، فإنهما قدما الهند ودرسا بكجرات مدة طويلة ثم رجعا إلى الحجاز ، والشيخ يعقوب بن الحسن الكشميرى المتوفى سنة ١٠٠٣ هـ ، والشيخ جوهر الكشميرى المتوفى سنة ١٠٢٦ هـ ، والشيخ عبد النبى بن أحمد الكنكوهى ، والشيخ عبد الله بن شمس الدين السلطانبورى ، والشيخ قطب الدين العباسى الكجراتى ، والشيخ أحمد بن إسمعيل المندوى ، والشيخ راجح بن داؤد الكجراتى ، والشيخ عليم الدين المندوى ، والشيخ المعمر إبراهيم بن داؤد المنكورى المدفون بأكبر آباد ،والشيخ محمد بن طاهر بن على الفتنى صاحب « مجمع البحار » والسيد عبد الأول بن على بن العلاء الحسينى وغيرهم »[١٠] .

ويزيد مؤلف « الثقافة الإسلامية فى الهند » قائلاً :

مأثرة الشيخ عبد الحق الدهلوى :

« ثم جاء الله سبحانه وتعالى بالشيخ عبد الحق بن سيف الدين البخارى الدهلوى المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ ، وهو أول من أفاضه على سكان الهند ، وتصدى للدرس والإفادة بدار الملك دهلى ، وقصر همته على ذلك وصنف وخرّج ونشر هذا العلم على ساق الجد ، فنفع الله به وبعلومه كثيراً من عباده المؤمنين ، حتى قيل أنه أول من جاء بالحديث بالهند ، وذلك غلط كما علمت .

ثم تصدى له ولده الشيخ نور الحق المتوفى سنة ١٠٧٣ هـ وكذلك بعض تلامذته

---

(١٠) ص : ١٣٥ - ١٣٧ .

وأولاده كشيخ الإسلام شارح البخارى ، وولده سلام الله صاحب « المحلى » و «الكمالين»(١١) .

وقد أصاب البروفيسور خليق أحمد نظامى فى قوله :

« وعلى كل فإن العهد الذى بدأ فيه الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى دروسه فى الحديث الشريف ، كان قد طُوِىَ - إذ ذاك - بساط هذا العلم الشريف فى شمالى الهند ، وإنه قد أشعل فى هذا الوسط المظلم الضيق شمعة جذبت إليها الناس من أنحاء نائية بعيدة، فالتفوا حولها وتهافتوا عليها تهافت الفراش على النور وبدأ نشاط جديد ، لدروس الحديث الشريف فى شمالى الهند ، وانتقل بذلك مركز العلوم الدينية لا سيما الحديث الشريف من كجرات إلى دلهى (١٢) .

الحاجة إلى مجدد :

لقد صرفت العناية إلى الحديث الشريف بإخلاص الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى وصدقه وجهوده المباركة ، وقد أثار رغبة قوية وحركة جديدة إلى مطالعته ودراسته وتدريسه، وشرحه وتحشيته ، وكان من المتوقع أن أخلافه وأفراد أسرته ، - الذين كانوا بدورهم محدثين ومدرسين ومؤلفين - يستمرون بهذه الجهود حتى يأخذ هذا الفن الشريف مكانه اللائق فى الأنظمة التعليمية ، والمناهج والمقررات الدراسية والنشاطات العلمية والتأليفية ، وقد كان ابنه الفاضل العلامة المفتى نور الحق الدهلوى (م ١٠٧٣ هـ) الذى شرح صحيح البخارى فى ستة مجلدات ، وله شرح أيضاً على « شمائل الترمذى » ، يستطيع أن يقوم بتكميل تلك الجهود والأعمال التى بدأ بها والده ، ولكن لعله لم يتمكن كثيراً بسبب توليه منصب القضاء فى مدينة مركزية كأكبر آباد (آكره حالياً) من القيام بتدريس الحديث الشريف ونشره ، وكان ابنه الشيخ شيخ الإسلام الدهلوى أيضاً من كبار المحدثين وله شرح مبسوط لصحيح البخارى بالفارسية .

والحقيقة أنه لأسباب معلومة وأسباب أخرى غير معلومة ، لم تستطع جهود هؤلاء المشائخ الفردية أن تحدث ما كان متوقعاً من الإقبال العام على الحديث الشريف والاهتمام اللائق به ، والنشاط والحيوية فى نشره وتدريسه وتعميمه ، ولعل من بعض العوامل لذلك أن هؤلاء كانت تغلب عليهم نزعة تأييد المذهب الحنفى بالحديث الشريف ، والسبب الثانى

---

(١١) « الثقافة الإسلامية فى الهند » ، صـ : ١٣٧ (الطبعة الثامنة مجمع اللغة العربية دمشق) .

(١٢) حياة الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى ، صـ : ٤٣ .

أن مركز التعليم والثقافة من أواسط القرن الثانى عشر نفسه بدأ ينتقل من دلهى إلى لكهنئو، وبدأ منهج دراسى جديد (على أيدى أستاذ العلماء الشيخ نظام الدين السهالوى (م ١١٦١هـ) المباركة القوية) فى التكوين ، ولم تكن قد قامت صلة هؤلاء الواضعين والمكونين لهذا المنهج الدراسى الجديد العلمية والثقافية بالحرمين الشريفين ، والأماكن التى كانت مركزاً لدراسة الحديث الشريف وتدريسه وخدمته نشره ، وكانت تغلب عليهم (كما يتضح ذلك من تاريخ « المنهج النظامى » وكتب التراجم والطبقات) العلومُ الحكمية ومن العلوم الدينية علُم أصول الفقه .

وعلى كل فإن الأوساط العلمية والدينية فى الهند كانت فى حاجة وانتظار لتلك الشخصية التى تكون صلتها بالحديث صلة الحب والغرام ، والتى جعلت نشر الحديث الشريف وتعميمه أول أهدافها ومقاصدها فى الحياة ، لقد وجدت الهند هذه الشخصية فى أواسط القرن الثانى عشر الهجرى فى شخص الإمام ولى الله الدهلوى الذى طبق بمعنى اللفظ هذا الشعر الفارسى الذى معناه :

« لقد نيسنا كل ما قرأنا وتركناه إلاّ حديث الحبيب الذى لا نملٌّ من ترداده وتكراره » .

لقد ذكر مؤلف « الثقافة الإسلامية فى الهند » بعد ذكره لأولئك الذين أسهموا فى أوائل القرن الحادى عشر فى خدمة الحديث ونشره فى الهند ، خدمة الإمام الدهلوى للحديث ، التى تمتاز ليس فى هذه البلاد فحسب بل فى هذا العهد الأخير بمكانتها التجديدية والاجتهادية وصبغتها فى الإصلاح والإحياء ، والتى أدت إلى سيادة الحديث وازدهاره فى هذه البلاد ، فأصبح جزءاً ضرورياً من المقررات الدراسية ، ومقياساً للفضيلة والكمال ، وقامت حلقات مستقلة لدروس الحديث الشريف ، وعم تدريس الصحاح الستة لا سيما الكتب الأربعة منها: صحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، وسنن أبى داؤد ، وسنن الترمذى ، بالبحث والتحقيق فى المدارس (الأمر الذى لا يوجد الآن فى البلدان العربية نفسها) وبدأ عهد جديد لشروح كتب الحديث والتعليقات عليها حتى لم تلبث أن تكونت منها مكتبة ضخمة كبيرة لا يوجد مثيلها فى البلاد العربية نفسها (١٣) ، وترجمت كتب

(١٣) إن الجماعة الكبيرة لأساتذة الحديث وشراحه ومؤلفيه التى ظهرت فى الهند بتأثير دعوة الإمام الدهلوى وحركته وتعليمه وتربيته ، وما أنتجت من مكتبة عظيمة واسعة فى الحديث وعلومه ، يلزم لتقدير سعتها وتنوعها مراجعة كتاب العلامة عبد الحى الحسنى « الثقافة الإسلامية فى الهند» الفصل الرابع من الباب الثانى بعنوان « مصنفات أهل الهند فى الحديث » ، صـ : ١٤٢ - ١٦٠.

الحديث ، التى استفاد منها عامة المسلمين والذين لا يعرفون العربية وكذلك السيدات المسلمات استفادة عظيمة ، وكان ذلك دافعاً إلى الجد والعمل ، شائقاً لاتباع السنة والاهتمام بها ومرغباً فى الأسانيد وإجازات الحديث ، وأصبحت الهند مركزاً لهذا العلم الشريف حتى صدرت من قلم عالم مصرى جليل كالعلامة السيد رشيد رضا منشىء مجلة «المنار» الغراء ، هذه الكلمات التالية :

« ولولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث فى هذا العصر ، لقُضِيَ عليها بالزوال من أمصار الشرق ، فقد ضعفت فى مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة ، حتى بلغت منتهى الضعف فى أوائل القرن الرابع عشر (١٤) .

مشاعر الإمام الدهلوى وآراؤه فى الحديث :

ما هى تلك العاطفة القوية التى دفعت الإمام الدهلوى إلى الاشتغال بالحديث ثم بالنشاط فى نشره والدعوة إليه ، ونذر حياته وصلاحياته له ، ينبغى لمعرفتها وإدراكها الرجوع إلى كتابات الإمام الدهلوى نفسه إذ أنها المرآة الصحيحة الوضيئة لآرائه وخواطره ، يقول فى الصفحة الأولى من مقدمته لـ « حجة الله البالغة » :

« إن عمدة العلوم اليقينية ورأسها ،ومبنى الفنون الدينية وأساسها هو علم الحديث الذى يذكر فيه ما صدر من أفضل المرسلين ﷺ وأصحابه أجمعين، من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، فهى مصابيح الدجى ومعالم الهدى ، وبمنزلة البدر المنير ، من انقاد لها ووعى ، فقد رشد واهتدى وأوتى الخير الكثير ، ومن أعرض وتولى فقد غوى وهوى ، وما زاد نفسه إلاّ التخسير ، فإنه ﷺ نهى وأمر وأنذر وبشر وضرب الأمثال وذكر ، وإنها لمثل القرآن أو أكثر » (١٥) .

ويقول فى موضع من بعض كتاباته :

« إن أول شىء يوجبه العقل على نفسه ، هو تتبُّع أحوال النبى ﷺ وأقواله ، ماذا قال فيما يتعلق بالأحكام الإلهية وكيف عمل بها ، ثم يقتدى بهذه الأقوال والأحوال بالقلب والقالب ، فإن حديثنا عن شخص قد سلم بأن الله – تعالى – قد كلف عباده بأحكامه ، وقد عزم هو على أداء مسئوليته الناشئة من هذا التكليف الشرعى » (١٦) .

---

(١٤) مقدمة « مفتاح كنوز السنة » .

(١٥) مقدمة « حجة الله البالغة » ، صـ : ٢ .

(١٦) كلمات طيبات ، صـ : ١٧٣ .

شكوى قلة العناية بالحديث الشريف فى الهند :

لقد كان الدافع الثانى للإمام الدهلوى إلى إحياء الحديث ونشره وترويجه فى الهند ، هو ذلك الوضع السائد فى الهند الذى تقدم الحديث عنه فى الباب الثانى من الكتاب ، لقد كان يغشى الأوساط الدينية حينذاك ضباب كثيف من البدع وتقاليد الجاهلية ، وطقوس غير المسلمين وتقليدهم فيها والشعائر غير الإسلامية ، التى كان من العسير من خلالها رؤية طلعة الإسلام البهية ، وكانت تسود فى الأوساط العلمية والدراسية تلك العلوم المستوردة من اليونان التى كانوا يسمونها « فنون الحكمة » والعلوم الآلية ، وفنون البلاغة وعلم الكلام ولم يكن للعلوم الشرعية لا سيما علم الحديث الشريف نصيب لائق فى هذه الأوساط العلمية والدراسية ، وإذا صرف شىء من العناية إلى العلوم الشرعية فلم يكن الأمر يتعدى حدود الفقه وأصول الفقه ودقائقها وشق الشعرة فيهما ، يقول الإمام الدهلوى - وهو يشاهد هذا الوضع - فى أسف شديد وحزن بالغ :

« وأقول لطلبة العلم ، أيها السفهاء المسمون أنفسكم بالعلماء اشتغلتم بعلوم اليونانيين وبالصرف والنحو والمعانى ، وظننتم أن هذا هو العلم ، إنما العلم آية محكمة من كتاب الله، أن تتعلموها بتفسير غريبها وسبب نزولها وتأويل معضلها ، أو سنة قائمة من رسول الله ﷺ أن تحفظوا كيف صلى النبى ﷺ وكيف توضأ ، وكيف كان يذهب لحاجته وكيف يصوم ، وكيف يحج وكيف يجاهد ، وكيف كان كلامه وحفظه للسانه ، وكيف كانت أخلاقه ، فاتبعوا هديه واعملوا بسنته على أنه هدى وسنة ، ولا على أنه فرض ومكتوب عليكم ، أو فريضة عادلة ، أن تتعلموا ما هى أركان الوضوء ، وما هى أركان الصلاة ، ما نصاب الزكاة ، وما قدر الواجب ، وما سهام فرائض الميت ، أما السير وما يرغب فى الآخرة من حكايات الصحابة والتابعين فهو فضل ، وأما ما اشتغلتم به وما يهتم به فليس من علوم الآخرة إنما هى من علوم الدنيا ، خضتم كل الخوض فى استحسانات الفقهاء من قبلكم وتفريعاتهم ، أما تعرفون أن الحكم ما حكمه الله ورسوله ، ورب إنسان منكم يبلغه حديث من أحاديث نبيكم فلا يعمل به ، ويقول إنما عملى على مذهب فلان لا على الحديث ، ثم تخيل بأن فهم الحديث والقضاء به من شأن الكمل المهرة ، وأن الأئمة لم يكونوا ممن يخفى عليهم هذا الحديث ، فما تركوه إلاّ لوجه ظهر لهم فى الدين من نسخ أو مرجوحية .

اعلموا أنه ليس هذا من الدين فى شىء إن آمنتم بنبيكم فاتبعوه ، خالف مذهبنا أو

وافقه ، كـان مرضى الحق أن تشتغـلوا بكتاب الله وسنة رسوله ابتداءاً ، فـإن سهل عليكم العمل بهما . فبها ونعمت ، وإن قصـرت أفهامكم فاستعينوا برأى من مضى من العلماء . ما تروه أحق وأصرح وأوفق بالسنة ، وأن لا تشتغلوا بالعلوم الآلية إلا بأنها آلة لا بأنها أمور مسـتـقلة ، أما أوجب الله عليكم أن تشـيعـوا العلم حـتى يظهر شـعائر الإِسـلام فى بلاد المسلمين ، فلم تظهروا الشعائر وأمرتم الناس أن يشـتغلوا بالزوائد ، واستكثرتم فى أعينهم طلب الحق والدين ، أمـا ترون البلاد العظام تخلو عن العلمـاء وإن كانوا فـهم دون ظهور الشعائر [(١٧)] .

وإن حـال الإِمام الدهلوى عنـد اللهج بذكر الحـديث من سـرور ولذة غامـرة ، وحب وإجـلال لأئمة الحـديث ، يمكن أن ترى بعض نماذجـه فى رسـالتـه التى كتـبـها إلى أحـد مسترشديه فى مناقب الإِمام البخارى - رحمه الله - [(١٨)] .

نشاط الإِمام الدهلوى فى خدمة الحديث الشريف ونشره :

تقدم - فيـما سبق - أن الإِمام الدهلوى لما ذهب يودع أستـاذه الشيخ أبا طاهر المدنى ، أنشده شيخه هذا البيت من الشعر :

نسيت كل طريق كنت أعرفه ... إلاَّ طريقاً يؤدّينى لربعكم

فقال الإِمام الدهلوى كذلك : « نسيت كل ما قرأت سوى علم الحديث الشريف» .

وتشهد حياة الإِمام الدهلوى كلها على أنه كانت منصـرفاً انصرافاً كلياً إلى خدمة الحديث الشريف ، شرحـه وتفهيمه ، وتدريسـه وتعليمه ، ونشره وتعمـيمه ، ﴿ **رجال صدقـوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ .

وقـد شـمـر عـن ساق الجـد بعـد عـودتـه مـن الحـجاز إلـى الهنـد لخـدمة الحـديث الشريـف ونشره ، ولـم تلبـث « مدرسـتـه الرحيميـة » أن أصبحـت أكبر مؤسـسـة تعليمية فـى طـول الهـنـد وعـرضـهـا وتهـافـت عليـهـا طـلاب علـم الحديـث مـن أنحـاء الهند وأصقاعهـا تهافت الفـراش على النـور ، وقد كان فى هـذه الإِصقـاع مثل « السند »[(١٩)] ،

---

(١٧) التفهيمات الإِلهية ، جـ : ١ ، صـ : ٢١٤ - ٢١٥ .

(١٨) انظر « كلمات طيبات » صـ : ١٦٨ - ١٧١ .

(١٩)لقد ورد الشـيخ محمد معـين من السند إلى دلهى ، ودرس الحديث على الإِمام الدهلوى واسـتفاد منه، وكتابه « دراسات اللبيب فى الأسوة الحسنة بالحبيب » معروف ، يتجلى فيه ذوق الإِمام = =

و« كشمير » [٢٠] من المناطق البعيدة ، أما دلهى ونواحيها وشمالى الهند فلا تسأل عنه ، وقد كان من المستفيدين من هذه الدروس سوى مسند الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوى (الذى كان ابنه الأكبر الفاضل والقائم بتكميل أعماله وجهوده وتوسيع نطاقها) مفْخرة الهند العلامة السيد مرتضى البلكرامى المعروف بالزبيدى (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ) صاحب «تاج العروس شرح القاموس » و« إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين » الذى دوى صيت تبحره فى العلم وتحديثه فى العالم العربى ، وكان مجلسه بالقاهرة يضاهى مجالس الملوك والسلاطين ، وكان من خريجى هذه المدرسة بيهقى عصره القاضى الشيخ ثناء الله البانى بتى (م ١٢٢٥ هـ) خليفة الشيخ الجليل ميرزا مظهر جان جانان ، ومؤلف « التفسير المظهرى » و« ما لا بد منه » [٢١] .

وهكذا أصبح علم الحديث فى الهند - بعد قرون ، ولعله لأول مرة - قد نفقت سوقه وقامت دولته ، وأقبل عليه الناس إقبالا عظيما حتى ظلت الهند تباهى اليمن الميمون ، وبدأت نفحاتها الرخية المنعشة تصل إلى أرض الحجاز نفسها [٢٢] ، وقد أنشد النواب العلامة السيد صديق حسن خان فى ذكر الإمام الدهلوى وخدمته للحديث الشريف ، ونشاطاته فى القيام بنشره ، بيتين من الشعر البليغ ، يصورانه تصويرا حقيقيا :

من زار بابك لم تبرح جوارحه — تروى أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قرة ، والكف عن صلة — والقلب عن جابر والسمع عن حسن

ومن الطريف أن المنن التى ذكرتها هذه الجوارح وأشادت بها ، والأسماء التى أشارت إليها فى هذا الصدد ، كلها أسماء رواة الحديث والشيوخ المحدثين ، مثل قرة بن خالد السدوسى ، وصلة بن أشيم العدوى ، وسيدنا جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - والحسن البصرى - رحمهم الله أجمعين - .

= الدهلوى ومنهج بحثه وتحقيقه ، توفى عام ١١٦١ هـ (انظر « نزهة الخواطر » ، جـ : ٦) .

(٢٠) كان الشيخ خواجه محمد أمين الكشميرى من خواص تلامذة الإمام الدهلوى والجملة الدعاة لمشربه وبحوثه وتحقيقاته ، وهو معروف بمحمد أمين الولى اللهى ، وقدكان الشيخ عبد العزيز أحد تلامذته وقد ألف الإمام الدهلوى بعض رسائله (انظر « نزهة الخواطر » ، جـ : ٦) .

(٢١) « نزهة الخواطر » ، جـ : ٧ .

(٢٢) وقد أقام الشيخ إسحاق الدهلوى والشيخ عبد الغنى المجددى من خريجى هذه المدرسة وتلامذة الإمام الدهلوى حلقات دروس الحديث الشريف فى الحرمين الشريفين ، وانتفع بهم خلائق من العرب والعجم (انظر للتفصيل « نزهة الخواطر » ، جـ : ٧) .

خدمات الإمام الدهلوى التأليفية فى علوم الحديث :

إن المؤلفات التى خلفها الإمام الدهلوى فى الحديث وعلوم الحديث ، نورد أسماءها فيما يلى :

١ - المصفى (شرح مؤطأ الإمام مالك بالفارسية) .

٢ - المسوى (شرح المؤطأ المختصر بالعربية) .

إن المنهج الذى كان الإمام الدهلوى يريد ترويجه فى فقه الحديث ودروسه يمثله هذان الكتابان خير تمثيل ، وتتجلى فيهما مكانة الإمام الدهلوى الاجتهادية وطول باعه فى فقه الحديث ، وعلومه ، إنه كان يضع الموطأ على الدرجة الأولى من الكتب الستة ، وكان معجبا بالموطأ غاية الإعجاب ، وكان يدعو - بحماس وقوة - إلى العناية اللائقة به وتقديمه فى البدء بتدريس الحديث [٢٣] .

يقول الإمام الدهلوى فى « وصاياه » :

« عندما يحصل التمكن من العربية ، فليدرس الموطأ برواية يحيى بن يحيى المصمودى ، ولا يعرضن عنه أبدا ، فإنه أصل علم الحديث وتدريسه يحمل فوائد جمه ، وقد حصل لنا سماع الموطأ كله بالرواية المتصلة » [٢٤] .

٣ - شرح تراجم الأبواب لصحيح البخارى : هذه رسالة فى شرح تراجم أبواب البخارى التى اعتبرت - دائما - أدق شىء وألطفه فى دروس البخارى ،وقدم شراح صحيح البخارى ومدرسوه - فى كل عصر - أمثلة لذكائهم ودقتهم وتعمقهم فيه ، وهذه الرسالة بالعربية ، كانت طبعت أولا عام ١٣٢٣ هـ بـ « دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ثم ضمت - كمقدمة - إلى نسخة صحيح البخارى التى طبعت بأصح المطابع بدلهى [٢٥] .

٤ - مجموعة الرسائل الأربعة : تشتمل على « الإرشاد إلى مهمات الإسناد » « تراجم البخارى » ، وهى غير « شرح تراجم الأبواب للبخارى » وجاءت فى ورقة واحدة .

---

(٢٣) انظر مقدمة « المصفى » ، ومقدمة « أوجز المسالك » ، « الفائدة الثانية فى درجة الموطأ من بين كتب الحديث » ، للشيخ محمد زكريا الكاندهلوى ، ص : ٣٢ - ٣٣ ، طبع مطبعة السعادة بمصر (١٣٩٣ هـ) .

(٢٤) الوصايا (بالفارسية) ص : ١١ .

(٢٥) وهى موجودة فى رسالة « تراجم أبواب البخارى » أيضا للشيخ العلامة محمد زكريا الكاندهلوى (م ١٤٠٢ هـ) .

٥ - « الفضل المبين فى المسلسل من حديث النبى الأمين » و« النوادر من حديث سيد الأوائل والأواخر » و« الأربعين » ، وقد ألف الإمام الدهلوى هذه الأربعين لما ورد فى فضل حفظها وتبليغها إلى الناس من أحاديث ، وعمل بها العلماء فى مختلف العصور . والأحاديث التى اختارها الإمام ينطبق عليها أنها « قليلة المبني كثيرة المعنى » ، وهى جديرة بأن تحفظ عن ظهر قلب ، وتقرر دراستها فى المدارس .

٦ - المسلسلات .

وأما الكتب التى ليست فى فن الحديث رأسا وأساسا ولكن لها علاقة بعلم الحديث ، وينبغى أن تدرس كمقدمة لفن الحديث ، ويقدر منها ما كان يمتاز به الإمام الدهلوى من نظرة عميقة فاحصة فى علم الحديث ، وتوفيق بين الحديث والفقه وإنصاف درجاته ، صدر فى المقارنة بين المذاهب ، وسعة نظر فى طبقات المحدثين وطبقات كتب الحديث ، واتزان وتوسط واعتدال فى عامة الأحوال ، الصفات التى وهبها الله إياه ، فهذه الكتب حسب ما يلى :

١ - « الإنصاف فى بيان أسباب الاختلاف » : جاءت محتويات هذا الكتاب فى عدة مباحث بعنوان التتمة الثانية فى « حجة الله البالغة » وتمتد من صفحة ١٤٠ إلى صفحة ١٦٢ [(٢٦)] ، وتشتمل التتمة على أربعة أبواب ، وقد حقق ناشر الكتاب أن هذه التتمة لم توجد إلاّ فى نسخة واحدة من نسخ « حجة الله البالغة » ، ويقول الإمام الدهلوى فى آخر هذه الأبواب :

« . . . فعزمت على تأليف كتاب أسميه « غاية الإنصاف فى بيان أسباب الاختلاف » ، وأبين فيه هذه المطالب بيانا شافيا وأكثر فيه من ذكر الشواهد والأمثال والتفريعات مع المحافظة على الاقتصاد بين الإفراط والتفريط فى كل مقام والاحاطة بجوانب الكلام وأصول المقصود والمرام ثم لم أتفرغ له إلى هذا الحين ، فلما انجرّ الكلام إلى مأخذ اختلاف حملنى ما أجد على أن أبين بعض ما تيسر من ذلك » [(٢٧)] .

ويبدو أن الإمام الدهلوى وجد الفرصة بعد ذلك ، فأفرد هذا الموضوع فى رسالة مستقلة باسم « الانصاف فى بيان أسباب الاختلاف » ، ولذلك يوجد بين هذه الرسالة و «حجة الله البالغة » اختلاف يسير ، وحذف وتغيير فى بعض المواضع .

---

(٢٦) انظر نسخة المكتبة السلفية - لاهور .

(٢٧) حجة الله البالغة ، ص : ١٦١ .

وقد طبعت هذه الرسالة فى الهند وخارجها عدة مرات ، وتوجد بين هذه النسخ بعض الخلافات فى بعض الألفاظ ، فكانت طبعتها الأولى فى الخارج صادرة من « شركة المطبوعات العلمية » عام ١٣٢٧ هـ ، ثم نشرته « مكتبة المنصورة » ثانيا ، وبين أيدينا الآن نسخة جيدة من طبع « دار النفائس » بيروت ، وقد جاءت فى مائة وإحدى عشرة صفحة بالقطع الصغير ، وقد قام المحدث الجليل فى عصرنا الحاضر الشيخ عبد الفتاح أبو غدة بمقابلته وتصحيحه والتعليقات عليه .

٢ - عقد الجيد فى أحكام الاجتهاد والتقليد .

٣ - المبحث السابع (٢٨) من حجة الله البالغة .

والحقيقة أنه من القسم الثانى فى بيان أسرار ما جاء عن النبي ﷺ تفصيلا فى الجزء الأول من « حجة الله البالة » ، إلى نهاية الجزء الثانى منه ليس إلا شرحا كلاميا حكيما للحديث الشريف ومحاولة اجتهادية موفقة للكشف عن أسراره وحكمه ، وتطبيقه العملى الذى لم يكن إلا نصيب الإمام الدهلوى وقد حاز فيها قصب السبق ونال القدح المعلى ، ومن المؤسف أن الدارسين ، لحجة الله البالغة ، والمدرسين له (على أنهم أقل قليل) يغفلون هذه المباحث ولا يتفطنون لأهميتها وشأنها .

التوفيق بين الفقه والحديث :

لقد كان الفقه والحديث فى كثير من الأوساط العلمية والدراسية والتأليفية فى العالم الإسلامى ينتقلان منذ عصر طويل فى سلسلتين مواجهتين ، وكان كل واحد منهما فى محله (من حين ظهوره واشتداد ساعده) يقطع طريقه فى غنى وانصراف عن الآخر ، وكانا بعد هذا الفراق فى كثير من الأحيان لا يجتمعان عند أى نقطة من النقاط ، ولم يكن يبحث فى الحديث فى كثير من المذاهب الفقهية إلا إذا كانت مسألة فقهية تحتاج إلى تأييد من حديث ، أو كانت لها حاجة إلى دفع اعتراض من اعتراضات علماء المذهب الفقهى الثانى، وتصريحهم بأن هذه المسألة مخالفة للحديث أو إذا كانت القصد ترجيح مذهب على مذهب، وكانوا فى دروس الصحاح الست إما أن يتأولوا تلك الأحاديث التى تخالف مذهبهم ، أو يقدموا الأحاديث الأخرى من الكتب الأخرى التى تؤيد مذهبهم ، وإذا كان هناك استدلال فى واحد من كتب المذاهب الفقهية المعتبرة المهتمة بالأحاديث فإن العلماء

---

(٢٨) أيضا ، ص : ١٢٨ - ١٥٤ .

الذين قاموا - ممن لهم اطلاع واسع على علوم الحديث ، ويملكون ذوق المحدثين - بمحاولة تخريج هذه الأحاديث والكلام عليها كالمحدثين النقاد (٢٩) ، فهذه المحاولة الطيبة كذلك كانت إحدى الطرق والوسائل لتأييد ذلك المذهب والإنتصار له ، وإثبات أنه موافق للأحاديث ، وخدمة علمية وتحقيقية لذلك المذهب ، وهى تستحق الشكر والتقدير ، ولكنها لم تكن محاولة لإعادة النظر فى المسائل نفسها والتوفيق بين الفقه والحديث .

وقد تكونت للمذاهب الفقهية قوالب من حديد ، كان من الممكن كسرها (٣٠) ، ومن المستحيل مدها وبسطها ، وكان أتباع كل مذهب قد اعتقدوا فى أنفسهم أن صحة مذهبهم مائة فى المائة ، وهى الحقيقة الأصيلة ، وإما امكان الخطأ البشرى فمحتمل وقد عبر بعضهم عن هذه النظرية بهذه الألفاظ البليغة : « مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب » ، وقد كان من نتيجة هذه الوجهة للنظر أن المذاهب الأربعة (الحنفى والمالكى ، والشافعى ، والحنبلى) التى أجمعت على قبولها الأمة ، وسلم - أصوليا - بين أهل الحق وأهل العلم من أول عهودها فيما يتعلق بها بأن الحق دائر فيها وأن أئمتها ومؤسسيها إنما هم أئمة الهدى وقادة الأمة وأن هذه المذاهب حق ، يتسع بينها الخليج ويعمق ، وينجر الخلاف بين أتباعها إلى التباغض ، والبحث والنقاش بعض الأحيان إلى المخاصمة والمقاتلة ، وكان أدهى من ذلك وأمر معاملتهم مع أولئك العلماء الذين يبدأون العمل بالحديث - كليا أو جزئيا - فى العبادات ومن أمثلة هؤلاء أحد علماء القرن الثانى عشر ، العالم السلفى المحدث الشيخ محمد فاخر الإله آبادى (١١٢٠ - ١١٦٤ هـ) الذى تعرض (حسب رواية بعض المؤلفين) لسخط العامة وغضبهم لسلفيته واتباعه للحديث (٣١) .

لقد كانت هذه مأثرة من مآثر الإمام الدهلوى التجديدية وحلقة ذهبية رائعة فى سلسلة خدمته للحديث الشريف وانتصاره للسنة السنية أن قام بمحاولة التوفيق بين الفقه والحديث ،

---

(٢٩) من أمثلته الرائعة كتاب العلامة الزيلعى : « نصب الراية فى تخريج أحاديث الهداية » .

(٣٠) أى أنه توجد أمثلة الانتقال من مذهب إلى مذهب من الحنفية إلى الشافعية أو العكس ، أو اختيار مذهب العمل بالحديث فى كل عصر ، أما العدول عن بعض المسائل جزئيا مع البقاء فى نطاق المذهب وحدوده واختيار مسألة أخرى من مذهب آخر ، أو العمل بالحديث ، فأمثلته قليلة جدا ، وذلك لأن كثيرا من العلماء يرون « تجزىء التقليد » غير جائز ، أى إذا عمل إنسان بمسألة من مذهب فقهى ثم عمل بأخرى من مذهب فقهى آخر فإنه يخرج عن تقليد الأول ، وذلك عندهم غير صحيح .

(٣١) انظر لترجمة الشيخ فاخر الإله آبادى « نزهة الخواطر » جـ : ٦ .

ثم محاولة الجمع والتأليف بين المذاهب الأربعة ، وهذا يدل على صدق تلك البشارة التى تلقاها الإمام الدهلوى وقيل فيها :

« إن مراد الحق فيك أن يجمع شملا من شمل الأمة المرحومة بك » (٣٢).

أما فيما يتعلق بشبه القارة الهندية فإننا لا نعثر قبل الإمام الدهلوى على محاولة خدمة للجمع والتوفيق بين الفقه والحديث ، والجمع بين المذاهب على أساس الحديث ، ويرجع ذلك إلى أسباب تاريخية وعلمية ، إن شبه القارة الهندية دامت من أول عهودها الإسلامية تحت سلطة أولئك الفاتحين والمؤسسين للحكومات والدول الذين كانوا تركى الأصل أو أفغانى الأصل ، وكلا الشعبين من عهد اعتناقهما للإسلام - تقريبا - يحتضنان المذهب الحنفى ويتحمسان وينشطان للدفاع عنه ونشره ، وأنه لم يقدر هنا للمذهب المالكى والمذهب الحنبلى فى التاريخ الإسلامى الممتد على ثمانية قرون أن يدخلا فى هذه البلاد ، أما المذهب الشافعى فكان لا يعدو بعض المدن الساحلية أو جنوب الهند بـ « مدراس» أو طرفه الشمالي (كرناتك حاليا) ببعض أجزائه كـ « هتكل » وغيرها ، و « كيرالا » ، ولم ينبغ فيهم -فى حدود علمنا- باستثناء « مالابار » (بلاد المعبر - قديما) التى وفد إليها دعاة الإسلام من التجار والمشائخ والعلماء والفقهاء الذين كانوا من أتباع المذهب الشافعى فقهاء ومحدثون شافعيون مرموقون ، عدا الشيخ المخدوم الفقيه على المهائمى (م ٨٣٥ هـ) مؤلف تفسير «تبصير الرحمن وتيسير المنان» وشيخ « مالابار » المخدوم إسماعيل الفقيه السكرى الصديقى (٩٤٩ هـ) كذلك المخدوم الشيخ زين الدين المليبارى (م ٩٢٨ هـ) مؤلف «فتح العين»، (٣٣) الذين يتركون تأثيرهم على الأوساط العلمية فى الهند (لا سيما شمالى الهند) ويحملون العلماء الأحناف على دراسة الفقه الشافعى العميقة والاستفادةمنه وأما العلماء وطلاب علوم الحديث والفقه الذين كانوا يرحلون من الهند إلى الحجاز (الذى كان تحت إدارة الدولة التركية ، والأتراك لم يزالوا - فى كل عصر - سنيين وحنفيين مائة في المائة) فكانوا أيضا يتصلون بالعلماء الذين هم على مذهبهم وخاصة بأساتذة الفقه والحديث من مواطنى بلادهم الذين هاجروا إليها من الهند وأفغانستان ، وكان تلامذتهم عدداً كبيراً (٣٤).

---

(٣٢) فيوض الحرمين ، ص : ٦٢ .

(٣٣) انظر للتفصيل كتاب « عرب وديار هند » للشيخ خواجه بهاؤ الدين الأكرمى الندوى البهتكلى ، والكتاب فى أردو .

(٣٤) أمثال العلامة الشيخ على المتقى البرهان بورى صاحب « كنز العمال » والعلامة قطب الدين النهروالى ، وملا على القارى الهروى المكى ، والشيخ عبد الوهاب المتقى والشيخ محمد ==

لقد كان الإمام الدهلوى أول شخص تتلمذ فى الحرمين الشريفين على محدث شافعى جليل كالشيخ أبى طاهر الكردى المدنى واستفاد منه استفادة كبيرة ، وكان معجباً بعلمه وشخصيته وكماله الباطنى وسعة نظره ورحابة صدره وتأثر به فى هذه النواحى ، وإن شيوخ الإمام الدهلوى فى الحرمين الشريفين الذين ترجم لهم فى كتاب « إنسان العين » لم يكن فيهم من العلماء المحدثين الحنفية إلا الشيخ تاج الدين القلعى ، وكان من هؤلاء الشيوخ الشيخ محمد وفد الله بن الشيخ محمد بن محمد بن سليمان من المالكية ، وأن العهد الذى عاشه الإمام الدهلوى فى الحرمين الشريفين كانت فيه القيادة العلمية والسيادة والريادة فى مجال التعليم والتدريس (لا سيما فى تدريس فن الحديث الشريف) بأيدى العلماء والمحدثين اليمنيين أو المحدثين الكرديين ، وكانوا - بصفة عامة - شافعية ، لأجل هذه العوامل كلها ، تهيأت الفرصة السانحة للإمام الدهلوى للاطلاع على أصول الفقه الشافعى وقواعده ، وخصائصه ومميزاته ، كما قيض له وإن يتعرف على الفقه المالكى والفقه الحنبلى من علمائهما ، الأمر الذى لم يتيسر لعلماء الهند - منذ مدة طويلة - (لأسباب تاريخية وسياسية وجغرافية ومدنية) كما أمكن له الدراسة المقارنة للمذاهب الأربعة التى لم تكن تتيسر لأولئك العلماء الذين لم تواتهم هذه الفرص السانحة .

لقد رحل الإمام الدهلوى إلى الحجاز عام ١١٤٣ هـ وهو فى الثلاثين من عمره ، وكان قد درس فى الهند اثنى عشر عاما ، ولكن لما أودع الله - تعالى - فى طبعه من جامعية واتزان وسعة فى الأفق ورحابة فى الصدر ، ونزعة تطبيقية توفيقية موهوبة ، وميل طبعى إلى الجمع والوصل لا الفرق والفصل ، لذلك فإنه قبل رحلته إلى الحجاز أيضا كان يحمل الاتجاه إلى التطبيق والتوفيق بين الفقه والحديث ، وكان قد عزم على ترجيح مسلك المحدثين الفقهاء ، واختياره مسلكه وطريقه فى الحياة ، يقول فى « الجزء اللطيف فى ترجمة العبد الضعيف » :

« وبعد ما طالعت كتب المذاهب الأربعة وأصولها ، ونظرت فى الأحاديث التى يتمسكون بها اعتزمت على طريق الفقهاء المحدثين بإشارة نور الغيب وإيحائه » (٣٥) .

وقد انتقد الإمام الدهلوى طريق الفقهاء الغلاة فى مذهبهم (الذين لا يستطيعون أن ينحرفوا عن مذهبهم قيد شعرة) والفرقة الظاهرية (التى تنكر الفقه المذهبى - رأسا -

---

== حياة السندى وغيرهم .

(٣٥) « الجزء اللطيف فى ترجمة العبد الضعيف » ، ص : ٤ .

ويطلق لسانه فى أولئك الفقهاء الأجلة الذين هم رأس العلماء وأئمة أهل الهدى وقادة أهل الدين) انتقادا شديدا ، وأبدى سخطه ونفوره من مغالاة الطبقتين وشدتهم وتطرفهم ، وصرح بكل وضوح « بأن الحق أمر بين بين » لا الفريق الأول على الحق الصرف ولا الثانى على المبين .

يقول الإمام الدهلوى فى كتابه « حجة الله البالغة » :

« إن التخريج على كلام الفقهاء وتتبع لفظ الحديث لكل منهما أصل أصيل فى الدين ، ولم يزل المحققون من العلماء فى كل عصر يأخذون بهما ، فمنهم من يقل من ذا ويكثر من ذاك ، ومنهم من يكثر من ذا ويقل من ذاك ، فلا ينبغى أن يهمل أمر واحدة منهما بالمرة كما يفعله عامة الفريقين ، وإنما الحق البحت أن يطابق أحدهما بالآخر وأن يجبر خلل كل بالآخر ، وذلك قول الحسن البصرى » (٣٦) .

ويقول فى « وصاياه » :

« ينبغى فى المسائل الفرعية اتباع أولئك العلماء المحدثين الذين يجمعون بين الفقه والحديث ، ولابد من عرض المسائل الفقهية على كلام الله - تعالى - وحديث رسول الله ﷺ » .

ويزيد قائلا : « ولا غنى للأمة فى أى عصر من العصور ، عن عرض المسائل الاجتهادية على الكتاب والسنة » (٣٧) .

لقد كانت نشأة الإمام الدهلوى وتربيته فى بيئة يسود فيها الفقه وأصول الفقه الحنفى ، وكان مطلعا على خصائص المذهب الحنفى ومعترفا بها كأى عالم حنفى كبير ، وكان يعرف هذه الحقيقة ، ويصرح بها فى كثير من المواضيع أن الخدمة التى قام بها العلماء للمذهب الحنفى (كذلك للمذهب الشافعى) - لأسباب وعوامل تاريخية وعلمية وسياسية ومدنية متعددة - وما بذلوه من جهود فى تهذيبه وتنقيحه وشرح متونه ، والتفريع على أصوله لم يتيسر لمذهب آخر .

يقول عن الإمام أبى حنيفة - رحمه الله تعالى - :

---

(٣٦) « حجة الله البالغة » ، جـ : ١ ، ص : ١٥٦ ، وانظر للتفصيل مبحث « حكاية حال الناس قبل المائة الرابعة وبعدها » .

(٣٧) « الوصايا » (بالفارسية) ، ص : ٢ - ٣ .

« كان عظيـم الشأن فى التخـريج على مذهب إبراهـيم وأقرانه ، دقيق النـظر فى وجوه التخريجات ، مقبلا على الفروع ، أتم إقبال » (٣٨).

ولكنه مع ذلك يعتـرف بعظمة الإمام مالك وجـلالة شأنه ، وبصحة كـتابه « الموطأ » ، ومنزلته الرفيـعة العالية وفـوائده الغالية ، ويدعو إلى الاعتـراف بها ، ويرى أنه من الكتب الأساسية الأولى فى الحـديث ، كما يصف (٣٩) - فى جانب آخر - المذهب الـشافعى بأنه مصفى ومنقح وأقـرب إلى الحديث فى ثناء وإطراء ، ويعترف بدقة نظر الإمـام الشافعى أيما اعتراف (٤٠)، ثم يذكر الإمام أحمد بن حنبل فيقول فى « حجة الله البالغة » :

« وكان أعظمهم شـأنا وأوسعهم رواية ، وأعرفهم للحـديث مرتبة ، وأعمقهم فـقها ، أحمد بن حنبل ثم إسحاق بن راهوية » (٤١).

لقد كـان الإمام الدهلوى ، لاطلاعـه المباشـر على مكانة هؤلاء الأئمة الأربعـة وجلالة شأنهم وسعـة علمهم ودقة نظرهم ، ومنتـهم الجليلة على الأمة (عن طريق كتبـهم وكتب التاريخ والتراجم) وحـبهم وإجلالهم من أعمـاق القلب ، من الجامعية والتـبحر والاتزان والتوسط فى الدراسة المقـارنة للفقه والحديث ، ما لا يتوقع - بطبـيعة الحال - من أولئك العلماء والمؤلفين الذين انحصرت دراستهم وصلتهم العقلية والفكرية فى تطابق مذهب فقهى واحد ، وبواضعه ومـؤسسه الأول ، ولا تتيسر لهـم أى فرصة للخروج - لأسباب طبـيعية وشخصية كثيرة - من هذه الدائرة المحددة .

نقطة التوسط والاعتدال بين التقليد والاجتهاد :

إن من فضـائل الإمام الدهلوى الموهوبة ومميـزاته التجـديدية التى خصـه الله - تعالى - بها، هو ذلك المسلك المتـزن المتوسط ، وتلك النقطة المتوسـطة التى اختارها بين الاجتـهاد والتقليد ، والتى هى دليل ساطع رائع على طبيعته السليمة المتزنة وذوقه الصحيح وواقعيته، فقـد كان هناك فريق يـكلف كل مسلم - سواء كـان عاميـا أو عالما - بالعـمل وفق الكتاب والسنة واستفـادة الأحكام والمسائل الشرعية منهـما مباشرة ، ويحرم التـقليد تحريما مطلقا ، وهم إن كـان كلامـهم لا يصـرح بهذا الموقـف فإن منهـجـهم فى العمل وكـتاباتهم تؤدى

---

(٣٨) الإنصاف فى بيان أسباب الاختلاف « طبع دار النفائس بيروت » ، ص : ٣٩ .

(٣٩) انظر مقدمة « المصفى » .

(٤٠) انظر « الخير الكثير » ص : ١٢٤ ، و« قرة العين » ص : ٢٤٢ ، للإمام الدهلوى .

(٤١) حجة الله البالغة ، جـ : ١ ، ص : ١٥٠ .

- طبعا - إلى هذه النتيجة ، وقد كان فى المتقدمين من هذا الفريق والمتحمسين لهذا الموقف العلامة ابن حزم ، ولكن هذا الموقف غير عملى وغير واقعى ، وإن تكليف كل مسلم بذلك تكليف بما لا يطاق .

وكان - فى جانب آخر - فريق آخر يوجب على جميع المسلمين التقليد ويصف من يخلع ربقته من التقليد بهذه الأحكام الفقهية الشديدة كـ « الفاسق » و« الضال » ، كما يصف الفريق الأول بذلك جماعة المقلدين والمتبعين لمذهب فقهى خاص ، وكان هذا الفريق يتناسى أن التقليد إنما هو طريقة تنظيمية إدارية لصيانة العامة من الناس من اتباع النفس والهوى ، والقول بالرأى ، وحماية المجتمع المسلم من الفوضى والاضطراب ووسيلة لإيجاد الوحدة والنظام فى الحياة الدينية العملية ، وتيسير العمل بالأحكام الشرعية ، ولكنهم جعلوا هذا العمل التنظيمى فى منزلة العمل التشريعى ، وألحوا عليه بشدة وتأكيد غليظ ، نقله من كونه مذهبا فقهيا ومسألة اجتهادية فحسب إلى كونه نصا ظاهرا ، وعملا قطعيا وأمرا دينيا مستقلا .إن المنهج الذى اختاره الإمام الدهلوى وما عبر به عن ذلك ، هو أقرب إلى روح الشريعة ، وأكثر انسجاما مع منهج القرن الأول وأوفق بالفطرة البشرية ، وأمس بالحياة العملية ، ويذكر الإمام الدهلوى - فى هذا الصدد - طريقة العمل السائدة قبل القرن الرابع الهجرى ويشرح كيف كان الناس يحلون مسائلهم الجديدة الطريفة ومشاكلهم العارضة فى حياتهم الدينية وعباداتهم ومعاملاتهم ، وما هو الطريق الذى كانوا يختارونه ويسلكونه ، يقول فى باب « حكاية حال الناس قبل المائة الرابعة وبعدها » من «حجة الله البالغة» :

منهج المسلمين فى القرون الأولى :

« اعلم أن الناس كانوا قبل المائة الرابعة غير مجمعين على التقليد الخالص لمذهب واحد بعينه ، قال أبو طالب المكى فى « قوت القلوب » : إن الكتب والمجموعات محدثة والقول بمقالات الناس والفتيا بمذهب الواحد من الناس واتخاذ قوله والحكاية له من كل شيء والتفقه على مذهبه لم يكن الناس قديما على ذلك فى القرنين الأول والثانى » أقول وبعد القرنين حدث فيهم شيء من التخريج غير أن أهل المائة الرابعة لم يكونوا مجتمعين على التقليد الخالص على مذهب واحد والتفقه له والحكاية لقوله كما يظهر من التتبع ، بل كان فيهم العلماء والعامة ، وكان من خبر العامة أنهم كانوا فى المسائل الاجتماعية التى لا اختلاف فيها بين المسلمين أو جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشرع ، وكانوا يتعلمون صفة الوضوء والغسل والصلاة والزكاة ونحو ذلك من آبائهم أو معلمى بلدانهم

فيمشون حسب ذلك ، وإذا وقعت لهم واقعة استفتوا فيها أى مفت وجدوا من غير تعيين مذهب ، وكان من خبر الخاصة أن أهل الحديث منهم يشتغلون بالحديث فيخلص إليهم من أحاديث النبى ﷺ وآثار الصحابة ما لا يحتاجون معه إلى شىء آخر فى المسألة من حديث مستفيض أو صحيح قد عمل به بعض الفقهاء ، ولا عذر لتارك العمل به ، أو أقوال متظاهرة لجمهور الصحابة والتابعين مما لا يحسن مخالفتها ، فإن لم يجد فى المسألة ما يطمئن به قلبه لتعارض النقل وعدم وضوح الترجيح ونحو ذلك رجع إلى كلام بعض من مضى من الفقهاء ، فإن وجد قولين اختار أوثقهما سواء كان من أهل المدينة ، أو من أهل الكوفة وكان أهل التخريج منهم يخرجون فيما لا يجدونه مصرحا ويجتهدون فى المذهب ، وكان هؤلاء ينسبون إلى مذهب أصحابهم فيقال : فلان شافعى ، وفلان حنفى ، وكان صاحب الحديث أيضا قد ينسب إلى أحد المذاهب لكثرة موافقته له ، كالنسائى والبيهقى ينسبان إلى الشافعى ، فكان لا يتولى القضاء ولا الإفتاء إلا مجتهد ، ولا يسمى الفقيه إلا مجتهدا ، ثم بعد هذه القرون كان ناس آخرون ذهبوا يمينا وشمالا .

الصور الطبيعية المشروعة للتقليد :

ويرى الإمام الدهلوى - لغاية إنصافه وواقعيته - أن الشخص الذى يقلد مذهبا فقهيا خاصا ، أو إماما معينا ولكنه لا ينوى إلا اتباع صاحب الشريعة - عليه الصلاة والسلام - والاقتداء به ، إلا أنه لا يجد فى نفسه من القدرة ما يتوصل بها إلى الحكم الشرعى وما ثبت بالكتاب والسنة مباشرة ، فله العذر فى التقليد ، ويكون لعدم توصله إلى الحكم -مباشرة- عدة أسباب مثل أن يكون عاميا ، أو لا تتيسر له الفرص للبحث والتحقيق -مباشرة- أو لا تتوفر له وسائل العلم والبحث والتحقيق التى يستطيع أن يطلع بها على النصوص أو يستنبط من النصوص المسائل ، ويقول الإمام الدهلوى بعد إيراد قول ابن حزم أن التقليد حرام ولا يجوز لأى مسلم أن يقبل أحداً دون رسول الله ﷺ من غير دليل ولا برهان :

« وليس محل (قول ابن حزم) فيمن لا يدين إلا بقول النبى ﷺ ، ولا يعتقد حلالا إلا ما أحله الله ورسوله ، ولا حراما إلا ما حرمه الله ورسوله ، ولكن لما لم يكن له علم بما قاله النبي ﷺ ولا بطريق الجمع بين المختلفات من كلامه ولا بطريق الاستنباط من كلامه، اتبع عالما راشدا على أنه مصيب فيما يقوله ويفتى ظاهرا ، متبع سنة رسول الله ﷺ ، فإن خالف ما يظنه أقلع من ساعته من غير جدال ولا إصرار ، فهذا كيف ينكره أحد، مع أن الاستفتاء والإفتاء لم يزل بين المسلمين من عهد النبى ﷺ . ولا فرق بين أن يستفتى

هذا دائما أو يستفتى هذا حينا ، وذلك حينا بعد أن يكون مجمعا على ما ذكرناه ، كيف لا ولم نؤمن بفقيه أيا كان أنه أوحى الله إليه الفقه وفرض علينا طاعته وأنه معصوم ، فإن اقتدينا بواحد منهم فذلك لعلمنا بأنه عالم بكتاب الله وسنة رسوله ، فلا يخلو قوله من أن يكون من صريح الكتاب والسنة أو مستنبطا عنهما بنحو من الاستنباط أو عرف بالقرائن أن الحكم فى صورة ما منوطة بعلة كذا واطمأن قلبه بتلك ، فقاس غير المنصوص على المنصوص فكأنه يقول : ظننت أن رسول الله ﷺ قال : كلما وجدت هذه العلة فالحكم ثمة هكذا - والمقيس مندرج فى هذا العموم ، فهذا أيضا معزى إلى النبى ﷺ ، ولكن فى طريقة ظنون ، ولولا ذلك لما قلد مؤمن مجتهداً ، فإن بلغنا حديث من الرسول المعصوم الذى فرض الله علينا طاعته بسند صالح يدل على خلاف مذهبه وتركنا حديثه واتبعنا ذلك التخمين ، فمن أظلم منا وما عذرنا « يوم يقوم الناس لرب العالمين » (٤٢) .

(٤٢) حجة الله البالغة ، جـ : ١ ، ص : ١٥٥ - ١٥٦ .

ميزات المذاهب الأربعة :

يقول الإمام الدهلوى بعد هذا التحليل المنصف الباحث عن هذه المذاهب الفقهية الأربعة التى يعمل بها فى العالم الإسلامى - بصفة عامة - فى رسالته : « عقد الجيد فى أحكام الاجتهاد والتقليد » (التى هى رغم صغر حجمها ووجازتها كبيرة القيمة) ما يلى :

« اعلم أن فى الأخذ بهذه المذاهب الأربعة مصلحة عظيمة وفى الإعراض عنها كلها مفسدة كبيرة ، ونحن نبين ذلك بوجوه :

أحدها : أن الأمة اجتمعت على أن يعتمدوا على السلف فى معرفة الشريعة ، فالتابعون اعتمدوا فى ذلك على الصحابة ، وتبع التابعين اعتمدوا على التابعين ، وهكذا فى كل طبقة اعتمد العلماء على من قبلهم ، والعقل يدل على حسن ذلك ، لأن الشريعة لا تعرف إلا بالنقل والاستنباط ، والنقل لا يستقيم إلا بأن تأخذ كل طبعة عمن قبلها بالاتصال ، ولابد فى الاستنباط أن تعرف مذاهب المتقدمين لئلا تخرج عن أقوالهم فيخرق الإجماع ، ويبنى عليها ، ويستعين فى ذلك كلٌ بمن سبقه ، لأن جميع الصناعات كالصرف والنحو والطب والشعر ، والحدادة والتجارة والصياغة لم تتيسر لأحد إلا بملازمة أهلها ، وغير ذلك نادر بعيد ، لم يقع وإن كان جائزاً فى العقل ، وإذا تعين الاعتماد على أقاويل السلف ، فلابد من أن تكون أقوالم التى يعتمد عليها مروية بالإسناد الصحيح ، أو مدونة فى كتب مشهورة وأن تكون مخدومة بأن يبين الراجح من محتملاتها ، ويخصص عمومها فى بعض المواضع ، ويقيد مطلقها فى بعض المواضع ، ويجمع المختلف ويبين علل أحكامها وإلا لم يصح الاعتماد عليها ، وليس مذهب فى هذه الأزمنة المتأخرة بهذه الصفة إلا هذه المذاهب الأربعة » (٤٣) .

وهكذا اختار الإمام الدهلوى ذلك الموقف المعتدل المتزن بين الاجتهاد والتقليد الذى يوافق مقاصد الشريعة والفطرة البشرية وعالم الحقائق وينسجم معها انسجاماً كلياً ، وأنه قد اشترط فى التقليد أن يكون الغرض منه - مع العقلية الواضحة والنية الصالحة - اتباع صاحب الشرع - ﷺ - والالتزام بالكتاب والسنة ، وذلك لهذه الثقة الكاملة بأن من نجعله واسطة بيننا وبين الكتاب والسنة هو عالم بهذين الأصلين ، وليس إلا ممثلا عنهما وترجماناً لهما ، ثم لابد أن يكون فيه استعداد كل حين (ولو لم يقع ذلك إلا بعد مدة طويلة) بأنه إذا وثق واطمأن بأن الشأن غير ذلك ، وأن الحكم الشرعى الثابت بالكتاب والسنة ليس ما قرره ذلك الإمام فلا يتردد المؤمن فى قبوله والخضوع له .

---

(٤٣) عقد الجيد ، ص ٣٦ - ٣٨ .

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ (٤٤) .

الحاجة إلى الاجتهاد فى كل عصر :

يرى الإمام الدهلوى مع الاعتراف بخصائص المذاهب الأربعة وميزاتها وخدمات الفقهاء المحدثين الجليلة وعلو منزلتهم والاعتراف بأن هذه الثروة الفقهية والحديثية ثروة عظيمة قيمة، يستفاد منها وينتفع بها ، وأن الاستغناء والإعراض عنها من أسباب الخسران والحرمان - أن الاجتهاد - مع شروطه وتحفظاته الضرورية - حاجة كل عصر ، ومقتضى طبعى للتطورات الحادثة فى الحياة الإنسانية والمجتمع والمدنية وصلاحية النشوء والارتقاء ، والحاجات البشرية، وتسلسل الحوادث والوقائع إثبات لسعة الشريعة الإسلامية ، وأنها من الله الحكيم، وأنها تملك صلاحية قضاء جميع المتطلبات المشروعة للمجتمع البشرى وهداية الناس وإرشادهم الأمر الذى لابد من إثباته والتظاهر به فى كل عصر وهو واجب من واجبات حملة الشريعة الأمناء،يقول الإمام الدهلوى فى مقدمة « المصفى » :

«إن الاجتهاد فرض كفاية فى كل عصر ، وليس المراد بالجتهاد هنا الاجتهاد المستقل كاجتهاد الإمام الشافعى - مثلا - الذى لم يكن فى الجرح والتعديل والعربية وغيرها فى حاجة إلى غيره ، كما لم يكن تابعاً لأحد فى درايته الاجتهادية (بجميع أنواعها وأقسامها) بل المراد الاجتهاد المنتسب ، وهو عبارة عن معرفة الأحكام الشرعية بأدلتها التفصيلية ، وتفريع المسائل وترتيبها على طريقة المجتهدين ولو كان ذلك بإرشاد من إمام من الأئمة .

والذى نقوله أن الاجتهاد فى عصرنا هذا واجب (وهى مسألة إجماعية بين العلماء المحققين) فوجهه أن المسائل كثيرة الوقوع ولا يمكن حصرها واستيعابها ولابد ممن معرفة حكم الله - تعالي - فيها ، والذى دخل فى حيز التحرير والتدوين لا يكفى ، والخلافات فيه كثيرة ولا يمكن حلها إلا بالرجوع إلى الدلائل ، والروايات المنقولة للمسائل عن الأئمة فى أكثرها انقطاع بحيث لا يثق بها القلب بطمأنينة ،ولذلك فلا مناص من عرضها علي قواعد الاجتهاد وأصوله والبحث فيها »(٤٥) .



---

(٤٤)سورة النساء ، الآية : ٦٥ .

(٤٥) مقدمة « المصفى » (بالفارسية) ص : ١ ، طبع المطبع الفاروقى ، بدهلى .

الباب السابع
عرض الشريعة الإسلامية عرضا مبرهنا متسقا والكشف عن مقاصد الحديث وأسراره فى ضوء « حجة الله البالغة »

ميزة « حجة الله البالغة » وتفرده :

إن كتاب « حجة الله البالغة » للإمام الدهلوى يعد من جلائل أعماله العظيمة ومآثره العلمية الكبرى ، التى عرضت فيها الشريعة الإسلامية والدين الحنيف فى صورة جامعة متناسقة مدعمة بالحجج والدلائل الناصعة القوية ، وقدمت فيها أبواب الإيمان والعبادات والمعاملات والأخلاق والاجتماع والمدنية والسياسة الإحسان بترتيب وترابط ونظام ، وفى تناسق واتزان ، بحيث يخيل إليك كأنها لآلئ العقد المنظوم أو حلقات سلسلة مترابطة ، مع توضيح الفروق بين الأصول والفروع والمقاصد والغايات والوسائل والآلات وبين الحقائق الدائمة المستقلة والأمو العارضة المؤقتة بحيث لا يغيب ذلك - لحظة - عن الأنظار ، وكثيراً ما يختلط الأمر بينهما فى كثير من البحوث والمؤلفات بل هى علة قديمة شائعة فى تلك الكتب والمؤلفات - بصفة خاصة - التى ألفت نتيجة رد فعل لتعسف أو مغالاة أو فى فورة عاطفة وحماس ، ويرجع السبب فى هذا الترابط والتناسق - عدا ما وهب الإمام الدهلوى من اتزان وتوسط وسلامة فطرة - إلى دراسته العميقة الواسعة لعلم الحديث الشريف ، وتلك الطبيعة الخاصة التى تتكون عن طريق الاشتغال الإهتمام بالسيرة النبوية ، والحديث النبوى أو عن طريق صحبة العلماء الربانيين وتربيتهم الذين تربوا فى المدرسة االنبوية وقطرت عليهم رشحات من السيرة العطرة - على صاحبها الصلاة والسلام .

إن هذا العرض الجامع المتسق المترابط الذى نشاهده فى صفحات « حجة الله البالغة » يندر نظيره فى المؤلفات الدينية ،وبذلك ظل كتاب « حجة الله البالغة »(1) علم الكلام الجديد

---

(1) لقد وجد كاتب هذه السطور زعيم المغرب العلامة علال الغاسى المغربى مؤلف «مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها » ، ومعالى الأستاذ محمد المبارك المرحوم من بين العلماء والباحثين المعاصرين العرب ، يشيدون بكتاب « حجة الله البالغة » أيما إشادة ويلهجون بالثناء عليه ، وقد كانا معجبين بهذه الناحية - بصفة خاصة - أن هذا الكتاب يجمع بين شعب الدين كلها حتى يمثل عن تهذيب الأخلاق وتزكية النفس والإحسان أيضاً تمثيلاً كاملاً رائعاً .

الذى يجد فيه أى إنسان يريد الحق مع سلامة الفطرة وطيب القصد (وقد أوتى شيئاً من الكفاءة العلمية ودة النظر وعمق التفكير) إرواء كاملا لغليله وزادا كافياً لقناعته ، وطمأنينته، ولم يؤلف كتاب - فى حدود علم المؤلف ، وفى اللغات التى يعرفها - فى تأييد أى ديانة من الديانات وتفسيرها اللبق الحكيم، وفلسفتها الجامعة المتناسقة كهذا الكتاب فى منزلته ومكانته وإن كان قد ألف فإنه ليس بين ظهرانى العلماء والباحثين فى الدنيا العلمية المعاصرة.

إن عهد « العقلانية » الخاصة الذى كان بعد القرن الثانى عشر الهجرى بقليل ، قد أوشك - لأسباب تعليمية وتربوية ، ومدنية وعقلية وعلمية وفكرية - على الظهور فى الهند وفى العلم الإسلامى كله ، فنزعة البحث والتفتيش عن مصالح الشريعة الإسلامية وحكمها وأسرارها التى كادت تعم وتسود ، والتى كانت تتهيأ بسببها عقول كثيرة للضلال والإنحراف وأقلام كثيرة للزيغ والانطلاق ، وكان الحديث والسنة النبوية - بصفة خاصة - ولأسباب خاصة - مستهدفة للشبهات والاعتراضات[٢] ، إنه لم يكن يستطيع أن يواجه هذه التحديات ويلبى هذه المقتضيات إلا من يكون على علم واطلاع واسع على الكتاب والسنة، وعلوم الحكمة ، وعلم الكلام ، وعلم الأخلاق ، وعلم النفس وعلى علم الاقتصاد وعلم السياسة (فى حدود عصره على الأقل) ثم يكون عارفاً بلباب فن التزكية والإحسان وجوهره وحقيقته ، بل يتمكن من درجة الاجتهاد فيه .

لقد كان كل ذلك يتطلب أن يصدر من قلم إمام القرن الثانى عشر كتاب يفى بهذه الحاجات والمتقضيات ، ولا يمكن أن يصدر مثل هذا إلاّ من قلم إنسان ، هو إنسان - على كل حال - وليس معصوماً ، وليس له علم يحيط بجميع العصور والأمكنة والمعلومات ولا يخلو - وإن كان أقل قليل - عن طابع عصره وتأثير منهج التعليم والتربية عليه - الذى نشأ وتربى فيه ، ولكنه رغم كل ذلك تلميذ المدرسة القرآنية وخريج معهد الحديث والسنة ، وترجماتهما المبين .

يقول الإمام الدهلوى وهو يذكر دوافع تأليف هذا لاكتاب وعوامله :

« إن أدق الفنون الحديثية بأسرها عندى وأعمقها محتداً وأرفعها مناراً وأولى العلوم الشرعية عن آخرها فيما أرى ، وأعلاها منزلة وأعظمها مقداراً ، هو علم أسرار الدين الباحث عن حكم الأحكام ولمياتها وأسرار خواص الأعمال ونكاتها . . . إذ به يصير الإنسان على بصيرة فيما جاء به الشرع »[٣] .

---

(٢) يراجع للتفصيل رسالة المؤلف « دور الحديث فى تكوين المناخ الإسلامى وصيانته » .

(٣) حجة الله البالغة ، س : ٣ .

دقة الموضوع وخطورته :

ولكن الموضوع الذى يعالج حكم الأحكام الدينية ، ويتعرض لمصالحها وأسبابها وعللها موضوع جد دقيق وخطير ، فإن أدنى ميل أو إفراط وتفريط فيه ، أو سيطرة نزعة خاصة أو تأثير عصر خاص ينأى بذهن القارىء وعقليته بعيداً عن جادة التعاليم النبوية والشرائع السماوية ، التى يقصد بها أصلا وبالذات رضا الله تعالى - والتقرب إلى جنابه الأعلى ، والنجاة فى الآخرة وينتقل به إلى طريق المصالح المادية ، وتنظيم الحياة تنظيماً فاضلاً ، والمنافع المدنية والأغراض والغايات السياسية ، وتخرج روح الإيمان والاحتساب(٤) ، من هيكل الجهود والمساعى المبذولة كلياً ، أو تضعف وتنكمش وتبقى من غير تأثير ملحوظ .

فعلى سبيل المثال يمكن أن يقال إن الحكمة فى مشروعية الصلاة أنها تربية عسكرية جيدة، وأنها تساعد على التنظيم والطاعة للأمير وإقامة الحكومة الإسلامية ، وأن الصوم من أنجح الوسائل للصحة البدنية ، وأن الزكاة ضريبة واجبة فى أموال أهل الثراء للفقراء ولها القيمة الاقتصادية والاجتماعية فقط ، وأن الحج مؤتمر سنوى عالمى ينظر فيه فى المسائل والمشاكل التى يواجهها المسلمون والتوصل إلى حلها فحسب .

نظراً إلى هذه الأخطار والأخطاء (التى تجاوزت حدود الممكنات والمحتملات إلى وقائع وأمثلة حية عملية) لم يكن يستطيع أن يقوم بهذه المهمة الدقيقة الخطيرة إلاّ من يمسك بيده أصول الدين الحنيف والشريعة الإسلامية ، ويكون عالما بغاية نزول الشرائع الإلهية وبعثة الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلوات والتسليم - وقد تغلغلت فى أحشائه روح الإيمان والاحتساب وجرت فى عروقه ودمائه ، وتكونت عقليته وتربيته العلمية فى بيئة الكتاب والسنة والإيمان والأحتساب وفى ظلالها الفيحاء ، ولقد كان الإمام الدهلوى - كما علمنا مما مضى فى ترجمة حياته - أجدر شخصية وأقدرها على الكتابة فى هذا الموضوع الدقيق الخطير .

الحاجة إلى كتاب مستقل وجهود العلماء المتقدمين :

يذكر الإمام الدهلوى ما بذله العلماء المتقدمون من جهود فى هذا الموضوع ، فيقول :

« وانتهى إمعان المجتهدين إلى تبيين المصالح المرعية فى كل باب من الأبواب الشرعية ،

---

(٤) الإيمان هو اليقين الكامل على موعود الله - تعالى - والاحتساب هو نية الحصول على رضا الله - تعالى- وثوابه ، وهما مصطلحان دينيان وردا فى أحاديث كثيرة ، منهما قوله ﷺ : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » (أخرجه البخارى) .

وأبرز المحققون من أتباعهم نكتاً جليلة ، وأظهر المدققون من أشياعهم جملاً جزيلة ،وخرج بحمد الله- تعالى - من أن يكون التكلم فيه خرقاً لإجماع الأمة أو اقتحاماً فى عمه وغمه لكن قل من صنف فيه أو خاض فى تأسيس مبانيه أو رتب منه الأصول والفروع»(٥).

وقد أشار الإمام الدهلوى - فى هذا الصد - إلى الإمام الغزالى والعلامة الخطابى وشيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام - الذين تحتوى كتاباتهم ومؤلفاتهم فى مختلف المواضع على هذه المحتويات والإشارات(٦) ، وقد استدل الإمام الدهلوى فى الرد على دعوى أن الأحكام الشرعية لا تشتمل على المصالح ، وأنه ليس بين الأعمال وما جعل الله - تعالى - جزاء لها مناسبة ، بتلك الآيات والأحاديث النبوية التى تدل على الصلة والمناسبة بين الأعمال ونتائجها وتشيرإلى علل بعض الأحكام ومصالحها ، كما ذكر أيضاً تلك الأحاديث التى تتضمن بيان الأسباب لمشروعية قربة من القرب أو عمل من الأعمال ، أؤ تكشف عن أسرار تعيينها وتحديدها ، كما قدم أمثلة لأسباب بعض المحرمات والمحظورات ، وحكمها التى أثرت عن عمر - رضى الله عنه - وغيره من الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين-(٧) ، وفند تلك المزاعم والظنون الخاطئة ورد على المزاعم التى تصف تدوين هذا العلم الدقيق وأداء المهمة الجليلة إما مستحيلاً ، أو غير نافع أو صنعاً جدياً لم يسبق إليه ، وبين - بكل وضوح - ما هى تلك الأسباب والعوامل التى حالت دون العناية اللائقة بهذا الموضوع فى تلك الآونة (٨).

وقد صرح الإمام الدهلوى وهو يبين الحاجة إلى تدوين هذا العلم وحكمته ومصلحته ، بأن جماعة من الفقهاء زعموا أنه يجوز رد حديث يخالف القياس من كل وجه فلزم بيان أن الأحاديث الصحيحة كلها توافق العقل والقياس(٩) وأن المناهج المتعارضة فى مختلف طبقات الأمة ، فتغاضى بعضهم عن العقل والقياس كلياً ، وتجاسر بعضهم على التأويل والصرف عن الظاهر حيث خالفت الأصول العقلية ، وعدم التوسط والاتزان عند كثير من الجماعات والطبقات فى هذا الصدد لا يجعل التدوين الجديد لهذا الفن الدقيق مشروعاً ونافعاً

---

(٥) حجة الله البالغة ، ص : ٣ .

(٦) أيضاً ، ص : ٦ .

(٧) حجة الله البالغة ، ص : ٥ - ٦ .

(٨) أيضاً ص : ٧ .

(٩) أيضاً ص : ٩ .

فحسب، بل يقرره خدمة جليلة للدين، وحاجة ماسة من حاجات العصر .

وعدا هذا الشعور بالحاجة ، والتجارب العلمية ومقتضيات العصر كان الإمام الدهلوى تلقى بشارات غيبية لإنجاز هذا العمل وإشارة من حضرة صاحب الرسالة - صلى الله على صاحبهاوسلم - « إلى نوع بيان للدين » ، يقول الإمام الدهلوى :

« ووجدت عندى ذلك فى صدرى نوراً لم يزل ينفسح كل حين . . ثم رأيت الإمامين الحسن والحسين - رضى الله عنهما - فى منام ، وأنا يومئذ بمكة كأنهما أعطيانى قلماً ، وقالا : « هذا قلم جدنا رسول الله ﷺ » (١٠).

وقد كان ابن خال الإمام الدهلوى ، وأخو زوجته ، ومرافقه فى السفر والحضر وأخص تلامذته الشيه محمد عاشق الفلتى الذى كان أعرف الناس بعلوم الإمام الدهلوى ومعارفه وفضائله يلح - من بين أصحابه وتلامذته - على الإمام الدهلوى ويصر عليه لإنجاز هذا العمل وتحقيقه (١١).

وبالجملة فإن الله - تبارك وتعالى - وفق الإمام الدهلوى للقيام بهذه المهمة العظيمة ، وصدر من قلمه هذا الكتاب الجليل ووصل إلى أيدى العلماء والمحققين .

الموضوعات الأساسية التمهيدية التكليف والمجازاة :

لقد تناول الإمام الدهلوى فى بداية الكتاب تلك البحوث والمواضيع التمهيدية الأساسية التى تثبت الحاجة إلى الهداية الربانية والتعاليم السماوية وبعثة الأنبياء والمرسلين ، وتعليمهم

---

(١٠) طبع كتاب « حجة الله البالغة ، أولاً بإرشاد من وزير بوفال ومديرها العالم التقى « مدار المهام » الشيخ جمال الدين (م ١٢٩٩ هـ) وعلى نفقته وبعناية الشيخ محمد أحسن الصديقى (م ١٣١٢هـ) فى المطبع الصديقى ببريلى عام ١٢٨٦ هـ ثم طبع ثانياً بأمر النواب أمير الملك العلامة السيد صديق حسن خان (م ١٣٠٧ هـ) فى مطبع بولاق بمصر عام ١٢٩٦ هـ ، وصدرت له من مصر طبعتان أخريان ، ثم صدرت طبعة مصورة عن الطبعة المصرية بعناية الشيخ عطاء الله حنيف من المكتبة السلفية بلاهور عام ١٣٩٥ هـ الموافق ١٩٧٨ م ، وقد صدرت أخيراً فى مصر طبعته الرابعة ونشرت بتحقيق الفاضل المصرى المعروف وأحد القادة الإخوانيين السيد سابق ومراجعته ، ومقدمته ، وترجمة المؤلف الدهلوى من دارد الكتب الحديثية بالقاهر ومكتبة المثنى ببغداد ، ولكن لم يحظ الكتاب فى التصحيح والتعليق ، وتخريج الأحاديث ، وبيان الإشارات حتى الآن ما يستحقه من خدمة علمية .

(١١) حجة الله البالغة ، ص : ٤ .

وتربيتهم وتزكيتهم ، والمبحث الأساسي والأصولي الأكبر فيه ، هو المبحث الذى ذكره بعنوان « باب سرّ التكليف » الذى أثبت فيه أن « التكليف »[١٢] إنما هو إحدى المقتضيات الطبيعية للنوع البشرى ، فإن الإنسان يسأل بلسان استعداده وصلاحيته أن يفرض عليه ما يناسب قوته الخاصة ثم يثاب عليه ، ويحرم عليه الاستغراق فى القوة البهيمية (التى أودعت فيه) ويعاقب عليه[١٣]، وتتجلى فى هذا الصدد دراسة الإمام الدهلوى الدقيقة الواسعة للنوع الإنسانى والحيوانات والنباتات ، كما تتجلى معرفته بعلوم الطبيعة والطب وعلم النباتات ، وقد أثبت الإمام الدهلوى - عقلياً - أن ما يمتاز به الإنسان من الحيوانات والنباتات وما أودع فيه من الاستعدادات والصلاحيات والمقتضيات الفطرية ، كلها تطلب - بلسان حالها - « التكليف الشرعى » والهداية الربانية ، ويعبر الإمام الدهلوى عن ذلك بألفاظ « التكفف الحالى » البليغة ويزيد عليها « التكفف العلمى » .

إنه يرى أن الإنسان يملك - عدا قوتى العقل والنطق - شيئين آخرين وهما : « زيادة القوة العقلية » و « براعة القوة العملية » فليس الإنسان يمتاز عن غيره بوجود القوة العقلية والقوة العملية فيه ، بل إن طبيعته تتطلب - كذلك - التقدم والرقى وعلو الهمة وتسعى نحو الكمال ، ولا تشبع من شيءٍ ويرى الإمام الدهلوى أن خلق الملائكة ووقوع الحوادث العظيمة وإرسال الرسل نتيجة لهذه المطالب الفطرية ، وهى مظهر رائع للعناية بهذا النوع والاهتمام به ، الذى يشمل نوع البشر كلهم ، وهى من تجليات الربوبية والرحمة الإلهية ، إنه يرى أن العبادات والقربات والعمل بالشرائع كل ذلك من المقتضيات النوعية للنوع البشرى كأكل السباع للحوم ورعى البهائم للحشيش واتباع النحل لليعسوب ،إلا أن الحيوانات استوجبت تلقى علومها إلهاماً جبلياً، واستوجب الإنسان كسب علومه كسباً ونظراً أو وحياً وتقليداً[١٤] .

ثم يصرح الإمام الدهلوى بأن المجازاة على الأعمال كذلك من مقتضيات التكليف ويرى لذلك أربعة أسباب :

---

(١٢) أى تكليف الله - تعالى - عباده بالعمل بأحكامه وأوامره والاجتناب عن محرماته ونواهيه ، وقد عبر عنه فى القرآن الكريم بالأمانة ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات إلخ** ﴾ [سورة الأحزاب : ٧٢] ، وانظر تفسيرها فى « حجة الله البالغة » ص : ١٩ .

(١٣) أيضاً ، ص : ٢٠ .

(١٤) أيضاً ، باب إنشقاق التكليف من التقدير ، ص : ٢٠ - ٢٤ .

١ - مقتضى الصورة النوعية.

٢ - جهة الملأ الأعلى[١٥] .

٣ - مقتضى الشريعة المكتوبة عليهم .

٤ - مقتضى بعثة الأنبياء ونتيجتها ، ولازم قضاء الله - تعالى - بالنصر له والتأييد[١٦] .

ثم إنه يوجد لأجل اختلاف الجبلة والطبائع فى بنى البشر اختلاف وتفاوت فى الأعمال والأخلاق ودرجات الفضل والكمال ، وقد ذكر الإمام الدهلوى فى هذه المناسبة ثمانية صور لاجتماع « الملكية » و « البهيمية » ونسبتها فى الغلبة والضعف ونوعية العلاقة بينها (التى يعبر عنها بمصطلحى « التجاذب » و « الاصطلاح » وخواصها ، وذكر ما يرجح منها، وإن هذا البحث والتضريع من أمثله ذكاء الإمام البالغ وقوة استقرائه ودقته ومن خصائص هذا الكتاب وميزاته[١٧] ، وتتجلى فيه الدراسة الممعنة الدقيقة للفطرة الإنسانية وأوضاعها وأحوالها .

أهمية الأعمال وآثارها :

يتناول الإمام االدهلوى مبحث أهمية الأعمال[١٨] وتأثيرها على الملكات الإنسانية والأشكال التى ترتب آثارها فيها فى الدنيا والآخرة ، يقول : « وبالجملة فتؤثر الأعمال حينئذ تأثير العزائم والرقى المأثورة عن الاسلف بهيئتها وصفتها والله أعلم »[١٩] .

وهكذا تعد هذه المباحث الأولية التمهيدية ذهن القارىء للنظر فى المباحث التالية التى تقوم على أساس إدراك المقتضيات النوعية وأساب التكاليف الشرعية وما يترتب عليها من مجازاة ونتائج ومقتضيات الربوبية والرحمة وأهمية الأعمال وصلتها بهيئة الناس الاجتماعية وعلاقاتها بالحياة البشرية ، والاعتراف بهذه الحقائق الغيبية والعوالم والأشياء غير المرئية .

---

(١٥) لقد تحدث الإمام الدهلوى فى مبدأ الكتاب عن عالم المثال والملأالأ على ، إذ أنه تكرر الإحالة والإشارة إليهما فى كلامه كثيراً ، ويصعب فهم كثير من الآيات والأحاديث بدون التعرف عليهما ، انظر ص : ١٣ - ١٥ .

(١٦) أيضاً ، ص : ٢٥ .

(١٧) أيضاً ، ص: ٢٥ .

(١٨) أيضاً ، ص : ٢٩ - ٣٢ .

(١٩)حجة الله الابالغة ، ص : ٣٠ .

الارتفاقات :

يخيل إلينا من دراسة «حجة الله البالغة» أن أنظار الإمام الدهلوى البعيدة الغور ودراسته العميقة الموضوعية للأوضاع المتطورة والظروف المتغيرة تفطنت (بفضل التأييد الإلهى) إلى أنه قد أظل ذلك العهد الذى سوف يحاول فيه الناس الكشف عن أسرار الأحكام الشرعية لا سيما تعاليم السنة النبوية وإرشاداتها وحكمها وصالحها ، ويستطلعون فوائدها العملية والاجتماعية والمدنية ويبغون - فى الجانب الآخر - التعرف عل الصلة الحقيقة بين الدين والحياة ، ويحاولون فهم التعاليم الدينية والهداية السماوية فى المحيط الواسع للحياة ، وفى سياق العلاقات المشتركة بين الناس وصلة الأسباب بالنتائج ، والاطلاع على منافعها وفوائدها .

لذلك بدأ الإمام الدهلوى كتابه « حجة الله البالغة » الذى ألف أصلاً وبالذات فى بان حكم االشريعة الإسلامية وأسرارها وشرح الحديث والسنة شرحاً عقلياً علمياً - قبل بدئه بالحديث عن النظام التشريعى الذى يشتمل على تلك الأوامر والنواهى التى تتعلق - أصلاً - بالثواب والعقاب والنجاة والفالح فى الآخرة ، والتى عبر عنها الإمام الدهلوى فى إصطلاحه بـ « مبحث البر والإثم » ، بدأ كتابه بتلك المباحث والمواضيع التى تتعلق بالنظام التكوينى فى العالم والحياة البشرية ، والتى تتكون بالالتزام بها هيئة اجتماعية صحيحة ومدنية صالحة ، وقد استخدم الإمام الدهلوى لذلك مصطلح « الارتفاقات »[(٢٠)] ، الذى لم يستخدمه قبله - فى حدود علمي - المتكلمون والفلاسفة وعلماء الاجتماع المسلمون (بهذا الوضوح والتسلسل والاستمرار على الأقل) .

أهمية الارتفاق :

يراد بالارتفاق - عند الإمام الدهلوى - اشتراك أفراد الناس فى الانتفاع بعضهم من بعض والتعاون فيما بينهم ، والمشاركة فى العمل والتدابير النافعة لإنشاء حياة مدنية معتدلة متزنة ، وهكذا عالج الإمام الدهلوى ناحيتى السعادة البشرية الفردية والاجتماعية والحياتين الدنيوية والأخروية ، ويرى الإمام الدهلوى أن هذا النظام التكوينى لا يلزم أن يوافق النظام

---

(٢٠) جاء فى « لسان العرب » تحت أصل « رفق » ، يقال للمتطبب مترفق ورفيق والرفق والمرفق ما استعين به ، وقد ترفق به وارتفق ، وفى التنزيل : ﴿ ويهيىء لكم من أمركم مرفقاً ﴾ . وهو ما ارتفقت، وانتفعت به ، وقد ترفق عليه وارتفق : توكأ ، وقال عز وجل : ﴿ **نعم الثواب وحسنت مرتفقاً** ﴾ وترافق القوم وارتفعوا : صاروا رفقاء ، (انظر « لسان العرب » « رفق ») .

التشريعى الذى بعث به الأنبياء فحسب ، بل يلزم أن يمده ويتعاون معه ، ويخدم أغراضه ومقاصده ، وهو أول من أثبت - من بين علماء الأخلاق والمتخصصين فى علم الاقتصاد - صلة عميقة قوية بين علم الأخلاق وعلم الاقتصاد ، وإنه عندما تنقطع هذه الصلة فإن الاقتصاد والأخلاق يعانى كل منهما أزمة شديدة تترك آثارها على الدين والأخلاق ، والحياة المطمئنة الآمنة ، والعلاقات الطيبة القائمة بين أفراد الناس والمدنية والحضارة ، ويرى أن أخلاق الناس الاجتماعية تعانى من الهبوط والفساد عندما يؤدى بهم الجور والعسف إلى ضائقة اقتصاية أو أزمة اقتصادية ، وعندئذ يظل الإنسان - الذى أودع الله - فيه الملكات الروحية السامية وإمكانيات الرقى الكثيرة - فى حيرة واضطراب للحصول على لقمة عيش شأن الثور والحمار ، ويحرم من جميع السعادات ومدارج الرقى والكمال .

أهمية الحياة المدنية والاجتماعية وأشكالها :

يعرف الإمام الدهلوى بالحياة المدنية والاجتماعية (التى يصف مركزها بـ « المدنية ») تعريفاً علمياً لم يسبق إلى أفضل وأجمع منه (لدى الحكماء والمؤلفين) إلى هذا العصر ، يقول فى باب «سياسة المدنية » :

« وأعنى بالمدنية جماعة متقاربة تجرى بينهم المعاملات ، ويكونون أهل منازل شتى»(٢١) .

ويعرف بسياسة المدنية بما يلى :

« هى الحكمة الباحثة عن كيفية حفظ الربط الواقع بين أهل المدينة » (٢٢) .

ثم يزيد تعريف هذه الحياة المدنية أو « المدينة » بياناً ، فيقول : « المدينة شخص واحد من جهة ذلك الربط ، مركب من أجزاء وهيئة اجتماعية » (٢٣) .

وينقسم « الارتفاق » عنده إلى قسمين :

١ - الارتفاق البدائى الضرورى الذى يتمكن منه أهل البادية أيضاً .

٢ - الارتفاق الاجتماعى أو الراقى الذى يحصل لأهل المصر (أهل المدينة) .

ويأتى بعد هذين القسمين القسم الثالث ، وهو قسم السياسة والإدارة ، ثم ينتج عن

---

(٢١) حجة الله البالغة ، ص ٤٤ .

(٢٢) أيضاً ص : ٤٤ .

(٢٣) أيضاً .

ذلك قسم رابع وهو قسم الخلافة العامة ، ويؤكد الإمام الدهلوى فى « الإرتفاق الرابع » على حفظ العلاقات المشتركة بين أهل « الأقاليم » (أى مناطق البلاد النائية البعيدة) والحاجةإلى هذه العلاقة (بين مختلف المناطق) كحاجة العلاقة بين أفراد مدينة واحدة فى حالتها البدائية المحدود (٢٤) .

صور المكاسب ووجوه المعاش المحمودة والمذمومة :

ولا يغفل الإمام الدهلوى أثناء تعرضه لبيان وجوه المعاش ووسائل الكسب المختلفة ذكر الوسائل المنافية للأخلاق والفطرة السليمة ، يقول :

« وبقيت نفوس أعيت بهم المذاهب الصالحة ، فانحدروا إلى أكساب ضارة بالمدينة كالسرقة والقمار والتكّدى » (٢٥) .

وقد صدرت من قلم الإمام الدهلوى فى صدد موضوع الارتفاقات حقائق تشير إلى عمق تفكيره وبعد نظره فى تاريخ رقى البشرية والاجتماع والمدنية وازدهارها وهبوطها وانحطاطها، يقول :

« كلما رقَت النفوس وأمعنت فى حب اللذة والرفاهية تفرعت حواشى المكاسب واختص كل رجل بكسب » (٢٦) .

ويذكر الإمام الدهلوى فى ما يضر بالحياة المدنية أن يتفق أهل المدينة على وسيلة واحدة للكسب ، مثل أن يشتغل كلهم بالتجارة ويدعوا الزراعة ، أو يكسبوا قوتهم عن طريق الحروب والغارات ، إن الزراعة - عنده - كالطعام ، والصناعة والتجارة والنظام والإدارة كلها كالملح ، وقد صرح فى هذا الصدد بحقيقة لطيفة دقيقة ، يقول :

« وغالب سبب خراب البلدان فى هذا الزمان شيئان :

---

(٢٤) أيضاً ، ص : ٤٧ .

(٢٥) أيضاً ص : ٤٣ .

(٢٦) وقد ذكر الإمام الدهلوى فى هؤلاء المضيقين الذين يصبحون كلا على بيت المال ويتعودون التكسب بالأخذ منه ويملكون الإقطاعات ويعتادون الجوائز والصلاة والكسب المجانى بدون أى خدمة للدولة فى البلاد ، الغزاة والعلماء والزهاد والشعراء الذين يدعون حقوقهم فى بيت المال دون القيام بمصلحة البلاد ، وقد دخل فى ذلك النظام الإقطاعى الذى كان قد أجحف بمالية البلاد ، وأوجد جنداً من الطاعمين الكاسين الذين يأكلون ويعيشون دون مقابل من جهد ، ويقدر من ذلك بصيرة الإمام الدهلوى السياسية ومعرفته العميقة لأسباب سقوط الدولة المغولية .

١ - أحدهما : تضييقهم على بيت المال .

٢ - والثانى : ضرب الضرائب الثقيلة على الزراع والتجار والمتحرفة والتشديد عليهم .

ثم يقول فى آخر هذا المبحث : « فلينبه أهل الزمان لهذه النكتة » (٢٧).

ويذكر الإمام الدهلوى فى ضمن العوامل التى تؤدى إلى الفساد فى المجتمع والمدنية ، كثرة أسباب اللهو والتسلية ، التى تجر إلى الغفلة عن المعاش والمعاد كليهما ومن أمثلة ذلك الانصراف إلى لعب الشطرنج ، والإكثار من القنص والصيد ، وإقتناء الحمام وغير ذلك(٢٨)، كذلك الغفلة عن الجرائم الخلقية والتغاضى عنها ، واحتمال تلك الأفعال التى لا يتحملها أصحاب الفطرة االسليمة لأنفسهم ، تلحق الأضرار البالغة بالمدنية ، وتكون سببا من أسباب سقوط الدول والحكومات (٢٩).

السعادة وأصولها الأربعة :

والمبحث الرابع فى الكتاب هو « مبحث السعادة » ، وقد شرح فيه أن الحصول على السعادة من أهم حاجات البشر بل هى أهمها على الإطلاق ، وأنها لا تحصل إلا بتهذيب النفس وإخضاع القوة البهيمية للقوة الملكية (٣٠).

وللسعادة - عند الإمام الدهلوى - أربعة أصول ، وقد بعث لها الانبياء والرسل ، وتفصيلها وبيانها هى الشرائع السماوية ، وأنها - فى الحقيقة - عناوين جامعة لشعب الأديان والشرائع الأساسية ، ومباحثها الأولية ووسائل مؤثرة قوية لتحقيق مقاصد البعثة وتكميل غاياتها ، وهذه الأصول الأربعة كما يلى :

١ - الطهارة (وهى الطهارة البدنية التى تعد الإنسان للتوجه إلى الله - تعالى - والعلاقة به) .

٢ - الإخبات إلى الله - تعالى - .

٣ - السماحة (وهى مكارم الأخلاق ومعالى الأمور) .

---

(٢٧) حجة الله البالغة ، ص : ٤٥ .

(٢٨) أيضاً ، ص : ٤٩ .

(٢٩) حجة الله البالغة ، ص : ٥٠ .

(٣٠) أيضاً ص : ٥١ .

٤ - العدالة [٣١] (وهى ملكة فى النفس تصدر عنـها الأفعال التى يقـام بها نظام المدينة والحى بسهولة) .

وهكذا ألقى الإمام الدهلوى ضوءاً كاشفاً على أسس كمال الشخصية الإنسانية وعلاقتها مع الله - تعالى - وتكوين مـجتمع صالح متـضامن ، وهى من مقاصد الشـرائع السماوية وبعثة الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - .

ثم شرح كيفـية الحصول على هذه الخصال الأربعـة وطريق التحلى بها [٣٢]، ثم تناول بيان الحجب التى تمنع وتحول دون ظهور الفطرة الأصلية ، وقسمها ثلاثة أقسام :

١ - حجاب الطبع (أى غلبة الهواء والمتطلبات البشرية النفسانية) .

٢ - حجاب االرسم : (تأثير البيئة والظروف الخارجية الضارة) .

٣ - حجاب سوء المعرفة [٣٣] : (تأثير التعليم والتربية والعقائد الفاسدة) .

ثم بين كيفية معالجة هذه الحجب ورفعها وإزالتها [٣٤] .

العقائد والعبادات :

يبدأ الموضوع الحقيقى للكتاب ، وهو « المبحث الخامس » منه بـ « مبحث البر والإثم » ، وهو - فى حقيقة الأمر - موضوع الكتاب الأصيل وغايته التى ألف لها [٣٥] .

وقد تناول الإمام الدهلوى - أولاً - التوحيـد من « أصول البر » ، لأنه أصل الإخبات والإنابة التى هى أكبر وسيلة للحصـول على السعادة ، وقد ذكر الإمام الدهلوى - فى هذا الصدد - أربع مـراتب للتوحيـد وبين حقيقـة إشراك المشركـين العرب [٣٦]، وينتقل بعد الحديث عن التـوحيد إلى الإيمان بصفـات الله - تعالى - والإيمان بالقدر وتعظـيم شعائر الله، وأهم هذه الشعائر وأبينها - عند الإمام الدهلوى - القرآن الحكيم ، والكعبة المشرفة ،

---

(٣١) يراجع تعريف هذه الأصول فى ص : ٥٤ من الكتاب .

(٣٢) أيضاً ، ص : ٥٥ - ٥٦ .

(٣٣) انظر للتفصيل : ص : ٥٦ ، من المصدر السابق .

(٣٤) انظر شرح هذه الحجب وطرق إزالتها فى ص : ٥٧ - ٥٨ .

(٣٥) أيضاً ص : ٥٨ .

(٣٦) مر هذا البحث فى الباب الخامس من هذا الكتاب .

والنبى الكريم - عليه الصلاة والسلام - ، والصلاة ، ثم يتحدث عن العبادات ، والفرائض والأركان ، ويبحث عن أسرار الوضوء والغسل وأسرار الصلاة وأسرار الزكاة وأسرار الصوم ، وأسرار الحج بصورة إجمالية(٣٧) ، وهذه المباحث - رغم أنها كلية إجمالية - تحتوى على نكات ولطائف لا تظفر بها فى أى كتاب آخر .

وعلى سبيل المثال يقول فى أسرار الصلاة :

« وأحسن الصلاة ما كان جامعاً بين الأوضاع الثلاثة (القيام ، والركوع ، والسجود) مترقياً من الأدنى إلى الأعلى ، ليحصل الترقى فى استشعار الخضوع والتذلل وهو ينسجم مع العقل والفطرة » .

ثم ذكر الإمام الدهلوى وجه عدم الاقتصار فى العبادة على التفكر فى عظمة الله والمراقبة لجلاله ودوام ذكره (الذى هو طريق الحكماء والرهبان الهنادك ، وجرى عليه بعض الصوفية المنحرفين) ، وبين أن هذا التفكير والمراقبة كانت تتيسر للذين يتفق ذلك وطبيعتهم الخاصة وتنفعهم ، وكان بإمكانهم أن يتقدموا ويترقوا عن طريقها ، أما الصلاة ، فهى المعجون المركب من الفكر المصروف تلقاء عظمة الله باالقصد ، وهى نافعة لعامة الناس وخاصتهم ، ترياقاً قوى الأثر ولا شىء أنفع علاجاً لغوائل الرسوم (تأثيرات البيئة الفاسدة) منها ، ولا شىء فى تمرين النفس على انقياد الطبيعة للعقل وجريانها فى حكمة مثل الصلاة (٣٨) .

أما الصوم والحج ، فقد جاءت عنهما إشارات فى هذا المبحث ، ولكن ما سجله الإمام الدهلوى فى الجزء الثانى من الكتاب من مقاصده وأسراره وحكمه ، لم أقف على مثيله قبل ذلك فى أى كتاب ، وسيأتى ذكرها فى موضعها فى الصفحات القادمة .

السياسات الملّية والحاجة إلى هداة السبل ومقيمى الملل :

عنون الإمام الدهلوى المبحث السادس بـ « مبحث السياسات الملّية » ، وهو من أهم المباحث فى الكتاب (٣٩) ، وقد صرح الإمام الدهلوى فى الباب الأول منه - فى بلاغة ودقة

---

(٣٧) وقد جاء تفصيل هذه الحكم والأسرار فى الجزء الثانى من الكتاب حيث بحث فيها فى ضوء الأحاديث الواردة فى هذه الأبواب .

(٣٨) حجة الله البالغة ص : ٧٣ .

(٣٩) أيضاً ، ص: ٨٣ - ٨٤ .

وواقعية - بوجوه حاجة الناس وأسبابها إلى هداة السبل ومقيمي الملل (الأنبياء والرسل) ولماذا لا تكفيهم فى هذا الصدد عقولهم العامة وفطرتهم السليمة ، ثم بحث فى صفات هؤلاء الهداة المرسلين والشروط التى لابد من توافرها فيهم ، وأنهم كيف ومتى يستطيعون أن يحققوا مقاصدهم ، وينجحوا فيها ، ويمتاز هذا الباب عن عامة البحوث والكتابات فى كتب علم الكلام حول إثبات النبوة ، ويشتمل على الزاد الكافى لإقناع العقول السليمة ، الذى لا يتوفر فى عامة كتب العقائد وعلم الكلام ، والباب الذى يبحث فى مكانة النبوة ودورها وخصائصها فى هذا المبحث ، يدل - دلالة واضحة - على معرفة الإمام الدهلوى بروح الشريعة وحقيقة طبيعة النبوة ، ودراسته العميقة للنفس البشرية واطلاعه الدقيق على منابع الأخلاق الباطنة ، وقد جاء فى هذا الباب بحث مفصل عن أسباب بعثة الأنبياء والرسل أيضاً .

البعثة المقرونة :

يقول الإمام الدهلوى : « وأعظم الأنبياء شأنا من له نوع آخر من البعثة فتكون بعثه مقرونة ببعثة أخرى،أى أن شعباً بل أمة بأسرها تبعث مع بعثته ويناط بها واجب الدعوة والتبليغ وتتلقى منه وتستعد بين يديه لتكون واسطة ووسيلة لتعليم الآخرين من الناس وتربيتهم وتزكيتهم ، فتكون بعثة النبى بالأصالة ، وهى التى تسمى (النبوة) وتكون بعثة الأمة ، وتوليها لخدمة الدعوة بالنيابة والوساطة وقد كانت بعثة سيدنا محمد ﷺ هذه البعثة الجامعة المقرونة ، التى أقامت أمة بأسرها لتكون آلة وجارحة تشتغل فى خدمة مسئولية النبوة ونشر دعوتها ورسالتها ، وقد استعمل لذلك ألفاظ البعثة أو ما فى معناها من التعبيرات يقول الله - تعالى - :

﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** ﴾ (٤٠) .

وجاء لفظ البعثة - صريحًا - فى الأحاديث النبوية ، فقد خاطب - ﷺ - أصحابه الكرام بقوله :

« فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين » (٤١) .

وأخص مباحث هذا الباب هو المبحث الذى تناول فيه الإمام الدهلوى سيرة الأنبياء

---

(٤٠) سورة آل عمران ، الآية : ١١٠ .

(٤١) انظر « حجة الله البالغة » ، ص : ٨٤ .

والرسل - عليهم الصلوات والتسليمات - وذوقهم وطبيعتهم ومنهج دعوتهم وأسلوب تبيهم وخطابهم ، ويقدر منه دقة نظر الإمام الدهلوى ، ودراسته العميقة لخصائص النبوة والأنبياء وتدبره الغائص العميق للقرآن الحكيم (٤٢) .

إهدار القيم الخلقية والإيمانية وبؤس الإنسانية فى المدينتين الرومية والإيرانية :

لم يكن عهد الجاهلية مختصاً بالعرب الجاهليين ، بل كانت هى أزمة إعتقادية وخلقية واجتماعية واقتصادية وسياسية عالمية شديدة ، أحدقت بالدنيا كلها ، وشملت بسيط الأرض، ولكن الإيرانيين والروم كانوا قادة هذه الأزمة والمسئولين الأولين عنها ، لأن مدينتهم كانت المدينة الراقية التى تعتبر المقياس فى عالمهم المعاصر وكان الناس يحذون حذوها، ويقلدونها فى كل مكان ، وكانت بلادهم ومدنهم الرئيسية الكبيرة ، ومجتمعهم أنفسهم أولا وقبل كل شىء عرضة لهذه الأزمة والفساد .

إن تصوير الإمام الدهلوى لهذا الوضع الجاهلى ، وأسبابه التى أشار إليها لم نجد تصويراً أصدق منه وأدق فى أى كتاب من كتب التاريخ والسيرة ، ولم نجد أى ريشة بارعة لأى عالم من علماء فلسفة التاريخ والعلوم العمرانية ترسم مثل هذا التصوير الصادق الدقيق، وهنا يسطر قلم الإمام الدهلوى من روائع البيان ما يدل على أنه بلغ الذروة العليا فى جزالة التعبير وقوة الأداء وحسن الإنشاء (٤٣) .

وننقل فيما يلى ما قاله الإمام الدهلوى فى هذا الصدد إذ أنه يقدر منه ما امتاز به من نظرة عميقة فى التاريخ وصلاحية التوصل إلى لب الحقيقة والاستعداد الموهوب للتحليل الصحيح الدقيق للأوضاع والظروف ، يقول الإمام الدهلوى :

« اعلم أن العجم والروم لما توارثوا الخلافة قروناً كثيرة ، وخاضوا فى لذة الدنيا ونسوا الدار الآخرة ، واستحوذ عليهم الشيطان ، تعمقوا فى مرافق المعيشة وتباهوا بها ، وورد عليهم حكماء الآفاق ، يستنبطون لهم دقائق المعاش ومرافقه ، فما زالوا يعملون بها ، ويزيد بعضهم على بعض ، ويتباهون بها ، حتى قيل : أنهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجاً قيمتها دون مائة ألف درهم ، أو لا يكون له قصر شامخ

---

(٤٢) أيضاً ، ص : ٨٦ .

(٤٣) هذه القطعة نموذج رائع لقوة البيان وسلاسة التعبير وجمال الأداء ، ولذلك اختارها المؤلف « لمختاراته فى الأدب العربى » وضمها كنموذج رائع إلى مجموعة القطع الأدبية .

وآبزن وحمام وبساتين ، ولا يكون له دواب فارهة ، وغلمان حسان ، ولا يكون له توسع فى المطاعم وتجمل فى الملابس ، وذكر ذلك يطول وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم ، فدخل كل ذلك فى أصول معاشهم وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزع . وتولَّدَ من ذلك داء عضال ، دخل فى جميع أعضاء المدينة ، وآفة عظيمة لم يبق منهم أحد من أسواقهم ، ورستاقهم ، وغنيهم وفقيرهم إلا قد استولت عليه وأخذت بتلابيبه وأعجزته فى نفسه وأهاجت عليه عموماً وهموماً لا أرجاء لها ، وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلاّ ببذل أموال خطيرة ، ولا تحصل تلك الأموال إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم ، والتضييق عليهم ، فإن امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم ، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر يستعمل فى النضج والدياس والحصاد ولا تقتنى إلا ليستعان بها فى الحاجات ثم لا تترك ساعة من العناء حتى صاروا لا يرفعون رءوسهم إلى السعادة الأخروية أصلاً ، ولا يستطيعون ذلك ، وربما كان إقليم واسع ليس فيهم أحد يهمه دينه » (٤٤) .

مباحث نافعة أخرى :

ثم يأتى مبحث أن أصل الدين واحد ، وأن اختلاف المناهج والشرائع إنما هو مراعاة لعصر خاص وقوم بعينهم ، ثم يشرح أسباب المؤاخذة على المناهج رغم أن أصل الدين و...

وبعد مباحث جانبية فى أسرار التيسير والترغيب والترهيب وغيرهما ، يثبت الإمام الدهلوى الحاجة إلى دين ينسخ جميع الأديان والشرائع االسابقة ،وأنه كيف يمكن حفظ هذا الدين من التحريف ، وما هى المنافذ والأبواب التى يدخل منها التحريف وما هى الصور والأشكال التى يتجلى فيها ، وما هى القوالب التى تتقمصها ، وما هى الطرق التى اختارتها الشريعة لسد ذراعه والحيلولة دونه ، وما هى التدابير والأحكام التى أصدرتها لأجل ذلك ، ثم بين - فى تفصيل ووضوح - ما كانت عليه الجاهلية فى عهد البعثة التى قام نبينا ﷺ لإصلاحها وإقامة اعوجاجها .

مكانة الحديث والسنة وموقف الأمة منهما :

يأتى المبحث السابع فى الكتاب بعنوان : « مبحث الشرائع من حديث النبى ﷺ » وترد

---

(٤٤) حجة الله البالغة ، باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم ، جـ : ١ ، ص : ١٠٤ - ١٠٧ .

فيه أبحـاث تتعلق - مبـاشرة - بفهم الحديث الشـريف والسنة النبوية المشرفة ، واسـتنباط المسائل منها ، وأقسام العلوم النبوية ، وكيفية تلقى الشريعة من النبى ﷺ وطرقها وطبقات كتب الحديث ، وطرق استفادة المطالب والمعانى الـشرعية من الكتاب والسنة ، والقضاء فى الأحاديث المختلفة جمعاً وتطبيقـاً وترجيحاً وغير ذلك ، ويبحث الإمام الدهلوى - فى هذا الصدد - فى غاية من الدقة والإتقان فى اختـلاف الصحابة والتابعين فى المسائل والفروع ، ويذكر أمـثلة لذلك ، ثم يتـعرض لاختـلاف المذاهب الفقـهيـة ، واختلاف أهـل الحديث وأصحاب الرأى والفرق بينهما ، ثم يشرح موقف الناس خاصتهم وعامتهم ، - قبل القرن الرابع وبعده - مـن الاستفـتاء فى المسائل ، وسـؤال العلماء والعـمل بالأحكام الشرعـية ، ويفيض فى هذا المبـحث ويوضحه فى تفـصيل وهو يشتـمل على أبحاث دقيـقة عميـقة ، يصعب العثور عليها فى أى كتاب آخر من كتب أصول الفقه أو علم الكلام .

أسرار الفرائض والأركان وحكمها :

لقـد بحث الإمـام الدهلوى في الأحـاديث الواردة فى أبواب العـقـائد ، والعـبـادات والمعاملات ، والإحسـان والتزكية ، والمقامات والأحوال ، وطرق كـسب المعاش ، والتبرع والتعاون ، وتدبير المنزل ، والخـلافة والقضاء والجهاد ، والأطعـمة ، والأشربة ، واللباس والزينة ، وآداب الصحبـة والاجتماع ، وبحث أخيراً فى الفتن والملاحم وأشـراط الساعة ، وقد عـرض - فى هذا الصدد - خلاصـة طيبة للسـيرة النبـوية - صلى الله على صاحبـها وسلم - وقد شـرح أسرار هذه الأبواب المختـلفة بأسلوب لا تنقـطع فيه صلة هـذه المسائل والأحكام بالحيـاة والمدنية وعلم الأخـلاق ، وهذا هو - فى الحقيـقة - الموضـوع الأساسى المحورى للكتــاب ، وقد كان الإمـام الدهلوى يهدف إلى أن تدرس الأحاديث الشـريفة فى ضوء هذه الأسرار والحكم مع ربطها وإحكام صلتها بالأعمال والأخلاق والمدنية والاجتماع ، والسعادة الإنسانية والعلاقات المشتركة بين بنى البشر حتى يكون لها تأثير مطلوب على الحياة والعمل والأخـلاق والمدنية والاجتمـاع ، ويثبت موافقـة العقل الصريح للنقل الصـحيح ، وحتى لا تتهيأ أى فرصة للمعـترضين المنتقصين فى اعتراضهم على الأحاديث ، والحط من شأنها وتقليل قـيمتها وفائدتهـا وانتقاص أهميتهـا والحاجة إليها (وهو الذى كانت تـفرسته بصيرة الإمام الدهلوى ، وتفطن إليه بعد نظرة وتفكيره الواقعى) وإيجاد الاضطراب العقلى والفكرى فيـما يتعلق بها ، وأن مـا سطره الإمام الدهلوى فى موضوع الأركـان الأربعة لا يجاريه فيه أحـد من المؤلفين ، وهو من خصائص « حجة الله البالغة » ومـزاياه ونورد فيما يلى شيئاً مما قاله الإمام الدهلوى فى ما يتعـلق بمقاصد الصوم والحج وأسرارهما وأشكالهما

الشرعية الإسلامية وحكمهما ولطائفها .

يقول وهو يتحدث عن الصوم وحكمة المقدار المحدد له وتحديد أعداد الصيام (وهو ما يختص بالشريعة الإسلامية) وأحكامه ومسائله الشرعية :

(لم يخير الناس فى عدد الصوم ومقداره) « لأن فى ذلك فتحاً لباب الاعتذار والتسلل، وسداً لباب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإخمالاً لما هو من أعظم طاعات االإسلام (٤٥) .

ثم يقول وهو يذكر مقداره وعدده :

« ثم وجب تعيين مقداره لئلا يفرط أحد فيستعمل منه ما لا ينفعه وينجع فيه ، أو يفرط مفرط فيستعمل منه ما يوهن أركانه ويذهب نشاطه ويفقه نفسه ويزيره القبور ، وإنما الصوم ترياق يستعمل لدفع السموم النفسانية مع ما فيه نكاية بمطية اللطيفة الإنسانية ومنصتها ، فلابد من أن يتقدر بقدر الضرورة » (٤٦) .

ثم يقارن بين قسمين من الصوم (قسم يمسك فيه عن كل الطعام والشراب وكل ما ينافى الصوم اجتناباً كلياً ، وقسم لا يترك فيه إلا بعض الأشياء) ويرجح القسم الأول منه، ويبين فضله فى ضوء التجربة النفسية والتحليل العلمى وعلم النفس يقول :

« إن تقليل الأكل والشرب له طريقان :

١ - أحدهما : أن لا يتناول منهما إلاّ قدراً يسيراً .

٢ - والثانى : أن تكون المدة المتخللة بين الأكلات زائدة على القدر المعتاد ،والمعتبر فى الشائع هو الثانى لأنه يخفف وينفه ويذيق بالفعل مذاق الجوع والعطش ، ويحلق البهيمية حيرة ودهشة ، ويأتى عليها إتياناً محسوساً والأول انما يضعف ضعفاً يمر به ولا يجد بالأ حتى يدنفه ، وأيضاً فإن الأول لا يأتى تحت التشريع العام إلا بجهد ، فإن الناس على منازل مختلفة جداً يأكل الواحد منهم رطلاً والآخر رطلين والذى يحصل به وفاء الأول هو إجحاف الثانى » (٤٧) .

إنه يصرح بأنه لابد فى هنا التعيين وتحديد المواعيد من التوسط والاعتدال ، يقول :

---

(٤٥) حجة الله البالغة ، جـ : ٢ ، ص : ٤٩ - ٥٠ .

(٤٦) أيضاً ، ص : ٤٩ .

(٤٧) زيضا . ص : ٤٩ .

« ثم يجب أن تكون تلك المدة المتخللة غير مجحفة ولا مستأصلة كثلاثة أيام بلياليها، لأن ذلك خلاف موضوع الشرع ولا يعمل به جمهور المكلفين » [٤٨].

وما قاله الإمام الدهلوى عن الحج يعتبر بحثًا ممتازًا فريدًا ، يقول :

« ومنها (أى من مقاصد الحج وغاياته) موافقة ما توارث الناس عن سيدنا إبراهيم ، وإسماعيل - عليهما السلام - فإنهما إمامًا الملة الحنيفية ومشرعاها للعرب ، والنبى ﷺ بعث لتظهر به الملة الحنيفية وتعلو به كلمتها ، وهو قوله - تعالى - : ﴿ **ملة أبيكم إبراهيم** ﴾ [٤٩].

فمن الواجب المحافظة على ما استفاض عن إماميها كخصال الفطرة [٥٠]، ومناسك الحج ، وهو قوله ﷺ :

« قفوا على مشاعركم فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم » [٥١].

ويذكر لها حكمة أخرى ، فيقول :

« كما أن الدولة تحتاج إلى عرضة بعد كل مدة ليستميز الناصح من الغاش والمنقاد من المتمرد ، وليرتفع الصيت وتعلو الكلمة ، ويتعارف أهلها فيما بينهم ، فكذلك الملة تحتاج إلى حج ليتميز الموفق من المنافق وليظهر دخول الناس فى دين الله أفواجاً ، وليرى بعضهم بعضاً ، فيستفيد كل واحد ما ليس عنده ،إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة والترائى »[٥٢].

ويقول :

« وإذا جعل الحج رسمًا مشهوراً نفع عن غوائل الرسوم ولا شيىء مثله فى تذكر الحالة

---

(٤٨) أيضاً .

(٤٩) سورة الحج ، الآية : ٧٨ .

(٥٠) والمراد بخصال الفطرة الخصال العشر ، وهى قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك والاستنشاق بالماء ، وقص الأظفار ، وغسل البراجم ، ونتف الإبط ، وحلق العانة وانتقاص الماء يعني الاستنجاء، أخرجه أبو داود برواية عاشة - رضى الله عنها - قال الراوى ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة ، وقد صرح القاضى عياض والإمام النووى إنها الختان .

(٥١) حجة الله البالغة ، جـ : ٢ ، ص : ٥٦ .

(٥٢) أيضًا جـ : ١ ، ص : ٧٦ .

التى كان فيها أئمة الملة والتحضيض على الأخذ بها »[٥٣] .

ويقول فى موضع آخر :

« ومنها (أى من مقاصد الحج) تحقيق معنى العرضة ، فإن لكل دولة أو ملة اجتماعاً يتوارده الأقاصى والأدانى ليعرف فيه بعضهم بعضاً ، ويستفيد أحكام الملة ، ويعظموا شعائرها ، والحج عرضة المسلمين وظهور شوكتهم واجتماع جنودهم وتنويه ملتهم ، وهو قوله - تعالى - :

﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ﴾[٥٤] .

شمول الكتاب وإحاطته :

إن من مزايا هذا الكتاب وخصائصه أنه يشتمل - عدا المباحث المتعلقة بالفقه والحديث والعبادات والمعاملات - على أبواب تدبير المنزل والخلافة والقضاء وأبواب المعيشة وآداب الصحبة التى تتعلق بالأخلاق والاجتماع والمدينة والاقتصاد ولا يتوقع مثل هذا البحث فيها فى عامة الكتب الفقهية والكلامية .

الإحسان والتزكية :

زد على ذلك أن الإمام الدهلوى قدم فيه نظاماً مرتباً منقحاً للإحسان واالتزكية يستطيع الإنسان بسلوكه على دربة والعمل به أن يبلغ أعلى مدارج الرقى والكمال ، ومراتب الولاية وغاية الأحوال والمقامات ، وقد امتد هذا الباب من الكتاب على الصفحات من ٦٦ إلى ص / ١٠١ ، وقد بحث فيه الإمام الدهلوى عن تلك الطرق والوسائل للإحسان التى وردت فى الأحاديث الصحيحة واكتفى بمجرد التأكيد على روح الاحتساب والاستحضار ، والنية والعزيمة والكيفيات الباطنية القلبية والاهتمام بها ، واقترح علاج الأمراض والعلل الروحية بتلك الطرق المشروعة والفرائض والعبادات والأدعية والأذكار التى صح نقلها ، كما بين طرق العلاج للأخلاق المذمومة الرذيلة وطرق اكتساب الأخلاق المحمودة الفاضلة بالنصوص الثابتة فى الكتاب والسنة[٥٥] .

وقد أورد فى هذا المبحث صيغ الأذكار والأدعية المأثورة ، وشرح طريق الدعاء المقبول

---

(٥٣) أيضًا جـ : ١ ، ص : ٧٦ .

(٥٤) سورة البقرة ،الآية : ١٢٥ .

(٥٥) حجة الله البالغة ، جـ : ٣ ، ص : ٥٦ .

وكيفيته وشروطـه وآدابه ، وقد أكد فيه على القيام بتلبية المقتضيـات الطبعية وحاجات الحياة الإنسانسة والأعمال الدينيـة بالاحتساب واستحضار النية الـصالحة ووضح الفرق بين تأثيرها وكيفيتها بالاحتساب ، وبين ذلك مع الغفلة عن الاحتساب يقول :

« اعلم أن النية روح والعبادة جسد ، ولا حيـاة للجسد بدون الروح ، والروح لها حياة بعد مفارقة البدن ، ولكن لا يظهر آثار الحياة كاملة بدونه ، ولذلك قال الله - تعالى - :

﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماءها ولكن يناله التقوى منكم** ﴾(٥٦) وقال رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات » .

ثم يعرف النية بهذه الألفاظ الجامعة :

« وأعنى بالنية المعنى البـاعث على العمل من التصديق بما أخـبر به الله - تعالى - على ألسنة الرسل من ثواب المـطيع وعقـاب العـاصى ، أو حب امـتثـال حكم الله فـيـما أمـر ونهى»(٥٧) .

وقد أورد الإمـام الدهلوى فى آخر هذا الباب أحاديث منـتقاة تتعلق بالتـحلى بالأخلاق الفاضلة وأداء حقوق العـباد وحسن الصحبة والجوار ، التى يسـتطيع الإنسان بالعمل بها أن يصل إلى أقصى درجـات التزكية والإحـسان ، ثم تناول بيان تلك الأحوال والمقـامات التى تحصل للسالك نتيجة التزكية والإحسـان ، كما أنها تكون نتيجة النور فى الباطن ، وصحوة القلب وصـلاحه ، وزكـاء النفس وطهارتهـا ومرضـاة الله - تعالى - وتأييـد الملأ الأعلى واستبشارهم . .

الجهاد :

ويشتمل هذا االكتاب على باب مستقل حول الجهاد(٥٨) ، وقد بدأه الإمام الدهلوى بهذه الكلمات المثيـرة المنبهة ، التى لا يقولها إلا عـارف خبير يملك بصيرة نافـذة ونظرة ثاقبة فى تاريخ الديانات والملل وأهداف خلق الكائن الإنسانى وغـاياته ، والنظام المطلوب لدى خالق الكون ، يقول :

« اعلم أن أتم الشرائع وأكمل النواميس هو الشرع الذى يؤمر فيه بالجهاد » .

---

(٥٦) سورة الحج ، الآية : ٣٧ .

(٥٧) حجة الله البالغة ، جـ : ٢ ، ص : ٨٣ - ٨٤ .

(٥٨) حجة الله البالغة ، جـ ٣ ، ص : ١٧٠ - ١٧٨ .

ثم شرح ذلك وبينه وأثبته بالعقل والنقل ، ثم ذكر أسباب فضل الجهاد ، وأصوله وضوابطه » (٥٩) .

وبالجملة فإن هذا الكتاب بشموله وعمقه ، وتمثيله الواسع المتسق المترابط للدين والشريعة ، ولمئات من النكات واللطائف والتحقيقات النادرة - التى تنبث على مواضع متفرقة من الكتاب - يحتل مكانة ممتازة فريدة فى المكتبة الإسلامية الزاخرة ويصدق ما قيل: « كم ترك الأول للآخر » .

وقد صدق العلامة شبلى النعمانى إذ قال فى كتابه : « علم الكلام » :

« إن الانحطاط العقلى الذى أصيب به المسلمون بعد ابن تيمية وابن رشد بل فى عهدهما كذلك ، لم يكن قد بقى أمل - نظراً إلى الانحطاط العام - فى ظهور نابغة يملك القلب البصير والعقل الذكى ، ولكن أبت القدرة الإلهية إلا أن تتجلى ، فإذا بالإمام ولى الله الدهلوى يولد فى العهد الأخير الذى كان الإسلام فيه فى محنة وأزمة عقلية علمية ، وقد تضاءلت أمام دقائقه ونكاته مآثر الغزالى والرازى وابن رشد » .

ويزيد قائلاً :

« لم يؤلف الإمام الدهلوى فى علم الكلام كتاباً مستقلاً ، ولذلك فلا يناسب عده فى زمرة المتكلمين ، ولكن كتابه « حجة الله البالغة » الذى كشف فيه عن أسرار الشريعة وحقاقها - هو روح علم الكلام ومحوره » (٦٠) .

ويقول المحقق الفاضل الشيخ عبد الحق الحقانى فى مقدمة ترجمته لـ « حجة الله البالغة» المسماة بـ « نعمة الله السابغة » :

إن الفن الذى ألف فيه هذا الكتاب ، لم يؤلف فيه قبله شىء ولم يدون فى مكان ، فموضوع هذا الفن هو النظام التشريعى المحمدى من حيث المصلحة المفيدة وغايته أن يعلم الإنسان أن أحكام الله - تعالى - ورسوله ﷺ لا عسر فيها ولا ضيق ، ولا تخالف الفطرة السليمة حتى يطمئن بها الإنسان ، وينجذب إليها قلبه ثقة منه بأنها أحكام توافق الفطرة وتتبنى عليها ، ولا يقع بتشكيك المشككين فى الشبهات ، وحَدُّه أنه العلم الذى تعرف به حكم الأصول الدينية والأحكام الشرعية ومبادئه جميع العلوم (المتعلقة بالحياه البشرية)(٦١) .

---

(٥٩) أيضاً ، ص : ١٧٠ .

(٦٠) « علم الكلام » ، ص : ١٠٩ - ١١١ .

(٦١) مقدمة « نعمة الله السابغة » .

الباب الثامن
الحاجة إلى نظام الخلافة وفوائده
وإثبات خلافة الخلفاء الراشدين ، وعظيم منتهم
على الأمة فى ضوء كتاب « إزالة الخفاء
عن خلافة الخلفاء »

أهمية كتاب « إزالة الخفاء » وامتيازه وتفرده :

إن الكتاب الذى يلى كتاب « حجة الله البالغة » فى القيمة والأهمية ، والذى هو مأثره الإمام الدهلوى الفريدة هو كتاب « إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء » وإنه لكثير من خصائصه ومزاياه كتاب فريد فى موضوعه ، ويزخر هذا الكتاب كله بالنكات العلمية المثيرة والإشارات النادرة اللطيفة ، وتتوفر فيه نماذج كثيرة تدل على تدبر الإمام الدهلوى الطويل وتفكيره العميق فى كتاب الله - تعالى - وتجاوبه الموهوب معه وفهمه الغائص الدقيق ، وسرعة البديهة والتفطن لمكنونات الآيات وإشاراتها الدقيقة ، وعمق الاستنباط ودقته ووفرة الذكاء وتوقد الذهن بحيث يتوصل به كل منصف سليم الفكر إلى أن هذا العلم ليس كسبيًا وكتابياً صرفا ، وأن مؤلف هذا الكتاب ليس صنيع المناهج الدراسية المتداولة ، وكتب التفسير وأصول الفقه وعلم الكلام الشائعة فى عصره ، يقتطف منها ، ويجمع فتات فائدتها فحسب ، بل إن علمه نابع من الموهبة الربانية والفيوض الإلهية الخاصة .

وقد صدرت من قلم الإمام الدهلوى نفسه عفواً ، هذه الكلمات التالية فى مبدأ الكتاب :

« والواقع أن نور التوفيق الإلهى ألقى فى روع هذا العبد الضعيف علماً مستقلاً بكل وضوح وتفصيل ، حتى علم علم اليقين أن إثبات خلافة (الخلفاء الراشدين) أصل من أصول الدين عظيم ، وما لم يتمسك الإنسان بهذا الأصل تمسكاً قوياً ولم يعض عليه بالنواجذ بقيت كل مسألة من مسائل الشريعة معرضة للشك والضعف »[1] .

---

(١) إزالة الخفاء ، ص : ١ ، طبع أكاديمية سهيل ، لاهور .

حتى إن العلماء الكبار الذين كانت لهم خلافات مع الإمام الدهلوى وكانوا متوغلين فى العلوم العقلية ومنهمكين فيها ، بل كانوا يحتلون مكانة الإمامة فيها ، لما وقع بصرهم على هذا الكتاب لم يتمالكوا أن أثنوا على مؤلفه واعترفوا بتبحر علمه وسعة معرفته ودقة نظره، يقول الشيخ محسن بن يحيى الترهتى صاحب « اليانع الجنى » :

« إن العلامة فضل حق بن فضل إمام الخير آبادى(٢) وقعت فى يده نسخة من كتاب « إزالة الخفاء » ، فكان أولع بها ويكثر النظر فيها ، أوان فراغه من دروسه وسائر ما يشغله من شأنه ، فلما وقف على كثير منها قال لمحضر من الناس : إن الذى صنف هذا الكتاب لبحر زخار لا يرى له ساحل » (٣).

وقد وصف العلامة فخر المتأخرين أبو الحسنات عبد الحى اللكهنوى (م ١٣٠٤ هـ) - الذى يعترف بتبحر علمه ونبوغه وسعة نظره القاصى والدانى - فى كتابه « التعليق الممجد على موطأ الإمام محمد « كتاب « إزالة الخفاء » بأنه « كتاب عديم النظير فى بابه » (٤).

الصلة بين « حجة الله البالغة » و « إزالة الخفاء » :

لقد كانت الحاجة بعد تأليف كتاب « حجة الله البالغة الذى عرض فيه نظام الإسلام الجامع الشامل المتناسق بطريق يثبت علاقته بالحياة والمجتمع والمدنية ويوضح أنه بدون تنفيذ الأحكام الإسلامية المتعلقة بالعقائد والعبادات والحياة الإجتماعية ، لا يبقى أى أمل فى قيام مجتمع صالح رشيد ومدنية صالحة وحياة إجتماعية متزنة عادلة ، كانت الحاجة لبيان هذه المقاصد والأهداف وتكميلها والقيام بهذه المرحلة بطريقة علمية تحقيقية (تروى غليل الأذهان والطبائع العقلانية لعهد الثورة العقلية التى كان قد أظل زمانها) إلى الكتابة فى خصائص النظام الاجتماعى فى الإسلام وطبيعته ، وأهدافه وغاياته ونطاق عمله ، وعن « الخلافة » (الهيئة الإدارية العالمية الدائمة ، الصريحة المنصوصة لهذا النظام) بهذا االبسط والتفصيل ، والأدلة من العقل والنقل ، وشواهد التاريخ ، وفوق كل ذلك فى ضوء الكتاب المبين والسنة الواضحة ، وتفضح الضلالات والظنون الخاطئة التى ظهرت فى هذا الصدد منذ

---

(٢) اقرأ ترجمته فى « نزهة الخواطر » جـ : ٧ ، وقد وقعت بينه وبين أبناء الإمام الدهلوى والذين كانوا على طريقه مطارحات علمية ، ومناقشات دينية ، لذلك كانت لشهادته قيمة كبيرة .

(٣) انظر « اليانع الجنى » ص : ٩٣ ، المطبوع مع رجال الطحاوى ، و « نزهة الخواطر » جـ : ٦ ، ترجمة الإمام الدهلوى ، ص : ٤٠٦ .

(٤) التعليق الممجد ، ص : ٢٥ ، طبع المطبع اليوسفى .

زمن قديم ، والتى نشـأت بناءً عليها فرقـة جديدة [٥]، كانت قد أحـدثت لسيطرة العناصر الإيرانية فى عهـد الإمام الدهلوى نفسه - بصفـة خاصة - من الاضطراب الفكرى والبلبلة العقليـة ما تخطّى حدود المعتـقدات والأعمال إلى نظام الحكومـة وسلطة المسلمين العليا فى الهند ، وجعلت مستقبل المسلمين فى الهند فى خطر تحوم حوله الشكوك والشبهات .

إن شأن هذه الفرقة (فى نظر أولئك الذين يعـرفون تاريخ مذهبها ومعتقـداتها الأساسية وفهمها وتصورها للدين ، والذين درسوا كتبها المعتبرة ومصادرها المعتمدة لدى أهلها دراسة مباشـرة) ليس شأن خلاف فى الاجتـهاد والقياس ، أو فـرقة جانبيـة لا تخرج عن نطاق الشريعـة الإسلامية ، بل أنهـا تحمل إزاء التصـور الصحيح للدين الذى ينبنى أسـاسه على الكتاب والسنـة وعظمة مكانة النبوة وعـقيـدة ختم النبوة ، تفكيـراً مستـقلاً وتصـوراً دينياً مقـابلاً، ويمكن أن يقدر ذلك - إلى حد مـا - من عقيـدة « الإمامة » لدى الفـرقة الأثنى عشرية ، التى تعتقد أن الإمامة نظير النبوة ، بل تفضُلها وتفوقها فى جوانب كثيرة [٦].

يقول الإمام الدهلوى وهو يبين الغرض الأساسى من هذا الكتاب وغايته الأولى :

« يقـول الفقيـر ولى الله - عفـا الله عنه - إن بدعـة التـشيع راجت فـى هذا العهـد وانتشـرت، وتأثرت طبائع العامـة بشبهاتهم التى أردوها تـأثرا عميقـاً ، ونشأت فى قلوب مـعظم أهل هذه االمنطقـة شكوك وشـبهـات كـثيـرة فى مـوضوع ثبـوت خـلافة الخلفـاء الراشدين»[٧] .

لم يكن نظر الإمام الدهلـوى إلى السطح الظاهر من هذه الفتنة التشـكيكية المُدبَّرة ، بل كان ينظر - ببصيرته الثاقبة - إلى أعماق تلك المؤامرة الخطيرة التى كانت ترسب فى داخلها والتى كانت لتظهـر نتائجها البعـيدة الخطيرة (مثل خيـبة الإسلام وإخفاقـه فى عهده الأول

---

(٥) المراد بها الفرقة الإمامية الشيعية .

(٦) وقع لدينا أخيراً كتاب « الحكومة الإسلاميـة » لقائد الثورة الإيرانية روح الله الخمينى الذى يعرف بآية الله العظمى الإمام الخمينـى ، فقد جاء فيه فى ص : ٥٢ بعنوان « الولاية التكوينيـة » بعد التصريح بأن الأئمة يملكون الخلافة التكوينية ، وتخضع لحكمهم وسلطتهم جميع ذرات هذا الكون ،ما يلى : « وأن من ضروريات مذهبنا أن لأئمـتنا مقاماً لا يقربه ملك مقـرب ، ولا نبى مرسل ، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث ، فإن الرسول الأعظم ﷺ والأئمـة (ع) كانوا قبل هذا العالم أنواراً فجـعلهم الله بعرشه مـحدقين ، وجعـل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمـه إلا الله : (« الحكومة الإسلامية » طبع كتبخانه بزرك إسلامى - إيران) .

(٧) إزالة الخفاء ، جـ : ١ ، ص : ١ .

الزاهر ، وأن صحبة النبى ﷺ لم تثمر ولم تفعل فعلها فى تكوين مجتمع صالح فاضل يوثق به ، ومن نتائج هذا النوع من التفكير والاعتقاد الطبعية وجود عدم الثقة بصيانة القرآن الكريم ، وبقائه على أصالته وصحته ، عن طريق الصحابة الذين شهدوا نزوله وتلقوه عن النبى المعصوم ﷺ مباشرة ، وذلك فى خير القرون ، وكذلك الاضطراب فى صحة الأحاديث ونقل السنة النبوية ، وجميع الأمور التى اتفق عليها المسلمون) ولذلك يقول الإمام الدهلوى :

« كل من يحاول هدم هذا الأصل (ثبوت الخلافة الراشدة وصحتها) وينكر هذا الأصل الأصيل من الدين إنما يحاول هدم جميع الشعب الدينية » (٨) .

ويزيد قائلاً :

« إن الخلفاء الراشدين هم الواسطة بين رسول الله وبين أمته فى أخذ القرآن الكريم وتلقيه » (٩) .

ثم يدرج الإمام الدهلوى فى هذه الدائرة تلك الشعب والعلوم التى حصلت ثروتها للأمة عن طريق الخلفاء الراشدين ، كعلم الحديث وعلم الفقه والإجماع على المسائل المجتهد فيها، والقضاء على اختلاف الأمة وعلم الإحسان (الذى سمى - أخيراً - بعلم السلوك) وتوضيح الفرق بين مراتب علوم الحكمة والأخلاق الفاضلة والأخلاق المذمومة ، وتدبير المنزل ، وسياسة المدينة ، كل هذه العلوم والفنون والشعب الدينية انتقلت إلى الأمة عن طريق الخلفاء الراشدين وبتعليمهم ومنهج عملهم ،وتدين لهم الأمة كلها فى ذلك » (١٠) .

ولذلك كان من المناسب - جداً - أن يشرح - بعد تأليف « حجة الله البالغة » الذى هو تفسير علمى ونظرى للإسلام - كيف طبقت هذه الأصول والتعاليم الإسلامية بعد عهد النبوة - مباشرة - فى عالم الواقع بنجاح منقطع النظير ، وكيف ظهرت فى صورة عملية ، وطبقت على الحياة بطريقة رائعة ، وما هى الآثار التى ترتبت بها على المجتمع البشرى ، وكيف قضت على مدنيتين عتيقتين جبارتين تملكان أزمة السلطة والسيطرة حتى اقتسمتا العالم المتمدن كله ، ويرجع تاريخهما إلى قرون عريقة فى القدم وكانتا تزدهران وتتقدمان تحت ظل الحكومات (الساسانية والرومية) وفى قيادتها وتؤثران على الحياة الإنسانية وتطبعانها بطابعهما ، كيف انتهى دورهما ، وذهبتا أدراج الرياح !؟ (١١) .

---

(٨) أيضاً جـ : ١ ، ص : ١ .

(٩) أيضاً ، جـ : ٢ ، ص : ٤ .

(١٠) انظر للتفصيل « إزالة الخفاء » جـ : ٢ ، ص : ٦ .

(١١) انظر للتفصيل « إزالة الخفاء » جـ : ٢ ، ص : ٥٤ عنوان « تحطيم الدولة الساسانية » وجـ : ٢ ، ص : ٥٩ - ٦٣ عنوان « تحطيم الدولة الرومية » .

مؤلفات قديمة أخرى فى الموضوع :

لم نعثر فى مجموعة الكتب القديمة فى موضوع النظام الاجتماعى والسلطة الحاكمة ودائرة نفوذها وعملها إلاّ على كتب معدودة (بغض النظر عن درجتها وكيفيتها ، بل فى عددها وكميتها كذلك) ويحتل كتاب الإمام أبى يوسف (١١٣ - ١٨٢ هـ) تلميذ الإمام الأعظم أبى حنيفة (م ١٥٠ هـ) وقاضى القضاة فى الخلافة العباسية المعروف بـ « كتاب الخراج » مكانة أولية وأساسية فى هذا الموضوع ، إلاّ أن نطاق البحث فيه لا يخرج عن وسائل الدخل للدولة الإسلامية وماليتها ونظام والمحاصيل والخراج فيها .

وأول كتاب بسيط يجدر بالذكر فى هذا الموضوع هو كتاب « الأحكام السلطانية والولايات الدينية » لقاضى القضاة العلامة أبى الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ) وقد جاء فى ٢٥٩ صفحة من القطع المتوسط ، ويدور الكتاب حول موضوع الإمامة وحكمها الشرعى وشروطها وكيفية انعقادها ، والمناصب التى تتولى تفويضها وتعيين المسئولين عليها ، وواجبات الإمام ومسئولياته ، وأحكام تعيين القضاة والأئمة ، وولاية الصدقات ، والجزية والخراج وغير ذلك من الأحكام وكذلك إقامة الحدود، والحسبة ، وغيرها ، ولم يرد فيه أى بحث فى ثبوت خلافة الخلفاء الراشدين وصحتها ومآثرهم ومناقبهم ومكانتهم فى الدين .

ومن أضخم الكتب فى هذا الموضوع « الغيائى » واسمه الكامل « غياث الأمم فى التياث الظلم »[١٢] ، وهو تأليف شيخ الإمام الغزالى المعروف ، وأستاذ الأساتذة فى عصره ، إمام الحرمين أبو المعالى عبد الملك الجوينى (٤١٩ - ٤٧٨ هـ) وقد ألف هذا الكتاب بإشارة من وزير االدولة السلجوقية الفاضل المعروف نظام الملك الطوسى (٤٠٨ - ٤٨٥ هـ) (مؤسس المدرسة النظامية ببغداد ونيسابور) ولمطالعته ومراجعته ، وقد كان هو فى الحقيقة وزير الملك ألب أرسلان ، وملك شاه السلجوقى ومعتمده ، ولكنه كان فى الوقت نفسه رجل هذه الدولة العظيمة بل الإمبراطورية الكبيرة الوحيد ، وشخصيتها المركزية [١٣] .

وهذا الكتاب يدور حول الأحكام الشرعية للإمامة وصفاتها وواجباتها ، فقد ذكر فى

---

(١٢) طبع هذا الكتاب بتحقيق الدكتور عبد العظيم الديب وبعناية الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصارى على نفقة الشئون الدينية لحكومة قطر عام ١٤٠٠ هـ ، ويشتمل الكتاب على ٦١١ صفحة من القطع الكبير .

(١٣) انظر لترجمته « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، و« طبقات الشافعية » .

القسم الأول منه صفات الأئمة والولاة والقضاة ، كما جاء فيه البحث فى أنه لم يوجد للمسلمين إمام فماذا يجب عليهم عند ذاك ، كما ذكر فيه صفات المفتين والأمراء وفضلهم، وما هى الواجبات العائدة على الأمة عند غيبتهم ، وماذا يجب على المسلمين إذا تسلط عليهم حاكم فاقد الأهلية بالسيف والقوة ، وإذا خلا عصر من العصور من أصحاب الإفتاء فكيف تعمل الأمة وما هى مسئوليتها ، وما هى الأسباب التى توجب خلع الإمام وعزله ، ثم جاء فى تفصيل ذكر الأحكام الفقهية التى يفرض على الأمة معرفتها والعمل بها عند فقدان المفتين ، ومن هنا يتحول الكتاب إلى كتاب فى الفقه الشافعى ، وليس فى الكتاب أى مبحث فى موضوع ثبوت خلافة الخلفاء الراشدين وأهميتها ، إذ أن الكتاب يعالج - فى الحقيقة - موضوع الأحكام الشرعية للإمامة وصفاتها وواجباتها ، وترد فى الكتاب فى مواضع كثيرة تعريضات بكتاب « الأحكام السلطانية » للماوردى وانتقادات على مؤلفه .

والكتاب الثالث الجدير بالذكر فى هذا الموضوع هو « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) وقد صرح المؤلف العلامة فى مقدمة كتابه هذا بأنه رسالة مختصرة اشتملت على أصول السياسة الإلهية والنيابة النبوية وأحكامها التى لا يستغنى عنها الراعى ولا الرعية ، والكتاب - فى الأصل - تفسير وتفصيل للآية الكريمة :

﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿ ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ (١٤).

فعنوان الباب الأول من القسم الأول « الولايات » ، وعنوان الباب الثانى « الأموال » ، وجاء البحث فى القسم الثانى أولا عن حدود الله - تعالى - وحقوقه ، ثم حقوق العباد ، واشتمل الكتاب على ١٦٨ صفحة من القطع المتوسط (١٥).

ولم يتعرض المؤلف فى هذا الكتاب للمباحث التاريخية والأصولية والكلامية المتعلقة بالخلافة الراشدة ، والخلفاء الراشدين ، التى يحتل فيها مؤلف الكتاب الجليل مكانة الثقة والإمامة والاجتهاد ، ولو اعتنى بهذه الناحية لكانت زيادة قيمة فى المكتبة الإسلامية العلمية

---

(١٤) سورة النساء ، الآيتان : ٥٨ - ٥٩ .

(١٥) بين أيدينا طبعة رابعة للكتاب صدرت من دار الكتاب العربى بمصر عام ١٩٦٩ .

والبحوث الموضوعية ، ولكنه كتب بقلمه السيال وعلمه الزاخر فى هذا الموضوع على صفات « منهاج السنة » الذى يتجلى فيه نموذج بحره العلمى الزاخر ، وجولان قلمه القوى السلسال(١٦) .

مكانة الخلافة ومنزلتها فى الإسلام :

يتجلى فى القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة تصور اعتناق الدعوة الإسلامية والدين الحنيف والمؤمنين به فى صورة جماعة منظمة متضامنة متراصة ، وكلمات « الأمة » و «الملة» و « الجماعة » التى استخدمت لهم ، كلها تدل على هذه الحقيقة دلالة واضحة ، ويعرف أصحاب العلم والبصيرة أن هذه الكلمات المستخدمة فى لغة الكتاب والسنة ، واصطلاحهما، لم تستخدم - إطلاقًا - لمحض التصور السطحى للكثرة العددية والتجمع البشرى العام الذى لا يملك أى وزن أو تأثير فى تاريخ الأديان والملل ولا فى مقادير الشعوب والحضارات ، بل لقد زخر القرآن الكريم كله فى صدد بيان وقائع الأمم السابقة حيناً ، وفى التعرض لبيان أسباب القوة والضعف والهزيمة والغلبة حيناً آخر - بعدم تأثير الكثرة العددية ، وخفة الجموع البشرية ، وفقدانها لأى وزن واعتبار ، وغلبة الشر والفساد رغم وجود الأفراد الصالحين الأخيار ، وشقاء الإنسانية ووبؤسها وضعف الحق وخذلانه ، كل ذلك مما يؤكد على أن الأفراد المتفرقين - مهما كان عددهم - لا يحملون - فى ميزان العقل والعدالة - أهمية كبيرة وفائدة مرجوة عامة .

إن الأهداف التى يرمى إليها الإسلام تشتمل على إصلاح العلاقة وتنظيمها وتقويتها بين العبد والمعبود ، ثم توسيع نطاقها وتعميمها ، ومحاولة سبك الحياة الإنسانية فى قالبها ، وتصحيح العلاقات وتطبيقها بين أفراد الجماعة وأعضائها ، وتهيئة الجو والمناخ الصالح لحياة آمنة وادعة مطمئنة ، مهذبة جميلة زاهية ، تتوفر فيها الفرص الكاملة لأداء حقوق العباد ورب العباد ، والبلوغ إلى غايات الكمال ومدارج الرقى والفضل التى أودعت صلاحيتها فى فطرة الإنسان ، لقد حاول الإسلام أن لا تضيع العبقرية البشرية وقوتها العملية فى مقاومة تلك الأخطار والتوقى من تلك الخسائر والأضرار ، وإزالة تلك المفاسد والأراض

---

(١٦) راجع « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام جـ : ٢ ، ص : ٢٥٣ - ٢٧٩ ، دارد القلم الكويتية الطبعة الأولى .

التى تنجم – تارة – نتيجة الحياة الممزقة غير المنظمة ومن القوانين الوضعية تارة أخرى ، وتنشأ حينا كذلك من السلطة المطلقة والحرص الزائد على الحياة والسلطان ، ولابد لذلك من خلافة وإمارة تنبنى على الاعتقاد بقانون نازل من السماء وشريعة ربانية ، وحاكمية الإلهالواحد وألوهيته وربوبيته ، أما الشريعة الإلهية فإنه يلزم الاعتقاد فيها بأنها منزلة من الله العليم الحكيم ، وإنها بريئة عن الأخطاء والمصالح الشخصية والأغراض ، وإنها فوق العصبيات ، والمحسوبيات والعلاقات ، وأما الخلافة والإمارة فإنه يجب عليها أن تكون ترجماناً صالحاً وممثلة صادقة للشريعة الربانية ، بعيدة – إلى حد المستطاع البشرى والإرادة الإنسانية – عن التمييز والعصبية بغير حق ، بريئة عن عدم المساواة بين الناس ، والمحاباة والمداهنة فى الدين .

وقد أصدر الشارع – عليه الصلاة والسلام – لتكميل هذه الأهداف وتحقيقها وظهور نتائجها وثمارها – من أول الأمر – تعاليم وإرشادات يضطر المسلمون – بناء عليها – أن يتكونوا جماعة منظمة مترابطة تخضع لأحكام ولى الأمر وإداراته الذى يمتاز ـ بصفة عامة ـ عنهم بكثير من الخصاص ، ويحافظ على مصالحهم ومنافعهم وحاجاتهم ، وقد اختاروه فى ضوء أصول الشريعة السمحة المرنة العادلة فإذا كان ذلك يتولى « الإمامة الكبرى» فإنه يدعى بـ «خليفة المسلمين » و « أمير المؤمنين » أو « الإمام » أما إذا كان نائباً عنه أو مرشحاً منه أو اختاره المسلمون لتنفيذ أحكام الشريعة وفصل الخصومات وتنظيم الحياة الدينية الاجتماعية – بشكل جزى محلى – فهو « الأمير » .

لقد كان اختيار الخليفة وترشيحه من تلك الواجبات الأساسية على المسلمين أن قدم أكبر المحبين لرسول الله ﷺ وصاحبه الصادق الوفى المستميت دونه ، سيدنا أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وجماعة صحابته الكرام الذين كانوا يفدونه بالمهج والأرواح ويفضلونه على الأنفس والأبناء والآباء ـ رضى الله عنهم وأرضاهم ـ مع أهل البيت الطيبين الطاهرين ـ فصل هذه القضية وترشيح خليفة المسلمين وتعيينه على دفن الجسد الطاهر ﷺ ، ولا يزال هذا تقريبا دين المسلمين وطريقهم عند وفاة أى خليفة واختيار خليفة آخر ، ولم يحرم العالم الإسلامى من يوم اختيار سيدنا أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ خليفة المسلمين عام١١ هـ إلى عهد الخليفة المستعصم بالله العباسى (ت ٦٥٦ هـ) من الخليفة المسلم،وبقى

العالم الإسلامى ـ فى أثناء ذلك ـ بدون خليفة أيام غياب الخليفة المسترشد بالله ووقوعه فى الأسر الذى اعتقله السلطان مسعود السلجوقى فى العاشر من رمضان عام ٥٢٩ هـ ، وذلك لمدة قليلة لا تتجاوز ثلاثة أشهر وسبع ليال وقد كان هذا حادثا أليما وتجربة جديدة قاسية غشى بسببها على العالم الإسلامى السواد وعلاه الحزن والكآبة ، وقامت لها بغداد وقعدت وفى تعبير المؤرخ ابن كثير :

« انزعج الناس لذلك ، وزلزلوا زالزلاً شديداً صورة ومعنى ، وجاءت العامة إلى المنابر فكسروها وامتنعوا من حضور الجماعات ، وخرج النساء فى البلد حاسرات ينحن على الخليفة ، وما جرى عليه من الأسر ، وتأسى بأهل بغداد فى ذلك خلق كثير من أهل البلاد، وتمت فتنة كبيرة وانتشرت فى الأقاليم ، واستمر الحال على ذلك شهر ذى القعدة والشناعة فى الأقاليم ، منتشرة ، فكتب الملك سسنجر إلى ابن أخيه يحذره غب ذلك عاقبة ما وقع فيه من الأمر العظيم ، ويأمره أن يعيد الخليفة إلى مكانه ودار خلافته ، فامتثل الملك مسعود ذلك » (١٧) .

وأن القصيدة المأساوية الحزينة المفطرة للقلوب والأكباد التى قالها الشيخ سعدى - الذى كان بعيداً عن مركز الخلافة فى شيراز - على حادث شهادة الخليفة المستعصم بالله ، التى يقول فى مطلعها ما ترجمته بالعربية :

« لقد حق للسماء أن تمطر على الأرض الدماء على سقوط المستعصم أمير المؤمنين » .

تصرح بنظرة المسلمين إلى الخليفة والخلافة ، ما هو تصورهم لها وما هى عواطفهم التى لا يملكون حبسها وكبتها على حرمان العالم الإسلامى منها .

التعريف الجامع المانع للخلافة :

لقد عرفه الإمام الدهلوى - الذى كان يملك بصيرة نافذة ودراسة عميقة وواسعة للكتاب والسنة والفقه ، والعقائد والكلام والسيرة والتاريخ ، وكان عارفاً بأسرار الشريعة وحقائقها - بالخلافة تعريفاً جامعاً مانعاً يصعب أن يعرف بأفضل وأدق منه ، وإن كل لفة من ألفاظ هذا التعريف تحمل فى طياتها سجلاً من المعانى والحقائق والأمثلة ، يقول :

---

(١٧) البداية والنهاية لابن كثير ، جـ : ١٢ ، ص : ٢٠٨ .

« الخلافة هي الرئاسة العامة في التصدى لإقامة الدين بإحياء العلوم الدينية وإقامة أركان الإسلام ، والقيام بالجهاد وما يتعلق من ترتيب الجيوش والغرض للمقاتلة وإعطائهم من الفيىء والقيام بالقضاء وإقامة الحدود ورفع المظالم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، نيابة عن النبى ﷺ » [١٨].

ثم يقول مبيناً معنى « إقامة الدين » وزيادة إيضاح له :

« عندما ننظر إلى الأمور نظرة استقراء ، وننتقل من الجزئيات إلى الكليات ومن الكليات إلى الكلية الواحدة الشاملة للجميع ، نصل إلى نتيجة أن الجنس الأعلى لهذه الأمور من الأمور من الجزئيات المتشتتة والكليات المتتشرة الكثيرة (وكأنها كلية الكليات) هى تلك الحقيقة (الكلية الجامعة) التى عنوانها « إقامة الدين » والتى تندرج تحتها أنواع وأجناس أخرى منها : إحياء العلوم الدينية التى تشتمل على تعليم الكتاب والسنة والتذكير والموعظة، يقول الله - تعالى - :

﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب ، والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ [١٩]. [٢٠].

الاستدلال بالقرآن الكريم على خلافة الخلفاء الراشدين :

إن أروع ما يحتوى عليه هذا الكتاب وأشوقه للمتذوقين لمعانى القرآن الكريم ، هو ما استدل فيه الإمام الدهلوى على انعقاد خلافة الخلفاء الراشدين وأنهم أصحاب الخلافة الراشدة الحقة وأنه تحقق بهم الأمر التكوينى الربانى والمشيئة الإلهية بآيات كريمات من القرآن الحكيم ، ولفت الأنظار إلى تلك الإشارات بل التصريحات فى الآيات بآيات البينات التى تثبت بداهة - بل فى صوورة نتائج رياضية قطعية فى بعض المواضع - أن هذه الآيات لا تصدق ولا تنطبق إلا عليهم ، ولا يمكن أن يراد بها غيرهم ، وأن هذه النبوءات الواردة فى الآيات لا ترجع إلى غير أشخاصهم وأن الوعود التى انطوت عليها تلك الآيات لم

---

(١٨) إزالة الخفاء ، جـ : ١ ، ص : ٢ .

(١٩) سورة الجمعة ، الآية : ٢ .

(٢٠) إزالة االخفاء ، جـ : ١ ، ص : ٢ - ٣ .

يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ (٢١) .

يقول الإمام الدهلوى : إن هذا الوعد (بالاستخلاف فى الأرض وتمكين الدين والأمن بعد الخوف) إنما كان مع أولئك الذين كانوا موجودين وقت نزول سورة النور ، وقد تشرفوا بالإسلام وصحبة النبى - عليه الصلاة والسلام - وشاركوا فى تأييد الدين الحنيف ونصره ، يقول الإمام الدهلوى - بصراحة ووضوح - إن هذا الوعد لم يكن مع سيدنا معاوية - رضى الله عنه - ولا مع بنى أمية وبنى العباس الذين لم يكونوا - حينذاك - قد دخلوا فى الإسلام ، ولا كانوا موجودين فى المدينة المنورة .

ثم يقول : إنه ليس من الممكن ولا من المعقول أن تولى جماعة المسلمين كلها الخلافة فى الأرض ، ويتبوأون كلهم فى وقت واحد منصب الخلافة ، فلا يمكن أن يراد بذلك إلا بعض الأفراد المعدودين .

يقول :

« ليستخلفنهم » أى ليستخلفن جمعاً منهم، والطاعة والانقياد من لوازم ذلك ، ثم عندما يتحقق هذا الوعد يظهر الدين كله وتحصل له السلطة والسيطرة الكاملة ، وليس كما يقول الإثنا عشريون : إن الدين المرضى عند الله يبقى - دوماً - متستراً مختفياً ، ولذلك اتخذ أئمة أهل البيت التقية شعارهم ، ولم يقدر لهم أن يعلنوا دينهم ويظهروه - جهاراً وعلانية - .

﴿ وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ﴾ أفادت هذه الآية أن ذلك الدين الذى لا يقدر على إظهاره فى زمن هذه الخلافة الموعودة ليس ديناً مرضياً مختاراً عند الله - تعالى-(٢٢) .

كذلك يقول الله تعالى : **﴿ وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ﴾** أى أن الله - تعالى - يخلق فى عهد هذه الخلافة (الموعودة) جواً من الأمن والطمأنينة والسلام بدلاً من جو الخوف والفزع ، ويثبت ذلك أن هؤلاء المستخلفين وسائر المسلمين يعيشون وقت تحقق هذا الوعد فى أمن وسلام ، لا يرهبهم الكفار ذووا الديانات المختلفة ولا تخفيهم جماعة أو قوة، وبالعكس من ذلك يقول الأماميون أن أئمة أهل البيت ما زالوا فى خوف ومطاردة وفزع ، وأنهم استخدموا « التقية » وأنهم واجهتهم - دائماً - من قبل المسلمين أنفسهم محن وبلايا ، وعانوا من الذلة والإهانة ، ولم يعيشوا يوماً مؤيدين

---

(٢١) سورة النور ، الآية : ٥٥ .

(٢٢) ازالة الخفاء ، جـ ١ ، ص : ٢٠ .

منصورين [٢٣]، وقد تحقق وعد الاستخلاف والتمكين فى الأرض على أيدى هؤلاء المهاجرين الأولين والحاضرين وقت نزول آية الاستخلاف ، فإذا لم يكن هؤلاء خلفاء ، فقد بقى هذا الوعد غير محقق ولن يتحقق إلى قيام الساعة - تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً - [٢٤].

والآية الثانية هى آية سورة الفتح رقم : ١٧ ، يقول - تعالى - : ﴿ **قل للمخلفين من الأعراب ... الخ** ﴾ ، وقد بحث الإمام الدهلوى فى هذه الآية بحثاً مفصلاً ، وخلاصته أن نبى الله ﷺ خرج عام ٦ هـ مع جماعة كبير من أصحابه بناءعلى رؤيا رآها، إلى مكة المكرمة ، قاصدين أداء العمرة ، وقد خرج معه ﷺ عدد كبير من أصصحابه لخطورة الحادث ، وظروف مكة المكرمة ، وخطر قيام قريش بالمعارضة والمغاراة ، ولكن لم يخرج معه الأعراب (سكان البوادى) لخوفهم ونفاقهم ، وقد وقع فى الحديبية ذلك الحادث التاريخى لفسخ العزيمة ومعاهدة الصلح مع قريش الذى ذكر فى كتب السيرة والحديث بتفصيل ووقعت هناك بيعة الرضوان التى أعلن الله - تعالى - للمشاركين فيها بنعمة رضاه وبشرهم بالفتح القريب [٢٥]، ثم أعن فى سورة الفتح هذه أن الأعراب - الذين لم يكونوا حاضرين وقت صلح الحديبية والذين انصرفوا عن الزمالة والمشاركة ففى هذه المهمة العسيرة الخطيرة - لا يصحبون ولا يشاركون فى هذا الفتح القريب (فتح خيبر) (الذى وقع فى شهر محرم الحرام عام ٧ هـ) ، ويقول الله تعالى :﴿ **سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم ، يريدون أن يبدلوا كلام الله ، قل لن تتبعونا ، كذلكم قال الله من قبل ، فيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلاّ قليلاً** ﴾ [٢٦].

ثم قيل بعد ذلك لهؤلاء المخلفين أنه لا يؤذن لكم بالمشاركة فى الفتح القريب (فتح خيبر) والاستمتاع بمغانمه ، ولكنكم ستدعون إلى حرب مع أناس أولى بأس شديد ، من صفاتهم أنهم أصحاب قوة وشجاعة وبأس ، ومن خصاصهم أنهم إما أن يقاتلوا أو يدخلوا فى الإسلام ، وليس هناك حل وسط (كالجزية مثلاً) وأن هذه الدعوة والنداء إلى هذه الحرب والقتال يكون لها من الحب والقبول عند الله - تعالى - وأن الداعى إليها يكون له

---

(٢٣) إزالة الخفاء جـ : ١ ص : ٢٠ .

(٢٤) أيضاً : جـ : ١ ص ٢٣.

(٢٥) سورة الفتح : ١٨ .

(٢٦) سورة الفتح ، الآية : ١٥ .

من الوزن والاعتبار ، ويكون له من وجوب طاعته على الناس أنكم إذا قبلتم دعوته ، وأطعتموه يؤتكم الله أجراً حسناً ، وإن توليتم وانصرفتم كما توليتم من قبل يعذبكم الله عذاباً أليماً ، يقول الله - تعالى - .

﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون، فإن تطيعوا يوتكم الله أجراً حسناً ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً﴾ (٢٧) .

يقول الإمام الدهلوى : « يثبت من قوله - تعالى - » ستدعون بالاقتضاء أنه يكون فى المستقبل داع يوجه الدعوة للأعراب (سكان البادية الذين لم يخرجوا مع الجيوش الإسلامية بمناسبة صلح الحديبية) إلى حرب مع قوم ليس لها إلا صورتان اثنتان : إما القتال أو الإسلام ، (ولا يصدق ذلك إلا على المرتدين ممن قبائل العرب الذين لم يكن يحل أخذ الجزية منهم ، فهم إما أن يقاتلوا فيقتلوا فى الحرب أو يسلموا ويعودوا إلى حظيرة الدين) ولم يتحقق هذا إلا فى عهد أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - الذى قاتل المرتدين من العرب وكان حكمهم الشرعى ذلك لا غير ، وليس من الممكن أن يراد به الروم ولا الإيرانيون الذين كانت لهم ثلاث صور ، إما القتال أو الجزية أو الإسلام ، ويثبت بذلك - بداهة - خلافة أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - الذى بعث جيوشه تحت قيادة سيف الله خالد بن الوليد - رضى الله عنه - لمقاتلة هؤلاء المرتدين ، ووجه الدعوة إلى الأعراب، ثم إن الوعد بالأجر الحسن على قبول هذه الدعوة ، والوعيد بالعذاب الأليم على الإعراض عنها ، ليس إلا حق الخليفة الراشد ومنصبه ومكانته (٢٨) .

محتويات قيمة أخرى فى الكتاب :

ويشتمل هذا الكتاب - علاوة على الأدلة والبراهين على إثبات خلافة الخلفاء الراشدين، وذكر مناقبهم ومآثرهم وإنجازات عهودهم ، ومجموعة قيمة صالحة من كلماتهم

---

(٢٧) سورة الفتح ، الآية : ١٦ .

(٢٨) انظر للتفصيل إزالة الخفاء « جـ : ١ ، ص : ٣٨ - ٣٩ ، وقد جاء تأييد هذا الاستدلال فى تفسير العلامة شهاب الدين محمود الألوسى (م ١٢٧٠ هـ) المعروف بـ « روح المعانى » ، يقول الألوسى : « المراد بالمغانم مغانم خيبر كما عليه عامة المفسرين « ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد » وهم على ما أخرج ابن المنذر والطبرانى عن الزهرى : بنو حنيفة ، مسيلمة ، وقومه أهل ليمامة ، وعن رافع بن خديج : إنا كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم ، حتى دعا أبو بكر - رضى الله عنه - إلى قتال بنى حنيفة ، فعلمنا أنهم أريد بها ، وشاع الاستدلال بالآية على صحة إمامة أبى بكر - رضى الله عنه » (روح المعانى ، ص : ١٠١ - ١٠٤) .

وتوجيهاتهم - على فوائد غالية وتحقيقات نادرة ، ونكات لطيفة ومواد قيمة لا تتوفر فى كتب العقائد وعلم الكلام - بصفة عامة - ولا فى كتب التاريخ والسير ، منها تحديد القرون الثلاثة [٢٩]، وبيان الفرق بين الخلافة والملك ، وتفاصيلهما [٣٠] وشرح « الملك العضوض » ، والتصريح بأن دولة بنى أمية وسلطتهم المطلقة لم تكن خلافة ، وهو وإن كان يرى أن الخلافة الراشدة انقضت على سيدنا على - رضى الله عنه - لكنه يتجنب الطعن والوقيعة وإساءة الظن بسيدنا معاوية - رضى الله عنه - وينصح به ، بناءً على ما ورد فى فضله ومناقبه من أحاديث وآثار [٣١] ، أما خلفاء بنى أمية بعده فيقول فى حقهم - بكل صراحة - :

« لما تسلط عبد الملك (بن مروان) على الحكومة زالت الفوضى والاضطراب وظهرت أمور الخلافة الجائرة - التى بينها الرسول - ﷺ أحاديث متعددة - على مسرح الوجود» [٣٢] .

ومن خصائص هذا الكتاب احتواؤه على مادة زاخرة فى المنهج الفقهى لسيدنا عمر الفاروق - رضى الله عنه - ولفتاواه وأحكامه وأقضيته ، وقد تكون منها وظهر « فقه الفاروق » - رضى الله عنه - [٣٣] .

ولعل هذه الخطوة نحو عرض « فقه الفاروق » - رضى الله عنه - بصورة متميزة فريدة، وجمع اجتهاداته وأقيسته وفتاواه كانت الخطوة المباركة الأولى التى أنجزها الإمام الدهلوى مع أولياته وسوابقه العديدة ، لم يؤلف - إلى الآن - فى هذا الموضوع أى كتاب مستقل جامع، إلا أن الدكتور محمد رواس قلعه جى رتب كتاباً ضخماً كبيراً باسم « موسوعة عمر بن لخطاب » - رضى الله عنه - قامت بنشرها مكتبة الفلاح بالكويت ويشتمل الكتاب على ٦٨٧ صفحة من القطع الكبير .

---

(٢٩) إزالة الخفاء ، جـ : ١ ، ص : ١٢١ - ١٢٢ .

(٣٠) أيضاً جـ : ١ ، ص : ١٢٦ .

(٣١) أيضاً ، ص : ١٤٦ جـ : ١.

(٣٢) أيضاً ، ص : ١٤٣ ، جـ : ١ ، ويقول المؤلف عن يزيد بكل صراحة « دعاة الضلال يزيد بالشام، ومختار بالعراق » (حجة الله البالغة) جـ : ٢ ، ص : ٢١٣ وكذلك وصفه فى بحث المناقب بقوله « كان منافقاً أو فاسقاً » ص : ٢١٥) .

(٣٣) راجع « إزالة الخفاء » ، جـ : ٢ ، ص : ٨٥ - ١٤٢ .

ومع إثبات خلافة الخلفاء الراشدين - رضى الله تعالى عنهم أجمعين - وذكر فضلهم ومناقبهم ومآثرهم وخدماتهم العظيمة بإسهاب وتفصيل يتجلى فيه تذوق الإمام الدهلوى للموضوع وحماسه واندفاعه نحو الإشادة بجليل أثرهم ، والذى كان تلبية لحاجة ماسة كانت من مقضيات عصره ومن العوامل والدوافع القوية إلى تأليف هذا الكتاب ، لم يتحفظ الإمام الدهلوى فى ذكر مناقب سيدنا على بن أبى طالب وجلائل أعماله ومآثره ، ولم يضن فى ذلك بشيىء ، بل يذكر سيدنا على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - بكل حب وإجلال واعتراف بحقوقه ومكانته الجليلة وعواطف الحب والشوق نحو أهل البيت الكرام ، بتفصيل وإفاضة ، وقد بدأ مناقب سيدنا على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ومآثره بقوله :

« مآثر أمير المؤمنين وإمام الأشجعين أسد الله الغالب على بن أبى طالب - رضى الله عنه - .

كذلك يذكر السيدين الحسن والحسين - رضى الله تعالى عنهما - بحب وإجلال وإكبار، ويعد فى الوقائع الهائلة العظيمة بعد وفاة النبى ﷺ شهادة سيدنا عثمان - رضى الله عنه - الفتنة الأولى التى وقعت فى الإسلام(٣٧) ، وشهادة بضعة الرسول - سيدنا الحسين - رضى الله عنه - الفتنة الثانية ، وأورد حديثاً من مشكاة المصابيح برواية البيهقى ، يفيد أن نسبة سيدنا الحسين - رضى الله عنه - إلى الرسول ﷺ كنسبة مضغة اللحم إلى الجسم ، وأن نبى الله ﷺ قد تنبأ باستشهاد سيدنا الحسين - رضى الله عنه - على أيدى أفراد من أمته(٣٨) .

وقد عد من هذه الفتن واقعة الحرة العظيمة ، التى انتهكت فيها حرمة المدينة المنورة فى عهد يزيد ، ووقع من القتل والنهك والسلب ما يندى له الجبين وتعرضت المدينة وأهلها للامتهان والذلة وانتهاك الحرمات(٣٩) ، وقد انتقد الإمام الدهلوى بنى أمية فى مواضع كثيرة من الكتاب ، وهكذا جاء الكتاب(٤٠) ميزاناً عادلاً وسطاً ، لا يميل نحو الإفراط ولا التفريط، وهذ هو شعار أهل السنة ولجماعة ، وموقفهم المتزن الصحيح .

---

(٣٧) انظر « إزالة الخفاء » جـ : ١ ، ص : ١٥٤ .

(٣٨) إزالةلخفاء ، جـ: ١، ص: ١٥٤ .

(٣٩) أيضاً .

(٤٠) أيضاً ص : ١٥٤ - ١٥٥ .

الدلالة على الفتن والتغيرات الحادثة بعد وفاة النبى ﷺ :

إن من أكبر خصائص هذا الكتاب أنه تتجلى فيه صورة بارزة مجسدة لتاريخ الإسلام الدينى ، والتغيرات الدينية والعقلية والفكرية التى طرأت عليه ، إن كتب التاريخ العلمى والسياسى كثيرة لا تحصى ، ولكننا لا نعثر على كتاب يشير إلى معالم التغيرات الخلقية والعلمية والعقلية فى أثناء تسلسل التاريخ المدنى والسياسى للإسلام (مهما كانت هذه التغيرات الحادثة خفيفة قليلة باهتة اللون لا تكشف إلا بمجهر المعرفة الدقيقة للطبيعة الإسلامية) ، وكل ما يوجد فى عامة الكتب بهذا الصدد لا يعدو مادة متفرقة منتشرة ، ولم يختر أحد من المؤلفين هذا الموضوع عنواناً لبحثه المستقل ، أما الإمام الدهلوى فإنه يذكر الفتن الحادثة فى القرون المشهود لها بالخير ، والفتن التى حدثت بعده(٤١) ، واختلاف الأحكام بين خير القرون وشر القرون (٤٢)، والتغيرات الفكرية والمعنوية التى طرأت ضمن التعبيرات الكلية والتى وقعت فى عهد الرسالة ، وبعد خير القرون ، وقد جاءت عناوين هذه المباحث كما يلى :

« ظهور الكذب » ، التقعر والمغالاة فيما تعلق بقراءة القرآن الكريم وتجويدة ، الاكتفاء بقراءة القرآن الكريم وتلاوته ، وقلة التدبر والتفقه فيه ، التقعير وشق الشعرة فى المسائل الفقهية ، البحث والجدال فى المسائل الفرضية التى لم تقع أصلاً ، تأويل متشابهات القرآن وإبعاد النجعة فيه ، توليد الأسئلة الطريفة فى العقائد والإلهيات ، إحداث الأوراد والأحزاب بنية التقرب إلى الله - تعالى - التى لا توجد فى السنة المأثورة بالمستحبات كالإلتزام بالواجبات ، انقراض الشورى الاجتماعية ، ومراجعة العلماء الصالحين فى الإفتاء، نشوء فرق جديدة كالقدرية والمرجئة وغيرهما ، رفع الثقة المتبادلة بين المسلمين وعدم أمن بعضهم بعضاً ، سيطرة أولئك على الدولة الذين لا يتأهلون لها أصلاً ، أو هم من رجال الدرجة الثانية أو الثالثة ، الكسل والتوانى فى إقامة أركان الإسلام (٤٣).

ظهور الكتاب ونشره :

طبع هذه الكتاب - لأول مرة - بإشارة من الشيخ جمال الدين خان وزير بوفال ، وبعناية الشيخ محمد أحسن الصديقى عام ١٢٨٦ هـ بالمطبع الصديقى ببريلى ، وكن عنده

---

(٤١) أيضاً ، ص : ١٢٢ .

(٤٢) أيضاً ، ص : ١٣٦ .

(٤٣) أيضاً ، ص : ١٣٣ ، جـ : ١ .

ثلاث نسخ من الكتـاب ، قام بالمقابلة بـينها وتصحـيحـها ، نسخـة الشيخ جـمال الدين ببوفـال، ونسخة ثانية للشـيخ أحمد حسن الأمـروهى ونسخة ثالثة للشـيخ نور الحسن ، وهناك من القرائن ما يدل على أن المؤلف الإمام لم يعد النظر فى الكتاب .

وصدرت الطبـعة الثانية للكتـاب من أكاديمية سـهيل باكستـان ، عام ١٣٩٦ هـ الموافق ١٩٧٦م ، وهى صورة للطبعة الأولى(٤٤) ، ونقل الكتاب إلى العربية بعناية المجلس العلمى بدابهيل ، ولكنه لم ينشر فى العـالم العربى كما ينبغى ، ونقل إمام أهل السـنة الشيخ عبد الشكور الفاروقى اللكنوى هذا الكتاب إلى الأردية ، ولكن هذ التـرجمة تنتهى إلى الفصل الخامس ، وأسماها بـ « كشف الغطاء عن السنة البـيضاء » ويشمل ما طبع منها على ٣٣٦ صفحة ، وتم طبعها فى عمزة المطابع بلكهنئو عام ١٣٢٩ هـ .

---

(٤٤) وكانت هذه الطبعة بين أيدينا عند كتابة هذا الباب وقد أحلنا فيه إلى صفحاتا .

الباب التاسع
الفوضى السياسية ودور الإمام الدهلوى القيادى
فى عهد احتضار الدولة المغولية

ثلاث قوى مقاتلة ناشئة :

لقد تقدم فى الباب الثانى من الكتاب أن الهند - فى القرن الثانى عشر الهجرى - كانت قد بلغت من الانحطاط السياسى والإدارى والخلقى ، وفساد النظام وملوك الطوائف والقلق والاضطراب ما يصح أن يعبر عنه بحالة احتضار لأى مجتمع ونظام ، لقد أصبحت الدولة المغولية رمزا للسلطة الطويلة القوية لأسرة مسلمة حاكمة ، ولم تعد وراءها قوى مساندة ولا إدارة حازمة ولا همة عالية .

وكانت هناك عندئذ - فى ظاهر الأمر - ثلاث قوى مقاتلة ناشئة تتحكم لا فى مصير الدولة المغولية فحسب بل فى مصير البلاد كلها ، وهى كما يلى : المرهتة ، السيخ ، والجات (الزط) .

المراهتة :

لقد تحولت المراهتة - الذين كانت تنحصر نشاطاتهم وتحركاتهم فى الجنوب (دكن) وكان شأنهم شأن فريق المحتجين المتظاهرين (AGITATORS) وشأن قوة حربية تشن حرب العصابات (GUERRILLA) ضد الحكومة المنظمة الشرعية - بسبب ضعف الحكومة المركزية الذى يزداد كل يوم ، ومنازعات القادة الطامحين الذين كانوا يجربون حظوظهم وقصر نظر الأمراء والولاء (الذين كانوا يستنجدون بالمرهتة لإلحاق الهزيمة بأعدائهم ومناوئيهم أو إخضاعهم) إلى قوة بارزة شاملة للهند كلها ، وظلت تحلم بالسيطرة على عرض دلهى ، وملأ ذلك الفراغ الذى أحدثه ضعف القوة العسكرية المغولية، وسوء إدارتهم وعدم جدارتهم .

وقد عزم « ملهار راؤ هولكر » و « ركوناتهراؤ » عام ١١٧٠ هـ الموافق ١٧٥٦ م [١] على السيطرة على شمال الهند ، وحملا بمعونة الزط على دلهى عام ١١٧١ هـ الموافق ١٧٥٧ م واضطر نجيب الدولة إلى المصالحة ، ثم توجها إلى بنجاب ، التى كانت بابا لتلك

---

(١) قبل وفاة الإمام الدهلوى بـ ٥ - ٦ سنين .

المنطقة الحربية الخطيرة التى لم يزل يدخل منهـا الفاتحون إلى الهند ولم تكن قد خضعت من قبل لأى قوة غيـر إسلامية ، واستوليـا فى أبريل عام ١٧٥٨ م على لاهور ، وعينا « آدينه بيغ » من قبلهما حاكما لبنجـاب ، ثم وليا - بعد وفاة آدينه بيغ - سباجى سندهيا ، حكم بنجاب .

وقد دخل المرهتة بإشارة من صفـدرجنك (الوزير الشيعى) ومناصرته إلى « دوآبه » (٢) - التى كانت مركزا لأولئك العلماء والمشايخ الذين كانت تتجمل بهم دلهى نفسها - ثم قرر داتاجى سندهيا عام ١١٧١ هـ بعـد مقدمه من دكن أن يفتح الـهند كلها ، وتوجه أولا إلى «روهيلكهند» و « أوده » عام ١٧٥٨ م ، وعبر نهـر « جمنا » بهذه النية ، وفى عام ١١٧٢ هـ الموافق ١٧٥٩ م عندما كان النهـر يمكن العبور منه ، أمر « كوبـندر رائى بنديله » بعبور النهر مع عـشرين ألفاً من الجنود إلى « روهيلكهند » الذى قـام بعد نزوله من « رام كنكا » بالنهب والسلب فـى البلاد إلى مـدينة « أمـروهه » -التى ليـست على مسـافـة طويلة من دلهى- .

ودخل المرهتة ٢٤ / يونيو عـام ١٧٦٠ م (الموافق ٩ / ذى الحجة عام ١١٧٣ هـ) فى دلهى عاصمـة البلاد ، وأسلم إليهم يعـقوب على خان حارس القلعـة ، وفوض « بهاؤ » حراسة القلعة إلى « شنكرراؤ » الذى خلع السـقف الفضى للديوان الخاص (البلاط الخاص للملك) وأرسل به إلى دار الضرب ، وأخذ كل ما كان من أثاث الذهب والفضة فى « قدم شريف » ورباط الشـيخ نظام الدين أولياء وعـزل شاهجـهان الثانى فى ١٠ / نـوفمبـر عام ١٧٦٠ م الموافق ٢٩ / صفر عام ١١٧٤ هـ وأجلس مـرزا جوان بخت ابن الشاه عالم على العرش ، وكـان يريد أن يتربع على العرش التـيمورى ، وكـان ذلك بوسعه إلا أن عـقلاء جيشه أشـاروا عليه بالكف عن هذا العزيمة لأنها تثير فتنة وفـوضى فى البلاد ، ولا تتحمل الرعية جلوس أى قائد من قادة المرهتة على العرش التيمورى - بيسر وسهولة - وقد اتسعت حكومة المرهتة - حينئذ - ما لم تتسع من قبل ولا من بعـد ، فقد كانت حدودها الشمالية تصل إلى « أتك » وجبال هملايا ، وفى الجنوب كانت تمتد هذه الحكومة إلى الطرف الأخير من شبه جزيرة دكن أى إلى حدود سواحل البحـر ، والمناطق التى كانت حرة مستقلة داخل هذه الحكومة ، كانت تؤدى لها الخراج ، وقد كان لديهـا قادة عسكريون محنكون كما كان عندها جيش افرنجى مدرب مكون من عـشرة آلاف نسمة ، وكان جيشها فى حرب « بانى بت » مكـونا من خـمـسين ألف مـن الركـبـان، وخـمـسـة عـشـر ألف

---

(٢) وهى المناطق الواقعة بين نهرى كنكا وجمنا .

من الرجالة ، وكان فيه مائتا مدفعية (عدا المدافع المحطمة للقلاع) وقد صحبهم وتعاون معهم جيش الراجبوت كذلك ، وهكذا كان مجموع عدد الجيش الذى كان يقاتل تحت لوائهم وفى قيادتهم ثلاثمائة ألف مقاتل .

ولكن رغم كل ذلك لم تكن طبيعة المرهتة طبيعة ملوكية تشعر بمسئوليتها ، وفى تعبير أحد المؤرخين الهنود « لقد كانوا أنصاف ملوك وأنصاف قطاع الطرق » (٣) وقد كان فقدان الشفقة منهم على الرعايا والاهتمام بهم ومواساتهم والتقاليد الوراثية القديمة للحفاظ على الأنفس والأرواح والأموال والأعراض (التى كانت تحمى السلاطين والملوك الجبابرة - إلى حد ما - رغم كبريائهم وأنانيتهم وكانت تأخذ بزمامهم) وكذلك فقدان الخلفية (BACK GROUHD) التاريخية الرائعة ، والأهداف السياسية البناءة الواضحة ، وفوق كل ذلك عواطفهم الجامحة نحو إحياء الديانة الهندوسية وحضارتها (HINDUREVIVALISM) أحدث فيهم عنفا وإرهابا ، وتسرعا فى الأحكام وقلة مسامحة ومراعاة ، فكانت أموال النهب والسلب والحرص عليها والشغف بها من أدوائهم ومواضع ضعفهم القومية .

وقد تأثر المسلمون والهنادك جميعا بفوضى المرهتة وغاراتهم ، فكانت الغارات الوحشية على القرى ، وأعمال النهب والسلب بقسوة وعنف ، وقطع أيدى الناس وأرجلهم وأنوفهم أمرا عاديا ، وكانت النساء - بغض النظر عن دينهن وجنسيتهن - تتعرض لوحشيتهم ونزواتهم الشهوانية ، وكانوا يتجاوزون فى ذلك كل الحدود ويتظاهرون بأعمال وحشية بهيمية ، وقد أبدى شاعر بنغال المعروف « كنكا رام » مثل هذه الانطباعات ، وهو يعلق على غاراتهم وحملاتهم على بنغال (٤) .

وقد أبدى المؤلفون البرتغاليون حيرتهم وعجبهم على أفاعيل المرهتة التى يتندى لها جبين الحياء (٥) ، وقد كان لسيطرة المرهتة وسلطتهم آثار اقتصادية سيئة على الناس ، وحسب تصريح الشيخ غلام على آزاد البلكوامى : أنهم ينوون - إلى حدود قدرتهم واستطاعتهم - أن يسدوا أبواب الرزق على الناس ويحكموا قبضتهم على جميع وسائل المعيشة ، وكان المرهتة يجبون من تلك المناطق البعيدة النائية التى كانت تحت حكمهم وسلطاتهم ربع

---

(٣) تاريخ هندوستان (تاريخ الهند) للشيخ ذكاء الله الدهلوى جـ : ٩ ، ص : ٣٠٤) .

(٤) انظر للتفصيل كتاب (FALL OF THE MOGHAL EMPIRE P . 87) تأليف جادوناته سركار .

(٥) PISSURLEN : PORTUGUESES , 11 , P . 49 .

حاصلاتهم وغلاتهم [٦] .

ولم تقف غارات المرهتة عند الحدود العسكرية واستغلال الجماهير ، بل لقد كانت مؤسسة على إحياء الديانة الهندوكية وإقامة حضارتها من جديد ، يقول ماونت رستوارت الفنستن (حاكم ولاية بمباى) فى تاريخه للهند عن « شيواجى » القائد الأول لهذه الحركة :

« لقد اختمرت طبيعته وتربت على العصبية الهندوكية . . . ولأجل هذه الطبيعة المستحكمة فيه كان يكره المسلمين وتقاليدهم وطقوسهم كراهية شديدة ، ويحب الهندوس ويرغب فى رسومهم وتقاليدهم رغبة شديدة ، وكان هذا الموقف منه يزداد - كل يوم - شدة ، وقد وافقت هذه الطبيعة فيه تدبيرالشئون الملكية حتى تصور بصورة الرهبان والمشايخ الهنادك ، وادعى كرامات الأولياء المؤلهين وألطاف الآلهة المعبودين [٧] .

لقد حاول المرهتة قبل المعركة الحاسمة فى ساحة « بانى بت » واستشعارا منهم لدقة الأوضاع وخطورتها عن طريق النواب شجاع الدولة (الذى كان يحمل فى قلبه شيئا من التعاطف مع المرهته من قبل ذلك) أن توقع الهدنة مع الشاه الأبدالى ، وما رد به شجاع الدولة - بناءً على هذه التجارب المتواصلة والحقائق المرة - عليهم يلقى ضوءا كاشفا على طبيعة المرهته القومية وتأثير فتوحهم وانتصاراتهم ونتائجها ، لقد كان رد النواب شجاع الدولة أن قال :

« إن براهمة الدكن يسيطرون على الهند منذ مدة طويلة ، وقد نزلت على رءوسهم -بسبب شدة حرصهم وطمعهم وغدرهم ونكثهم للعهود- هذه البلية من الشاه الدرانى ، فكيف يصالح مع هؤلاء الذين لا يرعون إلاّ ولا ذمّة ، ولا يحافظون على عرض ولا عافية، ويرون أن جميع الأشياء ملك لهم ولقومهم ، وقد قلق الناس وضجروا على ما لقوا منهم حتى ألحوا - لحفظ أعراضهم ومكانتهم ورفاهية الخلق وأمنهم - على الشاه الأبدالى ، ودعوه من بلاده ، وأرأوا حملاته ونكاياته أهون عليهم وأسهل من إيذاءات المرهتة ونكاياتهم » [٨] .

---

(٦) كل أول من جبى ربع الحاصلات شيواجى ، وكانوا يأخذون ذلك من الولايات الأخرى مقابل حمايتهم وعدم الغارة عليهم ، على حين كانوا يأخذون من الفلاحين فى مملكتهم ٣٠ ٪ من حاصلاتهم وقد زاد ذلك أخيراً إلى ٤٠ ٪ من حاصلاتهم .

(٧) انظر تاريخ هند ، ص : ١٠٤٠ (طبع عام ١٨٦٧ م عليكراه) .

(٨) تاريخ هندوستان (تاريخ الهند) ، جـ : ٩ ، ص : ٣٠٥ .

وأخيرا لقيت المرهتة هزيمة نكراء بتاريخ ١٤ / يناير عام ١٧٦١ م الموافق ٦ / جمادى الآخرة ١١٧٤ هـ فى ساحة بانى بت على أيدى القوة الموحدة لجيوش أحمد شاه الأبدالى الأفغانية ، وجنود النواب نجيب الدولة الروهيله وجيش النواب شجاع الدولة ، وكما يقول أحد المؤرخين : « لقد طارت قوة المرهتة فى لمحة البصر كالكافور » ، وسوف تأتى التفاصيل الأخرى لهذه الحرب الحاسمة وعوامل مقدم أحمد شاه الأبدالى وخليفته ، والتى غيرت مجرى التاريخ ، فى صدد ذكر مآثر الإمام الدهلوى القيادية فى الصفحات التالية .

السيخ :

لقد كانت السيخ فرقة دينية فى بنجاب ، وضع أساسها فى القرن الخامس عشر المسيحى على أيدى « كروبابانانك » (١٤٦٩ - ١٥٣٩ م) الذى كان يقوم بنشر تعاليمه الخلقية ويحث على الصدق وتهذيب النفس ، وكان قد قرأ - حسب تصريح « سير المتأخرين » - اللغة الفارسية والمبادىء الدينية على الشيخ السيد حسن ، وكانت له به عناية خاصة [٩] وقد قام القائد الثالث للسيخ ، أمرداس « بالخطوة الأولى فى صدد التنظيم الدينى والاجتماعى للسيخ ، وزاره الملك أكبر فى بيته ، وأقطعه أرضا واسعة كبيرة ، وقد حافظ هو على روح تعاليم « كرونانك » فى تعاليمه الخلقية ، وعارض أوهام الهنادك وخرافاتهم ولا سيما تقليدهم المعروف بـ « ستى » - وهو انتحار الزوجة على موت الزوج - وأصدر أوامره بزواج الأيامى ، وأقطعه الملك أكبر عام ١٥٧٧ م أراض واسعة ، وفى عهده قام مركزهم الدينى فى « أمرتسر » وهكذا تكوَّنَ مركز روحى دينى لحياة الشيخ الاجتماعية .

وخلف كروارجن والده عام ١٥١٨ م ، وقد بذل مزيدا من الجهود والمحاولات لتنظيم السيخ كفرقة مستقلة ، ودون « كرنته » - الكتاب المقدس لديهم - ولقب كروارجن نفسه بالملك الصادق ، الذى يشير إلى حرصه على السلطة السياسية وقد اعتقل كراورجن بأمر الملك جهانكير بلاهور ، لأنه كان قد تعاون مع ابنه الأمير خسرو الذى كان خرج علينا ، وأهدى إليه الأموال،وقتل فى الحبس [١٠]،واختار خلفه «هركووند» طريق الدفاع والمقاومة

---

(٩) تفيد بعض الروايات التاريخية أن باباكرونانك جالس عددا من الدراويش والصوفية المسلمين وصحبهم مدة من الزمن ، نخص بالذكر منهم : بير جلال ، وميان متها ، والشيخ شرف الدين ، والشيخ فريد الثانى ، والشيخ إبراهيم ، كما تفيد بعض الروايات الأخرى أن بابانانك زار بغداد والحرمين الشريفين ، وكانت له صلة خاصة بـ « باك بتن » مدفن الشيخ الكبير فريد الدين الأجودهنى .

(١٠) وقد ثبت تاريخيا أن الذى أشار على جهانكير لقتله هو أحد الأمراء الهنادك « جند ولال » الذى كان يتميتع بنفوذ على الإمبراطور ، وذلك لغرض شخصى .

العملية ، وبذلك بدأت حياة السيخ العسكرية ولم يلبث أن تبوأ المنصب الملوكى ، وقد كان يحمل عواطف العداء والكراهيــة ضد الملك جهانكير ، ويلقى عليه تبـعة قتل والده ، وقد بنى قلعة حصينة فى « هركووندبور » وكانوا يغيرون على المناطق السهلية ، وحبسه جهانكير فى قلعة كواليار ، ثم أطلق سراحه بعد مدة قليلة ، وأكرمه وأبدى به حفاوة بالغة ، وخرج فور جلوس السلطان شاه جهان على العرش على الدولة ، وقام بالثورة علنا وجهارا ، ولجأ أخيرا إلى الجبال ومات هناك عام ١٦٤٥ م .

واختير تيغ بهادر ابن هركـووند قائدا عام ١٦٦٤ م فى عهد أورنك زيب ، الذى أعطى حق اللجـوء للفارّين والخـارجين على قـانون البـلاد ، وقد حـالت سلطة هؤلاء دون رقى البلاد[١١] ، فزحفت إليـها الفرق العسكرية الملـكية ، واعتقلته وجـاءت به إلى دلهى حيث حكم عليه بأمر الملك أورنك زيب بالإعدام عام ١٦٧٥ م [١٢]، وعين بعد قتله ابنه « كووند رائى » قائدا ، وهو الذى حول فرقة السيخ - التى كانت فى البـداية جماعة دينية محضة - إلى شعب مسلح مقاتل ، وأثار فيهم عـواطف المساواة وعمل - جهده - على تنظيمهم فى صورة شعب مستقل ، ولم يزل على قيد الحياة إلى وفاة الملك أورنك زيب ، وحاول خلف أورنك زيب الملك بهادر شاه أن يتفاهم مع « كـووند رائى » ويصالحه ، وولاه قيادة الجيش بدكن ، ولكنه مات على يدى مـوظف أفغانى بجرح لم يبرأ منه فى أكـتوبر عام ١٧٠٨ م ولم يرشح بعده أى واحد لخلافته ، وأوصى أتباعــه أن يعتقدوا « كرنته » - الكتاب المقدس لديهم - قائدهم ، ويعتبروا الله - تعالى - وحده نصيرهم وحارسهم .

وخلف « هركووند » « بنده بيراكى » الذى كـان - فى الحقيقة - قـائدا عسكريا للسيخ وكان هو - أصلا من الراجبـوت الكشميريين ، وقد اعتنق ديانة السـيخ - فبدأ فى بنجاب عمليات النهب والسلب وقطع الطريق ، فى نطاق واسع ، وكـانت الدولة المغولية بعد وفاة الملك أورنك زيب تسير - بسرعة - نحو السقـوط والإنهيار ، ونشبت حروب متواصلة بين أبنائه وأحفاده على عرش البلاد ، أتاحت الفرصة للسيخ أن يضاعفو قوتهم - علنا - فكان « بنده بيراكى » يـعمل السيف فى الألوف من المسـلمين ويقتلهم بقسـوة ووحشـية ويدخل القرى وينهبـها حتى وصل إلى قرب دلهى ، وأغار فى مـايو عام ١٧١٠ م على سرهند ،

---

(١١) انظر A HISTORY OF THE SIKHS GUARD , 1918 . P . 64 لمؤلفه .: J . D , CUNNINGHAUM.

(١٢) ليست تبعة قتل القـائد تيغ بهادر على السلطان أورنك زيب وحده ، بل فيه يد لمخالفيــه ومعارضيه الهنادك أيضاً (انظر نهنك سنك سنديس ٢٥ ديسمبر عام ١٩٥١ م) .

وفتح أبوابها للقتل والنهب والسلب ، وعامل سكان القرية - من دون تمييز بين صغير وكبير وقوى وضـعيف - بظلم فظيع وقسوة رهيبة ، وتوجه بهادر شاه إلى بنجاب ، وهزمت الجيوش السلطانية بنده بيراكى ، ولكنه لجأ إلى الجبال ، ثم قام مستغلا الفوضى السياسية والحروب الأهلية بين الأسرة الملكية بعد جلوس فرخ سير على عرش البلاد بالعنف والإرهاب مرة ثانية ، وأخيرا جيىء به إلى دلهى عام ١٧١٦ م وقتل هناك ، ولم تكن له شخصية محترمة محببة لدى السيخ أنفسهم ، وقد أحدث تغييرات طفيفة فى عقائد الديانة السيخية وعباداتها وأصبح السيخ تحت قيادته قوة عسكرية ، واستمر الحاكم المغولى معين الملك ببنجاب (الذى يعرف بميرمنو) فى عهد الملك فرخ سير ، على سياسته التعزيزية ، ولكن سقوط الدولة المغولية كان يسير بخطى حثيثة ، وكانت قد ضعفت حكومة بنجاب وتضعضعت نتيجة حملات أحمد شاه الأبدالى المتكررة ، وسنحت الفرصة مرة ثانية لقيام السيخ ونهوضهم ، ولم ينجحوا - هذه المرة - فى إخراج ابن أحمد شاه الأبدالى الأمير تيمور - الذى كان والى بنجاب حينئذ - والذى هدم « هرمندر » - أقدس معابدهم - وملأ البركة المقدسة لديهم بالإنقاض والركام - فحسب ، بل استولوا كذلك - مؤقتا - على لاهور ، وضربت باسم قائدهم « جسا سنغ كلال » العملة ، إلا أنهم اضطروا للخروج من لاهور بمقدم المرهتة إليها عام ١٧٥٨ م تحت قيادة « ركهوبا » وتوجه أحمد شاه الأبدالى إلى بنجاب للمرة الخامسة ، وبعد حرب « بانى بت » التى قصمت ظهر المرهتة فور ما غادر بنجاب إذا بالسيخ عادوا للثورة والخروج ، واستعادوا مملكتهم المفقودة ، وعاد أحمد شاه وهزم السيخ فى « لدهيانه » عام ١٧٦٢ م هزيمة نكراء ، ولكن السيخ بعد مغادرته عام ١٧٦٣ م أغاروا على سرهند ، ودمروها وخربوها ، واستولوا على لاهور مرة أخرى وأعلنوا قيام حكومة « خالصة » ثم تفرق السيخ بعد ذلك فى مختلف الولايات وانقسموا إلى مختلف الفرق التى كانت تدعى « مسلين » ولم يكن هناك حاكم أعلى يحكمهم ، ولم يبق لديهم أمر مشترك إلا دينهم ، وبعد ثلاثين عاما من هذه الأوضاع المضطربة علا فى بنجاب نجم رنجيت سنغ الذى نظم هذه الفرق المختلفة فى صورة دولة مستقلة ووحد صفوفهم .

لقد كان هدف ديانة السيخ تصحيح العقائد الدينية فى الهنادك وما من شك فى أن «بابانانك» كان متأثرا بالتعاليم الإسلامية ، ولذلك فإن عقيدته فى التوحيد ، ومساواته بين الناس واجتنابه عبادة الأصنام والأوثان وغيرها كل ذلك من آثار الإسلام ونتائجه (١٣) .

---

(١٣) انظر جب جى - و MACAULFFE ، جـ : ٢ ، ص : ٣٤٧ .

وقد أثرت اللغة الفارسية على لغة الأدب الدينى عند السيخ تأثيرا بالغا ، لا سيما « ادى كرنته » - من الكتب المقدسة لديهم - يتجلى فيه تأثير الألفاظ الفارسية ، والإسلامية والمصطلحات الدينية والصوفية إلى حد كبير (١٤) .

وقد كانت هناك من القرائن ما يتوقع بها أن تقوم هذه الحركة الإصلاحية - إذا كانت متمسكة بأصولها ، ولم تذب فى الديانة الهندوكية وحضارتها - بخدمة ثورية كبيرة ، وظلت السيخ فرقة مستقلة متميزة عن الهنادك ، تقوم على أساس التوحيد للرب والمساواة بين الناس ، وكانت بذلك فرقة قريبة إلى المسلمين ، ولكن صدامها مع الحكومات المعاصرة، ودورة الفعل ورد الفعل السياسى التى فقدت القلب والضمير والتى تحقق مصالح الجماعات ومقتضيات العصر بغض النظر عن النتائج الدينية والخلقية ، أورثت السيخ البغضاء والكراهية لا للحكومات المسلمة فحسب بل لعامة المسلمين ووقفتهم موقف الحرب والنضال ضد المسلمين ، وحولتهم - بصفة خاصة - فى أواسط القرن الثانى عشر الهجرى والقرن الثامن عشر المسيحى إلى قوة إرهابية مخيفة مزلزلة لسكان المدن الكبيرة الآمنة ، وزيادة خطيرة فى القوى الهدامة المثيرة للاضطرابات فى الهند ، وقد تعرضت المساجد والمقابر فى عهد حكوماتهم - بصفة عامة - وفى عهد مهاراجه رنجيت سنغ -بصفة خاصة-(١٥) لانتهاك حرماتها ، ودوس كراماتها ووضعت عراقيل فى سبيل أداء العبادات ، ونشأ ذلك الوضع الحالك الذى عبر عنه الدكتور محمد إقبال فى بيت من شعره ، يقول فيه :

« لقد ذهبت « خالصة » بالسيف والقرآن ، وقضت على المسلمين والإسلام فى دولتها وسلطانها » .

وقد رفع ضد الوضع المكفهر فى منتصف القرن الثالث عشر الهجرى - تقريبا - وفى الثلث الأول من القرن التاسع عشر المسيحى - الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (ش ١٢٤٦ هـ الموافق ١٨٣٠ م) والشيخ إسماعيل الشهيد (ش ١٢٤٦ هـ - ١٨٣٠ م) اللذين كانا خرّيجى مدرسة الإمام الدهلوى وتربّيا على أيدى ابنه الأكبر الشيخ عبد العزيز الدهلوى -

---

(١٤) اقتبسنا الجزء الأساسى من هذه المعلومات والمادة التاريخية من « دائرة المعارف الإسلامية » (الأردية)، جـ : ١١ ، من مقال « السيخ » بقلم البروفيسور محمد إقبال .

(١٥) انظر للتفصيل الباب ١٧ من : « سيرة السيد أحمد الشهيد » (الأردية) للمؤلف بعنوان « وضع المسلمين فى بنجاب » ص : ٤١٣ - ٤١٩ .

رفعا لواء الجهاد ضد حكومة رنجيت سنغ العسكرية ، وبدأ بذلك مخططهما الواسع والعميق ومهمتهما العظيمة التى قامت لتحرير الهند من السلطة الخارجية المستعمرة وتأسيس الحكومة الشرعية ، وإصلاح المجتمع المسلم وإحياء الدين وإظهاره (١٦) .

الجات (الزط) :

لم تكن الجات فرقة منظمة كالمرهتة ، ولا فرقة دينية كالسيخ ، بل أن ضعف الدولة المغولية والفوضى السياسية والشعور بعدم حماية عامة السكان ، أنشأ فيهم تنظيما يقوم على أساس العنف والسلبية وأصبحوا قوة هدامة مثيرة للفتن والاضطرابات لم تكن تهدف إلى إقامة مملكة أو ثورة سياسية ، بل إلى مجرد استغلال للأوضاع المنحرفة وتحقيق للأغراض الاقتصادية .

يقول البروفيسور خليق أحمد نظامى فى كتابه « الرسائل السياسية للإمام الدهلوى » :

« لقد كان الجات يسكنون المنطقة الجنوبية لجمنا من آكره إلى دلهى ، وكانت حدودهم فى الشرق إلى جنبل » وقد بلغت ثوراتهم فى هذه المنطقة أن ضاقت بهم الحكومة المركزية ذرعا ، وحسب ما يقول « سركار » : لم يكن هنالك مجال لقبول هذه الشوة الشائكة فى شوارع دلهى وآكره (١٧) ،(FALL , VOL I P , 369) وكانت المواصلات بين دلهى وآكره تسير بحيطة بالغة وحذر كبير ، وكانت الجيوش التى تقصد دكن عن طريق أجمير ، تمر بهذه المنطقة .

ولما مر الممثلون الهولنديون بهذه المنطقة عام ١٧١٢ م شاهدوا هذه الاضطرابات والثورات (LATER MUGHALS , I . P 321) .

وقد مر جان سر من (JOHN SURMAN) عام ١٧١٥ م بهذه المنطقة ، وسجل فى مذكرته أعمال الجات المهددة للأمن والسلام (ORME COLLECTIONS, P,1694) .

وقد قام الجات فى عهد شاه جهان بثورة عارمة ، وقتل عام ١٠٤٧ هـ الموافق ١٦٣٧ م مرشد قلى خان قائد الجيش بمتهرا على أيديهم فى حرب معهم .

يقول سرجاد وناتهسر كار فى كتابه « تاريخ أورنك زيب » ج / ٥ ، ص / ٢٩٦ :

---

(١٦) انظر « سيرة السيد أحمد الشهيد » (الأردية) جـ : ١ - ٢ .

(١٧) هما مدينتان رئيستان تبادلتا كون العاصمة فى أدوار مختلفة .

« لقد استغلّ غياب أورنك زيب من شمال الهند قائدان جديدان من الجات : راجه رام. ورام جهره ، ولم يستطع حاكم آكره خافى خان أن يضع الحد على تحركات راجه رام ضد القانون . وقد سد الجات الطرق ونهبوا كثيرا من المناطق ، وتوجهوا إلى « سكندره » لنهب مقبرة الملك أكبر ، ولكن المير أبا الفضل الذى كان قائد العسكر بها قاتلهم بشجاعة ولم يدع الثوار ليتقدموا أمامهم ، ونهب راجه رام متاع الضابط التركى المعروف أصغر خان. . . وقتل أصغر خان فى هذه الحرب مع الجات [١٨].

ويقول هرجرن داس مؤلف « جهار كلزار » : « أن الجات لما بدأوا ينهبون دلهى خرج سكان دلهى - خائفين فزعين - من بيوتهم ، فكانوا يهيمون على وجوههم ويتيهون فى الأزقة والسكك ، كسفينة محطمة تكون تحت رحمة الأمواج الطاغية ، وكان يُرى كل شخص كالمجنون يعدو فزعا مضطربا (النسخة المخطوطة ص / ٤١٠) [١٩].

ويقول الشيخ ذكاء الله فى ذكر وقائع عام ١٧٦٥ م :

« كان الجات متسلطين على قلعة آكره ، وكانت للجات جولة وصولة على بعد ١٠٠ ميل من دلهى ، وقد طرد راجه سورمل الذى كان ذكيا فطنا بارعا فى المنازلة ، ماهرا فى القيادة والحكم - قائد المرهتة من آكره ، واستولى على ميوات ، وبنى أربع قلاع حصينة قوية ، وبدأ يطلب من الحكومة دلهى تلك الطلبات التى لا تبقى على اسم الدولة إطلاقا ، وقد هزم نجيب الدولة بحسن تدبيره وحيلته وبمساعدة من البلوجيين ، الجات ، وقتل راجه سورمل فى مناضلته لنجيب الدولة ، ثم نجمت فى ولاية الجات نزاعات وخصومات ، وقتل اثنان من أبناء سورج مل ، وخلفها الابن الثالث رنجيت سنغ وقد بلغ الجات فى عهده أوج التقدم والازدهار ، والمنطقة التى كانوا يحكمونها تقع شمال غربها « ألور » وفى جنوب غربها « آكره » ، وكان دخل هذه الدولة عشرين مليون روبية وكان لديهم جيش مكون من ستين ألف جندى [٢٠].

الوضع فى دلهى :

لقد أصبحت - دلهى - نتيجة حملات المرهتة والسيخ والجات المتتابعة عليها والتى ظلت عادة يومية ، وحرمانها من أى نوع من القوة والصلاحية للصيانة والدفاع - شجرة مثمرة

---

(١٨) انظر « الرسائل السياسية للإمام الدهلوى » تأليف البروفيسور خليق أحمد نظامى ص : ١٧٥ .

(١٩) أيضا ، ص : ١٧٧ .

(٢٠) مقتبس من « تاريخ هندوستان » للشيخ ذكاء الله الدهلوى باختصار ، انظر جـ : ٩ ، ص : ٣١٦ - ٣١٨ .

سائبة تحمل عليها الحشود الوحشية من الطيور الكاسرة وتجردها من الثمار والأوراق ، وأصبح سكان دلهى - الذين كان ينظر إليهم نظرة تقدير واحترام فى كل مكان ، بل كانوا يعتبرون النموذج والمثل الكامل فى العلم واللغة الحضارة ، وفى العادات والأخلاق وكرم المحتد وطيب الأصل - لقمة سائغة للمغيرين الزاحفين ، ويقدر من رسائل علماء هذا العصر ومشايخه - الذين كان شعارهم الانقطاع والتبتل إلى الله - تعالى - والرضا بما تجرى به المقادير - التى كتبوها إلى أصحابهم وأحبابهم ، ما كان يسود هناك من قلة الأمن والفوضى والقلق ، ونكتفى هنا بإيراد بعض مقتطفات من رسائل أحد المعاصرين المعروفين للإمام الدهلوى وهو الشيخ الجليل فى السلسلة النقشبندية المجددية الشيخ ميرزا مظهر جان جانان (١١١١ - ١١٩٥ هـ) يقول فى إحدى رسائله :

« لقد ضقتُ ذرعا بالاضطرابات اليومية والقلق الزائد فى دلهى » (٢١) .

ويقول فى رسالة أخرى :

« تؤم الفتنة من كل حدب وصوب مدينة دلهى » (٢٢) .

ويقول فى رسالة أخرى ، وهو يذكر قلة الأمن والفوضى فى العاصمة وقلق سكانها واضطرابهم :

« إلى ما نكتب حال اضطراب السكان فى المدينة بسبب قلة الأمن والأوبئة العامة ، اللهم أخرجنا من هذه المدينة التى أصبحت محطا لغضب الله - تعالى - وسخطه ، فقد أصبحت المملكة فوضى بغير نظام ، اللهم فضلك ورحمتك » (٢٣) .

حملة نادر شاه :

عاد الإمام الدهلوى من الحجاز إلى دلهى عام ١١٤٥ هـ ولم تمض على ذلك إلا خمس سنوات أن وقعت عام ١١٥١ هـ الموافق ١٧٣٨ م تلك الحملة النادرية التى ضعضعت ما بقى من كيان الدولة المغولية ، وخربت دلهى ومزقتها شر ممزق ، وقد أثرت هذه الحملة فى عقول الغيارى من سكان دلهى والأسر والبيوتات الكريمة وصدمت قلوبها صدمة عنيفة حتى بغضت إليهم الحياة ، وسادهم الخجل والحياء إلى حد أنهم كانوا كأنهم يعدون العدة لقتلهم

---

(٢١) « كلمات طيبات » الرسالة رقم : ٤٠ .

(٢٢) أيضا ، الرسالة رقم : ٥٤ .

(٢٣) أيضاً ، الرسالة رقم : ٨٦ .

وانتحارهم ، وقد ذكر الشيخ عبد العزيز الدهلوى أنه بمناسبة هذه المقتلة الرهيبة العامة وضياع الأموال والأعراض كان أشراف دلهى قد قرروا، وعزموا على تنفيذ تقليد «جوهر»[٢٤] على طريقة الراجبوت القدماء، فذكرهم الوالد الكريم (الإمام الدهلوى) بحادث كربلاء، ومصائب سيدنا حسين - رضى الله عنه - ومنعهم من هذا القرار للانتحار فاختاروا طريق الصبر والرضا بالقضاء رغم هذه المحن والبلايا التى تقشعر منها الجلود وتشيب منها الولدان ، ولا يتصور أشد منها وأفتك ، وكفوا عن إرادة الانتحار وقتل أنفسهم .

الانقطاع إلى التدريس والتأليف فى الأوضاع المضطربة والظروف المضادة :

وفى أثناء هذه الحملات والغارات من قبل المرهتة والسيخ والجات ، ونادر شاه ، وهذه القلاقل والمحن والمآسى المذهلة التى كانت تجعل عالى دلهى سافلها وتدمرها تدميرا ، والتى اضطر فيها الإمام الدهلوى بعض الأحيان إلى الانتقال من بيت إلى بيت آخر - ويستفاد من « القول الجلى » أن الإمام الدهلوى انتقل أيام الفتنة الدُرّانية عام ١١٧٣ هـ (على دعوة إلحاح من أصحابه وخدمه) من وطنه مع أهله وذويه إلى قرية « بدهانه » ولما حل شهر رمضان اعتكف على عادته القديمة أربعين يوما [٢٥] - لقد كان الإمام الدهلوى - أثناء كل ذلك - منصرفا بكليته وعنايته التامة إلى التدريس والتأليف والدعوة إلى الله ، وتزكية النفوس وتربية المسترشدين ، بجمعية قلب وطمأنينة حتى كأنه تسود هناك ، ليس فى دلهى فحسب بل فى البلاد كلها ، الأوضاع الآمنة المتزنة والظروف الهادئة المطمئنة ، وأنه منقطع - كُلّيا - فى زاوية العافية والطمأنينة إلى البحث العلمى والقيادة الفكرية والتربية الخلقية وإحياء الملة الإسلامية ، وقد أشار العلامة السيد سليمان الندوى إلى هذه الحقيقة - فى بلاغة وروعة وجمال - يقول :

« لقد كانت قلة قليلة من المؤلفين ممن لا تشيع فى مؤلفاتهم روح عصرهم ، أو لا تتجلى فيها مسحة عهدهم وبلادهم ، أو يأتى فيها ذكر نكران أهل عصرهم وعدم تقديرهم للعلم واضطراب أوضاعهم على الأقل ، ولكن مؤلفات الإمام الدهلوى طليقة من قيود الزمان والمكان ، بريئة من الشكوى والملام وقصص الهجران والنكران ، فلا يبدو منها أنها ألفت فى عصر كان الأمن والطمأنينة قد أمحت فيه من صفحة هذه البلاد كالخطأ الذى

---

(٢٤) كان أشراف راجبوت عند ما يحا بهم من كل جانب ، ولا تبقى أى إمكانية لحياة الشرف يقدمون على قتل أهلهم وعيالهم ، ثم يقفزون بأنفسهم فى النار ويحترقون .

(٢٥) القول الجلى (المخطوط) .

يزال ، وكانت البلاد كلها تعانى من ملوك الطوائف ، والحروب الداخلية والفوضى السياسية ، وكل نوع من أنواع الشر والفساد ، وكان قد قضى على المركز السياسى فى دلهى ، وكان كل من يحمل السيف يحلم بالملك والسلطان . فالسيخ فى جانب ، والمرهتة فى جانب آخر ، والجات فى جانب ثالث ، والروهيلة فى الجانب الرابع ، كل هؤلاء كانوا يعيثون فى البلاد تخريبا وفسادا ، وكان أمثال نادر شاه وأحمد شاه من القادة الطامحين المتحمسين وقوفا على باب خيبر ، كلما أرادوا أوغلوا فى البلاد كالعاصفة العاتية، وخرجوا كالسيل العرم ، فكم من مرة فى أثناء ذلك خربت دلهى ودمرت ، ونُهبت ، ثم أعيدت وبُنيت ولكن عجباً بطمأنينة سلطان العلم والفضل فى دلهى وهدوئه ، فكان يشاهد كل ذلك برأى العين ، ولكن لا سبيل للقلق والاضطراب إلى قلبه ، ولا للشعث والبلبلة إلى فكره ، ولا للحران والجفاف إلى قلمه ، ولا شكوى على اللسان ، ولا إبداء أى قلق وضجر بالقلم ، فكأنما يخيل إليك أن سماء العلو التى كان يتمكن منها ، أو سمو الصبر والرضا الذى ارتفع إليه ، لا تصل إليه عواصف الأرض الهوجاء ، ولا تعمل فيه تقلبات الزمان والمكان ، وبهذا يعلم كم تكون منزلة أهل العلم من العلو والارتفاع ، ومنصب أهل الرضا والتسليم بالقضاء من السمو والارتقاء .

﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [سورة الرعد - ٢٨] .

إن الخدمة الصالحة للعلم الصحيح صورة أخرى لذكر الله - تعالى - فلو كان يورث القلب الطمأنينة ويملأ الروح بالسكينة فلا عجب ولا استغراب ، اقرأ آلافا من صفحات مؤلفات الإمام الدهلوى لا تشعر فيها بأنها كتبت فى عهد القرن العاشر المليئى بالفتن ، الذى كان كل شىء فيه عرضة للاضطراب وفقدان الأمن والسلام ، بل سوف ترى بحرا من العلم والفضل يجرى فى هدوء ، وسكينة دون ضوضاء ولجب ، بريئا من وصمات ألواث الزمان والمكان » (٢٦) .

الدور القيادى المجاهد فى عهد الفوضى السياسية واحتضار الدولة المغولية :

لم يكن الإمام الدهلوى خلال العجاج المتراكم من هذه الحوادث والأزمات بل فى أمطارها الغزيرة الهاطلة جالسا تحت السماء منصرفا إلى البحث والتأليف والتدريس والتصنيف بحيث لا تقلب نفحات الرياح العاتية أى ورقة من كتابه ولا تمحو قطرة من

---

(٢٦) انظر مجلة « الفرقان » العدد الخاص بالإمام الدهلوى ص : ٣٤٨ - ٣٤٩ .

قطرات هذا المطر الغزير أى حرف من حروفه ، فحسب بل كان يعمل - فى جد ونشاط وحزم وجهاد - لتغيير هذه الأوضاع واستعادة السلطة الإسلامية فى هذه البلاد ، وإقامة مملكة قوية موطدة الأركان تشعر بمسئوليتها وتعترف بالواقع وتنفذ الأحكام الشرعية ، وتحافظ على أعراض الناس وأموالهم وأنفسهم وتقضى على القوى الهدامة التى تعيث فى الأرض فسادا ، وتنشر الخير والرخاء ، فقد كان يقوم فى هذا الصدد بالدور القيادى الذى يمكن أن يقوم به أكبر سياسى بصير لا يمت إلى التأليف والتصنيف والبحث والتدريس بأى صلة .

وإذا كنا نجد له مثيلا فى حياة الدعاة والمجددين والباحثين المحققين والمؤلفين والمصنفين ففى حياة شيخ الإسلام ابن تيمية الحرانى الذى دعا مسلمى الشام عام ٧٠٠ هـ للوقوف صفا واحدا ضد التتار الوحوش ، وثبت أقدامهم المتزلزلة ، ولما ألغى السلطان محمد بن قلاؤون بعد مقدمه إلى الشام عزيمته على قتال التتار ، وأحدث ذلك الفوضى والاضطراب فى أهل الشام ، غادر شيخ الإسلام نفسه إلى مصر وحرض السلطان على حماية الشام ومقاومة التتار وشارك السلطان فى الجهاد ، فكانت النتيجة أن انهزم التتار هزيمة ساحقة قل أن تجد لها مثيلا فى التاريخ [(٢٧)] .

وقد استخدم الإمام الدهلوى أيضا مع أشغاله العلمية وجهوده الإصلاحية التجديدية حكمته السياسية وذكاءه البالغ وعلو نظره بحيث لو كان فى المغول بقية من صلاحية ، وفى أمراء الدولة وأعيانها من علو همة وحنكة سياسية ، لكانت الهند فى مأمن من الطامحين المفسدين الأهليين القصيرى النظر ، ولم تطأها أقدام الإنكليز ولا استحكمت فيها سيطرتهم لما وجدت الهند فى أواسط القرن التاسع عشر مهلهلة ضعيفة والميدان فارغا خاليا ، فنشبت أظافرها وأرست قواعدها ولم تضمها إلى المملكة البريطانية فحسب بل استغلت قواها ووسائلها الثرية الوفيرة التى أثرت على سياسة العالم كله ، وأحكمت بذلك سيطرتها على البلاد العربية والإسلامية .

ونظر إلى استقامة الإمام الدهلوى وحمية خاطره وعلو همته وبعد نظره ومضاء عزيمته ، وبإزاء ذلك الجو الخانق فى البلاد والقلاقل والفساد - الذى لا مجال فيه لأى جهد عميق متواصل جاد ورجاء فيه لانقلاب الأحوال وتغير الأوضاع يبدو هذا البيت من شعر الدكتور

---

(٢٧) انظر للتفصيل « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » جـ : ٢ « الحافظ أحمد بن تيمية » ص : ٥٥ -٥٨ .

محمد إقبال صورة صادقة لحقيقة الحال ، يقول فيه ما معناه :

« رغم العـواصف الهوجـاء يُشعل ذلك الرجل البطل الذى وهـبه الله - تعالـى - عزة الملوك وإباء السلاطين ، سراجه المنير » .

شعور الإمام الدهلوى واضطرابه :

لقد كان الإمام الدهلوى - الذى شاهد فى إبان شعوره وسنه المبكرة آثار حكومة السلطان أورنك زيب العظيمة وشوكتها وازدهارها ، وسـمع القصص والحكايات عن العهود السابقة - التى كان نجم المملكة المغولية فيها لامعا عاليا وكانت لها مهابة وجلال ، والذى صدر من قلمه فى كـتابه « إزالة الخفـاء » فى ذكر مآثر الخلـفاء الراشدين والآثار الزاهرة فى العـهود الذهبية لتاريخ الإسلام ، وواجـبات الحكومة الإسلامية ومسئوليتـها ، وبما تستحق به نصرة الله - تعالى - وتأييده لـما رأى بأم عينيه فى عهد سـقوط الدولة المغولية وعـهد الملك فرّخ سيـر والملك محمد شـاه ، هذه الفوضى وملوك الطوائف وسوء الإدارة والنظام ، وفـقدان الأمن فى الطرق ، وتعـرض الأنفس والأعراض والأمـوال - من دون تمييـز بين دين ودين وشعب وآخر - للانتهاك والضياع ، ورخص الدماء الإنسـانية ، وانتهاك الشعائر والحرمات الإسلامـة ، بؤس المسلمين وشقائهم - الذين كـانوا يحكمون هذه البلاد من ستـة قرون - بكى قلبـه الحزين المتـقطع المرهف الحس دمـوعا من دمـاء وقطرات من قلمـه السيـال هذه القطرات من الدمـاء على صفحـات تلك الرسائل التى كـتبـها إلى بعض أعـيان الدولة ، ووجـهائهـا ، وسوف نورد هنا بعض النمـاذج منهـا ، يقول فى رسـالة كتـبهـا إلى ملك معاصر[٢٨] يشكو فيها صولة سورج مل وجولته وشوكته ، وغربة الإسلام وبؤسه :

« ومن بعد ذلك ظهرت شوكة سورج مل وقويت ، فقد استولى سورج مل على مسافة ٦ أميال من دلهى إلى أواخر حدود « آكره » طولا ، ومن حدود ميوات إلى « فيروز آباد » وشكوه آباد عرضا ، فلا يقدر أحد أن يؤذّن هناك ويقيم الصلاة » [٢٩].

ويذكر فى هذه الرسالة خراب مدينة « بيانه » التى كانت عامرة مخصبة ، فيقول :

« لقد أخرج المسلمون - كرها وقـسرا وبإهانة وإذلال - من مدينة « بيانه » التى كانت

---

(٢٨) كما سيأتى فيما بعد ، وهناك جميع القرائن على أن هذه الرسالة وجهت إلى أحمد شاه الأبدالى .

(٢٩) الرسالة التى كتبت إلى بعض السلاطين (انظر « الرسائل السياسية للإمام الدهلوى » ص : ١٥) .

مدينة إسلامية قديمة ، لم يزل يسكنها العلماء والمشايخ من سبعة قرون » (٣٠) .

ويذكر فقر الموظفين الرسميين وسوء حالهم وقد تجاوز عددهم مائة ألف ، فيقول :

« لما انتهت خزانة الملك ، توقف النقود أيضا ، حتى تفرق الموظفون شذر مذر ، وبدأوا يتكففون ويستجدون ، ولم يبق للدولة إلا الاسم » (٣١) .

وقد صدرت من قلمه - وهو يذكر وضع عامة المسلمين - هذه الكلمة المؤثرة المشجية :

« وبالجملة فإن جماعة المسلمين تستحق العطف والرحمة » (٣٢) .

ويقول فى رسالة كتبها إلى النواب نجيب الدولة :

« لقد لقى المسلمون - سواء كانوا سكان دلهى أو أى مكان آخر - صدمات عديدة ، ووقعوا - مرارا - فريسة السلب والنهب ، لقد بلغ السكين العظم ، إنه لمقام الرحمة والعطف »(٣٣) .

ويتنبأ الإمام الدهلوى - نظرا إلى الحقائق والوقائع والأسباب القوية المؤثرة - بالنتائج الحاسمة ووقائع المستقبل القريب بما لا دخل فيه للقياس والذكاء بل هو نتيجة الدراسة الواقعية غير المحايدة .

« فلو بقى غلب الكفر وظهوره على هذا الوضع فيخشى على المسلمين أن يتناسوا الإسلام ، ولا تمضى إلا أيام وسنون حتى يظل الشعب المسلم شعبا لا يقدر على التمييز بين الإسلام وغير الإسلام » (٣٤) .

نصيحته للسلاطين المغول وأركان الدولة ورجال الحل والعقد :

لقد درس الإمام الدهلوى تقدم السلاطين المغول وانحطاطهم وعواملهما دراسة ممعنة - كما يبدو ذلك من المبحث الذى مضى فى الباب السابع من « حجة الله البالغة » - وقد درس - عدا الدولة المغولية - تاريخ الدول الإسلامية الأخرى بنظرة دقيقة فاحصة ، واستنتج منه تلك النتائج الحكيمة التى لا يطلع عليها إلا من أكرمه الله بحمل القرآن الكريم

---

(٣٠) أيضا ص : ٩ .

(٣١) أيضا : ص : ١١ .

(٣٢) أيضا : ص : ١١ .

(٣٣) الرسالة السابعة إلى نجيب الدولة ، ص : ٢٢ - ٢٣ .

(٣٤) انظر مقدمة ابن خلون فصل « إن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع » ص : ٣٠٦ .

وفقهـه ، الذى يعرف قانون الله - تعالى - وسنـته فى المجازاة ، ولم يكن خافـيا عليه أن طبيعـة هذه الأسرة الملكية قد انحـرفت وفسدت - للسلطة الوراثية الطويلة وكـثرت وسائل الترف والتسليـة ، وصحبة الندماء المغـرضين ، وقصر نظر المستشـارين - واستحكمت فى جسمـها الأدواء ، وتأصلت الأمراض ، وقد كـان خبيرا بهـذه الكلمة الحكيمة للفـيلسوف المؤرخ العلامة ابن خلدون : « إن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع » .

ولكن الهم الصادق ، والـطلب الملح ، ونداء القلب والضميـر يحمل الإنسـان فى مثل هذه الأوضاع أيضا على المغـامرة - التى لا يبقى فيهـا أمل النجاح إلا وهما من الأوهام ، فـإنه إذا اشتـد الظمـأ براحل ، وبلغ قلبه الحـناجر فـإنه - رغم العـقل والذكاء والحكمـة والتجـارب - يخطو - تلقائيا - رجاء الحـصول على الماء إلى منبع السراب ، فـإن انخداع العقل دليل على العطش الصـادق ، وما أحسن ما قـال الشاعر الفارسى عـرفى ، يقول ما معناه :

« ظن بنفسك قلة الظمأ الصادق ، ولا تُدِلَّ بعـقلك ولا تفخر به إذا كان عقلك - على علم ووعى - لم ينخدع بلمعان السراب الظاهر وبريقه الجذاب » .

ولكن الإنسان ولا سيما أسرة كهذه التى حكمت - قرونا طوالا - بشوكة وعز وجلال، تختلف طبعا عن سراب جامد لا روح فيه ولا حياة ، وليس هذا الرجاء منها ببعيد أن يولد فيهـا رجل عصامى صاحب عـزيمة وحمية وغـيرة يغير تيـار الأحداث ، وينفخ فى الدولة المحتضـرة روحا جديدة من الحياة - لقـد كان الإمام الدهلوى أكبر العـارفين - فى عهده - بالقرآن الكريم ، والغواصين فى معانيه وحقائقه ، وكانت بين يديه هذه الآية الكريمة :

﴿ تولج الليل فى النهـار وتولج النهار فـى الليل ، وتخرج الحى من الميت وتخـرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ (٣٥) .

ولذلك كتب الإمام الدهلـوى - رغم معرفته بأوضـاع القلعة المعلاة معرفـة جيدة - إلى أحد (٣٦) الملوك المغول من معاصـريه رسالة نصحه فيهـا بإصلاح الحال ، وتقوية الدولة ، واسترعاء رحمـة الله - تعالى - ونصره وتأييده إليه - وضمّنها توجيـهات ونصائح حكيمة عاليـة تقوم على أساس الحـكمة العاليـة والبصيـرة النافذة فى الدين ، والدراسـة العميـقة الواسعة للتاريخ والسياسة ونظم الدولة ، لقد قال فى بدايتها :

---

(٣٥) سورة آل عمران ، الآية : ٢٧ .

(٣٦) ومن المؤسف أننا لم نطلع على اسم هذا الملك المغولى (الذى كتبت إليه هذه الرسالة المهمة) .

« أرجو من فضل الله - تعالى - ورحمته أنه إذا صح العمل وتحقق بموجب هذه الكلمات فسوف تظهر القوة والحزم فى شئون الدولة وبقاء الحكومة وتعلو الكلمة يقول الشاعر ما معناه :

«لقد وضعونى كالببغاء وراء المرآة ،فلا أقول إلا ما لقننى المعلم الأزلى (الأبدى)»[٣٧].

وقد أشار فى آخر هذه الرسالة - التى أرسلها إلى الملك المعاصر وأمرائه ووزرائه - بعد تقديم توجيهات ناصحة حكيمة ، سياسية وإدارية - لا يمكن أن تقوم الدولة بغيرها ، ولا تعود الرفاهية إلى الناس وتستحكم الثقة فيما بينهم - بأن يولى على الحسبة والقضاء أولئك العلماء الذين لم يتهموا برشوة ، ويكونون من أهل السنة والجماعة ، وأن تعطى لأئمة المساجد رواتب محترمة ، ويوكد على أداء الصلوات بالجماعة ، ويعلن - باهتمام بالغ - أن لا ينتهك أحد حرمة شهر رمضان ، وأخيرا أن لا ينهمك « ملك الإسلام » و « الأمراء العظام » فى العيشة الباذخة المحرمة ، ويتوبوا مما سلف منهم من الذنوب توبة نصوحا ، ويتوقوا من الذنوب فى الحياة المقبلة، فلو عمل بذلك فإنى آمل بقاء الدولة ، وتأييد الله - تعالى - ونصرته ، «وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب » [٣٨].

وهكذا قام الإمام الدهلوى بأداء واجبه ومسئوليته التى كان يجب على العالم الجليل بالدين وشارح الكتاب والسنة ، ومصلح عصره ومجدده أن يقوم بأدائها ، وهكذا يفعل من يعرف مسئولياته وواجباته ، ويطلع على تلك الأخطار المحدقة التى كانت كالسيف المصلت ليس على رءوس الأسرة الحاكمة فحسب بل على رءوس جميع سكان البلاد ولم تكن للإمام الدهلوى - فى اتباعه لسلفه الأكرمين وحسب منهج العلماء الربانيين - علاقات وصلات مباشرة بالبلاط والدولة ، بل كان متبوأ على حصير « الفقر » الغنى ، ولكن قلبه كان مشغولا - كالشيخ نظام الدين البداونى الدهلوى وخلفه السيد نصير الدين الدهلوى - بالدعاء لحكومةوهدايتها وصلاحها ، ولم يكن يضن على من يتصل بمركزه العلمى والروحى بتوجيهات ناصحة نافعة

---

(٣٧) انظر « الرسائل السياسية للإمام الدهلوى » الرسالة رقم : ١ ، إلى الملك ووزرائه وأمرائه .

(٣٨) أيضا ، ص : ٨٠ - ٨١ .

مشافهة وكتابة ، وقد وقع بعض المرات أن فاجأ الملك بزيارته للإمام الدهلوى ، وطلب منه الدعاء ، يقول فى رسالة كتبها إلى معتمده ، الحبيب ومسترشده وأخيه ابن خاله الشيخ محمد عاشق الفلتى :

«لقد ركب الملك يوم الخميس لزيارة مقابر الشيخ نظام الدين والمشايخ الآخرين(٣٩) ودخل على بيتى - بدون إشعار سابق - من الباب الكابلى راكبا على أريكة ساذجة ولم يكن لى بذلك سابق علم ، فدخل المسجد وجلس على البوارى ، فرأيت توقير السلطان من اللازم إلى حد أن فرشت سجادتى التى أجلس وأصلى عليها بطريقة جلست فى جانب منها وجلس الملك فى الجانب الآخر ، وصافحنى الملك أولا بإكبار وإجلال ، ثم قال : كنت فى شوق إلى زيارتكم منذ مدة طويلة ، ولكنى وصلت اليوم بدلالة هذا الشابّ (وكانت الإشارة إلى الوزير) ، ثم قال إن غلبة الكفر والفرقة والفوضى فى الرعايا وصلت ما وصلت إليه مما يعلمه الجميع ، فقد شقّ على النوم والطعام والشراب ، وأسألكم الدعاء ، فقلت : كنت لا أزال اشتغل بالدعا من قبل ، وسوف أزيد من الآن اشتغالى بالدعاء إن شاء الله - تعالى - .

وقال لى الوزير - أثناء ذلك - إن جلالة الملك يحافظ على الصلوات الخمس باهتمام فقلت : الحمد لله ، هذا ما نسمعه بعد زمن طويل ، وإلا فإنه لم يسمع عن الملوك السابقين فى الماضى القريب هذه المحافظة على الصلوات »(٤٠).

ثم حكى الإمام الدهلوى للملك - أخيرا - تلك الوصية التى أوصى بها سيدنا أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - سيدنا عمر الفاروق - رضى الله عنه - عند استخلافه ، قال :

« تعرض للخليفة مشاكل طريفة غريبة ، من قبل أعداء الدين وأتباعه أيضا ، فلا علاج لهذه المشاكل إلا العلاج الواحد ، وهو أن تجعل مرضاة الله - تعالى - نصب عينك وتستعين به ، وتصرف النظر عن سواه »(٤١).

---

(٣٩) ومن المؤسف أن اسم هذا السلطان لم يذكر فى هذه الرسالة ، ولا عندنا مراجع نرجع إليها فى الكشف عنه .

(٤٠) الرسائل السياسية للإمام الدهلوى ، ص : ١٣٥ - ١٣٦ .

(٤١) أيضا ، ص : ١٣٦ - ١٣٧ .

ويقول فى رسالة أخرى كتبها إلى الشيخ محمد عاشق :

« جاءنى الملك ووالدته [٤٢]، وكان غرض الملك من المجيء بهذه الصورة أن يجلس عندى دون كلفة وحرج ، وقد جلس ثلاث أو أربع ساعات تقريبًا ، وتناول الطعام كذلك، وكان أكثر كلامه فيما يتعلق بالاستعانة فى سبل الخير والرفاهية للناس » [٤٣].

ولكن الحقيقة الظاهرة هى أن انحطاط الأسرة الحاكمة ، وآثار السلطة الوراثية ، والمناوئات والمؤامرات الخارجية والداخلية ، كانت قد بلغت إلى حد أن أى سلطان كبير قوى صاحب عزيمة وقوة إرادة لم يكن يستطيع أن يغير هذا الانحطاط بالازدهار والضعف والوهن بالقوة الجديدة والحيوية الجديدة ، ويحدث ثورة فى أوضاع البلاد كلها ، وقد أثبت التاريخ أن أى دولة من الدول إذا وصل انحطاطها وتردّيها إلى آخر حدوده ، وكانت ألغام المؤامرات والمعارضات متهيأة لتنسف كيان الدولة كلها ، فلا ينجح أقوى الملوك إرادة وأمضاهم عزيمة ، وأشدهم صبرا وبلاءً ، وأصلحهم حالا ، فى إعادة الحياة إلى جسد الدولة الهامد ونفخ الروح فيه من جديد وقد وقع مرارا أن الرجل الأخير فى الأسرة الحاكمة الذى سقطت فى عهده الدولة وانقرضت ، كان أصلح بكثير من كثير من سلفه وسابقيه ، وأنه حاول جهده المستميت فى حماية الدولة من السقوط ولكنه لم يلق أى نجاح وخابت مساعيه ، فقد كان مروان بن محمد المعروف بمروان الحمار (م ١٣٢ هـ) فى آخر الدولة الأموية والأسرة المروانية وآخر الخلفاء العباسيين المستعصم بالله (م ٦٥٦ هـ) وكذلك آخر ملوك الأسرة التيمورية - إلى حد ما - أبو ظفر بهادر شاه (م ١٢٧٩ هـ الموافق ١٨٦٢ م) من الأمثلة العديدة على ذلك .

ولذلك كانت الحاجة ماسة إلى أن لا يقتصر المصلح الناضج ، والمؤرخ البصير وصاحب الفراسة الإيمانية كالإمام الدهلوى ، على إقامة الصلاة بالملوك المغول - اسما - وأمراء بلاطهم وإيقاظ الحمية الدينية والغيرة الإسلامية فيهم ، وتحريضهم على مقاومة الأوضاع المنحرفة والقوى الهدامة المخربة ، فقد خرج هو من نطاق أمراء البلاط الضيق المحدود وراسل أولئك الأمراء وقادة الجيوش والأبطال الطامحين الذين أحس فى داخلهم بجمرة الحمية الدينية والإباء القومى كان فيهم هؤلاء الأمراء والقادة الكبار الذين يلى ذكرهم .

---

(٤٢) والمراد بالملك هنا الملك أحمد شاه الذى كان ابن محمد شاه وخلفه على عرشه عام ١١٦١ هـ .

(٤٣) انظر الرسائل السياسية ، ص : ١١١ .

١ – وزير المملكة آصف جاه [٤٤] .

٢ – النواب فيروز جنك نظام الملك أحمد شاهى [٤٥] .

٣ – الوزير عماد الملك .

٤– تاج محمد خان بلوج .

٥ – النواب مجد الدولة بهادر [٤٦] .

٦ – النواب عبيد الله خان الكشميرى .

٧ – ميان نياز كل خان .

٨ – السيد أحمد روهيله .

إلا أن اختيار الإمام الدهلوى – الذى كان يرافقه الإلهام الربانى والفراسة الإيمانية – وقع منهم على شخصيتين عظيمتين فى ذلك العهد ، كان أحدهما فى داخل الهند ، والآخر فى خارجها ، أعنى بذلك أمير الأمراء النواب نجيب الدولة ، وأحمد شاه الأبدالى حاكم أفغانستان إذ ذاك .

النواب نجيب الدولة :

لقد كانت تتوفر فى النواب نجيب الدولة جميع الصفات والخصائص التى هى من خصائص مؤسسى الدول والحكومات فى العهد القديم ، الذين قاموا بدور مهم بارز فى عهد ازدهار الدول الشخصية والأسر المالكة وتقدمها – الذى كان يكفى فيه توفر الجوهر الذاتى ، والخصائص الذاتية اللازمة واجتماع الأوفياء والمخلصين للفتوح وإقامة الدول والحكومات – والذين ظهرت على أيديهم أى مأثرة من مآثر الفتح والانتصار ، والذين كان يتمكن منهم جوهر الوفاء بولى نعمتهم وعادة الإحسان والكرم مع أصحابهم ومن تحت أيديهم ، وخصيصة الفروسية والشجاعة والصلاحية القيادية تمكنا راسخا ، ولكن التجارب التاريخية تفيد أن هذه الصفات والخصائص إن كانت تنجح فى هزيمة القوى العسكرية وفتح البلاد والأمصار ولكنها فى البيئة التى يعتبر فيها الغدر والخيانة « فنا شريفا » وتعتبر مخالفة الأصول والضوابط وإساءة الأخلاق والأعمال سياسة حكيمة عالية ،واستغلال الفرص عقلا

(٤٤ ، ٤٥) انظر « مجموعة الرسائل » للشيخ عبد الرحيم والإمام الدهلوى (مخطوط) فى مكتبة الجامعة العثمانية بحيدر آباد ، قسم المخطوطات ص : ٢١٤ .

(٤٦) وجهت إليه أربع رسائل ، انظر « الرسائل السياسية للإمام الدهلوى » ص : ٦٦ – ٧٠ .

وبصرا وكياسة ، تتحول - بدل أن تكون مفيدة نافعة - إلى عوائق فى سبيل النجاح ، ودوافع إلى إيجاد المشاكل والمصاعب، ولقد صادفت النواب نجيب الدولة وآصف جاه - لسوء الحظ - مثل هذه البيئة الفاسدة العفنة ، وقد اتفق المؤرخون على سمو خلقه وصلاحيته الجندية والقيادية والإشادة بها ، يقول سرجاد وناتهسر كار :

« يحار المؤرخ فيما يختار من حسناته للإشادة بها والثناء عليها ، أقيادته المحيرة فى ساحة الحرب ، أم صواب رأيه وحدة نظره فى المشاكل ، أم صلاحيته الفطرية التى كانت تنير له فى الفوضى والاضطراب ، تلك الطريق التى كانت تؤدى إلى نتائج تحالفه وتوافق هواه » (٤٧).

ويقول الشيخ ذكاء الله فى « تاريخ الهند » :

« لقد كان نجيب الدولة عاقلا ذكيا فطنا حكيما ، قلَّ من يكون مثله ، فقد انتهت إليه فى عهده الأمانة والديانة ، فكان لا يكفّ عن طاعة أسياده القدماء النواب دوندى خان روهيله ، والنواب شجاع الدولة ، كما كان له تحالف مع ملهرراؤهلكر ، ولعلك تذكر أن هذا المرهتة كان قد فر من حرب « بانى بت » تاركا أهل وطنه وراءه وبالجملة فقد كان هذا الرجل الشجاع يدارى - بطريقة أو أخرى - هذه الدولة المحطَّمة المكسرة » (٤٨).

ويقول الشيخ عبد العزيز الدهلوى :

« كان لدى نجيب الدولة تسعمائة عالم ، يتقاضى أدناهم منزلة خمس روبيات وأعلاهم ٥٠٠ روبية شهريا » (٤٩).

وكان هو - حسب تصريح البروفيسور خليق أحمد نظامى - أكبر شخصية فى دلهى فى الفترة ما بين ١٧٦١ م - ١٧٧٠ م ، فكان هو القطب الذى تدور حوله رحى السياسة كلها، وكان يتحمل عاتقه أعباء إدارة الحكومة كلها (٥٠).

لقد اختار الإمام الدهلوى - الذى وهبه الله - تعالى - ملكة خاصة لمعرفة الرجال والاعتراف بالواقع والتى لا تعطى إلا لأولئك الرجال الذين يقومون فى تاريخ الإصلاح

---

(٤٧) SARKAR : TALL OF THE MUGHAL EMPIRE, VOL . 11 P . 416
وقد اقتبسنا ذلك من « الرسائل السياسية للإمام الدهلوى » ، ص : ٢٣٢ .

(٤٨) تاريخ هندوستان (تاريخ الهند) جـ : ٩ ، ص : ٣١٥ .

(٤٩) « مجموعة الكلمات » للشيخ عبد العزيز ، ص : ٨١ .

(٥٠) الرسائل السياسية ، ص : ٢٣٢ .

والتجديد وصناعة الرجال وتربية الأفراد بأعمال جليلة بارزة - لتحقيق آماله وتكميل مهمته فى هذا العهد من أزمة الرجال وندرة الأفراد - النواب نجيب الدولة ، وقد تفرس بعد نظره ودقته ما أودع الله - تعالى من جوهر صالح وحمية دينية فبدأ الإمام الدهلوى مراسلته ، وحاول إشعال تلك الجمرات الكامنة تحت الرماد ، يقول فى رسالة إليه :

« ندعو الله - تعالى - أن يشرف أمير المجاهدين بالنصر الظاهر والتأييد المبين ويبلغ هذا العمل إلى منزلة القبول وينزل عليه بركات ورحمات كبيرة » .

ليبلغ من الفقير ولى الله - عفا الله عنه - بعد التسلميات العطرة بالمحبة أننا نشتغل هنا بالدعاء لنصرة المسلمين ، وتلوح لنا من الغيب آثار القبول ، ونأمل أن الله - تعالى - سيحيى على أيديكم الجهد والجهاد الدينى ويعطى بركاته وثماره فى الدنيا وفى الآخرة ، إنه قريب مجيب » (٥١) .

ويدعوه فى رسالة أخرى بـ « أمير الغزاة ورئيس المجاهدين » (٥٢)، ويقول فى رسالة أخرى :

« يخيل إلينا أن عمل تأييد الملة الإسلامية ونصرة الأمة المرحومة فى هذا العصر سوف يتحقق على أيديكم الذى هو مصدر هذه الأعمال الخيرة ووسيلتها ، فلا تدعوا الوساوس والهواجس تتمكن من قلوبكم ، وستتحقق إن شاء الله - تعالى - جميع الإنجازات وفق رغبة الأحباب ورضاهم » (٥٣) .

ولا يكتفى الإمام الدهلوى فى رسائله إلى النواب نجيب الدولة بكلمات التهنئة والدعاء، بل يشير عليه بوصايا نافعة أساسية ، وينصحه بالحيطة والاجتناب من العودة إلى تلك الأخطاء والوقائع التى ظهرت على أيدى الغزاة السابقين والجيوش الإسلامية من قبل ، والتى تحول دون تأييد الله - تعالى - ونصره ، يقول فى إحدى رسائله :

« عندما تمر الجيوش الملكية بدلهى فليراع بدقة نظام أن لا تداس كرامة هذه المدينة بالظلم والعدوان كما سبق من قبل ، لقد شهد أهل دلهى - مرارا - حوادث النهب والسلب وانتهاك الحرمات والأعراض ، وهذا هو سبب التأجيل فى تحقق المقاصد والأهداف ، فإن أنة المظلوم لا تذهب هكذا سدى ، فإذا كنتم تريدون هذه المرة أن يتحقق لكم ما لم يتحقق

---

(٥١) الرسائل السياسية ، ص : ١٩ .
(٥٢) أيضا ص : ٢٠ .
(٥٣) أيضا ص : ٢٨ .

بعد ، فليؤكد تأكيدا بلغ وليلتزم التزاما قويا بأن لا يتعرض أى جندى للمسلمين فى دلهى وغير المسلمين أيضا ، الذين يدعون أهل الذمة » (٥٤).

ويلفت الإمام الدهلوى الأنظار - مرة بعد مرة - فى عدد من رسائله إلى حماية البلاد من خطر هذه القوى المقاتلة الهدامة الثلاث - التى مضى ذكرها فى بداية هذا الباب - وحفظها من أضرارهم وعدوانهم ، إذ بدون ذلك لا تقوم للنظام والإدارة فى البلاد قائمة ، ولا يسود الأمن والسلام ، ولا تبقى الشعائر الدينية ومساجد المسلمين آمنة مصونة ، ولا أمل فى عيشة عادية متزنة ، فق أصبحت البلاد كلها بسبب هذه القوى العائثة فى الأرض الفساد تعيش حالة حرب دائمة ، وفى صورة جبهة عسكرية مستقلة (٥٥).

لقد بلغ الإمام الدهلوى من حبه للنواب نجيب الدولة وإشادته به ، ويعلق عليه من الآمال الجسام أن يكرر عليه ويؤكد - مرارا - أنه إذا قام وتوجه لهذه المهمة فلابد أن يشعر الإمام الدهلوى بذلك حتى ينصرف إلى الدعاء (٥٦) كما يؤكد عليه - مرة بعد مرة - رجاءه الفتح والانتصار على يديه - ويتنبأ بذلك يقول فى رسالة إليه :

« لا يشك هذا الفقير فى هذا الأمر ، ولا يرتاب فيه » (٥٧).

وقد اتخذ الإمام الدهلوى النواب نجيب الدولة نفسه واسطة خاصة لدعوة أحمد شاه الأبدالى إلى الهند ، وأمره بالكتابة إليه - عدا مراسلاته معه مباشرة التى سيأتى ذكرها فى الصفحات القادمة - وأكد عليه بذلك عدة مرات ، وتوفى النواب نجيب الدولة بعد وفاة الإمام الدهلوى بثمانى سنوات فى رجب عام ١١٨٤ هـ الموافق ٣١ / أكتوبر عام ١٧٧٠م، يقول البروفيسور خليق أحمد نظامى :

« إن هذا الحادث الذى يدل على عدله وبعد نظره سوف يبقى ذكرى دائمة فى التاريخ ، إذ أنه حال احتضاره وإشرافه على الموت على فراشه أصدر أمره إلى جيوشه (التى كانت مقيمة - إذ ذاك - فى هابور (٥٨) وكان بها العيد والاحتفال السنوى للهندوس) أن يحافظ على أموال الزوار الهندوس المشاركين فى هذا الاحتفال وأعراضهم وأنفسهم » (٥٩).

---

(٥٤) الرسائل السياسية للإمام الدهلوى ، ص : ٢١ .

(٥٥) أيضا ص : ٢١ - ٢٢ .

(٥٦) أيضا ، ص : ٢٥ - ٢٧ .

(٥٧) أيضا ص : ٣٤ - ٣٩ .

(٥٨) مدينة قريبة من دلهى فى الولاية الشمالية .

(٥٩) الرسائل السياسية ، ص : ٢٣٤ ، نقلا عن « سركار » جـ : ٢ ، ص : ٤١٥ .

أحمد شاه الأبدالى :

لقد أدرك الإمـام الدهلوى - ببعد نظره ودراسته الواقعية لأوضاع الهند . وبالنظر إلى بطالة أركان الدولة وأمراء البلاد وسوء تصرفاتهم وانحطاط الأسـرة الحاكمة وعدم كـفاءتها وصلاحيتها - حقيقتين ظاهرتين : إحداهما أن الحاجة الملحة الأولى لهذه البلاد هى القضاء على ملوك الطوائف والفوضى والاضطراب الذى لا يدع مجالا لأى عمل بناء وإدارة حازمة ونظام أفـضل ، ولا أمن فيـه لأنفس أهل البـلاد وأعراضـهم وأموالهم - كـما تقـدم فى الصفـحات الماضية - وتعـود مسئـولية هذه الفوضى والاضطراب وقلة الأمن وحـالة الفزع والإرهاب المستقلة إلى هذه القوى الفوضوية المقـاتلة الثلاث التى لم تكن لها خلفيات كريمة وتجارب سابقة للحكم فى بلاد تعيش فيها الشعوب المختلفة والحضارات والديانات المتعددة، ويحتاج تحمل مسئولية الإدارة فيها إلى شعور كبير بالمسئولية ، وقوة زاخرة بالتحمل والضبط وتملك الأعصـاب وسعـة النظر ورحابة الصـدر ، ولم تكن هذه القوى تملك تصـميـما أو تخطيطا لنشـر العدل والطمأنـينة فى البلاد ، واعادة الثـقة فى النفـوس ، وإصلاح الإدارة والنظام ، ولم يكن لها أى تصور وتفكير فيه ، ولأجل ذلك كانت المهمة الأولى هى حماية البلاد من خطر هذه الـقوى لا سيمـا من غلبة المرهتـة واستيلائـهم الذى لم يدع هذا الجزء المركـزى ، الذى لم يزل عـاصـمـة الحكومـات ، أى هذه المنطقـة مـن لاهور إلى دلهى والولايات المتحدة الشمالية يعيش - لحظة - فى أمن وطمأنينة ، فلا يدرى متى تتحول هذه المنطقة كلها إلى ساحة حرب وقتال ، وتتحـول المدن العامرة الزاهرة إلى غابة حرة مفتوحة يعطى فيـها السمـاح للصيادين والقـانصين أن يصطادوا السكان الآمنين ويذبحوهم كـالطير والمواشى ، ويقـضوا على ثرواتهم التى توارثوها كـابرا عن كابر ، وجـيلا بعـد جيل ،فى دقائق وثوان ، وكان الخطر الثانى فى صورة السيخ والجـات ، الذى كانت تتعرض له مراكز المدنية والحضارة والثروة واليسار ، وكان يدهمها ويفاجئها كآفة سماوية ، وبلية نازلة .

والحقيقة الثانية أن القضاء عـلى هذا الخطر كان يحتاج إلى قائد عسكرى محنك وجيش قوى مدرب ، يكون زاخراً بالقوة العـسكرية ، ولكن لا يكون ثملا بها سكران ويتصف - علاوة على صفات الفروسية والشجاعـة والبطولة - بالغيرة الإيمانية ، والحمية الدينية كذلك مع البراءة من الخلافات الجزئية والحزازات الجـانبية والأحقاد القديمة والعداوات الموروثة التى كانت تنخر عاصـمة البلاد وأصحاب السياسة كـالدود ، والتى لا يرجى فى وجودها تحقيق تلك الأهداف العاليـة التى ينظر فيـها إلى مصالـح الملة الإسلامية وتـأييد الدين الحنيف ، وحفظ البـلاد وتأمينها بدلا من مـصالح العناصر السـلالية ، والفرق الدينية الخـاصة ، أو

المصالح الشخصية والانتصار للذات ، وقد كان الإمام الدهلوى ينظر إلى أمير الأمراء النواب نجيب الدولة كواسطة ووسيلة ، ولكنه كان يعرف أنه لا يكفى نظرا لخطورة الأوضاع وشدتها ، ولم يكن من المستطاع أن يحد به - وحده - من سلطة تلك القوى وتُكسر شوكتها التى كانت قد ضاعفت قوتها العسكرية إلى حد أن أى قوة عسكرية واحدة فى البلاد لم تكن تقدر على كسرها وإلحاق الهزيمة بها ، بل كانت الحاجة لذلك ماسة إلى قائد عسكرى خارجى دافق الحياة والنشاط ، ولا يكون - فى نفس الوقت - أجنبيا غريبا فى هذه البلاد تماما ، بل يكون على معرفة وإلمام بوهاد هذه البلاد وأنجادها ، وتقاليد أهلها وعاداتهم ، وطبيعة الفرق المناوئة والمقاتلين المقاومين ومواضع ضعفهم وسقطتهم ويملك من علو الهمة والطموح ما يستطيع به أن ينقذ هذه البلاد من الأخطار الملمة الواقعة ، ثم يفوض السلطة إلى أحد الأكفاء القديرين من أفراد الأسرة الحاكمة القديمة أو إلى أمير أو وزير صالح وفىّ إذ كان ذلك هو المقتضى الحقيقى للواقعية والمصالح الملية ، وحب الوطن.

وقد وقع اختيار الإمام الدهلوى - لهذه المهمة الخطيرة العسيرة الدقيقة - التى تحمل ككل مهمة دقيقة خطيرة جوانب النفع والضرر والربح والخسارة - على أحمد شاه الدرانى (١١٣٦ - ١١٨٦ هـ الموافق ١٧٢٣ - ١٧٧٢ م) والى قندهار ، الذى لم يكن أجنبيا عن الهند ولا غريبا فيها ، فقد ولد فى ملتان [٦٠]، ولا يزال فيها شارع يسمى بـ « شارع الأبدالى » وقد غزا الهند لمختلف أهدافه وأغراضه تسع مرات من عام ١٧٤٧ م إلى عام ١٧٦٩ م ، وكان قد ورد الهند قبل دعوة الإمام الدهلوى ونجيب الدولة له - ست مرات ، وكان يعرف وهاد البلاد وأنجادها وأساليب الحرب فيها ونسبة القوى العسكرية بها وميول الأمراء وأركان الدولة ونزعاتهم ، وقد كان من أولئك القادة العسكريين المتازين فى منتصف القرن الثامن عشر المسيحى والقرن الثانى عشر الهجرى الذين لا يولدون إلا بعد آماد وأحقاب طويلة ، ويؤسسون دولا وحكومات مستقلة ، أنه جمع شمل الأفغانيين المتفرقين بتوفيق ونجاح ، ونفذ القوانين العادلة ، وأقام الحسبة ، وكان يجمع بين صفات الفروسية والأخلاق الفاضلة وشرف النفس وكرم الأصل ، يتذوق العلم والأدب ويعنى بهما ، وكان محببا أنيسا فى قومه ، متدينا ، متقيدا بالفرائض والآداب الدينية ، يحب مجالسة العلماء والصالحين ويتأدب مع الأشراف والمشايخ ويكرمهم ، ويرغب - دائما - فى زيادة معلوماته

---

(٦٠) انظر دائرة المعارف الإسلامية (ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM) مقال C.COLLIN DAVIES .

وتبادل الآراء فى الأمور العلمية .

وكان رقيق القلب رحيما سخيا كريما ، يتمسك بأصول المساواة والمسامحة الدينية ، وقد أحيا بعض السنن التى كان التكلم بها فى البيئة الأفغانية - إذ ذاك - من الصعوبة بمكان ، مثل الزواج بالأيامى ، وقد كان هو نفسه مثقفا وكاتباً قديرا ، وكان يهتم بتقدمه الروحى ويتمنى ذلك (٦١) ، يقول فيرير :

لقد كان أحمد شاه بريئا من كثير من السيئات ومواضع الضعف الشرقية ، فكان يتجنب - كليا - شرب الخمور وتناول الأفيون ، نزيها ساميا على أفاعيل النهامة والنفاق ، ملتزما بالدين أيما التزام ، وكانت عاداته وأخلاق الساذجة ولكن المتزنة الرزينة تحببه إلى كل شخص ، كان الوصول إليه سهلا ميسورا ، فقد كان يراعى العدل والنصفة ، ولم يشك أحد قط فى حكمه وقضائه (٦٢) .

كان أحمد شاه الدرانى قدم الهند فى عهد الإمام الدهلوى ست مرات من قبل ، وقضى حاجاته المحلية المؤقتة ، ثم رجع إلى بلاده ، ولم يقم هو - فى هذه الحملات سوى التظاهر بقوته العسكرية المدعمة ، وتحقيق بعض مآربه الموقتة - بمهمة مفيدة ولم يحقق مصلحة كبيرة ، كما لم يلتزم جيشه - أثناء حملاته - بتلك الآداب والتعاليم الإسلامية التى يتوقع العمل بها من شخص مسلم متقيد بالشريعة ، وقد عانى الإمام الدهلوى وأصحابه أيضا من جراء بعض حملاته ، من مصائب وصعوبات ، ولكنه رغم هذه المواطن من الضعف فيه والتجارب المُرّة السابقة عنه كان هو الأمل الوحيد الذى يلمع فى الأفق ، يصرح الشيخ محمد عاشق الفلتى بأن الإمام الدهلوى بعد كل ذلك كان يقول : « إنه سيغلب على هذه الديار » ، وقال مرة ردا على سؤال من بهادر خان بلوج : « سوف ستحكم سيطرته على هذه البلاد » ، وشاع - ذات مرة - نبأ وفاته ، فلما استفسر الشيخ محمد عاشق الفلتى عنه قال :

الذى يخيّل إلىّ هو أن أحمد شاه الدرانى سوف يعود إلى هذه البلاد ويقلب هؤلاء الكفار ظهرا لبطن ويجعل عاليهم سافلهم ،وإنه رغم جوره وطغيانه قد حفظه الله -تعالى-

---

(٦١) انظر للتفصيل : AHAMED SHAH DURRANI- FATHER OF MODERN AFGHANISTAH-ASIA PUBLISHING HOUSE , 1949 BY DR . G . SINGH .

(٦٢) انظر HISTORY OF THE AFGHANS وقد اقتطفنا ذلك من الرسائل السياسية ص : ٣٣٥ - ٣٣٦ .

لأجل هذه المهمة » (٦٣).

لقد كان الإمام الدهلوى يتوقع أن الله - تعالى - سوف يصلح أحوال الأبدالى ويهديه إلى الرشاد ، ويستعمله فى خدمة - ليست - فى ظاهر الأمر - فى وسع أى أمير أو قائد آخر ، قال للحكيم أبى الوفاء الكشميرى ذات مرة : إن الصعوبات التى يلاقيها الأبدالى فى تحقيق أهدافه هى لأجل ما ارتكبه من ظلم وجور (فى حملاته السابقة) على مدن الهند ، وسوف تصلح أحواله فيما بعد (٦٤).

كان الإمام الدهلوى يريد من أحمد شاه الأبدالى أداء دوره فى صيانة هذه البلاد من هذه الأوضاع القلقة والفوضى العامة ، وأن يعهد بالدولة إلى شخص كفء صالح -إلى حد ما- من أفراد الأسرة الحاكمة ، وكان الإمام الدهلوى قد تنبأ قبل مقدمه بأنه لا يلبث هنا بل يولى أمرا لدولة أحد الأفراد من أولاد الملوك (٦٥).

وأخيرا طلب الإمام الدهلوى من نجيب الدولة كتابة الرسائل - بهذا الصدد - إلى أحمد شاه الأبدالى ، ثم كتب إليه - مباشرة - رسالة مؤثرة بليغة تكشف عن بصيرة الإمام الدهلوى السياسية وحميته الدينية وجراءته الخلقية (٦٦)، وقد ذكر فى هذه الرسالة الأوضاع الراهنة فى البلاد وأساليب حكمها القديمة ، وإدارة مختلف الولايات ونظمها المختلفة وعدد الفرق الدينية والسلالية المختلفة فى البلاد ، ونسبة قواها ، وأخطاء الملوك السياسية وقصر نظرهم فيما يتعلق بهم ، واستحكامهم وتبوأهم مكانة القوة والسلطة - بصفة تدريجية ، وذكر المرهتة والجات فى هذا الصدد - بصفة خاصة - وصور غربة الإسلام وبؤس المسلمين بتأثير حملاتهم المتكررة صورة مشجية مذيبة للقلوب ، وحرض هذه القائد المسلم - الذى كان يملك فى ذلك العهد من الهند إلى إيران - أكبر قوة عسكرية منظمة - على مقاومة هذه الأوضاع وتثبيت دعائم الدولة المغولية وتوطيد أركانها ، وتحمل مسئولية البلاد على عاتقها من جديد ، وصارحه بقوله :

« إنه لا يوجد - فى هذا العهد - ملك يملك من القوة والشوكة ما يستطيع أن يهزم بهما جيوش الأعداء ، مع بعد النظر والحنكة العسكرية إلا سيادتكم » (٦٧).

---

(٦٣) « الرسائل السياسية » ص : ٢٦ - ٢٧ .

(٦٤ ، ٦٥) أيضا ص : ٣٠ .

(٦٦) انظر الرسالة المفصلة فى « الرسائل السياسية » الرسالة رقم : ٢ ، ص : ٦ - ١٧ .

(٦٧) أيضا ، ص : ١٢ .

ويزيد قائلا :

« إننا عباد الله نستشفع برسول الله ﷺ ونسأل بالله - تعالى - أن تصرفوا همتكم المباركة العالية إلى هذه الجهة ، وتقاوموا الأعداء حتى يكتب لكم عند الله - تعالى - فى صحيفتكم ثواب عظيم ، ويسجل اسمكم على صفحة المجاهدين فى سبيل الله ، وتنالكم فى الدنيا مغانم كثيرة لا تحصى ، ويتخلص المسلمون من مخالب الكفار وقبضتهم » (٦٨) .

وقد عرض الإمام الدهلوى فى هذه الرسالة - نفسها - ببصيرته السياسية واطلاعه العميق على الظروف والأوضاع ، عن هذه القوى الناشئة البارزة التى كانت لها - لفقدان أى قوة منظمة مجابهة - هيبتها ورعبها فى النفوس ، وكان يعتقد أن لا قدرة لأحد على هزيمتها ، تقديرا صحيحا دقيقا لا يقدمه إلا قائد محنك أو سياسى بارع ، يقول عن المرهتة:

« إن هزيمة المرهتة هينة سهلة ، شريطة أن يشمر غزاة الإسلام عن ساق الجد والاجتهاد، والواقع أن عنصر المرهتة قليل العدد ، ولكن جمعا كبيرا يساندهم ويحالفهم ، فلو فرق صف واحد من صفوفهم لتبددت هذه الجماعة وتفرقت ، وأصيبت بالهزيمة والضعف والفتور ، وبما أن هؤلاء القوم ليسوا أصحاب قوةوشوكة ، لذلك فإنه ينحصر كل مهاراتهم فى جمع العدد الكبير والجيش الكثير الذى يكون أكثر من النمل والجراد ، أما البطولة والشجاعة وكثرة وسائل الحرب فليست فيهم » (٦٩) .

إن هذه الرسائل التى كتبها النواب نجيب الدولة - بتوجيه من الإمام الدهلوى إلى أحمد شاه الأبدالى ، ثم الرسالة المؤثرة البليغة المفصلة التى كتبها الإمام نفسه إليه - وقد تقدمت بعض مقتطفاتها - لم تذهب سدى ، فقد توجه أحمد شاه الأبدالى عام ١١٧٣ هـ - الموافق ١٧٥٩ م لكسر شوكة المرهتة وتحطيم قوتهم ومساعدة نجيب الدولة وشجاع الدولة - اللذين كانا قد أثبتا وعيهما السياسى ووحدتهما الإسلامية إلى الهند ، ومضى عام كامل فى الحروب والاشتباكات الجانبية ، وأخيرا وقعت بين المرهتة وبين الأفغانيين والجبهة الإسلامية الهندية الموحدة عام ١١٧٤ هـ الموافق ١٤ / يناير عام ١٧٦١ م تلك المعركة الحاسمة التى غيرت فى الهند مجرى التاريخ ، وأخرجت المرهتة من الخريطة السياسية الناشئة فى الهند ، ونورد فيما يلى قصة هذه الحرب ونتيجتها بإيجاز حسبما يحكيها الشيخ ذكاء الله فى كتابه

---

(٦٨) أيضا ، ص : ١٢ .

(٦٩) الرسائل السياسية ، ص : ٨٦ .

« تاريخ الهند » [٧٠] يقول :

« لقد حمى الوطيس واشتد لظى الحرب إلا أن كفة المرهتة كانت راجحة ، فأصدر أحمد شاه أمره لجنوده الفارين من الزحف أن يحاصروا ويقتلوا ، وأعلن أن من حاول الفرار يقتل فورا ، ثم أمر جيشه بالتقدم وأمر فرقة عسكرية أن تحمل من جهة يساره على العدو ، وقد أصاب سهم هذا التدبير مقتله ، وقد كان بهاؤ ، وبسواس راؤ فى قلب الجيش راكبين يحرضان الجنود والمرهتة على القتال ، وكانت الحرب بالخناجر والرماح ، وإذا به وقع ما الله يعلمه فتزلزلت أقدام الجنود المرهتة ، وذهبت ريحهم وما أن تزلزلت أقدامهم حتى امتلأت ساحة الحرب بالجثث والأشلاء ، فتعقبهم الجيش الإسلامى وتتبعهم - بحماس واندفاع - فى كل جهة وجانب إلى خمسة عشر وعشرين ميلا ، وأثخنهم بالجراح ، وأسقطهم أكواما من الصرعى والقتلى ، ومن بقى من المرهتة من أيدى هؤلاء الأعداء فقد قتلهم البدو الرعاع ، وقتل « بسواس راؤ » و « بهاؤ » وكان قد أخفى بعض الدرّانيين « جى كوجى سنديها » وستر عليه ، ولكنه أخذ بعد بحث وتفتيش وقتل ، وأسر إبراهيم خان كاردى [٧١]، ولقى حتفه بعد أسبوع ، وقتل شمشير بهادر وهو يحاول الفرار، وفر ملهاراؤ فى « مالوه » بنفسه ، ووصل أبا جى سندهيا إليه كذلك وهو أعرج ، ولم يبق أحد من القادة المعروفين سوى هذين القائدين ، ولم تلحق المرهتة مثل هذه الهزيمة الساحقة من قبل ، ولا نزلت مثل هذه النازلة قط ، وقد أحدثت هذه المصيبة يأسا فى النفوس ، فسقطت الهمم وبردت القلوب ، ومات بالاجى لهذه الصدمة الشديدة بعد أيام ، وكان من يوم أن سمع نبأ الهزيمة اعتكف فى أحد المعابد يدرس اللغة السنسكريتية » [٧٢].

وحسب تصريح أحد المؤرخين : « لقد طارت قوة المرهتة فى لمحة البصر كالكافور » ، ويقول سرجاد وناتهسر كار : « إنه لم يبق بيت من البيوت فى ولاية مهاراشتر لم يعمه المأتم والرثاء ، فقد ذهب جيل القادة والرؤساء كله فى معركة واحدة » [٧٣].

وتوجه أحمد شاه الأبدالى - حسب تخطيط الإمام الدهلوى - بعد تحقيق هذه المهمة الضرورية إلى قندهار ، يقول الشيخ ذكاء الله :

---

(٧٠) انظر للتفصيل « تاريخ الهند » للشيخ ذكاء الله ، جـ ٩ ، ص : ٣٠٥ - ٣٠٩ .

(٧١) كان رئيس المدفعية فى جيش مرهتة وكان رغم إسلامه وفيا لهم ، بقى بجوارهم إلى آخر لحظة .

(٧٢) تاريخ الهند ، جـ : ٩ ، ص : ٣٠٩ .

(٧٣) الرسائل السياسية ص : ٤٥ .

« لقد قدم أحمد شاه بعد هذا الفتح والانتصار من بانى بت إلى نواحى دلهى ، ومكث عدة أيام ، وعين الأمير عالى كوهراى شاه عالم ملك البلاد ، وشفع لدى الملك أن يولى شجاع الدولة الوزارة ونجيب الدولة إمارة الأمراء ، ولم يكن شاه عالم إذ ذاك فى دلهى ، فعين ابنه جوان بخت نائبا عنه ، وفوض إلى نجيب الدولة إدارة دلهى ونظامها ، وخلع على شجاع الدولة وولاه ولايات أوده واله آباد ، وتوجه هو نفسه إلى قدندهار » (٧٤) .

يقول البروفيسور خليق أحمد نظامى :

« لقد حاول أحمد شاه الأبدالى - جهده - بعد حرب « باني بت » أن يدعو شاه عالم إلى دلهى ، وبعث إليه برسوله ، ولما لم يحضر طلب أحمد شاه من والدته النواب زينت محل أن تكتب إليه ، وكان أحمد شاه يحاول دعوة شاه عالم (إلى دلهى) حتى يتخلص هو من قبضة الإنكليز ، ويقدم إلى دلهى ويضاعف قوته ويحكمها حال وجود أحمد شاه الأبدالى » (٧٥) .

ويقول خليق أحمد أيضاً :

« لم يكن عند أحد من المرهتة والسيخ والجات من السعة وشمول التصور والتفكير بحيث يفكر فى أساليب المحافظة على وحدة الهند ومركزيتها ، وقد كان الإمام الدهلوى - حسب مخططه المقترح - يريد استعادة السلطة العليا والمركزية والوحدة التى كانت فى عهد الملك أكبر - وجهانكير - وشاه جهان وأورنك زيب فى البلاد ، ولكن عن طريق الحكومة العادلة لا الملوك الجائرين الجبارين » (٧٦) .

ولو كانت الدولة المغولية تملك رصيداً من الحياة ، لكانت تستطيع أن تنتفع بنتائج حرب بانى بت وتستعيد سلطتها فى الهند لعدة قرون قادمة - ولكن الواقع أن الدولة المغولية - إذ ذاك - كانت جسدا بلا روح ، ولقد استغلّ حرب بانى بت - أصلا - الفاتحون فى حرب «بلاسى» (٧٧) .

لقد ضيع شاه عالم - بسبب سقوط همته وقصر نظره - هذه الفرصة الذهبية ، ولم يحضر القلعة - رغم كل الجهود والمحاولات ورسالة والدته زينت محل الرقيقة الرحيمة -

---

(٧٤) تارخ الهند جـ : ٩ ، ص : ٣٠٩ - ٣١٠ .
(٧٥) « الرسائل السياسية » ص : ٤٥ - ٤٦ .
(٧٦) أيضا ص : ٤٧ .
(٧٧) أيضا ص : ٤٥ .

إلا بعد عشرة أعوام فى أواخر عـام ١٧٧١ م يوم ٢٥ / ديسمبر من عام ١٧٧١ م ثم ما وقع عليه وعلى خلفائه ، وقـد سجله التاريخ كله بإسهاب وتفصـيل ، وقد كان أوج ذلك وذروته (CLIMAX) تلك المأساة الأليمة لـقلب السلطة والنظام - الذى لم يكن إلا اسما - بل اغتـصابه وسلبه ، التى وقـعت على أيدى الإنكليز المستـعمرين الذين لم يضيـعوا - لحكمتهم وحنكتهم وذكائهم السياسى - أى فرصة من الفرص للسيطرة على البلاد .

واستمر - بعد الإمام الدهلوى - خليفته بحق وجدارة ووارثه فى علمه وبصيرته وحميته الدينية ابنه الكريم الأكبـر سراج الهند الشيخ عبد العـزيز الدهلوى على درب والده وتحقيق مهـمته التى بدأ بها بل إكـمالها وتوسـيع نطاقها ، وصرف كـل همه وعنايته - مع تغيـير الأوضاع السياسية - إلى العدو الأصيل والقوة الحـقيقية (أى السلطة الإنكليزية) فى ميدان السياسية ، التى تجاوزت حدود خطر من الأخطار - التى يحتاج لإدراكها إلى بصيرة ووعى سياسى - إلى وقاع ملموس يكفى لشهوده البصر الظاهر (٧٨) .

وقد حاول بعد الشيخ عبد العزيز الدهلوى اثنان من تلامذته وغرسه من أصحاب العزيمة والدعوة والإصلاح والجهاد ، الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، والشيخ إسماعيل الشهيد ، أن ينفذا ذلك المخطط السياسى الذى عرضه الإمـام الدهلوى - نظريا فى «حجة الله البالغة» و « إزالة الخفاء » و « التـفهيمات الإلهـية » وغامرا بنفسـيهما لإقامـة الحكومة على منهاج الخلافة الراشدة ويعلم من رسائل السيّد أنهما إلى أى حد استفادا من تعاليم الإمام الدهلوى وتوجيهـاته وأضوائه ، وإلى أى حد بلغت عـزائمهم من الصرامة ، وهمـمهم من العلو ، ونظرتهم من البعد والعـمق ، وقلوبهم من الرحابة والسعة ، وقد كانوا يـهدفون إلى تحرير الهند - ولكنهم بدأوا مؤقتا بحماية مـسلمى بنجاب من النكبات التى تعرضوا لها ، وخطر الإبادة الشاملة الذى استـهدفـوا له فى حكم السيخ فى بنجاب ، فـى هذا الحكم العسكرى الطائفى الجائر ، وكـان الوضع الشاذ لا يحتـمل التأجيل (كـما كان شـأن الإمام الدهلوى نفسـه فى تحصين بيئتـه المعاصرة ومجـتمعـه المعاصر وحمـايتها من غارات الجـات والمرهتة واغتيـالاتهم اليومية) وبعـد طرد الإنكليز المستعـمرين - الذين كانوا يصفـونهم بالأجانب الدخلاء والتـجار النزلاء - كانوا يريـدون حكم البلاد وتنظيمـها وإدارتها فى ضـوء أصول العدالة والمساواة الإنسانية ، يقدر كل ذلك ويعلم من رسائل السيّد التى كتبها إلى السلاطين

---

(٧٨) سيأتى تفصيل هذا الإجمال فى الباب الحادى عشر فى ذكر الشيخ عبد العزيز الدهلوى .

المعاصـرين ، والأمراء المعـروفين وأصحاب الغـيرة والحـمية من المسلمين والـولاة العاقلين الحازمين [٧٩] .

* * *

(٧٩) انظر للتفصـيل الباب السادس عشر من كتـاب « سيرة السيد أحمد الشـهيد » (الأردية) بعنوان « الجهاد : دوافعه وأهدافه » ص : ٣٨٥ - ٣٩٤ .

الباب العاشر
استعراض المجتمع الإسلامى الناقد والدعوة إلى الإصلاح الجذرى

ميزة الإمام الدهلوى :

إن العلماء الكبار الذين يتذوقون العلم والبحث والتحقيق والتأليف ويكونون على حظ وافر من الذكاء ودقة الملاحظة ، وعمق النظر ، ينصرفون كليا - بصفة عامة - إلى دراسة الكتب والبحث العلمى والتحقيق ، أو التدريس والتأليف ويستغرقون فيه ، ويعيشون فى عزلة عن واقع المسلمين وأدواء الطبقات المختلفة فى المجتمع وانحرافاتها ومواضع ضعفها ، أو يصعب عليهم النزول إلى مستوى العامة ، و« التدلى » إليهم من سماء العلم والنظر - لذى يجدون فيه لذة وحلاوة أكبر من كل لذة وحلاوة .

ويمكن أن يستثنى من هذا العموم - بصورة واضحة - شخصيتان اثنتان أحدهما حجة الإسلام الإمام الغزالى (م ٥٠٥ هـ) الذى وضع الأصابع على أمراض الطبقات المختلفة من الأمة الإسلامية والمجتمع المسلم فى عصره ومواضع ضعفه فى كتابه الخالد ، الذى طبق صيته الآفاق « إحياء علوم الدين » ، بحيث يتجلى منه أنه مارس الحياة العامة واطلع على الطبقات المختلفة فى المجتمع عن كثب ، من حلق دروس العلماء ومجالس الذكر والمراقبة لدى المشايخ ، إلى بلاط الخلفاء والسلاطين وقصور الأمراء والأثرياء ومساكنهم الوثيرة لناعمة ، ومن هذه القصور الملكية والأميرية إلى ضجيج حوانيت المحترفين والتجار وجلبة الأسواق ، ويعرف كيف تخدع النفس والشيطان مختلف طبقات العلماء والوجهاء والأعيان، ومختلف أوساط الخواص والعوام ، وكيف تغيرت الحقائق الأساسية والتصورات لدينية وكيف عمت الغفلة عن الهدف الأعلى (سعادة الآخرة ومرضاة الله تعالى) [1] .

وهذا هو شأن العلامة ابن الجوزى (م ٥٩٧ هـ) مع شىء من الفرق فى الإجمال والتفصيل والأسلوب والمنهج - فى كتابه الشهير « تلبيس إبليس » الذى استعرض فيه المجتمع المسلم كله فى عصره ، واختبر كل طبقة من طبقات المسلمين على محك السنة

---

(١) انظر للتفصيل والأمثلة « إحياء علوم الدين » ، جـ : ٢ - ٣ ، أو « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » جـ : ١ ، (ترجمة الإمام الغزالى) .

النبوية والشريعة الإسلامية ، ودل على مواضع ضعفها وانحرافاتها وأخطائها ، ولم يحاب في هذه الدراسة الناقدة أى طبقة من الطبقات ، فقد انتقد فيه العلماء والمحدثين ، والفقهاء والواعظين ، والحكام والسلاطين ، والزهاد والعُبّاد ، والمتصوفين والعامة من الناس أجمعين، وفضح مغالطاتهم وتلبسات الشيطان عليهم (٢).

ولكن هذه النقد فيما يتعلق بـ « تلبيس إبليس » أكثره سلبى وانتقاد فحسب ، وليست معه دعوة قوية إيجابية واضحة لإصلاح الأوضاع وتوجيه المجتمع ، وإن كانت فليست فى كميتها وكيفيتها بالدرجة المطلوبة ، ولعل السبب فى ذلك أن مجال هذا الموضوع ونطاقه المحدود لم يكن يتحمل أكثر من ذلك .

الخطابات الخاصة لمختلف طبقات الأمة :

وإننا نرى بعد هذين العالمين الجليلين المعروفين من معلمى الأخلاق الفاضلة والدعاة إلى الله (الذين كانا مع علو منزلتهما في مجال الاصلاح والتربية من أجل العلماء والمؤلفين) مأثرة الإمام الدهلوى - فى هذا الصدد - من أروع المآثر وألمعها فى تاريخ الإصلاح والتجديد ، فإنه قد خاطب السلاطين المسلمين والأمراء وأركان البلاط والجنود العسكرين والصناع والمحترفين ، وأولاد المشايخ المتصوفين ، وعلماء السوء المنحرفين والوعاظ المتشدقين المتقشفين والزهاد المنعزلين ، كل طبقة من هذه الطبقات على حدة وفى صورة مستقلة ، وضرب على وترهم الحساس ، ودل على مكامن ضعفهم وانحرافهم وأنواع غرورهم وخداعهم ، كما خاطب الأمة الإسلامية - بصورة عامة - خطابا جامعا شاملا ، وكشف عن أمراضها وأدوائها ، ووصف علاجها ، وقد بلغ توجعه وحرقة قلبه واندفاعه فى الحمية الإسلامية وعاطفة الدعوة الدينية وبلاغة البيان وقوة التعبير فى هذه الخطابات الخاصة أوجها وذروتها ، يصعب أن تجد أمثلتها فى كتب المؤلفين السابقين - الذين مضى ذكرهم - والمصلحين الناقدين ، وسوف نورد مقتطفات من كتاب « التفهيمات الإلهية » للإمام الدهلوى الذى خاطب فيه قادة مختلف الطبقات البارزة المؤثرة وسادتها ، ويتجلى فى هذه الخطابات الخاصة من دقة نظر الإمام الدهلوى وعمق ملاحظته وحكمته فى الدعوة، وجراءته الخلقية واطلاعه الواسع الدقيق ما يحاربه دارس التاريخ الذى اطلع على انحطاط هذا العهد ومجتمعه ، ومراعاة العلماء وأصحاب الأقلام لمصالحهم الشخصية ،

---

(٢) انظر للتفصيل « تلبيس إبليس » ص : ١١٩ - ٣٩٤ ، أو « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » جـ: ١ ، (ترجمة العلامة ابن الجوزى) .

ويأس الدعاة والمصلحين من إصلاح الأوضاع وتغيير الأحوال ويتعجب ويقول : « هل كانت هذه الجمرة يا رب كامنة فى الرماد !

وها نحن ننقل هذه الكلمات الموجهة إلى مختلف الطبقات بنصّها :

خطابه للسلاطين المسلمين :

« أقول للملوك ، أيها الملوك ! المرضى عند الملأ الأعلى فى هذا الزمان أن تسلوا السيوف ، ثم لا تغمدوها حتى يجعل الله فرقانا بين المسلمين والمشركين وحتى يلحق مَرَدَةُ لكفار والفساق بضعفائهم لا يستطيعون لأنفسهم شئا ، وهو قوله - تعالى - : ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله**﴾ فإذا ظهر الفرقان فرضاء الملأ الأعلى أن تنصبوا فى كل ناحية وفى كل مسيرة ثلاثة أيام وأربعة أيام أميرا عادلا يأخذ للمظلوم حقه من الظالم ويقيم الحدود ويجتهد أن لا يحصل فيهم بغى ولا قتال ولا ارتداد ولا كبيرة ، ويفشوا الإسلام ويظهر شعائره ويأخذ بفرائضه كل أحد ويكون لأمير كل بلد شوكة يقدر بها على إصلاح بلده ولا يكون له شوكة يتمتع بسببها ويعصى على السلطان وينصب فى كل إقليم كبير أميرا يقلده القتال فقد يكون جمعه اثنا عشر ألفا من المجاهدين ، لا يخافون فى الله لومة لائم يقاتلون كل باغ وعاد، فإذا كان ذلك فرضاء الملأ الأعلى أن يفتش حينئذ من النظامات المنزلية والعقود ونحوهما حتى لا يكون شىء إلا موافق الشرع ، حتى يأمن الناس من كل وجه[٣] .

خطابه للأمراء وأركان الدولة :

. . . وأقول للأمراء : أيها الأمراء ! أما تخافون الله اشتغلتم باللذات الفانية الدائرة ، وتركتم الرعية تأكل بعضها بعضا أما شربت الخمور جهرة وأنتم لا تنكرون أما بنيت منازل ودور للزنا وشرب الخمر والقمار وأنتم لا تغيرون ، أما هى البلاد الكبيرة لم يضرب فيها حد منذ ستمائة سنة أو أكثر ومن وجدتموه ضعيفا أكلتموه ، ومن وجدتموه قويا تركتموه وعتوّه ، خاضت أفكاركم فى لذائذ الطعام ، ونواعم النساء ومحاسن الثياب والدور ، وما رفعتم إلى الله رأسا وما ذكرتموه إلا بألسنتكم فى حكاياتكم كأنكم تريدون باسم الله انقلاب الزمان ، تقولون الله قادر على كذا تعنون أن الزمان قد ينقلب كذلك[٤] .

---

(٣) التفهيمات الإلهية ، جـ : ١ ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

(٤) أيضا ص : ٢١٦ .

وأقول للعسكرية : أيتها العسكرية ! أخرجكم الله للجهاد ، ولتظهروا كلمة الحق وتكبتوا الشرك وأهله فتركتم ما أخرجكم لأجله ، واتخذتم رباط الخيل وحمل السلاح كسبا تستكثرون به أموالكم من غير نية الجهاد وقصده ، شربتم الخمر والبنج وحلقتم اللحى وأعفيتم الشوارب ، وظلمتم الناس ولم تنالوا مما تأكلون ، فوالله إلى الله سوف ترجعون فينبئكم بما كنتم تعملون ، كان مرضى الحق فيكم أن تزيوا بزى الصالحين من الغزاة واعفوا اللحى وقصوا الشوارب ، وصلوا الصلوات الخمس ، واتقوا الله فى أموال الناس ، واصبروا في الحرب والبأس ، وتعلموا رخص الصلوات كالقصر والجمع ، وأنه يجوز ترك السنن فى السفر ، وكذلك أحكام التيمم ، فتمسكوا بها ، وعضوا على الفرائض ، وأصلحوا نياتكم يبارك لكم ربكم فى خولكم وينصركم على أعدائكم .(٥)

وأقول للمحترفة ضاعت أماناتكم وذهلتم عن عبادة ربكم ، وأشركتم بربكم ، وذبحتم لطواغيتكم وحججتم إلى المدار(٦) والسالار(٧) ، فبئس صنيعكم ذلك ، ورب إنسان منكم جعل الطيرة ماله وكسبه فجعل يتكلف فى لباسه وزيه ومطعمه مالا يكفى له فيضيع حقوق نسائه ورب إنسان منكم اكتفى بشرب الخمر واستيجار الفرج فيضيع معاشه ومعاده ، إن الله هيأ لكم من الكسب ما يكفى لك ولذوى حقوقكم إن أنتم اقتصدتم واكتفيتم بما يكون بلغة إلى المعاد ، وكفرتم بنعمة ربكم ، أسأتم التدبير أما تخافون عذاب جهنم وبئس المهاد ، واصرفوا غداءكم وعشيتكم فى ذكر الله ، وطول النهار فى حرفتكم ، والليل فى نسائكم واجعلوا الصرف أقل من الدخل فما غبر فواسوا فيه الغريب والفقير وذروا شيئا لنوائبكم وحوائجكم ، فإن خالفتم هذه الأمور فقد أسأتم التدبير (٨) .

وقد نادى ـ هكذا ـ أولاد المشائخ ،وطلبة العلم والزهاد والوعاظ فى عصره ـ بصفة خاصة ـ فيقول وهو يخاطب أولاد المشائخ يعظمهم ويذكرهم :

خطابه لأولاد المشايخ والمرشدين :

وأقول لأولاد المشائخ المترسمين برسم آبائهم من غير استحقاق : ياأيا الناس ! مالكم

---

(٥) أيضا ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

(٦) المراد به الشيخ بديع الدين المكنبورى الذى يعرف بالشاه مدار .

(٧) المعني به هو السيد سالار مسعود الغازى المدفون فى مدينة « بهرائج » ترفع باسمه الأعلام ويرد فى الاحتفالات بمولده آلاف الناس من الأماكن البعيدة والقريبة .

(٨) التفهيمات الإلهية : جـ : ١ ص : ٢١٧ .

ـزبتم أحزابا ، واتبع كل ذى رأى رأيه ، وتركتم الطريقة التى أنزلها الله على محمد ﷺ
ـحمة بالناس ولطفا بهم وهدى لهم فانتصب كل واحد منكم إماما ودعا الناس إليه وزعم
ـسه هاديا مهديا ، وهو ضال مضل ، نحن لا نرضى بهؤلاء الذين يبايعون الناس ليشتروا
ثمنا قليلا أو يشوبوا اغراض الدنيا بتعلم علم ، إذ لا تحصل الدنيا إلا بالتشبه بأهل
ـهداية ولا بالذين يدعون إلى أنفسهم ويأمرون بحب أنفسهم ، هؤلاء قطاع الطريق دجالون
ـذابون مفتونون فتانون ، إياكم وإياهم، ولا تتبعوا إلا من دعا إلى كتاب الله وسنة رسوله
ـلم يدع إلى نفسه ولا ترضى بإشاعة الإشارات الصوفية فى المجالس والمحافل ، إنما
ـرضى الإحسان ، أما لكم عبرة فى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيما ـتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ (٩) .

ثم يخاطب العلما والطلاب فى عصره ، فيقول :

ـخطابه للعلماء والطلاب :

وأقول لطلبة العلم : أيها السفهاء المسمون أنفسكم بالعلماء ! اشتغلتم بعلوم اليونانيين بالصرف والنحو والمعانى وظننتم أن هذا هو العلم ، إنما العلم آية محكمة من كتاب الله أن ـعلموها بتفسير غريبها وسبب نزولها وتأويل معضلها أو سنة قائمة من رسول الله ﷺ، أن ـفظوا كيف صلى النبى ﷺ وكيف توضأ وكيف كان يذهب لحاجته وكيف يصوم وكيف ـحج وكيف يجاهد وكيف كان كلامه ، وحفظه للسانه وكيف كان أخلاقه ، فاتبعوا هديه ـاعملوا بسنته على أنه هدى وسنة لا على أنه فرض ومكتوب عليكم ، أو فريضة عادلة أن ـتعلموا ما كان أركان الوضوء وما كان أركان الصلوة وما نصاب الزكاة وما قدر الواجب وما ـسهام فرائض الميت ، أما السيّر وما يرغب فى الآخرة من حكايات الصحابة والتابعين فهو ـفضل وأما ما اشتغلتم به وما يهتم به فليس من علوم الآخرة ، إنما هى علوم الدنيا (١٠) .

ثم يقول لهؤلاء الطلاب والعلماء :

« وأن لا تشتغلوا بالعلوم الآلية إلا بأنها آلة لا بأنها أمور مستقلة ، أما أوجب الله ـعليكم أن تشيعوا العلم حتى يظهر شعائر الإسلام فى بلاد المسلمين ، فلم تظهروا الشعائر ـوأمرتم الناس أن يشتغلوا بالزوائد واستكثرتم فى أعينهم طلب الحق والدين أما

---

٩) أيضا ص : ٢١٤ .

١٠) أيضا ، جـ : ١ ، ص : ٢١٤ .

ترون البلاد العظام تخلوا من العلماء وإن كانوا فهم دون ظهور الشعائر (١١).

ثم خاطب أولئك الناس الذين جعلوا وساوسهم وخطرات قلوبهم دينا ، وكل من لم يتفق ومقياسهم المؤسس على هواجس النفس وخطرات القلب ، فكأنه خارج عن الدين ، وقد كان معظم هذه الطبقة من الناس الذين أصيبوا بهذا الانحراف من الزهاد المتقشفين والعباد الغالين والوعاظ المتشدقين ، ولذلك اختير لهم هذا العنوان .

مع الوعاظ المعسرين فى الدين والزهاد المنزوين المنعزلين :

وأقول للمتقشفين من الوعاظ والعباد والجالسين في الخانقاهات : يا أيها المتنسكون ! ركبتم كل صعب وذلول وأخذتم بكل رطب ويابس ، دعوتم الناس إلى الموضوعات والأباطيل وعسرتم على الخلق ، وإنما بعثتم ميسرين لا معسرين ، وتمسكتم بكلام المغلوبين من العشاق ، وكلام العشاق يُطوَى ولا يُروَى ، واستطبتم الوسواس وسميتموه الاحتياط ، وكان مرضى الحق فيكم أن تفهموا الإحسان بجزئيه الاعتقادى والعملى ، فتحصلوه من غير أن تخلطوا به أحوال المغلوبين وإشارات المكاشفين فادعوا الناس إليه ، أما تعلمون أن الرحمة كل الرحمة والهدى ما جاءكم به محمد ﷺ ، أكان يفعل فعلكم هذا أم كان أصحابه يفعلون هذه الأفعال (١٢) ؟

ويخاطب - أخيرا - عامة المسلمين ، لا يخص فيه طبقة منهم دون طبقة يقول :

خطابه الشامل للأمة الإسلامية جمعاء تشخيص الداء ووصف الدواء :

وأقول لجماعات المسلمين عموما خطابا واحدا : يا معشر بنى آدم ! (فسدت) أخلاقكم وغلب عليكم الشح واستحوذ عليكم الشيطان وزئرت النساء على الرجال وغمط الرجال على النساء واستطبتم الحرام واستبشعتم الحلال ، فوالله إن الله ما كلف نفسا إلا ما تطيق ، عالجوا شهوة فروجكم بالنكاح وإن كثرن ، ولا تتكلفوا فى نفقتكم وزيكم مما لا تطيقون ، ولا تزر وازرة كأنها معلقة ، ولا تضيقوا الأمور على أنفسكم فإنكم إن ضيقتم خرجت نفوسكم إلى حد الصفق ، وأن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه ، وعالجوا شهوة بطونكم بالأطعمة واكتسبوا قدر ما يكفيكم ولا تكونوا كلاًّ على الناس تسألونهم فلا يعطونكم ولا تكونوا كلا على الخلفاء والأمراء إنما المرضى لكم الكسب

---

(١١) أيضا ، جـ ١ ، ص : ٢١٥ .

(١٢) أيضا ، جـ : ١ ، ص : ٢١٥ .

أيديكم إلا عبد ألهمه الله أن الله يكفيك والله يعصمك من آفات الفقر ، يا معشر بنى آدم! ن رزقه الله مسكنا يؤويه ومشربا يرويه ومطعما يشبعه وملبسا يستره ، ومنكحا يحصن روج ويعاونه فى معيشته ، فقد أدى له الدنيا بحذافيرها فليشكر الله وليتخذ كسبا يكفيه ليكن من شأنه القناعة والقصد فى المعيشة ولينتهز الفرصة لذكر الله وليحافظ على ثلاثة وقات : الغدوة والعشية والسحر ، وليذكر الله بالتهليل والتسبيح وتلاوة القرآن واستمعوا لحديث واحضروا حلق الذكر .

يا معشر بنى آدم ! اتخذتم رسوما فاسدة تغير الدين ، اجتمعتم يوم عاشوراء فى لأباطيل ، فقوم اتخذوه مأتما ، أما تعلمون أن الأيام أيام الله والحوادث من مشيئة الله ، إن كان حسين رضى الله عنه قتل فى هذا اليوم فأى يوم لم يمت فيه محبوب من المحبوبين قد اتخذه لعبا بجرابهم وسلاحهم ، وقوم اتخذوه منسكا ، أف لصنيعكم اجتمعتم يوم براءة يلعب قوم ، ويزعم قوم أنه يجب إكثار الأطعمة للموتى ، قل هاتوا برهانكم إن نتم صادقين ، ورسوما تضيق عليكم كالإفراط فى الولائم وكالامتناع من الطلاق وكإمساك لرأة بعد زوجها من النكاح ، فضيعتم أموالكم وأوقاتكم فى الرسوم وتركتم الهدى صالح ، وكان المرضى أن لا تتخذوا هذه الرسوم وأن تتخذوا رسوما سهلة ليس فيها ضيق ، نخذتم المأتم عيدا كأن إكثار الطعام واجب عليكم ، وضيعتم الصلوات وقوم اشتغلوا كاسبهم فلم يقدروا على الصلوات ومنشأ هذا الفساد أنهم ما أخذوا رخص الله ، وقوم شتغلوا بتزجية الوقت وترفيه بالحكايات والأحاديث ، فلو أنهم اتخذوا مجالسهم فى جب حول المساجد يسهل عليهم الصلوات ، وضيعتم الزكاة ، وما من غنى إلا له تعلقون من المحاويج يطعمهم ويواسيهم ، ولو أنه نوى الزكاة والعبادة لكفاه ، وضيعتم سوم رمضان ، فضيع قوم لأنهم صاروا عسكرية لا يقدرون عل الصوم مع ما هم عليه من لحنة ، اعلموا أنكم أسأتم التدبير وصرتم عيالا على السلطان ولما لم يجد السلطان ما عطيكم ، ضيَّقَ على الرعية ، فما أقبح صَنيعكم هذا ، قوم لا يتسحرون ، ولا يجتنبون عمالا شاقة ، وذلك من سوء تدبيرهم وعقلهم .

ويقول أخيرا :

« ومقالات الملأ الأعلى فى هذا الزمان كثيرة والغرفة تنبىء عن الخير الكثير والقليل كون نموذجا عن الكثير [١٣] » .

١٣) أيضا ، ص : ٢١٧ - ٢١٩ .

إصلاح الطقوس والتقاليد وتطهير المجتمع منها :

لم يقتصر الإمام الدهلوى على هذه الخطابات الخاصة لهذه الطبقات الخاصة من الناس ، بل شدد النكير على تلك الطقوس والتقاليد الهندوكية والبدع والشعائر غير الإسلامية التى تسربت إلى المجتمع المسلم وشاعت فيه بسبب الاختلاط الطويل بالهناك ومواطنتهم لعدة قرون ، وعدم الاهتمام بالسنة المشرفة والحديث الشريف وغفلة العلماء وتقصيرهم ، وعدم شعور الحكومة المسلمة بمسئوليتها وفقدان الحسبة الدينية ، والتزم بها المسلمون التزاما شديدا، وشنع على تلك المعتقدات الباطلة ، والأوهام والخرافات الجاهلية ، وتقليد غير المسلمين وأتباعهم ، وعابهم عليه ، وقد كان عامة العلماء المشتغلين بالعلوم العقلية والفنون الحكمية لا يعيرون لهذه العادات والتقاليد الجاهلية بالا ويرونها هيِّنة خفيفة ، أو يتغاضون عنها فرارا من الوقوع فى المشاكل ومعارضة الجماهير ، وقد بدأت هذه المهمة لإصلاح الطقوس والتقاليد وتطهير المجتمع المسلم منها - بعد الإمام السرهندى الذى شنع فى عدد من رسائله على هذه المعتقدات الشركية والتقاليد الجاهلية والطقوس الهندوكية (١٤) - بجهود الإمام الدهلوى ، وقد قام بتكميل هذه المهمة وتوسيعها - بعده - أبناؤه الأعلام ومن تخرّج عليهم ، ونشأ فى أحضانهم من المصلحين المجددين كالإمام أحمد بن عرفان الشهيد (خليفة الشيخ عبد العزيز الدهلوى ابن الإمام الدهلوى) والشيخ إسماعيل الشهيد حفيد الإمام الدهلوى (١٥) .

ونورد هنا مقتطفا من « التفهيمات الإلهية » و « وصايا الإمام الدهلوى » ، يقول :

« من عادات الهندوس الشنيعة أنه إذا مات زوج المرأة فلا يخلونها تتزوج مرة ثانية ، ولم تكن هذه العادة فى العرب قط ، لا قبل النبى ﷺ ولا بعده ، فرحم الله امرأ يقضى على هذه العادة الشنيعة ، وإذا لم يمكن القضاء على رواج هذه العادة فى عامة الناس فينبغى ترويج طريقة العرب فيما بين قبيلته ، وإن لم يمكن ذلك كذلك فلابد من استقباح هذه العادة ومخالفتها من أعماق القلب على الأقل ، إذ هو آخر درجة من الإنكار على المنكر .

وعادتنا الشنيعة الثانية أننا نغالى فى المهور ، وقد كان نبينا ﷺ الذى نيط به شرفنا فى الدنيا والآخرة - حدد لأهله الأقربين - الذين كانوا أفضل الخلق بعده - اثنتى عشرة أوقية

---

(١٤) انظر « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » جـ : ٣ ، الخاص بحياة الإمام السرهندى وأعماله .

(١٥) انظر الصراط المستقيم «إملاءات الإمام أحمد بن عرفان وترتيب الشيخ إسماعيل الشهيد وقد نقله =

ونصف أوقية ، وهو ما يبلغ خمسمائة درهم .

ومن عاداتنا الشنيعة الإسراف ، فإننا نبذر الأموال فى مناسبات الأفراح وتقاليد الأعياد، ولم يثبت عن النبى ﷺ إلا الوليمة فى الزواج والعقيقة ، ولذلك فينبغى الالتزام بهما والاحتراز عن غيرهما ، أو عدم الاهتمام الكثير بغيرهما .

ومن عاداتنا السيئة أيضا الإسراف والتبذير فى مناسبات المآتم باسم سيّم جهلّم ، ششماهى ، فاتحه ، سالانه [١٦]، مع أنه لم يكن شيء من هذا فى العرب الأولين فمن الخير أن يهتم بتعزية ورثة الميت فى مصابهم لثلاثة أيام ، وبالطعام ليوم وليلة ، ولا يلتزم بتقليد آخر ، ولتجتمع نساء القبيلة بعد ثلاثة أيام وليطيبن ثياب النساء ذوات قربى الميت ، وإذا كانت زوجة الميت موجودة فليقض على سلسلة المأتم بعد عدتها [١٧].

ولقد صدق الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودى - رحمه الله تعالى - إذ صرح فى مقالة بعنوان « حقيقة منصب التجديد ومكانة الإمام الدهلوى فى تاريخ التجديد » فى مجلة «الفرقان» (العدد الخاص بالإمام الدهلوى) بعد إيراده لمقتطفات من « إزالة الخفاء » و «التفهيمات الإلهية» بما يلى :

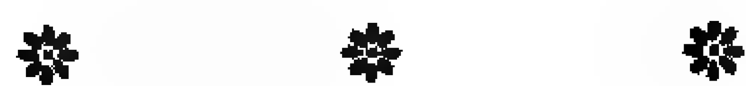
« ويقدر من هذه المقتطفات - إلى حد ما - أنه كيف استعرض الإمام الدهلوى ماضى المسلمين وحاضرهم هذا الاستعراض التفصيلى ، وكيف انتقدهم بهذا الشمول والاستيعاب، وأن من نتائج هذا النوع من الانتقاد اللازم أن جميع العناصر الصالحة فى المجتمع التى لا تزال فى إيمانها وضمائرها بقية من حياة ولا تزال قلوبها تميز الصالح والطالح والشر والخير - يقلقهم الشعور بفداحة الخطب وسوء الأوضاع ، ويرهف شعورهم الإسلامى إلى حد أنه يربيهم كل أثر من آثار الجاهلية فى الحياة من حولهم ويحيك فى صدورهم ، وتقوى قوة التمييز وتزداد فيهم فيبدأون يحسون بشوائب الجاهلية مع الإسلام من كل ناحية من نواحى الحياة ، وتستيقظ فيهم القوة الإيمانية إلى أن كل شوكة من أشواك الجاهلية تقض مضجعهم وتدفعهم إلى الإصلاح ،ثم يلزم المجدد - بعد ذلك - أن يقدم أمامهم مخططا واضحا للبناء الجديد حتى يركزوا أنظارهم على الوضع المنشود الذى يغير به الوضع الراهن ،

== المؤلف إلى العربية وطبع باسم « رسالة التوحيد » فى مطبعة ندوة العلماء لكهنو الهند ، وكتاب «سيرة السيد أحمد الشهيد» و « كاروان إيمان وعزيمت » (الأردو للمؤلف) .

(١٦) هذه تقاليد خاصة بالأيام المحددة بعد وفاة شخص .

(١٧) التفهيمات الإلهية ، جـ : ٢ ، ص : ٢٤٦ - ٢٤٧ ، والوصايا (بالفارسية) طبع دلهى ص:٢٤.

ويكرسوا كل جهودهم ومحاولاتهم نحو هذه الجهة المطلوبة ، وقد أنجز الإمام الدهلوى هذه المهمة البناءة أيضا فى شمول وإجادة وإتقان ، كما شاهدته فى مهمته النقدية الماضية (١٨) .



(١٨) مجلة « الفرقان » (العدد الخاص بالإمام الدهلوى) ص : ١٠١ - ١٠٢ .

الباب الحادى عشر
أبناء الإمام الدهلوى الأعلام وخلفاؤه العظام وكبار العلماء المعاصرين

الأبناء الأعلام والخلفاء العظام :

إن من مزايا الإمام الدهلوى فى سلسلة رجال الفكر والدعوة ، ونعم الله - تعالى - الخاصة عليه بين المصلحين والمجددين أن الله - عز وجل - خصه بأولئك الأبناء والخلفاء الأعلام الكرام الذين كانوا خير خلف لخير سلف ، والذين لم يحافظوا على ذلك المشعل الذى أناره الإمام الدهلوى مضيئا وهاجا فحسب ، بل أشعلوا به مئات من الشموع والمشاعل ، ولم تزل هذه المشاعل تمد المشاعل الأخرى وتنقل إليها من نورها وضوئها ، واستمرت هذه السلسلة المباركة دون انقطاع فى شبة القارة الهندية وخارجها من نشر تعاليم الكتاب والسنة والعقائد الصحيحة ، والتوحيد الخالص ، والرد على الإشراك والبدعة ، وإصلاح التقاليد والعادات ، وتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق ، والوصول إلى درجة «الإحسان» وإعلاء كلمة الله - تعالى - والجهاد فى سبيله والحمية الدينية والغيرة الإسلامية ، وإقامة المدارس الدينية ، وعرض تعاليم الإسلام الصحيحة والكتابة والتأليف لتبليغ هذه الرسالة والدعوة إليها ، وتراجم القرآن الكريم والعناية بالحديث الشريف ، وكتب الفقه ، إلى يومنا هذا ، فلو درسنا تاريخ هذه الخطوات والجهود المباركة وبحثنا عن مراكز هذه الخيرات والمبرات ، ونسب هذه السلاسل والحلقات ، لرأينا أن الشموع تضىء الشموع والمشاعل لم تزل تمد المشاعل ، وقد أضاءت هذه الشموع والمشاعل كلها بذلك السراج المنير الذى أشعله الإمام الدهلوى فى منتصف القرن الثانى عشر وسط العواصف الهوجاء والرياح العاتية الشديدة .

الشبه العجيب :

إن هناك شبها عجيبا بين الإمام الدهلوى والإمام المجدد السرهندى مؤسس السلسلة النقشبندية المجددية فى أبنائهما الأعلام ونشر دعوتهما وطريقتهما الخاصة على أيديهم ومجهودهم - وهو رغم فضائل ومناقب أخرى كثيرة خصيصة نادرة عجيبة فى كتب التاريخ والتراجم - فقد كان للإمام السرهندى أربعة أبناء قد بلغوا درجة النبوغ والكمال ، الشيخ محمد صادق ، والشيخ محمد سعيد ، والشيخ محمد معصوم ، والشيخ محمد يحيى ،

وقد توفى الشيخ محمد صادق حين كان عمره ٢٥ سنة عام ١٠٢٥ هـ وقد وردت عن الإمام السرهندى فيه كلمات عالية ونعوت ذات قيمة ، وقد انتشرت السلسلة المجددية على أيدى الأبناء الثلاثة الكرام المؤخرى الذكر ، وتم توسيع نطاق هذه السلسلة وتبليغها إلى الآفاق وتكميل تلك المهمة الثورية التجديدية التى بدأ بها الإمام السرهندى على أيدى هؤلاء الأبناء الأعلام وعن طريقهم ، ويليهم فى انتشار الطريقة المجددية الشيخ السيد آدم البنورى (الذى لم تكن صلته مع الإمام السرهندى صلة قرابة ، بل كانت صلة روحية تقوم على التربية والاسترشاد) وقد بلغت هذه السلسلة من القوة وكتب لها القبول إلى حد أن الإمام الدهلوى ، والإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، والشيخ أمداد الله المهاجر المكى وخلفاءهم الكبار والعلماء الأجلة العظام كلهم ينتمون إلى هذه السلسلة الآدمية .

ويمتاز من بين هؤلاء الأنجال الكرام الشيخ محمد معصوم ، فقد وصلت عن طريقه هذه السلسلة إلى تركستان والبلاد العربية وتركيا ، وقد صدق من قال :

« إن الشيخ محمد معصوم سراج ينير سبع ممالك ، فقد استنارت به الأرض من الهند إلى الروم » .

ثم كانت يده الخفية وعناياته الروحية التربوية هى التى تعمل وراء الستار حتى خلف على عرش السلطان « أكبر » بعد عقبين من خلفائه ذلك السلطان المجاهد المتدين الفقيه المتدفق بالحمية الدينية الذى كان حاميا للدين ، بدلا من أن يكون « ماحيا له » ، وخادما للإسلام بدلا من أن يكون « هادما له » ، وكان الشيخ محمد معصوم يخاطب من قبل بالأمير الحارس للدين ، وكأنه بذلك كان يعده لهذا العمل العظيم .

وهكذا خلف الإمام الدهلوى أربعة أبناء نوابغ [(١)] ، وكان من قصتهم أيضا أن الشيخ عبد الغنى (الذى كان أصغر هؤلاء الأبناء الأربعة سنا) توفى قبلهم جميعا عام ١٢٢٧هـ[(٢)] ، واستمرت دعوة الإمام الدهلوى وتعاليمه ونشر علومه ومعارفه ، وتربية رجال العمل والجهاد والمنهج الخاص للتدريس والتأليف الذى كان يتجلى فيه ذوق الإمام الدهلوى وصبغة تجديده واجتهاده عن طريق هؤلاء الأبناء الثلاثة ، ثم حاز سراج الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوى - من بين هؤلاء الأخوة - تلك المكانة العالية الممتازة التى كان يتمتع بها الشيخ محمد معصوم من بين أبناء الإمام السرهندى ، .وقد انتشرت به سلسلة

---

(١) وهم الشيخ عبد العزيز الدهلوى والشيخ رفيع الدين ، والشيخ عبد القادر ، والشيخ عبد الغنى .

(٢) وهو والد العلامة الشيخ إسماعيل الشهيد .

الإمام الدهلوى وعلومه ومعارفه انتشارا عالميا ، وبلغت بعض الجوانب من عمله التجديدى ذروتها وأوج كمالها على يديه حتى نضطر أن نقول فى أدب وتهيب ، إن ما لم يستطع الوالد تحقيقه وإنجازه حققه الابن النابغة وأكمله .

وقبل أن نذكر هذه المهمة من التكميل والتوسيع لأعمال الإمام الدهلوى ومآثره ، التى قام بها الشيخ عبد العزيز الدهلوى ، نود أن نسوق نبذة من سيرته وتعريفا بشخصيته وترجمة موجزة جامعة له ، ونكتفى فى هذا الصدد باقتباس ترجمته من كتاب « نزهة الخواطر » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى - رحمه الله تعالى - المجلد السابع ، فهى على وجازتها شاملة جامعة .

الشيخ عبد العزيز الدهلوى :

« الشيخ الإمام العالم الكبير العلامة المحدث عبد العزيز بن ولى الله بن عبد الرحيم العمرى الدهلوى سيد علمائنا فى زمانه وابن سيدهم ، لقبهم بعضهم « سراج الهند » وبعضهم « حجة الله » ، ولد ليلة الخميس لخمس ليال بقين من رمضان سنة تسع وخمسين ومائة وألف ، كما يدل عليه لقبه المؤرخ لمولده « غلام حليم » حفظ القرآن وأخذ العلم من والده ، فقرأ عليه بعضا وسمع بعضا آخر بالتحقيق والدراية والفحص والعناية حتى حصلت له ملكة راسخة فى العلوم ، ولما توفى أبوه إلى جوار رحمه الله تعالى ورضوانه وله ست عشرة سنة عن وفاة والده ، أخذ من الشيخ نور الله البرهانوى والشيخ محمد أمين الكشميرى وأجازه الشيخ محمد عاشق بن عبيد الله الفلتى ، كانوا من أجلة أصحاب والده، فاستفاد منهم ما فاته على أبيه ، وله رسالة فصل فيها ما قرأ على والده وعلى غيره من العلماء ، فقال :

« إنه أخذ بعض كتب الحديث مثل أحاديث « الموطأ ضمن المسوى » و« مشكاة المصابيح» بتمامه قراءة على والده ، و « الحصن الحصين » و « شمائل الترمذى » سماعا عليه بقراءة أخيه الشيخ محمد ، و « صحيح البخارى » من أوله إلى كتاب الحج سماعا عليه بقراءة السيد المولوى ظهور الله المراد آبادى ، و « مقدمة صحيح مسلم » وبعض أحاديثه وبعض « سنن ابن ماجه » سماعا عليه بقراءة محمد جواد الفلتى ، والمسلسلات وشيئا من مقاصد جامع الأصول بقراءة مولوى جار الله نزيل مكة وشيئا من «سنن النسائى» سماعا عليه ، وبقية هذا الكتاب من الصحاح الست قرأها سماعا على خلفاء والده كالشيخ نور الله وخواجه محمد أمين وأخذ غير ذلك من الكتب ، إجازة عامة من أفضل خلفائه وابن خاله الشيخ محمد عاشق الفلتى وخواجه محمد أمين وإجازة والده لهما مكتوبة فى «التفهيمات

لإلهيـة» و « شفء 'علليل ' ، وهؤلاء قـرأوا على والده مع 'أن الشيخ مـحمد عـاشق كان شريكا فى السماع والقراءة والإجازة لوالده عن شـيخه أبى طاهر المدنى ، وأسانيده مذكورة فى كتابه « الإرشاد فى مهمات الإسناد » وفى غير ذلك من الرسائل .

وكان طويل القامة ، نحيف البدن ، أسـمر اللون ، أنجل العينين ، كث اللحية ، وكان يكتب النسخ والرقاع بغاية الجودة وكانت له مهارة فى الرمى والفروسية والموسيقى .

وقد قرأ عليـه إخوته عبد القادر ورفـيع الدين وعبد الغنى وختنه عـبد الحى بن هبة الله البرهانوى وقرأ عليه المفتى الهى بخش الكاندهلوى ، والسيد قمر الدين السونى بتى مشاركا لإخوته فى القـراءة والسماع وقـرأ عليه الشيخ غـلام بن عبد اللطيف الدهلوى « صـحيح البخـارى » قراءة عليه وقرأ عليـه السيد قطب الهدى بن مـحمد واضح البريلوى الـصحاح الست ، وأما غيـرهم من أصحابه فإنهم قـرأوا على اخوته واسندوا عنه وحضروا مـجالسه وسمعوا كلامه فى دروس القرآن واستفـادوا منه ما شاء الله ، وأما سبطه إسحاق بن أفضل العمرى فـإنه كان مقرؤه يقرأ عليـه كل يوم ركوعا من القرآن وهو يفـسره ، وهذه الطريقة كانت مأثورة من أبيه الشيخ ولى الله ، وكان آخر دروس الشيخ ولى الله المذكور ، «اعدلوا هو أقرب للتقوى» ، ومن هناك شرع عـبد العزيز وآخر دروسه كان ﴿ **إن أكـرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ ، ومن هناك شرع سبطه إسحاق بن أفضل كما فى « مقالات الطريقة » .

وكان رحمـه الله أحد أفراد الدنيا بفضله وآدابه وعلمـه وذكائه وفهمه وسـرعة حفظه ، اشتغل بالدروس والإفـادة وله خمس عشرة سنة ، فدرس وأفـاد حتى صار فى الهند العلم المفرد ، وتخـرج عليه الفضـلاء وقصدته الطلـبة من أغلب الأرجاء وتهـافتوا عليـه تهافت الظمآن على الماء ، هذا وقد اعـترته الأمراض المؤلمة وهو ابن خمس وعـشرين ، فأدت إلى المراق والجذام والبرص والعمى ونحو ذلك ، حتى عد منها أربعة عشر مرضا مفجعا ، ومن ذلك السبب فوض تولية التدريس فى مدرسته إلى صنويه رفيع الدين وعبد القادر ومع ذلك يدرس كان بنفسه النفيسه أيضا ويصنف ويفتى ويعظ ، ومواعظه كانت مقصورة على حقائق التنزيل فى كل أسبوع يوم الثلاثاء ، وكان فى آخر عمره لا يقدر أن يقعد فى مجلس ساعة فيمشى بين مدرستيه القديمة والجديدة ويشتغل عليه خلق كثير من ذلك الوقت فيدرس ويفتى ويرشد الناس إلى طريق الحق وكـذلك يمشى بين العصر والمغـرب ويذهب إلى الشارع الذى بين المدرسة والجـامع الكبير فيـتهادى بين الرجلين يمينـا وشمالا ويترقب الناس قـدومه فى الطريق ويستفيدون منه فى مشكلاتهم ، ومن تلك الأمـراض المؤلمة فقدان الاشتهاء إلى حد يقضى أياما وليالى لا يذوق طعم الغذاء ، حتى صار الأكل غبّا بطريق النوبة كالحمى صرح

بها فى تقريظه على « المناقب الحيدرية » قال فيه :

« ويعتذر من التقصير فى التقريظ بأعذار صادقة وأمراض سابقة ولاحقة حتى أدت إلى فقدان الغذاء بالمرة ، وصار الأكل غبا بطريق النوبة ، كالحمى لغلبة المرة ، وتساقطت القوى واختلَّت الحواس وتهاترت الأعضاء والعظام والأضراس ، إلى غير ذلك » ، وقال فى كتابه إلى أمير حيدر بن نور الحسنين البلكرامى : « وإن سألتم عن حال هذا المُحبّ ، فهو فى سقم واصب ليلا ونهارا ، وكرب يزعجه سرا وجهارا ، وقرار زائل وقلق حاصل ، وذلك لاجتماع أمراض كل منها بانفراده يكفى لإزعاج الرجل وإكماده ، منها : قبض البواسير ، واحتباس الرياح فى المعدة ، والأمعاء ، ومنها : فقدان الاشتهاء إلى حد يقضى أياما وليالى لا يذوق طعم الغذاء ، ومنها صعود الأبخرة إلى القلب فيحاكى حالة الانزهاق والاختناق ، وربما تصعد إلى الدماغ فتحدث شقيقة ثاقبة وصداعا لذاعا كأنها ضربات الدقاق ، وإلى الله المشتكى ، وهو المستعان ، فهذه لا يسع النطق ببنت شفة فضلا عن إملاء كتاب وإنشاء صحيفة ، خطاب إلى غير ذلك » .

ولعلك تتعجب أنه كان مع هذه الأمراض المؤلمة والأسقام المفجعة لطيف الطبع حسن المحاضرة جميل المذاكرة فصيح المنطق مليح الكلام ذا تواضع وبشاشة وتودد ، لا يمكن الإحاطة بوصفه ، ومجالسته هى نزهة الأذهان والعقول ، بما لديه من الأخبار التى تشنف الأسماع ، والأشعار المهذبة للطباع ، والحكايات عن الأقطار البعيدة وأهلها وعجائبها بحيث يظن السامع أنه قد عرفها بالمشاهدة ولم يكن الأمر كذلك فإنه لم يعرف غير مملكته ، ولكنه كان باهر الذكاء ، قوى التصور ، كثير البحث عن الحقائق ، فاستفاد ذلك بوفود أهل الأقطار البعيدة إلى حضرة دهلى ، ولأنه قد صنف الناس فى الأخبار مصنفات يستفيد بها مما يقرب من المشاهدة ، وكان الناس يقصدونه ليستفيدوا من علمه ، والأدباء ليأخذوا من أدبه ، ويعرضوا عليه أشعارهم والمحاويج يأتونه يشفع لهم عند أرباب الدنيا ويواسيهم مما يمكنه ، وكرمه كلمة إجماع والمرضى يلوذون به لمداواتهم ، وأهل الجذب والسلوك يأتونه ليقتبسوا من أشعة أنواره ، وغرباء الديار من أهل العلم والمشيخة ينزلهم فى منزلة ويفضل عليهم بما يحتاجون إليه ويسعى فى قضاء أغراضهم ونيل مطالبهم ، وإذا جالسه منحرف الأخلاق أو من له فى مسائل الدينية بعض الشقاق ، جاء من سحر بيانه بما يؤلف بين الماء والنار ويجمع بين الضب والنون ، فلا يفارقه إلا وهو عنه راض .

قال الشيخ محسن بن يحيى الترهتى فى « اليانع الجنى » أنه قد بلغ من الكمال والشهرة بحيث ترى الناس فى مدن أقطار الهند يفتخرون باعتزائهم إليه ، بل بانسلاكهم فى سمط

من ينتمي إلى أصحابه . قال : ومن سجاياه الفاضلة الجميلة التى لا يدانيه عامة أهل زمانه قوة عارضته لم ينضل أحدا إلا أصاب غرضه وأصمى رميته وأحرز خصله ، ومن ذلك براعته فى تحسين العبارة وتحبيرها والتأنق فيها وتحريرها حتى عدّه أقرانه مقدما من بين حلبة رهانه وسلموا له قصبات السبق فى ميدانه ، ومنها فراسته التى أقدره الله بها على تأويل الرؤيا ، فكان لا يعبر شيئا منها إلا جاءت كما أخبر بها كأنه قد رآها ، وهذا لا يكون إلا لأصحاب النفوس الزاكيات المطهرّة عن أدناس الشهوات الردية وأرجاسها ، وكم له من خصال محمودة وفضائل مشهودة .

وجملة القول فيه : أن الله تبارك وتعالى قد جمع فيه من صنوف الفضل وشتاته التى فرقها بين أبناء عصره فى أرضه ما لو رآه الشاعر الذى يقول :

ولم أر أمثال الرجال تفاوتا　　　لدى المجد حتى عدّ ألف بواحد

استبان له مثل ضوء النهار أنه وإن كان عنده أنه قد بالغ فيه فإنه قد قصر ، فكيف الظن بأمثاله أن يحسن عد مفاخره التى أكثر حصى من حصى الحصباء ونجوم السماء . . .

هذا وللشيخ عبد العزيز مؤلفات كلها مقبولة عند العلماء محبوبة إليهم يتنافسون فيها ويحتجون بترجيحاته وهو حقيق بذلك ، وفى عبارته قوة وفصاحة وسلاسة تعشقها الأسماع وتلتذ بها القلوب ، ولكلامه وقع فى الأذهان قَلَّ أن يمعن فى مطالعاته من له فهم فيبقى على التقليد بعد ذلك ، وإذا رأى كلاما متهافتازيّفه ومزّقه بعبارات عذبة حلوة ، وقد أكثر الحط على الشيعة فى المسائل الكلامية وله حجة قاطعة عليهم لا يستطيعون أن ينطقوا فى جواب تُحفَته ببنت شفة » .

وأما مصنفاته فأشهرها : تفسير القرآن المسمى بـ « فتح العزيز » صنفه فى شدة المرض ولحوق الضعف إملاءً ، وهو فى مجلدات كبار ، ضاع معظمها في ثورة الهند فما بقى إلا مجلدان من أول وآخر ، ومنها « الفتاوى فى المسائل المشكلة » (٣)، وقد جُمعت ما تحويها ضخام الدفاتر ، والميسر منها أيضا فى مجلدين ، ومنها « تحفة اثنا عشرية » فى الكلام على المذهب الشيعى ، كتاب لم يسبق مثله ، ومنها كتابه « بستان المحدثين » (٤)، وهو

---

(٣) لقد كان الشيخ عبد العزيز الدهلوى عالى الكعب فى الفقه الحنفى ، وكانت له قدم راسخة وبصيرة دقيقة فيه حتى يعتبره بعض العلماء من أصحاب الاختصاص ، إنه يبذ فيه والده الإمام الدهلوى .

(٤) يقدر من هذا الكتاب إطلاعه الواسع على كتب الحديث وطبقات المحدثين .

فهرس كتب الحديث وتراجم أهلها ببسط وتفصيل ، ولكن لم يتم ومنها « العجالة النافعة » رسالة له بالفارسية فى أصول الحديث ، ومنها رسالة فيما يجب حفظه لطالبى الحديث ، ومنها « ميزان البلاغة » متن متين له فى علم البلاغة ومنها « ميزان الكلام » متن متين فى علم الكلام ، ومنها « السر الجليل فى مسألة التفضيل » رسالة له فى تفضيل الخلفاء لبعضهم على بعض ، ومنها « سِرُّ الشهادتين » رسالة نفيسة له فى شهادة الحسنين - رضى الله عنهما - ومنها رسالة فى الأنساب ومنها رسالة عجيبة له فى الرؤيا ، وله غير ذلك من الرسائل ، وأما مصنفاته فى المنطق والحكمة ، فمنها حاشيةٌ « على ميرزاهد رساله » وحاشية على « ميرزاهد ملا جلال » وحاشية على « ميرزاهد شرح المواقف » وحاشية على « حاشية ملاكوسج » المعروفة بالعزيزية ، وحاشية على « شرح هداية الحكمة » للصدر الشيرازى ، وله شرح على أرجوزة الأصمعى ، وله مراسلات إلى العلماء والأدباء وتخميس نفيس على قصيدتى والده (« البائية » و « الهمزئية ») (٥) .

وكان نسيجاً وحده فى النظم والنثر وقوة التحرير وغضارة الإملاء وجزالة التعبير وكلامه عفو الساعة وفيض القريحة ومسارعة القلم ومسابقة اليد ، وعندى بفضل الله جملة صالحة منها وإن كان يسعها هذا المختصر لأوردت شيئا كثيرا ههنا .

وتوفى بعد صلاة الفجر يوم الأحد لسبع خلون من شوال سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف ، وله ثمانون سنة ، وقبره بدلهى عند قبر والده خارج البلد (٦) .

القيام بتكميل أعمال الإمام الدهلوى الخاصة ، وتوسيع نطاقها :

يمكن أن نوزع أعمال الإمام الدهلوى التجديدية إلى خمس شعب :

١ - ترجمة القرآن الكريم والقيام بنشر تعاليمه ومحتوياته فى المسلمين - بصفة عامة - وتصحيح العقائد عن طريقه ، والجهود المتواصلة لتمتين صلة العامة بالدين الخالص ، والتعاليم الإسلامية السمحة العادلة .

٢ - القيام بنشر الحديث الشريف والدعوة إلى إحياء السنة النبوية، وإقامة دروس الحديث

---

(٥) يعتبر شعر الشيخ عبد العزيز الدهلوى لا سيما قصيدته اللامية (التى أوردها مؤلف «نزهة الخواطر» فى ترجمته) من أرفع نماذج الشعر العربى ، ويظهر أنه يفوق شعر الإمام الدهلوى ، ولا نجد مثل هذه العربية السليقية بعده إلا فى شعر تلميذه النجيب المفتى صدر الدين خان اقرأ الأبيات التى وردت فى الثقافة الإسلامية كنموذج لشعره ، وفى « نزهة الخواطر » فى ترجمته .

(٦) نزهة الخواطر جـ : ٧ ص : ٢٧٥ - ٢٨٠ (الطبعة الثانية) .

الشريف والاهتمام بأسنيده وإجازاته ، والقيام بحلقاته ، وإعداد المدرسين للحديث والشارحين لكتبه .

٣ - مقاومة فتنة التشيع والرفض ، وسد كل المنافذ والأبواب ضد المحاولات المشبوهة للطعن فى الصحابة - رضى الله عنهم - والتشكيك فى قطعية القرآن الحكيم .

٤ - إحياء الجهاد فى سبيل الله ، ومقاومة أكبر خطر وأعظم تحد لحرية المسلمين وسلطتهم الإسلامية فى الهند .

٥ - تربية الرجال الأكفاء لمهمة الإصلاح والدعوة حسب مقتضيات الظروف والأوضاع ومتطلبات الدين الحقيقية .

الدعوة إلى فهم القرآن الكريم والقيام بنشر تعاليمه وتبليغ رسالته :

أما ما يتعلق بتبليغ رسالة القرآن الكريم إلى عامة الناس ، وإصلاح العقائد الباطلة والتقاليد المنحرفة وإقامة الصلة ، والعلاقة مع الله - تعالى - عن طريقها ، فإن الشيخ عبد العزيز الدهلوى قد قام فى هذا الصدد - بتوسيع مهمة والده الإمام الدهلوى ، فقد زادها تقدما وقبولا وسعة وشمولا ، لقد كانت دروس الإمام الدهلوى فى القرآن الكريم وصلت إلى هذه الآية من سورة النساء ﴿ **اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾ حيث وافاه الأجل المحتوم ، فبدأ الشيخ عبد العزيز الدهلوى سلسلة دروسه منها ، وكان قد بلغ إلى قوله - تعالى - من سورة الحجرات ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ ، وإذا بهذه السلسلة من دروسه قد انقطعت مع انقطاع سلسلة حياته ، وبدأ يعده ابن بنيّه الشيخ محمد إسحاق (الذى كان قد تربى وتخرج على يديه وكان خليفته بحق) دروسه فى القرآن الكريم .

كانت دروس الشيخ عبد العزيز الدهلوى فى القرآن الكريم يومى الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع ، يحضر فيها الخاصة من الناس - بصفة خاصة - والعامة منهم برغبة وشوق وتذوق، وكانت قريحته الفياضة وطبعه الريّان يفيض فى هذه الدروس فى اندفاع وجولان، وتنهمر عليه الحقائق والمعانى كالسيل [٧]، وقد عم بهذه الدروس تذوق القرآن الكريم فى العاصمة دلهى (التى كانت مركز العلماء وأهل الفضل والكمال) وجرت موجة قوية من إصلاح العقائد ، وبدأت سلسلة مباركة لترجمة القرآن وتفسيره لم تزل حلقاتها متصلة إلى يومنا هذا فى شبه القارة الهندية ، وقد صلحت بها نفوس مئات الآلاف من

---

(٧) انظر مجموعة كلمات الشيخ عبد العزيز (ملفوظات عزيزى) ص : ١٠ .

الناس وحسنت أحوالهم وذاقت قلوبهم وعقولهم عن طريقها حلاوة التوحيد الخالص ولذة القرآن الكريم ومتعته الروحية ، حتى المدارس الإسلامية بدأت فيها سلسلة الدروس القرآنية وتفهم معانيه ومطالبه بتأثير أولئك العلماء الذين تكونت ثقافتهم وتمت تربيتهم فى حلقات هذه الدروس ،التى لم يعط لها مكان فى المنهج الدراسى إلا فى صورة «التفسير الموجز»[(٨)] للبركة فحسب ، وتحطم ذلك الطلسم الذى روج له علماء الدنيا أن نشر القرآن الكريم فى العامة نذير خطر كبير وتمهيد لضلالة مستطيرة ، وقد كان يعمل فى ذلك وراء الستار هذا الخوف بأن الجماهير من الناس سوف تخرج بذلك عن سلطة العلماء المحترفين المرتزقين ، الذين يجعلوا القرآن العظيم أحجية من الأحاجى أو لغزا من الألغاز وحاولوا بذلك إبعاد الناس عنه وحرمانهم منه .

والمأثرة العلمية الإصلاحية الثانية للشيخ عبد العزيز الدهلوى هى تفسيره المسمى بـ (فتح العزيز) أو ما يسمى بـ «التفسير العزيزى» أو « بستان التفاسير » وهو كتاب مستقل مؤلف من إملاءات الشيخ عبد العزيز ، وهو يشتمل - حسب تصريح الشيخ الدهلوى نفسه - على تفسير سورة الفاتحة ، وسورة البقرة ، ثم سورة الملك إلى آخر القرآن الكريم [(٩)]، إلا أن سورة البقرة لم تتم (لأسباب لا نعلمها) فلم يطبع منها إلا إلى قوله تعالى ﴿ **وأن تصوموا خير لكم** ﴾ وقد صدرت لهذا الأصل الفارسى من التفسير عدة طبعات ، ويشتمل على ثلاثة مجلدات ، المجلد الأول من سورة الفاتحة إلى ربع الجزء الثانى ، والمجلد الثانى من سورة الملك إلى آخر سورة المرسلات ، والمجلد الثالث من سورة النبأ إلى آخر القرآن الكريم .

وقد ألف بعد الشيخ عبد العزيز الدهلوى تلميذه الفاضل العلامة حيدر على الفيض آبادى (م ١٢٩٩ هـ) صاحب « منتهى الكلام » تكملة لهذا التفسير ، يقول مؤلف «مقالات طريقت» :

« لقد أكمل الشيخ حيدر على مؤلف « منتهى الكلام » حسب رغبة الأميرة سكندربيكم والية بوفال - تفسير « فتح العزيز » فى ٢٧ مجلدا ، وشاهده كاتب هذه السطور [(١٠)] .

---

(٨) كان المنهج الدراسى - قديما - يشتمل على تفسير الجلالين وتفسير البيضاوى (سورة البقرة فحسب) ولم تكن ترجمة القرآن وتفسيره كله متداولا .

(٩) انظر مقدمة تفسير « فتح العزيز » للشيخ عبد العزيز الدهلوى ص : ٣ ، ويستفاد من المقدمة أن تأليف هذا التفسير بدأ بطلب من أخيه الأكبر الشيخ محمد بن ولى الله الدهلوى وتحريضه عام ١٢٠٨ هـ .

(١٠) مقالات طريقت ص : ٣٣ .

وتوجد هذه التكملة إلى آخر الجزء الخامس فحسب فى مكتبة ندوة العلماء ، وقد فقدت ورقتان من بدايتها .

وهناك تفسير بالأردية يسمى « التفسير العزيزى » ويعرف أيضا بـ « الوعظ العزيز » وقد طبع فى المطبع الأنصارى بدلهى ، وهو يشتمل حسب تصريح مرتبه الشيخ أبى الفريد محمد إمام الدين - على مجموعة دروس الشيخ عبد العزيز الدهلوى التى كان يلقيها يومى الثلاثاء والجمعة ، وقد قيدت هذه الدروس ورتبت وطبعت بهذا الاسم المذكور أعلاه ، وكان تأليف هذا الكتاب عام ١٢٥٩ هـ ويحتوى على تفسير سورة « المؤمنون » وما بعدها إلى سورة الصافات .

ولكن رغم أن تفسير الشيخ عبد العزيز الدهلوى لم يكمل إلا أنه يحتوى على لطائف ونكات كثيرة نادرة لا تكاد تجدها فى عامة التفاسير المشهورة ، وقد اشتملت دروس الشيخ الدهلوى وكتابه فى التفسير المسمى بـ « فتح العزيز » على بحوث علمية فى تلك المسائل والقضايا - بصفة خاصة - كان العلماء لم يجرؤوا فيها على الصراحة بالحق أو لم يقوموا فيها بالبحث والتحقيق المطلوب ، وكان قد وقع بذلك عدد كبير من الدهماء والعامة فى ضلال وعقائد وأعمال شركية ، وانحرافات فى التطبيق والسلوك ، فمن ذلك تفسير آية ﴿**وما أهل به لغير الله**﴾ فهو من المباحث الخاصة فى هذا الكتاب ، كذلك البحث فى مسألة السحر فى تفسير ﴿ **وما كفر سليمان الخ** ﴾ الآية ، وتحقيقات نادرة رائعة أخرى ضمن تفسير عدد من الآيات ، تعد من خصائص هذا الكتاب ومباحثه الفذة النادرة .

القيام بتدريس الحديث الشريف ونشره وترويجه :

وأما ما يتعلق بتدريس الحديث الشريف ونشره وترويجه ، فإنه يصعب أن يوجد له مثيل فى تاريخ الهند العلمى والدينى ، وتمتد فترة تدريسه للحديث الشريف إلى أربع وستين سنة، وأنه لم يقتصر فى هذه المدة الطويلة على تدريس الكتب الستة ، وتأليف الكتب النافعة المفيدة « كبستان المحدثين » و « العجالة النافعة » التى تنشىء الذوق الصحيح للحديث والمعرفة الجيدة بطبقات كتب الحديث والاطلاع على مراتب المحدثين ومنازلهم فى العلم والفضل وتعرف بأصوله وقواعده ، وقد جاءت فيها خلاصة مئات الصفحات ولباب النقول والأقوال فحسب ، بل قد خرج أولئك التلاميذ النجباء والخريجين الفضلاء ، والنوابغ من العلماء والمدرسين الذين أفاضوا علوم الحديث ومعارفه ، ليس فى الهند فحسب بل فى الحجاز كذلك ، واستفاد منهم خلائق من الناس لا يحصى لحد وعد ، ويبلغ عدد من تخرج على يديه من نوابغ تلاميذه وأفاضلهم ممن ترجم لهم مؤلف « نزهة

الخواطر » فى المجلد السابع منه فحسب إلى أربعين خريجا ، منهم من كانت له حلقات لدروس الحديث ، وتخرج على أيديهم محدثون آخرون وشيوخ أجلة ومدرسون نذكر أسماءهم فيما يلى :

١ - الشيخ محمد إسحاق الدهلوى .

٢ - الشيخ محمد يعقوب الدهلوى .

٣ - المفتى الهى بخش الكاندهلوى .

٤ - الشيخ السيد أولاد حسن القنوجى .

٥ - الشيخ مرزا حسن على الشافعى اللكنوى .

٦ - الشيخ حسين أحمد المحدث المليح آبادى .

٧ - الشيخ حيدر على الطونكى .

٨ - الشيخ خرم على البلهورى .

٩ - المفتى صدر الدين الدهلوى .

١٠ - المفتى على كبير المجهلى شهرى .

١١ - الشيخ السيد قطب الهدى الحسنى الرائى بريلوى .

والذين أسندوا عنه -سوى هؤلاء- تطول قائمتهم بحيث يصعب الإحصاء والاستقصاء، ونكتفى هنا بإيراد أسماء بعضهم ممن يمتازون عن غيرهم بمميزات خاصة لفضائلهم ومناقبهم أو نسبة بعض السلاسل والطرق إليهم أو لسمعتهم الذائعة وصيتهم المنتشر :

١ - الشيخ غلام على الدهلوى (خليفة الشيخ الجليل ميرزا مظهر جان جانان) .

٢ - الشيخ أبو سعيد الدهلوى (خليفة الشيخ غلام على) .

٣ - الشيخ أحمد سعيد الدهلوى (خليفة الشيخ غلام على) .

٤ - الشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادى (خليفة الشيخ محمد آفاق الدهلوى) .

٥ - الشيخ بشارت الله البهرائجى (أحد كبار الشيوخ فى السلسلة المجددية) .

٦ - الشيخ بزرك على المارهروى (شيخ المفتى عنايت أحمد الكاكوروى) .

٧ - الشيخ بناه عطا السلونوى (أحد كبار الشيوخ فى السلسلة الجشتية النظامية ، وكانت له إجازة عن طريق المكاتبة) .

٨ - الشيخ ظهور الحق الفلواروى .

وقد انتشر علم الحديث انتشارا واسعا كبيرا على يدى الشيخ محمد إسحاق الدهلوى الذى تخرج عليه علماء كبار ، وأساتذة الحديث فى الهند ، إلى أن هاجر إلى مكة المكرمة عام ١٢٥٨ هـ وأسند عنه كبار علماء الحجاز وأساتذة الحديث بها .

ومن الذين تتلمذوا عليه وكان لهم صيت واسع ودور كبير :

١ - الشيخ السيد نذير حسين المحدث الدهلوى .

٢ - والمقرىء عبد الرحمن البانى بتى .

٣ - الشيخ السيد عالم على المراد آبادى .

٤ - والمفتى عبد القيوم ابن الشيخ عبد الحى البدهانوى (من أجلة خلفاء الإمام أحمد بن عرفان الشهيد) .

٥ - الشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادى .

٦ - والنواب قطب الدين الدهلوى (مؤلف « مظاهر حق ») .

٧ - والشيخ أحمد على السهارلفورى (ناشر صحيح البخارى بتصحيحه وحواشيه) .

٨ - المفتى عنايت أحمد الكاكوروى أستاذ العلماء الشيخ لطف الله العلى كرهى) .

وعلماء كثيرون ممن يطول ذكرهم ، وهذا هو السند الوحيد الذى بقى فى الهند حسب تصريح مؤلف « نزهة الخواطر » .

وقد استمر المحدث السيد نذير حسين الدهلوى (م ١٣٢٠ هـ) وحده من تلامذة الشيخ محمد إسحاق الدهلوى يدرس الحديث الشريف بدلهى أعواما طوالا ، وتخرج فى حلقة دروسه عدد من شُراح الحديث وعلمائه الأجلة وناشريه ، منهم الشيخ عبد المنان الوزير آبادى الضرير -الذى كان عدد كبير من تلامذته منصرفين إلى التدريس والإفادة فى بنجاب- والعارف بالله السيد عبد الله الغزنوى الأمرتسرى وابنه الجليل السيد عبد الجبار الغزنوى الأمرتسرى - والد الشيخ السد داؤد الغزنوى ، والشيخ شمس الحق الديانوى مؤلف « غاية المقصود » ، والشيخ محمد حسين البتالوى والشيخ غلام رسول القلعوى ، والشيخ محمد بشير السهسوانى ، والشيخ أمير أحمد السهسوانى والشيخ الحافظ عبد الله الغازيبورى ، والشيخ أبو محمد إبراهيم الآروى مؤلف « طريق النجاة » والشيخ السيد أمير على المليح آبادى ، والشيخ عبد الرحمن المباركفورى صاحب « تحفة الأحوذى » .

ومن العلماء العرب الشيخ عبد الله بن إدريس الحسنى السنوسى ، والشيخ محمد بن ناصر النجدى ، والشيخ سعد بن أحمد بن عتيق النجدى وأمثالهم ممن يكفى ذكر أسمائهم لمعرفة انتشار هذه الدروس وسعتها وبعد صيتها وعظيم فوائدها .

ومن تلامذة الشيخ محمد إسحاق ، الشيخ عبد الغنى المهاجر المدنى (م ١٢٩٦ هـ) الذى تتلمذ عليه كبار علماء الهند وشيوخ الحديث فيها ، الذين تنورت الهند كلها عن طريقهم بنور الحديث الشريف وملئت به ، وترجع جميع المدارس الإسلامية وحلقات الدروس للحديث الشريف فيها الآن إليه ، وتعتز بالانتماء إليه ، فمن تلامذته الأجلة المعروفين العلامة رشيد أحمد الكنكوهى ، والإمام محمد قاسم النانوتوى (مؤسس دار العلوم بديوبند) ويكفى من تلامذة الشيخ رشيد أحمد الكبار ذكر الشيخ محمد يحيى الكاندهلوى ، والشيخ خليل أحمد السهارنفورى ، كما يغنى فى تلامذة الشيخ خليل أحمد السهارنفورى ذكر شيخ الحديث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى صاحب « أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك » وفى قائمة أسماء تلاميذ الشيخ محمد قاسم النانوتوى أسماء الشيخ السيد أحمد حسن الأمروهوى وشيخ الهند الشيخ محمود حسن الديوبندى ، وفى تلامذتهم أسماء العلامة أنور شاه الكشميرى والعالم المجاهد السيد حسين أحمد المدنى ، وأعمالهم الجليلة الرائدة لا تحتاج إلى تعريف وتفصيل ، ويشتمل كتاب الشيخ محسن بن يحيى الترهتى « اليانع الجنى فى أسانيد الشيخ عبد الغنى » فى ما يتعلق بعلو أسانيد الشيخ عبد الغنى وعموم نفعه وإفادته وسمو منزلته على معلومات قيمة مفيدة .

الدفاع عن السنة والرد على الشيعة :

وأما فيما يتعلق بمأثرة الشيخ الدهلوى فى مقاومة فتنة الرفض والتشيُّع وحماية أهل السنة وصيانتهم من تأثيره وعدواه ، والتى بدأها الإمام الدهلوى بكتابه المنقطع النظير « إزالة الخفاء » فقد أكملها ودعمها الشيخ الدهلوى بكتابه الرائع الجليل « تحفة اثنا عشرية » (بالفارسية) الذى يعد من الكتب التى تصنع التاريخ وتحول تيار الأحداث ، وكما أن مؤلفات الشيخ محب الله البهارى كـ « سلم العلوم » و « مُسلَّم الثبوت » شغلت علماء الهند - قرنا كاملا من الزمن - بشرحها والتعليق عليها والدوران حولها ، واستقطبت طاقاتهم الفكرية وعقولهم الجبارة [١١]، وكذلك شغل الرد على هذا الكتاب وتفنيده كبار

(١١) ويمكن الاطلاع على العدد المذهل من شروح هذا الكتاب وحواشيه فى « الثقافة الإسلامية فى الهند» للعلامة السيد عبد الحى الحسنى - طبع مجمع اللغة العربية بدمشق .

علماء الشيعة ونوابغهم فى الكتابة والتأليف ، ويكفى لذلك أنّ كتاب « العبقات » الذى سمى بـ « عبقات الأنوار فى إمامة الأئمة الأطهار »(١٢) ، الذى ألفه الشيخ السيد حامد حسين الكنتورى (م ١٣٠٦ هـ) جاء فى ثمانية مجلدات كبار ، ويمكن أن يقدر حجم هذا الكتاب وضخامته من أن المجلد الأول منه يحتوى على ١٢٥١ صفحة ، والمجلد الثانى على ٩٧٧ ، والمجلد الثالث على ٦٠٩ صفحة ، والرابع على ٣٩٩ صفحة ، والخامس على ٧٤٥ صفحة ، والسادس على ٧٠٤ صفحة ، وقس على ذلك البقية ، والكتاب كله فى ثلاثين جزءا ، وقد أكمل الكتاب ابن المؤلف الشيخ السيد ناصر حسين ، ويستفاد من كتاب « نجوم السماء » أن الشيخ دلدار على « المجتهد الأول » وميرزا محمد كامل الدهلوى والمفتى محمد قلى خان الكنتورى و « سلطان العلماء » السيد محمد كذلك ألفوا فى الرد على كتاب الشيخ الدهلوى ومحو آثاره كتبا ضخمة كبيرة ، وقد انتهت هذه السلسلة من الردود على ميرزا هادى رسوا اللكنوى (الشاعر المعروف) الذى كان رجل الأدب والفلسفة، ولكنه حاول كذلك - المساهمة فى هذه « المبرة » .

وكيف خطر ببال الشيخ الدهلوى أن ينقطع إلى هذه القضية انقطاعا كليا - فى خضم الأشغال الصارفة عن التدريس ، وإلقاء الدروس العامة فى التفسير والحديث ، والقيام بنشر الكتاب والسنة ، ومهمة التربية والإرشاد وتسليك المريدين والإفتاء وفصل الخصومات التى لا تدع فرصة للتفكير فى شىء آخر ، ورغم الأمراض والآلام الشديدة التى كان يعانى منها، كيف انقطع - رغم كل ذلك - إلى هذه القضية التى كانت تحتاج إلى دراسة عشرات من الكتب وآلاف من الصفحات ، مع راحة البال وحمية القلب والانصراف الكامل ؟ لا يمكن أن يقدر ذلك إلا إذا كانت هناك دراسة عميقة للمجتمع المسلم فى أواسط القرن الثانى عشر الهجرى وأواخره (النصف الآخر من القرن الثامن عشر المسيحى) فى الهند ، لا سيما شمال الهند وفى دلهى ونواحيها وفى ولاية أوده ، وبهار وبنغال ، واطلاع واسع دقيق على الفوضى العقلية والفكرية المنتشرة فى المجتمع الإسلامى الهندى ، وما كان يحاوله علماء الشيعة من زرع الشكوك والشبهات فى حقائق الدين وتصوراته الأساسية ، وما كان للتشيع من التأثير على الأسر المسلمة لا سيما أسر الأشراف والبيوتات الكريمة ، وأصحاب الحكم والإدارة والطبقة المؤثرة ،وموقفه الهجومى العنيف ، ولم يمكن أبدا أن يقدر ذلك من لم يستعرض الثورات السياسية والإدارية من بعد عودة الملك همايون من

---

(١٢) وقد طبعت الأجزاء المختلفة للكتاب فى المطابع المتعددة بلكنئو ولدهيانة .

إيران إلى الهند إلى عهد فرخ سير ، وبعده أيضا ، وتأثير الأمراء والعلماء الإيرانيى الأصل ونفوذهم ، وسيطرة الأخوة الأشراف (حسن على خان وحسين على خان) على بلاط دلهى ، وتأثيرهم فيه ، ثم تفاصيل استيلاء النواب نجف على خان على دلهى (١٣) ، وكذلك قيام دولة النواب أبى المنصور خان صفدر جنغ النيسابورى فى ولاية « أوده » وتأثيرات الشيعة بعد شجاع الدولة ، ويسع القارىء أن يقدر ذلك - شيئا ما - بتصريح الشيخ الدهلوى الذى صدر من قلمه المعروف بالحيطة والرزانة فى مقدمة كتابه : « تحفة اثنا عشرية » ، يقول فيها :

« إن هذه البلاد التى نسكنها ، وهذا العهد الذى نعيشه ، قد بلغ فيها المذهب الاثنا عشرى من الذيوع والانتشار والقبول والرواج بحيث قل بيت من بيوت أهل السنة لا يميل فيه واحد أو اثنان من أفراده إلى هذه العقيدة ويتبع هذا المذهب ، ومعظم هؤلاء ممن لا يعرفون علم التاريخ والأخبار ، ويعيشون فى غفلة وقلة علم بسير أسلافهم وأصولهم ومنهجهم ، وعندما يتناقشون مع أهل السنة والجماعة فى مجالسهم ونواديهم ، يأخذون طريق الجدال والمراء والمغالطة ، وقد جاء تأليف هذه الرسالة حسبة لله - تعالى - لهذا الغرض حتى لا تزل أقدام المتبعين لمذهب أهل السنة والجماعة عند المناقشة والمناظرة ، ولا ينكروا أصولهم أنفسهم ، ولا يدعوا الشكوك والشبهات فى تلك الأمور التى تنبنى على الحقائق ، تجد إليهم سبيلا (١٤) .

ولم يتبع الشيخ الدهلوى فى هذا الكتاب منهج تلك الكتب الكلامية التى تؤلف على طريق المناظرة والجدل ولا ذلك الأسلوب الذى يستخدم فى الرد على الفرقة المخالفة وتفنيدها وإبطالها ، وتكون لها لغة خاصة وأسلوب خاص ، وقد جاء فى الكتاب أولا ذكر

---

(١٣) لقد كانت للنواب نجف على خان سيطرة كاملة على دلهى ، وكان مدافعا متحمسا عن الشيعة ومعارضا قويا لأهل السنة علنا وجهارا ، وقد اشتهرت عنه وقائع من ظلمة واعتدائه ، وهى وأن لم تكن صحيحة - كليا - ويكون قد بولغ فيها أو داخلها العصبية لأهل السنة إلا أن لها أصلا ، ولعل الشيخ الدهلوى - تجنُبا من اعتدائه - نسب كتابه هذا إلى اسمه التاريخى « غلام حليم » بدلا من اسمه المعروف ، وجاءت على صدر الورقة الأولى من الكتاب العبارة التالية :
« تأليف العالم العامل الفاضل الأكمل الحافظ غلام حليم بن الشيخ قطب الدين أحمد بن الشيخ أبى الفيض الدهلوى - قدس سرهم - وحيثما أحال من رد على هذا الكتاب من المؤلفين ذكروا المؤلف بـ « الفاضل العزيز » .

(١٤) « تحفة اثنا عشرية » ص : ٢ ، طبع مطبع نولكشور ، لكنئو ، عام ١٣٢٥ هـ .

نشأة المذهب الشيعى وانقسامه إلى مختلف الفرق والنحل وتعريف بعلماء الشيعة المتقدمين وكتبهم ومؤلفاتهم ، ثم يأتى مبحث الخلافة ، والمطاعن التى وجهت إلى الصحابة - رضى الله عنهم - وبدلا من الإقتصار على الردود عليها ، أفرد الشيخ الدهلوى أبوابا مستقلة فى القضايا الأصولية من الإلهيات والنُبوّات والمعاد والإمامة ، ثم أفاض فى الرد على مطاعن الشيعة فى الخلفاء الثلاثة الراشدين وأم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها - والصحابة الآخرين - رضى الله عنهم أجمعين - وفند اعتراضاتهم واتهاماتهم ، ثم تحدث عن خصائص مذهب الشيعة وأوهامه وخرافاته وعصبيته ، وعلق على أخطائهم وسوء فهمهم ومغالطاتهم ، ويشتمل الباب الأخير (وهو الباب الثانى عشر) على « الولاء والبراء » عندهم وهو ينبنى على عشر مقدمات ، وقد جاء الكتاب فى ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير والحروف الدقيقة .

والميزة الثانية للكتاب عذوبة لغته وسهولتها وطلاقتها التى اعترف بها علماء الشيعة أنفسهم فى الهند وفى إيران ، ويتجلى من اسم الكتاب أيضا هذا الغرض وهذا المعنى الذى كان من الدوافع إلى تأليف هذا الكتاب ، وأما الكتب التى ألفت فى الرد عليها فإنه يظهر من أسمائها الغضب والعنف والإثارة ويلمع فيها بريق السيف والحسام ، فمنها - علي سبيل المثال - كتاب باسم « صوارم الإلهيات » وآخر باسم « حسام الإسلام » ، وثالث باسم « سيف ناصرى » ورابع باسم « ذو الفقار » .

وسوف يكون من الصعوبة بمكان أن يقدر - فى هذا العصر - ما أدى هذا الكتاب - الذى كان حاجة من حاجات العصر - من دور كبير وخدمة جليلة ، وقد سمع كاتب هذه السطور نفسه من الأمير الفاضل الشيخ حبيب الرحمن خان الشيروانى صدر الصدور (الرئيس العام) للشئون الدينية بولاية حيدر آباد - سابقا - (الذى كانت أسرته دائمة الاتصال بالشيخ الدهلوى وخلفائه) أنه قال : « لقد قام هذا الكتاب فى وجه السيل الجارف من التشيع سدًا منيعا » وكان هذا الكتاب قد طبع وانتشر صيته فى الآفاق فى عهد الشيخ الدهلوى نفسه عام ١٢١٥ هـ (١٥) ، وكانت قد بدأت سلسلة الردود عليه ، وقد قام أحد تلامذة الشيخ الدهلوى الشيخ أسلمى المدارسى بتعريب هذا الكتاب ، وقد رأى كاتب هذه السطور هذه الترجمة العربية للكتاب فى مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بك بالمدينة المنورة .

---

(١٥) انظر « مقالات طريقت » ص : ٣٣ .

معارضة السلطة الإنكليزية والحفاظ على كيان الملة الإسلامية :

لقد قدم الشيخ الدهلوى - فيما يتعلق بالحفاظ على السلطة الإسلامية فى الهند ومقاومة الأخطار والتحديات التى تَضَعُ عقبات كأداء فى سبيل حرية المسلمين فيها - نموذجا رائعا للدراسة الواقعية الجادة للأوضاع والظروف ، واليقظة العقلية وبُعد النظر والأخذ بالعزيمة والصرامة ، التى تليق بعالم دينى من الدعاة والمصلحين ومن أصحاب البصيرة والفراسة ، وتجدر بالقائد والمرشد الدينى فِي عصره ، لقد كانت كبرى القضايا فى عصر الإمام الدهلوى إيقاف غارات المرهتة وزحفهم وحملاتهم ، التى أصبحت حادثا يوميا ، كانت الدولة المغولية تعانى - بسببها - من العجز والشقاء ، والذلة والمهانة فى جانب ، وكانت أعراض المسلمين وأموالهم - فى جانب آخر - معرضة للخطر ، ولم تعد الحياة فى المدن عادية آمنة ، وقد كان إزالة هذا الخطر والحصول على المساعدات الممكنة لإيقافه والحيلولة دونه - فى ذلك الحين - كطلب رجال المطافىء وسيارات الأسعاف عند وقوع الحريق فى بيت من البيوت أو حيّ من الأحياء ، وقد كان هذا هو موقف الإمام الدهلوى من أحمد شاه الأبدالى وجيشه ، وكأنه اشترط معه أن يعود وجيشه بعد إطفاء هذا الحريق ، وكان هذا فى نظر الإمام الدهلوى حيلة مؤقتة وتدبيرا عارضا لإعطاء الدولة المغولية فرصة طيبة لتدارك نفسها ، أو أن يحل محلها نظام أفضل منها (إذا كان لابد منه) ولكنه لم ينجح لقصر نظر شاه عالم ملك الدولة المغولية - حينذاك - وسقوط همته ، إلا أنه لم تكن قد بدت فى الأفق - إلى ذلك الحين - علائم سيطرة الشركة الشرقية الهندية وتوليها لزمام الدولة ، وقيام حكومتها عبر البحار فى هذه المنطقة النائية البعيدة ، التى كانت لتسترعى اهتمام الإمام الدهلوى وتصرف كل عنايته إليها .

ولكن تغيرت الظروف - سريعا - فى الهند بعد وفاة الإمام الدهلوى فقد كانت ولايات بنغال وبهار وأريسه الثلاث عهد بحكمها وإدارتها عام ١١٧٩ هـ الموافق عام ١٧٦٥ م (بعد وفاة الإمام الدهلوى بثلاث سنوات) إلى « دولة » الشركة الشرقية الهندية دون مشاركة أحد كإقطاع أو جائزة ملوكية من الأراضى الإقطاعية ، وكانت الشركة قد حصلت على «بنارس» و « غازيبور » كإقطاع - أيضا - ولم يكن قد بقى بعد ذلك فى أيدى ملك الأسرة التيمورية شاه عالم إلا ولاية إله آباد كما لم يكن له من الدخل إلا تلك (النقود التى كان يمنحها الإنكليز إياه)، وقد أعلن فى مجلة الوقائع (GALEVTTA GAZETTE) بكلكتة يوم ٨/ مارس عام ١٧٨٧ م الموافق ١٢٠٢ هـ : « أن حكومة المسلمين قد بلغت من المهانة والحقارة ما بلغت ، ولا خوف علينا من الهندوس « ثم هزم الإنكليز سراج الدولة فى

ساحة بلاسى عام ١٧٥٧ م وهزموا شجاع الدولة فى ٢٣ / أكتوبر ١٧٦٤ م الموافق ١١٧٨هـ فى ساحة بَكْسَرْ . واستشهد السلطان تيبو عام ١٧٩٩ م الموافق عام ١٢١٤ هـ فى ساحة سرنكابتن وكأنه ختم بذلك على مصير حكومة المسلمين وسلطتهم ، ولما وقع بصر الجنرال هارس (HARRIS) على جُثّة السلطان تيبو الشهيد قال - بحق - : « الآن أصبحت الهند لنا » (١٦).

إن الشيخ الدهلوى كان منقطعا إلى التدريس والإفادة بدلهى ولكن عينه البصيرة النافذة إلى أعماق الحقائق كانت تنظر إلى الهند كلها ، وقد رزقه الله - تعالى - عقلية واقعية غير عادية وحمية دينية متقدة ، وعزيمة قوية صارمة ، وقد درس هذا الانقلاب والتغير الهائل فى الأوضاع دراسة مستوعبة ، وتوصل بها إلى نتيجة أن الإنكليز يشكلون أكبر خطر فى هذا الحين لمستقبل المسلمين والبقية الباقية من سلطتهم وحكومتهم ، وقد صور هذه الحقيقة فى بيت من شعره العربى تصويرا كاملا ، ويظهر منه أنه لم يكن يرى تأثير الإنكليز منحصرا فى حدود الهند فحسب بل يعتبر أوسع حدودا وأبلغ مدى ، يقول :

وإنى أرى الإفرنج أصحاب ثروة لقد أفسدوا ما بين دلهى وكابُل

وهو أول شخص - فى حدود علمنا - تجاسر على إعلان أن الهند أصبحت دار حرب، وقام مستعرضا للأوضاع والظروف ، فى ضوء الفقه وأصوله ، بتحقيق هذه المسألة وتنقيحها بطريق يدل على عمق بصيرته وشجاعته الخلقية والدينية أيضا ، فقد قال فى «الفتاوى العزيزية» ج / ١ ، فى الرد على سؤال أن دار الإسلام هل يمكن أن تتحول دار حرب أو لا ؟ بعد نقل عبارة طويلة من « الدر المختار » :

« إن حكم أمام المسلمين فى هذه المدينة (دلهى) غير نافذ ، وحكم الحكام النصرانيين نافذ مطبق بدون معارضة ونقد ، وإن ما يسميه الفقهاء بإجراء أحكام الكفر يراد به أن يكون الكفار أصحاب حكم وسلطة فى شئون إدارة البلاد وتنظيم الرعية وأخذ الجبايات وتعشير أموال التجارة وتعزير السُرّاق وقُطّاع الطرق والفصل فى الخصومات والتعزير على عامة الجرائم ، وإن كانوا لا يتعرضون لبعض الأحكام الإسلامية كإقامة الجمعة والعيدين والأذان وذبح البقر ، ولكن الأصل الأصيل أن تكون هذه الشئون المتقدمة الذكر تحت رحمتهم وفى دائرة نفوذهم ، أننا نرى بأم أعيننا أنهم يهدمون المساجد علنا - ولا يسمح لأى مسلم أو ذمى أن يدخل هذه المدينة أو نواحيها إلا بإذنهم ،ولا يمنعون الوافدين من الخارج والمسافرين

(١٦) انظر « تاريخ سلطنت خداداد » تاريخ الدولة الموهوبة لمحمود خان محمود البنغلورى ، ص:٢٦٦.

والتجار لمصالحهم الذاتية ، ولكن الوجهاء الآخرين كشجاع الملك وولايتى بيكم لا يمكن أن يدخلوا المدينة بغير إذنهم ، إن حكم النصارى يسود من مدينة دلهى إلى كلكته ، نعم إنهم لم ينفذوا أحكامهم فى بعض المناطق - يمينا وشمالا - كحيدر آباد ولكنئوورامفور ، إما لأجل مصالحهم الخاصة ، أو لأن حكام هذه الولايات خضعوا لسلطانهم وقبلوا طاعتهم»[١٧] .

وقد انعكست هذه التصورات التى كان يحملها الشيخ الدهلوى والنظرة التى كان ينظر بها إلى الإنكليز على تصورات خليفته الجليل وخريج مدرسته التربوية العظيمة الإمام الداعية المصلح السيد أحمد بن عرفان الشهيد وعواطفه ومشاعره ، وتتجلى هذه العكوس فى رسائله التى كتبها إلى وجهاء عصره وأعيانه وأمرائه وبعض الحكام المسلمين الأجانب ، يقول فى رسالة كتبها إلى شاه سليمان والى « جترال » :

« لقد تدهورت حكومة الهند وسلطته - لسوء الحظ - منذ أعوام إلى وضع سيىء حتى استولى المسيحيون والمشركون على أكثر بقاع الهند ، وملأوها بظلمات الظلم والجور والطغيان »[١٨] .

ويقول فى كلمات أكثر صراحة منه فى رسالة إلى هندوراؤ وزير كواليار :

« من الواضح الظاهر عليكم أن هؤلاء السكان وراء البحار ، قد ظلوا سلاطين العالم وملوك الأرض ، وهؤلاء البياعين التجار قد غدوا يملكون زمام البلاد وقد أسقطوا حكومات الحكام الكبار وانتهكوا الحرمات والأعراض وأذلوهم وأرغموا أنوفهم »[١٩] .

ويكتب إلى غلام حيدر - الذى كان أحد الضباط العسكريين فى كواليار :

« لقد راحت معظم البقاع من هذه البلاد إلى سلطة الأجانب وقد شمروا عن ساعد الجد فى الظلم والعدوان فى كل مكان ، لقد ضاعت حكومة حكام الهند وخربت »[٢٠] .

ويظهر - جليا - من تلك الرسالة التى يوجهها الإمام الشهيد إلى الأمير كامران ، أن الغرض الحقيقى من وراء هذا الجهاد الذى كان يقوم به ، كان هو تحرير الهند التى كان يتم

---

(١٧) الفتاوى العزيزية ، جـ : ١ ، ص : ١١٤ ، طبع المطبع المجتبائى .
(١٨) سيرة السيد أحمد الشهيد ، جـ : ١ ، ص : ٣٨٩ .
(١٩) سيرة السيد أحمد الشهيد جـ : ١ ، ص : ٣٨٩ - ٣٩٠ .
(٢٠) أيضا ص : ٣٩٠ .

عليها استيلاء الإنكليز وسيطرتهم بصورة تدريجية ، يقول فى هذه الرسالة :

« إن هذا الفقير سوف ينصرف مع المجاهدين الصادقين بعد الفراغ من هذه المهمة (مهمة بنجاب ومنطقة الثغور الشمالية) إلى الهند بعزيمة القضاء على الكفر والطغيان إذ هو الغرض الحقيقى من ذلك » (٢١).

ويمكن أن يقدر ذلك - أيضا - من أن الإمام أحمد بن عرفان ذهب عام ١٢٢٧ هـ (أى قبل وفاة الشيخ عبد العزيز الدهلوى باثنتى عشرة سنة) إلى جيش الأمير أمير خان الذى كان - حينذاك - فى حرب الإنكليز ، وكان معه أفضل العناصر العسكرية فى الهند ، ودماء المسلمين الفائرة ، والبقية الباقية من القوة الفاتحة فى الهند ، وكثير من أسود ذاك العهد وأبطاله ورجاله ، وقد كانت هذه القوة ناهضة متقدمة حرة فى الهند ، لم يكن من الممكن أن يتجاهلها أىّ مُطَّلع بصير ، وقد كان يمكن بتنظيمها وإحياء روح الأهداف الصحيحة العالية فيها أن توقف إزاء القوة الناهضة للإنكليز (٢٢)، فقد غيرت مثل هذه القوى ذات الهمة والشهامة - رغم ضعفها فى العدد والعتاد - وجهة الأحداث وتيار الظروف والأوضاع فى تاريخ الشعوب والبلاد ، ولم يثبت لدينا حتى الآن عن طريق الوثائق الكتابية أن الإمام أحمد بن عرفان كان قصد جيش أمير خان بأمر من الشيخ الدهلوى وإرشاد صريح منه ، إلا أن هناك من القرائن ما يفيد أن هذه الخطوة كانت بإشارة منه أو - على الأقل - بموافقته ورضاه ، وذلك لأنه لما صالح النواب أمير خان عام ١٢٣٣ هـ الإنكليز ، وقنع بالحصول على عدد من المناطق المفرقة غير ذات شأن من ولايات راجبوتانه ومالوه ، التى كانت تسمى مجموعتها بإمارة « تونك » ، واختار العزلة عن محاربة الإنكليز ، رأى الإمام أحمد بن عرفان أن البقاء معه أكثر من ذلك لا غنى فيه ولا فائدة ، فاختار هو - أيضا - مفارقته والانفصال عنه ، وكتب رسالة إلى الشيخ الدهلوى وكان من محتواها :

« سوف يتشرف الفقير بالحضور ، فقد تفرق العسكر هنا وتبدد ، واتفق النواب مع الإنكليز وصالحهم ، فلا مجال لنا - الآن - للمكث والبقاء » (٢٣).

---

(٢١) أيضا .

(٢٢) انظر للتفصيل « سيرة السيد أحمد الشهيد » جـ : ١ ، وليعلم أن أمير خان لم تكن له أى صلة «بالفنداريين» الذين وصفتهم كتب التاريخ الإنجليزية وكتب المؤرخين الذين تأثروا بها بأنهم قطاع الطرق ، ولفيف من الهدامين ، والحقيقة فى هذا الأمر أن الفنداريين كانوا - أحيانا - يلجأون إليه ، وكان هو ينقذهم من الأخطار المؤقتة المفاجئة .

(٢٣) انظر « وقائع أحمدى ص : ٨٥ ، مخطوط فى مكتبة ندوة العلماء - لكهنئو .

ويمكن أن يستنتج من ذلك أن هذه الرحلة للإمام أحمد بن عرفان إلى الأمير كانت بإشارة من الشيخ الدهلوى ، ولذلك رأى من اللازم عليه أن يخبره بعودته عنه ومفارقته .

وهكذا استخدم الشيخ الدهلوى فى التعرف على ذلك الخطر الكبير الذى كان يواجهه المسلمون والهند كلها - بصيرته الموهوبة وفراسته الإيمانية ولم يدخر وسعا فى اتخاذ التدابير اللازمة لعلاج ذلك ، التى كان فى وسعه أن يتخذها فى عهده ، وتتجلى بصيرته هذه وعاطفته الإيمانية فى جميع أفراد جماعة المجاهدين التى تنتمى إليه ، والتى كان يقودها الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وابن أخ الشيخ الدهلوى النابغة العظيم الشيخ إسماعيل الشهيد ، فى أروع مظاهرها وأجلى صورها ، كما تتجلى مشاهدها الرائعة فى حروب الشيخ ولايت على العظيم آبادى ، والشيخ يحيى على الصادق بورى ، والشيخ أحمد الله ، والشيخ عبد الله ضد الإنكليز على الحدود ، وفى تلك التضحيات الجليلة التى قام بها الصادقون من صادق بور والتى لا يوجد لها نظير إلا بصعوبة (٢٤) .

ثم انتقلت هذه العاطفة من هذه الجماعة المجاهدة المناضلة إلى أولئك العلماء والقادة الدينيين الذين خاطروا فى سبيلها بمهجهم وأرواحهم عام ١٨٥٧ م ، وقد اشتهر منهم الشيخ أحمد الله شاه المدراسى ، والشيخ لياقات على الإله آبادى ، والشيخ إمداد الله المهاجر المكى ، والحافظ ضامن الشهيد ، ثم انتقلت إلى أولئك العلماء الذين ما تركوا هذا المشعل يخبو يوما ، ولم تزل تتصل حلقات هذه السلسلة إلى ١٩٤٧ م .

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا ﴾ .

تربية رجال العمل والجهاد :

أما ما يتعلق بتربية رجال الجد والجهاد الذين يقومون - حسب مقتضيات العصر والأوضاع ومتطلبات الدين الحقيقية - بأعمال الدعوة والإصلاح ويرفعون راية الجد والجهاد، فإن من حسن الحظ ، والحكمة الإلهية البالغة أن نصيب الشيخ الدهلوى من ذلك أكبر وأعظم من كثير من سلفه ومشايخه ، ومن أولئك الرجال الذين يمكن أن تكون منزلتهم عند الله - تعالى - أعلى وأفضل (والقرائن تدل عليه) فقد وفقه الله - تعالى - لتربية عدد من الرجال الأكفاء ذوى الصلاحية الفائقة والهمة العالية والعزيمة الصارمة

---

(٢٤) انظر للتفصيل كتاب المؤلف « إذا هبت ريح الإيمان » ص : ١٨٩ - ٢٠٠ طبع دار القلم الكويت ومؤسسة الرسالة .

والتأثير فىالنفوس والقلوب الذين أحدثوا ثورة عظيمة فى حياة الآلاف المؤلفة من الناس ، وكأنهم أمسكوا بقرن كامل وحفظوه من السقوط والانهيار ، لقد كان نهر علم الشيخ الدهلوى وحياته هادئا ساكنا ، ولكنه كان كما يقول الدكتور إقبال :

« من هذا النهر تتصاعد تلك الأمواج الطاغية المتلاطمة التى تحطم أوكار التماسيح وتجعل عاليها سافلها » .

الإمام أحمد بن عرفان الشهيد :

يكفى لإثبات هذه الدعو أن يذكر اسم خليفته الأجل الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٠١ - ١٢٤٦ هـ) الذى قاد فى شبه القارة الهندية تلك الحركة الإسلامية العظيمة التى لا يوجد لها نظير فى شمولها وقوة تأثيرها ومشابهتها للدعوة الإسلامية الأولى ، والمنهج النبوى الكريم ، لا فى القرن الثالث عشر الهجرى فحسب ، الذى هو عهدها بل لا نعثر فى عدة قرون ماضية على مثل هذه الحركة الإيمانية والجماعة القوية المنظمة للرجال المخلصين الصادقين ، وأن ذلك النشاط الذى قام به فى مجال تصحيح العقائد وتربية الرجال والدعوة والتذكير والتضحية والجهاد الطويل العريض ، لم يقتصر تأثيره على ساحة حربه ونضاله والجيل المعاصر له ، بل ترك آثارا بارزة عميقة خالدة على الأجيال القادمة ، والركب القادم لدعاة الحق والصدق ورجال الفكر والجهاد وقادة الحركة الإسلامية والخدمة لهذا الدين الحنيف ، وهو الذى بدأ بالجهود الموفقة والمحاولات الجادة للدفاع عن الهند والبلدان المجاورة لها وحمايتها إزاء السلطة الناهضة المتزايدة للمستعمرين الإنكليز ، وتأسيس الحكومة الإسلامية على منهاج الخلافة الراشدة ، وقد كان زمام القيادة لهذه الحركة والنشاط ، والجدّ والجهاد فى الهند ، أولا بأيدى علماء هذه الجماعة وقادتها المخلصين ، وتدين بجهودهم الحركة الجديدة فى مختلف بقاع الهند للتصنيف والتأليف والبحث والتحقيق والترجمة والنشر (التى ردمت ذلك الخليج الواسع العميق الواقع بين عامة المسلمين وبين التعاليم الإسلامية الصحيحة والكتاب والسنة) كما أن اليقظة الدينية والسياسية فى المسلمين - بواسطة أو بدون واسطة - ليست إلا من ثمار هذه الدعوة والحركة ونتائجها الطيبة المباركة وقد أثرت هذه الحركة على الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامى واللغة والأسلوب المتداول أيضا ، وقامت بأعمال عظيمة جبارة فى إصلاح المجتمع والقضاء على التقاليد الجاهلية ، وإزالة الآثار الهندوكية ، والعودة إلى الحياة الإسلامية الصحيحة من جديد .

ونذكر - فيما يلى - لقياس ما كان لدعوة الإمام الشهيد وتربيته من تأثير وشمول وقوة وعمق - بعض المقتطفات من كتابات العلماء البصيرين المطلعين :

« يقول مؤلف الهند المعروف والمؤرخ الكبير العلامة السيد صديق حسن خان - والى بوفال - (م ١٣٠٧ هـ) - الذى كان من المشاهدين لآثار تربية الإمام الشهيد وتعليمه وإرشاده ، وعاصر عددا كبيرا ممن صحبوه أو شهدوه ، يقول فى كتابه « تقصار جيود الأحرار » :

« كان (السيد أحمد الشهيد) آية من آيات الله - تعالى - فى هداية الخلق ورجوعهم إليه ، وقد وصلت جماعات كثيرة وعالم بأسره ، بعنايته المعنوية والمادية إلى منازل الولاية ومدارج الإحسان ، وقد طهرت مواعظ خلفائه وخطبهم أرض الهند من ألواث الشرك والبدع وأقذائها ، وساروا بها على درب الكتاب والسنة ، ولا تزال بركات مواعظهم وتذكيرهم تسرى فى الوجود وتجرى (كالأنهار) » .

ويزيد قائلا :

« وبالجملة فإنه لم يسمع فى هذا العصر وفى أى بلد من بلدان العالم بمثل هذا العبقرى الفذ ، وإن ما فاض على خلق الله - تعالى - من هذه الجماعة القائمة بالحق من خير وفائدة وهداية ، لم يحصل عشر معشارها على أيدى علماء هذا العهد ومشايخه » (٢٥) .

ويقول أستاذ الأساتذة فى عصره العلامة الشيخ حيدر على الرامفورى الطوكى (م ١٢٧٣ هـ) تلميذ الشيخ عبد العزيز الدهلوى فى « صيانة الناس » :

« لقد أضاء نور هدايته وإرشاده كالسراج الوهاج فى البلاد وقلوب العباد ، وضرب السعداء المحظوظون إليه أكباد الإبل ، وشدوا إليه الرحال ، وتابوا على يديه من الإشراك والمناهى والبدع والمحدثات - التى كانوا قد اعتادوها ودرجوا عليها - وسلكوا سبيل التوحيد والسنة والرشاد ، وبعث خلفاءه الصادقين العاملين إلى أكناف البلاد البعيدة ، ومهد بهم لمئات الآلاف من الناس طريق الملة المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - فمن عقل ورشد ، وحالفه التوفيق والتأييد فقد اهتدى إلى هذا الطريق » (٢٦) .

ويقول أحد علماء الهند المطلعين الثقات الشيخ عبد الأحد - الذى زار عددا كبيرا من أفراد هذه الجماعات النيرة الصادقة ، وكان عهده قريبا من عهد الإمام الشهيد :

---

(٢٥) « تقصار جيود الأحرار من تذكار جنود الأبرار » (بالفارسية) ص : ١٠٩ - ١١٠ طبع بوفال عام ١٢٩٨ هـ .

(٢٦) « صيانة الناس عن وسوسة الخناس » ص : ٤ ، طبع عام ١٢٧٠ هـ .

« لقد أسلم على يدى السيد (أحمد الشهيد) أكثر من أربعين ألفا من الهنادك وغيرهم من الكفار ، وبايع على يديه ثلاثة ملايين من المسلمين ، وأما ما يجرى من سلسلة المبايعة على أيدى خلفاء خلفائه على وجه الأرض كلها ، فإنه يدخل عن طريقها فى بيعته مئات آلاف من الناس » (٢٧).

ويعتبره - لأجل هذه المأثرة الإصلاحية والتجديدة العظيمة - معظم أصحاب الفكر والبصيرة المنصفين مجدد القرن الثالث عشر الهجرى .

الشيخ عبد الحى البرهانوى والشيخ محمد إسماعيل الشهيد :

وامثال الثانى لتربية الشيخ عبد العزيز الدهلوى وتعليمه وإرشاده اثنان من تلامذته النجباء والأدنين من ذوى قرباه الشيخ عبد الحى البرهانوى ، والشيخ محمد إسماعيل الشهيد ، وقد كان الشيخ الدهلوى يعترف لهما بالعلم والفضل والتبحرفيه ، وقد وصفهما فى إحدى رسائله « تاج المفسرين وفخر المحدثين وأحد نوابغ العلماء المحققين » وقال فى رسالة كتبها إلى أحد أعيان لكنهو المنشى خير الدين .

«كلاهما لا يقلان عن هذا الفقير فى علم التفسير والحديث والفقه والأصول والمنطق وغيره ، وأن ما شملتها من عناية الله - تعالى - ورعايته - لا أستطيع أن أودى حق شكرها على ، فأعتبرهما من العلماء الربانيين وإذا استعصى عليك أشكال فأعرضه عليهما»(٢٨) .

---

(٢٧) انظر « سوانح أحمدى ، وانظر مزيدا من الشهادات وتصريحات الشيخ ولايت على العظيم آبادى (١٢٦٩ هـ) والشيخ كرامت على الجونفورى (١٢٩٠ هـ) فى رسالة المؤلف بعنوان الإمام الذى لم يوف حقه من الإعتراف والإنصاف » ، وانظر لسيرة الإمام أحمد بن عرفان ومناقبه وفضله بتفصيل سيد أحمد شهيد » للشيخ غلام رسول مهر (المجلدات ١ - ٤) و « سيرة السيد أحمد الشهيد » للمؤلف جـ : ١ و ٢ ، وأما ما حصل على أيدى خلفائه من هداية عامة وإصلاح كبير وما كان لهم من تأثير فيمكن أن يقدر شىء من ذلك من « الذكر الجلى فى كرامات السيد محمد على » (بالأردية) تأليف افسر الدولة جان جهان خان بن النواب محمد خان عالم خان بهادر تهور جنك طبع عام ١٣٠٥ هـ بمطبع مرغوب دكن ، سكندر آباد ، وهو فى سيرة خليفة الإمام الشهيد ، السيد محمد على الرامفورى ومناقبه وكراماته وما تم على يديه من هداية وإصلاح فى « مدراس » .

(٢٨) انظر « سيرة السيد أحمد الشهيد » جـ : ١ ، ص : ٢١٦ - ٢١٧ .

لقد كانت مكانة الشيخ عبد الحى العلمية - لدى أهل العلم والفضل - رفيعة ممتازة ، وكان عالى الكعب فى العلوم المتداولة ، ويفضله الشيخ الدهلوى فى علم التفسير على جميع تلامذته الآخرين ، وكان يقول : « إنه مثلى » وقد خاطبه فى إحدى رسائله إليه بلقب « شيخ الإسلام » الذى لم يدع به إلا بعض خاصة العلماء .

وأما الذى هو فوق تبحره العلمى ونبوغه العقلى والفكرى فهو ربانيته وإخلاصه ، حيث راجع الإمام الشهيد - رغم هذا العلم والفضل - الذى كان أصغر منه سنا بكثير ، وتتلمذ عليه فى العلم - فإنه لما بايعه لم يلبث أن انصبغ بصبغته ، وفداه بعلمه وفضله ، وأنفق كل ذلك عليه وعلى عمل الدعوة والجهاد ، ونذر قلمه ولسانه وكل ما آتاه الله - تعالى - من قوة صلاحية وكفاءة لنصر الحق وتمكينه ونشره وأسلم نفسه فى رحلته للهجرة والجهاد إلى بارئها الكريم وهكذا أصدق ما عاهد الله عليه .

وأما الشيخ محمد إسماعيل الشهيد ، فإنه من أولئك الأفراد الأفذاذ من أولى العزم وأصحاب الهمة العالية ، والذكاء الخارق ، والجراءة الكبيرة الذين لا يولدون إلا بعد عهود وقرون ، فقد كان يملك العقلية الاجتهادية ، ولا يكون من المبالغة والإسراف فى القول إذا قلنا بأنه كان يملك القدرة والكفاءة لتدوين كثير من العلوم من جديد ، وقد ذكره الشيخ الدهلوى فى إحدي رسائله إليه : « بحجة الإسلام » ويتجلى فى علمه ومؤلفاته لون الإمام الدهلوى ومنهجه ، وأسلوبه ، طراوة علم ، ولطافة استدلال واستشهاد ، ودقة نكات وسلامة ذوق ، وتفقها فى الكتاب والسنة واستحضارا عجيبا للمعلومات وقوة تعبير وبيان.

وإن من خصائصه الكبرى أنه خرج من ذلك النطاق المحدود للعلماء المدرسين الأذكياء ، الذين تعين لجماعتهم منذ أعوام بل منذ قرون ، ولم يدخل ساحة الجد والجهاد ، والإصلاح والإرشاد فحسب ، بل قاد فيها جيوشه وجحافله ، وأن ما قام به كتابه « تقوية الإيمان » وحده من نفع عظيم للخلق وتصحيح للعقائد والتصورات لعله لا يمكن أن تقوم به الجهود المنظمة فى إشراف حكومة من الحكومات إلا بجهد وصعوبة ، وقد كان الشيخ رشيد أحمد الكنكوهى ، يقول : « لقد صلح بجهود الشيخ إسماعيل فى حياته مائتا ألف وخمسون ألف من الناس ولا يمكن أن يقاس ما جرى بعده من نفع وفائدة عظيمة » .

وكان قد أعد نفسه - مع هذه المهمة العظيمة » للإصلاح والدعوة الشعبية العامة - للجهاد فى سبيل الله - تعالى - إعدادا كاملا ، ولم يكن قد أدى حق مرافقة الإمام الشهيد ومواكبته - الذى كان قد بايعه بيعة السلوك والجهاد - فحسب ، بل كان دوره فى هذه المهمة دور قائد للحركة ونائب للأمير ووزير له ، ثم أفنى نفسه في ذلك وحاز على شرف

الشهادة فى معركة بالاكوت وهؤلاء الذين يحق أن يقال فيهم :

« رهبان بالليل وفرسان بالنهار » .

الشيخ محمد إسحاق والشيخ محمد يعقوب :

لقد خلف الشيخ الدهلوى - فى ذوقه الخاص وتدريسه للحديث الشريف والاهتمام بأسانيده وإجازاته والقيام بنشر العلوم الدينية وتعميمها - سبطاه (ابنا بنته) الشيخ محمد إسحاق (١١٩٧ - ١٢٦٢ هـ) ،والشيخ محمد يعقوب ـ (١٢٠٠ ـ ١٢٨٢) وكانا ابنين للشيخ محمد أفضل ، وقد استخلف الشيخ الدهلوى الشيخ محمد إسحاق ووهبه جميع كتبه وبيته وغير ذلك ، فجلس بعد وفاة الشيخ الدهلوى على كرسى التدريس ، وانصرف من عام ١٢٣٩ هـ إلى ١٢٥٨ هـ بدلهى ، (العام الذى هاجر فيه إلى مكة المكرمة) ، ومن عام ١٢٥٨ هـ إلى ١٢٦٢ هـ فى الحجاز إلى خدمة الحديث الشريف وتدريسه والاستغراق فيه ، وقد قرأ عليه الحديث مئات من علماء الهند ، واستفاد منه كبارالعلماء وأساتذة الحديث الوافدون عليه من مختلف البلدان والأمصار ، وأسندوا عنه الحديث ، كان منهم الشيخ عبد الله سراج المكى ، وكبار العلماء الآخرون ، وقد كان الشيخ الدهلوى يشكر الله - تعالى - على أن رزقه العضدين القويين فى صورة الشيخ محمد إسماعيل (ابن أخيه) والشيخ محمد إسحاق (سبطه) وكان كثيرا ما يردد هذه الآية الكريمة :

﴿ الحمد لله الذي وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ .

وقد توفى الشيخ إسحاق الدهلوى فى ٢٧ / رجب عام ١٢٦٢ هـ بمكة المكرمة ودفن فى المعلاة بمقربة من مرقد أم المؤمنين السيدة خديجة - رضى الله عنها - [(٢٩)] .

ولم يزل الشيخ محمد يعقوب كذلك - مشتغلا بالتدريس والإفادة بدلهى مدة طويلة من الزمن ، ثم هاجر مع أخيه الأكبر الشيخ محمد إسحاق إلى مكة المكرمة عام ١٢٥٨ هـ واستوطنها واستفاد منه الأمير العلامة السيد صديق حسن خان القنوجى (أمير بوفال) [(٣٠)] ، والشيخ السيد أحمد النصير آبادى [(٣٠)] ، وخلق ، وانتقل الشيخ محمد يعقوب يوم الجمعة

---

(٢٩) انظر لترجمة « نزهة الخواطر » جـ ٧ .

(٣٠) ان ما قام به الأمير السيد صديق حسن خان من خدمة جليلة للحديث الشريف ونشر لكتبه ومصادره، وما تحولت ولاية بوفال - بعنايته وإشرافه - مركزا لدروس الحديث الشريف،وموطنا لمحدثى اليمن،من الحقائق التاريخية ومآثره الجليلة ،وأن طبع «فتح البارى» بمطبع بولاق بمصر ونشره الذى أنفق عليه ٥٠٠٠٠ ألف روبية منة عظيمة على العلماء وطلبة العلم ، ويرجع إليه السبق فيه .

(٣١) كان أحد الدعاة المصلحين فى سلسلة الإمام الشهيد ومن أسرته ، انظر لترجمته المفصلة : « نزهة الخواطر » جـ : ٧ .

٢٧ / ذى القعدة عام ١٢٨٢ هـ إلى رحمة الله - تعالى - ودفن فى المعلاة .

العلماء الأجلة والأساتذة الكبار :

إن العلماء الذين استفادوا من دروس الشيخ الدهلوى وتربيته وصحبته ، ثم أقاموا حلقات دروسهم ، وذاع صيتهم فى الآفاق ، ونفخوا فى النظام التعليمى الدينى روحا جديدة من الحياة ، ثم تخرج على أيديهم عدد كبير من العلماء الأجلاء ، نود أن نذكر - فيما يلى - أسماء من بعد صيتهم واعترف لهم القاصى والدانى بملكتهم القوية الممتازة فى التدريس وجمعهم بين المعقول والمنقول وتبحر علمهم وسعة معلوماتهم ، وقد كان كل واحد منهم مدرسة قائمة بذاته ، ومؤسسة علمية بمفرده ، وهؤلاء كالتالى :

١ - المفتى إلهى بخش الكاندهلوى .

٢ - الشيخ إمام الدين الدهلوى .

٣ - الشيخ حيدر على الرامفورى الطوكى .

٤ - الشيخ حيدر على الفيض آبادى ، صاحب « منتهى الكلام » .

٥ - الشيخ رشيد الدين الدهلوى .

٦ - المفتى صدر الدين الدهلوى [٣٢] .

ويمكن أن يقال - نظرا إلى هؤلاء النوابغ الأجلة والأساتذة الكبار ، ومن ذكر قبلهم من رجال الفكر والدعوة وأصحاب الهمة والعزيمة وقادة حركة الإصلاح والتجديد والجهاد فى سبيل الله - تعالى - الذين كانوا ينتمون إلى الشيخ الدهلوى - روحيا وعلميا ومعنويا - إن القرن الثالث عشر الهجرى كان قرن الشيخ الدهلوى فى تعليمه وتدريسه ، وإرشاده وتربيته للرجال الذين يتجمل بهم التاريخ وتغيرت بهم وجهة الأحداث ، « وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

وسنورد بعد الفراغ من ذكر الشيخ الدهلوى الذى هو كالنقطة المركزية فى دائرة سلسلة الإمام الدهلوى وواسطة العقد فى السلك النورانى لأبنائه وتلامذته - تراجم ابنى الإمام الدهلوى الآخرين وهما الشيخ رفيع الدين والشيخ عبد القادر ، وتراجم ثلاثة من خلفائه الكبار الشيخ محمد عاشق الفلتى ، والشيخ محمد أمين الكشميرى ، والسيد أبو سعيد

---

(٣٢) ليرجع لتراجمهم وأخبارهم نزهة الخواطر للعلامة السيد عبد الحى الحسنى جـ : ٧ .

الحسنى الرائى بريلوى ، وهى تراجم مقتبسة من « نزهة الخواطر » جـ / ٧ .

الشيخ رفيع الدين الدهلوى :

الشيخ الإمام العالم الكبير العلامة رفيع الدين عبد الوهاب بن ولى الله بن عبد الرحيم العمرى الدهلوى ، المحدث المتكلم الأصولى الحجة الرحلة ، فريد عصره ونادرة دهره ، ولد بمدينة دهلى ونشأ بها واشتغل بالعلم على صنوه عبد العزيز وقرأ عليه ولازمه وأخذ الطريقة عن الشيخ محمد عاشق بن عبيد الله البهلتى ، وبرع فى العلم ، وأفتى ودرس وله نحو العشرين ، وصنّف التصانيف وصار من أكابر العلماء فى حياة أخيه المذكور ، وقام مقامه فى التدريس ، بعد ما أصيبت عيناه ، فازدحم عليه الناس وتلقى كل واحد من تلك اللطائف على قدر الاستعداد واعترف بفضله علماء الآفاق وسارت بمصنفاته الرفاق .

قال صنوه عبد العزيز فيما كتب إلى الشيخ أحمد بن محمد الشروانى « هذا أوان الأخ الفذّ البذّ ، المتخلق من طيب الخلال بما طاب ولذّ ، الذى هو شقيقى فى النسب وحيقى فيما يظن بى الكرام من فنون العلم وشجون الأدب ، هو تلوى فى السن وصنوى فى الصناعة والفن ، قد رباه الله بمنح ألطافه على يدى ، ومنّ بتكميله علّى ، لما زارنى من مقامه بعد ما اغترب شطرا من أيامه اتحفنى برسالة وجيزة بل جوهرة عزيزة ، تحتوى على نكت مخترعة هو أبو بجدتها وتنطوى على فقر مفترعة لم يسبق إلى أسوتها ، مسوقة لتفسير كلام الله المجيد فى آية النور ، وكشف القناع عن وجوه تلك المعانى المقصورات من الإعجاز فى القصور ، ولعمرى لقد أتى فى هذا الباب بالعجب العُجاب ، وميزّ القشر عن اللُّباب ، ونورّ مصابيح زجاجات القلوب ، وروّح الأرواح ببديع الأسلوب » .

وقال محسن بن يحيى الترهتى فى « اليانع الجنى » وكانت له خبرة تامة بغير هذه العلوم أيضاً ، من علوم الأوائل ، وهذا قلما يتفق مثله لأهل العلم ، وله مؤلفات جيدة مرصفات، رأيت بعضها فرأيت يكثر في ما له من المتون المهذبة فى نفائس الفنون من رموز خفية ، يعسر الاطلاع عليها ويجمع مسائل كثيرة فى كلمات يسيرة وفى ذلك دلالة واضحة على تعمقه فى العلوم ودقة فهمه بين الفهوم ، وكتابه « دمغ الباطل » فى بعض المسائل الغامضة من علوم الحقائق معروف ، أثنى عليه أهلها ، وله مختصر جامع بيّن فيه سريان الحب فى الأشياء كلها وأوضح للناس أطواره يسمى « أسرار المحبة » قلما اتفق مثله لغيره ممن تكلم عليها ، ولا أعرف من سبقه إلى ذلك إلا رجلان من الفلاسفة أبو النصر الفارابى وأبو على بن سينا على ما يفهم من كلام النصير الطوسى فى بعض كتبه » .

وله مصنفات غير ما ذكرها الشيخ محسن ، وهى : رسالة فى العروض ، ورسالة فى مقدمة العلم ورسالة فى التاريخ ، ورسالة فى إثبات شقّ القمر وإبطال البراهين الحكمية على أصول الحكماء ، ورسالة فى تحقيق الألوان ، ورسالة فى آثار القيامة ، ورسالة فى الحجاب ، ورسالة فى برهان التمانع ، ورسالة فى عد الأنامل . ورسالة فى شرح أربعين كافات ، ورسالة فى المنطق ، ورسالة فى الأمور العامة ، وحاشية على «ميرزاهد رسالة» ، ومن مصنفاته : « تكميل الصناعة » كتاب عجيب قلما اتفق مثله لغيره ، وله غير ذلك من المؤلفات الجيدة ، وله تخميس على بعض القصائد لوالده .

وله قصيدة بليغة تدل على علو كعبه فى العلوم الفلسفية واقتداره على العربية عارض بها قصيدة الشيخ الرئيس أبى على بن سينا « العينية » التى تعرف بقصيدة الروح ، ومطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع

فأجاب عنها بقصيدة ، أولها :

عجبا لشيخ فيلسوف ألمعى ... حفيت بعينيه منارة مشرع

توفى رحمة الله فى حياة صنوه الكبير عبد العزيز لست ليال خلون من شوال سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وألف بمدينة دهلى ، فدفن بها خارج البلدة عند أبيه وجده (٣٣) .

الشيخ عبد القادر الدهلوى :

« الشيخ الإمام العالم الكبير العارف عبد القادر بن ولى الله بن عبد الرحيم العمرى الدهلوى أحد العلماء البارزين المبرّزين فى المعارف الإليهة ، اتفق الناس على ولايته وجلالته ، توفى والده في صغر سنه ، فقرأ العلم على صنوه الكبير عبد العزيز بن ولى الله وأخذ الطريقة عن الشيخ عبد العدل الدهلوى وجمع العلم والعمل والزهد والتواضع وحسن لسلوك ووضع الله سبحانه له المحبة فى قلوب عباده لما اجتمع فيه من خصال الخير، فصار مرجوعاً إليه فى بلدته ومرجوعا إليه بعلم الرواية والدراية وتهذيب النفوس والدلالة على معالم الرشد وطرائق الحق .

كان يدرس ويفيد ويسكن بالمسجد الأكبر آبادى فى دهلى ، قرأ عليه الشيخ عبد الحى بن مبة الله البرهانوى ، والشيخ إسماعيل بن عبد الغنى الدهلوى ، والشيخ فضل حق بن نضل إمام الخير آبادى ، ومرزا حسن على الشافعى اللكنوى ، والشيخ إسحاق بن أفضل

---

(٣٣) نزهة الخواطر ، جـ : ٧ .

العمرى الدهلوى المدفون بمكة المكرمة ، والسيد محبوب على الجعفرى والسيد إسحاق بن عرفان البريلوى وخلق كثير من العلماء .

ومن أعظم ما منَّ الله تعالى عليه أنه وُفّق لترجمة القرآن الكريم وتفسيره فى لغة أهل الهند ، قد اعتنى بها العلماء واتفقوا على أنه معجزة من معجزات النبى ﷺ ، قال السيد الوالد فى « مهر جهانتاب » : أن الشيخ عبد القادر رأى فى المنام قبل أن يُوفَّقَ لها أن القرآن نزل عليه ، فحكاه لصنوه عبد العزيز ، فقال له صنوه المذكور أن الرؤيا حق ولكن الوحى قد انقطع من زمن النبى ﷺ ، وتأويله أن الله تعالى يوفقك لخدمة القرآن بما لم تسبق إليه ، فحصلت له تلك المبشرة على صورة « موضح القرآن » ومن خصائصه أنه اختار لغة بحذاء لغة قاربت بما حازت فى العموم والخصوص والإطلاق والتقييد ، حتى أنها لا تجاوز عنها فى موارد الاستعمال وتلك موهبة إلهية وكرامة ربانية يختص بها من يشاء .

وإنى سمعت ورويت « موضح القرآن » عن جدتى لأمى السيدة حميراء بنت السيد علم الهدى الحسنى النصير آبادى ، عن بنت الشيخ عبد القادر ، من أبيها المصنف رحمه الله .

وكانت وفاته يوم الأربعاء لتسع عشرة خلون من رجب سنة ثلاثين ومائتين وألف بدهلى، فدفن عند والده ، وكان الشيخ عبد العزيز ورفيع الدين لا يزالان على الحياة ، فكان يوم موته من أنحس الأيام عليهما وكانا يقولان عند دفنه « إنا لا ندفن الإنسان بل ندفن العلم والعرفان » .

ومن عجائب الدهر ، أنه كان للشيخ ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى أربعة أبناء من بطن ارادة بنت السيد ثناء الله ، أكبرهم عبد العزيز ثم رفيع الدين ثم عبد القادر وأصغرهم عبد الغنى والد الشيخ إسماعيل الشهيد ، فمات أصغرهم عبد الغنى أولا ثم عبد القادر ثم رفيع الدين ثم أكبرهم عبد العزيز ، وكانوا كلهم من أجلاء العصر علما وعملا وإفادة وإفاضة إلا الشيخ عبد الغنى فإنه توفى فى عنفوان شبابه فوفق الله سبحانه ولده إسماعيل المذكور أن يتدارك ما فات والده (٣٤) .

الشيخ محمد عاشق البهلتى :

الشيخ العالم الكبير المحدث محمد عاشق بن عبيد الله بن محمد الصديقى البهلتى أحد كبار المشايخ يرجع نسبه إلى محمد بن أبى بكر الصديق -رضى الله عنه- بإحدى وعشرين

---

(٣٤) نزهة الخواطر ، جـ : ٧ .

اسطة ، اشتغل بالعلم من صباه ولازم الشيخ الأجل ولى الله بن عبد الرحيم العمرى دهلوى ، وكان ابن عمته ، فصحبه وأخذ عنه العلم والمعرفة وسافر إلى الحرمين الشريفين عه سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف ، فحج وزار وشاركه فى الأخذ والقراءة على أساتذة لحرمين ، أجلُّهم الشيخ أبو طاهر محمد بن إبراهيم الكردى المدنى وأجازه الشيخ أبو طاهر لذكور ، فبلغ رتبة لم يصل إليها أحد من أصحاب الشيخ ولى الله المذكور ، فى العلم المعرفة ، وصار صاحب سرّ الشيخ كما عبَّر به الشيخ أبو طاهر فى الإجازة ، فقال : إنه رآة كماله وخدين جميل خصاله ، انتهى ، وقال شيخه ولى الله مخاطبا له :

يحدثنى نفسى بأنك واصل إلى نقطة قصواء وسط المراكز

وأنك فى تيك البلاد مفخم بكفَّيك يوما كل شيخ وناهز

أخذ عنه الشيخ عبد العزيز وصنوه رفيع الدين والسيد أبو سعيد البريلوى وخلق كثير ، من مصنفاته : « سبيل الرشاد » كتاب بسيط بالفارسى فى السلوك ، ومنها « القول الجلى ى مناقب الولى » كتاب فى أخبار شيخه ولى الله ، ومنها شرح « دعاء الاعتصام » للشيخ لى الله فى الحقائق والمعارف ، ومن أعظم مآثره « تبييض المصفى شرح الموطأ » للشيخ لى الله المذكور تُوفِّى نحو سنة سبع وثمانين ومائة وألف ، يظهر ذلك من كتاب الشيخ د العزيز إلى السيد أبى سعيد البريلوى [٣٥] .

شيخ محمد أمين الكشميرى :

لقد كان الشيخ محمد أمين الكشميرى من خلفاء الإمام الأربعة الكبار [٣٦] ، الذين تشرت دعوته وتعاليمه على أيديهم ، يقول العلامة السيد عبد الحى الحسنى فى ترجمته فى نزهة الخواطر » (ج / ٦) :

« الشيخ العالم الكبير الشيخ محمد أمين الولى اللهى الكشميرى نجارا ، والدهلوى دارا ، ـان من أجلّة أصحاب الشيخ ولى الله بن عبد الرحيم العمرى الدهلوى ينتسب إلى

---

٣٥) نزهة الخواطر ، جـ : ٧ .

٣٦) يقول الشيخ عبيد الله السندى فى كتابه « التمهيد » : لا يتجاوز عدد من أدرك آراء الإمام الدهلوى ونظرياته بصورة متكاملة أربعة من أصحابه : ١ - ابن خاله الشيخ محمد عاشق الفلتى ، ٢ - جمال الدين الشاه محمد أمين الكشميرى ، ٣ - الشيخ نور الله البدهانوى ، ٤ - الشيخ أبو سعيد الحسنى البريلوى (انظر « شاه ولى الله أوران كى سياسى تحريك » (الإمام الدهلوى وحركته السياسية) للشيخ عبيد الله السندى ص : ١٧٣ - ١٧٤) .

شيخه ويعرف بالنسبة إليه ، وهو الذى أخذ عنه الشيخ عبد العزيز بن ولى الله بعد وفاة والده كما صرّح به الشيخ المذكور فى « العجالة النافعة » ، وفيه مفخرة عظيمة له ، وقد صنف له الشيخ ولى الله بعض رسائله ، توفى نحو سنة سبع وثمانين ومائة وألف ، يظهر ذلك من كتاب الشيخ عبد العزيز إلى الشيخ أبى سعيد بن محمد ضياء الحسنى البريلوى ، الذي سافر للحج ووصل إلى مكة المباركة فى ربيع الأول سنة ١١٨٧ هـ ، ورجع إلى الهند سنة ١١٨٨ هـ ، كتبه بعد رجوعه عن الحرمين الشريفين وأخبره بوفاة الشيخ محمد أمين[٣٧] .

ومما يدل على مكانة الشيخ محمد أمين الكشميرى الخاصة لدى الإمام الدهلوى ، أنه توجد أربعة رسائل فى « كلمات طيبات » كتبها الإمام الدهلوى إليه ، وتحتوى على معارف وحقائق جليلة .

وقد كان للإمام الدهلوى – عدا هؤلاء الخلفاء الأربعة – خلفاء آخرون ، لم نعثر على تراجمهم بالتفصيل ، كان منهم الحافظ عبد النبى المعروف بعبد الرحمن ، الذى كانت له -كما يبدو- صلة قوية بالإمام الدهلوى [٣٨] .

السيد أبو سعيد البريلوى :

السيد الشريف أبو سعيد بن محمد ضياء بن آية الله بن الشيخ الأجل علم الله النقشبندى البريلوى ، أحمد علماء الربّانيين ، وُلِد ونشأ ببلدة راى بريلى وقرأ العلم على ملا عبد الله الاميتهوى ، ثم بايع عمه السيد محمد صابر بن آية الله النقشبندى ، واشتغل بأذكار القوم وأشغالها مدة من الزمان ، ثم رحل إلى دهلى ولازم الشيخ ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى وأخذ عنه ، ولما توفى الشيخ ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى وأخذ عنه ، ولما توفى الشيخ ولى الله تحسس فى نفسه شيئا فلازم صاحبه الشيخ محمد عاشق بن عبيد الله البهلتى وأخذ عنه ، وكتب له محمد عاشق المذكور الإجازة ، قال فيها : إن السيد التقى النقى ، العارف بالله الولى الحميد ، السيّد أبو سعيد كان قد صحب شيخنا الأجل ولى الله المحدث رضى الله عنه ، وأخذ عنه بعض أشغال الطريقة ، ومارسها وداوم عليها حتى انفتح عليه ببركة توجه الشيخ باب أسرار اللطائف اليقينية البارزة منها والكامنة ، فظهرت عليه أحوالها وآثارها وحصل له الشهود الذى عند القوم أتم المقصود،ثم لما انتقل الشيخ إلى

---

(٣٧) نزهة الخواطر ، جـ : ٦ ، ص : ٢٨٦ .

(٣٨) انظر مجلة « برهان » مقال مسعود أنور العلوى ، عدد سبتمبر وأكتوبر عام ١٩٨٣ م .

دار الرضوان بدا له أن يأخذ من الفقير ما بقى من أشغال الطريقة النقشبندية والقادرية والجشتية ، وغيرها من طرق المشايخ الصوفية ، وأن يدخل فى الطريقة بالطريق المتوارث بين الصوفية ، فلما رأيته مشغوفا فى ذلك أسعفت له المرام خوفا من حديث الإلجام ، فلقنّته تلك الأشغال ، فلما شاهدت فيه آثارها وأنوارها ووجدته متمكنا فيها أجزته بعد الاستخارة لإرشاد الطالبين وتسليك السالكين ، وأخذ البيعة فى تلك الطرق جميعا وألبسته الخرقة الفقرية الفخرية إلباس إنابة وإجازة ، كما أجازنى وألبسنى شيخنا الأجل ، وكما أجازنى وألبسنى العارف بالله الشيخ عبيد الله بما وصل إليه من آبائه الكرام ومشايخه العظام، وأيضا أجزته لدرس التفسير والحديث والفقه والتصوف بعد المطالعة ومراجعة الشروح ودرس النحو والصرف ، وأيضا أجزته لتصريف الآيات والأسماء وأعمال الشيخ فى الحوائج المشروعة ، وأجزته لجميع ما فى « القول الجميل فى بيان سواء السبيل » ولجميع ما فى « الانتباه فى سلاسل أولياء الله » من الأشغال والأعمال .

والسيد أبو سعيد كان شيخا جليل الوقار عظيم الهيبة ، كريم النفس ، مسدى الإحسان ومقرى الضيفان ، سافر إلى الحجاز مع أصحابه ووصل إلى مكة المباركة لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين ومائة وألف ، فسعدبالحج وسافر إلى المدينة المنورة وأقام بها ستة أشهر وسمع « المصابيح على الشيخ أبى الحسن السندى الصغير ، وكان جالسا تجاه المرقد المنور للنبى المطهر عن زيغ البصر « فرآه كأنه خرج من الحجرة المباركة وبدا كتفاه أولا ثم ظهر له الجسد المطهر وجلس قدامه وتبسم ، قال صاحبه الشيخ أمين بن الحميد الكاكوروى فى رسالته : أن الشيخ أبا سعيد كان يقول : إنى رأيت رسول الله ﷺ فى المدينة المنورة بعين رأسى ، ثم رجع إلى مكة المباركة وقرأ الجزرية على الشيخ محمد ميرداد الأنصارى ورحل إلى الطائف ، ثم إلى الهند ودخل مدراس فأقام بها زمانا ، ورزق حسن القبول فى تلك الناحية وانتفع به الناس وأخذوا عنه ، منهم الشيخ الحاج أمين الدين بن حميد الدين الكاكوروى ، والشيخ عبد القادر الخالص بورى ، والمير عبد السلام البدخشى، والشيخ ميرداد الأنصارى المكى ، ومولانا جمال الدين بن محمد صديق قطب، ومولانا عبد الله الآفندى ، والشيخ عبد اللطيف الحسينى المصرى وخلق آخرون ، مات فى تاسع رمضان سنة ثلاث وتسعين وألف ببلدة رائى فدفن بها [٣٩] .

---

(٣٩) نزهة الخواطر ، جـ : ٧ .

معاصر الإمام الدهلوى الشيخ المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

لقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمى الحنبلى (١١١٥ هـ - ١٢٠٦ هـ - ١٧٠٣ م - ١٧٩٢ م) أحد المعاصرين الكبار للإمام الدهلوى والمصلحين العظام ، ومن علماء نَجْد الممتازين وأصحاب الدعوة والعزيمة فيها ، فهو بالنظر إلى سنة ولادته يقارب الإمام الدهلوى فى سنة (٤٠)، ولكنه بالنظر إلى سنة وفاته متأخر عنه بثلاثين سنة ، ورغم هذه المعاصرة وكثير من الأمور المشتركة بينهما لم نعثر على معرفة الإمام الدهلوى به وتعرفه عليه فضلاً عن مقابلته ولقائه ، وقد كان الإمام الدهلوى سافر للحج عام ١١٤٣ هـ ومكث فى الحجاز أكثر من عام واحد ، وهذه هى الفترة التى كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحركته فيها منحصرتين محدودتين فى منطقة عُيينة والدرعية من نجد، ولم يكن قد بايعه الأمير محمد بن سعود - حينذاك - ولا وقعت بينهما اتفاقية على القيام بنشر هذه الدعوة وإقامة الحكومة عل أساسها ومساندتها وتأييدها ، بل كانت هذه الاتفاقية عام ١١٥٨ هـ التى أصبحت الدرعية نتيجة لها مركزا لهذه الدعوة وعاصمة دينية لحكومتها ، وقد عرفت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى الحجاز وكتب لها التأثير والنفوذ حين استولى آل سعود على مكة المكرمة عام ١٢١٨ هـ بعد وفاة الشيخ باثنتى عشرة سنة ، وبعد وفاة الإمام الدهلوى باثنتين وأربعين سنة .

وقد كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وجهاده وجهوده العظيمة تدور حول الدعوة إلى التوحيد الخالص والردّ على مظاهر الشرك واستئصال التقاليد والطقوس الجاهلية (التى كان لبعض مظاهرها وشعائرها الظهور والانتشار - لبعد العهد عن زمان النبوة ، والجهل العام وغفلة العلماء فى بعض القبائل والأماكن من المنطقة الشرقية فى الجزيرة العربية (٤١) - وتدور حول توضيح الفرق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، وشرح حقيقة التوحيد الذى طلبه الله - تعالى - من عباده ، ودعا القرآن الكريم إليه دعوة صريحة واضحة ،وتنقيحها ، وما حصل للشيخ فى هذا الصدد من النجاح لا يوجد له نظير فى الدعاة والمصلحين فى العهود الماضية ، وإن كان - حسب ما يقول الدكتور أحمد أمين -يرجع ذلك- إلى حد كبير - إلى قيام حكومة (وهى الحكومة السعودية) على أساسها

(٤٠) ولد الإمام الدهلوى عام ١١١٤ هـ ولذلك فهو أكبر من الشيخ بسنة واحدة .

(٤١) انظر للتفصيل كتاب الأستاذ مسعود عالم الندوى « الشيخ محمد بن عبد الوهاب » المصلح المفترى عليه » وكذلك الكتب الأخرى التى ألفت فى سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهى كثيرة .

وتبنيّهـا لهذه الدعوة ، وتشجيعهـا لها وإشـرافها عليـها [٤٢]،ولكن مما لا يقـبل الجـدل والاختلاف أن الـشيخ محمـد بن عبد الوهاب قام – فى هذا الصـدد – بدور مصلح ثورى عظيم ، ومـهمـا خالفـه بعض الناس فى بعض أفكـاره وآرائه وأسلوبه فى عرض الدعـوة ومنهجه ولم يوافقـه مائة فى مائة الا أنه لا يمكن انكار تأثير هذه الدعوة وفـائدتها والحاجة إليها فى تلك الظروف الخاصة .

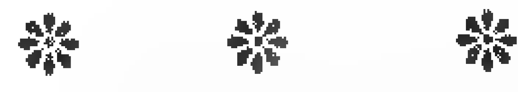
وأما ما يـتعلق بتوضيح عـقيدة التوحـيد وتنقيحـها ، وإثباتها بالقـرآن الكريم ، وشرح الفوارق بين توحـيد الألوهيـة وتوحيد الربوبـية ، فإن هنالك شـبهاً كـبيـراً بين آراء الشيخ وتحقيـقاته وبحوثه وآراء الإمام الدهلوى وتحقـيقاته وبحوثه ، وليس هذا إلا نتيـجة الدراسة العميـقة المباشرة للقرآن الكريم وتدبره ، والمعـرفة الدقيقة الواسـعة بالكتاب والسنة ، وهى التى أدت بشيخ الإسلام ابن تيمية فى عصـره وكبار الدعاة والمصلحين والعلماء المحققين فى عصورهم إلى نتائج مشابهة متقاربة ، ودفـعتهم إلى تبليغ التوحيد الخالص والدعوة الجريئة الواضحة إليه .

ولكن دائرة أعمال الإمام الدهلوى الإصلاحية والتجديدية أوسع وأشمل من ذلك بكثير ، فإنها تضم بين جوانبها إحيـاء العلوم الإسلامية وتجديد الفكر الإسلامى والكشف عن أسرار الشريعة ومقاصدها ، والمأثرة العلمية لعرض التـعاليم الدينية والشريعة الإسلامية فى صورة متناسقة شاملة ، ومقـاومة الجمود والتحجر العلمى والعصبية الشـديدة للمذاهب الفقهية ، والعـمل الاجتهـادى للتطبـيق بين العقل والنقل والتـوفيق بين المـذاهب الفقـهية الأربـعة ، والمحاولات الجادة للحفاظ على السلطة الإسلامـية فى الهند ، والدراسة العميقة للأحاديث النبوية الشريفة والجهـود التجديدية لنشرها وتعميمها ، والدعوة إليـها ، والدعوة إلى تزكية النفوس وإصلاح القلوب ، والوصول إلى درجة الإحسان وتعليم طرقها ومناهجها ، وتربية الرجال الأكفاء ، ومع كل ذلك يتميز الإمام الدهلوى برقة وحنان وقوة عاطفة كانت – على حد تعبير محمد إقبال الشعـرى – كوجود ماء زمزم الرقيق الفياض فى أرض الحجاز الصلبة الحجرية ، وبذلك يجمـع بين صلابة عقيدة التوحيـد وحنان القلب ، وهو أثر من آثار بيئة الإمام الدهلوى وتربيـته الروحية الخـاصة ، ويمكن أن نشاهد أمـثلته فى قصائده ومـدائحه النبوية – على ممدوحها الصلاة والسلام – .

---

(٤٢) راجع زعماء الإصلاح فى العصر الحديث .

ولذلك فإنه من المناسب أن تكون هناك دراسات مقارنة بين الإمام الدهلوى وبين شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية ، والبحث عن نقاط الاتفاق والاختلاف بينهما بدلا من الدراسة المقارنة بين الإمام الدهلوى والشيخ محمد بن عبد الوهاب -رغم جهوده العظيمة المشكورة- وتتبع نقاط التشابه والاتفاق بينهما ، لأنهما - أى المتقدمى الذكر - يبدو بينهما الشىء الكثير من وجوه التشابه فى تبحرهما العلمى وبلوغهما درجة الإمامة والاجتهاد فى علوم الكتاب والسنة ، وسعة النظر وعمق التفكير وتنوع الأعمال الإصلاحية والتجديدية ، وعظمة الشخصية وعبقريتهما - وقد تقدمت إليها إشارات فى مواضع متفرقة من الكتاب - رغم الاختلاف الطبيعى الذى هو نتيجة البيئة والتعليم والتربية ، واختلاف العهد والمكان ، والسلوك والتربية الروحية الباطنية .



الباب الثانى عشر
مؤلفات الإمام الدهلوى

الكتب والرسائل :

نذكر - فيما يلى - قائمة مؤلفات الإمام الدهلوى الصغيرة والكبيرة ، والفارسية والعربية حسب ترتيب حروف المعجم :

(ا) : ١ - الأربعين (بالعربية) . ٢ - الإرشاد إلى مهمات علم الإسناد (بالعربية). ٣ - إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء (الفارسية) . ٤ - أطيب النغم فى مدح سيد العرب والعجم (بالعربية) . ٥ - ألطاف القدس (الفارسية) . ٦ - الإمداد فى مآثر الأجداد (بالفارسية) . ٧ - الانتباه فى سلاسل أولياء الله (بالفارسية) . ٨ - إنسان العين فى مشايخ الحرمين (بالفارسية) . ٩ - الإنصاف فى بيان أسباب الاختلاف (بالعربية) . ١٠ - أنفاس العارفين (بالفارسية) .

(ب) : ١١ - البدور البازغة (بالعربية) ، ١٢ - بوارق الولاية (بالفارسية) .

(ت) : ١٣ - تأويل الأحاديث (بالعربية) ، ١٤ - تحفة المؤحدين (بالفارسية) . ١٥- تراجم أبواب البخارى (بالعربية) ، ١٦ - التفهيمات الإلهية (بالعربية والفارسية).

(جـ) : ١٧ - الجزء اللطيف فى ترجمة العبد الضعف (بالفارسية) .

(حـ) : ١٨ - حجة الله البالغة (بالعربية) ، ١٩ - حسن العقيدة (بالعربية) .

(خـ) : ٢٠ - الخير الكثير : (بالعربية) .

(د) : ٢١ - الدُرُّ الثمين فى مبشرات النبى الأمين (بالعربية) . ٢٢ - ديوان الشعر العربى .

(ر) : ٢٣ - رسالة فى الرد على رسالة الشيخ خواجه خورد عبد الله بن عبد الباقى . ٢٤ - رسالة الحكمة (بالفارسية) .

(ز) : ٢٥ - الزهراوين .

(س) : ٢٦ - سطعات (بالفارسية) . ٢٧ - سرور المحزون (بالفارسية) .

(ش) : ٢٨ - شرح تراجم أبواب صحيح البخارى (بالعربية) . ٢٩ - شفاء القلوب

(بالفارسية) . ٣٠ - شوارق المعرفة (بالفارسية) .

(ع) : ٣١ - العطية الصمدية فى الأنفاس المحمدية (بالفارسية) ، ٣٢ - عقد الجيد فى أحكام الاجتهاد والتقليد (بالعربية) (العقيدة الحسنة : انظر حسن العقيدة) .

(ف) : ٣٣ - فتح الرحمن (بالفارسية . ٣٤ - فتح الخبير (بالعربية) . ٣٥ - فتح الودود لمعرفة الجنود (بالعربية) . ٣٦ - الفضل المبين فى المسلسل من حديث النبىّ الأمين ﷺ (بالعربية) . ٣٧ - الفوز الكبير (بالفارسية) . ٣٨ - فيوض الحرمين (بالعربية) .

(ق) : ٣٩ - قرة العينين فى تفضيل الشيخين (بالفارسية) . ٤٠ - القول الجميل فى بيان سواء السبيل (بالعربية) .

(ك) : ٤١ - كشف الغين عن شرح الرباعيتين (بالفارسية) .

(ل) : ٤٢ - لمعات (بالفارسية) .

(م) : ٤٣ - المقالة الوضيئة فى الوصية والنصيحة (بالفارسة) . ٤٤ - المقدمة السنية فى الانتصار للفرقة السنّية (بالعربية) . ٤٥ - المقدمة فى قوانين الترجمة (بالفارسية) . ٤٦ - المسوى من أحاديث الموطأ (بالعربية) . ٤٧ - المصغى (بالفارسية) . ٤٨-المكتوب المدنى (بالعربية) . ٤٩ - مجموعة رسائل فى مناقب الإمام البخارى وفضل ابن تيمية (بالفارسية والعربية) .

(ن) : ٥٠ - النبذة الإبريزية فى اللطيفة العزيزية (بالفارسية) . ٥١ - النوادر من أحاديث سيد الأوائل والأواخر (بالعربية) .

(هـ) : ٥٢ - همعات (بالفارسية) . ٥٣ - هوامع شرح حزب البحر (بالفارسية) .

محتويات الكتاب

الفهرس

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
الباب السابع	
جهود الإمام الدؤوبة	٧١٩
المنهج الصحيح	٧٢٤
الرسائل الدعوية	٧٢٨
المعجبون بالإمام السرهندى	٧٣٦
تأثير الإمام السرهندى	٧٣٧
تأثير السلطان جهانكير	٧٣٨
السلطان محى الدين	٧٤٣
الباب الثامن	
قيام خليفتى الإمام السرهندى	٧٥٣
السلسلة الأجنبية	٧٦٧
مؤلفات الإمام السرهندى ورسائله	٧٧٣

محتويات الكتاب